

دولة الإسلام في الأندلس

تأليف

محمد عبد الله غنيان

العصر الثالث

عصر المرابطين والموحدين
في المغرب والأندلس

القسم الثاني

عصر الموحدين
وانهيار الأندلس الكبرى

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الثانية

١٤١١ هـ = ١٩٩٠ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدير

تناولنا في القسم الأول من هذا الكتاب، تاريخ الدولة المرابطية بالمغرب والأندلس ، منذ وفاة عاهلها ومؤسسها يوسف بن تاشفين في سنة ٥٥٠ هـ (١١٠٦ م) ، حتى سقوطها بعد ذلك بنحو أربعين عاما ، وقيام الدولة الموحدية ، على يد داعيتها وإمامها المهدي ابن تومرت ، واستكمال فتوحها ، وتوطد دعائمها بالمغرب والأندلس ، على يد أول خلفائه ، عبد المؤمن بن علي ، مؤسس الدولة الموحدية الكبرى .

وفي هذا القسم الثاني من الكتاب ، نتناول عصر الموحدين في المغرب والأندلس ، ونعرض تاريخ الدولة الموحدية الكبرى ، منذ بداية عهد ثاني خلفائها ، أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في سنة ٥٥٨ هـ (١١٦٣ م) ، حتى انحلالها وسقوطها في عهد آخر خلفائها إدريس الملقب بأبي دبوس ، وذلك في سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) ، وهي حقبة تزيد على قرن من الزمان ، وهي حقبة حافلة بعظائم الحوادث والتطورات ، سواء في المغرب أو الأندلس .

وبالرغم من أن الأندلس لم تكن في ظل الدولة الموحدية ، سوى قطر من أقطارها العديدة ، يتبع المغرب وحكومة مراكش ، حاضرة الدولة الرئيسية ، فإنها لبثت محتفظة بأهميتها السياسية والعسكرية ، واستقلالها المعنوي والحضاري ، ومن ثم فقد خصصنا تاريخ الأندلس ، وتاريخ صراعها مع الدول النصرانية الإسبانية ، في هذه المرحلة الطويلة من تاريخ الموحدين ، بما يستحقه من العناية والإفاضة ، ومضينا في استعراضه في ظل الحكم الموحدى ، حتى قيام الدولة اليهودية المتوكلية ، في شرق الأندلس وأواسطها ، ثم قيام مملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام بالأندلس ، على يد مؤسسها العبقري محمد بن الأحمر النصرى ، وأفضنا القول ، بنوع خاص ، فيما نزل بالأندلس ، في هذه الفترة الملهمة من تاريخها ، من النوائب والحن ، بسقوط قواعدها الكبرى ، التي أذكت لوعة الشعر الأندلسي ، وأملت على أبي الطيب الرندى مرثيته الشهيرة التي مطلعها :

لكل شيء إذا ماتم نقصان فلا يغربطيب العيش إنسان

وراعينا في سرد أدوار هذه المأساة المشجية ، من تاريخ دولة الإسلام في الأندلس ، أن نبرز تفاصيل المأساة الأندلسية كاملة ، على ضوء مصادرها العربية والقشتالية ، وأن نصل بها إلى حيث بدأنا تاريخ مملكة غرناطة في كتابنا « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين » ، وهو خاتمة هذه السلسلة الطويلة من عصور التاريخ الأندلسي ، التي استغرقت من حياة مؤلفها أكثر من ربع قرن من الزمان. وقد عنيانا في كل من عصرى المرابطين والموحدين حسبما نوهنا في مقدمة الكتاب ، أن نتحدث في نهاية كل عصر ، عن طبيعة نظم هذا العصر وخصائصه ، وعن الحركة الفكرية الأندلسية خلاله . وقد تحدثنا في القسم الأول من هذا الكتاب ، عما يخص العصر المرابطي من ذلك ، وسوف نحاول أن نتحدث في خاتمة هذا القسم ، عن نظم العصر الموحدى ، وعن سير الحركة الفكرية الأندلسية خلاله وان لم يكن ذلك بما كنا نبغى من التفصيل والإفاضة . ذلك أن الميدان شاسع ، يستوعب المجلدات ، وهو ليس في الواقع إلا تاريخ الحضارة الأندلسية ، التي يقتضى استعراض مراحلها العظيمة الوضاعة ، جهوداً شاقة ، لم يسعفنا الوقت والجهد ببذلها. وعنيانا في هذا القسم أيضاً - عصر الموحدين - بتقديم طائفة من الخرائط والصور الأثرية ، والرسوم الهامة ، منها رسوم لميادين بعض المواقع التاريخية التي شهدناها بأنفسنا ، ودرسناها على الطبيعة حسبما أشرنا إل ذلك في مقدمة الكتاب وفيها صور لعدد من الآثار الموحدية الأندلسية التي مازالت قائمة حتى يومنا ، وأشهرها وأروعها جميعاً صومعة جامع المنصور (لاخير الدا) لؤلؤة إشبيلية الأثرية . ونحن نرجو ، وقد من الله علينا آخر الأمر ، وبعد أن قضينا هذه الأعوام الطويلة في ارتياد المعاهد والديار بالأندلس والمغرب ، وذرفنا الدمع غير مرة على أطلال الإسلام بالأندلس ، وقمنا بعديد الرحلات في طلب المصادر الأصلية واستقصائها ، وجمعنا من ذلك أغزر مادة يمكن الظفر بها - نرجو الله بعد ذلك كله ، أن نكون قد وفقنا إلى أداء هذه الرسالة العلمية الحليلة التي اتخذناها شعاراً لحياتنا منذ خمسة وعشرين عاماً ، على وجه يرضى العلم والتاريخ ؛ ومثل هذا التوفيق ، أن تحقق الرجاء ، يكون لنا خير جزاء لما بذلناه خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن ، من جهود مضمينة في سبيل تحقيق هذه الغاية الكبرى .

محمد عبد الله عياد

القاهرة في : جادى الأولى سنة ١٣٨٤
الموافق : سبتمبر سنة ١٩٦٤

九

وَقَدْ بَعَثْنَا فِيهِمَا رِجَالًا مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ وَفِيهِمَا
 كَلَامٌ مِنَ الْمُنْصَرِفِ وَأُتِيَ الْبَيْتَ وَمَا
 كَانَ مِنَ الْبَيْتِ وَكَانَ مِنَ الْبَيْتِ وَكَانَ مِنَ الْبَيْتِ

[illegible]

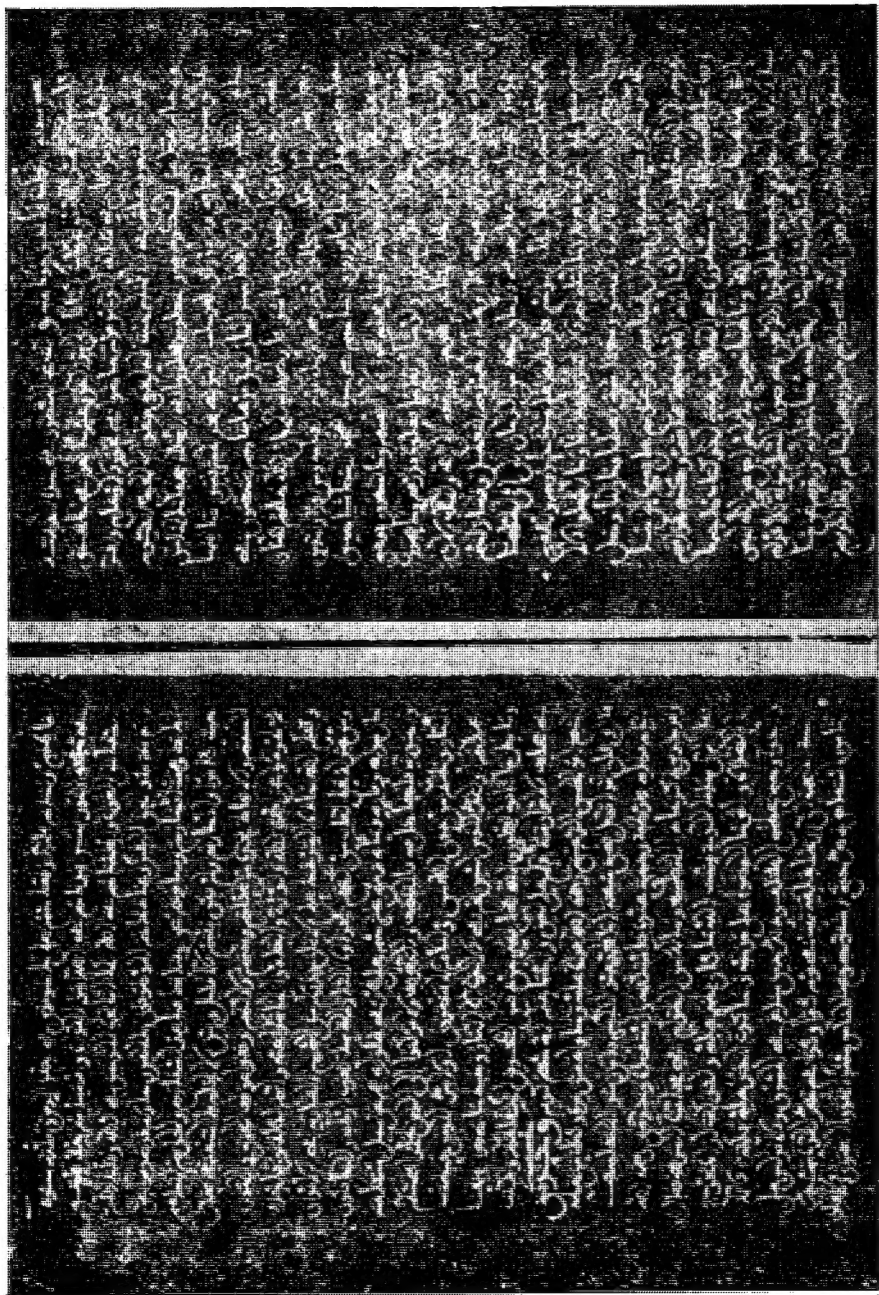
و نظروا اليه بالليل خروا وان ذكروا فيه ذكرا عظيما

١٠٠
 ١٠١
 ١٠٢
 ١٠٣
 ١٠٤
 ١٠٥
 ١٠٦
 ١٠٧
 ١٠٨
 ١٠٩
 ١١٠
 ١١١
 ١١٢
 ١١٣
 ١١٤
 ١١٥
 ١١٦
 ١١٧
 ١١٨
 ١١٩
 ١٢٠
 ١٢١
 ١٢٢
 ١٢٣
 ١٢٤
 ١٢٥
 ١٢٦
 ١٢٧
 ١٢٨
 ١٢٩
 ١٣٠
 ١٣١
 ١٣٢
 ١٣٣
 ١٣٤
 ١٣٥
 ١٣٦
 ١٣٧
 ١٣٨
 ١٣٩
 ١٤٠
 ١٤١
 ١٤٢
 ١٤٣
 ١٤٤
 ١٤٥
 ١٤٦
 ١٤٧
 ١٤٨
 ١٤٩
 ١٥٠
 ١٥١
 ١٥٢
 ١٥٣
 ١٥٤
 ١٥٥
 ١٥٦
 ١٥٧
 ١٥٨
 ١٥٩
 ١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠

اصطفا الى قصير من مبع كل من وعلما
هو العار ولا فلاح عنة

[illegible]

١٠٠
 ١٠١
 ١٠٢
 ١٠٣
 ١٠٤
 ١٠٥
 ١٠٦
 ١٠٧
 ١٠٨
 ١٠٩
 ١١٠
 ١١١
 ١١٢
 ١١٣
 ١١٤
 ١١٥
 ١١٦
 ١١٧
 ١١٨
 ١١٩
 ١٢٠
 ١٢١
 ١٢٢
 ١٢٣
 ١٢٤
 ١٢٥
 ١٢٦
 ١٢٧
 ١٢٨
 ١٢٩
 ١٣٠
 ١٣١
 ١٣٢
 ١٣٣
 ١٣٤
 ١٣٥
 ١٣٦
 ١٣٧
 ١٣٨
 ١٣٩
 ١٤٠
 ١٤١
 ١٤٢
 ١٤٣
 ١٤٤
 ١٤٥
 ١٤٦
 ١٤٧
 ١٤٨
 ١٤٩
 ١٥٠
 ١٥١
 ١٥٢
 ١٥٣
 ١٥٤
 ١٥٥
 ١٥٦
 ١٥٧
 ١٥٨
 ١٥٩
 ١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠



صفحتان من الجزء الخامس من مخطوط « كتاب الذيل والتكملة » لابن عبد الملك المراكشي المحفوظ بالمتحف البريطاني برقم ٧٩٤٠ ، وهما تفهيمان بداية نص المنشور الموحدي الذي صدر عن الخليفة بمقرب المنصور ضد الفيلسوف ابن رشد

الفصل الأول

عصر الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

ولاية أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخلافة . تخلف بعض إخوته عن بيعته . موقف السيد أبي سعيد والى قرطبة والتوجس منه . مسير السيد أبي حفص إليه . اللقاء بين الأخوين في جبل الفتح . عود التفاهم والصفاء . رواية أخرى عنبيعة أبي يعقوب يوسف . ولاية السيد أبي حفص للوزارة . الثورة في غارة وإخمادها . حملة لإمداد الأندلس . عبور قوات موحدية جديدة إلى الأندلس بقيادة السيد أبي حفص . مسيرها لمقاتلة ابن مردنيش . استيلاؤها على أندوجر . زحفها على بسطة ثم لورقة . استيلاؤها على حصن بلج . خروج ابن مردنيش لقتال الموحدين . مسير الموحدين إلى مرسية . فزولهم في فحص الجلاب . قدوم ابن مردنيش في قواته . الاشتباك بين الفريقين . عنف المعركة واضطرابها . هزيمة ابن مردنيش وفراره إلى مرسية . مسير الموحدين في أثره . تخريبهم لأحوار مرسية . إدريس بن جامع يتولى الوزارة للخليفة أبي يعقوب . عود الثورة إلى منطقة غارة وإخمادها . احتلال الموحدين للأماكن المفتوحة في ولاية مرسية . عود القوات الموحدية إلى الأندلس . عود السيد أبي حفص إلى مراکش . خروج الخليفة لاستقبال أخيه . وصف للاحتفالات التي نظمت لذلك . المآدب والصلوات . تعيين ولاية الأندلس . اتخاذ الخليفة للعلامة . رسالة الخليفة إلى أخيه السيد أبي سعيد والى قرطبة . الحث فيها على وجوب التدقيق في أحكام الإعدام وإراقة الدماء . عود الثورة إلى غارة واستفحالها . مسير القوات الموحدية لإخمادها وفشلها في ذلك . مسير الخليفة بنفسه لمقاتلة الثوار . منازلة الثوار في جبال غارة . تمزيقهم ومقتل زعيمهم ، عود الخليفة إلى مراکش . رسالة الفتح . الثورة في جبل تاسررت وإخمادها . غزو والى غرناطة لحصن لبة واقتحامه . خطر البرتغال على قواعد الغرب . ملكها ألفونسو هنريكيث وأطاعه . تحالفه مع القوات الصليبية ومسيره لمهاصرة أشبونة . منعها وتفاني المسلمين في الدفاع عنها . ضغط الحصار وثلث الأسوار . المعركة الأخيرة . اقتحام النصارى للمدينة . الفتك بأهلها المسلمين واسترقاقهم . استيلاء البرتغاليين على شنترين . استيلاؤهم على قصر الفتح . غزوهم لباجة وتخريبها . جيرالدو سمبافور وغاراته على قطاع بطليوس . وصف ابن صاحب الصلاة له ولأعماله . غزوه لمدينة ترجاله . استيلاؤه على قاصرش وحصون منتانجش وشربه وجمالية . انشغال الموحدين بقتال ابن مردنيش وبفتنة غارة . تجديدبيعة الخليفة وتعليه . أقوال ابن صاحب الصلاة . كتاب الخليفة في ذلك . إنعام الخليفة واعطاؤه . تعيين السيد أبي إسحق لولاية قرطبة . إغارة جند ابن مردنيش النصارى على وادي شليل . مسير والى قرطبة لقتالهم ونجاحه في تمزيقهم . افتتاح الموحدين لثغر طيرة . مقدم فرناندو رديجس إلى إشبيلية وطلبه محالفة الموحدين . سفره إلى مراکش وتعاهده مع الخليفة على الإخلاص في محالفته . الصلح بين فرناندو ملك ليون والموحدين . المنافسة بينه وبين ألفونسو هنريكيث . تعريف الرواية الإسلامية به .

معاونة الموحدين له في مقاتلة صاحب طليطلة .

لما توفي الخليفة عبد المؤمن بن علي بمحلته بثغر سلا في ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٥٨ هـ (١٥ مايو سنة ١١٦٣ م) خلفه على الأثر ، ولده السيد أبو يعقوب يوسف ، وعقدت له البيعة بمحلة أبيه في يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة ، وتولى تنظيمها أخوه شقيقه السيد أبو حفص عمر ، والشيخ أبو حفص عمر الهتاتى كبير أشياخ الموحدين ، تنفيذاً لوصية الخليفة الراحل ، وذلك حسباً فصلناه فيما تقدم^(١) . وكان الخليفة الجديد عند ولايته فتي في الخامسة والعشرين من عمره ، وكان مولده يتنمّل في الثالث من شهر رجب سنة ٥٣٣ هـ ، وأمه حرة هي زينب بنت الفقيه القاضي موسى بن سليمان الضرير التينملى^(٢) من أصحاب خمسين . ولما كملت البيعة سار الخليفة الجديد من سلا إلى مراكش ، ونزل قصر الخلافة ، وتولى الشيخ أبو حفص وعظ الموحدين على اختلاف مراتبهم ، وحثهم على التزام فروض الطاعة . ثم أعلنت وفاة الخليفة الراحل ، وحمل جثمانه إلى تينمّل ، حيث ووري إلى جانب إمامه المهدي ابن تومرت .

ولم يتخلف عن بيعة أبي يعقوب يوسف ، سوى بعض أشياخ الموحدين وثلاثة من الإخوة ، هم السيد أبو الحسن علي ، والسيد أبو محمد والى بجاية ، والسيد أبو سعيد والى قرطبة . فأما السيد أبو الحسن فقد كان حاضراً ليلة وفاة أبيه ، وعقد البيعة لأخيه ، ولما عاد من تينمّل بعد مواراة الخليفة الراحل ، لزم العزلة ، وبرّحت به عوامل الغيرة والحقد ، حتى مرض وتوفي غير بعيد وذلك في أواخر سنة ٥٥٨ هـ . وأما السيد أبو محمد عبد الله والى بجاية ، فقد لزم عاصمة إمارته ، وكتب الخليفة تردد إليه بالاستعطاف والاستدعاء ، وهو يتمهل ، ويرد بالاعتذار والاستعداد للرحيل ، واستمر في هذا التردد والتسويق نحو عام ونصف ، وأخيراً اعتزم أمره ، وغادر بجاية في حاشيته ، قاصداً إلى مراكش ، فأدرسته

(١) وذلك في الفصل الرابع من الكتاب الثالث (ص ٣٩٤) .

(٢) المراكشى في المعجب ص ١٣٢ ، وروض القرطاس ص ١٣٤ ، ويسمى والدته أبي يعقوب عائشة ، والحلل الموشية ص ١٢٠ ، وابن الخطيب في الإحاطة ، (مخطوط الإسكوريال رقم ١٦٧٣ الغزيرى ، لوحة ٣٩٥) .

المنية في الطريق (سنة ٥٦٠ هـ) فأسف أخوه الخليفة لفقده ، وشمل أهله وبنيه بعطفه ورعايته . ونظر فيما يجب لضبط شئون بجاية حتى يعين لها وال جديد .

وكان تخلف السيد أبي سعيد مثار التوجس ، ومختلف الأقاويل ، لأنه كان بوجوده في رئاسة الأندلس ، الشطر الثاني من الإمبراطورية الموحدية ، وبما يسيطر عليه بها من الموارد والقوى ، حرياً بأن تحدثه نفسه بالخروج والعصيان .

ومن ثم فقد بعث أخوه الخليفة لاستدعائه ثلاثة من الحفاظ الموحدين هم أبو عبد الله ابن أبي إبراهيم ، وأبو يحيى بن أبي حفص ، وأبو الربيع سليمان بن داود ، فلما وصلوا إلى قرطبة ، تمارض السيد أبو سعيد ، ولم يستطيعوا مقابله إلا بصعوبة ، ولم يحصلوا منه إلا على وعود غامضة . ولما عاد هذا الوفد إلى مراکش ، ولم يتحقق ما وعد به السيد أبو سعيد من القدوم ، وكثر التوجس والإرجاف من موقفه ، اعتزم السيد أبو حفص عمر أن يسير بنفسه إلى استدعاء أخيه ولقائه في جبل الفتاح (جبل طارق) . فغادر مراکش في فاتحة ربيع الأول سنة ٥٦٠ هـ في جملة من أشياخ الموحدين ، منهم أبو يحيى بن أبي حفص ، وأبو يعقوب بن نخت ، وإسحق بن جامع ، ويوسف بن وانودين ، وجماعة من زعماء ثوار الأندلس منهم سيدرأى بن وزير ، وابن الفخار صاحب لبلة ، وجماعة من أشياخ لمتونة ومسوفة ، ومعه قوة من نحو أربعة آلاف فارس ، خصصت لإمداد قوات الأندلس وتعزيزها . ولما وصل الركب إلى سلا ، تقدم الجند للعبور إلى الأندلس ، وأقام بها السيد أبو حفص شهراً ، بعث خلاله إلى أخيه السيد أبي سعيد بقرطبة يخبره بمسيره إلى رويته ، وبأن يكون اللقاء بينهما في جبل الفتاح . ولما وصل ركب السيد إلى طنجة ، استقل منها سفينة أقلته مع كاتبه عبد الملك بن عيَّاش وبعض خاصته إلى سبتة ، وسارت بقية الركب إلى سبتة ، بطريق البر . وفي اليوم التالي لوصول السيد أبي حفص إلى سبتة ، وصلت من الجزيرة الخضراء سفينة ، أعلن من فيها وصول السيد أبي سعيد في خاصته وأشياخه إلى جبل الفتاح في انتظار أخيه ، فعبّر السيد أبو حفص وصحبه البحر في نفس اليوم إلى جبل الفتاح . ويقول لنا عبد الملك بن صاحب الصلاة ، وقد كان من شهود هذا الحفل ، ومن حملة الوافدين ، أولاً وآخراً ، إن اجتماع الأميرين قد تم على خير ما يرجى ، بين قرع الطبول ونشر البنود ، والسرور بالورود . وجاءت وفود قرطبة ، وغرناطة وإشبيلية وغيرها من قواعد الأندلس ، وكان على رأس وفد إشبيلية الفقيه الحافظ ابن الجند ، والقاضي أبو بكر

الغافقي ، وصاحب الخزن محمد بن المعلم . وجلس السيد أبو حفص وأخوه السيد أبو سعيد في قصر الجبل لاستقبال الوفود ، فتعاقبت في السلام ، وإلقاء الخطب ، وأنشد الشعراء قصائدهم ، على نحو ما حدث أيام مقدم الخليفة عبد المؤمن ، ودامت إقامة الأميرين بالجبل خمسة عشر يوماً ، أغدقت فيها « الأعطيات والبركات والكمى » . وصفا الجو ، وارتفع الإرجاف ، ثم انصرفت الوفود ، وعبر السيدان أبو حفص وأبو سعيد كل في صحبه ، البحر إلى سبتة ، وأقاما بها ثلاثة أيام ريثما عبرت بقية الركب من الجبل ومن الجزيرة الخضراء ، ثم سار السيدان إلى مراكش ، فتلقاها أخوهما الخليفة أبو يعقوب يوسف خارج الحضرة ، وكان اجتماعاً بهجاً ، ساده البشر والحبور ، وكان وصول السيد أبي حفص وأخيه السيد أبي سعيد إلى مراكش في أول شهر رجب سنة ٥٦٠ هـ ، فاستقبل الجميع بالحضرة أروع استقبال ، وأنشد الشعراء تهنيتهم ومدائحهم . وهكذا تم التفاهم والتعاطف بين الخليفة وأخيه ، وأسبل الستار بذلك على ما كان يحيط بموقف السيد أبي سعيد من التوجس والإرجاف^(١) .

هذا وقد اعتمدنا فيما تقدم ذكره عن تولية الخليفة أبي يعقوب يوسف وبيعته ، وما حدث عن تخلف بعض إخوته عن بيعته ، على ما ذكره مؤرخا الموحدين المعاصران ، البيهقي وابن صاحب الصلاة ، باعتباره أوثق ما يمكن الاعتماد عليه في هذا الشأن^(٢) . بيد أنه توجد إلى جانب ذلك رواية أخرى مفادها أن البيعة التي عقدت لأبي يعقوب عقب وفاة أبيه الخليفة عبد المؤمن ، لم تكن بيعة تامة ، إذ تخلف عنها بعض أشياخ الموحدين ، وبعض إخوته ، وأنه لذلك اكتفى باتخاذ لقب الأمير حتى تكمل بيعته ، وصرفت الحيوش التي كانت مجتمعة للجهاد ، وعاد إلى مراكش ، فأقام بها ، وكتب إلى جميع عمالاته بالمغرب وإفريقية والأندلس في طلب البيعة ، فوردت إليه من سائر النواحي ، ما عدا قرطبة التي كانت لنظر

(١) لحصنا ما تقدم عن رواية ابن صاحب الصلاة في كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين (مخطوط أكسفورد السالف ذكره) لוחات ٤٨ إلى ٥٧ ، وأضربنا عن نقل ما أورده ابن صاحب الصلاة من مختلف قصائد المديح والتهنئة . وراجع في ذلك أيضاً « البيان المغرب » القسم الثالث ، وهو يلخص كذلك عن ابن صاحب الصلاة (ص ٥٩ - ٦٢) .

(٢) الأول في كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ٨٤ ، والثاني في كتاب « المن بالإمامة » لوجه ٤٥ .

أخيه السيد أبي سعيد عثمان ، وبجاية التي كانت لنظر أخيه السيد أبي محمد عبدالله .
وفي سنة ٥٥٩ هـ ، وفد عليه أخواه السيد أبو سعيد ، والسيد أبو عبد الله ، كل في
أشياخ إمارته ، طائعين تائبين ، وقدما إليه البيعة ، وبذلك كملت بيعته . وذكر
القاضي أبو الحجاج يوسف بن عمر ، وهو من قضاة عبد المؤمن ومن مؤرخي
الموحدين ، أن أبا يعقوب يوسف بويغ بيعة الجماعة وانفقت الأمة على بيعته
في اليوم الثامن من ربيع الأول سنة ٥٦٠ هـ ، وذلك بعد وفاة أبيه بعامين ، وبعد
أن بايعه أخوه السيد أبو سعيد والى قرطبة ، وتسمى من ذلك الوقت بأمر
المؤمنين ، بعد أن كان يتسمى بالأمر (١) .

وتولى السيد أبو حفص منذ البداية شئون الحجابة لأخيه السيد أبي يعقوب
« على معنى الوزارة والإمارة » بتنفيذ الأوامر السلطانية باسمه وعن أمره ،
على نحو ما كان عليه عند أبيه الخليفة عبدالمؤمن من تولى شئون وزارته . والظاهر
مما توكدته لنا الرواية من أن السيد أبا حفص كان يزاول سلطته عن رضى من
أخيه السيد أبي يعقوب ، وأن علائق الأخوين كان يسودها الصفاء والمحبة ، أن
السيد أبا حفص ، كان في منصبه يزاول سلطة مطلقة ، وأنه كان هو الخليفة
الفعلى ، وأنه لم يترك لأخيه السيد أبي يعقوب سوى مظاهر الإمارة الشكلية . وكان
الوزير لإدريس بن إبراهيم بن جامع وهو من قرابة المهدي ، يمثل بين أيديهما
لرفع المسائل ، وتوصيل رغبات الوافدين والسائلين ، وكان يؤدي دوره في
تنظيم الصلة بين الأمرين ، وفي التوسط بينهما ، ببراعة وكياسة (٢) . بيد أن
السيد أبا حفص لم يمتكث في منصبه هذا سوى فترة قصيرة لم تطل سوى عامين ،
وانفرد بشئون الحجابة والوزارة من بعده الوزير ابن جامع (٣) .

وفي بداية عهد أبي يعقوب في سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) وقعت ثورة محلية
في منطقة غمارة ، بزعماء مزبدغ الغمارى الصنهاجى من صنهاجة مفتاح ،
فتغلب على تلك المنطقة ، والتفت حوله جموع غفيرة من غمارة ، وصنهاجة ،

(١) راجع روض القرطاس ص ١٣٧ .

(٢) ابن صاحب الصلاة في كتاب « المن بالإمامة » (المخطوط السالف الذكر لوحة ٤٨ ب)
وكذلك البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٥٩ .

(٣) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ٧١ أ ، والمعجب ص ١٣٧ ، والبيان
المغرب القسم الثالث ص ٦٥ .

وأورية ، وضرب السكة باسمه ، ثم سار إلى أراضى تاودا ، على مقربة من فاس ، وعاث فيها وقتل كثيراً من أهلها ، فسير الخليفة أبو يعقوب لقتاله جيشاً موحدياً بقيادة يوسف بن سليمان . وفي رواية البيهقي أن الموحدين قاتلوا مزيردغ ، حتى بددت قواته ، وأذعن للتوحيد ، ثم سمح له بأن يجوز إلى الأندلس ، وهناك نزل بقرطبة . لكن صاحب روض القرطاس ، يقول لنا بالعكس إن الثائر قتل وحمل رأسه إلى مراکش^(١) .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى الحملة التي جهزها السيد أبو حفص لإمداد قوات الأندلس ، وذلك حين سيره لمقابلة أخيه أبي سعيد بجبل الفتح . وقد عبرت هذه الحملة ، وقوامها نحو أربعة آلاف فارس ، معظمهم من العرب ، البحر بقيادة الشيخين أبي سعيد بن الحسن ، وأبي عبد الله بن يوسف ، وسارت توالي إشبيلية . وأرسل منها نحو خمسمائة فارس إلى مدينة بطليوس لتعزيز حاميتها ، وتصادف أن كانت ثمة قوة من النصاري من أهل شنترين تغير على تلك المنطقة ، فقاتلها الفرسان الموحدون ومزقوا شملها ، وأنفوا معظمها . وسار الشيخان أبو سعيد وأبو عبد الله ببقية العسكر من إشبيلية إلى قرطبة لتعزيز جبهتها الدفاعية ، إزاء هجمات ابن مردنيش . وماكاد الموحدون يستريحون قليلاً ، حتى خرجوا إلى أحواز قرطبة ، وهناك التقوا في وادي « لك » القريب منها يجمع من عسكر ابن مردنيش ، وهم الذين ينتهم مؤرخ الموحدين « بالأشقياء » ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة ، أبلى فيها الموحدون أحسن البلاء واستمر القتال بينهما طوال اليوم على شرب الماء ، وافتراقاً دون حسم ، وكان ذلك في شعبان سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٥ م) . وبعث الشيخان أبو سعيد وأبو عبد الله بأنباء المعركة إلى مراکش ، ووصفا ما لقيناه في القتال من هول ومشقة ، وطلباً العون والإنجاد ، فاهتم لذلك السيد أبو حفص وجهز في الحال جيشاً من الموحدين والعرب ، وخرج من مراکش في قواته ومعه أخوه السيد أبو سعيد عثمان والى قرطبة ، في أوائل شهر رمضان ، وأسرع في السير وعبر البحر ، ووصل بجموعه إلى إشبيلية ، وهناك اجتمع بزعماء الموحدين ، وقر الرأي على محاربة ابن مردنيش في عقر أراضيه قبل أن يبادرهم بمهاجمة قرطبة^(٢) .

(١) راجع أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٢٤ ، وروض القرطاس ص ١٣٧ .

(٢) ابن صاحب الصلاة في كتاب « المن بالإمامة » لوحة ٥٧ ب ١٥٨ .

وخرجت القوات الموحدية من إشبيلية في أول شهر ذى القعدة سنة ٥٦٠ هـ ، وسارت نحو الشمال الشرقي معرجة على قرطبة ، حتى وصلت إلى أندوجر ، وهي من معاقل ابن مردنيش التي تهدد سلامة قرطبة . فهاجمتها واستولت عليها في الحال عنوة ، وبادر أهل الحصون المجاورة إلى إعلان الطاعة وطلب الأمان . وأغار الموحدون على أحواز أندوجر واستولوا على كثير من السبي والغنائم . ثم حشد السيد أبو حفص صفوة جنده من الموحدين والعرب وسار من أندوجر جنوبا ، قاصداً إلى مرسية ، من طريق السهل ، فوصل إلى مشارف مدينة بسطة ، دون أية مقاومة ، وجنده تعيث في تلك المنطقة ، وتنزع الأقوات وتستاق الماشية ، وهناك على مقربة من بسطة وافته حشود غرناطة ومنهم فرقة من الرماة ، وسار الجيش الموحدى بعد ذلك صوب لورقة ، ماراً بحصن بلج أو بلبش^(١) وهو من أهم معاقل ابن مردنيش في تلك المنطقة ، فسلم قائده العزفى وأصحابه بالأمان ، ووضعت به حامية موحدية^(٢) .

وكان محمد بن سعد بن مردنيش أثناء ذلك قد حشد قواته ، ومنها جمع كبير من النصارى ، وخرج من مرسية يزعم اعتراض الموحدين عند لورقة ، ويحول دون سلوكهم منها إلى مرسية ، فلما رأى الموحدون صعوبة اختراق هذا الطريق الجبلى الوعر تحولوا إلى غرب لورقة ، وانحدروا إلى السهل المسمى « بالفندون » وهو السهل الواقع بين لورقة وقرطاجنة ، وهو من أخصب بقاع هذه المنطقة ، ثم اخترقوا السهل نحو مرسية . وهذا ما ورد في خطاب الفتح الذى أرسل فيما بعد إلى مراکش . ولكن البيذق يقول لنا بالعكس إن الموحدين غلبوا على لورقة ، وقرطاجنة وبلتش ، ووحد أهلها ، وأن ابن مردنيش حينما قدم إلى لورقة كان بها الموحدون^(٣) .

وكان ابن مردنيش في تلك الأثناء قد ارتد بجنده نحو مرسية من الطريق الجبلى . فلما كان يوم الجمعة السابع من ذى الحجة سنة ٥٦٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ١١٦٤ م) ، أشرف الموحدون عند الظهر على فحص مرسية ، على بضعة أميال منها ، ونزلوا

(١) هو المسمى بالإسبانية Vélez Rubio .

(٢) وردت تفاصيل سير الحملة الموحدية في خطاب الفتح الذى أرسل إلى مراکش بعد موقعة فحص الجلاب ونقله إلينا ابن صاحب الصلاة وسأق على ذكره .

(٣) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٢٦ .

موضع فيه يعرف « بفحص الجلاب ». وهناك أشرف ابن مردنیش بقواته قبائلهم ، فنظم الموحدون قواتهم من أهل هرغة وتينملل وهتانة وجدميوه وباقي القبائل الموحدية ، كما نظم الجند العرب من بني هلال ورياح والحشميين والرعيثيين وحرس الأمير الأسود . ويبدو من خطاب الفتح السالف الذكر أن جيش الموحدين كان يضم عندئذ زهاء اثني عشر ألف مقاتل غير حامية غرناطة ، من ذلك نحو أربعة آلاف هي التي كانت تحت إمرة الشيخين أبي سعيد وأبي عبد الله ، وثمانية آلاف هي جملة الحملة التي عبر بها السيد أبو حفص وأخوه . وأما جيش ابن مردنیش فلم تذكر لنا الرواية جملة ، ولكنها تقدر من كان به من النصاري المرتزقة بثلاثة عشر ألف مقاتل (١) .

وتعاهد الموحدون على الصدق والثبات والصبر ، والاستشهاد في سبيل الله . وبدأ ابن مردنیش الهجوم فانقضت قواته أولاً على الجند العرب ، ثم تحول إلى مهاجمة الموحدين ، فهاجمهم مرتين متواليتين ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة ، قاتل فيها الموحدون والعرب أشد قتال وأروع ، واستمرت حتى مغيب الشمس ، ورجحت كفة الموحدين في النهاية ، ففتكوا بجيش مردنیش ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وسقط في الموقعة شيوخ العرب السبعة فيمن سقط من الموحدين ، وارتد ابن مردنیش في فلول قواته إلى تل قريب إلى أن دخل الليل ففر مسرعاً إلى مرسية ، وامتنع بداخلها . وفي صباح اليوم التالي الثامن من شهر ذي الحجة (١٦ أكتوبر) ، سار الموحدون إلى مرسية ، حتى اقتربوا منها ، ونزلوا بساحتها ، وأمضوا بها عيد الأضحى ، وخرجت سرياتهم تدمر أحوازها وغياضها ، ومنها بساتين ابن مردنیش البانعة ، مدى أيام ، حتى امتلأت أيديهم بالغنائم والأقوات ، ووصلت طلائعهم إلى أوريولة وألش . وبعث السيدان أبو حفص وأبو سعيد إلى أخيهما الخليفة أبي يعقوب بمراكش بكتاب الفتح والبشرى ، من إنشاء الكاتب أبي الحسن بن عياش ، فوصل إلى الحضرة في الثالث والعشرين من ذي الحجة ، وقرئ على سائر الحاضرين من الأشياخ ، والطلبة ، ثم قرئ بعد ذلك بالمسجد الجامع على كافة الناس (٢) .

(١) نشرنا في الفصل الثاني خريطة ملكة الشرق ومواقع غزوات الموحدين لها

(٢) أورد لنا ابن صاحب الصلاة تفاصيل الغزوة الموحدية لأندوجر ، وسير الموحدين إلى مرسية ، وموقعة فحص الجلاب في كتاب « المن بالإمامة » المخطوط السالف الذكر لوحة ٥٨ إلى لوحة ٦٠ ب . كما أورد لنا نص الخطاب الذي أرسل بالفتح إلى مراكش (لوحة ٦٠ ب إلى لوحة ٦٣ أ) -

وكانت هزيمة فحص الجلاب من أقسى الضربات التي أصابت ابن مردنيش ، وكانت بداية انحلال ثورته ، وانهار سلطانه في شرقي الأندلس .

وحدث في مراکش خلال ذلك أعنى في عام ٥٦٠ ، وفي أثناء غياب السيد أبي حفص بالأندلس ، حدث هام ، هو تولي الخليفة أبي يعقوب يوسف لسلطانه المباشر ، واختصاصه للوزير أبي العلاء إدريس بن جامع بتدبير الشئون وتقريبه إياه ، واختار ابن جامع لمعاونته صفوة من رجاله المخلصين ، في مقدمتهم الخطيب أبو الحسن الإشيلي ، وأبدى في منصبه كفاية وغيرة ونزاهة ، وبذل في تصريف الأمور وإقامة العدل ، وتوطيد السكينة والأمن ، جهوداً مشكورة ، حتى كان الراكب وفقاً لقول المؤرخ « يسير حيث شاء من بلاد العدو في طرقها من جبلها وسهلها آمناً في نفسه وماله لا يخاف إلا الله » . وأحسن لمن وفد عليه واستغاث به ، من أجناد الأندلس المضامين أو المأسورين ، يفتديهم بماله ، ويهبهم الخيل وآلات الحرب والكساء ، وأسبغ رعايته على الموحدين المقيمين ، وعلى طلبة الحضرة الوافدين إلى العاصمة ، وفرض الزكاة على حكم الكتاب والسنة ، وأنفقها في وجوهها المشروعة (١) .

وحدث في هذا العام أيضاً أن عادت الفتنة إلى منطقة غمارة ، وعادت بعض بطون صنهاجة إلى نقض الطاعة بقيادة سبع بن منقاد . فخرج إليهم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ، في حملة من الموحدين ، سارت إلى جبال غمارة ، وضيق على الثوار ، حتى أذعنوا إلى طلب الأمان تائبين ضارعين ، معلنين للطاعة والخضوع (٢) . بيد أنه كان ، كما اسرى ، خضوعاً خادعاً مؤقتاً .

على أثر انتصار الموحدين في موقعة فحص الجلاب ، قام السيدان أبو حفص وأبو سعيد ، بوضع حاميات موحدية في الأماكن المفتوحة ، وتنظيم حكمها ،

= وتراجع أخبار موقعة فحص الجلاب أيضاً في روض القُرطاس ص ١٣٧ ، والبيان المغرب - القسم الثالث ص ٦٤ و ٦٥ ، وكذلك في Hulci Miranda : Imperio Almohade, V.I. p. 226 & 227 M. O. Remiro : Murcia Musulmana, p. 219- A P Ibars : Valencia Arabe, p. 541

(١) كتاب « المن بالإمامة » المخطوط المألف الذكر لوجه ٧١ أ ب ، وكذلك البيان المغرب القسم الثالث - ص ٦٥ ، و ٦٦ وهو ملخص من كتاب « المن بالإمامة » .
(٢) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٢٤ ، و « المن بالإمامة » لوجه ١٧٢ .

وضبط الأمور فيها ، ثم انصرفا من ظاهر مرسية ، في القوات الموحدية ، عائدتين إلى الأندلس . ولما وصلا إلى قرطبة ، تخلف بها السيد أبوسعيد بموافقة سابقة من أخيه الخليفة ، ليستأنف بها مهام منصبه في الولاية عليها ، وسار السيد أبو حفص إلى إشبيلية ، ثم عبر البحر إلى العدو ، عائداً إلى حضرة مراکش ، فوصل إليها في ضحى اليوم العاشر من ربيع الأول سنة ٥٦١ هـ .

ويقدم إلينا ابن صاحب الصلاة وصفاً ضافياً لاحتفال الخليفة أبي يعقوب باستقبال أخيه في ظاهر مراکش ، وما تلا ذلك من الحفلات والمآدب وتوزيع الصلوات . ولا بد لنا أن ننقل هنا موجزاً لهذا الوصف ، أولاً كنموذج لحفلات الابتهاج الموحدية ، وثانياً كنموذج لبعض نواحي الحياة الاجتماعية الرسمية ، التي يصفها لنا ابن صاحب الصلاة خلال روايته من آن لآخر .

يقول ابن صاحب الصلاة ، إن الأمير الإمام أبا يعقوب ، خرج بنفسه لاستقبال أخيه ، بعد أن كتب كتائبه المنصورة الحاضرين معه بحضرة مراکش ، وكسا حرسه الأسود بالثياب الزاهية ، واصطفت الفرسان المدرعة من الموحدين وغيرهم ، والرجال بالدورق والرماح ، وجعل الرايات خلف ركابه ، وحلة الطبول مع خاصة أصحابه ، وهو راكب جواده ، ووزيره أبو العلاء لإدريس ابن جامع راجل لصق ركابه ، وهو يحدثه ، ويصدر الأمير أوامره ، فينفذها الوزير ، ثم يرجع إليه ، وعلى عاتق الأمير رمح طويل . والتقى الأمير بأخيه في الساحة التي كانت قائمة عندئذ تجاه باب الشريعة ، فلما التقى الأميران ، تجاوبت الخيل بالحملات والحراب والطبول ، ثم نزل الأخوان كل عن فرسه ، والتقيا وتصافحا ، ثم سلم الناس الواصلون على الأمير وعلى من حضر ، ثم ركبوا إلى القصر العتيق في أعظم أبهة فوصلا إليه بعد العصر ، واجتمعا به . وفي اليوم التالي ، أقيمت المآدب الحافلة بالأطعمة والأشربة للموحدين والعرب الواصلين ، ولجميع المقيمين ، واستمر ذلك خمسة عشر يوماً . ثم وزعت الكسي من العائم والبرانس والآكسية . وتسلم كل فارس طبقاً كاملاً من الكساء يتكون من عفارة وعمامة وكساء وقسطية وشقة ، وأنعم على جميع الناس من الغازين والقاطنين وطلبة الحضر ، ووزعت عليهم الأعطية للمالية ، من الذهب والدرهم ، فخص الفارس سواء من الموحدين أو العرب ، عشرون ديناراً ، واكل من أعيان الموحدين وأشياخهم وكذلك أشياخ العرب ، مائة دينار ، وعم بذلك البشر والحبور ، واستمرت

الطبول في قرعها خمسة عشر يوماً ، ثم انصرف الغازون إلى قبائلهم (١) .
وكان أول ما عني به الخليفة أبو يعقوب بعد الانتهاء من هذه الحفلات ،
هو النظر في تعيين الولاية . وكانت بجاية وإشبيلية في مقدمة الولايات التي خلت
رياستها ، فقرر الخليفة بعد مشاورة أخيه السيد أبي حفص ، أن يعين لولاية
بجاية وأقطارها أخاه السيد أبا زكريا يحيى بن عبد المؤمن . فسار إليها من الحضرة
في فاتحة جمادى الأولى سنة ٥٦١ هـ ، ومعه جملة من أبناء الجماعة والحفاظ . وعين
لولاية إشبيلية الشيخ أبا عبد الله بن أبي إبراهيم إسماعيل ، أحد أصحاب المهدي
العشرة ، وعين له وزيراً لمعاونته هو أبو زكريا بن سنان ، وهو من أكابر علماء
الدعوة المهدية ، فغادر مراكش في صحبة من الحفاظ إلى مقر ولايته ، في
الحادي والعشرين من جمادى الآخرة ، ووصل إلى إشبيلية في أول شهر رجب .
وما كاد يصل إليها ، حتى كانت جماعة من نصارى شنترين ، قد اخترقت ولاية
الغرب ، ووصلت في غارتها إلى بلدة طلياطة ، الواقعة جنوبي شرقي لبلة .
فجهز الشيخ أبو عبد الله حملة لردهم من الحفاظ والعرب وجند إشبيلية ، بقيادة
أبي العلاء بن عزون ، فأدركتهم وهزمهم ، واستنقذت منهم الغنائم والأسرى ،
وأسرت جملة منهم . وبعث الوالي الجديد بنجر هذه الموقعة إلى الخليفة فسر به ،
وبعث إليه بشكره .

ولم يمض على انفراد الشيخ أبي عبد الله بولاية إشبيلية سوى أشهر قلائل ،
حتى عين الخليفة أخاه السيد أبا إبراهيم إسماعيل بن عبد المؤمن والياً لإشبيلية ،
فوصل إليها في أول شهر ذي الحجة سنة ٥٦١ هـ ، وتقرر أن يبقى معه الشيخ
أبو عبد الله ، على ما كان عليه ، وأن يتولى الشؤون العسكرية ، وتوثقت أواصر
المودة والتعاون بين الرجلين ، واستمر معاً في النظر في شؤون إشبيلية ، حتى
وصل أمر الخليفة بنذب الشيخ أبي عبد الله للقيام بولاية غرناطة وذلك في أواخر
شعبان سنة ٥٦٢ هـ ، فغادر إشبيلية في صحبة من الحفاظ وغيرهم في أوائل شهر
رمضان إلى غرناطة ، واستقر في ولايتها ، واستدعى الخليفة في نفس الوقت
أخاه السيد أبا سعيد ، والى قرطبة للقدوم إلى الحضرة ، فغادرها في أوائل
ذي القعدة سنة ٥٦١ هـ .

وفي نفس هذا العام أعني سنة ٥٦١ هـ قرر الخليفة أبو يعقوب بالانفاق

مع أشياخ الموحدين ، أن يتخذ العلامة الخلافة ونصها « والحمد لله وحده » وأن يكتبها بخط يده على المراسيم والأوامر ، فتنفذ بمقتضاها . وصدرت أول رسالة ممهورة بالعلامة الخلافة في الثالث من شهر رمضان مدبجة بقلم الوزير الكاتب أبي الحسن بن عياش ، وموجهة إلى أخى الخليفة السيد أبي سعيد وأصحابه الطلبة بقرطبة ، على أن تنفذ منها نسخ إلى مختلف البلاد ، وفيها بعد الديباجة الموحدية المعتادة ، يوصى الخليفة بأن تجرى الأحكام وفقاً للعدل ، وأن تُرفع إليه أحكام الإعدام ، فلا يقضى الموحدون في الدماء من تلقاء أنفسهم ، ولا يريقوها بباد أو رأى من آرائهم ، إلا بعد أن ترفع النازلة إلى الخليفة ، وتشرح وتفيد بالشهود والعدول « وتكتب أقوال المظلومين وحججهم ، وإقرارهم واعترافهم ، وحجج الظالمين في مقالاتهم واستظهارهم في بياناتهم معطى كل ذى حق حقه ، موافق كل قائل قوله » ، وأن يدقق في الجرائم التي دون القتل ، من ضرب أو جرح أو سرقة أو قتل خطأ ، وكذلك في سائر المعاملات والأموال واستحقاقها وفي الرقاب وعتقها أو استرقاقها ، وفي المناكحات فلا يبت في أمرها إلا بعد المطالعة ، وتعرف وجه الحق فيها ، والاستناد إلى النصوص والأحكام الصحيحة ، وأنه يجب التوقف ومراعاة أنه لا يقدم على إراقة الدماء ، واستباحة الأموال ، واستحلال الحرمات ، إلا بوجه صحيح . ويختتم الخليفة رسالته بحث الموحدين على العمل بما جاء فيها ، وأنه يجب عليهم في جميع الأحوال ، تقوى الله في السر والظهر ، وخيفته في الباطن والظاهر ، والجرى على سنته ، وأنه يجب إذاعة هذا الكتاب ، والتشهير به ، وجمع الناس لقراءته ، وتعريف الحاضر والغائب بما فيه ، وأن ترسل منه نسخ إلى سائر الجهات ليعمل الناس بما جاء « في هذا الأمر العزيز من إقامة العدل ، وبسط الدعة والأمن ، وإقامة أمر الله على وجهه المتعين وسننه الواضح البين »^(١).

وإنه لما يلفت النظر في هذه الرسالة بنوع خاص ، اهتمام الخليفة البين بمسألة أحكام الإعدام ، وإراقة الدماء ، وتشدده في المطالبة برفعها إليه ، وفي

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة النص الكامل لهذه الرسالة في كتاب « المن بالإمامة » لوجه ١٧٩ إلى لوجه ١٨٢ ونقلها العلامة جولدسهر في بحثه الذي سبق الإشارة إليه *Materialien zur Kenntniss der Almohaden Bewegung* (Z. der Mog. Gesellsch., 1887 p. 134-138) وقد نشرناها نحن في باب الوثائق الموحدية في نهاية الكتاب .

وجوب تحرى الدقة فى شرحها ، وتقييدها بالشهود والعدول ، وإثبات أقوال المظلومين وحججهم ، وأقوال الظالمين ، أعنى المدعين وحججهم ، فهذا الاهتمام البالغ من أبى يعقوب ، بالحرص على صون الدماء ، والتنكيب عن إراقها إلا بوجه الحق ، ومنتهى الدقة والحذر ، يحملنا على الاعتقاد بأن هذا الخليفة العالم ، والفقيه البار ، قد تأثر إنما تأثر بما أبداه الموحدون منذ عهد المهدي ، من خفة فى سفك الدماء ، ومن إسراف فى إراقها ، وما اتسم به عهد أبيه الخليفة عبد المؤمن من سيطرة هذه الظاهرة الدموية المروعة ، وأنه أراد برسالته أن يحمل زعماء الموحدين من أمراء وأشياخ وحكام ، على التزام نوع من الحرص والاعتدال فى إراقة الدماء ، وفى تقرير أحكام الإعدام .

ولما وصلت رسالة الخليفة إلى أخيه السيد أبى سعيد قرطبة ، وجهت منها نسخ إلى سائر بلاد الأندلس التى تحت نظر الموحدين ، وقرئت على الناس فى الجوامع ، وغادر السيد أبو سعيد قرطبة بعد ذلك بقليل ، عائداً إلى حضرة مراكش نزولاً على رغبة الخليفة حسبما تقدم .

وفى أوائل سنة ٥٦٢ هـ (١١٦٦ م) عادت الفتنة إلى جبال غمارة بين قبائل صنهاجة ، وعاد زعيمها سبع بن منعماد إلى الخروج والعصيان ، وبسط سلطانه على سائر المنطقة الممتدة من بلاد الريف على شاطئ البحر الأبيض المتوسط شمالاً حتى سبتة ، وأخذ يبعث فساداً فى تلك المنطقة ، ويقطع الطرق ، ويعتدى على السكان الآمنين قتلاً وسبياً ونهباً ، ووصل عيثه وعدوانه غرباً حتى منطقة القصر الكبير . وكان قيام الثورة فى تلك المنطقة الحساسة ، التى هى شريان المواصلات بين المغرب والأندلس من أخطر الأمور ، التى يجب حسمها بقوة وبسرعة . ومن ثم فقد سير الخليفة جيشاً موحدياً بقيادة أبى سعيد يخلف بن حسين إلى بلاد صنهاجة من جهة القلعة ، وكان الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ، قد تقدم فى عسكره إلى ناحية أخرى من منطقة الثورة ، فقاوم الثوار أشد مقاومة ، وامتنع سبع بن منعماد بقواته فى جبل الكواكب ، ولم تنل القوات الموحدية من الثوار مأرباً . وعندئذ رأى الخليفة أن يسير بنفسه إلى مقاتلة الثوار ، فخرج فى جيش كثيف ، ومعه أخواه السيدان أبو حفص وأبو سعيد ، وسار إلى جبال غمارة ، ونازلت القوات الموحدية الزعيم الثائر فى أعماق معاقله ، وأحاطت به وبسائر صحبه من كل ناحية ، وأمعنت فيهم قتلاً وأسراً ، ومزقوهم تمزيقاً ، واحتلوا

أراضهم ، وقتل زعيم الثورة سيع بن منعقاد ، وصليت جثته ، وأذعنت سائر
صنهاجة في تلك المنطقة ، وتضرعت إلى الصفح والأمان ، فأجيب إلى ما طلبت .
وتم قمع ثورة غمارة في أوائل شوال سنة ٥٦٢ هـ (أغسطس سنة ١١٦٧ م) .
واستولى الموحدون على غنائم هائلة من الماشية ودواب الحمل ، وأسروا من
الثوار نحو أربعة آلاف . وعاد الخليفة أبو يعقوب في عساكره المظفرة إلى حضرة
مراكش ، وصدرت عن هذا الفتح رسالة مطولة بقلم الكاتب أبي الحسن بن
عياش مؤرخة في الرابع عشر من شوال ، ووجهت إلى سائر الموحدين والأشياخ
والطلبة بالمغرب والأندلس^(١) ، وعين الخليفة أخاه السيد أبا الحسن على والياً
على سبتة وسائر منطقة الريف وغمارة .

ومما هو جدير بالذكر أنه لم تمض على إخماد فتنة غمارة بضعة أشهر ، حتى
حدثت فتنة جديدة ، وثار بعض البطون البربرية بجبل تاسررت ، وأعلنوا خلع
الطاعة ، فسار إليهم السيد أبو حفص أخو الخليفة في عسكر وافر من الموحدين
واشتد في قتالهم ، حتى مزقهم واستأصل شأفتهم^(٢) .

أشرنا فيما تقدم إلى ندب الخليفة أبي يعقوب للحافظ الشيخ أبي عبد الله بن أبي إبراهيم
لولاية غرناطة وذلك في شعبان سنة ٥٦٢ هـ . وكان أول ما عني به الوالي الجديد ،
أن يطهر أحواز غرناطة من عدوان المرتزقة النصاري من أحلاف ابن مردنيش ،
وكانت قوة منهم تحتل حصن « لبه » الواقع فيما بين غرناطة ووادي آش ، وتعيث
باستمرار في تلك المنطقة ، وتبث فيها الخراب والروع ، وتصل أحياناً إلى أسوار
غرناطة ، وتهدد أمنها وسلامتها ، فحشد الحافظ أبو عبد الله قواته وسار إلى حصن
له المذكور ، وهاجمه بشدة ، واقتحمه عنوة ، ومزق حاميته من النصاري ،
وقضى بذلك على عيشها وشرها ، وعاد ظافراً إلى غرناطة ، وبعث إلى الخليفة
ينبئه بسعيه ، فبعث إليه الخليفة برسالة يعرب فيها عن شكره ورضاه .

على أن أهم حوادث الأندلس التي وقعت في تلك الفترة ، كان مسرحها

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ٨٢ أ ب ، وكذلك لوحة ٩٦ . والبيان
المغرب القسم الثالث ص ٦٩ ، و ٧٠ و ٧١ . وينقل إلينا ابن صاحب الصلاة رسالة الفتح بأكملها
وهي تشغل اللوحات من ٨٤ إلى ٩١ .

(٢) ابن صاحب الصلاة لوحة ١١٣ ب .

ولاية الغرب الأندلسية ، وكان قيام مملكة البرتغال الناشئة ، واشتداد ساعدها في عهد ملكها ألفونسو هنريكز ، يمثل الخطر الجديد على قواعد الأندلس الغربية المتاخمة لهذه المملكة الجديدة ، وكان ألفونسو هنريكز حينما اضطربت شئون الأندلس ، وعمت الفتنة قواعد الغرب ، قد انتهر هذه الفرصة للإغارة على القواعد الإسلامية المجاورة ، وكان يتوق بالأخص إلى الاستيلاء على أشبونة لموقعها الفذ عند مصب نهر التاجه ، ولحصانتها ، ولكونها كانت معقل المسلمين المنيع في قلب الأراضى البرتغالية . ولما لم يكن لديه قوى كافية لتنفيذ مشروعه فقد اتجه إلى الاستعانة بالقوات الصليبية المتجهة إلى المشرق من الإنجليز والألمان والفلمنك (الهولنديين) ، واستطاع بالفعل أن يجذب منهم لمعونه طوائف كبيرة . وفي أوائل سنة ١١٤٧م (أواخر ٥٤١هـ) سار في قواته لمحاصرة أشبونة ، ورابطت القوات الصليبية في البحر ، في مدخل الميناء لتحول دون وصول أية إمداد إلى المدينة المحصورة . واستمر الحصار بضعة أشهر ، وكانت أشبونة الإسلامية مدينة منيعة ، تحميها من ناحية البر أسوار منيعة ضخمة ، ولها عدة أبواب عظيمة ، وبابها الغربي هو أعظم أبوابها ، وقد عقدت عليه حنايا فوق حنايا ، على عمد من الرخام ، مثبتة على حجارة من رخام ، ولها باب قبلى يسمى باب البحر ، وباب شرق يسمى باب الحمة^(١) . ووقعت بين المسلمين والنصارى معارك عديدة ، ودافع المسلمون عن ثغرهم أشد دفاع ، ولكن الحصار كان شديداً مرهقاً ، وقد نضبت موارد المدينة المحصورة تباعاً ، وثلمت الأسوار في عدة مواضع . ثم استعد البرتغاليون للضربة الحاسمة . وخطب فيهم ملكهم ألفونسو ، يحثهم على مضاعفة الجهود في القتال ، وليقول لهم إن المدينة غنية بالأموال ، التى تمكنهم من متابعة الحرب ، وإنها معقل الأعداء وكثرهم ، ومستودعهم الذى يزخر بالحلى والنفاثس ، فعليهم أن يقتحموا هذه الأسوار المثلومة ، وأن يأخذوا المدينة .

وكانت المعركة الأخيرة قصيرة ، ولكن دموية هائلة ، ودافع المسلمون ، بالرغم مما عانوا من أهوال الحصار ، عن مدينتهم ، دفاعاً مريراً . ولكن هذا الدفاع اليائس لم يغن شيئاً ، واقتحم النصارى الأسوار ، ودخلوا المدينة من بابها الشرقى — باب الحمة — وقتل من المسلمين مقتلة عظيمة ، وأسر الأحياء منهم ، وجعلوا رقيقاً ؛ ونهب النصارى المدينة نهباً ذريعاً ، وكان فيها من الأموال والنعم

أعظم ما يتصور . وفي الحال حول مسجدھا الجامع إلى كنيسة ، وعین لها أسقف هو الأسقف جليبرتو ، وكان استيلاء البرتغاليين على أشبونة في اليوم الخامس والعشرين ، وقيل في الحادی والعشرين من أكتوبر سنة ١١٤٧ م (جمادی الأولى سنة ٥٤٢ هـ) ^(١) .

واستولى ألفونسو هنريكيڤ في نفس الوقت على مدينة شنترين الواقعة شمال شرق أشبونة ، ثم استولى على سائر الأراضي الإسلامية المتاخمة لتلك المنطقة ، والتي تكون القسم الغربي من ولاية « استرامادوره » . ولم يكن من الميسور يومئذ على الموحدين ، وقد شغلهم حوادث الغرب ، واضطرام الفتنة بالأندلس ، أن يبادروا إلى إنجاد هذه القواعد الإسلامية النائية .

واستمر ألفونسو هنريكيڤ أعواماً يغير على أراضي ولاية الغرب من آن لآخر ، ويرقب الفرص السانحة ، وقد أشرنا من قبل إلى ماكان من محاولة ابن قسي زعيم فتنة المريدين ، أن يحالفه ، وأن يستعين به على مقاومة الموحدين ، وما ترتب على هذه المحاولة من سقوط ابن قسي وهلاكه (سنة ٥٤٦ هـ) . ولما تفاقم عدوان ملك البرتغال على قواعد الغرب ، عبر ابن وزير صاحب باجة ويابرة البحر إلى المغرب مستغيثاً بالخليفة عبد المؤمن (سنة ٥٤٩ هـ) ، ولكن عبد المؤمن اكتفى عندئذ ببذل وعوده في الإنجاد والعون .

وفي سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) استولى البرتغاليون بقيادة ألفونسو هنريكيڤ على الثغر الصغير المنيح المسمى بقصر الفتح أو قصر أبي دانس ^(٢) ، الواقع على مصب نهر سادو (شطوبر) على المحيط جنوبي شرق أشبونة ، بعد أن حاصروه مدى شهرين من البر والبحر ، وكان سقوطه في ٢٤ يونيه من العام المذكور ^(٣) .

وفي أواخر سنة ٥٥٧ هـ (ديسمبر ١١٦٢) قبيل وفاة عبد المؤمن بقليل ، قامت حملة قوية من نصارى شنترين بغزو مدينة باجة والاستيلاء عليها ، ولبثوا فيها أربعة أشهر ، ولم يغادروها إلا بعد أن خربوا ربوعها ، وهدموا أسوارها ^(٤) .

Mariana : Historia General de Espana : Lib. Decimo Cap. XIX (١)

(٢) وهو بالبرتغالية Alcacer do Sal

(٣) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٣٩ وكذلك H Miranda : Imperio Almohade

Vol. I p 266

(٤) كتاب « المن بالإمامة » لوحة ١١٨ ب .

هذا وسوف نرى فيما بعد أن استيلاء البرتغاليين على باجة قد وقع وفق رواية أخرى بعد ذلك بعشرة أعوام .

ولم يمض قليل على ذلك ، حتى بدأ نصارى البرتغال سلسلة جديدة من الاعتداءات على القواعد والأراضي الإسلامية . وكان منظم هذا العدوان وقائده مغامر يدعى جيرالدو ، وينعت في التواريخ النصرانية « بالباسل » *Geraldo sem Pavor* ، وكان هذا المغامر الذى تعرفه الرواية الإسلامية « بالعلاج جراندة الخليقي » قاطع طريق أورئيس عصابة ناهبة ، ألقى مجالا طيباً لنشاطه في الظروف التى كانت سائدة يومئذ في بلاد الغرب الأندلسية ، وكان يغير بالأخص على المحلات والأراضي الإسلامية الواقعة في قطاع بطليوس ما بين نهري التاجه ووادى يانه ، ويعيث فيها قتلا وتخريباً ونهباً ، وكان يقوم بهذه الغارات والغزوات لحساب نفسه ، وفي أصحابه وعصبته ، على نحو ما كان يفعل السيد الكنييطور (الكبيادور) في شرقي الأندلس أيام الطوائف . بيد أنه لم يكن يبلغ من حيث شخصيته ، ولا من حيث عصبته أو مكانته ، مبلغ السيد ، وإن كان بعض البرتغاليين يعتبره قرين السيد ، ويسميه « بالسيد البرتغالى » . وكان ملك البرتغال ألفونسو هنريكز يؤازره ، ويعاونه بالمال والرجال ، لما يترتب على نجاح حملاته وغاراته من إضعاف المسلمين ، والتمهيد لمشاريعه الضخمة في افتتاح قواعدهم . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة — وهو الراوية المعاصر — أعمال جيرالدو ومغامراته في الفقرة الآتية :

« كان أدفونش الرنك الغادر الخليقي ، صاحب قلمرية ، قد عاين من نجدة هذا الكلب جراندة ، وتيقظة لغدر البلاد والحصون ، ما أعانه على ذلك برجاله ، وسلطه على المسلمين في الثغور بأرجاله ، فكان الكلب يتسلل في الليالى المطرة الحالكة المظلمة ، الشديدة الريح والثلج ، إلى البلاد ، وقد أعد آلات من السلام من أطول العيدان ، بعلو سور المدينة التى يؤم ويروم ، فإذا نام السامر المسلم في برج المدينة ، ألقى تلك السلام إلى جانب البرج ، ورقى عليها بنفسه أولاً إلى البرج ، وينقض على السامر ، ويقول له ، تكلم على ما كانت عادتك ليلاً يشعر الناس بنا ، فإذا استوفى طلوع حملته ، ألزمه في أعلى سور المدينة ، صاحوا بلغاتهم صيحة عظيمة منكرة ، ودخلوا المدينة ، وقتلوا من وجدوه

واستلبوه ، وأخذوا كل من فيها سبياً وفَتْنياً» (١) .

وكانت أول قاعدة إسلامية غزاها جبر الدو في ذلك القطاع من ولاية الغرب ، هي مدينة ترجاله (٢) الواقعة شمالي ماردة على مقربة من نهر التاجه ، فدهمها في شهر جمادى الأولى سنة ٥٦٠ هـ (مايو سنة ١١٦٥ م) ، ثم انقض على مدينة يابرة في شهر ذى القعدة من نفس العام (سبتمبر ١١٦٥) ، وباعها مع ترجاله إلى النصارى . ثم سار إلى مدينة قاصرش (٣) الواقعة غرب ترجاله ، واستولى عليها في صفر سنة ٥٦١ هـ (ديسمبر ١١٦٥) ، وتبعها بالاستيلاء على حصن منتانجش الواقع في جنوبها الشرقي في جمادى الآخرة من نفس العام . واستولى أخيراً على حصن شربة ، ثم حصن جلمانية (٤) الواقع على مقربة من غربي بطليوس ، واتخذة قاعدة للإغارة عليها ، والتضييق على أهلها . وكانت هذه الغزوات المتوالية التي وقعت بولاية الغرب في نفس الوقت الذي شغل فيه الموحدون بمقاتلة ابن مردنيش في شرق الأندلس ، مقدمة لغزو بطليوس وسقوطها ، وتحريك الموحدين بذلك إلى المبادرة إلى خوض الصراع مع النصارى ، لاسترداد بطليوس ، وحماية ولاية الغرب الأندلسية من السقوط .

وشغل الخليفة أبو يعقوب في العام التالي — سنة ٥٦٢ هـ — حسباً رأينا بقمع فتنة غارة . وفي أوائل سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٧ م) اتفق رأى الموحدين على تجديد البيعة للخليفة . وليس في أقوال الرواية ما يوضح سبب هذا الإجراء في تجديد بيعة سبق عقدها عقب وفاة الخليفة عبد المؤمن ، واستكمالها في سنة ٥٦٠ هـ ، حينما تمت بيعة السيد أبي سعيد والسيد أبي عبد الله لأخيهما الخليفة ، وتسمى أبو يعقوب عقب ذلك بأمرير المؤمنين ، اللهم إلا أن يكون ذلك عنواناً لإجماع سائر البلاد والقبائل على الطاعة بعد إخماد ثورة غارة التي شملت منطقة كبيرة حساسة في شمالي المغرب ، والتي اقتضى أخاؤها أن يسير إليها الخليفة بنفسه . ويزف ابن صاحب الصلاة إلينا هذا الإجراء كعادته في ألفاظ منمقة ،

(١) في كتاب المن بالإمامة لوحة ١١٨ أ . وراجع أيضاً البيان المغرب القسم الثالث ص ٧٨ ، وكذلك ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ .

(٢) هي بالإسبانية « Trujillo »

(٣) هي بالإسبانية « Cáceres »

(٤) منتانجش بالإسبانية Montanchez ، وشربه Serpa ، وجلمانية Jurumena

ويقول لنا في حوادث سنة ٥٦٣ هـ ، « في أول هذه السنة خنع الله القلوب بخلوص الضمائر المؤذنة بالسعود والبشائر ، من الآراء الموقفة ، والنفوس المصفقة بتجديد البيعة ، والتسريح بالإسمية المستحق لسيدنا ، فأكمل ذلك بإجماع الموحدين ، أعزهم الله . » ثم يقول لنا ، إن هذا الأمر العزيز ، قد نفذ بكتاب كريم ، أرسل إلى أخى الخليفة السيد أبى إبراهيم إسماعيل وإلى إشبيلية ، منبأ له « بما اتفق من اجتماع الرأى السعيد ، والفعل السديد ، الذى اجتمعت عليه آراء الموحدين . . من تجديد البيعة الرضوانية والإسمية الإمامية للإمام أبى يعقوب » . وفى هذا الكتاب يأمر الخليفة بأن يأخذ الناس بما جاء فيه ، وجميع الموحدين بإشبيلية ، وسائر بلاد الأندلس التى تحت نظر الموحدين ، مثل قرطبة وغرناطة ومالقة وغرب الأندلس ، وذلك بعقد البيعة على أوفى شروطها . فوجه السيد أبو إبراهيم نسخة الكتاب إلى زميله الحافظ أبى عبد الله وإلى غرناطة ، فاحتفل بقراءته من فوق المنابر ، وهرع الناس إلى إعطاء بيعتهم ، وسجلوها فى كتاب أرسل إلى الخليفة . وكتب أهل إشبيلية كذلك بيعتهم ، ووقعوها بخطوطهم ، ووجهها السيد أبو إبراهيم إلى الخليفة . وقد نقل إلينا ابن صاحب الصلاة نص الوثيقتين المذكورتين ، وقد أرخت كلتاهما فى النصف من جمادى الآخرة سنة ثلاث وستين وخمسمائة^(١) ، وأرسات فى نفس الوقت بيعات سائر القواعد الأخرى ، سواء بالمغرب أو الأندلس ، إلى حضرة مراکش .

ولما كملت البيعة الحديدية على هذا النحو تسمى الخليفة أبو يعقوب بأمر المؤمنين ، وساد اليمن والبشر ، وأصدر الخليفة عفوه عن المسجونين ، وأمر برفع البقايا عن العمال الخائفين ، وتأمينهم من المخاوف ، فيما تقيد عليهم فى الدواوين ، وأغدق الصلات والأعطية ، وأمر بأن يجرى « الإنعام والبركات » فى سائر بلاد المغرب والأندلس ، فكثرت النعم ، وعم الرخاء ونمت الحبايات والخراج ، وانتعشت حركة العمران فى العاصمة الموحدية ، وشرع الناس فى إنشاء الدور الفخمة ، والرياض الياقة ، وكثرت بهذه المناسبة مدائح الشعراء وتهانيمهم . فمن ذلك قصيدة نظمها أبو عمر بن حربون شاعر الدولة الموحدية هذا مطلعها :

جاءتاك تسحب ذيلها للموعد زهراء طالعة بسعد الأسعد

(١) كتاب « المن بالإمامة » ، لوحة ١٠٠ إلى ١٠٤ . وقد رأينا أن ننقل نص بيعة إشبيلية فى باب الوثائق ، فلتراجع هناك .

فاصنح أمير المؤمنين بدعوة لم تترك صمما لسمع الحامد
ينى الخلافة ان لست رداءنا وقعدت منها اليوم أشرف مقعد^(١)
وفي أواخر هذا العام — سنة ٥٦٣ هـ (١١٦٨ م) — ندب أبو يتقوب أخاه
السيد أبا إسحاق إبراهيم والياً لقرطبة، وكانت بلا وال مذ غادرها والها السابق السيد
أبو سعيد عائداً إلى مراكش نزولا على رغبة أخيه الخليفة ، وذلك في شهر
ذى القعدة سنة ٥٦١ هـ . وعبر السيد أبو إسحاق إلى الأندلس في عسكر ضخم من
الموحدين وسار إلى قرطبة ليتقلد ولايتها . وكان عبوره فاتحة الحركة التي كانت
تجتمع أسبابها منذ حين ، لعبور الموحدين إلى شبه الجزيرة ، للاضطلاع بمحاربة
النصارى ، وافتتاح عهد جديد من الجهاد ، تؤمن فيه الأندلس ، ويقمع
عدوان المعتدين عليها .

— ٤ —

والواقع أن الموحدين كانت قد انعقدت نيّتهم على الاضطلاع بهذه الخطوة،
التي برهنت حوادث الأندلس على ضرورتها ، وذلك سواء في الشرق أو الغرب .
وقد أبلغ الخليفة أمر هذه النية ، وما اتفق عليه رأى الموحدين بشأنها ، إلى
الشيخ الحافظ أبي عبد الله والى غرناطة ، في رسالة خاصة وجهها إليه ، مؤرخة
في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٦٣ هـ ، وفيها يشير إلى ما تقرر
من إرسال السيد أبي إبراهيم في عسكر من الموحدين والعرب إلى قرطبة ، وأنه
سوف يتعاون بعسكره مع إخوانه الذين بإشبيلية ، ويضطلع الجميع بالجهاد
وحماية البلاد ، وأن يستمر النظر للحافظ أبي عبد الله في شئون الآلات والأسلحة
التي تحتاج إليها القوات الموحدية^(٢) .

وحدث في نفس الوقت الذي وصلت فيه هذه الرسالة إلى غرناطة ، أن
أغارت قوة من النصارى المرتزقة من جند ابن مردنيش على وادي شتيل غربي
غرناطة ، واندفعت جنوباً حتى وصلت إلى أحواز رُنْدة ، وعاثت في تلك
المنطقة ، وانتهبت أموالها وماشيئها ، فبادر السيد أبو عبد الله بتجهيز عسكر قوى

(١) أوردها ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة لوحة ١٠٧ أ وب ، ووردت كذلك في البيان
المغرب ، القسم الثالث ص ٧٤ .

(٢) أوردها لنا ابن صاحب الصلاة نص هذه الرسالة في « المن بالإمامة » لوحة ١١٠ أ وب
١١١١ .

لردها وردعها ، فالتقت بهم حين عودتهم على مقربة من وادى آش ، فحاول
النصارى الامتناع بجبل قريب ، ولكن الموحدين دهموهم فى أعلى الجبل ،
وقتلوهم بشدة ، حتى مزقت صفوفهم ، وتساقطوا من حافات الجبل ، وقد
فى معظمهم قتلا وأسرأ ، واستاق الموحدون الغنائم والأسلاب ، ومعها
ثلاثة وخمسين أسيراً من النصارى ضربت أعناقهم عند وصولهم إلى غرناطة
(مارس سنة ١١٦٨ م) ، وبعث السيد أبو عبد الله ، نبأ ذلك النصر إلى الخليفة ،
فرد عليه برسالة يزجى فيها الشكر ، ويحمد الله على توفيقه^(١) .

وفى أواخر هذا العام استولى الموحدون على ثغر طبيرة ، الواقع فى جنوب
البرتغال غربى مصب نهر وادى يانه ، وكانت طبيرة من القواعد التى ثارت
بالغرب أيام أن اضطربت شئونهم ، وذلك فى سنة ٥٤٨ هـ ، وكان الخليفة أبو يوسف ،
أيام أن كان والياً لإشبيلية ، فى أواخر عهد أبيه الخليفة عبد المؤمن ، قد نازل
طبيرة مرتين ، فلم يظفر بفتحها ، وكان صاحب طبيرة ، عندئذ الناصر بها عبد الله
ابن عبد الله ، قد تفاقم شره وعدوانه ، وكثر عيئه فى تلك المنطقة ، يعتدى على
السكان الآمنين والسابلة ، والتجار ، بعصبته من أهل الشر وقطاع الطريق ،
سواء فى البر أو البحر ، فعندئذ عول الموحدون على أخذ طبيرة ، وحسم دأبها .
فساروا إليها فى حملة قوية ، واحتلوا حصن قسطة القريب منها ، وحاصروها
براً وبحراً ، حتى أذعن إلى التسليم ، وذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٥٦٣ هـ
(سبتمبر سنة ١١٦٨ م)^(٢) .

وفى أواخر هذا العام أيضاً وقع حادث ذو مغزى خاص ، هو قدوم الزعيم
القشتالى فرناندو ردرىجيس صهر فرناندو الثانى ملك ليون وزوج أخته ابنة
القيصر ألفونسو ريمونديس ، مع أخويه إلى إشبيلية ، والإعراب عن رغبته لأشياخ
الموحدين بها ، فى أن يكون صديقاً وحليفاً لأمير المؤمنين ، ومناذباً لشيعة
النصارى ، فبعث الموحدون برغبته إلى الخليفة ، فأذن له بالقدوم إلى مراكش ،
فقدم إليها ، واستقبله الخليفة أبو يعقوب بترحاب بالغ ، وأنزله ومن معه خبر
منزل ، وأقام بالعاصمة الموحدية خمسة أشهر ، معزراً مكرماً ، « حتى كاد أن

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة نص هذه الرسالة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٢ أ و ب .

(٢) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١١٦ ب ، والبيان المغرب القسم الثالث

يُسلم» ، وقد عاهد الخليفة أن يكون حليفه وحليف المسلمين المخلص ، لا يشهر عليه عدواناً قط . ثم عاد إلى بلاده وقد أمر الخليفة بأن يشمل الموحدون بأتم الرعاية . ويقدم لنا ابن صاحب الصلاة هذا الزعيم القشتالي باسم « فرناندو راسن النصراني » ويلقبه بصاحب ترجاله ، ويصفه « بالشهير النسب والشهامة عند النصاري »^(١) .

وتلا ذلك عقد الصلح والتحالف بين فرناندو الثاني ملك ليون وبين الموحدين . وكانت الحصومة تضطرم بين فرناندو وملك البرتغال ألفونسو هنريكز ، بالرغم مما كان بينهما من أواصر المصاهرة ، إذ كان فرناندو متزوجاً بالأميرة أورাকা ابنة ملك البرتغال ، وذلك لأسباب كثيرة ، أهمها أن فرناندو لم يستطع أن يزاول حق السيادة على البرتغال الذي ورثه عن أبيه القيصر ألفونسو ريمونديس . وكان فرناندو مذفرغ من مشاغله وحروبته في قشتالة ، يتجه بأطباعه نحو مملكة البرتغال ، وينظر بعين الحسد والتوجس إلى ما كان يحزره ألفونسو هنريكز من انتصارات متوالية على المسلمين ، ويخشى بنوع خاص أن تمتد فتوح ملك البرتغال إلى بعض القواعد والأراضي الإسلامية التي يرى فرناندو أنها من خاصة قشتالة وليون . وكان فرناندو قد عمد إلى تحصين مدينة ردرينجو ، (ثيوداد ردرينجو)^(٢) الواقعة على حدود البرتغال ، واتخذها قاعدة للإغارة على أراضي البرتغال القريبة ، وأنشأ في نفس الوقت عدة قلاع وحصون منيعة على حدود البرتغال . كل ذلك استعداداً لأن يخوض مع ملك البرتغال صراعاً حاسماً . ثم رأى أخيراً أن يقوى جانبه بعقد التحالف مع الموحدين . وتسمى الرواية الإسلامية فرناندو ، « بالبيوج » ، « بصاحب السبطاط » وتسميه أحياناً صاحب « السبطاط وآبلة وليون وسمورة » . فأما « البيوج » أو « الببوج » فهو تحريف للكلمة القشتالية El-Baboso ، ومعناها الكثير اللعاب ، وكذلك الأبله . وهذا ما لم يفث الرواية الإسلامية أن تشير إليه^(٣) . وأما « صاحب السبطاط » فعناه « صاحب ثيوداد ردرينجو » وقد كانت وقتئذ

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١١٧ - والبيان المغرب القسم الثالث

ص ٧٨ .

(٢) وهي بالإسبانية Ciudad Rodrigo وبالقشتالية القديمة Cibdad ومنها حرفت التسمية العربية « سبطاط » .

(٣) راجع المعجب ص ١٨٢ .

مقره وقاعدة تحركاته . وكانت أول ثمرات محالفة فرناندو للموحدين هو أنهم أمدوه بعسكر لمعاونته على قتال الكونت نونيو دى لارا حاكم طليطلة ، والمسيطر على ابن أخيه الملك الصبي ألفونسو النبيل ملك قشتالة . وكانت هذه الحملة الموحدية التي حشدت في إشبيلية بقيادة أبي العلاء بن عزون والحافظ أبو علي عمر بن تمصلت ، والحافظ موسى بن حو . ودخل الموحدون مع قوات فرناندو أراضي قشتالة ، وحاربوا معه ضد خصومه ، ثم ساروا معه حتى حدود الأسترياس (أشتريش) ، وأقاموا في هذه الغزوة خمسة أشهر ، ثم عادوا سالمين ، وقد اغتبط ملك ليون بموازرتهم ونجدتهم ، وقطع على نفسه العهد الوثيق ، بأن يبادر إلى القتال مع أمير المؤمنين ضد النصارى ، الذين يعتدون على أراضيهم ، وألا يتوانى في ذلك قط ، وأقسم على ذلك في بيعة بلده . وقد أوفى بهذا العهد كما سنراه في حوادث بطليوس أتم وفاء^(١) .

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١١٧ و ١١٨ ، والبيان المغرب ، القسم

الفصل الثاني

حوادث الأندلس

وسقوط مملكة الشرق

اهتمام الموحدين بحوادث الأندلس . عزمهم على استئناف الغزو . رسالة الخليفة أبي يعقوب في ذلك . خطة ألفونسو هنريكيز ملك البرتغال وجيرالدو سمبافور لافتتاح بطليوس . سقوط المدينة وامتناع الموحدين بالقصبة . تدخل فرناندو ملك ليون لإنجاد الموحدين . بواعث خصومته لملك البرتغال . القتال داخل المدينة بين الفريقين . هزيمة ملك البرتغال وأسر ، ثم إطلاقه . فرناندو يسلم المدينة للموحدين . تدعيم الدفاع عن قرطبة . الشقاق بين ابن مردنيش وابن همشك . توحيد ابن همشك وانضمامه للموحدين . بعث ابن مردنيش قواته لقتاله . تعيين الحافظ أبي يحيى بن الشيخ أبي حفص والياً لبطليوس . مهاجمة جيرالدو سمبافور لبطليوس . القتال بينه وبين الموحدين . هزيمة الموحدين وأسر أكابرهم . استدعاء ولاية قرطبة وإشبيلية وغرناطة إلى الحضرة ثم عودهم . غزو القشتاليين للأندلس . تقاعد الموحدين عن ردهم . بعض الأحداث الطبيعية . غارات جيرالدو على بطليوس . سعى الموحدين لإمدادها . معركة بين الموحدين وجيرالدو . هزيمة الموحدين ومقتل الحافظ أبي يحيى . مرض الخليفة وتأخر حركة الغزو . ترجيح البدء بمحاربة ابن مردنيش والقضاء على حركته . عبور السيد أبي حفص في القوات الموحدية . مسير السيد أبي سعيد في قواته لإنجاد بطليوس . مسير ملك ليون إليها لافتتاحها . لقاء السيد والملك النصراني . تفاهما على استبقاء التحالف والصالح . افتتاح السيد أبي سعيد لحصن جلمانية . ابن مردنيش وانحلال قواه . عوامل هذا الانحلال . مصادقة ابن مردنيش للنصارى . خروج قادته ووزرائه عليه . مسير الموحدين بقيادة السيد أبي حفص لقتال ابن مردنيش . استيلائهم على قبيجاة . زحفهم على مرسية . دخول لورقة في طاعتهم ، ثم سقوطها في أيديهم . دخول ألس والحزيرة ثم بسطة في طاعتهم . مدافعة ابن مردنيش للموحدين . موقف أخيه يوسف والى بلنسية . محاولة النصارى غزو بلنسية . قيام محمد بن مردنيش ومحمد بن هلال بالمرية ودعوتهم للموحدين . اضطراب ابن مردنيش وتخاذله . وفاته وما قيل حولها . انهيار دولته . ثورة ابن مردنيش وصفها الأندلسية القومية . شخصية ابن مردنيش ومعايها . مقدرة وشجاعته . إعلان ولده هلال وقادته الطاعة للموحدين . رواية عن وصية ابن مردنيش بالتسليم . دخول السيد أبي حفص والموحدين مرسية . مسير هلال وأكابر الشرق إلى إشبيلية . مبايعتهم للخليفة أبي يعقوب . زواج الخليفة من ابنة ابن مردنيش . ابن همشك ونهايته .

لم يكن الخليفة أبو يعقوب وأعوانه من أشياخ الموحدين ، بغافلين عن خطورة الحوادث التي وقعت في غربي الأندلس ، وما اقترن بها من سقوط قواعد إسلامية جديدة في أيدي النصارى . وكان قد مضى على سقوط أشبونة وشترين في يد الملك

ألفونسو هنريكز نحو عشرين عاماً ، وقد غلب النسيان نوعاً على فقد هاتين القاعدتين الهامتين من قواعد الغرب لموقعهما النائي ، ولكن تقدم البرتغاليين نحو بطليوس وماردة ، بسقوط ترجاله وقاصررش ويابرة وجلانية ، وتهديدهم لسائر الأراضي الواقعة على ضفتي نهر وادي يانه ، زاد من خطورة الموقف ، ونبه الموحدين إلى وجوب البدار إلى إنجاد الأندلس ، والعمل على حمايتها .

وقد حالت الأحداث والفتن التي وقعت بالمغرب ، والتي فصلناها فيما تقدم ، دون تنفيذ هذا العزم حيناً . فلما حلت سنة ٥٦٤ هـ ، هدأت تلك الفتن ، واستتببت السكينة والسلام بالمغرب ، لاح للخليفة ومعاونيه ، أن الفرصة قد أزفت للعمل بالأندلس ، فجهز أبو يعقوب جيشاً من الموحدين وغيرهم تحت إمرة الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى كبير أشياخ الموحدين ، وعبر هذا الجيش البحر إلى إشبيلية ، ليكون مقدمة لحركة الجهاد العامة ، التي اعتزم الموحدون القيام بها في الأندلس . ويبدو مما يقوله لنا ابن صاحب الصلاة ، نقلاً عن أبي محمد سيدراى بن وزير ، أن التعجيل بإرسال هذا الجيش ، كان بسبب وصول الخبر بمهاجمة البرتغاليين لبطليوس ، ومحاصرتهم للموحدين الممتنعين بقصبتها ، وقد وقع الهجوم على بطليوس في شهر رجب سنة ٥٦٤ هـ (أبريل سنة ١١٦٩ م) . على أنه يبدو من نص الرسالة التي وجهها الخليفة بهذه المناسبة إلى الموحدين بالأندلس والتي أرخت في اليوم الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ ، أن هذا الجيش الموحدى ، قد جهز وأرسل إلى الأندلس ، قبل حوادث بطليوس بنحو شهرين أو ثلاثة ، ليكون طليعة لحركة الجهاد الكبرى ، وليطمئن أهل الأندلس بوصوله وأنه فوجئ بحوادث بطليوس أثناء وجوده بإشبيلية .

وهذه الرسالة التي وجهها الخليفة أبو يعقوب « إلى الطلبة والموحدين الذين بجزيرة الأندلس » هي من إنشاء كاتبه أبي الحسن بن عياش ، وهي تردد وتؤكد نفس الوعود التي قطعها الخلافة الموحدية على نفسها غير مرة ، منذ أواخر عهد عبد المؤمن بالعمل على حماية الأندلس وغوثها ونصرتها^(١) ، وقد ورد فيما يلي بخصوص هذا الشأن :

« ومازلنا وفقكم الله على أتم العناية بتاكم الجزيرة مهدداً الله ، والحرص

(١) أشرنا من قبل إلى رسالة بهذا المعنى وجهها الخليفة عبد المؤمن إلى ولده السيد أبي يعقوب أيام أن كان والياً لإشبيلية وذلك في ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ (القسم الأول ص ٣٧٩) .

على غوثها ، والانتواء لنصرتها ، والعمل على قصد ذلك بالباشرة ، والمشاهدة ، إشفاقاً على ما استضام منها جبرتها الأعداء ، وأبنائها الأغفاء ، مجسمين وروما ، وما كادوها به من التكلف والتحيف والتنقص ، وفغر الأفواه ، وكسر الثوب والأرصاد ، لغيض مافاض فيها من نور التوحيد ، وخفض ما نصب من أعلام هذا الأمر ، والمناصب للمنحاشين إليه ، المتعلقين بأسبابه ، المستمدين بدمته ، ممن صح ولاؤه ، وصدقت طاعته ، وخلص على السبك ، ونصح على السر ، ونجعل لها من الفكر حظاً يستحق الصدق على ما سواه من الأفكار ، ويأخذ سبق على غيره من معنيات الأمور .

ثم تقول الرسالة إيضاحاً لحركة الشيخ أبي حفص ، وتأكيذاً لنيات الخليفة في الاضطلاع بأعباء الجهاد :

« ورأينا في أثناء ما نحاوله من مروم هذه الغزوة الميممة المباشرة ، أن نقدم بين أيدينا عسكرياً مباركاً من الموحدين أعانهم الله ، صحة الشيخ الأجل أبي حفص أعزه الله ، ليكون مقدمة لجواز جمهور الموحدين ، ومؤذناً بما عزمنا عليه . والله المستعان من التحرك بحملة أهل التوحيد ، والقصد لهذا الغزو الميمون ، الذي جعلناه نصب العين وتجاه الخاطر ، فتتعاونون مع إخوانكم الواصلين على بركة الله إليكم ، على جهاد أعدايكم ، إلى أن يوافيكم إنشاء الله هذا العزم ، ويلم بكم هذا القصد ، ويعتمدكم هذه الحركة المحكمة أسبابها ، المبرمة أمراسها ، التي انعقدت بها النية ، واحتدمت لها في ذات الله الحمية ، واستعانت بتوفيق الله في تأصيل أصولها الفكرة الموجهة والمروية ، وإنا نرجو من المبلغ لآمال القلوب ، المتفضل بإدراك كل مطلوب ، أن يهب فيها من العون ما يتم مبدأها ، ويكمل منشأها ، وتشفى به صدور أوليائه بالنعمة في أعدايه ، وإن فضله تعالى ليسمح ببلوغ هذه الأمنية ، والإطلال منها على كل شرف وقنية ، فما ذلك على الله بعزير »^(١).

وفي خلال ذلك كان ألفونسو هنريكيث ملك البرتغال ، قد وضع خطته للاستيلاء على مدينة بطليوس بالتعاون مع جبرالدو « سمبافور » أو « جيرانده الخليقي » حسبما تسميه الرواية الإسلامية . وكان ملك البرتغال قد قام في سنة ١١٦١ م

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة نص هذه الرسالة في « المن بالإمامة » لوحات ١٢٠ - ١٢٢

(٥٥٦ هـ) بمحاولة أولى لمهاجمة بطليوس ، انتقاماً لما قام به الموحدون قبل ذلك بأعوام قلائل من غزو أراضيه . ولكنه رد على الأثر . وليس من الواضح ما إذا كانت بطليوس عندئذ ما تزال تحت حكم صاحبها ابن الحجام ، أحد ثوار الغرب المواليين للموحدين ، أم أنها كانت قد خلصت للموحدين ، وهم الذين قاموا بالدفاع عنها . وكان جبرالدو سمبافور قد استولى ، حسبما ذكرنا فيما تقدم ، على حصن جلمانية الواقع على مقربة من غربي بطليوس ، وحصن متناجش على مقربة من شمالها الشرقي . ففي شهر رجب سنة ٥٦٤ هـ (أبريل سنة ١١٦٩ م) ، زحف جبرالدو سمبافور في جموعه على مدينة بطليوس ، وهاجمها ، ورأى واليها أبو علي عمر بن تيمصلت أنه لا يستطيع بحاميته الضعيفة أن يدفع الهاجمين ، فامتنع بالقصبة ، وبعث بصريخه إلى الموحدين بإشبيلية . وما كاد جبرالدو يستولى على المدينة حتى أقبل ملك البرتغال ألفونسو هنريكز في قواته ، ودخل بطليوس ، وحاصر الموحدين في القصبة ، وحدد لهم مهلة للتسليم . وكانت قصبة بطليوس من أعظم القصبات الأندلسية وأمنعها^(١) ، ومن ثم فإن ابن تيمصلت كان على يقين من أنه سوف يستطيع الصمود مع حاميته حتى تصل الأمداد الموحدية من إشبيلية . بيد أن النجدة جاءت لأهل بطليوس ، وللموحدين المحصورين بقصبتها ، من طريق آخر لم يكن في الحسبان . جاءت على يد ملك ليون فرناندو الثاني .

ويجب لكي نفهم هذا الموقف الذي ترتب عليه اشتباك الملكين النصرانيين ألفونسو هنريكز ملك البرتغال ، وفرناندو الثاني ملك ليون ، داخل مدينة بطليوس ، وتحت أسوار قصبتها ، أن نرتد قليلاً إلى الوراء ، لنلقى بعض الضوء على علائق هذين الملكين المتنافسين ، في هذه الفترة الدقيقة من حياة الحاضرة الأندلسية الثالثة — بطليوس . وقد سبق أن شرحنا بإيجاز سبب الحصومة الرئيسي بينهما ، وهو ما يتمسك به فرناندو الثاني من دعوى السيادة على البرتغال التي ورثها عن أبيه القيصر ألفونسو ريمونديس ، ورفض ملك البرتغال أن يعترف بظل من هذه السيادة ، وما اقترن بذلك من إنشاء فرناندو الثاني لمدينة ردريجو الحصينة على مقربة من حدود البرتغال ، لكي يتخذها قاعدة للإغارة على أراضى

(١) أتيج لى أن أزور مدينة بطليوس وأن أشاهد بقايا قصبتها العظيمة الواقعة فوق الربوة الصخرية المشرقة على نهر وادى يانه ، والتي مازالت تدل على ما كانت عليه هذه القصبة من الضخامة والمنعة .

البرتغال . كل ذلك بالرغم مما كان يربط هذين الملكين من وشائج المصاهرة الوثيقة ، إذ كان ملك ليون متزوجاً من ابنة خصيمه ملك البرتغال . وكان ألفونسو هنريكيـز قد بعث ولده سانشو في جيش ليهاجم مدينة ردرىجو ويخربها ، فبادر إليها فرنانـدو في قواته ، ورد البرتغاليين عنها ، وهزمهم هزيمة شنيعة ، وأسر عدداً وافراً منهم ، بيد أنه أطلق في الحال سراحهم سعيّاً إلى استرضاء ملك البرتغال ، وتهدئة خصومته . ولكن الأمر كان بالعكس ، فقد عول ألفونسو هنريكيـز على الانتقام لتلك الهزيمة ، وخرج في أواخر سنة ١١٦٧ م من شمال البرتغال في جيش قوى ، وهاجم جليقية من أراضي مملكة ليون واستولى على مدينة توى ، ثم على مدينتي ليا وترونيو وما حولها من الأراضي ، ووضع فيها حاميات برتغالية قوية ، وذلك بحجة أن هذه المدن والأراضي كانت من أملاك أمه الملكة تيريسا ، تلقى عنها أبيها ألفونسو السادس مهراً لزواجها .

وفي العام التالي ، سنة ١١٦٨ م ، وضع ألفونسو هنريكيـز خطته لمحاربة المسلمين ، والبدء بغزو مدينة بطليوس ، أهم وأقرب القواعد الإسلامية إليه . ونفذ خطته بالفعل بالتعاون مع جيرالدو سمبافور في أبريل سنة ١١٦٩ م . وكان فرنانـدو ملك ليون ، يرقب مشاريع ملك البرتغال وحركاته بمنتهى العناية ، ويحرص بالأخص على ألا تمتد فتوحه إلى تلك المنطقة التي كان ملوك قشتالة وليون يعتبرونها منطقة لنشاطهم وفتوحهم . وكان سانشو الثالث ملك قشتالة ، قد عقد مع أخيه فرنانـدو على أثر موت أبيهما القيصر ألفونسو ريمونديس ، معاهدة لتقسيم أراضي اسبانيا المسلمة ، إلى منطقتي نفوذ ، يختص كل منهما بواحدة منهما ، فيختص ملك ليون بالغزو والفتح في المنطقة التي تمتد من بلبة حتى أشبونة ومتانجش وماردة وبطليوس ويابرة وشلب وكذلك نصف مدينة إشبيلية ، وسائر الحصون الواقعة في تلك المنطقة ، ويختص ملك قشتالة بالغزو والفتح في سائر ما تبقى من أراضي اسبانيا المسلمة ، ولاسيما المنطقة الواقعة فيما بين الوادي الكبير وغرناطة ، ومن ثم فإنه لما سار ألفونسو هنريكيـز إلى غزو بطليوس ، اعتبر فرنانـدو هذه الحركة اعتداء على حقوقه ومنطقة نفوذه ، وماكاد ملك البرتغال يدخل بطليوس ، حتى كان فرنانـدو قد سار بقواته في أثره ، يحاول رده عن القاعدة الإسلامية . فلما اقترب من بطليوس بعث رسوله خفية إلى واليها ابن تيمصـلت المحصور بالقصبة ، وإلى أهل المدينة من الأندلسيين ، ينبئهم بمقدم

ملك ليون لإنجادهم ، ويطلب إلى ابن تيمصلت أن يدلّه على الطريق الذي يمكن أن يسلكه لدخول المدينة . فبعث ابن تيمصلت بعض رجاله إلى مكان خفي من بعض أسوار القصبّة ، لم يظن إليه البرتغاليون ، فلما تحقّقوا من وصول القوات اللبونية ، نقبوا السور فخرج منه الموحدون إلى أقرب أبواب المدينة وفتحوه ، وأدخلوا منه جند ليون ، واجتمع الموحدون وجند ليون على قتال القوات البرتغالية داخل المدينة ، وحمل القتال بين الفريقين ، وأبدى الموحدون وحلفاؤهم اللبونيون منتهى الإقدام والبراعة ، في مقاتلة البرتغاليين ، حتى مزقت صفوفهم . واضطر ملكهم ألفونسو ، هنريكيّز إلى الفرار ، ولكنه عندما أراد أن يقتحم باب المدينة وهو في منتهى السرعة والذعر ، اصطدمت ساقه اليمنى بعمود الباب بشدّة أو علقت برتاج الباب على قول آخر ، فسقط من فرسه ، وقد كسرت ساقه ، وأنغمى عليه ، فحمله أصحابه وهو فاقد الوعي ، إلى بلدة ، « قايّة » الواقعة على مقربة من شمال المدينة فطاردهم قوات فرناندو ، وأسرت الملك الجريح ، وعدة من أكابر أصحابه . وعامل فرناندو خصمه الملك بمنتهى الكرم والشهامة ، فعهد إلى أطبائه بمعالجته ، ثم أطلق سراحه ، بعد أن تعهد له برد سائر الأماكن التي انتزعها من جليقية والتنازل عن كل دعوى بشأنها . وعاد ألفونسو هنريكيّز إلى قلمرية ، وقد فتت الهزيمة في عضده ، وشلت ساقه ، حتى أنه لم يستطع بعد ذلك اليوم أن يركب فرساً^(١) .

أما جيرالدو سيمافور فقد فر على أثر الموقعة ، حسبما يذكر لنا ابن صاحب الصلاة . وفي رواية أخرى أنه أسرم مع مليكه ، ثم أطلق فرناندو سراحه بعد أن تعهد بالتنازل عن الأماكن والحصون التي استولى عليها شمالي بطليوس مثل ترجالّه ، وقاصرش ومنتانجش ، وقد استولى الموحدون على قاصرش وحصن شربة فيما بعد .

ووقعت هزيمة البرتغاليين وإخراجهم من بطليوس في اليوم الثاني والعشرين من شعبان سنة ٥٦٤ هـ (٢١ مايو سنة ١١٦٩ م) . وفي الحال سلم فرناندو المدينة إلى واليها ابن تيمصلت ، وأوفى فرناندو في هذه المناسبة بعهوده للخليفة الموحدى أتم وفاء ، وأبدى للموحدين إخلاصه وعرفانه لسابق عونهم وإنجادهم . واستولى

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٢٢ ب و ١٢٣ ا ، والبيان المغرب

القسم الثالث ص ٨٠ و ٨١ . وكذلك M. Lafuente : Hist- General de Espana. T. III،

الموحدون على سائر ما تركه البرتغاليون وراءهم من العتاد والمتاع والمؤن ، وكانت مقادير وفيرة . وعاد فرناندو في قواته ظافراً إلى ليون . ووصلت أنباء النصر إلى إشبيلية ، على عجل ، وتلقاها الشيخ أبو حفص عمر ، بينما هو يستعد للسير في قواته إلى بطليوس لإنجادها . فكتب في الحال إلى الخليفة أبي يعقوب ، رسالة بالفتح ، فسر الخليفة بذلك أمما سرور ، ورفع إليه الشعراء مدائحهم وتهانيهم . ومنها قصيدة لشاعر الدولة الموحدية أبي عمر بن حربون هذا مطلعها :

بسعدك أضحي الدين جذلان باسما وباسمك أمسى الشرك للشرك هادما
إلا أنها فيما وعدت لآية يدين بها من كان بالله عالماً^(١)

- ١ -

لما انتهت معركة بطليوس بهزيمة البرتغاليين ، وتوكيد سيادة الموحدين على المدينة ، غادر الشيخ أبو حفص عمر إشبيلية في قواته وسار إلى قرطبة ، لمعاونة واليها السيد أبي إسحاق إبراهيم ، على تقوية جبهتها الدفاعية . وكان يخشى دائماً أن تهددها قوات ابن مردنيش من ناحية الشرق ، عن طريق جيان قاعدة حليفه وصهره إبراهيم بن همشك ، وتهدها القوات القشتالية من الشمال . بيد أن الخطر من ناحية الشرق تضاعف منذ موقعة فحوص الجلاب ، التي هزم فيها ابن مردنيش وحطمت قواته . ومن جهة أخرى فقد وقع الشقاق بين ابن مردنيش وصهره ابن همشك ، وذلك بسبب طلاق ابن مردنيش لزوجته صبيحة ابنة إبراهيم ، بعد أن بالغ في إهانتها وإيلامها ، فغادرته إلى كنف أبيها ، وأسلمت إليه ابنها منه ، ومما يروى أنها سئلت عن ولدها ، وكيف تصبر عنه ، فأجابت « جروكلب ، جرو سوء ، من كلب سوء لا حاجة لي به » فأرسلت كلمتها في نساء الأندلس مثلاً^(٢) . وكانت الوحشة قد سادت قبل ذلك بين ابن مردنيش وصهره ، وخشى ابن همشك على نفسه من غدر صهره ، وراعه ماشهده بنفسه من إقدام ابن مردنيش على قتل وزيريه ابني الخدع وبنائهما في الحائط ، وغير ذلك من الأعمال المروعة ، فاشتدت بينهما الوحشة ، وانقلبا إلى خصمين لدودين ، والظاهر من أقوال ابن الخطيب أنه قد وقعت بين ابن مردنيش وابن همشك على

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة هذه القصيدة بأكملها في « المن بالإمامة » وتشغل اللوحات من ١٢٤ إلى ١٢٦ .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣١٠ .

أثر ذلك ، معارك ومناوشات هلك فيها جماعة من أنصار الفريقين . وكان ابن همشك يسيطر على قطاع جيان وبياسة وأبدة ، نائبا عن صهره ابن مردنیش . فلما اضطرم العداء بينهما ، أخذ ابن مردنیش يرهقه بغاراته ، ويؤايب عليه قواده وجنوده ، وابن همشك يقاوم ما استطاع .

على أن ابن همشك لم يلبث أن جنح إلى قرار حاسم ، فكتب إلى الشيخ أبي حفص بقرطبة رسالة يعلن فيها توبته واعتناقه للمذهب التوحيد ، ويعرض تمكين الموحدین من بلاده ، وهو ما يصفه ابن صاحب الصلاة « بتوحيد ابن همشك » وفي هذا التعبير ذاته ما يدل على أن « التوحيد » لم يكن يقتصر على الناحية الدينية ، ولكنه كان يعنى بالأخص الخضوع السياسى لسلطان الدولة الموحدية . ثم شفع ابن همشك رسالته بالسفر إلى قرطبة ، وذلك فى رمضان سنة ٥٦٤ هـ (يونيه ١١٦٩ م) ، فاستقبل من واليها السيد أبي إسحق ومن الشيخ أبي حفص ، وأكابر الموحدین بترحاب ومودة . وأعلن ابن همشك أنه « قد عاهد الله تعالى بالتزام الأمر العزيز المطاع ، والدخول فى حكم التوحيد » . ثم كتب إلى الخليفة أبي يعقوب يسجل توبته ودخوله فى الطاعة ، ويلتمس العفو ، وحسن المثاب . فرد الخليفة بحسن القبول ، وأمر بتقريبه ، وإكرامه ، واتصلت القواعد والأراضى التى كانت بيد ابن همشك بأراضى الموحدین فى أواسط الأندلس . وكان انضمام ابن همشك إلى الموحدین على هذا النحو ، ضربة أصابت ابن مردنیش فى الصميم ، إذ كان ابن همشك ساعده الأيمن ، وكان أقدر قواده وأشدهم وطأة على أعدائه ، ومن ثم فقد عول ابن مردنیش على الانتقام من صهره ونائبه السابق ، ومعاقبته على خيائنه ، فدفع سائر قواته المجاورة لأراضية إلى قتاله ، وهاجمت هذه القوات جيان واستمرت فى مقاتلة ابن همشك وإرهاقه مدى عام ، وهو يستصرخ الموحدین لإنجاده . ولكن الموحدین لم يروا أن يتدخلوا فى تلك المعركة ، إذ كانت لديهم خطة أخرى لمقاتلة ابن مردنیش فى عقر بلاده^(١) .

وفى أثناء ذلك ورد أمر الخليفة بتعيين الحافظ أبي يحيى بن الشيخ أبي حفص عمر والياً لمدينة بطليوس مكان ابن تيمصلى . وكان أبو يحيى من أنجب الحفاظ وأوفرهم فروسة وعلماً . وكان عندئذ مع أبيه بقرطبة . فسار إلى بطليوس فى جملة

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٢٦ أ و ب ، والبيان المغرب القسم

كبيرة من الموحدين والجند الأندلسيين ، وتقلد ولايتها وأخذ في تأمينها وتحصين أطرافها . وقام بحفر بئر كبيرة داخل القصبه تنفيذاً لأمر الخليفة ، يسرى إليها ماء نهر وادى يانه ، وذلك تحوطاً واستعداداً لما قد يقع من حصار أو غيره من الطوارئ ، وعرفت هذه البئر باسم « القيوراجة » . وكانت من خير ما عمل لتأمين القصبه الشهيرة وتحصينها . وكان المغامر البرتغالى جيرالدو سمبافور ما يزال مرابطاً بقواته في حصن جلمانية القريب من بطليوس ، فانهز فرصة انشغال الوالى الحديد بأعمال الحفر والتحصينات ، وأخذ يرهق المدينة بغاراته المتوالية ، والحافظ أبو يحيى يبذل جهده في مدافعته ورده بقواته . وأخيراً نظم جيرالدو حملة قوية ، اشتركت فيها قوة كبيرة من نصارى شترين ، ورتب من جنده كمائن في مواضع مستورة ثم هاجم أحواز بطليوس القريبة ، فخرج إلى لقائه الحافظ أبو يحيى في قواته ، وما كاد الموحدون يحملون عليه ، حتى تظاهر بالهزيمة والفرار ، فتبعه الموحدون حتى وصل إلى مقر الكمائن ، وعندئذ أطبق النصارى على الموحدين ، وقتلوهم بشدة ، فانهزم الموحدون وأسر النصارى منهم حملة بينهم عدة من الأكابر ، افندى معظمهم فيما بعد ، وكان ذلك في أواخر سنة ٥٦٤ هـ (أواخر ١١٦٨ م) (١) .

وفي هذه السنة أيضاً — سنة ٥٦٤ هـ — استدعى الخليفة أخويه السيد أبا إبراهيم لإسماعيل والى إشبيلية ، والسيد أبا إسحق إبراهيم والى قرطبة ، والشيخ الحافظ أبا عبد الله بن أبى إبراهيم والى غرناطة ، إلى الحضرة فغادروا الأندلس في أوائل جمادى الأولى من هذا العام (فبراير ١١٦٩ م) . والظاهر أن الغرض من هذا الاستدعاء ، كان يدور حول الاستعداد للحملة الكبرى التى يزمع الخليفة تسييرها لمقاتلة ابن مردنيش . وأقام هؤلاء الولاة فى الحضرة حتى أوائل سنة ٥٦٥ هـ ثم انصرف السيدان أبو إبراهيم ، وأبو إسحق إلى الأندلس ، وصحبهما أخوهما السيد أبو على الحسن الذى ندب والياً لسبتة ، ومنطقة جبال غمارة ، ليتقلد ولايته . وبقى الحافظ أبو عبد الله بالحضرة حينئذ آخر ، وسار السيد أبو إبراهيم إلى إشبيلية والسيد أبو إسحق إلى قرطبة . وكان معهما وال جديد عينه الخليفة ، هو الحافظ أبو يحيى زكريا بن يحيى بن شيبان أحد أبناء أشياخ خمسين ، وقد عين والياً لطبيرة وشنتمرية الغرب ، من أعمال ولاية الغرب الأندلسية ، وكانت هذه المنطقة التى تقع فى جنوب البرتغال ، تضطرم بالفتنة من آن لآخر ، فضبطها الحافظ

(١) ابن صاحب الصلاة لوحة ١٢٨ اوب و ١٢٩ ، والبيان المغرب ص ٨٣ .

أبو يحيى بحزم وقوة ، وقمع بذور الفتنة ، واستمر في حكمها أعواماً طويلة ، وقد ساد بها السلام والأمن .

وكان من أهم الأحداث في هذه السنة — سنة ٥٦٥ هـ (١١٧٠ م) — إغارة القشتاليين على الأندلس . وكان عدوان القشتاليين على الأراضى الإسلامية قد انقطع حيناً منذ وفاة القيصر ألفونسو ريمونديس ، واضطراب الحرب الأهلية بين الممالك الإسبانية النصرانية ، وانشغال قشتالة بنوع خاص بالصراع بين أسرقى لارا وكاسترو القويتين . فلما انتهى هذا الصراع الذى اشترك فيه فرناندو ملك ليون إلى جانب آل كاسترو ، بانتصار آل لارا وهزيمة آل كاسترو ، بسط آل لارا سيادتهم على طليطلة عاصمة قشتالة ، ووضعوا الملك الصبى ألفونسو الثامن تحت حمايتهم ، وقام بالوصاية عليه كبير الأسرة الكونت نونيو دى لارا (سنة ١١٦٦ م) . ولم يمض قليل على ذلك ، حتى اعتزم الكونت نونيو — ويسميه ابن صاحب الصلاة ، القمط نونه ، ويصفه « بظفر أدفونش الصغير » — أن يقوم بغزوة للأراضى الإسلامية ، يكون فيها تقوية سلطانه ، وتعزيز هيئته . فخرج في قوائمه من طليطلة ، واخترق موسطة الأندلس ، وسار جنوباً ، وهو يشحن أينما حل ، دون أن تعترضه أية قوة معارضة . ثم عبر الوادى الكبير ، وشنيل ، وانتهى في غزوته إلى فحص رندة ، وفحص الجزيرة الخضراء ، وأو أنه استطاع بعبارة أخرى ، أن يخترق الأندلس من أقصاها إلى أقصاها دون أن يلقى أية مقاومة على نحو ما فعل ألفونسو المحارب قبل ذلك بنحو نصف قرن . ويقول ابن صاحب الصلاة ، إنه وصل في سيره إلى البحر ، وقتل المسلمين في تلك الأراضى ، واستولى على كثير من السبى والغنائم والماشية ، ونحن لانستطيع أن نفسر جمود الموحدين إزاء مثل هذا العدوان الجريء خصوصاً وقد كانت لديهم في قرطبة قوات كبيرة بقيادة الشيخ أبى حفص عمر ، اللهم إلا حرصهم على قواتهم ، وادخارها لمحاربة ابن مردنيش^(١) .

ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة طائفة من الأحداث الطبيعية التى حدثت في تلك الفترة . منها تغير الهواء بمراكش أو بعبارة أخرى ظهور وباء مرض منه معظم السادات وكثير من الناس ، وذلك في أواخر سنة ٥٦٤ هـ . ومنها توقف المطر وحدث الشترق بالأندلس حتى شهر ديسمبر سنة ١١٦٩ ، ثم سقوط

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٣٠

الأمطار بعد ذلك . وفي شهر جمادى الأولى من سنة ٥٦٥ هـ ، حدثت زلازل عظيمة عند طلوع الشمس وعند زوالها في عدة من مدن الأندلس ، وتوالت بالأخص في مدينة أندوجر مدة أيام حتى كادت أن تغوص منها الأرض ، ووقعت كذلك بقرطبة وغرناطة وإشبيلية . يقول ابن صاحب الصلاة ، وكان من سكان إشبيلية « فكان الرائي يرى حيطان الديار تضطرب وتميل حتى الأرض ، ثم ترتفع وترجع على حالها بلطف الله تعالى . وتهدمت من ذلك ديار كثيرة في البلاد المذكورة وصوامع مساجدها » (١) .

وفي شهر رجب سنة ٥٦٥ هـ (أبريل سنة ١١٧٠ م) ، كثرت غارات جبر الدو سمبافور على مدينة بطليوس ، واشتد في إرهابها ، وقطع المؤن عنها ، حتى شعرت المدينة بالضيق ، فلما علم بذلك الموحدون في إشبيلية ، قرروا أن يرسلوا إليها مدداً وافرأ من المؤن ، فجهزت إليها قافلة من نحو خمسة آلاف دابة تحمل الطعام والسلاح والعلوفات ، وقدم لحراستها الحافظ أبو يحيى زكريا بن علي في قوة من الجند الموحدين بإشبيلية ، ولما اقتربت هذه الحملة من مدينة بطليوس ، خرج إليها جبر الدو في قواته وأهل شترين ، ونشبت بين الفريقين معركة حامية استمرت عدة ساعات وهزم فيها الموحدون أشنع هزيمة ، وأبيدت صفوفهم ، وسقط قائدهم الحافظ أبو يحيى ضمن القتلى ، واستولى النصاري على قافلة المؤن كلها . وكان ذلك في يوم ٢٦ شعبان سنة ٥٦٥ هـ (١٤ مايو سنة ١١٧٠ م) . ووقعت أنباء هذه النكبة لدى الموحدين بإشبيلية وقرطبة أسوأ وقع ، وبعثوا بخبرها إلى الخليفة في مراکش (٢) .

وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف مريضاً في ذلك الوقت ، وقد بدأ مرضه منذ أوائل سنة ٥٦٥ هـ ، واستمر أكثر من عام . ونحن نذكر أن الخليفة كان منذ أوائل سنة ٥٦٤ هـ يزمع تنظيم حركة الجهاد بالأندلس ، وأنه وجه رسالته بذلك إلى الموحدين بها في ربيع الآخر من هذا العام ، ويذكر لنا ابن صاحب الصلاة أن الخليفة أمر بهذه المناسبة بضرب الطبول والخروج ، وركب بنفسه في هيئة الغزو ، وخرج من مراکش ، ونزل بوادي تانسيفت على مقربة منها ، معلناً

(١) ابن صاحب الصلاة لوحة ١٣٠ ب .

(٢) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٣١ ، والبيان المغرب القسم الثالث ،

عزمه على الجهاد بالأندلس ، وأقام به ثلاثة أيام ، وانتهى رأى الموحدين عندئذ إلى أن يتقدم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى بعسكر ضخم من الموحدين . وقد عبر الشيخ البحر إلى الأندلس بعسكره ، ونزل في إشبيلية في نفس الوقت الذى كانت قد أنقذت فيه بطليوس من خطر السقوط فى أيدى البرتغاليين ، بمعاونة ملك ليون ، وذلك كله حسبما فصلناه فى موضعه .

ثم جاء مرض الخليفة ، فعاقه عن الاستمرار فى تنفيذ حركة الغزو التى وعد بها الموحدين بالأندلس . بيد أنه استمر بالرغم من مرضه فى استدعاء جموع العرب من إفريقية ، وجموع الموحدين من كافة الأنحاء ، وتزويدهم بالأعطية والكسبى . وكان تطور الحوادث فى الأندلس ، يؤذن بضرورة القيام باستعدادات عسكرية عاجلة توجه إلى شبه الجزيرة ، وذلك قبل أن تم الأهبة لتنفيذ الغزوة الكبيرة التى يزعم الخليفة القيام بها . وكان موطن الصراع يبدو فى ناحيتين ، الأولى فى شرق الأندلس ، حيث كان ابن همشك منذ دخوله فى طاعة الموحدين ، يتلقى ضربات صهره القديم ابن مردنيش باستمرار ، ويفقد معاقله تباعاً ، ويلج فى طلب النجدة من حلفائه الحدد ، الموحدين ، ويبعث بصريخه المتوالى إلى الخليفة وإلى الشيخ أبى حفص بقرطبة ، وقد أوفد إلى مراکش لهذا الغرض وزيره القدير أبا جعفر الوقشى ، وكان قد جنح مثله إلى طاعة الموحدين . ثم عبر ابن همشك بنفسه البحر إلى العدو ، وقصد إلى الخليفة بمراكش (٥٦٥ هـ) مؤكداً طاعته ومكرراً صريخه . وكانت الناحية الثانية من موطن الصراع ، فى غربى الأندلس ، حيث تطورت الحوادث تطوراً سيئاً ، وغدت مدينة بطليوس مرة أخرى ، عرضة لتهديد النصارى المستمر . وكان يلوح أن حوادث شرقى الأندلس تتطلب تدخلاً عاجلاً ، يكفل حماية ابن همشك وأراضيه التى غدت جزءاً من أراضى الموحدين ، والقضاء نهائياً على حركة ابن مردنيش والاستيلاء على بلاده ، حتى تخضع الأندلس بذلك من أقصاها إلى أقصاها إلى سلطان التوحيد ، وكان الشيخ أبو حفص يؤيد هذه السياسة ، ويبعث من قرطبة إلى الخليفة بالحث على اتباعها . ومن ثم فقد تقرر أن يسير السيد أبو حفص أخو الخليفة فى جيش ضخم من الموحدين إلى جزيرة الأندلس لغزو ابن مردنيش وحلفائه النصارى ، ومقاتلته فى قلب بلاده ، والاستيلاء على مرسية ، قاعدته ومقر رياسته .

وخرج السيد أبو حفص فى عسكره من حضرة مراکش فى أول شهر

ذى القعدة سنة ٥٦٥ هـ (أغسطس سنة ١١٧٠ م) ومعه أخوه السيد عثمان أبو سعيد ، وعدة من الأشياخ والحفاظ الموحدين ، ومن زعماء الأندلس ، أبو محمد سيدرأى بن وزير ، وأخوه أبو الحسن على بن وزير ، وعدة من القادة الأندلسيين النازلين بمراكش ، صحبهم لينتفع بخبرتهم ومشورتهم فى تدبير شئون الجزيرة ، وتنظيم الخطط العسكرية بها . فوصل فى قواته إلى إشبيلية فى أوائل سنة ٥٦٦ هـ . ووافاه بها من قرطبة الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ومعه إبراهيم بن همشك . وعقد السيد أبو حفص وصحبه من الأشياخ والزعماء مؤتمرا لبحث شئون الحرب ، وتقرر فيه أن يبادر السيد أبو سعيد أولا فى عسكر إلى مدينة بطليوس ، لتقوية جبهتها الدفاعية . فصار إليها فى جيش من الموحدين والعرب ، ومعه من زعماء الأندلس سيدرأى ابن وزير ، وأبو العلاء بن عزون ، وقد جاءت هذه الحركة فى الواقع فى الوقت المناسب ، إذ كانت بطليوس فى تلك الآونة بالذات عرضة لخطر غزو جديد .

ذلك أن فرناندو الثانى ملك ليون ، لما رأى نشاط البرتغاليين المتكرر فى مهاجمة بطليوس ، وإلحاح جيرالدو سيمافور فى إرهابها ، وما حل بقافلة الأمداد الموحدية من هزيمة ساحقة ، خشى أن ينهى الأمر بسقوط المدينة فى أيدي البرتغاليين . وقد رأينا من قبل حرص ملوك قشتالة وليون على اعتبار بطليوس وما إليها داخلة فى نطاق فتوحاتهم ، وحرصهم على ألا يفوز البرتغاليون بأية فتوح فى هذه المنطقة . ومن ثم فقد خرج فرناندو فى قواته قاصداً إلى بطليوس ليقوم بالاستيلاء عليها ، قبل أن تسقط فى أيدي البرتغاليين ومليكيهم ألفونسو هنريكز ، وفى الوقت الذى وصل فيه إلى سهل الزلاقة الواقع شمال شرقى بطليوس على مقربة من نهر وادى يانه ، اقترب الموحدون من المدينة ، ولما علم السيد أبو سعيد بالموقف ، أرسل سيدرأى بن وزير ، وأبا العلاء بن عزون ، وبعض أشياخ الموحدين إلى المعسكر النصرانى ، ليتعرفوا نيات ملك ليون ، وهل هو باق على صلحه ومحالفته للموحدين أم قد نقض هذا الصلح ، فرحب بهم ملك ليون ، وأجابهم بأنه خرج لحماية بطليوس ، « وإساکها لأمر المؤمنين » فاقترح الرسل أن يجتمع الملك النصرانى بالسيد أبى سعيد ، لتجديد الصداقة والصلح ، فاستجاب فرناندو لدعوتهم : وسار فى نفر من خاصته إلى مقربة من بطليوس ، والتقى بالسيد أبى سعيد وكلاهما يمتطى صهوة جواده ، وتم بينهما التفاهم وتوكيد أواصر المودة والصلح ، وانصرف ملك ليون على أثر ذلك فى قواته إلى بلاده .

أما السيد أبو سعيد فقد سار في عسكره توأ إلى حصن جلمانية الواقع على مقربة من غربي بطليوس ، والذي اتخذته البرتغاليون بقيادة جيرالدو سمبافور قاعدة للإغارة على المدينة وإرهاقها ، ونازله واستولى عليه عنوة ، ثم هدمه ، وانقضت بذلك غمته ، وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ (نوفمبر ١١٧٠ م) . وعلى أثر ذلك عاد السيد أبو سعيد في صحبه وعسكره المظفر إلى إشبيلية^(١) .

وما كاد السيد أبو سعيد يصل إلى إشبيلية ، حتى عقد السيد أبو حفص مؤتمراً حربياً جديداً حضره السيد أبو سعيد ، والشيخ أبو حفص عمر بن يحيى ، واستقر فيه الرأي على القيام بمحاربة ابن مردنيش ، وتحطيم سلطانه في شرقي الأندلس . وكان محمد بن سعد بن مردنيش ، قد اضطربت شتونه خلال ذلك ، وأخذت تحبوا قواه ، وموارده ، ولا سيما منذ هزيمة فحص الجلاب الساحقة . وكان من أهم العوامل في انحلال سلطانه الشامخ الذي استمر منذ قيامه في شرقي الأندلس في سنة ٥٤٢ هـ ، نحو عشرين عاما يتحدى سلطان الموحيدين ، وينتبد سيادتهم ودعوتهم ، دون هوادة ، عاملاً يتلخص أولها في مصادقة ابن مردنيش للنصارى ، وانخلاعه إليهم ، واعتماده المطلق عليهم . وقد رأينا فيما تقدم كيف كان النصارى المرتزقة ، يؤلفون معظم قوات ابن مردنيش في أية موقعة يحوضها . والثاني ، فيما نشب من الشقاق بين ابن مردنيش ومعظم وزرائه وقادته .

فأما عن العامل الأول ، وهو مصادقة ابن مردنيش للنصارى ، فقد كان أمراً طبيعياً ، تلمية الظروف المحيطة بابن مردنيش ، وثورته على الموحيدين . وقد كانت ثورة ابن مردنيش ، تلمها فضلاً عن الأطماع السياسية ، بواعث وطنية ، هي التي دفعت سائر القواعد الأندلسية إلى الثورة على المرابطين ، وقد كان الموحدون خلفاء المرابطين في التغلب على الأندلس ، فكانت ثورة ابن مردنيش على الموحيدين ، وكفاحه ضدهم ، امتداداً لنفس الثورة ، ونزولاً على نفس البواعث . وكان النصارى حلفاء طبيعيين لابن مردنيش في هذا الصراع ضد العدو المشترك ، أعنى الموحيدين الوافدين على شبه الجزيرة من وراء البحر . ولم يغفل ابن مردنيش عن أهمية هذا العامل ، في اجتذاب النصارى إلى محالفته ،

(١) ابن صاحب الصلاة لوحات ١٣١ ب و ١٣٢ و ١٣٣ ، والبيان المغرب القسم الثالث

وحشدهم في صفوفه . وكانت تربط ابن مردنيش في البداية بسائر أمراء اسبانيا الصرانية ، روابط المودة والصداقة ، ولكنه لما توفي رامون برنجير الرابع ملك قطلونية وأراجون ، وخلفه ولده ألفونسو الثاني في حكم مملكة أراجون المتحدة ، تطورت الأمور ، وساءت العلاقات بينه وبين ابن مردنيش لإصراره على مطالبة ابن مردنيش بالحزبية التي كان يدفعها لأبيه ، ورفض ابن مردنيش لأدائها . وقد وصل العداء بين الأميرين ، إلى حد أن ملك أراجون ، بعث ببعض ضباطه وجنده للاشتراك مع الموحدين ضد ابن مردنيش في معركة فحص الجلاب^(١) . ثم تمسكت العلاقات بعد ذلك بينهما حينما تدخل ملك قشتالة ، وتعهد ابن مردنيش بأداء الحزبية وتعهد ألفونسو الثاني بالألا يساعد الموحدين أعداء ابن سعد بأية صورة . وأما علائق ابن سعد بقشتالة ، فقد كانت على خير ما يرام ، من المودة والصفاء ، وكانت تربط ابن مردنيش بألفونسو الثامن ملك قشتالة صداقة متينة العرى . وكان ابن مردنيش يحفظ في بلنسية بحامية كبيرة من الجند القشتاليين ، يعيشون في المدينة ، وتغص بهم طرقها وأحيائها ، حتى ضاق بهم أهل المدينة المسلمين ذرعاً ، وغادرها الكثير منهم إلى الضياع والقرى القريبة ، وهم يضطرمون سخطاً على أميرهم المسلم ، الذي مكن أعداءهم النصارى من دورهم وأموالهم ومرافقهم ، وشردهم بذلك عن أوطانهم . وقيل إن ابن مردنيش هو الذي أخرج أهل بلنسية منها ليوسع لحلفائه النصارى^(٢) . وقد كان لهذه السياسة في اصطفاء النصارى وما تقتضيه من إرهاب المسلمين بالمغارم والفروض ، وهي السياسة التي سبق أن أشرنا إلى طرف من عناصرها ومظاهرها ، أثرها العميق في النيل من هبة ابن مردنيش والسخط عليه ، وتبرم أهل شرق الأندلس برياسته وتمنيهم زوالها .

وأما العامل الثاني في تضعف قوى ابن مردنيش ، فهو خروج قادته ووزرائه عليه . وقد كان انشقاق صهره إبراهيم بن همشك عليه ، وانضمامه للموحدين ، بلا ريب أعظم ضربة هزت من رياسته وسلطانه . فقد كان ابن همشك ساعده الأيمن ، وكان أقدر قادته ، وأوسعهم حيلة وأبعدهم صيتاً ، بل كان ابن همشك في الواقع بالرغم من صفاته المثيرة ، ومن قسوته وروعة وسائله ، واستهانة بالدماء ، من أعظم قادة اسبانيا المسلمة في هذا العصر ، ان لم يكن

A. P. Ibarras : Valencia Arabe, p. 542 (١)

(٢) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٣٦

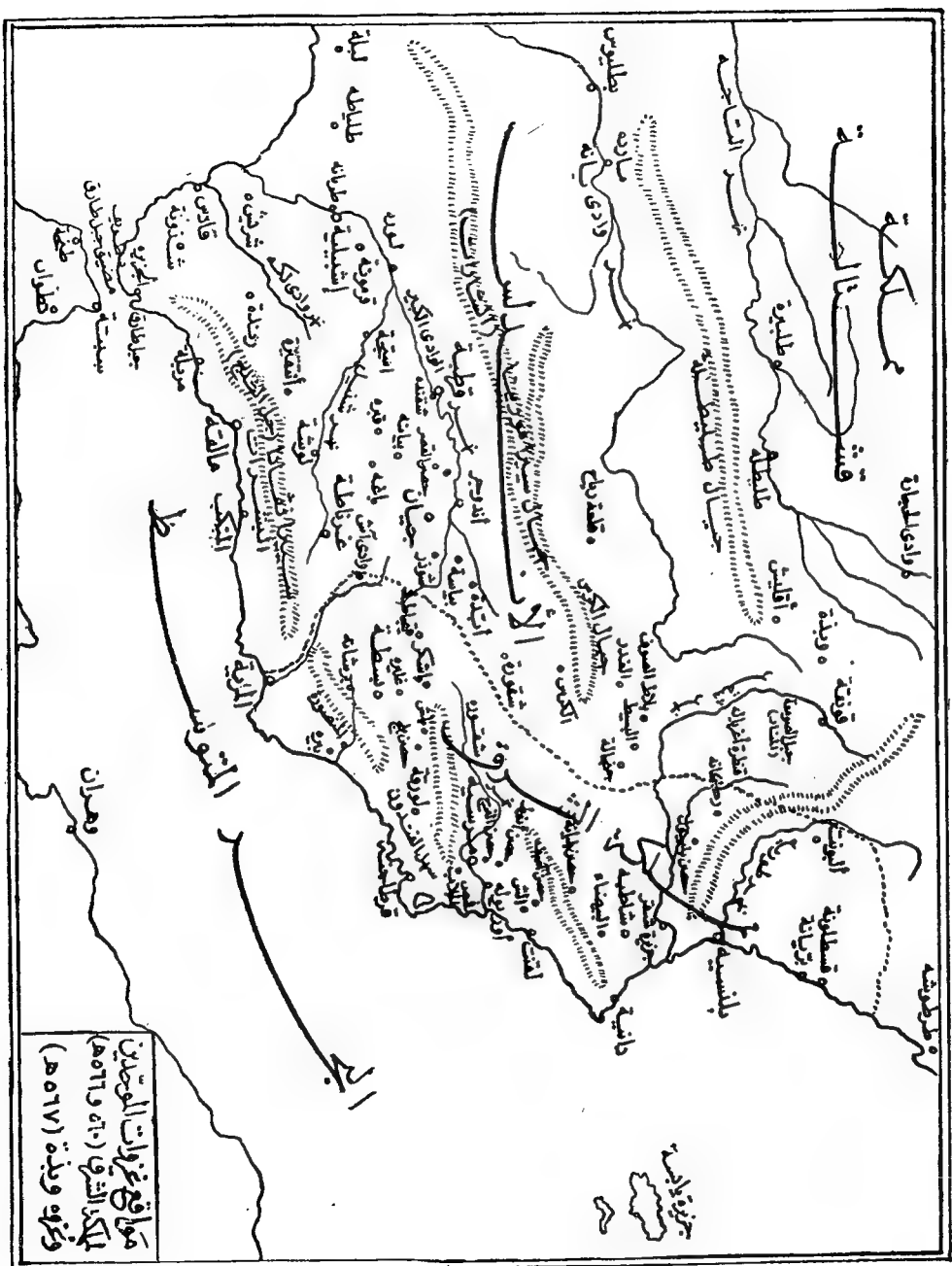
أعظمهم جميعاً . وخرج على ابن مردنیش غیر ابن همشک ، عدة من قرابته ووزرائه ، ومن هؤلاء صهره يوسف بن هلال ، وكان فارساً شجاعاً حازماً ، حظى لدى أميره فصاهره ، وندبه لرياسة حصن مطرنیش القريب من بلنسية وما حوله من الأراضى ، ثم فسد ما بينهما ، فنار ابن هلال ، ولحق بمورتله (مورادال) وتحالف مع أمير يرشلونة على أن يكون تحت حمايته ، فأيده بقوة من الفرسان ، وأخذ يغير على أحواز بلنسية ، وينزع بعض حصونها . وأوقع الهزيمة بابن مردنیش . ولكن حدث لسوء طالع له أن وقع ذات يوم أسيراً فى يد سرية جردها صهره على مورتلة ، فأخذ إليه ، فأسرع به إلى مورتلة ، وطالبه بإخلاؤها ، وإلا نزع عينه ، فأبى ، فأمر ابن مردنیش فأخرجت عينه اليمنى يعود ، ولما تمادى فى رفضه نزع عينه الأخرى ، ثم أخذ إلى شاطبه ، حيث بقى بها إلى أن توفى^(١) . وكانت هذه الوسائل المثيرة فى الانتقام من أبرز نزوات ابن مردنیش ، وقد سبق أن أشرنا إلى ما يرويه لنا ابن صاحب الصلاة ، من أنه قتل وزيريه ابني الخدع وذلك بينائهما فى الحائط .

كان ابن مردنیش يعانى من هذه الظروف العصبية والمتاعب المضنية ، حينما وضع الموحدون خططهم لإنزال ضربتهم الأخيرة به .

فى شهر رجب سنة ٥٦٦ هـ (مارس سنة ١١٧١ م) خرج السيد أبوحفص وأخوه السيد أبو سعيد ، والشيخ أبو حفص فى جموع الموحدين من إشبيلية ، ومعهم إبراهيم بن همشك ، فلما وصلوا إلى قرطبة ، أقاموا بها أياماً ، يضعون خططهم النهائية . ثم خرجت القوات الموحدية من قرطبة ، وسارت شرقاً قاصدة إلى مرسية ، وكانت أول قاعدة غزوها من قواعد ابن مردنیش مدينة قيجاطة^(٢) الواقعة شرقى جيان ، بينها وبين لورقة . فافتحموها بعد مقاومة قصيرة ، وقبض على قائدها الشرقى وأعدم بإشارة ابن همشك ، ثم اخترق الموحدون بعد ذلك بسائط الشرق فى طريقهم إلى مرسية حتى وصلوا إلى فحصها ، فنازلوها لاختبار مقدرتها الدفاعية ، وتغلبوا على حصن الفرج فى ظاهرها ، وقد كان متزه ابن مردنیش ، ومنزل لهوه وأنسه ، واستباحوا الرياض والبساتين ، وسائر القوى والبساتين الخضراء فى تلك المنطقة ، وابن همشك يقود الموحدين ويدلهم

(١) ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٦٠ و ٢٦٢

(٢) وهى بالإسبانية Quesada



على خير الطرق والمسالك . وكان ابن مردنیش خلال ذلك يستجمع قواته الأخيرة ، ويستصرخ حلفاء النصارى لإمداده ، فلم ياب منهم دعوته سوى أربعمائة فارس ، بعث بهم إلى لورقة ، وهى حصن مرسية الأمامى ، لتأمين الدفاع عن قصبتها ، وقد كانت بقيادة قائده الأثير وموضع ثقتة أبى عثمان سعيد ابن عيسى ، فضبطها أبو عثمان ، وحصنها أمنع تحصين . ولكن الأمر طال عليه ، وهو فى عزلة ٥ وذاع بين الناس ما يعاينه ابن مردنیش من اضطراب الأحوال والقلق ، وشعروا أن عاقبة قد دنت ، فعندئذ ثار أهل لورقة ، ودعوا للموحدين ، وهاجوا النصارى وأنصار ابن مردنیش ، فالتجأ هؤلاء جميعاً إلى القسبة وامتنعوا بها . واتجه أهل لورقة إلى الموحدين فى طلب الإنجاد ، وبعثوا بصريخهم إلى السيد أبى حفص بمحلتة بفحص مرسية ، يعلنون دخولهم فى دعوة التوحيد ، ويستنصرون به على عدوهم ، فسار السيد أبو حفص فى بعض قواته صوب لورقة ، ودخلها واحتلها ، وبقيت حاميتها بقيادة أبى عثمان على حالها من الامتناع . وحدث أن خرجت سرية موحدية تجول فى الأنحاء المجاورة ، فوقع فى يدها ولد القائد ، محمد بن أبى عثمان ، فأمر السيد أبو حفص أن يحمل إلى مقربة من القسبة بمرأى من أبيه عسى أن يحمله ذلك على التسليم ، فأبى القائد واستمر فى امتناعه ، حتى كادت الأقوات والماء أن تنفد ، فعندئذ ألح عليه حلفاؤه النصارى فى التسليم ، وتوسط ابن همشك لأبى عثمان فى الزول من القسبة مع جنده بالأمان ، وهكذا سلمت القسبة ، وانصرف القائد أبو عثمان مع صحبه إلى مرسية ، وانصرف الجند النصارى إلى بلادهم ، وتم بذلك فتح لورقة وخلوصها للموحدين .

وعلى أثر ذلك عاد السيد أبو حفص فى قواته إلى مرسية ، ليمضى فى حصارها ، وفى أثناء ذلك أعلن أهل ألش طاعتهم ودخولهم فى دعوة التوحيد ، وتبعهم فى ذلك أهل معظم الحصون المجاورة ، فتنحوا جميعاً الأمان ، ثم جهز السيد أبو حفص حملة من الموحدين والعرب تحت إمرة الشيخ الحافظ أبى عبد الله بن أبى إبراهيم ، سارت إلى مدينة بسطة فافتتحتها ودخلت فى طاعة الموحدين . وأعقبها الجزيرة — جزيرة شقر — الواقعة على مقربة من جنوبى بلنسية فأعلن أهلها التوحيد بزعامة عميدهم أبى بكر أحمد بن محمد بن سفيان الخزومى ، وطرردوا النصارى الذين كانوا بها . وكان أبو بكر زعيماً ناهياً من بيت عريق ، وزاهداً محسناً . وأديباً شاعراً ،

فلما رأى اختلال أمر ابن مردنیش وضغط الموحدین على قواعده ، دعا للموحدین وانضم إليه جيرانه ، فندب ابن مردنیش لقتاله ، أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد نائبه فى بلنسية ، وبعث أبو الحجاج قوة من الفرسان قامت بمنازلة الجزيرة ، ومحاصرتها والتضييق عليها ، فى منتصف شوال سنة ٥٦٦ هـ ، واستمر الحصار زهاء شهرين ، وابن سفيان يقاوم ما استطاع ، وابن سعد يوالى لإرسال الخند لتشدید الحصار ، ووصلت رسل الجزيرة إلى السيد أبى حفص بمحله بمرسية فى طلب الإنجاد ، فوجه معهم قائدهم السابق أبا أيوب بن هلال الشرقى والياً عليهم ، وكان قد دخل فى دعوتهم للتوحيد واستطاع أبو أيوب أن يقتحم الجزيرة ، وأن يقوم بضبطها وحمايتها أشهراً ، حتى مرض ابن مردنیش ولحق بمرسية عيلاً ، وتنفس مخرج الجزيرة^(١) .

وكان ابن مردنیش أثناء ذلك ، والموحدون قبالة مرسية ، يخرج بقواته من آن إلى آخر ، ويشتبك مع المحاصرين فى معارك طاحنة ، وكان أخوه الرئيس أبو الحجاج يوسف بن سعد ، يتولى الدفاع عن بلنسية ، وأحوازاها . وقد اختلف فى موقف يوسف من أخيه فى هذا المأزق العصيب ، فى رواية أنه خرج على أخيه ، وفر عنه إلى الموحدین^(٢) ، ودخل فى دعوتهم قبيل وفاة أخيه بنحو عام . وفى رواية أخرى ، أنه لما رأى تجهم الحوادث دعا فى بلنسية لبنى العباس ، وكانت الخليفة المستنجد بالله ، فكتب له بالعهد والولاية ، ثم بايع للموحدین (سنة ٥٦٦ هـ)^(٣) . بيد أنه يبدو من جهة أخرى أن هذه الرواية غير صحيحة ، وأن أبا الحجاج يوسف ، استمر يعمل إلى جانب أخيه بإخلاص ، وأنه اختص بالدفاع عن قطاع بلنسية ، بينما تفرغ أخوه محمد (ابن مردنیش) للدفاع الموحدین فى مرسية . والواقع أن هذه الفترة الأخيرة من حياة ابن مردنیش يكتنفها شيء من الغموض ، وفى بعض الروايات القتتالية ، أن ألفونسو الثانى ملك أراجون انهز فرصة ضغط الموحدین على ابن مردنیش ، وغزا أراضى بلنسية ، المتاخمة لحدود قطلونية ، واستولى منها على عدة مواقع وحصون ، وأنه أرسل حملة برية وبحرية لغزو بلنسية ذاتها ، فتولى الرئيس أبو الحجاج مدافعة

(١) ابن الأبار فى الحلة السيرة ص ٢٣٧

(٢) أعمال الأعلام ص ٢٧١

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦

القوات البرية ، وتولى ابن قاسم قائد أسطول ابن مردنیش مدافعة السفن النصرانية فهزمها وأحرق عدداً منها^(١) .

وجاءت حوادث ألمرية ضربة أخرى لابن مردنیش . وكان ابن مردنیش قد انتزع ألمرية من الموحدین ، وندب لولايتها قائده ابن مقدم . فلما اجتاحت الموحدون منطقة الأندلس الشرقية ، واستولوا على لورقة وبسطة ، واقتربوا من ألمرية ، قام بألمرية ابن عم وصهر لابن مردنیش على أخته ، هو محمد ابن مردنیش المعروف بصاحب البسيط ، وتعاون معه محمد بن هلال أحد القادة الخوارج على ابن مردنیش ، وأعلننا بطاعة الموحدین ، وبعثنا إلى السيد أبي حفص في طلب العون والإنجاد ، فوجه إليهم قوة من الجند الموحدین ، فقبض على الوالي ابن مقدم وأعدم . فلما علم ابن مردنیش بما حدث ، أمر بقتل أخته زوجة ابن عمه وكانت بمرسية ، وقتل ابنه منها ، فقتلا إغراقاً ، فجاء هذا الحادث البشع ، دليلاً جديداً على ما كان يتسم به ابن مردنیش من بالغ القسوة ، والاستهتار بسفك الدماء ، لاتعوقه في ذلك صلة رحم أو أية عاطفة إنسانية . يقول ابن صاحب الصلاة : « واختل ذهن ابن مردنیش في أثر ذلك ، وقل عون من الله ومن الناس هنالك ، وعاد صبحه كالليل الحالك ، وفزع من أذله أهله وقرابته وشيعته وخاصته ، واختلت حياته وحالته »^(٢) .

والواقع أن ابن مردنیش بما توالى عليه ، في تلك الآونة العصبية ، من الضربات الأليمة ، ومن انشقاق معظم قاداته ووزرائه وقرابته ، ومن استيلاء الموحدین على معظم قواعده ، وتشدهم في حصاره وإرهاقه ، قد بلغ ذروة اليأس والألم . وكانت الضربة الأخيرة والقاضية ، ما بلغه من عبور الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف نفسه إلى الأندلس في جموع جرارة من الموحدین والعرب ، ونزوله بإشبيلية ، وذلك في شوال سنة ٥٦٦ هـ ، فأيقن عندئذ بأنه لم تبق مندوحة عن الهزيمة المطبقة والسقوط النهائي . وكان يستشف خلال يأسه وألمه ، نذر الخاتمة المحتومة المروعة ، بيد أنه لم يهن ولم يفكر في أن يختتم ثورته العتيدة ولسلطانه العريض ، الذي استطال زهاء ربع قرن ، بالتسليم المهين ، لمن كان يعتبرهم أعداء قومه وبلاده ، على أنه لم يلبث أن انهارت بنيتة المتينة ، وحطمه الغم واليأس . ويبدو

A. P. Ibars: Valencia Arabe, p. 532 (١)

(٢) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٣٦ و ١٣٧ .

من أقوال ابن صاحب الصلاة ، أن ابن مردنيش قد انتهى به اليأس إلى نوع من الذهول والخلل ، وزاد من ذهوله ماعمد إليه أخوه الرئيس أبو الحجاج يوسف من المبادرة إلى التوحيد . ثم جاء الموت فأنقذه من المصير المروع الذي كان ينتظره . وكانت وفاته حسبما يقول لنا ابن صاحب الصلاة ، في العاشر من شهر رجب سنة ٥٦٧ هـ (٦ مارس سنة ١١٧٢ م) في الثامنة والأربعين من عمره ، وهو تاريخ يحمل طابع الرجحان لأنه قول المؤرخ المعاصر^(١).

وفي رواية أن ابن مردنيش لم يمت موتاً طبيعياً ، وأنه انتحر بتناول السم^(٢) ، أو أنه توفي مسموماً بيد والدته . ذلك أنه لما اشتد على أهله وكبراء دولته ، وأساء إليهم ، نصحته أمه ، وأغلظت له القول ، فنهزها وخافت بطشه ، لما تعلمه من وحشية طباعه ، فدبرت قتله بالسم^(٣) . على أن هذه الرواية ، لاتستند إلى أساس قوى ، فإن ابن صاحب الصلاة وهو المؤرخ المعاصر ، وشاهد العيان ، لم يقل لنا شيئاً عنها . ومن جهة أخرى فإن ابن الأبار ، وهو قريب من العصر ، وقد عاش في بلنسية في عهد حفيد يوسف بن مردنيش ، يذكر لنا أن ابن مردنيش ، مرض خلال محاصرته ، لحزيرة شقر ، فغادرها عليلاً إلى مرسية^(٤) . ويقول لنا المراكشي أيضاً إن ابن مردنيش توفي « حتف أنفه » خلال حصار مرسية^(٥).

وهكذا هلك محمد بن سعد بن مردنيش . وكان موته نذيراً بأنهيأ دولته الشاخنة ، التي استطاع بعزمه وجراته وشجاعته وبراعته ، أن ينشئها في شرق الأندلس ، ما بين طرطوشة شمالاً والمرية جنوباً ، وما بين شاطئ البحر شرقاً وجيان غرباً ، والتي لبثت زهاء ربع قرن تمثل سلطان الأندلس واستقلالها القومي ، وتنحدر سلطان الموحدين وجيوشهم المتدفقة من وراء البحر ، بل لقد لاح مدى حين أن ابن مردنيش يكاد يسيطر على الأندلس كلها ، وذلك حينما استولى على جيان وبياسة وأبدّة ووادي آش ، واخترق أواسط الأندلس حتى

(١) ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة (لوحة ١٦٥) . ويأخذ ابن الخطيب بهذه الرواية (الإحاطة ج ٢ ص ٩٠) . ولكن ابن خلكان يقول لنا إن ابن مردنيش توفي في التاسع والعشرين من رجب سنة ٥٦٧ هـ (٢٧ مارس سنة ١١٧٢ م) . راجع وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٣ .

(٢) M. Gaspar Remiro : Murcia Musulmana p. 228

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٣ .

(٤) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٣٧

(٥) المعجب ص ١٤٠

إشبيلية ، وحينما اجتاحت نائبه ومعاونيه ابن همشك وادى قرطبة ، وهدد قرطبة ذاتها ، واستولى على قرمونة ، ثم هزم الموحدون في مرج الرقاد واستولى على غرناطة . ولو لم تضع موقعة السيكة حداً لتقدمه ، لكان سلطان الموحدون في الأندلس عرضة للانهار ، ولكالت ثورة ابن مردنيش بالظفر التام . ولقد كان ابن مردنيش في الواقع يمثل بثورته ضد الموحدون ، كل ما كانت تبطنه الاندلس القديمة من الآلام والآمال القومية ، التي لبثت تجيش بها منذ استولى المرابطون على قواعدها ، وفرضوا سيادتهم عليها . ولم تغير سيادة الموحدون بعد المرابطين لشبه الجزيرة الأندلسية شيئاً من هذا الاتجاه القومي ، فقد كان الموحدون كالمرابطين بالنسبة للأندلس ، أجنب ، وكانوا مثلهم من القبائل البربرية ، التي لم تستطع منذ مثولها القوى في شئون الأندلس منذ أيام الحاجب المنصور ، أن تحرز من الأمة الأندلسية كثيراً من العطف والتقدير . ولم تكن فكرة الجهاد التي كان يحمل لواءها المرابطون ثم الموحدون ، وما كانت الجيوش المرابطية ، ثم الموحدية ، تبذله في سبيل حماية الأندلس ، ومحاربة اسبانيا النصرانية ، لتقضى تمام القضاء على الفكرة القومية الأندلسية ، وإن كانت تلتطف من آن لآخر من جذوتها واضطرامها . على أن ابن مردنيش لم يكن بالرغم من حصافته وجراته وشجاعته ، هو الشخصية المثلى لحمل لواء القومية الأندلسية ، فقد كانت ثورته على الموحدون ، تفقد كثيراً من قيمها المعنوية ، بما كان ينجح إليه من الإفراط في مصادقة النصارى ، والاستعانة بهم في حروبه ، وتمكينهم من قواعده ، وتشبه بهم في زيه ، وفي حياته الخاصة والعامة . وإلى جانب ذلك كان ابن مردنيش يتسم بطائفة من الخلال الذميمة ، فقد كان مسرفاً في الشراب ، واتخاذ الجوارى ، حتى « كان يراقده منهم جملة تحت لحاف واحد » ، منهمكاً في حب القيان والزمير والرقص^(١) ، ثم كان بعد ذلك طاغية ظلوماً ، بالغ القسوة ، مسرفاً في الانتقام ، مستهتراً بالدماء ، وكان عماله على شاكلته من الظلم والجور^(٢) . وتضع الرواية الإسلامية ابن مردنيش في سلك ثوار الأندلس ، وتنوه بذكائه وشجاعته ، وقد وصفه بعضهم بأنه « كان بعيد الغور ، قوى الساعد ، أصيل الرأي ، شديد العزم ، بعيد العفو ، مؤثراً الانتقام ، مرهوب العقوبة » .

(١) ابن الخطيب في الإحاطة (المطبوع) ج ٢ ص ٨٦ ، وفي أعمال الأعلام ص ٢٦٠ و ٢٦١ .

(٢) الإحاطة ج ٢ ص ٨٧ و ٨٨ .

وبالرغم من أن ابن صاحب الصلاة يقدمه لنا في كتابه « المن بالإمامة » في صور قاتمة ، ويصف أصحابه دائماً بالأشقياء ، فإنه في كتابه « ثورة المريدين » الذي يفصل فيه سير الأندلس ، يصف ابن مردنيش بقوله « كانت له فروسية وشجاعة وشهامة ورياسة »^(١) .

أما ما حدث عقب وفاة ابن مردنيش ، فتختلف الرواية في تصويره . ويبدو من أقوال ابن صاحب الصلاة ، أنه على أثر وفاته ، بادر تزايد وأشيائه ، بإعلان الطاعة للموحدين ، وأقنعوا ولده أبا القمر هلالاً بذلك ، فصدع برأهم ، وبادر إلى إعلان توحيدهم ، وطاعته ، وسار إلى إشبيلية ، ليؤكد ذلك لأمر المؤمنين أبي يعقوب . وقد سبق أن أشرنا إلى ما يذكره ابن صاحب الصلاة من أن أبا الحجاج يوسف أبا ابن مردنيش ، قد أعلن توحيدهم ، قبيل وفاة أخيه^(٢) .

ويذكر لنا عبد الواحد المراكشي ، أنه لما توفي ابن مردنيش ، خلال الحصار ، كتبت وفاته حتى قدم أخوه الرئيس أبو الحجاج يوسف من بلنسية ، وتباحث مع أكبر أبناء أخيه ، واتفق رأى الجميع على أن يدينوا بالطاعة لأمر المؤمنين أبي يعقوب ، وأن يسلموا إليه البلاد . ويقرن ذلك برواية أخرى خلاصتها أن محمداً بن سعد حين شعر بدينو أجله جمع بنيهم ، وكان له من الولد الذكور ثمانية ، هم هلال أبو القمر وهو أكبرهم ، وإليه أوصى ، وغانم ، والزبير ، وعزيز ، ونصير ، وبدر ، وأرقم ، وعسكر ، وقال لهم أنى أرى أمر هؤلاء القوم ، من الموحدين ، فى صعود ، وقد كثر أتباعهم ، ودخلت معظم البلاد فى طاعتهم ، وأنه يظن أنه لا طاقة لهم بمقاومتهم ، وأنه لذلك يحسن التسليم لهم طوعاً واختياراً فيحظوا بذلك عندهم ، قبل أن ينزل بهم ما أنزل بغيرهم من أهل البلاد التى دخلوها عنوة ، على أن عبد الواحد لا يجزم بصحة أى الروايتين^(٣) .

وعلى أى حال فإنه يبدو من المقطوع به ، أنه على أثر وفاة ابن مردنيش ، بادر ولده أبو القمر هلال ، بإعلان إذعانه وطاعته لأمر المؤمنين أبي يعقوب ، وبالتخلى له عن مدينة مرسية قاعدة الإمارة . فوجه الخليفة أخاه السيد أبا حفص إلى مرسية ليتقبل طاعته وليتسلم المدينة ، فسار إليها فى عسكر منازل من الموحدين

(١) الإحاطة ج ٢ ص ٨٦ .

(٢) كتاب « المن بالإمامة » لوحة ١٦٥ .

(٣) المعجب ص ١٤٠ .

فبادر أهلها بالخروج إليه ، ثم دخل المدينة وآتس أهلها ، ووعظهم وحشهم على طاعة الخليفة ، ووعدهم بالخير ورفع المظالم عنهم . ثم سار هلال بنفسه إلى إشبيلية في مستهل شهر رمضان (٥٦٧ هـ) ومعه أكابر دولة الشرق وقادتها وأعيانها ، فاستقبله وصحبه خارج إشبيلية ، أخو الخليفة أبو زكريا يحيى صاحب بجاية ، وأبو إبراهيم إسماعيل وعليه أشياخ الموحدين ، ثم استقبلهم الخليفة بالقصبة العتيقة أحمل استقبال ، وقدم هلال وصحبه بيعتهم للخليفة بحضور السادة الإخوة وأشياخ الموحدين . ثم أنزلوا بقصر ابن عباد والدور المتصلة به ، وقد غمرهم الخليفة بوافر عطفه وإكرامه . وفي اليوم التالى قدم قادة الشرق وأجناده ، وفي مقدمتهم شيخهم أبو عثمان سعيد بن عيسى ، بيعتهم وطاعتهم ، وأبدوا رغبتهم إلى الخليفة أن يقوم بغزو من جاورهم من بلاد النصارى ، وعينوا مدينة وبدة بالذات هدفاً لهذا الغزو ، نظراً لضعف تحصيناتها وأسوارها ، فوعد الخليفة بتحقيق هذه الرغبة^(١) . وينقل إلينا ابن الخطيب بهذه المناسبة رواية خلاصتها أن الأمير محمداً بن سعد ، لما أدركه اليأس ، وأيقن بتصيير ملكه إلى الموحدين ، أشهد على نفسه بإقامة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن - عدوه - وصياً على ولده وأهله ، ورغب إليه قبول هذه الوصية ، فلما نقل ذلك إلى الخليفة رقى لهذا القصد ، وتأثر بهذه الوسيلة ، وتزوج زائدة ابنة ابن مردنيش وحفيدة ابن همشك . وكانت شقراء زرقاء العينين ، رائعة الحال ، وتم زفافها إليه في ربيع الأول سنة ٥٧٠ هـ ، فحظيت لديه ، وغدت أحب نسائه إليه ، وأكثرهن نفوذاً لديه « حتى كان الناس على قول ابن الخطيب يضربون المثل بحب الخليفة للزرقاء » المردينشية . وتزوج أختها صفية فيما بعد ولده ، وولى عهده الأمير أبو يوسف يعقوب^(٢) ، وأغدق الخليفة عطفه على آل مردنيش ، واستبقى لهم سلطانهم بشرق الأندلس ، فعين أبا الحجاج يوسف بن سعد والياً لبلنسية وجهاتها ، وعين غانم بن محمد ابن مردنيش قائداً لأساطيل العدو بسبته ، واستبقى هلالاً لديه ، فعاش في كنفه ، أثراً ، رفيع الرتبة^(٣) .

(١) ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة لوحة ١٦٥ ب و ١٦٦ أ .

(٢) المراكشي في المعجب ص ١٤٠ .

(٣) أعمال الأعلام ص ٢٧١

وأما إبراهيم بن هاشم ، وهو الذى كان خروجه على صهره وحليفه ابن مردنیش ، نذيراً بأنهباء مملكة الشرق ، فقد لبث مستقراً على ما كان عليه فى جيان وأراضها ، وأقره الخليفة على ولايته ، وذلك حتى أوائل سنة ٥٧١ هـ ، (١١٧٥ م) ، ثم طلب إليه الخليفة أن ينصرف إلى العدو ، فعبّر إليها بأهله وولده ، وأسكن مدينة مكناسة وأقطع بها إقطاعات يعيش منها ، ولم يمض قليل على ذلك حتى أصيب بفالج غريب ، شديد الأعراض ، لم يلبث أن حمله إلى القبر ، بعد أن قاسى أهوالاً من آلامه المروعة^(١).

(١) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣١١ .

الفصل الثالث

حركة الجهاد بالأندلس

والإخفاق في غزوة وبذة

مرض الخليفة أبي يعقوب يوسف . عنايته باستدعاء العرب وحشدهم لمؤازرته . قصيدة ابن طفيل في حثهم على الجهاد . قصيدة ابن عياش في ذلك . استجابة العرب للنداء . مسير بعض طوائفهم إلى مراكش . شفاء الخليفة وجلوسه لاستقبال الوفود . خروج الخليفة وجيشه لاستقبال حشود العرب . المباريات الرياضية بين الفريقين . مبايعة العرب للخليفة . مآدب الطعام . تمييز عسكر العرب والتوسعة في أجورهم . تمييز الموحدين . توزيع الخيل والسلاح على الفريقين . الإنعام والبركة . خروج الخليفة في قواته من مراكش . وصف الموكب الخلافي . رباط الفتح . اتخاذها مركزاً لتجمع الجيوش الموحدية . تجديد منشآتها . تمييز جديد للجيش . استئناف السير إلى قصر مصمودة . العبور إلى الأندلس . المسير إلى إشبيلية ثم قرطبة . جلوس الخليفة للسلام والتهنئة . مسير الخليفة إلى إشبيلية . عزل ابن المعلم ومحاسبته . إنشاء قنطرة طريانة . إمداد بطليوس بالمؤن . إنشاء قصور البحيرة . إنشاء البستان . إجراء الماء إلى المدينة . إنشاء الجامع الأعظم . وصف ابن صاحب الصلاة لمراحل بناء الجامع وصنع منبره . تطور طراز المنشآت الموحدية . اقتراح أكابر الشرق غزو مدينة وبذة . موافقة الخليفة . خروجه في قواته من إشبيلية إلى قرطبة . مسيره صوب القصر فأندو جر . استيلاؤه على حصن بلج . تسليم حصن الكرس . المسير إلى وادي شقر . مسير السيد أبي سعيد في جيش إلى وبذة . معركة بين الموحدين والنصارى . وصول الخليفة في قواته إلى وبذة . هجوم الجيش الموحدى على وبذة . التفافه بالمدينة . انسحاب القشتاليين إلى الداخل وامتاعهم بالقصبة . فشل الهجوم الموحدى . محاصرة الموحدين للمدينة . عصف الرياح والأمطار . مقدم جنود الشرق . استئناف الموحدين للهجوم . فشلهم للمرة الثانية . حث الشيخ أبي محمد للناس على الجهاد . محاولة الموحدين إقناع القشتاليين بالتسليم . فشل هذا المسعى . قرار الخليفة بالرحيل . مهاجمة القشتاليين للجيش المنسحب . ارتداد الموحدين نحو قونفة . عطاء الخليفة لأهل قونفة . مسير الموحدين صوب نهر شقر . ظهور طلائع القشتاليين . إحجام الموحدين عن القتال . استئناف السير نحو أراضي بلنسية . الوصول إلى ركانة . اختلال الجيش وقلة الأقوات . تمرير جنود الشرق . الوصول إلى بلنسية ثم شاطبة فأوريولة فرسية . نظر الخليفة في شئون مرسية . المسير إلى إشبيلية . نزول آل مردنيش بها . تكوين قوة من أهل الثغور للغزو . تأملات عن فشل الموحدين في حلة وبذة . عجز القيادة الموحدية . تفكك الجيش الموحدى . تقلب العرب وتحاذلهم . حوادث الغرب . الأحوال في مدينة إيجة . تربص النصارى بها . مسير ألفونسو هريكيث وجيرالدو لافتاحها . مداهمة النصارى لها واستيلاؤهم عليها . تخريبهم لها ثم مغادرتها . عدم اكتراث الموحدين بسقوطها . اشتغال الخليفة في إشبيلية بإتمام الجامع والقصور . غزو القومس الأحذب لأحوار قرطبة . مسير الموحدين لرد النصارى . إدراكهم عند قلعة رباح . القتال بين الفريقين . هزيمة القشتاليين ومصرع

القومس . الاحتفال بالنصر في إشبيلية . غزو الموحدين لأراضى قشتالة . وصولهم إلى طليطلة وتخريب بسائطها . سعى النصارى إلى عقد المهادنة . عقد الهدنة بين الموحدين وبين صاحب طليطلة وملك قشتالة وملك البرتغال . دخول جيرالدو سمبافور وجنده في خدمة الخليفة . بقية أخباره ومصرعه . تعمير قواعد المغرب . تعمير مدينة باجة . نكث فرناندو ملك ليون وغزوه لأراضى الأندلس . مسير الموحدين إلى مدينة ردرىجو . زواج الخليفة بابنة أمير الشرق محمد بن سعد . فكة الخليفة لابن عيسى . تعيينه لأخيه أبى على والياً لإشبيلية وأخيه أبى الحسن والياً لقرطبة . مفادرة الخليفة لإشبيلية وعبره إلى المغرب .

نرجع الآن قليلا إلى الوراء ، لنتتبع مراحل الغزوة الأندلسية التى وعد بها الخليفة أبو يعقوب يوسف من بدايتها . وقد سبق أن أشرنا إلى مضمون الرسالة التى بعث بها الخليفة إلى الموحدين بالأندلس فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ ، يؤكد فيها حرصه على إغاثة الأندلس والعمل على نصرتها ، ونياته فى استئناف الجهاد ، وإلى ما قام به من إرسال جيش موحدى إلى الأندلس ، تحت إمرة الشيخ أبى حفص عمر ، ليكون تقدمه لهذا الجهاد . بيد أنه لم تأت أوائل سنة ٥٦٥ هـ ، حتى مرض الخليفة ، واستطال مرضه زهاء أربعة عشر شهراً ، حتى ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ . وكان يتولى علاج الخليفة خلال تلك النازلة الخطيرة ، طبيباها ، أبو مروان بن قاسم وأبو بكر بن طفيل^(١) . وهذه أول مرة تقدم إلينا الرواية الموحدية فيها ، الفيلسوف والطبيب الكبير ابن طفيل ، باعتباره طبيب الخليفة الموحدى ، وكان يتولى الاتصال به وزيره أبو العلاء إدريس بن جامع ، يعرض عليه المخاطبات الواردة فى مسائل الوفود ، وأخبار الشئون المطمئنة ، وتحجب عنه الأمور المكدرة ، والقاضى أبو محمد عبد الله المالى إذ كان يثق بعلمه وأمانته وحسن نصحه وتدييره ، وبعض الثقة من أشياخ الموحدين . وكان أهم ما عنى به الخليفة أثناء مرضه . هو العمل على استدعاء العرب من إفريقية وترغيبهم للمشاركة فى الجهاد . وقد سبق أن أشرنا إلى طوائف أولئك العرب الذين كانوا يحتلون بعض مناطق إفريقية (تونس) الجنوبية ، وهم من بنى هلال ، وسليم ، وزغبة ، ورياح ، والأنبج ، وإلى أسباب نزوحهم إلى إفريقية ، وما كان من موقفهم من الخليفة عبد المؤمن ، وما قام به عبد المؤمن من محاولة استمالتهم إلى المشاركة فى الجهاد بالأندلس . وقد لبثت السياسة الموحدية من ذلك الحين تعمل على استمالتهم وحشدهم فى صفوف الجيوش الموحدية ، وذلك بالرغم مما جبلوا

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٣٨ ب .

عليه من التقلب وعدم الولاء . ومن ثم فقد حذا الخليفة أبو يعقوب في ذلك حذو أبيه ، وبذل بالرغم من مرضه جهوداً خاصة ، في استمالة أولئك العرب إلى موازرتهم فيما ينتويه من الجهاد ، والقيام بالغزوة العظمى في جزيرة الأندلس ، وكان مما أشار به الخليفة يومئذ ، وهو يعلم ما للشعر البليغ في نفس العربي من عميق الأثر ، أن توجه إلى العرب قصيدة حماسية ، يشاد فيها برفع أصولهم وأرومتهم ، وكونهم هم السيف الماضى في نصرة الدين ، وقمع المارقين والكافرين . فنظم طيبه الفيلسوف ابن طفيل ، تحقيقاً لتلك الغاية ، قصيدة طويلة تفيض بلاغة ، وروعة ، وتدل على ما كان للفيلسوف في نفس الوقت ، من منزلة عالية في النظم ، تضعه في صف أكابر الشعراء . وإليك بعض ما جاء في تلك القصيدة الرائعة التي أوردها لنا بتمامها ابن صاحب الصلاة :

أقيموا صدور الخيل نحو المضارب	لغزو الأعداء واقتناء الرغائب
وأذكوا المذاكي العاديات على العدا	فقد عرضت للحرب جرد السلاهب
فلا تقنئ الآمال إلا من القنى	ولا تكتب العليا بغير الكتابب
ولا يبلغ الغايات إلا مصمم	على الهول ركباً ظهور المصائب

ومنها في استمالة العرب والإشادة بهم :

ألا فابعثوها همة عربية	تحف بأطراف القنى والقواضب
أفرسان قيس من بنى هلال بن عامر	وما جمعت من طاعن ومضارب
لكم قبة للمجد شدوا عمادها	بطاعة أمر الله من كل جانب
وقوموا لنصر الدين قومة ناثرة	وفيثوا إلى التحقيق فيئة راغب
دعوناكم نبغى خلاص جميعكم	دعاء بريئاً من جميع الشوائب
نريد لكم ما نبغى لنفوسنا	ونوثركم زلقى بأعلى المراتب
لكم نصر الإسلام بدءاً فنصره	عليكم وهذا عوده جد واجب
فقوموا بما قامت به أوائلكم	ولا تغفلوا أحياء تلك المناقب
وقد جعل الله النبي وآله	ومهديه منكم بلا عيب عائب
ومن ذا الذى يسمع ليبلغ شأوكم	إذا كنتم فوق النجوم الشواقب

ومنها في الختام :

وما الحزم إلا طاعة الله لأنها هي الحرّم المتاع من كل طالب

نعدكم السيف الذى ليس ينثنى إذا مانبا سيف برآحة ضارب
ونجعلكم صدر القناة إذا غدت تأطر ما بين الحشى والثرائب
وليس خطيب الصدق من قال فانبرى ولكن فعل الحر أصدق خاطب
وما خلق الأعراب خلاف موعد ولكن صدق الوعد خلق الأعراب
سنعلم من أوفى ومن خان عهده ومن كان من آت إلينا وذاهب^(١)

وأمر الخليفة أن تتبع قصيدة ابن طفيل بشعر آخر يوجه إلى العرب ، استعجالاً
لهم واستنهاضاً لهممهم ، فوجهت إليهم قصيدة ثانية من نظم ابن عيَّاش هذا مطلعها :
أقيموا إلى العلياء عوج الرواحل وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل
وقوموا لنصر الدين قومة ثائر وشدوا على الأعداء شدة صايل
فما العز إلا ظهر أجرد سابح يفوت الصبي في شدة المتواصل
وأبيض مأثور كأن فرنده على الماء منسوج وليس بسائل
وأسروا بنى قيس إلى نيل غاية من المجد تجنى عند برد الأصائل
تعالوا فقد شُدت إلى الغزو نية عواقبها مقصورة على الأوائل^(٢)

وقد كان لهذه المخاطبة الشعرية أثرها فيما يروى ابن صاحب الصلاة ، في
نفوس العرب في إفريقية ، ولاسيما في منطقتي الزاب والقيروان ، فاجتمع زعمائهم ،
وحزموا أمرهم على المبادرة إلى الاستجابة لنداء الخليفة . وكان شيخ بنى رباح
وزعيمهم جبارة بن كامل بن أبى العيش ، وهو الذى كان قد فر أيام عبد المؤمن
من إفريقية ، فيمن فر من أشياخ العرب ، حين دهتمهم القوات الموحدية في
جنوب القيروان ، قد عاد من المشرق في هذه الآونة بالذات بعد أن تجول في
ربوعه حيناً ، ورأى أن يقتدى بزملائه في الاستجابة إلى « الأمر العزيز » . فجمع
قومه ، وسار إلى بجاية ، وقصد إلى أميرها السيد أبى زكريا يحيى أخى الخليفة ،
فأكرم وفادته ، ولحق به بقية الزعماء والأشياخ ، وتحرك الجميع في صحبة السيد

(١) أورد لنا ابن صاحب الصلاة تلك القصيدة في « المن بالإمامة » لوحات ١٣٩ أ وب ،
١٤٠ أ ، وهى تحتوى على أربعين بيتاً ، ونقل ابن عذارى معظمها في البيان المغرب القسم الثالث
ص ٨٨ و ٨٩ . ونشرت في العدد الأول من مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد (سنة ١٩٥٣) .

(٢) أوردتها ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة لوحة ١٤٠ ب . وورد قسم منها في المعجب

أبى زكريا إلى حضرة مراکش ، ومعهم أموالهم وجملة كبيرة من عتاق الخيل ، ولما وصلوا إلى تلمسان سار معهم واليها السيد أبو عمران موسى أخو الخليفة بمن عنده من العمال والأموال والخيل . وكان الخليفة أبو يعقوب قد شفى عندئذ من مرضه الطويل ، فلما بلغت أنباء مقدم العرب ، واقترابهم من الحضرة ، سر بذلك أما سرور ، وخرج إلى المسجد الجامع يوم الجمعة السادس عشر من ربيع الأول سنة ٥٦٦ هـ ، في جو يسوده الجبور والبشر ، وبعد ذلك بيومين جلس الخليفة لاستقبال أشياخ الموحدين وطلبة الحضر ، والأجناد والخاصة من أهل الوفود والقضاة ، وخطب في هذا الحفل الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر ، والقاضي أبو يوسف ، والفقيه أبو محمد المالقي ، وأمر الخليفة بإخراج الصدقات للضعفاء والمساكين والوافدين الغرباء ، ثم صدر الأمر بأن يكون وصول العرب الوافدين ، ومن معهم إلى حضرة مراکش في ضحى يوم السبت الثاني من شهر ربيع الآخر سنة ٥٦٦ هـ .

وكانت الأوامر قد صدرت أثناء ذلك إلى جميع الجند الموحدين بالحضرة بالاستعداد واستكمال الزي والهيئة ، وفرت عليهم بهذه المناسبة الدروع ، والبيضات والرماح والأسلحة والكسي والأعلام . وفي صبيحة يوم السبت المذكور بكر الحفاظ والطلبة من الموحدين وسائر الجند إلى باب السدة ، وانتظمت صفوفهم جملاً جملاً ، تتقدمهم الطبول العديدة . ولما كمل ترتيب الموكب ، برز الخليفة أبو يعقوب ممتطياً صهوة فرسه الأشقر ، وإلى جانبه وزيره أبو العلا إدريس ابن جامع ، سائراً على قدميه لصق ركابه ، وهو يراجع فيما يعن من الأمور ، وفي ساقه الخليفة ، يسير سائر الإخوة الصغار والبنين ، ومن ورائهم حملة البنود ، وأكابر الموحدين يحمل كل منهم علماً ، وعليه درع سابغة لامعه تسطع تحت أشعة الشمس ، وتتبعهم سائر الأجناد من الحشم والروم والعبيد . وتقرر أن يكون اللقاء في الفحص الشاسع القريب من المدينة ، فلما وصل الموكب إلى الفحص المذكور ، والطبول تفرع بشدة ، والجيوش تبدو في أكمل هيئة ، ضربت قبة الخليفة ، ونزل فيها مع إخوته وبنيه . وأقبلت عساكر العرب وأهل إفريقية ، ومعهم السيدان أبو زكريا يحيى ، وأبو عمران موسى أخوا الخليفة . ولما التقى الموكبان على هذا النحو ، أمر الخليفة أن يحمل الفريقان من العسكر كل على الآخر حملة مبارزة ورياضة ولعب ، ففعلاً ، وتجاوبا وتصالوا حتى العصر ، والطبول

تقرع ، وقد أبدع كل منهما في حركاته ومناوراته . ثم تقدم أخوا الخليفة وأشياخ الموحدين وأشياخ العرب وجميع الوافدين للسلام على الخليفة ، وانصرف الخليفة بعد ذلك في عسكر الموحدين إلى المدينة ، وضرب العرب محلهم في الفحص . وفي اليوم التالي ، الثالث من ربيع الأول ، أمر الخليفة بدخول أشياخ العرب والوفود لمبايعته ، وأخذ العهد عليهم ، فأدخلوا واستغرقت بيعتهم أسبوعاً حتى العاشر من ربيع الأول .

وفي يوم الجمعة الثاني والعشرين من ربيع الأول ، خرج الخليفة عقب الصلاة إلى البحيرة (البستان) خارج الحضرة ، ومدت المآدب العظيمة لإطعام العرب والوافدين . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان من شهود هذه الحفلات كلها ، هيئة الإطعام ، فيقول إن كل طائفة من ثلاثة آلاف رجل كان يقدم لها الطعام ، وكلما انتهت طائفة من الأكل ، سارت إلى موضع الخليفة وسلمت ودعا لها . واستمر حفل الإطعام أياماً ، وقد أربى ما كان يقدم فيه على ما تقدم من الإنعام المائل . ولم يعكر صفو هذا الحفل سوى مشادة حدثت بين صبيان الموحدين وأتباع العرب ، وقعت خلالها بعض الاعتداءات على النفس والمال ، وبادر العرب بالاعتذار وطلب العفو من الخليفة لما وقع من أتباعهم ، فصفح الخليفة عنهم ، وأمر بالاستمرار في إطعامهم وإكرامهم^(١).

وكانت آخر خطوة في هذه الأحداث المتعاقبة ، إجراء التمييز لعسكر العرب والموحدين ، ففي اليوم الثامن من جمادى الأولى أمر الخليفة بتمييز العرب الوافدين ومن وصل معهم ، وأن يحضروا بين يديه في رحبة قصره بدار الحجر ، ورتب دخولهم كل يوم بعدد معلوم من مختلف القبائل ، فاستمر تمييزهم خمسة عشر يوماً ، والخليفة جالس في مجلسه مع أشياخ الموحدين وأشياخ طلبة الحضرة وأشياخ العرب ، يحرص العرب والناس على الجهاد ، ويحث على التفاني فيه . ولما انتهى التمييز ، دعا الخليفة أشياخهم وكبراءهم ، وأحضرت زمامات التمييز الأول ، أيام الخليفة عبد المؤمن ، فوجدت في التمييز الحديد زيادة كبيرة في الأجور . وكان قصد الخليفة من التوسعة على العرب ، أن يمتنعوا عن عاداتهم الذميمة في الاعتداء على الأموال وخطف العائم والثياب والسروج وغيرها ،

(١) يقدم إلينا ابن صاحب الصلاة وصفاً ضافياً لهذه الاستقبالات والحفلات في « المن بالإمامة » لوحات ١٤٦ ب إلى ١٤٩ ب .

وأن يستميلهم إلى طاعته وموازرته ؛ ثم بدئ بتمييز الموحدين من غرة جمادى الآخرة واستمر تمييزهم أيضاً خمسة عشر يوماً ، وفق منازلهم وقبائلهم ، ووزعت على أثر ذلك على الموحدين والعرب الخيل وعُدُّد الحرب من الرماح والدروع والبيض والسيوف وغيرها . واختتم التمييز بما يسمى في المراسيم الموحدية « بالإنعام بالبركة » وتوزيع الأعطية . وأقيم لذلك حفل ضخم جلس فيه الخليفة في مجلسه ، ومن حوله أشياخ الموحدين وأشياخ العرب ، وأحضرت الأموال بين يديه ، أكواماً من الذهب والفضة ، من دنانير ودراهم ، وقُدِّم الموحدون في تنفيذ البركة ، فأصاب الفارس الكامل منهم عشرة دنانير ، وغير الكامل ثمانية ، والراجل الكامل خمسة دنانير وغير الكامل ثلاثة . وحصل العرب على منح مضاعفة ، فأصاب الفارس الكامل منهم خمسة وعشرين ديناراً ، وغير الكامل خمسة عشر ، والراجل سبعة دنانير ، ومنح أشياخ العرب خمسون ديناراً لكل منهم ، ومنح كل رئيس قبيلة مائتا دينار ، ووزعت على الجميع الكسبي من القباطي والنفائير والعمائم ، وزودوا بالسيوف المحلاة والدروع السابغات والبيض والقنا ، وأمر لهم بثلاثة آلاف فرس وزعت على مختلف القبائل ، وحصل الموحدون كذلك على جملة كبيرة من الخيل قسمت عليهم بحسب قبائلهم ومنازلهم . وكان يوماً مشهوداً ، سادت فيه الغبطة والحفاصة بين الأشياخ والحند ، وارتفعت قواهم المعنوية ، وأخذوا يتطلعون إلى الغزو المشهود في عزم وثقة^(١) .

- ١ -

وهكذا تمت أهبة الخليفة أبي يعقوب يوسف للغزوة الأندلسية التي اعزمها ، والتي عاقه المرض حيناً عن إتمامها ، وعلى هذا النمط الذي أفاض في وصفه ، ابن صاحب الصلاة ، ولخصناه فيما تقدم ، كانت تُحشد الجيوش الموحدية ، ويجرى استعداد الخليفة الموحدى للغزو . وفي اليوم الرابع من شهر رجب سنة ٥٦٦ هـ الموافق ١٣ مارس سنة ١١٧١م غادر أبو يعقوب حضرة مراکش في حشوده من الموحدين العرب ، وكان خروجه من باب دُكَّالِه ، وقد هرعت الجموع الغفيرة لرويته ، فسار وأمامه العلم الأبيض ، ومن ورائه حملة الطبول ، وقد قدم أمامه مصحف عثمان محمولاً على حمل مرتفع ، وعليه قبة صغيرة حمراء ، وقد وضع في تابوته الفخم المرصع بنفائس الجوهر والياقوت والزمرّد ، وأمام مصحف

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٥٠ ب و ١٥١ ا وب .

عثمان ، مصحف الإمام المهدي ، وكان يسير إلى جانب حملة الأعلام والطبول ، الوزير أبو العلاء إدريس بن جامع ، ومعه الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر صاحب المهدي ، وأبو محمد عبد الله المالتى شيخ طلبة الحضر ، وقاضى الجماعة أبو موسى عيسى بن عمران ، وعدة آخرون من أشياخ الموحدين . ونزل الخليفة فى وادى تانسيفت على قيد ثلاثة أميال من مراکش ، وهو أول منازل الرحلة ، وعساكره محذقة به من كل صوب . ثم غادره فى اليوم التالى إلى جسر الخطابة إلى توبين ، ثم إلى تودجين . واستمر فى سيره على هذا النحو حتى وصل إلى وادى أم الربيع ، وهو فى كل مرحلة ينزل فى الدار التى أعدت لنزوله ، وجاز العسكر الوادى تباعاً فوق القنطرة التى عملت لذلك ، وقد خصص يوم لحواز كل قبيلة . ثم استأنف السير حتى وصل إلى مقربة من المهديّة ، وهى التى سُميت عندئذ برباط الفتح . وكان موضع هذه المدينة التى غدت فى عصرنا عاصمة المغرب ، سهلاً براحاً به مرافق لأهل سلا ، وبعض أعيان إشبيلية ، فاشترى الخليفة عبد المؤمن من أصحابه . ولما وفد فى قواته على سلا فى سنة ٥٤٥ هـ ، لاستطلاع أحوال جزيرة الأندلس واستدعاء شيوخها وطلبها من الموحدين ، أمر حسبما تقدم ، بأن ينشأ فى ذلك الموضع قصبة حصينة على اللسان الممتد فى البحر أمام سلا ، وبأن ينشأ سرب لجريان الماء من عين عبولة ، القريبة إلى محلته التى أنشأها ، فتم ذلك فى بضعة أشهر ، وجرى الماء ليستقى منه الناس والدواب وتروى الأرض ، وغرست الحنات والرياض ، وأذن الخليفة للناس بالسكنى وإنشاء الديار والأسواق . وهكذا قامت مدينة رباط الفتح . وكانت الرّباط ، منذ عهد عبد المؤمن مركز تجمع الجيوش الموحدية الغازية سواء إلى إفريقية أو الأندلس . ولما تم فتح إفريقية غدت بالأخص مجاز الجيوش المسيرة إلى الأندلس .

ولما وصل الخليفة أبو يعقوب إلى مقربة من الرّباط نزل فى فحصها مع الوزراء والأشياخ والكبراء ، وأمر بأن تُغرس فى أركان تابوت مصحف عثمان الأربعة ، أربع رايات ، رفعت على أربع رماح صغار ، فى أعلى كل منها تفاحة من الذهب يسطع بريقها الوهاج ، وللرايات ألوان أربعة ، الخلدى والأحمر ، والأصفر والأبيض . ثم اقتعد الخليفة غارب فرسه الأشقر ، وسار على النظام الذى سبق وصفه ، ومن ورائه حشود الموحدين والعرب وقد ملأت البسائط .

فلما أشرف على الرباط ، أمر بتقديم الطبول والرايات أمامه مع المصحفين تعظيماً
لشأنهما ، وتبعه الوزراء والأشياخ والكتاب والطلبة ، حتى وصل إلى باب المدينة ،
فرد وجهه للناس واستقبلهم ودعاهم ، وأمرهم بالنزول في السهل الشاسع ،
ونزل بالدار المعدة لنزوله ، وكان وصول الخليفة إلى رباط الفتح في اليوم
العشرين من شهر رجب سنة ٥٦٦ هـ ، وبذا استغرقت رحلته إليها من مراكش ،
سبعة عشر يوماً^(١) .

وأمر الخليفة على أثر وصوله أن تجدد السقاية التي أنشأها والده عبد المؤمن ،
وكانت قد خربت ، وأسن ماؤها ، فجددت وأعيدت إلى حالتها الأولى ، وأنشئ
إلى جانبها صهريج عظيم ليدها بالماء المتجمع فيه ، وكذلك أمر بأن ينشأ جسر
جديد فيما بين الرباط وسلا على نهر أبي رقرق ، إلى جانب الجسر الذي كان قد
أنشأه أبوه ، ثم خرب بفعل الزمن ، فأقيم جسر عظيم فوق القوارب ، وغطى
بالحجر والخيار الثابت . وأمر أخيراً بالبدء في بناء أسوار المدينة من جهتي
الجنوب والغرب ، وهي الأسوار التي أكملت فيما بعد في عهد ولده الخليفة يعقوب
المنصور . وفي اليوم الثامن من نزوله أمر بتحريك العساكر ، وأن يقام لهم تمييز
جديد ، وأشرف على تمييز العرب السيد أبو زكريا أخو الخليفة ، وأبو محمد
عبد الله المالقي لمعرفته بهم وبأنسابهم . ثم وزعت الكسبي على الأشياخ من كل قبيل ،
وعلى طلبة الحضر ، والعرب ، وخُص كثير منهم بأخبية وخيل عتاق ، وكذلك
وزعت الصدقات على الضعفاء والمساكين ، وقضيت حوائج الناس ، ثم اتخذت
الأهبات الأخيرة لاستئناف السير .

وفي عشية يوم الجمعة التاسع من شهر شعبان سنة ٥٦٦ هـ ، صدرت الأوامر
بالحركة ، وعبرت الجند البحر إلى سلا فوق الجسر الجديد . وفي صباح اليوم التالي
تقدم الشيخ أبو سعيد يخلف بن الحسين بالموحدين حتى تم جوازهم ، ثم تلاه السيد
أبو زكريا بالعرب ، واستغرق جواز العسكر خمسة أيام ، وفي الخامس عشر من
شعبان غادر الخليفة رباط الفتح ، ومعه وزيره ابن جامع ، والأشياخ والحفاظ
والطلبة والعبيد ، بنفس النظام الذي تقدم وصفه ، ونزل بالموضع المعروف
بالهام على مقربة من وادي سبؤ تجاه ثغر المعمورة ، وتلاحق سائر العسكر إلى
الوادي ، فاجتمع من عسكر الموحدين عشرة آلاف فارس ، واجتمع كذلك

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٥٢ إلى ١٥٤ ب .

من العرب عشرة آلاف فارس ، وهذا غير المتطوعة والمجاهدين ، فإذا ذكرنا أن الشيخ أبا حفص بن يحيى ، كان قد تقدم الخليفة بجيش كبير إلى شبه الجزيرة في أوائل سنة ٥٦٤ هـ ، وأن السيد أبا حفص أخا الخليفة ، تلاه في جيش كبير آخر عبر إلى شبه الجزيرة في أوائل سنة ٥٦٦ هـ ، وهو الجيش الذى اضطلع بمحاربة ابن مردنيش والقضاء على مملكة الشرق ، أدركنا ضخامة الجيوش الموحدية التى أعدت للغزو بالأندلس .

ووصل الخليفة فى قواته الحرارة إلى قصر مصمودة غربى ثغر سبتة^(١) ، وبدأ عبور الجند إلى شبه الجزيرة ، عن طريق ثغر طريف ، فى مستهل رمضان من سنة ٥٦٦ هـ (٨ مايو سنة ١١٧١ م) واستمر عبورها أكثر من أسبوعين ، وفى اليوم السابع والعشرين من رمضان عبر الخليفة فى خاصته ، واستقبله فى طريف زعماء الأندلس وأكابرها من سائر القواعد ، تم تحرك إلى إشبيلية ، ودخلها فى يوم الجمعة الثانى عشر من شهر شوال (١٨ يونيه) واستقبله الأشياخ والناس استقبالا حافلا ، فاستراح بها عشرة أيام ، ثم سار إلى قرطبة فى الثانى والعشرين من شوال ، فوصل إليها فى غرة ذى القعدة (٥ يوليه) . ونزلت القوات الموحدية فى داخل قرطبة وفى خارجها على ضفتى الوادى ، مدة إقامة الخليفة بها ، وقد استطلت إلى آخر ذى الحجة سنة ٥٦٦ هـ . وفى يوم عيد الأضحى ، خرج الخليفة للصلاة وألقى الخطبة المعتادة ، واحتفل بالنحر ، ثم استقبل الأشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ، وانصرف إلى دار الإمارة . وفى اليوم التالى جلس بالقصر ، مجلس السلام والتهنئة ، وأقبل أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ، وطلبة الحضر ، والفقهاء والقضاة والكتاب ، وأهل الوفود ، وأعيان قرطبة ، أقبلوا جميعاً للسلام ، وأنشد الشعراء كالعادة مدائحهم وتهانيهم ، وكان فى مقدمتهم أبو بكر بن المُنخَل ، وقد أنشد بين يدى الخليفة قصيدة طويلة أوردناها لنا ابن صاحب الصلاة ، ومما جاء فيها :

شرف الخلافة أن ملكت زمامها يحمى جوانبها فكنت حسامها

(١) قال الإدريسي فى وصف قصر مصمودة « إنه يقع غرب سبتة على قيد ١٢ ميلا ، وهو حصن كبير على ضفة البحر تنشأ به المراكب والحراريق التى يسافر فيها إلى بلاد الأندلس . وهى على رأس الهجاز الأقرب إلى ديار الأندلس » (وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٦٨) .

طبع الإله لها حساما صارما وغدوت من عقد الإمام إمامها
ورأت عداة الله أن حمامها من قيس عيلان فكنت حمامها
فعلى رماحك أن تشق صوبها وعلى سيوفك أن تفلت هامها^(١)

وفي خلال إقامة الخليفة بقرطبة سئرت حملة موحدية بقيادة عبد الله بن أبي حفص ابن تفرج بن وبعض أشياخ الموحدين نحو أراضي قشتالة ، وكان القصد من تسييرها أن تقوم بغارة انتقامية لما ارتكبه القشتاليون بقيادة الكونت نونيو دى لارا من العيث والتقتيل في أراضي المسلمين ، قبل ذلك بنحو عامين ، فسار الموحدون شمالا ، وعبروا نهر التاجه ، وعاثوا في منطقة كبيرة من أراضي قشتالة ، وعادوا إلى قرطبة مثقلين بالسبي والغنائم ، ونحن نذكر أن الجيوش الموحدية ، كانت قبل ذلك ببضعة أشهر ، قد سارت بقيادة السيد أبي حفص أخى الخليفة لحصار مرسية ومقاتلة ابن مردنيش في عقر أراضيه ، والقضاء على سلطانه في شرقي الأندلس ، وذلك حسبما فصلناه من قبل في موضعه ، وكانت الأنباء تتوالى على الخليفة ، وهو بقرطبة ، بما أنزله الموحدون بابن مردنيش من الضربات والهزائم ، وما استولوا عليه من بلاده ، وبما يؤذن بإحرازهم النصر النهائي في تلك المعركة الحاسمة .

غادر الخليفة أبو يعقوب يوسف قرطبة ، بعد أن أقام بها شهرين ، في آخر شهر ذى الحجة سنة ٥٦٦ هـ ، قاصداً إلى إشبيلية ، فوصل إليها في الثاني من محرم سنة ٥٦٧ هـ (٥ سبتمبر ١١٧١ م) ، ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان شاهد عيان لكل ما تقدم من تنقلات الخليفة ، إن الخليفة لم يحتل من دور إشبيلية سوى ستين داراً ، وأنه اشترى بها مائة دار من ماله الخاص لتكون منزلاً للوافدين إليه ، وذلك رفقاً منه بأهل المدينة^(٢) ، وكانت إشبيلية قد غدت عندئذ قاعدة الحكومة الموحدية بالأندلس ، وذلك بعد أن ترددت هذه الحكومة حيناً بين قرطبة وغرناطة وإشبيلية . وكانت إشبيلية بموقعها على مقربة من البحر وعلى مقربة من العدو ، أصلح من الناحية الإستراتيجية من قرطبة ، لاستقبال

(١) تشغل هذه القصيدة من « المن بالإمامة » لوحة ١٥٩ ب و ١٦٠ ا و ب .

(٢) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٥٦ ب

الجيوش الموحدية الوافدة ، واستقبال عتادها وذخائرها ومؤنها ، ومن جهة أخرى ، فقد أثبتت الحوادث ، منذ مقدم الموحدين إلى شبه الجزيرة ، أن تيار الغزو النصراني للأندلس ، قد تحول إلى ناحية الغرب ، وأن قيام مملكة البرتغال الجديدة ، واشتداد ساعدها ، قد نقل الصراع الرئيسي بين إسبانيا المسلمة ، وإسبانيا النصرانية إلى هذه الناحية من شبه الجزيرة ، وهذا ما أبدته في الأعوام الأخيرة ، معارك بطليوس ، وغزوات ألفونسو هنريكيز ، وهذا ما سوف تؤيده الحوادث فيما بعد ، وهو مما يدل على بعد نظر السياسة الموحدية في هذا الشأن . وأخيراً فقد كانت إشبيلية ، بعد الذى أصاب قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، من ضروب التخريب والعفاء منذ أيام الفتنة ، ومختلف الحروب والثورات ، كانت أرقى عمراناً ، وأوسع رحاباً ، ولاسيما منذ أيام بني عباد ، حيث غدت أعظم حواضر الأندلس وأجملها . ولهذا كله اختار الموحدون أن تكون إشبيلية حاضرتهم وقاعدة حكومتهم بالأندلس .

وما كاد الخليفة يصل إلى إشبيلية ، حتى أمر بعزل محمد بن سعيد المعروف بابن المعلم ، وكان يتولى أعمال الخزن أو إدارة الشؤون المالية بإشبيلية والأندلس ، وأمر بالسير إلى قرطبة لمحاسنته ، والتحقيق في سير أعماله ، وكانت قد علفت به وبتصرفاته في تنفيذ المنشآت والمشاريع العامة ريب كثيرة ، وندب لمحاسنته الفقيه أبو محمد الماتى والكاتب أبو الحكم بن عبد العزيز ، وانتهى الأمر باستصفاء أمواله ، ثم لإعدامه فيما بعد . وقدم الخليفة مكانه على أعمال إشبيلية ، أبا داود بلول ابن جلداسن . وقد كان للخليفة عند حلوله بإشبيلية برنامج ضخم من الأعمال الإنشائية ، سوف يضطلع بلول ، وزير المال الجديد ، في تنفيذه بأعظم قسط . وكان أول ما أشار به الخليفة من تلك الأعمال بناء قنطرة عظيمة على نهر الوادى الكبير ، تصل ما بين إشبيلية وطريق طريانة ، ضاحيتها الغربية ، وتيسر سبل المواصلات في اتجاه الغرب ، فحشد لها العرفاء والصناع ، وتم لإنشاؤها في نحو شهر ، في السابع من صفر سنة ٥٦٧ هـ ، وحضر الخليفة يوم إكمالها وافتتاحها ، في حفل ضخم ، رفعت فيه البنود وقرعت الطبول . وينوه ابن صاحب الصلاة بما كان لإنشاء هذه القنطرة العظيمة من حسن الأثر ، وما حققته للناس من يسر ورخاء ، إذ كان المرور بها دون قبالة أو رسوم .

وفي خلال ذلك ، حضر السيد أبو حفص أخو الخليفة من حصن مرسية ،

وذلك قبل وفاة ابن مردنیش وانقضاء أمره بأشهر قلائل ، فاستقبله الخليفة خارج إشبيلية ، باحتفال بالغ . واجتمع الأخوان للبحث فيما يجب عمله لحماية الأندلس ورد عدوان النصارى عنها . وكان أول ما تقرر فى ذلك أن ترسل حملة ضاربة من الموحدين تحمل الميرة والعتاد والمرافق اللازمة لمدينة بطليوس ، فخرجت هذه الحملة فى الثامن من شهر صفر ، وجازت فوق القنطرة الحديدية إلى طريانة ، فكانت أول عسكر يجوز عليها ، وسارت إلى بطليوس . فلما أقربت من المدينة ، هاجمت حصن ليون الواقع على مقربة من شرقى بطليوس على ضفة وادى يانه ، وكانت تحتله حامية من النصارى من جند جبر اللوسمبافور ، واقتحمته عنوة ، وأوصلت حولتها من الميرة والسلاح إلى بطليوس ، ثم عادت سالمة إلى إشبيلية . ولما كملت حملة مرسية بالنجاح ، وتوفى ابن مردنیش ، وانتهت مملكة الشرق ، قديم هلال بن مردنیش وأكابر الشرق إلى إشبيلية ، فى مستهل رمضان سنة ٥٦٧ هـ ، وقدموا خضوعهم وطاعتهم للخليفة ، وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه .

وقد استطالت إقامة الخليفة أبى يعقوب يوسف بإشبيلية والأندلس زهاء خمسة أعوام ، وبالرغم من أنه قام خلال إقامته بغزو أراضى النصارى ، وذلك تحقيقاً لمشروعه الرئيسى فى العبور إلى الأندلس ، فإن أهم ما تميزت به تلك الفترة ، هو اضطلاعه بالأعمال الإنشائية العظيمة بمدينة إشبيلية ، وهى التى بدأها ببناء القنطرة على الوادى الكبير . والظاهر أن أبى يعقوب ، كان يحبو هذه المدينة العظيمة ، التى اتفق فيها أعواماً عديدة من شبابه حاكماً لها أيام أبيه المؤمن ، بكثير من الحب والإعجاب ، ومن ثم فإننا نراه يعمل بهمة عظيمة على تحصينها وتجميلها ، وتزويدها بالمنشآت الفخمة ، والمياه الحارية . وكان أول ما غنى به بعد إنشاء القنطرة ، هو إنشاء القصور الخليفية المعروفة « بالبحيرة » . وكانت إشبيلية تزدان بعدد من القصور الملكية ، هى قصور بنى عباد السالفة ، وكانت ما تزال ، فى هذا العصر ، بعد أكثر من مائة عام ، تحتفظ بكثير من رونقها وفخامتها ، ولكن الخليفة الموحدى ، لم يرق له أن يتخذ من تلك القصور مقامه ، واكتفى بتخصيصها لنزول الأمراء والكبراء الوافدين . وكان السيد أبو حفص ، أخو الخليفة ، قد ابتنى خلال زيارته لإشبيلية بعض الدور فى وادى إشبيلية خارج باب الكسحل ، فرأى الخليفة أن يقيم قصوره خارج باب جهور ، فى أرض الحنان المنسوب

لأبي مسلمة القرطبي بعد أن عوض أصحابه جنانا في مكان آخر . وأقيمت في هذا
الموضع طائفة من القصور والدور الفخمة للخليفة وحاشيته . وقام على إنشائها
العريف أحمد بن باسه عريف الأندلس ، والخير بشتون القصور ، فجاءت على
أبدع طراز ، وأقيمت حولها من جميع الجهات أسوار من الحيار والرمل والحصى .
وعهد الخليفة إلى أبي القاسم أحمد بن محمد الحوفي القاضي ، وأبي بكر محمد
ابن يحيى الجند ، لما عرف عنهما من الأمانة والخبرة الهندسية والزراعية ، أن يقوموا
بإنشاء بستان عظيم حول هذه القصور من أموال المخزن (الأموال العامة) تُجلب
إليه الغراس من الزيتون والأعناب والفواكه وسائر الأنواع النادرة الغريبة من
الأشجار والغراس ، فقاما بتنفيذ أمره ، وعوض أهل الأراضي التي أدخلت
في البستان عن أراضيهم تعويضاً مرضياً . وعهد بأعمال الحفر والغراس إلى
أبي داود بلول بن جلداس ، متصرف إشبيلية وأعمالها وأمين الخليفة ، وجلبت
إلى البستان آلاف الغراس والأشجار من مختلف الأنحاء ، وغُرست فيه على أجل
نسق . وحملت غراس التفاح والأجاص (الكمثرى) وغيرها من غرناطة ووادي
آش ، وكان الوزير أبو العلاء بن جامع وابنه يحيى يلزمان الجلوس للإشراف
على العمل من الصباح إلى المساء ، وكان الخليفة يخرج من قصره بإشبيلية مع أعيان
الموحدين لمشاهدة الأعمال الحارية ومدى تقدمها . ويفيض ابن صاحب الصلاة
كعاداته في وصف هذه القصور وجمالها وفخامتها^(١) .

وكانت الخطوة التالية بعد إنشاء القصور والبستان ، النظر في استجلاب الماء
لتوفير السقاية والرى . وكان يوجد خارج باب قرمونة ، على الطريق المتجه إلى
قرمونة ، أطلال قنطرة رومانية قديمة ، قد درست وعفت ، ولم يبق منها سوى
حجارتها المتساقطة . فقام المهندس الأندلسي البارع الحاج يعيش المالكى ، وهو
الذى تولى الإشراف على أعمال جبل طارق ، بالحفر حول هذا الأثر ، حتى تحقق
لديه ، أنه كان قنطرة رومانية تحمل الماء من سرب قديم إلى إشبيلية ، ثم تتبع
السرب بعد ذلك بالحفر حتى انتهى إلى مأخذه القديم من الوادى على مقربة من
قلعة جابر^(٢) ، وتم إجراء الماء من ذلك الموضع في سربه القديم إلى البحيرة ،

(١) المن بالإمامة لوحات ١٦١ ب و ١٦٢ وب و ١٦٣ .

(٢) وهى تقع في جنوب شرق إشبيلية على قيد نحو عشرة كيلومترات منها ، ومكانها اليوم
البلدة الإسبانية الصغيرة التى تسمى (Acalá de Guadaira) .

والقصور والرياض الخليفية ، وأمر الخليفة بعد ذلك ، بإجراء الماء إلى داخل المدينة لسقاية الناس ، وتوفير مرافقهم ، فقام الحاج يعيش بتنفيذ هذه الرغبة على أكمل صورة ، وأنشئ داخل إشبيلية محبس للماء بحارة منور وهو نهاية جريانه ، وتم توصيل الماء إلى المدينة على هذا النحو في اليوم الخامس عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٦٧ هـ ، وحضر الخليفة حفل إجرائه في جماعة كبيرة من الحند والأشياخ والفقهاء والطلبة ، وضربت الطبول ، وساد البشر واليمن بين الناس .

على أن أعظم منشآت الخليفة أبي يعقوب يوسف بإشبيلية ، هو الجامع الأعظم ، الذى مازالت تقوم منه حتى اليوم بعض البقايا الدارسة ، إلى جانب كنيسة إشبيلية العظمى ، التى أقيمت فوق أنقاضه . وكان البدء بإنشائه واختطاط موقعه في شهر رمضان سنة ٥٦٧ هـ ، فهدمت لذلك الغرض ديار كثيرة داخل القصبة تحت إشراف العريف أحمد بن باس ، واجتمع بإشبيلية للقيام بأعمال الإنشاء ، العرفاء ، والبنائون من أهل إشبيلية ، ومن سائر قواعد الأندلس ، ومن أهل العدو ولاسيا مراكش وفاس ، واجتمع معهم أمهر العمال من سائر الحرف المطلوبة . وكان الموحدون حينما افتتحوا إشبيلية قد أنشأوا لهم بقصبتها جامعاً صغيراً يؤدون فيه شعائرهم ، ولكنه أضحى يضيق بهم ، بعد أن تكاثروا وكثرت وفودهم ، ومن جهة أخرى ، فإن المدينة ذاتها كانت في أشد الحاجة إلى مسجد جامع يتفق مع ضخامة عمرانها ، وأهميتها كمقر للحكومة الموحدية بالأندلس . وكانت مسجد إشبيلية الجامع ، المسمى بجامع العديتس أو ابن عديتس وهو المنسوب للقاضي عمر ابن عديتس ، والمشيّد في سنة ٥١٤ هـ ، أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، قد ضاق برواده ، نظراً لنمو المدينة وتكاثر سكانها ، وكثرة الموحدين الوافدين عليها ، ولم يفكر أحد من أمراء بني عبّاد أيام دولتهم ، في إنشاء مثل هذا الجامع لانهما كهم في شئون الإمارة ، وإنشاء القصور ودور القصف ، وإهمالهم لشئون العبادة . يقول ابن صاحب الصلاة وقد كان من سكان إشبيلية ، وكان شاهد عيان لإقامة هذه المنشآت كلها ، إن أمير المسلمين الخليفة أبا يعقوب « قد حاز الذخر والأجر في بناء هذا المسجد الجامع الكبير توسعة للناس ، فأسسه من الماء بالآجر والخيار والحصى والأحجار ، على أعظم البناء والاقتدار ، وأسس أرجله المعقودة بطاقات بلا طاية تحت الأرض ، أطول مما فوق الأرض ، وجمع عليه الفعلة بكثرة الرجال والخدام ، وإحضار الآلات من الخشب المحلوب من سواحل العدو

مما لا يقدر عليه ملك من ملوك الأندلس قبله ، فأعلى بنيته ، وصقل صفحته بالإتقان لتشييده وتوثقه ، وأنفذ أمره العالى ببنيانه فى رمضان من سنة سبع وستين وخمسمائة المؤرخة ، لم يرفع عنه البناء قط فى فصل من فصول السنن مدة إقامته بإشبيلية ، إلى أن كمل بالتسقيف وجاء فى أبهى النظر الشريف ، أعجز فى بنيانه من تقدمه ، وتفنى فى ميزابه وخبره ورخمه مقدمه ، قارب جامع قرطبة فى السعة ، وليس فى الأندلس جامع على نده ، وسعته وعدد بلاطاته .

وتولى النظر على بناء الجامع وعرفائه العريف أحمد بن باس ، والنظر على النفقة أبوداود بن جلداسن خاصة أمير المؤمنين ، وكان من الحفاظ على البناء من أهل إشبيلية ، أبو بكر بن زهر ، وأبو بكر الساقى . ويصف لنا ابن صاحب الصلاة مراحل إتمام الجامع على النحو الآتى : إن سرب المدينة كانت تشق بجرىها تحت الأرض على مواضع اختطاط هذا الجامع ، فنكبت عنه ، وصرفت إلى جهة الحوف على سرب واسع ، وعمل على توثيق البناء تحت الأرض ، وعنى العرفاء ببناء القبة التى على محرابه وبنجارتها أعظم عناية ، وأقاموا عن يسار المحراب ، ساباطاً فى الحائط ، يشقه الخليفة من القصر إلى الجامع ، لشهود صلاة الجمعة ، وافتن الصنائع فى عمل المنبر وصياغته من أكرم الخشب ، وفى إبداع نقوشه ، وترصيعه بالصندل المجزع بالعاج ، وأبنوسه يتلألأ بصفائح الذهب والفضة ، « وأشكال فى عمله من الذهب الإبريز ، يتألق نوراً ، ومحسبها الناظر لها فى الليل البهيم بدوراً » . ثم عملت له مقصورة من الخشب مزينة بالفضة . وكان الخليفة يتفقد بناءه بنفسه فى أكثر الأيام ومعه أشباخ دولته ، ويشير للمشرفين عليه بالحد فى البناء وإتقانه ، حتى كملت جهاته الأربع بالبناء وعقد الأقواس ، وتكامل التسقيف ، واستغرق بناؤه ثلاثة أعوام وأحد عشر شهراً ، إلى أن حان موعد عودة الخليفة إلى حضرة مراکش فى الرابع عشر من شعبان عام ٥٧١ هـ ، وأمر بتسريح العرفاء والبنائين والصنائع إلى مواطنهم . على أن هذا الجامع لم يفتح للصلاة بصفة رسمية وتقام به الخطبة ، إلا بعد ذلك بنحو سبعة أعوام ، وأقيمت فيه الخطبة لأول مرة يوم الجمعة ٢٤ ذى الحجة سنة ٥٧٧ هـ (٣٠ أبريل سنة ١١٨٢ م) وذلك على يد السيد أبى إسحاق إبراهيم ابن الخليفة أبى يعقوب ، ووالى إشبيلية عندئذ ، وأزيات الخطبة من جامع ابن عبدبىس من ذلك التاريخ (١) .

(١) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحة ١٦٧ و ١٦٨ و ١٦٩ أ و ب ، وروض القرطاس ص ١٣٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٩٦ .

ومما تجدر ملاحظته بهذه المناسبة أن الموحدين في بداية أمرهم لم يعنوا بزخرفة المنشآت والصروح ، ولا سيما المساجد ، معتبرين هذا الزخرف من الأمور المكروهة من الناحية الدينية ، وكان كل ما يراعى في هذه الصروح هو البساطة والمتانة . بيد أنه لما استحالت الخلافة الدينية من بعد عبد المؤمن إلى ملك باذخ ، وبلاط يمتاز بالفخامة والروعة ، بدأ زخرف الصروح الموحدية وتجميلها بوفرة وسخاء ، فكان منبر جامع إشبيلية المرصع بصفائح الذهب والفضة ، وكان تزويد صومعته التي أنشئت فيما بعد بتفافيحها الذهبية الثقيلة^(١) .

وسنرى فيما بعد ، كيف أنشئت منارة هذا الجامع ، وهي المنارة الشهيرة التي مازالت قائمة حتى عصرنا في مدينة إشبيلية ، بعد أن حول جزؤها الأعلى إلى برج للأجراس لكنيسة إشبيلية العظمى .

— ٣ —

ذكرنا فيما تقدم أنه لما وفد هلال بن مردنيش وأكابر الشرق وقادته على إشبيلية في مسهل رمضان سنة ٥٦٧ هـ ، ليقدموا خضوعهم وطاعتهم للخليفة أبي يعقوب ، اقترح قادة الشرق ، وفي مقدمتهم شيخهم أبو عثمان سعيد بن عيسى ، على الخليفة أن يقوم بغزو أراضي النصارى من جهة بلادهم ، وعينوا له بالذات مدينة وبدة هدفاً لهذا الغزو ، وذلك لضعف تحصيناتها وأسوارها ، ولأنها حسبما ينقل إلينا ابن صاحب الصلاة « حديثه البنيان قريبة الإسكان »^(٢) أو بعبارة أخرى لم يتأثل عمرانها ، ولا أهبأتها الدفاعية ، وأن الخليفة وعدهم في نفس هذا المجلس بتحقيق رغبتهم متى انتهى شهر الصوم^(٣) . وإنه ليبدو لنا من ذلك أن الخليفة حينما عبر إلى الأندلس بقصد الغزو والجهاد لم يكن لديه مشروع معين لهذا الغزو ، ومن ثم كان قبوله لاقتراح قادة الشرق .

وعلى أي حال ، فقد اتخذ الخليفة أهبته لتلك الغزوة ، وخرج في قواته من إشبيلية في فجر يوم الاثنين الحادى عشر من شوال سنة ٥٦٧ هـ (٦ يونيو سنة ١١٧٢ م) ، فوصل إلى قرطبة في السابع عشر منه ، وأقام محلته في جبل

(١) وقد أبدى العلامة جولدهير مثل هذه الملاحظة في بحثه : *Materialien zur Kenntniss*

der Almohaden Bewegung (Z. der Morgenl. Gesellsch. 1887; p. 106)

(٢) المن بالإمامة لوحة ١٦٦

(٣) المن بالإمامة لوحة ١٦٦ .

فحص السراق المظل على براح أرض مدينة الزاهرة القديمة ، وفي اليوم التالى دخل قصر قرطبة القديم ، وأقام به بضعة أيام . ثم غادر قرطبة فى ظهر اليوم الخامس والعشرين من شوال ، وسار فى قواته صوب مدينة القصر^(١) ، فأندوَجَر ثم اتجه نحو الشرق حتى صار على مقربة من بياسة ، وهناك لحق به إبراهيم ابن همشك ، وكان على حصار حصن بلج^(٢) القريب من بياسة ، وكان من أعظم وأمنع حصون هذه المنطقة . وكان هذا الحصن من أملاك ابن همشك ، فلما وقع الخلاف بينه وبين صهره ابن مردنيش ، من جراء انصوائه تحت لواء الموحدين ، استولى ابن مردنيش على هذا الحصن ، ووضع به حامية من جنده المرتزقة النصرارى ، وكان ابن همشك يحاصره بقواته حينما قدم الخليفة فى جيشه الضخم ، فاقترح عليه ابن همشك أن يسير فى الحال إلى الحصن لحصاره والاستيلاء عليه ، فاستجاب الخليفة إلى دعوته ، وسارت القوات الموحدية صوب الحصن ، ونزلت فى ظاهره ، وعان الموحدون ضخامته ومنعته ، وروعت حاميته النصرانية بما شهدت من كثرة الجيوش الموحدية ، فاستدعوا ابن همشك ورجوه أن يتوسط لهم لدى الخليفة لينحهم الأمان مقابل تسليم الحصن ، فقام ابن همشك بتحقيق رغبتهم ووافق الخليفة ، ورأى فى تسليم الحصن فاتحة النجاح والنصر ، وتم تسليم الحصن فى يوم السبت ٣٠ شوال ، وركب الخليفة إلى الحصن ، وراقته ضخامته ومنعته ، ورتب به حامية موحدية ، وصرف أمره إلى ابن همشك . وفى اليوم الثانى من شهر ذى القعدة سار الخليفة فى قواته شمالا نحو حصن الكَرَس^(٣) وكان ابن مردنيش قد فعل به ما فعل بحصن بلج ، وسلمه إلى حامية من النصرارى . وكان هذا الحصن يقع فوق ربوة عالية يحيط بها الماء والبساتين الخضراء ، فلما اقترب منه الموحدون ، عرض النصرارى تسليمه بالأمان ، على نحو ما تم بحصن بلج ، فأجيبوا إلى مطلبهم ، ونزلوا عن الحصن ، وذلك فى اليوم السادس من ذى القعدة ، وصرف أمره كذلك إلى ابن همشك .

ويعصف لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان من مرافقى هذه الحملة الموحدية^(٤) ، سير الحملة وتنقلاتها بإفاضة ، ويقول لنا إنه بعد الاستيلاء على هذين الحصنين ، سار

(١) وهى بالإسبانية Alcocer .

(٢) وهو بالإسبانية Vilches . (٣) وهو بالإسبانية Alcaraz .

(٤) وهو يذكر لنا ذلك فى أكثر من موطن ، « المن بالإمامة » لوحة ١٧٧ ، ١٧٨ ب .

الخليفة في قواته إلى الموضع المعروف ببلاط الصوف^(١) وهو المتصل بفحص جنجاله ، وقد كانت يومئذ مدينة الحدود بين الأندلس وبين قشتالة ، ثم تقدم منه إلى الموضع المعروف بالغدُر قرب منابع نهر وادي يانه ، ونزل في سهل بلاط الصوف وقضى فيه يوماً تزود فيه العسكر والناس بالماء . ثم غادره إلى مرج البسيط ، وأقام فيه يوماً آخر ، وسار منه إلى مقربة من وادي شُقر ، حيث ارتوى الناس والذواب من ماء النهر ، وقضوا فيه يومهم للراحة . وفي يوم الخميس الثاني عشر من ذي القعدة ، أمر الخليفة أخاه السيد أبا سعيد ، أن يسير من وادي شُقر في عسكر ضخم من الموحدين والعرب ، يبلغ نحو اثني عشر ألف فارس ، ومعهم قوة من الرّجالة والرماة ، إلى أراضي قشتالة ، صوب مدينة وبذة^(٢) ، فسار السيد أبو سعيد في هذا الحيش ومعهم أبو العلاء بن عزون « قاضي الدولة المهدية » في جنده ، وإبراهيم بن همشك في جنده ، فوصلوا في صباح اليوم التالي إلى أول بلاد قشتالة بموضع يسمى « برج جمل » وفيه حصن يحتله النصارى ، فافتتحوه في الحال ، وأفتوا حاميته قتلًا وسبيًا ، وهدموه . وفي اليوم التالي — السبت — وصلوا إلى مدينة وبذة ، والظاهر أن النصارى كانوا على أهبة لرد المغيرين ، فما كاد الموحدون يصلون إلى ظاهر المدينة ، حتى خرج إليهم القشتاليون . ونشبت بين الفريقين معركة تمهيدية ، ظهر فيها تحاذل من بعض الجند العرب ، فقتلوا ، وأسفرت المعركة حسنها يقول لنا ابن صاحب الصلاة عن « ظهور الإسلام » . وعلى أثر ذلك نزل السيد أبو سعيد بعسكره فوق التل المطل على المدينة^(٣) .

وفي خلال ذلك وصل الخليفة في قواته إلى وبذة في اليوم السابع عشر من ذي القعدة ، وأمر الموحدين والعرب من سائر القبائل بالتأهب للحرب ، فانحاز كل عسكر إلى قبيله ، واجتمع تحت رايته ، وأمر الجميع بالسير ، والصعود إلى التل الذي نزل به السيد أبو سعيد بجنده ، ليتم اجتماع القوات الحاربة ، فصعد الجند على الترتيب المذكور ، وصعد بعدهم الخليفة في كتيبته ، ومعهم أبناء الجماعة ؛ وأبناء أهل خمسين وأهل الدار والعبيد ، وخلفه السيد أبو حفص وباقي الإخوة ، ومن وراءهم الرايات والطبول وعددها مائة ، وفي الخال بدأ انهجوم تحت قرع الطبول وصيحات التكبير ، بين الموحدين والقشتاليين ، واستولى الموحدون على

(١) وهو بالإسبانية Balazote . (٢) وبذة هي بالإسبانية Huete .

(٣) تراجع مواقع غزوه وبذة في الخريطة المنشورة في ص ٤٩ .

ما كان لصق السور من مداخل أرباض المدينة ، وأحرقت الدور وهدمت ، وارتد القشتاليون إلى الداخل ، ونزل الموحدون بنحيوهم في الجنات والكروم المتصلة بالمدينة ، وقطعوا عنها ماء الوادى . وفي مساء نفس اليوم طاف السيد أبو حفص ومعه الإخوة والأشياخ والزعماء ، وقوة كبيرة من الموحدين بجوانب المدينة الأربعة ، وقسم جهاتها على الجند ، يختص كل عسكر بجهة ويقوده سيد من الإخوة ، ويختص العرب بجمعهم منها بجهة . وكان النصارى في أثناء ذلك قد حفروا على عجل خندقاً خارج المدينة ، ووضعوا له زرباً من الخشب ، وذلك ليعوقوا اقتحام الموحدين للمدينة . وفي صباح اليوم التالى خرج الخليفة راكبا فرسه ، ومن حوله الكتائب الحرارة ، وقد اتخذت أهبها للقتال ، وقرعت الطبول ، وخفقت الرايات ، وإلى جانبه أخوه السيد أبو حفص وأشياخ الموحدين ، ولما وصل إلى مقربة من الخندق ، نزل فوق ربوة تشرف عليه ، واستدعى إلى قبة الفقهاء والقضاة المرافقين للحملة ، وهم الحافظ أبو بكر بن الحد ، والفيق أبو محمد المالى ، والقاضى أبو موسى عيسى بن عمران ، والقاضى أبو الوليد ابن رشد وأقبل الإخوة والأشياخ ، وبايعه الجميع على الثبات على الجهاد ، وكانت العساكر قد احتل كل فريق مكانه المعين ، وقسمت السهام على الرماة ، وأعدت سائر الآلات ، ثم قرعت الطبول ليبدأ القتال ، فهجم الموحدون على القشتاليين واضطربت بين الفريقين معركة عنيفة ، فارتد القشتاليون حتى لصق السور ، وإلى داخل البيوت ، وامتنع معظمهم بالقصبة ، ولم يثبتوا إلا في الجهة الغربية ، حيث عجز أبو العلاء بن عزون وقواته عن ردهم . فحاول أن يستنجد بالخليفة ليمده ، فأعرض عنه لاشتغاله في قبة بالمناقشة مع الطلبة . وهدم الموحدون كنيسة المدينة ، وانتزعوا نواقيسها ، وقتل من تصدى من النصارى لاستردادها . ويقول ابن صاحب الصلاة « ودام القتال على انحلال وضعف وملال إلى بعد أذان الظهر ، وارتفع ، وما نفع الجيش الكثير عديده ، ولا الجمع ، إذ كان في نحو مائة ألف بين فارس وراجل ، وانصرف أمير المؤمنين ، وانصرف الناس إلى أخيتهم ، وقد همهم الحال » (١) .

وهكذا فشل هجوم الموحدين الأول على وبذة ، وبالرغم مما يبدو من مبالغة ابن صاحب الصلاة في تقدير عدد الجيش المهاجم ، فإنه كان بلا ريب جيشاً وافر

العدد ، وقد كان من جراء هذا الفشل ، أن اتجه الخليفة إلى حصار المدينة . وفي اليوم التالى اجتمع الأشياخ والقواد ، وأمر الخليفة أن يخرج ربع الناس من جميع العساكر لزرع الغلات والعلوفات وتحصيل الأقوات ، استعداداً لحصار المدينة ، فخرج الناس لذلك ، وطرق الموحدون المدينة ، ومنعوا عنها ماء الوادى ، وأمر الخليفة بصنع السلام والأبراج الخشبية لمقاتلة النصارى فى جوانب المدينة . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة إن رسولا من النصارى جاء فى ذلك اليوم يعرض تسليم المدينة بالأمان ، فلم يُلْتَفِت إليه ، ففكر مسعاه فى مساء نفس اليوم ، فصرف بغير طائل .

وفى صبيحة يوم الجمعة العشرين من ذى القعدة (١٤ يوليه) هبت ريح صيفية عاصفة ، فأوقعت الاضطراب بمعسكر الموحدين ، واقتلعت الأخبية ، وفاضت الغدور ، وقضى الموحدون ليلتهم فى التحوط ضد عصف الريح . وفى صباح اليوم التالى قدم الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى من مرسية فى جند أهل الشرق ، ومعه أبو الحجاج يوسف بن مردنيش وأهل بلنسية والثغر ، فخرج إليه الخليفة وسائر الإخوة والأشياخ والزعماء والطلبة ، واستقبل استقبالاً حافلاً . ثم نزل جند الشرق بالجبل المجاور لوبدة ليعاونوا فى تشديد الحصار ، وشهد القشتاليون من مدينتهم مقدم هذا الجيش الحديد فى توجس وفزع . وفى مساء نفس اليوم ، هبت ريح عاصفة أخرى أشد من السابقة ، فاقتلعت خيام الموحدين ، ومزقتها ، ثم تلاها مطر وابل ورعد قاصف وبرق . وكانت فرصة طيبة للنصارى أن ارتووا من مياه الأمطار . ويلاحظ ابن صاحب الصلاة أن هذه الرياح قد عصفت ، والأمطار قد هطلت « فى أشد ما يكون من الحر » فى شهر يونيه العجمى (وصحته يوليه) .

وفى صباح اليوم التالى — الاثنين الثالث والعشرين من ذى القعدة — هاجم الموحدون القشتاليين على الأسوار ، ولكنهم ما كادوا يبدؤون القتال ، حتى أظلمت السماء ، وقصف الرعد والبرق ، وهطل المطر غزيراً كالسيل ، فأغرقت ثياب الموحدين وعجزوا عن القتال ، وفزع الناس من تكرار هذه الظاهرة ، واعتبروها سخطاً من الله ، ورغبوا فى التوبة إليه ، وارتد الخليفة والناس ، وقد اكتسحت السيول الهضبة ، وعند الظهر أشرقت السماء ، وارتفع المطر ، فعاد الموحدون إلى القتال وفق ترتيبهم السابق ، ودام القتال حتى المساء ، ولكن دون جدوى .

وفى ليلة الأربعاء ، قام القشتاليون بهجوم مفاجئ من القطاع الذى يحتله جند هسكورة ، فقرروا منه منهزمين ، فلما علم الخليفة فى الصباح ، أمر بضربهم

بالسباط عقاباً لهم . وفي صباح يوم الخميس ، أمرت الفرق المختلفة ، أن يخرج من كل ثلثها للبحث عن الأقوات والعلوفات ، واجتمع أولئك الجند تحت إمرة الحافظ أبي محمد عبد الله بن أبي تفرج بن إبراهيم بن هاشم ، ولكن هذه الحملة فشلت في مهمتها ، فلم تجمع شيئاً من المؤن والعلف ، فارتفعت الأسعار في المعسكر الموحدى ، وكاد أن يتعدم فيه القوت .

هذه الأحداث المكثرة المثبثة للهمم ، حملت الشيخ أبا محمد عبد الواحد ابن عمر ، أن يدعو الناس ، وأن يخطب فيهم ، تارة بالعربية ، وأخرى بالبربرية ، يعظهم ، ويستنهض همهم للجهاد ، وكان مما قاله لهم : « قد كنتم بمراكش تقولون لو كنا غزونا النصارى لجاهدنا الله واجتهدنا ، فلما حضرتم معهم ، قصرتم وجبنتم وحنثتم الله عز وجل ، ونكلكم وما نصحتكم ، ما أنتم بمؤمنين ولا موحدين ، أن تسمعوا النواقيس تضرب ، وتعينوا الكفر ، ولا تدفعوا المنكر . إن أمير المؤمنين ليس يقدر أن يراكم لتفريطكم في حق الله تعالى من الجهاد على كثر ترككم من الأعداء » (١) .

وبذلت عندئذ محاولة يائسة لحمل القشتاليين على التسليم بالأمان ، فوجه عبد الرحمن بن أبي مروان بن سعيد الغرناطى ، إلى قائد وبذة وهو ولد الكونت مانريكى دى لارا (٢) ، يقول له إنهم على استعداد لتحقيق رغبته في تسليم المدينة بالأمان ، وكرر هذا المسعى مرتين في نفس اليوم ، فرفض قائد القشتاليين هذا العرض بجفاء ، لما رآه من اختلال أحوال الموحدين ، ولما علمه من استعداد ألفونسو الثامن لإنجاده بحشوده . ولما وقف الخليفة على ذلك استدعى سائر الأشياخ من الموحدين والعرب إلى خيمته - القبة الحمراء - للبحث فيما يجب عمله ، وفي نفس الليلة - ليلة الأحد التاسع والعشرين من ذى القعدة - أمر بحرق البرج المصنوع لقتال النصارى وسائر الآلات التى صنعت معه ، وبأن يقوم مقدم الدواب بشحن النواقيس التى أخذت من الكنيسة من وبذة . وفي الصباح ضرب الطبل الكبير إيداناً للناس بالرحيل ، فساد الاضطراب والهرج في المعسكر الموحدى ، فلما رأى القشتاليون ذلك ، وأيقنوا أن الموحدين قد بدأوا في الانسحاب ، خرجوا في قواتهم من الفرسان والرجالة ، ونزلوا إلى الوادى ، وهاجموا الموحدين وأشعلوا النار في البيوت والخيام ، ووصلوا إلى السوق بقرب المحلة ، وقتلوا

(١) ابن صاحب الصلاة في المن بالإمامة لوحة ١٨٠

(٢) ويسميه ابن صاحب الصلاة « ولد مرنو » .

الضعفاء والمرضى ، ونشب القتال بين الجيش المنسحب وبين النصارى ، وأمر الخليفة أن يتوقف سائر الجند حتى ترفع الأخبية ، فلما رفعت وقفت قوة ترد المهاجمين حتى يتم الانسحاب ، وتحرك الجيش المنسحب على قرع الطبول ، يتقدمه الخليفة ، والسيد أبو حفص فى أهل تينملل ، وأشياخ الموحدين مع قبائلهم ، وزعماء الأندلس مع أصحابهم ، والعرب مع قبائلهم ، والنصارى خلال ذلك يهاجمون الجيش المنسحب ، وقد احتشدت فى المؤخرة قوة كبيرة لردهم بقيادة السادة الإخوة ، ومعهم يوسف بن مردنيش وإبراهيم بن همشك وأبو العلاء بن عزون فى عسكر الأندلس . وسار الجيش المنسحب متجهاً نحو كونكة (قونكة) ونزل فى فحصى به الماء على قيد بضعة أميال من وبدة ولحقت به قوة المؤخرة فى المساء ، بعد أن ردت النصارى وقتلت منهم نحو ستين .

واستمر الجيش المنسحب فى سيره ، وهو يحصد الزروع ، ويجمع الغلات فى طريقه ، حتى وصل إلى كونكة بعد يومين ، فى يوم الثلاثاء أول ذى الحجة . وفى عصر ذلك اليوم ركب الخليفة ومعه إخوته السادة ، ووزيره ابن جامع ، والفقهاء والقضاة ، وسائر الأشياخ من الموحدين والعرب ، ودخل المدينة ، وكان يرافقه هذا الموكب عبد الملك بن صاحب الصلاة راوية هذه الحوادث ، وهو يصف لنا قصبة كونكة ، ومنعتها ، وعلوها الشاهق ، وكيف يصل إليها الماء من بحيرة عظيمة تقع خارج السور ، وعلى قنطرة عظيمة فى جانبها ، وكان إلى جانب المدينة من جهة الخوف خندق عميق قد حفر فى الحجر الصلد ، وفيه أدراج حفرت تحت الأرض ، ينزل منها إلى الوادى لشرب الماء ، وتحريك الرحى التى على الوادى ، وقد غطى بستارة منيعة عليها برج عظيم من بناء الأوائل ، وفى فحصى المدينة تقوم الكروم وأشجار الحوز والمراعى الخضراء .

ولما دخل الخليفة مدينة كونكة ، وقصبتها استقبله أهلها كباراً وصغاراً ، وكانوا فى حالة يرثى لها من الضعف والهزال ، وكان النصارى قد حاصروا مدينتهم قبل ذلك ببضعة أشهر ، وبرح بهم الضيق والحرمان ، ولم يتركهم النصارى إلا حينما علموا باقتراب الموحدين ، فلما سلموا على الخليفة سألهم عن أحوالهم ، ووعدهم بجميل رعايته ، وأمر بأن تكتب أسماء سائر أهل المدينة من الرجال والنساء والأطفال ، فكان عددهم جميعاً سبعة عشر ألفاً ، فأمر للفارس منهم باثنى عشر مثقالاً ، وللراجل ثمانية مثاقيل ، وللمرأة أربعة وللطفل أربعة ، وأعطاهم سبعين

بقرة لم يكن في محلته سواها ، وزودهم بكثير من الرماح والقسي والسهام ،
والسلاح ، وأمر بأن يمدّهم سائر الجند بالقمح والشعير صدقة لهم ، وتنافس
الأكابر والأشياخ في تزويدهم بمختلف الأعطية والصلات .

وفي اليوم التالي أمر الخليفة بحصد الزروع ، التي للنصارى في تلك المنطقة
وسوقها ، ولكنهم التقوا بعدد كبير من النصارى على مقربة من قونقة ، وسرت
الإشاعة بأنهم طلائع جيش ألفونسو الثامن والكونت نونيو دي لارا ، فلما علم
الخليفة بذلك ، أمر بالإقلاع فوراً من ذلك الموضع ، والسير إلى وادي شقّر ،
وأمر الناس بالرحيل ، فكان هرج شديد مقرون بالفزع كذلك الذي حدث يوم
الإقلاع من وبدة ، وعبر الجيش الموحدى نهر شقّر ، ونزل بالجبل المتصل
بمدينة قونقة لحصائنه ، وسرعان ما وصلت قوات النصارى ، وعسكرت في
في جبل تونيس ، في الناحية المقابلة من النهر ، وصار كل من الجيشين تجاه الآخر
دون أن تتاح لأحدهما فرصة الاشتباك ، وقضى الموحدون ليلتهم على حذر ،
وفي صباح اليوم التالي ، عقد الخليفة مؤتمراً من الأشياخ واستقر الرأي على
أن يقاتل الموحدون النصارى في الغد . ولكن العرب اعترضوا « وجبنوا عن
اللقاء » واحتجوا بضيق ساحة القتال . وانضم أهل الأندلس بقيادة أبي العلاء
ابن عزون للموحدين في نية القتال ، وفي الغد خرجت قوة منازلة بقيادة أبي العلاء
واشتبكت مع النصارى في عدة مناوشات لتختبر قوتهم . وفي اليوم التالي تأهب
الموحدون لخوض المعركة ، وخرج أبو العلاء في بعض قواته ليستطلع أمر العدو ،
ولكنه عاد مع جنده ، وأعلن أن النصارى أقلعوا عن محلّتهم منصرفين إلى بلادهم .
فعندئذ أمر الخليفة باستئناف الرحيل ، وسار الجيش الموحدى حتى وصل إلى
جبل « الصومعة » Alminar على بعد عشرة أميال من قونقة ، وقضى به الليل ،
وفي اليوم التالي استأنف سيره حتى وصل إلى وادي تامطة ، وقد ظهر الإعياء على
الناس ، وقلت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، ثم وصل إلى وادي برج قبالة
في طريق مدينة بلنسية ، وقد نفق كثير من الدواب ، وبرح الجوع بالناس ،
ومات الكثير منهم . وفي اليوم التاسع من ذى الحجة عبر الموحدون الربرة العالية
المسماة بعقبة الأبالس ، ووصلوا بعد جهد شاق إلى قطرة « أغربالة »^(١) وقد
اشتد الإعياء بالناس من الضعف والجوع ، ونفق كثير من الخيل والبغال والجمال .

(١) وبالإسبانية Puente del Cabriel

وفى ظهر ذلك اليوم ، أمر الخليفة بإخراج البركة لسائر العساكر على قدر تمييزهم ، فخص الفارس الكامل خمسة مثاقيل ، وخص الراجل الكامل مثقالين ، وذلك ابتداء من حركة الغزو لسنة سابقة .

وفى صبيحة اليوم العاشر من ذى الحجة ، وهو يوم الأضحى ، أمر الخليفة بصلاة العيد فى ذلك الموضع ، وألقى خطبة العيد أبو زيد بن عبدون قاضى تلمسان ، وعقب الصلاة ، سلم الإخوة والأشياخ والأكابر على الخليفة ، ووزعت عليهم الأضاحى ، وعند الظهر استؤنف السير مدى خمسة عشر ميلا ، ونزل الموحدون بمرج القبذاق على مقربة من حصن ركنانة ، ووصلوا فى اليوم التالى إلى ركنانة ، وقد اشتدت الحاجة بين الناس . وبنوه ابن صاحب الصلاة خلال وصفه المستفيض لتلك الرحلة المضنية ، فى غير موضع ، بما كان يعانىة الجيش المنسحب من نقص فى المؤن ، وغلاء شديد فى أسعار القمح والشعير والدقيق . وعند مغادرة ركنانة أخطأ الأدلاء الطريق ، وافترقت العساكر فى شعب الجبال ، واشتد بالناس الجوع والألم والضعف . وسار الخليفة إلى موضع يعرف « بمجمع الأودية » وهو الذى يلتقى فيه نهر شقر ونهر أغربالة (كبريل) ولحق به سائر الناس إلى هذا الموضع . ثم استؤنف السير فى اليوم التالى ، ونزل الخليفة قريباً من حصن بيتول ، وهو من حصون بلنسية الأمامية . وهنا صدر الأمر بتسريح الحشود من أهل الشرق وجميع بلاد الأندلس إلى أوطانهم وسارت إلى بلنسية منهم جموع كبيرة (١) .

ووصلت إلى الخليفة فى هذا اليوم دفعة كبيرة من الدقيق والشعير والفواكه بعث بها إليه وإلى بلنسية يوسف بن مردنيش . هذا بينما هرع الناس إلى حصن بنيول يطلبون القوات والعون . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، وقد كان منهم ، أنهم لم يجدوا شيئاً سوى بعض الثين الأخضر ، فقصدوا إلى بلنسية . ويصف ابن صاحب الصلاة بهذه المناسبة ، مدينة بلنسية وجمالها ونصرة رياضها ، بيد أنه يلاحظ أن الضعف كان بادياً عليها ، وأن الخوف من الفتنة كان يزداد . وقضى الخليفة فى محله ثلاثة أيام بقرب حصن بنيول ، ثم غادره فى قواته فوصل إلى مدينة شاطبة فى السابع عشر من ذى الحجة ، وقضى بقصبتها يومين ، وانتهز أشياخ الموحدين هذه الفرصة ، فوعظوا أهل المدينة بالجامع عقب صلاة الجمعة ، وبشروهم بالخير فى ظل العهد الجديد .

(١) تراجع مواقع غزوة وبذة وارتداد الجيش الموحدى فى الخريطة المنشورة ص ٤٩ .

وغادر الخليفة بعد ذلك شاطبة ، ونزل بحصن بليانة^(١) على مقربة منها ، ثم سار إلى حصن آصف ، ثم إلى ألش ، ووصل إلى أوريولة في الثالث والعشرين من ذى الحجة ، وغادرها في اليوم التالي ، قاصداً إلى مرسية ، فزل أولاً بحصن أنوط^(٢) على مقربة منها ، ثم سار منه إلى المدينة ، فخرج أهل مرسية لاستقباله ، ودخل المدينة والأعلام تخفق والطبول تضرب ، ونزل بقصرها ، وقد احتشد أهل المدينة رجالاً ونساء خاصتهم وعامتهم ، لتحية الخليفة ، والإعراب عن سرورهم بمقدمه ، وكان الخليفة قد طلب إلى هلال بن مردنيش أن يعد الدور اللازمة لنزول الموحدين ، فقام بتحقيق هذه الرغبة ، وأنزل أشياخ الموحدين أكرم منزل ، وقدم هلال إلى الخليفة ما وسع من الهدايا السنية ، وما كان لدى أبيه من الجوارى والسراى البارعات في الحسن ، فتقبل الخليفة هديته ، وأثابه عنها بالعطايا الجزيلة .

ولم تمض أيام قلائل حتى ضاقت مرسية ، بمن نزل فيها ، ووفد إليها ، من الموحدين وغيرهم ، وارتفعت الأسعار ، وعم الغلاء ، ورغب كثير من الموحدين والعسكر المرتزقة في الرجوع إلى أوطانهم ، فأذن لهم الخليفة ، وارتحل كثير منهم . ولما دخل شهر صفر سنة ٥٦٨ هـ ، صدر الأمر بخروج البركة لجميع الموحدين والعساكر المرتزقة ، الذين اشتركوا في هذه الغزوة ، فخص الفارس الكامل خمسة مثاقيل ، وغيره أربعة مثاقيل ، وخص الراجل مثقالين ، وغيره مثقال ونصف ، وتسلم كل شيخ بركة قبيلته ، وافترق معظم الناس .

وانتهز الخليفة هذه الفرصة لينظم شئون مملكة الشرق القديمة ، فأمر بإصلاح معاقل مرسية ، وتحصيناتها ، وندب مختلف الولاة لجهاتها وحصونها ، وجمع هلال بن مردنيش وإخوته وعمهم أبا الحجاج يوسف في مجلسه ، وأبدى لهم منتهى العطف والرعاية ، وأنهم يكونون من جملة الموحدين والأهل ، وأمرهم بالنظر في الارتحال معه ، وأقر أبا الحجاج يوسف بن مردنيش على ولاية بلنسية وأقطارها ، لما ثبت له من حسن إخلاصه وطاعته ، وكذلك أبقى ابن عيسى القائد على ما كان بيده من حصن جنجاله وأراضيه ، وأبقى غيره من قادة الحصون والثغور ممن ثبت إخلاصهم وصلاتهم .

وفي أول شهر ربيع الأول غادر الخليفة مرسية عائداً إلى إشبيلية ، وعرج

(١) هو بالإسبانية Villena .

(٢) هو بالإسبانية Monetagudo ، وقد بقيت أطلاله إلى اليوم .

فى طريقه على مدينة غرناطة ، وترك بها أخاه السيد أبا سعيد والياً لها ، ووصل إلى إشبيلية فى الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٥٦٨ هـ (نوفمبر ١١٧٢ م) . ومعهم الإخوة وفى مقدمتهم السيد أبو حفص ، وخاصته من أشياخ الموحدين وأكابر الدولة ، فاستقبله أهل إشبيلية وعلى رأسهم الحافظ أبو بكر بن الجدد ، استقبالا حافلا ، وقدم معه بنو مردنيش فى الأهل والولد ، وفقاً لما أمر ، فأنزلوا فى قصر ابن عباد ، والدور المتصلة به ، واشترى لهم الخليفة ما لزم لسكناهم وسكنى أتباعهم من الدور ، وعين منهم غانم بن مردنيش لرياسة جماعة من الجند الأندلسيين ، وأصحاب أبيه وأهل الثغور والأجناد بإشبيلية ، لتكون منهم قوة تضطلع بالغزو وحماية الأقطار من العدو وحيث البدو ، ونظم هلالا والكبار من إخوته فى جملة أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة ، يحضرون مجلسه العالى ، ويشتركون فى مباشرة الأمور ، وإبداء الرأى تقريباً لهم وتشريفاً وتأنيساً ، وكان غانم يخرج فى قواته مع الموحدين إلى غزو أراضى قشتالة ، وقد ظهر فيما بعد بشجاعته وكفايته . وكان مثلاً طيباً للغزاة من الأجناد والعرب .

* * *

والآن وقد انتهينا من استعراض مراحل هذه الغزوة الأندلسية الأولى للخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن واستوعبنا تفاصيلها ، وفقاً لرواية مؤرخها المرافق لها ، والى سجلها منذ بدايتها إلى نهايتها ، يوماً بعد يوم ، نحاول أن نستخلص منها ما يمكن أن تدلّ به من الحقائق والعبر .

وأول ما تكشف عنه حوادث هذه الغزوة التى لم يطل أمدها أكثر من شهرين ما تجلّى تحت أسوار مدينة وبدة من عجز الجيوش الموحدية وتفككها . ويبدو هذا العجز فى أسطح صورته متى ذكرنا أن الجيش الموحدى الذى تصدى لحصار وبدة ، كان يضم على الأقل عشرين ألفاً من الفرسان النظامية ، منهم عشرة آلاف من الموحدين وعشرة آلاف من العرب ، الذين عبروا مع الخليفة الموحدى إلى الأندلس حسبما أسلفنا فى موضعه . وهذا غير المتوقعة وأجناد الأندلس ، وهؤلاء يـمكن تقديرهم أيضاً بعدة آلاف . فكيف يعجز هذا الجيش الكبير عن اقتحام مدينة صغيرة غير ممتنة مثل وبدة ، خصوصاً وقد كانت تضطلع بالدفاع عنها حامية محلية صغيرة من القشتاليين ؟ إن مثل هذا العجز المطبق يكشف أولاً وقبل كل شىء عن عجز القيادة الموحدية ، ذلك أنه لم تكن بين أولئك الإخوة والأشياخ

الدين يلتفون حول الخليفة الموحدى ، ويديرون دفة الغزوة ، هيئة قيادة مقتدرة ، بل لم يكن بينهم قادة أكفاء بالمعنى الصحيح ، وكان مجلس القيادة يتخذ في معظم الأحيان صورة اجتماع عائلي ، تغلب فيه الآراء الفطرية ، والقرارات المرتجلة ، وبدلاً من أن نرى الخليفة يخرج من قبته ليقود جنده بنفسه ، أو ليحثهم على التفاني في القتال ، نراه في اللحظة الحرجة التي هزم فيها أهل الأندلس ، وأجلوا عن مواقعهم ، يجلس داخل قبته مع الطلبة الموحدين ليناقشهم في بعض المسائل الفقهية . ويجدر بنا ونحن نتحدث في هذا الموطن عن عجز القيادة الموحدية أن نعود قليلاً إلى الوراء ، لنذكر ما كانت عليه القيادة المرابطية في شبه الجزيرة من المقدرة والكفافية ، وما كان يمتاز به القادة المرابطون من البراعة والدربة العسكرية العالية ، وهي التي مكنتهم من أن يحرزوا بيجوشهم القليلة العدد ، انتصاراتهم الباهرة في مواقع مثل إقليش وإفراغة .

هذا ومن جهة أخرى فقد كشفت غزوة وبذة ، عما كان يسود الجيوش الموحدية من التفكك ، وانعدام التماسك بين مختلف العناصر التي تتكون منها . وقد كان العرب الذين يرافقون الجيش الموحدى يحملون أكبر قسط من تبعه هذا التفكك ، فقد رأيناهم يضلون بتعاونهم ، ويجمعون عن القتال في الساعات الحرجة ، وكان هذا الإحجام من جانب العرب يشل حركة الجيش الموحدى ، وينال من مقدرته وقواه المعنوية . أضف إلى ذلك ما كشفتته هذه الحملة من سوء تنظيم تموين الجيش الموحدى ، وما ترتب على ذلك من ندرة الأقوات والعلوفات ، وما كان يصيب الجند من جراء ذلك من الضيق والحرمان وانهيار القوى المعنوية (١)

- ٤ -

في الوقت الذي نزل فيه الخليفة أبو يعقوب يوسف بمرسية ، ليستريح من وعثاء حملته المنكودة على وبذة ، كانت تحدث في الجانب الآخر من شبه الجزيرة في غربي الأندلس ، حوادث هامة ، مؤسفة في نفس الوقت . وكان ملك البرتغال مذقت في عضده نكبته في معركة بطليوس في شعبان سنة ٥٦٤ (١١٦٩ م) قد لزم السكينة حيناً ، وهو يرقب الحوادث والفرص ، فلما غادرت الجيوش الموحدية قواعدها في إشبيلية في غزوتها إلى وبذة ، شعر بأن الفرصة قد سنحت

(١) تستغرق يوميات ابن صاحب الصلاة عن غزوة وبذة من كتاب « المن بالإمامة » نحو ستة عشرة صفحة كبيرة من لوحة ١٧٣ أ إلى لوحة ١٨٩ ب .

للعمل ، وكان يطمح بعد فشله في افتتاح بطليوس ، إلى الاستيلاء على مدينة باجة الحصينة ، أهم قواهد ولاية الغرب في تلك المنطقة ، وكانت باجة ، مذ أقبل عن ولايتها سيدراى بن وزير ، وبسط الموحدون سيادتهم على قواعد ولاية الغرب ، قد أسندت ولايتها إلى بعض الحفاظ الموحدين ، فتولاها عمر بن تيمصلت التينمالي مدى حين ، ولكنه لم يفلح في تهدئة ما ثار بها من الفتن بين أعيانها وبين الدهماء ، فعزل عنها ، وولى عليها طالب بربرى من الحفاظ يسمى عمر بن سحنون ، وكان عاجزاً ، يغلب عليه الطيش ، فاتصل به الدهماء والسفلة ، فقربهم وأذناهم ، وأذكى بذلك حفيظة الخاصة ، واشتد التقاطع بين الناس ، واستوزر ابن سحنون أيضاً رجلاً بدوياً من سفلة باجة ، فاضطهد الناس ، واجترأ على سفك الدماء ، وأخذ أموال الناس بالباطل ، وضربهم بالسياط ، وعاونوه في طغيانه وعسفه قاضي البلدة عمر بن زرقاج ، وكان مغرضاً ظلوماً ، واستبد ابن سحنون بأمره ، وغلب رأى السفلة والفجار في كل شيء ، وقتل بعض الأعيان والفقهاء ظلماً وعدواناً ، واشتدت الفتنة بالمدينة ، ووصلت أخبارها إلى إشبيلية .

كانت هذه حال مدينة باجة في أواخر سنة ٥٦٧ هـ (صيف سنة ١١٧٢ م) حينما كان الخليفة أبو يعقوب يوسف يسير في جيوشه إلى غزوة وبدة ، ولم تكن هذه الأحوال بخافية على النصارى ، وهم يحتلون يابرة وقصر أبي دانس القريبتين من باجة . وكان من الواضح أن مدينة هذه حالها لا يمكن أن تثبت أمام العدو المغير . ومن ثم فقد أعد ألفونسو هنريكيذ عدته لافتتاح باجة ، وسار إليها ومعه قائده ومعاونيه جيرالدو سمبافور في قواته . وكان من سوء الطالع أن الحراسة بأبراج المدينة كانت مهملة ، وكان بعض هذه الأبراج دون سمار (حراس) يلازمونها بالليل ، لأن الوالى ابن سحنون كان يحبس رواتبهم ولا يدفعها ، وكان برج القصبة المسمى « برج الحمام » قد ترك على هذا النحو دون سامر . ففي ليلة مستهل المحرم سنة ٥٦٨ هـ (٢٣ أغسطس سنة ١١٧٢ م) نفذ النصارى ضربتهم . وكانت ليلة مظلمة على النحو الذى كان يختاره جيرالدو سمبافور لإنزال ضرباته . فوصل النصارى إلى السور زحفاً على أيديهم وأرجلهم ، ووضعوا السلم على برج القصبة دون أن يشعر بهم أحد من السّمّار ، ثم صاحوا صيحتهم المأثورة ، وما كاد الوالى عمر بن سحنون وأهل المدينة يستيقظون من سباتهم حتى كان النصارى قد ملكوا برج القصبة ، ثم احتلوا القصبة في الحال . وساد الذعر في المدينة ،

وتدلى الوالى من السور وفر إلى ميرتلة ، وماكاد يسفر الصبح حتى احتل
النصارى المدينة ، وأخذ الناس يفرون من أبوابها ، وهم يُقتلون ويأسرون من كل
جانب ، وقتل وأسر جماعة من أعيانها ، واستولى النصارى على مقادير عظيمة
من المال والمتاع .

ولكن النصارى لم يمكنوا طويلا بباجة . ذلك أن ملك البرتغال رأى من ضخامة
المدينة ما يجعل الدفاع عنها مهمة شاقة ، ومن ثم فقد هدم أسوارها ، وأحرق
ربوعها ، ثم غادرها بعد أن احتلها نحو خمسة أشهر ، وتركها قاعاً صفصفاً وذلك
فى أول يناير سنة ١١٧٣ ، وقد أخذ معه كثيراً من أهلها الأسرى . وقد أنقذ معظم
هؤلاء فيما بعد بالفداء ، وهاجر كثير منهم بعد خراب مدينتهم إلى مراكش^(١) .

ولم يتحرك الموحدون لسقوط باجة على هذا النحو ، وشغل الخليفة أبو يعقوب
منذ وصوله إلى إشبيلية بالعمل على استكمال بناء المسجد الجامع ، وكذلك باستكمال
بناء القصور والبساتين التى بدئ بإنشائها خارج باب جهور حسبما تقدم فى موضعه .
وكذلك باستقبال وفود أهل إفريقية . بيد أنه لم يمض على ذلك أشهر قلائل ، حتى
اضطر الموحدون إلى خوض غمار حرب جديدة جاءت تلك المرة من ناحية قشتالة .

فى أوائل شهر شعبان سنة ٥٦٨ هـ (مارس ١١٧٣ م) خرجت من مدينة
آبله حملة قشتالية بقيادة حاكمها الكونت خمينو ، وهو الذى تعرفه الرواية الإسلامية
بالقومس « سان متوس » وأحياناً بشانشوا وتصفه بالأحذب عظيم النصارى بآبله —
وقد كان بالفعل أحذباً — وتسميه أحياناً « بأبى بردعة » إذ كان لعاهته يركب على
بردعة وثيرة من الحرير مسرجة بالذهب مرصعة بأصناف الجواهر^(٢) . وكان
الكونت خمينو قد قام قبل ذلك بعدة غارات مخربة فى ربوع الأندلس ، ووصل

(١) نقلنا هذه الرواية المفصلة عن غزو البرتغاليين لباجة عن ابن عذارى (البيان المغرب —
القسم الثالث ص ١٠٠ — ١٠٣) . وقد سبق أن أشرنا فى موضعه إلى الرواية الموجزة التى يقدمها
إلينا ابن صاحب الصلاة عن ذلك الحادث وهو ينسب وقوعه إلى شهر ذى القعدة سنة ٥٥٧ هـ (ديسمبر
سنة ١١٦٢ م) أعنى إلى ما قبل التاريخ الذى يقدمه إلينا ابن عذارى بعشرة أعوام . (كتاب المن بالإمامة
لوحه ١١٨ ب) . ولم يذكر لنا صاحب البيان المغرب مصدره . ولكن يبدو من أسلوب روايته أنها
ربما نقلت عن ابن صاحب الصلاة من المفر الثالث من كتابه وهو لم يصل إلينا . وفى هذه الحالة
تكون رواية ابن صاحب الصلاة الأولى من قبيل اللبس والخلط .

(٢) ابن صاحب الصلاة فى « المن بالإمامة » لوحه ١٩٠ ب ، وروض القرطاس ص ١٣٩
والبيان المغرب القسم الثالث ص ٩٨ .

فى بعض غاراته إلى طريف والجزيرة الخضراء ، وأصاب المسلمين من عدوانه وعيئه بلاء كثير . فخرج بقواته من آبله واخترق قلب الأندلس جنوبا ، حتى عبر نهر الوادى الكبير ، من المخاضة الواقعة بين حصن بلمة وحصن الجرف ، وانحدر إلى أحواز إستجة ، ثم اتجه صوب قرطبة ، وعاث فى وادىها ، وخرب الزروع واستاق من الماشية نحو خمسين ألفاً ومن البقر نحو مائتين . وأسر من المسلمين نيفاً ومائة وخمسين رجلاً ، ثم سار بغنائه وأسراه غرباً صوب مخاضة بليارش على مقربة من بلدة القصر . وكان الخليفة فى تلك الأثناء قد أمر بالتأهب لمحاربة القشتاليين ، وقمع غارتهم ، فخرج من إشبيلية فى الثالث عشر من شهر شعبان (٥٦٨ هـ) جيش موحدى بقيادة السيد أبى زكريا يحيى ابن الخليفة ، ومعه أخوه أبو إبراهيم إسماعيل ، وعدة من الحفاظ والأشياخ وقوة مختارة من الفرسان والرجال العرب بقيادة أشياخهم ، وعبر هذا الجيش الموحدى نهر الوادى الكبير على عجل ، وسار صوب قرطبة ، فوصلها فى السادس عشر من شعبان ، وكان القشتاليون قد وصلوا عندئذ إلى بلدة القصر . واجتمع أقطاب الموحدين بالشيخ أبى حفص عمر ، واستقر رأى على مطاردة القشتاليين وقتالهم أينما كانوا ، ولو فى أراضى قشتالة ذاتها ، وانضم الشيخ أبو حفص بقواته إلى الجيش الموحدى ، واستعد بالميرة والعلوفات ، وخرج الموحدون فى أثر النصارى ، تتقدمهم قوة من الطلائع بقيادة الحافظ أبى عمران موسى بن حمو الصنهاجى صاحب يابرة ، لتخبرهم تباعاً عن تحركات النصارى ، وكان القشتاليون قد توقفوا فى سهل متسع يعرف بفحص « كركوى » على مقربة من قلعة رباح . فأدرك الموحدون أنهم يريدون اللقاء فى هذا المكان ، فاستعدوا للمعركة فى عزم وثقة ، ولكنهم ماكادوا يقتربون من السهل ، حتى عجل النصارى بالمسير ، ولكنهم لما أيقنوا بأنه لامفر من القتال ، لحأوا إلى جبل وعر فى نهاية السهل . فاندفع الموحدون وراءهم إلى أعلى الجبل ، واشتبكوا معهم فى معركة حامية . وكان الكونت خمينو ، يراقب المعركة من خيمته فى أعلى الجبل ، ويحث جنوده على التفانى فى القتال ، ولكن ماكاد ينتصف النهار ، حتى رجحت كفة الموحدين ، ومزقت صفوف القشتاليين ، وكثر القتل فيهم ، ووصل الموحدون إلى خيمة الكونت خمينو ، وقتلوه واحتزوا رأسه ، ولم يفلت من القتل من النصارى سوى نحو مائتين ، فروا فى مختلف الأنحاء . وفى فى هذه المعركة معظم أهل آبله ، واستولى المسلمون على عتاد

النصارى ، وأسلامهم وخبولهم ، واستنفدوا الأسرى المسلمين ، واستردوا سائر الغنائم والماشية والدواب ، وأعيدت بأمر الخليفة إلى أصحابها . وجمعت رؤوس النصارى ، وحملت إلى الشيخ أبي حفص وابنى الخليفة « وميزت » رأس الكونت خينو ، وأرسلت إلى الخليفة بإشيلية ، عن يد يحيى ابن الوزير أنى العلاء بن جامع فوصل إليها فى ظرف يومين بعد رحلة مسرعة شاقة ، ووصف للخليفة تفاصيل الموقعة المظفرة ، وفى الحال قرعت الطبول ليذناناً بالنصر ، وأقبل الناس للهنئة . وفى يوم الجمعة الحادى والعشرين من شعبان ، وهو ثالث يوم بعد الموقعة ، وصل الشيخ أبو حفص وصحبه إلى إشيلية ، واجتمع بالخليفة وأخيه السيد أنى حفص ، بقصره بالقصبة ، واصطف الموحدون من الأشياخ والطلبة والفقهاء والكتاب والخطباء ، وأدخل المهنتون وفق مراتبهم . وخطب الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن عمر أولاً باللغة البربرية ، ثم بالعربية ، وخطب من بعده الحافظ أبو بكر بن الحد ، فالقاضى أبو موسى عيسى بن عمران ، فالفقيه أبو محمد المالى . ثم أنشد الشعراء تهنيتهم ومدائحهم ، ووزعت عليهم الصلوات ، وكان يوماً حافلاً^(١) .

وشجع هذا النصر الذى تلا فشل حملة وبذة الموحدين على الاضطلاع بغارات جديدة فى أراضى النصارى . فجهزت حملة موحدية قوامها أربعة آلاف فارس ، وقوة من أجناد الأندلس والعرب ، بقيادة أبى يعقوب يوسف بن أبى عبد الله تيجيت وعبد الله بن إسحق بن جامع ، ومعها مقادير عظيمة من الميرة والعتاد برسم مدينة بطليوس تحملها قافلة من ثلاثة آلاف دابة ، وغادرت هذه الحملة لإشيلية ، إلى بطليوس ، وبعد أن سامت أحمال الميرة إلى واليها أبى غالب بن أبى الحسين ، سارت نحو الشمال الشرقى حتى وصلت إلى أحواز مدينة طليبرة ، الواقعة على نهر التاجه غرب طليطة ، فعاثت فى بسائطها ، وقتلت وأسرت كثيراً من النصارى ، واستولت على أكثر من ثلاثين ألفاً من الغنم والدواب ، وعادت سالمة إلى إشيلية . ثم خرجت من بعدها حملة أخرى ، وسارت إلى أراضى طليطة ، وعاثت فيها واستولت على كثير من الغنائم . وأدرك النصارى أن موجة الغزو الموحدى قد تشدد ، وقد تتخذ صورة مزعجة ، فجنحوا إلى المسالمة ، وطلب المهادنة . وكان أول من سعى منهم إلى الصلح ، الكونت نونيو دى لارا حاكم طليطة ، ثم تلاه

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٩١ إلى ١٩٤ ب ، والبيان المغرب القسم

ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، فبعث رسله إلى الخليفة ، وحذا ألفونسو هنريكينز ملك البرتغال حذو ملك قشتالة فبعث رسله في طلب المهادنة والصلح . واستمرت المفاوضات نحو شهرين ، وانتهت بعقد الهدنة بين الخليفة وبين الملوك النصراري ، وذلك في شهر ذى الحجة سنة ٥٦٨ هـ (يولييه سنة ١١٧٣ م) . وكان مما حمل الخليفة على إثبات الصلح والمهادنة رغبته في التفرغ لأعمال الإنشاء ، وتعمير البلاد التي خربت أو أقفرت من جراء العدوان والغزو ، مثل باجة وغيرها (١) .

وكان من أثر عقد المهادنة بين الخليفة وبين ملك البرتغال ، أن شعر حليفه وقائده السابق جبرالدو سيمافور أو جراندو الجليقي ، أنه فقد مكانته ، وأغلقت في وجهه فرص المغامرة ، والعمل المثمر ضد الموحدين ، ولم يجد أمامه خيراً من الدخول في خدمة الخليفة ، فسار في صحبه ، وهم ثلاثمائة وخمسون جندياً ، إلى إشبيلية (سنة ٥٦٨ هـ — ١١٧٤ م) والتمس قبوله « عبداً وخداماً » للخليفة ، فقبل الخليفة التماسه ، ووصله بالإحسان والإكرام ، واستمر الأمر على ذلك بضعة أشهر ، ولكن ألفونسو هنريكينز ، الذي لم يرقه تصرف قائده السابق لبث يرسل إليه سرّاً ، أن يتحيل في الارتداد والعود ، فضبطت بعض هذه المراسلات وظهر منها موقف جبرالدو المريب ، فقبض عليه وعلى أصحابه ، وأرسلوا إلى سبلياسة ، واعتقلوا هنالك تحت رقابة شديدة . ثم حاول جبرالدو الفرار من معتقله ليجوز إلى البحر ، فقبض عليه ، وقتل واحتز رأسه ، وانتهى بذلك وفي رواية أخرى أن جبرالدو لبث في خدمة الخليفة حتى غادر الخليفة إشبيلية إلى المغرب في شعبان سنة ٥٧١ هـ (مارس ١١٧٦ م) ، فسار في ركابه ، وعينه الخليفة للخدمة في « السوس » وهنالك اتصل جبرالدو بالمكاتبة سرّاً بملكه السابق ، وعرض عليه أن يجهز أسطولاً لفتح هذه الناحية ، وبذلك تمتلك البرتغال بعض مراكز على ساحل المغرب ، فضبط الموحدون بعض هذه الرسائل (٢) ، وأصدر الخليفة أوامره سرّاً إلى عامله بدرعة موسى بن عبد الصمد بأن يقسم جبرالدو

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٩٥ أ وب . وهنا ينتهي السفر الثاني من كتاب المن بالإمامة ، وهو الذي وصل إلينا من مؤلف ابن صاحب الصلاة ، ولم يصلنا شيء من السفر الثالث الذي يبدأ بنحو أحداث سنة ٥٦٩ هـ .

(٢) أخبار المهدي بن تومرت ص ١٢٧ ، ويقول لنا البيهقي إن مصرع جبرالدو كان في

سنة ٥٦٥ هـ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٣ . وراجع H. Miranda : Imperio

وأصحابه على القبائل ، ثم يقتل جيرالدو لما ثبت من خيائنه ، وبعث بجيرالدو إلى درعة فसार إليها مع أصحابه ، وهناك نفذت فيهم أوامر الخليفة . وكانت أهم الحوادث في العامين التاليين ، قبيل عودة الخليفة إلى المغرب ، تتلخص في اهتمام الخليفة بتعمير قواعد الغرب ، وفي تجديد الحرب مع ملك ليون . وقد بدأ الخليفة أعمال التعمير ، بإصلاح حصن القلعة الواقع على مقربة من جنوب شرق إشبيلية على النهر المتفرع من الوادي الكبير^(١) ، وكان قديماً حصنها الشرقي ، وقد تهدم منذ أيام الفتنة الكبرى ، وبقي خراباً حتى ذلك الوقت ، فأمر الخليفة بإصلاحه وبنائه ليعود إلى الاضطلاع بمهمته الدفاعية القديمة ، وكان ذلك في صفر سنة ٥٦٩ هـ .

وفي العام التالي كانت حركة تعمير مدينة باجة ، التي خربها وهدمها ألفونسو هنريكيز قبل إخلائها . ففي شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٠ هـ ، استقبل الخليفة وفدًا من أعيان أهل باجة السابقين ، ووعدهم بتعمير مدينتهم لكي يعودوا إلى سكناها ، ويسكنها معهم الموحدون ، وعين لولايتهم الحافظ أبا بكر بن وزير ، ثم سار أهل باجة إلى مدينتهم الخربة ، وكانوا يومئذ نحو مائتي شخص من مختلف الأعمار ، ونزلوا بقصبتها ، وبنوا بابها ، وأصلحوا ما تيسر من أطلالها . ثم لحق بهم عمر ابن تيمصت والى شلب في نحو خمسمائة رجل من الفعلة والبنائين ، ومعهم أقواتهم وأدواتهم ، وأخذوا في بناء أسوارها فكملت في نحو شهر ، وجاءت للعمل والبناء حشود أخرى ، واستمر العمل في التعمير بهمة . وحدث خلال ذلك أن استبد والى باجة أبو بكر بن وزير وأساء السيرة ، ونشب بينه وبين أهلها خلاف شديد وفتنة ، فأمر الخليفة بعزله ، وتعيين عمر بن تيمصت والياً مكانه ، فأحسن السيرة ، وأقبل الناس على البناء والتعمير ، وإنشاء الرباع والحدائق ، وراجت الأحوال ، وانتظم التعامل ، واستعادت باجة سابق عمارتها ورونقها^(٢) .

وفي أثناء ذلك كانت الحرب قد نشبت بين الموحدين وبين فرناندو الثاني ملك ليون المسمى «بالبيوج» ، وكان فرناندو قد عقد الصلح والتحالف مع الخليفة الموحدى منذ سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩ م) ، وعاونوه الموحدون في حربه ضد آل لارا زعماء قشتالة ، وأبدى هو ، حينما حاصر البرتغاليون مدينة بطليوس ، وكادوا يستولون

(١) وهو بالإسبانية Alcalá de Guadaira ويسمى كذلك قلعة جابر .

(٢) البيان المترب القسم الثالث ص ١٠٧ .

عليها ، صدق ولائه ، فحارب إلى جانب الموحدين ، وعاون على صد البرتغاليين وهزيمتهم . وامتنع هو عن مهاجمة بطليوس مرة أخرى ، حينما نبهه الموحدون إلى الخلف العقود ، وأبدى تمسكه بعهوده ، وهاداه الخليفة وأثنى عليه ، واستمر محافظاً على صداقته وولائه حتى أواخر سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) ، وعندئذ ، ودون أية أسباب ظاهرة ، قام فجأة بغزو أراضي الأندلس وعاث فيها ، فاستشاط الخليفة غضباً ، وأمر بمهاجمته في عقر داره ، فجهزت حملة كبيرة من الموحدين والعرب ، وخرجت من إشبيلية بقيادة السيد أبي حفص أخى الخليفة فى الثالث من صفر سنة ٥٧٠ هـ (٣ سبتمبر ١١٧٤ م) ، وسارت تواء إلى مدينة ردرىجو قاعدة ملك ليون ، وهى التى تسمى الرواية الإسلامية بمدينة « السبطاط » (١) ، ومعه الزعيم القشتالى فرناندو ردرىجيس صهر ملك ليون حليف الموحدين القديم فى صحبه ، وهاجم الموحدون مدينة ردرىجو ، فلم ينالوا منها مأرباً ، ولكنهم استولوا على حصنى القنطرة وناضوش من أماكن الحدود . ولما عاد السيد أبو حفص إلى إشبيلية ، احتفل بهذا النصر الجزئى ، وأنشد الشعراء قصائدهم كالعادة (٢) . ولزم فرناندو ملك ليون السكينة مدى حين . بيد أنها كانت هدنة قصيرة ، وكانت كما سترى مقدمة لسلسلة من الغزوات الجديدة ، التى قام بها الملوك النصارى فى أراضي المسلمين .

* * *

وفى أوائل سنة ٥٧٠ هـ ، عقد الخليفة أبو يعقوب زواجه بالحسنة زائدة ابنة زعيم الشرق الراحل محمد بن سعد بن مردنيس ، وتم زفافها إليه فى اليوم الخامس من ربيع الأول فى مهرجان فخم . وكان صداقها الرسمى خمسين ديناراً ، ولكن الخليفة وجه إليها ألف دينار من الذهب العين « تأنيساً » . ولما وصلت إليه بإشبيلية مع أهلها وحشمها ، وهب لها كل ما كان أهدها إليه إختوتها عند فتح مرسية . وكان زواجاً موفقاً ، حظيت فيه العروس الأندلسية ، واستأثرت بحب الخليفة وإعجابه ، حتى كان بضرب المثل بهذا الحب للحسنة ذات العينين الزرقاوين . وحظى قومها آل مردنيس لدى الخليفة ، وأحرزوا فى كنفه رفيع

(١) سبق أن أوضحنا أن مدينة السبطاط ، هى تحريف لكلمة cibdad القشتالية ومعناها المدينة .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٠٤ .

المناصب والرتب ، حسبنا أشرنا إليه في موضعه . وكان من غرائب القدر أن يحظى عقب الثائر الذي شغل الموحدين ودوخ جيوشهم زهاء ربع قرن ، على هذا النحو في بلاط عدوه القديم المتغلب عليه^(١) .

وكانت إقامة الخليفة بالأندلس تدنو عندئذ من نهايتها ، وقد استطالت هذه الإقامة زهاء خمسة أعوام ، منذ مقدم الخليفة في رمضان سنة ٥٦٦ هـ . ولم تدون الرواية في الأشهر الأخيرة من إقامته شيئاً من الحوادث ، سوى ما أمر به من نكبة محمد بن عيسى المشرف على إشبيلية وذلك في شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٧١ هـ ، وكانت قد لحقت به ريب كثيرة من تبديد الأموال واختلاسها ، فقبض عليه ، وتولى بلول بن جلداس محاسبته ، واستصفاء أمواله ، ثم عذب وضرب حتى مات ، وألقيت جثته في الوادي الكبير .

ولم يمض على ذلك سوى أسبوعين أو ثلاثة ، حتى اتخذت الأهبة لسفر الخليفة ، وذلك بعد أن عقد لأخيه أبي على الحسين على ولاية إشبيلية ، ولأخيه أبي الحسن على ، على ولاية قرطبة . وغادر أبو يعقوب إشبيلية في ركبته في يوم الخميس الرابع عشر من شهر شعبان سنة ٥٧١ هـ (٢٨ فبراير سنة ١١٧٦ م) ومعه الخواص والأشياخ والعمال والكتاب ، ومن زعماء الأندلس بنو مردنيش ، وإبراهيم بن همشك وغيرهم . وكان خروجه من مرسى طلياطة على نهر الوادي الكبير ، فجاز النهر ثم البحر إلى طنجة ، وأقام بها أياماً ، ثم غادرها إلى مراكش ، فوصلها في منتصف شهر رمضان من نفس العام (٢٨ مارس سنة ١١٧٦ م) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٠٨ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٧١ ،

وروض القرطاس ص ١٣٩ . وكذلك : A. P. Ibars : Valencia Arabe, T.I. p. 552

الفصل الرابع

أحداث الأندلس والمغرب

عصف الوباء بالمغرب والأندلس . ثورة عشائر صنهاجة وإخادها . غزو النصارى لمدينة قونقه وحصارها . غزو الموحدين لأراضى طليطلة وطليرة . استمرار النصارى فى حصار قونقه . سقوطها فى أيديهم . غزو ملك ليون لفحص إشبيلية . إغارة البرتغاليين على باجة وطريانة . خروج جند باجة للغزو وهزيمتهم . فرار أهل باجة وإخلاؤها . رواية أخرى عن غزوة البرتغاليين . نكبة الخليفة لبنى جامع وغيرهم . وفاة بعض السادة والأعلام . غزو السفن الموحدية لثغر أشبونة ، ورد السفن البرتغالية . غزوة ثانية للسفن الموحدية . نفاذ الموحدين إلى الداخل وهزيمتهم . معركة بحرية بين الموحدين والبرتغاليين . هزيمة البرتغاليين ومقتل قائدهم . غزو الموحدين لأراضى يابرة . غزو البرتغاليين لأراضى إشبيلية . غزوهم للشرف ومدينة شلوقه ، وحصن القصر . غزو القشتاليين لأراضى قرطبة . توغلهم فى وادى إشبيلية وجنوب الأندلس . استيلاؤهم على حصن شنتفيلة . غزو الموحدين لحصن شنتفيلة وحصاره . صموده وإقلاعه عن . إخلاء النصارى له . غزو الموحدين لأحوار طلييرة . اشتباكهم مع القشتاليين . هزيمة القشتاليين وفرارهم . القائد ابن وانودين والخليفة . وفاة السيد أبى حفص . ثورة بنى الرند بقفصة . سير الخليفة لقمع الثورة . تواطؤ ابن المتصر مع بنى الرند ونكبته . محاصرة قفصة وضربها . تسليم ابن الرند . حث الخليفة العرب على الجهاد . استجابة العرب لدعوته . سياسة الموحدين فى اصطناع العرب . دأبهم فى التقلب وعدم الولاء . عقد الصلح بين ملك صقلية والخليفة . رسالة الفتح . عود الخليفة إلى مراكش . سير الخليفة إلى تينملل . زيارته لقبر المهدي وقبر أبيه . قصيدة فى مناقب المهدي وصحة دعوته . توسيع مدينة مراكش . ثورة عرب سليم وهزيمتهم للسيد أبى الحسين وأسرهم . حوادث أخرى .

لم تمض أسابيع قلائل على استقرار الخليفة أبى يعقوب بمراكش ، حتى ظهر الوباء بالمدينة فى أول شهر ذى القعدة (سنة ٥٧١ هـ) واشتد حتى بلغت ضحاياها كل يوم نحو مائتى شخص ، ولما ضاق الجامع بالصلاة على الموتى ، أمر الخليفة أن يُصلّى عليهم بسائر المساجد . وأصيب معظم السادات بالوباء ، ومات منهم أربعة من إخوة الخليفة هم السيد أبو عمران ، ثم أخوه السيد أبو سعيد ، فأخوهما السيد أبو عبد الله ، ثم أخوهم السيد أبو زكريا والى بجاية . ومات من أشياخ الموحدين أبو سعيد بن الحسين ، وكان الشيخ أبو حفص عمر الهنتاني قادماً من قرطبة قاصداً إلى مراكش ، فأصيب بالوباء وتوفى بالطريق ، ودفن برباط الفتح ، وفقدت الدولة الموحدية بوفاته ركناً من أهم أركانها ، وبناء من أعظم بناتها ، وقائداً من

أعظم قوادها . ومرض الخليفة ، وأخوه السيد أبو حفص ، وأشرفا على الهلاك ، ولكن تداركتهما العناية حتى شفيا . ويروى ابن صاحب الصلاة عن السيد أبي علي الحسين ولد الخليفة ، أنه كان يموت كل يوم في القصور الملكية ثلاثون شخصاً حتى فنى معظم رجال الحاشية والخدم والعبيد . واستمر هذا الوباء مدى عام ، وساد الروح حاضرة مراكش ، حتى أنه لم يكن يدخلها أو يخرج منها أحد ، وكان كل من خرج منها فاراً ، أدركه الوباء في الطريق . ولم يكن عصاف الوباء قاصراً على أهل المغرب ، بل تعدى أثره إلى الأندلس ، ولكن فيما يبدو بصورة مخففة . وكان من أعيان المتوفين به بالمغرب والأندلس غير من تقدم ذكرهم ، القاضي أبو يوسف حجاج بن يوسف قاضي مراكش ، وكان من أعلام عصره زهداً وعدلاً وأدباً ، والكاتب أبو الحكم بن هرودس المالقي ، وأخوه أبو الحسن وكان من جلة الطلبة ، والكاتب أبو الحسن علي بن زيد الإشبيلي ، ومشرف غرناطة أبو عمرو بن أفلح ، وجملة كبيرة من أعيان الطلبة والموحدين في مختلف القواعد^(١) .

وما كادت تنقش غمة الوباء حتى وقعت ثورة محلية بين عشائر صنهاجة القبيلية ، وذلك في أواخر سنة ٥٧٢ هـ (أوائل ١١٧٧ م) ، فخرج الخليفة إلى غزوها في الرابع من شهر ذي القعدة ، وترك أخاه السيد أبا حفص بمراكش والياً عليها ، فلما وصل إلى رباط هسكورة في منطقة الأطلس ، جنوب شرق مراكش ، أمر ببناء محلة للعسكر ، وقدم عليهم ابنه السيد أبا يوسف يعقوب ، وعاد إلى مراكش في الحادي والعشرين من ذي القعدة ، ولم تلبث العشائر النائرة أن أذعن وعادت إلى الطاعة ، وانصرف جميع الأجناد^(٢) .

وفي تلك الآونة بدأت حوادث الأندلس تتخذ وجهة خطيرة سواء في الشرق أو الغرب . وكان التهادن والصلح قد عقد بين الخليفة وبين الكونت نونيو دي لارا صاحب طليطلة ، وألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وألفونسو هنريكيث ملك البرتغال ، في سنة ٥٦٨ هـ (١١٧٣ م) أثناء إقامته بإشبيلية . ولكن الخليفة ما كاد يغادر شبه الجزيرة عائداً إلى المغرب في شعبان سنة ٥٧١ هـ ، حتى عول النصراري على نقض الهدنة ، واستئناف الغزو . ففي العام التالي ، أعنى سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٧ م) وهي السنة التي عصاف فيها الوباء بمراكش ، خرج ألفونسو الثامن

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٩ و ١١٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٠ .

ملك قشتالة ، ووصيه السابق الكونت نونيو دى لارا ، لغزو الأراضى الإسلامية ، واتجهما بقواتهما صوب مدينة قونقة (كونكة) وهى تقع فوق ربوة عالية صعبة المنال عند ملتقى نهري شقر ووقر ، فى شمال شرقى الأندلس ، وهى من حصون ولاية بلنسية الأمامية المنيعه ، وضربا حولها الحصار (يناير سنة ١١٧٧ م) . ويقول ماريانا ، إن قونقة كانت من المدن التى أنشأها المسلمون فى تلك المنطقة ، لأنه لم يرد ذكرها فى سير الرومان والقوط ، وإن ملك أراجون كان مشتركاً فى تلك الحملة ، وقد تحالف مع ملك قشتالة على محاربة المسلمين ، كما اشترك فى الحملة إلى جانب الملكين عدد كبير من القادة ومشاهير الفرسان مثل بيدرو أسقف برغش ، وسانشو صاحب آبله ، وريموندو صاحب بلازنسيا ، وغيرهم^(١). فبعث أهل قونقة إلى الخليفة بمراكش فى طلب الغوث والنجدة ، فبعث الخليفة إلى ولديه السيد أبى على الحسين وإلى إشبيلية ، والسيد أبى الحسن على وإلى قرطبة ، بأن يتحركا لغزو جهات طليطلة وطلبيرة ، وذلك حتى يرغم القشتاليون على رفع الحصار عن قونقة . فخرج السيد أبو الحسن فى عسكر قرطبة فى اليوم السادس من شوال (أبريل ١١٧٧) ، وأغار على أراضى طليطلة وأثنى فيها ، وارتد بغنائمه سالماً إلى قرطبة. وخرج السيد أبو على الحسين بعسكر إشبيلية فى أربعة آلاف فارس ، وأربعة آلاف راجل ، وسار شمالاً صوب طلبيرة ، وعاث فى أحوازها ، واستولى على كثير من السبي والغنائم ، وعبر نهر تاجه فى قارب كان قد حمله معه من إشبيلية على أكتاف الرجال ، وفاء لنذر نذره .

على أن هذه الحركة التى نظمها الموحدون لغزو أراضى قشتالة ، لم تؤت ثمرتها فى إنجاد قونقة ، فقد لبث القشتاليون على حصارها ، ولم تصدهم قسوة الشتاء ، ولا مناعة المدينة المحصورة ، ولا ضخامة حاميتها ، عن المضى فى إرهابها والتضييق عليها . والظاهر من أقوال الرواية النصرانية أن الموحدين قد أرسلوا صوب قونقة بعض أمداد مباشرة لإنجادها ، لكن هذه الأمداد عاقبتها عن الوصول إلى المدينة المحصورة ، قوات ملك أراجون حليف ملك قشتالة . وطال حصار قونقة زهاء تسعة أشهر من أواخر يناير سنة ١١٧٧ حتى أواخر سبتمبر ، وفى النهاية اضطرت المدينة المسلمة ، بعد أن استنفدت كل وسائل الدفاع ، وبعد أن برح بها الجوع والحرمان إلى التسليم إلى ملك قشتالة ، وذلك فى اليوم

الحادى والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١١٧٧ م . وفى الحال حول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، جرياً على القاعدة الماثورة ، ثم جعلت قونقة بعد ذلك مركزاً لأسقفية . وكان سقوط قونقة ثغرة خطيرة فى خط الدفاع الشمالى الشرقى الأندلسى ، وكان تقصير الموحدىن أوقصورهم فى إنجاذها وإنقاذها ، ينطوى على خطأ عسكري خطير ، يكشف عن ناحية أخرى من ضعف وسائل الدفاع الموحدى عن شبه الجزيرة الأندلسية^(١) .

وانتهز فرناندو الثانى ملك ليون (البيوج) نفس الفرصة فى الإغارة على الأراضى الإسلامية ، فخرج فى نفس العام بقواته ، وغزا فحصى إشبيلية ، ووصل فى سيره حتى أحواز مدينتى أركش وشريش جنوبى إشبيلية . فخرج إليه الموحدون من إشبيلية ، فلحقوا بقوة من النصارى من أهالى منطقة طليعة ، وكانت قد خرجت فيما يبدو للانتقام مما أنزله الموحدون بأراضهم ، فأحرق بها الموحدون وأبادوها ، واستنقذوا ما كان معها من الغنائم والماشية ، وأسروا منها ثمانين ، أخذوا إلى إشبيلية ، وهناك ضربت أعناقهم أمام الخليفة والأشياء^(٢) .

ووقع فى غربى الأندلس عدوان مماثل ، وحذا ألفونسو هنريكز ملك البرتغال حذو زميليه ملكى قشتاله وليون ، وقد اعترم مثلهما أن ينقض الهدنة التى عقدها مع الخليفة الموحدى . وكانت مدينة باجة هدفه مرة أخرى ، وخصوصاً بعد أن عمرت واستردت رونقها ورخاءها . فسار إليها فى سنة ٥٧٣ هـ (١١٧٧ م) ، وانتسف زروعها ، ونازلها أياماً حتى كاد أن يتغلب عليها . ثم تركها وسار بقواته ، نحو الجنوب الشرقى قاصداً وادى إشبيلية ، ووصل فى زحفه إلى ضاحيتها الغربية طريانة ، فدخلها وأثنى فيها ، وعاث فى أحواز إشبيلية ، ثم عاد إلى باجة مرة أخرى فوجدتها خراباً وقد أقفرت من أهلها . وكان أهل باجة فى تلك الأثناء قد أصابهم محنة أخرى ، اضطرتهم إلى الفرار من مدينتهم . وذلك أن واليها عمر بن تيمصلى خرج منها بجندها وفرسانها ، وانضم إليه على بن وزير حاكم حصن شربة فى قواته ، وأغار على فحصى أبى دانس ، ونشب القتال بينهم وبين النصارى . وفى أثناء ذلك قدمت قوة من نصارى شترين فجأة ، وانضموا

(١) راجع البيان المغرب - القسم الثالث ص ١١٠ و ١١١ . وراجع أيضاً :

M. Lafuente : Historia General de Espana T. III p. 326 & 327

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١١١ .

إلى إخوانهم في مقاتلة الموحدين ، فانهزم ابن تيمصلت وزميله ابن وزير وأسرأ مع جملة من الفرسان والرجالة ، وقتل الباقون ، ووصل الخبر إلى أهل باجة فبادروا بالفرار من مدينتهم في الأهل والولد ، وقصدوا إلى مدينة ميرتلة ، وذلك في شهر المحرم سنة ٥٧٤ هـ (يولييه ١١٧٨ م) وحمل ابن تيمصلت وزميله ابن وزير إلى قلمرية ، وعذب ابن تيمصلت ثم أعدم ، واقتدى ابن وزير بأربعة آلاف دينار^(١) .

وتقدم إلينا الرواية البرتغالية قصة هذه الغزوة في صورة أخرى ، فتقول إن الذي قام بغزو وادي إشبيلية هو سانشو ولد ألفونسو هنريكيذ وولى عهده ، وذلك في سنة ١١٧٨ م (٥٧٤ هـ) وأنه بعد أن هزم الموحدين في ظاهر طريانة ، سار لغزو مدينة لبلة ، ولكنه علم عندئذ أن جيشاً موحدياً قد سار لمحاصرة باجة ، فبعث قوة مختارة من فرسانه ردت الهاجمين ، ثم لحق بها بباقي قواته ، وهزم الموحدين مرة أخرى ، وبقيت باجة في حوزة البرتغاليين^(٢) .

وعلى أثر هذه الأحداث المتوالية ، استدعى الخليفة أبو يعقوب أخويه السيدين أبا على الحسين وإلى إشبيلية ، وأبا الحسن على وإلى قرطبة إلى حضرة مراکش ، فغادرا إشبيلية في اليوم الثامن من شهر رمضان سنة ٥٧٣ هـ (٢٧ فبراير ١١٧٨ م) ، ومعهما أبو على بن عزون وجملة من أشياخ الموحدين بإشبيلية ، فلما وصلا إلى الحضرة بحث معهما الخليفة طويلاً في شئون الأندلس ، وفيما يجب عمله لمحاربة النصارى ، والدفاع عن أراضى المسلمين . ثم أمرا بالانصراف إلى شبه الجزيرة ، فوصلا إليها في المحرم سنة ٥٧٤ هـ (يونيه ١١٧٨ م) .

وفي نفس هذا العام ، أعنى سنة ٥٧٣ هـ ، قام الخليفة أبو يعقوب بحركة تطهير شاملة بين وزرائه وعماله ، فنكب وزيره أبا العلاء إدريس بن إبراهيم ابن جامع وبنه ، فقبض عليهم ، واستصنى أموالهم ، ونفاهم إلى مدينة ماردة بالأندلس ، فأقاموا بها في فقر وضعة نحو ستة أعوام ، حتى توفي الخليفة أبو يعقوب ، فعفا عنهم ولده الخليفة أبو يوسف . وكان بنو جامع يتولون وزارة الخليفة الموحدى ، منذ بداية حكمه ، أى منذ خمسة عشر عاماً ، وعيدهم إدريس ابن جامع ، هو ولد إبراهيم بن جامع من أصحاب أهل الدار ، أعنى من قرابة

(١) البيان المغرب ص ١٠٧ و ١٠٨ .

(٢) H. Miranda : Imperio Almohde, T. I. p. 277 & 278

المهدى ابن تومرت ، فلما سما شأنهم ، وتمكن سلطانهم ، طغوا كالعادة وبغوا ، فنكبهم أبو يعقوب ليتخلص من نيرهم . ونكب الخليفة عدة آخرين من العمال ، وأعدم بعضهم ، وكان من هؤلاء أبو عبد الله بن المعلم مشرف إشبيلية ، وابن فاخر مشرف بمجلماسة ، وأبو الحسن علي بن حنون ، وغيرهم (١) .

وفي سنة ٥٧٤ هـ ، بعث الخليفة ابني السيد أبي الحسن والى قرطبة ، إلى الأندلس ، فولى أبو زيد نظر غرناطة ، وولى أبو محمد عبد الله نظر مالقة . ولم يمض قليل على ذلك حتى توفي أخو الخليفة السيد أبو علي الحسين والى إشبيلية ، ثم أخوه السيد أبو العباس بن عبد المؤمن ، وكان والياً لمدينة مجلماسة . وتوفي من أعلام الدولة الموحدية اثنان كانا من أركان حكومة الخليفة أبي يعقوب ومجلماسة ، وهما أبو علي بن عزون عميد زعماء الأندلس ، والفقيه أبو محمد المالقي شيخ طلبة الحضر بمراكش ، وكان من أقطاب الفقه والحديث والأدب ، وحظي لدى الخليفة عبد المؤمن ، ثم ولده الخليفة أبي يعقوب ، وعلت مكانته في الدولة الموحدية . وكان يتولى رفع المسائل للخليفة ، وتوصيل الرسائل الواردة ، وقراءة كتب الفتوح ، وينتقد للخطابة والصلاة بأمر المؤمنين ، ويرفع إليه أشعار الشعراء في المناسبات المختلفة ، ويلازم ركب الخليفة في الحركة والغزو ، وكان له أدب بارع ، وشعر جيد ولاسيا في الزهد (٢) .

وفي العام التالي أعنى سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) اشتد عدوان البرتغاليين في البر والبحر . وكان ألفونسو هنريكز قد نقض الهدنة التي عقدها مع الخليفة ، وقام البرتغاليون بغزو وادي إشبيلية ، ثم مدينة باجة ، حسباً قدمنا ، ثم تفاقم عدوانهم تباعاً ، فعندئذ قرر الخليفة أن يقوم الموحدون بمجهود لرد هذا العدوان ، فبعث أسطوله المرباط بسبته تحت إمرة غانم بن مردنيش لغزو شواطئ البرتغال ، فسار غانم صوب أشبونة ، وهاجم ثغرها ، واستولى على سفينتين من سفن البرتغاليين ، وعاد بأسطوله إلى سبته . فعندئذ سارت حملة بحرية برتغالية إلى الجنوب وهاجمت شواطئ ولاية الغرب الجنوبية ، واستولت على جزيرة شلطيش ، الواقعة قبالة

(١) المراكشي في المعجب ص ١٣٧ ، والبيان المغرب . القسم الثالث ص ١١٢ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٢ .

ولبة في مصب نهر أوديل ، وأسرت كثيراً من سكانها المسلمين فبقوا في الأسر حتى افتداهم الخليفة أبو يعقوب^(١) .

ورأى الخليفة أن ينتقم لهذا الاعتداء ، وأمر لانشغاله بغزوة قفصة التي نتحدث عنها بعد ، بأن يقوم أسطوله بغزو البرتغال مرة أخرى ، فخرج غانم بن مردنيش وأخوه أبو العلاء ، في حملة بحرية ، سارت إلى مياه البرتغال الشمالية ، ورسوا عند سان مارتين دي بورتو شمالي أشبونة ، ونفذ المسلمون إلى الداخل ، وحاولوا مهاجمة « بورتو دي موس » . التي تقع على مقربة من الشاطئ ، ولكن حاكمها البرتغالي الأميرال روينو استنفر لمعاونته أهالي مدينة شنترين ، وألكانينا التي تقع في شمالها ، فهرعوا لإنجاده ، ودبر البرتغاليون كميناً للمسلمين في جبال منديجا ، وانقضوا عليهم ، فزقت صفوفهم ، وأسر غانم وأخوه أبو العلاء ، وجملة من أكابر الموحدين ، واحتوى البرتغاليون على أسلابهم ومتاعهم ، واستولوا على السفن الموحدية وأسروا من كان فيها ، وساروا بها إلى أشبونة . ووقعت هذه الواقعة في منتصف شهر المحرم سنة ٥٧٦ هـ (١١ يونيو سنة ١١٨٠ م) . وكتب غانم من موضع اعتقاله إلى الخليفة يلتمس الغرث ، فعهد الخليفة إلى أخيه هلال ابن مردنيش بالنظر في فداء أخيه ، فجمع المال اللازم لذلك ، وبعث به إلى إشبيلية ، فحمل إلى النصاري ، وأفرج عن غانم وأخيه وبقية أصحابه^(٢) ، ولكن سري أن ابن عذارى ، وهو صاحب هذه الرواية ، يقدم لنا رواية أخرى عن افتداء غانم وأصحابه .

وحاول البرتغاليون أن يتبعوا نصرهم ، بنصر أكبر ، فحشدوا أسطولاً ضخماً سار بجذاء شاطئ ولاية الغرب بقيادة الأميرال روينو ، وكان مقصد البرتغاليين أن يقوموا بضربة لميناء سبتة مركز الأسطول الموحدي . ولكن قائد أسطول سبتة عبد الله بن جامع ، وهو الذي تولى قيادته منذ أسر غانم ، خرج منها بأسطوله ، وخرج في نفس الوقت أسطول إشبيلية بقيادة أبي العباس الصقلي ، واجتمعت الأساطيل الموحدية بثغر قادس ، ثم سارت منه مجمعة صوب شاطئ البرتغال الجنوبي ، ثم انعطفت لتسير شمالاً بجذاء شاطئ ولاية الغرب ، وكان الأسطول البرتغالي قد بدأ عندئذ سيره نحو الجنوب ، فالتقى الفريقان قبالة رأس إسبكل

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٣ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٦ .

جنوبى أشبونة ، وكان من غرائب القدر أن وقع هذا اللقاء فى الخامس عشر من شهر المحرم سنة ٥٧٧ هـ (أواخر مايو سنة ١١٨١) أعنى لعام بالضبط من اليوم الذى وقعت فيه موقعة « بورتودى موسى » وعلى مقربة من المكان رسا فيه الأسطول الموحدى بقيادة غانم بن مردنيش ، فنشبت بين الأسطولين معركة بحرية عنيفة هزم فيها البرتغاليون شر هزيمة ، وقتل قائدهم الأميرال روبينو ، واستولى المسلمون على عشرين سفينة من سفنهم ، وأسروا نحو ألف وثمانمائة أسير ، وغنموا غنائم وفيرة من العتاد والسلاح ، وكان نصراً موحدياً باهراً . وبأدر القائدان الظافران ابن جامع والصقلى ، فسارا إلى الحضرة فى الأسرى ، والغنائم وقدماهما إلى أمير المؤمنين ، فأمر بتخصيص بعض الأسرى لافتداء غانم بن مردنيش وأصحابه ، وأمر بإعدام الباقين^(١) .

وقام القشتاليون فى نفس الوقت ببعض الغارات فى أراضى الأندلس من ناحية طليطلة ، وأنحنوا فيها كالعادة تخريباً وسيئاً ، بيد أن المعركة الرئيسية ، كانت تضطرم بين الموحدين والبرتغاليين . ذلك أنه فى نفس الوقت الذى وقعت فيه المعارك البحرية السالفة الذكر بين الفريقين ، كان الموحدون يغزون أراضى البرتغال الداخلية ، فى فاتحة سنة ٥٧٧ هـ ، خرجت من إشبيلية ، حملة موحدية قوية بقيادة أبى عبد الله محمد بن وانودين الهنتاقى ، وسارت نحو الشمال الغربى صوب مدينة يابرة وعاثوا فى أحوازها ، وانتسفوا الزروع والكروم والثمار والأشجار ، واستاقوا كثيراً من الماشية ، وامتنع البرتغاليون داخل المدينة ، والمسلمون يشخنون فى كل ناحية من نواحيها . وفى ذات يوم خرج البرتغاليون من يابرة فجأة ، واشتبكوا مع الموحدين فى معركة حامية ، فهزموا شر هزيمة ، وقتل منهم عدد جم ، ولجأ الباقون إلى المدينة . فأقام عليها ابن وانودين يومين ثم انصرف عنها ، وهاجم فى طريق عودته حصناً آخر للنصارى واستولى عليه ، وسبى رجاله ونساءه ، ثم عاد إلى إشبيلية ، مثقلاً بالغنائم والأسرى ، وذلك فى أواخر شهر محرم سنة ٥٧٧ هـ (يونيه سنة ١١٨١ م)^(٢) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى خرجت حملة برتغالية ، من أهل شنترين ، وعبرت نهر وادى يانه ، وسارت حتى فحص الشرف من أحواز إشبيلية ، فخرج

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٧ و ١١٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٧ .

إلهم عسكر إشبيلية ، ونشب بينهما قتال عنيف قتل فيه من النصارى مائة وسبعون ، ولكن البرتغاليين كانوا قد رتبوا كميناً ، فخرج كمينهم واشترك في المعركة ، فانهزم المسلمون وقتل منهم جماعة . وأغار القشتاليون في نفس الوقت على مدينة إستجة وعلى أراضي قرطبة . ثم انصرفوا دون قتال ولا مقاومة ، وأحيط الخليفة بمراكش علماً بما حدث^(١) .

وفي العام التالي ، أعنى سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) تفاقم عدوان البرتغاليين على أراضي الأندلس . فخرجت حملة برتغالية قوية قوامها فرسان شترين ، وأشبونة ، وعبرت نهر وادى يانه ، واجتاحت الشرف جنوبى إشبيلية ، حتى وصلت إلى مدينة شلوقة^(٢) ، على مصب الوادى الكبير ، فنازلتها في ألف فارس وألف راجل ، واقتحمتها ، وقتلت من كان بها من المسلمين ، واحتوت على كثير من الأسرى والغنائم ، ثم استولت على حصن القصر^(٣) وغيره من حصون تلك الناحية ، وعادت من طريق لبلة ، دون أن يقف في سبيلها أحد . وتفاقم في نفس الوقت عدوان القشتاليين ، فخرج ألفونسو الثامن أو أذفنش الصغير كما تسميه الرواية الإسلامية في قواته ، وسار أولاً صوب قرطبة ، وعسكر في ظاهرها ، وذلك في الرابع من شهر صفر ، ثم بعث طوائف من قواته سارت نحو مالقة ، ورندة ، وغرناطة ، فساد الاضطراب في تلك القواعد الأندلسية ، وارتفعت الأسعار ، واشتد الضيق . واجتمع مجهود الموحددين الدفاعي حول إشبيلية ، والتحوط للحمايتها ، فوجه قائدها أبو عبد الله بن وانودين قواته إلى الأنحاء المجاورة ، وتعزيزها ، ووجه بعض عسكره إلى دفع القشتاليين عن فحوص قرمونة ، كل ذلك والقشتاليون يشخنون في الأراضي الواقعة بين قرطبة وإشبيلية ، دون أن يرددهم أحد ، ثم سار ألفونسو الثامن إلى منازل مدينة إستجة ، وكاد يتغلب عليها ، ولكن واليها أبا محمد بن طاع الله الكومى استطاع أن يصمد فيها . فغادرها ألفونسو صوب إشبيلية ، وهو يعيث في تلك المنطقة فساداً وتدميراً . وفي خلال ذلك تغلب القشتاليون الزاحفون نحو الجنوب على بعض حصون رندة ، وأسروا فيه ألفاً وأربعمائة من المسلمين ، وانتسفوا الزروع

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ .

(٢) وهى بالإسبانية سان لوكار Sanlucar la Mayor

(٣) وهو بالإسبانية Aznalcázar

فى أراضى رندة والجزيرة ، واستولوا على مقادير عظيمة من الغنائم من الماشية وغيرها .

وكان استيلاء ألفونسو الثامن على حصن شنتفيلة^(١) أخطر ما حققه القشتاليون فى تلك الغزوة . وكان من أمنع حصون المنطقة الواقعة بين إشبيلية وقرطبة ، يقع فوق ربوة عالية وله أسوار منيعة ، فاستولى عليه القشتاليون فى السابع عشر من صفر (٢٢ يونيه ١١٨٢ م) وأسروا من كان به من المسلمين ، وعددهم سبعمائة بين رجال ونساء ، فافتداهم أهل إشبيلية بمبلغ ألفين وسبعمائة وخمسة وسبعين ديناراً ، جمعت من الناس بالمسجد الجامع . وعنى ألفونسو الثامن بتقوية الحصن ، ومضاعفة أهباته الدفاعية ، ووضع به حامية من خمسمائة فارس وألف راجل ، وأسكنه بالنصارى وشحنه بالأقوات والعدد والسلاح ، ويروى أنه قال ، حين الاستيلاء على هذا الحصن : « الآن آخذ قرطبة وإشبيلية » . وأقلع ملك قشتالة بعد ذلك فى قواته عائداً إلى بلاده ، وذلك فى الثالث عشر من ربيع الأول سنة ٥٧٨ هـ (١٧ يوليه ١١٨٢ م) بعد أن قضى فى غزوته خمسة وأربعين يوماً^(٢) .

وأدرك الموحدون خطورة فقد حصن شنتفيلة ، فقرروا العمل على استرداده . واستدعى السيد أبو إسحق ولد الخليفة ووالى إشبيلية ، الحشود من سائر أنحاء الأندلس برسم الجهاد ، وخرج فى قواته فى غرة ربيع الآخر سنة ٥٧٨ هـ . وحدث فى نفس الوقت أن خرجت حامية شنتفيلة النصرانية لتغير على بعض الأنحاء المجاورة ، فخرج إليها المسلمون من قرمونة وغيرها ، وقاتلوا وهزموها ، وقتلوا منها سبعين فارساً ، وأسروا جملة أخرى ، واستاقوا الأسرى إلى السيد أبى إسحاق فأمر بإعدامهم فى الطريق . وشجع هذا النصر المحلى ، الموحدون على منازلة حصن شنتفيلة ، فطوقوه من كل ناحية ، وأحكموا حصاره ، وقطعوا عنه المؤن والعلوفات ، واستمر الحصار ستة وأربعين يوماً حتى مات أكثر الجند والدواب ، وفى خلال ذلك خرج ألفونسو الثامن فى قواته من طليطلة قاصداً لإنجاد الحصن المحصور ، ووصل نبأ مقدمه إلى الموحدون فى السادس من جمادى الأولى ، فرفعوا الحصار ، وانصرفوا عائدين إلى إشبيلية . وعلى أثر ذلك وصل ألفونسو الثامن إلى الحصن فلم يجد به سوى خمسين فارساً ، هم البقية من حاميته الخمسمائة ، ومن

(١) وهو بالإسبانية Santafila

(٢) . البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٩

الرجالة ستمائة من ألف ، وقد هلك الباقون من أثر الحصار والمرض والوباء ، فأمر بإخلاء الحصن ، والرحيل عنه وذلك فى الخامس عشر من جمادى الثانية (١٦ سبتمبر سنة ١١٨٢ م)^(١) .

وما كادت تنتهى غزوة شنتقيلة ، حتى قرر الموحدون استئناف الغزو ، واهتم أبو عبد الله بن وانودين بجشد الجند ، فاجتمع منهم بإشبيلية عدد جم ، وفى الثامن من جمادى الآخرة سنة ٥٧٨ هـ (٩ سبتمبر ١١٨٢ م) ، غادر إشبيلية فى عسكره ومعه أشياخ الموحدين وأشياخ الأندلس ، وسلك طريقاً منعرجة حتى وصل إلى حصن بته ، وهناك ميز عسكره ، وعقد الأشياخ مجلساً للشورى ، تقرر فيه السير إلى غزو مدينة طلبيرة الواقعة غربى طليطلة على نهر التاجه ، وهى أولى مدن الحدود القشتالية . ومن ثم فقد اتجه الجيش الموحدى نحو الشمال ، وعبر جبال الشارات (سيرا مورينا) ثم نهر وادى يانه ، وكان الجو قائماً ملبداً بالضباب ، فسار حتى أضحى على مقربة من طلبيرة دون أن يظن النصارى إلى مقدمه ، وهناك التقى الموحدون بسرية من النصارى فى نحو عشرين فارساً ، فأحذقوا بهم وأسروهم جميعاً إلا دليلهم فإنه نجح فى الفرار . ولما أشرف الموحدون على وادى التاجه ، لم يجدوا أمامهم مغنياً ، فعلموا أن الدليل الفار قد أخطر بمقدمهم ، فأسرعوا السير حتى وصلوا إلى ظاهر طلبيرة ، وذلك فى منتصف جمادى الآخرة .

وفى اليوم التالى احتل الموحدون ربوة مرتفعة تقع على نحو ميل من المدينة ، وضربوا محلتهم بها . ودهش النصارى لإقدام المسلمين على دخول بلادهم على هذا النحو ، بعد أن مضت مدة طويلة لم يجرؤ أحد منهم على الظهور فى تلك المنطقة ، وفى الحال حشدوا قواتهم واستنجدوا بأهل الحصون المجاورة ، وخرجوا لقتال الموحدين ، وكان الموحدون خلال ذلك قد غادروا الربوة منصرفين ، بعدما امتلأت أيديهم من الغنائم ، فجند النصارى فى اتباعهم مصممين على قتالهم ، ولما أصبح الموحدون على قيد نحو ثمانية أميال من المدينة ، توقفوا وراء أحد التلال واستعدوا للقاء النصارى ، وابن وانودين يحثهم على الجهاد والتفانى ، إذ هم فى أراضى العدو بعيدين عن بلادهم . ثم نشبت المعركة المرتقبة بين الفريقين فثبت الموحدون ، وحملوا على القشتاليين حملة صادقة ، هزموا على أثرها ،

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ .

ومزقت صفوفهم ، وولوا الأدبار ، وقتل منهم حسبما تقول الرواية الإسلامية أكثر من عشرة آلاف بين فارس وراجل ، واستولى المسلمون على عتادهم ، ودوابهم . وعاد الموحدون إلى إشبيلية ظافرين مغتبطين . وبعث ابن وانودين إلى الخليفة بكتاب الفتح ، فسر به ، ولكنه أبدى غضبه على ولده السيد أبي إسحاق لأنه لم يحضر تلك الغزوة التي نسبت برمتها إلى ابن وانودين ، مع أنه من جملة قواده ، وعاقب كل من تخلف من الأجناد ، وحرّمهم من العطاء .

ومن جهة أخرى فإنه يبدو من رد الخليفة على ابن وانودين ، وقوله في خطابه إليه « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » . يبدو من ذلك أن الخليفة قد غص بالانتصارات المتوالية التي أحرزها ابن وانودين ، دون بقية الأشياخ والسادة . وكان أبو عبد الله محمد بن وانودين هذا ، هو ولد أبي يعقوب يوسف ابن وانودين الهنتاتي من كبار أهل خمسين ، وقد نشأ في مهاد العلم ، ونظمه الخليفة عبد المؤمن في مجلسه ، وقربه إليه ، ثم قدمه على العسكر وولاه القيادة وصحبه في سائر غزواته في إفريقية . ولما أوفد إلى الأندلس ظهر في محاربة ابن مردنيش ثم في هزيمته لنصارى شنترين ، وفي قيادة قافلة الميرة إلى بطليوس ، ثم في رد القشتاليين عن قرمونة ، وأخيراً في غزوة طليبرة . ومع ذلك كله فسرعان ما غضب عليه الخليفة لأتفه الأسباب ، وذلك عند مقدمه إلى إشبيلية في العام التالي ، حيث وشى في حقه الوشاة ، فأمر بتغريبه إلى غافق ، على مقربة من قلعة رباح ، فلبث بها حيناً ، ثم نرح إلى تونس واستقر بها^(١) .

نرجع الآن قليلاً إلى الوراء لنستعرض ما حدث في المغرب في تلك الأعوام القلائل التي اشتد فيها عدوان القشتاليين والبرتغاليين على الأندلس ، والتي شغل فيها الخليفة بالأحداث الداخلية عن تجديد حركة الجهاد .

وكان من أهم الأحداث الداخلية ، في تلك الفترة ، وفاة السيد أبي حفص عمر بن عبد المؤمن أخى الخليفة أبي يعقوب ، وكان أبو حفص شقيقه وكبيره ، وأمهما حسبما تقدم حرة هي زينب بنت القاضي موسى بن سليمان الضرير ، من أصحاب خمسين ، وكانت وفاته في شهر ربيع الأول من سنة ٥٧٥ هـ (أغسطس

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٣ و ١٢٤ و ١٢٢ .

(١١٧٩ م) ، وكان أبو حفص ، منذ أيام أبيه الخليفة عبد المؤمن يشغل مكانة ملحوظة في الدولة الموحدية ، وقد تولى في فتوته ولاية تلمسان ، ثم وزر لأبيه بعد مصرع وزيره عبد السلام الكومي . ولما توفي عبد المؤمن سنة ٥٥٨ هـ ، بشعر سلا ، قام السيد أبو حفص مع الشيخ عمر بن يحيى الهنتاني كبير الأشياخ بتنظيم البيعة لأخيه الأصغر أبي يعقوب يوسف ، تنفيذاً لوصية أبيه ، ثم تولى له في البداية منصب الحجابة على نحو ما كان لأبيه . واضطلع السيد أبو حفص بأعظم قسط في حملة شرقي الأندلس ، وفي الأعمال الحربية التي انتهت بتحطيم مملكة الشرق ، وانتهاء ثورة ابن مردنيش ، وكان على العموم يحتل في دولة أخيه الخليفة أبي يعقوب أعظم مكانة ، وفي تدبير الأمور والبت فيها أعظم نصيب .

وفي نفس هذا العام أعنى سنة ٥٧٥ هـ وقعت الثورة بمدينة قفصة الواقعة جنوبي القيروان على مشارف الصحراء . وكانت قفصة منذ ضعفت دولة بني باديس الصنهاجيين بإفريقية ، منزل إمارة محلية في ظل بني الرند ، وعميدهم عبد الله ابن محمد بن الرند ، فاستقل بقفصة ، وقوى أمره تبعاً ، وبسط سلطانه على عدة من البلاد المجاورة حتى قسنطينة ، ثم خلفه في الإمارة ولده المعز ، ثم حافده يحيى بن تميم بن المعز . ولما قام عبد المؤمن في سنة ٥٥٤ هـ بغزوته لإفريقية ، استولى على قفصة ، ونقل بني الرند إلى بجاية ، وعين لقفصة والياً موحدياً . وكان والى قفصة الموحدى حينما وقعت الثورة ، عمران بن موسى الصنهاجي ، وكان قد أساء السيرة ، ووقع الاضطراب بالمدينة ، فبعث لفيف من أهلها إلى بجاية في دعوة علي بن عبدالعزيز بن الرند المعروف بالطويل ، فقدم إليهم ، واضطربت الثورة ، وقتل عمران بن موسى ، واستبد ابن الرند بالمدينة ، وكان يشجعه في ثورته ، ويحرض العرب للانضمام إليه قريبه القائد علي بن المنتصر من بجاية^(١) .

فلما نمت هذه الأنباء إلى الخليفة أبي يعقوب ، اعتزم السير بنفسه إلى إفريقية ، فخرج في قواته من مراکش في الخامس عشر من شوال سنة ٥٧٥ هـ (مارس سنة ١١٨٠ م) ، ويروى لنا ابن صاحب الصلاة ، أن البركة الدورية التي كانت تعطى للعسكر في تلك الغزوة كانت تبلغ في كل مرة ألف ألف دينار ، سوى العلوفات والمرافق ، مما يدل على ضخامة الجيش الذي حشد^(٢) ، واستمر الخليفة

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٦٦ .

(٢) البيان المغرب التكميم الثالث ص ١١٢ .

في سيره وثيداً ، واحتفل في الطريق بعيد الأضحى ، وقدم ولده السيد أبا يوسف يعقوب على مقدمة الجيش ، فسبقه إلى تلمسان . ووصل الخليفة في قواته إلى تلمسان في أوائل سنة ٥٧٦ هـ ، ولما كملت أهبة الجيش وتعبته ، خرج من تلمسان في الثاني عشر من شهر صفر ، متجهاً إلى إفريقية ، فلما وصل إلى بجاية نزل بها . وتحقق لديه أن القائد على بن المنتصر متواطئ مع قريبه الثائر بقفصة ، وأنه يوالى تحريضه على الاستمرار في الثورة ، ويوالى تحريض العرب لتأييده ، وضبطت بمنزله رسائل تؤيد ذلك ، فقبض عليه ، وأحيط بسائر أمواله . ثم سار الخليفة من بجاية ، فلما قرب من قفصة ، بادر أشياخ العرب من رياح إلى المثلول لديه ، وتأكيد ولائهم وطاعتهم . وضرب الخليفة الحصار حول قفصة وضربها بالمجانيق ، حتى اضطر على بن الرند إلى الإذعان والتسليم ، أو التوحيد وفقاً لقول البيهقي ، ثم ارتد إلى تونس وفقاً لرواية أخرى ، واحتل الموحدون قفصة وذلك في رمضان سنة ٥٧٦ هـ (فبراير ١١٨١م) وعقد الخليفة بولاية إفريقية والزاب لأخيه السيد على أبي الحسين ، وبولاية بجاية أو ولاية القيروان على قول آخر لأخيه السيد أبي موسى (١) .

وانتهز الخليفة هذه الفرصة لتجديد مساعيه في استمالة العرب الذين ينزلون بهذه الأنحاء من إفريقية وترغيبهم في الجهاد بالأندلس . وقد شرح لنا هذه المساعي في رسالة الفتح التي وجهها إلى الموحدين بقرطبة . وذلك أنه لما اجتمع لديه أشياخ قبائل رياح وكبرائهم من جميع الأنحاء ، ذكروا بما كان لأسلافهم من فضل سابغ في نصرة الدين ، وأنه يجدر بهم أن يخذوا حذو أسلافهم في الاضطلاع بتلك المهمة الجليلة ، وأن خير ما يصنعونه في ذلك هو المساهمة في الجهاد بالأندلس ، وغزو النصراني بها ، سيما وقد تفاقم عدوانهم في الآونة الأخيرة ، وأن أولئك الأشياخ أبدوا أنهم على أتم أهبة للاستجابة إلى هذه الدعوة ، وأن قبائل رياح كلها ، وبطونها وأفخاذها ، أبدوا جميعاً أنهم يقبلونها بقلوب خالصة ، ونيات صافية ، وأنهم أخذوا بالفعل في الحركة والاحتشاد ، كل طائفة صوب الطريق التي تفضلها وترها أيسر لمجازها ، وتوالت جموعهم حتى امتلأت بها تلك البطاح والسهول . وكان ممن حضر ذلك الجمع الشيخ أبو سرحان مسعود بن سلطان بن زمام ، فلما وقع العزم على الاستجابة ، أخذ في الرحيل بأهله وولده وكل من تبعه من

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ و ٢٤١ ، وكتاب أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٢٥ ، والمعجب للمراكش ص ١٤١ ، و ١٤٢ .

قومه ، وبادر الجميع بالامثال والرحيل ، مبايعين ربهم على الجهاد في سبيله .
وينوه الخليفة في رسالته ، بأنه كان من أثر هذه الحركة أنه لم يبق بإفريقية من طوائف
العرب ، سوى من نزل من قبائل سليم بجهات طرابلس وما وراءها مشرقاً نحو
برقة والإسكندرية ، وأن هؤلاء قد خوطبوا أيضاً بما خوطب به زملاؤهم ،
وكتبوا ، وبذلت لهم أطيب الوعود ، وأنذروا في نفس الوقت ، أملاً في استمالهم
واستجلابهم إلى مشاركة لإخوانهم .

وقد سبق أن أشرنا إلى خطة السياسة الموحدية في استمال القبائل العربية
النازلة بإفريقية وحشدها في الجيوش الموحدية ، وهي الخطة التي وضعها الخليفة
عبدالمؤمن منذ افتتاحه لثغر المهديّة في سنة ٥٥٥ هـ ، وتابعها ولده الخليفة أبو يعقوب
وضاعف اهتمامه بتنفيذها حسبما سبق أن فصلناه . وقد كان للسياسة الموحدية من
تحقيق هذه الخطة هدف مزدوج أشارت إليه رسالة الفتح المتقدمة الذكر ، وهو
أولاً تخليص إفريقية من طوائف العرب النازلة بها ، وكف أيديهم عنها ، وذلك
لما كان من استطاعتهم عليها ، وتخريبهم لربوعها ومدنها ، وثانياً لاستنفارهم إلى
الجهاد والاستعانة بهم في تدعيم الجيوش الموحدية المرسلة إلى الغزو بالأندلس .
وقد استطاع الخليفة أبو يعقوب أن يحشد بالفعل منهم حشوداً عظيمة عبرت معه
إلى الأندلس ، واشتركت مع الجيوش الموحدية في غزوة وبذة وفي محاربة النصاري
في مختلف الميادين في شبه الجزيرة . ولما أراد أبو يعقوب العودة إلى المغرب في
سنة ٥٧١ هـ ، فرق العرب الباقيين في مختلف القواعد ، فأُنزل بعضهم في نواحي
قرطبة ، وبعضهم في نواحي إشبيلية الجنوبية ، مما يلي مدينة شريش وأعمالها .

بيد أن السياسة الموحدية لم تكن خيراً من هذه الخطة في استمال العرب وحشدهم
إلى جانبها ، وذلك لما كانوا يتسمون به من حب الثقل ، ومجانبة الولاء ، والسعي
إلى اجتناء المغامرات المادية بأي الوسائل . وسوف نرى فيما بعد ، كيف انقلبوا إلى
محاربة الدولة الموحدية ، وغدوا من أخطر خصومها في منطقة إفريقية^(١) .

وحدث أيضاً أثناء وجود الخليفة بإفريقية ، أن وفدت إليه رسل ملك صقلية ،
النورمان ، وهو يومئذ ولیم الطيب ، يطلب الصلح والمهادنة ، وكان ملوك صقلية

(١) راجع رسالة الخليفة أبي يعقوب المتضمنة لشرح مساعيه في حشد العرب في كتاب «مجموع
رسائل موحدية» . الرسالة السادسة والمشرون ص ١٤٩ - ١٥٧ ، وراجع أيضاً كتاب المعجب
للمراكشي ص ١٢٤ و ١٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٣٩ .

منذ استرد منهم عبد المؤمن ثغر المهديّة ، وقضى على سلطانهم في شواطئ إفريقيا قبل ذلك بعشرين عاما ، نحشون بأس الدولة الموحدية ، ويؤثرون السلم معها . ويقول لنا صاحب المعجب إن ملك صقلية عقد الصلح مع الخليفة على أن يحمل إليه إتاوة سنوية اتفق عليها ، وأنه أرسل إلى الخليفة تحفاً وذخائر نفيسة منها حجر ياقوت يسمى « الحافر » لاستدارته بمثل حافر الفرس ، وقد وضع في تابوت مصحف عثمان ، الذي كان يبالغ الموحدون في تكريمه^(١).

وعلى أثر افتتاح قفصة ارتحل الخليفة إلى تونس ، وكتب من هنالك برسالة الفتح إلى حضرة مراکش ، وإلى الأندلس - إلى إشبيلية وقرطبة - وبعث مع الرسالة بقصيدة طويلة من نظم طبيبه العلامة الفيلسوف أبي بكر بن طفيل ، يشيد فيها بالفتح ، وبالجيش الموحدى ، وقد جاء في أولها :

ولما انقضى الفتح الذى كان يرتجى أصبح حزب الله أغلب غالب
وساعدنا التوفيق حتى تبينت مقاصدنا مشروحة بالعواقب
وأنجزنا وعد من الله صادق كنيل بإبطال الظنون الكواذب
وهبوا كما هب النسيم إذا سرى ولم يتركوا بالشرق علقه آيب
وأذن من عليا هلال بن عامر أبى ولبى الأمر كل مجانب
يغص بهم عرض القيافى وطولها وقد زحموا الآفاق من كل جانب

ولما وصل كتاب الفتح ، وقصيدة ابن طفيل ، إلى السيد أبي إسحاق ولد الخليفة ووالى إشبيلية ، عم البشر والسرور ، ومثل لديه أشياخ إشبيلية للتهنئة ، وخطب بين يديه الفقيه ابن الجدد ، وأنشد أبو مروان عبد الملك بن صاحب الصلاة صاحب تاريخ « المن بالإمامة » قصيدة جاء فيها :

خير البشائر صوغت حمل المنى بقول خير خليفة وإمام
وافت كما ابتسم الأمان لحائف وانهل أثر المحل سكب غمام^(٢)

ثم قفل الخليفة عائداً إلى حضرة مراکش ، فوصل إليها في شهر صفر سنة ٥٧٧ هـ ، وعلى أثر وصوله ، سارت وفود الأندلس إلى العدو لتهنئته ، يتقدمهم ولده السيد أبو إسحاق والى إشبيلية ، وابن وانودين وغيره من أشياخ الموحدين ،

(١) المراكشى في المعجب ص ١٤٢ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١١٥ .

وقدمت كذلك وفود قرطبة وغرناطة ومرسية لغرض التهنئة ، وأقامت هذه الوفود بالحضرة إلى أواخر العام ، ثم انصرفت عائدة إلى بلادها .

وفى خلال ذلك علم الخليفة أن طائفة من أهل جبل السوس الواقع على مقربة من بلاد هرغة وهى قبيلة المهدي ابن تومرت ، قد استولوا لأنفسهم على ما تحصل من معدن الفضة الذي يستخرج من ذلك الجبل ، وذلك بطريق الاغتصاب من عمال المنجم الخاص بذلك ، فخرج الخليفة فى بعض عسكره من مراكش فى أول صفر سنة ٥٧٨ هـ ، ولما وصل إلى الجبل المذكور ، أمر ببناء حصن عليه ، ووضع به حامية ، ثم سار من هنالك إلى تينملل فزار قبر المهدي وقبر والده ، الخليفة عبد المؤمن ، وكان معه وفد من أهل إشبيلية قدم لزيارته بالحضرة قبل ذلك بقليل ، ويقول لنا ابن صاحب الصلاة وقد كان ضمن هذا الوفد ، إنه زار القبرين بصحبة أبي بكر بن زهر ، وأبي الوليد ابن رشد ، وأن الخليفة زار فضلاً عن القبرين الغار الذى فى جبل إيجليز حيث كان يتعبد المهدي والمسمى برابطة الغار ، والرابطة الأخرى المسماة رابطة وانسرى ، وكان الناس يأخذون التراب منهما للتبرك ويجعلونه على المرضى . وأمر الخليفة بهذه المناسبة ، أن ينظم الشعراء قصائدهم فى رثاء المهدي ورثاء أبيه ، وأن يذكروا مناقبهما ومآثرهما ، وأغدق عليهم صلاته الكثيرة (١) . وكان مما قيل بهذه المناسبة ، فى ذكر مناقب المهدي ، وشرح أسطوره ، والإشادة برسائله ، قصيدة نظمها شاعر من أهل الجزائر ، وفد على أبي يعقوب بتينملل ، وأنشد قصيدته على قبر المهدي ابن تومرت بمحضر من الخليفة وشيوخ الموحدين ، وإليك بعض ما ورد فيها :

سلام على قبر الإمام المجدد	سلالة خير العالمين محمد
ومشبهه فى خلقه ثم فى اسمه	وفى اسم أبيه والقضاء المسدد
وحجى علوم الدين بعد مماتها	ومظهر أسرار الكتاب المسدد
أنتنا به البشرى بأن يملأ الدنيا	بقسط وعدل فى الأنام مخلد
ويفتح الأمصار شرقاً وغرباً	ويملك عرباً من مغير ومنجد
فن وصفه أفى وأجلى وإنه	علاماته خمس تبين لمهدي
زمان واسم المكان ونسبة	وفعل له فى عصمة وتأيد

وتتبعه للنصر طائفة الهدى
 هي الـثة المذكور فى الذكر أمرها
 بهم يجمع الله الجبابة الأولى
 ويقطع أيام الجبابة التى
 فيغزون أعراب الجزيرة عنوة
 ويفتتحون الروم فتح غنيمة
 ويفتتحون الروم فتح غنيمة
 ويغلبون للدجال يغزونه ضحاً
 وينزل عيسى فيهم وأميرهم
 يصلى بهم ذاك الأمير صلاتهم
 فيمسح بالكفين منه وجوههم
 وما أن يزال الأمر فيه وفيهم
 فأبلغ أمير المؤمنين تحية
 عليه سلام الله مادر شارق

فأكرم بهم إخوان ذى الصدق أحمد
 وطائفة المهدي بالحق تهدي
 يصدون عن حكم من الحق مرشد
 أبادت من الإسلام كل مشيد
 ويعرون منها فارساً وكأن قد
 ويعرون منها فارساً وكأن قد
 ويقتسمون المال بالترس عن يد
 يذيقونه حد الحسام المهند
 لإمام فيدعوهم لمحراب مسجد
 بتقديم عيسى المصطفى عن تعمد
 ويخبرهم حقاً بغز مجدد
 إلى آخر الدهر الطويل المسرمد
 على النأى منى والوداد المؤكد
 وما صدر الوارد عن ورد مورد

وقيل إن منشئ هذه القصيدة لم يحضر لإلقائها بنفسه، للكبر وبعد الشقة، وأنه أرسل بها فأنشدت باسمه على قبر الإمام، وكان نظمها إياها أيام حياة الخليفة عبد المؤمن^(١).
 وفى العام التالى، أعنى فى سنة ٥٧٩ هـ، كانت توسعة مدينة مراکش.
 وكانت العاصمة الموحدية، قد بدأت تضيق بسكانها الذين هرعوا إلى استيطانها من كل صوب، وبالرغم مما أقيم بها منذ أيام الخليفة عبد المؤمن، من الأحياء الكبيرة والدور العديدة الفخمة لسكنى رجال البلاط، وعلية القوم، والوافدين إليها من مختلف أنحاء المغرب والأندلس، فإنها أضحت قاصرة عن أن تستوعب سكانها، وحركة عمرانها الضخمة. وكان الخليفة قد أمر قبائل هسكورة وصنهاجة أن يتركوا بلادهم، وأن يأتوا إلى العاصمة بأهلهم لسكنائها، فلما وصلوا إليها لم يجدوا بها متسعاً لنزولهم، فشكوا إلى الخليفة أمرهم. فعندئذ رأى الخليفة أنه لا بد من العمل على توسعة المدينة، وعهد إلى ولده وولى عهده السيد أبى يوسف

(١) راجع المعجب ص ١٠٤ - ١٠٦ حيث يورد هذه القصيدة وقصتها، وينفرد المراكشى بذلك بين المصادر الموحدية.

يعقوب بتلك المهمة ، فركب في يوم أول ربيع الآخر ومعه شيوخ الموحدين وعرفاء البنائين لينظروا خير موقع يصلح لتحقيق هذه الرغبة ، فاتفق رأيهم على زيادة المدينة من الجهة القبلية ، بإنشاء مدينة جديدة متصلة بها من هذه الناحية ، ووافق الخليفة على هذا المشروع ، وقام العبيد والرجال بهدم سور المدينة من جهة باب الشريعة ، ووضعت خطط المدينة الجديدة في يوم الاثنين الخامس والعشرين من ربيع الآخر ، واتصل بناء السور حول المواقع الجديدة ، وبناء باب الشريعة أربعين يوماً ، حتى كمل ، وبدأ إنشاء الدور والرباع بسرعة في هذا القطاع الجديد من العاصمة الموحدية^(١) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى وقع بإفريقية حادث مكرر . ذلك أن طوائف العرب من بني سليم ثاروا على مقربة من مدينة قابس ، فسار أبو الحسن على ابن الخليفة ووالى تونس لقتالهم ، ودامت الحرب بينهم أياماً ، ثم أمر الفرسان الموحدون من أهل الرايات أن ينتقلوا من موضعهم إلى جبل قريب يسمى جبل كسرى ، فظن أن هذا الانتقال بسبب الهزيمة ، فتركوا عتادهم وفروا منهزمين دون قتال ، فلجأ السيد ومن معه إلى الجبل ، ولكنهم لم يجدوا به ماء ، فلما اشتد بهم العطش كروا على العرب دفعة واحدة ، فهزمهم العرب ، وأخذوا بهم وأسروا السيد وأصحابه . (جمادى الأولى سنة ٥٧٩ هـ) . ولما علم الخليفة بذلك قرر في الحال غزو بني سليم والانتقام منهم ، ولكن لم تمض بعد ذلك سوى أيام قلائل حتى ورد الخبر بأن السيد وأصحابه قد أطلق سراحهم لقاء ما دفعوا من المال ، وأنهم وصلوا سالمين إلى تونس^(٢) .

ومن حوادث هذا العام أيضاً نكبة الخليفة لأبي زكريا بن حيون شيخ قبيلة كومية وابنه على الذى كان مشرفاً على تلمسان ، وقبض على أبي زكريا وحوسب مدة ، ثم نفي إلى بطليوس بالأندلس ، وبقي ابنه على في السجن ، حتى خرج الخليفة إلى الغزو ، فأمر بأن يحمل معه مصفداً ، ولكنه استطاع الفرار أثناء السير . ومنها فرار الداعية على بن محمد بن رزين المعروف بالجزيري من مراکش ، وكان على مذهب الخوارج الأزارقة يقول بتكفير جميع المسلمين ، وتبعه قوم من البربر يقرأون عليه مذهبه ، وشاع خبره ، وعندئذ خشى بطش ولاية الأمر . ففر من المدينة واختفى حيناً ، حتى قبض عليه فيما بعد وقتل أيام الخليفة المنصور .

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٦ (٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٢٧

الفصل الخامس

غزوة شنترين

ومصرع الخليفة أبي يعقوب يوسف

استعداد الخليفة للجهاد بالأندلس. ولاية الأندلس وقضائها الجدد. قسمة السلاح والعتاد. سير الخليفة إلى رباط الفتح. الاتفاق على توجيه الحملة إلى الأندلس. سير الخليفة إلى مكناسة، ثم إلى فاس. تعيين السيد أبي حفص لقيادة العرب، وبعض السادات لقيادة الموحدين. سير الخليفة إلى سبتة. جواز قبائل العرب فقبائل البربر ثم الموحدين إلى شبه الجزيرة. عبور الخليفة ومسيره إلى إشبيلية. أقوال ابن صاحب الصلاة. اختيار مدينة شنترين هدفاً للغزوة المنشودة. حكمة هذا الاختيار وبواعثه. منشآت الخليفة بإشبيلية. خروج الخليفة في قواته إلى بطليوس. تحالف ملكي قشتالة وليون ضد الموحدين. ملك ليون يحاصر قاصرش. الرواية النصرانية عن خطة الموحدين. رفع الحصار عن قاصرش. سير الموحدين إلى شنترين. عدد الجيش الموحدى. شنترين وموقعها. أشيونة هدف الغزوة الموحدية. محاصرة الموحدين لشنترين. اقتحامهم للبرص الخارجى. اعتصام النصارى بالقصبة. المعارك بين الموحدين والبرتغاليين. أمر الخليفة بالكف عن القتال. تحول الجيش الموحدى عن موقعه. صدور الأمر بالرحيل. غموض بواعث هذا الأمر. رواية في تعليقه. رواية أخرى في شرح ماحدث في المعسكر الموحدى. شرح الرواية النصرانية لأسباب الانسحاب. ماحدث خلال الانسحاب من الفوضى والاضطراب. مهاجمة النصارى لساقة الجيش المنسحب. وصولهم إلى غلة الخليفة. جرح الخليفة ثم وفاته خلال السير. بعض روايات عن هذا الحادث. رواية أخرى عن مرض الخليفة ووفاته. أسباب نكبة الجيش الموحدى. سير الجيش وكتبان وفاة الخليفة. التوقف في طرش. اجتماع القادة ومبايعة الأمير أبي يوسف يعقوب. الوصول إلى إشبيلية إعلان الوفاة وأخذ البيعة للخليفة. انقضاء الغزو والأمر بالرحيل. سير الركب الخليفى إلى طريف. عبوره إلى العدو. المسير إلى رباط الفتح. الخليفة أبو يعقوب. حزمه وتقواه وعلمه. حرصه على تنفيذ حكم الشرع. مطارדתه للعمال الظلمة. خبرته بشئون المملكة. شغفه بالجهاد. علمه وأدبه. تمكنه من الحديث والفقه واللغة. دراسته للفلسفة والطب. صلته بابن طفيل وابن زهر وابن رشد. كيف وضع ابن رشد شروحه لأرسطو. ابن طفيل سفير الخليفة لدى العلماء. شغل أبي يعقوب بجمع كتب الفلسفة. أثر من آثاره العلمية. كلفه بالمنشآت العمرانية. وزراؤه وقضاته وكتابه. أبنائه وصفته.

كان من الواضح للخليفة أبي يعقوب وأعدائه من أقطاب الموحدين، أن حوادث الأندلس، قد أخذت في الأعوام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة، تسير نحو اتجاه مكدر، وأن عدوان الممالك الإسبانية النصرانية، قد أخذ يشتد ويتفاقم، وأن غزوات البرتغاليين لولاية الغرب، وما أحرزوه من انتصارات في البر

والبحر على القوات الموحدية ، وغزوات ملك قشتالة لموسطة الأندلس وتهديده لقرطبة وإشبيلية ، وتوغل قواته جنوباً حتى غرناطة ومالقة ورندة ، كل ذلك قد كشف عن ضعف الجبهة الدفاعية الموحدية بالأندلس ، وعن قصور القوات الموحدية عن حماية الأندلس ، وصدد عدوان النصارى عنها .

ومن ثم فقد رأى الخليفة أنه لا بد من تنظيم حركة جديدة للجهاد بالأندلس ليقودها بنفسه ، وظهرت بوادر هذه النية منذ أوائل شهر جمادى الآخرة من سنة ٥٧٩ هـ ، حينما أمر الخليفة بتميز طوائف الموحدين والعرب والقبائل استعداداً للغزو ، وبصنع عشرة مجانيق جربت بعد صنعها بالرمي أمامه ، في منطقة البحيرة خارج مراكش ، واستمر تميز الجند طوال شهر جمادى الثانية (سبتمبر ١١٨٣ م) . وفي شهر شعبان أصدر الخليفة المراسيم بتولية أربعة من أبنائه قواعد الأندلس الأربعة الرئيسية ، وهم السيد أبو إسحق لولاية إشبيلية كما كان ، والسيد أبو زكريا يحيى لولاية قرطبة ، وذلك تنفيذاً لرغبة القاضي أبي الوليد بن رشد ، والسيد أبوزيد لولاية غرناطة ، والسيد أبو عبد الله لولاية مرسية ، وأمر بسفرهم إلى مقر أعمالهم ، تمهيداً لحركة الغزو . وأصدر أمره في نفس الوقت بتولية أبي المكارم ابن الحسين المصرى لقضاء إشبيلية ، وأبي الوليد بن رشد لقضاء قرطبة ، وأبي عبد الله بن الصقر لقضاء غرناطة ، وتحرك الجميع للسفر إلى شبه الجزيرة في السابع والعشرين من شعبان .

وفي منتصف شهر رمضان ، أجريت قسمة السلاح والعتاد ، وخصص خباء لكل عشرة من الفرسان ، ثم أخرجت البركة لسائر الجند من الفرسان والرجالة . وفي يوم السبت الخامس والعشرين من شوال (فبراير ١١٨٤ م) صدرت الأوامر بالحركة ، وركب الخليفة كعادته بعد صلاة الصبح ، وخرج من باب دكالة ، وهو الذى يسلكه إلى الغزو بإفريقية . ويصف لنا صاحب البيان المغرب - والمرجح أنه ينقل عن ابن صاحب الصلاة^(١) - موكب الخليفة ومراحل سيره ، فيقول إنه سار يتقدمه العلم الأبيض مع الرجالة ، كالعادة ، ومعه مصحف عثمان على جمل أبيض مرتفع ، وقد وضع تابوته الموضع بنفيس الجواهر ، وعليه قبة حمراء لصيانه ، ويليه مصحف المهدي يحمله بغل ، وقد سار بنو الخليفة مع

(١) يدفنا إلى هذا الاستنتاج ما نلاحظه من مطابقة في السرد والوصف لأسلوب ابن صاحب الصلاة ، وورود عبارات كثيرة مسجمة وغيرها مطابقة لما يستعمله ابن صاحب الصلاة في مواطن كثيرة .

إخوته خلفه ، ووصل الخليفة في ركبه الضخم إلى سلا في الثالث عشر من ذى القعدة ، ونزل بمدينة المهديّة (رباط الفتح) ، وهناك وفد عليه أبو محمد ابن أبي إسحاق بن جامع قادماً من إفريقية ، فأخبره أن السلام يسودها ، وأن العرب الذين يخشى من شغبهم ، قد فروا من البلاد بأهلهم ، حينما سمعوا بحركة الغزو ، وبذلك أمن شرهم واستتبّت السكينة والأمن .

وفي أثناء ذلك وصل شيوخ العرب المنضمون للحملة بجميع قبائلهم ، فصدر أمر الخليفة بالإنعام عليهم بالكسبي والبركات والصلوات الجزيلة . وتعهد الأشياخ بأن يساهموا في هذه الغزوة بمائة وثلاثين ألفاً ما بين فارس وراجل .

ثم أمر الخليفة باجتماع شيوخ الموحدين والعرب والقادة في مؤتمر عام ، وخرج إليهم ولده أبو يوسف المنصور ، وأبلغهم أن أمير المؤمنين يطلب رأيهم ويستشيرهم في أمر توجيه هذه الحملة ، هل توجه إلى أفريقية أم توجه إلى الأندلس ، فكان رأيهم بالإجماع أن توجه إلى الأندلس لغزو النصارى والجهاد في سبيل الله ، فأبدى الخليفة ارتياحه لهذا الرأي^(١) . ومعنى ذلك أن الخليفة ، حين خروجه من مراکش لم يكن لديه رأى حاسم في شأن الغزوة التي ينوى القيام بها ، وهذا في ذاته يكشف لنا جانباً من ضعف الخطط العسكرية الموحدية .

وفي اليوم الثامن والعشرين من ذى القعدة ، بدأت العساكر في الجواز على قنطرة سلا ، وفي اليوم الثلاثين غادر الخليفة في موكبه ، رباط الفتح إلى مكناسة ، فوصلها في السادس من ذى الحجة ، وقضى بها عيد الأضحى ، ثم غادرها إلى فاس ، وكانت قد ترامت إليه الأنباء عن خيانة مشرفها وعمالها المختلفين ، واختلاساتهم ، فأمر بالقبض عليهم جميعاً ، ومصادرة دورهم وأموالهم لحساب « المخزن » ، وألزموا بأن يردوا « للمخزن » أربعمئة ألف وستين ألف دينار ، تعهدوا بأدائها أقساطاً ، ورتب عليهم الرقباء حتى قاموا بأدائها .

وفي الثاني عشر من ذى الحجة ، أمر الخليفة بأن يتقدم العسكر قبيلتنا هتانة وتينملل برسم الجواز إلى الأندلس ، وبأن يتقدم ولده السيد أبو حفص على طوائف العرب ، وأن يشرف على جوازهم إلى الأندلس ، ثم قدم على قبائل الموحدين وحشودهم ، بعض السادات من الأبناء والإخوة ، وكتب إلى الولاة

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٠ ، وكذلك في روض القرطاس ص ١٣٩ .

بالأندلس أن يستعدوا لاستقبال هذه الحشود المختلفة ، وأن يكونوا هم في جموعهم في هيئة استعداد للجهاد .

وفي يوم الثلاثاء الرابع من شهر المحرم سنة ٥٨٠ هـ (٨ أبريل ١١٨٤ م) غادر الخليفة أبو يعقوب مدينة فاس في موكبه ، على الترتيب السابق وصفه ، حتى وصل إلى ثغر سبتة فأقام به بقية شهر المحرم . وأمر في أثناء ذلك ببدء الجواز ، فجازت قبائل العرب أولا ، ثم قبائل زناتة ، فالمصامدة ، فغراوة وصنهاجة وأورية وغيرهم من بطون البربر ، ثم جازت جيوش الموحدين . فلما كمل جواز الجيش عبر الخليفة فيمن بقي من طوائف العبيد والحرس ، وكان عبوره في الخامس من صفر (١٧ مايو) ونزل بجبل الفتح (جبل طارق) ثم سار منه إلى الجزيرة الخضراء ، ثم إلى إشبيلية عن طريق أركش وشريش ، فوصل إليها في عساكره في اليوم الثالث عشر من صفر (٢٥ مايو) ، وخرج أهل الحاضرة الأندلسية إلى لقائه والسلام عليه ، وفي مقدمتهم قاضيهم ابن الحد . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، إنه كان حاضراً في هذا اليوم ، وإنه قام بالسلام على الخليفة مع من تقدم إليه من الطلبة ، وأنه لم يستطع الكلام لشدة الزحام ، وإن الخليفة نزل بقصره داخل حدائقه الواقعة خارج باب قرمونة . وفي اليوم التالي لوصوله أمر بتمييز العساكر وتوزيع السلاح والعتاد عليهم . ووزعت ألف فرس من عتاق الخيل على أشياخ الموحدين والعرب وكبار الجند . وأمر قائد الأسطول أبو العباس الصقلي بإعداد سفن الغزو وما يلزمها من الآلات والمعدات . وكانت أجناد الأندلس ، تتلاحق خلال ذلك من أوطانها وقواعدها إلى إشبيلية ، لتنضم إلى جيش الغزو^(١) .

وأقام الخليفة بإشبيلية أسبوعين وهو دائب العناية باستكمال الاستعدادات وتنظيم الحشود ، والنظر في كل ما يلزم للقيام بالغزوة المنشودة ، وضمان نجاحها . أما هدف هذه الغزوة ، فقد استقر الرأي على أن يكون مدينة شنترين البرتغالية . وقد سبق أن أوضحنا أن الخليفة لم يحدد هدف هذه الغزوة منذ البداية بصورة قاطعة ، بل لم تتحدد وجهة الحملة الموحدية إلى شبه الجزيرة الأندلسية إلا حينما وصل الخليفة إلى سلا . ولكن اختيار مدينة شنترين بالذات هدفاً للغزوة الموحدية يرجع إلى أسباب عديدة ، مادية ومعنوية . فقد كانت البرتغال في عهد

(١) نقله البيان المغرب عن ابن صاحب الصلاة ص ١٣٢ . وكذلك روض القرطاس ص ١٣٠ .

أبى يعقوب أول مملكة نصرانية في شبه الجزيرة ناصبت الموحدین العدوان ، وكانت مدينة شترين بالذات أهم قواعد هذا العدوان ، فنها خرجت الحملات العدوانية المتوالية التي شنّها الفارس المغامر جبرالدو سمبافور على بلاد ولاية الغرب وحصونها في قطاع بطليوس ، وهى ترجاله وقاصرش ، ومتنانجش وشرية ، وجلمانية . ثم كانت بعد ذلك قاعدة لمهاجمة ملك البرتغال وجبرالدو سمبافور لمدينة بطليوس ذاتها ، واستيلاهما عليها ، ولو لم يتعاون فرناندو ملك ليون مع الموحدین على إنقاذ المدينة ، لقيت في أيدي البرتغاليين . وكانت شترين أخيراً مركزاً للحملات المخربة التي شنّها البرتغاليون على أحواز إشبيلية ، والتي وصلت في سيرها مرة إلى طريانة ، وأخرى إلى الشرف ومدينة شلوقة ، وعلى الحملة فقد كانت شترين هى المركز الرئيسى لعدوان البرتغاليين على قواعد ولاية الغرب وأراضيها ، وقد اضطلع فرسانها وجندھا بأعظم دور في هذه الحملات العدوانية ، والغزوات المخربة ، وكان الخليفة وقادته يرون أن الاستيلاء على شترين يلحق بالبرتغاليين وملكهم ألفونسو هنريكز ضربة شديدة ، ويقضى على أهم مراكز العدوان في البرتغال ، ومن ثم كان اختيارها هدفاً للغزوة الموحدية الكبرى .

ومما هو جدير بالذكر أن الخليفة أبى يعقوب ، لم ينس خلال هذه المشاغل الحربية الطامية برنامج منشأته العظيمة بمدينة إشبيلية ، وهو الذى بدأ حين إقامته الأولى بإشبيلية قبل ذلك بنحو خمسة عشر عاماً ، بإنشاء المسجد الجامع والتقصير الموحدية ، وقنطرة طريانة . ومشاريع الري والسقاية ؛ ذلك أنه أمر قبل تحركه إلى الغزو عامله أبى داود بلول بن جلداسن ، أن يقوم خلال غيبته في الغزو ، بإنشاء سور حصين على قصبة إشبيلية ، يمر من مبدئ بنيانه أمام رحبة ابن خلدون داخل المدينة ، وبناء صومعة للجامع في موقع اتصال السور بالجامع المذكور ، وبناء دار صنعة للسفن تتصل من سور القصبة الذى على الوادى بباب القطاع ، إلى الرحبة السفلى المتصلة بباب الكحل^(١) . وسوف نعود فيما بعد إلى التحدث عن مصير هذه المنشآت في موطنه المناسب .

- ١ -

في صبيحة يوم الخميس السادس والعشرين من شهر صفر سنة ٥٨٠ هـ الموافق لليوم السابع من شهر يونيه سنة ١١٨٤ م ، تحركت الجيوش الموحدية وعلى رأسها

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ١٧٠ . ا .

الخليفة أبو يعقوب يوسف ، من مدينة إشبيلية ، نحو الشمال ، بنفس الترتيب الذى سبق وصفه . وكان السير هيناً وثيداً ، فوصلت بعد تسعة أيام إلى حصن العرجة^(١) فى طريق بطليوس ، وهناك تم اجتماع الجيوش الموحدية ، وقد بدت فى أكمل نظام ، وأحسن زى ، وتقلد الجند كامل أسلحتهم من السيوف والدروع والقسى وغيرها ، ثم استأنفت الجيوش سيرها ، حتى وصلت إلى مدينة بطليوس ، فأمر الخليفة بالنزول فى ظاهرها ، وأن يجرى تمييز الجند ، واستكملت الجيوش ما كان ينقصها من الزاد والميرة . وكان الوزير السابق لإدريس بن جامع منفياً فى بطليوس ومعه فى المنفى أيضاً أبو زكريا بن حيون الكومى شيخ قبيلة كومية ، فالتسوا إلى أمير المؤمنين حين مقدمه أن يأذن لهما بالاشتراك فى الجهاد فأذن لهما .

وكان الموقف بالنسبة للممالك النصرانية قد تغير قبل ذلك بأعوام ، وانقطعت كل مهادنة بينها وبين الموحدين ، وجنحت كلها إلى العدوان ، وإلى غزو أراضي الأندلس كل من الناحية التى تليها ، وذلك حسباً فصلناه من قبل . وكان فرناندو ملك ليون قد نبذ محالفة الموحدين حسباً تقدم ، وحذا حذو زملائه فى انتهاز هذه السياسة العدوانية ، وعقد مع ملك قشتالة ألفونسو الثامن معاهدة تعهد فيها بأن يلتزم معاداة الموحدين ، وألا يعود إلى محالفهم قط ، وقطع زميله ملك قشتالة على نفسه مثل هذا المعهد (يونه سنة ١١٨٣ م) . وكان فى الوقت الذى عبرت فيه الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، يقوم بغزوة جديدة لأراضى الأندلس ، ويحاصر مدينة قاصرش^(٢) الواقعة شمال شرقى بطايوس على مقربة من نهر التاجه ، واستمر يحاصرها طول الشتاء حتى نهاية الربيع . وكان الخليفة الموحدى يعلم بأمر هذا التحالف الجديد بين قشتالة وليون . وكان الذائع بين الملوك النصرانى أن الجيوش الموحدية الغازية ، قد تغزو أى الممالك النصرانية ، أعنى قشتالة أو ليون أو البرتغال ، إذ كانت جميعاً سواء فى موقفها العدوانى من الموحدين ، وفى الإغارة على أراضي الأندلس . بل أن الرواية النصرانية ، وبخاصة الرواية البرتغالية ، تنسب إلى الخليفة الموحدى من غزوته هذه مشاريع أجل خطراً ، وأبعد مدى ، فتقول لنا إنه كان ببنى ، بعد الاستيلاء على شنترين ، أن يقوم بافتتاح مملكة البرتغال كلها شمالاً حتى نهر دويرة ، ثم يسير بعد ذلك إلى غزو مدينة طليطلة

(١) وهو بالإسبانية Alanje .

(٢) وهى بالإسبانية Cáceres .

حاضرة قشتالة^(١) ، وعلى أى حال فإن فرناندو ملك ليون ، حينما علم بسير الجيوش الموحدية نحو بطليوس واقتربها بذلك من مواقعه ، بادر برفع الحصار عن قاصرش ، وعاد إلى حاضرتة مدينة ردرينجو ، وأخذ يرقب سير الحوادث . وفى يوم الخميس العاشر من شهر ربيع الأول غادر الخليفة فى قواته مدينة بطليوس ، وسار نحو الشمال الغربى محترقاً الناحية اليسرى من وادى التاجه ، ثم أمر الجند الموحدين أن يتقدموا صوب شترين ، فعبروا نهر التاجه بقيادة السيد أبى إسحاق وإلى إشبيلية ، ثم تلاهم بقية الجند وعلى رأسهم الخليفة ، ونزلت الجيوش الموحدية جميعها بالتل المرتفع المشرف على شترين من ناحيتها الشرقية والجنوبية ، وكان ذلك فى يوم الأربعاء السادس عشر لربيع الأول سنة ٥٨٠ هـ (٢٧ يونيو سنة ١١٨٤ م) وفقاً لقول الرواية الإسلامية المعاصرة^(٢) ، وتضع الرواية النصرانية مقدم الجيوش الموحدية إلى شترين قبل ذلك بثلاثة أيام فى اليوم الرابع والعشرين من يونيو وهو يوم القديس خوان^(٣) .

وتنوه معظم الروايات الإسلامية بضخامة هذا الجيش الموحدى ، ووفرة حشوده^(٤) ، ويقدم إلينا بعضها عن عدده أرقاماً مدهشة ، فيقول لنا صاحب الروض المعطار إنه كان يضم أربعين ألفاً من أنجاد العرب الفرسان ، ومن الموحدين والجنود والمطوعة وفرسان الأندلس ما ينيف على مائة ألف فارس^(٥) ، وإذن فقد كان هذا الجيش الذى أعد لغزو البرتغال ، وافتتاح شترين أضخم من الجيش الذى سار من قبل عند جواز الخليفة الأول إلى الأندلس ، إلى حصار وبدة ، وتنوه الرواية النصرانية أيضاً بضخامة الجيش الموحدى ، وذلك بما تذكره من أرقام خسائره ، حسبما تشير إليه فيما بعد .

وتقع مدينة شترين ، وقد أتاحت لنا زيارتها ، فى شمال شرق أشبونة على

(١) H. Miranda : *ibid*, cit. *Chronicon Lusitanum* p- 292

(٢) هذه هى رواية البيان المغرب ، منقولة فيما يرجع عن ابن صاحب الصلاة ، وكان مرافقاً للحملة (البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٣) ويضع صاحب روض القرطاس مقدم الموحدين إلى شترين فى السابع من ربيع الأول (ص ١٤٠) .

(٣) راجع فى ذلك H. Miranda : *ibid*, p. 297 & 300 .

(٤) راجع ما ينقله البيان المغرب فى القسم الثالث عن القاضى أبى الحجاج يوسف بن عمر (ص ١٣٥) وكذلك ابن خلكان فى الوفيات ج ٢ ص ٣٩٤ .

(٥) الروض المعطار - صفة جزيرة الأندلس فى مقاله عن « شترين » ص ١١٤ .

قيد خمسين كيلومتراً منها ، فوق ربوة مرتفعة تقع على الضفة اليمنى لنهر التاجه ، أمام حنية نصف دائرية . وقد كانت في العصر الذي نتحدث فيه من أمنع القواعد البرتغالية ، وكانت في عهدها الإسلامي ، نظراً لحصانة موقعها في منعطف النهر من المراكز الأمامية للمعارك المستمرة بين المسلمين والنصارى . وقد سقطت في أيدي النصارى لأول مرة في سنة ٤٨٦ هـ (١٠٩٣ م) ، حينما استولى عليها ألفونسو السادس ملك قشتالة ، ولكن المسلمين استردوها ، واستمرت في حوزتهم عصراً آخر ، ولما اشتد ساعد مملكة البرتغال الناشئة في عهد ملكها ألفونسو هنريكيـز ، وأخذ هذا الملك يغير على القواعد الإسلامية المحاورة ، كانت شترين وأشبونة من القواعد التي استولى عليها ، وذلك في سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) حينما اضطربت شئون ولاية الغرب على أثر قيام الثورة ضد المرابطين وبقيتا بيد النصارى إلى ذلك الحين . وكان الموحدون يتوقون إلى استرداد هاتين القاعدتين الهامتين من قواعد ولاية الغرب .

وهناك في الواقع ما يدل على أن استرداد ثغر أشبونة كان من أهداف هذه الحملة الموحدية الكبرى بل ربما كان هو هدفها الرئيسي^(١) . ذلك أن الأسطول الموحدى ، كان وقت عبور الخليفة إلى شبه الجزيرة ، قد حشد عند مصب الوادى الكبير ومصب وادى يانه ، وكان في نفس الوقت الذى اتجهت فيه الجيوش الموحدية صوب شترين ، يسير إلى مياه أشبونة ، ثم يحاصرها^(٢) . بيد أنه كان من الطبيعى أن يقوم الجيش الموحدى قبل السير إلى أشبونة ، بالاستيلاء على شترين ، وهى حصن أشبونة من الشمال ، وبذلك تؤمن مؤخرة الجيش الموحدى ضد أى هجوم يقوم به النصارى من تلك الناحية .

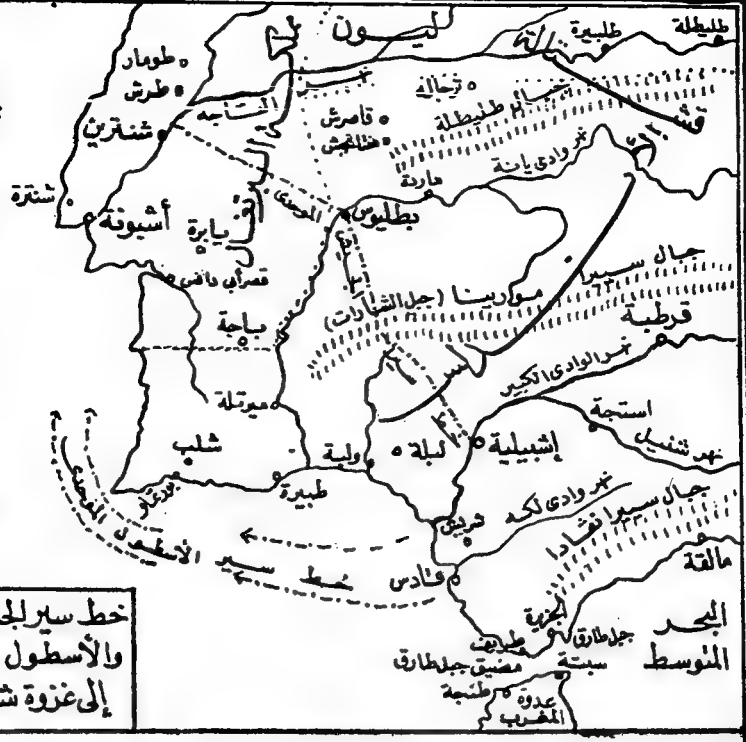
ومن ثم فإنه ما كادت القوات الموحدية تصل إلى ظاهر شترين ، حتى أمر الخليفة بأن يتقدم الجند حتى أبواب المدينة ، وأن يضربوا حولها الحصار ، ونزل الموحدون في الرىض الواقع في جنوبها الشرقى والممتد على طول النهر وضربت به قبة الخليفة ، وكان البرتغاليون وعلى رأسهم ملكهم ألفونسو هنريكيـز ، قد احتشدوا داخل شترين وقصبتها وجدوا في تحصينها ، واتخذوا أعظم أهبة الدفاع عنها^(٣) ،

(١) راجع روض القرطاس ص ١٤٠ .

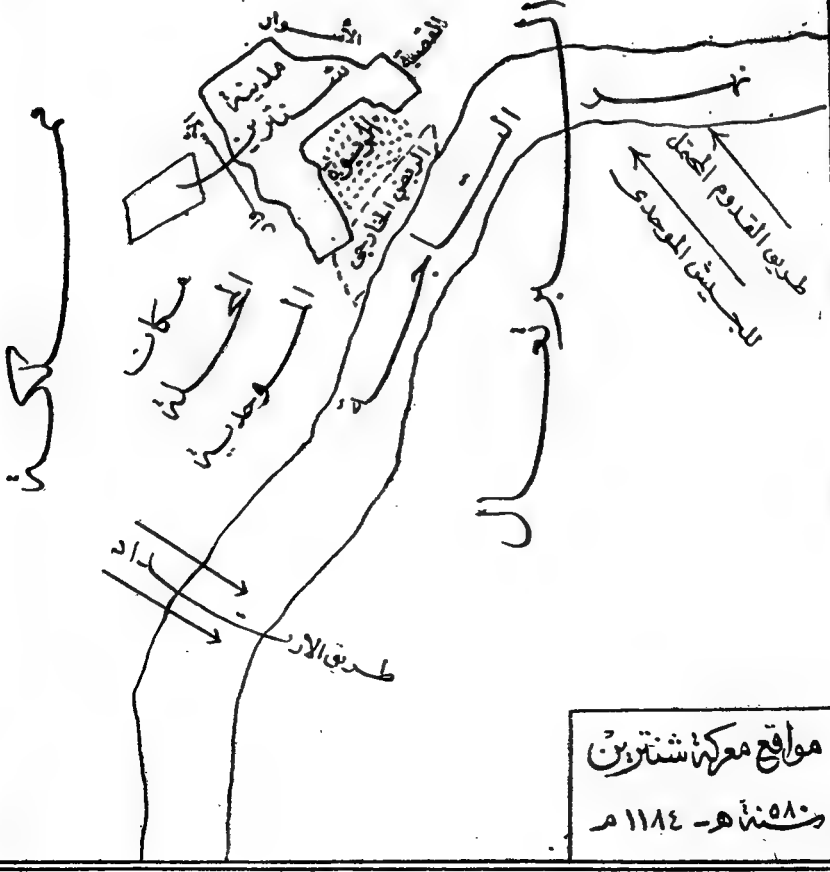
(٢) الروض المطار ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١٤ .

(٣) المراكشي في المعجب ص ١٤٥ .

الخريطة



خط سير الجيش الموحدى
والأسطول الموحدى
إلى غزوة شنديين



مواقع معركة شنديين
٥٨٠هـ - ١١٨٤م

وكان المدافعون عن الربض الخارجى قد أقاموا حواجز يستطيعون الاعتصام بها ، والدفاع منها . فافتحم الموحدون الربض وهدموا أحياءه المتصلة بالسور ، وهدموا الكنيسين اللتين به ، وقتل كثير من المدافعين عنه ، وارتد الباقون إلى القصبة ، واعتقد القادة الموحدون أن السيل ممدد لافتحام المدينة وأخذها ، وأعدت بالفعل السلام اللازمة لافتحام الأسوار . وفى يوم الجمعة ١٩ ربيع الأول ٢٩ يونيه) ، هاجم الموحدون الأسوار ، واشتبكوا مع قوة من النصارى خرجت لقتالهم فهزموها وردوها صوب القصبة . وفى صبيحة اليوم التالى - السبت - تجدد القتال بين الموحدين وبين النصارى ، واستمر القتال بين الفريقين حتى يوم الاثنين الحادى والعشرين من ربيع الأول (٢ يوليه) . ونشبت بينهما خلال ذلك عدة معارك عنيفة . وتقدم إلينا الروايات النصرانية عن هذه المعارك صوراً مختلفة ، ويقول بعضها إن المعارك لبثت تضطرم بين النصارى والموحدين فى الربض الخارجى للمدينة خمسة أيام ، وأن الموحدين بالرغم من خسائرهم لبثوا يجمدون هجماتهم ، حتى حطمت سائر الحواجز والتحصينات بالربض ، وأضحى الموقف مستحيلاً ، واضطر النصارى إلى اللجوء إلى ناحية القصبة . وهذه الرواية تقترب فى جملتها من أقوال الرواية الإسلامية . بيد أن بعض الروايات النصرانية تقدم إلينا مزاعم لا يستطيع أن يسيغها العقل ، ولا سيما الرواية المنسوبة إلى الخبر الإنجليزى راؤول دى ديستو ، وخلاصتها أن الموحدين وصلوا إلى شنترين فى يوم القديس خوان ، أعنى فى يوم ٢٤ يونيه ، وحاصروها ، وأنهم بعد ثلاثة أيام وثلاث ليال من القتال المستمر ، نجحوا فى اقتحام المدينة من ثلثة أحيائها . ولكن وصل فى اليوم التالى أسقف بورتو وابن الملك وقتلوا من الموحدين خمسة عشر ألفاً ، وسدوا تلك الثلثة بجثثهم . وفى اليوم الذى يليه وصل أسقف شنت ياقب ومعه عشرون ألف مقاتل ، وفى الفجر قتلوا ثلاثين ألفاً من الموحدين^(١) .

بيد أنه وقفت فى اليوم الختامى لهذه المعارك ، وهو يوم الاثنين ٢١ ربيع الأول (٢ يوليه) بالعسكر الموحدى مفاجأة مذهلة ، وهى صدور أمر الخليفة بالكف عن القتال ، وكان الأمر قد صدر فى نفس الوقت بتحريك الجيش من موضع نزوله إلى موضع آخر ، أو من شرق شنترين إلى غربها وشمالها حسبما يقول صاحب

روض القرطاس . فعجب الناس لذلك ، ولم يفقهوا له سبباً ، بل إن في هذا التعليق ذاته ما ينم عن إنكار الشيوخ والقادة الموحدين لهذا الأمر الفجائي الذي لم يدرس ، ولم تتضح مبرراته . فما الذي حدث في المعسكر الموحدى ، وكيف ولم وقع هذا التحول الفجائي في حركة الجيش الموحدى ، ولما لم يمض على مقدمه إلى شترين سوى ستة أيام ؟ إن الرواية الإسلامية لا تقدم إلينا في هذا الموطن أى شرح واضح أو أى تعليل مقنع لهذا الارتداد الفجائي لجيش ضخم غاز يربى عدده على المائة ألف ، عن مدينة مرهقة بالحصار وقد سقطت أرباضها في أيدي الغزاة ، ولا تدافع عنها سوى حامية محلية ، قد أنهكتها المعارك المتوالية مع الغزاة ، ولحأت في النهاية إلى القصة ترقب المصير المحتوم ، ولم يقل لنا ابن صاحب الصلاة ، وهو مرافق الحملة ومؤرخها ، شيئاً سوى التعليق على أمر الارتحال يقوله : « فتعجب الناس من هذا الرأى في الانتقال والارتحال ، وتعطلت في النفوس جميع الآمال ، وظهر الخلل في جميع الأحوال » . ثم يقول إنه قد حدث في هذا اليوم - أى يوم صدور الأمر بالارتحال - على عسكر أهل مرسية حادث مروع ، وذلك أنهم خرجوا للإغارة في بسائط النصارى ، فخرجوا عليهم وهزمهم هزيمة شنيعة فارتدوا إلى المحلة منهزمين ، « وبات الناس في المحلة على حذر ، ومن الوجمل في ألم وضرر »^(١) .

ويقول لنا مؤرخ موحدى آخر كان مرافقاً للحملة أيضاً هو القاضى أبو الحجاج يوسف بن عمر ، إن الخليفة أبا يعقوب حينما قصد مدينة شترين أمنع بلاد ابن الرنك ، وأكثرها أجناداً ، وأقواها استعداداً ، فزع النصارى وروعت نفوسهم لما رأوه من ضخامة الجيش الموحدى وتفوقه العظيم . وكان القصد محاصرة المدينة وإرهاقها ، ثم يقول دون أى إيضاح آخر : « فلما استرأت من جهاتها الأنباء ، وطال لغير طائل الثواء ، عزم أمير المؤمنين على الارتحال ، وترويح الجيوش والنفوس من السآمة والكلال ، فأمر بالرحيل ليلاً »^(٢) .

على أن مؤرخاً معاصراً آخر ، ويعتبر كذلك من مؤرخى الموحدين ، هو عبد الواحد المراكشى ، يقدم إلينا عن هذا الارتداد للجيش الموحدى رواية ، قد تبدد بعض هذا الغموض الذى يثيره صمت شاهد العيان ، وهى أن أبا يعقوب حينما

(١) نقله البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٣٤ و ١٣٥ .

(٢) نقله البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٣٦ .

حاصر شترين وبالع في التضيق عليها ، وانتساف قواتها ، وقطع المؤونة والمدد عنها ، لم يزد ذلك أهلها إلا حزمًا في الدفاع ، وجلدًا في تحمل مشاق الحصار ، فخشى الموحدون هجوم البرد ، إذ كان الوقت آخر فصل الخريف ، وخافوا أن يفيض النهر فلا يستطيعون عبوره ، وتنقطع عنهم الأمداد ، فأشاروا على أمير المؤمنين بالارتداد عن شترين والرجوع إلى إشبيلية ، فإذا تغرت الظروف ، عاد الموحدون إلى حصارها ، وصوروا له أن الأمر هين ، وأن المدينة تعتبر غنما في يده لا يمنعه عنها مانع ، فاستمع الخليفة إلى نصيحهم ، وقال نحن راحلون غدا إن شاء الله ، ولم يقف أحد على هذا القول سوى الخاصة ، وكان أول من قوض خبائه وأظهر الأخذ بأهبة الرحل ، أبو الحسن على بن عبد الله المعروف بالمالتى ، وكان من أكابر البلاط الموحدى ، ويوصف بخطيب الخلافة ، فلما رأى الناس صنعه ، حذوا حذوه لما يعلمونه من وقوفه على أسرار الدولة ، وعبر النهر في تلك العشية أكثر العسكر ، يريدون التقدم خشية الزحام ، ولم يبق إلا من كان يقرب خباء أمير المؤمنين ، وبات الناس يعبرون الليل كله ، وأمير المؤمنين لا علم له بما حدث^(١) . وينقل ابن خلكان هذه الرواية بنصها وتفصيلها في ترجمة الخليفة أبي يعقوب^(٢) .

ونلاحظ فيما يتعلق بهذه الرواية أن حصار شترين لم يقع في أواخر الخريف ، ولكنه وقع في أواخر شهر يونيه سنة ١١٨٤ م ، أعنى في أوائل الصيف ، وقد رأينا أن الحصار ، وفقاً لرواية شاهد العيان ، وكذلك وفقاً للرواية النصرانية ، لم يدم سوى عدة أيام^(٣) . وعلى ذلك فإن تعليل الارتداد باقتراب الشتاء ، والخوف من فيضان النهر ليس بالتعليل المقنع ، وإن كان على أى حال محاولة لتفسير تصرف الخليفة الموحدى .

هذا ، وهناك محاولة أخرى من جانب الرواية الإسلامية لتفسير ما حدث في العسكر الموحدى ، هي رواية صاحب روض القرطاس ، وهى أنه لما أمر أمير المؤمنين بانتقال الجيش من موضع نزوله إلى موضع آخر ، أنكر الناس ذلك .

(١) المراكشى في المعجب ص ١٤٥ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٩٤ .

(٣) ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٥٨٠ هـ ، أن الخليفة أبا يعقوب حاصر شترين مدة شهر

(ج ١١ ص ١٩٠) . وينقل ابن خلكان هذه الرواية (ج ٢ ص ٤٩٢) .

ولم يعلموا له سبباً ، وأنه لما جن الليل ، وفرغ الخليفة من صلاة العشاء ، استدعى ولده السيد أبا إسحق وإلى إشبيلية ، وأمره بالرحيل من تلك الليلة إلى غزو مدينة أشبونة وشن الغارة على أنحائها ، وأن يسير لها بجيوش الأندلس خاصة ، وأن يكون رحيله نهائياً ، فأساء السيد أبو إسحق فهم أوامر الخليفة ، وظن أنه أمره بالرحيل في جوف الليل إلى إشبيلية . يقول صاحب الروض : « وصرخ الشيطان في محلة المسلمين أن أمير المؤمنين قد عزم على الرحيل . وفي هذه الليلة تحدثت الناس بذلك ، وتأهبوا له ، فرحل من الناس طائفة بالليل . فلما كان قرب الفجر أفلح السيد أبو إسحق ، وأقلع كل من كان يليه ، وتابعه الناس بالرحيل ، فارتحلوا وأمير المؤمنين مقيم في مكانه لا علم له بذلك » (١) .

على أن ما تقدمه إلينا الرواية النصرانية عن أسباب انسحاب الجيش الموحدى قد يفسر لنا ما وقع بطريقة أوضح ، وأكثر اتفاقاً مع منطوق الحوادث . ذلك أن الموحدين ، بعد أن اشتبكوا مع البرتغاليين في ربض شنترين في سلسلة من المعارك الطاحنة استمرت بضعة أيام ، واستولوا خلالها على أرض الربض وحطموا تحصيناته الخارجية ، أدركوا أن المدينة من المناعة ، وأن المدافعين عنها من الاستعداد والكثرة ، بحيث يتعذر اقتحامها ، ولا بد لأخذها من الاعتماد على حصار طويل صارم . وفي أثناء ذلك وقع حادث كان له فيما يبدو تأثير حاسم في تطور الموقف . ذلك هو مقدم فرناندو الثاني ملك ليون في قواته . ونحن نذكر أنه لما تحرك الجيش الموحدى من إشبيلية ، صوب بطليوس ، كان فرناندو الثاني يحاصر مدينة قاصرش الواقعة شمال شرقي بطليوس محاولاً الاستيلاء عليها ، فلما وقف على حركة الجيش الموحدى ، رفع الحصار عن قاصرش ، وارتد إلى قاعدته القريبة مدينة ردريجو . ولما تعينت وجهة الجيش الموحدى بالسير إلى شنترين وحصارها ، سار فرناندو في قواته صوب ميدان المعركة لإنجاد المدينة المحصورة ، وذلك تنفيذاً للعهد الذى قطعه على نفسه بقتال الموحدين ، وتقول الرواية النصرانية أيضاً إن ألفونسو ملك البرتغال كان متوجساً في البداية من مقدم فرناندو وجيشه ، فلما علم أنه قادم لإنجاده وإنجاد إخوانه النصارى ، اطمأنت نفسه وأيقن بالخلاص (٢) . ومن ثم فإنه يبدو أن تطور الحوادث على هذا النحو

(١) روض القرطاس ص ١٤٠ .

Primera Crónica General de España (Ed. Pidal) p. 676 (٢)

هو الذى حمل الخليفة على اتخاذ قراره الفجائى ، بالارتداد ، خشية أن يعمل الليونيون على إعاقة عبوره النهر إلى الضفة اليسرى ، ولاسيما بعد أن اقتنع بصعوبة الاستيلاء على شترين .

بيد أنه إذا كان هذا التعليل يلقى شيئاً على بواعث قرار الارتداد ، فلنا لاستطيع أن نفهم سر ذلك الاضطراب المروع الذى اقترن بتنفيذه . ومن المحقق أن الخليفة ومعاونه كانوا يقصدون أن يكون الارتداد وفق خطة منظمة ، تقي الجيش المنسحب كل اضطراب وكل عثار . وهذا ما يؤكده لنا القاضى أبو الحجاج يوسف بن عمر فى روايته حين يقول « إن ثقات الخليفة تطوفوا أول الليل على الرؤوس والجموع ، وأوعزوا إليهم ، ترتيب التحرك وكيفية القلوع ، وأن يكون كل قبيل من جهتهم ثابتين مرصدين حتى ترحل الحمولة والأثقال ، وتتلخص إلى السعة من المضايق والأحوال »^(١) . بيد أن الذى حدث هو العكس تماماً . وهو الفوضى المروعة ، والاختلال المطبق . يقول أبو الحجاج يوسف ، وهو شاهد العيان : « فاضطرب إقلاع الناس اضطراباً شديداً ، وكثر الضجيج ، واختلاط الأصوات ، وتهولت المحلات ، وأخذ العموم على شتى المسالك ، فلا ترى سميعاً ولا مطيعاً » .

وكان أشنع ما فى ذلك ، هو ما حدث من غموض فى فهم أوامر الخليفة ، وتسرع فى تنفيذها . ذلك أن كثيراً من الأشياخ ورؤساء القبائل فهموا أنه يجب الارتداد فوراً وفى جوف الليل ، فهرعت طوائف غفيرة من الجند إلى الارتداد . وعبور النهر ، ووقع الارتداد فى مناظر مروعة من الاختلال والضجيج والفوضى . يقول الراوية شاهد العيان : « حضرت يوم هذا الإقلاع وليله ، فإرأيت فى تاريخ قبله ، ولا يحصر واصف هوله » ، وأقنع السيد أبو إسحاق ولد الخليفة نفسه فى جنده عند الفجر قاصداً إشبيلية ، واعتقد كثير أن الخليفة نفسه قد أقنع فى السحر ، واستمر عبور الجند على هذا النحو تباعاً ، حتى عبر معظم الجيش ، كل ذلك والخليفة غافل عما حدث . فلما أسفر الصبح ، ظهرت الحقيقة المروعة ، ولم يبق حول الخليفة الموحى سوى الساقة ، فعندئذ أمر الخليفة بضرب الطبول ، فاجتمعت الفلول الباقية ، وانحدر الخليفة صوب النهر ، وبقى ابنه يعقوب المنصور مع بقية الساقة ، فى موضع الحملة مستعداً للقاء النصارى وردهم وحماية أبيه ومن معه .

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٦ .

ولكن نصارى شترين أدركوا عندئذ ماوقع في العسكر الموحدى ، من إقلاع وارتداد ، فبادروا بالخروج من المدينة ، وهجموا على القوات المنسحبة بشدة ، وأدركوا ساقه الخليفة ، ودافعت القلول الموحدية بمنتهى البسالة ، وسقط خلال ذلك عدد من أكابر الموحدين والأندلسيين ، ووصل النصارى إلى مقر الخليفة نفسه بعدوة الوادى ، وإصابه بعضهم بجراح خطيرة . وعلى أثر انتهاء المعركة أمر الخليفة بتفريق الجموع ، ورجوع كل جندى إلى قبيلته ، وأمر بتخريب الوادى ، وانتساف زروعه ، وقطع أشجاره وهدم ضياعه ، وتغوير مائه ، وحرق كل ما يمكن حرقه ، كما أمر بتقسيم السرايا في نواحي الوادى لتحصيل الأقوات ، وانتزاع السبي والغنائم . كل ذلك الخليفة الحريج ملتزم فراشه ، ومن حوله أطباؤه ابن زهر وابن طفيل^(١) وابن قاسم ، وهو يزداد ضعفاً على ضعف ، ثم أمر الخليفة بالرحيل ، وهو محمول في محفة ، حتى تم اجتياز وادى التاجه ، وما كاد الموكب يقطع بضعة أميال أخرى ، حتى أسلم الخليفة الروح ، وذلك فى الثامن عشر لربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (٢٩ يولييه سنة ١١٨٤ م)^(٢).

تلك هى رواية القاضى أبى الحجاج يوسف بن عمر ، المرافق للجيش المنسحب عن ظروف الارتداد وعن إصابة الخليفة أبى يعقوب يوسف ووفاته متأثراً بجراحه . بيد أن هناك رواية أخرى هى رواية المراكشى ، وهو أيضاً معاصر ، ومن مؤرخى الموحدين ، وهى أنه لما رأى نصارى شترين ما حدث من عبور الموحدين ، وانصراف معظم الجيش المحاصر ، ووقفوا على ما قرره الخليفة من الارتحال فى بقية جيشه ، خرجوا من المدينة فى خيل كثيفة ، وحملوا على الحملة الموحدية بشدة ، حتى بلغوا قبة أمير المؤمنين ، ودافعهم من حولها ، وجلهم من أعيان الأندلس ، حتى قتل كثير منهم ، ونفذ النصارى إلى خباء الخليفة ، فطعنه أحدهم تحت سرتة طعنة توفى منها بعد أيام يسيرة ، وتكاثر الموحدون على الروم حتى ردوهم ، فانهزموا راجعين إلى المدينة ، وعبر أمير المؤمنين النهر

(١) وردت فى النص «ابن مقبل» ولكننا نعتقد أن ذلك تحريف لاسم ابن طفيل طبيب الخليفة الخاص .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٣٧ و ١٣٨ . وتضع معظم الروايات تاريخ وفاة

الخليفة فى شهر ربيع الآخر على خلاف فى اليوم الذى توفى فيه . ولكن المراكشى ينفرد بالقول بأن الخليفة

أبى يعقوب توفى فى اليوم السابع من رجب سنة ٥٨٠ هـ (أكتوبر سنة ١١٨٤ م) المعجب ص ١٤٧ .

ومجاريه فى ذلك ابن خلكان فيذكر نفس التاريخ (الوفيات ج ٢ ص ٤٩٤) .

جريحاً في محفة ، فلم يمض على ذلك يومان أو ثلاثة حتى توفي متأثراً بجراحه^(١).

وهناك رواية أخرى مماثلة تقترب في جوهرها من رواية المراكشي ، وهي رواية صاحب روض القرطاس ، وهي أنه لما وقع ارتداد معظم الجيش الموحدى ليلاً ، وجاء الصبح ، فلم يجد الخليفة حوله سوى اليسير من خاصته وحشمه الذين يرحلون لرحيله ، وينزلون لنزوله ، وقواد الأندلس لأنهم هم الذين كانوا يمشون أمام ساقته وخلف محلته ، فلما أشرقت الشمس وشهد النصارى ما وقع من ارتحال المحلة الموحدية ، وأنه لم يبق منها حول المدينة سوى قبة أمير المؤمنين وعبيده وحشمه وأهل دائرته ، وتحققوا ذلك من جواسيسهم ، فتحوا أبواب المدينة ، وخرج جميع من فيها خرجة عنيفة وهم ينادون « الرى . الرى »^(٢) أعنى الملك ، فافتحموا محلة العبيد ، حتى وصلوا إلى خباء الخليفة ، فزقوه واقتحموه ، فدافعهم الخليفة بسيفه حتى قتل منهم ستة رجال ، فطعنه أحدهم طعنة نافذة ، وقتل ثلاث من جواريه كن قد انصبين عليه حتى طعن ، وسقط على الأرض ، فتصايح الفرسان والعبيد والأجناد والموحدون وقواد الأندلس ، واجتمع المسلمون فقاتلوا النصارى قتالاً عنيفاً حتى ردوهم عن الخباء ، ثم تابعوا قتالهم بشدة حتى هزموهم وردوهم إلى أبواب المدينة ، وقتلوا منهم جموعاً غفيرة تقدر بما يزيد على عشرة آلاف ، واستشهد من المسلمين جماعة . ثم ركب أمير المؤمنين ، وقد أشرف على الموت ، وارتحل الناس ، ومات الخليفة خلال الطريق ، وكانت وفاته في يوم السبت الثاني من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (١٣ يولييه سنة ١١٨٤ م) وذلك على مقربة من الحزيرة الخضراء في طريق جوازه إلى العدو^(٣).

ويؤيد هذه الرواية عن مصرع الخليفة أبى يعقوب متأثراً بجراحه ، من المؤرخين المتأخرين ، الوزير ابن الخطيب ، حيث يقول لنا إن الخليفة توفي بظاهر شنترين من سهم أصابه في خبائه وهو محاصر لها ، قضى عليه ، وكم موته . بيد أنه يضع تاريخ مصرعه في الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ

(١) المراكشي في المعجب ص ١٤٥ و ١٤٦ ، ونقل ابن خلكان هذه الرواية في وفيات

الأعيان ج ٢ ص ٤٩٤ .

(٢) " El Rey El Rey " .

(٣) روض القرطاس ص ١٤٠ ، ١٤١ .

وهو يوافق الثامن من أغسطس سنة ١١٨٤ م (١). ويوجد أخيراً رواية مفادها أن الخليفة أبي يعقوب لم يمت متأثراً بجراحه، ولكنه توفي من مرض لم تذكر لنا الرواية كنهه، وهذه هي رواية ابن الأثير، حيث يقول إن الخليفة حاصر شترين شهراً، فأصابه مرض فمات منه في ربيع الأول (٥٨٠ هـ) وحمل تابوته إلى مدينة إشبيلية (٢)، ويأخذ صاحب الروض المعطار بهذه الرواية فيقول لنا إن الخليفة، وهو مقيم على شترين عرض له المرض الذي توفي منه، وأقام الرحل به مضطجعا على فراشه، وضعفه يزايد، إلى أن تُفقد في بعض أميال فوجد ميتاً وذلك في سنة ٥٨٠ هـ (٣).

ويتردد ابن خلدون بين الروایتين، فيقول لنا إن الخليفة توفي من سهم أصابه في حومة القتال عندما اقتحم النصارى محلته أو أنه توفي من مرض أصابه (٤). وكان الخليفة أبو يعقوب عند وفاته في السابعة والأربعين من عمره، إذ كان مولده، حسبما تقدم في سنة ٥٢٣ هـ بتينملل.

وإنه ل يبدو لنا إزاء اتفاق الروايات الموحدية المعاصرة، ومعها صاحب روض القرطاس وابن الخطيب، أن القول الراجح هو أن الخليفة أبا يعقوب قد أصيب في الموقعة التي نشبت بين النصارى وبين محلته، وأنه توفي متأثراً بجراحه. ومن الواضح أن وقوع مثل هذا الحادث ممكن ومعقول في مثل الظروف التي أحاطت بال جيش المنسحب، وفي غمرة الخلل الذي أصابه، والفوضى التي سادته. ولقد كان انسحاب الجيش الموحدى من أمام أسوار شترين نكبة مؤلمة، تفوق في نتائجها الخطيرة المروعة، نكبة انسحابه من وبدة قبل ذلك باثني عشر عاما. ونستطيع هنا أن نستشف نفس الأسباب، ونفس وجوه الضعف التي انتابت الجيش الموحدى، وعصفت بتماسكه ونظامه، وجعلته بالرغم من ضخامته، ووفرة استعداده وعدته، أشبه بكتلة بشرية مفككة، لا تجمعها أية قيادة حازمة، ولا هدف مشترك، وفتت في قواه المعنوية، فانهارت لديه فكرة الجهاد التي حشد من أجلها، وأضحت كل طائفة من طوائفه تبحث فقط عن سلامتها،

(١) ابن الخطيب في الإحاطة في مخطوط الإسكوريال الذى سبقت الإشارة إليه لوحة ٣٩٥

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٠ .

(٣) الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١١٤ .

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١، وكذلك نفح الطيب ج ٢ ص ٥٤٦ .

وترقب أول فرصة للانسحاب . ومن الواضح أيضاً أن استئثار الخليفة بتوجيه حركات جيشه دون الاعتماد على رأى قواده ، كان له أكبر الأثر فيما حدث من سوء فهم للأوامر الصادرة ، بل ربما نستطيع أن نستشف من ذلك أثر الانشقاق وعصيان الأوامر الصادرة من الخليفة دون دراسة ودون تدبر ، وقد كان منها الأمر بنقل مواقع الجيش الموحدى من شرق وجنوبى شترين إلى الشمال والغرب ، وهو أمر عارضه القواد الموحدون ، لأنه يضع الجيش الموحدى فى مواقع تعرضه لخطر التطويق ، ثم أمر الانسحاب المفاجئ الذى استأثر الخليفة بإصداره ، فكان نذيراً بكارثة الانسحاب المروع ، وما اقترن به من شنيع الاضطراب والفوضى ، وما انتهى الأمر إليه من فقد الاتصال بين الفرق المنسحبة ، وبين حرس الخليفة وخاصته ، فكانت النكبة المروعة ، باقتحام محلة الخليفة وإصابته القاضية ، أضف إلى ذلك كله ما كان يعانيه الجيش الموحدى من نقص فى تمويناته ، حتى اضطر حين الانسحاب أن يبحث عن أقواته بشن الغارات على الأراضى التى يتخرقها خلال مسيره . وقد أثبت الخليفة أبو يعقوب وقواده بذلك كله ، أنهم لم يتعلموا شيئاً من دروس حماة وبذة ، ولم يحاولوا إصلاح جيوشهم ، على ضوء ما تبين من وجوه النقص فيها ، واستمر اعتمادهم فى حشدها على التفوق العددى دون سواه .

لما توفى الخليفة أبو يعقوب متأثراً بجراحه بعد عبوره نهر التاجه بقليل ، محمولاً على محفته حسبما تقدم ، كتمت وفاته ، وحُمل كالعادة مسجياً فى محفته ، حتى نزل الركب خلال الطريق إلى إشبيلية ، بعد موضع يسميه صاحب البيان المغرب « بحصن طرش » وهناك ضربت أخبية الخليفة كالعادة ، وأحرق الفتيان والخدمة بالقبة الخليفية وفقاً للرسوم المعتادة ، وكان السيد يعقوب أبو يوسف ولد الخليفة هو الذى يدخل على أبيه منذ إصابته ، ويخرج من لدنه ، ويتصرف فى الأمور باسمه^(١) ، فلما نزل الركب بالموضع المذكور ، وتكامل وصول الناس ، بعث السيد أبو زيد ابن الخليفة إلى إخوته الأكابر الموجودين مع الجيش ، وإلى أكابر الموحدين ، وأطلعهم على وفاة الخليفة ، وكشف لهم عن جثمانه وهو مسجى فى فراشه ، وطلب إليهم مبايعة الأمير يعقوب أبى يوسف ، فاستجابوا إليه ، وتمت البيعة فى مساء نفس اليوم . وفى اليوم التالى استؤنف السير ، وكل شئ على

حاله ، واستمر كتمان وفاة الخليفة الراحل ، بيد أنه كفن وأدرج في تابوت ، حتى وصل الركب إلى إشبيلية ، وذلك بعد نحو شهر من بداية انسحاب الجيش وعبوره لنهر التاجه .

واستراح أبو يوسف يعقوب بإشبيلية ثلاثة أيام ، تلاحت خلالها الحشود ، ووصلت جموع العرب والموحدين وسائر الطوائف الأخرى ، ونزلت في أكناف إشبيلية ، ودعى الناس خاصتهم وعامتهم ، لتقديم البيعة ، وأعلنت وفاة الخليفة الراحل ، وغصت القصبة بوجوه القوم من موحدين وغيرهم ، وأخذت البيعة للخليفة الجديد مدى يومين هما وفقاً لقول صاحب البيان غرة وثاني جمادى الأولى^(١) وأغدق الخليفة بهذه المناسبة صلاته على قرابته وأهل بيته ، وخص أخاه السيد أبازيد هبة جليلة قدرها عشرة آلاف لما بذل في خدمته ، وتنظيم بيعته .

وقد تمت بيعة الخليفة أبي يوسف في هدوء وسلام ، ودون أية معارضة ، أولاً لأن أباه الخليفة الراحل أبازيد كان قد خصه بولاية عهده أثناء حياته ، وإن لم تقدم لنا الرواية تاريخ هذا التعيين^(٢) ، وثانياً لأنه كان أكبر أولاده^(٣) ، فكان هذا الاعتبار في ذاته مبرراً لتقدمه ، وذلك خلافاً لما كان عليه أبوه الخليفة أبو يعقوب بن عبد المؤمن حيث قدم للخلافة مع وجود شقيقه الأكبر السيد أبي حفص ، وذلك تنفيذاً لوصية أبيه .

ولما كل أمر البيعة ، وشملت سائر أنحاء الأندلس ، وسائر الطبقات ، وتم تنظيم شئون الأندلس ، دعا الخليفة في اليوم الرابع والعشرين من جمادى الأولى (٢ سبتمبر سنة ١١٨٤) أشياخ الموحدين والعرب ، وشيوخ الوفود من سائر القواعد ، وأذن بالحركة وانقضاء الغزو ، والتأهب للرحيل ، وكتب بذلك لسائر البلاد والقبائل من المجاهدين والمسافرين ، وقدم القائد أبو العباس الصقلي إلى ثغر طريف ، في ثلاث عشرة سفينة لنقل الخليفة وخاصته وجيشه ، وتقدمت سفينتان

(١) وهذا التاريخ لا يتفق مع سير الأحداث والتواريخ السابقة . فقد كانت وفاة الخليفة وفقاً لنفس المؤرخ في ١٨ ربيع الثاني سنة ٥٨٠ هـ ، وقد استغرق وصول الجيش المنسحب مدى شهر . وإذا فقد كان من المنطق أن تكون البيعة في نحو منتصف شهر جمادى الأولى لافي غرته (البيان المغرب القسم الثالث ص ١٣٨ و ١٤٢) .

(٢) المعجب للمراكشي ص ١٤٧ .

(٣) الحلل الموشية ص ١٢٠ .

بالانتقال إلى رباط الفتح بمياه سلا . وفي فجر اليوم التالي ، خرج أهل الأندلس إلى بحيرة الوادي في جموع حاشدة ، وضربت قبة الخليفة على شاطئ النهر (الوادي الكبير) ، ونظم الموكب الخلفي ، يتقدمه المصحف الكريم ، وسار الخليفة في ضحى اليوم ، فنزل بقرية طريانة قبالة إشبيلية ، ثم غادرها إلى شريش ، تتبعه الحيوش ، ثم إلى مدينة شذونه ، أو مدينة ابن السليم^(١) ، حيث التقى بالسيد أبي زكريا ابن أخيه السيد أبي حفص قادماً من تلمسان مع أعيان عرب زغبة ، ومعه سبعمائة جواد معونة لأهل الأندلس . وسار الخليفة بعد ذلك جنوباً صوب الشاطئ حتى وصل إلى الموضع المسمى بحجر الإيل^(٢) ، وهي ربوة تقع على مقربة من طريف ، وقد اجتمع الأسطول على طول الشاطئ ، على قدم الأهبة لنقل الخليفة وجيشه ، وفي اليوم السابع من جمادى الآخرة سنة ٥٨٠ هـ (١٢ سبتمبر) ضربت قبة الخليفة ، وقام أهل الأندلس بتحية الوداع ، وكذلك ودع الخليفة إخوته الذين قدمهم للولاية بالأندلس ، وهم أبو إسحاق وأبو زيد وأبو يحيى . وفي ضحى نفس اليوم ركب الخليفة البحر ، وأمام سفينته مصحف عثمان ، ونزل بقصر مصمودة ، أو القصر الصغير ، قبالة ثغر طريف من البوغاز ، واستراح هنالك ريثما تم جواز سائر الجيش . ثم غادر القصر إلى رباط الفتح ، وهنالك تسمى لأول مرة بأمر المؤمنين ، وكان منذ بيعته يكتفى بلقب « الأمير يعقوب » ، وكتب في الحال بذلك إلى بلاد الأندلس . وتلقاه في الرباط ، أبو عبد الله بن واجاج في وفود العرب وأهل فاس ومكناسة وعمالهم ، وأقال إبراهيم بن إسماعيل من عمل فاس ، وأمر سائر العمال بالمثل إلى الحضرة ، وقام بدفن أبيه أمير المؤمنين أبي يعقوب مؤقتاً بدار الخليفة بالرباط ، ثم نقل منها بعد ذلك ودفن بتينملل إلى جانب أبيه عبد المؤمن والمهدي ابن تومرت^(٣) . وغادر الخليفة بعد ذلك رباط الفتح إلى حضرته مراکش^(٤) .

كان الخليفة أبو يعقوب يوسف من أعظم خلفاء الدولة الموحدية ، وبالرغم

(١) وهي بالإسبانية Medina Sidonia

(٢) وهي بالإسبانية La Pena del Cierro

(٣) روض القرطاس ص ١٤١ ، والحلل الموشية ص ١٤٣ .

(٤) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٤٣ .

من أنه لم يحقق في ميادين الحرب والسياسة نتائج عظيمة كالتى حققها أبوه الخليفة عبد المؤمن ، وولده الخليفة يعقوب المنصور ، فإنه يعتبر مع ذلك ، ولاسيما من النواحي الإدارية والعمرانية ، ثالث هؤلاء الخلفاء الثلاثة ، الذين بلغت الدولة الموحدية فى ظلهم أوج قوتها وعظمتها .

وقد امتاز حكم الخليفة أبى يعقوب بالحزم ، وتحرى الحق والعدالة ومطاردة الظلم والبغى^(١) ، وترجع هذه النزعة إلى ما كان يتسم به هذا الخليفة من التقى والورع ، ومن العلم والتبحر فى العلوم الشرعية . وقد ظهرت هذه النزعة بصورة عملية ، فى غير مناسبة من أوامره وتصرفاته . وربما كانت رسالته التى وجهها إلى أخيه السيد أبى سعيد وإلى قرطبة ، وإلى سائر الطلبة الموحدين بالإندلس فى سنة ٥٦١ هـ ، بشأن وجوب تحرى الدقة فى تنفيذ الأحكام وتوقيع العقوبات ، أبرز محاولة بذلها فى هذا الشأن . وقد رأينا كيف عنى الخليفة فى هذه الرسالة التى لخصنا محتوياتها فيما تقدم ، بإصدار أمره إلى الموحدين بالآلا^٢ يقضى بحكم الإعدام إلا بعد أن ترفع النازلة إلى الخليفة مشفوعة بالشرح وأقوال الشهود والعدول ، وأن تكتب أقوال المظلومين وحججهم ، وإقرارهم واعترافهم ، وأن يدقق فى الجرائم التى دون القتل ، وكذا فى سائر المعاملات والأموال ، واستحقاقها ، وفى الرقاب وعتقها وغير ذلك . وكان الخليفة إلى جانب هذه المحاولات الشرعية ، يقوم بمطاردة الظلم والعمال الظلمة ، فإذا وقف على ما يرتكبه بعضهم من ظلم أوعسف أو اغتيال أموال الناس بالباطل ، عزله ونكبه . وكان من أبرز ما فعله فى ذلك بطشه بعمال مدينة فاس وملحقاتها ، والتنكيل بهم ، ومصادرة دورهم وأموالهم^(٣) ، ومقام به فى جوازه الأول إلى الإندلس من نكبة بعض عمال إشبيلية والمخزن من المختلسين وغيرهم ، ومقام به بعد ذلك من نكبة عماله ووزرائه بنى جامع الذين أسأثروا بالوزارة دهرأ ، وغير ذلك مما أشرنا إليه .

وإلى جانب هذه النزعة إلى تحقيق العدالة ، كان حكم أبى يعقوب متمسكاً بالمقدرة والحزم ، فقد كان خبيراً بشئون مملكته ، عارفاً بسياسة رعيته ، دؤوباً

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ٤٦ ب .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٣١ .

على النظر في الأمور ، وكان عارفاً بالشئون المالية ، ضابطاً لخراج مملكته^(١) ، وربما كانت هذه المقدرة في فهم الشئون وتدبرها راجعة بالأخص إلى ممارسته إياها ردحاً من الزمن قبل توليه الخلافة أيام أن كان والياً لإشبيلية ، وقائماً بشئون الأندلس .

وقد تجلّى هذا الحزم في حكم ابن يعقوب في شدة عنايته بقمع أية نزعة إلى الخروج والعصيان ، والسير بنفسه إلى مقاتلة الخوارج ، وذلك كما حدث عند فتنة غمارة ، ثم فتنة صنهاجة ، وحين ثورة قفصة ، وغيرها مما سبق أن فصلناه في مواضعه .

والخلة الثانية التي امتاز بها الخليفة أبو يعقوب يوسف ، هي شغفه بالجهاد في سبيل الله ، وقد ظهر أثر هذا الشغف بالجهاد من الناحية النظرية فيما ألفه أبو يعقوب في فضل الجهاد ، مما نذكره بعد ؛ وظهر من الناحية العملية في عنايته بحشد الجيوش العظيمة وتمويلها ، ثم قيادتها في حملتيه العظمتين إلى شبه الجزيرة الأندلسية . وبالرغم من أن الخليفة أبا يعقوب لم يكن موفقاً في حملتيه المذكورتين ، وقد سجل فشله الأول تحت أسوار وبذة ، ثم سجل فشله الثاني أمام أسوار شنترين ، وبالرغم من أن الحملتين لم تكونا بعيدتين عن تحقيق الأغراض العسكرية والإقليمية ، فإن مقصد الجهاد كان هو النزعة المسيرة لهما ، وقد ذهب الخليفة ضحية هذه النزعة واستشهد في ميدان الجهاد .

وكان أبو يعقوب إلى جانب ذلك ملكاً عظيماً « شديد الملوكة » على حد قول المؤرخ ، بعيد الهمة ، وافر البذل والحدود ، عمت صلاته وأعطيته سائر الطوائف . ويصفه ابن الخطيب بأنه كان « آية الموحدين في الإعطاء والمواساة ، وفي أيامه ساد الرخاء واستغنى الناس ، وكثرت في أيديهم الأموال »^(٢) .

على أن ألع وأعظم خلة كان يتسم بها أبو يعقوب ، هو علمه وأدبه ، وقد أفاضت الروايات المعاصرة واللاحقة في التنويه بمواهبه العلمية والأدبية ، ويجمل ابن صاحب الصلاة وهو المؤرخ المعاصر ، العارف بشخص أبي يعقوب وخطاله ، مواهبه العلمية ، في تلك الفقرة : « كان الأمير أبو يعقوب يوسف رضى الله عنه كاملاً فاضلاً عدلاً ورعاً جَزْلاً مستظهِراً للقرآن ، حافظاً له ، عالماً بالحديث ،

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٠ .

(٢) المعجب ص ١٣٣ ، وابن الخطيب في الإحاطة مخطوط الإسكوريال لوحة ٣٩٥ .

متقناً للعلوم الشرعية والأصولية ، متقدماً في علم الإمام المهدي رضي الله عنه^(١) .
على أن ما يحمله ابن صاحب الصلاة في تلك الكلمات القليلة ، يفصله لنا
المراكشي بإفاضة في حديثه عن أبي يعقوب . وقد عاش المراكشي قريباً من
عصر أبي يعقوب ، وكانت تربطه بعدة من أبنائه مثل أبي زكريا يحيى ، وأبي عبد الله
محمد ، وأبي إبراهيم إسحق ، روابط وثيقة .

يقول المراكشي إن أبا يعقوب كان « أعرف الناس كيف تكلمت العرب ،
وأحفظهم بأيامها ومآثرها وجميع أخبارها ، في الجاهلية والإسلام » . ثم يقول :
« إنه كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن ، وأسعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل
النحو ، وأحفظهم للغة العربية »^(٢) .

ويجب لكي نقدر روعة هذه الصفات في أبي يعقوب ، أن نذكر أولاً أنه
كان بأرومته من صميم أصول البربر ، وذلك سواء من ناحية أبيه أو ناحية أمه ،
وقد ولد ونشأ بتينملل عاصمة المهدي ، في بيئة بربرية محضة ، ولكن يجب
أن نذكر إلى جانب ذلك أن أبا يعقوب كانت تحمله نفس الروح العلمية التي
امتاز بها أبوه الخليفة العالم عبد المؤمن بن علي ، ثم يجب أن نذكر أيضاً أن أبا يعقوب
قضى زهرة فتوته في إشبيلية مذ عينه أبوه والياً لها في سنة ٥٥١ هـ ، وهو في نحو
الثامنة عشرة من عمره ، حتى وفاة أبيه في سنة ٥٥٨ هـ ، حينما استدعى لتولي الخلافة
من بعده . ففي هذه الأعوام الثمانية التي قضاها أبو يعقوب في المدينة الأندلسية
العظيمة ، التي كانت قد غدت منذ اضمحلال قرطبة عاصمة الأندلس الفكرية ،
تفتحت مواهب أبي يعقوب العلمية والأدبية ، وقد كانت لإشبيلية يومئذ مجمع
أقطاب اللغة والعلوم الدينية ، وكان أبو يعقوب منذ حدثه حافظاً للقرآن متمكناً
من الحديث ، حتى قيل إنه كان يحفظ صحيح البخاري . وكان في نفس الوقت
بارعاً في الفقه ؛ وفي إشبيلية تلقى علوم اللغة عن بعض أقطابها ، وفي مقدمتهم
العلامة اللغوي أبو إسحق إبراهيم بن عبد الملك المعروف بابن ملكون ، وبرع في
النحو والأدب . ولما ولي الخلافة ، وعاد إلى إشبيلية في جوازه الأول إلى الأندلس ،
واستطالت إقامته بها زهاء خمسة أعوام أخرى ، تجأت في هذه الفترة روعة مواهبه
العلمية ، وجنح إلى دراسة الفلسفة والطب ، واجتمع حوله يومئذ ثلاثة من أعظم

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ٤٦ ب .

(٢) راجع المعجب ص ١٣٢ و ١٣٣ .

أئمة التفكير الإسلامى ، هم طيبه الخاص ، الفيلسوف العلامة أبو بكر بن طفيل
الوادى آشى ، وتلميذه القاضى الفيلسوف أبو الوليد بن رشد^(١) ، والطبيب العبرى
أبو بكر بن عبد الملك بن زهر . وكان الخليفة يشغف بالأخص بملازمة صديقه
وطيبه ابن طفيل ، ولا يصبر على فراقه . وهكذا أتيح لأبى يعقوب أن يطلق
العنان لشغفه بالدراسات الفلسفية فى ظل هذا الأفق العلمى الباهر ؛ ويبدو مما
يذكره لنا المراكشى ، عن بعض مجالس الخليفة الفلسفية نقلا عما رواه له أبو بكر
ابن يحيى القرطبي عن أستاذه ابن رشد ، أن الخليفة كان يأخذ من الفلسفة بقسط
ملحوظ ، ويبدى فى شرح مسائلها « غزارة حفظ » تدعو إلى الإعجاب . ويضيف
القرطبي إلى ذلك رواية أخرى مفادها أن أبا يعقوب هو الذى أوعز إلى ابن طفيل
بوجوب عمل تلخيص جديد لشروح أرسطو وتقريب أغراضها وتحرير تراجمها
مما يشوبها من الغموض ، وأن ابن طفيل هو الذى اختار تلميذه ابن رشد للقيام
بهذه المهمة لما يعلمه من مقدرته وقوة نزوعه وصفاء قريحته ، وأن هذا هو
الذى حمل ابن رشد حسبا يقول لنا ، على القيام بتلخيص شروح أرسطو ، وهى
الشروح التى اشتهر بها ابن رشد ، وترجمت فيما بعد إلى اللاتينية ، وأذاعت شهرة
الفيلسوف المسلم فى دوائر التفكير الغربى . وكان ابن طفيل يقوم بمهمة السفارة
بين الخليفة وبين العلماء ، ويدعوهم إليه من مختلف القواعد والأقطار ، وينبه على
أقذارهم لديه ، ويحضه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذى نوه بفضل
ابن رشد وبراعته^(٢) .

وحمل الخليفة أبو يعقوب شغفه بالدراسات الفلسفية على الاهتمام بجميع كتبها ،
والتنقيب عنها ، وعن غيرها من الكتب الحليلة ، فى سائر أنحاء المغرب والأندلس ،
وبذل فى ذلك جهوداً وأموالاحمة ، واجتمع له منها مقادير ضخمة قيل إنها بلغت
قرب ما كانت تبلغه المكتبة الأموية العظيمة أيام الحكم المستنصر . ويروى لنا
المراكشى طرفاً من هذه الجهود ، وكيف وقع عمال الخليفة على مجموعات عظيمة
من كتب الطب والفلك كانت لدى رجل بإشبيلية يعرف بأبى الحجاج المرانى ،
وأن هذه الكتب كانت قد وقعت إلى أبيه أيام الفتنة بالأندلس^(٣) .

(١) كان ابن رشد قاضيا لإشبيلية منذ سنة ٥٦٥ هـ .

(٢) راجع المراكشى فى المعجب ص ١٣٦ .

(٣) المعجب ص ١٣٣ و ١٣٤ .

وقد انتهى إلينا من آثار الخليفة أبي يعقوب العلمية، بحث ديني يكشف لنا عن براعته في علم الحديث والعلوم الشرعية، وهو كتاب «الجهاد» الذي ألحق بكتاب المهدي ابن تومرت أو كتاب «أعز ما يطلب» وفيه يورد مؤلفه طائفة كبيرة من الأحاديث التي وردت في فضل الجهاد في سبيل الله، والحث عليه، وتبيان محاسنه. ويلحق بذلك الكلام عن الجهاد ببذل المال وما ورد فيه أيضاً من الأحاديث وما يتسم به من الفضائل. ويحمل هذا الكتاب في خاتمه اسم مؤلفه، وهو الخليفة أمير المؤمنين، وتاريخ الانتهاء من وضعه، وهو العشر الأخير من شعبان سنة تسع وسبعين وخمسمائة أعنى قبيل وفاة واضعه بنحو تسعة أشهر^(١).

وكان الخليفة أبو يعقوب كلفاً بالمشاريع الإنشائية العظيمة، وقد قام بإنشاء طائفة من المنشآت العمرانية الهامة، والصروح الحليّة، التي خلّدت اسمه، وجعلته في مقدمة خلفاء الموحدين، بل وفي مقدمة ملوك المغرب قاطبة في هذا الميدان. ويكفي أن نذكر هنا ما قام به في إشبيلية حاضرة الأندلس، من المشاريع والمنشآت العظيمة مثل قنطرة طريانة، ومسجد إشبيلية الجامع، وصومعته العظيمة التي أتمها ولده يعقوب المنصور، ومشروع إمداد إشبيلية بالماء، وتجديد أسوارها التي خربها السيل، وإنشاء القصور والبساتين الموحدية العظيمة خارج إشبيلية، وإنشاء قصبة بطليوس العظيمة وإمدادها بالماء، وهي التي ما زالت أطلالها القائمة تنبئ عما كانت عليه من الضخامة والمنعة. وما قام به أخيراً من توسيع حضرة مراكش وتجميلها، وذلك كله حسبما سبق أن فصلناه في مواضعه.

* * *

وتولى الحجابة لأبي يعقوب أول ولادته، شقيقه وكبيره السيد أبو حفص، ولما تنحى عنها وزرله أبو العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع، واستمر في منصبه نحو خمسة عشر عاماً. ولما اشتد طغيانه، وبدت مثالبه، نكبه أبو يعقوب واستصنى أمواله، ونفاه مع ولده إلى الأندلس سنة ٥٧٣ هـ. فخلفه في الوزارة أبو بكر ابن يوسف الكومي، ليعمل تحت رياسته ولده وولي عهده أبي يوسف يعقوب، واستمر الأمر كذلك حتى وفاة أبي يعقوب وقيام ولده يعقوب بالأمر من بعده^(٢).

(١) راجع فصل الجهاد في كتاب المهدي ابن تومرت ص ٣٧٧ - ٤٠٠.

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٤٠، وابن الخطيب في الإحاطة في ترجمة الخليفة أبي يعقوب، مخطوط الإسكوريال لوحة ٣٩٥.

وتولى القضاء في عهده أبو محمد المالحى ، ثم عزل وولى بعده عيسى بن عمران التازى التسولى ، وكان عالماً متمكناً ، وأديباً نابهاً ، وشاعراً مجيداً ، وخطيباً بليغاً ، وكان يخطب عن الوفود وفي المناسبات الهامة ، وكانت له مكانة رفيعة في البلاط الموحدى . ثم ولى القضاء من بعده حجاج بن يوسف . ثم أبو جعفر أحمد بن مضاء من أهل قرطبة . واستمر في منصبه حتى وفاة أبي يعقوب ، ومن بعده فترة أخرى في أوائل عهد ولده يعقوب المنصور .

وتولى الكتابة لأبى يعقوب أبو الحسن بن عياش القرطبي كاتب أبيه من قبل . وكان هذا الكاتب الأندلسى ، قد فر من بلده قرطبة عند قيام الثورة بها في أواخر العهد المرابطى ، ولجأ إلى إشبيلية ، واتصل بالسيد أبى حفص بن عبد المؤمن فاختره لكتابه ، ثم صحبه معه إلى تلمسان ، ولم يزل متولياً كتابته حتى نكبة الخليفة عبد المؤمن لوزيره ابن عطية ، فاستدعاه الخليفة وعينه لكتابه . ولبت ابن عياش كاتباً للخليفة أبى يعقوب حتى توفى في سنة ٥٦٨ هـ . وكتب لأبى يعقوب أيضاً أبو القاسم القالى ، وتلميذه أبو الفضل طاهر بن محشرة وهو من أهل بجاية ، وأبو الحسين الهوزنى الإشبيلى ، وأبو عبد الرحمن الطوسى . وفي مجموعة الرسائل الموحدية ، رسائل عديدة بقلم ابن عياش وزميله ابن محشرة تدل بما كان لهما من الكاتبتين من مقدرة راسخة في أساليب البيان^(١).

وترك أبو يعقوب من البنين ثمانية عشر ، وهم ولى عهده يعقوب المنصور وشقيقه إسحق ، ويحيى ، وإبراهيم ، وعبد العزيز ، وإدريس ، وأبو بكر ، وعبد الله ، وأحمد ، ويحيى الصغير ، ومحمد ، وعمر ، وعبد الواحد ، وعبد الحق ، وطلحة وعبد الرحمن ، وموسى ، وعثمان . كما ترك عدة من البنات .

وأما عن شخصه ، فقد كان أبو يعقوب أبيض اللون مشرباً بالحمرة ، فاحم الشعر ، مستدير الوجه ، أعين ، إلى الطول أقرب ، وكان جهير الصوت ، طيب المجالسة ، فصيح العبارة ، حلو الألفاظ ، رقيق الخلال^(٢) .

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٤٠ ، والمراكشى فى المعجب ص ١٣٧ ، وابن الخطيب فى الإحاطة مخطوط الإسكوريال السابق ذكره لوحة ٣٩٥ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٣٢ . وقد عاش المراكشى قريباً من عصر الخليفة أبى يعقوب وكانت له صلة وثيقة ببعض أبنائه .

الكتاب الرابع

عصر الخليفة يعقوب المنصور
حتى موقعة العقاب

الفصل الأول

عصر الخليفة يعقوب المنصور

وبداية ثورة بنى غانية

الخليفة أبو يوسف يعقوب . رواية في معارضة بيعته . اهتمامه بمطاردة الفساد والمنكر . حظره لبس الثياب الحريرية . عنايته بتحقيق العدل وقمع الظلم . جلوسه للنظر في المظالم . إنشاءه لصاحبة الصالحة المملوكية . مضاعفته لوزن الدينار . بداية عدوان بنى غانية بإفريقية ، فتح المرابطين للجزائر الشرقية . ولاية وانور اللمتوني عليها . ولاية محمد بن غانية . استقلاله بعد سقوط المرابطين بحكم الجزائر . وفاته وولاية ولده إسماعق . الجزائر تنمو مشوى لبقايا المرابطين . تقدم الجزائر ونمو قوتها . غزوات سفنها لشواطئ الدول النصرانية . عقد التهادن بينها وبين بيزة وجنوة والبندية . اطمئنانها أيام حكم ابن مردنيش . تحولها إلى مصانعة الموحدية بعد وفاته . اهتمام الموحدية بأمر الجزائر . مطالبهم لإسماعق الاعتراف بالطاعة . وفاة إسماعق وولاية ولده محمد . مقدم على البربر سفير الخليفة إلى الجزائر . اعتراف محمد بطاعة الخليفة . خروج إخوته عليه واعتقالهم إياه . حجزهم لسفير الخليفة ورفضهم لطاعة الموحدية . خطبهم لمحاربة الموحدية في إفريقية . تدميرهم لغزو بجاية . مسير على بن إسماعق إليها في حملة بحرية . اقتحامه إياها بمواطأة بعض أهلها . نزوله بها ودعوته لبنى العباس . تعيينه لأخيه يحيى والياً لها . مطاردته لوالها الموحدى السيد أبي الربيع . هزيمة السيد وفراره . استيلاء على الجزائر ومليانة وأشير والقلمة . وصف لمدينة مليانة . عوده إلى بجاية وانتهاه ما فيها . مسيره إلى قسنطينة ورده عنها . اهتمام الخليفة المنصور بتلك الحوادث . إرساله جيشاً إلى إفريقية بقيادة السيد أبي زيد . تسميره للأسطول في نفس الوقت . ثورة المدن المحتلة ضد الغزاة . استيلاء الأسطول الموحدى على مدينة الجزائر . القبض على يحيى بن غانية وعلى حاكم مليانة المرابطى . الثورة داخل بجاية . دخول الموحدية إياها . فرار يحيى بن غانية وإخوته . أسر رشيد قائد سفن الميارقة والاستيلاء عليها . فشل على بن إسماعق في اقتحام قسنطينة . فراره وإخوته وقلوله إلى الصحراء . مطاردته وعجز الموحدية عن إدراكه . فراره إلى بلاد الجريد ونهب محلاتها . استمالته لطوائف العرب . اقتحامه لمدينة توزر ونهبها . الفوضى في بجاية . اقتحام غزى الصنهاجى قائد ابن غانية لأشير . قدوم الموحدية لإنقاذها ونجاحهم في استردادها . مصرع غزى وأخيه . مقتل رشيد الرومى . مقتل وتشريد أنصار بنى غانية في بجاية . زحف على بن غانية على قفصة واستيلائه عليها . دعوته للخليفة العباسى . استمالته لطوائف العرب . تحالفه مع قراقوش الأرمنى . كيف نزع قراقوش وصحبه الترك إلى المغرب . افتتاحه لفزان وطرابلس . التفاف العرب حوله . تطور الحوادث في الجزائر الشرقية . مؤامرة البربرتي لخلع طلحة بن إسماعق وإعادة أخيه محمد . نجاح المؤامرة . دعوة البربرتي للخليفة الموحدى . مغادرته لميورقة . محاولة الموحدية تملك الجزائر . فشل هذه المحاولة . ثورة أهل ميورقة على محمد . مقدم عبد الله بن غانية . انتزاعه الولاية ونفيه لمحمد . محاولة أخرى للموحدية لافتتاح الجزائر . فشلهم في أخذ ميورقة . تفاقم أمر على بن غانية بإفريقية . تحالفه مع قراقوش وطوائف العرب . انضواؤه تحت لواء الخلافة العباسية . يبسط حكم الإرهاب

على إفريقية . اهتمام الخليفة يعقوب بذلك . تجهيزه لجيش موحدى . مسيره فى قواته إلى زباط الفتح ثم إلى فاس . عنايته بالشئون خلال مسيره . مسيره إلى قسنطينة ثم إلى تونس . استعداد ابن غانية وحلفائه . الخليفة يرسل حملة لقتاله بقيادة السيد أبى يوسف . اللقاء بين الموحدين والمبارقة وحلفائهم قرب قفصة . موقعة عمرة . هزيمة الموحدين ومصرع أكثرهم . الاستيلاء على محلتهم . فرار السيد أبى يوسف وفلوله . اهتمام الخليفة لتلك النكبة . خروجه فى قواته من تونس . مسيره صوب القيروان . إنذاره لابن غانية . مسيره إلى الحمة قرب قابس . مقدم ابن غانية وحلفائه . مهاجمة الموحدين للعرب حلفاء ابن غانية . تحاذيهم وتبدهم . مهاجمة الموحدين للمبارقة والترك . المعركة الدموية . هزيمة المبارقة . فرار ابن غانية وقراقوش إلى الصحراء . استيلاء المنصور على قابس وبلاد الجريد . محاصرته لقفصة وتسليمها بالأمان . القبض على قادة الفرز وإعدامهم . توحيد قراقوش وابن زيان . عودة المنصور إلى تونس . مسيره إلى تلمسان ثم إلى مكناسة . تأمر أخيه الرشيد وعمه سليمان ضده . نكوصهما ومسيرهما لمقابلة الخليفة . القبض عليهما وإعدامهما . دخول الخليفة إلى الحضرة . اهتمامه بشئون الأندلس واستعداده للجهاد .

استعرضنا فيما تقدم مجمل الحوادث التى وقعت عقب نكبة شترين ومصرع الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وما تم من مراحل بيعه الخليفة أبى يوسف يعقوب ولد الخليفة الراحل ، وعبوره من الأندلس إلى العدو عائدًا إلى حضرة مراکش .

وكان الخليفة الحديدي فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بمدينة قصر عبد الكريم أو القصر الكبير أواخر شهر ذى الحجة سنة ٥٥٤ هـ (يناير سنة ١٦٦٠) أو فى سنة ٥٥٥ هـ على قول آخر . وأمه أم ولد كان قد أهداها سندرأى بن وزير صاحب شلب لأبيه الخليفة أبى يعقوب^(١) . لقبه المنصور بفضل الله ، أسبغته عليه انتصاراته المتوالية ولاسيما فى معركة الأرك العظيمة .

وقد رأينا كيف تمت بيعته الخاصة عقب وفاة أبيه ، بمحلة الجيش المنسحب ، وهوى طريقه إلى إشبيلية ، ثم تأيدت بعد ذلك بيعته العامة بإشبيلية ، ولم تلق هذه البيعة يومئذ معارضة من أحد . ولكن صاحب المعجب ، يقول لنا إنه كان له من إخوته وعمومته منافسون لا يرونه أهلا للإمارة لما كانوا يعرفون من سوء سيرته فى صباه ، وأنه لقي منهم شدة . بيد أنه لما نزل خلال عودته بسلا ، استجاب لبيعتهم من كان قد تخلف من أعمامه بنى عبد المؤمن ، بعد ما أغدق عليهم الأموال والإقطاعات الواسعة^(٢) .

(١) البيهقى فى أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٦ ، والبيان المغرب القمم الثالث ص ١٤ ، وروض القرطاس ص ١٤٣ ، وتاريخ الدولتين للزركشى ص ١٠ .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٥٠ .

وبدأ الخليفة يعقوب عهده بعمل خير مشكور ، فأخرج من بيت المال مائة ألف دينار من الذهب ، فرقت في أسر الفقراء والضعفاء في سائر أنحاء المغرب ، وأمر بتسريح المسجونين^(١) . ثم نشط إلى مطاردة مظاهر الفساد التي بدت بالحاضرة الموحدية على أثر عودته ، وكان الناس قد انغمسوا ، في الدعة ، وانهمكوا في ضروب اللهو والملاذ ، وراجت سوق الخمر والقيان والغانيات ، فأريقتم الخمر في كل مكان ، ونفذت الأوامر بذلك إلى سائر الجهات ، وأنذر المخالفون بعقاب الموت ، وطاردت الشرطة كل مستهتر ، وألقت القبض على من وجد من المغنين ، فنفرقوا في كل مكان ، ولادوا بالنكيرة والاختفاء ، واختفى القيان ، وزهد الناس في مجالسهن ، وبعث الخليفة بهذه المناسبة إلى إشبيلية ، حاضرة الأندلس الموحدية ، برسالة إلى الطلبة والموحدين والأشياخ مؤرخة في في عقب رمضان سنة ٥٨٠ هـ يأمر فيها بمطاردة شراب الرب ، وهو مسكر ذائع ، وقطعه جملة ، ومنع بيعه وإغلاق حوانيته ، وإراقة ما يوجد منه ، وتوقيع أشد العقاب على من يقتنيه ، وبأن تنفذ هذه الرسالة إلى كافة الجهات للعمل بما فيها^(٢) . وأمر الخليفة كذلك بمنع الثياب الحريرية الغالية ، والاجتزاء منها بالرسم الرقيق ، ومنع النساء من لبس الثياب الحفيلة ، والاقتصار على الساذج القليل ، وأخرج ما كان في المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب ، فبيعت منه مقادير وفيرة بأثمان باهظة . وهكذا هبت على العاصمة الموحدية ريح من الاقتصار والتواضع والتقشف ، واختفى كثير من ضروب الفساد التي كانت ذائعة بها^(٣) .

وعنى الخليفة في نفس الوقت بالعمل على بسط العدل وتأييده ورد المظالم التي وقعت أيام أبيه ، ومطاردة الظلم والعمال الظلمة ، فنفذت كتبه إلى سائر الولاة والعمال بمراعاة العدل ، وتأسيس الرعية ، والعمل على إرضائهم في اقتضاء حقوقهم ، وكف الظلمة عن إرهابهم ، وإباحة جواز البحر إلى المشتكين ، والمتظالمين من شبه الجزيرة . فاستبشر الناس بالعهد الجديد وطواله ، وأملوا تحقيق العدل والخير .

(١) روض القرطاس ص ١٤٣ .

(٢) الرسالة الثامنة والعشرون من رسائل الموحدية (ص ١٦٤ - ١٦٧) .

(٣) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ .

ورأى الخليفة أن يقرن هذا التوجيه إلى تحقيق العدالة ، بأن يجلس للنظر بنفسه في المظالم وإجراء العدل ، واتخذ مجلسه لذلك الغرض بالمسجد الجامع المجاور لقصر الحجر القديم ، وكان بدأ جلوسه في غرة شهر رجب سنة ٥٨٠ هـ ، وكان يداوم جلوسه منذ الضحى إلى قرب الزوال . ويفد إليه المتظلمون من كل ضرب ، فيؤنسهم برفقه وليته ، ويستمع إلى ظلاماتهم ، وكثرت دعاوى المدعين من السوق والتجار ، قبل السادة والأشياخ والأكابر ، بطلب الحقوق والأموال ، وكثر في ذلك الزور والتدليس ، فكان يقع الصلح في معظم الأحوال بما يرضى المدعين دفعاً للفضيحة ، فلما تهادى هذا الأمر ، وكثر وفود السفلة والغوغاء وانكشف أمرهم ، وبدا تحاملهم ، قطع الخليفة جلوسه للعامة ، وأسدل الستار على هذا السيل من الإفك والبهتان^(١) .

وفي العام التالى ، اعترم الخليفة أن ينشئ له ضاحية ملوكية تتفق مع روعة الملك ومقتضياته ، وذلك بعد أن ضاق قصر الحجر القديم — قصر على بن يوسف — وملحقاته ، عن استيعاب الأغراض الخليفية ، ومطالب البلاط والحاشية ، فاخطت ضاحية الصالحة ، على رقعة مستطيلة تمتد في جنوبي مراكش ، ما بين باب أغمات شرقاً وباب الشريعة غرباً . وكان البدء في إنشائها في مستهل شهر رجب سنة ٥٨١ هـ (٢٨ سبتمبر سنة ١١٨٥ م) وحشد لبنائها رهط من المهندسين والعرفاء ، وآلاف من العمال والبنائين والفنانين ، من المغرب وإفريقية والأندلس ، وجمعت لها سائر الآلات اللازمة ، ورتب لها الحفاظ والنظار . وأمر الخليفة أن يراعى في إقامتها منتهى الإتيان والمئانة ، وأنشئت بها عدة قصور ملوكية ، ومسجد جامع ، ما زال يقوم بها حتى اليوم ، ويحمل اسم منشئه الخليفة يعقوب المنصور ، واستمر العمل في بنائها نحو أربعة أعوام ، حيث كملت في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٤ هـ (مايو سنة ١١٨٨ م) ، وبدت في أجمل هيئة ، وأضحت عروس الحاضرة المراكشية ، بما أسبغ عليها من ضروب التنسيق والإتيان ، والفخامة^(٢) .

وفي نفس هذا العام الآخر بمشاريع الإصلاح والإنشاء أعفى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) اتخذ الخليفة خطوة جديدة لها خطرها ، في ميدان الإصلاح المالى ، وذلك هو

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٤ و ١٤٥ .

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٥ و ١٤٦ .

إقدامه على مضاعفة وزن الدينار الموحدى . وكان الدينار الموحدى القديم صغير الحجم ، صغير الوزن ، لا يعدو وزنه القانونى بحسب الوزن الحديث جرامين وخمسة وثلاثون فى المائة من الجرام ، فأمر المنصور بمضاعفة وزنه ، وأخرجت دار السكة الموحدية بمدينة فاس ، الدينار الحديد بوزن أربعة جرامات وسبعين فى المائة من الجرام ، فكان لذلك الإجراء أثر بالغ فى بث الطمأنينة المالية ، واستقرار التعامل بين الناس^(١) .

يبد أنه حدثت فى نفس تلك الفترة التى خيم فيها ظل الأمن والاستبشار على العاصمة الموحدية ، والتى عنى فيها الخليفة الجديد ، بأعمال الإصلاح والإنشاء — حدثت بإفريقية حوادث فى منتهى الخطورة ، إذ هاجم بنو غانية أصحاب الجزائر الشرقية ، أو أصحاب ميورقة ، ثغر بجاية واستولوا عليه ، واستولوا على عدة أخرى من ثغور الشاطئ ، وكان ذلك بداية ذلك الصراع المرير الذى نشب فى أراضي إفريقية بين الموحدين وبنى غانية ، واستطال أكثر من نصف قرن ، وكان له أبلغ الأثر فى انحلال الدولة الموحدية واستغراق جهودها ، وتبديد قواها ومواردها .

ولابد لنا لكى نفهم طبيعة ذلك الصراع وتطوراته ، والبواعث التى أدت إليه ، أن نعود فترة طويلة إلى الوراء ، نستعرض فيها تاريخ الجزائر الشرقية ، ما أسندت ولايتها إلى بنى غانية أيام العهد المرابطى .

— ١ —

ذكرنا فيما تقدم من أخبار الدولة المرابطية أن أمير المسلمين على بن يوسف ، حينما غزا الجنويون والبيزيون وحليفهم أمير برشلونة ، الجزائر الشرقية (جزائر البليار) فى أواخر سنة ٥٠٨ هـ (أوائل سنة ١١١٥ م) واستولوا على مدينة ميورقة بعد حصار طويل ، بادر بتجهيز أسطول مرابطى ضخم لاسترداد الجزائر ، واستردها المرابطون بالفعل فى أواخر سنة ٥٠٩ هـ (١١١٦ م) وعين أمير المسلمين لولايتها وانور بن أبى بكر الممتونى ، فلبث فى حكمها زهاء عشرة أعوام ، ولكنه أساء السيرة واستبد وبغى ، حتى اضطرت الثورة فى الجزائر ، وقبض الثوار على وانور ، وبعثوا إلى أمير المسلمين ، يشرحون ظلاماتهم ، ويلتمسون إليه أن

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٥٤ ، وراجع كتاب « الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة » المنشور بعناية الدكتور حسين مؤنس (معهد الدراسات الإسلامية بمطبعة ١٩٦٠) ص ٥١ .

يعين لهم والياً آخر ، فاستجاب أمير المسلمين إلى رغبتهم ، وعين والياً جديداً للجزائر ، ولم يكن هذا والياً الجديد ، سوى محمد بن غانية المستوفى ، وهو أخو الأمير القائد أبي زكريا يحيى بن غانية ، وكان يتولى النظر على بعض أعمال قرطبة . فقدم إلى الجزائر في سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) وتولى شئونها بحزم وكفاية ، وشاء القدر أن تكون ولايته للجزائر ، فاتحة عهد جديد في تاريخها ، يتصل مدى أمد قصير بتاريخ الدولة المرابطية ، ثم يغدو بعد ذلك مستقلاً في ظل بني غانية .

وقد سبق لنا التعريف ببني غانية ، وتتبع سيرة زعيمهم القائد البطل يحيى ابن غانية ، حتى وفاته بغرناطة سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) ، خلال غمار الثورة التي اضطرت بأرجاء الأندلس ضد المرابطين . أما أخوه محمد بن غانية ، فقد لبث على ولايته للجزائر ، حتى سقطت الدولة المرابطية ، ودخل الموحدون مراكش ، في شوال سنة ٥٤١ هـ (مارس ١١٤٧) . وكان محمد ، مذكراً لآبائهم ، والاستقلال المرابطية ، وقيام أمر الموحدين ، يعمل على توطيد سلطانه بالجزائر ، والاستقلال بشئونها . ولما قضى الأمر وانتهت الدولة المرابطية ، لبث محمد مع ذلك على ولايته لقضية المرابطين وملتونة ، واستمر يدعو في الخطبة لأمير المسلمين وبني العباس ، وجعل من ميورقة والجزائر ، ملجأ ومثوى للوافدين والفارين من فلول لملتونة والمرابطين ، يستقرون بها تحت حمايته ورعايته .

واستطاع حكم محمد بن غانية للجزائر زهاء ثلاثين عاماً ، وكان يرقب من مقره النائي بالبحر ، سير الحوادث ، وتقدم أمر الموحدين بشبه الجزيرة . بيد أنه كان يرى في قيام ابن مردنيش ضد الموحدين ، وتمكن سلطانه في شرقي الأندلس ، عاملاً يدعو إلى الطمأنينة . وكان مذ شعراً بتوطد أمره ، في تلك الجزائر المنعزلة ، يعتزم أن يجعل منها ملكاً موثقاً له ولعقبه . وكان له من الولد أربعة هم عبد الله وإسحق والزبير وطلحة ، فاختر لولاية عهده أكبر أولاده عبد الله . وهنا تختلف الرواية فيقال إن إسحاق حقد على أخيه ودبر مؤامرة قتل فيها أبوه وأخوه . وفي رواية أخرى أن عبد الله خلف أباه في حكم الجزائر حينما توفي سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) ، وأن أخاه إسحاق خلفه في الحكم بعد وفاته (١) .

وعلى أي حال فقد تولى إسحاق بن محمد بن غانية حكم الجزائر الشرقية ،

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ ، والمعجب للمراكشي ص ١٥٢ ، وراجع أيضاً :

A. Bel : Les Benou Ghania (Paris 1903) p. 19.

وضبطها بحزم وقوة . واستمر على سياسة أبيه من جعلها ملجأ للوافدين من قلوب لمتونة ، ورمزاً لثورة المرابطين الأخيرة ضد الموحدين . وكان أولئك المرابطون الوافدون على الجزائر يملكونها بعونهم ، وروح البغض المتأصلة فيهم ضد الموحدين ، بقوى ذات شأن . وفي عهد إسحاق نمت موارد الجزائر وقوتها نمواً كبيراً ، وأضحت أساطيلها القوية عاملاً بحسب حسابيه في ميزان القوى البحرية في هذا الجانب من البحر المتوسط . ويبدو من خطاب أرسله الفارس برنجيردى ترأجونا ، وهو من أشرف برشلونة ، وكان قد لجأ إلى ميورقة ، فراراً من اضطهاد أميره ، إلى ألفونسو الثاني ملك أراجون في سنة ١١٧١ (٥٦٧ هـ) ما كانت عليه ميورقة الإسلامية في ذلك العهد من القوة والازدهار ووفرة الموارد . وكانت حملات إسحاق البحرية تتردد بالغزو بانتظام لشواطئ الممالك النصرانية القريبة ، وتشحن فيها ، وتحجز مقادير عظيمة من الغنائم والسبي ، ويقول لنا المراكشي إنه كان يغزو هذه الشواطئ في العام مرتين^(١) . وفي الروايات النصرانية ، أن مسلمي ميورقة في عهد إسحاق غزوا ثغر طولون في جنوبي فرنسا ، واستولوا عليه في سنة ١١٧٨ م (٥٧٤ هـ) وأسروا الفيكونت هوجو جودفريد صاحب مرسيليا ، وعدة آخرين من أكابر النصارى ، وكان من أثر اشتداد قوة ميورقة البحرية ، وتوالي غزواتها لشواطئ الدول النصرانية القريبة ، أن سغت جمهوريات جنوة وبيزة والبندقية إلى عقد المهادنة والصلح مع إسحاق ، فعقدت بين الفريقين في سنة ١١٧٧ (٥٧٣ هـ) معاهدة صلح وصداقة تعهد فيها كل منهما ألا يحدث أضراراً للآخر في البر ولا في البحر ، واستمرت هذه المعاهدة سارية حتى توفي إسحاق في أوائل سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م)^(٢) .

ونحن نعرف أن ثورة ابن مردنيش ضد الموحدين ، استطالت زهاء ربع قرن حتى وفاته في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، وفي خلال ذلك كان ابن مردنيش يسيطر على شرقي الأندلس كله ، وعلى أجزاء من الأندلس الوسطى . وكانت مملكة ميورقة خلال هذه الفترة ، تشعر بما تسبغها عليها سيطرة ابن مردنيش لشرقي الأندلس من طمأنينة وسلامة . بيد أن سلطان ابن مردنيش مالمبث أن أخذ في التصدع ،

(١) المراكشي في المعجب ص ١٥٢ . وكذلك A. Bel : Les Benou Ghania, p. 24 & 25

(٢) راجع : A. Campaner y Fuertes: Bosquejo Histórico de la Dominación Islámica en las Islas Baleares (Cít. España Sagrada) p. 144 - 145.

ولاسيما منذ انقلب عليه صهره وحليفه القوي إبراهيم بن همشك وانحاز إلى الموحدين. ثم انتهى أمر ابن مردنيش وانهارت مملكة الشرق بوفاته (٥٦٧ هـ) ودخل الموحدون مرسية ، وبسطوا سلطانهم على شرق الأندلس ، وأضحوا على مقربة من الجزائر. وهنا رأى إسحاق ابن غانية ، أن يتحول إلى مصانعة الموحدين ومهادنتهم ، فأخذ يرأسلهم ، ويبعث إليهم بنفيس الهدايا من خاصة غنائمه وسبيته ، وكان الموحدون في البداية ، يستصغرون شأن الجزائر ، ولا يحفلون بأمرها ، فلما سيطروا على شواطئ الأندلس وثغورها الشرقية ، ولما رأوا تقرب إسحاق منهم ، أخذوا يهتمون بشأنها ، ويدركون أهمية موقعها البحري ، فتوالت كتبهم على إسحاق بطلب الدخول في طاعتهم ، وبعث الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى إسحاق كتابه بذلك في سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٢ م) وطلب إليه بصفة رسمية أن يعترف بطاعته وأن يدعو له في الخطبة . فعرض إسحاق هذا الأمر على أكابر أصحابه ، فاختلف رأيهم بين الاستجابة والرفض ، فرأى أن يرجئ رده على الخليفة . وخرج في أسطوله غازياً إلى بعض السواحل النصرانية القريبة ، فقتل في بعض المعارك ، وقيل أنه طعن في حلقه ، وحمل حياً إلى ميورقة ، وهناك مات في قصره . وكانت وفاته سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) ^(١) .

ولما توفي إسحاق بن محمد بن غانية ، خلفه في حكم الجزائر أكبر أولاده العديدين محمد ^(٢) . وكان قد اختاره في حياته لولاية عهده . وكان محمد يواجه في بداية حكمه تلك المشكلة الدقيقة ، التي أثارها الخليفة الموحدى بدعوته إلى خضوع الجزائر لسلطانه . وازدادت هذه المشكلة دقة بماعمد إليه الخليفة أبو يعقوب من إرسال سفيره إلى ميورقة في بعض السفن الموحدية ، التي سارت به من سبتة ، ليعرض الطاعة بنفسه على أميرها ، وليختبر مدى استعداد بني غانية للاستجابة إلى الدخول في الدعوة الموحدية . وكان سفير الخليفة إلى محمد بن غانية ، رجلاً من طراز خاص ، هو أبو الحسن علي البربرتي ، وهو ولد الفارس النصراني البربرتي El Reverter أو روبرتو القطلوني ، قائد جند الروم أو النصراني المرتزقة في الجيش المرابطي أيام علي بن يوسف ، وقد أبلى البربرتي وجنده الروم

(١) المعجب ص ١٥٢ ، وكذلك A. Bel : ibid ; p. 24 & 25 .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ . ويقول المراكشي إن الذي خلف إسحاق هو أكبر أولاده

علي (ص ١٥٢) .

حسباً فصلنا من قبل ، خير البلاء في محاربة الموحدين ، وانتصر عليهم مراراً ثم توفي قتيلاً في إحدى المعارك ، وذلك في سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) وترك ولدين ، كان أحدهما على هذا الذي اعتنق الإسلام ، وتحول إلى خدمة الموحدين .

واستقبل محمد بن غانية سفير الخليفة بترحاب ومودة ، وأبدى استجابته إلى الدخول في طاعة الخليفة . وكان الخليفة أبو يعقوب عندئذ قد عبر البحر إلى الأندلس في جيوشه الحرارة ، وذلك في صفر سنة ٥٨٠ هـ (أبريل سنة ١١٨٤ م) ، قاصداً استئناف الجهاد ضد النصارى ، فلم يكن أمام محمد سوى الخضوع وسيلة لانتقاء الغزو الموحدي . ولكن لإخوة محمد ، وهم علي ويحيى وطاحنة وعبد الله وسير وتاشفين ومحمد المنصور وإبراهيم ، لم يرقهم هذا الخضوع ، فثاروا ضد محمد ، وقبضوا عليه واعتقلوه ، وقدموا أخاهم علياً لولاية الجزائر ، ووضعوا في الوقت نفسه سفير الخليفة علياً الربرتي في شبه اعتقال ، وحالوا بينه وبين مغادرة الجزيرة ، واعتقلوا بحارة السفن الموحدية ، ووضعوا بها بحارة من ميورقة ، ولبثوا يطاولون الربرتي ، حتى جاءت الأنباء بمصرع الخليفة أبي يعقوب عقب موقعة شنترين ، وتفرق الجيوش الموحدية الغازية ، فعندئذ أعلن علي وإخوته جهاراً رفضهم للدعوة الموحدية والدخول فيها ، وألقوا بعلي الربرتي إلى ظلام السجن (١) .

ولم يكتف بنو غانية — علي وإخوته — برفض طاعة الموحدين واعتقال سفيرهم ، بل فكروا كذلك في انتهاز فرصة ما أصاب الموحدين من آثار هزيمة شنترين ، وتفرق جيوشهم الغازية ، وجنوح الخليفة الجديد أبي يوسف يعقوب إلى القيام بأعمال الإصلاح والإنشاء في ظل السكينة والعافية ، لإنزال أول ضرباتهم بالموحدين ، فاتجهوا بأبصارهم إلى إفريقية ، إلى تلك المنطقة المضطربة ، التي كانت دائماً مثار القلاقل والمتاعب للموحدين ، والتي كانت طوائف العرب بها تجعل بتقلبها من فريق إلى فريق ، ميزان القوى دائماً في تردد ، وأزمعوا غزو مدينة بجاية أقرب ثغور هذه المنطقة إلى ميورقة .

ولم يكن تفكير بني غانية في غزو بجاية دون تمهيد سابق ، فقد اتصل علي ابن غانية ببعض العناصر الناقمة على الموحدين في المدينة ، من أولياء بني حماد

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ١٤٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٠ ، وكذلك :

Campaner y Fuertes : ibid, p. 146 - A. Bel : ibid; p. 29.

أمرائها السابقين ، وراسله جماعة من أهلها ، وكان يعتمد فوق ذلك على مؤازرة بعض طوائف العرب من بني هلال ورياح والأثيج . ونحن نذكر ماحدث قبل ذلك بأعوام قلائل من ثورة بني الرند في قفصة ، وقيام الخليفة أبي يعقوب بإخماد هذه الثورة (سنة ٥٧٦ هـ) ، وإسناده عندئذ ولاية إفريقية لأخيه السيد على أبي الحسين ، وولاية بجاية والزاب لأخيه السيد أبي موسى عيسى ، وما حدث بعد ذلك بقليل من ثورة عرب بني سليم على مقربة من قابس ، وأسرهم للسيد أبي الحسين وأصحابه عندما تصدوا لمقاومتهم ، ثم إطلاق سراحهم لقاء فدية كبيرة . وكان تكرار هذه الحوادث وأمثالها ، مما يشجع بني غانية على اختيار هذه المنطقة بالذات مسرحاً لمغامراتهم ضد الموحدين .

وحشد على بن إسحاق الملقب بالميورقي أسطولاً صغيراً من اثنين وثلاثين سفينة تحمل نحو مائتي فارس وأربعة آلاف راجل ، تحت إمرة القائد رشيد النصراني ، واستخلف على ميورقة عمه أبا الزبير . وسار مع إخوته في سفنه صوب بجاية ، فوصلت بسلام إلى مقربة من الميناء . وكان كل شيء في المدينة هادئاً ، ولم يخطر ببال أحد من أهلها أن الغزاة على الأبواب . ودفع القائد رشيد رجاله في زورق إلى أسفل الأسوار للاستخبار والتحري ، وكان والى المدينة السيد أبو الربيع سليمان عم الخليفة خارج المدينة وعلى مقربة منها راحلاً إلى الحضرة ، وقد حل بها السيد أبو موسى مع بعض أصحابه في طريقه إلى تلمسان ، ولم يك ثمة أية أهبات دفاعية يعتد بها . فتقدمت السفن المهاجمة من المدينة . واحتشد رهط كبير من الغزاة في مكان معين قبالة الأسوار ، كان متفقاً على اختياره لاقتحام المدينة مع الضالعين مع الغزاة ، وتدل بعض هؤلاء من الأسوار ليدلوا الغزاة على عورات السور ، وثرعات الدفاع . واجتمعت جماهير من أهل البلد لمقاومة الغزاة دون قائد يجمع شملهم ، ودون استعداد ، وقد تخاذل الرؤساء وأولو الأمر ، فسلط الميورقيون عليهم القسي والسهام ففتكت بهم . ثم تقدم الفرسان والمشاة ، واقتحموا المدينة من ثلمات السور ، واستولوا عليها ، وقبضوا على السيد أبي موسى وآله وعلى سائر الموحدين الذي يخشى بأسهم . وكان سقوط بجاية على هذا النحو في يد على بن إسحاق الميورقي في السادس من شهر شعبان سنة ٥٨٠ هـ (١٣ نوفمبر سنة ١١٨٤ م)^(١) .

(١) المعجب ص ١٥٣ ، والكامل لابن الأثير ج ١١ ص ١٩١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ . ويأخذ ألفرد بل بهذا التاريخ Les Benou Ghania, p. 42 . ولكن صاحب البيان =

وأقام على بن غانية أسبوعاً في بجاية ينظر في شئونها ، وصلى بها الجمعة ، ودعا في الخطبة لبني العباس ، وللخليفة العباسي أحمد الناصر ، وكان خطيبه يومئذ هو خطيب بجاية الفقيه المحدث والأديب الشاعر ، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الإشبيلي صاحب كتاب « الأحكام » وغيره . وكان الخليفة أبو يوسف يعقوب ، حينما بلغه موقفه يزمع قتله والاقتصاص منه . ولكنه توفى غير بعيد ونجا من نقمته^(١) .

وترك على بن غانية النظر على بجاية لأخيه يحيى بمعاونة رشيد الرومي ، وخرج من فوره لمطاردة واليها السيد أبي الربيع ، وكان ما يزال على مقربة من بجاية ، فلحق به بموضع يعرف بياميلول ، وكان معه رهط من الأعراب الموالين للموحدين فانخذلوا كعادتهم عند الشعور بالهزيمة ، وانضموا إلى ابن غانية ، وهزم السيد أبو الربيع ، وقتل عدد من رجاله ، وسقطت محلته بأسرها في يد العدو ، وفيها أهله وأمواله ، ولكنه استطاع الفرار إلى الجزائر ، ومنها إلى تلمسان ، فنزل بها على واليها السيد أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن ، وأخذها في تحصينها ، والاستعداد في الدفاع عنها^(٢) .

وتابع على بن غانية زحفه المظفر صوب الجزائر فدخلها ، وقدم عليها يحيى ابن أخيه طلحة ، ثم سار إلى مليانة ومازونة ثم إلى أشير والقلعة (قلعة بني حماد) واستولى عليها جميعاً ، واستباح أهلها ، واستصنى أموالهم . وكانت مليانة ، وهي أهم هذه البلاد ، في الأصل مدينة رومانية ، جدها زيري بن مناد الصنهاجي وحصنها ، وكانت في ذلك الوقت حسبما يصفها لنا الإدريسي ، مدينة قديمة البناء ، حسنة البقعة ، نضرة المزارع ، ولها نهر يروى معظم مزارعها وجنتاتها ، قد ركبت على ضفافه الأرحاء ، ولأراضيها حظ من مياه نهر شلف ، وعلى ثلاثة أيام منها ، وفي جنوبها الجبل المسمى بجبل وانشرش ، يسكنه قبائل من البربر منها مكناسة ، وحرسون ، وأوربة ، وبنو أبي خليل ، وكتامة ومطاطة ، وبنو مليلت ،

= المغرب يضع تاريخ سقوط بجاية في التاسع عشر من صفر سنة ٥٨١ هـ (القسم الثالث ص ١٤٨) ويتابعه في ذلك ابن خلدون (ج ٦ ص ١٩٠) وكذلك الزركشي في تاريخ الدولتين ص ١٠ .

(١) المعجب ص ١٥٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩١ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٤٨ .

وبنو ارتجان وبنو أنى خليفة، ويصلاتن، وزولات، وزواوة، وهوارة وغيرها .
وطول هذا الجبل مسيرة أربعة أيام ، وينتهى طرفه إلى مقربة من تاهرت (١) .
وقدم على بن غانية على مليانة يدّر بن عائشة ، ووقف بها أياما ، ثم عاد إلى
بجاية ، وهناك جلس بمسجدها الجامع ، فأقبل الناس لمبايعته والدخول في
طاعته ، والتف حوله الدهماء والعامّة ، واستخرج ما كان في المخازن من الأموال
والثياب ، وكسا أوباش العرب ومن انضم إليهم من الأخلاط والكافة ، ولما
رتب شؤنه ببجاية ، ترك بها رشيداً الرومى إلى جانب ابن أخيه يحيى ، وسار
في قواته إلى قسنطينة ، ولكنها كانت على أهبة الدفاع ، واستبسل أهلها في
قتاله ، وقتلوا جملة من رجاله ثم اعتصموا بمدينتهم ، فضرب حولها الحصار ،
مؤملاً أن تسقط في يده (٢) .

وعلم الخليفة يعقوب المنصور ، بتلك الحوادث المؤسفة ، وهو ما يزال في
بداية عهده ، وما يكاد يبدأ حملته الإصلاحية ، فاهتز لها ، وأدرك في الحال
خطورتها ، واعتزم أن يبذل قصارى جهده لقمعها ، فجهز حملة قوية من الجند
المختارة قوامها عشرون ألف مقاتل مزودة بوافر العدة والآلات ، وجعل قيادتها
لابن عمه السيد أبى زيد بن أبى حفص ، وسار في نفس الوقت أسطول موحدى
كبير من سبته ، تحت قيادة أبى محمد بن إسحاق بن جامع ، وأبى محمد بن عطوش
الكومى ، وأبى العباس الصقلى ، وسارت القوات البرية والبحرية وفق خطة
موحدة لمحاربة العدو ، متعاونين فى البر والبحر ، وسار الجيش الموحدى أولاً إلى
فاس ، وتوقف بها وقتاً لاشتداد البرد والأمطار ، ثم رحل إلى تلمسان وكان بها
السيد أبو الحسن بن أبى حفص ، وقد حصن أسوارها وشحنها بالمقاتلة ومعه السيد
أبو الربيع والى بجاية السابق ، وكان قد لحأ إلى تلمسان ، وتوقف بها يرتقب
الفرصة لاستنقاذ أهله وذويه من قبضة العدو المغير .

وسار الجيش الموحدى من تلمسان شرقاً نحو الشاطئ ، والأسطول يحاذيه
من البحر ، وكان الخليفة يعقوب قد وجه إلى أهالى القواعد المغزوة ، كتباً يعدهم
فيها بالأمن والأمان والصفح والإحسان لمن تعاون مع العدو . واستطاعت الجواسيس

(١) الإدريسي في « وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس » ص ٨٤ و ٨٥ ،
وكذلك الاستبصار في عجائب الأمصار (طبعة جامعة الإسكندرية ١٩٥٨) ص ١٧١ .

(٢) الرسائل الموحدية - الرسالة التاسعة والعشرون ص ١٧٢ ، ١٧٣ . والبيان المغرب -
القسم الثالث ١٤٨ .

الموحدية أن تدس هذه الكتب تحت جناح الليل إلى مختلف القواعد ، فلما علم الناس أن القوات الموحدية قد اقتربت منهم ، وثبت طوائف كثيرة منهم بالمختلين ولاسيا بالجزائر ، وقبضت على العديد منهم ، وبادر الأسطول الموحدى ، فاستولى على الجزائر قبل أن يصل إليها الجيش ، وأسر بها يحيى بن غانية وأتباعه الميورقيين ، ثم استولى على مليانة ، وكان حاكمها المرابطى يدر بن عائشة قد فر منها ، فافتنى أهلها أثره ، وطاردوه ثم قبضوا عليه وعلى أصحابه بعد معركة شديدة ، وسبق مع أصحابه مصفدا . ثم أعدم بعد ذلك . وكان السيد أبو زيد قد وصل عندئذ إلى وادى شلف ، وأمر بمتابعة الحرب ، وتقدم نحو بجاية على جناح السرعة ، إذ علم بأن ابن غانية يروم نقل السيد أبى موسى وزملائه من أكابر الموحدين إلى ميورقة ، وسار الأسطول إليها فى نفس الوقت . وتقدم القائد أبو العباس الصقلى فى إحدى السفن مع بعض أهالى بجاية ، ودسوا الكتب إلى أهلها بوصول القوات الموحدية ، فثارت العامة داخل المدينة ، وفتحوا الأبواب ، ونزل بحارة الأسطول وعلى رأسهم أبو محمد بن جامع إلى المدينة ، وفتكوا بالميورقيين وأنصارهم ، وفر يحيى بن غانية وأخوه عبد الله فى عدد قليل من أصحابه ، ولحق بأخيه أمام قسنطينة ، وأسر الموحدون رشيداً الرومى قائد الميورقيين ، واستولوا على السفن الميورقية خارج الميناء ، وأطلق سراح السيد أبى موسى ومن معه من أكابر الموحدين . وهكذا استنفذت بجاية بضربة سريعة ، وكان استردادها فى اليوم التاسع عشر من شهر صفر سنة ٥٨١هـ (٢٢ مايو سنة ١١٨٥) ، بعد أن لبثت فى قبضة بنى غانية نحو سبعة أشهر (١) .

وفى ذلك الحين كان ابن غانية تحت أسوار قسنطينة ، وكانت المدينة المحصورة قد استنفدت كل وسائل الدفاع ، وأشرفت على السقوط فى يد العدو ، ولكن ماكادت أنباء استرداد بجاية تصل إلى المحصورين ، حتى اضطربت قواهم المعنوية وثبتوا فى معقلهم ، ورأى الميورقى من جهة أخرى ماحل بقضيته من الحسران ، بعد سقوط بجاية ، وضياح أسطوله ومصرع الكثير من أصحابه ، ونكول الأعراب عن مؤازرته ، وخشى من إدراك الموحدين له ، وهو فى هذه الحالة اليائسة ، فارتد عن قسنطينة مع إخوته وفلوله الباقية ، وتوغل فى الصحراء ، بعيداً عن

(١) الرسائل الموحدية - الرسالة التاسعة والعشرون ص ١٧٦-١٧٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث

ص ١٥٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩١ . وكذلك A. Bel : Les Benou Ghania, p. 50-53

المطاردة . ولم تمض على فراره ثلاثة أيام حتى وصل السيد أبوزيد في قواته إلى تيكلات على مقربة من بجاية ، وهناك وافاه طلبة بجاية وأكابرها وعلى رأسهم السيد أبو موسى ، وأخذ الجميع في الأهبة والاستعداد لمطاردة العدو الفار ، وسبق إلى الحملة الموحدية كل من قبض عليه وأسر في بجاية من أنصار الميورقي سواء منهم من جاز معه من ميورقة ، أو من انحاز إليه ، ارتداداً عن الدعوة الموحدية ، وميزوا وقتل معظمهم . واستبقى يحيى بن طلحة الميورقي رهينة . وفي اليوم الثالث سار الموحدون في أثر ابن غانية واستمروا في مسيرهم حتى مقرة ونفاوس ، ولكنهم لم يستطيعوا إدراكه ، لأنه كان قد ألقى معظم أنفاله في الطريق وفرق قواته ، وسبق الموحدون بمراحل ، ولم يستطع الموحدون بقواتهم الكثيفة وعددهم الثقيلة لحاقاً به ، فعندئذ ارتد السيد أبو زيد في جموعه إلى بجاية ، وذلك بعد أن أنفقت الحملة الموحدية زهاء ستة أشهر في حركة متواصلة لم تنم خلالها بقسط من الراحة^(١) .

أما على بن غانية ، فقد اتجه وأخوه يحيى في فلوله جنوباً ، واخترق جبال الأطلس إلى منخفض حنّدة ، ثم إلى منطقة الواحات الواقعة جنوبي ولاية إفريقية المسماة بلاد الجريد ، وهو ينهب الغلات الغنية في تلك المنطقة ، ويستميل بجزيل صلاته طوائف العرب النازلين في تلك الأنحاء ، ولا سيما بني رياح وبني جشم . ولما اطمأنت نفسه وكثرت جموعه ، سار إلى افتتاح مدينة توزر ، فحضر حولها الحصار ، وقطع غابات النخيل المحيطة بها ، فقاومته المدينة بشدة ، ولكنه استطاع بمعاونة بعض الضالعين معه من أهلها أن يدخلها أخيراً . فلما دخل أغضى عن أهلها الذين ناصروه ومنحهم الأمان ، واستصنى أموال الآخرين ، ثم فرض عليهم فروضاً أخرى لافتداء أنفسهم ، فن استطاع أن يفتدي نفسه ، أطلق سراحه ، ومن عجز قتل ثم ألقى بعد قتله إلى بئر بالمدينة سميت فيما بعد بئر الشهداء ، وكان سقوط توزر في سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م)^(٢) .

وكان السيد أبو زيد قد استقر في تلك الأثناء في بجاية ، وكانت المدينة قد سادها الاضطراب والفوضى ، وخربت دورها ومعاهدها ، وأقفر سائر المناطق المحيطة بها ، وخربت على يد جند ابن غانية وأنصاره الأعراب ، وعدمت المؤن والموارد والغلات ، وارتفعت الأسعار ، وفر كثير من السكان وهاموا على

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٥١ .

(٢) رحلة التجاني (المنشورة بناية المطبعة الوضعية بتونس سنة ١٩٥٨) ص ١٦٢ .

وجوههم ، ثم جرى الوباء إلى المدينة وكثر الموت . ووصلت أنباء تلك الحالة إلى الخليفة عمراكش ، وكثرت لديه الأقوال في حق السيد أبي زيد ، وقصوره عن معالجتها ، فبعث إليه معاتباً ، وحثاً على العمل لتدارك الأمر ، وغادر الأسطول في نفس الوقت مياه بجاية ، عائداً إلى قواعده في سبتة .

وبالرغم من ابتعاد الميورقي عن بجاية وأحوازها ، وتوغله في القفار الجنوبية فإنه بعث حملة من جنده تحت إمرة غزي الصنهاجي ، فسار إلى مدينة أشير ، واقتحمها ، وقتل حافظها الموحدى ، فبادر السيد أبوزيد إلى توجيه ولده السيد أنى حفص عمر في قوة موحدية ومعه أبو الظفر بن مردنيش في حملة أخرى من الأجناد ، فساروا لقتال غزي وأصحابه ، ونشبت بينهما معركة هزم فيها غزي وقتل ، وأرسل رأسه إلى بجاية وعاق بها ، واستولى أبو الظفر بن مردنيش على محلة العدو وحرّمه وعتاده وماشيته ، وحل عبد الله الصنهاجي مكان أخيه غزي في الدفاع عن أشير ، فاستماله القاضي أبو العباس بن الخطيب ، وأغراه بالوعود ، واستنزله من المدينة ، ثم قبض عليه وأرسل إلى بجاية ، حيث صلب لإزاء رأس أخيه^(١) .

وكان من أحداث بجاية في هذا العام ، أن قُتل رشيد الرومي قائد ابن غانية السابق ، وقتل عدد من أهل بجاية ممن انحازوا إلى جانب بنى غانية ، وكان من هؤلاء أبناء القائد ابن حملة ، وغُرب بنو حمدون من بجاية إلى سلا ، لاتهمهم بالتواطؤ مع بنى غانية ، بعد أن أرغموا على تصفية أموالهم بها بثمان بنحس ، وأبعد غيرهم من الأعيان أيضاً إلى سلا ، بعد أن صفيت أموالهم وديارهم^(٢) .

وعلى أثر ذلك استدعى السيد أبوزيد من قبل الخليفة إلى الحضرة ، فسار إليها في حملة من صحبه بالرغم من اشتداد البرد والأنواء خلال فصل الشتاء ، فلما وصل إليها أحسن الخليفة استقباله ، وأكرم وفادته ، وسرى بذلك عنه ما كان قد لحق به من أوزار الوقعة ، وتهمة القصور والإهمال .

وكان على بن غانية ، بعد أن استولى على توزر يطمح إلى الاستيلاء على قفصة . ونحن نذكر أن الخليفة أبا يعقوب يوسف ، كان قد استرد قفصة في سنة ٥٧٦ هـ (١١٨١ م) وأخذ بها ثورة بنى الرند ، وكانت المدينة بالرغم من

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٥٣ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٥٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٣ .

انفضواها تحت لواء الموحدين ، ما تزال مسرحا لمختلف الدساتير والتيارات ، وولادتها للموحدين غير ثابت ، ولامستقر ، ومن ثم فإنه ما كاد الميورقي يزحف عليها بقواته ويضرب حولها الحصار ، حتى بادراهل المدينة بإخراج الموحدين منها ، وتسليمها إلى الميورقي ، فوضع بها حامية من جنده المرابطين وحلفائه الجند الأتراك ، وجدد تحصيناتها ، وكان ذلك أيضاً في سنة ٥٨٢ (١١٨٦ م) .

وهكذا سيطر على بن إسحاق بن غانية الميورقي على معظم إفريقية ، وقطع بها خطبة الموحدين ، ودعا لطاعة الخليفة العباسي ، الناصر لدين الله ، وأرسل إليه في طلب المراسيم والخلع والأعلام السود . وكان مما يزيد في خطورة هذا الموقف بالنسبة للموحدين ، أن الميورقي استطاع أن يستميل إلى جانبه كثيراً من طوائف العرب من سُلُم ورياح وغيرهم ، واستطاع من جهة أخرى أن يعقد الحلف مع قراقوش الأرمني مملوك الأيوبيين وجنده الترك ، وكانوا قد نزحوا من مصر إلى الغرب واستولوا على طرابلس ، وبسطوا سلطانهم على كثير من أطراف إفريقية الشرقية (١) .

ويجب أن نشير بهذه المناسبة إلى الظروف التي وقع فيها نزوح أولئك الجند الترك إلى هذه الأنحاء من إفريقية . وذلك أنه لم تم استيلاء الملك الناصر صلاح الدين ابن أيوب على مصر ، على أثر وفاة الخليفة العاضد ، آخر خلفاء الدولة الفاطمية ، ووقعت الوحشة من أجل ذلك بينه وبين سيده القديم السلطان نور الدين ، ففكر بعض أمراء بني أيوب ، أن ينزحوا ، إذا ما تغلب عليهم نور الدين ، إلى بعض الجهات النائية المأمنة مثل اليمن أو المغرب . واتجه نحو المغرب بالأخص تقي الدين عمر بن شاهنشاه أخو صلاح الدين . ولكنه عدل عن مشروعه لما رأى ما يكتنفه من الصعاب والمخاطر ، ففكر اثنان من أولياء بني أيوب ، هما شرف الدين قراقوش الأرمني مملوك تقي الدين (وهو غير بهاء الدين قراقوش وزير صلاح الدين فيما بعد) وإبراهيم بن قراتكين المعظمي ، نسبة إلى الملك المعظم شمس الدولة أنخي صلاح الدين ، في تنفيذ المشروع ، وفرا في طائفة كبيرة من الجند الترك ، وسارا صوب المغرب ، ثم افترقا ليسعى كل منهما إلى مصيره فسار قراقوش إلى قلب ولاية طرابلس ، وافتتح سنترية وأوجلة ، ودعا للسلطان صلاح الدين ، وابن أخيه تقي الدين عمر ، ثم سارا إلى فزان فافتتحها ، وقضى على دولة الهواريين القائمة بها

وكانت زويلة مقر ملكهم ، وخطب فيها أيضاً لصالح الدين وابن أخيه . وقوى أمر قراقوش تباعاً ، فسار إلى طرابلس ، والتف حوله العرب من بني دباب ونهضوا معه إلى جبل نفوسة ، فاستولى عليه ، واستخلص منه أموالاً عظيمة فرقها في حلفائه العرب ، ثم وفد إليه مسعود بن زمام أمير بني رياح ، وكان من الخارجيين على بني عبد المؤمن فانضم إليه بقواته ، وضرب قراقوش بقواته المشتركة الحصار حول طرابلس ، وكانت خالية من الأجناد والأقوات ، فاستولى عليها بأيسر أمر ، وذاع صيته واشتد ساعده ، وهرعت طوائف العرب من كل فج إلى لوائه . وملك قراقوش كثيراً من أنحاء إفريقية المجاورة ، وتضخمت موارده وقواته ، ومعظمها من العرب الذين عاثوا فساداً في تلك الأنحاء ، ما جبلت عليه من التخريب والنهب والإفساد ، بقطع الأشجار والثمار وغير ذلك ، وأخذت نفسه تحدته بالاستيلاء على سائر إفريقية (١) .

- ٢ -

وفي ذلك الحين حدثت بميورة حوادث هامة . وكان من الطبيعي بعد أن خلت الجزيرة من معظم الجند والقادة ، منذ رحيلهم تحت إمرة عاهلهم على ابن غانية إلى إفريقية ، واستولى الموحدون على سفن الأسطول الميورقي في مياه بجاية ، أن تتخذ الأحداث بالجزيرة وجهة جديدة . وكان رسول الخليفة الموحدى على البربريت منذ اعتقل بالجزيرة ، يرقب الفرص لكي يتحرر من معتقله ، وليقوم في نفس الوقت بضربة تحقق الغاية من رسالته . وألنى على فرصته في الاتصال بالجند المرتزقة النصراني من حراس معتقله ومن إليهم من أبناء ملتهم ، وكان معظمهم يرومون مغادرة الجزيرة إلى أوطانهم ، فوعدهم على بأنهم متى عاونوه على تحقيق غرضه ، فإنه يعمل على تسريحهم في أهلهم وأولادهم إلى أوطانهم . وكانت أرومة البربريت وأصله النصراني ، مما يحببه إلى نفوس أولئك الجند النصراني ويجعله موضع ثقتهم وأملهم . والظاهر أيضاً أن البربريت استطاع أن يجذب إلى جانبه بعض أعيان المدينة من أنصار محمد بن غانية المعزول وخصوم أخيه على . وهكذا دُبرت مؤامرة قوامها الجند النصراني للخلع والى الجزائر القائم وهو طلحة ابن إسحاق بن غانية ، وإعادة أخيه محمد المعزول ، ونفذ المتآمرون مشروعهم

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٤٦ ، ورحلة التجاني ص ١١١ - ١١٣ ، وابن خلدون

ج ٦ ص ١٩١ و ١٩٢ .

فى يوم الجمعة ، وفى وقت الصلاة ، حينما شغل معظم الناس بأداء الصلاة فى المسجد الجامع ، وغيره من المساجد . فأخرج المتآمرون علياً الربرير من سجنه ، ووثبوا إلى محازن السلاح ، فاستولوا على ما فيها ، ثم حاصروا القسبة ، وقتلوا من بها من الجند المرابطين ، وتحصن الربرير وأنصاره بالقسبة ، فحاصروهم جمهور من أهل ميورقة . وضربوا القسبة بالجنايق وأرسلوا على من بها وابلا من الحجارة والسهام . فأتى الربرير من داخل القسبة ، بأهل على بن غانية ، وفيهم أمه وأبناؤه ، ووضعهم فوق الأسوار ، ليرغم المحاصرين على الكف عن ضرب القسبة ، فعبدئذ هدأت الأمور ، واضطر أهل البلد إلى المفاوضة ، وتبادل العهود^(١) .

وعلى أثر ذلك استدعى محمد بن إسحاق بن غانية حاكم الجزائر السابق ، وكان قد خلعه لإخوته ، حينما اعترف بطاعة الموحدين عند مقدم الربرير إلى ميورقة ، واعتقل فى أقصى الجزيرة ، واتفق على إعادة تنصيبه والياً للجزائر ، ونزل الربرير عن القسبة والسلطة ، وأعلن طاعة الموحدين ، وخطب للخليفة الموحدى ، وجمع الربرير من الأموال والذخائر ما استطاع ، وسرح المرتزقة النصرانى بأموالهم وأهلهم إلى بلادهم . ثم غادر الجزائر عائداً إلى المغرب ، وقصد إلى حضرة مراکش . ووقع ذلك فى أوائل سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) . وفى رواية أخرى أن محمداً بن إسحاق غادر ميورقة مع الربرير ولحق بالحضرة ، ليقدم طاعته بنفسه إلى الخليفة^(٢) . وهكذا حكم محمد بن إسحاق ميورقة فى ظل طاعة الموحدين الإسمية . ولما حاول الخليفة يعقوب المنصور بعد ذلك أن يجعل من هذه الطاعة حقيقة واقعة ، بتملك ميورقة ، وأرسل لهذه الغاية إليها أسطولا بقيادة أبى العلاء بن جامع ، أبى محمد أن يستجيب إليه ، واستغاث بملك أراجون فأمدّه بالجند ، ولم يستطع الموحدون تنفيذ مشروعهم . ومن جهة أخرى ، فإن الهدوء لم يستمر طويلاً بالجزائر ، ذلك أن أهل ميورقة ثاروا على محمد لخضوعه للموحدين ، ورفعوا إلى الولاية أخاه تاشفين . وفى رواية أخرى أنه لما وقف على بن إسحاق بن غانية وإخوته وهم بإفريقية ، على ما حدث فى ميورقة ،

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٥٥ و ١٥٦ . وراجع :

A. Bel : ibid; p. 68 & 66 وكذلك : Cmapaner y Fuertes ; ibid, p. 148 et suiv.

(٢) البيان المغرب ص ١٥٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٤ .

سار منهم عبد الله في بعض صحبه ، وركب البحر إلى صقلية ، وهنالك زوده النصارى ببعض السفن فسار إلى ميورقة ، والتف حوله جمع من أهل الجزيرة واستطاع أن يدخل ميورقة باستمالة بعض أعيانها ، وأن ينزع الولاية لنفسه ، وقبض على أخيه محمد ، وبعث منفيًا إلى الأندلس . فالتجأ هنالك إلى الموحدین فولوه على مدينة دانية ، واستقر عبد الله في ولاية الجزائر دون منازع . وعاد الخليفة المنصور فبعث أسطوله إلى الجزائر بقيادة أبي العلاء بن جامع ، ثم أرسله مرة أخرى بقيادة الشيخ إبراهيم المزرجي ، فقاوم عبد الله أشد مقاومة ، وقتل كثير من الموحدین ، ولم ينالوا مأرباً من ميورقة ، ولكنهم استطاعوا الاستيلاء ، على جزيرتي يابسة ومنورقة ، وكان ذلك في سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧ م) . واستردت الجزائر في عهد عبد الله قوتها ورخاءها ، واستمر في رياستها أعواماً طويلة ، وهو يعاود الغزوات البحرية للشواطئ النصرانية القريبة ، حتى كان افتتاح الموحدین للجزائر في سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٣ م) على ما نذكر بعد^(١) .

- ٣ -

عظم أمر علي بن غانية بأثناء إفريقية الجنوبية والوسطى ، ولاسيما مذ تقاطرت طوائف العرب من بني هلال وجشم وبني رياح والأنبج إلى لوائه . وعقد التحالف بينه وبين قراقوش الأرمني وأجناده الترك الوافدين من مصر ، وبسط سلطانه على سائر أنحاء إفريقية ، ولم يبق بيد الموحدین منها سوى المهديّة وتونس ، ودعا على للخلافة العباسية حسبا أسلفنا ، وتلقب بأمر المسلمين جرياً على ما كان عليه أمراء الدولة المرابطية^(٢) وبعث ولده عبد المؤمن إلى الخليفة الناصر بن المستنصر ببغداد ليطلب إليه المدد والرعاية ، فعقد له الخليفة على سائر ما يملكه ، وبعث ديوان الخليفة صحبة عبد المؤمن إلى مصر ، خطاب الخليفة إلى الملك الناصر صلاح الدين باعتباره نائب الخليفة بمصر والشام ، فكتب له صلاح الدين كتابه إلى مملوكه قراقوش ، بالعمل المشترك على تأييد الدعوة العباسية^(٣) ، وكانت

(١) المراكشي في المعجب ص ١٥٥ و ١٥٦ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٥٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٤ ، وابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٢ .

استعادة الجزائر على يد عبد الله بن غانية وتمكين سلطان بنى غانية بها ، عاملاً جديداً ، فى ذبوع أمر على وتوطيد هيئته وسلطانه .

وبسط على بن غانية على إفريقية حكم إرهاب مطبق ، وأطلق العنان لأحلافه من طوائف العرب ، يعيشون أينما استطاعوا فساداً ، ويطلقون أيديهم بالإبذاء والسلب والنهب والسبي ، لا يرعون حرمة ولا يرحون ضعفاً ، وعلى لا يستطيع منعهم أو ردعهم استبقاء لولائهم ومحالفهم . وقد وصف مؤرخ رحالة حالة إفريقية فى ذلك الوقت بإيجاز فى قوله « إنه هلك العباد وخراب البلاد » . وكان من شائع على بن غانية ، أنه سار إلى جزيرة باشو بالقرب من حضرة تونس فى غضون سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) ، فسأله أهلها الأمان ، فنجحهم إياه ، ولكن ما كاد عسكره يدخل إليها ، حتى نهبوا سائر ما فيها ، وهتكوا الحرمات ، وفر من استطاع منهم إلى تونس ، ونزلوا بين أسوارها ، فأهلكهم البرد خلال فصل الشتاء ، وبلغ من هلك على قول الرواية اثنا عشر ألفاً (١) .

وتوالى أبناء هذه الحوادث الإفريقية المزعجة على الخليفة أبى يوسف يعقوب المنصور فأهنته ، وأدرك مبلغ خطورتها ، وبعث إليه أخوه السيد أبو عبدالله الذى كان قد حل مكان السيد أبى زيد فى ولاية إفريقية من تونس ، يستغيث به ويستنصره إلى تدارك الأمر بعد أن بلغ الخطر أقصاه ، وظهر عجز القوات الموحدية القليلة ، وأضحت سيادة الموحدين فى إفريقية على وشك الانهيار ، فاتخذ الخليفة أهبة للحركة إلى إفريقية ، وبدأ بالتحرك إلى تينملل ، حيث زار قبر المهدي ، جرياً على تقليدهم المأثور ، فى التيمن بزيارته ، عند الملمات والحوادث الحسام ، ثم عاد إلى مراكش ، وجهز جيشاً مختاراً من الموحدين قوامه عشرون ألف فارس ، وغادر الحضرة فى قواته عقب عيد الفطر فى الثالث من شوال سنة ٥٨٢ هـ (١٧ ديسمبر ١١٨٦ م) مستخلفاً عليها أكبر أعمامه السيد أبى الحسن ، ومستنداً إليه فى نفس الوقت الإشراف على تكملة الأعمال الخاصة بضاحية الصالحة ، وتابع الخليفة سيره دون توقف حتى رباط الفتح ، وهناك وافاه ولاية الأندلس والمغرب ، فألقى إليهم بتعليماته وتوجيهاته . وكان من الأمور الظاهرة فى تجهيز هذه الحملة الموحدية ، أن الخليفة لم يصطحب معه فى جيشه كتائب العرب إلا قلة من أشياخ بنى رياح مثل بنى زيان وذلك تحوطاً من تقلباتهم

وخطر انسلاخهم أثناء القتال إلى جانب إخوانهم عرب إفريقية ، ومن جهة أخرى فقد اقتصر الخليفة في حشوده على القلة المختارة من الجند ، نظراً لصعوبة تموين الحشود بالحرارة في إقليم خربت أرجاؤه ، ونضبت موارده ، من كثرة الغزوات والمعارك^(١) . وأصدر الخليفة أوامره المشددة في نفس الوقت إلى سائر العمال بالمنازل وأمهات الطرقات بتمهيد المسالك ، وتوطيد السبل ، ونصب الجسور في أماكنها ، وإعداد الأقوات والعلوفات ، فكان الجند يسرون في طرق مهيّدة ، موفورة المرافق والموارد ، مما لم يكن معهوداً من قبل في مثل هذه الرحلات الغازية . واستراح الخليفة وجيشه في حضرة فاس ، وقضى بها معظم أشهر الشتاء ، وغمر إلى فاس وأهلها الجيش الموحدى ، بمختلف ضروب الإكرام والضيافات ، وجدد الجند أسلحتهم وعددهم وملأوا أزودتهم ، ونظر الخليفة في شئون المدينة ، وترتيبها على أكمل وجه ، ثم غادر الخليفة وجيشه فاس إلى رباط تازة وهو خلال الطريق نائب النظر في شئون الرعية ، ومجتهد في إزالة المظالم ، وتحقيق مبادئ العدل والإنصاف . وفي تازة لاحظ الخليفة أن معظم الإخوة والأعمام قد اختصوا بلباس الغفائر الزيبية ، والبرانس المسكية ، فأنكر عليهم اتخاذ ذلك الزي لكونه زى الخليفة في حالتي ركوبه وجلوسه ، فجمعهم السيد أبو زيد وإلى بحاية السابق باعتباره عميدهم ، المقدم عليهم ، وذكرهم بوجوب التزام المراسم الخلافية ، وأن يتجنبوا التشبه بالخليفة فيما هو خاص به فامتنعوا من ذلك الحين عن اتخاذ الملابس التي تحمل الألوان الخلافية^(٢) .

ولما وصل الجيش الموحدى إلى أراضى قسنطينة ، وكان على بن غانية يرقب حركاته ، اجتمع ابن غانية في قواته من الميارقة والأعراب والأغزاز وبعض طوائف سلّيم ، على مقربة من القبروان ، وبدأت طلائعهم أمام الجيش الموحدى ، وكان رأى الخليفة يعقوب أن يبادر بمهاجمة خصومه من قبل أن يكمل استعدادهم ، ولكن الأشياخ والوزراء رأوا في المجلس الذى عقد للشورى أن الأفضل ، أن يتابع الجيش الموحدى سيره إلى تونس ، وهناك ينال قسطه من الراحة والاستعداد ، وهكذا وصل الجيش الموحدى إلى تونس في شهر صفر سنة ٥٨٣ هـ .

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٥٨ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٥٨ و ١٥٩ .

وقد كان هذا خطأ عسكرياً دفع الموحدون ثمنه غالياً . ذلك أنه لما وصل الجيش الموحدى إلى تونس ، واستراح الجند من أثقالهم ، وجددوا مؤنهم ولوازمهم ، جهز الخليفة حملة من ستة آلاف فارس تحت إمرة ابن عمه السيد أبى يوسف يعقوب ابن أبى حفص ، وعمر بن أبى زيد من أشياخ الموحدين ، والقائد على البربرية ، وسارت هذه الحملة إلى مقاتلة على بن غانية وجموعه ، وكانت ترابط على مقربة من قفصة . فلما اقترب الموحدون من محلة الميارقة وحلفائهم الترك تحت إمرة قراقوش ، خرج إليهم على بن غانية فى جموعه ، والتقى الفريقان فى السهل المسمى بسهل « عُمره » وذلك فى اليوم الخامس عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٨٣ هـ (٢٥ مايو سنة ١١٨٧ م) ونشبت بين الفريقين معركة شديدة ، وظهر انقسام الجيش الموحدى واختلاله منذ البداية ، حيث تقدم الجناح الذى يقوده على البربرية إلى الهجوم فزقته سهام الأعداء وطعناتهم ، وسقط البربرية أسرا وتفرق صحبه ، وحدث مثل ذلك حينما هجم القائد أبو على بن يومور فى طوائف العرب الذين يقودهم ، فخذلوه فى القتال كعادتهم المأثورة ، وأسر ابن يومور وقد أثنى جراحا . واختلت صفوف الموحدين فى كل ناحية وكثر القتل فيهم ، وماتتهى النهار حتى كان الجيش الموحدى قد مزق تمزيقاً ، وفر السيد أبو يوسف فى فل من أصحابه صوب تونس ، وهلك عدة من الأشياخ ، وفى مقدمهم عمر بن أبى زيد ، وبقي معظم الرجال ممن لم يستطيعوا الفرار ولاسيا الجرحى ، فلدجأوا إلى قفصة ، وشجعهم على ذلك ابن غانية ، ووعدهم بالأمان وتركهم يملأون طرقات المدينة ، حتى إذا اجتمعوا فيها أمر بقتلهم ، فقتلوا جميعاً . وجلس ابن غانية بخباء السيد أبى يوسف ، وجمعت بين يديه أسلاب الموحدين وأسلحتهم ، ففرقها فى جنده ، واقتيد إليه على بن البربرية وابن يومور ، فأمر بتعذيبهما ثم قتلها ، وعلق رأس ابن يومور على باب قفصة . وكانت على الحملة هزيمة ساحقة للموحدين لم يصبهم مثلها منذ بعيد^(١) .

وكان لتلك النكبة فى نفس الخليفة يعقوب المنصور أعمق وقع ، فاعترم أن يأخذ بالثأر ، وأن يستأصل شأفة العدو ، ولم يدخر وسعاً فى الأهبة ، وفى تمييز جيشه وفى إعداداته للضربة الحاسمة . ثم خرج فى قواته من تونس فى مستهل شهر رجب سنة ٥٨٣ هـ (٨ سبتمبر سنة ١١٨٧ م) وسار جنوباً صوب القيروان ،

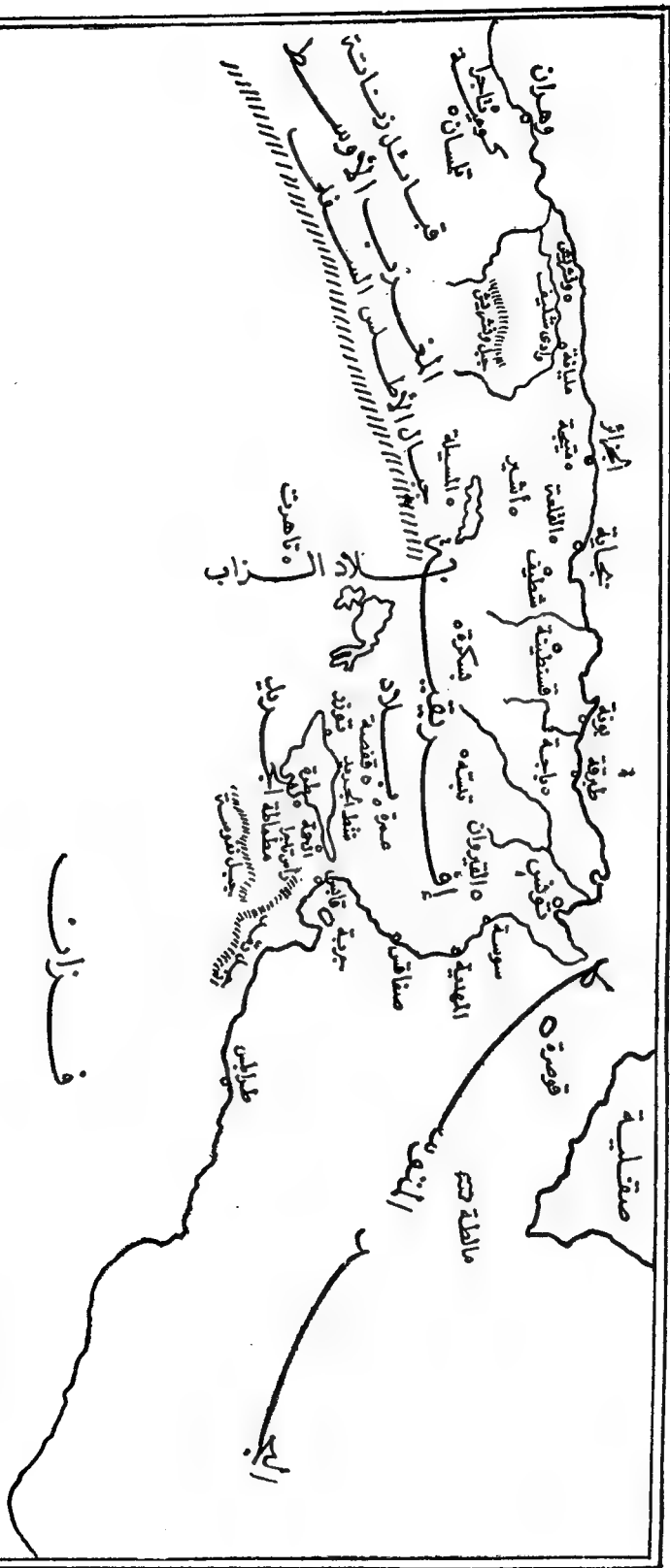
(١) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٦٠ و ١٦١ ، ورحلة التنجاني ص ١٢٦ و ١٦٢ . وراجع A. Bel : ibid ; p. 78-80

وقد برز الجيش الموحدى فى أروع حله واكتمال عدته ، وسمة خطورته ، ولما وصل المنصور إلى القيروان ، وجه منها إلى ابن غانية وحلفائه كتابا يندرج فيه بوجوب دخول الطاعة ، ونبد الشقاق والعدوان ، فاعتقل ابن غانية الرسول ولم يجبه بشئ^(١) ولكنه جد فى أهباته : ورأى الخليفة خلال تجواله بالقيروان ، وأحيائها الخربة المقفرة ، ما انتهى إليه جامعها الشهير من العناء والبلى ، فبعث من فوره إلى ولاية شرقى الأندلس ، بإعداد كسائه وفرشه وزخارفه .

واستمر سير الجيش الموحدى بعد ذلك جنوباً فى طريق قابس حتى وصل إلى مقربة من « الحمة » الواقعة على مقربة منها ، وقد بدت طلائع العدو ، وكان على بن غانية وحلفاؤه من الترك والعرب ، قد عسكروا فى موقع حصين على مقربة من الحمة فى انتظار الموحدين . فضرب الموحدون محلهم إزاء العدو ، واعتزم المنصور أن يبادر منذ الغد بمهاجمة العدو ، وأن يقود المعركة بنفسه بالرغم من اعتراض القرابة والأشياخ ، وقدم المنصور على مختلف القبائل أشياخ قرابته وأكابر عشيرته . وما كاد الصبح يسفر ، وتبدد الشمس حجب الضباب المتراكم ، حتى دفع المنصور بعض قواته على معسكر العرب الضالعين مع العدو ، فبدد شملهم وأركنوا كعادتهم إلى الفرار ، واحتوى الموحدون على سائر أسلابهم ، وفتت هذه الضربة الأولى فى عضد ابن غانية وحلفائه . ثم انقض المنصور بعد ذلك فى سائر قواته على جموع الميارقة والترك ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية عنيفة لم تدم سوى بضع ساعات ، وقد أدرك على بن غانية وحليفه أنهما يخوضان المعركة الحاسمة فى ظروف قاتمة . ولم يأت الظهر حتى كان الموحدون قد مزقوا صفوف العدو تمزيقاً ، وأبيد معظمهم بالقتل ، وفرقت فلولهم فى مختلف الأنحاء ، وكانت ضربة دموية ساحقة للميارقة والترك ، وفر ابن غانية وحليفه قراقوش فى بعض فلولهما صوب توزر ، فسار الموحدون فى أثرهم ، ولما اقترب الموحدون من توزر علم المنصور أن ابن غانية وحليفه قد فرا إلى الصحراء وغاض أثرهما . وتمت هذه الهزيمة الساحقة على ابن غانية فى يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٨٣ هـ (١٥ أكتوبر سنة ١١٨٧ م)^(٢) .

(١) - الرسائل الموحدية - الرسالة الثلاثون ص ١٨٦ .

(٢) ابن الأثير ج ١١ ص ١٩٦ ، والبيان المغرب - القسم الثالث ص ١٦٢ و ١٦٣ ، ورحلة التجاني ص ١٣٦ ، و ١٣٧ و ١٦٢ ، والرسالة الثلاثون من رسائل موحدية ص ١٨٨ . وكذلك :



إفريقيا والمغرب الأوسط
وما بين العراق بين بني غانية
وبين الموصلين
سنة ٥٨٠ - ٦٠٥ هـ

وسار المنصور على الأثر إلى قابس ، وقد كانت مركز قراقوش ، فاستولى عليها في اليوم التالي بالأمان ، وقبض فيها على أهل قراقوش وذويه وصحبه ، بعد أن حاولوا عبثاً الامتناع بالقصبة ، واستصغى أموالهم ، وأرسلهم ، رقيقاً إلى مراکش^(١). ثم سار من قابس إلى بلاد الجريد في طرق وعرة مقفرة ، واستولى تباعاً على قواعد هذه المنطقة : نواوة وتوزر ، وتقيوس ، والحمة ، ونفطة ، وأهمها هي توزر عاصمة بلاد الجريد ، وقام أهل هذه البلاد ضد من كان بها من بقية الميارقة ، وأبادوهم قتلاً وأسراً ، وفرت فلولهم من توزر إلى الصحراء . ثم سار الموحدون بعد ذلك من توزر إلى قفصة ، وكانت بها بقية كبيرة من أصحاب الميورقي وحلفائه الغز ، فامتنعوا بها معتمدين على حصانها ، وأسوارها العالية ، فضرب الموحدون حولها الحصار ، وسلطوا عليها المجانيق وخربوا ماحولها من الزرع وغابات النخيل الهائلة ، وصنعوا برجاً عالياً من سبع طبقات ، شحن بالكماة والرماة ، ودفع حتى حاذى السور ، وردموا الخندق المقابل لثلمة السور حتى ساوى وجه الأرض ، وأصبح السبيل ممهداً لاقتحام المدينة ، بيد أن المهمة كانت شاقة ، وقد ألقى المدافعون عند أول محاولة ، على الموحدين ، وابلاً هائلاً من الأحجار ، فارتدوا ليستعدوا لإعادة الكرة في اليوم التالي . ولكن أهل المدينة أدركوا ما سوف يحل بهم من الدمار ، فخرج أعيانهم بالليل ، وقصدوا إلى الخليفة المنصور ملتجئين الأمان ، وبحث المنصور الأمر مع القراية والأشياخ ، فاستقر الرأي على أن يوئمن أهل البلد الأصليين في أنفسهم وأملاكهم ، وأن يوئمن الأغزاز (الغز) في أنفسهم وماملكت أيمانهم ، وأن يخرج كل من كان بالبلد من الحشود ، والغرباء على الحكم ، وأنه لا أمان للميورقيين ومن والاهم من الصحب والأوباش ، فتم الاتفاق على ذلك ، وفي صباح اليوم التالي خرج سائر من بالبلد من الشيخ المهرم إلى الغلام اليافع ، ولم يبق بالبلد سوى النساء والأطفال ، ومُيز الناس ، وعزل منهم أهل البلد ، فأخلى سبيلهم ، وسُمح لهم بالرجوع إلى بلدتهم ، وعزل أصناف الجنود والغوغاء وسائر أهل الحشود ، ومن جملتهم إبراهيم بن قراتكين أحد قواد الغزو الوافدين من مصر وهو الذى سبق ذكره ، فقبض عليهم جميعاً ، وزجوا إلى برج الكبير ، ثم اقتيدوا بعد صلاة الظهر بين يدي المنصور ، فأمر بإعدامهم جميعاً فأعدموا زمراً ، وألقوا إلى الخفير ،

ونقل المنصور محلته بعيداً عن مسرح المذبحة ، وأمر بهدم أسوار قفصة فهدمت على الأثر . وكان الاستيلاء على قفصة فيما يرجح في أوائل ذى القعدة سنة ٥٨٣هـ (يناير سنة ١١٨٧ م) وليس في شعبان حسبما يقول صاحب البيان المغرب ، إذ كانت موقعة الحمة في التاسع من شعبان ، ثم كان بعدها الاستيلاء على قابس وسائر قواعد بلاد الجريد ، ثم حصار قفصة ، وقد اقتضى وحده مجهودات متعاقبة ، وليس من المعقول أن تقع هذه الأحداث كلها في أسبوعين أو ثلاثة . ومن جهة أخرى فإن الخليفة يؤرخ رسائله التي وجهها من قفصة إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة بمراكش عن فتح قفصة في الثالث عشر من ذى القعدة سنة ٥٨٣هـ (١) .

ووصل إلى المنصور ، يوم حلوله تحت أسوار قفصة ، خطاب من قراقوش ، يعرب فيه عن خضوعه ورغبته في دخول التوحيد ، وأنه على استعداد إذا ما قبلت توبته أن يأتي إلى الموحدين مستنياً طائعاً . وفي اليوم التالي وصل خطاب مماثل من أبي زيان زعيم الغز ، وزميل قراقوش السابق ، وهو الذي استقل بحكم طرابلس ، يعرب فيه عن انضوائه تحت لواء التوحيد ، وأنه قد أظهر دعوة التوحيد بطرابلس ونواحيها (٢) .

وكان لهذه الانتصارات الرنانة التي أحرزها المنصور على أعدائه في إفريقية أبعد صدى . وقد أكثر الشعراء بهذه المناسبة من نظم قصائد التهئة والمديح ، فكان مما قاله أبو بكر بن مُعْجَر في يوم الحمة قصيدة هذا مطلعها :

أسائلكم لمن جيش لهام	طلائعه الملائكة الكرام
أت كتب البشائر عنه ترى	كما يتحمل الزهر الكمام
ومنها :	

لقد برزت إلى هون المنايا	وجوه كان يحجبها اللثام
وما أغنت قسى الغز عنها	فليست تدفع القدر السهام
غدوا فوق الجياد وهم شخوص	وأمسوا بالصعيد وهم رمام

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٦٦-١٦٨ ، ورحلة التجاني ص ١٣٨ و١٣٩ ،
والرسالة الثانية والثلاثون من رسائل موحدية ص ٢٠٤ - ٢٠٨ .
(٢) الرسالة الحادية والثلاثون من رسائل موحدية ص ١٩٨ .

هو الأمير الرضى طوبى لنفس يكون لها بعصمته اعتصام
حياة الدين دولته فدامت لأمر قد أتيح له الدوام
سلام الله من قرب وبعد عليه وحسب ما نزل السلام

وعاد المنصور بعد افتتاح قفصة في قوائه إلى تونس . ويقول لنا ابن عذارى
إنه دخل تونس في العشرة الأخيرة من شوال سنة ٥٨٣ هـ . ونحن نعتقد تبعاً لما
سبق أن أوضحناه عن تاريخ فتح قفصة ، أن عودته إلى تونس كانت بعد ذلك
بقليل . ومكث المنصور في تونس بضعة أسابيع ينظم الشئون ، ويوطد الأحوال
بعد ما طرأ عليها من الاضطراب والتزعزع ، وعقد لأخيه السيد أبى زيد على ولاية
إفريقية . ولما انتهى من ترتيب الشئون ، سار إلى المهدية وقد أعلن عزمه على
القفول إلى المغرب ، وأمر باتخاذ العدة للرحيل ، ف قضى بها فترة يسيرة ، وبعد
أن نظر في شئونها ، وندب عمالها ، غادرها مرتحلاً إلى الحضرة ، وذلك في المحرم
سنة ٥٨٤ هـ (مارس سنة ١١٨٨ م) .

فسار تواء إلى تلمسان عن طريق تاهرت ، حتى وصلها دون توقف أو تلوم .
وكانت قد وصلته خلال وجوده بإفريقية أنباء مقلقة عن بعض مؤامرات تُدبر ،
وعن بعض شخصيات من القرابة تتحضر للتمرد والثوب . وكان أول من تلقاه
بتلمسان عمه السيد أبو إسحق إبراهيم بن عبد المؤمن ، وكان قد نُمى إلى الخليفة ،
أن هذا العم يطعن في آرائه ، ويسفه تصرفاته ، ولا سيما عقب هزيمة عُمره ،
فلما قدم للسلام عليه ، رده المنصور بجفاء ، وكان مريضاً منذ مدة ، فاشتد به
المرض ولم يلبث أن توفي .

بيد أنه كان ثمة ما هو أخطر من النقد الصراح . ذلك أنه على أثر هزيمة
عُمره التي مزق فيها الجيش الموحدى وقتل معظم قادته ، لاح لبعض السادة
أن دولة المنصور قد تصدعت دعائمها ، وأضحت على وشك الانهيار ، وكان
في مقدمة هؤلاء وأشدهم إقداماً وجرأة ، أخو الخليفة السيد أبو حفص عمر
الملقب بالرشيد والى مرسية ، وعمه السيد أبو الربيع سليمان والى تادلا . فأما الأول
وهو الرشيد ، فقد كان يسيطر على ولاية مرسية حكم إرهاب حقيقى ، وكان
يسوم الناس الخسف ، ولا سيما التجار ، ويستصنفى أموالهم بالإرهاب والقتل ،
ويستنزف ما في بيوت المال ، وكان مما فعله أن قبض على ابن رجاء مشرف
مرسية ، وألزمه بإحضار تقييدات أبواب الجباية ، ولما عجز عن ذلك أمر بقتله

فقتل ، وفر ابن سليمان صاحب العمل إلى بلنسية ، وكذلك فر منها الكاتب حكيم ابن محمد ناجياً بحياته ، ولكن الرشيد استدعاه بالخدعة ولين القول ، ثم غدر به وقتله ، والخلاصة أن الرشيد كان يرهق أهل مرسية ، خاصتهم وعامتهم بصنوف بطشه وبغيه . بيد أن الأمر لم يقف عند هذا الحد . ذلك أن الرشيد كان يضمّر مشاريع أخرى . فلما وقعت هزيمة عمرة ، اضطربت مخيلته بمختلف الأطماع والمشاريع ، وبادر بالاتصال بالفونسو الثامن ملك قشتالة ، وعقد معه حلفاً سرياً تسربت أنبأؤه إلى الخليفة مع الواصلين من الأندلس . فلما حدثت موقعة الحمة ، وأحرز المنصور نصره الساحق على ابن غانية وحلفائه ، أدرك الرشيد أنه توغل في أوهامه ، وارتد إلى شيء من التعقل والتريث ، ولم يلبث أن وصله أمر أخيه الخليفة بالاستدعاء إلى حضرة مراکش ، فسار إليها وهو معتمد على عطف أخيه وصفحه وإغضائه ، وتنفس على أثر رحيله نختق أهل مرسية .

وأما السيد أبو الربيع عم الخليفة ، فقد كان ممن عارض في توليته وتخلّف عن مبايعته منذ البداية ، وكان حين وقعت حوادث إفريقية يتولى النظر على إقليم تادلا الواقع على مقربة من شمال شرقي مراکش ، فلما وقعت نكبة الجيش الموحدى بعمرة ، أخذ السيد أبو الربيع في مفاوضة بعض قبائل صنهاجة القريبة لمعاونته على الثورة ، والقيام بأمره ، فلم تنجح محاولته ، وأعرضت تلك القبائل عن مساومته . وسار إليه في نفس الوقت السيد أبو زكريا يحيى بن السيد أبي حفص في سرية كبيرة من الموحدين ، فأحاطت بقاعدة تادلا ، وحالت بين السيد أبي ربيع وبين أية حركة أو نشاط يخشى منه ، ولم يجد السيد أمامه سبيلا سوى التوبة والاستسلام ، فأمر بالذهاب لمقابلة الخليفة ، وكان الخليفة في طريقه إلى الحضرة ، فقصد إليه في محلته على مقربة من مكناسة ، ووصل السيد أبو حفص عمر الرشيد في نفس الوقت قادماً من الأندلس ، فأمر الخليفة بنزوله مع نفر من صحبه وحاشيته على انفراد . ثم أمر بالقبض على السيدين أخيه وعمه ، وبعث بهما مكبولين إلى رباط الفتح ، واعتقلهما بالقصبة ، حتى يصدر في شأنهما أمره . ولما وصل الخليفة إلى مراکش ، وانتهت مراسيم التحية ، واستقبال الوفود ، بحث مع السيد أبي الحسن ، نائبه بمراكش ، ومع أشياخ الموحدين ، أمر السيدين المذنبين ، وذلك على ضوء ما صدر منهما من محاولات في الخروج والثورة ، وهو ما يستوجب إعدامهما شرعاً ، وانتهى الأمر بتقرير إعدامهما ، وبعث الخليفة إلى عثمان

ابن عبدالعزيز الكومي قائد قصبة رباط الفتح ، بأن يتولى تنفيذ هذا الحكم فيهما ، فقام بالمهمة ، وضرب عنقهما ، وقتل معهما في نفس الوقت عدد ممن تحقق اشتراكه معهما في محاولتهما^(١) . ويزيد صاحب روض القرطاس على ذلك ، أن الخليفة قتل أيضاً أخاه أبا يحيى ، بمعنى أنه أمر بإعدام ثلاثة من السادة دفعة واحدة ، أحد أعمامه ، واثنين من إخوته^(٢) ، ووقع ذلك فيما يرجح في أواسط سنة ٥٨٤ هـ ، (١١٨٨ م) . ويقول لنا المراكشي إنه كان لهذا التصرف الدموي وقع عميق لدى قرابة الخليفة فهابوه ، واشتد خوفهم وتوجسهم منه بعد أن كانوا يتهاونون بأمره ويحتقرونه ، لأشياء كانت تصدر منه في صباه أيام أن كان بالأندلس والياً لإشبيلية^(٣) . وما كاد المنصور يستقر بمراكش ، بعد أن اطمأن إلى استتباب السكينة ، وتوطد سلطان الموحدين بإفريقية ، حتى أخذ ينظر في شئون الأندلس . وكانت الأحوال في شبه الجزيرة ، قد أخذت خلال انشغاله بحوادث المغرب وحملة إفريقية ، تتطور بصورة تدعو إلى القلق ، واشتد عدوان البرتغاليين من جهة على قواعد ولاية الغرب الجنوبية وانتهى بالاستيلاء على شلب وأحوازها ، ووصلت غارات القشتاليين من جهة أخرى إلى أحواز إشبيلية ؛ ومن ثم فقد خص المنصور شئون الأندلس بعنايته ، وأخذ في الاستعداد لتدارك تلك الحال ، والعمل على قمع عدوان النصارى . فأذاع الدعوة إلى الجهاد على حكم الاختيار والتطوع ، فتقاطرت جموع المتطوعين المجاهدين إلى الحضرة ، من سائر جنابات المغرب ، ومن مختلف الطوائف والقبائل ، وبعث الخليفة إلى العمال بالاستعداد ، وضرب الآلات الحربية ، وإعداد العتاد والأقوات ، ثم ندب لولاية إشبيلية ابن عمه السيد أبا حفص يعقوب بن السيد أبي حفص عمر ، وكان موضع ثقته وإيثاره ، كما كان أبوه من قبل موضع حب أبيه وإيثاره ، وذلك لكي يعمل على مواجهة الأحداث بالأندلس بروح وهمة جديدين ، وندب ابن عمه السيد أبا الحسن ابن أبي حفص والياً لتلمسان ، وعهد إليه بشئون المخازن والمؤن ، والسهر على إعدادها وتوفيرها للحشود المقبلة^(٤) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٧١ - ١٧٣ ، والمعجب ص ١٥٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٣ .

(٣) المعجب ص ١٥٧ ، ويقول لنا المراكشي أيضاً إن قتل السادة كان في سنة ٥٨٣ هـ ،

وهو تاريخ خاطئ ، لأن عودة الخليفة من غزواته الإفريقية ، كان في المحرم سنة ٥٨٤ هـ .

(٤) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٧٤ .

الفصل الثانی

حوادث الأندلس وإفريقية

أطاع البرتغال في ولاية الغرب . تهيؤ الفرص لتحقيقها . مقدم السفن الصليبية إلى مياه أشبونة . اتفاق سانشو ملك البرتغال مع الصليبيين على غزو شلب . موقع شلب وخواصها في ذلك العصر . سير سانشو وحلفائه الصليبيين إلى الجنوب . زحفهم على شلب واستيلائهم على أرباضها . محاصرة شلب وضربها . صمود المدينة . قطع النصارى للماء عنها . اضطرارها إلى التسليم بالأمان . خروج المسلمين منها واستيلاء النصارى عليها . غزوات القشتاليين في منطقة إشبيلية . تأهب الخليفة أبي يوسف يعقوب للجهاد بالأندلس . مسيره إلى رباط الفتح . عبور الجيوش الموحدية ثم الخليفة إلى شبه الجزيرة . سير الخليفة إلى قرطبة . اجتماع الحشود الموحدية بالأندلس ، ومسيرها إلى شلب . سير الأسطول الموحدى إلى مياه البرتغال الجنوبية . عقد ملكى ليون وقشتالة للصلح مع الخليفة . سير الخليفة في قواته من قرطبة إلى وادى التاجة . غزوه لمنطقة شنترين . استيلائه على قلعة طرش . محاصرته لطومار . تخريبه لبساط تلك المنطقة . صمود طومار . أمر الخليفة بالكف عن الغزو . عوده في قواته إلى إشبيلية . عود الجيش المحاصر لشلب . فشل هذه الغزوة لأراضى البرتغال . نظر الخليفة في أمر المسجونين والعامل . فتنة الجزيرة ومطاردته . ما أذيع حول شخصه . القبض عليه وإعدامه . حقيقة أمره ودعوته الإصلاحية . سفارة صلاح الدين إلى المنصور . ظروف الشرق الإسلامى يومئذ . عدوان الصليبيين واستيلائهم على ثغور الشام وبيت المقدس . نهضة صلاح الدين وتحطيمه للمملكة اللاتينية . أثر ذلك في مضاعفة الغرب لأهباته المدوانية . اتجاه صلاح الدين إلى طلب العون من المغرب . رسالته الأولى إلى الخليفة الموحلى . سفارته إليه على يد ابن منقذ . ما جاء في رسالته إلى الخليفة . أقوال الروايات المصرية والمغربية عن حركات السفير المصرى ومصير سفارته . استقبال الخليفة لابن منقذ وتسليم هدية صلاح الدين . فشل هذه السفارة وبواعت هذا الفشل . المغزى العظيم الذى تنطوى عليه . أهبة المنصور لاستئناف الغزو . خروجه في قواته من إشبيلية . مسيره إلى البرتغال . مهاجمته لقصر الفتح . تسليم النصارى إياها بالأمان . استيلاء الخليفة على حصن قلالة والحصون المجاورة . سير الموحدين إلى شلب . محاصرتها وضربها بالمجانيق . اقتحامها وتسليمها بالأمان . عود المنصور إلى إشبيلية . عبوره إلى العدو ومسيره إلى الحضرة . مرض المنصور . اختياره لولده محمد لولاية العهد . ملخص بيعة أهل قرطبة لولى العهد . مقدم السيد أبى زيد وأشياخ العرب . استجمام الخليفة بفاس . مسيره إلى رباط الفتح وتجديد قصبتها . عوده إلى مراكش . أمره بإنشاء حصن الفرج بشرف إشبيلية . فتنة الأشل ببلاد الزاب . مطاردة والى بجاية له . حماية العرب له . تحيل الوالى فى القبض على العرب . اضطرار عشائهم إلى القبض على الثائر وتسليمه . استئناف بنى غانية لحركاتهم . عيشهم فى بلاد الجريد . وفاة على بن إبحاق ابن غانية . قيام أخيه يحيى مكانه بالأمر . توحيد قراش ومسيره إلى تونس . بواعت هذا التصرف . فراره من تونس وعوده إلى مغارته . استيلائه على طرابلس . الخلاف بينه وبين يحيى . هزيمة قراش وفراره . استيلاء يحيى على طرابلس . ثورة أهل طرابلس وعودهم لطاعة الموحدين .

لم يكن ثمة شك في أن نكبة شترين ، وما ظهر خلالها من عجز الجيوش الموحدية الجرارة ، واختلال نظامها ، كان له أكبر الأثر في إذكاء أطماع ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز (ابن الرنق) في انتزاع ما تبقى من ولاية الغرب الأندلسية ، وفي مضاعفة شهوة العدوان والتغلب ، في نفسه الوثابة المضطربة . ولكن ألفونسو هنريكيز لم يعيش طويلاً ليقوم بنفسه بتحقيق هذه الأطماع العريضة ، إذ توفي في السادس من شهر ديسمبر سنة ١١٨٥ م (أو آخر سنة ٥٨١ هـ) ، بعد أن حكم مملكة البرتغال زهاء نصف قرن ، وبعد أن وطد أركانها ، ووسع حدودها شرقاً وجنوباً على حساب الأراضي الإسلامية ، وكانت وفاته لنحو عام ونصف فقط من وفاة الخليفة أبي يعقوب يوسف عقب نكبة شترين . فخلفه ولده سانشو الأول ، وهو يضطرم بمثل أطماعه ، وقضى أعوام حكمه الأولى في العمل على إصلاح البلاد والحصون التي خربتها الحرب ، وتعميرها بالسكان . ومنذ بداية سنة ١١٨٩ م (٥٨٥ هـ) نراه يعد العدة لاستئناف غزو الأراضي الإسلامية . وكانت كل الظروف تشجعه ، وتعضد مشاريعه . فقد كان الخليفة الموحدي ، بعيداً في المغرب تشغله أحداث إفريقية ، ومغامرات بني غانية ، ومؤتمرات الحوارج عليه ، وكانت هذه الأحداث المحلية الخطيرة تجعل من المتعذر على الخليفة الموحدي ، أن يبعث بشيء من حشوده إلى شبه الجزيرة ، وكانت القوات الموحدية بالأندلس قليلة العدد والعُدَد ، لاتكفي لدفع عدوان النصارى سواء من ناحية مملكة قشتالة أو مملكة البرتغال . ومن جهة أخرى ، فقد كانت الظروف تهيئ لنصارى البرتغال أمداداً طارئة لم تكن في الحسبان ، هي الأمداد الصليبية ، التي عادت تنقاطر إلى المشرق من ناحية المحيط ، لتنجد الجيوش الصليبية التي ضعفتها ضربات صلاح الدين ، وسقوط المملكة اللاتينية ، باسترداد صلاح الدين لبيت المقدس في رجب سنة ٥٨٣ (أكتوبر سنة ١١٨٧ م) .

ففي أوائل سنة ١١٨٩ م (أوائل ٥٨٥ هـ) ، وصل أسطول صليبي ضخم من خمسين سفينة ، يحمل عدداً وافراً من الجند الألمان والفلمنك إلى مياه إسبانيا الغربية في طريقه إلى البحر المتوسط ، ورسا في مياه جليقية قبالة مدينة شنت ياقب المقدسة ، ونزلت منه بعض طوائف من الجند لتزور قبر القديس ياقب ، ولكن أهل المدينة توجسوا شراً من مقدم أولئك الجند ، وخشوا أن تمتد أيديهم إلى الذخائر التي يحفل بها مزار هذا القديس ، فردوهم بعد معركة عنيفة ، قتل فيها عدد من

الجانبيين ، وعاد الجند الصليبيون إلى سفنهم ، فسارت بهم نحو الجنوب : وتقدم في نفس الوقت إلى هذه المياه أسطول صليبي آخر من إنجلترا وبلاد الفلاندر ، ودفعته الأنزاء والعواصف الجاححة نحو مياه أشبونة ، ثم انضمت إليه السفن القادمة من مياه جليقية ، فاجتمع بذلك في مياه أشبونة عدد ضخم من السفن الصليبية ، تحمل ألوفاً عديدة من المقاتلة ، فتلقاهم سانشو ملك البرتغال بترحاب ، وألقى في مقدمهم فرصة طيبة للاستعانة بهم في غزو القواعد الإسلامية الجنوبية ، وتفاهم مع الرؤساء والقادة الصليبيين على تسيير حملة قوية مشتركة إلى مدينة شلب ، لانتراعها من المسلمين ، لأنهم يتخذونها بالأخص قاعدة للخروج إلى شواطئ المحيط يغزون بها ، وينهبون ثغورها ، ويأسرون كثيراً من النصاري^(١) ، فاستجاب إليه الصليبيون ، بما أذكى أطعاهم من إحراز الغنائم والثروات من أراضي المسلمين .

وكانت شلب ، في ذلك الوقت ، بعد باجة ويابرة ، أمنع قواعد ولاية الغرب الأندلسية ، وأوفرها عمراناً وثراء ، وهي تقع في أقصى جنوبي البرتغال ، على مقربة من المحيط ، فوق ربوة متدرجة تشرف على نهر دراد الذي يصب في المحيط جنوباً قرب ثغر بورتوماو الصغير ، ومن حولها بسائط خضراء ، تكثر فيها غابات الزيتون ، والحدائق والحقول البانعة ، وإليك كيف يصفها لنا الشريف الإدريسي ، وقد زارها قبل ذلك بنحو نصف قرن :

« ومدينة شلب حسنة في بسيط من الأرض وعليها سور حصين ، ولها غلات وجنات . وشرب أهلها من واديهما الجارى إليها من جهة جنوبها وعليه أرحاء البلد ، والبحر منها في الغرب على ثلاثة أميال ، ولها مرسى في الوادى وبها الإنشاء ، والعود يجبالها كثير ، يحمل منها إلى كل الجهات . والمدينة في ذاتها حسنة الهيئة بديعة المباني مرتبة الأسواق ، وأهلها سكان قراها من عرب اليمن وغيرها ، وكلامهم بالعربية الصريحة ، ويقولون الشعر ، وهم فصحاء نبلاء خاصتهم وعامتهم »^(٢) . تلك هي شلب الإسلامية التي أزمع سانشو ملك البرتغال وحلفاؤه الصليبيون

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٧٥ ، وأشياخ في تاريخ المرابطين والموحدين ، الترجمة العربية ، الطبعة الثانية ، ص ٣٢٩ و ٣٣٠ ، وراجع أيضاً :

Huici Miranda: Imperio Almohade, cit. Las Crónicas dos Sete Reis de Portugal p. 342

(٢) الإدريسي في وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ص ١٧٩ و ١٨٠) ، ونقله صاحب الروض المطار (صفة جزيرة الأندلس) ص ١٠٦ .

أن ينتزعوها من المسلمين . ففي أوائل سنة ٥٨٥ هـ (أوائل سنة ١١٨٩ م) ،
بعث سانشو بقواته البرية جنوباً صوب شلب ، وسارت سفن الصليبيين من خليج
التاجه حذاء الشاطئ البرتغالي حتى مياه نهر بورتماو الصغير ، الواقع على قيد
إثنى عشر كيلومتراً من جنوبي شلب . وبدأ البرتغاليون بمهاجمة حصن ألبور^(١)
الواقع على مقربة من غربي بورتماو ، وقتلت حاميته الإسلامية ومن كان به من
اللاجئين المسلمين ، وعددهم جميعاً يقرب من الستة آلاف^(٢) ، ثم زحف سانشو
بعد ذلك في قواته وقوات حلفائه الصليبيين ، نحو المدينة الإسلامية ، وهاجموا أرباضها ،
واستولوا عليها في الحال . وكان والي المدينة عندئذ الحافظ عيسى بن أبي حفص
ابن علي ، رجلاً عاجزاً قليل الخبرة بشئون الدفاع ، فامتنع بقواته داخل المدينة ،
معتمداً على حصانتها الطبيعية ، وأسوارها القوية العالية ، وشغل الصليبيون عن
مهاجمة المدينة بنهب ما حولها من الأرباض والمحلات ، وحاول سانشو مدى بضعة
أسابيع أن يقتحم المدينة بالهجوم في قواته ، ولكن محاولاته ذهبت عبثاً . فاضطر
أن يلجأ إلى الحصار ، وأن يستدعى قوات جديدة لمعاونته قدمت في أربعين سفينة
جديدة . وتضع الرواية النصرانية بدأ حصار شلب في ٢١ يولييه سنة ١١٨٩ م
(ربيع الآخر سنة ٥٨٥ هـ) . وحاول سانشو في بدء الحصار أن يعاود اقتحام
المدينة ، ففرضها بالمجانيق والنبال ضرباً شديداً ، ولكن ذلك لم يؤثر شيئاً على
تحصينات المدينة القوية ، وحاول الحند الفلمنك من جهة أخرى أن يخفروا
السراديب تحت الأسوار وأن يחדثوا بها ثلثات للدخول ، فأحبط أهل المدينة كل
محاولاتهم . وكان من الممكن أن يطول هذا الموقف ، وأن تصمد المدينة للحصار ،
مدة طويلة ، لولا أن عمد سانشو إلى محاولة قطع الماء عن المدينة ، وإرغامها
إلى التسليم من جراء العطش . وكانت شلب تستمد ماءها من النهر القريب بواسطة
بئر كبيرة أقيمت قرب السور تسمى « القراجة » ، وأقيم فوقها لحمايتها برج
قوى ، ففكر المحاصرون في هدم هذا البرج ، وهاجموه بواسطة السلام ، فلما
رأى المسلمون هذه المحاولة ، خرجوا لمنعها ، ونشبت حولها معركة تفوق فيها
النصارى واستولوا على البئر . وكانت هذه بالنسبة للمسلمين ضربة مؤلمة ، لم تلبث
أن حققت نتائجها المحتومة . ذلك أن العطش أخذ إلى جانب الجوع ، يحدث أثره

(١) حصن ألبور بالإنجليزية Alvor .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٧٥ .



المروع في أهل المدينة ، وكان النصارى يترقبون الفرصة القريبة لمهاجمة المدينة واقتحامها ، بعد أن يعجز أهلها عن الدفاع تماماً . ولكن المدينة لم تستطع أن تصمد حتى هذه اللحظة ، ولم يلبث أن بعث أهلها وفدهم إلى سانشو ، يعرض عليه تسليم المدينة ، إذا وافق على أن يخرجوا منها حاملين سائر أمتعتهم ، فتفاوض سانشو مع حلفائه ، وكان رأى القلمنك الصليبيين أن يقتل أهلها المسلمون جميعاً ، ولكن الرأى انتهى بإقناعهم بالحصول على أسلاب المدينة ، واتفق في النهاية على أن يؤمن أهل المدينة في أنفسهم ، وأن يتركوا البلد بجميع ما فيه من أموالهم وأثاثهم . وهكذا غادر أهل شلب مدينتهم « مسلوبين » ، ودخل النصارى مدينة شلب ، بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، في يوم الاثنين العشرين من رجب سنة ٥٨٥ هـ (٣ سبتمبر سنة ١١٨٩ م)^(١) .

وكان سقوط مدينة شلب على هذا النحو ضربة قاصمة لسلطان الموحدين في ولاية الغرب ، إذ كانت هي آخر معاقلهم في تلك المنطقة الحساسة ، وسقوطها بعد سقوط باجة قبل ذلك بعشرة أعوام ، يفتح الطريق لتهديد بقية ولاية الغرب في اتجاه ولة ولبلة ثم إشبيلية . على أن الأمر لم يقف عند ذلك الحد . ذلك أن القشتاليين كانوا من الناحية الأخرى ، يهددون موسطة الأندلس ، ومنطقة إشبيلية بالذات ، بغاراتهم المتوالية . ففي نفس الوقت الذى سارت فيه القوات البرتغالية والصليبية لافتتاح شاب ، خرج ألفونسو الثامن ملك قشتالة في قواته ، نحو منطقة قرطبة ، ثم اكتسح البسائط شرقاً نحو إشبيلية ، وهو يعيث فيها قتلا وسلباً ، فخرجت قوات إشبيلية إلى لقائه فأوقع بها الهزيمة ، والتجأت فلولهم إلى حصن المنار ، فطاردهم النصارى واستولوا على الحصن ، واستأصلوا من فيه من المسلمين قتلا وأسرأ . ولم يمض قاييل على ذلك ، حتى سار ألفونسو إلى أم غزالة ، وكانت قد أخليت من سكانها قبل وصوله ، فحاصرها وقتاً ثم تركها ، وسار إلى ربينة ، واستولى عليها ، وقتل معظم سكانها وأسر الباقين ، واستمر في حملته الغازية حتى قلعة جابر ، ثم حصن شلر ، وكان ذلك في جمادى الآخرة من سنة ٥٨٥ هـ (أغسطس سنة ١١٨٩)^(٢) .

(١) البيان المغرب - القمم الثالث ص ١٧٥ و ١٧٦ ، والروض المطار (صفة جزيرة

الأندلس ص ١٠٦) وراجع: Huici Miranda : *ibid*; (cit. Relaciones). p. 342 - 345

(٢) البيان المغرب ص ١٧٥ و ١٧٦ .

وعاد ملك قشتالة بعد حملته المظفرة إلى طليطلة ٥

كان لتلك الحوادث أعمق وقع في نفس الخليفة يعقوب المنصور ، فما كاد يقف على أخبارها ، حتى أخذ في التأهب للعبور إلى الأندلس ، واستئناف الجهاد ، واعتمد في هذه المرة على التطوع في جمع الحشود ، حسبما ذكرنا من قبل ، وعنى عناية خاصة بتوفير العتاد والسلاح والمؤن ، ثم خرج في قواته من مراكش في الرابع عشر من شهر ذى الحجة سنة ٥٨٥ هـ (٢٣ يناير سنة ١١٩٠ م) ، وذلك بعد أن وجه كتبه إلى إشبيلية ، وغيرها من قواعد الأندلس ، بما اعتزمه من قدومه إلى شبه الجزيرة لنصرة أهلها على عدوهم ، وما يرجوه من تيسير استقبال الجيوش الوافدة ، وسار إلى رباط الفتح ، فلما وصلها ، أقام بها نحو الأربعين يوماً ، حتى وصلت باقي الحشود وقوات القبائل ، واستكملت أهبة الجيش الغازي .

وفي أواخر شهر المحرم من سنة ٥٨٦ هـ (أوائل مارس سنة ١١٩٠ م) غادر المنصور رباط الفتح في قواته ، وسار إلى قصر مصمودة (القصر الصغير) وجدد منه كتبه إلى إشبيلية متضمنة قرب وصوله . ولبت مقيماً بالقصر ، حتى كان بدء الجواز في الخامس عشر من ربيع الأول ، ولما انتهى جواز الجند ، عبر المنصور البحر في يوم الأحد الثالث والعشرين من ربيع الأول ، ونزل بجزيرة طريف ، وهناك أقبلت وفود بعض البلاد للسلام عليه ، وشكا البعض مما يقع من ظلم العمال ، فأغضى المنصور عن مناقشة هذا الأمر في هذه الظروف الدقيقة . ثم تحرك من طريف في غرة جمادى الأولى ، وسار شمالاً صوب مدينة أركش ، وهناك ودع الوفود الملتفة حوله ، وسار إلى قرطبة . وبعث إلى السيد يعقوب بن أبي حفص وإلى إشبيلية ، بأن يتحرك منها بعساكره ، وأن يجمع سائر الحشود ، من العرب والبربر ، من غرناطة وغيرها ، ومن تأخر من صنهاجة وهسكورة ، وسائر المتطوعة والمجاهدين . فصدع السيد يعقوب بالأمر ، وحشد سائر القوات المتقدمة ، وسار فيها قاصداً إلى شلب ، وذلك في غرة جمادى الأولى (٦ يونيه) وعسكر في ظاهر المدينة . ولم يمض شهر على ذلك حتى وصلت سفن الأسطول الموحدى إلى مياه البرتغال الجنوبية

على مقربة من ثغر بورتماو، ثم دنا الموحلون من أسوار شلب، ونصبوا عليها
الحجانيق، وآلات الرمي، وضربوا حول المدينة حصاراً صارماً مرهقاً.

وأما المنصور، فإنه لما وصل بقواته إلى قرطبة نزل بها بالقصر الذي كان أنشأه
السيد أبو يحيى. ثم تجول بأطلال مدينة الزهراء، ليشاهد آثار القرون الماضية،
وليعتبر بما أحدثته صروف الدهر، وأمر بإنزال التمثال الذي كان منصوباً فوق
بابها، وقد كان وفقاً لقول البكري تمثالاً للعدراء. ويقول لنا صاحب البيان
إنه هبت في عصر ذلك اليوم ريح عاصفة أحدثت بعض الخلل في محلة الساقة،
فأذاع بعض عامة قرطبة أن ذلك كان بسبب إنزال تمثال الزهراء، وأن هذا
التمثال كان طلسماً لحمايتها، وبلغ المنصور ذلك فسخر منه، وأنحى باللائمة على
جهل أهل قرطبة^(١)، وأمر بالاجتهاد والتأهب.

وكان قد وصل إلى قرطبة رسل من قبل ملك قشتالة، جاءوا ليسعوا إلى
عقد الهدنة، وكان مقدم الحيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة، قد بث حسماً
تحدثنا رسالة الخليفة، بين النصارى، أسباب الخزع والفرع، فبادر ملوكهم
إلى إرسال رسلهم في التماس المسالة والتهادن، وأنه بينما كان الخليفة على وشك
العبور من القصر الصغير، وصل رسل ملك قشتالة إلى إشبيلية، يعرضون
السلم ويطلبون عقد الهدنة، ويعرضون التحالف على قتال غيرهم من النصارى.
وتكررت هذه العروض عند وصول الخليفة إلى قرطبة، فاستجاب الخليفة إلى
مطالبهم، لأنه حسباً يقول لنا في رسالته، رأى مصلحة المسلمين في افتراق كلمة
الكفر، وكذلك عقد ملك ليون الهدنة مع الخليفة، ولم يأبه بالخلف القديم الذي
كان قد عقده أبوه فرناندو مع ملك البرتغال أيام موقعة شنترين^(٢).

ثم أمر الخليفة السيد أبا زكريا بن أبي حفص أن يسير إلى إشبيلية في جيش
خاص من العرب وزناته وأهل تلمسان ومن إليهم، ليتجهز هنالك ويلحق به
وبإخوته في طريق الغزو. وقام المنصور بعد ذلك بتمييز القوات المرتقة،
والخشود الواصلة من العدو، وفرقت فيهم البركة، ثم أمر بعقد الرايات، وخرج
في قواته من قرطبة متجهماً نحو الشمال الغربي إلى وادي التاجه، ولحق به السيد
أبو زكريا في قواته في نفس الاتجاه. وكانت خطة المنصور، فيما يبدو هي العمل

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٧٥.

(٢) رسائل موحدية - الرسالة الرابعة والثلاثون ص ٢٢٢ و ٢٢٣.

على إرغام ملك البرتغال على احتجاز قسم كبير من قواته وقوات حلفائه الصليبيين ، في الشمال بعيداً عن شاب ، لكي يخفف ضغط النصارى بذلك على القوات الموحدة الضاربة حولها ، فستطيع تكريس جهودها للتغلب على منعة المدينة ذاتها . ومن ثم فقد سار المنصور صوب السهل الممتد على ضفاف التاجه شمالى شترين ، وأنخن الموحدون في تلك الرقعة الخضراء ، فانتسفوا زروعها ، وخربوا ضياعها ، ثم عبروا النهر وساروا لمهاجمة قلعة طرش^(١) الواقعة على مقربة من شمال شترين ، وهى قلعة عظيمة شديدة المنعة ، تقع فوق ربوة عالية ، فحاصروها بشدة ، ولم تمض أيام قلائل ، حتى عرض قائدتها التسليم بالأمان ، فوافق الخليفة وغادر القلعة كل من كان فيها من النصارى ، وفي الحال خرب الموحدون القلعة وسائر متعلقاتها ، وتركوها قاعاً صفصفاً ، وكانت حسبما تصفها رسالة الخليفة محلة عامرة نضرة ، تغص بالفراش والكروم . ثم سار الموحدون بعد ذلك شمالاً ، وهاجموا مدينة طومار^(٢) ، وهى قاعدة منيعة ، تقع في بسيط مخصب زاهر ، وكانت تدافع عنها حامية من فرسان المعبد (الداوية) فخرب الموحدون بسائطها ، ولكنهم اضطروا إلى حصارها ، نظراً لما أبدته حاميتها من شدة في الدفاع . ودام الحصار وقتاً دون أن تسلم طومار ، ويقول لنا صاحب البيان المغرب ، إن رسل ابن الرنك (ملك البرتغال) قدموا عندئذ في طلب المهادنة والسلام ، وأن المنصور أمر بتخفيف القتال ريثما ينقصد السلم ، وتنظم الأمور^(٣) . ومن جهة أخرى ، فإنه يبدو مما يقيسه علينا الخليفة في رسالته أن الموحدين ، كانوا خلال هذا الحصار ، يوجهون سراياهم هم في سائر البسائط القريبة تثخن فيها ، وتمعن في تخريبها ، وأن سانشو ملك البرتغال كان في ذلك الحين مرابطاً بقواته في شترين ، لا يجرؤ على الخروج منها للملاقاة الموحدين^(٤) .

وعلى أى حال فإن الموحدين لم يستمروا في حصار طومار ، ولم يأخذوها ، وحدث العكس حيث أمر الخليفة بالكف عن القتال واختتام أعمال الغزو . ويقدم إلينا صاحب البيان تفسيراً لذلك خلاصته ، أن الخليفة شعر بتوعدك تهادى أمره ،

(١) هى بالإفرنجية Torres ، وتقوم اليوم مكانها بلدة Torres Novas البرتغالية .

(٢) هى بالإفرنجية Tomar ، وهى تقع على مقربة من شمال T. Novas .

(٣) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٨٠ .

(٤) الرسالة الموحدة الرابعة والثلاثون ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

وأنه من جهة أخرى لاحظ أن شئون التموين بالجيش قد اختلت ، وأخذت المؤن والعلوفات تنضب ، وقد كانت تحمل إليهم على خط تموين طويل يمتد من قرطبة . وهذا بعكس ما كان عليه البرتغاليون حيث استطاعوا قبل الغزو أن يحصدوا معظم زروعهم ، وأن يحتزنوا المؤن الكافية^(١) . ولهذا كله قرر الخليفة أن يختتم أعمال الغزو ، وأن يأمر بالارتداد إلى إشبيلية ، وصدرت الأوامر في نفس الوقت إلى الجيش المحاصر لشلب بأن يغادرها على وجه السرعة ، وأن يرتد كذلك أدراجة . وقضى المنصور في هذه الغزوة ثلاثة وأربعين يوما . وكانت عودته إلى إشبيلية في الحادى عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ هـ (يوليه ١١٩٠ م)^(٢) .

ونستطيع أن نقول إن غزوة المنصور لأراضى البرتغال لم تسفر عن نتائج ذى شأن ، وأنها كانت بالعكس غزوة فاشلة ، فلم تؤخذ طومار ، ولم تسترد شلب ، وهى غاية الغزو الأولى . ونستطيع أيضاً أن نلاحظ مرة أخرى أن اختلال شئون التموين فى الجيوش الموحدية ، كان دائماً فى مقدمة أسباب فشلها فى تحقيق أغراضها العسكرية . على أننا نستطيع أن نلاحظ فى نفس الوقت ، أن ما تلذع به المنصور من الحزم فى تنظيم الارتداد فى الوقت المناسب ، كان كفيلاً بسلامة الجيش الموحدى ، وعدم تعرضه لكارثة أخرى ، من طراز كارثة شنترين .

على أن المنصور لم تقف همته ومشاريعه عند هذا الحد . ذلك أنه كان يشعر أنه لابد من تحقيق الهدف الرئيسى من عبوره إلى شبه الجزيرة ، باسترداد شلب ، وضرب قوى البرتغال العسكرية ، ومن ثم فقد عول على البقاء بالأندلس ، والعكوف على الاستعداد للوثيد المجدى .

وانتهز المنصور فرصة وجوده بإشبيلية ، فأخذ ينظر فى شئون الناس والعمال ، وأمر بفحص قضايا المسجونين الذين طال سجنهم ، وإعدام من يستحق الإعدام منهم بعد عرض أمره عليه ، واشتد فى مطاردة المنكرات والملاهى . وأما عن العمال فقد أمر المنصور ، بالقبض على ابن سنان لما نعى إليه من أنه كان فى موقعة المنار أول من بادى بالفرار ، وأمر كذلك باستصفاء أمواله .

(١) الرسالة الموحدية السالفة الذكر ص ٢٢٧ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٨٠ .

وفى ذلك الحين بالذات ، رُفِعَ إلى المنصور أمر ثائر من نوع جديد ظهر بمراكش . ويدعى على الجزيرى . ويقدم إلينا صاحب البيان بالمغرب هذا الثائر فى صورة غامضة مثيرة ، فيقول لنا إنه كان يتظاهر بطلب العلم ، ويعنى بنوع خاص « بحفظ المتشابهات » ، وإنه لما ظهر أمره لأول مرة ، أمر الخليفة بطرده من مراكش ، فغادرها ، وأخذ يتجول فى الأقطار ، وهو يبت دعوته سرّاً ، ولاسيا بين العامة حيث يخاطبهم ، ويسيرهم فى أفكارهم ، ثم ظهر من جديد بمراكش وكثر القول عن دعايته ومساغيه ، فأمر والى المدينة السيد أبو الحسن ابن أبي حفص بمطاردته والبحث عنه أينما وجد ، ولكنه استطاع أن يلوذ بالفرار ، ثم ظهر بمدينة فاس ، وأخذ يختلط بعامتها وأوباشها وتبعه منهم جماعة ، فرفع خبره إلى واليها ابن ومازير ، فقبض على عدة من أتباعه وقتلهم ، وأفلت الثائر من المطاردة مرة أخرى ، واختفى ولم يوقف له على أثر .

ثم تواترت الأنباء بأن الثائر قد عبر إلى الأندلس ، فأمر المنصور بالكتب إلى سائر الولاة والعمال بصفته وهيئته وأماراته ، وبأن يقبض عليه أينما وجد . وذاعت بهذه المناسبة عن الثائر أقوال وروايات خرافية كثيرة ، فقبل إنه ساحر قدير ، وإنه يتصور فى صور الحيوانات المختلفة ، مثل الحمير والكلاب والسنانير ، وترددت هذه الأقاويل بين العامة . ثم قيل إنه عثر عليه فى مالقة ، وقبض على كثير من الأوباش الذين التفوا حوله ، وفهم أخوه ، فأمر المنصور بإحضارهم إلى إشبيلية ، وقيل إن الثائر كان ضمن هؤلاء المقبوض عليهم ، ولكنه استطاع أن يفلت بواسطة رشوة دفعها أتباعه للقاضى المختص ، ويدعى الوانى . فأمر المنصور بقتل أولئك الأتباع ، وعددهم تسعة وتسعون ، وأمر بأن يجلد القاضى بعدد الدنانير التى تقاضاها على سبيل الرشوة ، فهلك قبل أن يستوفى هذا العدد ، وقتل فى نفس الوقت فى مختلف الأنحاء كثيرون آخرون ممن نسب إليهم مسامرة الثائر واتباع دعايته .

وأخيراً ، وبعد بحوث ومطاردات عنيفة ، قبض على الثائر فى بعض قرى مرسية ، وأخذ إلى إشبيلية ، وحمل إلى مجلس الموحدين ، وطيف به على الحاضرين وهو يعان إنكاره لما نسب إليه من المبادئ والنظريات الثورية ، ثم انتهى الأمر بصلبه ، والقضاء على مادار حول شخصه من ضروب الإرجاف والخرافة^(١) .

ونظم الشعراء قصائدهم كالعادة في امتداح المنصور ، وتهنئته بالقضاء على هذه الفتنة . فمن ذلك ما قاله الجراوى من قصيدة طويلة :

نار من الفتنة العمياء أطفأها سعد الإمام وحد الصارم الذكر
ما زال إبليس في الأقطار يوقدها وترتمى من شرار الخلق بالشرر
زاد الشقى على الخفافش مشبهه ضعف البصيرة إذا ساواه في البصر
جارى إلى سقر أصحابه فهووا فيها سراعاً ووافاهم على الأثر

تلك هى رواية صاحب البيان المغرب عن ثورة الجزيرى ، وهى فيما يبدو مستمدة من أقوال ابن صاحب الصلاة ، وهى رواية بلاط لا تمثل سوى وجهة النظر الرسمية .

يبد أنه يبدو من جهة أخرى أن ثورة الجزيرى ، كان لها شأن آخر ، وأن الجزيرى واسمه الكامل أبو عبد الله محمد بن عبد الله الجزيرى ، لم يكن ذلك الدجال المشعوذ ، الذى تقدمه إلينا الرواية الموحدية . فهو عالم أندلسى من أهل الجزيرة الخضراء ، أخذ من مختلف العلوم بقسط وافر ، وكان يُنعى على الدولة الموحدية ما جنحت إليه من الأخذ بأسباب الأمية والترف ، ومن مخالفة تعاليم المهدي الأصلية . وكان يضطرم بنزعة إصلاحية ، ويطمح إلى إحياء سنن المهدي ابن تومرت ، ويثب دعوته بين الكافة بقوة وبراعة ، حتى عظم أمره ، وكان شاعراً مجيداً . ومن قوله يشير إلى رسالته الإصلاحية :

فى أم رأسى سر يبدو لكم بعد حين
لأطلبن مــــرادى إن كان سعدى معبى
أو لا فأكتب ممن سعى لإظهار دينى

وكانت الجموع تهرع إلى الالتفاف حوله أينما وجد ، وتذاع عنه وعن دعايته أغرب الروايات ، حتى زعم بعض الناس أنه يتصور فى صور الحيوانات مثل القطط والكلاب وغيرها . وكان من الطبيعى أن تنزع السلطات الموحدية لأمر هذا المصلح النائر ، وأن تخشى من تأثير دعايته فى الجموع ، وأن تبث عليه العيون والأرصاء فى كل مكان . وكان ينجح فى الإفلات من المطاردة فى أحيان كثيرة ، حتى قبض عليه أخيراً فى بعض قرى مدينة بسطة ، وقتل ،

وأرسل إلى مراکش : وكانت ثورة الجزيرة في سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م)^(١) .

وفي هذا العام بالذات أعنى في سنة ٥٨٦ هـ ، تلقى الخليفة الموحدى سفارة هامة ، من الملك الناصر صلاح الدين سلطان مصر والشام ، على يد وزيره عبد الرحمن بن منقذ : ولم تكن هذه أول مرة يحاول فيها عاهل مصر ، أن يتصل بالخليفة الموحدى ، وأن يكتب إليه . ولا بد لنا قبل التحدث عن موضوع هذه السفارة ، أن نشير إلى الظروف التي كان الشرق الإسلامى يجوزها في تلك الفترة ، والتي حملت صلاح الدين ، على أن يتجه ببصره إلى الغرب الإسلامى ، ذلك أن الشرق الإسلامى كان منذ أواخر القرن الخامس الهجرى (أواخر القرن الحادى عشر الميلادى) ، يواجه عدوان الغرب المنظم في صورة الحملات الصليبية المتوالية . وكان هذا العدوان قد أسفر عن ثماره الأولى باستيلاء الصليبيين على ثغور الشام وبيت المقدس ، وقيام المملكة الفرنجية اللاتينية في بيت المقدس . وكانت مصر في تلك الفترة المؤلمة ، وهى أواخر العهد الفاطمى ، تجوز مرحلة انحلال وضعف ، وتعوزها الوسائل والقوى الدفاعية الناجعة . فلما انتهت الدولة الفاطمية ، ونهضت مصر نهضتها المشهورة ، على يد الملك الناصر صلاح الدين ، واستطاعت أن تسحق قوى الصليبيين ، وأن تسترد بيت المقدس ، وأن تقضى بذلك على المملكة اللاتينية (٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م) هرع الغرب في حشوده العظيمة مرة أخرى إلى الشرق ، ليقضى على تلك القوة الجديدة ، التى تهدد أطماعه ومشاريعه بالانهيار . وكان صلاح الدين ، بالرغم مما شاده من القوى العظيمة ، وما أحرزه من الانتصارات الباهرة ، يشعر بأخطار هذا التكتل الصليبي الجديد ، ويخشى إذا لم يتداركه العون من إحدى النواحي ، أن يضعف عن مدافعتة . وهنا اتجه صلاح الدين ببصره نحو المغرب ، يرجو منه العون والغوث . وكان يرى في الدولة الموحدية التى بلغت يومئذ ذروة عظمتها وقوتها ، ملاذاً يجدر قصده والالتجاء إليه . فكتب إلى الخليفة الموحدى ، — يعقوب المنصور — في سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) رسالته الشهيرة مدبجة بقلم القاضى الفاضل يستصرخه ، ويستنصر به على قتال الجيوش الفرنجية الزاحفة يومئذ على مصر والشام ، وفيها

(١) هذه رواية صاحب المغرب في حل المغرب (ج ١ ص ٣٢٣ و ٣٢٤) . وقد نقل المقرئ هذه الرواية وهذا الشعر في نفح الطيب .

يصفه « بأمير المؤمنين ، وسيد العالمين ، وقسيم الدنيا والدين » ويصف له جهوده محاربة الصليبيين وهزيمتهم ، وما كان لذلك من أثر في تحالف النصرانية ، ودول الغرب عليه ، ونهوض ملوكه بجيوشهم وأساطيلهم لمحاربتهم ، ومحاولة الاستيلاء على ثغور المشرق ، والقضاء على قوى الإسلام المجتمعة تحت لوائه ، ويطلب صلاح الدين إلى عاهل المغرب ، أن يمد الشام ، مسرح القتال ، بشرط من أساطيله المنصورة ، وأن يرسل في الوقت نفسه ، جناحاً من أسطوله إلى صقلية ، فيشغل طاغيتها ، ويعطله عن الاشتراك مع زملائه الملوك النصارى في مهاجمة مصر ، ويعتقله بذلك في جزيرته . ثم يقول صلاح الدين في رسالته إلى الخليفة الموحدى : « وبذلك يذهب سيدنا وعقبه بشرف ذكرٍ لا ترد به الحامد على عقبها ، ويقيم على الكفر قيامة ، يُطلع بها شمس النصر من مغربها » (١) .

والظاهر أن البلاط المصرى لم يكن على علم تام بحقيقة سير الأمور في المغرب والأندلس في تلك الفترة . ذلك أن يعقوب المنصور ، ما كاد يتولى الخلافة عقب مصرع أبيه في موقعة شترين ، حتى أخذ يواجه حسباً رأينا سلسلة من الأحداث المزعجة سواء في المغرب أو الأندلس . فأما في المغرب فقد رأينا كيف شغل بثورة بنى غانية ، واعتدائهم على إفريقية ، واستخلاص ثغورها من أيديهم . وأما في الأندلس ، فقد عنى المنصور ، كما رأينا بحشد الجيوش ، لاستئناف حركة الجهاد ، ورد عدوان النصارى عن أراضى الأندلس ، بعد ما تفاقم هذا العدوان سواء من جانب قشتالة أو من جانب مملكة البرتغال . وقد كان من الطبيعى ، في تلك الظروف الدقيقة التى يجوزها الموحدون ، في المغرب والأندلس ، أن صرخ صلاح الدين إلى الخليفة الموحدى ، لم يلق صدًى ، وإن رسالته لم يكن لها الأثر المرغوب .

على أن صلاح الدين لم ييأس من الفوز بعون الخليفة الموحدى . ذلك أنه كان يشعر بأنه يتوجه بصريخه إلى الوجهة الصحيحة ، وأن نزعة الجهاد ، كانت تضطرم في المغرب على يد الدولة الموحدية ، اضطرامها في المشرق ، وأن الكفاح الذى يضطرم به الموحدون ضد اسبانيا النصرانية ، لم يكن إلا شطراً من الكفاح الذى تضطلع به مصر في المشرق . ومن ثم فقد اعتزم صلاح الدين أن يكرر محاولته . فعاد في العام التالى في سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) ، فأرسل إلى الخليفة

(١) تراجع رسالة صلاح الدين إلى الخليفة الموحدى في صبح الأعشى ج ٦ ص ٥٢٦ - ٥٣٠ .

يعقوب المنصور ، سفارة على يد وزيره الشهر شمس الدولة ابى الحارث عبدالرحمن ابن منقذ ، يحمل إليه رسالة وهدية فخمة . وكان ابن منقذ ، وهو سليل أمراء بنى منقذ أصحاب حصن شيزر السابقين بالشام ، من رجالات الدولة الصلاحية البارزين ، ومن يصطفهم السلطان لقضاء المهام الدقيقة . ويصف صلاح الدين فى رسالته إلى الخليفة الموحدى ، ما حدث من تقاطر الفرنج على الشام براً وبحراً ، وفى مقدمتهم جيوش ملك الألمان وملك الإنجليز وأساطيله ، وما وقع حول عكا التى حاصرها الفرنج من المعارك الخطيرة ، وما بذله السلطان لإنقاذها من الجهود فى البر والبحر . ثم يتجه إلى الخليفة يطلب الإنجاد ويقول : إنه كان من المتوقع من « تلك الدولة العالية ، والعزمة القادية ، مع القدرة الوافية ، والهمة المهدية الهادية ، أن بمدد غرب الإسلام المسلمين ، بأكثر مما أمد غرب الكفار الكافرين ، فيملأها عليهم جوارى كالأعلام » ، وأنه لما تأخرت الإجابة « ظن أنها توقفت على الاستدعاء ، فاستصرخه بهذه التحية فقد تحفل السحاب ولا تمطر ، إلى أن تحركها الرياح » (١) .

وهنا تختلف الروايتان المصرية والمغربية فى تاريخ وصول السفير المصرى إلى المغرب ، وفى ظروف لقائه مع الخليفة . فتقول الرواية المصرية إن ابن منقذ أبحر من الإسكندرية قاصداً إلى المغرب فى شهر رمضان سنة ٥٨٦ هـ ، وأنه وصل إلى مراکش فى شهر ذى الحجة من هذا العام ، وأدخل إلى الخليفة فى العشرين منه ، وحملت هدية السلطان إلى الخليفة فى نفس اليوم . بيد أنه يبدو أن الرواية المصرية لم تكن مطلعة تمام الاطلاع على سير الحوادث فى المغرب والأندلس فى تلك الفترة . ومن ثم فإنها لم تستطع أن تتبع حركات السفير المصرى بدقة . ذلك أن الخليفة المنصور ، كان وقت وصول السفير المصرى إلى المغرب ، قد عبر البحر حسبما تقدم فى جيوشه إلى الأندلس معزماً مقاتلة النصارى ، وإنقاذ مدينة شلب من قبضة البرتغاليين ، وأنه كان فى تلك الآونة بالذات مقبلاً بإشبيلية ، يجد فى الأهبة ، ويتربق الحوادث . ومن ثم فإن الرواية المغربية ، وهى رواية صاحب البيان المغرب ، المستقاة فيما يبدو من رواية ابن صاحب الصلاة ، مؤرخ البلاط الموحدى ، تقدم إلينا تفاصيل أخرى عن تحركات السفير المصرى ،

(١) الروضتين فى تاريخ الدولتين ج ٢ ص ١٧١ - ١٧٣ . وراجع مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب (المنشور بعناية الدكتور جمال الدين الشيال) ج ٢ ص ٣٦١ و ٣٦٢ .

تبدو أكثر اتفاقاً مع سير الحوادث . فتقول لنا إن السفير المصرى حينما وصل إلى المغرب ، نزل بئر تونس ، ثم بئر بجاية ، فاستقبله السيد أبوزيد والى إفريقية والسيد أبوالحسن والى بجاية ، بمنتهى الحفاوة والإكرام ، وكتبوا إلى الخليفة المنصور وهو يومئذ بإشبيلية بمقدم السفير ، فوصلت كتبهما إليه فى شهر رجب سنة ٥٥٨٦ هـ فرد الخليفة عليهما بالشكر ، وأن يستمر فى مجاملة السفير وإكرامه ، وأن يطلب إليه كتمان رسالته حتى يستقبله الخليفة ، وبأن يستقر بمدينة فاس معززاً مكرماً ، حتى يتم هذا الاستقبال^(١) .

ولبت ابن منقذ مقياً بفاس زهاء عام ينتظر لقاء الخليفة . وكان المنصور فى تلك الأثناء ، حسبما نفضل بعد ، قد نظم غزواته الكبيرة لأراضى البرتغال ، واستولى على ثغر قصر أبى دانس أو قصر الفتح فى جمادى الأولى فى سنة ٥٥٨٧ هـ ، ثم سار إلى مدينة شلب واستولى عليها فى جمادى الثانية ، وعاد ظافراً إلى إشبيلية ، ثم غادرها عائداً إلى المغرب فى شهر رمضان سنة ٥٥٨٧ هـ (يوليه ١١٩١ م) ، ولما وصل إلى مراکش واستقر بها ، استقبل ابن منقذ ، وقدمت إليه هدية السلطان ، وكان فيها مصحف كريم فى أربعة غنيشة بالمسك ، وثلاثمائة مثقال من العنبر ، وعشر قلائد من الجواهر ، ومائة قوس بأوتارها ، ونصول سيوف هندية وغيرها . ويقول لنا صاحب كتاب « الإستبصار » إن اجتماع ابن منقذ بالخليفة كان فى السادس من محرم سنة ٥٥٨٨ هـ (يناير ١١٩٢ م) وأنه غادر الحضرة بعد ذلك بخمسة أيام^(٢) . وأضى ابن منقذ إلى عاهل المغرب بمضون سفارته ، فتلقى جواب المنصور عنها مجملاً . ويقول لنا ابن خلدون إن الخليفة اعتذر عن إعاره الأسطول^(٣) وأحيل ابن منقذ إلى الوزراء لاستكمال التفاصيل . ثم غادر مراکش فى العاشر من المحرم سنة ٥٥٨٨ هـ ، وهو يحمل من الخليفة إلى السلطان هدية تضارع هديته فى القيمة والفخامة ، فوصل إلى الإسكندرية فى أواخر جمادى الثانية من هذا العام^(٤) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٨٣ .

(٢) كتاب الإستبصار فى عجائب الأمصار (المنشور بعناية الدكتور سعد زغلول عبد الحميد

١٩٥٨) ص ١٠٧ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٦ .

(٤) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٨٣ ، و ١٨٤ .

ومما تذكره الرواية بهذه المناسبة أن ابن منقذ رفع إلى المنصور ، قصيدة من نظمته من أربعين بيتاً ، يمدحه فيها ، فنحه المنصور صلة سخية قدرها أربعون ألف دينار ، ألفاً عن كل بيت ، وقال له إنما أعطيناك لفضلك وليتكت ، وهذا بعض ما جاء في القصيدة المذكورة :

سأشكر بجرأ إذا عباب قطعته إلى بحر جود ما لأخراه ساحل
إليك أمير المؤمنين ولم تزل إلى بابك المأمول تزجي الرواحل
قطعت إليك البر والبحر موقنا بأن نذاك الغمر بالنجح كافل
فلازلت للعلياء والحدود بانياً تبلغك الآمال ما أنت آمل^(١)

ونحن نعرف أنه لم يكن لهذه السفارة نتائج عملية ، ولم يحصل صلاح الدين على ما كان يرجوه منها من عون وإنجاد . وفي بعض الروايات أن الخليفة المنصور لم يستجب إلى صريح صلاح الدين ، لأنه لم يلقبه في رسالته بألقاب الخلافة^(٢) . وهي رواية ظاهرة الضعف . ذلك أن الأسباب الحقيقية لموقف الخليفة الموحدى ، يجب أن تفهم على ضوء الحوادث والظروف التي كان يجوزها الغرب الإسلامي . أعنى المغرب والأندلس ، في تلك الفترة . فقد كانت إفريقية وهي منطقة حساسة من المغرب ما تزال معرضة لعدوان بنى غانية ، ومن إليهم من الأعراب الضالعين معهم ، وكانت الأندلس تواجه مثل الأخطار التي كان يواجهها الشرق الإسلامي ، من عدوان النصارى والصليبيين . وبالرغم من نجاح الموحدين في غزو البرتغال ، واستردادهم لقصر الفتح وشلب ، فإنه كان ثمة احتمال دائم ، بأن يتكرر عدوان البرتغاليين وخلفائهم الصليبيين القادمين من الثغور الشمالية ، على غربي الأندلس ، وأن يتكرر عدوان القشتاليين على أواسطها . وقد كانت الأساطيل الموحدية ، التي كان صلاح الدين يطمح بالأخص إلى عونها ، ترابط باستمرار في مياه الأندلس الجنوبية والغربية ، استعداداً لموازرة الجيوش الموحدية لرد كل عدوان محتمل . ومن ثم فإنه لم يك ثمة إزاء هذه الظروف والأخطار كلها ، فيما يبدو ، مجال لأن يتقدم عاهل المغرب إلى غوث إخوانه المشاركة ، بقوات كان هو في أشد الحاجة إليها . وكان على كل فريق أن يعتمد على نفسه في رد العدوان الذي يواجهه .

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٧ .

(٢) ابن خلكان في الوفيات ج ٢ ص ٤٣٢ .

على أننا نستطيع ، بالرغم من هذه الآثار السلبية ، التي انتهت إليها محاولات صلاح الدين للحصول على عون الخليفة الموحدى ، أن تقول إنها كانت تنطوى على نفس المغزى العظيم الذى أوحى ببذلها ، وهو رسوخ التضامن الروحى ، وقوة المشاعر المشتركة ، بين شطرى الكتلة الإسلامية ، فى المشرق والمغرب ، فى تلك العصور التي تعرض فيها كلاهما لمحنة العدوان الصليبي .

- ٣ -

لبث المنصور خلال إقامته بإشبيلية ، مذ عاد إليها فى جمادى الآخرة سنة ٥٨٦ هـ ، يجد فى أهباته العسكرية ، ويجمع الآلات والعدد ، ويستكمل ضم الحشود . فلما تمت أهباته ، واستكملت من سائر نواحيها ، عزم على الحركة والسير لاستئناف الغزو ، فخرج من إشبيلية فى غرة ربيع الآخر سنة ٥٨٧ هـ (٢٨ أبريل سنة ١١٩١م) فى قوات كثيفة ، حسنة الأهبة والهيئة والنظام ، وعبر نهر وادى يانه مختزلاً أراضي البرتغال ، ومتجهاً نحو الشمال الغربى ، وكان مقصد الخليفة الأول ، هو قاعدة قصر الفتح أو قصر أبى دانس الحصينة ، الواقعة جنوب شرق أشبونة على الضفة اليمنى لنهر سادو ، على مقربة من البحر ^(١) ، فلما وصل إليها قُسمت الحشود الموحدية وفق نظام خاص ، وقام العبيد وأهل الخدمة بردم خندق المدينة من جهاتها الأربع ، وأقبلت القوات الموحدية إلى السور تحاول اقتحام المدينة ، ولكن البرتغاليين أمطروا الهاجين وابلاً كثيفاً من النبال والحجارة ، فأصيب كثير من الحند الموحدين بالجراح . فلما رأى المنصور فتك النبال بجنده ، أمر بوقف القتال ثلاثة أيام ، طلباً للراحة ، والعود إلى مهاجمة المدينة ، بعزائم أشد . ووصل فى تلك الأثناء جانب من الأسطول الموحدى ، دخلت سفنه النهر الذى تقع عليه المدينة ، وهى تحمل آلات الهجوم الفتاكة . وفى الحال - فى خلال يوم وليلة فقط - نصبت حول المدينة أربعة عشر منجنيقاً . وفى اليوم الخامس عشر من جمادى الأولى (سنة ٥٨٧ هـ) الموافق ١٠ يونيه سنة ١١٩١ ، صدر الأمر لسائر الجيش الموحدى بمهاجمة المدينة ، فانقض عليها من سائر الجهات ، وأخذت

(١) كانت قاعدة القصر Alcacer do Sal فى ذلك الوقت ، حسبما يصفها لنا الإدريسي ، مدينة حسنة متوسطة على النهر المسمى شطوبر (Sadoa) وهو نهر كبير تصعد فيه السفن والمراكب السفريّة بكثرة . وفيها استدار بها من الأرض كلها أشجار الصنوبر ، وبها الإنشاء الكثير ، وبينها وبين البحر عشرون ميلاً (وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ص ١٨١) .

المجانيق تضرب المدينة بشدة ، فلما تفاقم الأمر ، ووصل هجوم الموحدين إلى ذروة عنفه وروعته ، بادر أهل المدينة بطلب الأمان ، ونزلوا من المدينة مستسلمين فحملوا في المراكب ، وبعثوا إلى إشبيلية ليكونوا هنالك عنوان الفتح . واستولى الموحدون على المدينة ، وشرع المنصور في النظر في شئون الحصن وأحواله ، وأمر بإصلاحه وشحنه بالمقاتلة الأنجاد من الموحدين ، ورتب لهم من المؤن والمواد رواتب شهرية وسنوية ، في مخازن إشبيلية وسبتة ، وندب لولاية الحصن المذكور أبا بكر محمد بن وزير وهو ابن أبي محمد سيدراى بن وزير زعيم الغرب السابق ، أيام ثورة ابن قسى ، وكان حاكم الحصن من قبل ، قبل أن يسقط في أيدي البرتغاليين في سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م)^(١) .

وسار الموحدون بعد ذلك إلى حصن قلالة^(٢) ، وكان أمنع حصون هذه المنطقة ، وبه حامية قوية ، ولكنهم أيقنوا باستحالة المقاومة ، وعرضوا التسليم في الحال ، والجلاء عن الحصن ، فاستجاب المنصور لرغبتهم ، وأخلى سبيلهم ، فساروا آمنين إلى بلادهم ، ونهب الموحدون سائر ما في الحصن من من الأثاث والأقوات والسلاح . ثم أمر المنصور بهدمه ، فهدم حتى بحيث آثاره . وزحف الموحدون على حصن المعدن^(٣) القريب ، فاستولوا عليه ، وأمر المنصور كذلك بهدمه ، فهدم حتى صار أثره بعد عين .

وتقول الرواية النصرانية في شأن هذه الحصون ، إن أهل الحصون المجاورة ، وهى حصون قلالة ، وكوينا والمعدن ، لما رأوا سقوط حصن القصر بالرغم من مناعته بهذه السرعة ، بادروا باخلاء حصونهم ، وفروا في مختلف الأنحاء ، ولما أشرف الموحدون عليها ، أمر المنصور بهدمها ، فهدمت حتى سويت بالأرض^(٤) .

ثم اتجه الموحدون بعد ذلك جنوباً إلى المقصد الرئيسى في هذه الغزوة ، وهو مدينة شلب . فوصلوا إليها في يوم الخميس الثانى من جمادى الآخرة (٢٧ يونيه سنة ١١٩١ م) . وفى الحال طوقها الموحدون بقوات كثيفة ، وردمت الخنادق

(١) البيان المغرب ص ١٨٥ .

(٢) حصن قلالة ، وهو بالبرتغالية *Palmela* .

(٣) حصن المعدن هو بالبرتغالية *Almada* .

(٤) *Huici Miranda: ibid; (cit Crónica de Sancho 1, p. 537)*

الحديقة بها ، ونصبت حول أسوارها الحائقي ، وأخذت تضربها بشدة . واستمر الحصار والضرب حتى يوم الأربعاء الخامس عشر من جمادى ، ففي فجر تلك الليلة ، كان الموحدون ساهرين يرقبون الفرص . وكان الحراس وأهل المدينة ، قد غلب عليهم التعب والنوم ، ولم يتوقعوا أن يقوم الموحدون بأية محاولة في مثل هذه الفترة . ولكن الموحدين بالعكس ، لما رأوا إغفاء أهل المدينة ، تقدم أحد أدلائهم من السور ، ووثب إلى ثلثة فيه ، وتبعه جماعة من الأنجاد ، فرفعوا الرايات على السور ، وضربت الطبول ، وضج الجند بالتهليل والتكبير ، واقتحم الموحدون المدينة ، فلم يستيقظ أهلها ، إلا وقد سيطر عليها الفاتحون ، يشخون فيهم قتلا وجرحاً ، فبادروا بطلب التسليم والأمان ، فضرب لهم المنصور أجلا قدره عشرة أيام لإخلاء المدينة ، وخرج النصارى من قصبة شلب في يوم الخميس الخامس والعشرين من جمادى الثانية (٢٣ يولييه سنة ١١٩١ م) ودخلها الموحدون في الحال ، وعادت شلب بذلك إلى قبضة الإسلام ، بعد أن لبثت في أيدي البرتغاليين ، منذ سقوطها في رجب سنة ٥٨٥ هـ ، زهاء عامين^(١) . وقدم المنصور على ولايتها ابن وزير^(٢) .

تلك هي الرواية الإسلامية عن استرداد شلب . أما الرواية النصرانية ، فلا تقدم إلينا شيئاً من تلك التفاصيل ، بل تكتفى بالقول بأن الموحدين نصبوا الحائقي حول المدينة ، وأخذوا في ضربها بالنهار والليل دون هوادة ، حتى اضطر أهلها إلى التسليم ، وخرجوا منها بأنفسهم وأمتعتهم .

ولبث المنصور ثلاثة أيام أخرى في ظاهر شلب ، ثم غادرها في قواته يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من جمادى الثانية ، بعد أن أنفق في غزوته زهاء ثلاثة أشهر ، فوصل إلى إشبيلية في الرابع من شهر رجب سنة ٥٨٧ هـ (٢٨ يولييه سنة ١١٩١ م) .

وأنفق المنصور في إشبيلية شهرين آخرين ، عني خلالها بتنظيم شئون الأندلس واختيار أكفأ القادة لرياسة الثغور ، أو بعبارة أخرى مدن الحدود وحصونها ، وشحنها بصفوة الجند ، وتعيين بعض قرابته لولاية المدن الشاغرة من الولاة .

(١) البيان المغرب — القمم الثالث ص ١٨٥ و ١٨٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

وفي غرة رمضان ، جلس بمحذائق البحيرة خارج لإشبيلية ، لتلقى تحيات المودعين ، ولما تمت مراسيم الوداع ، غادر لإشبيلية ، ميمماً شطر العدو ، وعبر البحر في الخامس عشر من رمضان ، واستمر في سيره حتى وصل إلى حضرة مراکش^(١) وماكاد يستقر بها حتى استقبله الشعراء كالعادة بقصائد التحية والتهنئة . فمن ذلك ما قاله شاعره الخراوى :

لياب الإمام حياة الأمم توالى السرور به وانتظم
وجاد به الأرض صوب الحيا وجلى الظلام به بدر تم
فتوح عظام جناها الزمان لذى هم دونهم الهم

على أن المنصور ماكاد يستريح من وعناء السير والسفر ، حتى دهمه المرض واشتد به ، وطال شهراً حتى خيف منه على حياته . وأشار عليه الأطباء بالانتقال إلى فاس ، فحُمِلَ إليها في محفة ، واستمر بها شهراً حتى تماثل إلى الشفاء . ويروى لنا المراكشى بهذه المناسبة أن الخليفة حينما اشتد مرضه ، أرسل يستدعى أخاه السيد أبا يحيى وإلى لإشبيلية ، وأن أبا يحيى لبث يتلأأ في العود مؤملاً أن يموت أخوه ، وأنه قام في ظل هذا الأمل باستكتاب بعض أشياخ الخزيرة مساطير لتأييد دعوته ؛ فلما برىء الخليفة من مرضه عاد أبو يحيى إلى المغرب . وكان أخوه الخليفة قد وقف على حركته ، فأمر القبض عليه وقتله ، فتولى قتله أخوه لأبيه السيد عبد الرحمن بن يوسف ، وذلك بمحض من الناس^(٢) . ونحن نلاحظ على هذه الرواية بأنها متأخرة عن موضعها ، وأن حادث ائثار السادة بالخليفة وقع في سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) ، حسبما أشرنا إليه في موضعه ، وأن السيد أبا يحيى وهو ولد الخليفة وليس بأخيه ، لم يكن بين المتآمرين ، الذين عاقبهم الخليفة بالإعدام .

(١) يقدم إلينا صاحب ررض القرطاس ، رواية أخرى عن غزوة الموحدين للبرتغال واسترداد مدينة شلب ، فيقول لنا إن الذى اضطلع بهذه الغزوة هو محمد بن يوسف وإلى قرطبة ، وأنه سار إلى شلب في جيش عظيم من الموحدين والعرب والأندلس ، حتى نزل شلب فحاصرها ، وشد عليها القتال حتى فتحها ، وفتح قصر أبي دانس ومدينة باجة ويابرة ، ورجع إلى قرطبة فدخلها بخمس عشرة ألف سبية وآلاف من أسرى الروم ، وذلك في شوال سنة سبع وثمانين وخمسمائة (ص ١٤٤) وهى رواية ظاهرة الضعف والخلط ، خصوصاً وأنها تغفل ذكر المنصور بالمرّة وتنسب لغيره قيادة هذه الغزوة .
(٢) المعجب ص ١٥٨ و ١٥٩ .

وشعر الخليفة إبان مرضه بدقة الموقف ، وأراد أن يحتاط لكل احتمال ، فعقد البيعة لابنه أبي عبد الله محمد بولاية عهده ، وكان سنة نحو عشر سنين^(١) ، وهو الذى تسمى بالناصر فيما بعد ، وكتب بذلك إلى خاصة القرابة كالسيد أبي زيد وإلى إفريقية ، وولده السيد أبي يحيى وإلى إشبيلية ، فبادروا بالحضور إلى الحضرة ، مطيعين موثدين لذلك العهد ، وجاء وفد من شبه الجزيرة يحمل تأييد أهل الأندلس ، وجاء معهم يوسف بن الفخار اليهودى رسول ملك قشتالة يسعى إلى توطيد الهدنة المعقودة . وكان الخليفة قد أبل عندئذ من مرضه ، فتلقى تهنئة الوفود والأكابر بإبلاله ، وأنشد الشعراء قصائدهم كالمعتاد^(٢) .

وقد انتهت إلينا صورة وثيقة البيعة الرسمية التى كتبها أهل قرطبة بمبايعة ولى العهد أبي عبد الله محمد الناصر ، وهى مؤرخة فى العشر الأوائل من ذى القعدة سنة ٥٨٨ هـ ، وتبدأ بالتثوية بأهمية الاستخلاف فى الولاية ، وشرعيته ، منذ عهد النبي ، حينما استخلف أبا بكر فى الصلاة ، ثم تنوه بقيام المهدي ، وإعلاء كلمة الدين بظهوره ، وتقول لنا بعد ذلك فى صدد البيعة ما يأتى :

« وبعد فهذا ما أجمع عليه الملأ بقرطبة وأعمالها حرسها الله ، من الطلبة ، والموحدين والعرب والأجناد والوجوه من الأشياخ والأعيان والقواد والخواص والعوام من الرعية ، من حاضر منهم ومن باد ، أجمعوا بتوفيق الله وعونه ، وإحسانه العليم ومنه ، على المبايعة للأمير الأجل الملك السعيد ، السيد الأوحد . . . المؤهل المؤئل ، الحائز لشرف الانتساب . . . فرع الشجرة المباركة الطيبة الانماء التى أصلها فى مقر الهدى ثابت ، وفرعها فى السماء . . . أبو عبد الله محمد بن سيدنا الإمام المنصور ، الناصر لدين الله تعالى الخليفة المرتضى أمير المؤمنين بن سيدنا أمير المؤمنين ، بن سيدنا أمير المؤمنين أعلى الله أمرهم وأسماهم . »

ثم يقول « فبايعوه بمقتضى أمره العلى ، ونصه الواضح الجلى ، ببيعة مباركة سعيدة ، استقبلوها آمالاً فسيحة مديدة ، وأعمالاً من البر والتقوى جديدة . أسكبت عليهم شآبيب الرحمة والأمان ، وأصحبت فواضل الإنعام والإحسان ، وازدادت بهاء وجمالاً معالم الإسلام والإيمان . . . » وإن أهل قرطبة « بادروا إلى

(١) المعجب ص ١٧٥ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٨٧ .

التزام عهد هذه البيعة المباركة عهداً ، وإحكام عقدها السعيد عقداً ، فبايعوا للأمر الأجل السيد السعيد الأوحده . . . بيعة لإخوانهم الموحدين ، على صفاء من قلوبهم ، وخلوص من عيوبهم ، وصحة من عقائدهم وضمايرهم ، وتوافق من بواطنهم ، وطوايرهم ، وعلى أوفى عهود البيعة وشروطها ، وأكمل عقودها وربوطها ، من السمع والطاعة في السر والجلهر ، والعسر واليسر ، وعلى اعتقاد النصيحة والموالة الصريحة ، أعطوه بذلك عهد الله المؤكد ، وميثاقه المشدد ، وأعطوه به صفة قلوبهم وإيمانهم ، وعهدة إسلامهم وإيمانهم ، وخالصة سرهم وإعلانهم^(١) .

وفي العام التالي سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢م) وصل السيد أبو زيد والى إفريقيا ، ومعه برسم الخليفة هدية جليلة من التحف الملوكية ، وفي صحبته وفد من أعيان عرب سليم ورياح ، وأنجادهم^(٢) ، وكان الخليفة قد تحرك في تلك الأثناء من الحضرة قاصداً إلى فاس نزولا على نصيح أطبائه ، فالتقى به السيد أبوزيد ومن معه في تانسيفت ، وأمر الخليفة بعد انقضاء مراسيم التحية واللقاء ، بمسير الوفود القادمة إلى مراكش لمشاهدة القصور والمرافق الخلافية ، وما تحويه الحضرة من جليل الآثار والمنشآت ، الدالة على عظمة الدولة الموحدية وقوتها . فأضمت الوفود بالحضرة أياما ، ثم لحقت بأمر المؤمنين في طريقه لتزجي إليه آيات الشكر ، والعرفان .

ورحل الخليفة إلى رباط الفتح ثم إلى فاس . وعنى خلال إقامته بفاس بالنظر في شئون إفريقية . وكانت هذه الشئون بما يعتورها من المتاعب ، ومن الأخطار المترتبة على عدوان بنى غانية ، تلقى من الخليفة أعظم اهتمام ، وغمر الخليفة بهذه المناسبة وفود العرب من سايم ورياح بوافر صلاته وإكرامه ، والتزمت الوفود من جانبها بالوفاء ومقابلة البربحسن الصنيعة ، ثم عادت إلى مواطنها بإفريقية ، وقد نالت من إنعام الخليفة وبره أضعاف ما أملت .

ولما شعر الخليفة باكتمال الصحة والعافية ، سار إلى رباط الفتح مرة أخرى ، وكان يؤثر هذه المدينة التي أسسها جده عبد المؤمن بحبه ، ويميل إلى سكنها والاستحجام بها . وكان في تلك المرة قد عقد العزم على الانتقال إليها بصفة نهائية ،

(١) ورد نص هذه البيعة كاملا ضمن المخطوط رقم ٤٨٨ الغزيرى بمكتبة الإسكوريال ، وهو الذى سبق أن نقلنا عنه عدة من الوثائق المرابطية .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

واتخاذها حاضرة لمملكته ، فأمر بتجديد قصبتها ، وكانت تسمى بالمهدية ، إذ كانت يخططها وموقعها على البحر ، وأحاطته بها ، تشبه المهدية الفاطمية بإفريقية ، وألقى بشأن تنظيمها وتجميلها بقية أوامره ، ثم عاد إلى مراکش في منتصف هذا العام (٥٨٨ هـ) ، واستقر بها ، وهو دائب الاهتمام بأعمال الإنشاء ، وتجديد الأهباء ، واستكمال العدد^(١) .

وفي العام التالي سنة ٥٨٩ هـ ، أمر المنصور بإقامة صرح عظيم حصين خارج لإشبيلية ليكون منزلاً للمجاهدين ، وأن يكون موقعة في وسط الشرف . ويقدم إلينا المراكشي بعض تفاصيل عن هذا الصرح ، فيقول لنا ، إن المنصور حينما عاد ظافراً من غزوته لاسترداد شلب ، أمر أن يُبنى له على النهر الأعظم (نهر الوادي الكبير) حصن ، وأن تبني له في ذلك الحصن قصور وقباب ، جارياً في ذلك على عادته من حب البناء ، وإيثار التشييد ، فتمت له هذه القصور المذكورة على ما أراد ، وسمى ذلك الحصن حصن الفرج . ويضيف صاحب البيان المغرب إلى ذلك ، وهو ينقل فيما يرجح عن ابن صاحب الصلاة ، أن هذا الحصن أو القصر الكبير ، قد كمل بمجالسه المشرفة على إشبيلية وما والاها من البطاح ، وأنه جاء من أضخم ما عمل ، وكان المنصور وهو بالحضرة دائب التشوف إلى متابعة أخبار هذا الصرح ، والوقوف على ما تم فيه ، وعلى صفاته ، حتى إنه أمر أخيراً باستدعاء المشرف على بنائه إلى الحضرة ليقص عليه بنفسه كل ما يتعلق بهذا الصرح وطرأه وصفاته^(٢) .

ووقعت في تلك السنة سنة ٥٨٨ هـ ، ببلاد الزاب ، جنوبي إفريقية ، فتنة جديدة كان بطلها زعيم يدعى الأشل . وليس في الرواية الموحدية ، ما يلقى ضوءاً على شخصية هذا الزعيم النائر ، ولا كنه دعوته ، وكل ما هنالك أنها تقول لنا ، إن الأشل قام ببلاد الزاب ودعا لنفسه ، فالتف حوله شريحة من العرب ، وكثير من أشتات الناس من أهل تلك المنطقة ، ومن أهل الجبال المجاورة ممن تصفهم الرواية « بالغوغاء والسفلة » وكان يلقي في روع أتباعه بأنه موعود بأمره ، وأن

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٨٨ و ١٨٩ . ويقول ابن خلكان إن رباط الفتح كانت على هيئة الإسكندرية في الاتساع وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحسينه (الوفيات ج ٢ ص ٤٣١) وهو قول تطبعه المبالغة .

(٢) المعجب ص ١٦٥ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٨٩ .

الكتب والدلائل نصت على خبره : وعظم أمره ، وذاع ذكره ، وكثر عدوانه في تلك المناطق ، وتوالت على الخليفة المنصور أنبأؤه ، فبعث إلى السيد أبي زكريا وإلى بجاية ، بأن يبذل كل ما في وسعه للقبض على هذا الزعيم الثائر : فخرج السيد أبو زكريا في عسكره من بجاية ، وهو يتحسس أخبار الأشل ، ويتقصى آثاره . ولما توغل بعيداً في الصحراء ، اجتمعت طوائف من عرب البوادي ليحاولوا مهاجمته ، وانتهاب محلته ، ولكنه استطاع أن يجتنب اعتداءهم طوراً بلين القول وطوراً بالوعيد وإظهار القوة ، وأنفذ السيد رهطاً من رجاله ، يتحسسون أخبار الثائر ومكان وجوده : وحاول في نفس الوقت أن يغري بعض الأعراب بالصلوات والوعود ليكشفوا له مكان وجوده ، ولكنه لم يظفر منهم بطائل : ثم عاد إليه رسله الثقا ، وأخبره بعضهم بمكان وجود الثائر ، وأنه يتصدر مجلس الزعامة وهو في ثياب فاخرة ، وعلى رأسه عمامة خضراء ، وبين يديه سيف مُحلّى ، وقد التفت حوله لفيف من شيعته وهو يتحدثهم بلسان حضري . وعندئذ حاول السيد مرة أخرى أن يحمل بعض الأعراب على إرشاده عن هذا المكان ، وهو يبذل لهم أطيب الوعود . ولكن الأعراب عقدوا العزم على مخادعته وغدره . ثم سار السيد في قواته ميمماً شطر قلعة بني حماد ، وهي من أعمال بجاية ، ودخلها بعسكره . وهناك وفد عليه الزعماء العرب يطالبونه بإنجاز وعوده ، فاحتفل بهم وقدم لهم الطعام . فلما استقروا داخل القلعة ، أغلقت أبوابها ، وأمر السيد بالقبض على جملة من أولادهم ، ثم استدعى آباءهم ورؤساء العشائر منهم ، وأقسم لهم بأوثق الأيمان أنه لن يخل وثاقهم ، ولن يطلق سراحهم إلا بإحضار الأشل أو رأسه ، أو يحمل رؤوسهم مكان رأس الأشل إلى الخليفة المنصور . فأبدى العرب أنهم لا يستطيعون الغدر بمن لجأ إليهم ، واحتسب بجوارهم ، ولو قتلوا جميعاً . وعندئذ تدخل أمهات الأبناء المعتقلين ، وصاحوا كيف نضحى بأبنائنا في سبيل شقي منافق . وعندئذ نشب الخلاف بين الأمهات والآباء ، وذاع الخبر في مختلف الأحياء ، ووقف الأشل على ما حدث فأراد الفرار اتقاء الغدر ، ولكن رهطاً من عشائر المعتقلين بادروه بالهجوم ، وقبضوا عليه وعلى وزيره وحملوهما إلى القلعة ، فغمرهم السيد بإحسانه وصلاته ، وأخلى سبيل المعتقلين ، وأمر بإعدام الثائر وصاحبه ، وحملت رأسه إلى بجاية ، وعلقت على بابها مع ذراعه وعضده ، وأخذت بذلك ثورته في مهدها^(١).

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٩٠ و ١٩١ .

ولم تكد تنتهى هذه الفتنة حتى وردت على المنصور فى سنة ٥٩٠ هـ ، أبناء مقلقة عن إفريقية ، خلاصتها أن بنى غانية قد استأنفوا حركاتهم بنشاط مضاعف ، وأن حلفاءهم من العرب والغز ، يعيشون فساداً فى أنحاء إفريقية ولاسيما بلاد الجريد . ونحن نعرف أن على بن إسحاق بن غانية الميورقى ، بطل هذه الحركة التى كادت تقضى على سلطان الموحدين فى إفريقية ، كان على أثر هزيمته الساحقة فى معركة الحمة (سنة ٥٨٤ هـ) قد فر جريماً إلى أعماق الصحراء . وهنا تختلف الرواية فى مصيره ، فيقول لنا صاحب المعجب إنه توفى بعد قليل متأثراً بجراحه التى أصابته فى معركة الحمة^(١) . ويقول ابن خلدون إنه توفى فى بعض حروبه مع أهل نفزاوة من سهم أصابه فى بعض المعارك ، وذلك فى نفس العام (٥٨٤ هـ) فدفن هناك ، ثم حمل رفاته إلى ميورقة^(٢) . ويقول التجانى فى رحلته إن على بن غانية ، حينما طارده المنصور بعد موقعة الحمة ، توغل فى صحراء توزر ، فرجع عنه المنصور ، ثم مات على بعد ذلك على توزر من سهم أصابه فى ترقوته فقضى عليه^(٣) .

ولما توفى على بن غانية ، قام بالأمر من بعده أخوه يحيى ، وهو يضطرم بمثل مثله ، ويرمى إلى تحقيق مثل غاياته ، أعنى قيادة الثورة ضد الموحدين ، والقضاء على سلطانهم فى إفريقية ، معتمداً فى ذلك ، مثل أخيه على مخالفة سائر العناصر الخصيمة من العرب والغز وغيرهم . ومن ثم فإنه جدد التحالف الذى كان بين أخيه وبين قراقوش أو قراقش زعيم الغز . ولكن هذا التحالف لم يطل أمده . ذلك أن قراقش مالبث أن جنح إلى طاعة الموحدين ، فسار إلى تونس واجتمع بوالها السيد أبى زيد ، فتلقاها بمنتهى الترحاب والتكريم ، وأقام بها وقتاً فى كنفه وتحت رعايته ، وكان ذلك فى سنة ٥٨٦ هـ^(٤) . وهنا يحق لنا أن نتساءل هل كانت ثمة علاقة بين تصرف قراقوش وبين سفارة ابن منقذ التى أوفدها صلاح الدين فى نفس هذا العام إلى الخليفة الموحدى ؟ لقد كان قراقوش مملوكاً للملك المظفر تقي الدين بن شاهنشاه بن أيوب بن شادى ، ابن أخى السلطان

(١) المعجب ص ١٥٤ .

(٢) ابن خلدون فى كتاب البرج ج ٦ ص ١٩٣ .

(٣) رحلة التجانى ص ١٦٢ .

(٤) رحلة التجانى ص ١٠٤ .

صلاح الدين، ومن الممكن أن يكون تصرف قراقوش قد وقع بإيحاء السلطان ، حتى لاتعتور الصعاب مهمة سفيره لدى البلاط الموحدى . بيد أننا لانميل إلى الأخذ بهذا الرأي ، لأن قراقوش لم يكن إلا مغامراً لا ذمام له ، ولا يدين في الظروف التي كان يجوزها بدين الولاء لأحد . وقد أقدم قراقوش من قبل على مثل هذه الخطوة حينما كتب إلى المنصور عقب موقعة الحمة بعرض التوبة والطاعة . ومن ثم فإننا نراه بعد فترة يسيرة من التظاهر بطاعة الموحدين ، يفر من تونس ليستأنف مغامراته ، وذلك قبل أن ينتهى ابن منقذ من تأدية سفارته . ولما وصل قراقوش إلى قابس ، استطاع أن يدخلها مخادعة ، وقتل جماعة من أهلها ، وأعلن خروجه على الموحدين مرة أخرى ، واستدعى أشياخ العرب من ذباب وسليم ، فقتل سبعين منهم ، ومن بينهم محمود بن طوق بن بقية زعيم الحمديد ، وحيد بن جارية ، وذلك داخل قصر العروسين بقابس^(١) . ثم سار إلى طرابلس فاستولى عليها من يد حاكمها الموحدى ، وسار بعد ذلك إلى بلاد الجريد فاستولى على معظم أنحائها . وكانت بلاد الجريد مقر حليفه يحيى بن غانية . وعندئذ وقع الخلاف بينهما ، وسار يحيى لقتال حليفه السابق ، فالتقيا بموضع يعرف « بمحسن » من أعمال طرابلس ، فهزم قراقوش هزيمة شنيعة ، وفر إلى الجبال ، وأتبع يحيى نصره بانتزاع طرابلس من يد ياقوت نائب قراقوش ، وذلك بعد حصارها من البحر بمركبين بعث بهما إليه أخوه عبد الله والى ميورقة ، وقبض على ياقوت وأرسله مصفداً إلى ميورقة ، فلبث سجيناً بها ، حتى استولى الموحدون على ميورقة سنة ٥٩٩ هـ ، وعندئذ أفرج عنه ، وقصد إلى مراکش . وعين يحيى ابن عمه تاشفين بن غازى نائباً عنه بطرابلس ، وغادرها ليتابع مغامراته . فلم يمض سوى قليل حتى ثار أهل طرابلس بنائب الميورقي وأخرجوه منها ، وأعلنوا طاعتهم للموحدين مرة أخرى^(٢) .

ونحن نقف في حوادث إفريقية عند هذا الحد ، لنعود إلى تتبع حركات يحيى بن غانية ، الذى قدر له أن يمضى في قيادة المعركة ضد الموحدين زهاء زهاء خمسين عاما ، وهو ينزل بقواتهم الضربة تلو الأخرى ، وسلطان الدولة الموحدية بإفريقية يهتز ويتصدع تباعا .

(١) رحلة التجاني ص ١٠٤ ، وابن خلدون في البرج ج ٦ ص ١٩٣ .

(٢) رحلة التجاني ص ٢٤٤ و ٢٤٥ .

الفصل الثالث

موقعة الأرك

عزم المنصور على السير إلى إفريقية . مسيره إلى رباط الفتح . مقدم ولاية الأندلس وإبلاغهم بانقضاء الهدنة مع النصارى . غارات النصارى وعيهم في أراضي الأندلس . تعديل المنصور لخطة وعزمه على العبور إلى الأندلس . رواية أخرى عن بواش هذا التحول . إتمام الأهبة ومقدم سائر الحشود . سير المنصور من مراكش إلى قصر الحجاز . جواز الجيوش الموحدية ثم الخليفة إلى شبه الجزيرة . مسيره إلى إشبيلية . إجراء التمييز واستكمال الأهبة . سير الخليفة إلى قرطبة ثم خروجه إلى قشتالة . أهبة ألفونسو الثامن . مسيره نحو قلعة رباح . نزوله بقواته في ربوة الأرك . سير الخليفة إلى لقائه ونزوله قرب الأرك . اشتباك الطلائع . رأى ابن صناديد في خطة القتال . تقسيم الجيش الموحدي وقواده . زحف الموحدين صوب الأرك . استعدادهم لخوض المعركة . ترتيب الجيوش الموحدية . تبادل الغفران والحث على الجهاد . وصف عيان لميدان معركة الأرك . بدء المعركة في ضحى التاسع من شعبان . نزول القشتاليين واندفاعهم نحو المعسكر الموحدي . هجوم القشتاليين على القلب . عنف القتال وروعته . مقتل القائد العام أبي يحيى . اندفاع جيوش الأندلس والمغرب والأغزاز نحو النصارى . اضطراب النصارى إلى الارتداد والفرار إلى الربوة . حملة العرب والمطوعة والأغزاز عليهم وحصدهم . زحف الخليفة في سائر قواته نحو النصارى . ارتقاع النصارى وفرارهم . اقتحام الموحدين لحصن الأرك . وصف الرواية النصرانية لأدوار المعركة . ارتداد ملك قشتالة في فله نحو طليطلة . الاتفاق بين الفريقين على تسليم حصن الأرك . استنقاذ الأسرى المسلمين وتسريح حامية الحصن . نتائج المعركة . عدد الجيش القشتالي وخسائره . خسائر المسلمين . الغنائم والأسلاب . المقارنة بين موقعة الزلاقة وموقعة الأرك . عنصر الأسطورة في المعركتين . الخلاف بين الموقعتين من حيث الظروف والنتائج . أسباب نصر الموحدين . زحف الموحدين على قلعة رباح واقتحامها . وصف عيان لأطلال هذه القلعة . تقسيم المنصور للغنائم . عوده إلى إشبيلية . توجيه كتب الفتح . تهايش الشعراء . عناية المنصور بإصلاح الجامع وإتمام صومعته . قضاؤه للشاء في إشبيلية . التمييز والاستعداد لاستئناف الغزو . سير المنصور من إشبيلية إلى منطقة أستمادورة . افتتاح الموحدين لحصن متناحش . استيلائهم على مدينة ترجالة ، وسانتاكروث . اقتحامهم لمدينة بلاسشيا وأسر حاميها . سيرهم إلى طليطلة وتخريبهم لأحوازها . احتجاب القشتاليين وإحجامهم عن لقاء الغزاة . اقتراب الموحدين من طليطلة وتخريبهم لبساتنها . رواية عن غزوهم لطليطلة . استنصار ملك ليون بالمنصور . إمداده بقوة من الموحدين . غزو الموحدين واليونانيين لقشتالة وتخريبهم لأراضيها . عود المنصور إلى قرطبة ثم إلى إشبيلية . نتائج هذه الغزوة السلبية . عناية المنصور بأمر العمال والنظار . قيامه بتعيين بعض الولاة . استعداده للغزوة التالية . مسيره إلى قرطبة ونزوله بها .

لما تواترت على المنصور خلال سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٤ م) تلك الأنباء المقلقة عن حوادث إفريقية ، وتوالت عليه كتب واليها الشيخ أبي سعيد بن أبي حفص عن استفحال أمر بني غانية ، وتفاقم غارات العرب واشتداد عيهم ، اعزم أن يسير إلى إفريقية لمعالجة الأمور بنفسه ، فغادر مراكش إلى رباط الفتح ، ليقوم هنالك بإعداد الحملة المرغوبة ، وبعث بكتبه إلى ولاية الأندلس بالحضور لتلقى تعليماته فلما وفدوا عليه بالرباط قرروا أن الهدنة التي عقدت مع ملك قشتالة في سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠) عقب جوازه السابق إلى الأندلس ، قد انتهى أجلها ، وأنه أي ملك قشتالة قد بعث إلى جميع الثغور الإسلامية الواقعة على حدودها ينذر بها بذلك ، وأنه اعتماداً على انشغال الخليفة بحوادث إفريقية ، وباستعداده للحركة إليها ، قد بعث أقباطه وقادته إلى مختلف أنحاء الأندلس يغيرون عليها ، ويشخون فيها ، حتى بلغت غاراتهم أحواز إشبيلية^(١) . فصرف المنصور ولاية الأندلس ، وغادر رباط الفتح إلى مكناسة ، وهو على عزمه أن يسير إلى إفريقية . ولكن توالت عليه عندئذ كتب أهل الأندلس ، وقادة الثغور فيها ، باشتداد وطأة العدو ، وتفاقم غاراته . وكان ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، قد بعث مطران طليطلة مارتن لوبث في حملة تخريبية محضة إلى أراضي الأندلس ، عاثت فيها أشد عيث ، واستولت على كثير من الغنائم والماشية . فرفعت هذه المخاطبات والأنباء كلها إلى المنصور ، وهو في مكناسة يستعد للسير إلى إفريقية فأقلقته وأهمته ، ورأى عندئذ أن يعدل خطة سيره ، فأمر بأن تُبعث الأمداد إلى ولاية إفريقية ، وأن تعد العدة للسير إلى الأندلس ، فاشتدت الحركة عندئذ ، وأقبلت الحشود من كل صوب ، وكانت رغبة المجاهدين في العبور إلى الأندلس أشد لقربها ، وتيسير المؤن والأقوات بها^(٢) .

تلك هي البواعث والظروف التي أملت على المنصور عزمه على العبور إلى الأندلس للمرة الثانية . ولكن توجد ثمة رواية أخرى خلاصتها أن ملك قشتالة ،

(١) وتوجد ثمة رواية أخرى خلاصتها أن ملك قشتالة كان قد بعث إلى المنصور ، وهو يتأهب لغزو إفريقية ، رسوله يطلب تجديد الهدنة ، وهو يضمرك الكيد ، فلما وصلت أنباء الغارات التي قام بها القشتاليون في أراضي الأندلس ، والرسول في محلة المنصور ، أمر المنصور بطرده وتجهيزه إلى البحر (أورد هذه الرواية خلال حديثه عن موقعة الأرك أبو الحسن حازم القرطاجني في كتابه « رفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة » مخطوط المتحف البريطاني ص ١٥٢) .

(٢) البيان المغرب - القمم الثالث ص ١٩١ و ١٩٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

على أثر انقضاء الهدنة التي كانت معقودة بينه وبين الموحدين ، غزا أراضي الأندلس ، وتوغل في غاراته حتى الجزيرة الخضراء . وهناك وجه إلى الخليفة المنصور كتاباً من إنشاء وزيره اليهودي ابن الفخار ، يتحداه فيه بأسلوب يفيض غروراً ووقاحة ، أن يأتي لقتاله ، فإن جبن أوعجز ، فليرسل إليه السفن ليجوز فيها إليه ، ويقاتله في أعز مكان لديه ، وأن المنصور غضب لذلك ، واستنفر الناس للجهاد ، وكانت حركته الثانية إلى الأندلس^(١) . على أنه يبدو من نص هذا الخطاب ، ومن تحدّثه عن « تواكل رؤساء الأندلس ، وإخلاصهم إلى الراحة » أنه يمكن بطريقة أرجح نسبته إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وأنه كان موجهاً إلى يوسف بن تاشفين ، وليس إلى الخليفة الموحدى .

وفي أوائل سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) كانت أهبات الحملة الموحدية ، قد تقدمت تقدماً كبيراً ، واجتمعت الحشود من سائر بلاد المغرب والقبلة . وفي يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى من السنة المذكورة ، خرج الخليفة يعقوب المنصور من حضرة مراكش ، والجيش يتلاحق في أثره من سائر النواحي ، وسار تَوّاً إلى قصر المجاز (القصر الصغير) ، وهناك عني بتنظيم تموين الجيش ، ثم بدأ الجواز ، فكان أول من جاز البحر قبائل العرب ثم قبائل زناتة ، ثم المصامدة ، فغمارة ، فالجيش المطوعة ، ثم الموحدون ، فالعبيد ، ولما تم جواز الجيش على هذا النحو واستقرت بأراضي الجزيرة الخضراء ، عبر الخليفة المنصور البحر في جمع كبير من أشياخ الموحدين والزعماء والفقهاء ، والعلماء ، وكان عبوره إلى طريف^(٢) في يوم الخميس عشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٩١ هـ (أول يونيه سنة ١١٩٥ م) .

وأقام المنصور بطريف يوماً واحداً ، ثم استأنف سيره إلى إشبيلية ، ولقيه في الطريق وإلى إشبيلية السيد يعقوب بن أبي حفص وجماعة من أعيانها ، ثم تقدمه ليعده له أسباب النزول في الحضرة الأندلسية ، ونزل الخليفة بقصر البحيرة خارج باب جهّور ، وهرع أهل الحاضرة للسلام عليه ، وعهد الخليفة إلى أبي بكر

(١) راجع ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٤ ، وابن خلكان في الوفيات ج ٢ ص ٤٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٤٥ ، والنویری طبعة ريمبرو في مجلة (Revista del Centro de) ج ٨ ص ٢٧٣

Estudios Historicos T. VIII ano 1919 p. 218)

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ١٩٢ ، وفي روض القرطاس أنه عبر إلى الجزيرة الخضراء (ص ١٤٦) .

ابن زهر وزملائه أشياخ المدينة ، بإنزال الأشياخ والأكابر في الدور المعدة لنزولهم ، وبعد الظهر أذن بدخول السادات للسلام عليه ، وكان ذلك يوم الخميس السابع والعشرين من جمادى الثانية . وفي الغد ركب الخليفة إلى حصن الفرج الذى كان قد أمر بإنشائه خارج إشبيلية ، وأعجب بمنعته وحسن روايته . ثم عاد فزار المسجد الجامع . وفي يوم السبت أمر بإجراء التمييز ، فانتظم سائر الجند بالزى الفاخر ، والعدد الكاملة ، وركب الخليفة ومعه من حضر من الأبناء ، والقرابة والوزراء ، واستعرض الجند صفّاً صفّاً ، وقبيلاً قبيلاً ، ثم أخرجت الرواتب والبركات ، ووزعت على سائر الحشود^(١) .

وأنفق المنصور في إشبيلية أسبوعين وهو يستكمل أهباته ، ويضع خططه في أناة وروية ، وفي صبيحة يوم الخميس الحادى عشر من رجب (٢٢ يونيه) غادر إشبيلية قاصداً إلى قرطبة ، مختاراً طريق نهر الوادى الكبير فوصل إليها يوم الجمعة التاسع عشر منه ، واستراح بها ثلاثة أيام . ثم خرج منها من باب مورادال في يوم الثلاثاء الثالث والعشرين منه ، وسار في قواته شمالاً ميمماً صوب سهول شلبطرة وقلعة رباح .

- ١ -

وكانت أنباء عبور الخليفة الموحدى وجيوشه الزاخرة ، قد ترامت أثناء ذلك إلى ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، فجمع « الكورتيس » في مدينة كريون على عجل وأخذ يتأهب للحرب بكل ماوسع ، واستدعى سائر أتباعه من الأمراء والأشراف في قواتهم ، وحشد كل ما استطاع من الجند ، وبعث إلى زميله ملكى ليون وناقارا في طلب العون ، فوعدها بذلك ، وانتظر أياماً بطليطلة حتى وفد أتباعه في حشودهم ، ثم غادرها مسرعاً إلى الجنوب ، واخترق نهر وادى يانه متجهاً نحو أراضى قلعة رباح ، ولم ينتظر مقدم زميله وحليفه ملك ليون ، وكان قد وصل في قواته إلى طليبرة ، ولم ينتظر كذلك مقدم قريبه ملك ناقارا (نبرة) ، إذ كان واثقاً من رجحان كفة قواته وأهباته ، واثقاً من النصر على أعدائه ، مهما بلغت قواتهم .

وكان ملك قشتالة قد بدأ قبل ذلك بقليل بإنشاء حصن جديد في الحلة المسماة

(١) البيان المغرب ص ١٩٢ و ١٩٣ .

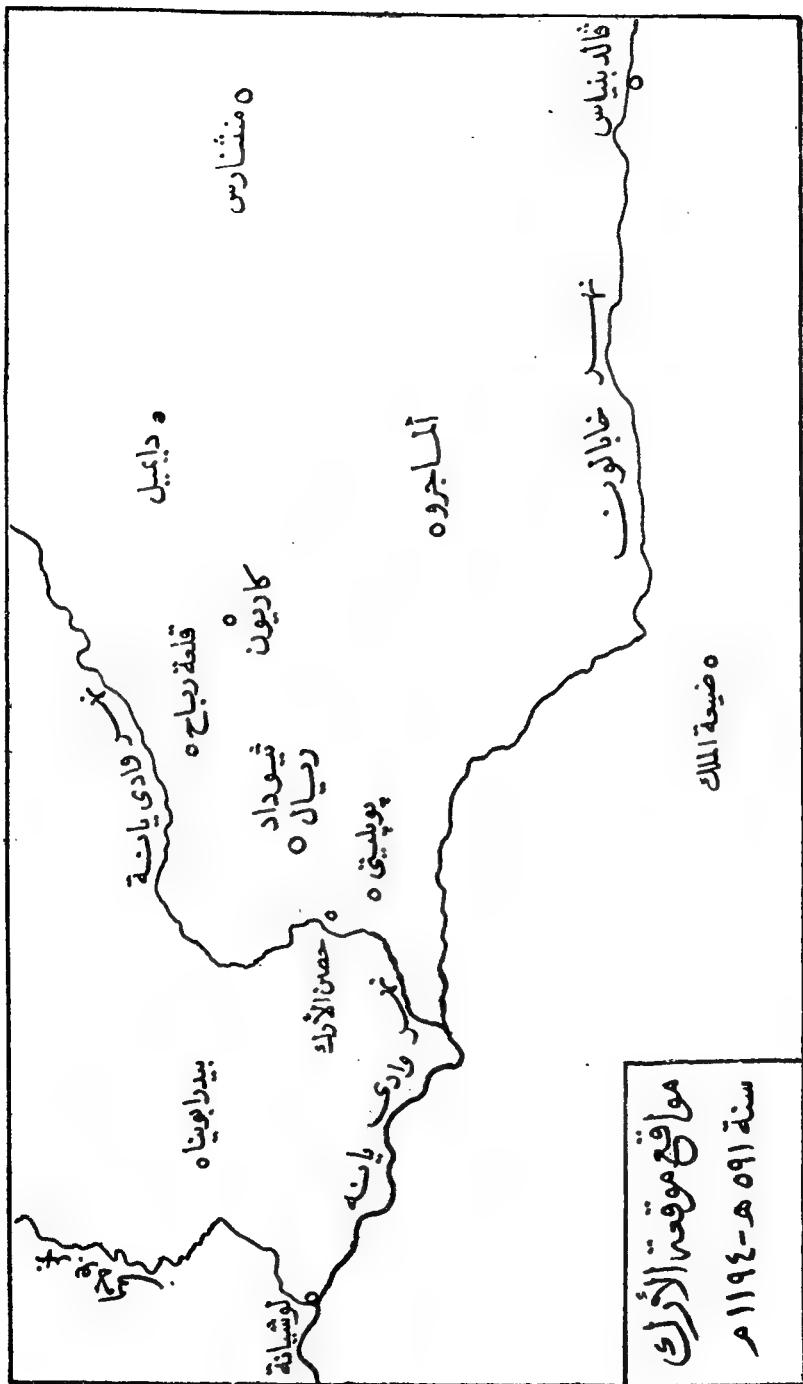
« بالأرك » . وهي محلة صغيرة من أعمال قلعة رباح ، تقع على مسافة أحد عشر كيلومتراً في غربي مدينة « ثيوداد ريال » الحديثة^(١) ، وتقوم فوق ربوة عالية ، تمتد سفوحها حتى نهر وادى يانه ، وكانت عندئذ هي نقطة الحدود بين قشتالة وأراضي المسلمين ، فإلى هذه المحلة اتجه ملك قشتالة بقواته ، وعسكر بها معزماً أن يلتق الموحدون وألا يسمح لهم بعبور الحدود إلى داخل أراضيهم .

وأما الخليفة المنصور فاستمر في سيره مخترقاً قلعة رباح حتى وصل إلى مقربة من محلة الجيش القشتالي المعسكر في الأرك . ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن الخليفة استمر في سيره حتى بقى بينه وبين الأرك مرحلتان قريبتان ، وإليه نزل هنالك ، وذلك في يوم الخميس الثالث من شعبان سنة ٥٩١ هـ (١٣ يولييه سنة ١١٩٤ م) . وما كاد الجيش الموحدى يستقر في محله حتى ظهرت سرية من خيل القشتاليين خرجت لتستطلع أخبار المسلمين ، فظفرت بها طائفة من الجند الموحدون وأبادتها قتلاً . ومضت بضعة أيام أخرى قبل أن يقع الاشتباك بين الجيشين ، ولم تكن ثمة سوى الطلائع من الجانبين ، وكانت الخسارة تقع في معظم الأحيان على القشتاليين . وفي خلال ذلك كان الخليفة المنصور ، يعقد المؤتمرات الحربية ، ويجرى مشاوراته مع أشياخ مختلف القبائل ، ويروى لنا صاحب روض القرطاس أنه لما استشار قواد الأندلس أحواله على كبيرهم أبى عبد الله ابن صناديد ، وأن ابن صناديد أبدى رأيه للخليفة ، بأنه يجب أن تبدأ المعركة باشتباك سائر حشود الأندلس وقبائل العرب ، وسائر قبائل المغرب من زناتة والمصامدة وغيرهم وجند المتطوعة ، وأن ينتظر الخليفة في المؤخرة ومعه جيوش الموحدون والعبيد والحشم في موضع مستور ، فإن أسفرت المعركة عن انتصار المسلمين فيها ، وإن أسفرت عن هزيمتهم ، فعندئذ يبادر الخليفة في قواته إلى لقاء العدو ، وليحمي ظهور المسلمين ، ويكون العدو عندئذ قد خبت قواه ، فيكون النصر للمسلمين ، وأن الخليفة قد أعجب بهذا الرأي وقرر اتباعه^(٢) .

ويقدم إلينا صاحب روض القرطاس فوق ذلك تفاصيل هامة عن تقسيم الجيش

(١) الأرك هي بالإسبانية Alarcos ، وثيوداد ريال هي Ciudad Real ومعناها المدينة الملكية . وتقوم مكان الأرك اليوم محلة صغيرة تسمى Sta Maria de Alarcos في فحس قلعة رباح .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٧ .



الموحدى وقواده فى ذلك اللقاء الهام ، فيقول لنا إن الخليفة جلس فى يوم السبت الخامس من شعبان فى قبة الحمراء واستدعى الشيخ أبي يحيى بن أبي محمد بن أبي حفص ، وهو حفيد الزعيم عمر بن أبي حفص الهمتاني صاحب المهدي ، وكان من أكبر وزرائه ، فولاه قيادة الجيش العامة ، وقدم ابن صناديد على عساكر الأندلس وحشودها ، وجيرمور بن رياح على جميع قبائل العرب ، ومنديل المغراوى على قبائل مغراوة ، وعقد لحيو بن أبي بكر بن حمادة على جميع قبائل بني مرين ، ولجابر بن يوسف على قبائل عبد الواد ، وعقد لعبد القوى التجيني على قبائل تجين ، ولتجليدر على قبائل هسكورة وسائر المصامدة ، ولمحمد بن منعناد على قبائل غمارة . وعقد أخيراً للحاج أبي خزر يخلف الأوربني على سائر المتطوعة ، وذلك على أن تكون هذه القيادات جميعها تحت القيادة العامة لأبي يحيى بن أبي حفص . واختص أمير المؤمنين من جانبه بكافة عسكر الموحدين والعبيد^(١) .

وكان الخليفة المنصور ، قد قرر مع قادته أن تبدأ الجيوش الموحدية بالزحف على محلة النصرارى . وتحركت الجيوش الموحدية بالفعل خلال السهل المنبسط أمام ربوة الأرك ، حتى صارت على مقربة منها ، ونزلت فى السهل المنخفض الممتد أمامها ، وهى تشرف عليه بمنعتها ووعورتها من عل ، وكان ذلك فى يوم الثلاثاء الثامن من شعبان (١٧ يولييه) فلما رأى النصرارى اقتراب الموحدين خرجت جملة من قواتهم ، وتقدمت قليلاً من مراكز الجيش الموحدى ، ولكن الموحدين لم يفعلوا شيئاً للاشتباك مع العدو . ذلك أن الخليفة المنصور لم يشأ أن يخوض الموحدون المعركة فى ذلك اليوم ، بل قرر خوضها فى اليوم التالى . فلما رأى النصرارى المتقدمون جمود الموحدين ، عادوا إلى محلهم فوق ربوة الأرك وقد أثقلتهم أسلحتهم^(٢) . وفى اليوم التالى . وهو يوم الأربعاء التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ (١٨ يولييه سنة ١١٩٥ م) كانت الجيوش الموحدية كلها على قدم الأهبة ، وقد « عبثت تعبئة حرب » ، وعقدت الرايات لسائر القبائل والطوائف ، وجعل القائد العام أبو يحيى عسكر الأندلس فى الميمنة ، وزناته وسائر القبائل المغربية والعرب فى

(١) روض القرطاس ص ١٤٨ .

(٢) الرواية النصرانية اللاتينية *Chronique latine des Rois de Castille* وقد

أوردتها الأستاذ هويث فى بحثه عن معركة الأرك *Campana de Alarcos* المنشور بمجلة المعهد المصرى بمديريه Vol. II, p. 62-67 ، ثم فى كتابه *Grandes Batallas de la Reconquista*, p. 152.

الميسرة ، وجعل المتطوعة والرماة والأغزاز فى المقدمة ، واحتل هو القلب مع قومه من قبيلة هتناثة . وبقى المنصور فى خاصته ، وفى جند الموحدين والعبيد فى المؤخرة ، على أهبة للتدخل فى اللحظة الحاسمة^(١) .

ووقعت قبيل المعركة بقليل فى المعسكر الموحدى ، مناظر مؤثرة ، حيث قام القائد العام الوزير أبو يحيى وصاح بصوت جهورى يقول للناس : إن أمير المؤمنين يطلب إليهم أن يغفروا له ، فإن هذا موضع غفران ، وأن يتغافروا فيما بينهم ، وأن يطيبوا نفوسهم ، وأن يخلصوا نياتهم لله ، فبكى الناس ، وصاحوا من جانبهم بطلب الغفران من الخليفة ، وأنهم ييمن نيته وصدق طويته ، يرجون الخير من الرحمن . ثم قام القاضى أبو على بن حجاج ، وألقى خطبة بليغة تفيض حماسة وبياناً ، فى الحث على الجهاد وفضله ومكانته وقدره عند الله ، وكان لهذه الحركة آثارها فى إنعاش النفوس وتنبيه الضمائر ، وتنقية السرائر ، وإذكاء العزائم^(٢) .

ويجدر بنا قبل أن نصف أدوار المعركة ، أن نصف البقعة التاريخية ، التى وقعت فيها ، وقد أتبع لنا زيارتها ودراستها^(٣) .

إن ميدان معركة الأرك Alarcos ، مازال معروفاً بمواقعه وحدوده ، تعيينه وتحده ، لا الرواية المتواترة فقط ، ولكن تحده كذلك آثار حصن الأرك الشهير ، الذى عرفت باسمه المعركة ، والذى تقوم اليوم مكانه ، فوق نفس الربوة التى كان يحتلها ، كنيسة ، أو معبد يسمى « كنيسة القديسة مريم صاحبة الأرك » Sta Maria de Alarcos .

ويقع هذا المكان على قيد نحو ستة كيلومترات من غربى مدينة « ثوداد ريال » الحديثة ، وشمال غربى بلدة « بوبليتى » الصغيرة ، وتفضى إليه طريق جبلية معبدة ، تحترق فى البداية بسيطاً أخضر من الأرض ، يفضى غير بعيد إلى مجموعة من الهضاب الصغيرة . وعلى نحو أربعة كيلومترات من هذه الهضاب ، تقع ربوة الأرك Alarcos التى تقوم عليها اليوم ، فوق أنقاض الحصن القديم كنيسة القديسة مريم ، أوسيدة الأرك ، وهذه الكنيسة أو المعبد ، حسبما يسمى فى تلك الناحية Ermita

(١) روض القرطاس ص ١٤٨ و ١٤٩ ، ونفع الطيب ج ٢ ص ٥٣٧ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٩٤ .

(٣) كان ذلك فى اليوم الثالث والعشرين من أبريل سنة ١٩٦٣ .

عبارة عن بناء قديم ، يقوم وسط فناء شاسع ، تحيط به أسوار قديمة . وتوجد بداخله كنيسة بها صفان من العقود الكبيرة ، يحتوى كل منهما على أربعة عقود ، وهى بسيطة جداً ، وليست بها أية مظاهر فخمة .

وأما آثار حصن الأرك القديم ، فتبدو أولاً فى مصطبة صخرية كبيرة تمتد خارج سور المعبد على حافة الربوة ، وتدور حولها ، وهو ما يدل على أن المعبد قد بنى فوق موقع الحصن القديم ، وتبدو ثانياً فى وجود عدة بقايا صغيرة من أسوار الحصن تقع فى غربيه : وظاهر من وجود الأحجار والأنقاض المماثلة ، وامتدادها غرباً حتى قرب النهر أن بناء الحصن ، كان يمتد نحو ثلاثمائة متر ، كما أنه يوجد فى الناحية الخلفية ، من الربوة ، وهى تطل أيضاً على نهر وادى يانه ، آثار عقدين قديمين .

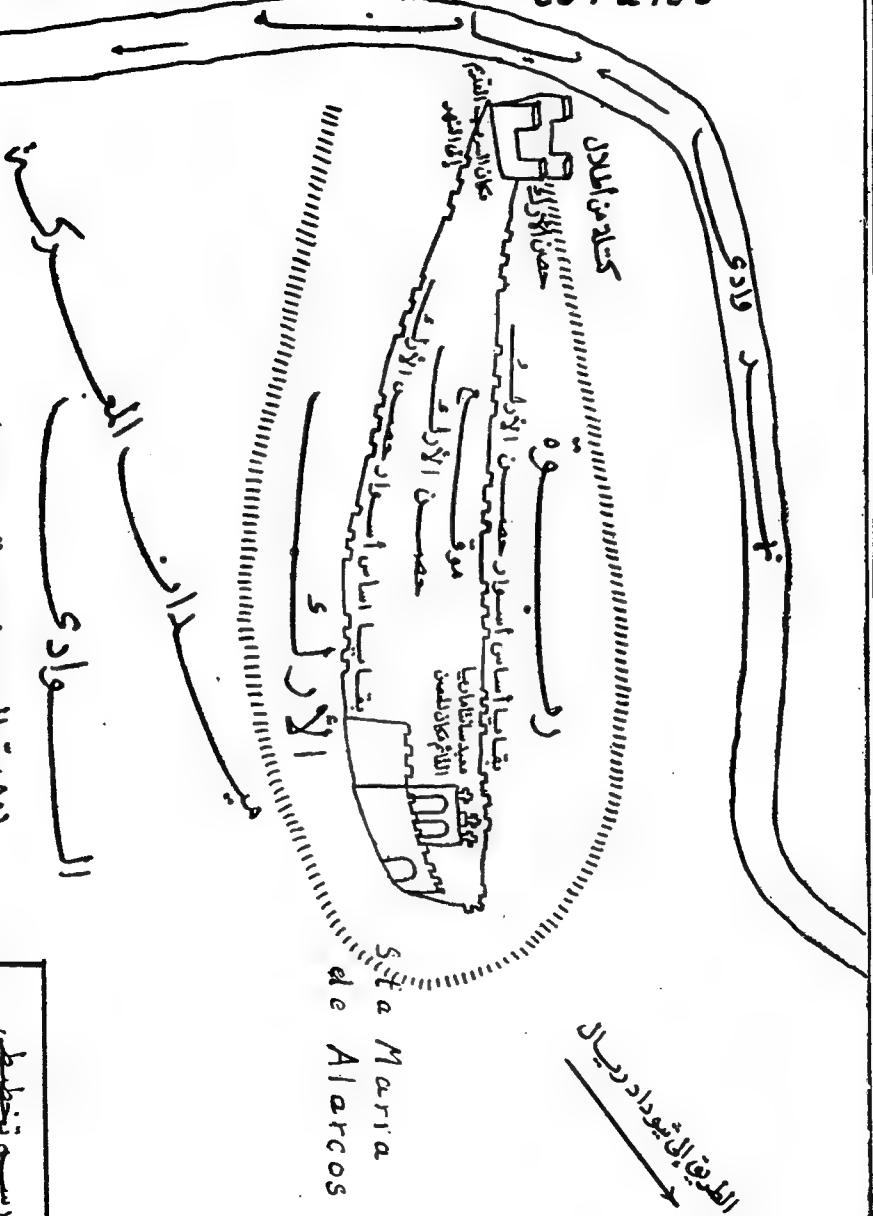
ويوجد عند نهاية الأنقاض غرباً ، كتلة كبيرة من الأحجار والصخور ، وتحته أثر سرب قديم ، يقال إن الفرسان ، كانت تقود منه خيلها إلى النهر لتشرب من مائه : وأنقاض مصطبة الحصن التى سبق ذكرها ، تصل إلى هذه الكتلة من الأنقاض ، مما يدل على أن الحصن كان يمتد حتى ذلك المكان . كما أنه يبدو خلال الأنقاض الممتدة كثير من أسس الجدران القديمة .

وتشرف الربوة فى اتجاه الجنوب على واد عميق متدرج ، يصطلح على أنه المكان الذى وقعت فيه الموقعة . ويجرى نهر وادى يانه بجذاء هذا الوادى من شماله وغربه ، ويدور فى انحناء كبيرة حول ربوة الأرك ، ويطلق اليوم على هذا الوادى الذى تغمره الخضرة اسم « محلة ديجو » Villa Diego .

ويبدو من أوصاف أدوار المعركة أن محلة الجيش القشتالى ، كانت تحتل مكاناً يتصل بمشارف ربوة الأرك ، على مقربة من الحصن ، ويمتد فى اتجاه قرية بوبليتى ، ويستند إلى الحصن ، وإلى نهر وادى يانه ، وأن المسلمين كانوا يحتلون البسيط الواقع قبالتهم فى أسفل الوادى ، وتستند محلتهم غرباً إلى يسار النهر .

وفى ضحى هذا اليوم — التاسع من شعبان سنة ٥٩١ هـ (١٨ يولييه سنة ١١٩٤م) — نشبت المعركة المرتقبة . وكان القشتاليون حينما رأوا جيوش الموحدين تزحف نحو محلتهم ببطء ، وقد عبثت للهجوم أكمل تعبئة ، قد نزلوا من محلتهم فى صفوف كثيفة قائمة ، أو حسباً تصفهم الرواية الإسلامية وهم « كالليل الدامس ،

ضيمية المندرجات Los Corales



(ويشقي اليوم ضيمية ديجو)
Villa Diego

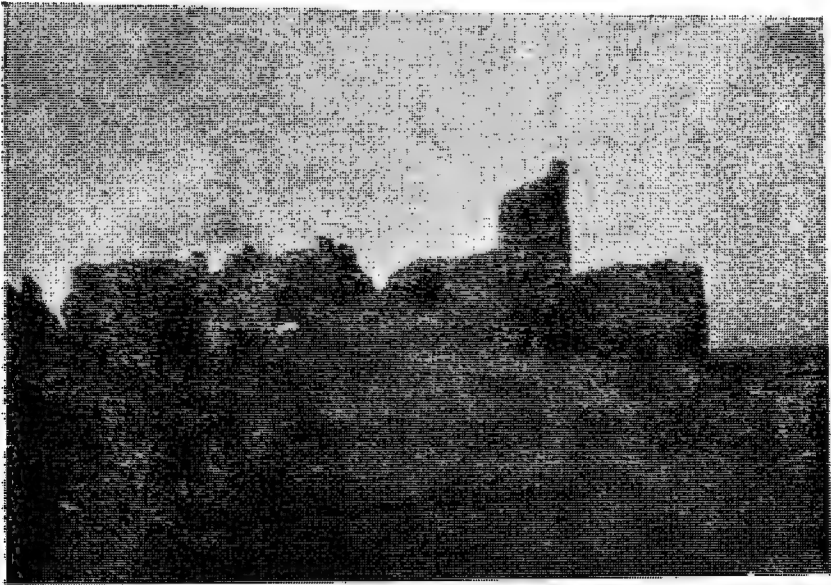
رسم تخطيطي
لمبان موقع الأرك
حسب ما يبدو اليوم

والبحر الزاخر ، أسراباً تتلو أسراباً وأمواجاً تعقب أمواجاً » . ويقدر صاحب روض القرطاس ، من هبط في هذه الدفعة الأولى من القشتاليين بنحو سبعة آلاف أو ثمانية آلاف فارس « كلهم قد احتجب بالحديد والبيضات والزررد » . ثم يتبع حركات هذه القوة النصرانية المهاجمة ، فيقول إنها اندفعت حتى لطمت خيلها أطراف رماح المسلمين أوكدت ، ثم تقهقرت قليلاً ؛ وعادت إلى الاقتراب من المسلمين ، ثم ارتدت وتهيأت للهجوم الفعلي ، وفي أثناء ذلك كان الشيخ أبو يحيى والقائد ابن صناديد ، يبحث كل منهما الجند على الثبات وإخلاص النيات والأعمال . وأخيراً تركز هجوم القشتاليين على قوات القلب التي يقودها القائد العام أبو يحيى ، معتقدين أنه هو الجناح الذي يقوده الخليفة ، وكان المنصور قد أمر بالفعل بأن ترفع الأعلام الخليفة على القلب ، فقاتل أبو يحيى وجنوده أشد قتال ، ولكن الصدمة كانت عنيفة ، فقتل أبو يحيى ، وقتل معه جماعة من من هتاتة ، والمطوعة وغيرهم . وعندئذ تقدمت قبائل العرب والمطوعة والأغزاز والرماة ، وأحاطوا بالنصارى من كل جانب ، ودفع القائد ابن صناديد بجيوش الأندلس إلى المعركة وزحفت معه قبائل زناتة وسائر قبائل البربر ، واندفعت الجيوش الموحدية بجملتها نحو محلة القشتاليين ، واشتد القتال بين الفريقين ، وسالت الدماء بغزارة ، وكثر القتل في مقدمة القشتاليين ، التي اضطلعت بالهجمة الأولى ، واستمر القتال على هذا النحو بعنف وشدة ، حتى اضطرت القشتاليون إلى التقهقر والفرار نحو الربوة التي تحتلها محلهم ، وبدأت بوادر الهزيمة على القشتاليين^(١) .

ولكن صاحب البيان المغرب ، وهو فيما يرجح ينقل عن رواية ابن صاحب الصلاة وهي رواية معاصرة ، يقدم إلينا عن المعركة صورة أخرى . فيقول لنا إن هجوم القشتاليين تركز أولاً على ميسرة الجيوش الموحدية ، وأنه أسفر عن تقهقر جماعة من المطوعة وأخطا السوقة ، فلما رأى المنصور ذلك ، نهض بنفسه ، وترك ساقته على حالها ، وتقدم منفرداً ، وهو يبحث الجند على الثبات والهجوم على العدو ، فكان لحركته أعمق وقع في نفوس الجند ، فاضطربت همهم وعزائمهم ، واندفعت سائر الحشود والقبائل نحو القشتاليين بشدة ، والتحم الجيشان ، واشتد القتال ، وكثر القتل في صفوف القشتاليين ، واضطروا في النهاية إلى التقهقر والفرار . ودامت المعركة من ضحى اليوم حتى غروب الشمس ، وأسفرت عن قتل جموع



كنيسة الأرك (سانتا ماريا دي ألاكوس) التي أقيمت على أنقاض حصن الأرك



مجموعة أطلال قلعة رباح

عظيمة من النصارى ، واستطاع ملك قشتالة أن يفر في نحو عشرين فارساً من أصحابه ، فسار تحت جناح الليل صوب طليطلة لابلوى على شيء ، واعتصمت معظم فلول النصارى بمحصن الأرك^(١) .

وتفصل لنا الرواية الإسلامية ما حدث بعد هزيمة القشتاليين في الجولة الأولى . ويبدو من أقوال صاحب روض القرطاس ، أن ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، كان عندئذ معتصماً مع باقي قواته ببربوة الأرك . فلما ارتد القشتاليون ، وفروا نحو الربوة يحاولون الاعتصام بها ، حالت بينهم القوات الموحدية ، فارتدوا ثانية نحو السهل ، فحملت عليهم العرب والمطوعة وهتاتة والأغزاز والرماة ، وحصدوهم حصداً ، وأفنؤهم حسبما تقول الرواية عن آخرهم . ولما علم أمير المؤمنين بما حدث ، ضربت الطبول ونشرت الرايات ، وفي مقدمتها اللواء الخلفي الأبيض ، وزحف المنصور في القوات الموحدية نحو القشتاليين ، تؤيده سائر الحشود والقبائل . وكان ملك قشتالة حيناً رأى ما حل بقواته ، وسمع ضرب الطبول ، وعجيج الأبواق ، قد اعتزم أن يلقى ضد الموحدين بما تبقى من قواته ، ولكن القشتاليين حيناً رأوا كثافة الجيوش الموحدية ، وروعة هجومها واضطرامها عولوا على الفرار ، فتلاحقت بهم فرسان الموحدين ، تحصدتهم قتلاً وأسراً ، وأحاط المسلمون بمحصن الأرك ، يظنون أن ألفونسو الثامن قد اعتصم به ، ولكن تبين أنه قد لاذ بالفرار من أحد أبوابه الخلفية ، فدخل المسلمون الحصن عنوة ، وأضرموا النار في أبوابه ، واحتنوا على جميع مافيه ، ومافى محلة النصارى ، من الذخائر والأسلاب والسلاح والمتاع والدواب والنساء^(٢) .

وعلى أى حال ، فإنه يبدو من أقوال الرواية الإسلامية ، أن القشتاليين هم الذين بدأوا بالهجوم على الموحدين . وتؤيدها في ذلك الرواية النصرانية . وتقدم إلينا الرواية النصرانية عن المعركة ، وصفاً موجزاً يختلف قليلاً عما تقوله الرواية الإسلامية ، وهو أنه لما رأى القشتاليون الموحدين ، يتقدمون من محلهم في الصباح الباكر من ذلك اليوم ، حدثت ضجة في معسكر النصارى ، وخرج القشتاليون في قليل من النظام وتقدموا ، ثم اشتبكوا مع المسلمين . وفي الصدمة الأولى سقط عدة من أكابر النصارى ، واشتد القتال بين الفريقين ، وسالت الدماء بغزارة .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٩٤ و ١٩٥ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٠ .

ولما رأى ملك قشتالة رجاله يسقطون في المعركة على هذا النحو تقدم بنفسه إلى الأمام ، وأخذ يثخن مع طائفة من رجاله في المسلمين يميناً وشمالاً . ولكن رجاله رأوا أنه يستحيل عليهم أن يقاوموا ضغط الحشود الموحدية ، خصوصاً بعد أن سقط كثير من النصارى ، وقد استطالت المعركة إلى منتصف النهار ، فتضرعوا إليه أن يحتفظ بحياته ، خصوصاً وأنه يبدو أن الله قد تخلّى عن النصارى . ولكنه أبى أن يصغى إليهم ، فجذبوه من المعركة رغم إرادته ، وارتد نحو طليطلة في نفر من الفرسان وقلوبهم تنفطر لما حدث حزناً وأسى^(١) .

وتتفق الروايتان الإسلامية والنصرانية على أنه عقب الهزيمة ، لجأت فلول القشتاليين إلى حصن الأرك بقيادة دون دييولوث دى بسكايه . وتقدر الرواية الإسلامية هذه الفلول بخمسة آلاف ، فطوق الموحدون الحصن ، وكان الخليفة المنصور يعتقد أن ملك قشتالة قد لجأ إليه ، ولكنه تأكد من أقوال حليفه وخدمته القشتالى دون بيدروفرنانديث دى كاسترو الموجود بمحلته ، أن الملك قد لاذ بالفرار إلى طليطلة ، فعندئذ طالب المنصور بتسليم الحصن في الحال ، وأن يُعطى اثني عشر فارساً كرهينة ، حتى يحضر دون دييجو إليه بمراكش ويسلم نفسه أسيراً ، وإلا فإنه سوف يقتحم الحصن ويقتل كل من فيه . وتقول لنا الرواية الإسلامية من جهة أخرى ، إن الاتفاق تم بواسطة دون بيدروفرنانديث (وتسميه ببطره ابن فراندس) على أن يفرج عن خمسة آلاف من أسرى المسلمين مقابل إطلاق القشتاليين المحصورين بالحصن ، وأن المنصور ارتضى هذا الاتفاق ، حرصاً على استنقاذ أسرى المسلمين ، وأخذت رهائن وُجّهت إلى إشبيلية . وهكذا استطاع دون دييولوث أن يخرج من الحصن ، وأن يلحق بمليكه في طليطلة^(٢) .

ولكن صاحب روض القرطاس يقدم إلينا عن تسليم حصن الأرك رواية بطبعها شيء من الخيال ، وهو أن الموحدين أخذوا في حصن الأرك أربعة وعشرين ألف أسير من زعماء الروم ، فرأى الخليفة المنصور أن يمن عليهم بالإفراج ، فأطلق سراحهم وأقالهم من الأسر بعد أن ملكهم ، وأن هذا التصرف من جانبه ،

(١) الرواية النصرانية اللاتينية *Chronique Latine des Rois de Castille* التي سبقت الإشارة إليها .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٩٥ و ١٩٦ . والرواية النصرانية اللاتينية التي سبقت الإشارة إليها . وينقل صاحب الحجب المستورة هذه الرواية (مخطوط المتحف البريطاني ص ١٥٤) .

قد عز على الموحدين وعلى كافة المسلمين ، واعتبروه سقطة من سقطات الملوك^(١) تلك هي تفاصيل موقعة الأرك العظيمة التي أحرز فيها الموحدون أعظم نصر ، حققوه خلال حكمهم الطويل لشبه الجزيرة الأندلسية . على أن الرواية الإسلامية تقدم إلينا عن نتائج المعركة بعض الأقوال والأرقام المعركة ، وهي قبل ذلك تقدم إلينا عن عدد الجيش القشتالي أرقاماً لا يسيغها العقل لكي تتفق مع هذه النتائج . وهي لا تقدم إلينا شيئاً واضحاً عن عدد الجيش الموحدى ، وتكتفى بأن تتحدث عن عظمة حشوده ، وبأن تصفه بأنه جيش يضيق له الفضاء^(٢) . ولكنها تقول لنا إن جيش القشتاليين كان يزيد على ثلاثمائة ألف ما بين فارس وراجل^(٣) . ويقول الضبى إنه كان ينيف على خمسة وعشرين ألف فارس ومائتى ألف راجل^(٤) . أما عن خسائر النصارى ، فيقول لنا صاحب روض القرطاس ، إنه قتل فى المعركة من الكفرة ألوف لاتعد ولا تحصى . ويقول لنا ابن الأثير ويتابعه النويرى ، إن عدد القتلى من الفرنج بلغ مائة ألف وستة وأربعين ألفاً ، وبلغ عدد الأسرى ثلاثة عشر ألفاً^(٥) . بيد أنه توجد عن خسائر النصارى رواية أخرى أكثر اعتدالاً ، هي رواية يوسف بن عمر ، مؤرخ الموحدين ، التي نقلها إلينا صاحب البيان المغرب ، وهو أنه قتل فى المعركة من النصارى زهاء ثلاثين ألفاً^(٦) . ويأخذ بهذه الرواية صاحب كتاب « الحجب المستورة » وهو يتابع فى روايته رواية البيان المغرب مع تعديلات يسيرة^(٧) . وأما عن خسائر المسلمين فيقول لنا ابن الأثير ، ويتابعه النويرى ، إنه قتل من المسلمين نحو العشرين ألفاً ، وهي رواية تبدو معقولة وربما مبالغاً فيها بعض الشيء من حيث الكثرة^(٨) ، وتقول لنا بعض الروايات الأخرى إنه قتل من أعيان المسلمين نفر قلائل ، وإن عدد القتلى من المسلمين يبلغ نحو الخمسمائة وهو عدد ضئيل بالنسبة لاشتداد القتال ، وطول أمد المعركة .

(١) روض القرطاس ص ١٥١ .

(٢) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويرى (طبعة جسيباريمير والسالفة الذكر ج ٨ ص ٢٧٤) .

(٣) روض القرطاس ص ١٤٩ .

(٤) بنية الملتبس (المكتبة الأندلسية) ج ٣ ص ٣٥ .

(٥) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويرى ، الطبعة المشار إليها ص ٢٧٤ .

(٦) البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٩٥ .

(٧) كتاب الحجب المستورة فى محاسن المقصورة (مخطوط المتحف البريطانى ص ١٥٤) .

(٨) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويرى (الطبعة السالفة الذكر) ج ٨ ص ٢٧٤ .

وعلى أى حال ، فإنه لايسعنا إلا أن نلاحظ أن الرواية الإسلامية هنا ،
وكعادتها فى مثل هذه المواقع العظيمة الحاسمة ، التى تضطرم بين الإسلام
والنصرانية ، تنجح إلى نوع من المبالغة والإغراق ، يمكن فهمه وتعليله وإن لم
تتمكن استساغته . ومن المحقق أن خسائر النصارى كانت فادحة فى مثل هذه المعركة
التي بلغ فيها القتال أشده ، والتي ثقلت فيها وطأة المطاردة على الجيش المنهزم ،
وأثنى الموحدون فى فلوله قتلا وأسرا ، ولكنها لايمكن أن تعدو بضع عشرات
من الألوف . ومن ثم كان الرقم الذى يقدمه إلينا المؤرخ الموحدى المعاصرو هو
ثلاثون ألفاً ، يطبعه التعقل والاعتدال . ثم إن الرواية الإسلامية تقدم إلينا بعد ذلك
عن الغنائم والأسلاب أرقاماً مدهشة . فيقول لنا ابن الأثير ، ويتابعه النويزى ،
إن المسلمين حازوا من الخيام مائة وخمسين ألفاً ، ومن الخيل ستة وأربعين ألفاً ،
ومن البغال مائة ألف ، ومن الحمير مائة ألف ، هذا غير مقادير لانحصى من
الأموال والتحف . وقسم الخليفة الغنائم بعد استبعاد الأخماس ، بين المسلمين وفقاً
لأحكام الشريعة . وكان الخليفة فضلاً عن ذلك ، قد نادى فى عسكره أن من
غنم شيئاً فهو له سوى السلاح ، فحُصر ما حمل إليه منه ، فكان يزيد على سبعين
ألف لباس^(١) .

وثمة مسألة أخرى تميز الرواية الإسلامية إلى ذكرها بمناسبة وقعة الأرك ،
وهى المقارنة بين هذه الموقعة وبين موقعة الزلاقة ، وذلك من حيث ظروفها
ونائجها . فهى تذكر كيف أن جنود الأندلس كانوا أول من أصيب من عسكر
المسلمين فى الزلاقة ، وكيف كثر القتل فيهم لولا أن تداركتهم فى النهاية قوات
ابن تاشفين المرابطية ، وهذا بخلاف ماحدث يوم الأرك حيث لقيت الجيوش
الموحدية النصارى ، مجتمعة وفى جبهة واحدة ، ومن ثم فقد كانت موقعة الزلاقة
« مقسومة الثقل ، مكدرة الصفو » ، ولكن موقعة الأرك جاءت « هنيئة الموقع
عامة المسرة » . ثم هى ترى بحق أن غزوة الأرك ، كانت مثل الزلاقة من أيام
الإسلام المشهورة ، وبها اعز الإسلام وعلت كلمته ، بل ترى أنها كانت أعظم
من موقعة الزلاقة ، وأنها أنست كل فتح تقدمها بالأندلس^(٢) . على أن المقارنة

(١) ابن الأثير ج ١٢ ص ٤٥ ، والنويزى (طبعة ريمبرو المشار إليها) ص ٢٧٤ ،

وفتح الطيب ج ١ ص ٢٠٧ .

(٢) راجع البيان المغرب - القسم الثالث ص ١٩٦ ، وروض القرطاس ص ١٥١ .

لا تنقف عند هذا الحد ، فقد رأينا فيما تقدم من حديثنا عن موقعة الزلاقة^(١) ، كيف أن الرواية الإسلامية تحيطها بطائفة من الأساطير التي تسبغ عليها هالة من القدسية ، وكذلك فإن حديثها عن موقعة الأرك لا تخلو من ذكر هذه الأساطير . وأسطع ما تقصه علينا في ذلك هو حديث الحلم الذي يقال إن الخليفة يعقوب المنصور رآه قبل الموقعة ببضعة أيام ، في ليلة الجمعة الرابع من شعبان ، واستبشر به ببلوغ النصر ، وهو أنه لبث طوال الليل راکعاً ساجداً مبتهلاً ، وداعياً لتأييد المسلمين على أعدائهم ، فبينما هو راکع في مصلاه إذ غلبه النوم ، فرأى كأن باباً قد فتح في السماء ، ونزل منه فارس أبيض حسن الوجه ، ويده راية خضراء منشورة ، قد سدت الأفق من عظمها ، فسلم عليه ، فقال له من أنت يرحمك الله ، فقال أنا ملك من السماء ، جئت لأبشرك بفتح من رب العالمين ، لك ولعصابتك المجاهدين الذين أتوا تحت رايتك . ثم أنشد هذا الفارس أبياتاً حفظها الخليفة وهي :

بشائر نصر الله جاءتك . سافرة لتعلم أن الله ينصر ناصره
فأبشر بنصر الله والفتح إنه قريب وخيل الله لاشك ظافرة
فتفتى جيوش الروم بالسيف والقنا وتخلي بلاداً لا ترى بعد عامرة

وأن الخليفة نهض من نومه موقناً بالفتح والظفر^(٢) . فهذا الحلم الذي تقصه الرواية الإسلامية بمناسبة معركة الأرك ، يذكرنا بالحلم الذي تذكره لمناسبة موقعة الزلاقة وهو أن الفقيه الناسك أبا العباس بن رميلة القرطبي وكان بمحلة ابن عباد ، نهض في جوف الليل ، قبيل نشوب المعركة فرحاً مسروراً ، وهو يقول إنه رأى النبي ، وإن النبي بشره بالفتح والشهادة^(٣) . ثم تذكرنا كذلك بالحلم الذي تقول لنا إن ألفونسو السادس ملك قشتالة رآه قبيل معركة الزلاقة ، وخلاصته أنه رأى أنه يركب فيلاً ، قد تدلى بجانبه طبل يحدث صوتاً مزعجاً كلما قرعه ، وأن فقيهاً من أهل طليطلة ، نبأه بأن هذا الحلم هو نذير هزيمته ، مشبهاً ذلك بما حدث عام الفيل من سحق أبرهة ، وقد كان يركب الفيل أيضاً . ثم يذكرنا كذلك ، بما تزعمه الرواية النصرانية من أن لآخر ، من أن الملوك النصارى ، كانوا متى اشتد القتال بينهم وبين المسلمين ، يرون ملاكاً يهبط من السماء وفي يده صليب أو نخود ذلك .

(١) راجع كتابي « دول الطوائف » ص ٣١٩ - ٣٢١ .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(٣) الروض المعطار ص ٩١ .

والرواية سواء أكانت إسلامية أو نصرانية تنجح إلى مثل هذه الأساطير ، بالأخص في المواقع العظيمة الحاسمة بين الإسلام والنصرانية ، مثل الزلاقة ، والأرك وغيرهما ؛ على أن موقعة الأرك تختلف عن موقعة الزلاقة من بعض الوجوه الهامة . فقد كان المسلمون من أندلسيين ومرابطين يواجهون في الزلاقة ، قوى اسبانيا النصرانية كلها ، ملتفة حول عيدها ألفونسو السادس . أما في يوم الأرك فقد كانت الجبهة النصرانية ، مقتصرة على ملك قشتالة وقواته . وقد غادر ألفونسو الثامن طليطلة في قواته ، حينما علم بزحف الموحدين نحو أراضي قشتالة ، ولم يرد أن ينتظر حليفه ملك ليون ، وكان قد وصل عندئذ بقواته إلى طليطلة ، ولكنه لم يقدم على معونة زميله ، لأنه أبى أن يعطيه بعض الحصون التي طلبها ، ثم انقلب بعد ذلك إلى خصومته ، ومحالفة الموحدين أعدائه . وكذلك لم ينتظر ألفونسو الثامن معونة من ملك نافارا ، أو من ملك أراجون وذلك لوثوقه من رجحان قواته ، وبقينه ببلوغ النصر على أعدائه . وقد انتصر عليهم من قبل مراراً في معارك محلية . ومن الغريب المدهش ما تقصه علينا الرواية الإسلامية من دلائل يقين ملك قشتالة بإحراز النصر على أعدائه ، وهو أنه كان يصطحب معه حين مسيره لقتال الموحدين جماعات من التجار اليهود ، جاءوا لشراء أسرى المسلمين ، وأسلاهم ، وأعدوا لذلك الأموال اللازمة^(١).

وتختلف كذلك موقعة الأرك في نتائجها عن موقعة الزلاقة . ذلك أن موقعة الزلاقة بالرغم من كونها قد صدعت من قوى مملكة قشتالة ، وقضت مؤقتاً على الخطر الذي كان يهدد دول الطوائف ، فإنها اقتضت على تحقيق النصر للمسلمين ، ولم يتبع يوسف بن تاشفين نصره في الموقعة ، بأية محاولة أخرى لاسترداد طليطلة أو غزو أراضي قشتالة . هذا في حين أن المنصور بث جيوشه عقب النصر مباشرة في أراضي قلعة رباح فاستولت على عدة حصون . ثم إنه لم تمض بضعة أشهر على معركة الأرك ، حتى خرج المنصور في قواته ثانية لغزو أراضي قشتالة ، واخترقها حتى شمالي طليطلة ، واستولى على طائفة من المواقع والحصون حسبما نفصل بعد .

ولقد كان انتصار الموحدين في معركة الأرك ، يرجع فضلاً عن تفوقهم العددي ، إلى عدة أسباب ، روعى تحقيقها لأول مرة في الغزوات الموحدية

الكبرى ، وأولها وأهمها العناية بالمحافظة على نظام الجيش ، وتوفير تموينه وموثنه بصورة مؤكدة ، وتقسيم حشوده ، وتنظيم قياداته ، وتعيين قائد عام يشرف على هذه القيادات ، واعتماد الخليفة على مشورة قواده ، ثم مراعاة الحزم والسرعة في تحرك الجيش ، وإعداده لضرب العدو على الفور . فهذه الميزات التي روعي تحقيقها في الجيش الموحدى ، كانت كفيلة بأن تحقق له الظفر في معركة الأرك ، وأن تجنبه تلك المفاجآت السيئة ، التي أصيب بها في غزوة وبدة ، ثم بعد ذلك في نكبة شترين (١) .

— ٢ —

ماكادت تنتهى معركة الأرك العظيمة ، حتى بث المنصور سريات من جنده في أراضي قلعة رباح ، فاستولت على عدة من حصون العدو في هذه المنطقة ، ثم هاجم الموحدون قلعة رباح ذاتها ، واقتحموها بعد قتال عنيف ، وانزعوها من أيدي فرسان جمعية قلعة رباح المتولين للدفاع عنها ، وقتل أثناء المعركة أستاذ الجماعة نونيو دى فوينتس . وغادر الفرسان القلعة ، ولجأوا إلى قلعة شلبطرة القريبة منها . وهكذا استرد المسلمون هذه القلعة المنيعة ، بعد أن لبثت في حوزة النصارى منذ سقوطها في أيديهم في سنة ١١٤٧ م ، زهاء نصف قرن . وأمر المنصور بتطهير جامعها الذي كان قد حول إلى كنيسة ، وقدم على حاميتها يوسف بن قادس (٢) .

نقول ، وقد أتيج لنا أن نزور أطلال قلعة رباح القديمة (٣) هذه ، وأن نشهد بقايا هذه القلعة المنيعة ، التي لبثت دهرآ من حصون الأندلس الأمامية ، والتي لعبت دورآ كبيرآ في الصراع بين المسلمين والنصارى . وتقع هذه

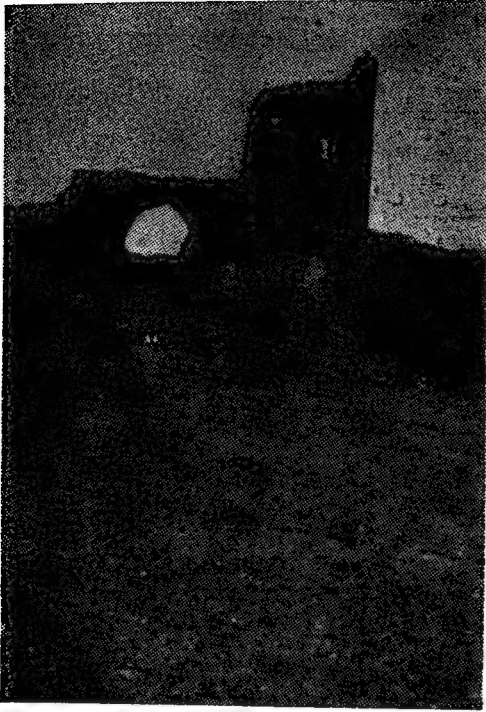
(١) راجع في معركة الأرك ، روض القرطاس ص ١٤٥ - ١٥١ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ١٩٣ - ١٩٦ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٤٤ و ٤٥ ، والنويرى (طبعة جسيار ريمبرو) ص ٢٧٤ و ٢٧٥ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ و ٤٣٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ ، والمعجب للمراكشى ص ١٥٩ و ١٦٠ ، ورفع الحجب المستورة في محاسن المقصورة (مخطوط المتحف البريطاني ج ٢ ص ١٥٢ - ١٥٦) . ونشره الأستاذ هوئى ضمن مقاله المنشور بمجلة المعهد المصرى بمدرج ٢ ص ٥٧ - ٦١ وراجع أيضاً :

H. Miranda : Las Grandes Batallas de la Reconquista , p. 137-169

(٢) الروض المطار ص ١٦٣ .

(٣) وهي بالإسبانية Calatrava la Vieja .

الأطلال على قيد خمسة عشر كيلومتراً من مدينة ثيوداد ريال ، وعلى قيد نحو سبعة كيلومترات من ضاحيتها كريون ، وهى عبارة عن مجموعة ضخمة من



الأطلال الدارسة ، تقع فوق ربوة قليلة الارتفاع ، وسط بسيط كبير تظله الجبال الشاهقة ، ويستند من الشمال إلى نهر وادى يانه ، وتنقسم هذه الأطلال إلى مجموعتين ، فى إحداهما وهى اليمنى ، يوجد جدار برج عال ، ومن تحته عضادة تظلل عقداً كبيراً كاملاً ، وفى الوسط يقوم جدار ضخيم من عقد سابق . والمجموعة الأخرى ، يفصلها عن المجموعة الأولى فراغ كبير تتخلله الأنقاض والخرائب ، يبلغ طوله نحو ثمانين متراً ، وهى عبارة عن كتلة كبيرة ، يبدو أنها كانت قاعدة

جانب من أطلال قلعة رباح لعدة أبراج ضخمة . وتمتد الأطلال من الناحية الأخرى إلى مدى يبلغ نحو مائة وخمسين متراً ، ويغمر هذه الأطلال الضخمة العالية ، والمكان كله ، جو من الوحشة والرغبة انقبضت له نفسى ، وأنا أطوف حول المكان منفرداً ، بين الأشواك والأدغال البرية ، تحت أشعة الشمس الساطعة ، وعواء الكلاب المتوحشة ، ونعيق الغربان والنسور الصغيرة ، التى تعمر المكان ، يزعجنى ، وينذرني بسرعة الرحيل .

ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن المنصور لم يكتف بذلك ، بل سار مخترقاً أراضى قشتالة يشحن فيها قتلاً وأسراً وسيئاً حتى وصل إلى جبل سليمان (١) على مقربة من قلعة هنارس شمالى طليطلة . بيد أنه لا يوجد ما يؤيد هذه

(١) وهو بالإسبانية Cuesta de Zulema « مرتفع سليمان » .

الرواية . والظاهر أن صاحب روض القرطاس يشير بذلك إلى غزوة المنصور التالية لأراضى قشتالة بعد ذلك بعامين ، وهى غزوة سوف نتحدث عنها فيما بعد^(١) .

وبعد أن أخرج المنصور خمس الغنائم ، وقسم ما فيها على المجاهدين ، سار في جيوشه المظفرة ميمماً شطراً شيباية ، وقد محا بهذا النصر الباهر ما لحق معة الحراب الموحدية فى شبه الجزيرة ، عقب نكبة شترين من الانتكاس والتصدع ، فوصل إليها فى يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شعبان سنة ٥٩١ هـ (٦ أغسطس سنة ١١٩٥ م) ، وأقبلت إليه الوفود من كل فج تترجى إليه نهانى النصر . ثم أمر أن يكتب بالفتح إلى سائر جهات الأندلس والمغرب . وطلب إلى أبى الفضل بن طاهر ابن محشرة أن يتوخى فى كتب الفتح غاية الإيجاز ، وأن يكتبها على مثل كتب الصحابة فى فتوحهم ، فصعد أبو طاهر بالأمر . ورفع الشعراء قصائدهم إلى الخليفة كالعادة ، ونظم أبو العباس الجراوى شاعر البلاط الموحدى ، فى الفتح قصيدة جاء فيها :

هو الفتح أعبى وصفه النظم والنرا	وعمت جميع المسلمين به البشرى
وأنجذ فى الدنيا وغار جديشه	فراقت به حسناً وطابت به نشره
لقد أورد الأذفونش شيعته الردى	وساقهم جهلا إلى البطشة الكبرى
حكى فعل إبليس بأصحابه الألى	تبرأ منهم حين أوردهم بدره
رأى الموت للأبطال حوليه ينتقى	فطار إلى أقصى مصارعه ذعرا
ألوف غدت مأهولة بهم الفسلا	وأمت خلاء منهم دورهم قفرا
ودارت رحى الهيجاع عليهم فأصبحوا	هشياً طحيناً فى مهيب الصبا يذرا

وأشيد الشاعر الأندلسى المرسى ، على بن حزمون بن يدى الخليفة قصيدة ، وقعت منه أبجل وقع ، وهذا بعض ما جاء فيها :

حيثك معطرة النفس	نفحات الفتح بأندلس
فذر الكفار ومأتمهم	إن الإسلام لنى عرس
إمام الحق وناصره	طهرت الأرض من الدنس
وملأت قلوب الناس هدى	فدنا التوفيق للتمس
ورفعت منار الدين على	محمد شمس على أسس

وصدعت رداء الكفر كما صدع الديجور سنا قبس
لاقيت جموعهم فغدوا فرسا في قبضة مفترس
جاءوك تضيق الأرض بهم عدداً لم يحص ولم يقس
ومزيت لأمر الله على ثقة بالله ولم تخس
فأناخ الموت كلاكله بظباك على بشر رجس
وتساوى القاع بهامهم المرفض مع الحذب والضرس
فأولئك حزب الكفر ألا إن الكفار لني نكس^(١)

وأمر المنصور بتسريح الحشود والقبائل وسائر الجنود ، على أن يكونوا على أهبة للاستعداد للجهاد في أية لحظة . وقضى فصل الشتاء بإشبيلية ، وانتقل إلى حصن الفرج ، الواقع جنوب غربي المدينة على الضفة الأخرى من النهر الأعظم (الوادي الكبير) وهو الحصن ، الذي أمر بإنشائه قبل ذلك بقليل ، وكان يحبه ويؤثر الإقامة فيه ، وأمر باستكمال غروس بستانه ، وإنشاء النواعير على شاطئ النهر تحت الحصن لربه ، كما أمر بإصلاح المسجد الجامع ، واستكمال بناء صومعته ، وهو الجامع الذي كان قد أنشأه أبوه ، وأمر بإنشاء صومعته قبيل وفاته بقليل . ولما انتهى الشتاء وأقبل الربيع ، أمر المنصور باستئناف الحركة والاستعداد لمعاودة الجهاد ، واستنфар مختلف الحشود من منازلها ، فلما تم وصول مختلف الطوائف وحشدها ، أمر الخليفة بتمييز الحيوش وتنظيمها ، واستعدادها لاستئناف الغزو .

على أن المنصور ، قبل أن يبدأ الحركة ، رأى أن يستشير الزعماء والقادة في أمر توجيه الغزو ، واختيار المنطقة الملائمة في أراضي النصارى لإجرائه . وفي أثناء ذلك تردد رسل ملك قشتالة في طلب المهادنة وعقد السلم ، فرفض المنصور^(٢) ، واستقر الرأي على أن توجه الغزوة إلى ما تسميه الرواية الإسلامية « ببلاد الخوف » أعني منطقة إستر مادورة ، وذلك لاسترداد ما انتزعه النصارى من قواعد هذه المنطقة . وخرج المنصور من إشبيلية في قواته في منتصف جمادى الأولى سنة ٥٩٢هـ^(٣) (منتصف أبريل سنة ١١٩٦ م) ، واتجه شمالاً إلى حصن متناجش^(٤) .

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها في المعجب ص ١٦٥ - ١٦٧ .

(٢) الرسالة الخامسة والثلاثون من رسائل موحدة (ص ٢٣١) .

(٣) ذكر صاحب البيان المغرب أنه منتصف رجب . ولكن هذا التاريخ يتعارض مع سياق الحوادث ومع التواريخ التي توردها الرواية النصرانية .

(٤) ورد اسمه في الرسالة الموحدة الخامسة والثلاثين الخاصة بهذه الغزوة (منت أنتش) ص ٢٣١

وقد كان حسبنا أشرنا إليه من قبل من أ منع حصون منطقة بطليوس ، فتقدمت لمهاجمته قوة من الأندلسيين ، فلما رأت الحامية القشتالية مقدم الجيوش الموحدية الزاخرة ، طالبت بالأمان والتسليم ، فأجيبوا إلى ما طلبوا ، وأمر قائد الجيوش الأندلسية أبو عبد الله بن صناديد ، بتوصيلهم إلى المنطقة الآمنة ، ولكن حدث حينما بدأوا السير أن هاجمهم جماعة من « أوباش العرب » وسبت من كان معهم من النساء والأطفال ، فغضب الخليفة لهذا الاجترار والإخلال بالعهود المقطوعة ، وأمر بسجن من عثر عليه من المعتدين ، ورد النساء والأطفال إلى ذويهم ، وأوصل الجند القشتاليين آمنين إلى أوائل بلادهم .

وقصدت القوات الموحدية بعد ذلك إلى مدينة تَرَجَالَه « قاعدة الثغر الشمالى الواقعة شمال شرق متانجش ، وشرق مدينة قاصرش ، وكان سكانها النصرارى قد أخذوا في إخلائها ، حينما شعروا باقتراب الموحدين ، فاستولى الموحدون على المدينة ، وطاردوا سكانها وأفنوا الكثير منهم ، وسبوا الكثيرين من نساؤهم . واستولوا كذلك على بلدة « سانتاكروث »^(١) القريبة منها ، وكانت حاميتها قد لاذت بالفرار . ثم عبر الموحدون نهر التاجه ، واتجهوا شمالا نحو مدينة « بلاسشيا » وهى التى تسميها رسالة الفتح الموحدية (ابلتانسية) وكان ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، قد انفق بضع سنين فى إنشائها وتحصينها ، ونقل إليها كثيراً من أهل الشمال ، وكان أهلها المدينون قد غادروها ، وبقيت حاميتها فى قلعتها ، فاستولى الموحدون على المدينة ودمروها ، ثم هاجموا القلعة وضربوها بالنبال ضرباً شديداً ، حتى اضطرت الحامية بعد ليلة واحدة فقط من الاعتصام إلى التسليم ، واعتبر أفرادها أسرى بحكم مقاومتهم^(٢) . ويقول صاحب الروض المعطار ، وهو يسمى (بلاسشيا) بلنسية ، إن الموحدين فتحوها عنوة ، وقبضوا على قائدها ، مع مائة وخمسين من أعيان النصرارى ، وجهوا إلى خدمة الجامع الكبير بسلا مع أسارى معركة الأرك^(٣) . وتقول الرواية النصرانية إن الموحدين بالعكس قتلوا الأسف والرهبان وكثيراً من النصرارى .

(١) وتسميها الرسالة الموحدية « شنتقروس Santa Cruz » وتصفها بالقلعة « الحسينية فى

الامتاع » ص ٢٣٢ .

(٢) الرسالة الموحدية السالفة الذكر ، ص ٢٣٤ .

(٣) الروض المعطار ص ١٣ .

واستمر الموحدون في زحفهم شرقاً صوب مدينة طليطلة ، وهي أكبر مدن ولاية طليطلة ، وهم يشنون في أراضي قشتالة ، تخريباً ، وأسرا وسبياً ، فلما أشرفوا على طليطلة انتسفوا زروعها ، وحداثقها وأشجارها ، ولكنهم لم يحاولوا اقتحام المدينة لمنعها ، ولعدم استعدادهم لضرب الحصار حولها ، إذ كانت تنقصهم آلات الحصار ، فقتنوا باجتياح كل ما حولها من مظاهر العمران ، وصبروا أراضيها قاعاً صفصفاً . كل ذلك وملك قشتالة محتجب داخل مملكته ، غير مجترئ على لقاء الغزاة في أية ساحة . ثم اتجه الموحدون شمالاً إلى مكادة^(١) ، وأنزلوا بأراضيها من التخريب ما أنزلوه بطليطلة . وهبطوا أخيراً إلى طليطلة من ناحيتها الشمالية ، وبرزت أمامها الحشود الموحدية فرسانا ومشاة في أكمل عددها وعدتها ، وقد امتنع النصاري بدخلها مستعدين للكفاح والدفاع ، ثم عبر الموحدون بعد ذلك نهر التاجه ، إلى ساحتها الجنوبية ، وانتسفوا زروعها ، وكرومها وحداثقها ، ولاسيما منبتها الشهيرة ، وهي التي كانت من قبل لبني ذى النون ، وورثها النصاري ، وامتدت أيامها حتى خربها الموحدون فيما خربوه من مرافقها وأراضيها ، وقضى الموحدون حول طليطلة بضعة أيام ، واقتصروا على تخريب ديارها ، وإبراز مظاهر قوتهم ، وروعة حشودهم الزاخرة^(٢) .

ويقدم إلينا المقرئ عن غزوة طليطلة رواية خلاصتها أن المنصور لما حاصر طليطلة وضيق عليها ، واشتد في ضربها بالمجانيق حتى أوشكت على السقوط ، خرجت إليه والددة ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وبناته ونساؤه ، ومثلن بين يديه باقيات متضرعات إليه ، أن يبقى البلد عليهن ، فرق المنصور لضراعتهن ، وكف عن ضرب المدينة ، ووهب لهن قدرأ من المال والجواهر الحليلة ، وردهن مكرمات . وهذه رواية يصعب علينا تصديقها لمجانبتها للمنطق والمعقول^(٣) .

وفي خلال الغزوة الموحدية لأراضي قشتالة ، بعث ملك ليون ، وهو ألفونسو التاسع إلى المنصور ، يرجوه أن يعاونه ببعض قواته ، على غزو قشتالة ، فاستجاب المنصور لرغبته ، لما كان من سالف موقفه قبيل معركة الأرك ، وتنحيه عن معاونة ملك قشتالة ضد الموحدين ، وجنوحه إلى مصادقتهم ومحالفهم . وغزا ملك ليون ، ومعه قوة من الموحدين أراضي قشتالة من ناحية « تيرادى كامبوس » ،

(١) وهي بالإسبانية Maqueda . راجع الروض المطار ص ١٣ .

(٢) الرسالة الموحدية الخامسة والثلاثون ص ٣٣٦ و ٣٣٧ . والبيان المغرب ص ١٩٩ .

(٣) المقرئ في نفح الطيب ج ٢ ص ٢٠٧ .

وتقول الرواية النصرانية إن الموحدين الذين كانوا يقاتلون معه ، ضربوا الكنائس والأديار القشتالية بمنتهى القسوة ، وقام الليونيون بانتساف وتخريب الضياع ، ووصل ألفونسو التاسع في غزوته هذه حتى مدينة كريون . وفي نفس الوقت أغار سانشو ملك نافارا من جانبه على أراضى قشتالة المتاخمة له ، واقتحم مدينة سُرّية ، وعاث في تلك المنطقة تخريباً ونهباً .

ولما انتهى المنصور من غزاته ، وأثنى ما شاء في أراضى عدوه ، وأبرزت حشوده أمام أعين النصارى كل مظاهر قوتها وروعها ، قرر العود بسرعة ، قبل أن يختل نظام التموين في الجيش ، فارتد بقواته نحو الجنوب ، واقتحم الموحدون في طريقهم بعض حصون منطقة طليطلة الجنوبية ، فاخترق أراضى قلعة رباح ، ثم اتجه نحو جيان ثم إلى قرطبة ، وسار من قرطبة إلى إستجة فقمونة ، ووصل إلى إشبيلية في أوائل رمضان (٥٩٢ هـ) بعد أن قضى في غزوته نحو ثلاثة أشهر (١).

وما نود أن نلاحظه هو أن هذه الغزوة الموحدية التي استطاع الموحدون أن يدفعوها إلى صميم أراضى قشتالة ، وإلى تطويق العاصمة القشتالية ذاتها ، أعنى طليطلة ، لم تسفر عن أية نتائج مستقرة ، ولم يحرز الموحدون خلالها أية أراضٍ أو مواقع ذات شأن . وإذ لعلنا يلفت النظر أن يكتفى الخليفة المنصور ، وهو الذى حطم قوى قشتالة قبل ذلك بأقل من عام في موقعة الأرك بالعيث والتخريب ، والسبي والنهب في أراضى العدو ، دون أن يتحرى غاية عسكرية جلية ، في وقت كان فيه في أوج قوته وأهباته العسكرية ، وفي وقت كان فيه عدوه الرئيسى ملك قشتالة في منتهى الضعف والاستسلام ، حتى أنه لم يحرك ساكناً للقاء الغزاة في أية مرحلة من مراحل الغزو . وإذ يحق لنا أن نتساءل ألم يكن في وسع الخليفة الظاهر ، في مثل هذه الظروف المواتية ، أن يركز جهوده على محاولة الاستيلاء على طليطلة حصن الإسلام القديم على نهر التاجه ، وفي اعتقادنا أنه لو فعل ، لما كانت هنالك ثمة عقبات خطيرة تحول دون بغيته ، ولكن السياسة العسكرية الموحدية آثرت مع الأسف أن تقنع بالمظاهرات العسكرية الجوفاء ، التى يستطيع العدو القديم الخالد دائماً أن يصبر عليها ، وأن يهضمها بسرعة ليعود إلى عدوانه .

(١) فصلت لنا الرسالة الموحدية المؤرخة في التاسع من شهر رمضان سنة ٥٩٢ هـ ، وهى الرسالة الخامسة والثلاثون من رسائل موحدية ، مراحل هذه الغزوة بإسهاب يغلب عليه الزخرف الأدبى ، وهى من إنشاء الكاتب أبى عبد الله بن عياش (ص ٢٢٨ - ٢٤١) .

وعنى المنصور خلال إقامته عندئذ بإشبيلية بأمرين ، الأول النظر في أحوال الأعمال والنفقات ومحاسبة بعض العمال والنظار ، الذين لحقت بهم ريب التقصير والاختلاس ، والثاني الاستعداد للغزوة القادمة بعد أن ينال الحند قسطهم من الراحة والاستجمام والضيافة والإحسان . وقد أمر المنصور فيما يتعلق بالأموال بمحاسبة أبي سليمان داود بن أبي داود ، وندب لمحاسبته لجنة من الكتاب ، فحققت في سائر أعماله وتصرفاته مدى ستة أشهر ، ثم انتهت بإدائته وإثبات ما في ذمته من أموال ، بلغت في الأعمال نحو مائة وخمسين ألف ، فاستصفت أمواله ، ولكنه لم ينكب ولم يعاقب حتى عُنِيَ عنه . وأمر الخليفة في نفس الوقت بمحاسبة أبي علي عمر بن أيوب ، على ما كان تحت يده من أموال النفقات ، فتبين أن في ذمته قدراً كبيراً من المال ، فطولب به ، ولما عجز عن الوفاء ، اعتقل مع أبي سليمان حتى عُنِيَ عنه أمير المؤمنين .

وفي هذا العام أيضاً قام الخليفة ببعض التعيينات الهامة ، فقلد أبا زيد بن يوجان أشغال البرين (المغرب والأندلس) من الأعمال العلية والشئون السلطانية والوزارة ، وما يتعلق به من أشغال الموحدين وملازمة الخدمة ، فأبدى في تأدية مهامه المختلفة كفاية ظاهرة ، وقدم أبا القاسم بن نصير على الإسراف على عمل إشبيلية ، وقدم الكاتب المؤرخ يوسف بن عمر ، بعد أن ترك خدمة بني حفص ابن عبد المؤمن ، على المستخلص بمنطقة الشرف ومدينة لبلة .

وكان المنصور يعنى في نفس الوقت بالاستعداد لاستئناف الغزو في أراضي قشتالة . فلما انتهى فصل الشتاء أمر بالحركة وتعبئة الحشود ، فاجتمعت مختلف الطوائف والقبائل حتى ضاقت إشبيلية بمجموعهم ، فلما استكمل الحشد والاستعداد ، خرج الخليفة في قواته من إشبيلية في الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٩٣ (١٤ أبريل سنة ١١٩٦) وسار ميمماً شطر قرطبة ، وكانت سنة خصب ورخاء ، فسارت الجموع طول الطريق في دعة وعيش طيب . ولما وصل المنصور إلى قرطبة ، دخلها ونزل بها وقسم جيوشه لانتجاع الحصب ووفرة الأقوات ، حتى تحل الفترة التي تكثر فيها المؤن والأقوات بأراضي قشتالة^(١) .

الفصل الرابع

ما بعد الأرك

حتى وفاة المنصور

إقامة الخليفة المنصور بقرطبة . الفيلسوف ابن رشد ومؤلفاته ومكانته العلمية . اجتماع الأسباب لنكته . سعى خصومه في الإيقاع به . تأويل آرائه ومسحها . إتهامه وبعض زملائه بالمروق . توجيه الاتهام إليه بالمسجد الجامع . إدانته ونفيه إلى بلدة اليسانة . مصادرة كتبه وإحراقها . كتاب المنصور في تبرير تصرفه وفي شرح تهم المارقين . أسباب أخرى لغضب المنصور على الفيلسوف . عفو المنصور عنه وعن زملائه . عودة ابن رشد إلى مراكش ثم وفاته . ما تكشف عنه نكبة الفيلسوف من مغزى . خروج المنصور إلى الغزو . مسيره إلى طليطلة . مسيره إلى مجريط وحصارها . تخريبه لمنطقة وادي الحجارة . توجيه كتاب الغزو . عود المنصور إلى قرطبة ثم إشبيلية . أمره بإتمام صومعة الجامع . أقوال ابن صاحب الصلاة في بناء الصومعة . تزويدها بالتفافيح الذهبية . وصف لهذه التفافيح وعملية رفعها . قيام هذه الصومعة حتى اليوم . انتقال المنصور إلى حصن الفرج . تعيينه للعالم . تحالف قشتالة وأراجون ضد الموحدين . غزو قوات قشتالة وأراجون لمملكة ليون . عقد السلم بين المنصور وملك قشتالة . رفض المنصور معاونة ملك ليون . عبور المنصور إلى المغرب . وعوده إلى مراكش . أخذ البيعة لولده الناصر . عطفة على اليتامى . أمره بإلزام اليهود بزي خاص . بواعث هذا القرار . مرض المنصور وشعوره بدنو أجله . استدعاؤه للشيوخ والقراة . توصيته بولده وبمن يثق بهم من السادة . توصيته برعاية الأندلس والنود عنها . توصيته بالأغزاز والعرب والطلبة . توصيته بقبائل الموحدين . ما ينسب إليه من آخر أقواله . وفاة المنصور . عظمتة والإشادة بصفاته . عنايته بتنظيم الجيش وتقويته . شغفه بالجهاد . حزمه وعنايته بتوطيد العدل . ورعه وتقواه . عنايته بتطبيق أحكام الشرع وإقامة الصلاة والحدود . مطاردته لعلم الفروع والمذهب المالكي . اعتناقه للمذهب الظاهري . انتشار الظاهرية في عهده . إجلاله للعلامة ابن حزم . موقفه من إمامة المهدي وعصمته . ما ينسب إليه من نيته في افتتاح مصر . قول المراكشي في ذلك . أقوال الرحالة ابن جبير عن أحوال المشرق وضلال أهله . أقواله عن صدى الدعوة الموحدية بمصر . الفكرة الموحدية في غزو مصر . الفكرة لم تكن سوى أمنية . عظمتة مصر وقتها أيام المنصور . صفات المنصور العلمية . عطفه على العلماء وطلبة العلم . أدبه وفصاحته . اجتماع الشعراء حوله . أبو العباس الجراوي يؤلف له كتاب « صفوة الأدب » . مدائح ابن مجير . مواهب المنصور الإدارية والإنشائية . عنايته بالشئون المالية . منشأته العمرانية . إنشاءه لفصاحية الصالحة . تجديد له لرباط الفتح وإنشاء مسجدها العظيم . إنشاءه للبيمارستان بمراكش . منشأته بالأندلس . وزراؤه وكتابه . قضائه . أولاده . صفته .

فى خلال إقامة المنصور بقرطبة ، فى تلك الفترة من شهور سنة ٥٩٣ هـ ، وقع حادث مؤسف ذومغزى عميق ، هو نكبة القاضى الفيلسوف أبى الوليد بن رشد . وقد سبق أن أشرنا إلى صلة ابن رشد بالبلاط الموحدى ، وإلى ماكان يتمتع به من عطف الخليفة أبى يعقوب يوسف ، ولاسيما عن طريق أستاذه العلامة الفيلسوف الطبيب أبى بكر بن طفيل ، صديق هذا الخليفة وأستاذه الأثير لديه . وكان ابن رشد فى هذا الوقت يتولى قضاء إشبيلية ، ويشغل فى نفس منصب الطبيب الخاص للخليفة إلى جانب أستاذه ابن طفيل . ثم تقلب بعد ذلك فى عدة من المناصب القضائية والإدارية الهامة ، أحياناً بقرطبة وأحياناً بإشبيلية ، وكان يتنقل فى معظم الأحيان مع بلاط الخليفة ، سواء بالمغرب أو الأندلس . ولما توفى أستاذه ابن طفيل فى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) انفراد بمنصب الطبيب الخاص للخليفة ، واستمر على حظوته ومكانته لدى الخليفة يعقوب المنصور ، كما كان من قبل لدى والده الخليفة أبى يعقوب يوسف .

وكان ابن رشد خلال ذلك قد ذاعت شهرته الطبية والفلسفية ذيوماً عظيماً ، وكتب كثيراً من كتبه الفلسفية ، ومعظمها فى تلخيص كتب أرسطو وشروحها ، وكتب كذلك كثيراً من الكتب الطبية ، ومعظمها تلخيص وشروح لكتب جالينوس . ومنها « شرح » لأرجوزة « الشيخ الرئيس ابن سينا » فى الطب ، وكتب كذلك كتابه « الكليات » ، ليتناول فيه أبواب الطب الكلية أو الرئيسية ، مقابل التفاصيل الجزئية التى تناولها أستاذه العلامة الطبيب أبو مروان عبد الملك بن زهر فى كتابه « التيسير » . وهذا كله عدا ماكتبه فى الأصول والفقه وعلم الكلام والحكمة والمنطق . وقد بلغت تصانيف ابن رشد فى مختلف العلوم أكثر من سبعين كتاباً ورسالة اشتهرت كلها فى المشرق والمغرب ، وترجم الكثير منها فيما بعد إلى اللاتينية ، ولاسيما شروحه لفلسفة أرسطو ، وهى التى جعلت لابن رشد أعظم مكانة فى ميدان التفكير الأوروبى .

وكان الخليفة يعقوب المنصور ، كأبيه عالماً متمكناً يجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين ، وكان يعشق الجدل والمناقشات الفلسفية ، ويعقد مجالس خاصة يستمع فيها إلى آراء ابن رشد وشروحه ، ولاسيما فى علاقة الفلاسفة بالدين ، وهو

الموضوع الذى كتب فيه ابن رشد فيما بعد رسالة « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال ». وكان الفيلسوف يقضى معظم أوقاته عندئذ فى البلاط الموحدى ، حيثما كان الخليفة ، وكان المنصور يعظم الفيلسوف ويقدره ، إلى حد أنه كان يجلس إلى جانبه مباشرة ، ويتعدى بموضعه مواضع أشياخ الموحدين الأكابر . ومن الغريب أن يقال لنا إن ابن رشد ، بالرغم مما كان يحيط بمقامه العلمى من ضروب التوقير والتكريم ، لم يكن يتمتع بالمظهر اللائق بمكانته من حيث اللبس والتجمل . وقد وصفه لنا القاضى أبو مروان الباجى فى قوله « كان القاضى أبو الوليد ابن رشد حسن الرأى ذكياً ، رث البزة ، قوى النفس » .

وقد شاء القدر أن يُنكب الفيلسوف ، فى تلك الفترة التى نزل فيها المنصور بقرطبة . وكان ابن رشد قد عاد إلى الأندلس فى ركاب الخليفة ، ونزل بدار أسرته فى قرطبة . وكانت أسباب هذه النكبة فى الواقع تتجمع منذ بعيد . وكانت قد نشأت من قديم بين الفيلسوف وبين أهل قرطبة وحشة . « أحدثها أسباب الحسد » . وكان الحفاظ والطلبة والفقهاء الموحدون فضلاً عن ذلك ، ينقمون على ابن رشد آراءه ودراساته الجدلية والفلسفية ، وينقمون بالأخص منزلته لدى الخليفة . ونحن نعرف ما كان يتمتع به أولئك الحفاظ والطلبة لدى الخليفة الموحدى من عظيم النفوذ ، ولا سيما وقد كانوا نصحاء ومستشاريه الروحيين . وكان كثير من هؤلاء وكثير من غيرهم من خصوم الفيلسوف ، يثبون حول آرائه ونظرياته دعاية مسمومة ، ويرمون بالمروق والخروج على أحكام الشريعة ، « وإيثاره فيها لحكم الطبيعة » . وكانت الفاسفة ودراساتها بالرغم مما كان يتسم به البلاط الموحدى ، منذ عهد الخليفة عبد المؤمن ، من رعاية العلم والعلماء ، من الموضوعات المريبة المكروهة . وهكذا كان خصوم ابن رشد يجدون فى صميم دراساته وكتاباتة ، مواد اتهامهم . وأكثر من ذلك أنهم كانوا يدسون عليه ألفاظاً وعبارات محرجة . ومن ذلك وصفه فى أحد شروحه « الزهرة » بأنها « أحد الآلهة » وقد جمع أولئك الخصوم مقالات وأوراق كثيرة منسوبة إلى الفيلسوف ، وحملوها إلى مراکش فى أوائل سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) ، وحاولوا أن يرفعوها إلى الخليفة . ولكن المنصور كان يشغل عندئذ بالأهبة للعبور إلى الأندلس . ومن ثم فقد فشل الساعون فى مسعاهم ، واضطروا للعودة خائبين .

ويقول لنا ابن عبد الملك فى « الذيل والتكملة » وهو فيما يرجح ينقل عن

ابن صاحب الصلاة: « فلما كان التلوم من المنصور بمدينة قرطبة ، وامتد بها أمد الإقامة ، وانبسط الناس من مجالس المذاكرة ، تجددت للطالين آمالهم ، وقوى تألبهم ، واسترسالهم ، فأدلووا بتلك الألقيات ، وأوضحوا ما احتجونه من شنيع الهفوات الماحية لأبي الوليد كثيراً من الحسنات ، فقرئت بالمجالس ، وتوالت أغراضها ، ومعانيها وقواعد ما وبانيها ، فخرجت بما دلت عليه أسوأ مخرج ، وربما ذيلها مكر الطالين ، فلم يمكن عند اجتماع الملأ إلا المدافعة عن شريعة الإسلام . ثم آثر الخليفة فضيلة الإبقاء ، وأعمد السيف بالتماس جميل الجزاء ، وأمر طلبة مجلسه ، وفقهاء دولته ، بالحضور بجامع المسلمين ، وتعريف الملأ بأنه مرق من الدين ، وأنه استحق لعنة الضالين »^(١) .

ولم يكن الاتهام بالمروق مقصوداً على الفيلسوف ، ولكنه شمل عدة من زملائه وتلاميذه ممن يشتغلون « بالحكمة وعلوم الأوائل » . وكان من هؤلاء أبو جعفر الذهبي ، والفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المهري المشهور بالأصولي ، وأبو الربيع الكفيف ، وأبو العباس الحافظ الشاعر . وأحضر ابن رشد ، والفقيه أبو عبد الله المهري وحدهما إلى جامع قرطبة ، وتوارى الباكون . وتولى توجيه الاتهام إلى الفيلسوف وزميله ، القاضي أبو عبد الله بن مروان ، والخطيب أبو علي بن الحجاج . ولم يقل لنا صاحب « التكملة » ، ماذا كان موقف ابن رشد ، ولكن المرجح أنه قام بالرد على أسانيد متهميه :

وعلى أي حال فقد انتهى الأمر بإدانة الفيلسوف ، وقضى الخليفة المنصور بمعاقبته بالنفي من قرطبة ، واعتقاله ببلدة « أليسانة » أو « اللسانة » ، الواقعة في جنوبها على مقربة من نهر شتيل . وكانت هذه البلدة منذ عصور منزل اليهود في هذه المنطقة من الأندلس . وكانت بالأخص مدينة غنية زاهرة أيام دولة بني باديس أصحاب غرناطة^(٢) . وقيل في اختيارها لاعتقال الفيلسوف « إنه يُنسب في بني إسرائيل ، ولأنه لا يعرف له نسب في قبائل الأندلس » . وكان من الواضح أن الخليفة قد راعى في الاقتصار على عقوبة الفيلسوف بالنفي ، سنه

(١) التكملة لابن عبد الملك المراكشي المجلد الخامس من مخطوط المتحف البريطاني . ونقله إلينا صاحب البيان المغرب مع الاختصار ص ٢٠٢ .

(٢) وهي بالإسبانية Lucena . راجع الإدريسي ، وصف المغرب والأندلس (طبعة دوزي) ص ٢٠٥ .

وحالته الصحية . وكان ابن رشد يومئذ قد جاوز السبعين من عمره . وقضى على زملاء الفيلسوف الذين تقدم ذكرهم كذلك بالنفي إلى جهات أخرى ، وكان أبرزهم بعد ابن رشد ، هو إبراهيم الأصولي . وصودرت كتب الجميع ، وأمر بإحراقها أينما وجدت .

ولم يكتف البلاط الموحدى بتوقيع العقوبة المادية على المتهمين ، ولكنه رأى أن يقرنها بإعلان وجهة نظره ، وتبرير تصرفه ، فوجه المنصور كتاباً في هذا الموضوع ، من إنشاء كاتبه أبي عبد الله بن عياش ، إلى مراکش وغيرها من قواعد المغرب والأندلس . وإليك بعض ما جاء في هذا الكتاب المشهور ، الذى انفرد بتدوينه ابن عبد الملك صاحب « الذيل والتكملة » :

« وقد كان فى سالف الدهر قوم ، خاضوا فى بحور الأوهام ، وأقرّ لهم عواقبهم ، بشغوف عليهم فى الإفهام ، حيث لاداعى يدعو للحقّ القيوم ، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم ، فخلّدوا فى العالم صحفاً ، ما لها من خلاق ، مسودة المعانى والأوراق ، بعدها من الشريعة بعد المشرّقين ، وتباينها تباين الثقلين ، يوهمون أن العقل ميزانها ، والحق برهانها ، وهم يتشعبون فى القضية الواحدة فرقاً ، ويشيدون فيها شواكل وطرقاً . ذلكم ما فى الله خاتمهم للنار ، وبعمل أهل النار يعملون ، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ، ومن أوزار الذين يفضلونهم بغير علم ألا ساء ما يذرون . ونشأ منهم فى هذه [اللمحة] البيضاء شياطين .. يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، ولو شاء ربك مافعلوه ، فذرهم وما يفترون ، فكانوا عليها أضمر من أهل الكتاب ، وأبعد عن الرجعة إلى الله .. لأن الكتابى يجتهد فى ضلال ، ويجد فى كلال ، وهؤلاء جهدهم التعطيل ، وقصاراهم [الغومة] والتخييل ، وبث عقاربهم فى الآفاق برهة من الزمان ، إلى أن أطلعنا الله سبحانه منهم ، على رجال كان الدهر قد سالمهم على شدة حروبهم ، وأغنى عنهم سنين على كثرة ذنوبهم ، إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً ، وما أمهلوا إلا ليأخذهم الله الذى لا إله إلا هو ، وسع كل شئ علماً .

« وما زلنا وصل الله كرامتكم ، نذكرهم على مقدار ظننا فيهم ، وندعوهم على بصيرة إلى ما يقرّبهم إلى الله سبحانه ويدنيه . فلما أراد الله فضيحة عمايتهم ، وكشف غوايتهم ، وقف لبعضهم على كتب مسطورة من الضلال ، موجبة أخذ

كتاب صاحبها بالشمال ، ظاهرها موشَّحٌ بكتاب الله ، وباطنها مصرَّحٌ بالإعراض عن الله ، لُبَّسٌ منها الإيمان بالظلم ، وجيء منها بالحرب الزبون في صورة السلم ، مزلة للإقدام ، وسمٌ يدب في باطن الإسلام ، وأسياف أهل الصليب دونها مقلولة ، وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة ، فإنهم يوافقون الأمة في ظاهرهم وزيهم ولسانهم ، ويخالفونهم بباطنهم وبهتانهم ، فلما وقفنا منهم على ما هو قذِّى في جفن الدين ، ونكتة سوداء في صفحة النور المبين ، نبذناهم في الله نبذ النواة ، وأقصيناهم حيث يقصى السفهاء من الغواة . وأبغضناهم في الله ، كما أنا نخب المؤمنين في الله ، وقلنا اللهم إن دينك هو الحق اليقين ، وعبادك هم الموصوفون بالمتقين ، وهؤلاء قد صدفوا عن [الله] وعميت أبصارهم وبصائرهم عن بيناتك ، فباعدت أسفارهم ، وألحق بهم أشياعهم حيث كانوا وأنصارهم ، ولم يكن بينهم إلا قليل وبين الإلحاح فلا . . في مجال ألسنتهم ، والإيقاظ [بحدة] من عقلهم ونصتهم ، ولاكنهم رفعوا بموقف الخزي والهوى ، ثم طردوا عن رحمة الله ، ولو ردوا لعادوا ، لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون .

« فاحذروا وفقكم الله هذه الشرذمة على الإيمان ، حذركم من السموم السارية في الأبدان . ومن عثر له على كتاب من كتبهم ، فجزاؤه النار التي بها يُعذب أربابه ، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه ومآبه ، ومتى عثر منهم على مُجَرِّ في غلوائه ، عم عن سبيل الله استقامته واهتدائه ، فليُسْجَل فيه بالثقيف والتعريف ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . أو لا يرد الذين حبطت أعمالهم ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون . . . والله تعالى يظهر من دنس الملحدين أصقاعكم ، ويكتب في صحف الأبرار تضافرهم على الحق واجتماعكم ، إنه منكم كريم » (١) .

هذا كله فيما يتعلق بناحية التكفير ، وناحية العقيدة ، وهي التي اتخذت ذريعة لاتهام الفيلسوف وإدانته . بيد أنه كانت ثمة أسباب أخرى لغضب المنصور على الفيلسوف . منها توثق صلاته بالسيد أبي يحيى أخى المنصور ووالى قرطبة ، وقد

(١) أورد ابن عبد الملك المراكشي نص هذا الكتاب الموحى في « الذيل والتكملة » في ترجمة ابن رشد (المجلد الخامس من مخطوط المتحف البريطاني) .

كان بين الأخوين موجدة وجفاء . ومنها أنه أى ابن رشد ، كان يجرى فى أحاديثه مع الخليفة على مخاطبته دائماً بقوله « تسمع يا أخى » وكان المنصور يُسرّ له هذه الجرأة فى مخاطبته . ومنها أخيراً ، وهو ما يدخل فى باب العيب فى ذات الخليفة ، إن ابن رشد قال فى شرحه لكتاب الحيوان لأرسطاطاليس ما يأتى : « ورأيت الزرافة عند ملك البربر » مشيراً إلى المنصور ، وقد وجد ذلك مكتوباً بخطه (١) . فهذه الأسباب كلها قد اجتمعت لتبنيّ لخصوم الفيلسوف ومتهميه فرصة النيل منه ، وإقناع الخليفة بصحة مانسب إليه من تهم المروق والإلحاد .

ولبث ابن رشد فى معتقله فى «اليسانة» زهاء ثلاثة أعوام . ثم إن جماعة من أكابر أهل إشبيلية ، خاطبوا المنصور فى شأن الفيلسوف وزملائه ، وتشفعوا لديه فى سبيل إقالتهم والعفو عنهم ، ونفوا بالأخص عن الفيلسوف تهمة المروق والزيف ، وشهدوا بحسن إيمانه وسلامة عقيدته . ونفى ابن رشد عن نفسه من جهة أخرى ، تهمة العيب فى حق المنصور ، بوصفه « ملك البربر » وقال إن صحة الوصف هى ملك « البرين » وإن ما وقع هو تحريف من الناسخ ، فاستجاب المنصور إلى شفاعتهم ، وعفا عن ابن رشد وزملائه ، وذلك فى سنة ٥٩٤ هـ .

وهكذا استرد الفيلسوف حظوته ومكانته فى البلاط الموحدى ، وعاد إلى مراکش ليلتحق ببلاط الخليفة . بيد أنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة ، وتوفى فى التاسع من شهر صفر سنة ٥٩٥ هـ (١٠ ديسمبر سنة ١١٩٨ م) ، وهو فى الخامسة والسبعين من عمره . ودفن ابن رشد أولاً فى مقبرة « باب تاغزوت » خارج مراکش ، ثم حمل منها بعد أشهر قلائل إلى قرطبة مسقط رأسه ، وموئل أسرته ، ودفن فى روضة آباته بمقبرة ابن عباس (٢) .

تلك هى أدوار المأساة المشجية التى اقترنت بحياة فيلسوف من أعظم أقطاب التفكير الإسلامى والتفكير العالمى . ولقد تكررت هذه المأساة ، التى اتخذت صورة الاضطهاد الفكرى ، غير مرة فى ظل المرابطين ثم الموحدين ، وكانت مطاردة ابن رشد ومحاكمته ، بلا ريب وصمة فى عهد خليفة عظيم عالم كالخليفة

(١) المعجب للمراكشى ص ١٧٤ و ١٧٥ .

(٢) راجع فى نكتة ابن رشد « الذيل والتكلة » لعبد الملك المراكشى (المخطوط المشار إليه) ، والتكلة لابن الأبار فى ترجمته (القاهرة) رقم ١٤٩٧ .

المنصور . بيد أنها تكشف بالأخص عن روح التزمّت العميق التي كان يتسم بها التفكير الديني في عهد الموحدين .

- ٢ -

وكان الخليفة في تلك الأثناء يستكمل أهبته للغزوة المنشودة ، فلما تم له ما أراد من ذلك ، غادر قرطبة في قواته ، واخترق جبل الشارات (سيرا مورينا) ميمماً شطر طليطلة : فلما وصل إلى حدود قشتالة ، قصد إليه رسل ألفونسو الثامن في طلب المهادنة ، فصرفهم دون جواب ، وقد عقد العزم على اختراق أراضي قشتالة ، وغزوها وفقاً للخطة التي وضعها . ولما وصل إلى طليطلة ، سار إلى مكادة ، وضرب ما حولها من الأراضي دون أن ينال منها شيئاً ، ثم انعطف جنوباً نحو طليطلة وحاصرها ، وهناك علم أن ملك قشتالة قد حصل على عون زميله ملك أراجون ، وأنهما يرابطان بقواتهما عند قلعة مجريط^(١) في انتظار الاشتباك مع الموحدين ، فتحول المنصور نحو مجريط بسرعة ، بعد أن خرب أراضي طليطلة ، مؤملاً أن يلتقي بالقوات النصرانية . ولما وصل إلى مجريط ، حاصرها بضعة أيام ، ولكن الملكين لم يكونا بها ، بل كانا قد انسحبا في معظم قواتهما إلى جبال وادي الرملة^(٢) ، وتركوا في حصن مجريط قوة مختارة بقيادة دون ديجولوبث دى هارو ، وهو الذي كان قد لجأ إلى حصن الأرك يوم الموقعة . فدافع القشتاليون عن مجريط بشدة ، فغادرها المنصور عندئذ ، وسار ميمماً شطر قلعة هنارس (قلعة النهر) ثم وادي الحجارة ، وهوينتسف الزروع ، ويخرب الضياع والقرى ، ولكن الموحدين لم يستطيعوا كذلك الاستيلاء على وادي الحجارة لمنعها . وخرجت حاميتها ، وفاجأت قافلة المتاع والعنادر والخدم ، فأوقعت بها ، واستطاعت أن تنزع منها بعض الأسلاب ، قبل أن يتداركها الموحدون ، ويردوا المغيرين على أعقابهم ، ويقتلوا عدداً منهم .

وفي اليوم التالي ، نظم الموحدون مظاهرة عسكرية ضخمة في ظاهر وادي الحجارة ، بدا فيها الجيش الموحدى بمختلف طوائفه وحشوده ، إظهاراً لقوتهم وإرهاقاً للعدو ، وبعث المنصور من محله بتفاصيل الغزوة إلى مختلف الجهات .

(١) وهي التي غدا موقعها فيما بعد نواة لموقع مدريد عاصمة إسبانيا الحديثة ، وتطور اسمها

العربي من مجريط Majerit إلى Madrid

(٢) جبال وادي الرملة هي بالإسبانية Guadarrama .

ثم أمر بالحركة والعود ، وسار بطريق وبذة . وهنا اتجه المنصور ، وفقاً للرواية النصرانية شرقاً نحو قونقة وحاصرها ، ثم ارتد نحو أقليمش وسار منها جنوباً نحو الكرس وبيّاسة ، ووصل إلى قرطبة في أواخر رمضان سنة ٥٩٣ هـ ، ثم غادرها في الحال إلى إشبيلية ، فوصلها في يوم عيد الفطر (أغسطس سنة ١١٩٧ م) وذلك بعد أن أنفق في غزوته الثانية لأراضى قشتالة أربعة أشهر ^(١) .

وما كاد المنصور يستقر في إشبيلية ، حتى غنى بإتمام الأعمال الأخيرة لصومعة الجامع الأعظم (المنارة) وهي التي كان أبوه الخليفة أبو يعقوب يوسف ، قد أمر ببنائها قبل خروجه إلى غزوة شترين في سنة ٥٨٠ هـ . وكان المنصور قد أمر بالمضي في إنشائها عقب توليه الخلافة . ووضع العريف أحمد بن ياسنّه أسنسا لصق الجامع ثم تعطل البناء حيناً لعزل بعض العمال المختصين ، أو لغير ذلك من الأسباب . وفي سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) بعد أن فرغ المنصور من غزواته بإفريقية ، أصدر أمره بإصلاح ما اختل من الجامع الأعظم وإتمام بناء صومعته . ويقول لنا ابن صاحب الصلاة ، وهو حسبنا أشرنا من قبل غير مرة مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، أنه شرع في بناء الصومعة بالآجر الذي يؤخذ من سور قصر ابن عباد ، ودام العمل في ذلك أعواماً ، يجرى البناء فيها بصورة متقطعة ، فإذا حضر الخليفة إلى إشبيلية ، ضوعفت المهمة في البناء ، وإذا غادرها إلى الحضرة تعطل البناء ، ثم يستأنف متى حضر . وكان الخليفة المنصور كأبيه الخليفة أبي يعقوب ، شغوفاً بالبناء ، وكان وقت وجوده بإشبيلية ، يلزم في أوقات فراغه الإشراف على أعمال البناء بنفسه ، واستمر الأمر كذلك حتى عاد المنصور من موقعة الأرك مكللاً بغار الظفر ، وأصدر أوامره بمضاعفة المهمة لإتمام الصومعة ، ولما عاد إلى إشبيلية من غزوته الأخيرة ، كان بناء الصومعة قد تم ، ولم تبق سوى أعمال التجميل . وبالرغم من أن المنشآت الموحدية ، كانت حتى ذلك العهد تقتصر على مراعاة الروعة والمتانة ، ولا تميل إلى الزخرف والزينة ، فقد أصدر الخليفة أمره ، بأن تزود صومعة الجامع بتفافيحها الذهبية الشهيرة . وإليك كيف يصف لنا ابن صاحب الصلاة قصة هذه التفافيح ، ورفعها إلى أعلى المنارة ، في حفل كان من شهوده :

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٠٣ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ . وراجع :



صومعة جامع المنصور بإشبيلية المسماة لآخر الدا La Giralda

« فلما وصل أمير المؤمنين ، وهزم الله أذفونش الطاغية ، أمر رضى الله عنه في مدة إقامته بإشبيلية بعمل التفافيح الغريبة الصنعة العظيمة الرفعة ، الكبيرة الحرم ، المذهبة الرسم ، الرفيعة الاسم والجسم ، فرفعت في منازلها بمحضرة ، وحضر المهندسون في إعلائها على رأيه ، وبلوغ وطره ، مركبة في عمود عظيم من الحديد مرسى أصله في بنيان أعلى الصومعة أعلاها ، زنة العمود مائة وأربعون ربعا من الحديد ، موثقا هناك في تلاحك البنيان ، بارز طرفه الحامل لهذه الأشكال المسماة بالتفافيح إلى الهواء ، يكابد من زعازع الرياح ، وصدما الأمطار ، ما يطول التعجب من مقاومته وثباته . وكان عدد الذهب الذى طليت به هذه التفافيح الثلاثة الكبار والرابعة الصغرى ، سبعة آلاف مثقال كباراً يعقوبية ، عملها الصباغ بين يدى أمير المؤمنين وحضوره . ولما اكملت سترت بالأغشية من شقاق الكتان ليلا ينالها الدنس من الأيدى والغبار ، وحملت على العجل مجرورة حتى إلى الصومعة ، بالتبكير عليها والتهليل ، حتى وصلت ورفعت بالمسدسة حتى إلى أعلى الصومعة المذكورة ، ووضعت في العمود ، وحصلت فيه ، وحصلت بمحضر أمير المؤمنين أبى يوسف المنصور رضى الله عنه ، وبمحضر ابنه وولى عهده أبى عبد الله السعيد الناصر لدين الله ، وجميع بنيه وأشياخ الموحدين والقاضى وطلبة الحضر ، وأهل الوجاهة من الناس ، وذلك في يوم الأربعاء عقب ربيع الآخر بموافقة التاسع عشر من شهر مارس العجمى عام أربعة وتسعين وخمس مائة ، ثم كشف عن أغشيتها فكادت تغشى الأبصار من تألقها بالذهب الخالص الإبريز وشعاع رونقها »^(١).

ويضيف صاحب روض القرطاس إلى ما تقدم ، أن الذى قام بالإشراف على صنع هذه التفافيح الذهبية ، ورفعها إلى أعلى المنار ، هو المعلم أبو الليث الصقلى ، وأن هذه التفافيح قومت يومئذ بمائة ألف دينار من الذهب^(٢)

ونقول نحن ، إن هذه الصومعة أو المنارة العظيمة التى أمر بإنشائها الخليفة أبو يعقوب يوسف لجامع لإشبيلية الأعظم ، وأتمها ولده يعقوب المنصور ، وزودها بتفافيحها الذهبية الرائعة ، مازالت تقوم حتى يومنا ، وإن كانت قد فقدت تفافيحها الذهبية منذ بعيد ، وحولت طبقتها العليا إلى برج للأجراس لكنيسة لإشبيلية

(١) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة (المخطوط السابق ذكره لوحة ١٧١ ، اوب) .

(٢) روض القرطاس ص ١٥١ .

العظمى ، وهى التى قامت بدورها فوق أنقاض الجامع الأعظم : وهى تحمل اليوم اسمها الإسباني « لاخيرالدا La Giralda » ، بيد أنها مازالت بالرغم من تحوّلها إلى برج للأجراس ، تحتفظ بكثير من روحها الإسلامية القديمة ، ومازالت تعتبر من أعظم الآثار الأندلسية الباقية^(١) .

ولما تم الاحتفال بإتمام صومعة الجامع الأعظم على هذا النحو انتقل المنصور إلى حصن الفرج ، وقضى به فصل الصيف ، وكان يؤثره لجمال موقعه ، وطيب هوائه ، ثم عاد إلى إشبيلية ، فأقام بها أربعين يوما أخرى ، وعنى خلال هذه الفترة بتنظيم الشئون ، وتعيين الولاة والعمال ، فأسند ولاية إشبيلية إلى ولده السيد أبى زيد ، وولاية بطليوس وجهاتها إلى السيد أبى الربيع بن أبى حفص بن عبد المؤمن ، وولاية منطقة الغرب إلى أبى عبد الله بن أبى حفص بن عبد المؤمن ، وندب العمال للنظر فى شئون الجباية فى مختلف الجهات ، ورتب الحاميات المختارة فى مختلف القواعد ، وأمر بتحسينها وإصلاح أسوارها^(٢) .

وكانت الأحوال قد تطورت عندئذ فى مملكتى قشتالة وليون ، وأنشئ حلف جديد لمقاومة الموحدّين بين قشتالة وأراجون ، وتقدم ملك أراجون بيدور الثانى لمعاونة حليفه ألفونسو الثامن ، وظهر أثر هذه المعاونة فى اجتماع القوات المتحالفة لمقاومة الموحدّين فى منطقة وادى الحجارة ، حينما قام المنصور بغزوه الثانية لأراضى قشتالة . ومع أنه لم يقع بين الفريقين اشتباك ذو شأن ، فإن المنصور لم يغفل من حسابه أمر ذلك التكتل الحديد بين القوى النصرانية ، ومن جهة أخرى فقد كان لذلك التطور أثره فى موقف ألفونسو التاسع ملك ليون حليف الموحدّين . ذلك أنه كان قد غزا أراضى قشتالة بمعاونة قوة من الموحدّين ، ووصل فى زحفه حتى مدينة كرتيون ، وذلك فى نفس الوقت الذى غزا فيه الموحدّون أراضى قشتالة من الجنوب . فلما انتهى الموحدّون من غزوتهم ، وانسحبوا إلى الجنوب ، قامت قوة مشتركة من القشتاليين والأرجونيين بغزو مملكة ليون ، واخترقت أراضها حتى كويانسا (بلبسية دى دون خوان) ، وحاصرت ملك ليون وحلفاءه الموحدّين فى قاعدة بناقتى ، فالتزم ملك ليون الدفاع ، ولم يحاول

(١) راجع تاريخ منارة المنصور ، وأوصافها القديمة والحالية فى كتابي « الآثار الأندلسية الباقية » الطبعة الثانية ص ٥١ - ٥٦ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٠٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ .

أن يشتبك مع خصومه . ثم انسحب القشتاليون وحلفاؤهم من أراضي ليون مثقلين بالغنائم ، وعاد ملك أراجون إلى بلاده وزال الخطر عن مملكة ليون . وقبيل مغادرة المنصور لإشبيلية ، وفدت عليه رسل ملك قشتالة مرة أخرى في طلب المهادنة والسلام ، فرأى المنصور على ضوء هذه التطورات ، أن يجيبه إلى رغبته بشروط اشترطها ، وهو مما يصفه صاحب البيان المغرب بأن التهادن عقد وفقاً لشريعة الإسلام^(١) . ومن جهة أخرى فإن ملك ليون ، بعد أن تخرج مركزه ، وأعلن البابا نفيه من الكنيسة ، باعتباره خارجاً على الدين ، وأذن للملك البرتغال بمحاربته متشجاً بالصفة الصليبية ، قصد بنفسه إلى إشبيلية ملتجئاً إلى المنصور ، وطلباً إليه معاونته بالخذ والمال ، ولكنه لم يوفق في مسعاه هذه المرة ، نظراً لقيام التهادن والسلام بين الموحدين وبين مملكة قشتالة .

ولما انتهى المنصور من النظر في سائر الشئون ، أصدر أوامره بالتأهب للعودة إلى حضرة مراكش . ثم غادر إشبيلية في أواسط جمادى الأولى سنة ٥٩٤ هـ (أواخر مارس سنة ١١٩٨ م) وعبر البحر في غرة جمادى الثانية ، وقصد أولاً إلى فاس ، فأقام بها نحو عشرين يوماً طلباً للراحة والاستجمام ، ثم غادرها إلى الحضرة ، فدخلها في شعبان سنة ٥٩٤ هـ .

استقر المنصور في حضرته ، وهو متعب منهوك القوى ، من جراء ما اضطلع به من الغزوات والأعمال مدى أربعة أعوام متوالية . وكان أول ما غنى به هو أخذ البيعة لولده أبي عبد الله محمد الملقب بالناصر ، وكان قد اختاره لولاية عهده ، حينما اشتد به المرض في سنة ٥٨٧ هـ ، حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل ، فبايعه سائر أشياخ الموحدين ، وأخذت له البيعة في سائر القواعد والجهات .

وكانت تصرفات الخليفة في هذه الفترة الأخيرة من حياته ، تصطبغ بنوع من التقى والورع . فمن ذلك أنه أمر أن يجمع الأطفال الأيتام ، وأن يُختنوا ، وأمر لكل منهم بثوب ودينار من الذهب ودرهم من الفضة وحنة من الفاكهة ، توضع في يده تخفيفاً لألمه . ويقول لنا المراكشي إن هذا الموسم لتختين اليتامى كان يقام كل عام^(٢) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٠٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٥ . ويقول المراكشي إن الهدنة عقدت بين الموحدين وملك قشتالة لمدة عشر سنين (المعجب ص ١٦٠) .
(٢) المعجب ص ١٦٢ .

ومن ذلك أنه أمر بتمييز اليهود بلباس خاص : ونحن نعرف أن السياسة الموحدية ، كانت منذ عهد الخليفة عبد المؤمن ، تجرى نحو الذميين على قاعدة التزم وعدم التسامح ، وأن عبد المؤمن ، أمر في أواخر عهده بأن يعتنق النصارى واليهود والإسلام ، أو يغادروا الأراضى الموحدية ، وقرر الموت عقوبة للمخالفين . ولكن السياسة الموحدية جنحت من بعد عبد المؤمن إلى نوع من الاعتدال والتسامح ، فترك النصارى واليهود أحراراً يعيشون في البلاد الموحدية . وكانت النظرة إلى اليهود دائماً أكثر ترمناً وشدة منها إلى النصارى . وكان الذى حدا بالمنصور إلى تمييز لباسهم ، هو أنهم ازددهروا في عهده وتشبهوا بالمسلمين في اللباس ، وشاركوهم في مظاهرهم وأساليب حياتهم ، فرأى أن يفرض عليهم لباساً خاصاً يميزهم عن المسلمين . وكان هذا الزى عبارة عن قميص أزرق طوله ذراع وعرضه ذراع ، وبرنس أزرق ذو أكمام مفرطة السعة والطول ، وقلنسوة زرقاء يضعونها على الرأس مكان العمامة ، تصل إلى الأذنين . ويقول لنا المراكشي إن الذى حمل المنصور على هذا التصرف إزاء اليهود ، هو شكه في إسلامهم ، وأنه كان يقول لو صح عندى إسلامهم ، لتركهم يختلطون بالمسلمين في سائر أمورهم ، ولو صح عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذرائعهم ، وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين ، لكنى متردد في أمرهم ، وهم يظهرون الإسلام ، ويغشون المساجد ، والله أعلم بما تكن وصدرهم . وصدر قرار المنصور بتمييز اليهود في أوائل سنة ٥٩٥هـ . وقد نظم ابن نغالة زعيم اليهود المغاربة يومئذ ، وهو فيما يبدو سليل أسرة بنى نغالة أوبنى النغريلى التى ازدهرت في غرناطة أيام باديس بن حبوس ، أرجوزة يتكلم فيها على هذا القرار ، وما فرضه من اللباس الأزرق ، ويواسى مواطنيه اليهود ، هذا مطلعها :

لبس ذا الأزرق ليس فيه خسارا فافهموا يا قوم هذه الإشارة
ولما تولى الخلافة أبو عبد الله محمد الناصر لدين الله ولد المنصور ، استغاث به اليهود ، واستشفعوا لديه بكل من استطاعوا لإقالتهم من هذا الزى المرهق ، فأمر أن يستبدلوه بثياب صفر وعمائم صفر ، واستمروا على ذلك بقية عهد الموحدين (١) .

(١) المعجب ص ١٧٣ - والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠٥ ، ودائرة المعارف اليهودية : Vol. I. p. 483 .

ولم يمض قليل على ذلك حتى مرض المنصور مرضه الأخير ، وكان قد انتقل من الحضرة إلى صاحبة الصالحة المأكية التي كان قد أنشأها في بداية عهده ، ولما شعر بخطورة مرضه ، ودنو أجله ، استدعى شيوخ الموحدين ، ووجوه أهل بيته ، وأعيان بلاطه : وقد وصف لنا صاحب البيان المغرب ، ما وقع في هذا المجلس الأخير للخليفة الراحل ، وما أوصى به أشياخ دولته وأهل بيته ، فقال إنه لما استقر المجلس بالحضور ، اتجه الخليفة إليهم ببصره ، وقد اغرورقت عيناه بالدمع ، فسألم عن أحوالهم وأعمالهم ، ثم قال : « أيها الناس رحمكم الله ، إن هذه العلل والأمراض قد توالى علينا ، وهدت قوانا ، وهتكت جوارحنا ، وأظن والله أعلم بغيبه أن هذه العلة هي آخر عهدنا بهذه الدنيا ، وأنها القاضية علينا ، فانظروا رحمكم الله ، وأعانكم على طاعته ، من تقدمون على أنفسكم وعلى رقاب المسلمين » .

قال ، فغلب البكاء على الحاضرين ، وتكلم أبو موسى بن محمد بن الشيخ أبي حفص بن علي ، وقال « كأنكم يا أمير المؤمنين يا سيدنا تحرسنا بهذا القول ، أنتم أمير المؤمنين ، فإن توفيتم فإلى رحمة الله تعالى ، والجميع صائرون ومنقلبون إلى ما تصيرون إليه ، وكنتم قلدتمونا عهدكم الكريم لسيدنا الأمير الأجل أبي عبد الله ابنكم ، فنحن باقون عليه ، إلى أن تلحق نفوسنا بنفوسكم ، وهو خليفتم علينا بعدكم » .

ثم تعاقب الحضور في الكلام ، وأبدى الخليفة لهم قلقه لصغر سن ولده ، وطلب إليهم أن يدعوا الله تعالى باليمن والإقبال ، فيما انعقدت عليه النية ، وأن يتولوه بمعونتهم ، ولا يتركوه لرأيه ، حتى ينتبه ، ويكمل عقله . ثم التفت إلى السيد أبي الحسن ، وأخيه السيد أبي زيد ، ابني السيد أبي حفص . وقال لهما خير هذا البيت ، وإنه قد تمهما على الإخوان ، وعلى البلاد ، فليكونا على ما عهد منهما ، وعلى ما ربط لهما من قبل .

ثم أوصى الخليفة الحاضرين بالسادات ، وبعض الأشياخ ، وخص منهم بالذكر الشيخ أبا زكريا ، وأبا محمد عبد الواحد ، وأن يعتبر هذان الشيخان مستشارين لولده محمد ، لا يصدر إلا عن رأيهما ومشورتها :

وقال الخليفة للحضور بعد ذلك وعيناه تذرفان الدمع ، أوصيكم بتقوى الله تعالى ، وبالأيتام واليتيمة . فسأله الشيخ أبو محمد عبد الواحد ، يا سيدنا يا أمير المؤمنين ، ومن الأيتام واليتيمة ؟ قال اليتيمة جزيرة الأندلس . والأيتام سكانها المسلمون ، وإياكم الغفلة فيما يصلح بها من تشييد أسوارها وحماية ثغورها ، وتربية أجنادها وتوفير رعيته ، ولتعلموا أنه ليس في نفوسنا أعظم من ههما ، ونحن الآن قد استودعنا الله تعالى ، وحسن نظركم فيها ، فانظروا من المسلمين ، وأجروا الشرائع على مناهجها .

وأوصى الخليفة أخيراً بالأغزاز (الغز) ومنحهم البركة الى أمرها ، كما أوصى بملاطفة العرب والإحسان إليهم ، وشغلهم بالحركات ، وعدم تركهم للعطلة والراحة . وأوصى بطلبة الحضر ، وأن يكون لهم موضع خاص يشتغلون فيه بالمذاكرة . وأوصى أخيراً ببعض أصحاب المناصب ، والعمال الذين أولاهم ثقته .

واختتم المنصور حديثه بالتوصية بقبائل الموحدين ووجوب مزاورتهم ، وسماهم قبيلاً بعد قبيل . وكرر حديثه إلى الأشياخ بأن يحفظوا الأمانة التي ألقيت إلى أعناقهم ، وأن يجروا الشرائع على سننها ، وأن يحرسوا على اجتناب الباطل . ثم دعا للناس ، وانفض المجلس ، وانصرف الموحدون ، وكان هذا آخر العهد به^(١) .

ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن المنصور لما اشتد به المرض ، وشعر بدنو أجله ، قال لمن كان حوله من الأشياخ ، ما ندمت على شيء فعلته في خلأقي ، إلا على ثلاث ، وددت أني لم أفعلها ، أولها إدخال العرب من إفريقية إلى المغرب لأنني أعلم أنهم أهل فساد ، والثانية بناء رباط الفتح ، أنفقت فيه من بيت المال ، وهو بعد لا يعمر ، والثالثة إطلاق أسارى الأرك ، ولا بد لهم أن يطلبوا بثأرهم^(٢) .

وفي ليلة الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥هـ (٢٢ يناير سنة ١١٩٩م) ، توفي الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور بقصره بالصالحية^(٣) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٠٦ - ٢٠٩ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٢ .

(٣) ويقول لنا صاحب روض القرطاس إنه توفي بقصبة مراکش (ص ١٥٢) وفي رواية أنه توفي في غرة جمادى الأولى سنة ٥٩٥هـ ، وفي أخرى أنه توفي غرة صفر (ابن خلكان ج ٢ ص ٤٣١) ويقول ابن الأثير إنه توفي ثامن عشر ربيع الآخر ، وأن وفاته كانت بمدينة سلا (ج ١٢ ص ٥٧) .

ودفن مؤقتاً بمجلسه بالقصر ، وكنمت وفاته حيناً ، ثم نقل رفاته إلى قينملل ، ودفن بها ، وثارث حول اختفائه بعض الروايات والأساطير ، فزعم البعض أنه ترك الملك وأضحى مرابطاً بالأندلس ، وزعم آخرون أنه تزهد وساح في البلاد ، وقصد المشرق ومات خاملاً ، ودفن بالشام ، إلى غير ذلك^(١) . وبوفاة المنصور يختم عهد من ألمع عهود الدولة الموحدية :

— ٤ —

كان الخليفة يعقوب المنصور أعظم خلفاء الدولة الموحدية ، إذا استثنينا جده عبد المؤمن ، مؤسس الدولة وموطد دعائمها . وفي ظله بلغت الدولة الموحدية أوج قوتها وعظمتها ، وظهرت على يديه روعة الملك وفخامته ، في أبهى حللها .

ويصفه ابن الخطيب بأنه كان « نجم بنى عبد المؤمن » وهي كامة قوية جامعة^(٢) . وتشيد الرواية الإسلامية بخلال المنصور ، وتفيض في استعراض مآثره ، وامتداح تصرفاته وسياسته ، سواء من الناحية الداخلية أو من الناحية الخارجية ، وتشيد بنوع خاص بغيرته في الجهاد ، وتفانيه في الذود عن قضية الإسلام بالأندلس ، ومن ثم كانت عنايته بتنظيم الجيش وتنميته ، وشحنه بالفرق الجديدة من الفرسان والرجالة ، ونزويده بموفور العتاد والسلاح ، والإنفاق عليه بسعة وسخاء ، وإعدادة للجهاد بصفة مستمرة . وكان يعنى بتوفير أرزاق الجند ، ومنحها في مواعيدها المقررة . وكان نظام العطاء في الجيش ، أن يمنح الجند الموحدون العطاء ، (الجامكية) ثلاث مرات في العام بصورة منتظمة ، مرة في كل أربعة أشهر ، ويمنح الجند الغز أو الأغزاز ، وكذلك العرب عطاءهم كل شهر . وكان رأى المنصور في اختصاص الأجناد الغز والعرب بهذه المزية ، هو أن الموحدين من أهل البلاد الأصليين ولهم بها الإقطاع والأموال الكثيرة . أما الغز والعرب ، فهم غرباء لاشيء لهم في البلاد يعتمدون عليه سوى هذا العطاء الرسمي المنظم^(٣) . وكان لهذه العناية بتوفير أعطية الجيش أثرها القوي في رفع هم الجند ، وشحن

(١) البيان المغرب ص ٢١١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٣١ .

(٢) ابن الخطيب في الإحاطة في ترجمة أبي يعقوب يوسف (مخطوط الإسكوريال السالف

الذكر - لوحة ٣٩٥) .

(٣) المراكشي في المعجب ص ١٦٣ ، والبيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٠٨ .

الرغبة في الجهاد . والواقع أن الجهاد هو ألع ما في حياة المنصور العامة ، وقد أسبغت عليه غزواته الموفقة للمالك النصرانية في شبه الجزيرة ، ولاسيما انتصاره الباهر في موقعه الأرك ، على شخصه وعلى جهاده ، هالة من العظمة والحلال غلبت على كل خلاله ومناقبه الأخرى .

وقد رأينا المنصور منذ بداية حكمه ملكاً حازماً ، يعمل على إقامة العدل وتوطيد أسسه ، والنظر في الأحكام بنفسه ، ومراقبة أعمال الولاية والعمال ، ومحاسبتهم ، ومطاردة من ينحرف منهم عن جادة الحق والعدل وعزلهم ، ثم رأيناه ملكاً مصلحاً ، يضطرم بروح إنشائية قوية ، ويعنى بإقامة المنشآت العظيمة ، من مدن وحصون وجوامع وغيرها ، سواء بالمغرب أو الأندلس .

وأول ما تشبده الرواية من صفات المنصور هو ورعه وتقواه ، والزماء أحكام الشريعة وسننها ، ومحاولة تطبيقها على حقيقتها ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإقامة الحدود ، حتى في أهله ، وعشيرته الأقربين ، وكان مثل جده عبد المؤمن يشدد في إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس ، ويأمر بالمناداة عليها ، ويعاقب على تركها ، وكان يشدد كذلك في إقامة الحدود ، ويذهب في ذلك أحياناً إلى حدود بعيدة ، حتى قيل إنه عاقب على شرب الخمر بالقتل ، وأمر بقتل بعض العمال الذين تشكو الرعية منهم (١) .

وقد كان للمنصور من الناحية الدينية موقف خاص ، يمكن أن يوصف بأنه انقلاب في ميدان المذهب والعقيدة في الدولة الموحدية ، فهو أولاً قد طارد علم الفروع ، أعنى دراسة تفاصيل العبادات والمعاملات . وأمر بإحراق كتب المذهب المالكي في سائر البلاد مثل مدونة سمعون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبي زيد ، وكتاب التهذيب للبرادعي ، وواضحة ابن حبيب ، وأمر الناس بترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض فيه ، وأنذر من يفعل ذلك بشديد العقاب ، وأمر جماعة من العلماء المحدثين يجمع أحاديث من المصنفات العشرة في الصلاة وما يتعلق بها على نحو المجموعة التي جمعها ابن تومرت في الطهارة ، وذاع هذا المجموع في المغرب ، وأقبل الناس على حفظه . وكان قصد المنصور من ذلك أن يمحو

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤١٨ ، و ٤٣٣ ، وابن الأثير ج ١٢ ص ٥٧ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٠٥ ، والمقرى في نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٦ .

مذهب مالك وأن يزيله من المغرب^(١). وكان المنصور أيضاً من أشد دعاة المذهب الظاهري ، وهذا المذهب الذي اشتهر على يد الفيلسوف ابن حزم القرطبي في أوائل القرن الخامس الهجري ، يرجع إلى القرن الثالث ، ومؤسسه هو خلف بن داود الأصفهاني المتوفى سنة ٢٧٠ هـ ، وقد وضع أسسه في نحو منتصف القرن الثالث ، وخلاصتها أنه يجب في صنوع أحكام الشريعة أن يُرجع فقط إلى ظاهر القرآن والسنة أي الحديث ، وألا يُؤخذ في ذلك بالرأى أو القياس ، وأن يبقى الإجماع محصوراً في إجماع صحابة رسول الله . ويبدى ابن حزم لإمام المذهب الظاهري بالأندلس تشدداً في تطبيقه على العقائد ، وهو لا يأخذ في تفسير الأحكام إلا بالكلمة المكتوبة ، والحديث الثابت ، ويعتبرهما حاسمين في صنوع الأحكام . وقد حمل الخليفة المنصور الناس على اعتناق المذهب الظاهري ، والتزام الأخذ بالظاهر من القرآن والحديث . وكان المنصور يشكو من تعدد الآراء والأحكام المذهبية في المسألة الواحدة ، ويرى أن الأخذ بالمذهب الظاهري يحسم كثيراً من هذه الخلافات . ونستطيع القول إن المذهب الظاهري ، غدا هو المذهب الرسمي في عهد المنصور ، وعظم أمر الظاهرية ، وانتشروا بالمغرب ، وكانوا يسمون بالحزمية نسبة إلى الفيلسوف ابن حزم عميد المذهب . وكان المنصور يبجل ابن حزم ، ويرفع به ويعلمه إلى أسمى مكانة . وما يذكر في هذا الصدد ، ما يروى ، من أن المنصور ، مر في عودته من غزوه لأراضى البرتغال في سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) ، بشمال مدينة ولبة ، حيث توجد قرية مننت ليشم ، وهي بلد بني حزم ، وبها قبر العلامة ابن حزم ، فوقف المنصور على قبره ، وهو يقول عجباً لهذا الموضع يخرج منه مثل هذا العالم ؛ ثم قال « إن كل العلماء عيال على ابن حزم »^(٢) . ويقول لنا ابن الأثير إن المنصور عين في أواخر أيامه قضاة من الشافعية . وقد كان الجنوح إلى مذهب الظاهرية ، فيما يذكرنا المراكشي من صفات أبيه الخليفة أبي يعقوب يوسف ، وجده الخليفة الفقيه العالم عبد المؤمن بن علي ، إلا أنهم لم يفصحا عن هذا الاتجاه بشكل ظاهر ،

(١) المراكشي في المعجب ص ١٥٧ و ١٥٨ ، والتكلة لابن الأبار (القاهرة) ج ٢ ص ٥٦٢ . وابن الأثير ج ١٢ ص ٥٧ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٣٢ ، والنويري طبعة جبار ريمرو السابق الإشارة إليها ج ٨ ص ٢٧٧ .

(٢) المقرئ في نفع الطيب ج ٢ ص ١٦٢ . وما زالت هذه القرية التي دفن بها العلامة الأندلسي الكبير ، قائمة حتى يومنا ، وهي تسمى اليوم باسمها الحديث « كاسا مونتيخو Casa Montejo » .

إذ كانت الدولة الموحدية ما تزال في بدايتها ، وكانت عقيدة التوحيد تعلق على كل ما عداها . وكان من آثار هذا الاتجاه أن ازدهر علم الحديث في عهد المنصور ، وحظى طلابه بمنتهى التشجيع والرعاية^(١) .

ومن جهة أخرى فإنه يوجد ما يحمل على الاعتقاد بأن المنصور لم يكن من الغلاة في تصوير إمامة المهدي ، ولم يكن بالأخص من المؤمنين بعصمته ، وهو اتجاه تبلور فيما بعد ، واتخذ على يد خلفائه صورته العملية^(٢) .

ومما يتصل بتقى المنصور ، وورعه ، وحاسته الدينية ، ما ينسب إليه من أنه كان ينوى افتتاح مصر ، وضمها إلى الإمبراطورية الموحدية ، لأنها كانت في نظر الموحدين بلداً ينجح إلى البدع ، وتشيع فيه المنكرات . وقد نوه بمشروع المنصور هذا نحو مصر ، غير واحد من المؤرخين والرواة . فيقول لنا المراكشي ، وهو معاصر لعهد المنصور إنه قد بلغه عن غير واحد « أن المنصور صرح للموحدين بالرحلة إلى المشرق ، وأنه كان يذكر البلاد المصرية وما فيها من المناكر والبدع ، ويقول ، نحن إنشاء الله مطهروها ، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات »^(٣) . ويفيض الرحالة ابن جبير ، وهو أيضاً معاصر المنصور ، في رحلته ، في الكلام عن هذه النية الموحدية في غزو مصر ، وصداها في مصر ذاتها ، ويبدأ حديثه بالحملة على أحوال البلاد الشرقية ، ولا سيما ما يقع ببلاد الحجاز من ظلم الحجاج وانتهاك أموالهم ، ويعرب عن أمله في أن تُقمع هذه البدع المحيضة بالمسلمين « بسيوف الموحدين أنصار الدين ، وحزب الله أولى الحق والصدق ، والذابين عن حرم الله عز وجل ، والغائرين على محارمه ، والجادين في إعلاء كلمته ، وإظهار دعوته ، ونصر ملته » .

ثم يقول ابن جبير في التنديد بأحوال المشرق وضعف إسلامه : « وليتحقق المتحقق ، ويعتقد الصحيح الاعتقاد ، أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب ، لأنهم على جادة واضحة لابنيات فيها ، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات الشرقية ، فأهواء وبدع ، وفرقة ضالة وشيع ، إلا من عصم الله عز وجل من أهلها ، كما أنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهه ، إلا عند الموحدين أعزهم الله ، فهم أئمة العدل في هذا الزمان ، وكل من سواهم من الملوك في هذا الأوان ، فعلى غير

(١) المراكشي في المعجب ص ١٥٧ و ١٥٨ .

(٢) المراكشي في المعجب ص ١٦٤ .

(٣) المعجب ص ١٦٠ .

الطريقة ، يُعشرون تجار المسلمين كأنهم أهل ذمة لديهم ، ويستجلبون أموالهم بكل حيلة وسبب ، ويركبون طرائق من الظلم لم يسمع بمثلا ، اللهم إلا هذا السلطان العادل صلاح الدين ، الذى قد ذكرنا سيرته ومناقبه ، لو كان له أعوان على الحق » .

وأهم من ذلك ما ينوه ابن جبير من صدى الدعوة الموحدية بمصر ، وانتشارها بصورة تدعو إلى الدهشة ، ومن أن أكثر أهل مصر ، بل كلهم « يرمزون بذلك رمزاً خفياً ، وينسبون ذلك إلى آثار حدثانية ، وقعت بأيدي بعضهم ، وأنذرت بأشياء من الكوائن . . ولم يبق إلا الكائنة السعيدة من تملك الموحدين لهذه البلاد ، فهم يستطلعون بها صباحاً جلياً ، ويقطعون بصحتها ، ويرتقبونها ارتقاب الساعة التى لا يمترون فى إنجاز وعدّها . شاهدا من ذلك بالإسكندرية ومصر وسواها مشافهة وسماعا ، أمراً غريباً ، يدل على أن ذلك الأمر العزيز ، أمر الله الحق ، ودعوته الصديق . ونسئ إلىنا أن بعض فقهاء البلاد المذكورة وزعمائها ، قد حبر خطباً أعدّها للقيام بين يدي سيدنا أمير المؤمنين ، وهو يرتقب ذلك اليوم ارتقاب يوم السعادة ، والله عز وجل يبسطها من كلمة ، ويعليها من دعوة ، إنه على ما يشاء قدير » (١) ،

ونستطيع أن نربط بين هذه الأقوال التى يصف فيها ابن جبير صدى الدعوة الموحدية بمصر خلال مروره بها فى سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) ، أغنى قبيل عهد المنصور بقليل ، وبين ما ذكره أبو القاسم المؤمن المصرى فى كتابه المسمى « بالأنساب فى معرفة الأصحاب » ، ونقله البيهقي ، عن أصحاب المهدي بمصر ، فقد ذكر لنا من هؤلاء واحداً وخمسين رجلاً بأسمائهم ، وقال إنهم كانوا من أعيان بلادهم « وإنهم كانوا سامعين لقوله ، مجيبين لأمره ، مؤمنين به ، مختارين صحبته ، مؤثرين لحقه ، معظمين لحرمة » (٢) .

ويستخلص مما تقدم ، ومن أقوال ابن جبير خاصة ، أنه كانت توجد ثمة فكرة موحدية لغزو مصر ، وأن هذه الفكرة ترجع إلى ما قبل عهد المنصور ، وأنها ربما تبلورت فى عهد المنصور ، واتخذت طابعاً قوياً ، وذلك لما أبداه

(١) رحلة ابن جبير (المنشورة بعناية الدكتور حسين نصار - القاهرة سنة ١٩٥٥)

ص ٥٣ و ٥٤ .

(٢) نقله البيهقي فى « أخبار المهدي ابن تومرت » ص ٣٠ - ٣٢ .

المنصور من عزم وضخامة في أهباته العسكرية ، وما وفق إليه من انتصارات باهرة ضد النصارى في شبه الجزيرة الإسبانية ، ولاسيما في معركة الأرك العظيمة . وربما كان من بواعث هذه الفكرة ومشجعاتها ، مثل الفاطميين ، الذين ساروا من المغرب ، قبل ذلك بأكثر من قرنين ، وغزوا مصر ، واستولوا عليها بأيسر أمر . ولكن شتان بين العصرين ، وشتان بين ما كانت عليه مصر وقت الفتح الفاطمي ، وما كانت عليه أيام الخليفة المنصور . بيد أننا لانستطيع مع ذلك ، أن نعتقد أن الموحدين كانوا يحتضنون مشروع غزو مصر بصورة جدية . وأكبر الظن أنها ربما كانت أمنية ، وربما كانت مثل هذه الأمنية ترجع إلى عصر المهدي ذاته ، فقد رأينا المهدي أثناء مقامه بثغر الإسكندرية يغضب لما رآه فيها من « البدع » ثم يقوم بها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى قيل بأنه خرج منها منفيا ، لما ترتب على دعايته من الشغب . بل قيل أكثر من ذلك ، وهو أن المهدي قال ذات يوم لبعض أصحابه فيما قال ووعدهم به ، وكانوا يجلسون تحت شجرة الخروب المواجهة لمسجد تينمليل : « ليصرن منكم من طالت حياته أمراء أهل مصر ، مستظلين بهذه الشجرة ، قاعدين تحتها »^(١) كذلك يلوح لنا أن ما يذكره ابن جبير عن انتشار فكرة الغزو الموحدى بمصر ، وما كان يهمس به الناس من ذلك الأمر ، إنما هو مبالغة ترجع إلى ولاء ابن جبير للدولة الموحدية ، التي خدم في ظلها وتمتع برعايتها ، والأغلب أن ابن جبير تلقى أخباره من بعض الغلاة الهائمين من أتباع المهدي وأنصاره بمصر ، فصورها على أنها تعبر عن اتجاه أغلبية الأمة المصرية ، وهو ما يعتبر في نظرنا من ضروب الوهم المغرق .

ولاشك أن الموحدين ، وفي مقدمتهم الخليفة المنصور ، كانوا يعرفون ما كانت عليه قوة مصر في ذلك العهد ، التي نعمت فيه بقيادة الملك الناصر صلاح الدين ، وما أحرزته بقواتها العسكرية الضخمة البرية والبحرية ، من انتصارات باهرة على الصليبيين ، فلم يكن من المعقول أن يفكروا في غزو مثل هذه الإمبراطورية الإسلامية الضخمة ، التي تحطمت على صخرة قوتها الراسخة حملات الصليبيين المتوالية ؛ ومن جهة أخرى ، فإن قصور الموحدين في هذا الوقت بالذات عن القضاء على ثورة بنى غانية في إفريقية بصورة حاسمة ، واستمرار هذه الثورة العتيدة ، أيام المنصور ومن بعده أعواما طويلة ، يقطع بأن فكرة

غزو مصر، إن كانت، لم تكن لدى الموحدين سوى أمنية خيالية بعيدة المنال : وكان المنصور عالماً مستنيراً، متقناً للحديث والفقه واللغة، مشاركاً في كثير من العلوم، وكان محباً للعلماء مؤثراً لهم يجمع حوله صفوة العلماء والمفكرين، وقد أشرنا من قبل إلى شغفه بالجدل والمناقشات الفلسفية، وما كان يعقده من مجالس خاصة يستمع فيها إلى آراء الفيلسوف ابن رشد : وقد كانت نكبة الفيلسوف العظيم ونفيه إلى اليسانة من سقطاته البارزة، ولكن كان متأثراً في ذلك بضغظ الفقهاء والطلبة الموحدين. وكان المنصور يعنى بأمر طلبة العلم أعنى علم الحديث، أعظم عناية، حتى نالوا على يديه من الرعاية والنفوذ ما لم ينالوه أيام أبيه وجده. وكان الموحدون يتبرمون بالطلبة، ويتقنون عليهم خطوتهم ونفوذهم لدى الخليفة، حتى اضطر المنصور ذات يوم، أن يصرح أمام سائر الموحدين، وقد بلغه موقفهم من الطلبة، « يا معشر الموحدين، أنتم قبائل، فن نابه منكم أمر فزع إلى قبيله، وهؤلاء الطلبة لا قبيل لهم سوى، فلهما نابه أمر، فأنا ملجؤهم، وإلى فزعهم، وإلى ينتسبون ». يقول المراكشي، فعظم من ذلك اليوم أمر الطلبة، وبالغ الموحدون في برهم وإكرامهم^(١).

وكان المنصور أديباً فصيحاً، جزل الألفاظ، وكان يجتمع حوله شعراء العصر من العدوتين، المغرب والأندلس، يصغى إلى مدائحهم، ويغمرهم بصلاته، وقد وضع له شاعره الأثير أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى كتابه الذى سماه « صفوة الأدب وديوان العرب » فى مختار الشعر^(٢). وانتشر هذا الديوان بين أهل المغرب انتشاراً عظيماً، وكان لديهم ككتاب الحامسة لأبى تمام عند أهل المشرق، وقد سبق أن أشرنا فى غير موضع إلى قصائد الجراوى ومدائحه للمنصور، وأبيه الخليفة أبى يعقوب يوسف، فى مختلف المناسبات : وكان من شعراء دولته أيضاً أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن مُجَبَّر المرسى الأندلسى، وقد أشرنا إلى مدائحه كذلك من قبل غير مرة، وقد ذكر لنا ابن خلكان أن مدائح ابن مُجَبَّر للمنصور جمعت فى ديوان، وأورد لنا منها قصيدة رقيقة فى مطلعها :

أتراه يترك الغزلا وعليه شب واكتهلا

(١) المراكشي فى المعجب ص ١٥٨ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٣٢ و ٤٩٤، وروض القرطاس ص ١٤٢ .

كلف بالغيد ما عقلت نفسه السلوان مذ عقلا

وإلى جانب هذه الصفات العلمية والأدبية اللامعة ، كان المنصور جواداً ، وافر البذل ، كثير الصدقات ، وكان يقدر قيمة البذل في أسر النفوس وترويضها ، وكان يؤثر بصلاته الوفيرة أجناد الغز (الأغزاز) والعرب الذين ينضمون لجيشه ، استبقاء وتأكيدهم لولائهم^(١).

هذا وإما عن كفاية المنصور ومواهبه الإدارية والإنشائية ، فإدنا من ذلك تفاصيل عديدة . فقد كان المنصور في الواقع من أقدر الخلفاء الموحيدين في فهم شئون الدولة الإدارية وتنظيمها ، وكانت ولايته لوزارة أبيه مدرسة درس فيها هذه الشئون خير دراسة . وفيها « بحث عن الأمور بحثاً شافياً ، وطالع أحوال العمال والولاية والقضاة وسائر من ترجع إليه الأمور مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور »^(٢) . وقد رأيناه سواء في المغرب أو الأندلس يعكف على معالجة شئون الدولة بهمة ، ويتقصى شئون الولاية والعمال . وكان يولى شئون الأندلس في ذلك عناية خاصة ، ففي كل مرة يعبر فيها إلى شبه الجزيرة ، يعنى إلى جانب أهباته للغزو ، بتنظيم شئونها الداخلية ، وفي سنة ٥٩٢ هـ ، نراه بعد ظفريه في معركة الأرك ، يعنى خلال إقامته بإشبيلية ، بمطاردة العمال المقصرين والمختلسين ومحاسبتهم ، واستصفاء أموالم ، كما يعنى بتعيين غيرهم من الحائزين لثقتهم . ثم هو في نفس الوقت يولى شئون الدولة المالية اهتماماً خاصاً ، ويندب لأعمال الحباية رجالاً من ذوى الأمانة والنزاهة . وكان من أهم مافعله المنصور في باب السياسة المالية ، هو تغييره للدينار الموحدى ، ومضاعفته لوزنه ، حسبما أشرنا إلى ذلك في موضعه .

وكذلك أبدى المنصور همة ظاهرة في إقامة المنشآت العمرانية العظيمة ، فأنشأ لأول عهده ضاحية الصالحة المملوكية في جنوبي مراكش ، فوق البسيط الممتد بين باب أعجمات شرقاً وباب الشريعة غرباً ، فجاء إنشاؤها دليلاً على ما كانت تجيش به نفسه من إظهار أهبة الملك وروعته ، على مثل ما كان عليه خلفاء الأندلس ، وعنى بتوسيع مدينة رباط الفتح ، التى كان قد اختطها جده فأبوه وتجديد قصبتها ، وإتمام أسوارها وأبوابها ، واستكمال أحيائها ومبانيها . وأنشأ

(١) المراكشى في المعجب ص ١٦٣ ، والبيان المغرب - القمم الثالث ص ٢٠٨ .

(٢) المعجب ص ١٤٨ ، ونقله ابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٨ .

بها مسجداً عظيماً واسع الفناء ، يقول المراكشي بأنه كان أكبر مسجد في المغرب ، وأنشأ له صومعة متناهية في العلو « على هيئة منار الإسكندرية » يُصعد إليها بغير درج . ولكن هذا المسجد لم يتم إذ انقطع العمل فيه بوفاة المنصور^(١) . ونزيد نحن على ذلك بأن معالم المسجد المشار إليه ، وقواعد أعمده مازالت قائمة في مكانها ، تدل على عظم مساحته ، وما زالت صومعته الشاهقة التي لم يكمل بناؤها قائمة في مكانها ، على مقربة من شاطئ المحيط ، وهي التي تعرف اليوم بمنارة حسان (تورحسان) ، وهي على نمط صومعة جامع إشبيلية الشهيرة (لاخير الدا)^(٢) .

يبد أن أهم منشآت المنصور في الحاضرة الموحدية — مراكش — كان هو البيمارستان (المستشفى) العظيم ، الذي كان أول صرح من نوعه حظيت به مراكش . وقد اختار لإقامته ساحة شاسعة ، وغنى بتخطيطه وبنائه أعظم عناية ، وغرست من حوله الحدائق ، وأجريت المياه إلى سائر أجنحته ، وزود بنفيس الأثاث والرياش ، ومختلف صنوف الأدوية ، وعين له رهن من مهرة الصيادلة لإعداد الأدوية على اختلاف أصنافها ، ورصدت الأموال اللازمة للإنفاق على المرضى ، وإطعامهم وكسائهم ، وكان المريض الفقير إذا تم شفاؤه ، زود عند خروجه بمال يعيش منه حتى يرزق بعمل ، وإن كان غنياً دُفع إليه ماله وترك وشأنه ، وكان يوم هذا المستشفى الكبير سائر المرضى من المحليين والغرباء ، وكان المنصور يركب إليه في كل جمعة بعد الصلاة ، ويعود المرضى ، ويسأل عن أحوالهم وحاجاتهم ، وكانت هذه المأثرة الإنسانية من أعظم مآثر المنصور وأجلها^(٣) .

وأما عن منشآته بالأندلس فقد أشرنا إلى ما كان من إنشائه لحصن الفرج خارج مدينة إشبيلية ، وإنشاء قصوره وقبابه ، ثم إتمامه لصومعة جامع إشبيلية العظيمة ، وهي التي كان أبوه قد أمر بإنشائها ، ولم تكمل في عهده ، فقام المنصور على إتمامها ، وتزويدها بتفانيحها الذهبية حسبما أشرنا إليه في موضعه . وأنشأ المنصور في نفس الوقت بمدينة مراكش منارة الكتبية العظيمة على نسق صومعة جامع إشبيلية ، كما أنشأ بمدينة الرباط صومعة مسجدها على نفس الطراز ، وهي منارة حسان التي لم يكمل بناؤها ، حسبما تقدم . وقيل في شأن منارة الكتبية إنه بدئ بإنشائها في عهد جده الخليفة عبد المؤمن ، وقام هو بالعمل على إتمامها ،

(١) المراكشي في المعجب ص ١٥٠ .

(٢) المراكشي في المعجب ص ١٦٢ .

وطبقاً لهذه الرواية تكون منارة الكتبية سابقة على صومعة إشبيلية ، وتكون هي أم هذا الطراز من الصوامع الموحدية ، وعلى أى حال فقد تم إنشاء الكتبية في سنة ٥٩٤ هـ ، قبيل وفاة المنصور بقليل ^(١) .

ووزر الخليفة المنصور في بداية أمره أخوه السيد أبو عبد الله . ثم خلفه في الوزارة أبو حفص عمر بن أبي زيد الهنتاقى ، ولما توفى خلفه أبو يحيى أبو بكر ابن عبد الله بن أبي حفص عمر الكبير ، واستمر في منصبه إلى أن قُتل في موقعة الأرك وهو يقود الصفوف . فتولى الوزارة من بعده أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن الشيخ أبي حفص ، وهو ابن عم أبي يحيى الشهيد المتقدم الذكر ، ولكنه لم يلبث في الوزارة سوى أيام يسيرة ، ثم تركها مختاراً وهام على وجهه في بعض نواحي إشبيلية ، وتزهد ، فأرسل الخليفة إليه من استرده وأعفاه من الوزارة ، وخلفه في الوزارة أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن يوجان الهنتاقى ، فلم يزل في منصبه حتى توفى الخليفة المنصور ، فتولى الوزارة بتوصية الخليفة ، لابنه محمد الناصر . لدى حين ^(٢) .

وكتب للمنصور عدة من أكابر الكتاب منهم أبو الفضل جعفر ابن محشرة من أهل مدينة بجاية ، وكان تلميذاً لأبي القاسم القالى ، كاتب أبيه الخليفة أبي يعقوب ، وكان كاتباً مجيداً ، بارع الأسلوب ، واسع الرواية غزير الحفظ ، تشهد له بذلك رسائله العديدة التى انتهت إلينا ، واستمر في منصب الكتابة حتى توفى . فكتب من بعده للمنصور أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن ابن عياش ، وهو أندلسى من أهل بُرْشانة من أعمال ألمرية ، واستمر في منصبه حتى توفى المنصور ، فكتب من بعده حيناً لابنه محمد الناصر ، ثم لحفيده يوسف . وكان من ألمع كتاب الدولة الموحدية وأبرعهم أسلوباً . وقد انتهت إلينا كذلك عدة من رسائله الصادرة عن الخليفة المنصور ، ومنها الرسالة التى وضعها في إتهام ابن رشد وزملائه بالخروج على شريعة الإسلام ، وكلها تشهد بروعة بيانه ^(٣) .

(١) روض القرطاس ص ١٥١ .

(٢) المعجب ص ١٤٨ ، والحلل الموشية ص ١٢١ ، والبيان المغرب القمم الثالث ص ٢٠٩ .

(٣) راجع في مجموعة الرسائل الموحدية الرسالة السادسة والعشرين إلى الرسالة الرابعة والثلاثين وهى جميعها من إنشاء ابن محشرة ، وراجع الرسائل الخامسة والثلاثين والسادسة والثلاثين والسابعة والثلاثين وهى من إنشاء أبي عبد الله بن عياش .

وتولى القضاء في عهد المنصور ، أبو جعفر أحمد بن مضاء من أهل قرطبة ، وكان يتولاه من قبل في عهد أبيه الخليفة أبي يعقوب ، ولما توفي خلفه في القضاء أبو عبد الله محمد بن مروان من أهل وهران ، ثم عُرِّل وتولى القضاء من بعده أبو القاسم أحمد بن محمد من ولد بقي بن مخلد فقيه الأندلس الأشهر ، واستمر في منصبه حتى وفاة المنصور ، ووقتا من عهد ولده محمد الناصر^(١).

وترك المنصور من الولد ستة عشر من الذكور ، هم محمد ولي عهده والخليفة من بعده ، وإبراهيم ، وعبد الله ، وعبد العزيز ، وأبو بكر ، وزكريا ، وإدريس ، وعيسى ، وموسى ، وصالح ، وعثمان ، ويونس ، وسعد ، ومساعد ، والحسن ، والحسين . وقد تولى الخلافة منهم غير محمد ، اثنان آخران هما أبو محمد عبد الله العادل ، وأبو العلاء إدريس المأمون . وترك المنصور كذلك عدة من البنات .

هذا ، وأما عن شخص الخليفة يعقوب المنصور ، فقد وصفته الرواية المعاصرة ، بأنه كان شديد السمرة ، طويل القامة ، جميل الحيا ، أعين ، أفوه ، أقى الأنف ، شديد الكحل ، مستدير اللحية ، ضخم الأعضاء ، جهورى الصوت ، جزل الألفاظ^(٢).

تلك هى مآثر الخليفة الموحدى ، الظافر فى معركة الأرك العظيمة ، وتلك هى صفاته وخلالاله الوضاعة اللامعة .

(١) المعجب ص ١٤٩ .

(٢) المعجب ص ١٤٧ و ١٤٨ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٨ .

الفصل الخامس

عصر الخليفة محمد الناصر

جنوس الخليفة محمد الناصر. وزيره ومستشاروه. أعماله الأولى. أحوال إفريقية. استيلاء يحيى. ابن غانية على قابس. ابن عبد الكريم وظهوره. خلافه مع والى المهدي. القبض عليه ثم إطلاق سراحه. استيلاؤه على المهدي واستبداده بها. مسيره لغزو تونس. اشتباكه مع الموحدين وهزيمتهم. لومه وعوده إلى المهدي. الخلاف بينه وبين يحيى الميورقي. استيلاؤه على قفصة. اشتباكه مع الميورقي. هزيمته والتجاؤه إلى المهدي. محاصرة الميورقي له. تسليمه للمهدي. قبض الميورقي عليه هو وولده. ثم اغتيالها. امتداد سلطان يحيى إلى معظم أنحاء إفريقية. سيره إلى باجة واقتحامها. مسير الموحدين لقتاله. هزيمة الموحدين وسقوط محلتهم. مسير يحيى إلى بسكرة واقتحامها. عودته إلى المهدي. قلق البلاط الموحدى لحوادث إفريقية. تجهيز حملة كبيرة لقتال الميورقي وتوقفها. ثورة أبي قفصة ببلاد السوس. مسير الموحدين لقتاله. هزيمة الدعى ومقتله. وقوع السيل العظيم بإشبيلية. تأهب الموحدين لافتتاح الجزائر الشرقية. عبد الله بن إسحاق حاكم الجزائر. مسالته للدول النصرانية وتعارفه معها. افتزاعه لمدينة ميورقة من الموحدين. إعداد الحملة الموحدية لافتتاح الجزائر. خروجها من دانية إلى يابسة ثم إلى ميورقة. استيلاء السفن الموحدية على منورقة. نزول الموحدين في ميورقة. القتال بينهم وبين عبد الله بن إسحاق. هزيمة عبد الله ومقتله. اقتحام الموحدين لمدينة ميورقة وافتتاحها. تعيين ابن طاع الله الكومى لولايتها. صدى هذا الفتح في أراجون والدول النصرانية الأخرى. تأثيره في خطط يحيى بن إسحاق. عزم يحيى على فتح تونس. مسيره إليها في قواته. قطع اتصالها بالبحر ومحاصرتها. اقتحام يحيى لها. قبضه على واليها السيد أبي زيد وأولاده وأشياخ الموحدين. يحيى يفرض غرامة فادحة على تونس. خروجه إلى جبل نفوسة وتغريم أهله. وقع سقوط تونس في بلاط مراکش. الناصر يعين ولاة الأندلس. عزمه على سحق الميورقي. مسير الحملة الموحدية والأسطول الموحدى إلى إفريقية. حركات يحيى بن إسحاق في الجنوب. وصول الأسطول الموحدى. وصول الحملة الموحدية بقيادة الناصر. عودة يحيى إلى تونس. إرساله لأمواله وذخائره إلى المهدي. إخلاؤه لتونس ومسيره في قواته إلى قفصة. احتلال الموحدين لتونس. مسير الحملة الموحدية في أثر الميورقي. تحصن الميورقي بجبل دمر. تحصينه للمهدي. مسير الناصر لمحاصرة المهدي. مسير حملة موحدية بقيادة الشيخ أبي حفص إلى جبل دمر. معركة دموية في رأس تاجرا. هزيمة الميورقي ومقتل أصحابه. فراره في قفولة. لإنقاذ السيد أبي زيد وصحبه. اشتداد المقاومة بالمهدي. المارك المستمرة. طلب الغاني حاكم المهدي التسليم بالأمان. موافقة الناصر. خروجه من المهدي مع صحبه. دخوله في طاعة الموحدين. سحق بني غانية وتحرير إفريقية. مثل بني غانية في محاربة الموحدين. تحولها إلى مفامرة في سبيل السلطان والثراء. مثالب حكومة الميورقي. وأساليبها الهمجية. بغض المحكومين لها. التجاء يحيى الميورقي إلى الصحراء الجنوبية. مطاردة الموحدين لطوائف المفسدين. تعيين الشيخ ابن محمد عبد الواحد لولاية إفريقية. اعتذاره وشرطه للقبول. موافقة الناصر ومغادرته لتونس. مسيره إلى تلمسان ثم إلى فاس. أعماله ومطاردته لعامل فاس ومكناسة.

حسيره إلى رباط الفتح ثم إلى مراكش . نظره في الأعمال السلطانية ومراجعتها لأعمال العمال . وفاة السيد أبي الربيع والى بجاية . تعيين السيد أبي عمران موسى والياً لتلمسان . عود يحيى الميورقي إلى الحركة . تحول بعض طوائف العرب عن مخالفتهم إلى الموحدين . سير يحيى إلى الشمال . خروج الشيخ أبي محمد إلى لقائه . معركة تبششة . هزيمة الميورقي وفراره . جمعه لقواته ومسيره غرباً صوب واحات سجلماسة . اقتحامه لسجلماسة ونهبها . اهتمام الموحدين في إفريقية ومراكش . عود صوب تلمسان . مفاجأته لوالها السيد أبي عمران وقواته . هزيمة الموحدين ومصرع السيد وصحبه . اقتحام الميورقي لمدينة تاهرت . عيث الميورقي في أحواز تلمسان . إنجاد المدينة وتأمينها . سير حملة جديدة لمقاتلة الميورقي . ارتداده صوب طرابلس . عودته إلى الحركة . تضخم جيشه بالعرب والأغزاز . خروج الشيخ أبي محمد لقتاله . مسيره نحو جبل نفوسة . اشتباك الفريقين . هزيمة الميارقة وحلفائهم . مقتل أشياخ العرب . فرار يحيى وقلة . عود القائد الظافر أبي محمد . كتابه إلى الخليفة بالفتح . معالجة الشيخ أبي محمد لشئون إفريقية . فضله في إخماد ثورة بني غانية . توطيده لسلطان الموحدين في إفريقية . التجاء سيراخي يحيى إلى الشيخ أبي محمد . أعمال الناصر وتعييناته للولاة والكتاب والقضاة . بعض حوادث المغرب في تلك الفترة . حريق مراكش . وفد المسلمين الصقليين إلى تونس . أحوال مسلمي صقلية منذ افتتاح النصارى للجزيرة . أقوال الرحالة ابن جبير عن ذلك .

لما توفي الخليفة يعقوب المنصور ، في ليلة الجمعة الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ (٢٢ يناير سنة ١١٩٩ م) ، خلفه في صباح اليوم التالي ولده أبو محمد عبد الله الملقب بالناصر لدين الله ، وأخذت له البيعة العامة بعد ذلك بأسبوع في نهاية شهر ربيع الأول . ولم يعارضه أحد من الإخوة ولا العمومة ؛ وكان المنصور قد اختاره لولاية عهده ، وعقد له البيعة بذلك في أواخر سنة ٥٨٧ هـ ، حينما دهمه المرض الشديد ، عقب عودته إلى المغرب ، من جوازه الأول إلى الأندلس . ثم أخذت له البيعة بعد ذلك في سائر أقطار المغرب والأندلس . وكان الخليفة الجديد حين جلوسه ، في نحو السابعة عشر من عمره ، إذ كان مولده في أواخر سنة ٥٧٦ هـ . ويقول لنا المراكشي إن أمه أم ولد رومية تدعى زهر . ولكن صاحب روض القرطاس ، يقول إن أمه بالعكس كانت حرة اسمها أمة الله ، وأنها ابنة السيد أبي إسحق بن عبد المؤمن^(١) .

وتولى الوزارة للخليفة الجديد ، وزير أبيه أبو زيد عبد الرحمن بن موسى ابن يوجان ، وهو ابن أخى الشيخ أبي حفص^(٢) ، وتولى مهمة الاستشارة والتوجيه ، الشيخ أبو زكريا وأخوه الشيخ أبو محمد عبد الواحد ، إبننا الشيخ

(١) المعجب ص ١٧٥ ، وروض القرطاس ص ١٥٢ .

(٢) وقد ورد في بعض الروايات « أبو زيد بن يوجان » (راجع رحلة التجاني ص ٣٦٣) .

أبي حفص عمر الهنتاقى ، وتولى رياسة البيت المالک السيد أبو الحسن وأخوه السيد أبو زيد ، ابنا السيد أبي حفص عم الخليفة الراحل ، وذلك كله ، وفقاً لوصية المنصور فى مرض موته حسبما أشرنا إلیه من قبل .

وأقام الخليفة الجديد عقب ولايته بحضرة مراکش بضعة أسابيع ، حتى آخر شهر ربيع الثانى من سنة ٥٩٥ هـ ، وتمت البيعة خلال ذلك فى سائر النواحي ، ووصلت إلى الحضرة ، وخرجت البرکات للموحدين والأجناد كالعادة ، وقدّم الشعراء تهنيتهم بتجديد البيعة . ثم غادر الخليفة مراکش فى أول شهر جمادى الأولى ، وقصد إلى مدينة فاس ، فأقام بها حتى نهاية هذا العام . وعنى الخليفة خلال ذلك بتصريف الشئون ، بمعاونة وزيره عبد الرحمن بن يوجان ، وكان فى مقدمة المراسم الجديدة ، أن عين الخليفة السيد الحسن بن السيد أبي حفص والياً لبحاية وأعمالها ، وأمدّه بالرجال والأموال ليستطيع مواجهة الحوادث فى تلك المنطقة المضطربة ، وعين أخاه السيد أبا محمد عبد الله بن المنصور والياً على إشبيلية مكان أخيه السيد أبي زيد^(١) .

وكانت الأحوال فى إفريقية قد ساءت فى أواخر عهد المنصور ، ولا سيما حين شغل بأمر الجهاد فى الأندلس ، ولم تسعفه الظروف حين عودته بعد ذلك إلى المغرب ، ليعنى بالنظر فى شئون إفريقية ، وتدارك مآدهما من الحوادث ، حيث فاجأه المرض وتوفى . فكان على ولده الخليفة الفقى محمد الناصر ، أن يواجه هذه الظروف ، وأن يقوم بتداركها .

- ١ -

وقد وصلنا فيما تقدم من سرد حوادث إفريقية ، إلى ظفر يحيى بن إسماعيل ابن غانية الميورقى ، بخصمه شرف الدين قراقوش ، وفراره إلى الجبال ، وانتزاع طرابلس من يده نائبه . ولما تم ليحيى ما تقدم سار إلى قابس ، وكان نائب قراقوش قد غادرها على أثر هزيمة سيده ، ووجه إليها الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص وإلى تونس ، حافظاً من الموحدين يسمى ابن تفرّاجين . فقصد إليها يحيى بقواته ووجه إلى أهلها كتاباً يندبهم فيه بالتسليم ، ويحذرهم من المخالفة ، ويحدد لهم ثلاثة أيام لإجابة مطلبه ، فلما انتهى هذا الأجل دون أية إجابة ، زحف

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢١٢ و ٢١٣ .

يجي على المدينة ، وحاصرها حصاراً شديداً ، وقطع غابات النخيل القريبة منها ،
لأنحلة واحدة تركها للعبرة . فأذن أهل المدينة إلى التسليم ، على أن يؤمن واليهم
ابن تفرجين ، ويُسمح له أن يغادر المدينة بأهله من طريق البحر ، فأوفى لهم يحيى
بذلك ، وفرض على المدينة إتاوة قدرها ستون ألف دينار . وكتب كاتبه أبو محمد
عبد البر بن فرسان كتاباً بهذا الفتح ، يشيد فيه بعود المدينة إلى الدعوة العباسية^(١) .

وبينما كان الميورقي يتابع مغامراته ، ويعمل على توطيد سلطانه في بلاد
الجريد ، إذ ظهر بإفريقية عامل مقلق جديد بثورة ابن عبد الكريم . وكان محمد
ابن عبد الكريم الرجراجي هذا ، من زعماء الحند ، الذين امتازوا بالشجاعة
والنجدة ، وأبوه جندي من أهل المهديّة ، ينتمى إلى قبيلة كومية الموحدية . وكان
قد ظهر في مقاتلة الأعراب وغيرهم من العناصر المشاغبة المفسدة ، واستطاع في
كثير من المواطن أن يجمع شغبهم وضررهم ، بمن التف حوله من الحند والأنصار ،
فلما قوى أمره ، وظهرت كفايته ، قدمه الوالى لتلك المهمة ، وأطلق يده في محاربة
الخوارج والمعتدين ، فكان يطاردهم وينكل بهم ، ويقتل من يقتل ، ويعتقل
من يعتقل ، فلا يطلقه إلا بعد دفع الأموال الكثيرة ، وإعطاء العهود المؤكدة
على التزام الطاعة والسكينة .

فلما ولى الشيخ أبو سعيد بن أبي حفص ، من قبل الخليفة المنصور ، على إفريقية ،
قدم على المهديّة ، أخاه أبا على يونس بن أبي حفص ، فطالب ابن عبد الكريم
أن يشركه فيما يغنمه من أموال الأعراب المخالفين ، فرفض ابن عبد الكريم تحقيق
رغبته ، وطلب إليه أن يتركه على ما كان عليه الولاية من قبل . فقبض عليه أبو على
وأهانته ، وزجه إلى السجن ، فاستغاث ابن عبد الكريم بالشيخ أبي سعيد وإلى
إفريقية فلم يسعفه . وحدث عندئذ أن اشتد عيث الأعراب بالساحل ، وكثرت
الشكوى منهم ، وألح الناس على أبي على أن يطلق ابن عبد الكريم ، فاضطر
إلى إطلاقه خشية الفتنة ، ورد إليه منصبه وجنده ، وأمره بالعمل على كف
عيث أولئك الأعراب . فخرج ابن عبد الكريم في صحبه ، وأقام محله في ظاهر
المهديّة ، وشكا إلى جنده ما لحقه من ظلم الوالى ، وتفاهم معهم على الغدر بأبى على
والاستيلاء على المدينة . ويقدم إلينا ابن الأثير تفسيراً آخر لتصرف ابن عبد الكريم ،
خلاصته أن جماعة من عرب بنى عوف نزلوا على مقربة من المهديّة ، فخرج

إليه ابن عبد الكريم ، فخافوا وفروا تاركين عيالهم وأموالهم ، فاستولى ابن عبد الكريم على المال والعيال ، وسلم العيال وجزءاً من المال والأسلاب إلى الوالي واحتفظ بالباقي ، فسار رؤساء بني عوف إلى الشيخ أبي سعيد ، وقدموا الطاعة ووحدوا واستغاثوا به ، أن يرد إليهم أموالهم وعيالهم ، فاستدعى ابن عبد الكريم وطالبه برد ما أخذ من أسلابهم ، فاعتذر ابن عبد الكريم بأن أعطاه إلى الجند ولا يستطيع رده . فأغلظ له الشيخ أبو سعيد القول ، وهم أن يبطش به ، فاستمهله حتى يعود إلى المهديّة ، ويحاول أن يسترد من الجند ما استطاع . فلما عاد إلى المهديّة ، نبأ صحبه بما حدث ، واتفق معهم على الوثوب بأبي على يونس . وعلى أي حال فقد نفذ ابن عبد الكريم مشروعه ، ودخل المدينة في أواخر الليل في ثلّة مختارة من صحبه ، وبادر إلى قصر الوالي ونفذ إليه ، وقبض على أبي على ، وحبسه في موضع من القصر ، ولم يطلقه إلا بعد أن وصل فداؤه من قبل أخيه الشيخ أبي سعيد ، فارتد إلى أخيه مخذولاً ، وبسط ابن عبد الكريم بذلك حكمه على المهديّة ، وكان استيلائه عليها في شهر شعبان سنة ٥٩٥ هـ^(١) ، لأشهر قلائل من ولاية الناصر .

واستبد ابن عبد الكريم بحكم المهديّة ، وتسمى « المتوكل على الله » ، واستفحل أمره . وفي تلك الأثناء وصل السيد أبو زيد ابن السيد أبي حفص من قبل الناصر والياً على إفريقية ، مكان الشيخ أبي سعيد ، ومعه جماعة من الأشيّخ والأجناد . فاعتزم ابن عبد الكريم أن يحاصره بتونس ، قبل أن يستعد لقتاله ، فسار إلى جهة قرطاجنة وعسكر عند مدخل البحر إلى البحيرة ، فسير السيد أبو زيد السفن في البحر ، والجند في البر لقتاله ، وكان ابن عبد الكريم قد رتب كائنه في بعض المواضع ، فلما أقبل إليها الموحدون ، خرجت عليهم تلك الكائنات ، فأوقعت بهم الهزيمة وفتكت بمعظمهم ، وانتشر عسكر ابن عبد الكريم في أحواز تونس ، وعاثوا فيها نهباً . وعندئذ بعث السيد أبو زيد والشيخ أبو سعيد إلى ابن عبد الكريم ، أشياخاً من الموحدين يسوقون إليه اللوم ، ويدكرونه بانتقامه إلى الموحدين ، وأن ما يفعله مروق ونكران لا يليق به ، وأنه من الخير أن يعود إلى طائفته ، فوعدهم ابن عبد الكريم خيراً ، ثم عاد إلى المهديّة .

وكانت قد حدثت في تلك الأثناء وحشة بين ابن عبد الكريم ، وبجي الميورقي

لما دب بينهما من عوامل التنافس والحسد ، وفكر ابن عبد الكريم في محاربته ومحاصرته ، وهو يومئذ بقابس ، فاستخلف على المهديّة ولده عبد الله وسار إلى قابس ، ولكنه لما أشرف عليها يجموعه هالته منعها ، فارتد منها إلى قفصة واستولى عليها . وعندئذ خرج الميورقي من قابس لمطاردته ومحاربته ، فخرج ابن عبد الكريم بقواته من قفصة ، والتقى الفريقان في مكان يعرف بقصور لالة ، فهزم ابن عبد الكريم ، وفر إلى المهديّة ناحياً بنفسه ، وتبعه إليها من نجا من فالوله ، واحتوى الميورقي على معسكره وجميع أسلابه . وكان ذلك في بداية سنة ٩٧ هـ .

وأراد الميورقي أن يقضى نهائياً على خصمه ، وأن ينتزع منه المهديّة ، فبعث إلى السيد أبي زيد بتونس يسأله المهادنة والسلام ، ويطلب منه أن يعينه بعدة سفن يستطيع بها محاصرة المهديّة من البحر ، والقضاء على ابن عبد الكريم . وكان السيد أبو زيد يتوق إلى التخلص من هذا الثائر الذي استفحل أمره ، فبعث إلى الميورقي سفينتين ، فعندئذ أدرك ابن عبد الكريم أنه لا مفر من التسليم ، وبعث إلى الميورقي ولده عبد الله يعرض التسليم على أن يؤمن في نفسه وماله ، فأجابته الميورقي إلى ذلك ، وخرج ابن عبد الكريم وولده من المهديّة وتوجها إلى الميورقي للسلام عليه ، فلما رآهما أمر في الحال بالقبض عليهما متفرقين ، واستولى على المهديّة وعلى سائر ما كان بها لابن عبد الكريم من الأموال والذخائر . ثم زج بابن عبد الكريم وولده إلى السجن ولم تمض أيام قلائل حتى أخرج ابن عبد الكريم ميتاً من سجنه ، ثم أخرج ولده عبد الله وحمل إلى السفينة ، بزعم إرساله إلى ميورقة ، ولكن السفينة ما كادت تصل إلى مقربة من قسنطينة ، حتى ألقى به مكبولا إلى البحر ، فابتلعت المياه (١) .

وهكذا بسط يحيى بن إسحاق الميورقي حكمه على سائر إفريقية ، ما عدا شاطئها الشمالي ، واستولى على سائر قواعدها ، طرابلس وقابس وصفاقس والمهديّة والقيروان وسائر بلاد الجريد ، ووصلت دعوته إلى بونة ولم يبق بيد الموحدين منها سوى تونس وبجاية وقسنطينة ، وقاتل أصبحت كذلك في خطر السقوط . وبينما كان السيد أبو زيد والى إفريقية ، ما يزال يعتقد أن الميورقي يرغب حقاً في السلم ، وأنه ينوى أن يضع حداً لأعماله العدائية ، إذا بالميورقي

(١) نقلنا هذه التفاصيل عن رحلة التجاني ، وهي فيما يبدو أوثق الروايات عن هذه الحوادث ص ٣٥٢ - ٣٥٤ . وراجع ابن خلدون في كتاب العبر ج ٦ ص ١٩٤ و ١٩٥ ، وهو فيما يرجح ، ينقل عن التجاني .

يسير فجأة إلى بلدة باجة الواقعة غربي تونس ، وقد كانت من أنخصب بلادها هذه المنطقة وأوفرها حنطة وطعاماً^(١) ويقتحمها عنوة ، ويستولى عليها ، ويقتل حاكمها الموحدى على الفور . فبعث السيد أبو زيد في الحال جيشاً ، تحت إمرة أخيه السيد أبي الحسن والى بجاية ، لكي يعمل على إنقاذ باجة وحماية سكانها الذين عادوا إليها ، وكان الميورقي قد عاد لحصارها ، فلما علم بمقدم الموحدين ، رفع الحصار عن المدينة وسار للقاء خصومه ، وعسكر في موضع حصين بالقرب من قسنطينة ، وهناك أشرف عليه السيد أبو الحسن بمجموعه ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها الموحدون ، واستولى الميورقي على معسكرهم وأسلابهم . وارتد أبو الحسن في بعض فلوله إلى بجاية وهو في أسوأ حال^(٢) .

وكانت مدينة بسكرة التي استولى عليها الميورقي من قبل قد خلعت طاعته ، وعادت إلى طاعة الموحدين ، فسار إليها يحيى ، واقتحمها عنوة ، وعاقب السكان على نكثهم ، بقطع أيدي الكثير منهم ، وقبض على عاملها الموحدى وزجه إلى السجن . وخشى أهل بونة أن يصيبهم ما أصاب أهل بسكرة ، فبعثوا إلى الميورقي بطاعتهم . ووقعت هذه الحوادث في سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠٢ م) . وعاد يحيى بعد ذلك إلى المهديّة فاستقر بها بعض الوقت^(٣) .

وفي خلال ذلك كان البلاط الموحدى بمراكش يتتبع أنباء الحوادث في إفريقية بمنتهى الجزع ، ويحاول أن يجمع العدوان بالحملات المحلية المتوالية . فلما توالى فشل هذه المحاولات ، جهز الخليفة الناصر ، أوبالخرى مستشاروه من أشياخ الموحدين ، حملة كبيرة ندب لقيادتها الوزير ابن يوجان ، وسارت هذه الحملة إلى تلمسان ثم إلى بجاية ثم إلى قسنطينة ، ولكنها لم تقم بأية محاولة لمقاتلة الميورقي ، وعاد الوزير إلى تلمسان ، وهناك وصله الأمر بالنظر في أعمالها ، ثم ندب إلى ولاية فاس ، وأقام بها حتى ندب الناصر للسير معه إلى إفريقية^(٤) .

وكان هذا التردد في مطاردة الميورقي ، راجعاً إلى اضطراب ثورة جديدة في منطقة السوس . وذلك أن دعياً من أصل أندلسي ، ينتمى إلى قبيلة جزولة ،

(١) وهي طبعاً غير باجة بالأندلس . راجع الاستبصار في عجائب الأمصار ص ١٦٠ .

(٢) المعجب ص ١٧٩ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٥ ، وكذلك : A. Bel : Les Benou Ghania. p. 113 .

(٤) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢١٤ ، والمعجب ص ١٧٩ . هذا وتراجع خريطة

إفريقية في ص ١٦٣ ، حيث وضحت بها سائر المواقع التي كانت مسرحاً لتلك المعارك المتوالية .

يسمى عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن القرس ، ويعرف بالمهر وبأبي قسبة ، كما يعرف عند البربر بما معناه « ابن الحزارة » ثار بالسوس . وكان هذا الدعى من طبقة العلماء بالأندلس . وحضر ذات يوم مجلس الخليفة يعقوب المنصور وبدرت منه بعض أقوال جدلية خشى عاقبتها ، فاختنى حيناً ، ثم ظهر بعد وفاة المنصور ، فى السوس فى منازل جزولة ، وانتحل الإمامة ، وادعى أنه « القطحاني » الذى ورد ذكره فى الحديث ، بأنه لا تقوم الساعة ، حتى يخرج رجل من قطحان ، يقود الناس ، ويملا الأرض عدلاً كما ماثت جوراً ، ومما ينسب إليه فى مصبر بنى عبد المؤمن شعر يقول فيه :

قولوا لأبناء عبد المؤمن بن على تأهبوا لوقوع الحادث الجلل
قد جاء سيد قحطان وعالمها ومنتهى القول والغلاب للدول

وذاعت دعوة أبى قسبة فى أرجاء بلاد السوس ، والتفت حوله جموع غفيرة ، فبعث إليه بلاط مراکش عدة حملات صغيرة متوالية ، كان يهزمها تباعاً ، وأخيراً اضطر الناصر أن يجهز لقتاله حملة كبيرة من الموحدين والغز وغيرهم ، وسار الموحدون إلى بلاد السوس ، وأندروا المصامدة وغيرهم من القبائل المجاورة ، بأن الدعى يعتمد على تسامحهم وتغافلهم ، وبذلك يقوى أمره ، ولوشاءوا لقضوا عليه ، فعند ذلك تحركت ، القبائل وانضمت إلى الجيش الموحدى القادم ، فى مقاتلة الدعى ، فانفض عنه معظم جموعه ، وقتل منهم من وقف إلى جانبه ، وقُبض على الدعى وقتل ، واحتز رأسه ، وأرسل إلى مراکش ، وكان مصرع أبى قسبة وانهار ثورته ، على هذا النحو سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠٢ م)^(١) .

وكان من حوادث الأندلس فى تلك الفترة أن عزل الناصر أخاه السيد أباعحمد عبد الله بن المنصور عن ولاية إشبيلية ، ولكنه عاد فاستبقاه فى منصبه تحقيقاً لرغبته ، وكان ذلك فى سنة ٥٩٧ هـ . وفى أوائل هذا العام بالذات ، وقع بإشبيلية حادث مفزع هو وقوع السيل العظيم ، الذى لم يسمع بمثله من قبل ، فاجتاح أجزاء كبيرة من سور المدينة ، ولاسيما ما بين باب طُريانة وباب المؤذن ، وغمرت المياه المدينة بأسرها ، وسقط عدد كبير من دورها قيل إنه ستة آلاف ، وكان من رحمة القدر أن وقع هذا السيل ظهراً ، وكان وقوعه يوم الاثنين ١٩ من جمادى الأولى سنة ٥٩٧ هـ

(١) ابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ٢٤٦ و ٢٥٠ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢١٥ ،

(٢٦ مارس ١٢٠١ م) واستمر ثلاثة أيام ، ولو حدث وقوعه بالليل لفرق آلاف من أهل المدينة . واجتاح هذا السيل وادى النهر الكبير كله من قرطبة إلى إشبيلية ، وحتى ثغر قادس ، ومات من جرائه الكثيرون غرقاً . وكان من أشنع الحوادث التى شهدتها إشبيلية من عهد طويل^(١) .

— ٢ —

وكان الخليفة الناصر ، وأشياخ الموحدين ، يتأهبون فى نفس الوقت لمشروع ضخم ، هو افتتاح الجزائر الشرقية (جزائر البليار) . وكان استمرار يحيى ابن إسحاق الميورقى فى عدوانه ، وتفاقم أمره فى إفريقية ، وفشل الحملات الموحدية المتوالية فى القضاء على سلاطانه ، قد حمل البلاط الموحدى على أن يفكر فى افتتاح ميورقة ، والقضاء على سلطان بنى غانية فيها ، وضربهم بذلك فى موطن قوتهم الأصلى ، ومصدر مواردهم وأمدادهم البحرية ، فيكون ذلك الفتح ذاته ، وسيلة لضرب سلطان يحيى الميورقى فى إفريقية ، والتمهيد للقضاء على حركته .

وقد سبق أن فصلنا ظروف استيلاء بنى غانية على الجزائر الشرقية ، وقيام حكمهم فى ميورقة ، ومحاولة الخليفة أبى يعقوب يوسف أن يخضع عميدهم إسحاق ابن غانية لسلطان الموحدين ، وما كان من إرساله سفيره علياً البربرتير إلى ميورقة ، ليعمل على تحقيق هذه الغاية ، وإخفاق البربرتير فى مهمته ، ثم قيام على بن إسحاق بافتتاح بجاية ، وبداية تلك الحركة المضطربة ، وتلك الحملات الخربة المتوالية ، التى قام بها بنو غانية فى إفريقية ، واستيلائهم تباعاً على معظم قواعدها .

وكان على حكم ميورقة فى ذلك الوقت الذى اشتدت فيه حركة يحيى بن إسحاق بإفريقية ، أخوه عبد الله بن إسحاق بن غانية . وقد سبق أن أشرنا إلى الظروف التى استطاع فيها عبد الله أن ينتزع حكم ميورقة من أخيه محمد بن إسحاق وذلك فى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) ، واستبد عبد الله بحكم ميورقة ، كبرى الجزائر ، وازدهرت فى عهده ، واستمر على رياستها طوال هذه الأعوام دون منازع . وكان عبد الله ، يتبع سياسة أبيه إسحاق بن غانية فى مسالمة الدول النصرانية القريبة ،

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢١٤ . والذيل والتكلة لابن عبد الملك (الجزء الرابع من مخطوط المتحف البريطانى ، فى ترجمة محمد بن أحمد بن تمام العذرى .

ولاسيما جنوة وبيزة ، ويعقد معها الصلات الودية ، وكان ذلك مما يساعد على رواج التجارة بين ميورقة وبين هذه الدول البحرية . وفي سنة ٥٩٤هـ (١١٩٨ م) عقد عبد الله مع جمهورية جنوة معاهدة صلح وتجارة لمدة عشرين عاما ، وذلك بواسطة نيقولا لكانوتزى سفير جنوة إلى ميورقة . وكان التجار النصارى فى الجزيرة ، يعيشون فى دعة وطمأنينة آمنين على أنفسهم وأموالهم ، وتعاون جهودهم فى ترويج تجارة المصادر والوارد بين الفريقين . وكان من الواضح أنه منذ اضطرت الحصومة بين بنى غانية والموحدين ، لم يكن فى وسع الجزائر أن تعتمد فى تموينها ومواردها الحيوية على الأندلس المعادية ، ومن ثم فقد كانت تسعى للحصول على مواردها من النصارى ، وكان هؤلاء يمدونها بالسفن والسلاح والذخائر ، مقابل الحبوب ومنتجات الجزيرة الأخرى . ومن جهة أخرى ، فقد كان النصارى يجنون ثمار هذه الصلات الودية مع ميورقة ، وذلك بامتناع عبد الله عن الإغارة على شواطئهم . على أن عبد الله كان ما يزال ينظم غاراته البحرية على شواطئ الدول التى لم يكن يرتبط معها بعهود الصداقة والمودة ، مثل فرنسا ، وكانت هذه الغارات ، توطد من مكانته لدى شعبه وتزيد فى ثرائه . وبالرغم من أن عبد الله لم يكن فى وسعه دائماً ، أن يمد أخاه يحيى بالسفن والجند ، فى مغامراته الإفريقية ، فإن ميورقة كانت تعتبر مع ذلك بالنسبة لبنى غانية ، مركزهم الرئيسى وموطن قوتهم الحقيقية^(١) .

كانت هذه أحوال ميورقة ، حينما وصلت غزوات يحيى بن غانية للثغور الإفريقية إلى ذروتها ، وحينما اعتزم البلاط الموحدى أن ينفذ مشروعه لغزو ميورقة ، كوسيلة لضرب بنى غانية فى صميم مئوى قوتهم وسلطانهم . وكان الموحدون يرون أنه متى سقطت ميورقة فى أيديهم ، فإنهم يستطيعون عندئذ أن يتفرغوا لمطاردة يحيى بن غانية والقضاء على سلطانه فى إفريقيا ، دون أن يكون أمامه ملاذاً وملجأ أخيراً يتجه إليه .

وبذل الخليفة الناصر وأعوانه من أشياخ الموحدين جهوداً مضاعفة لإعداد حملة بحرية عظيمة توجه لغزو ميورقة . وفى تلك الأثناء ، وقبل أن يتم إعداد الحملة ، عمد عبد الله بن إسحاق بن غانية إلى مهاجمة جزيرة يابسة الواقعة جنوب

غربي ميورقة محاولاً انتزاعها من الموحدين ، وكان ذلك في أوائل سنة ٥٩٧ هـ ، خلال فصل الشتاء ، حينما تكون الأساطيل الموحدية راسية في سبتة ، فقاومته السفن الموحدية المرابطة بقيادة ابن ميمون ، وانتزع ابن ميمون منه سفينتين وأحرقهما ، فارتد إلى ميورقة خائباً . ولكنه سار في العام الثاني (٥٩٨ هـ) ، وهاجم جزيرة ميورقة وانتزعها من أيدي الموحدين ، وولى عليها من قبله رجلاً اسمه الزبير بن نجاح . والظاهر أن عبدالله كان قد ترامت إليه الأخبار عن مشروع الموحدين في غزو ميورقة ، فأراد أن يبادر بإبعادهم عن هذه المياه ، وتأمين ميورقة بالسيطرة على منورقة ويابسة جناحيها من الشرق والغرب .

وأخيراً تم إعداد الحملة البحرية المنشودة ، مكونة من أسطول سبتة بقيادة السيد أبي العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن ، ومن جيش من الفرسان والرماة والرجالة ، بقيادة الشيخ أبي سعيد بن أبي حفص . والتقت القوتان بشعر دانية ، أقرب قواعد الأندلس البحرية إلى الجزائر . وكانت القوى البرية تتألف من ألني ومائتي فارس ، وسبعائة من الرماة ، وخمسة عشر ألفاً من الرجالة غير غزاة القطع (أي السفن) . وكان الأسطول يتكون من ثلاثمائة جفن (سفينة) منها سبعون غراباً ، وثلاثون طريدة ، وخمسون مركباً كبيراً ، ومائة وخمسون قارباً من مختلف الأنواع ، وكانت الحملة مزودة بكميات كبيرة من العدد والسلاح والمجانيق والصلالم ، ومختلف الأدوات ، وكذلك من الدروع والسيوف والرماح والبيضات والدرق ، والقسي ، وصناديق النشاب ، وكانت بالأخص مزودة بكميات وافرة من الطعام استعداداً لطول المقاومة أو طول الحصار . وأقلعت الحملة من ثغر دانية في أواخر سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٣ م) ، فوصلت بعد أيام قلائل إلى جزيرة يابسة ، فصلوا بها الجمعة ، ثم أقلعت منها يوم السبت الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة (٣٠ سبتمبر سنة ١٢٠٣) قاصدة إلى ميورقة^(١) . ويبدو مما يقوله صاحب البيان المغرب ، أن السيد أبا العلاء ، قد انحرف أولاً بجزء من الأسطول نحو جزيرة منورقة ، وانتزعها من ابن نجاح ، وقبض عليه ، وأرسله مع بعض صحبه مصفداً إلى الحضرة ، وهناك أعدم وعاقبت رأسه^(٢) . وبذلك تم تأمين جناحي الحملة الموحدية ، وتطوير ميورقة كبرى الجزائر . ثم أقبلت

(١) نقلنا هذه التفاصيل عن صاحب الروض المطار (ص ١٨٩) وهو ينفرد بها .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢١٦ .

السفن الموحدية إلى ميورقة واحتلت مرساها ، وأنزل العسكر المهاجم بالقرب من مدينة ميورقة عاصمة الجزيرة ، فخرج إليهم عبد الله بن إسحاق في جموعه ، واضطرم القتال بين الفريقين ، واستمرت المعارك بينهما سبعة أيام ، وعبد الله وجنوده يدافعون بمنتهى الشدة ويقاتلون قتال اليأس ، وأخيراً دارت عليه الدائرة فهزم وقتل ومعظم أصحابه . وأغلق المدافعون في الداخل أبواب المدينة فطوقها الرماة وغزاة البحر ، واقتحموها ، ودخلها الموحدون وبدأوا نهبها ، ودخل السيد أبو العلاء والشيخ أبو سعيد المدينة ، وأمامهما رأس عبد الله مرفوعة على قنّاة ، فأمر في الحال بمنع النهب ، وتأمين الناس ، وقبض على أولاد عبد الله وأهله ، فخرج الناس ، وقد أمنوا وأطمأنوا ، وكُتِبَ في الحال بالفتح إلى الخليفة الناصر . وكان فتح ميورقة على هذا النحو في شهر ربيع الأول سنة ستمائة (شهر ديسمبر سنة ١٢٠٣ م)^(١) .

تلك هي تفاصيل الفتح الموحد لميورقة حسبما يوردها لنا صاحب الروض المعطار ، وحسبما تقصها علينا رسالة الفتح الصادرة عن الخليفة الناصر ، والمدمجة بقلم كاتبه أبي عبد الله بن عياش . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن الحملة الموحدية لفتح ميورقة كانت بقيادة الخليفة الناصر نفسه ، وأنه خرج من مدينة فاس فوصل إلى جزائر بني مزغنة ، وجهاز من هنالك الأساطيل والعساكر لفتح ميورقة ، ففتحها وانتزعها من أيدي المرابطين^(٢) . بيد أنه لا توجد أية رواية أخرى تؤيد هذا القول ، فضلاً عن أن رسالة الفتح الرسمية صريحة قاطعة في عدم صحته . ويقدم إلينا ابن خلدون إسمي قائد الحملة وهما كما تقدم السيد أبو العلاء إدريس قائد الأسطول ، والشيخ أبو سعيد بن أبي حفص قائد القوى البرية^(٣) . ويقول لنا صاحب البيان المغرب إن الناصر كان في الوقت الذي سارت فيه الحملة الموحدية إلى الجزائر مقبلاً بحضرة مراکش^(٤) .

ونذب السيد أبو العلاء لولاية الجزائر عبد الله بن طاع الله الكومي ، فكان

(١) الروض المعطار في روايته السابقة الذكر ص ١٨٩ ، وراجع الرسالة السادسة والثلاثين من رسائل من موحديّة ، وهي خاصة بفتح ميورقة (ص ٢٣٥ وما بعدها) ، وكذلك روض القرطاس ص ١٥٣ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٣ ، ويتابعه في ذلك الأستاذ الفرد بل: Les Benou Ghaina, p. 167

(٣) ابن خلدون في العبر ج ٦ ص ٢٤٧ .

(٤) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢١٨ .

أول ولايتها من الموحدين ، وعين لقضاها الفقيه المحدث عبد الله بن حوط الله .
ثم ولى الناصر عليها عمه السيد أبا زيد بن أبي يعقوب يوسف ، وندب ابن طاع الله
لقيادة البحر .

وكان فتح الموحدين لميورقة ضربة شديدة لبني غانية ، قضت نهائياً على
سلطانهم في الجزائر ، ومن جهة أخرى فقد كان له وقع عميق لدى الممالك
النصرانية القريبة ، ولاسيما مملكة أراجون المواجهة في شبه الجزيرة . وإلى هذا تشير
رسالة الفتح صراحة بقولها « ولأخذ ميورقة على صاحب أرغون وبرشلونة ،
أشد من رشق النبل وأهول من وقع السيف ، وأوحش من القطع بحلول الممات »
وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يتبعه بنو غانية من سياسة المسالمة والمودة نحو الدول
النصرانية المجاورة ، ولاسيما مملكة أراجون وجمهورية جنوة وبيزا . وكانت
تجمع بين بني غانية أصحاب الجزائر وبين أراجون بالأخص فكرة مشتركة ،
هى خصومة الموحدين والكفاح ضدهم . وكانت أراجون وحليفاتها من الدول
النصرانية لذلك ، تنظر إلى سيادة بني غانية للجزائر بعين الإغضاء ، ما التزم
بنو غانية سياسة المودة والمسالمة . أما الآن ، وقد احتل الموحدون الجزائر ، فإنه
كان لابد للدول النصرانية ، وفي مقدمتها أراجون أن تتخذ نحو الجزائر موقفاً
آخر . ومن المحقق أن أراجون ومن ورائها جنوة وبيزا كانت تطمع دائماً ،
إلى انتزاع الجزائر من المسلمين . وقد جاء استيلاء الموحدين على الجزائر عاملاً
جديداً ، يذكرى هذه الرغبة ويؤكددها . على أن ظفر الموحدين بالاستيلاء على
الجزائر ، كانت تقابله من الناحية الأخرى ، ضربة جديدة مؤلمة للموحدين في
في إفريقية . ذلك أن يحيى بن إسحاق بن غانية ، كان يشعر حين ترامت إليه
أنباء الحملة الموحدية ، التي سيرت إلى الجزائر ، أن مصير ميورقة قد بت فيه ،
وأنة لم يبق لبني غانية إلا أن يعملوا على توطيد أمرهم بإفريقية ، وأنه لابد لتحقيق
هذه الغاية أن يسحق سلطان الموحدين نهائياً في تلك المنطقة . وكان يحيى
قد ظفر عندئذ بالاستيلاء على المهديّة ، والقضاء على خصمه ابن عبد الكريم .
ففكر عندئذ في الاستيلاء على تونس عاصمة إفريقية . وكانت سائر الثغور
الشرقية ، وسائر القواعد الجنوبية القريبة من تونس قد سقطت في يد يحيى ،
وجردت العاصمة من سائر مواردها المعتادة ، وكان والى إفريقية السيد أبو زيد
لا يحتكم على قوى كافية للدفاع . ومن جهة أخرى ، فإن انشغال الموحدين في نفس

هذا الوقت بالذات ، بتسيير حملتهم الكبيرة إلى الجزائر ، كان يحول دون إرسالهم
الأمداد العاجلة إلى إفريقية . ومى ثم فإن الظروف كلها كانت مؤاتية لمشروع
يحي الميورقي . فاستعمل على المهديّة ابن عمه على بن الغاني بن عبد الله بن محمد
ابن غانية ويعرف بالكافي . وسار في قواته وعُدده صوب تونس ، وذلك في أوائل
شهر ذي الحجة سنة ٥٩٩ هـ ، ونزل بالجبل الأحمر في ظاهر تونس ، ونزل أخوه
الغازي بن إسحق بالموضع المعروف بحلق الوادي حيث يتصل البحر بالبحيرة
شرقي المدينة ، فردم المجرى الموصل بينهما وجعله أرضا يابسة ، ورتب عليه
الحرس ، وقطع بذلك سير القوارب الداخلة إلى المدينة والخارجة منها ، ثم تحول
إلى قبلي المدينة ، على مقربة من باب الجزيرة وردم الخندق المواجه له ، ونصب
أمام الباب المجانيق وآلات الحرب ، وضرب الميورقيون حول تونس حصاراً
صارماً ، ولم يجرؤ الموحدون على الخروج من المدينة ، والاشتباك مع العدو في أية
معركة ، لقلّة عددهم ، وضآلة مواردهم . واستمر هذا الحصار المرهق أربعة أشهر .
وفي يوم السبت السابع من شهر ربيع الآخر سنة سبائة (١٥ ديسمبر سنة ١٢٠٣ م) ،
اقتحم يحي في قواته البلد ، وقبض على واليها السيد أبي زيد وولديه ، وجماعة
من أشياخ الموحدين ، وثقفوا بمكان بداخل القصبة تحت حرس قوى ، وأعلن
يحي الأمان لأهل تونس في أنفسهم وأموالهم ، ولكنه فرض عليهم غرامة قدرها
مائة ألف دينار ، قال إنها هي مقدار ما أنفقه في الاستيلاء عليها ، وقسّطت هذه
الغرامة على أهل المدينة وفق أحوالهم المالية ، وعهد باقتضائها إلى كاتبه الأثير
ابن عصفور ، وإلى أبي بكر من عبد العزيز السكاك من أهل المدينة ، فاشتطوا
في تحصيل المال ، ولحق الناس من ذلك منتهى الإرهاق والعنت ، وقتل منهم
كثير بسبب ذلك ، وانتحر إسماعيل بن عبد الرفيح المقدم على قبض مال الخزن
وغيره من الناس ، فلما علم الميورقي بذلك ، أمر برفع ما بقي من الغرامة عن
الناس ، ونودى فيهم بالأمان . وعلم الميورقي بعد ذلك أن أهل جبل نفوسة
توقفوا عن أداء الإتاوة المفروضة عليهم ، وكان أهل هذه المنطقة معظمهم من
الخوارج ، وكانوا يبغضون نير الموحدين ونير بني غانية معا ، ويثيرون
من آن لآخر محافظة على استقلالهم . فخرج إليهم يحي بنفسه ، واستصحب
معه السيد أبا زيد وزملاءه من الموحدين المعتقلين ، مبالغة في التحفظ عليهم ،
وفرض على أهل نفوسة ألفي دينار . ولما انتهى من اقتضاها منهم

بوسائله المروعة ، عاد إلى تونس واستقر بقصبتها^(١) .

وهكذا تم ليحيى بن إسحاق الميورقي الاستيلاء على عاصمة إفريقية ، ولم يبق بيد الموحدين من إفريقية ، بعد أن سقطت جميع قواعدها الشرقية والداخلية في يد الميورقي ، سوى ثغر بجاية ، وما يليه غرباً . وكان لسقوط تونس ، وما اقترن به من أسر والها وزملائه من أشياخ الموحدين ، وقع عميق في بلاط مراکش . وكان مما يضاعف هذا الوقع ، ما يتركبه الميورقي باستمرار من ضروب العبث والقمع والقسوة ، في مختلف القواعد التي يسيطر عليها . وكان الموحدون ، بعد أن ظفروا بالاستيلاء على ميورقة ، وجردوا بني غانية بذلك من ملاذهم ومركز سلطانهم في الأندلس ، يرون أن الوقت قد حان للقضاء على سلطانهم بإفريقية ، وتحريرها من نيرهم ومن عيثهم ، واسترداد سلطان الموحدين ، والعمل على توطيد هيبتهم في تلك الأنحاء . بيد أن الموحدين كانوا يشعرون في نفس الوقت بفداحة هذه المهمة ، ومن ثم فإن الخليفة الناصر حينما شاور الأشياخ في ذلك الأمر ، رأى معظمهم أن يكتفى بمسألة ابن غانية والاتفاق معه ، ولكن أبا محمد بن الشيخ أبي حفص أشار بوجوب السير إلى إفريقية ، ومحاربة ابن غانية ، ووافق الناصر على هذا الرأي .

وكان الناصر في الوقت الذي سار فيه الموحدون لفتح ميورقة ، أعنى في سنة ستائة ، يقيم بحضرة مراکش ، ويعنى بشئون الأندلس الإدارية والعسكرية ، وكان من أهم ما عنى بذلك إرسال الأوامر المؤكدة إلى سائر ولاية الأندلس بالنظر في صنع الآلات الحربية . ففي شهر المحرم من هذا العام ، وصل الأمر إلى إشبيلية بضرب الآلات وشراء الدروع المحكمة . وفي شهر ربيع الأول ندب الناصر عمه السيد أبا إسحق بن يوسف بن عبد المؤمن لولاية إشبيلية ، مكان الشيخ أبي عبد الله ابن يحيى ، الذي نقل إلى ولاية بسطة . وولّى السيد أبا محمد عبد الواحد بن يوسف ابن عبد المؤمن على مدينة شلب وبلاد غربي الأندلس ، والشيخ أبا يحيى بن أبي سنان على مدينة بطليوس وجهاتها . وندب أبا عبد الله بن عبد السلام الكومي لقيادة أسطول ستة . وفي نفس العام وصل إبراهيم بن الفخار اليهودي رسول

(١) رحلة العجاني ص ٣٥٤ - ٣٥٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٥ و ٢٤٨ .

ألفونسو التاسع ملك قشتالة ووزيره ، إلى مراکش ، يطلب تجديد المهادنة .
فلما ترامت الأنباء بسقوط تونس في يد الميورقي ، واشتداد عيئه وبطشه
بأنحاء إفريقية ، وعقد الخليفة الناصر عزمه على محاربته والقضاء على سلطانه ،
أعدت حملة موحدية جديدة للسير إلى إفريقية ، وصدرت الأوامر إلى الأسطول
بالسير من سبتة إلى مياه إفريقية ، وعين لقيادة وحداته أبو يحيى بن أبي زكريا
الهزرجي . وكان يحيى الميورقي في ذلك الوقت بالذات ، ما يزال ينزل ضرباته
بمختلف أنحاء إفريقية ، وكان بعد أن قام بإخماد ثورة أهل جبل نفوسة ، قد سار
إلى ناحية طرّة قاعدة بلاد نفزاوة لإخماد ثورتهم أيضاً ، فافتحم أحياءهم ،
واشتد في معاقبتهم ، وقتل جنده كثيراً منهم ، وأضرمو النار في دورهم ، ثم
سار إلى حمة مطاطة ، ففعل بأهلها مثل ذلك ، وضجت هذه الأنحاء كلها من
سفكه وشديده عيئه^(١) .

هذا وبينما الميورقي سادر في هذا العيث والسفك ، إذ بلغته الأنباء باقتراب
القوات الموحدية ، وعلى رأسها الخليفة الناصر . وكان الناصر قد غادر مراکش
على رأس قواته في أواسط جمادى الآخرة سنة ٦٠١ هـ (فبراير سنة ١٢٠٥ م)
وسار إلى رباط الفتح قاعدة تجمع الجيوش الموحدية . ثم غادر رباط الفتح
في قواته متجهاً صوب إفريقية ، وكانت وحدات الأسطول الموحدي ، تسير
في نفس الوقت بجذاء الشاطئ ، صوب بجاية وتونس ، بقيادة أبي يحيى بن أبي
زكريا الهزرجي . فلما علم الميورقي باقتراب الأسطول الموحدي من تونس ، ووصول
الجيش الموحدي إلى بجاية ، وأدرك أنه لا قبل له بالصمود أمام هذه القوى الحارقة
جمع أمواله وذخائره ، وأرسالها إلى المهدية ، لتكون تحت حراسة ابن عمه على
ابن الغاني ، ثم بادر بإخلاء تونس ، وارتد في قواته جنوباً ، فوصل إلى
القيروان وأقام بها أياماً ، وهو يجدي الأهبه ، ثم سار إلى قفصة ، وهناك
استدعى طوائف العربان ، وبذل لهم الأموال والوعود ، وأخذ مواثيقهم
ورهانهم على مناصرته والقتال معه . ووقف الموحدون على انسحاب الميورقي
من تونس ، فنزلتها القوات البحرية الموحدية ، وقتلوا كل من وجدوه
بها من أتباع الميورقي ، وأصدر قائد الأسطول الأمان لأهلها . ولما علم الناصر
باستيلاء قواته على تونس ، وفرار الميورقي في قواته نحو الجنوب ، سار في أثره

صوب قفصة . فسار الميورقي في قواته إلى جبل دمر ، وتحصن به . وسار الناصر إلى قفصة ، فأقام بها أياماً ، ثم توجه إلى قابس وندب لها عاملاً من قبله . وكان يحيى الميورقي قد قرر أن يركز مقاومته الأخيرة في المهديّة ، فضاعف تحصيناتها ، وشحنها بطائفة من قواته المختارة ، ووكل الدفاع عنها لابن عمه علي بن الغازي . واستعد هو للقاء القوات الموحدية بمكانه الحصين من جبل دمر ، وقرر الموحدون من جهة أخرى مطاردة الميورقي في مركزي مقاومته في وقت واحد ، فسار الناصر بنفسه لمحاصرة المهديّة ، وطوقها بقوات كثيفة من الموحدين والعرب ، ونصب عليها المخانيق ، وسار إليها الأسطول الموحدى ليحصرها من ناحية البحر . وبعث الناصر في نفس الوقت جانباً من القوات الموحدية محتوي على أربعة آلاف فارس بقيادة الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص لمقاتلة الميورقي في جبل دمر ، فلما أشرف الموحدون على محلته ، وشهد ضخامة عددهم ، أراد الفرار بقواته في البداية ، ولكن ضباطه شجعوه على الثبات وخوض المعركة ، فنشبت بين الفريقين فوق جبل صغير يعرف برأس تاجرًا ، على مقربة من وادى مجسر ، جنوب شرقي قابس^(١) معركة دموية عنيفة ، استمرت نحو ثلاث ساعات ودارت فيها الدائرة على الميورقي وأصحابه ، فقتل وأسر معظمهم ، وكان بين القتلى أخوه جبارة ، وكاتبه علي بن اللمطي ، وعامله الفتح بن محمد ، وفر يحيى مع جماعة قليلة من صحبه ، وكان قد ترك ولده وأهله في موضع بعيد عن مكان المعركة فصحبهم في فراره ، وأنقذوا بذلك من الأسر ؛ واستطاع الشيخ أبو محمد القائد المظفر أن ينقذ السيد أبا زيد وأصحابه أحياء من أسر الميورقي ، وكان الموكل بالسيد أبي زيد على وشك أن يجهز عليه ، واستولى الموحدون على محلة الميورقي ، ورايته العباسية السوداء ، وسائر ما كان بالمحلة من الأموال والأسلاب والإبل ، وكانت غنيمة وافرة تحتوي على ثمانية عشر ألفاً من أحمال المال والمتاع والآلات ، وحمل ذلك كله إلى الخليفة الناصر ، وهو تحت أسوار المهديّة ، وكان بين الأسرى الأمين الموكل بثقاف السيد أبي زيد ، فشهر به فوق جبل عال ، ويده الرابطة السوداء ؛ ووقعت هذه الهزيمة الساحقة بالميورقي بجبل تاجرًا في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ (١٧ أكتوبر سنة ١٢٠٥ م)^(٢) .

(١) تراجع خريطة إفريقية المنشورة في ص ١٦٣ ففيها بيان لمواقع هذه المعركة .
(٢) رحلة التجاني ص ٣٥٧ - ٣٥٩ ، وروض القرطاس ص ١٢٣ و ١٢٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢٠ و ٢٢١ ، وراجع أيضاً : A. Bel : Les Benou Ohania, p. 129

وكان الموحدون في تلك الأثناء يضاعفون جهودهم للضغط على المهديّة ، وإرغامها على التسليم . وكان يحيى الميورقي ، توقعاً لهذا الحصار ، قد بالغ في اتخاذ الأهبة ، وشحن المهديّة بالرجال والمؤن . وكان حاكم المدينة على بن الغازي جندياً جريئاً ، ومدافعاً قوى الشكيمة ، فبذل جهوداً عنيفة لرد المحاصرين ، وخرج لقتالهم عدة مرات ، وفي كل مرة يوقع بهم ويحرق مجانيةً بهم وآلاتهم ويسبب لهم خسائر شديدة ، واضطر الموحدون لإزاء ذلك إلى الإكثار من المجانيق والآلات ، وإعداد السلاطم والأبراج العالية للإشراف على المدينة ، ومضاغفة الحشود حولها ، واستمر الأمر على هذا المنوال ، حتى وقعت معركة رأس تاجراً ، وهزم يحيى وألجئ إلى الفرار ، وحمل الموحدون الغنائم والعلم الأسود إلى الناصر تحت أسوار المهديّة ، وقاموا بتبريز الغنائم ، وتوزيعها بمشهد ظاهر من أهل المدينة المحصورة . ومع ذلك فإن الغازي وصحبه لبثوا حيناً غير مؤمنين بهزيمة يحيى ، واستمرت المعارك بينهم وبين المحاصرين وقتاً ، وجمع الناصر المجانيق على جهة واحدة من السور ، وشدد في ضرب المدينة ، فكثرت القتلى والجرحي من أهلها ، واضطر الغازي وصحبه أخيراً إلى طلب الأمان والتسليم ، على أن يُسمح لهم باللاحق بيعي ، فوافق الناصر على طلبهم ، وسامت المدينة للناصر في اليوم السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٠٢ هـ (١١ يناير سنة ١٢٠٦ م) وغادر على بن الغازي - وكان الموحدون يسمونه بالحاج الكافر - المدينة مع صحبه ، ونزل بموضع قريب منها بنية اللحاق بيعي ، ولكنه عاد في اليوم التالي ، فعدل عن هذه النية ، وبعث إلى الناصر يعلن طاعته ودخوله في الدعوة الموحدية ، فاغتنب الناصر بتوحيده ، واستدعاه إليه ، وغمره بعطفه وإكرامه ، وصحبه معه فيما بعد إلى مراكش ، ولما عبر الناصر البحر بعد ذلك إلى الأندلس بقصد الجهاد ، سار على معه ، واشترك مع الموحدين في معركة العقاب ، وقتل ضمن من قتل منهم (١) .

وفي يوم عشرين من جمادى الآخرة ، غادر الناصر المهديّة ، بعد أن عفا عن سائر أهلها ، من المقاتلين وغيرهم ، وأمر بترميم أسوارها ، وتنظيم أمورها ، وعين لها والياً هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن يغمور الهنتاقي ، وعين لولاية طرابلس عبد الله بن إبراهيم بن جامع . ثم سار إلى تونس ، ومنها أصدر كتب الفتح ، واستقر بها بقية عام اثنين وسبعمائة ، ومعظم العام التالي .

(١) رحلة التجاني ص ٣٥٨ و ٣٥٩ ، وروض القرطاس ص ١٥٣ و ١٥٤ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٢٠ و ٢٢١ و ٢٢٣ .

وهكذا انتهت هذه المعركة العنيفة الشاملة، بسحق يحيى بن إسحاق الميورقي ،
وسحق سلطان بنى غانية فى إفريقية ، واسترداد الموحدين لسلطانهم وهيبتهم ،
فى تلك المناطق الغنية الآهلة . وكان قد مضى نحو ربع قرن ، منذ نفذ بنو غانية
أصحاب الجزائر الشرقية ، مشروعاتهم فى مهاجمة إفريقية ، واتخاذها مسرحاً
للصراع ضد الموحدين خصوم الدولة المرابطية والمنزعين لثرائها ، ومنذ استولى
عميدهم على بن إسحاق بن غانية الميورقي ، على ثغر بجاية فى سنة ٥٥٨٠ (١١٨٤ م)
فى أوائل عهد الخليفة المنصور . وقد تتبعنا حركات بنى غانية ومغامراتهم
فى إفريقية من ذلك التاريخ ، وأتينا على فتوحاتهم المتوالية للقواعد والثغور
الإفريقية ، وعلى ما نشب بينهم وبين الموحدين ، فى مختلف المواطن والتواريخ ،
من معارك مريعة مستمرة . ولقد كان بنو غانية رجال حرب وسياسة معا ،
يبغون افتتاح الأقطار ، وبسط السيادة والسطان على ما يفتحونه من الأراضى ،
ولكن كانت تحفزهم إلى خوض هذه المعارك مع الموحدين مشاعر ومثل خاصة ،
فقد كانت تجثم وراء هذه المعارك والفتوحات المتوالية ، إلى جانب شهوة السلطان
والملك ، رغبة مضطربة فى تقويض أسس الدعوة الموحدية ، والقضاء
على سلطان الموحدين . وكانوا يرون الدعوة الموحدية ، دعوة ختل وخداع ،
ويعتبرون الموحدين غاصبين آثمين ، استولوا بغير حق ولا سند شرعى ، على
تراث الدولة المرابطية غدراً وظلماً ، ويعتبرون المرابطين سادتهم وحماهم
الأوائل ، وبنى قبيلهم وجلدتهم ، مجاهدين شهداء ، يجب الانتقام لهم ،
والانتصاف لحقهم المغضوب .

كانت هذه العواطف والمثل هى التى تحرك بنى غانية فى البداية إلى شهر
صراعهم ضد الموحدين فى إفريقية ، ولكنهم بعدما تحقق لهم الظفر فى ذلك
الصراع ، وبعد أن استولوا على معظم القواعد والثغور الإفريقية ، ونعموا
بالملك والسلطان ، وامتلاأت أيديهم من الأموال والغنائم ، تحولوا إلى فئة من
المغامرين ، تقصد قبل كل شىء إلى تحقيق الغنم والسلطان بأى الوسائل ، وتضاءل
لون المعركة المذهبية والمثالى شيئاً فشيئاً ، واستحال إلى صراع مادى على امتلاك
تلك المنطقة الغنية الآهلة — إفريقية — وانزاعها من أيدي الموحدين ، لتغدو
غنى لبنى غانية . وقد أسفر هذا الصراع عن تحقيق أمنية بنى غانية كاملة ، واستطاع

يحيى بن غانية ، بعد فترة قليلة من مصرع أخيه على بن غانية ، أن يفتح سائر القواعد والثغور الإفريقية - القيروان وسوسة والمهدية وصفاقس وقفصة وبلاد الحريد ، وجبل نفوسة وطرابلس وغيرها ، وانتهى أخيراً بأن افتتح تونس ذاتها ، وتغلب على خصومه من الغز في المنطقة الشرقية ، وسحق سائر الحملات الموحدية التي وجهت لقتاله ، ولم يبق بيد الموحيدين من إفريقية سوى بجاية ، وما يليها من الشاطئ .

على أن هذه المملكة العظيمة ، التي استطاع يحيى بن غانية أن يبسط عليها سلطانه ، لم تكن وحدة متماسكة متناسقة ، فقد كان سكانها يتألفون من عناصر مختلفة متنافرة ، من العرب والبربر ، وكان من بينها في الجنوب في جبل نفوسة ، وما يليه ، طوائف من الخوارج لاتدين بالولاء لأحد . ولم يكن يحيى بن غانية بالرغم من براعته وبسالته كمجندى وقائد ، يتصف بشيء من المقدرة الإدارية والنظامية ، ولم يستطع بالرغم من ظفره على خصومه في معظم المعارك التي خاضها ، أن ينشئ في البلاد التي افتتحها أية نوع من الحكومة المنظمة ، بل كان يجري في حكمها على نوع من الارتجال الخطر ، وكانت أساليبه في الحكم هي أساليب الطاغية المطلق ، أعني حكم عسف وهوى ، لا يعرف معنى للحق والعدل ، فلم يكن ثمة في ظله ضمان للنفس أو الأموال أو الحرم ، بل كان يتميز قبل كل شيء بالقتل والغصب واستباحة الحرم ، وعلى الحملة ، فلم تكن حكومة الميورقي ، وعماله في تلك الأقطار ، سوى حكومة عصابات ناهية تعتمد في تدعيم سلطانها على الإرهاب المطبق . وكان يحيى لا يدخر وسعاً في استلاب المال بكافة الوسائل ، ينفق منه على حملاته ومشاريعه الحربية التي لا تنتهي ، ويبدل الوفير لأحلافه من طوائف الإعراب القلّب الذين لا يحبو لهم جشع . وقد رأينا ما كان من بالغ جشعه واشتطاطه في فرض الغرامات على أهل تونس ، وجبل نفوسة ، وما اقترن باقتضائها من رائع السفك والتقتيل .

وقد كان حرياً يمثل هذا الحكم أن يثير بغض سائر الحكوميين ومقتهم وأن يحفزهم إلى ترقب انهياره والخلاص منه . وهكذا كان سلطان بني غانية ، يقوم على بركان من البغض الخطر ، الذي لا يلفظ منه أى عطف أو ولاء . وبالرغم من أن حكم الموحيدين لإفريقية لم يكن حكماً مثالياً ، فقد كان على الأقل حكماً نظامياً ، في معنى من المعاني ، وكان بعيداً عن مثل هذه الفظائع ، التي كانت تصم حكم

بنى غانية باستمرار ، ومن ثم فإنه لم يكن غريباً أن يتوق أهل المدن الإفريقية إلى عودة الحكم الموحدى ، وأن يستقبلوا الحيوّش الموحدية بالترحيب والرضى ، وأن يتهجوا لسقوط الميورقي وانهيار سلطانه .

تلك هى الظروف والعوامل التى اجتمعت لتقوض سلطان بنى غانية فى إفريقيا ، ولتحول انتصارات يحيى الميورقي وفتوحاته ، إلى حملات ناهبة غير مستقرة الدعائم ، ولتجعل من حكمه لتلك المملكة الغنية الشاسعة ، حكم غصابة مغامرة ، ولتحمل إليه فى النهاية عوامل الانهيار والسقوط .

على أن يحيى الميورقي ، بالرغم من هزيمته الساحقة فى جبل تاجرا ، ومن فقدته لأمواله وعتاده ، ومعظم صحبه ، وفراره فى فلوله شريداً إلى الصحراء الجنوبية ، لم ييأس مع ذلك ، ولم تنكسر نفسه الوثابة ، ولم تحب قواه المعنوية ، ولم يعتبرها كلمة الفصل النهائية ، فى معركته مع الموحدين ، وسوف نراه عما قريب ينزل إلى ميدان النضال والصراع مرة أخرى ، مزوداً بقوى جديدة ، وآمال جديدة .

- ٥ -

كان أهم ما عنى به الناصر خلال إقامته بتونس ، هو أن يتخذ كل إجراء ممكن ، لتأمين إفريقيا ، وتوطيد سلطان الموحدين بها ، والحيلولة دون قيام أمر بنى غانية مرة أخرى . وكان يحيى الميورقي على أثر هزيمته الساحقة فى موقعة تاجرا ، قد فر فى فلوله حسباً تقدم إلى الواحات الجنوبية ، بيد أنه لم يكن ثمة ما يدل على أنه قد سحق بصورة نهائية . ومن جهة أخرى فقد كانت توجد ثمة طوائف أخرى من البربر والأعراب فى الجهات الجنوبية ، دائبة الشغب والعصيان . ففي شهر صفر سنة ٦٠٣ هـ ، وجه الناصر وهو ما يزال بتونس حملة موحدية جديدة ، تحت إمرة أخيه السيد أبى إسحق ، إلى الأطراف الجنوبية لاستئصال أهل الشر والفساد ، فسارت هذه الحملة ، وهى تتقصى آثار « الأشقياء » شرقاً وغرباً ، حتى وصلت إلى أحواز طرابلس ، وقامت بردع بنى دمر ، ومطماطة ، ووصلت إلى آخر جبال نفوسة ، وهى تعمل على مطاردة العناصر المشاغبة وسمحقها ، ثم عادت إلى تونس بعد أن قامت بتأدية مهمتها ، دون أن تلقى معارضة أو مقاومة^(١) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٢٣ و ٢٢٥ .

على أن أنجح إجراء اتخذه الناصر لتأمين إفريقية هو إسناده ولايتها إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتي ، وهو الظافر في معركة تاجرا . وكان أبو محمد يومئذ عميد أشياخ الموحدين ، وأعلامهم مكانة ، وأشدّهم نفوذاً لدى الخليفة . وكان يمت إلى الخليفة بصلة النسب الوثيق ، إذ كان متزوجاً أخته ابنة الخليفة المنصور . وكان الناصر يثق بحكمته ، وسديد رأيه ووافر مقدرته . وقد اعتذر أبو محمد بادي ذي بدء عن قبول هذا المنصب ، وشعر أنه نوع من الإبعاد له عن البلاط ، والمشاركة في الحيل من الشئون ، فبعث الناصر إليه ابنه وولى عهده الفتى يوسف ، ليقنعه بالقبول . ويفصل لنا التجاني في رحلته ، ما قاله ولي العهد للشيخ ، وما نوه به من أهمية إفريقية ، وماضحى به الموحدون في سبيلها من المال والرجال ، وأن الخليفة لم يجد عن اختيار الشيخ معدلاً ، وقد أكبر الشيخ حركة الخليفة ومقدم ولي عهده ، فأبدى قبوله لولاية إفريقية ، بشروط خلاصتها أنه لا يبقى في منصبه إلا بقدر ما تصاح أحوال إفريقية ، وينقشع خطر الميورقي عنها ، وهو يقدر لذلك ثلاث سنين ، وأن يختار من قوات الجيش من يرى بقاءهم معه ، وألا يُسئل عن تصرفاته كائنة ما كانت ، وأن يُخبر في أمر الولاة الذين اختارهم الخليفة لبلاد إفريقية ، فيبقى من يشاء ويعزل من يشاء ، فقبل الناصر كل شروطه . ثم أزمع الرحلة إلى المغرب ، فغادر تونس في السابع من شهر شوال سنة ٦٠٣ هـ ، وصحبه الشيخ أبو محمد مدى ثلاثة أيام . وحدث عند خروج الناصر أن مثل بين يديه أهل تونس وأبدوا له خوفهم ، من أن يعود الميورقي إلى عدوانه ، بعد سفره ، فاستدعى الناصر أعيانهم ، وطمأنهم بوجود الشيخ أبي محمد على رأس الولاية ، وأنه أثرهم بوجوده رغم شدة حاجته إليه ، فاطمأن الناس لقوله واستبشروا بولاية الشيخ^(١) .

وسار الناصر أولاً إلى تلمسان ، فوصل إليها في أوائل شهر ذي الحجة ، واستقر بها وقتاً ، وأنفذ منها الأوامر إلى ولاية إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبسطة وألمرية ومرسية ، لموافاته مع أتباعهم . وكان عند خروجه إلى غزوته في إفريقية ، قد أمر بعزل السيد أبي إسحق عن ولاية إشبيلية ، وقدم عليها أخاه السيد أبا موسى . وقضى أيام عيد النحر بتلمسان ، وبقي بها حتى نهاية ذي الحجة ، ثم غادرها إلى مدينة فاس ، ونزل بها في أوائل شهر المحرم سنة ٦٠٤ هـ ، واستأنف بها النظر في

(١) رحلة التجاني ص ٣٦١ و ٣٦٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٨ و ٢٤٩ .

الأعمال ، وشكا إليه أهل فاس من مظالم عاملهم أبي الحسن بن أبي بكر ، كما شكا إليه أهل مكناسة من مظالم عاملهم أبي الربيع بن أبي عمران ، فأمر بالقبض عليهما ، واستصفاء أموالهما : ثم رحل إلى مكناسة ، ونزل بها في صفر ، وأصابته هنالك وعكة ، يبدو أنها كانت من أثر مرض وبائي فشا ببلاد الأندلس وانتقل إلى العدو . فلما تماثل للشفاء ، غادر مكناسة إلى رباط الفتح ، فوصل إليها في شهر ربيع الأول ، ثم رحل منها مباشرة ، إلى مراكش ، فوصلها بعد أيام قلائل^(١) . وماكاد الناصر يستريح من وعاء السفر ، حتى عاد إلى النظر في الأعمال السلطانية ، فقدم أبا محمد عبد العزيز بن عمر بن أبي زيد على الأشغال بالعدوتين المغرب والأندلس . وكان أبو سعيد بن جامع متولياً للوزارة ، فبقى على ما كان عليه ، وكانت تربطه بعبد العزيز بن أبي زيد روابط الصداقة . ووصل معظم العمال مع أتباعهم وكتابهم ، وفقاً للأمر الصادر بذلك ، وأخذ في تصفح أعمالهم ومراجعتها ، وكان ممن وصل من العمال بالأندلس ، يوسف بن عمرو الكاتب ومؤرخ الخليفة المنصور ، وكان يتولى النظر على بعض الأشغال الخزنية والسهام السلطانية ، وكان قد لحقت بتصرفاته بعض الريب ، فماكاد يقترب من الحضرة حتى أحيط بأعماله ومتاعه وقبض عليه وثقف ، ثم فتحت أعماله وأمنعته بحضور الشهود وروجعت ، فلم يوجد بينها شيء مما يدينه ، فأمر الخليفة بإطلاق سراحه ، ورد ماله ومتاعه إليه ، وكان مما شفع له في ذلك عند الناصر ، كتابه الذي ألفه في محاسن والده المنصور^(٢) .

وفي هذا العام توفي السيد أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن والي بجاية ، وكان قد قام بتجديدها عقب الحريق الذي أصابها وخرب كثيراً من ربوعها . وفي العام التالي أعنى ستة خمس وسبعمائة أقيال السيد أبو الحسن بن عمر والي تلمسان لمرضه وعجزه عن ضبط الأمور ، واضطراب قبائل زناتة في تلك المنطقة ، وعين مكانه في الولاية السيد أبو عمران موسى أخو الخليفة ، فقدم إلى تلمسان ومعه عسكر من الموحدين ليستعين بهم في ضبط الأمن والسكينة في تلك المنطقة . وفي تلك الأثناء كانت الحوادث في إفريقية قد عادت إلى اضطرابها ، وعاد يحيى الميورقي إلى استئناف نشاطه ومغامراته . وكان مذ لحقت به

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ ، والبيان المغرب ص ٢٢٧ و ٢٢٨ .

الهزيمة الساحقة ، بجبل تاجرا ، وارتد بقلوله إلى الجنوب ، يرقب القرص
للانتقام واسترداد شيء من سلطانه الضائع . وكان ما يزال يلتف حوله بعض
طوائف من حلفائه الأعراب ، الذين بقوا إلى جانبه بالرغم من محنته . وقد أشرنا
من قبل غير مرة إلى الدور الذي كانت تقوم به طوائف العرب في أرجاء
إفريقية ، من احتراف الحرب ، والتقلب في محالفة مختلف الجهات . وكان
بنو غانية يعتمدون بالأخص على معاونة العرب في سائر مشاريعهم الحربية .
وكان يحيى الميورقي يجمع حوله كثيراً من حشودهم ، ويأسرهم بوافر بذله ،
وإطلاق أيديهم كلما سنحت القرص ، في أعمال السلب والنهب . وكذلك كان
الموحدون يعتمدون على بعض طوائف العرب في تزويد جيوشهم بفرق المرتزقة .
فلما حلت الهزيمة بيحيى وتحطم سلطانه ، تركه كثير من حلفائه العرب السابقين ،
وانضموا إلى جانب الموحدين الظافرين ، وكان من هؤلاء بنو مرداس وبنو عوف
من بطون بني سليم ، وكانت أحيائهم تقع في المنطقة الممتدة من قابس نحو بونة ،
أما بنو زغبة فقد كانوا أصلاً من خصوم بني غانية ، ولم ينقطعوا عن محاربتهم
قط ، وكانوا دائماً إلى جانب الموحدين ، ثم تحالفوا بعد ذلك مع بربر زناته
الضارين في المغرب الأوسط ، واستمرت المصادمات بينهم وبين بني غانية .
بيد أن يحيى استطاع بالرغم من محنته أن يستبق إلى جانبه بالأخص ، حشوداً كبيرة
من رياح وسليم ، ومن الزواودة من بطون رياح ، وشيوخهم محمد بن مسعود
الباطل لم يفارقه في ضرائه .

فلما غادر الخليفة الناصر ، تونس ، وسار في معظم قواته صوب المغرب ،
في أواخر سنة ٦٠٣ هـ ، أخذ يحيى الميورقي يتأهب للنهوض والحركة مرة أخرى ،
ثم سار على رأس جموعه نحو الشمال ، وهو يعيث حيثما حل ، وكان الشيخ أبو محمد
الحفصى والى إفريقية ساهراً ، يرقب عن طريق عيونه حركات الميورقي ، فلما
ترامت إليه الأخبار بتحركه ، خرج في جيش من الموحدين والعرب ، من بني عوف
وسليم ومرداس ، وسار توا للقائه . والتقى الفريقان في منطقة تبيشة على ضفة
وادي شبرو ، واقتتل الفريقان بشدة وعنف ، واستمرت المعركة طول اليوم ،
وأسفرت في النهاية عن ظفر الموحدين وهزيمة المرابطين الميورقيين ومن
معهم من العرب ، فارتد يحيى في قلوه وهو جريح ، والموحدون في أثره ،
ولكنه استطاع أن يلحق بالصحراء في اتجاه طرابلس ، واستولى الموحدون على

محله وسائر عتاده وأسلابه ومتاعه ، وكانت غنيمة وافرة ، وتمت هذه الهزيمة على يحيى الميورقي في ٣٠ ربيع الأول سنة ٥٦٠٤ (٢٤ أكتوبر سنة ١٢٠٧ م) . ورجع أبو محمد إلى تونس مكلا بغار الظفر ، وكتب إلى الناصر بالفتح ، واستنجزه وعده في الإقالة من منصبه ، فبعث إليه الخليفة يشكره ويعتذر له بانشغاله بشئون المغرب ، ويرجوه الاستمرار في النظر ، وبعث إليه بالمال والخيل والكسي للإتفاق والعطاء ، وبلغ ما أرسله من المال وحده مائتي ألف دينار^(١) .

على أن هذه الهزيمة الثانية لم تفت في عضد يحيى بن غانية ، ولم تخمد أديبه عزم التوثب والنضال ، فجمع أشتات قواته مرة أخرى ، ورأى تلك المرة ، تجنباً للصدام مع أبي محمد ، وتفادياً لضربات القاصمة ، أن يتجه نحو المغرب ، فسار في جموعه من المرابطين وطوائف العرب ، متجهاً صوب الجنوب الغربي ، وهو يبعث قتلاً ونهباً أينما حل ، وتحالف مع بطون زناتة الضاربة في تلك الأنحاء ، واستمر في سيره حتى وصل إلى واحات سجلماسة ، ثم هاجم سجلماسة واقتحمها ، ونهبها ، وفرق الغنائم في أصحابه ، وكانت وفيرة ، فانتعشت نفوسهم . وكان وصول الميورقي على هذا النحو إلى أعماق المغرب ، واقتربه من العاصمة الموحدية ، مثار الدهشة والروع بين الموحدين ، ونهض الشيخ أبو محمد في قواته مرة أخرى للقاء الميورقي عند العود ، وبعث إلى والي تلمسان السيد أبي عمران موسى يحذره من مفاجآت الميورقي ، وأن يتجنب لقاءه ، وكان السيد أبو عمران قد خرج من تلمسان يحوس بين قبائل زناتة الضاربة في جنوبها ، يسترضيهم ، ويستميلهم إلى أداء الجزايات ، والتزام الطاعة والسكينة . وكان بين قوات الميورقي كثير من بطون زناتة ، الخوارج على طاعة الموحدين ، فاتصل بهم زملاؤهم زعماء زناتة المقيمين في جنوبي تلمسان ، وعرفوا الميورقي بظروف السيد أبي عمران ، وعدم استعدادهم وضعف قواته ، وابتعاده عن مدينته المحصنة ، فسار الميورقي نحو الشمال حتى اقترب من جنوبي تلمسان . وعلم السيد أبو عمران

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ و ٢٧٨ . وقد جاء في « العبر » أن مبلغ ما أرسله الخليفة من مال كان « مائة ألف دينار ثنتان » . ومعنى ذلك أن المال بلغت جلته مائة مليون دينار . وهذا رقم يصعب تصديقه ، ولا يتفق بأى حال مع تقديرات العصر وموارده . وربما كان هناك تحريف في النص .

مقدمه وتردد وقتاً في لقائه . ولكن الميورقي لم يلبث أن فاجأه بمجموعه من المرابطين والعرب . واضطر السيد أن يلقاه في قواته القليلة ، وتكاثر المرابطون والعرب على القوات الموحدية ، وفتكوا بها ، وصمد السيد أبو عمران ومن معه ، فقتلوا جميعاً ، وأسر بعض بني السيد ، والكاتب أبو الحسن بن عياش ، وبعض طلبة تلمسان ، واستولى الميورقي على المحلة الموحدية وسائر ما فيها من العتاد والسلاح والخيول ، واقتحمت مدينة تاهرت ونهبت وخربت حتى غدت أطلالاً (٥٦٠ - ١٢٠٩ م) ، وانتشرت جنود الميورقي من المرابطين والعرب في أحواز تلمسان ونهبوها ، وانتسفوا زروعها ، فارتاع أهل المدينة ، وأغلقوا أبوابها ، وهم يتوقعون أسوأ مصير ، وبادر السيد أبو زكريا يحيى والى فاس في قوة من الموحدين ، فوصل مسرعاً إلى تلمسان ، وطمان أهلها وسكن روعهم . وأمر الناصر في نفس الوقت بتجهيز حملة كبيرة من قوات مختارة ، زودت بوافر العدد والأقوات ، وعين لولاية تلمسان الوزير أبا زيد بن يوجان ، وقدمه على العسكر ، فسار ابن يوجان في قواته إلى تلمسان ، وعلم يحيى الميورقي بهذه الاستعدادات الضخمة كلها ، فغادر منطقة تاهرت في قواته ، وقصد إلى الصحراء متجهماً نحو طرابلس ، ومعه محمد بن مسعود شيخ الزاودة ، وطوائف رياح وسليم وغيرهم^(١) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى اعتزم يحيى بن غانية أن يستأنف غاراته . وكانت نفسه قد قويت بما أحرز من نصر في تاهرت ، وانتعشت جموعه لما أحرزت من المال والغنائم ، وكان حلفاؤه العرب من جهة أخرى يتوقون إلى استئناف العيث والنهب ، وهو قوام أطماعهم ، ومورد عيشهم ، وقد تضخم جيش يحيى بما انضم إليه من طوائف جديدة من الغز والعرب ، جاءت لتبحث عن ظالعتها ، ولتغنم فرص الكسب ، وكان من هؤلاء رياح وزغبة وعوف ودباب ونعات وغيرهم ، هذا إلى الزاودة وشيوخهم محمد بن مسعود . وكان يحيى ينوي هذه المرة أن يعود إلى مهاجمة أراضي إفريقية ذاتها . ولم تكن نيات الثائر بخافية على أبي محمد بن أبي حفص والى إفريقية اليعقوب الحازم . فبادر بمحشد قواته ، معتزماً أن يبادر الميارقة وحلفاءهم قبل أن يخنقوا إفريقية ، وخرج من تونس

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٢٩ و ٢٣٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ و ٢٧٨ .

وراجع أيضاً : A. Bel : Les Benou Ghania p. 148 & 149 .

سنة ست وستائة ، في جيش كثيف وافر العدة ، وسار جنوبا نحو قابس ، ثم اتجه نحو جبل نفوسة ، حيث كان محتشد المرابطون وحلفاؤهم العرب . والتقى الفريقان في موضع من جبل نفوسة ، وأقام أبو محمد محلته مزودة بالفساطيط والأبنية ، حتى لا تكون ثمة أية فكرة في التراجع . ثم اشتبك الفريقان في معركة عنيفة دامية ، فانكشفت ميسرة الموحدين في البداية ، وولى من كان بها من الغز والأعراب منهزمين ، وثبت الشيخ أبو محمد في القاب مع الموحدين والحفاظ ، وانحازت إليه بعض طوائف من بني عوف وبني سليم ، واستمر القتال طول اليوم على أشده ، وأسفر في النهاية عن هزيمة المرابطين وحلفائهم ، وطارد الموحدون الجيش المنهزم ، وأمعنوا فيه قتلا وأسرا ، ولم ينقذهم من الفناء الشامل سوى دخول الليل ، واستولى الموحدون على محلة الميورقي ، وسائر ما بها من الأسلاب والغنائم ، واستولوا كذلك على طعائن العرب وغنائمهم التي كانوا يحتفظون بها ، وذكر ابن خلدون نقلا عن ابن نجيل كاتب أبي محمد أن أعمال الغنائم في هذه الموقعة بلغت ثمانية عشر ألفا ، وكان بين القتلى محمد بن مسعود شيخ الزواودة ، وابن عمه حركات بن أبي الشيخ ، وشيخ بني قرة ، وشيخ مغراوة ، ومحمد بن الغازي ابن غانية ، وكثيرون من أنجاد بني رياح وبني هلال . وكانت ضربة ساحقة ليحيى ابن غانية ، وحلفائه ، تضارعت في عنفها وأهية نتائجها ضربة جبل تاجرا ، وفر يحيى في فل من صحبه ، وقد هدته النكبة ، وأوقعت في قلبه اليأس ، وارتد أبو محمد في قواته إلى تونس مكللا بغار الظفر ، وكتب إلى الخليفة الناصر بالفتح ، فقرأ كتابه بالمسجد الجامع : وجلس الناصر لتقبل الهناء والاستماع لمدايح الشعر^(١) ، وكان منها قصيدة لأبي عبد الله بن يخلفن الفازازي هذا مطلعها :

هذه فتوح تفتحت أزهارها وتدفقت ملء الملا أنهارها
وتأرجت نفحاتها وتبرجت صفحاتها وتبلجت أنوارها
وأنت بشائرها إليك سوافرا عن أوجه يا حبذا إسفارها

ولم ينس أبو محمد ما قام به عرب سليم من مخالفة الميورقي والقتال إلى جانبه ، فاخترق ديارهم خلال عوده ، وأمر بالقبض على زعمائهم ، وأرسلهم مصفدين إلى تونس ، فكان لتصرفه وقع عميق في تلك المنطقة ، التي كثر فيها تقلب

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٣١ و ٢٣٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ و ٢٧٨ .

الأعراب وفسادهم . وبالعكس عومل العرب الذين وقفوا إلى جانب الموحدين بالرعاية والإحسان ، ووزعت عليهم أراض شاسعة خصبة في وادي القيروان . وكان أهل جبال نفوسة قد أرمقهم ابن عصفور نائب يحيى بجوره ، وأنقل كاهلهم بالمظالم والفروض ، فما كادت تقع الهزيمة على الميورقي ، حتى وثبوا بابن عصفور فقتلوه ومعاونيه من المرابطين ، كما قتلوا ولدين ليحيى .

وعكف أبو محمد بعد نصره الحاسم على معالجة شئون إفريقية ، بما عرف عنه من الحزم والبراعة ، فقمع كل صنوف الفساد والشغب ، ووطد دعائم السكينة والنظام ، واستوفى فروض الجباية من سائر الطوائف ، فازدهرت في ظله بلاد إفريقية ، وعمها الأمن والرخاء ، وذاع اسم أبي محمد ، واشتهر أمره ، وسمت مكانته ، حتى غدا ثاني رجل في الدولة بعد الخليفة ذاته ، وكان العمل الذي اضطلع به ونجح في تحقيقه ، وهو إخماد ثورة بني غانية ، وتحرير إفريقية من نيرهم ، وردّها إلى سلطان الموحدين ، وذلك في فترة يسيرة لاتتجاوز خمسة أعوام أو ستة ، من أعظم الأعمال العسكرية والسياسية ، التي استطاعت الدولة الموحدية أن تقوم بها في مدى ربع قرن ، منذ نزل بنو غانية بإفريقية لأول مرة . ولم يكن ذلك عملاً هيناً ولا ميسوراً إزاء ما كان يتصف به علي بن غانية وأخوه يحيى ، وبقية هذه العصابة ، من الجرأة والبسالة وشدة المراس . وكان توطيد سلطان الموحدين بإفريقية على هذا النحو ، عمل إنقاذ وفي الدولة الموحدية كثيراً من أخطار التمزق والتفكك ، التي كانت تتعرض لها ، من جراء تغلب بني غانية على جزء من أهم أراضي الدولة ، وعجزها عن رد عدوانهم . واستمر أبو محمد بن أبي حفص عدة أعوام أخرى حتى وفاته في سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) يسيطر على مصائر إفريقية ، ويسهر على سلامتها وأمنها ، ويوطد شئونها بمقدرة فائقة ، فهل كان عندئذ يضمّر أو يدور بخلدّه أنه إنمّا يمهّد لهذا التوطيد لسلطان عقبه ، وتأسيس أسرته الملوكية المستقلة ، التي قامت بعد ذلك بقليل ، في هذا القطر من أقطار الإمبراطورية الموحدية^(١) .

أما يحيى بن غانية فقد لبث بعد نكبته الأخيرة في جبل نفوسة ، ملتجئاً مع فلوله إلى الصحراء الجنوبية ، يلوذ مؤقتاً بأهداب السكينة ، ويرقب الحوادث . بيد أنه لم يمسّ قليل على ذلك ، حتى انفصل عنه أخوه سير بن إسحاق بن غانية ،

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٩ . وراجع أيضاً ١٥٤ - ١٥٢ A. Bel : Les Benou Ohania

وكان من شهد معه غزوة تلمسان ، وسار إلى تونس ملتجئاً إلى الشيخ أبي محمد ،
لائئداً بطاعة الموحدين ، فأكرم الشيخ مثواه ، ثم استأذنه في السفر إلى الحاضرة
فأذن له ، واستقبل هناك بالمودة والترحاب (سنة ٦٠٧ هـ) .

وفي خلال ذلك كان الخليفة الناصر عاكفاً على معالجة الشئون الإدارية ،
والنظر في أعمال الولايات . وكان كثير التغير والتبديل للولاة ورجال الدولة .
ومن ذلك أنه في سنة خمس وستائة ، أقال أبا يحيى بن الحسن بن أبي عمران من
الوزارة ، وألزمه أن يبقى في داره ، ثم عينه بعد ذلك والياً لميوزقة مكان السيد أبي
عبد الله بن أبي حفص ، وعين السيد أبا عبد الله والياً لبلمسية ، وقدم للوزارة أباسعيد
ابن أبي إسحاق بن جامع مكان أبي زيد بن يوجان . ثم عين أخاه السيد أبا إسحق والياً
لإشبيلية ، وأخاه السيد أبا محمد والياً لشرقي الأندلس ، والشيخ أبا عمران بن ياسين
الھنتاني والياً لمرسية ، مكان أبي الحسن بن واجاج ، وعين السيد أبا زيد والياً
بلحيان ، وأبا عبد الله بن أبي يحيى بن الشيخ أبي حفص والياً لغرناطة . وعين
لكتابة الديوان الكاتبين أبا محمد بن الحسن ، وأبا عبد الله بن منيع ، وكان كلاهما
من الكتاب المحيدين ، واختص الأول بكتب التوقيعات والظواهر ، واختص
الثاني بديوان العسكر ، والتنفيذات السلطانية . وكذلك تناولت هذه التعيينات
شئون القضاء فعزل القاضي أبو عبد الله الباجي عن قضاء إشبيلية ، وعين مكانه
أبو محمد عبد الحق بن عبد الحق . وعين لقضاء قرطبة ابن حوط الله ، مكان
أبي علي بن أبي محمد المالقي ، واستدعى أبو علي إلى الحاضرة حيث قدم على طلبة
الحضر ، وهو المنصب الذي كان يتولاه أبوه وإخوته من قبل . وعين أبو إبراهيم
ابن يغمور لقضاء بلنسية . وندب القائد أبو عبد الله بن عيسى المرسي لقيادة قوات
الغرب بشلب ، وندب أبو الجيش محارب لاستقبال ملوك الروم وسفرائهم ،
والاشتغال بإنزالهم وضيافتهم ، والترجمة عنهم ، مكان ابن عوبيل ، وهي وظيفة
مستحدثة في البلاط الموحدي ، ولم يسبق أن وقفنا على ذكرها من قبل ضمن
مناصب الإدارة الموحدية . ووقعت هذه التغيرات والتعيينات كلها في عام واحد ،
هو سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م)^(١) .

ووقعت بالمغرب في هذا العام عدة حوادث أخرى تستحق الذكر ، منها

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٣٠ و ٢٣١ و ٢٣٣ و ٢٣٤ ، وابن خلدون

مصرع ابن عطية الزناتي ، أحد رؤساء زناتة الخوارج في منطقة تلمسان الجنوبية ، وكان ممن تحالف مع ابن غانية حين غزوته لمنطقة تلمسان ، فُدس إليه ابن يوجان وإلى تلمسان من اغتاله بمقره . وفي هذا الحادث ما يدل على أن الاغتيال السياسي : كان من وسائل الموحدين في القضاء على خصومهم . ومنها أن الشيخ أباحمد قام بغارة على أحياء الخوارج والمشايخين من بني سليم ، واستاق أشياخهم وأموالهم ، وجعلهم رهينة لديه في تونس ، حسماً لفسادهم وشغبهم ، ولإرغامهم على قطع إمدادهم ومعاونتهم لابن غانية ، ومن جهة أخرى فقد قام محمد بن عبد السلام عامل طرابلس بغارة على منطقة جبل نفوسة واقتحم بها قصرأ ، أُلقي فيه جملة من ثمين المتاع والأموال لبني غانية ، ووطد أسباب الهدوء في تلك المنطقة

وكان من أهم الحوادث في هذا العام أيضاً ، الحريق الكبير الذي وقع بمراكش ، وكان وقوعه في ليلة يوم الخميس الثالث عشر لجمادى الأولى ، والناس يرقدون في مضاجعهم . وشبت النار أولاً في حي القيسارية ، وانتشرت بسرعة ، وأتت على الحى كله ، فشب الناس مذعورين من نومهم ، وكثر الصراخ والاستغاثة ، ونهض الخليفة الناصر على الضجيج وغادر قصره مسرعاً ، واعتلى صومعة الجامع ليشهد تغلغل النار عاجراً . واقتحم الغوغاء كثيراً من الدروب ، وسلبوا ما استطاعوا سلبه مما سلم من الحريق ، واستمر الحريق حتى صباح اليوم التالي ، وقد أتى على كثير من أحياء المدينة . وأمر الناصر في اليوم التالي ، بتتبع السفلة الناهبين ، واسترداد ما يمكن استرداده منهم ، فقبض على كثيرين من هؤلاء وأعدموا على الأثر . وهلك في تلك النكبة كثير من الأموال والدور ، وافترق كثير من ذوى اليسار ، وفقدوا دورهم وثرواتهم . وأمر الناصر بأن يعاد تشييد الأحياء المحترقة بأحسن مما كانت عليه ، خصوصاً وقد كانت تواجه القصر الخلفي يسبح عليها أضواءه^(١) .

هذا ويذكر لنا صاحب البيان ضمن حوادث هذا العام ، أعنى عام ٦٠٧هـ ، حادثاً يستوقف النظر ، وهو أن بعض أعيان جزيرة صقلية ووجوهها ، وفدوا على الشيخ أبي محمد بن أبي حفص بتونس ، ونبأوه بأن المسلمين في صقلية انتزعوا كثيراً من المعازل من أيدي الروم ، وأقاموا الخطبة في بلادهم بالدعوة المهدية الموحدية ، وقطعوا ما سواها من الدعوات من عباسية وغيرها .

ويبدو من تتبع تاريخ صقلية ، في تلك الفترة أن الأقلية الإسلامية التي كانت بالجزيرة حتى هذا العهد ، كانت تعاني من الضغط والاضطهاد . وكان المسلمون منذ سقطت الجزيرة في أيدي الأمراء النورمان في سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) ، يتمتعون بطائفة من الحقوق والامتيازات ، ومنها السكنى في بعض الأحياء ، والأراضي ، في مسيني ، وبلرم ، وتراباني ، وجرجنت ، ومازرة ، وغيرها من المدن ، ومزاولة شعائرهم الدينية في مساجدهم القليلة الباقية ، ومزاولة مهنتهم وأعمالهم السلمية . واستمر الأمر على ذلك نحو قرن ، في ظل عدة متعاقبة من الأمراء النورمان ذوى التسامح المستنير ، وفي مقدمتهم ولد فاتح الجزيرة ، الدوق روجر (رجّار) الثاني ، وهو الذى أسبغ رعايته على الشريف الإدريسي ، وعهد إليه بوضع موسوعته الجغرافية الشهيرة « نزهة المشتاق » . فلما توفى في سنة ١١٥٤ م ، خلفه ولده ولیم الأول (غليام) ، فولده ولیم الثاني . وفي عهد هذا الملك ، اشتدت وطأة الحكم على المسلمين وأراد أن ينزع منهم بعض الأراضي التي يحتلونها ليعطيها لبعض الأديرة المجاورة ، فقام المسلمون ببعض ثورات محلية ، واستولوا على بعض الحصون النصرانية ، والظاهر أن الملك ولیم ، عدل بعد ذلك عن سياسة الضغط والقمع الى حاول أن يتخذها إزاء المسلمين ، وعاد الصفاء ينجم على علائق المسلمين والنصارى .

وقد أورد لنا الرحالة الأندلسي ابن جبير وصفاً دقيقاً لأحوال مسلمي صقلية في عهد الملك ولیم (ويسميه غليام) مما وقف عليه حين زيارته للجزيرة في شهر رمضان سنة ٥٨٠ هـ (يناير سنة ١١٨٥ م) ، وقد زار منها عدة مدن مثل مسينه ، وبلارمه (بلرم) ، واطرابنش ، واجتمع فيها بالمسلمين ، ووقف على أحوالهم . وهو يقول بصفة عامة ، إن المسلمين يعيشون مع النصارى على أملاكهم وضياعهم ، وأن النصارى قد أحسنوا السيرة في استقبالهم واصطناعهم ، وضربوا عليهم إتاوة يؤدونها في فصلين من العام ، وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجدونها ، ثم يقول لنا ، إنه لم يكن في مسينه إلا نفر يسير من المسلمين من ذوى المهن . وأما بلرم ، وهي عاصمة الجزيرة ، ففيها كثير من المسلمين وفيها سكنى الحضريين منهم ، ولهم فيها المساجد ، والأسواق المختصة بهم في الأرباض كثير ، وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها ، وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها . وللمسلمين في بارم « رسم باق من الإيمان يعمرّون به أكثر مساجدهم ، ويطعمون الصلاة بأذان

مسموع ، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكنائهم عن النصارى ، والأسواق معمورة بهم ، وهم التجار فيها ؛ ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم ، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسى . ولهم بها قاض ، يرتفعون إليه فى أحكامهم ، وجامع يجتمعون للصلاة فيه . وأما المساجد فكثيرة لاختصاصى ، وأكثرها محاضر للمعلمى القرآن ، وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين ، تحت ذمة الكفار ، ولا آمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم ، ولا فى أبنائهم ، تلافاهم الله بصنع جميل» (١).

وهذه العبارة الأخيرة من أقوال ابن جبير ، تلخص لنا حقيقة أحوال المسلمين فى صقلية فى أواخر القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) . ذلك أنه بالرغم من تلك الامتيازات الشكلية فى السكنى والتجارة ومزاولة الشعائر ، فإنه لم يكن ثمة شك فى أن الأقلية المسلمة كانت تعيش داخل الجزيرة ذليلة مضطهدة . وهذا ما يفصله لنا ابن جبير بعد ذلك ، إذ يقول إنه خلال إقامته ببلدة إطرابنش ، « تعرف ما يؤلم تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عباد الصليب بها ، وما هم عليه من الذل والمسكنة ، والمقام تحت عهد الذمة ، وغلظة الملك ، إلى طوارئ دواعى الفتنة فى الدين » . ثم يقول لنا ، إنه التقى فى هذه البلدة بزعيم مسلمى صقلية ، وهو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر وهو من ورثة أهل السيادة ، وكان من خيرة مسلمى الجزيرة كرماء ومآثر ، وكان قد اتهم بمخاطبة الموحدين ، واضطهد من أجل ذلك ، وغرم أموالا طائلة . ويزيد ابن جبير على ذلك ، أنه وقف من هذا الزعيم ، على بواطن أحوال مسلمى الجزيرة مع أعدائهم « مما يبكى العيون دما ، ويذيب القلوب ألماً » (٢) .

ويحدثنا ابن جبير عن الملك ولیم (غليام) ، فيقول إنه عجيب فى حسن السيرة ، واستعمال المسلمين ، وإنه كثير الثقة بهم ، وساكن إليهم فى أحواله ، والمهم من أشغاله ، وله جملة من العبيد المسلمين وعليهم قائد منهم . ثم يصف لنا فخامة قصوره ، وتناهيه فى الترف ورفاهة العيش ، وشغفه باتخاذ الفتيان والحوارى ، وأنه يقرأ العربية ويكتبها ، وأهل عمالته فى ملكه منهم مسلمون .

ولما توفى الملك ولیم الثانى فى سنة ١١٨٩ م ، وخلفه فى حكم صقلية الإمبراطور فردريك الثانى ، أول حكامها من آل هوهنشتاوفن ، عاد فانتزع من المسلمين

(١) رحلة ابن جبير (القاهرة ١٩٥٥) ص ٣١٤ و ٣٢٣ .

(٢) رحلة ابن جبير ص ٣٣٢ و ٣٣٣ .

كثيراً من أراضيهم وأعطاهما للكنيسة : وكان ذلك في سنة ١٢٠٨م (٦٠٥ هـ)^(١) والظاهر أن المسلمين عادوا يومئذ إلى الثورة ، وانتزعوا بعض الحصون النصرانية مرة أخرى . ويبدو من مقارنة التواريخ ، أن هذه هي الحوادث التي يشير إليها وفد المسلمين الصقليين إلى الشيخ محمد الحفصى . على أنه يبدو كذلك أنه لم يترتب على مسعى هذا الوفد أى أثر ، وأن الموحدين لم يفكروا فى التدخل فى حوادث صقلية بأية صورة . وسنرى فيما بعد أن هذا الصراع يتجدد فى صقلية بين المسلمين وحكامهم النصارى ، ثم ينتهى بإخماد كل نزعة تحريرية للمسلمين ، وإخراجهم من ديارهم .

الفصل السادس

موقعة العقاب

انشغال الموحدين بحوادث إفريقية عن شئون الأندلس ، سكوت الممالك النصرانية منذ الأرك . شعورها بسنوح الفرصة لاستئناف الغزو . انتهاء الهدنة بين قشتالة والموحدين . إغارة الفونسو الثامن وفرسان قلعة رباح على أراضي الأندلس . إغارة ملك أراجون على أراضي بلنسية . اهتمام الناصر لتلك الحوادث . اعتزامه العبور للجهاد واستنفاده للقبائل . خروج الناصر في قواته إلى رباط الفتح . مسيره إلى قصر كتامة . صعوبة تأمين الجيش . مؤاخذه العمال المقصرين . عبور الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة . عبور الناصر ومسيره إلى إشبيلية . الاستعداد وحشد الجند في سائر الكور . خروج الناصر في الجيوش من إشبيلية إلى قرطبة . مسيره إلى قلعة شليطرة . أحوال الممالك النصرانية عندئذ . الصلح والتهادن بينها . عدوان ملك قشتالة على الأندلس . اتخاذ قلعة شليطرة قاعدة لهذا العدوان . غارات أراجون في الشرق . البابوية والصيغة الصليبية لحروب النصارى ضد الأندلس . سعى البابا لإنصاف لمعاونة ملك قشتالة . صدق مقدم الجيوش الموحدية . حصار الناصر لقلعة شليطرة . عجز ألفونسو عن إنجاذها وتسليمها بالأمان . رواية صاحب روض القرطاس عن الحصار . ما ينقض هذه الرواية . عود الناصر إلى إشبيلية . أهبة ملك قشتالة . معاونة البابا والأخبار النصارى . احتشاد جماعات الفرسان . مقدم المتطوعة الصليبيين من سائر الأنحاء . اجتماع جيوش قشتالة وأراجون ونافاراً . الصوم والابتهال في رومة . أقوال الرواية الإسلامية عن هذه الأهبة . ما ورد في كتاب الخليفة . أهبة الناصر . مقدم الحشود الحديدية . خروج الجيوش النصرانية من طليطلة . خروج الناصر في جيوشه من إشبيلية . مسير النصارى إلى قلعة رباح ومهاجمتهم إياها . ياس حاكمها ابن قادس من النجدة وتسليمه بالأمان . ما أثاره هذا من خلاف بين القشتاليين وحلفائهم الأجانب . مغادرة معظم المتطوعة الأجانب للمعسكر النصراني . إشارة الرواية الإسلامية إلى ذلك . وصول الناصر إلى جيان . مقدم ابن قادس إليه . اتهامه وصهره بالخيانة وإعدامهما . سحق الأندلسيين لذلك . إصلاح ما حدث بالمعسكر النصراني . مسير سائر الجيوش النصرانية إلى الجنوب . صعودها إلى جبل الشارات ونزولها في ممر مورادال . مسير الجيوش الموحدية لملاقاة العدو . أقسام الجيش الموحدى وعدده . مبالغة الرواية الإسلامية في تقديره . عبور الموحدين لنهر الوادى الكبير . احتلالهم لممرات جبل الشارات . نزولهم في السهل المواجه لممر تولوسا . توقف الناصر للقائه النصارى . وصف عيان لميدان الموقعة . حصن العقاب . الطريق الرومانى والنهر . بويرتودل مورادال . مائدة الملك . استيلاء النصارى على قلعة فيرال أو حصن العقاب . تعذر عبورهم لجبل الشارات من تلك الناحية . قصة الراعى والمر السهل . تحول الجيش النصراني واحتلاله لمرتفع « مائدة الملك » . وقوف الموحدين على تلك الحركة . تعبئة الجيوش الموحدية للقتال . المناوشات الأولى . ترتيب الجيش الموحدى لخوض المعركة . موقع قبة الخليفة وحرسه . تنظيم الجيش النصراني وقيادته . استعداد الفريقين للمعركة . بدء النصارى بالهجوم . هجوم طلائعهم على مقدمة الجيش الموحدى . هجوم جناحى النصارى على جناحى الموحدين . المعركة الهائلة . ارتداد المتطوعة المسلمين . ثبات الموحدين ورد جناحى النصارى .

نزول ملك قشتالة بالقوات الاحتياطية . اشتداد هجوم النصارى . ارتداد ميمنة وميسرة الجيش الموحدى . فرار الأندلسيين والعرب . هجوم النصارى على القلب . مقاومة الحرس الخليلي العنيفة . ثبات الخليفة الناصر وحته جنده على الثبات . اختراق النصارى للقلب . اختراقهم للدائرة الخليفية المدرعة . تمزق الجيش الموحدى وكثرة ضحاياه . صمود الناصر . مصرع الآلاف من حرسه الأسود . اضطرابه في النهاية إلى الفرار . مديرة صوب بياسة ثم بجيان . فرار الموحدون في كل ناحية . المطاردة المروعة والقتل الذريع لهم . الاستيلاء على الحملة الموحدية وانتهاج سائر ما فيها . مختلف أسماء الموقعة . خسائر المسلمين في الموقعة . مبالغة الرواية الإسلامية في تقديرها . اعتدال الرواية النصرانية في ذلك . مبالغتها في التقليل من خسائر النصارى . ما يمكن أن يقال في ذلك . وفرة السلاح والغنائم التي استولى عليها النصارى . خيمة الناصر والعلم الموحدى . الأسباب المادية والمعنوية لتلك النكبة . آثار النكبة بالنسبة للأندلس والمغرب . توكيد التفوق السيامي والعسكري لإسبانيا النصرانية . الفزع في أرجاء الأندلس . شبح السقوط والفناء . فناء الجيوش الموحدية والفروسية المغربية . تضعف الدولة الموحدية وتفككها . مقارنة بين الأرك والعقاب . كتاب الناصر عن الموقعة . ألفونسو الثامن يتبع نصره بالاستيلاء على الحصون الإسلامية . مهاجمته لبياسة وحصاره لأبدة . اقتحام أبدة وقتل وسبى أهلها . ظهور الوباء وارتداد النصارى إلى أراضيهم . وصول الناصر إلى إشبيلية ، ثم عبوره إلى مراكش . أخذه البيعة لولده أبي يعقوب يوسف . احتجاجه بقصره . مرضه ووفاته . ما قيل في وفاته . الناصر وعهده . بدايته الحسنة . استبداده بالأمر . خلو عهده من الأعمال الإنشائية . عظمه عن أنواع العلوم والمعرفة . صفات الناصر وفقاً لقول المراكشي وروض القرطاس . وزراء الناصر . قضائه وكتابه . أبنائه .

شغل الخليفة محمد الناصر لدين الله ، منذ ارتقائه العرش في أوائل سنة ٥٩٥ هـ ، بحوادث إفريقية واستيلاء بني غانية على قواعدها وثغورها ، والعمل على تحريرها واسترداد سيادة الموحدون بها ، عن سير الحوادث في الأندلس ، ولم يستطع خلال هذه الفترة التي استطالت زهاء اثنتي عشرة عاما ، أن يعنى بشيء من شئون الأندلس الجوهريّة ، أو يعبر إليها بنفسه ، وحتى اهتمامه بافتتاح الجزائر الشرقية ، لم يكن سوى نتيجة مباشرة لصراعه مع بني غانية في إفريقية .

بيد أن شئون الأندلس ، كانت خلال ذلك تثير قلق الموحدون ، وتوجسهم من العواقب . وكانت الممالك الإسبانية النصرانية ، وفي مقدمتها قشتالة ، قد لزمت السكينة حيناً منذ موقعة الأرك ، ولبثت بضعة أعوام تتهيب الاشتباك مع القوات الموحدية في شبه الجزيرة ، وفضلاً عن ذلك فقد كانت قشتالة وليون ، ترتبط كل منهما بعقد الهدنة مع الموحدون . فلما شغل الموحدون بصراعهم مع بني غانية في إفريقية ، ولما استطال أمر هذا الصراع أعواماً ، واتسع نطاقه وانقطع عبور الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، أدركت الممالك النصرانية أن الفرصة قد سنحت مرة أخرى ، لاستئناف غزواتها للأراضي الإسلامية ، ولم يعقها

عن انتهاز هذه الفرصة على الفور سوى منازعاتها الداخلية .
فلما اقترب أجل انتهاء الهدنة بين قشتالة وبين الموحدين ، أخذ ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، يتأهب لغزو الأندلس . وكان منذ هزيمة الأرك الساحقة ، يتوق إلى الانتقام لهزيمته ، ورفع الوصمة التي لحقت من جرائها الجيوش النصرانية ، وفي أوائل سنة ١٢٠٩ م ، خرج ألفونسو الثامن من قشتالة في قواته ، واحتشد فرسان قلعة رباح ، في قلعة شلبطرة ، على مقربة من قلعة رباح ، وكانوا قد لحأوا إليها منذ انتزع الخليفة يعقوب المنصور قلعة رباح من أيديهم عقب معركة الأرك وسار ألفونسو صوب جيان وبياسة ، فانتسف الحقول وخرب الضياع ، وقتل وسبي ، وعاث الفرسان في أحواز أندوجر ، واستولوا على عدة حصون ، وأصاب المسلمين من جراء تلك الغارات ، محن وخسائر فادحة . وفي العام التالي خرج ألفونسو إلى الأندلس مرة أخرى ، وعاث في أراضي جيان وبياسة ، ووصل في عيته إلى أراضي ولاية مرسية ، ثم عاد إلى طليطلة مثقلا بالغنائم .

وفي نفس الوقت ، وقعت في شرقي الأندلس حوادث مماثلة ، وكان السيد أبو العلاء إدريس بن يوسف قائد الأسطول الموحدى وفاتح الجزائر الشرقية ، قد سار في جميع وحدات الأسطول الموحدى إلى مياه برشلونة ، وعاثت سفنه في شواطئ قطلونية ، وأنزل بها خسائر فادحة ، واستولى على كثير من الأموال والغنائم ، وكان ذلك في صيف سنة ١٢١٠ م (٥٦٠٧ هـ) . فاستشاط بيدرو الثاني ملك أراجون لذلك غضبا ، وجمع قواته وخرج من منتشون ومعه فرقة من فرسان المعبد (الداوية) ، وسار جنوبا نحو أراضي ولاية بلنسية الشمالية وعاث فيها ، واستولى على عدة من الحصون الإسلامية في تلك المنطقة (١) .

وكان لاستئناف النصارى لغزواتهم المخربة ، في أراضي الأندلس ، على هذا النحو ، أعمق صدى ، وكان من الواضح أن الحاميات الموحدة الصغيرة التي ترابط في مختلف القواعد ، لم يكن في مقدورها أن تقوم برد الجيوش النصرانية الغازية ، ولم يك ثمة مندوحة من أن يعبر أمير المؤمنين بنفسه ، في جيوشه الحرارة ، إلى شبه الجزيرة ليضطلع بنفسه بجهاد النصارى ، على نحو ما فعل أبوه وجده . وقد عبر بالفعل وجوه شرقي الأندلس ، على أثر غارات ملك أراجون ، إلى العدو ، وقصدوا إلى الناصر ، مستغيثين به ، متضرعين إليه أن يسعفهم بعبوره ، فاهتز

الناصر لهذه الأنباء المزعجة ، وخصوصاً لما أبداه ملك قشتالة من الإصرار على خطته العدوانية ، بالرغم من احتجاج رسل الناصر إليه ، على خرق الهدنة .
ومما هو جدير بالذكر أن الناصر كتب إلى الشيخ محمد بن أبي حفص وإلى إفريقية يستشيرهم في ذلك الأمر ، وفيما يلتوي من استئناف الجهاد والغزو ، فأبدى له الشيخ رأيه وجوب التريث ونصح بعدم العبور واستئناف الغزو في تلك الآونة . ولكن الناصر لم يستمع إلى رأيه^(١) ، وقرر الاستجابة لداعي الجهاد ، وأخذ بالفعل في الاستعداد ، ونفذت كتبه إلى سائر أنحاء المغرب وإفريقية وبلاد القبلة باستنفاذ الناس إلى الجهاد ، فاستجابت سائر الجهات والقبائل إلى الدعوة ، وكتب الناصر في نفس الوقت ، إلى ولاية إشبيلية وقرطبة ، بوجوب تجديد حشد الحند ، وإعداد المون ، وتمهيد السبل في جميع المناطق^(٢) .

ولما اكملت الأهبة ، وأقبلت الحشود من سائر الأنحاء ، وجهزت بما يلزم من العتاد والسلاح والكسي والمون ، خرج الناصر في قواته الحاررة من حضرة مراکش في يوم السبت عشرين من شعبان سنة ٦٠٧ هـ (٥ فبراير سنة ١٢١١ م) وسار إلى رباط الفتح ، وعسكر في الضاحية المحاورة المسماة ببرج الحمام ، وقضى هنالك نحو شهرين وهو يعمل على استيفاء الأهبة ، وتنظيم الشئون ، ونفذت كتبه مرة أخرى إلى الأندلس ، يطلب إلى ولائها حث الناس على الجهاد ، واتخاذ ما يجب من ضروب الاستعداد ، فعكف الولاة على تنفيذ تلك الأوامر ، بكل ما وسعوا من غيرة وجهد .

وخرج الناصر في جيوشه من رباط الفتح ، في يوم الاثنين الثامن عشر من شوال (٤ أبريل سنة ١٢١١ م) ، قاصداً إلى قصر كتامة (القصر الصغير) ، ونحن نعرف أن هذه المنطقة الممتدة من رباط الفتح شمالاً حتى البحر ، وهي طريق الجيوش الموحدية إلى الأندلس ، كانت مزودة بمراكز هامة لتموين الجيوش المسافرين ، سواء في الذهاب والإياب ، وأن هذه المراكز كانت تزخر دائماً بالمون والعلوفات اللازمة . ولكن الجيوش الموحدية لقيت هذه المرة خلال مسيرها ، صعاباً مرهقة في التمرين ، ونضبت الأقوات ، وغلت الأسعار بصورة لم تعهد

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ .

(٢) البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٢٣٥ و ٢٣٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ ، وروض القرطاس ص ١٥٤ .

من قبل ، ولحق الجند والناس من جراء ذلك ضيق وشدة . ووقف الناصر على ذلك ، فاستشاط غضباً ، وأدرك ما هنالك مما يرتكب من ضروب الإهمال والاختلاس ، فأمر بمواخذة سائر العمال المقصورين ومعاقبتهم ، وطلب إلى الشيخ أبي محمد بن أبي علي بن مثنى صاحب الأعمال الخزية والأشغال العملية ، بالقبض على عامل فاس ، وهو عبد الحق بن أبي داود ، فقبض عليه وعلى سائر نوابه من العالم المحليين ، واستصفيت أموالهم . وكذلك أمر الناصر ، حينما وصل إلى قصر كتامة بالقبض على عامل ستة محمد بن يحيى المستوفى ، لما بدا من إهماله وفساده ، والقبض كذلك على سائر نوابه ، وتوجيههم جميعاً مصفدين إلى صاحب الأعمال بفاس^(١) .

وحشدت السفن من سائر الأنحاء ، لعبور الجيوش الموحدية إلى شبه الجزيرة ، واستمر عبورها بضعة أسابيع ، واستمر الناصر مقياً بالقصر ، حتى تم عبور ساقته وأثقاله وحاشيته وحرسه . وركب البحر في يوم الاثنين أول شهر ذى الحجة (١٥ مايو) ونزل بساحل طريف ، وهناك استقبله قواد الأندلس وفقهاؤهم ، وأقام بطريف ثلاثة أيام ، ثم سار في جيوشه الحرارة إلى إشبيلية ، فوصلها يوم الاثنين منتصف ذى الحجة (آخر مايو) ونزل بقصور البحيرة الواقعة إزاء باب جهور ، وتم استقرار الجيوش الموحدية بالحاضرة الأندلسية ، وذلك في نهاية سنة ٦٠٧ هـ (منتصف يونيه سنة ١٢١١ م) .

وماكاد الناصر يستقر بإشبيلية حتى أمر باستنفار الحشود الأندلسية ، وضمن الآلات الحربية ، واستدعاء الجند والغزاة ، من سائر الكور ، ووصولهم مع العمال والولاة ، فلما تم تنفيذ هذه الأوامر ، وتم حشد الجند ، واستكمال الأمداد من سائر الجهات ، وأصبحت الجيوش الموحدية في حالة تعبئة كاملة ، شرع الناصر في الحركة ، وخرج من إشبيلية في جيوشه من الموحدين والعرب وأهل الأندلس والمطوعة والأغراز وغيرهم من طوائف الجند ، وسار جنوبى الوادى متجهاً نحو قرطبة ، ثم سار منها إلى جيان وبياسة ، وكان النصارى هم الذين حددوا بتصرفهم ، الهدف الذى يقصد إليه الناصر بجيوشه ، وهو قلعة شلبطرة^(٢) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٣٧ ، وروض القرطاس ص ١٥٥ .

(٢) شلبطرة حسبما يرسها صاحب الروض المعمار (ص ١٠٩) هى بالإسبانية *Salvatierra* ويرسمها صاحب روض القرطاس (ص ١٥٦) وابن خلدون (ج ٦ ص ٢٤٩) سربطرة أو شربطرة . ويرسمها المراكشى (المعجب ص ١٨٢) شلب ترة ، ويقول إن معناها « الأرض البيضاء » ويتابعه في هذا الرسم التويرى (طبعة ريمبرج ٨ ص ٢٧٩) .

التي تقع على مقربة من جنوبي غربي قلعة رباح ، بينها وبين جبال الشارات (سيرا مورينا) . وكان الخليفة يعقوب المنصور ، قد انتزع قاعدة قلعة رباح المنيعه ، حسبما تقدم ، من أيدي فرسان جمعية قلعة رباح الدينية في سنة ١١٩٥ م ، عقب هزيمة القشتاليين في معركة الأرك ، ونزل أولئك الفرسان في قلعة شلبطرة القريبة منها . وكانت هذه القلعة المنيعه ، فضلا عن مضايقتها لقلعة رباح باستمرار ، يتخذها النصارى قاعدة لغزواتهم المخربة داخل الأراضي الإسلامية ، ومنها سار القشتاليون والفرسان بالفعل للقيام بغاراتهم المخربة في أحواز جيان وبياسة وأندوجر قبل ذلك بقليل ، في سنة ١٢٠٩ م . ومن ثم فقد آلى الناصر على نفسه أن يفتح غزاته بالاستيلاء على تلك القلعة المنيعه .

— ١ —

ويجدر بنا بادئ ذي بدء أن نلم بطرف من أحوال اسبانيا النصرانية في تلك الآونة ، التي أخذت فيها طوابع الصراع الحاسم ، بين الموحدين والنصارى ، تبدو في الأفق مرة أخرى . وذلك أنه حينما وقعت معركة الأرك العظيمة في سنة ٥٩١ هـ (١١٩٤ م) ، لم يكن الوثام سائداً بين الممالك الإسبانية النصرانية ، وخاضت قشتالة المعركة وحدها ضد الموحدين . ولم تجد قشتالة بعد هذه الهزيمة الساحقة ضمناً إسلامتها ، سوى عقد الهدنة مع الموحدين ، وارتضى الخليفة المنصور يومئذ ، أن يعقد السلم مع النصارى ، بعد أن بلغ غايته من سحق قواهم ، وقمع عدوانهم .

وقضت اسبانيا النصرانية منذ معركة الأرك فترة قصيرة من الهدوء والسلام ، وعقد الصلح أخيراً بين قشتالة وليون ، وذلك بزواج ألفونسو التاسع ملك ليون بالأميرة برنجيلا ابنة ألفونسو الثامن ملك قشتالة . بيد أن هذا الصلح لم يطل أمده ، إذ اضطّر ملك ليون أن يطلق هذه الأميرة ، بعد ذلك بخمسة أعوام ، بناء على تدخل البابا ووضغطة المستمر . ومن جهة أخرى فإن شريفاً قشتالياً كبيراً ، هودون ديجولوبث دى هارو ، سيد بسكايه ، وهو أخ لزوجة ملك ليون الأولى ، دونيا أورাকা ، قد ثار لما لحق بأخته من غبن ولمهانة ، وارتد في أصحابه إلى أراضي نافارا ، وأخذ يغير منها على أراضي قشتالة ، فسار ألفونسو الثامن في قواته صوب نافارا ، فخشى ملكها سانشو الثامن العاقبة ، وقام بإخراج دون ديجو من مملكته ، فلجأ دون ديجو إلى بيدرو الثاني ملك أراجون ، فنكل عن غوثه ، فاضطر أن يلتجئ عندئذ إلى

المسلمين في ولاية بلنسية ، وأخذ يغير من هنالك في صحبه على أراضي أراجون ، وكانت أول نتيجة لهذه الحوادث أن عقدت بين نافارا وقشتالة في سنة ١٢٠٧ م الهدنة لمدة خمسة أعوام . ثم تدخل ملك قشتالة بعد ذلك ، بين زميله ملك نافارا وملك أراجون ، فعقدت بينهما الهدنة ، وذلك في سنة ١٢٠٩ م ، وانعقد بذلك نوع من الوثام والتفاهم ، بين الممالك الإسبانية النصرانية خلا مملكة ليون .

وكان أجل الهدنة المعقودة بين ألفونسو الثامن وبين الموحدين ، وهو سنة ١٢١٠ م ، يدنو عندئذ من نهايته ، وكان ملك قشتالة ، بعد أن شعر بنوع من الطمأنينة والأمل في عون زملائه ، يضطرم رغبة في استئناف الحرب ضد الموحدين ، فبدأ بالقيام بغاراته المخربة التي أشرنا إليها في منطقة جيان وبياسة وأندوجر ، وذلك خلال سنتي ١٢٠٩ ، ١٢١٠ م ، ولم يحفل باحتجاج رسل الخليفة الموحدى ، على هذا الخرق لنصوص الهدنة المعقودة ، وكانت قلعة شابطرة ، التي يحتلها فرسان قلعة رباح ، قاعدة لهذه الغارات الدموية التي ضج لها المسلمون يومئذ . وحذا بيدرو الثاني ملك أراجون حذو زميله ملك قشتالة ، فعاث في منطقة بلنسية ، انتقاماً لغزو السفن الموحدية لشواطئه ، واستولى على عدة من حصون هذه المنطقة ، وكان من الواضح أن ملك قشتالة يستطيع أن يعتمد على موازنة حليفه ملك أراجون ، إذا ما اضطرت الحرب بينه وبين الموحدين . وكان على رأس البابوية يومئذ جبر يضطرم بروح صليبية عميقة ، هو البابا إنوسان الثالث ، الذي اعتلى الكرسي الرسولى في سنة ١١٩٨ م ، وقد سبق أن أشرنا في غير فرصة إلى ما كان يتمتع به الكرسي الرسولى لدى الممالك الإسبانية النصرانية ، من مكانة راسخة ونفوذ قوى ، وإلى ما كان يعلقه الملوك الإسبان ، من أهمية بالغة ، على الصفة الصليبية لحروبهم ضد المسلمين ، ولا سيما عند اضطرام الحرب الشاملة بين الفريقين ، وذلك استدراكاً لعطف الأمم النصرانية المحاورة ، واستجلاباً للمتطوعة والمرترقة النصارى من سائر الأنحاء . وكان ملك قشتالة ، حينما اعزم أن يشهر الحرب على الموحدين ، قد بعث جرهاارد أسقف شقوبية إلى البابا إنوسان ، ليرجوه أن يدعوهم أوروبا النصرانية لمؤازرته ، وذلك بتنظيم حملة صليبية ضد المسلمين في اسبانيا ، وأرسل كذلك ردرىك مطران طليطلة^(١) وعدة آخر

(١) هو ردرىك الطليطلى صاحب التاريخ المشهور المنسوب إليه المکتوب باللاتينية **Anales**

Toledanes ، والمتضمن لتاريخ اسبانيا النصرانية حتى أوائل القرن الثالث عشر . وقد طبع بفرانكفورت —

من أكابر الأحبار إلى فرنسا ، وإلى الأمم المجاورة ، للدعوة إلى قضيته واستئثاره حماسة النصارى للعبور إلى اسبانيا ، ومؤازرة الجيوش النصرانية في قتالها ضد المسلمين . ونزل البابا عند رغبة ملك قشتالة ، وبعث إلى أساقفة جنوب فرنسا في يناير سنة ١٢١٢ ، بأن يعظوا رعاياهم بأن يسيروا بأنفسهم وأمواهم لمؤازرة ملك قشتالة ، وأنه أى البابا يمنح كل من لبى هذه الدعوة الغفران التام . وكان الإنفانت الفتي دون فرناندو ولى عهد قشتالة ، وولد ألفونسو الثامن قد توفي عندئذ ، فبعث إليه البابا يعزيه عن فقد ولده ، وكذلك عن فقد حصن شابطرة الذى استولى عليه الموحدون حسبما تفصل بعد ، ويعرب عن خوفه بأن الحرب ضد « الألبين »^(١) في جنوب فرنسا قد تحول دون كثرة المتطوعين ، وأنه يتمنى له الفوز في جميع الأحوال . بيد أن يعرب عن نصحه له بأنه إذا استطاع أن يعقد الهدنة مع « أمير المؤمنين » فليفعل ، حتى تسنح فرصة أفضل لضمان النصر المنشود .

كانت هذه هي أحوال قشتالة والممالك الإسبانية النصرانية ، حينما عبر الناصر في جيوشه الحرارة إلى شبه الجزيرة الأندلسية ، في شهر ذى الحجة سنة ٦٠٧ هـ (مايو ١٢١١ م) . ويعلق صاحب روض القرطاس على عبور الخليفة الموحدى بقوله : « واهتزت جميع بلاد الروم بجوازه ، ووقع خوفه في قلوب ملوكهم ، وأخذوا في تحصين بلادهم ، وإخلاء ما قرب من المسلمين من قراهم وحصونهم . وكتب إليه أكثر أمراءهم يسئلون سلامته ويطلبون منه عفو » ، ثم يقدم إلينا قصة غامضة عن مقدم ملك « بيونة » على الخليفة بإشبيلية « مستسلماً خاضعاً مستصغراً ، يطلب صلحه ، ويسأل منه عفو وصفح » وكيف أن الناصر وافق على مهادنته إلى الأبد ، وأعطاه تحفاً جلية^(٢) . ويرجع غموض هذا النص ، إلى أن مدينة بيونة ، وهى تقع في الطرف الآخر من البرنيه على خليج بسكونية ، قرب مملكة نافارا ، لم تكن يومئذ داخلية في حظيرة اسبانيا النصرانية ، بل كانت من أملاك جون ملك

سنة ١٦٠٦ ضمن سلسلة *Hispana Illustrata* ونشر أيضاً مع الطبعة العربية لتاريخ المكيين بن العميد المطبوع بلندن سنة ١٦٢٥ .

(١) الألبينون *Albigences* هم فرقة من الملاحدة ظهرت في جنوبي فرنسا في أوائل القرن الحادى عشر ، واتخذوا مدينة « ألبى » مركزاً لهم ومنها اشتق اسمهم . وشهروا على الكثرة ومبادئهم ورسومها حرباً شديدة ، واستمروا يبثون عقائدهم الإلحادية حتى نظم سيمون دى مونفور في أوائل القرن الثانى عشر عليهم حرباً صليبية انتهت بتمزيقهم .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٥ و ١٥٦ .

انجلترا (ولد هنرى الثانى) ، وذلك بالوراثة عن أمه دوقة أكويتين . وقد تربى على ذلك أن بعض الباحثين ، رأوا ، بالاستناد فى نفس الوقت إلى مؤرخ إنجليزى عاش فى القرن الثالث عشر ، أن صاحب روض القرطاس ، يشير بذلك إلى سفارة وردت إلى محمد الناصر من قبل ملك إنجلترا يومئذ ، وهو الملك جون . ولكننا نلاحظ أولاً أن صاحب روض القرطاس يتحدث عن مقدم « ملك بيونة » بنفسه ، وليس عن مقدم سفيره ، ومن جهة أخرى فإن كلمة « بيونة » هذه التى وردت فى طبعة تورنبرج التى نعتمد عليها قد وردت مكانها كلمة « بنبلونة » فى النص الذى نقله السلاوى (عن روض القرطاس)^(١) . ومعنى ذلك أن الذى ورد على الناصر ، أثناء مقامه بإشبيلية هو ملك نافارا (نبرة) ، وهو حدث مفهوم معقول ، يتفق مع ما سبق عقده من علائق المودة والتحالف بين سانشو السابع ملك نافارا الملقب « بالقوى » وبين البلاط الموحدى . وتسجل لنا التواريخ النصرانية نفسها أن سانشو السابع ، كان قبل ذلك ببضعة أعوام ، حينما شعر بالخطر يهدد مملكته من جراء تحالف جاريه ملكى قشتالة وأراجون ضده ، قد عبر البحر إلى المغرب ملتجئاً إلى عون الخليفة الموحدى ، وذلك فى سنة ١١٩٩ م ، وأنه قد أقام بمراكش فى ضيافة الخليفة الناصر ، زهاء عامين ، توطدت فيهما الصداقة والتحالف بين الملكين^(٢) . يضاف إلى ما تقدم أن الألفاظ التى صيغ بها نص روض القرطاس ، والقصة كلها التى يوردها عن كيفية استقبال الناصر للملك المذكور ، لا يمكن أن تنصرف إلى أية سفارة واردة من خارج شبه الجزيرة الإسبانية . وإذا فن المرجح المعقول أن يكون ملك نافارا حليف الموحدين القديم هو الذى ورد على الناصر ، وهو ملك « بنبلونة » . وهناك دليل آخر يؤيد هذا الرأى ، وهو ما ورد فى كتاب الناصر عن موقعة العقاب من إشارته إلى صاحب نبرة ونكته بحلفه وكونه « كان متعلقاً من الموحدين بزمام ، فسخط عليه صاحب رومة إن لم يكن لقومه معسكراً ، ولسواد أهل ملته مكثراً ، فالحق بتلك الجموع مرهجاً »^(٣) ، ويقول لنا ابن خلدون إن الذى ورد على الناصر فى تلك المناسبة ، هو ملك ليون المعروف « باليبوج » ، قدم عليه عام العقاب « فداخه ، وأظهر له

(١) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) M. Lafuente : Historia General de Espana, T. III, p. 345-346.

(٣) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤١ .

التنصيح ، فبذل له أموالاً ثم غدر به «^(١) . ونستطيع أن نلاحظ أخيراً أنه لم تكن ثمة أية علاقات سياسية ومصلحية ، بين الموحدين وبين ملك إنجلترا ، تستدعى أن يأتي ملك إنجلترا بنفسه إلى الخليفة الموحدى : « مستسلماً خاضعاً مستصغراً » وليس من الممكن أن ينسب مثل هذا التصرف إلا إلى ملك من ملوك اسبانيا النصرانية^(٢) .

وخرج الناصر فى جيوشه من إشبيلية ، حسبما تقدم فى الأيام الأولى من سنة ٦٠٨هـ (أو أواخر يولييه ١٢١١م) متجهاً إلى جيان ، فأبدت وبياسة ، ثم سار شمالاً نحو قلعة شلبطرة . وكانت هذه القلعة تقع على ربوة عالية على مقربة من جبل الشارات ، وكانت من أكبر وأمنع قلاع تلك الناحية . ويبدو من أقوال صاحب روض القرطاس ، أن الناصر كان يقصد السير تَوَّاً إلى غزو قشتالة ، ولكن وزيره أبا سعيد بن جامع ، أقنعه بوجوب الاستيلاء أولاً على قلعة شلبطرة ، نظراً لمناعتها الفائقة ، وأهمية موقعها^(٣) . بيد أنه يبدو من الروايات الأخرى أن غزو أراضى قشتالة ، لم يكن قد تقرر لدى الخليفة بعد ، وأنه كان يقصد الاستيلاء على شلبطرة بادئ ذي بدء . ويؤيد ذلك ما ورد فى كتاب الفتح الخاص بشلبطرة على لسان الخليفة ، بأنه وإن كان صاحب قشتالة أقرب من تعيين حربه داراً ، فإن فصل الغزو ، كان قد ذهب جُلُّه ، واستحالت الأرض من جراء الأمطار الغزيرة إلى غدور وأوحال ، تحول دون مسير الخيل ، وذهبت معظم الحسور ، وأنه قصد إلى معقل شلبطرة لقيامه فى قلب الإسلام ، وكون النصرانية قد جعلته جناحاً لكل غاية ، تخدمه ملوكها ورهبانها ، وتتخذ منه عاصماً يعصمها^(٤) . وعلى أى حال فقد طوق الموحدون قلعة شلبطرة ، بعد أن استولوا على أرباضها ، وقتلوا بها من النصارى أربعائة ، وأضرمو النيران فيها ، واستولوا على حصن آخر قريب منها تسميه الرواية « بحصن اللج » ثم نصبوا حولها أربعين قطعة من المجانيق الهائلة ، وضربوها بالحجارة الضخمة ، ورموها

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٣ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٥ و ١٥٦ .

(٣) روض القرطاس ص ١٥٦ و ١٥٧ .

(٤) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٣٩ ، وراجع أيضاً المعجب ص ١٨٢ ، وتضع

بعض الروايات النصرانية سقوط القلعة فى أيدي الموحدين فى شهر سبتمبر سنة ١٢١٠ راجع :

بالنبال والسهام الممطرة ، حتى اضطر النصارى إلى تسليم القلعة ومغادرتها . وقد استمر الحصار وفقاً لرواية صاحب الروض المعطار واحداً وخمسين يوماً . وكانت حامية القلعة ، وفقاً للرواية المذكورة ، حيناً اشتد بها البلاء من جراء الضرب المروع المتواصل ، وتساقط الحجارة الهائلة ، قد طالبوا من الموحدين أجلاً يتصلون فيه بملكهم ألفونسو الثامن ليستأذنه في تسليم القلعة ، إذا لم يستطع لإنقاذهم ، وكان ألفونسو الثامن عندئذ بجوار طليعة يجد في أهباته ، فاتصل به رسلاً ، واضطر أن يوافق على تسليم القلعة لعجزه عن إمدادهم ، ولأنه لم يكن قد استكمل أهباته بعد . فعادوا وسلمت شلبطرة للموحدين ، فدخلوها وحولوا كنيسها في الحال مسجداً ، ووفي الخليفة بوعدة في ترك الحامية النصرانية تعود إلى بلادها ، وكان ذلك في أوائل ربيع الأول سنة ٦٠٨ هـ (أواخر أغسطس سنة ١٢١١ م)^(١) . ويقول صاحب روض القرطاس إن الحصار قد طال بالعكس ثمانية أشهر ، واستمر بذلك حتى دخل الشتاء واشتد البرد ، وقلت المؤن وكلت عزائم الجند ، وفست نياتهم التي قصدوا بها للجهد ، ونضبت المواد من الحملة ، وأن ملك قشتالة لما وقف على ذلك وعلم أن شوكة المسلمين قد انكسرت ، والحدة التي قاموا بها قد خمدت ، تأهب لأخذ الثأر ، وجاءته ملوك الروم وهم في غاية الاستعداد ، ثم جاء ألفونسو بقواته وهاجم قلعة رباح واستولى عليها . ويضع تاريخ تسليم شلبطرة في أواخر ذى الحجة سنة ٦٠٨ هـ ، ثم يقول لنا إن ملك قشتالة ، لما وقف على سقوط القلعة ، سار وسائر من كان معه من ملوك الروم ، وحشودهم والتي بالموحدين في موضع يسمى « حصن العقبان »^(٢) . بيد أن هذه الرواية التي يستخلص منها أن سقوط شلبطرة في أيدي الموحدين ، وسقوط قلعة رباح في أيدي القشتاليين ، ثم نشوب معركة العقاب بين الفريقين ، قد حدثت كلها متتابعة في حلقة واحدة ، ينقضها أولاً كتاب الفتح الصادر عن الخليفة ذاته بفتح شلبطرة ، وهو مؤرخ في الثاني من شهر ربيع الآخر سنة ٦٠٨ ، ولا بد أنه كتب بعد سقوط القلعة بأيام قلائل^(٣) ، ثم تنقضها أكثر من رواية وثيقة . فصاحب الروض المعطار يقول لنا ، إن الناصر بعد افتتاح شلبطرة « رجع إلى إشبيلية ظافراً غانماً ، ثم استغاث الأذفونش

(١) الروض المعطار ص ١١٠ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٨ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣٨ .

(٣) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٣٨ .

بأهل ملته وحثم على حماية دينهم ، فاستجابوا ، واثالوا عليه من كل مكان » .
ويقول لنا المراكشي وهو مؤرخ معاصر ، إنه بعد رجوع أمير المؤمنين أبي عبد الله
من هذا الفتح المتقدم الذكر (أعنى فتح شلبطرة) إلى إشبيلية ، استنفر الناس من
أقصى البلاد ، فاجتمعت له جموع كثيفة^(١) . وإذن فن الواضح أن غزوة شلبطرة
كانت غزوة مستقلة ، اقتضت على فتح هذه القلعة المنيعه ، وأن القوات
الموحدية التي قامت بفتحها ، لم تكن هي تلك الجيوش الحاررة التي عادت بعد
ذلك بأشهر ، لتلتقي مع الجيوش النصرانية في « مرتفعات » العقاب ، وأن الموحدين
والنصارى ، قد انتفع كلاهما بتلك الفترة لمضاعفة الأهبة والاستعداد .

ففي الوقت الذي حل فيه الناصر بإشبيلية ، بعد عوده من غزوة شلبطرة ،
كان ملك قشتالة ، يبذل أقصى جهوده في استكمال أهباته لمقاتلة الموحدين .
ولم تكن هذه الأهبة تقتصر على قشتالة وحلفائها من ملوك اسبانيا النصرانية ،
ولكنها كانت تمتد بعيداً إلى ما وراء ذلك . وقد سبق أن أشرنا إلى مسعى ملك
قشتالة لدى البابا ، ليسبغ الصفة الصليبية على محاربه للمسلمين ، وأن البابا قد
استجاب إلى رغبته ، وكتب إلى الأساقفة بدعوة النصارى في جنوبي فرنسا وغيرها
إلى التطوع لمقاتلة المسلمين ، وكان سقوط شلبطرة وهي مركز فرسان قلعة رباح
في أيدي الموحدين على النحو المتقدم ، نذيراً جديداً بتفاقم الخطر على مصابر
اسبانيا النصرانية ، وبتأكيد هذه الصفة الصليبية^(٢) . وكان المطران المؤرخ ردرىك
الطليطلى ، وعدة من أكابر الأحرار عندئذ يجوبون جنوبي فرنسا لجمع المتطوعين .
واستمرت هذه الجهود الصليبية تبذل خلال عام ١٢١١ م ، وكانت الوفود
المتطوعة تأتي تباعا إلى طليطلة ، التي تقرر أن تكون مكانا لاجتماع الجيوش ،
والوفود المختلفة . وفي أوائل سنة ١٢١٢ م ، عاد المطران ردرىك ومعه جمهرة
كبيرة من المتطوعة الفرنسيين ، ثم اجتمعت بعد ذلك وفود المدن الإسبانية ،
وفرسان الولايات القشتالية المختلفة ، وفرسان الجمعيات الدينية ، وهم فرسان قلعة
رياح ، وشنت ياقب ، والأسبتارية ، والداوية (فرسان المعبد) ، واجتمع كذلك
سائر القوامس والفرسان القشتاليين ، وفي مقدمتهم رؤساء أسرة لارا وفرسانها ،
والكونت ديجولويث ، ولوبي دياث دى هارو ، ومن معهم من الفرسان . وكان

(١) الروض المعطار ص ١٣٧ ، والمعجب ص ١٨٢ .

(٢) La Orden de Calatrava ; p . 18 .

يرأس فرسان قلعة رباح جوميث راميريس ، وفرسان شنت ياقب بيدرو آرياس ، ويرأس فرسان الأسبتارية ولد جوتيرو هرمنجلد ، وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من مختلف المدن ، ويتولون الإنفاق على حشودهم . وقدم فوق ذلك عدة من أحبار فرنسا يقود كل منهم جماعة من المحاربين ، وفي مقدمتهم مطران أربونة وأسقف بوزدو ونانت وغيرهم من أكابر رجال الدين .

ولم يأت شهر مايو سنة ١٢١٢ م ، حتى اجتمع في قشتالة من المحاربين الصليبيين الذين هرعوا من جميع أنحاء أوروبا لمعاونة اسبانيا النصرانية ، زهاء ألفين من البارونات مع حاشياتهم ، وعشرة آلاف من الفرسان والمقاتلة ، وخمسين ألفاً من الرجالة ، أو بعبارة أخرى اجتمع من هذه الوفود الصليبية المختلفة جيش ضخم يبلغ زهاء سبعين ألف مقاتل ، لموازرة الجيوش الإسبانية النصرانية ، وكانت تتألف من جيوش قشتالة وأراجون ونافارا ، ومن أمداد من جليقية والبرتغال . وتلقى ملك قشتالة ، فوق ذلك ، مقادير عظيمة من الأموال والسلاح ، والمؤن ، أرسلت إليه من أنحاء فرنسا وإيطاليا . ولم يأت شهر يونيه سنة ١٢١٢ م ، حتى بلغ عدد الجيوش الوافدة على قشتالة أكثر من عشرة آلاف فارس ، ومائة ألف من الرجال . وأمر البابا إنوسان الثالث في رومه بالصوم ثلاثة أيام ، التماساً لانتصار الجيوش النصرانية في اسبانيا على المسلمين ، وأقيمت الصلوات العامة . وعمد رجال الدين والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة ، وسارت المواكب الدينية في الطرقات خاضعة متمهلة ، من كنيسة إلى أخرى ، وألقى البابا بنفسه موعظة صليبية ، طلب فيها إلى النصراني أن يضرعوا إلى الله التماساً لنصر الإسبانين (١) .

وتشير الرواية الإسلامية إلى هذه الاستعدادات الضخمة كلها ، وإلى ما سعى إليه ملك قشتالة من صيغ محاربه للموحدين بالصبغة الصليبية . وكان المراكشي أكثرهم إلاماً بذلك ، إذ يقول : « وخرج الأدفنش لعنه الله إلى قاصية بلاد الروم ، مستنقراً من أجابه من عطاء الروم وفرسانهم وذوى النجدة منهم ، فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن ألمان ، حتى بلغ نفيه إلى القسطنطينية ، وجاء معه صاحب بلاد أرغن المعروف بالبرشونوني لعنه الله » (٢) . ويقول صاحب

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباح (الترجمة العربية ص ٣٥٨ - ٣٦٠) .

(٢) المعجب ص ١٨٢ .

البيان المغرب » فاستعد له (أى للقاء الناصر) وجمع أهل قشتالة أجمعين وغيرهم من سائر جموع ملوك النصرانية الذين هم للجزيرة مكتنفين ^(١) . ويقول أيضاً صاحب الروض المعمار » ثم استغاث الأذقونش بأهل ملته وحشهم على حماية دينهم ، فاستجابوا له واثالوا عليه من كل مكان ^(٢) . وأبلغ من ذلك ماورد في كتاب الخليفة الناصر ذاته عن موقعة العقاب إذ يقول » إن صاحب قشتالة رأى أن يضرع للملك أهل ملته ، ويصانعهم على معونته بالتالد والطريف . . فبث القسيسين والرهبان من برتقال إلى القسطنطينية العظمى . . فجاءه عباد الصليب من كل فج عميق ومكان محقق . . وكان أولهم سبقاً الأفرنج المتوغلون في الشرق والشمال ^(٣) فهذه الفقرات الموجزة تدل دلالة واضحة ، على أن الموحدون كانوا يعلمون بحقيقة الوسائل والاستعدادات البعيدة المدى ، التي لحأ إليها ألفونسو الثامن ليقود إلى ميدان الحرب أكبر قوة نصرانية يمكن حشدتها ، وليسغ صبغة الحرب المقدسة على المعركة التي يضطلع بها ، مثلاً كان المسلمون يسبغون صفة الجهاد في سبيل الله ، على المعارك التي يخوضونها ضد النصارى .

وكان الموحدون من جانبهم يقومون بمثل هذه الاستعدادات ، وقد استنفر الناصر عقب عودته من غزوة شلبطرة إلى إشبيلية ، الناس من سائر الجهات ، ليضاعف حشوده ، ولیدعم جيوشه ، فاجتمعت له قوات جديدة كثيفة ، وكان من الواضح أن الفريقين يرى كل منهما أن أجل اللقاء الحاسم يدنو بسرعة ، ففي يوم ٢٠ يونيه سنة ١٢١٢ م ، خرجت الجيوش النصرانية ، من طليطلة قاصدة إلى الجنوب . وكانت مقسمة إلى ثلاثة جيوش رئيسية ، جيش الطليعة ويتألف من قوات الوافدين ، وقد قدرته بعض الروايات بستين ألف مقاتل ، وقدره البعض الآخر بمائة ألف ، وكان يقوده القائد القشتالى ديجولويث دى هارو يعاونه عدد من أكابر الأحرار والقوامس . ويتألف الجيش الثانى من قوات أراجون وقطلوونية وفرسان الداوية ، ويقوده بيدور الثانى ملك أراجون . ويتألف الجيش الثالث ، وهو جيش المؤخرة من قوات قشتالة وليون والبرتغال ، وفرسان قلعة رباح وشتن ياقب والأسبترارية ، ويقوده ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، يعاونه

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٠ .

(٢) الروض المعمار ص ١٣٧ .

(٣) البيان المغرب ص ٢٤١ .

عدة قواد من الأحبار والسادة ، وفي مقدمتهم ردريك مطران طليطلة ، وتقدر الرواية عدد الفرسان في هذه الجيوش بثلاثين ألفاً ، وذلك غير المشاة .

وخرج الناصر في جيوشه من إشبيلية في العشرين من محرم سنة ٦٠٩ هـ (٢٣ يونيه سنة ١٢١٢م) متجهاً صوب جيان ، وقاصداً لقاء النصارى . وكانت الجيوش النصرانية تسير في نفس الوقت نحو الأراضي الإسلامية ، فوصلت طلائعها في اليوم الرابع والعشرين من يونيه ، إلى حصن مَلْجُون ، وهو من حصون الحدود الإسلامية ، فاستولت عليه ، وقتلت حاميته الإسلامية الصغيرة ، ثم استمرت الجيوش النصرانية في سيرها صوب قلعة رباح أكبر وأمنع القواعد الإسلامية في تلك المنطقة . وكان الخليفة المنصور قد انتزعها عقب موقعة الأرك من فرسان قلعة رباح حسبما تقدم وحول كنيستها إلى مسجد ، وعين لقيادتها أبا الحجاج يوسف بن قادس ، وهو من أنجاد الفرسان والقادة الأندلسيين ، وكان يسهر على حمايتها ، والدفاع عنها ، من ذلك التاريخ ، وكان لديه وقت مقدم النصارى حامية من سبعين فارساً^(١) . ولقي النصارى في عبور نهر وادي يانه الذي تقع قلعة رباح على مقربة من صفته الجنوبية صعباً ، إذ كان المسلمون قد نثروا على جانبيه الصنابير والخوازيق الحديدية ، فلما عبروا النهر ، طوقوا القلعة في الحال ، ولكن القلعة كانت فضلاً عن مناعتها الطبيعية بوقوعها جنوبى النهر ، تتمتع بأسوار وأبراج في منتهى المناعة ، ومن ثم فقد تردد النصارى في مهاجمتها بادئ ذى بدء ، ولبثوا تحت أسوارها ثلاثة أيام يبحثون فيما إذا كان من الأفضل الاكتفاء بتطويق القلعة ، وترك افتتاحها لما بعد وقوع النصر ، ولكن غلب الرأى في النهاية بوجوب مهاجمتها ، فهوجمت بشدة في يوم ٣٠ يونيه ، واستطاع النصارى أن يحتلوا قسمها الخارجى الذى يحاذى النهر ، وهو أضعف قسميها من حيث المناعة . وهنا تتفق الروايتان النصرانية والإسلامية ، فيما تلا من تفاهم المسلمين والنصارى على تسليم القلعة ، ومنح الأمان لحاميتها ، وتركهم أحراراً في مغادرتها إلى بلادهم ، وذلك على نحو ما حدث في شلبطرة بالنسبة لحاميتها النصرانية . وكان ابن قادس قد انتهى إلى هذا الرأى ، بعد أن حاول الاستنجاد عبثاً بالناصر ، وهو بمحلته القريبة ، وبعد أن أيقن بعث الدفاع ، وتعريض رجاله لموت محقق ، إذا هو أصر على القتال . وكان ألفونسو ملك قشتالة ، يؤيد هذا الحل السلمى الذى يمكنه

من الاستيلاء على قلعة رباح دون تأخير ودون سفك دماء . ولكن حلفاءه من الأرجونيين والأجانب الوافدين ، عارضوا في أية تسوية تحقق بها دماء الحامية الإسلامية . ولكن غلب الرأي بقبول هذا الحل في النهاية ، خصوصاً ، وقد صمم ابن قادس على الدفاع ، إذا لم يجب إلى ما طلب من منح الأمان والحرية لرجاله . واتفق على أن يغادر الفرسان المسلمون القلعة دون سلاح ، ومعهم خمسة وثلاثون من الخيل . وهكذا استولى ألفونسو الثامن على قلعة رباح ، وسلمها في الحال إلى « فرسان قلعة رباح » أصحابها السابقين ، قبل أن يفتحها الخليفة المنصور^(١).

وكان افتتاح قلعة رباح مثار التناوب والخلاف بين القشتاليين وحلفائهم الوافدين . ذلك لأن الوافدين الصليبيين ، رأوا في إفلات المسلمين من القلعة أحراراً أحياء ، عملاً لمبرر له ، ولا يتفق مع أغراض الحرب الصليبية ، وثانياً لأن ألفونسو وجد في قلعة رباح مقادير وافرة من المؤن قسمها بالتساوي بين الجند الوافدين وزملائهم المحاربين الأصليين ، ولكن سرت الإشاعة بين الجند الوافدين ، أن ملك قشتالة ، قد عثر بالقلعة على تحف وذخائر كثيرة استأثر بها لنفسه . ومن ثم فقد أبدت طوائف كثيرة من الجند الوافدين تبرمها وسخطها ، واحتج كثير منهم بأنهم لا يحتملون جو إسبانيا الحار ، وأنهم وفوا بعهودهم في مقاتلة المسلمين في ملجون وقلعة رباح ، وأبدوا عزمهم على الرجوع إلى بلادهم ، وأيدهم في ذلك مطران بورديو أعظم أحبارهم ، ولم تنجح جهود ملك قشتالة وزملائه الإسبان ، في إقناعهم بالعدول عن قرارهم ، وغادرت معظم الطوائف الوافدة المعسكر القشتالي ، ولم يبق منهم سوى أرنولد أسقف أربونة في رجاله ، والكونت تيوبالد بلاسكون وهو قشتالي المنبت ، وكانت عدة رجالهم مائة وثلاثون فارساً ، وبلغ من غادر المعسكر القشتالي على هذا النحو زهاء خمسين ألف مقاتل ، احترقوا قشتالة ، صوب جبال البرنيه عائدين إلى بلادهم ، وقد أغلقت سائر المدن الإسبانية أبوابها في وجوههم خوفاً من اعتدائهم وعيهم^(٢).

(١) المعجب ص ١٨٣ ، وروى القرطاس ص ١٥٧ . وراجع أيضاً رواية أسقف أربونة ، وكان مشتركاً في الموقعة ، وقد أوردها Huici Miranda : Las Grandes Batallas de la Reconquista (Madrid 1956) p. 242, 244 & 245 والموحدين « الترجمة العربية » ص ٣٦١ و٣٦٢ .

(٢) أشباح في تاريخ المرابطين والموحدين الترجمة العربية ص ٣٦٢ و٣٦٣ . وراجع أيضاً رواية أسقف أربونة H. Miranda : ibid ; p. 245 .

ولأنه لما يلفت النظر أن الرواية الإسلامية ، لم يفتها أن تشير إلى هذا الشقاق الذى وقع فى المعسكر النصرانى ، على أثر افتتاح قلعة رباح ، فترى المراكشى يقول مشيراً إلى افتتاح القلعة « فسلمها إليه المسلمون الذين بها بعد أن أمنهم على أنفسهم ، فرجع عن الأدفنش لعنه الله بهذا السبب من الروم جموع كثيرة ، حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة ، وقالوا إنما جئت لتفتح بنا البلاد ، وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين ، مالنا فى صحبتك من حاجة على هذا الوجه » (١) .

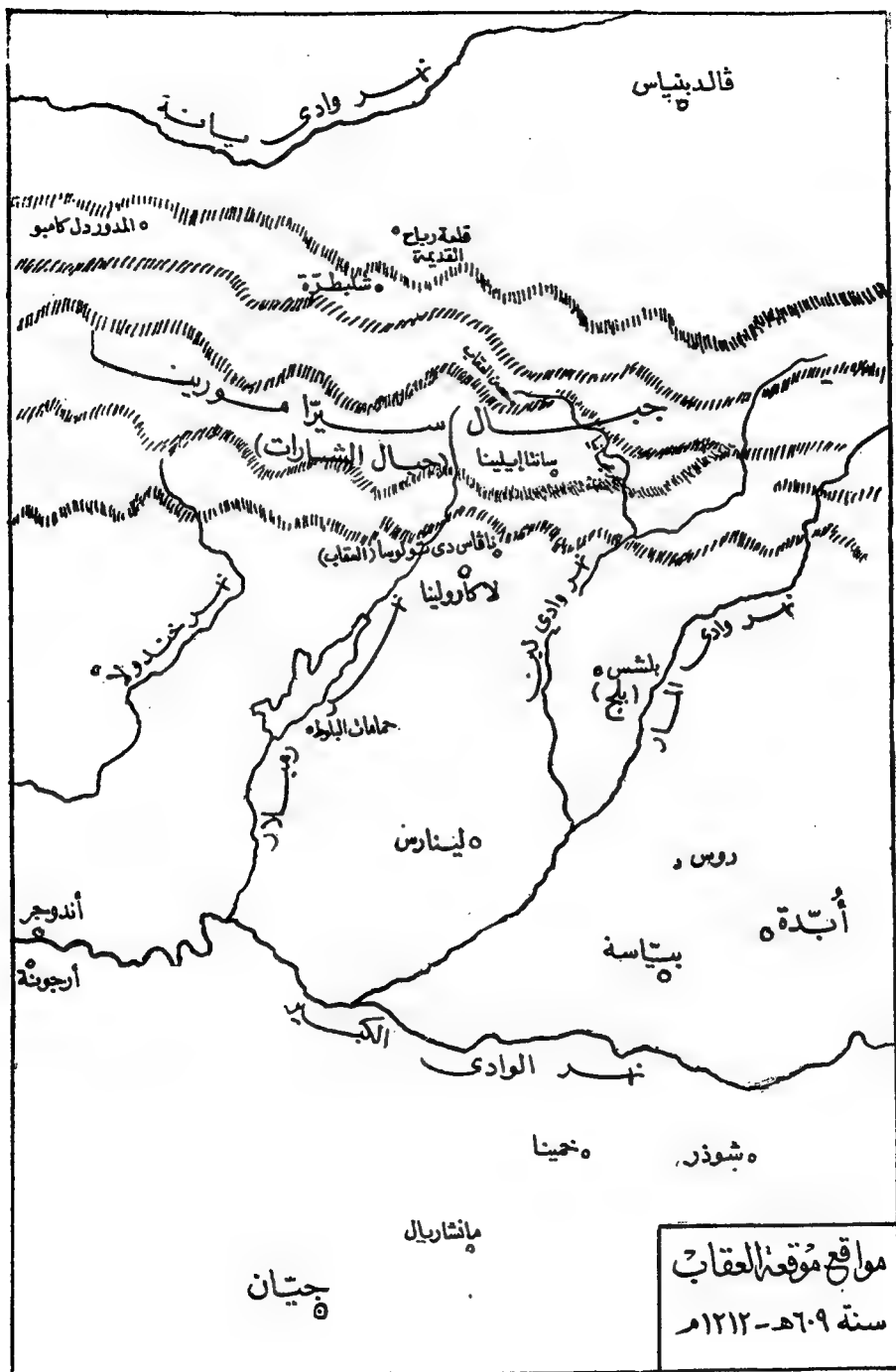
— ٢ —

وفى ذلك الحين كان الناصر قد وصل فى جيوشه الحرارة إلى جيان ، وهنالك استقر بظاهرها أياماً ، منتظراً عبور النهر ، ووقف على ما وقع من أحداث على الحدود ، من سقوط قلعة رباح فى يد العدو ، وماحدث على أثر ذلك فى المعسكر النصرانى من الشقاق ، وما عمدت إليه طوائف الجند الوافدين من العود إلى بلادها . وقدم ابن قادس قائد قلعة رباح عندئذ ، إلى المحلة الموحدية ، مع صهره ونفر من أصحابه ، ليقص أمره على الخليفة ، فنعه الوزير أبوسعيد بن جامع من ذلك ، وصور موقفه للخليفة أسوأ تصوير ، واتهمه بالخيانة وتسليم القلعة للنصارى ، فأمر الناصر بإعدامه هو وصهره ، دون أن يستمع إليه ، أو يستوضح أمره ، فأعدما طعناً بالرماح ، وكان لمصرع هذا القائد الأندلسى الباسل على هذا النحو ، وقع عميق بين مواطنيه الجند الأندلسيين ، ولما شعر الوزير ابن جامع بما حدث من تغير نفوس الأندلسيين ، استدعى قادتهم ، وطلب إليهم أن يعزلوا جيش الموحدين ، وأنه لاجابة للموحدين بهم . وكانت هذه إحدى البوادر المقلقة فى المعسكر الموحدى (٢) .

وكان لسقوط قلعة رباح فى أيدي النصارى أسوأ وقع فى نفس الخليفة الناصر ، وكان ألفونسو الثامن عقب استيلائه على القلعة ، قد استطاع أن يتغلب بسرعة على ماحدث فى المعسكر النصرانى ، من جراء ذلك من خلل ، بسبب رحيل بعض طوائف المحاربين الوافدين ، وأن ينظم ما تبقى من قواته المكونة من قوات قشتالة وأراجون وجليقية والبرتغال . وكان ملك نافارا ، قد ارتضى

(١) المعجب ص ١٨٣ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٨ ، والروض المطار ص ١٣٧ .



مواقع موقعة العقاب
سنة ٦٠٩ هـ - ١٢١٢ م

أخيراً بالرغم من خصومته القديمة لقشتالة ، ومهادنته للموحدين ، أن يشترك في تلك الحملة الصليبية بقوة صغيرة من الفرسان ، وذلك نزولاً على نصيح البابا وإلحاحه^(١) ، وهكذا استأنفت القوات النصرانية المتحدة سيرها إلى الجنوب نحو الأراضي الإسلامية ، ومرت بشلبطة دون أن تتعرض لها ، حتى أشرفت طلائعها على مرتفعات جبال الشارات (سييرا مورينا) ، ثم لحقت بها سائر القوات الأخرى ، واحتلت البسيط العلوى المقفر المسمى ممر مورادال ، وذلك في يوم ١٣ يولييه (العاشر من صفر سنة ٦٠٩ هـ) .

وفي خلال ذلك كان الخليفة الناصر ، قد تحرك في جيوشه الحرارة نحو الشمال للملاقاة العدو ، وكانت الجيوش الموحدية ، قد قسمت كالعادة إلى وحداتها العنصرية والقبلية ، فكانت خمسة أقسام ، يتكون القسم الأول من طوائف العرب ، ويتكون القسم الثاني من القبائل المغربية مثل صنهاجة وزناتة والمصامدة وغمارة وغيرها ، والقسم الثالث من الجنود المتطوعة ، والقسم الرابع من جند الموحدين النظامية ، والقسم الخامس من جنود الأندلس . أما عن عدد الجيوش الموحدية التي كان يقودها الناصر ، فقد بولغ في شأنه مبالغة كبيرة . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن الناصر قد خرج في جيوش لا تحصى وأمم كالحراد المنتشر ، قد ملأت السهل والوعر ، وضاق بهم المتسع والنجد والغور . ثم يقدم إلينا في موضع آخر أرقام الجيوش الموحدية مفصلة ، فيقول إن عدد المتطوعة بلغ مائة وستين ألفاً بين فارس وراجل ، وبلغ عدد الرجال المحشودين ثلاثمائة ألف راجل ، وبلغ عدد العبيد الذين يمشون بين يدي الخليفة بالحراب ويدورون حوله ثلاثون ألف عبد ، ومن الرماة والأغزاز (الغز) عشرة آلاف . وذلك كله دون المرتزقة من الموحدين وزناتة والعرب وغيرهم . ومعنى ذلك أن الجيوش الموحدية بلغت مجتمعة نصف مليون مقاتل غير المرتزقة^(٢) . وفي رواية أخرى لا تقل مبالغة وإغراقاً أن الجيوش الموحدية كانت تضم ستمائة ألف مقاتل^(٣) ، وهذا تقدير لا يمكن أن يسيغه العقل ، إذ كان من المستحيل مادياً أن يكفل تموين مثل هذا الجيش ، وخصوصاً في مثل هذه المنطقة الوعرة التي كان يحترقها الجيش الموحدى للبقاء

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤١ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٥ و ١٥٩ و ١٦٠ .

(٣) المقرئ في نفع الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ ، ونقله السلاوى في الإستقصاء ج ١ ص ١٩١ .

أعدائه . ونحن نعرف أن مسألة التكوين بالذات كانت من أعقد مشاكل الجيش الموحدى ، وكانت تسبب له دائماً أزمات ومتاعب عديدة . ونحن نعتقد أننا لو قدرنا الجيش الموحدى بمختلف وحداته بمائتى ألف مقاتل ، لكننا أقرب كثيراً إلى الحقيقة والمعقول .

واخترقت الجيوش الموحدية نهر الوادى الكبير ، واتجهت صوب بياسة ، وكانت قد تخلفت أياماً عن عبوره لارتفاع مائه ، ثم عبرته حين نضب الماء ، واحتلت سريات من خيرة أنجادهامرات جبل الشارات المؤدية إلى بياسة وأبدة ، ومنها ممر « لوسا » الوعر ، الذى تستطيع قوة صغيرة باحتلاله أن تمنع جيشاً كبيراً من جوازه ، ثم نزلت الجيوش الموحدية فى البسيط الواقع تجاه هذا الممر وهو يقع اليوم أمام الطرف الغربى لقرية سانتا إيلينا Sta. Elena وتسميه رسالة الغزو الرسمية « بالمرشة » .

واعترزم الخليفة الناصر أن يصمد فى هذا المكان للقاء النصارى . وكان الناصر يعتمد على ما بلغه من حوادث الانشقاق فى الجيوش النصرانية ، وما تلقاه من متاعب التكوين ، لانتهاز الفرصة فى لقاءها ، وهى متعبة ، فطرة الهمم . ويبدو من أقوال سائر الروايات الإسلامية ، أن الناصر كان واثقاً من النصر ، معترزا غاية الاعزاز بضخامة حشوده ، وتفوقه العددي .

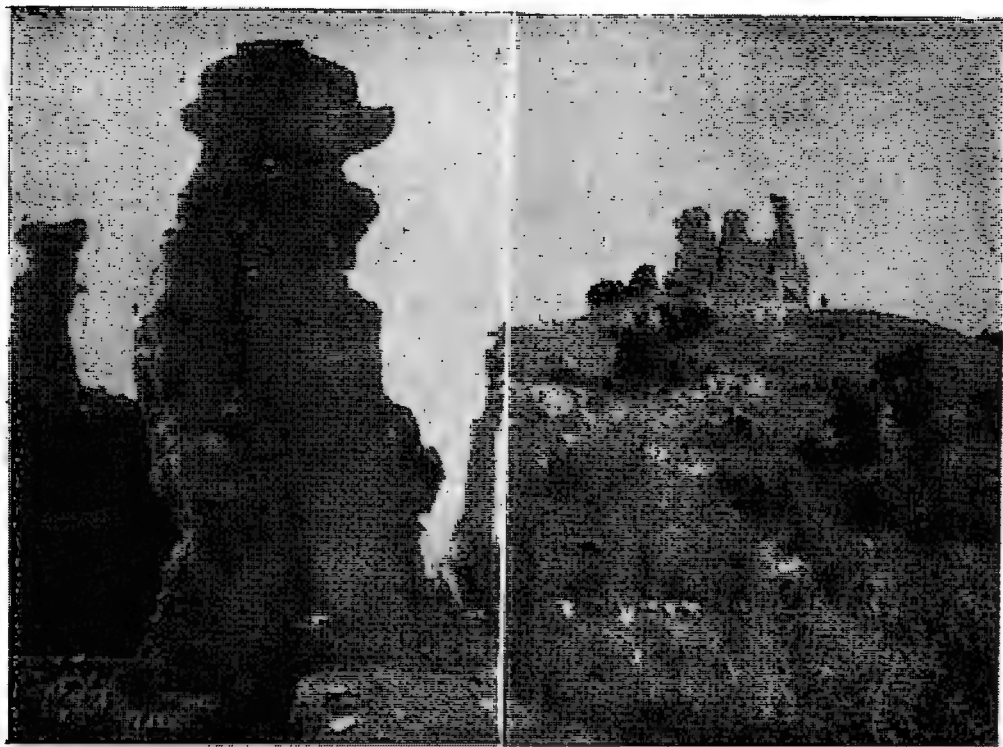
ولابد لنا قبل أن نعرض إلى تحركات الجيشين المتحاربين ، أن نحاول أن نرسم للقارئ صورة واضحة من أوضاع هذه المعركة الشهيرة ، والأمكنة التى وقعت فيها . ذلك أن دراسة ميدان معركة العقاب ، وخواصه الطبوغرافية ، مما يساعد على إيضاح كثير من الروايات التى وردت بشأن المعركة ، وقد كان من حسن الطالع أن أتيح لنا أن نقوم بهذه الدراسة الشاقة ، وأن نتجول فى هضاب جبال سيرا مورينا (جبال الشارات) وأن نصعد إلى قممها الشاهقة ، وأن نشهد الأماكن التى اجتازتها وعسكرت فيها الجيوش النصرانية ، وأن ندرس طبيعة المكان الذى كان يحتله الجيش الموحدى فى أسفل الجبال .

ويجب أن نذكر أولاً أن المعركة تعرف فى التواريخ النصرانية ، بمعركة نافاس دى تولوسا Navas de Tolosa ، وهذا الاسم مازال يطلق حتى اليوم على محلة أوضاع صغيرة ، تقع فى سفح جبال الشارات على مقربة من شمال شرقى بلدة « لاكارولينا » الواقعة على الطريق الكبير الممتد من مدريد جنوباً إلى الأندلس .

يبد أن هذا الاسم القديم الذى يعنى « هضاب تولوسا » أو « عقاب تولوسا » قد فقد مدلوله القديم : وتدل سائر المعلومات والوثائق التاريخية ، وكذلك الحوث الحديثة ، على أن المعركة لم تقع فى هذا المكان الذى أطلق اسمه عليها ، بل وقعت شمالى هذا المكان بنحو عشرة كيلومترات ، فى الهضاب والبساتط ، الواقعة غربى قرية « سانتا إيلينا » فيما بينها وبين قرية « ميرانده دل رى » وفى أسفل الأكمة المسماة « مائدة الملك » Mesa del Rey التى سوف نذكرها فيما بعد ، وذلك حسبما يوضح لنا الرسم التخطيطى ، الذى تقدمه نتيجة لدراستنا لمعلم الموقعة . ونستطيع من جهة أخرى أن نقدم دليلاً على صحة هذا التحديد الطبوغرافى لميدان الموقعة ، ما يعثر عليه الباحثون فى هذا المكان ، من آن لآخر ، من السهام الموحدية الأرضية التى كانت تنصب للخيول ، وقد عثرنا نحن على خمسة منها بالحفر بأنفسنا فى هذه الساحة ، وهى التى نقدم صورتها بعد .

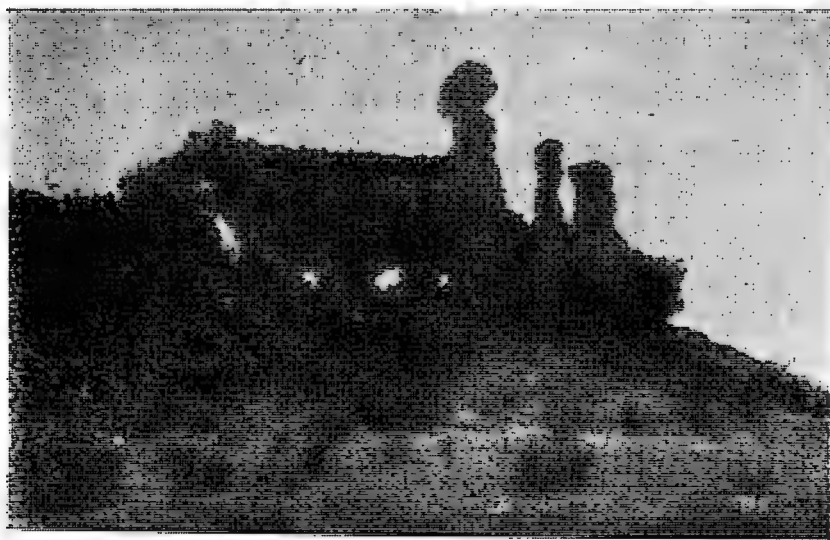
حصن العقاب

وجبال الشارات ، التى لبثت عصوراً تفصل بين الأندلس ، واسبانيا النصرانية ، فى هذه البقعة ، عبارة عن عدة متعاقبة من الجبال السوداء العالية ، تفصلها هضاب وعرة أو بعض السهول المتدرجة . وقد بدأنا بعد رحلة شاقة فى أعماق الجبال ، استغرقت بضع ساعات ، بالصعود إلى موقع الحصن ، الذى يسمى بالإسبانية حصن كسترو فرال Castro Ferral ويسميه صاحب روض القرطاس ، حسبما يأتى بعد ، بـ حصن العقاب أو حصن العقبان . وهو يقع فوق قمة أحد الجبال فى الصف الثالث أو الرابع تجاه بلدة سانتا إيلينا . وهو يحتل أعلى قمة فى الجبل ، ويقع شمال غربى سانتا إيلينا ، إلى يسار المنحدر الجبلى الشهير المسمى دسبنيابروس Despenaperros (أو منحدر الكلاب) . ولم تبق اليوم من هذا الحصن سوى أطلال دارة هى عبارة عن بقايا جدارين عاليين متوالين . ويبلغ ارتفاع الجدار الأول نحو ثمانية أمتار ، وبه ثغرة كبيرة فى وسطه . ويبلغ ارتفاع الجدار الثانى نحو عشرة أمتار ، وهو يليه ويبعد عنه نحو خمسة أمتار . وتوجد كذلك بقية جدار جانبي إلى يمين الداخل ، طولها نحو عشرة أمتار وارتفاعها نحو ستة ، وفيه ثغرتان من أسفل ، ومساحة هذا الطلل كلها تبلغ نحو عشرين متراً فى خمسة عشر . وما زالت أسس الجدران ظاهرة فى أرض المكان .



الجدار الأوسط لأطلال حصن العقاب

أطلال حصن العقاب كما تبدو عن بعد فوق الجبال



الواجهة الخلفية لأطلال حصن العقاب

الطريق الرومانى والنهر

ولانه لما يسترعى النظر فى أعماق هذه الجبال الوعرة ، هو طريق عبورها ، سواء من الشمال إلى الجنوب أو من الجنوب أعنى من الأندلس إلى الشمال (أراضى قشتالة) . وقد تتبعنا هذا الطريق المسمى « كارثادا » Carzada ، وهو الطريق الرومانى القديم ، وهو يوجد وراء الجبال فى المنحدرات النازلة نحو النهر الصغير الذى يقع فى سهل خفيض فى أسفل الجبل ويسمى نهر مجانيا Magaña وهو عبارة عن فرع صغير من نهر وادى لين المتفرع من نهر الوادى الكبير ، وكان الطريق الهابط يستمر حتى النهر ، ثم بعد عبوره ، يعود فيصعد الصف الثانى من الجبال نحو الشمال . أما النهر ذاته فهو يقع خلف الصف الأول ، وأسفل الصف الثانى من الجبال ، وهو نهر صغير لا يزيد عرضه عن خمسة عشر متراً ، وقد رأينا به قليلاً من الماء . وكان المسلمون يعبرون هذا الطريق الذى كان يعبره الرومانيون من قبل ، إلى أراضى قشتالة .

بويرتو دل مورادال

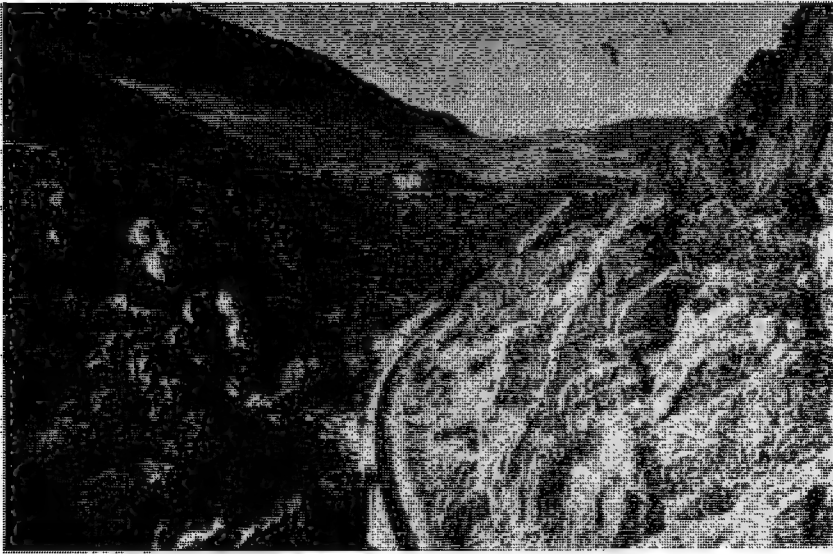
وهذا الطريق المسمى « كرتادا » يسير من ناحية أخرى صاعداً نحو القمة الكبيرة الواسعة من السفح المسماه Puerto del Moradal (بويرتودل مورادال) أو ثغر مورادال ، وكان هذا هو أهم ممرات جبل الشارات . والطريق الصاعد إليه فيما يبدو من آثاره الحجرية ، كان طريقاً عريضاً ، يبلغ عرضه نحو العشرة أمتار . وكذلك يبدو من بعض أجزائه القليلة الباقية ، المعبدة بالحجر الأسود ، أنه كان طريقاً معبداً كله ، وهذا الممر يحتل فوق قمة جبل الشارات مساحة كبيرة منبسطة ، ثم ينزل من الناحيتين صاعداً وهابطاً ، ويسمى منزل هذا الممر وما حوله باسم « الإمبرادليو » Empedradillo . وقد شاهدنا فوق قمة مورادال ، وأمام الممر ، أنقاض أحجار كثيرة ، قبل لنا لأنها كانت أنقاض محلة رومانية Venta خلال الطريق القديم ، ومنها ينزل نحو نهر مجانيا . ويوجد على مقربة من ممر مورادال جبل مطل على النهر يسمى « جبل المسلم » Cerro del Moro .

مائدة الملك

وإلى يسار ممر مورادال ، على مسافة نحو ساعة منه ، توجد قمة أخرى تشغل بسطاً كبيراً بيضاوياً ، يمتد نحو اليمين ونحو اليسار إلى مسافة عدة كيامترات ،



نہر مجانیا کا یبدو فی أسفل الجبال



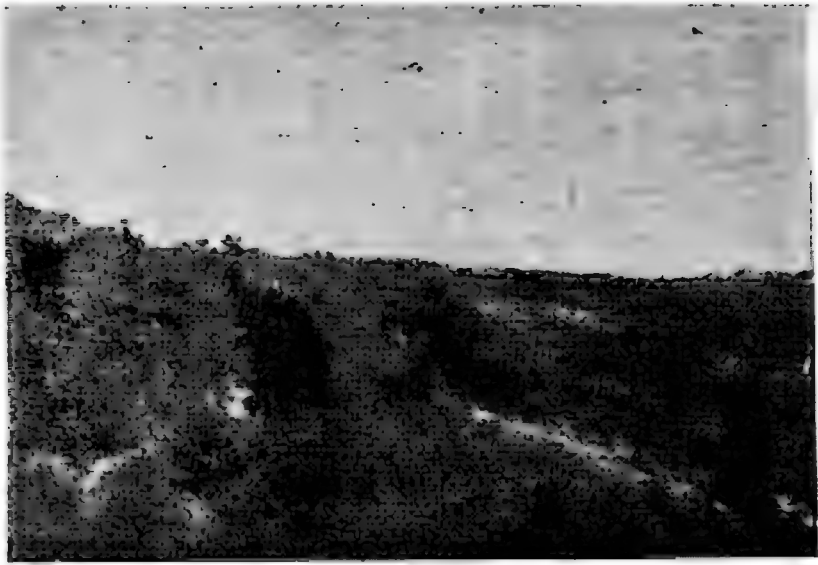
منحدر دسینیاپروس

وهو البسيط الذى يسمى « مائدة الملك » Mesa del Rey ، وقد شهدناه من بعد أولا ، ولاح لنا أنه بالفعل ، مستدير أبيضاضى كالمائدة ، ومن ثم كان الاسم الذى أطلق عليه . وتنحرف جوانب هذه القمة إلى أسفل الوادى ، مغطاة بالخضرة ، وإلى جانبها الأيمن مرتفعات متعددة صاعدة ونازلة . وهذا المرتفع المستدير يمتد كما قلنا من الجانبين إلى مسافات شاسعة يطلق عليها جميعا نفس الاسم « مائدة الملك » ، ويبدو من انبساطها وضخامة مساحتها ، أنها كانت بالفعل تصلح محلة للجيش الغازية .

* * *

ونحن نستطيع بعد تتبع هذا الوصف لأوضاع المعركة وأماكنها المختلفة ، أن نتبع تحركات الجيشين القشتالى والموحدى ، وأن نكون فكرة واضحة عن مسرح معركة العقاب الحقيقى .

وكان النصارى بعد احتلالهم بسيط مورادال الواقع فوق الجبل ، قد استطاعوا أن ينزعوا قلعة كسترو فيرال الإسلامية الواقعة فى قمة الجبل والتى وصفناها من قبل ، وهى التى تسمى أحيانا بـ حصن العقاب ، وكانت بها حامية موحدية صغيرة ، ولكنهم شعروا مع ذلك بـ حرج موقفهم فى ذلك المكان نظراً لوعورته ، ونقص وسائل التكوين والمياه فيه ، وكان لابد لهم بأى حال أن يعبروا جبل الشارات إلى الناحية الأخرى ، وكان ذلك متعذراً عليهم نظراً لاحتلال الموحدين سائر ممراته بقوات كافية ، ولاسيما ممر لوسا الواقع جنوب غربى الحصن ، وهو الذى يفضى إلى سهول تولوسا ، والذى لا يمكن لجيش عظيم بأسره اقتحامه . عندئذ اجتمع الملوك النصارى مع قوادهم للبحث عن مخرج لهذا المأزق ، وكان رأى الغالب ، هو أن يعود الجيش النصرانى أدراجه إلى السهل ، ثم يحاول دخول أراضي الأندلس من طريق آخر ، ولكن ملك قشتالة عارض فى هذا رأى ، لأن أية حركة ارتداد كانت فى نظره خطراً على روح الجيش المعنوية ، فضلاً عن اعتبارها من جانب الأعداء فراراً ونكولاً عن خوض المعركة . وهنا تعرض لنا الرواية النصرانية قصة يطبعها لون من الأسطورة ، وهى أن راعياً من رعاة هذه الأنحاء ، تقدم إلى القادة النصارى ، وأخبرهم أنه يستطيع إرشادهم إلى طريق آخر لعبور الجبل ، يقع فى موضع آخر ، ويفضى إلى سهل أبدية ، ويمكن أن يسلكه الجيش دون أن يقطن العدو إلى ذلك . فسار معه القائدان لوبث دى هارو ،



مر پورتو دل مورادال کا يبدو من أسفل الجبل



بسيط مائدة الملك Mesa del Rey کا يبدو من أسفل الجبل

وغرسية روميرو لمعاينة هذا الطريق ، ولما تحققا من صحة كل ما قاله الراعى ،
بادر الجيش النصرانى فى نفس اليوم — وهو يوم السبت ١٤ يولي — بالسير إلى
ذلك المرتفع الحديد ، واحتلوا بسيطه — وهو البسيط الذى يطلق عليه اليوم اسم
« مائدة الملك » Mesa del Rey وهو الذى وصفناه ، وبينما موقعه فيما تقدم .
وحصنوا ما حوله ، وبقيت بقية الجيش النصرانى مرابطة من ورائه ، واعتبر
هذا الراعى المرشد منقذاً أرسله الله^(١) .

ولم يخف أمر هذه الحركة التى قام بها الجيش النصرانى على الموحدين ، وقد
وقفوا فى الحال على مكان عدوهم الحديد ، وحاولت فرقة من الفرسان الموحدين
عبثاً أن تنتزع هذا المرتفع الحديد من أيدي النصارى . وصدرت أوامر الخليفة
الناصر بتعبئة الجيوش الموحدية لخوض المعركة فى الحال ، ولكن الملوك النصارى
آثروا الاعتصام مؤقتاً بمركزهم المنيع ، ولم يريدوا بالأخص أن يخوضوا المعركة
فى يوم أحد ، واقتصر الأمر على بعض المناوشات البسيطة بين سرايات الفرسان
من الفريقين . بيد أنه لم يكن من الميسور على النصارى أن يؤخروا خوض المعركة
لأكثر من يوم ، أولاً لقلة مؤنهم ، وخوفهم أن تنضب بسرعة ، وثانياً لكون
الجيش الموحدى ، لبث منذ يوم السبت فى حالة تعبئة مستمرة للقتال ، وقد
يفاجئ الجيش النصرانى بالهجوم . وكان الناصر على علم مستمر بأحوال الجيش
النصرانى ، وكانت كل تقديراته تؤكد له تحقيق الظفر المنشود .

وليس لدينا فى الرواية الإسلامية تفاصيل شافية ، عن التنظيمات التى وضعت
للجيوش الموحدية لخوض المعركة ، بيد أنه يبدو مما ذكره لنا صاحب روض
القرطاس ، وكذلك ما يذكره لنا ردرىك الطليطلى ، وهو من شهود المعركة ،
أن الجيش الموحدى ، قُسم وفق الأوضاع الموحدية إلى خمس فرق ، تتألف
الفرقة الأمامية من القوات المتطوعة من مختلف الطوائف ، وتتألف قوات القلب
والقوات الاحتياطية من الحند الموحدين ، وهم أغلبية الحند النظامية ، وتتألف
الميمنة من القوات الأندلسية ، والميسرة من قوات البربر من مختلف القبائل .

(١) وردت هذه التفاصيل وهذه القصة فى معظم التواريخ النصرانية الإسبانية . ويراجع فى ذلك
Primera Crónica General (Ed. Pidal) Vol. II, p. 698 ونقلها الأستاذ هوبن فى كتابه:
Las Grandes Batallas de la Reconquista ; p. 250 . ونقلها أيضاً أشباخ فى تاريخ
المرابطين والموحدين (الترجمة العربية) ص ٣٦٥ .

والسهل الواقع في جنوبها
خلال جبال سيرا مورينا
للمواقع موقعة العقاب

پورتوقد لموراحال

۱۰۰

Los Cinbarillos

erros de las Viñas
أكمة الكدوم

Los Cinbarillos

Carta del Experto

pasos de los

مذكرة



حصن العقاب
أطلال

محكمة الجيوش النضالية

أهمية المادة

أهمية المادة

أهمية المادة

وضربت قبة الخليفة الحمراء ، فوق ربوة عالية تتوسط البسيط الذى تحتله الحيوش الموحدية ، والذى يواجه مواقع الجيش النصرانى . ودارت العبيد ، وهم أغلبية الحرس الخليفى حول القبة من كل ناحية ، وكلها مزودة بالسلاح والعدة ، وضرب فى نفس الوقت حول القبة الخليفة سياج من الأعمدة وعدة من السلاسل الحديدية الضخمة ، وشهر جند الحرس حراهم فى اتجاه العدو ، فكانت سداً منيعاً دون اختراقه الموت ، وجلس الناصر فى قبة مستنداً إلى درقته ، ومعه أشياخ الموحدين ، وربطت فرسه مسرجة أمامه ، ووضعت الساقات والبندول والطبول أمام العبيد ، تحت إمرة الوزير أبى سعيد بن جامع . وكان بوسع النصرانى أن يروا من مواقعهم العالية ، جموع المسلمين التى لا تحصى ، وفى قلبها قبة أمير المؤمنين الحمراء^(١) .

أما عن تنظيم الجيش النصرانى فلدينا تفاصيل كثيرة ، يقدمها إلينا ردرىك الطليطلى وغيره من شهود المعركة ، وخلاصتها أن الجيش النصرانى قسم إلى ثلاثة أقسام رئيسية ، يتزعم كل قسم منها ، ملك من ملوك النصرانى الثلاثة ، الأول يتكون من القلب ويقوده ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، هذا إلى جانب احتفاظه بالقيادة العليا . ويتكون الثانى من الجناح الأيمن ، ويقوده سانشو ملك نافارا ، ويضم فضلاً عن القوات النافارية ، جند سرية وآبله وشقوبية ومدينة سالم ، وفرسان فرنسا الذين يرأسهم مطران أربونة ، وجند جليقية والبرتغال . ويتكون القسم الثالث من الجناح الأيسر ، ويقوده بيدرو الثالث ملك أراجون ، ويشتمل على قوات الطليعة والقوات التى يقودها أشراف أراجون . وقد وزع كل قسم من هذه الأقسام إلى وحدات عديدة ، فوضع فى القلب فرسان الداوية والأسبتارية وفرسان قلعة رباح كل منها تحت إمرة قائده الخاص ، وكذلك الصفوف التى يقودها مطران طليطلة وخمسة من الأساقفة القشتاليين^(٢) .

وفى ليلة يوم الاثنين الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩ هـ (ليلة ١٦ يولية سنة ١٢١٢ م) ، استعد الفريقان لخوض المعركة ، وقضى النصرانى شطراً من

(١) روض القرطاس ص ١٥٨ ، وراجع أيضاً أشباخ فى تاريخ المرابطين والموحدين ، الترجمة العربية ص ٣٦٧ ، وكذلك :

Huici : cit. Anales Toledanes, Las O. Batallas de la Reconquista p. 267

(٢) أشباخ الترجمة العربية ، ص ٣٦٦ ، وكذلك : Huici : ibid; p. 253 & 254 .

الليل في الصلاة والدعاء ، وتلقى البركة والغفران البابوي على يد الأساقفة ورجال الدين . ولم نجد في الرواية الإسلامية ما يشير إلى أنه وقع الجيش الموحدى في تلك الليلة ، شئ من تلك المناظر المؤثرة ، التي وقعت به قبيل اضطرام معركة الأرك ، من تبادل الاستغفار بين الخليفة والناس ، ومن وعظ وبكاء وحث على الجهاد ، فقد كان الخليفة الناصر حسبما تشير سائر الروايات ، واثقاً من النصر ، واثقاً من تفوقه العددي الهائل ، ولم يكن ينتظر سوى بدء المعركة لإحراز النصر المنشود .

وبدأت المعركة في الصباح الباكر من يوم الاثنين الخامس عشر من صفر ، وكان كل من الجيشين على أهبة لحوضها ، وقد رتبت صفوفه وفقاً للأوضاع التي سبق وصفها . وبدأ النصارى بالهجوم ، فهبطت طلائعهم بسرعة من المرتفع الذى تحتله الجيوش النصرانية في بسيط « مائدة الملك » Mesa del Rey إلى السهل الأسفل الذى يحتله الجيش الموحدى ، والذى يشغل بسيطاً شاسعاً ، يقع عند الطرف الغربى من بلدة « سانتا إيلينا » ، ويستند من الخلف إلى سلسلة من المرتفعات المنخفضة ، وانقضت على مقدمة الجيش الموحدى ، فلقيتهم صفوف المتطوعة بقوة وثبات ، واقتتل الفريقان بشدة حتى بدأ النصارى في التراجع ، فأدركتهم الأمداد ، وعادوا إلى الثبات تعززهم فرق الفرسان ، التي صعب على المتطوعة الموحدىن اختراقها ، وهجم في نفس الوقت جناح الجيش النصرانى على جناحى الجيش الموحدى ، واحتدمت بين الجيشين معركة هائلة عامة ، وكانت طبول الساقة الموحدية ، تهز الآفاق بدويها الرائع . ويستفاد من أقوال الروائين الإسلامية والنصرانية ، أن المتطوعة المسلمين بعد ثباتهم الأول ، قد ارتدوا تحت ضغط النصارى الهائل ، وكثر القتل فيهم ، بل يقول لنا صاحب روض القرطاس ، إنهم لبثوا يقاتلون حتى استشهدوا عن آخرهم « وعساكر الموحدىن والعرب وقواد الأندلس ينظرون إليهم لم يتحرك منهم أحد »^(١) . ولكن النصارى حين تقدموا بعد التغلب على فرق المتطوعة إلى قلب الجيش الموحدى ، لقوا من الجند الموحدىن أشد مقاومة ، وردوا على أعقابهم . ومن جهة أخرى ، فإن قوات الميمنة والميسرة الموحدية استطاعت بعد قتال عنيف أن ترد جناحى الجيش النصرانى ، وأخذ النصارى حسبما تقول لنا الرواية النصرانية ذاتها ، في الارتداد

والفرار^(١)، ولاح للفريقين أن لواء النصر سوف يعقد للموحدين .
ولكن هذه البارقة لم يطل أمدھا . ذلك أن ألفونسو الثامن ملك قشتالة ،
حينما شهد من فوق المرتفع ما آلت إليه المعركة ، من تراجع القوات النصرانية
في القلب والجناحين ، وما ينذر به ذلك من هزيمة محققة ، اعتزم في الحال أن
ينزل إلى الميدان بقواته الاحتياطية المختارة ، من قوات قشتالة وليون ، ليقا تل
قتال اليائس ، واندفع بالرغم من اعتراض المطران والأساقفة والقوامس على مسلكه
الخطر ، في قواته إلى الصف الأمامي . وتبعه في نفس الوقت ملكاً أراجون ونافاراً
كل في قواته ، نحو جناحي الجيش الموحدى ، وهجمت القوات النصرانية
كلها في وقت واحد ، بمنتهى العنف والشدة ، حتى بدأت ميمنة الجيش الموحدى
وميسرته في الارتداد أمام ضغط الفرسان النصارى ، وفر الأندلسيون والعرب ،
وأحدث فرارهم اضطراباً في الصفوف . وهنا تمركز هجوم النصارى على قلب
الجيش الموحدى ، المكون من الجنود النظامية والاحتياطية ، والذي تتوسطه
قبة الخليفة الحمراء ، ومن حولها الحرس الخليئ الأسود ، وكان النصارى قد
انتعشوا ، بما شهدوا من تطور المعركة في صالحهم ، فشدوا الهجوم على الموحدين .
وصمد الموحدون ، ودافعوا بمنتهى الشدة ، ومن ورائهم الحرس الأسود شاهراً
رماحه ، من وراء السلاسل الحديدية الضخمة ، وكان الخليفة الناصر قد أدرك
حقيقة الموقف ، فنهض من مجلسه وجلس أمام خبائه على درقته ، وهو بحث جنوده
على الاستبسال ، واستطاع النصارى أخيراً أن يخترقوا قلب الجيش الموحدى إلى
دائرة الحرس الأسود ، فردتهم السلاسل الحديدية ورماح العبيد المشهرة حيناً ،
وهم كالبنيان المرصوص حول القبة الخليفية . ولكن النصارى « ردوا أكفال الخيل
المدرعة إلى رماح العبيد »^(٢) فاخترقوا الدائرة المدرعة ، وكان أول من دخلها
منهم الكونت ألبارو نونيز دى لارا على رأس كتيبة من الفرسان القشتاليين ، وفي
يده علم قشتالة الأبيض ، ودخلها في نفس الوقت ملكاً أراجون ونافاراً كل من
ناحيته ، وبذلك مزق الجيش الموحدى من كل ناحية ، وكثر القتل فيه كثرة
مروعة ، ولبت الخليفة الناصر حتى آخر لحظة في مجلسه الحرج ، وهو يحاول

(١) وهذا ما تقوله لنا رواية ألفونسو العالم . وتراجع في : *Primera Crónica General* :

(Ed. Pidal) Vol. II p. 701 .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٨ .

حث جنده على الصمود . وتنوه الرواية الإسلامية بثبات الناصر وصموده اليائس في تلك اللحظة الرهيبة ، التي تناثر فيها الجيش الموحدى ، والحرس الخلفى من حوله أشلاء دامية ، وشراذم فارة في كل ناحية ، وتقول لنا إنه لبث في مكانه لا يترجح ، حتى كادت الروم أن تصل إليه ، بل كاد أن يهلك ، وقتل حوله من العبيد أكثر من عشرة آلاف عبد ، وأنه لولا ثباته على هذا النحو لاستوصلت جموع الجيش الموحدى كلها قتلا وأسرا^(١) . واضطر الناصر في آخر لحظة أن يمتطي صهوة فرس قدمها إليه أعرابى كان إلى جانبه ، وأن يفر مع نفر من خاصته على جناح السرعة جنوبا نحو بيباسة ، ثم اتخذ طريقه منها إلى جيان ، وكانت فلول الجيش الموحدى عندئذ تفر في كل ناحية ، ومن ورائها الفرسان النصارى يمعنون فيها قتلا وإفناء . واستمرت هذه المطاردة المروعة على مدى ثلاث مراحل حتى دخل الليل ، وكانت أشنع ما وقع من ضروب السفك والتقتيل . إذ هلك فيها عشرات الألوف من الحند الفارين ، وانقض الحند النصارى على المحلة الموحدية ينتزعون منها ما استطاعوا من المتاع والأسلاب ، بالرغم من تحذير مطران طليطلة . وقبل مغيب الشمس ، كان الملوك النصارى ، والمطران ، والأساقفة ، وجزء كبير من الجيش النصرانى ، قد دخلوا محلة الجيش الموحدى ، واستقروا بها ، وأضحى الجيش الموحدى العظيم الذى كان بها منذ ساعات قلائل فقط ، أثراً بعد عين .

وكان وقوع هذه التكة المروعة بالجيش الموحدى في يوم الاثنين الخامس عشر من شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ الموافق يوم ١٦ يولية سنة ١٢١٢^(٢) ، وهى تعرف في التواريخ النصرانية حسبا قدما بموقعة هضاب أو عقاب تولوسا Las Navas de Tolosa لوقوعها فوق مجموعة من الوديان الصغيرة ، التى تحيط بها الربى ، تقع في سفح جبل الشارات الجنوبى ، وتعرف أيضاً بموقعة أبدة لوقوعها على مقربة من شمال غربى هذه المدينة . وأما في التواريخ الإسلامية فإنها تعرف

(١) روض القرطاس ص ١٥٩ ، والمراكشى في المعجب ص ١٨٣ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤١ .

(٢) هذا هو التاريخ الذى تأخذ به معظم الروايات الإسلامية ، وهو الذى يتفق بالفعل مع الروايات النصرانية (راجع المعجب ص ١٨٣ ، وروض القرطاس ص ١٥٩ ، والروض المعطار ص ١٣٨) . ولكن ابن خلدون يضع تاريخها في أواخر صفر سنة ٦٠٩ هـ (كتاب العبر ج ٦ ص ٢٤٩) . ويضع صاحب البيان المغرب تاريخها في يوم الاثنين ٨ صفر سنة ٦٠٩ هـ - القسم الثالث ص ٢٤١ .

بموقعة العقاب ، من مفردها عقبة ، وذلك فيما يرجح لوقوعها بين الربى والتلال المانعة^(١) ، وليس بمعنى المعاقبة على الذنب ، وإن كان بعض الكتاب والشعراء قد نسبوا إليها مثل هذا المعنى ، في معرض التلويح بغضب الله وعقابه للموحدين ، لأنهم حادوا عن جادته ، وبغوا وتجبروا ، واعتمدوا على كثرتهم ولم يعتمدوا على عونته . وينفرد صاحب روض القرطاس إلى جانب تسميتها بموقعة العقاب بتسميتها بموقعة « حصن العقاب » أو « حصن العقبان »^(٢) وهو باسمه الإسباني حصن فرآل أوكاستروفرال Castro Ferral الواقع في قمة جبل الشارات ، والذي استولى عليه القشتاليون قبيل المعركة ثم تركوه ليعبروا الجبل من الناحية الأخرى التي أرشد عنها البراعى .

ومن المسلم أن خسائر المسلمين في معركة العقاب كانت فادحة جداً . والروايات الإسلامية تجمع كلها على أن الجيش الموحدى ، قد هلك معظمه . بيد أنها تذهب أحيانا إلى تقديرات لا يستسيغها العقل ، ومن ذلك مايقوله صاحب روض القرطاس أنه لم ينبج من الجيش الموحدى إلا الواحد من الألف ، فإذا ذكرنا أنه يقدر جموع الجيش الموحدى بأكثر من نصف مليون ، فمعنى ذلك أنه لم ينبج من الموحدين في المعركة سوى خمسمائة جندى ، وهذا منتهى الإغراق . ثم هو من جهة أخرى يقول لنا بأن سبب هذه الكثرة الفادحة من القتلى ، يرجع إلى أن ملك قشتالة أمر أن ينادى في جيشه بأن لا أسر إلا القتل ، ومن أتى بأسير قتل هو وأسيره^(٣) . ويصف صاحب الحلال الموشية الموقعة « بالهزيمة العظمى » التي فنى فيها أهل المغرب والأندلس . ويقول صاحب « الذخيرة السنية » مشيراً إلى الموقعة أنه قتل من المسلمين خلق كثير لا يحصر ، وفيها فنى جيوش الغرب والأندلس^(٤) ، ولكن المراكشى وهو مؤرخ معاصر يقول لنا في نوع من الاعتدال ، إنه قتل من الموحدين خلق كثير ، ويتابعه في هذا الوصف صاحب الروض المعطار ، ويقول لنا إنه قد هلك في الموقعة جملة من الأعيان والطلبة ، منهم أبو بكر بن عبد الله بن أبى حفص ، وعلى بن الغانى الميورقى . وسقط كذلك في المعركة عدة من أكابر

(١) جاء في القاموس المحيط أن عقبه بالتحريك هى مرق صعب من الجبال والجمع عقاب (بكسر العين) .

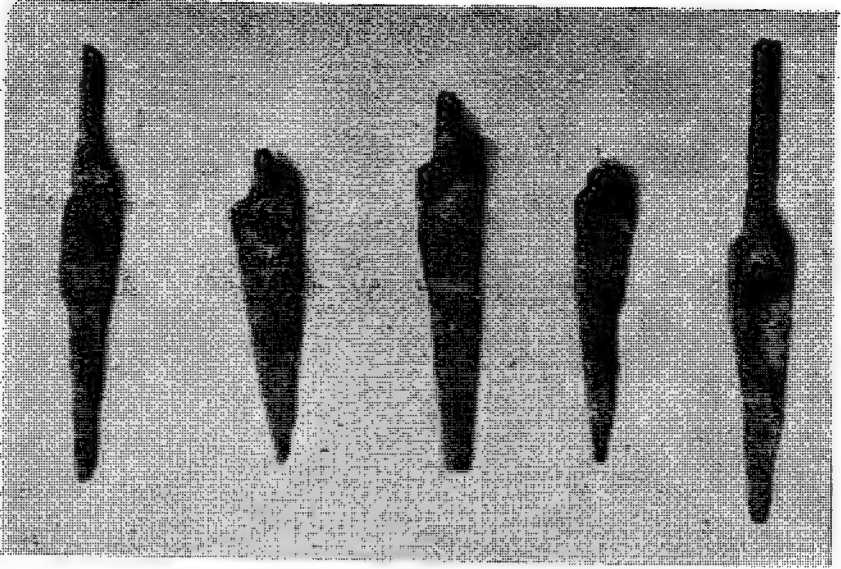
(٢) روض القرطاس ص ١٥٩ و ١٥٨ .

(٣) روض القرطاس ص ١٥٩ .

(٤) الحلال الموشية ص ١٢٢ ، والذخيرة السنية ص ٤٨ .

العلماء والحفاظ ، منهم أحمد بن هارون بن عات النفزى ، وإسحاق بن إبراهيم المجابرى ، ومحمد بن حسن الأنصارى المعروف بابن صاحب الصلاة ، ومحمد ابن إبراهيم الحضرمى ، وأيوب بن عبد الله بن عمر الفهرى ، والشاعر الزاهد تاشفين بن محمد المكتب وغيرهم^(١) . بيد أنه مما يلفت النظر حقاً أن الرواية النصرانية مع ما يؤثر عنها من المبالغة في مثل هذه المواطن ، تقدم إلينا عن خسائر الموحدين في الموقعة ، أرقاما يطبعها نوع من الاعتدال ، بكونها تقل كثيراً عما تقدمه إلينا الرواية الإسلامية ، بيد أنها من جهة أخرى تبالغ في التقليل من خسائر النصارى . ذلك أن ردرىك الطليطلى يقدر من قتل من المسلمين في الموقعة بمائتى ألف ، وذلك من مجموع الجيوش الموحدية التى يقدرها بمائة وخمسة وثمانين ألف فارس ، وعدد لا يخصى من المشاة ، ويقدر الملك ألفونسو الثامن قتلى المسلمين في خطابه إلى البابا بمائة ألف ، ويقدرهم أنولد مطران أربونة بستين ألفاً ، ثم يقول إنه من الممكن أن يكون قد هلك منهم أكثر من هذا العدد أثناء الفرار ، وتقدر الأميرة برنجاريا القشتالية في خطابه إلى أختها الملكة بلانكا ملكة فرنسا ، قتلى المسلمين بخمسة وثمانين ألفاً . بيد أن الروايات النصرانية تقدم إلينا في نفس الوقت عن خسائر النصارى في المعركة أرقاما لا يمكن أن يصدقها العقل ، ومن الغريب أن شهود العيان الذين تقدم ذكرهم هم الذين يقدمون هذه الأرقام . فالمطران ردرىك يقول لنا إنه لم يقتل في الموقعة من النصارى سوى خمسة وعشرين ، والملك ألفونسو يذكر في خطابه إلى البابا أنهم لم يتجاوزوا الثلاثين ، وأنولد مطران أربونة يقول إنهم لم يتجاوزوا الخمسين ، ولارب أن مثل هذه الأرقام الضئيلة لم تحملها سوى أثره الرواية النصرانية ، ومحاولتها أن تسبغ ثوب المعجزة ، على النصر الذى أحرزه النصارى . ومن المحقق أن خسائر النصارى كانت شديدة أيضاً ، في مثل هذه المعركة التى التحم فيها الجيشان بأسرهما ، وردت فيها هجمات النصارى الأولى بخسائر كبيرة لارب ، ولم ينجحوا في اختراق قلب الجيش الموحدى إلا بعد جهود فادحة ، وبعد أن ألقوا في المعركة بقواتهم الاحتياطية ، ولا يمكن أن تقل هذه الخسائر عن الألوف العديدة ، في جيش لم يكن يقل تعداده عن ثمانين ألف أو مائة ألف من الفرسان والمشاة . ويقدم إلينا الراهب ألبريكوس الذى عاش

(١) المعجب ص ١٨٣ ، والروض المطار ص ١٣٨ ، وابن الأبار في التكلة (القاهرة) في



سهام خيل أرضية عثر بها المؤلف بالحفر في بعض نواحي السهل الذي كانت به المحلة الموحدية

قريباً من هذا العصر تفسيراً لهذا الرقم الضئيل ، الذي تقدمه الرواية النصرانية عن خسائر النصارى ، فيقول إنه قد هلك في الموقعة من المسلمين مائة ألف ، ولكن هلك في نفس الوقت من النصارى خلال التحام المعركة عدد كبير ، بيد أنه لم يهلك منهم خلال مطاردة المسلمين سوى نحو ثلاثين^(١) .

واستولى النصارى في محلة الجيوش الموحدية على مقادير وافرة من الغنائم من العتاد والسلاح والخيام والذهب والفضة ، والنقود الذهبية والبسط والآنية الثمينة والثياب والأقمشة الفخمة ، وكذلك على مقادير عظيمة من المؤن ، وعلى ألوف مؤلفة من دواب الحمل ، فكانت من أعظم الغنائم التي ظفر بها النصارى^(٢) .

(١) تراجع الروايات النصرانية عن خسائر المسلمين والنصارى في أشياخ (الترجمة العربية)

ص ٣٧٠ و ٣٧١ . وكذلك في :

Huici : Las Grandes Batallas de la Reconquista p. 266 & 267

(٢) راجع في تفاصيل موقعة العقاب ، المعجب ص ١٨٣ - ١٨٥ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٠ - ٢٤٢ ، وروض القرطاس ص ١٥٦ - ١٦٠ ، والروض العطار ص ١٣٧ و ١٣٨ والنويرى (طبعة ريمبرو السابق الإشارة إليها ج ٨ ص ٣٧٩) والحلل المشوية ص ١٢٢ ، =

وكان من أهم الغنائم الغنائم التي أحرزها النصارى خيمة الناصر الحربية الموشاة بالذهب ، وعَلِمَ الموحدى ضخماً مازال يحفظ حتى اليوم بين ذخائر اسبانيا النصرانية . وقد أرسلت الخيمة مع طائفة أخرى من نفيس الهدايا إلى البابا برسم كنيسة القديس بطرس ، لتعرض بها تذكراً للنصر ، واستولى ملك نافارا على السلاسل الحديدية التي كانت تحيط بقبة الخليفة . وأما العَلَمُ الموحدى فما زال يحفظ حتى اليوم بالدير الملكي بمدينة برغش^(١) ، وقد شهدناه وقت زيارتنا لهذه المدينة التاريخية ، وهو عبارة عن سجادة كبيرة طولها ٣,٣٠ متراً وعرضها ٢,٢٠ متراً . وبها في الوسط دائرة كبيرة صفراء يحيط بها مربع ذو مقاطع أربعة ، وقد ملئت الدائرة والمربع بنقوش عربية جميلة ، ويحيط بهذا المربع من الجوانب الأربعة أحزمة بنية ، نقش عليها آيات قرآنية بخط أزرق ، وفي ذيلها دوائر نقش فيها أدعية مختلفة . والظاهر أن هذا العلم لم يكن من الأعلام التي كانت تحمل خلال المواقع ، وإنما كان من الأعلام التي تعلق بخيمة الخليفة . ومن ثم كان الاسم الذي يعرف به وهو « مُعلق معركة العقاب » Pendón de las Navas ، وكذلك الوصف الذي سطر تحته بالإسبانية وهو « غنيمة انتزعت من العدو في موقعة العقاب »^(٢) .

- ٣ -

ولابد لنا أن نحاول بعد ذلك أن نتلمس الأسباب المادية والمعنوية ، التي أدت بالحليش الموحدى إلى تلك الكارثة المروعة . فالحقيقة أنه إلى جانب الأسباب التقليدية المعروفة ، من اختلال نظام الحيوش الموحدية الكبيرة العدد ، وعدم اتساق تنظيماتها ، وتنافر العناصر المكونة منها ، وعدم توحيد قيادتها بأيدي قادة يتسمون بالبراعة العسكرية ، واختلال نظام التموين بها ، نظراً لابتعادها عن قواعدها مسافات شاسعة ، إلى جانب ذلك توجد عدة أسباب أدبية عاونت

= وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٩ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٢٨ وراجع الروايات النصرانية P. Crónica General (Ed. Pidal) P. 690 - 704. Huici : Las Grandes Batallas de la Reconquista;

p. 231 - 303 والمراجع . وكذلك أشباخ (الترجمة العربية) ص ٣٦٥ - ٣٧٨ .

(١) واسمه بالإسبانية Real Monasterio de las Huelagas

(٢) . راجع وصف هذا العلم وما نقش عليه من آيات في كتابنا الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا

والبرتغال (الطبعة الثانية) ص ٢١٣ و ٢١٤ . وراجع أيضاً : A. de los Ríos : Trofeos Militares de la Reconquista, Enseñas Musulmanas del Real Monasterio de las Huelagas (Burgos). (Madrid 1893) p. 27 - 48.

على وقوع الكارثة . وتشير الرواية الإسلامية إلى طرف من هذه الأسباب ، وتلخصها في تغير قلوب الموحدين ، وسخطهم على الوزراء والقادة ، وذلك بسبب حبس أعطيهم وتأخرها ، وقد كان المتبع منذ أيام المنصور ، أن يُمنح العطاء للجند مرة في كل أربعة أشهر دون تأخير ، ولكن العطاء كان يؤخر في عهد الناصر ولاسيما في هذه الحملة الكبيرة ، فنسب الجند أسباب التأخير للوزارة ، وخرجوا إلى الغزو وهم كارهون ، وقد خبت قواهم المعنوية ، وهكذا خرج الناصر إلى الغزو « بحشود لاغرض لهم في الغزو ، وقد أمسكت أرزاقهم ، وقر عليهم » . ويقول لنا المراكشي فضلاً عن ذلك ، أنه بلغه من جماعة منهم « أنهم لم يسئلوا سيفاً ولا شرعوا رحماً ، ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال ، بل انهمزوا لأول حملة الإفرنج عليهم ، قاصدين لذلك »^(١) . أضف إلى ذلك ما حدث قبيل نشوب المعركة في المعسكر الموحدى ، من حوادث كان لها نذير . منها قتل الخليفة الناصر للقائد الأندلسى الباسل ابن قادس قائد قلعة رباح هو وصهره ، دون أن يستقبله أويستمع إلى عذره ، ومنها إهانة الوزير أبى سعيد بن جامع للقواد الأندلسيين وإنذارهم بمغادرة الجيش ، وقد كان لهذه الحوادث أسوأ وقع في نفوس الأندلسيين ، وفي تثنيط همهم في القتال ، وكان الأندلسيون بالرغم من قلة العددية ، عنصراً هاماً في جيوش الغزو الموحدية المقاتلة بالأندلس ، لأنهم كانوا أكثر خبرة بقتال النصارى الإسبان ، وأكثر دراية بطريقتهم في الحرب^(٢) . وقد رأينا كيف كان اعتماد الخليفة المنصور على نصيح ابن صناديد قائد الأندلس ومشورته ، من أسباب نصره في معركة الأرك . وأخيراً فإن ما أبداه الناصر من العُجب والاعتداد بكثرة جموعه ، واعتماده على تفوقه العددي البالغ ، والتقليل من شأن العدو ، كان له أكبر الأثر فيما بدا من الرعونة ، وعدم الحرص والتحوط في لقاء العدو ، ومن ثم فقد كان ظفر القشتاليين باختراق قلب الجيش الموحدى بتلك السرعة ، مفاجأة هائلة لم تخطر للناصر ولا للقادة الموحدين . وترى بعض الروايات الإسلامية أن نكبة الناصر في العقاب كانت عقوبة من الله على ما أبداه من العجب والاعتزاز بكثرة جموعه ، واعتقاده أنه لا غالب له من الناس ، فأراه

(١) المراكشي في المعجب ص ١٨٣ ، والروض المطار ص ١٣٨ .

(٢) روض القرطاس ص ١٤٦ و ١٤٧ ، والروض المطار ص ١٣٨ ، وراجع أيضاً

نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ .



العلم الموحى الذى غنمه الإسبان فى معركة العقاب ويحفظ الآن بدير برغش الماكي (لاس هويلجاس)

الله تلك الآية ليعلم أن النصر من عند الله ، وأن القدرة والجول والقوة بيد الله^(١) .
وقد أسفرت هزيمة العقاب الساحقة ، عن أفدح وأروع الآثار التي يمكن
تصورها ، سواء بالنسبة للأندلس أو المغرب أو الدولة الموحدية . فأما بالنسبة
للأندلس ، فقد قضت هذه الهزيمة نهائياً ، على سمعة الموحدين العسكرية في شبه
الجزيرة ، وتحطم ذلك الدرع الذي كانت تسبغه الجيوش الموحدية ، القادمة
من وراء البحر ، على الأندلس وعلى دولة الإسلام بها ، وتضعض سلطان الحكم
الموحدى بالأندلس ، وأخذت الأندلس من ذلك الحين تنحدر إلى برائن الفوضى
الطاحنة ، وانتشرت غير بعيد إلى أحزاب وشيع جديدة ، قامت لتضرب بعضها
بعضاً ، ولتبدأ عهداً جديداً من المعارك الانتحارية الصغيرة التي لانهاية لها ، والتي
تذكرنا بعهد الطوائف . وضمن ذلك النصر الباهر الذي أحرزته الجيوش النصرانية
المتحالفة في هضاب تولوسا ، لإسبانيا النصرانية ، تفوقها السياسي والعسكري
في شبه الجزيرة ، وفتح الباب واسعاً لغزو الاسترداد La Reconquista
النصراني المنظم ، الذي سوف يستمر من ذلك الحين في اجتناء ثماره ، بانتراع
القواعد الأندلسية ، واقتطاع أشلاء الأندلس الكبرى بصورة متتابعة ، وفي فترات
قصيرة مذهلة .

وقد تردد هذا الفرع الذي سرى إلى الأندلس يومئذ ، وما كان ينوح لها من
من شبح الفناء ، من جراء كارثة العقاب ، واضحاً في الأدب والشعر . فمن ذلك
ما قاله أبو إسحق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي :

وقائلة أراك تطل تفكرا كأنك قد وقفت لدى الحساب
فقات لها أفكر في عقاب غدا سبباً لمعركة العقاب
فما في أرض أندلس مقام وقد دخل البلا من كل باب^(٢)

وأما بالنسبة للمغرب ، والدولة الموحدية ، فقد كانت كارثة العقاب ضربة
شديدة للمغرب ، ولأهل المغرب ، بما هلك فيها من حشود القبائل البربرية ، وزهرة
جنودهم ، ومن الجيوش الموحدية النظامية ، ولم يعد في مقدور هذه القبائل أن
تقدم للغزو الكثير من حشودها ، ولم يعد في مقدور الدولة الموحدية أن تجدد مثل

(١) روض القرطاس ص ١٦٠ .

(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ .

هذه الحملات العسكرية العظيمة ، التي كان يقودها خلفاء مثل عبد المؤمن وأبي يعقوب يوسف والمنصور والناصر . وكما أن الرواية الإسلامية تنوه بخطورة آثار الهزيمة في مصير الأندلس ، وتصفها بأنها كانت سبباً في « هلاك الأندلس »^(١) ، فإنها تنوه كذلك ، وبنوع خاص ، بالخسارة الآدمية الهائلة ، التي وقعت من جرائها بالمغرب والأندلس ، وتصف الواقعة بالهزيمة العظمى « التي فنى فيها أهل المغرب والأندلس »^(٢) ، أو التي خلا بسببها أكثر المغرب^(٣) ، أو حسبما تقول لنا في عبارة أوضح وأشمّل « إن المغرب قد باد أهله ورجاله وفنى خيله وحماته وأبطاله ، وقتلت قبائله وأقياله ، قد استشهد الجميع في غزوة العقاب »^(٤) . ويلخص لنا ابن الأبار ، نتائج الواقعة المدمرة بالنسبة للأندلس في قوله إنها « أفضت إلى خراب الأندلس بالدائرة على المسلمين فيها ، وكانت السبب الأقوى في تحييف الروم بلادها ، حتى استولت عليها »^(٥) . وأما بالنسبة للدولة الموحدية ، فقد هزت كارثة العقاب أركانها إلى الأعماق ، وقضت على كل عوامل التوطد ، التي أسبغها عليها المنصور بانتصاره في معركة الأرك ، والتي تأيدت بإخماد ثورة بني غانية في إفريقية . ومما لا ريب فيه أن تضعف الدولة الموحدية على هذا النحو ، كان أكبر مشجع لبني حفص على اقتطاع إفريقية وإقامتهم غير بعيد لدولتهم المستقلة بها . ويلخص لنا صاحب الروض المعطار أثر الهزيمة في الدولة الموحدية بقوله « وكانت هذه الواقعة أول وهن دخل على الموحدين ، فلم تقم بعد ذلك لأهل المغرب قائمة »^(٦) .

ونستطيع بعد أن استعرضنا آثار هزيمة العقاب أن نقول في معرض المقارنة بينها وبين معركة الأرك ، إن انتصار الموحدين في الأرك ، بالرغم من عظمتهم ولعائهم ، لم يسفر بالنسبة لإسبانيا النصرانية عن آثار عميقة ، ولم يصب قشتالة بأكثر من ضعف عسكري مؤقت ، استطاعت أن تنهض منه في فترة قصيرة ، ولم يستطع الموحدون أن يقوموا في أعقابها إلا بغزوات عابرة لمنطقة إستر مادورة ،

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٠ .

(٢) الحلل الموشية ص ١٢٢ .

(٣) المقرئ في نفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٨ .

(٤) الذخيرة السنية ص ٢٤ .

(٥) ابن الأبار في « التكلة » (القاهرة) ج ١ ص ١٠٢ .

(٦) الروض المعطار ص ١٣٨ .

ثم لمنطقتي طلبيرة وطلبيطة ، وقد حاصروا طليطلة بالفعل ، ولكنهم لم يحاولوا
أولم يستطيعوا الاستيلاء عليها . أما هزيمة العقاب ، فقد رأينا بالعكس مما تقدم ،
ما كان لها من الآثار الهدامة العميقة .

ومن الغريب المدهش حقاً ، أن الناصر لم يرد أن يلوذ بالصمت إزاء هذه
الكارثة الفادحة ، بل أراد أن يقدم عنها اعتذاره في رسالة رسمية ، وجهت
من إشبيلية إلى حضرة مراکش وإلى غيرها من قواعد المغرب والأندلس ، وذلك
في أواخر صفر سنة ٦٠٩ هـ . وقد نقل إلينا صاحب البيان المغرب بعض فصول
هذه الرسالة ، وهي من إنشاء الوزير الكاتب أبي عبد الله بن عياش ، وفيها يقص
علينا الناصر قصة استعدادات ألفونسو الثامن لمحاربة المسلمين ، واهتمام البابا ،
والأخبار النصراني بمعاونته وشد أزره ، وما كان من انضمام ملكي أراجون ونافارا
إليه . ثم يصف لنا سيره للقاء النصراني ، ويقول لنا إنه نشبت بين الفريقين في
الموضع المعروف « بالرشة » معركة « اشتد فيها الكفاح ، وأرخصت الأرواح » .
ثم يقول « ولكن الله أراد أن يحصص المؤمنين ، ويبيد الكافرين ، فكانت عاقبة
اليوم على الخصوص لأهل الصليبان ، والعاقبة المطلقة هي لأهل الإسلام والإيمان ،
وتحاجز الفريقان ، والمسلمون عزيزة جوانبهم ، محروسة بقدرة الله كتابهم ،
لم تصب الحرب منهم أحدا ، ولا نقصت لهم عدداً . وهي الحروب قضى الله
أن تكون صحالا ، وأن يجعل الله فيها لكل قوم مجالا » . ثم يقول في ختام رسالته :
« وإذا كانت وفقكم الله الجيوش موفورة ، والرايات منشورة ، والعزائم باقية ،
وكفايات الله وافية ، فلا تنهوا فإننا لا نهن ، وانتظروا الكرة على الكفار ، والإمداد
عليهم ، بجند الله الذين هم خير الأنصار ، فما كان الله ليترك المؤمنين ، حتى
يأخذ أعداءهم أخذاً وبيلاً ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً .
وعرفناكم لتكون عندكم هذه الواقعة على وجهها ، والنازلة على كتبها ، ولتعلموا
أنه لم يدر للموحدين قاتل ، ولا أصيب منهم كثير ولا قليل والسلام » (١) .

وإذا كان من الصعب أن يعلق المؤرخ على مثل تلك الرسالة ، التي يصفها
صاحب الروض العطار بأنها من قبيل « الزخرف الكاذب » ، فإنه يمكن القول
بأنها محاولة جريئة من الخليفة المهزوم ، للاعتذار عن نكبته وتهوين شأنها في
نفوس أمته ، واستدراار عطفهم ، والتخفيف من سخطهم .

حاول ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، على أثر ظفـره العظـيم في موقـعة العقاب أن يجتـنـي ثمار نصره باقتطاع ما يستطاع من الأراضى الإسلامية ، فاستولى في أيام قلائل على معظم الحصون الإسلامية في تلك الناحية ، وكان من بينها حصن فرّال (حصن العقاب) ، الذى كان قد أخلاه قبل الموقعة ، وبلغ ، وبانيوس ، وتولوسا . ثم سار إلى مدينتى بياسة ، وأبدت ، اللتين لا تبعدان عن مسرح المعركة سوى بضع مراحل . وكانت بياسة قد غادرها معظم أهلها ، ولكن كان بها كثير من الجرحى والضعاف والفارين ، فأحرق دورها ، وخرب مسجدها الجامع ، وقتل معظم من وجده بها ، وأخذ بعضهم أسرى . ثم سار إلى مدينة أبدة ، القريبة منها ، وكانت تموج بأهلها ، وبمن وفد عليهم من أهل بياسة ، ومن الفارين ، ولكنها كانت في حالة دفاع وأهبة ، وقد امتنعت وراء أسوارها الحصينة ، فحاصرها ألفونسو ثلاثة عشر يوما ، وصمد المسلمون ، ولحقت بالنصارى بعض الخسائر ، ثم عرض المسلمون في النهاية أن يدفعوا فدية قدرها ألف ألف دينار على أن تترك المدينة حرة ، وأن يتمتعوا بدينهم وشعائهم ، فقبل ألفونسو وزميلاه ملكا أراجون ونافارا هذا العرض ، ولكن الأبحار عارضوا في تنفيذه ، وأصروا على تسليم المدينة بلا قيد ولا شرط ، فنزل الملوك عند هذا الضغط ، ونقضوا العهد المقطوع ، واقتحم الجنود النصارى المدينة ، وقتلوا من أهلها زهاء ستين ألفاً ، وسبوا منهم مثل هذا القدر . وتعترف الرواية النصرانية نفسها بهذه الشناعات ، وتقدر من قتل وسبي من أهل أبدة ، بمائة ألف ، ويقدر بعضها السبايا وحدهم بمائة ألف^(١) ، ويقول لنا المراكشى ، وهو المؤرخ المعاصر ، إن ألفونسو دخل أبدة عنوة ، فقتل وسبي وفصل هو أصحابه من السبي من النساء والصبيان ، بما ملئوا به بلاد الروم قاطبة ، فكانت هذه أشد على المسلمين من الهزيمة^(٢) . ثم هدم النصارى دور المدينة ، بعد أن خلت من سكانها حتى أصبحت خرابا يبابا .

ولم يكن بين النصارى الظافرين وبين مدينة جيان سوى بضع مراحل ، وكان من الطبيعى أن يقصد ملك قشتالة إلى انتزاع هذه القاعدة الأندلسية الهامة ،

(١) راجع أشباخ — الترجمة العربية ص ٣٧٢ ، وكذلك :

. Huelci : Imperio Almohade, Vol. II p. 427

(٢) المعجب ص ١٨٤ .

ولو حاول ذلك لكان من المحقق أن يفوز ببغيته ، في تلك الظروف التي انهار فيها خط الدفاع الأمامي بالأندلس . ولكن مصاعب التموين كانت تتفاقم ، وقد سادت الفوضى بين جنود الجيش الظافر ، الذين امتلأت أيديهم بالغنائم ، ثم كانت الطامة بانتشار الوباء بينهم من جراء اشتداد الحرارة ، وتعفن الحث التي غصت بها تلك الوديان ، فارتد الملوك النصاري في قواتهم نحو الشمال ، ودخلوا طليطلة عاصمة قشتالة في موكب ملوكي ضخيم ، وأقيمت صلوات الشكر ابتهاجاً بالنصر ، وتقرر أن يغدو يوم ١٦ يولييه ، وهو اليوم الذي تحقق فيه النصر ، عيداً قومياً يحتفل به في طليطلة وسائر أنحاء قشتالة ، ويسمى عيد « ظفر الصليب » .

هذا وأما الخليفة الناصر لدين الله ، فإنه بعد أن فرّ من ميدان المعركة في آخر لحظة ، حسبما أشرنا من قبل ، سار إلى جيان ثم غادرها مسرعاً إلى إشبيلية فوصلها في أيام قلائل ، في أواخر شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ ، ووجه منها كتابه بالاعتذار عن الكارثة ، إلى قواعد المغرب والأندلس . ولبت مقبلاً بإشبيلية حتى شهر رمضان من هذا العام ، وهو لا يحرك ساكناً ولا يبالي بأمر ، ثم عبر البحر إلى العدو ، قافلاً إلى حضرة مراکش ، وما كاد يستقر بها حتى أخذ البيعة بولاية العهد لولده السيد أبي يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر ، فبايعه كافة الموحدين ، وخطب له على جميع المنابر بالمغرب والأندلس ، وذلك في أواخر شهر ذي الحجة سنة تسع وستائة . ثم لزم الناصر بعد ذلك قصره ، واحتجب عن الناس . يقول صاحب روض القرطاس : « وانغمس في لذاته ، فأقام فيه مصطبحاً ومغتبقاً » أي صباح مساء . وفي أوائل شهر شعبان سنة ٦١٠ هـ ، مرض الناصر ، وتوفي في مساء يوم الأربعاء العاشر من شعبان (٢٢ ديسمبر سنة ١٢١٣ م)^(١) . وقد اختلف في أسباب وفاته ، ف قيل إنه توفي غماً وألماً من آثار نكبتة في العقاب^(٢) . وقيل إنه توفي من عضمة كلب^(٣) ، وقيل إنه مات مسموماً ، بتدبير بعض وزرائه ، ممن خشوا من نغمته وانتقامه ، لما بلغه عنهم من سوء فعلهم ودسائسهم ، فأغروا

(١) اختلف في يوم وفاته ، فذكر إنه اليوم الخامس من شعبان أو اليوم العاشر (النويري- طبعة ريمبروج ٨ ص ٢٨٠) ، وذكر أنه اليوم الحادي عشر (روض القرطاس ص ١٦٠) . ولكن المراكشي وهو أقرب من عاصره يضع تاريخ وفاته في يوم الأربعاء العاشر من شعبان (المعجب ص ١٨٤) .

(٢) اللؤلؤ الموشى ص ١٢٢ . (٣) الروض المعطار ص ١٣٨ .

بعض جواريه بوضع السم له في قدح من الخمر فمات من حينه^(١). ولكن المراكشي وهو في ذلك أكثر اطلاعاً وأقرب إلى الثقة ، لمعاصرتة لتلك الحوادث ؛ يقول لنا إن أصبح ما بلغه عن وفاة الناصر « أنه أصابته سكتة من ورم في دماغه ، وذلك يوم الجمعة لحمس خلون من شعبان ، فأقام ساكتاً لا يتكلم يوم السبت والأحد والاثنين والثلاثاء ، وأشار عليه الأطباء بالفصد فأبى ذلك ، وتوفي يوم الأربعاء لعشر خلون من شعبان سنة ٦١٠ ، ودفن يوم الخميس ، وصلى عليه خاصة الحشم »^(٢).

وكان الخليفة محمد الناصر لدين الله ، آخر ذلك الثبت من الخلفاء الموحدين الذين اقترنت بعصرهم بعض الأحداث الضخمة الحاسمة ، وكان أهم تلك الأحداث أولاً تحطيم ثورة بني غانية في إفريقية ، وهو ألمع حادث في عهده ، ويقترن بذلك فتح الموحدين لميورقة ، وثانياً نكبة العقاب المشؤمة التي هزت أركان الدولة الموحدية بالمغرب والأندلس . ولم يكن ثمة في بداية عهده ما يؤذن بأنه صائر إلى ذلك الانهيار ، الذي انتهى إليه في فترته القصيرة ، بل كانت صولة أبيه العظيمة ، وذكريات نصر الأرك الباهر ، مازالت تظلل الخلافة الموحدية . وقد بدأ الناصر عهده بداية حسنة ، وأبدى همة ظاهرة في إدارة الشؤون وتنظيم الإدارة ، ومطاردة الفساد ، وإقصاء العمال الظلمة والمرتشين ، ولكنه لم يتدرع في ذلك بالروية وبعد النظر ، بل كان يغلب في ذلك الزق والاستبداد . وكان الناصر في البداية ، وهو ما يزال في شرح فتوته يسترشد بآراء أشياخ الموحدين ، في تسير الشؤون الكبرى ، ولا سيما بآراء الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص ، وفقاً لتوصية أبيه المنصور ، ولكنه لما اشتد ساعده ، استبد بالأمر ، ولم يعد يقبل نصحاً أو مشورة من أحد ، حتى أنه رفض نصيح الشيخ أبي محمد عبد الواحد ، حينما استشاره في شؤون الأندلس ، ألا يسير إلى غزوته الكبرى ، التي انتهت بنكبته في موقعة العقاب . ولم يقع في عهد الناصر شيء يذكر من الأعمال الإنشائية ، التي امتاز بها عهد أبيه وجده ، ولم يكن الناصر على شيء خاص من أنواع العلوم أو المعرفة ، ولم يجتمع في بلاطه أحد من أولئك العلماء المبرزين ، الذين اجتمعوا حول أبيه ، وإنما كان يلوذ ببلاطه فقط بعض الشعراء الملقين ، الذين عرفناهم فيما تقدم ، مثل أبي العباس الجراوى ، ووزيره خالد اللخمى وغيرهما .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٣ ، وروض القرطاس ص ١٦٠ .

(٢) المعجب ص ١٨٤ ، ونقله النويرى (طبعة ريمبرج ٨ ص ٢٨٠) .

وقد وصف لنا المراكشي وهو مؤرخ معاصر ، وربما شاهد عيان ، صفات الناصر في قوله : « كان كثيراً الإطراق ، شديد الصمت ، بعيد الغور ، كان أكبر أسباب صمته لثغراً كان بلسانه ، حليماً ، شجاعاً ، عفيفاً عن الدماء ، قليل الخوض فيما لا يعنيه ، إلا أنه كان بخيلاً »^(١). ونحن نعتقد أن وصف الناصر بالعفة عن الدماء ، وصف في غير موضعه ، لما رأيناه ، فيما تقدم ، من تسرعه في سفك دماء بعض العمال ، ودماء القادة الأندلسيين . ويقول صاحب روض القرطاس « إنه كان كبير الهمة ، غليظ الحجاب ، لا تكاد تصله الأمور إلا بعد الجهد ، مصيب برأيه ، مستبدي في أموره وتدبير مملكته بنفسه »^(٢) وأما عن شخصه ، فيوصف الناصر ، بأنه كان أبيض ، أشقر اللحية ، أشهل العينين ، نحيل الجسم ، حسن القامة .

ووزر للناصر في البداية وزير أبيه عبد الرحمن بن يوجان ، ثم استوزر من بعده أخاه إبراهيم بن الخليفة المنصور ، ثم ولى الوزارة من بعده أبو عبد الله محمد ابن علي بن أبي عمران ، فسار فيها سيرة حسنة ، وكان يحض الخليفة على فعل الخير ، ونشر العدل ، والإحسان إلى الرعية والحمد ، ثم عزله الناصر ، ووُلى الوزارة من بعده ، أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن إبراهيم بن جامع . وإبراهيم هو جد هذه الأسرة من الوزراء ومن صحب المهدي ابن تومرت حسبما سبقت الإشارة إليه . وتولى القضاء للناصر ، أبو القاسم أحمد بن بقي قاضي أبيه ، ثم أبو عبد الله محمد بن مروان ، فلبث في منصبه حتى توفي في سنة ٦٠١ هـ ، فخلفه في القضاء أبو عمران موسى بن عيسى بن عمران ، واستمر بقية عهد الناصر وشطراً من عهد ابنه المستنصر . وكان من كتاب الناصر اثنان من أسرة بني عياش اللامعة ، هما الكاتب الأديب البارع أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش كاتب أبيه من قبل ، وأبو الحسن علي بن عياش بن عبد الملك بن عياش ، وكان أبوه من كتاب عبد المؤمن ، وأبو عبد الله محمد بن يخافتن الفازازي .

وكان من كتاب جيوشه أبو الحجاج يوسف المراتي وهو أندلسي من أهل شريش ، وأبو جعفر أحمد بن منيع . ولم ينجب الناصر لدين الله من الولد سوى ثلاثة من البنين ، هم يوسف المستنصر ولى عهده ، والخليفة من بعده ، ويحيى وقد توفي في حياة أبيه في سنة ٦٠٨ هـ ، وإسحاق ، وعدد من البنات .

(١) المعجب ص ١٧٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٥٣ .

الكتاب الثامن

الدولة الموحدية

في طريق الانحلال والتفكك

الفصل الأول

عصر الخليفة يوسف المستنصر بالله

وأوائل ظهور بنى مرين

يوسف المستنصر يخلف أباه الناصر . بيعته الخاصة ثم بيعته العامة . وزراؤه وكتابه . ميله إلى حياة الدعة . عماله على الولايات . السيد أبو إسحق وإلى غرناطة . السيد أبو العلاء أمير تونس . ثورة الفاطمى العبيدى . تفاصيل حركته . إخماد ثورته وإعدامه . مقدم سفير قشتالة في طلب السلم . عقد السلم مع قشتالة . بواعث إثارة قشتالة للسلم . طلائع بنى مرين عند أحواز فاس . أصول بنى مرين ومنازلهم . اقتسابهم إلى العرب . أمراؤهم الأوائل . صراعهم مع القبائل الحصينة . اللقاء الأول بينهم وبين الموحيدين . هزيمتهم ومقتل أميرهم . اشتراكهم في الجهاد مع الموحيدين . انحلال قوى الموحيدين عقب موقعة العقاب . نهوض بنى مرين لانتهاز الفرصة . إغارتهم على أطراف المغرب . تأهب الموحيدين لردهم . اللقاء بين الفريقين . موقعة المشعلة . هزيمة موحدية أخرى في رباط تازة . الخلاف بين بنى مرين . خروج بنى حماسة منهم . أميرهم عبدالحق . تحالف المنشقين مع الموحيدين والعرب . القتال بين الفريقين . مقتل عبد الحق وولده إدريس . تجدد الحرب وهزيمة بنى حماسة . أبو سعيد عثمان يتولى رئاسة بنى مرين . حوادث الأندلس . مهاجمة البرتغاليين والصليبيين لثغر القصر . محاصرة النصارى للثغر . مبادرة الموحيدين إلى إنجاده . اللقاء بين المسلمين والنصارى . هزيمة المسلمين . صمود حصن القصر ثم تسليمه . استيلاء النصارى على حصن القصر . محاصرة ملك ليون لقناصرش وصمودها . تكرار الهجوم عليها ومعاودة حصارها . سقوطها في أيدي النصارى . أحوال المغرب في هذا الوقت . ركود بلاط مراكش وتواكله . اضطراب الأمن . الأحوال الاقتصادية وانتشار المجاعة . كتاب الخليفة المستنصر إلى الولاة والأعيان والكافة . تجدد البهادر بين الموحيدين وقشتالة . كتاب البلاط الموحدى إلى ملكة قشتالة . مصرع المستنصر الفجائى . ركود عهده واضطراب الأحوال فيه . أقوال المؤرخين في ذلك . أحوال المغرب حسبما يصورها ابن عبد الملك . صورة أخرى للمستنصر وخلالله . حكومة المستنصر . وزراؤه وكتابه وقضاته .

تدخل الدولة الموحدية ، بعد وفاة الخليفة محمد الناصر لدين الله ، في العاشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ ، في مرحلة جديدة من مراحل حياتها ، مرحلة انحلال مضطرد ، وصراع داخلى مستمر على انتزاع العرش ، وتنتشر أسرة بنى عبد المؤمن الشاذلية ، إلى شيع وأحزاب ضعيفة متخاصمة ، وينتشر شمل القبائل الموحدية ، حول تأييد هذا الفريق أوذاك ، وتنهال قوى الدولة الموحدية ومواردها الضخمة تباعاً ، سواء بالمغرب أوالأندلس ، في معارك انتحارية مستمرة ، وتتخذ هذه

المرحاة في الأندلس بالأخص ، طابعاً مشثوماً ، لم يسبق للأندلس أن نكبت بمثله ، فتغذو من جديد مسرحاً مضطرباً للحرب الأهلية ، أولاً فيما بين الموحدين المتنافسين على العرش ، وثانياً فيما بين أبناء الأندلس أنفسهم ، وفي خلال هذه الموجة الغامرة من المحنة القومية ، تتحفز اسبانيا النصرانية ، لانتهاز الفرصة السانحة ، وتنظم متعاونة متفاهمة ، أخطر برنامج لفتوح « الاسترداد » ، وتهتز مصابير القواعد الأندلسية الكبرى ، ومصابير الأمة الأندلسية كلها

خلف المستنصر بالله ، أبو يعقوب يوسف ، أباه محمد الناصر ، في اليوم التالي لوفاة ، في الحادى عشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ (٢٣ ديسمبر سنة ١٢١٣م) وأمه حرة ، هى فاطمة بنت السيد أبى على بن يوسف بن عبد المؤمن ، وقيل إنها أم ولد نصرانية تدعى قمر^(١) . وكان المستنصر حين ولايته فتى فى السادسة عشرة من عمره ، إذ كان مولده فى أول شوال سنة ٥٩٤ هـ^(٢) ، وهناك أقوال أخرى بأنه كان فى العاشرة من عمره^(٣) ، ولكننا نفضل الأخذ بالرواية الأولى ، إذ هى رواية المؤرخ الموحدى المعاصر ، وهو الذى يقدم لنا تاريخ مولده ، ويأخذ بهذه الرواية مؤرخان كبيران هما ابن خلكان وابن خلدون^(٤) .

وكان يوسف المستنصر فتى وسيماً ، حسن القل ، جميل الحيا ، صافى السمرة ، شديد الكحل ، ولم يكن على قول المؤرخ فى بنى عبد المؤمن أحسن وجهاً منه ، ولا أبلغ فى المخاطبة^(٥) . وكان أبوه الناصر لدين الله قد أخذ له البيعة بولاية عهده عقب عوده من الأندلس ، على أثر موقعة العقاب ، فى أواخر ذى الحجة سنة ٦٠٩ هـ ، قبيل وفاته بأشهر قلائل ، وكان أول من أخذ له البيعة الخاصة ، عم جده أبو موسى عيسى بن عبد المؤمن ، وأبو زكريا يحيى بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، ومن أشياخ الموحدين أبو محمد عبد العزيز بن عمر ابن أبى زيد الهتافى ، وأبو على عمر بن موسى عبد الواحد الشرقى ، وأبو مروان

(١) يقول بالرواية الأولى صاحب روض القرطاس (ص ١٦٠) ، وبالثانية المراكشى (المعجب ص ١٨٤) .

(٢) المراكشى فى المعجب ص ١٨٤ .

(٣) هذه هى رواية ابن عذارى فى البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٣ ، وصاحب الحلل الموشية ص ١٣٣ .

(٤) ابن خلكان فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٣٤ ، وابن خلدون فى العبر ج ٦ ص ٢٥٠ .

(٥) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤٣٤ .

عبد الملك بن يوسف من أهل تينملل ، وكان هؤلاء نفر من القرابة والأشباخ هم الذين نصبوا أنفسهم للوصاية على الخليفة الصبي وتوجيهه ، وذلك بتوصية من والده الخليفة المتوفى ، واستغرقت البيعة الخاصة يوى الخميس والجمعة ، الحادى عشر والثانى عشر من شعبان ، وفى يوم السبت أذن بأداء البيعة العامة . ويقول لنا المراكشى ، وقد كان من شهود ذلك اليوم ، أن أبا عبد الله بن عيأش الكاتب كان قائماً يقول للناس « تبايعون أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، رسول الله ، من السمع والطاعة فى المنشط والمكره ، والعسر واليسر ، والنصح له ولولائه ولعامة المسلمين . هذا ما له عليكم . ولكم عليه ألا يجمر بعوثكم ، وأن لا يدخر عنكم شيئاً مما تميمكم مصلحته ، وأن يعجل لكم عطاءكم ، وأن لا يحتجب دونكم ، أعانكم الله على الوفاء ، وأعانه على ما قلد من أموركم » . وكان يعيد هذا القول لكل طائفة إلى أن انقضت البيعة^(١) . وأخذت بعد ذلك بيعات الأعيان والوفود القادمين من مختلف الأنحاء ، ثم وردت بيعات مختلف البلاد بالمغرب والأندلس . واتخذ الخليفة الجديد لقب المستنصر بالله ، وفى بعض الروايات أنه لُقّب أيضاً بالمستنصر بالله^(٢) .

ولم يتأخر فى تقديم البيعة سوى الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص والى إفريقية ، وذلك لصغر سن المستنصر . ولكن الوزير أبا سعيد بن جامع بذل سعيه لدى الشيخ لتسوية هذا الأمر ، فوصات بيعته فيما بعد^(٣) .

وتولى الوزارة للمستنصر وزير أبيه من قبل ، أبو سعيد عثمان بن عبد الله ابن إبراهيم بن جامع ، فاستمر فى الوزارة حتى سنة ٦١٥ هـ ، ثم عُزل وخلفه زكريا ابن يحيى بن إسماعيل الهزرجى . وهو ابن بنت الخليفة يعقوب المنصور ، أعنى ابن عمه المستنصر ، فاستمر فى الوزارة حتى نهاية عهده . وتولى الكتابة للمستنصر كاتب أبيه وجده من قبل أبو عبد الله بن عيأش ، وأبو الحسن بن عيأش .

وكان الخليفة الجديد ميالاً إلى حياة الدعة والبطالة مشغلاً عن تدبير الأمور بما تقتضيه نوازع الشباب^(٤) لا يعنيه شىء من مهام الملك ، أو بعبارة أخرى لا يمكن من العناية بشىء منها . وكانت الأمور تجري وفقاً لما يراه ويرمه الأشباخ

(١) المعجب ص ١٨٥ و ١٨٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٦٠ ، وتاريخ الدولتين للزركشى (تونس ١٢٨٩ هـ) ص ١٤ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٣٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٠ .

الأوصياء . وكان عهده على العموم ، يمتاز بالهدوء والركود ، لم تقع خلاله حوادث ذات شأن ، ولم تنظم غزوات ما ، ولم تُحشد الجيوش الموحدية ، ولم تعبر البحر إلى شبه الجزيرة ، وفقاً لما جرى عليه الأمر ، منذ عهد أول الخلفاء الموحدين عبد المؤمن بن علي .

وعقد المستنصر لأول ولايته للسادة ، على عمالات الولايات بالمغرب ، والأندلس . فولّى على مدينة فاس السيد أبا إبراهيم إسحق الملقب بالأمير الظاهر ابن يوسف بن عبد المؤمن وكان والياً على غرناطة ، وهو أبو الخليفة المرتضى . وقد اشتهر السيد أبو إبراهيم إسحق هذا أيام ولايته لغرناطة في آخر عهد الناصر ، بمنشآته العمرانية بها ، وكان من أهمها وأجلها القصر الذي أنشأه خارج غرناطة على مقربة من ضفة نهر شنيل ، وهو القصر الذي عرف فيما بعد أيام ملوك غرناطة « بقصر السيد » . والظاهر أن السيد إسحق ولى حكم غرناطة في عهد المستنصر مرة أخرى ، إذ يقول لنا صاحب « الحلل الموشية » إنه أنشأ أمام هذا القصر ، رابطة في سنة ٦١٥ هـ . وقد استعمل « قصر السيد » أيام ملوك غرناطة منزلاً للضيافة الملوكية ، وما زالت تقوم حتى اليوم بعض أطلاله ، في ضاحية غرناطة المسماة « أرملة » (١) .

وولى على إشبيلية عمه السيد أبا إسحاق بن يعقوب المنصور ، وهو المعروف بالأحول ، وبعث عم أبيه أبا العلاء الكبير لإدريس بن يوسف بن عبد المؤمن إلى تونس ليستقر في قصبتها ، وأن يكون أميراً عليها ، يعنى بتدبير شئونها ، والدفاع عنها ضد الميورقي ، إلى جانب الشيخ أبي محمد بن أبي حفص وإلى إفريقية . والسيد أبو العلاء هذا هو الذي أنشأ البرجين على باب المهدية ، وأنشأ باب سبتة الحديد ، ثم أنشأ بإشبيلية برج الذهب الشهير أيام ولايته لها (٢) .

وكان أول حادث ذو شأن وقع في ولاية المستنصر ، هو إخماد ثورة الفاطمي العبيدي . وقد روى لنا المراكشي قصة هذا الدعى كاملة ، وقد عرفه

(١) راجع في ذكر « قصر السيد » ووصفه ، الحلل الموشية ص ١٢٦ ، والإحاطة في أخبار غرناطة (١٩٥٦) ج ١ ص ١٢٥ ، ٣٢٤ و ٥٦١ . وراجع كتاب « الآثار الأندلسية الباقية » (الطبعة الثانية) ص ١٧٦ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٣ و ١٧٣ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٦١ .

واجتمع به . وكان اسمه عبد الرحمن ، ويدعى أنه من بني عبيد ، وأنه ولد الخليفة العاضد بالله آخر الخلفاء الفاطميين . وكان قد ورد على المغرب ، أيام الخليفة المنصور ، وسعى إلى الاجتماع به فلم يأذن له ، واستمر يطوف بالبلاد ، إلى أن قبض عليه بأمر الخليفة الناصر ، واعتقل في سنة ٥٩٦ هـ ، فلم يزل في سجنه إلى أن تحرّك الناصر إلى إفريقية في سنة ٦٠٨ هـ ، فشفع له فيه أبو زكريا يحيى بن إسماعيل الهزرجي ، فوافق على إطلاق سراحه ، على أن يلتزم السكنية ، وألا يشتغل بأى أمر غير مرغوب فيه . ولكن الدعى ماكاد يسترد حرّيته ، حتى غادر مراکش إلى بلاد صنهاجة ، وهناك التف حوله كثيرون ممن جذبهم دعوته ، وكانوا يعظمونه ويحجلونه . يقول المراكش « وكان هذا الرجل كثير الإطراق والصمت ، حسن الهيئة ، لقبته مرتين ، فلم أر فى أكثر من شهادته من المشبهين بالصالحين ، مثله فى الآداب الظاهرة ، من هدوء النفس ، وسكون الأطراف ، ووزن الكلام وترتيب الألفاظ ، ووضع الأشياء مواضعها ، مع الرياضة المفرطة » . ثم خرج هذا الرجل فى جموعه متجهاً صوب مدينة سجلماسة ، فخرج إليه والها السيد أبو الربيع سليمان بن أبى حفص عمر بن عبد المؤمن ، فهزمه العبيدى ، واضطر أن يرتد فى فلوله إلى سجلماسة ، ومازال العبيدى يتنقل بين قبائل البربر ، من موضع إلى موضع ، دون أن يستقر فى مكان ، أوتبت حوله جماعة ، إذ كان وفقاً لقول المراكشى « غريب البلد واللسان ، لا عشيرة له ولا أصل بالبلاد يرجع إليه » حتى رمت به المقادير إلى أحواز فاس . وكانت السلطات الموحدية تطارده أينما حل ، فقبض عليه بظاهر المدينة ، وأودعه حاكم فاس ، وهو السيد إسحاق ، المطبق ، وكتب إلى الخليفة المستنصر بأمره ، فكتب إليه المستنصر يأمر بقتله وصلبه ، فضرّب عنقه ، وصلب جسده ، وأرسلت رأسه إلى مراکش ، حيث علقت هنالك إلى جانب عدة أخرى من رؤوس الثوار والمنغلبين^(١) .

ويضع ابن عذارى تاريخ ثورة العبيدى فى سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) ، ويقول إنه قام بثورته فى بلاد جزولة ، من إقليم السّوس ، وكان يزعم أنه فاطمى من ذرية عبد الله الشيعى ، ولم يزل يبث دعوته حتى ظفر به الموحدون فقتل وعلق رأسه على باب فاس^(٢) . بيد أننا نؤثر الأخذ برواية المراكشى ،

(١) المراكش فى المعجب ص ١٨٦ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٣ .

وهو معاصر وشاهد عيان ، وهو ينفرد بما يقدمه إلينا من التفاصيل .

وفي نفس هذا العام ، سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) وصل إلى مراکش إبراهيم ابن الفخار اليهودي وزير ملك قشتالة ، سفيراً إلى الخليفة الموحدي في شأن التهاند وعقد السلم ، فرحب المستنصر وأوصياؤه ، بهذه الرغبة ، ووجه كتابين إلى الأندلس ، أحدهما إلى السيد أبي الربيع والي جيان ، والثاني إلى الشيخ أبي العباس بن أبي حنص والي قرطبة ، يطلب إليهما عقد التهاند والسلم مع ملك قشتالة ، على جميع بلاد الموحدين بالأندلس ، وفقاً للشروط التي اتفق عليها بين الخليفة وبين ابن الفخار ، والتزم بها السفير القشتالي نيابة عن مليكه ، وكان عقد السلم مع قشتالة على هذا النحو ، خطوة طيبة ، حققت للأندلس فترة من الهدوء والسلام^(١) .

ويجب لكي نفهم البواعث التي حملت قشتالة ، على أن تسعى إلى عقد السلم مع الموحدين ، ولما بعض سوى ثلاثة أعوام على انتصارها الساحق في معركة العقاب ، أن نذكر أنه لما توفي ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وهو الظافر في معركة العقاب ، في أكتوبر سنة ١٢١٤ م ، خلفه على العرش ولده الطفل هنري (إنريكي) ، ولم يكن قد جاوز الحادية عشرة من عمره ، فتولت أمه الملكة إليونور ، الوصاية عليه ، ولكنها توفيت بعد أشهر قلائل ، فخلفتها في الوصاية أخته دونيا برنجيلا ، زوجة ألفونسو التاسع ملك ليون المطلقة ، وكان آل لارا الأقوياء يطمحون إلى انتزاع الوصاية لأنفسهم ، فتنازلت عنها إليهم دونيا برنجيلا بشروط تعهدوا باحترامها ، أهمها ألا يعلنوا الحرب على أي ملك ، أو يتنازلوا عن الأراضي للأتباع ، أو يفرضوا أية ضرائب ، دون موافقة الملكة (برنجيلا) . وسارت الأمور في قشتالة على هذا النحو حيناً ، حتى توفي الملك الصبي هنري بعد ذلك بقليل من جرح أصابه خلال اللعب مع بعض الصبية الآخرين ، وذلك في يونيو سنة ١٢١٧ . فعندئذ بادرت الملكة برنجيلا باستقدام ولدها فرناندو وهو الذي رزقت به من ألفونسو ملك ليون ، وكان صبياً في الثانية عشرة من عمره ، واستدعاء صحبها المخلصين ، وسارت إلى بلد الوليد ، وهناك أعلنت نفسها ملكة لقشتالة ، بيد أنها تنازلت في الحال عن العرش لولدها

فرناندو فأصبح ملكاً على قشتالة (أول يولييه سنة ١٢١٧ م) وهذا الملك الصبي ، هو الذى غدا فيما بعد فرناندو الثالث ، أو فرناندو المقدس^(١) .

وفضلاً عما كان يحيق بعرش قشتالة من عوامل التقلقل والضعف ، فإن أحوال قشتالة العامة لم تكن يومئذ تدعو إلى الرضى ، فإن آثار الوباء كانت مازال متفشية فى معظم الأنحاء ، وكان الإنتاج الزراعى قد انخفض من جراء ذلك ، وهلكت المحاصيل ، وانتشرت المجاعة بين السكان .

نستطيع على ضوء هذه الظروف التى كانت تجوزها قشتالة عندئذ ، أن نفهم كيف جنحت قشتالة إلى المسألة ، وآثرت أن تجوز فترة هدوء وسلام ، تستطيع خلالها أن تنظم شئونها ، وأن توطد عرشها ، وأن تعمل على إنعاش مواردها وأحوالها الزراعية والاقتصادية .

وفى العام التالى أعنى فى سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) ، وقع حادث ضئيل فى ظاهره ، كبير فى مغزاه ، ونتائجه المحتملة ، هو ظهور طلائع بنى مَرِين فى أحواز مدينة فاس . وقد شرح لنا ابن خلدون أصل أولئك القوم ، الذين كتب لهم ، أن ينزعوا ملك الموحدين فيما بعد ، فهم من شعوب بنى واسين من بطون قبيلة زناتة الشهيرة ، التى ينتمى إليها عدة من القبائل البربرية التى لعبت أدواراً بارزة فى تاريخ المغرب ، مثل مغراوة ، ومغيلة ، ومديونة ، وبنى يفرن ، وبنى دمر ، وزواغة ، وجراوة ، وبنى عبد الواد ، وغيرهم . ومع ذلك فإن بنى مَرِين ، كعظم الأسر البربرية التى شادت بالمغرب دولاً شامخة ، يرجعون نسبهم إلى العرب وقد رأيت أن هذا كان شأن المرابطين حيث تُرجع صنهاجة التى تنتمى إليها لمتونة نسبتها إلى العرب اليمنية ، وشأن الموحدين ، حيث ينتسب صاحب دعوتهم المهدي ابن تومرت ، إلى آل البيت ، ويُرجع مؤسس دولتهم عبدالمؤمن نسبته إلى قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وإلى هذا الفرع أيضاً ينتسب بنو مَرِين ، فيقولون لأنهم من ولد بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار ، وجدهم الأعلى جرماط بن مَرِين بن ورتاجى بن ماخوخ بن وجديج بن فائق بن يدّر ابن يحفت بن يصلتين بن عبد الله بن ورتيب بن المعز بن إبراهيم بن سحيك ابن واسين^(٢) . وكانت منازل بنى مَرِين ، وإخوانهم من بنى مديونة وبنى يلوى

(١) M.Lafuente : Historia General de Espana. T. III. p. 380 & 381

(٢) الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية (طبع الجزائر ١٩٢٠) ص ١٠ ، ١١ ، ١٦ ، =

وبني يادين بن محمد في المغرب الأوسط ، ما بين وادي ملوية شمالا وسجلماسة جنوباً . وكانت المعارك كثيراً ما تنشب بين بني مرين وجيرانهم من بني يادين ، وهم الذين ينتمى إليهم بنو عبد الواد ، أصحاب مملكة تلمسان فيما بعد ، وكانت الغلبة في معظم الأحيان على بني مرين ، لكثرة خصومهم من بني يادين ، وكان بنو مرين كمعظم البطون البربرية في تلك المنطقة ، من البدو الرحل ، يتجولون في هاتيك القفار شرقاً وغرباً ، وربما وصلوا في ظعنهم شرقاً إلى بلاد الزاب . وقد كانت الرياسة فيهم ، حسبما تذكر الرواية قبل ذلك بعصور ، لمحمد بن وزير ابن فكوس بن كرماط بن مرين . ولما توفي محمد قام بأمر بني مرين من بعده أكبر أولاده حمامة ، ثم خلفه أخوه عسكر ، فلما توفي قام مكانه في الرياسة ولده أبو يكي الملقب بالخضب ، فلم يزل أميراً عليهم حتى ظهر أمر الموحدين ، وزحف عبد المؤمن إلى تلمسان في أثر تاشفين بن علي ، ليخوض معه المعركة الحاسمة (٥٣٩ هـ) ، وبعث قوة من الموحدين بقيادة الشيخ أبي حفص عمر الهنتاني ، لمحاربة الخوارج من بطون زناتة ، فاجتمع لقتاله بنو يادين وبنو يلموي وبنو مرين ومغراوة ، فزق الموحدون جموعهم ، وأذعن بنو يلموي وبنو يادين وبنو عبد الواد إلى الطاعة . ولكن بني مرين لحقوا بالصحراء في اتجاه الزاب . ولما دخل عبد المؤمن وهران ، على أثر مصرع تاشفين وتبدد قواته ، واستولى على أموال لمتونة وذخائرها ، عهد بهذه الأموال والذخائر إلى قوة من الموحدين لتحملها إلى تينملل ، فعلم بنو مرين بذلك ، واعترضوا تلك القوة ، وانتزعوا الغنائم من أيدي الموحدين . فحشد عبد المؤمن أوليائه من بطون زناتة ، وبعثهم مع الموحدين لاستنقاذ الغنائم . والتقى الموحدون وبنو مرين في مكان يعرف بفحص مسون ، فهزم بنو مرين ، وقتل شيخهم الخضب بن عسكر ، وذلك في سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) . ولجأ بنو مرين على أثر ذلك إلى الصحراء ، وعادوا إلى القفر يرقبون القصر .

وقام بأمر بني مرين بعد الخضب بن عسكر ، ابن عمه أبو بكر بن حمامة ابن محمد . ولما توفي في سنة ٥٦١ هـ ، قام بأمرهم ولده محيو ، فلم يزل في

= و ١٧ ، وابن خلدون في كتاب العبر ج ٧ ص ١٦١ . ويقدم لنا صاحب الذخيرة السنية شرحاً طويلاً لكيفية تحول نسل برين قيس عيلان بالمغرب من العروبة إلى البربرية .

(١) الذخيرة السنية ص ١٨ و ١٩ .

رياستهم ، حتى استنفرهم الخليفة يعقوب المنصور للجهاد معه بالأندلس ، فاشتركت معه منهم جماعة كبيرة في موقعة الأرك ، وأبلوا فيها البلاء الحسن (٥٩١ هـ - ١١٩٥ م) ، وأصيب عميدهم محبو في المعركة بجرح توفي منه بعد بضعة أشهر ، فخلفه في الرياسة أكبر أولاده أبو محمد عبد الحق ، وكان من خيرة أمرائهم ، وعلى يديه أخذ نجم بن مرين يبرز في الأفق (١) .

ولما وقعت كارثة العقاب ، وفي معظم الجيوش الموحدية ، في شبه الجزيرة الأندلسية ، أخذت بوادر التفكك والضعف تبدو على سلطان الموحدين ، في معظم الإمارات والأطراف . ولم يكن ذلك بخاف على القبائل المتوثبة مثل بني مرين . ولما توفي الخليفة الناصر ، وخلفه ولده الصبي يوسف المستنصر ، وشغلته نزوات الحداثة والشباب ، عن تدبير شئون الدولة ، وغلب التواكل والتراخي ، على السادة والأشباخ ، في مختلف النواحي ، لاح لبني مرين أن فرصهم قد سنحت . وكانوا لا يأوون إلا إلى القفار ، ولا يخضعون لأى حكم ، ولا يؤدون الجزية لأحد ، ولا يعرفون الحرث والزرع ، ولا شاغل لهم غير الصيد والغارات ، وجل أموالهم من الإبل والخيل (٢) . وكانت منازلهم ما تزال في جنوبى وادى ملوية ، وكانوا يترددون في تلك الأنحاء ، ولا سيما في المنطقة الممتدة ما بين وادى ملوية ومكناسة ، ويأمنون بمن بها من عسائر زناتة ، وينتجعون المرعى أيام الربيع والصيف ، ويجمعون الحبوب لأقواتهم طيلة الشتاء ، ثم يرتدون إلى منازلهم في القفر فوق التلال والربى . فلما شهدوا من تضعضع الدولة الموحدية ، وتخاذل أطرافها ماشدوا ، اعزموا أن يهجروا القفر ، وأن ينتجوا العمران ، فنقلوا إلى نواحي المغرب المحاورة ، واكتسحوا بخيلهم البسائط ، وملأوا أيديهم بالغارة والنهب ، وكان ذلك بداية عهد الخليفة المستنصر . فثار لذلك بلاط مراكش ، وأمر المستنصر بتجهيز الحشود ، وندب أبا على بن وانودين للقيادة ، وبعثه إلى السيد إبراهيم لإسماعيل وإلى فاس ، وأمر بأن يخرج السيد لغزو بني مرين ، وأن يشحن فيهم وأن يستأصل شأفتهم ، وكان بنو مرين حينما علموا بأمر هذه الأبهة قد اجتمعوا وتشاوروا ، واتفق رأيهم على التأهب للحرب والزال ، فتركوا أموالهم وحریمهم في حصن تاروطا بأرض غمارة ، وصاروا جنوبا صوب فاس ،

(١) ابن خلدون في المعبر ج ٧ ص ١٦٧ .

(٢) الذخيرة السنية ص ٢٣ .

وكانوا في نحو أربعمائة فارس غير الرجال ، وخرج الموحدون إليهم بقيادة السيد أبي إبراهيم ، وكانوا في عشرين ألف مقاتل أو في عشرة آلاف وفقاً لرواية أخرى . والتقى الفريقان بوادى نكور ، فكانت الهزيمة على الموحدين ، واستولى بنو مرين على أسلابهم ودوابهم ومتاعهم بل وثيابهم ، وأسروا السيد أبا إبراهيم ثم أطلقوا سراحه بعد ذلك ، وارتدت فلول الموحدين إلى فاس ، وبعضهم نحو رباط تازة ، وكثير منهم يسترون أنفسهم بورق النبات المعروف « بالمشعلة » حتى لقد سميت هذه الموقعة بموقعة المشعلة ، بل سمي هذا العام (سنة ٦١٣ هـ) بعام المشعلة^(١) ، وسار بنو مرين بعد ذلك شرقاً نحو بلدة رباط تازة ، وبعث أميرهم أبو محمد عبد الحق إلى عاملها الموحدى ، يطلب إليه أن يقيم في خارجها سوقاً لبنى مرين ، يتزودون منها بما يحتاجون إليه ، فأنف العامل الموحدى ، وثار لذلك الطلب ، وخرج في جمع غفير من الموحدين والعرب وأبناء القبائل المجاورة ، ونشبت بينه وبين المرينيين معركة شديدة هزم فيها وقتل ، ونهبت محلته . فكان ثانياً نصر لبنى مرين على الموحدين في ظرف بضعة أشهر^(٢) .

ثم وقع الخلاف بين بنى مرين أنفسهم ، وانقسموا إلى فرقتين ، الأولى يتزعمها بنو عسكر بن محمد ، والثانية يتزعمها بنو حمادة بن محمد ، وقد كانت الرياسة في البداية في بنى عسكر ، ثم انتقلت إلى بنى حمادة ، فغص بذلك فريق بنى عسكر ، وخرجوا على أميرهم أبى محمد عبد الحق ، وتحالفوا مع أولياء الموحدين من عرب رياح ، وكان الخليفة المنصور قد أنزلهم بتلك المنطقة . وفي سنة ٦١٤ هـ ، نشبت بين بنى عسكر وحلفائهم من أولياء الموحدين ، وبين بنى حمادة في وادى سبو ، موقعة هزم فيها بنو حمادة في البداية ، وقتل أميرهم عبدالحق وولده الأكبر إدريس ، فاضطرم بنو حمادة سخطاً ، واستجمعوا قواهم ، وحملوا على خصومهم من الموحدين والعرب حملة عنيفة ، كثر فيها القتل من الجانبين ، وانتهت بهزيمة الموحدين والعرب وتمزيق جوعهم ، وانتهاب سائر أسلابهم . (جمادى الآخرة سنة ٦١٤ هـ) . وقام برياسة بنى مرين بعد مقتل أميرهم عبد الحق ، ولده أبو سعيد

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٦٩ ، والبيان المغرب القسم الثالث ص ٢٤٤ و ٢٤٧ ، وروض القرطاس ص ١٨٨ ، والذخيرة السنية ص ٢٦ - ٢٨ .

(٢) الذخيرة السنية ص ٣١ و ٣٢ .

عثمان ، وهو الذى بزغ على يديه نجم بنى مرين ، وأصبحوا قوة لها خطرهما^(١) .

* * *

ولقد أشرنا فيما تقدم إلى عقد التهادن والسلم بين الموحدين ومملكة قشتالة ، ولكن هذا التهادن لم يتحقق بالنسبة لباقي الممالك الإسبانية النصرانية ، ومن ثم فقد وقعت بالأندلس ، فى قطاع الغرب ، حوادث هامة ، كان من نتائجها ، أن نكبت الأندلس بفقد طائفة جديدة من الأراضى والحصون .

وكان أول ضربة أصابت الأندلس من جراء العدوان النصرانى ، فقد ثغر القصر أوقصر أبى دانس^(٢) ، وهو أمنع قاعدة دفاعية اسلامية فى منطقة الغرب . وكانت القصر قد سقطت فى أيدي البرتغاليين فى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) ، على أثر اضطراب الحوادث فى منطقة الغرب ، ولما عبر الخليفة المنصور إلى شبه الجزيرة لأول مرة ، لاسترداد شلب التى استولى عليها البرتغاليون بمعاونة النصارى الصليبيين ، فى سنة ٥٨٥ هـ ، غزا منطقة الغرب واستطاع أن يسترد حصن القصر من النصارى فى جمادى الأولى سنة ٥٨٧ هـ (يونيو ١١٩١ م) ، وولى عليه أبابكر محمد بن وزير . ويقع ثغر القصر جنوب شرق أشبونة على مصب نهر شطوبر Sadoa ، على مقربة من المحيط الأطلنطى ، ويتسع مصب هذا النهر لدخول السفن الكبيرة ، تشقه حتى أسوار المدينة ، ويتصل قبل مصبه فى المحيط بخليج واسع يصلح لتجمع السفن الغازية . وكانت مناعة القصر تقف سداً منيعاً ضد تقدم البرتغاليين نحو الجنوب . فى أوائل سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) وصل إلى شواطئ البرتغال أسطول من الصليبيين الألمان فى طريقه إلى المشرق ، ورسا فى مياه أشبونة (لشبونة) ، فانهز البرتغاليون تلك الفرصة ، ودعوا إلى إشهار الحرب الصليبية ، ضد مسلمى الأندلس ، وسار البرتغاليون وحلفاؤهم الصليبيون الألمان إلى ثغر القصر ، وضربوا حوله الحصار من البحر ومن البر ، وذلك فى ٣٠ يولييه سنة ١٢١٧ م ، فامتنع المسلمون داخل ثغرهم ، وبادر إليها عبد الله ابن وزير ، وهو ولد واليها السابق أبى بكر بن وزير ، يطلب الإنجاد من الموحدين ، ووصل صريحه إلى بلاط مراكش ، فبعث المستنصر إلى ولاية قرطبة وإشبيلية ، وجيآن وولاية الغرب ، بحشد جيوشهم ، والمبادرة إلى إنجاد الثغر المحصور ،

(١) الذخيرة السنية ص ٢٢ - ٣٤ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٠ .

(٢) وهى بالبرتغالية Alcácer do Sal

وسارت الجيوش الموحدية المجتمعة صوب القصر ، فوصلت إليه في أوائل شهر سبتمبر ، وكان المسلمون مازالوا صامدين في ثغرهم ، وقد استطاعوا أن يردوا عدة هجمات للمحاصرين . وسارت في نفس الوقت طائفة من السفن الموحدية إلى مياه القصر ، لتسد الطريق على السفن المحاصرة . ونشب القتال بين الجيوش الموحدية المتحدة وبين النصارى . والظاهر أن البرتغاليين كانوا يتفوقون في الكثرة على المسلمين ، إذ كان جيشهم يضم وفقاً للرواية النصرانية ذاتها ، عشرين ألفاً من الرجال وعدداً من الفرسان . فهزم المسلمون ومزقت صفوفهم . ويقول لنا صاحب روض القرطاس ، إن المسلمين ماكادوا يرون النصارى حتى أدركهم العرب ، وولوا الأدبار ، وذلك لسابق رعبهم منذ هزيمة العقاب ، فطاردهم النصارى وقتلوهم عن آخرهم ^(١) ، ويقول صاحب الروض المعطار ، إنه قد اجتمع من الأمداد جيش عظيم ، لكنهم تخاذلوا على عادتهم ، فكانت الهزيمة عليهم وولوا مدبرين ، ووقع القتل والأسر ، ولم يبرز للمسلمين من الروم إلا نحو سبعين فارساً ، ورأى أهل الحصن ذلك فأيقنوا بالتغلب عليهم ^(٢) .

ويضع ابن الأبار تاريخ الواقعة في شهر جمادى الأولى سنة ٦١٤ هـ (أغسطس ١٢١٧ م) ، وفي موطن آخر في أحد شهرى ربيع سنة ٦١٤ هـ متقدماً قليلاً عن الرواية النصرانية ، ويقول إنه فقد فيها آلاف من المسلمين يتخاذل رؤسائهم ، يوم التقى الجمعان ، وأن الواقعة كانت « لإحدى الكوائن المندرة حينئذ بما آلى إليه أمر الأندلس » ^(٣) .

ومع ذلك فقد بقيت حصن القصر صامدة ، فلما رأى النصارى أنهم لم يستطيعوا ثلم الأسوار ، صنعوا برجين عالين من الخشب ، يضارعان في ارتفاعهما أبراج المدينة ، وشحنوها بالرماة ، وركبوا في جوانبهما آلات الرمي ، وضربوا الأسوار من هذين البرجين ضرباً شديداً ، حتى أيقن المدافعون أنه لا أمل في الصمود ، فعرضوا التسليم . على أن يسمح لهم بالخروج بأموالهم ، فرفض النصارى ، ووافقوا فقط أن يسمح لهم بالخروج أحياء ، دون أن يحملوا شيئاً معهم . ففتحوا الأبواب ، وانطلقوا إلى حال سبيلهم ، وسلمت المدينة بعد أن لم تبقى أية وسيلة

(١) روض القرطاس ص ١٦١ . (٢) الروض المعطار ص ١٦٢ .

(٣) الرواية الأولى في الحلة السيرة ص ٢٤٢ . والثانية في التكملة (القاهرة) ج ٢ في

الترجمة رقم ١٥٧٧ .

للدفاع ، وذلك في ١٨ أكتوبر سنة ١٢١٧ م (١٤ رجب ٦١٤ هـ) ، بعد شهرين ونصف من بدء الحصار . وسلم قائد الثغر ، وهو عبد الله بن وزير ، نفسه للنصارى ، وتظاهر باعتراف النصرانية طلباً للسلامة ، ولكن لم تمض أيام قلائل حتى استطاع الفرار ، والوصول إلى الأراضى الإسلامية . ولجأ فيما بعد إلى مدينة إشبيلية . ودخل النصارى مدينة القصر أوقفوا قصر أبي دانس ، وقتلوا كل من كان بها ، وبالضياح المجاورة ، من المسلمين . وفتح سقوط هذا الثغر المنيع ، الطريق إلى زحف البرتغاليين وحلفائهم الصليبيين نحو الجنوب ، نحو باجة وميرتلة وشلب . ولكن ملك البرتغال ألفونسو الثانى (ألفنش) ، وهو لم يشترك في حصار القصر ، آثر أن يتمهل بعض الوقت لتعمير الأراضى المفتوحة . ومن جهة أخرى فإن الصليبيين لم يستطيعوا الزحف إلى الجنوب ، بعد أن وصلهم أوامر البابا قاطعة بأن يستأنفوا سيرهم إلى المشرق^(١) .

ومن الغريب أن ابن عذارى ، وهو فى معظم ما يكتبه ، يقظ متنبه للأحداث ، يقول لنا إنه لم يتحقق خبراً يذكره فى سنة أربع عشرة أو خمس عشرة ، هذا فى حين أن صاحب روض القرطاس ، يذكر واقعة سقوط القصر ، وتاريخ وقوعها فى سنة ٦١٤ هـ ، ويصفها بأنها كانت من الهزائم الكبار التى تقرب من هزيمة العقاب . ولم تمض بضعة أعوام على نكبة مدينة القصر ، حتى منيت الأندلس بفقد قاعدة أخرى من حصونها الأمامية المنيعة هى قاصرش^(٢) . وكان ألفونسو التاسع ملك ليون غير مرتبط مع الموحدين برباط التهادن والسلم ، وكان يطمح إلى الاستيلاء على قاصرش ، الواقعة شمالى ماردة وغربى تـرجـالـه ، وذلك لكى يضمن سلامة حصن القنطرة الواقع على نهر التـاجـه فى شمالها الغربى ، والذى كان مركز جمعية فرسان القنطرة ، فسار إليها فى شهر نوفمبر سنة ١٢١٨ م (٦١٦ هـ) وضرب حولها الحصار ، ولكن حاميتها الإسلامية صمدت ، واضطر أن يرفع الحصار عند حلول الميلاد ، وفى سنة ١٢٢١ م (٦١٩ هـ) استولى فرسان القنطرة على قاعدة « بلنسية »^(٣) الإسلامية . وفى العام التالى ، اشترك فرسان شنت ياقب

(١) راجع فى سقوط حصن القصر ، روض القرطاس ص ١٦١ ، والروض المطارص ١٦١ و ١٦٢ وكذلك : A.Hulci : Historia Política del Imperio Almohade, p. 442 & 448

(٢) وهى بالإسبانية Cáceres

(٣) هى المعروفة ببلنسية القنطرة الواقعة غربى قاصرش ، وهى طبعاً غير ثغر بلنسية الكبير ، فى الشرق .

وملك ليون في حصار قاصرش ، ولكن ألفونسو التاسع عاد فرفع الحصار للمرة الثانية ، عن القاعدة الإسلامية . وفي الأعوام التالية ، تكرر هجوم الليونيين على قاصرش بمعاونة جماعة من القشتاليين ، وانتهى الأمر بسقوطها في أيديهم ، وذلك في صيف سنة ١٢٢٣ م (٦٢٢ هـ) ، بعد وفاة الخليفة المستنصر بنحو عامين .

ومن جهة أخرى فإنه بالرغم من عقد المهادنة بين قشتالة ، والخليفة الموحدى ، كانت العناصر النصرانية المتعصبة التى لا يروقها الكف عن محاربة المسلمين تربص الفرص ، لتجديد غزو الأندلس ، وكان فى مقدمة هؤلاء الحبر المتعصب ، ردرىجو خنيث دى رادا مطران طليطلة ، فإنه قام بتجهيز حملة صليبية ، وعبر إلى الأراضى الإسلامية من ناحية الشرق ، واستولى على عدة من حصون المسلمين ، ووصل فى زحفه إلى بلدة ركانة الواقعة غربى بلنسية ، وحاول النصارى الاستيلاء على ركانة فضربوها بالحناقيق ، وهاجموها مراراً ، وهدموا بعض أبراجها ، ولكنهم لم يستطيعوا تحقيق بغيتهم ، وارتدوا عنها خائبين . وكان ذلك فى أواخر سنة ١٢١٩ م (٦١٧ هـ) .

* * *

وكانت الأمور خلال ذلك كله ، تسير فى العاصمة الموحدية رتيبة راكدة ، وبلاط مراکش على ما هو عليه من التواكل والسكون ، والخليفة الفقى يوسف المستنصر ، مكب على حياة اللهو والمرح ، وأشياخ الموحدين المضطلعين بتدبير الأمور ، غير حافلين بشئ ، ولم توقظهم نهضة بنى مرين وفورتهم الخطيرة ، التى لم يحدها سوى خلافهم فيما بين أنفسهم ، ولم تهزهم حوادث الأندلس وسقوط ثغر القصر ، وما اقترن به من الحوادث المؤلمة ، ولم يفكروا فى العمل على تعزيز معاقل الأندلس ، وخطوطها الدفاعية ، تحوطاً للحوادث . ثم جاءت سنة ٦١٦ هـ (١٢١٨ م) ، وقد هلكت الزروع ونضبت الحبوب ، وانتشرت المجاعة ، وارتفعت الأسعار ارتفاعاً هائلاً . وكانت الأحوال الاقتصادية قبل ذلك ، تسير من سيئ إلى أسوأ ، وقد سجلت لنا الرواية عن أحوال المغرب فى هذا الوقت صورة قاتمة ، حيث كثرت الفتن بين قبائل المغرب ، ونبتد أكثرها الطاعة ، وقطعت السابلة ، واشتد الخوف فى الطرقات ، وكثر اعتداء الأقوياء على الضعفاء ، وكسدت التجارة ، وانكمش الأخذ والعطاء لاختلال الأمن ، وإغارة القبائل

البربرية وجموع العرب على مختلف الأنحاء^(١). كل ذلك والحكومة الموحدية جامدة لا تفكر في اتخاذ أى إجراء لإصلاح الأحوال . فلما اشتدت الحاجة وعلم المستنصر بما يقاسيه الناس من أهوالها ، أمر بفتح المخازن السلطانية ، المعدة لاختزان الحبوب والمؤن ، ففتحت وفرقت منها مقادير عظيمة على العامة والضعفاء دون ثمن ، وفرق منها على الأقوياء والميسورين بالثمن ، وفرق الخليفة كذلك مبالغ كبيرة من المال على الناس ، فكان لذلك أثر طيب في تخفيف الضيق . ومن الغريب أنه طافت بالأندلس في العام التالى سنة ٦١٧ هـ ، مثل هذه الشدة ، فقلت الأقوات ، وارتفعت الأسعار ، ولكن الأزمة لم تطل ، وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعي^(٢) .

وفى هذا العام ، سنة ٦١٧ هـ (١٢١٩ م) ، وجه الخليفة المستنصر بالله كتابا إلى قواعد المغرب والأندلس ، على نمط الكتب التى كان يوجهها الخلفاء الموحدون ، منذ عبد المؤمن ، إلى الولاة والأعيان والكافة ، فى مختلف المناسبات ، بوجوب التمسك بالدين ، واتباع أحكام الشرع ، والزام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما إلى ذلك من النصائح والوصايا ، وربما كان لذلك أيضاً علاقة باختلال الأحوال ، ومحاولة تطمين الرعايا ، وإلقاء السكينة فى روعهم . وقد نقل إلينا ابن عذارى فصلا من ذلك الكتاب ، ونحن نقل بعض فقراته فيما يلى :

« وإلى هذا ، وصل الله توفيقكم ، فقد علمتم أن الدين هو الأساس الوثيق ، والبناء العتيق ، والفسطاط المضروب ، والعلم المنصوب ، والتجر الذى لا يبور ، والطريق الذى لا يجور ، من استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى ، ومن تحصن به ، فقد تحصن بالمعقل الأحصن الأرقى ، فإذا وقفتم على كتابنا هذا ، فجددوا للناس به الذكرى ، وعرفوهم أن الدنيا مطية إلى الدار الأخرى ، وحضوهم على العمل الصالح ، والتجر الرابع ، عسى أن يجعلهم الله تعالى فى الدارين ، من الذين لهم البشرى ، وبثوا فى جهاتكم كلها ، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . واستحفظوا الكافة صلواتهم ، فإنها الكتاب الموقوف على على المؤمنين ، وخذوهم باعتياد المساجد ، فإنها الشاهد الأزكى بشهادة خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، واطلبوهم بقراءة الحزب والتوحيد بالمساجد والأسواق ،

(١) الدخيرة السنية ص ٣٥ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٥ .

فإنه الخير المألوف ، والشعار المعروف ، والرسم الذى عليه العمل ، والعهد الذى لا يجب فيه التغيير والحلل .

« ونحن قد قلدنا الله قلادة نعلم لوازمها ، وتحفظ مراسمها ، ومن جملتها التذكير بالدين ، فهو الشافع الذى لا يغفل ، والوسيلة التى لاتضاع ولا تهمل ، فاعلموا أعزكم الله هذا المقصود علما ، وكونوا فى القيام به لاتخالفون بقطة ، ولانوما ، وللناس عليكم ما نأمركم به من العدل الثام ، والإنصاف العام ، وكف الأيدى ، وقبضها عن التعدى . وهذا خطاب قد أروشدنا فيه إلى مناهج سوية ، وحضضنا فيه على أمور ضرورية ، وأتينا فيه بما يجب البدار إليه ، وخبر العمل ما دووم عليه ، والله معيكم والسلام عليكم ، وكتب فى عاشر ربيع الأول سنة سبع عشر وستمائة » (١) .

والظاهر أن توجيه هذا الكتاب ، لم يكن إلا محاولة من الخليفة الفتى ، للعمل على إحياء تقليد من تقاليد آباءه الخلفاء الموحدين ، فى تذكير الناس من وقت إلى آخر بدستورهم الدينى ، والتنبيه إلى توقيره ، والحفاظة عليه .

وفى العام التالى ، سنة ٦١٨ هـ (١٢٢٠ م) ، قدم سفير قشتالة إلى مراکش مرة أخرى ليسعى فى تجديد المهادنة والسلم . وكانت المفاوضات الأولى قد تمت بين القشتاليين ، وولاة الأندلس من السادة الموحدين ، وتم تجديد المهادنة بين الفريقين ، وفقاً لتوجيه الخليفة المستنصر . ثم كتب وزير المستنصر ، أبو يحيى بن أبى زكريا ، إلى « ملكة قشتالة بنت ملك قشتالة وطليلة » كتاباً من إنشاء الكاتب ابن عيَّاش بما أبرم بينه وبين رسولها من عقد السلم . ومن الواضح أن ملكة قشتالة المشار إليها هنا ، لم تكن سوى الملكة برنجيلا بنت ألفونسو الثامن ملك قشتالة ، ومطلقة ألفونسو التاسع ملك ليون ، وكانت يومئذ تتولى الوصاية على ابنها الصبى فرناندو ، الذى أعلن ملكاً على قشتالة فى سنة ١٢١٧ م ، وكانت بذلك تعتبر هى الملكة الأصبلة فى نظر الموحدين .

وقد أورد لنا ابن عذارى نبذة من الكتاب المشار إليه نقلها فيما يلى :

« وقد انقلب إليكم رسول منكم ، بما تعرفونه فى السلم المتعقد ، النير شهابه ، المتقد بين الموحدين وبينكم ، بالمخاطبة الكريمة ، التى حملها إليكم ، وحمل نحوكم

من الإنحاف ما يبغاكم على يديه ، الذى هو عنوان المخالصة ، وثمره المواصلة ، وكل ما يكون من هذا بيننا وبينكم ، ينبغى أن يكون مقبلاً ، وعلى أحسن التأولات متأولاً ، ان شاء الله ، وأنتم بحول الله تقفون عند حدود السلم ، وتحافظون عليها ، وتعاقبون كل من هم بإذاية المسلمين ، فإن الوفاء شعار الملوك ، وعليهم فيه يجب السلوك . وكتب فى سادس رمضان سنة ثمان عشرة وسبائة ^(١) .

وكان من تصرفات المستنصر الأخيرة ، أن عين عمه أبا محمد عبد الله ابن يعقوب المنصور والى غرناطة ، وهو الذى تسمى بالعدل فيما بعد ، والياً على مرسية ، وذلك فى سنة ٦١٩ هـ (١٢٢١ م) .

ولم يك ثمة ما يؤذن بوفاة الخليفة المستنصر فى سن مبكرة ، وقد كان فى فى عنفوانه ، لم يجاوز الرابعة والعشرين من عمره ، وكان متين البنية ، حسن التكوين . ولكن حياة اللهو الصاحب المستمر ، التى انهمك فيها ، حطمت بنيته ، ومهدت الألعاب والرياضات العنيفة ، التى كان يشغف بها لوفاته الفجائية . ويقص علينا صاحب روض القرطاس قصة هذه الوفاة الفجائية ، فيقول لنا إن يوسف المستنصر ، كان مولعاً بالبقر والخيل ، وكان يستجلب الأبقار من الأندلس ، ويربها فى رياضه الكبيرة بمدينة مراكش ، فى عشية ذات يوم ، ركب المستنصر فنشياً (مهرًا) ، وذهب إلى الروض ليتأمل خيله وأبقاره فى ضوء القمر ، فبينما هو يسير بين البقر ، إذ قصدت إليه بقرة شرود منهن ، فضربته بقرنها بعنف ، ضربة أصابته فى القلب ، وأودت بحياته على الأثر . وكان ذلك فى مساء يوم السبت الثانى عشر من شهر ذى الحجة سنة ٦٢٠ هـ (٤ يناير ١٢٢٤ م) ^(٢) . ولكن هذه الرواية ، التى ينقلها بعض المؤرخين المتأخرين ، ليست هى الوحيدة فى شرح ظروف وفاة الخليفة المستنصر الفجائية ، فإن هناك رواية أخرى ، مفادها ان المستنصر توفى مسموماً ، بتدبير وزيره أبى سعيد بن جامع والفتى مسرور ، وهذا ، نقاله إلينا الزركشى عن « ترجمان العبر » ^(٣) .

والآن فلنلق نظرة عابرة على هذه الأعوام العشرة ، التى شغلها خلافة المستنصر ، وعلى شخصية هذا الخليفة الفتى ، وهى شخصية لم تتميز بشيء من الخلال العظيمة ، والأعمال البارزة .

(٢) روض القرطاس ص ١٦١ .

(١) البيان المغرب القمم الثالث ص ٢٤٦

(٣) الزركشى فى تاريخ الدولتين ص ١٤ .

ان سائر التواريخ المعاصرة والقريبة من العصر ، تحدثنا عما كان عليه عهد الخليفة المستنصر ، من التعطل والركود ، وعما كان عليه المغرب يومئذ ، من اختلال الأحوال ، واضطراب السكينة والأمن ، وذيوع التوجس والقلق ، وضعف الموارد العامة والخاصة ، وانتشار الضيق والفقر ، وفتر هم أولى الأمر ، ونكولهم عن القيام بأية إجراءات ناجعة ، لتنظيم شئون الدولة ، أو معالجة الأحوال العامة ، أو معاونة الشعب على اجتياز أزماته الاقتصادية والاجتماعية . ولم يكن ثمة شك في أن هذه كلها ، كانت علامات مزعجة ، تؤذن بديب الوهن والانحلال إلى الدولة الموحدية العظيمة ، وبانحدارها إلى المصير ، الذي لا بد أن تنحدر إليه دولة يصيبها مثلما أصاب الدولة ، في عهد المستنصر بالله .

وإننا لنقرأ في وصف المؤرخين لشخصية المستنصر ، وفي تعليقاتهم على عصره ، تلك الصور المروعة ، لدولة تنحدر بسرعة إلى هاوية السقوط .

فثلاً يقول لنا ابن عذارى : « ولم تكن للمستنصر بالله حركة ولا غزوة ، ولا خرج من حضرته إلا المدينة تينملل ، على العادة في التبرك بالمهدى . فما وقفت له على خبر أذكره إلا ما رأيت في بعض الرسائل ، والله يؤتى ملكه من يشاء »^(١) . ويقول صاحب روض القرطاس : « ولم يخرج من حضرة مراکش طول خلافته إلى أن توفي ، وكانت أوامره لا تتمثل ، أكثرها لضعفه وليانه ، وإذا مته على الخلافة ، وركونه إلى اللذات . وتفويضه أمور مملكته ، ومهمات أموره ، إلى السفلة »^(٢) .

ويقول ابن خلدون : « وقام بأمر الموحدين من بعده (أى بعد الناصر) ابنه يوسف المستنصر ، فنصبه الموحدون غلاماً لم يبلغ الحلم ، وشغلته أحوال الصبا وجنونه ، عن القيام بالسياسة وتدبير الملك ، فأضاع الحزم ، وأغفل الأمور ، وتواكل الموحدون بما أرخى لهم من طيل الدالة عليه ، ونفس عن مخنقهم ، من قبضة الاستبداد والقهر ، فضاعت الثغور ، وضعفت الحامية ، وتهاونوا بأمرهم وفشلت ربحهم »^(٣) .

على أن أبلغ ما وقفنا عليه من هذه التعليقات يتمثل في تلك الفقرة التي يوردها ابن عبد الملك المراكشى ، في ترجمة أبي الحسن بن القطان ، تعليقاً على اختلال

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٧ . (٢) روض القرطاس ص ١٦١ .

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ١٦٩ .

الأحوال في المغرب وقطع السبل ، ووقوع النهب على التجار وغير ذلك :
 « واستمرت الأمور على هذه الحال ، وهذه السبل زمانا ، والمستنصر في
 غفلة عن كل ما يجري ، غير سائل عن رعيته التي يسئل عنها ، وإن بدر منه سؤال
 عن أحوال الناس والبلاد ، أجاب الوزير أبو سعيد ، أن الجميع في سبوغ نعمه ،
 وشمول عافية ، واتساع أحوال ، وبسط أموال ، فيقنعه ذلك ، ويعود إلى أنهما كه
 في لذاته . وأهمل مع ذلك جانب الأجناد الذين هم آلة الملك وأعوانه ، فأرجل
 فرسانهم ، وصرفت رجالاتهم ، فتفاقم الأمر ، واستشرى شرى المفسدين وكثر
 أضرارهم ، وعم عدوانهم . ولما تبادى ظهور الفساد ، واشتدت شوكة أهله ،
 أجرى أبو الحسن (المترجم) ذكر ذلك بمجلس الوزير أبي سعيد ، وأشار عليه
 بإنفاذ جيش إلى بعض نواحي مراکش لردع من نجم من أهل البغي ، فأجابه
 بأن ذلك لا يحتاج إليه ، وأنه سيكتب إلى أهل تلك الناحية ، بالنفوذ إلى من تعرض
 إلى أرضهم ومرافقهم ، والقبض عليهم وقتلهم ، ونحو هذا » (١) .

في تلك الفقرة ، التي يقدمها إلينا مؤرخ عاش فيها قريباً من العصر ، تبدو
 أصدق صورة للمستنصر وأحوال عصره ، وهي صورة تنطق بنفسها ، مما يمكن
 أن يترتب على مثلها بالنسبة للدولة التي تجوزها من النتائج الخطيرة .

على أنه توجد لدينا في نفس الوقت بعض نصوص تقدم إلينا المستنصر ، هذا
 الفتى المتعطل المستهتر ، في صورة أخرى ، هي صورة الطاغية القوى المستبد ،
 الذي يستأثر بالأمور ، وإليك ما يقوله لنا في ذلك مؤرخ موحدى معاصر وشاهد
 عيان ، هو عبد الواحد المراكشي ، وقد عرف المستنصر شخصياً واتصل به .

يقول عبد الواحد خلال حديثه عن المستنصر : « ولم يغير أبو يعقوب هذا على
 الناس شيئاً من سير آبائه ، ولا أحدث أمراً يتميز به عن كان قبله ، خلا أنى رأيت
 كل من يعرفه من خواص الدولة ، قد ملئ قلبه رعباً لما يعلمون من شهامته
 وشدة تيقظة . لقيته وجلست بين يديه خالياً به ، وذلك في غرة سنة ٦١١ ، فرأيت
 من حدة نفسه ، وتيقظ قلبه ، وسؤاله عن جزئيات لا يعرفها أكثر السوق ، فكيف
 الملوك ، ما قضيت منه العجب ، وإلى وقتنا هذا لم يظهر منه شيء مما يتوقع » (٢) .

(١) كتاب الذيل والتكلة لابن عبد الملك المراكشي (البيفر الخامس من مخطوط المتحف البريطاني
 لوحة ١٩) في ترجمة علي بن محمد بن عبد الملك بن سباحة الحميري الكتاني ، أبي الحسن بن القطان .
 (٢) المعجب ص ١٨٧ .

ويؤيد هذه الصورة في بعض نواحيها صاحب روض القرطاس حين يقول في حديثه عن المستنصر : « فضعفت دولة الموحدين في أيامه ، واعتراها النقص ، وأخذت في الإدبار ، إلا أن أيامه كانت أيام هدنة ودعة وعافية . فلما كبر ، واشتغل بأمره ونهيه ، واستبد بملكه ، جعل يفرق أعمامه ، وحواليه الذين أقاموها ، وأشياخ الموحدين الذين أسسوها ، وقرب أناسا وتمسك بهم ، لم يكن لهم أصل فيها » (١) .

هذا وقد كانت حكومة الخليفة المستنصر ، تتألف من معظم الأشخاص الذين عملوا مع أبيه الناصر ، فكان وزيره وزير أبيه أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن إدريس بن إبراهيم بن جامع ، وهو سليل تلك الأسرة التي استأثرت بوزارة الخلافة الموحدية زهاء نصف قرن ، وكان عميدها إبراهيم بن جامع من أصحاب المهدي ، واستمرت وزارته إلى آخر سنة ٦١٥ هـ ، ثم صرفه المستنصر ، واستوزر من بعده أحد القرابة ، وهو زكريا بن يحيى بن اسماعيل المزرجي ، فاستمر في الوزارة حتى نهاية عهده ، بيد أن هناك ما يدل على أن المستنصر ، عاد فاستدعى الوزير أبا سعيد للعمل مرة أخرى ، وذلك في أواخر عهده . وتولى الكتابة للمستنصر كاتباً أبيه وجده من قبل ، وهما أبو عبد الله بن عياش ، وأبو الحسن بن عياش ، ولما توفيا متعاقبين في شهور سنة ٦١٩ هـ ، استدعى للكتابة أبو عبد الله محمد ابن يخلفتن الفازازي ، كاتب الناصر من قبل ، وكان عندئذ يشغل منصب القضاء بمرسية ، وعين معه للكتابة أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عياش ، وبقي كاتب الجيش أحمد بن منيع ، وهو كاتب الناصر من قبل ، في منصبه دون تغيير . وتولى الحجابة للمستنصر ، مبشر الخصى حاجب أبيه ، ولما توفى خلفه في الحجابة فارج الخصى المعروف بأبي السرور ، واستمر في الحجابة حتى وفاة المستنصر . وتولى القضاء للمستنصر ، أبو عمران موسى بن عيسى بن عمران قاضي أبيه ، فلم يزل في منصبه حتى نهاية عهده ، وهذا القاضي هو أيضاً ، حفيد أسرة استأثرت بمناصب القضاء منذ أيام عبد المؤمن ، وكان عميدها أبو عمران موسى الضريبر صهر عبد المؤمن .

ولم ينبج المستنصر ولدا ، ولم يعقب إلا حملا من جارية ، لم تذكر لنا الرواية مصيره (١) .

(٢) روض القرطاس ص ١٦١ .

(١) روض القرطاس ص ١٦١ .

الفصل الثاني

أبو محمد عبد الواحد والعاذل

وثورة البياسى بالأندلس .

ولاية الخليفة أبي محمد عبد الواحد . نشأته وصفاته . تصرفاته الأولى . اعتراض السيد أبي محمد عبد الله والى مرسية على خلافته . قيامه بالدعوة لنفسه وتلقبه بالعاذل . انضمام إخوته ولاية قرطبة وغرناطة ومالقة إليه . تأييد أبي محمد عبد الله البياسى والى جيان له . مخالفة السيد أبي زيد والى بلنسية . استوزاره لابن يوجان ونزوحه إلى إشبيلية . القيام بدعوته في مراكش . مصرع الخليفة أبي محمد عبد الواحد . تطور الحوادث بالأندلس . خروج البياسى على العادل ودعوته لنفسه . مسير أبي العلى إدريس لقتاله . استنصار البياسى بملك قشتالة . تحاذل أبي العلى عن قتاله وارتداده . العادل يرسل جيشاً آخر لقتال البياسى . هزيمة هذا الجيش وفراره . استيلاء البياسى على قرطبة . إغارة النصارى على أحواز إشبيلية . خروج أهلها لرد الغزاة . هزيمتهم وتمزيق صفوفهم . إغارة النصارى على أحواز مرسية . هزيمة المسلمين . مغادرة العادل للأندلس ومسيره إلى مراكش . العادل ونشأته وصفاته . اهتمامه بشئون الأندلس وكتابه في ذلك . تفاقم الحوادث في الأندلس . أعمال البياسى والقشتاليين في أواسط الأندلس . تحالف البياسى وملك قشتالة . محاصرة ملك قشتالة لجيان . فشل الحصار وارتداد النصارى . افتتاح القشتاليين للقبذاق وباغة . غزوهم للوشة والحامة . محاصرهم لغرناطة ثم جلاؤهم عنها . زحف البياسى على إشبيلية . خروج أبو العلى إدريس في الموحدين لمداغته . هزيمة الموحدين وأهل إشبيلية . خضوع قرطبة وبلاد شرق إشبيلية للبياسى . ما سلمه البياسى لملك قشتالة من المواقع والحصون . عود البياسى إلى مهاجمة إشبيلية . خروج أبي العلى للقائه . هزيمته وتمزيق جوعه . عود بلاد شرق إشبيلية إلى طاعة العادل . كتاب أبي العلى إلى أخيه الخليفة . ثورة أهل قرطبة ضد البياسى . مطاردته ومصرعه وانهيار ثورته . صفاته الذميمة . افتتاح ملك قشتالة لحصن قبالة . استنجاد أهل يياسة بصاحب جيان . خروج أهلها منها واستيلاء النصارى عليها . استيلاء فرناندو الثالث على شوذر ومواضع أخرى . مسير السيد أبي العلى إلى مرتش وعجزه عن مهاجمتها . يعقد الهدنة مع القشتاليين . اضطراب الأحوال في المغرب . عيث الخلط وهسكورة في أحواز مراكش . خروج أبي العلى إدريس بالأندلس على أخيه . دعوته لنفسه بالخلافة . كيف مهد لنفسه طريق الدعوة . مبايعته واتخاذ لقب المأمون . سعى الوزير ابن يوجان لتأييده . اتفاق الموحدين على خلع العادل . رفض العادل التنازل ومصرعه . بيعة الأشياخ للعادل ثم عدوهم عنه إلى ابن أخيه يحيى الناصر . تلقب يحيى بالمعتصم . غضب المأمون واعتزاهم العبور إلى العدو .

لما توفي الخليفة يوسف المستنصر بالله دون عقب في يوم السبت الثاني عشر من ذى الحجة سنة ٦٢٠ هـ ، اجتمع رأى أشياخ الموحدين ، وفي مقدمتهم الوزير أبو سعيد بن جامع ، على أن يقدموا مكانه للخلافة السيد أبا محمد عبد الواحد

ابن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن^(١) ، وكان شيخاً قد جاوز الستين ، يعيش مغموراً في هدوء ودعة . ويقول لنا المراكشي ، فيما بلغه ، أنه لما توفي المستنصر ، اضطرب الأمر ، وتطلع الناس لنشوب الخلاف ، ولكن معظمهم اجتمعوا على تقديم السيد الأجل أبي محمد عبد العزيز (عبد الواحد)^(٢) . على أنه يبدو أن اختيار عبد الواحد ، كان أمراً تقرر بمنتهى السرعة ، إذ بويغ في اليوم التالي لوفاة المستنصر ، أعني في يوم الأحد الثالث عشر لذي الحجة ، ويبدو في نفس الوقت أن هذا الاختيار لشيخ جاوز الستين ، يرجع إلى حكمة مزدوجة ، أولاً لكي يكون أداة مطوعة للزعماء الذين يقبضون على ناصية الحكم ، وثانياً لكي تكون خلافته ، ومفروض أنها سوف تكون قصيرة الأمد ، فترة انتقال ، يتمكن الأشياخ فيها من حسم خلافاتهم ، والاتفاق على الخليفة الحقيقي .

ويقدم إلينا المراكشي ، وقد عرف السيد عبد الواحد شخصياً ، تفاصيل عديدة عنه ، وعن حميد صفاته . فهو من أصغر أولاد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وأمه حرة اسمها مريم وهي صنهاجية من أهل قلعة بني حماد ، كانت قد سييت هي وأُمها فيمن سبوا عند افتتاح عبد المؤمن للقلعة ، فأعتقهما عبد المؤمن ، وزوج مريم لابنه أبي يعقوب يوسف ، فرزق منها بثمانية من الولد ، أربعة ذكور ، وأربع إناث ، وكان الذكور هم إبراهيم وموسى وإدريس وعبد الواحد وهو أصغرهم . ولبت عبد الواحد طيلة شبابه مغموراً ، لم تسند إليه ولاية ما ، حتى تولى الخلافة ابن عمه الناصر لدين الله ، فأُسند إليه ولاية مالقة ، وذلك في سنة ٥٩٨ هـ ، ثم صرفه عنها في سنة ٦٠٣ هـ ، وولاه أمراقيلة هسكورة ، وهي ولاية ضخمة ، فاستمر في ولايته هذه طوال عهد الناصر ، وشطراً من عهد ولده المستنصر . ثم اختاره المستنصر والياً لسجلماسة ، ثم والياً لإشبيلية ، وذلك حينما عزل عنها أخوه أبو العلاء إدريس ، ونقل إلى ولاية تونس ، ثم صرف عنها وعاد إلى مراكش .

وقد بويغ السيد أبو محمد عبد الواحد بالخلافة على كره منه ، فلم يك راغباً فيها ، ولم يك يصلح لها^(٣) . وكان حسبما يصفه لنا المراكشي عن علم ومشاهدة ،

(١) وفي الحلل الموشية أن كنيته « أبو مالك » ص ١٢٣ .

(٢) المعجب ص ١٨٧ .

(٣) روض القرطاس ص ١٦٢ .

رجلاً ورعاً صالحاً ، بعيد النظر ، قوى العزم ، شديد الشكيمة ، حريصاً على اتباع الحق ، لاتأخذه فيه لومة لائم ، كثير التلاوة لكتاب الله ، دووباً على تلاوة الأوراد ، لا يمنعه عن ذلك مانع ، ولا يترك وظيفة من الوظائف التي رتبها لنفسه ، من أخذ العلم وقراءة القرآن والأذكار ، رتبها على أوقات الليل والنهار . يقول المراكشي : « شهدت هذا كله بنفسى ، لا أنقله عن أحد ، ولا أستند فيه إلى رواية . هذا مع دماثة خلق ، ولين جانب ، وخفض جناح لأصحابه ، ولين علم فيه خيراً للمسلمين » . وأما عن شخصه فيصفه المراكشي بأنه كان « أبيض تعلوه صفرة ، جميل الوجه جداً ، معتدل القامة ، متناسب الأعضاء » (١) .

وتمت بيعة السيد أبي محمد عبد الواحد في جو من التفاهم والوفاق ، ولم يختلف أحد في المغرب على بيعته ، ولم يبد عليها اعتراض من أحد ، ولم يتخذ الخليفة الحديد لقباً خلافاً كأسلافه ، ولكنه عرف فيما بعد « بالملحوع » لأنه كان أول من خلع بني عبد المؤمن عن كرسى الخلافة . وكان في مقدمة تصرفاته أن أمر بمحاسبة ابن أشرفي صاحب الخزن ، ومطالبته بالمال . وكتب لأخيه أبي العلاء الكبير بتجديد الولاية على إفريقية ، وكان المستنصر قد أوعز بعزله ، بيد أنه توفي قبل استئناف ولايته ، وأمر باطلاق سراح الوزير السابق أبي زيد عبد الرحمن بن موسى ابن يوجان ، ولكن الوزير ابن جامع اعترض على تنفيذ هذا الأمر ، وبعث بابن يوجان مع الأسطول بقصد تغريبه إلى ميورقة (٢) . ولكنه لما وصل إلى الأندلس ، أخذ ويحج في حصن جنجالة ، فبقى فيه حتى توفي ابن جامع ، وعندئذ أطلق سراحه (٣) . ثم كان ظهور الخلاف والمعارضة للخليفة الحديد ، لا في المغرب ولكن في جهة أخرى ، فيما وراء البحر ، أعنى في شبه الجزيرة الأندلسية . وذلك أنه لم يمض شهران على بيعته بالمغرب ومعظم أنحاء الأندلس ، حتى ارتفع أول صوت ضد بيعته في شرقي الأندلس ، وكان هو صوت ابن أخيه السيد أبي محمد عبد الله ابن يعقوب المنصور . وكان أبو محمد عبد الله عندئذ ، والياً لمرسية . وكان إخوته أبو العلي (أبو العلاء) والياً على قرطبة ، وأبو الحسن والياً على غرناطة ، وأبو موسى والياً على مالقة . وكان قد استوزر أبا زيد بن يوجان بعد إطلاق سراحه .

(١) المعجب ص ١٨٨ .

(٢) ابن خلدون في المبرج ٦ ص ٢٥١ .

(٣) الروض المطار ص ٦٧ في مقال جنجالة .

وكان ابن يوجان هذا داهية زمانه ، فلما وردت الأنباء بأخذ البيعة لأبي محمد عبد الواحد ، تقدم ابن يوجان إلى السيد أبي محمد عبد الله ، وحذره من المبايعة للخليفة الجديد ، وقال له لأنهم بتنصيب عبد الواحد ، قد أخرجوا الإمامة عن عقب سيدنا المنصور ، وأنه يشهد بأن المنصور قال إن لم يصلح محمد (أعني الناصر) فعبد الله ، وأنه أى عبد الله أحق بالخلافة ، فهو ولد المنصور ، وأخو الناصر ، وعم المستنصر ، وأنه صاحب عقل وحزم وسياسة وبعد نظر ، ولن يختلف اثنان على استحقاقه للخلافة ، خصوصاً وأن الناس يكرهون بنى جامع الذين توارثوا الوزارة ، وجعلوا يقصون عن الحضرة كل ذى رأى ومقدرة ، وأخيراً فإن له من وجود أخوته الثلاثة فى رياسة قرطبة وغرناطة ومالقة أكبر عضد^(١) . وكان لتوجيه ابن يوجان وتحريضه أكبر الأثر ، فنهض السيد أبو محمد واستدعى أشياخ الموحدين والفقهاء والأعيان بمرسية وأحوازها ، ودعاهم إلى مبايعته ، فلبوا دعوته ، وتسمى بالعدل ، وكان ذلك فى يوم ١٣ صفر سنة ٦٢١هـ وذلك لشهرين من بيعة أبي محمد عبد الواحد ، وبايعه إخوته ولالة قرطبة ، وغرناطة ومالقة . وكذلك بايعه السيد أبو محمد عبد الله بن أبي عبد الله محمد ابن يوسف بن عبد المؤمن صاحب جيان ، وهو الذى عرف فيما بعد بالبياسى ، لقيامه فيما بعد ضد العدل ببياسة . وكان سبب انضمامه للعدل ما قرره الخليفة عبد الواحد من عزله ، بعمه أبي الربيع بن أبي حفص ، فانتفض عليه وبايع للعدل^(٢) . وفى رواية أخرى أن عبد الله البياسى كان عند قيام العدل والياً على إشبيلية^(٣) . وعلى أى حال ، فقد استطاع العدل أن يحصل على تأييد سائر قواعد الأندلس ، خلا بالنسية ودانية وشاطبة ، حيث امتنع واليها السيد أبو زيد بن أبي عبد الله محمد أخو البياسى عن مبايعته ، وبقيت هذه القواعد على طاعته . ثم خرج العدل من مرسية وبصحبته وزيره أبو زيد بن يوجان ، وسار إلى إشبيلية ، وأخذ فى تدبير الأمور ، ولم يلبث أن برم بطغيان ابن يوجان واستثاره بكل أمر ، فبعثه إلى سبتة ، ليكون هناك نائبه ، ولينظر فى شئون العودة . وهنا يحق الغموض بسير الحوادث سواء بالمغرب أو الأندلس .

(١) الروض المعطار ص ٦٨ ، وروض القرطاس ص ١٦٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥١ .

(٣) هذه رواية ابن عذارى فى البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٨ .

ففي رواية أن العادل حينما وصل إلى إشبيلية ، وصلته هنالك بيعة أهل مراکش وبلاد المغرب. وفي رواية أخرى أنه كتب إلى الأشياخ الموحدين بحضرة مراکش يدعوهم إلى بيعته ، وخلع عبد الواحد ووعدهم بمجزي الصلات ، ورفع المناصب والولايات ، فصدعوا برغبته ودخلوا على الخليفة عبد الواحد ، وهددوه ، وأرغموه على أن يعلن خلع نفسه ، وأن يشهد بذلك على نفسه أمام القاضي والفقهاء والأشياخ ، وكان ذلك في اليوم الثاني والعشرين من شهر شعبان سنة ٦٢١ هـ . ولم تمض أيام قلائل على ذلك ، حتى دخلت عليه جماعة من الموحدين ، وخنقوه ، ونهبوا قصره ، وسبوا حريمه ، فكان بذلك أول من خلع وقتل من بني عبد المؤمن^(١) ومن جهة أخرى فإنه يبدو أن أشياخ الموحدين بمراكش ، لما بلغتهم بيعة العادل بالأندلس ، اختلفوا فيما بينهم أولا ، وبأدروا بعزل الوزير ابن جامع ، واقتسموا السلطات فيما بينهم ، وأنفذوا أوامرهم إلى الأسطول بمنع جوار العادل إلى المغرب . ولكن الظاهر أنهم قرروا أمرهم فيما بعد ، وبعثوا ببيعتهم إلى العادل^(٢).

- ١ -

وفي أثناء ذلك اضطربت الحوادث بالأندلس ، واتخذت وجهة جديدة لم تكن في الحسبان . وكان لبيعة العادل أكبر أثر في تطورها على هذا النحو . وذلك أن السيد أبا محمد عبدالله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب جيان ، لما رأى من رفض أخيه السيد أبي زيد وإلى بالنسبة ودانية وشاطبة ، بيعة العادل ، واعتصامه بهذه القواعد الشرقية ، عاد بدوره ، فأعلن خلعه لطاعة ابن عمه العادل ودعا لنفسه وتلقب بالظافر ، وأطاعته جيان وأبدة وقيجاظه وبياضة ، وسائر أراضى تلك المنطقة . فبادر العادل ، وبعث من إشبيلية أخاه أبا العلاء إدريس ابن المنصور ، في قوة كبيرة من الموحدين ، لقتال السيد أبي محمد عبد الله وإخماد ثورته ، فخرج السيد عندئذ من جيان ولجأ إلى بياضة وامتنع بها . وسمى من ذلك التاريخ بالبياسي ، وبعث إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، يستنصر به . ونحن نعرف منذ أيام الطوائف ، ماذا كان الثمن الذي يتقاضاه الملوك النصاري نظير هذه المعونة ، فقد كان دائما قطعة من أشلاء الأندلس ، تبذل دون تحفظ ، إلى

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٤٧ ، وروض القرطاس ص ١٦٢ و ١٦٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥١ و ٢٥٢ .

جانب الخضوع والطاعة . ولم يشذ البياسى عن هذه القاعدة المؤلمة ، بل سرى أنه ذهب فيها إلى أبعد حد .

وأشرف الجند الموحدون بقيادة أبى العلاء على بياسة فى أواخر سنة ٥٦٢١ هـ (أواخر سنة ١٢٢٣ م) ، ونزلوا فى ظاهرها ، وكان الوقت شتاء ، وقد بلغ البرد ذروته ، واشتد هطل الأمطار ، وغمرت السيول كل صقع ، فحاصر أبو العلاء بياسة أياما قلائل ، ثم خشى أن يفيض النهر (الوادى الكبير) فيتعذر عليه العبور عند العودة ، وخشى كذلك أن يداهمه الفشتاليون حلفاء البياسى ، وبعث إليه البياسى من جهة أخرى بعوده إلى طاعة العادل ، وأرسل إليه ولده الأصغر رهينة لديه ، فاكتفى أبو العلاء بذلك وارتد عائدا بقواته إلى إشبيلية ، دون أن يحقق شيئا من مهمته ، فقبول فى إشبيلية بمنتهى الاستهجان والسخط ، ورمى بالخور والحن^(١) . وعندئذ بادر العادل بتجهيز جيش موحدى آخر ، أسندت قيادته إلى أبى سعيد عثمان بن أبى حفص . فسار هذا الجيش إلى بياسة ونزل على بعد خمسة أميال من جنوبى المدينة ، على مقربة من شمال الوادى الكبير ، فخرج إلى قتاله نحو مائة فارس من أصحاب البياسى ، وقوة من حلفائه الفشتاليين ، فسرى الرعب إلى الموحدين عند رؤيتهم ، وبادروا إلى الفرار دون قتال وارتدوا إلى إشبيلية ، وبقي البياسى فى بياسة دون منازع ، وقد احتل حلفاؤه الفشتاليون قصبته^(٢) .

وهنا يحيق الغموض بموقف البياسى وتحركاته ، ويبدو من مختلف الروايات أنه استطاع فى تلك الآونة أن يبسط سلطانه ، فضلا عن منطقة بياسة ، على مدينة قرطبة ، وذلك على خلاف فى طريق تملكها ، فابن عذارى يقول لنا إن العادل هو الذى أسند إليه ولايتها ، وقت أن كان مُقرأ بطاعته ، وصاحب روض القرطاس يقول إن أهل قرطبة هم الذين انضموا إليه . وأما صاحب الروض المعطار ، فيقول إن البياسى هو الذى تملك قرطبة ، بل يزيد على ذلك أنه تملك أيضا مالقة ، « وكاد يستولى على الأمر لو ساعده القدر »^(٣) . وعلى أى حال

(١) الروض المعطار فى مقاله عن بياسة ص ٥٧ ، وروض القرطاس ص ١٦٣ .

(٢) الروض المعطار ص ٥٨ .

(٣) البيان المغرب - القسم الثالث ٢٤٩ ، وروض القرطاس ص ١٦٤ ، والروض

المعطار ص ٥٨ .

فقد كان من الواضح أن البياسى ، كان يحتل فى الأندلس الوسطى مركزاً له خطره ، وكان منافساً قوياً للعادل ، يكاد يتزعج الأمر منه .

وكان العادل قد غدا بإشبيلية على أثر فشل قواته فى إخضاع البياسى ، فى مأزق حرج . وزاد من حرج مركزه عندئذ ، غزوة قام بها النصارى فى أراضي الشرف غربى إشبيلية . وذلك أن قوة من الجند الليونيين يقودها مارتن سانشيز ، وهو ابن غير شرعى للملك البرتغال سانشو الثانى ، دخل فى خدمة ملك ليون ، عبرت جبال الشارات ، وسارت جنوباً حتى وصلت إلى أراضي الشرف ، وعانت فى تلك المنطقة ، واستولت على كثير من الغنائم والسبي ، وألقى العادل ، وأخوه أبو العلاء ، ووزيره ابن يوجان ، ومن معهم من أشياخ الموحدين ، أنفسهم عاجزين عن دفع النصارى ، وحماية المدينة مما قد يصيبها . ووقع المخرج بين أهل المدينة ، واجتمع الناس خاصتهم وعامتهم بالمسجد الجامع ، وطلبوا العادل وأشياخ الموحدين بجمع الصفوف ، والخروج إلى لقاء العدو ، فاستنفر العادل الناس ، واحتشدت منهم جموع غفيرة ، ومعظمهم من غير سلاح ، واجتمع من الفرسان نحو مائة ، وسارت هذه الجموع إلى حيث نزل النصارى على مقربة من طلياطة^(١) وهى تقع غرب إشبيلية على مقربة من لبله ، وكان النصارى فى قوة كبيرة حسنة الأبهة والسلاح ، فأراد العامة أن يدفعوا قوة الفرسان الصغيرة إلى لقاء العدو ، فامتنع قائدها عبد الله بن أبى بكر بن يزيد ، وحاول أن يقنع العامة بعبث هذه المحاولة ، وبأن التزام الدفاع أفضل وأولى ، فتطاولوا عليه وسبوه ، فانسحب مع فرسانه . وعندئذ انقض النصارى على هذه الجموع الهزيلة المفككة من المسلمين ، ففتكوا بها وأفنوا الكثير منها قتلاً وأسراً ، وفر الكثير منهم فى مختلف الأنحاء . ويقدر من هلك من المسلمين فى الموقعة بعدة آلاف ، ويبالغ بعضهم فيقدرها بنحو عشرين ألفاً ، ووقعت موقعة طلياطة هذه فى شهر جمادى الأولى سنة ٦٢٢ هـ (مايو ١٢٢٤ م)^(٢) .

ولم يمض شهران على ذلك ، حتى وقعت فى شرقي الأندلس غزوة نصرانية مماثلة ، وهزيمة مماثلة للمسلمين . وذلك أن حكام قونقة ووبذة والأركون ومويا ،

(١) وهى بالإسبانية Tejada

(٢) ينفرد صاحب الروض المطار بما يقدمه إلينا عن هذه الموقعة من تفاصيل وافية

(ص ١٢٨ و ١٢٩) .

جمعوا قواتهم ، وسارت منها حملة غازية بقيادة البروتليس اخترقت وادي شُقر جنوباً حتى أراضى مرسية ، فخرج لردهم جند مرسية وأهلها بقيادة أبي على ابن أشرق ، وكانوا على مثل أهل إشبيلية من التفكك والفوضى ، فنشبت بينهم وبين النصارى ، في مكان يعرف بعفص Aspe يقع شرق مرسية ، معركة شديدة هزم فيها المسلمون هزيمة فادحة ، وأسر وقتل منهم فيها الكثير . وكان ذلك في شهر رجب سنة ٦٢٢ هـ (يولييه ١٢٢٤ م) ، وفي ذلك يقول شاعر مرسى ، مقارنا بين موقعي عفص وطلياطة :

موقعة عفص وطلياطة تكامل إقبال أيامنا
فبالغرب تلك وبالشرق ذى أناخا على شم أعلامنا^(١)

- ٢ -

في ذلك الحين ، كانت بيعات الموحدين بمراكش والمغرب ، قد وصلت إلى العادل بإشبيلية ، وكان الخليفة عبد الواحد ، قد خُلع ولقي مصرعه ، وأصبح عرش الخلافة الموحدية خاليا ، فرأى العادل أن الوقت قد حان لكي يعبر إلى المغرب ، خصوصاً وقد أخذت الحوادث تتجههم في الأندلس ، على أثر فشله في التغلب على البياسي ، وفي رد النصارى عن أراضى إشبيلية ، فندب أخاه أبا العلاء إدريس للنظر على شئون الأندلس ، وغادر إشبيلية ، وعبر البحر إلى المغرب ، وذلك في شهر ذي القعدة سنة ٦٢٢ هـ (أكتوبر سنة ١٢٢٤ م)^(٢) . والظاهر أنه لقي في طريقه إلى مراكش صعاباً من تعرض العربان وغيرهم إليه . ولما وصل العادل إلى مراكش ، واستقر بقصر الخلافة ، استوزر أبازيد

(١) راجع الروض المعمار ص ١٣٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٢ ، والروض المعمار ص ١٢٩ . ونحن نرجح الأخذ بهذا التاريخ الذي يقدمه إلينا صاحب الروض المعمار لعودة العادل ، ولكن يبدو من أقوال ابن عذارى أن العادل عاد إلى مراكش يوم السبت ٢٠ شعبان سنة ٦٢٢ ، وهو آخر يوم من حكم عبد الواحد ، وأنه دخل عليه القصر في هذا اليوم . وفي اليوم التالي أشهده على نفسه بالخلع ، وأن عبد الواحد خنق بعد ثلاثة أيام من خلعه (البيان المغرب ص ٢٤٧ و ٢٤٨) ومعنى ذلك أن العادل هو الذي قام بخلع عبد الواحد ثم أوعز بقتله ، ونهب قصره وسبى حريمه . وهذه الرواية التي يتفرد بها ابن عذارى ، تبدو في نظرنا ضعيفة بعيدة الاحتمال . وبالعكس فإن الظروف والقرائن الزمنية تحمل كلها على الاعتقاد بأن عودة العادل كانت بعد خلع عبد الواحد ومصرعه . ويستفاد ذلك فضلاً عن قول صاحب الروض المعمار ، من قول ابن خلكان (ج ٢ ص ٤٣٤) ، وصاحب الحلل المشوية (ص ١٢٣) وصاحب روض القرطاس (ص ١٦٣) وكذلك ابن الخطيب في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال ١٦٧٤ الفزيرى) لوحة ١٥٤ .

ابن أبي محمد بن أبي حفص ، وأقر عماله سواء بالمغرب أو الأندلس على أعمالهم ، وأقر خاصته وحشمه كل في وظائفهم وطبقاتهم .

وقد تقدم نسب العادل ، فهو أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور بن يوسف ابن عبد المؤمن بن علي ، وأمه أم ولد نصرانية برتغالية ، من سبي شنترين اسمها سر الحسن أسرت فيما يبدو ، حين غزوة المنصور الأولى للبرتغال في سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠ م) ، وبذلك يمكن أن نضع تاريخ مولد العادل في نحو سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) فيكون عمره وقت أن تولى الخلافة ، نحواً من أربعة وثلاثين عاماً . ولقبه الكامل هو « العادل في أحكام الله تعالى » . وأما عن صفته ، فقد كان العادل نحيل القد ، أشهل العينين ، أفنى الأنف ، خفيف العارضين ^(١) . وكان العادل من خيرة بني عبد المؤمن ، فاضلاً وقوراً ، كبير النفس ، على الهمة ، من أهل العلم والمعرفة ^(٢) .

وتولى العادل حكم غرناطة في سنة ٦١٩ هـ ، أيام ابن أخيه يوسف المستنصر ، ثم نقل باختياره إلى ولاية مرسية . ولما تولى الخلافة عمه أبو محمد عبد الواحد ، خرج عليه بمرسية ، كما تقدم ، ودعا لنفسه بالخلافة ، وذلك في يوم ١٣ صفر سنة ٦٢١ هـ ، ولم يتخلف عن بيعته بالأندلس سوى السيد أبي زيد والى بلنسية ، وأخوه السيد أبو عبد الله صاحب جيان ، وهو المعروف باليباسي . وأما في المغرب فقد تلقى بيعة سائر الموحدين ، ما عدا بيعة بني حفص ولاية إفريقية ، وكان هؤلاء عندئذ يدبرون الخطة لانفصالهم عن الدولة الموحدية ، والاستقلال بحكم ما تحت أيديهم . وكان في مقدمة ما فعله العادل ، أن وجه إلى قواعد الأندلس ، كتاباً يؤكد فيه عناية الموحدين بشئون الجزيرة ، واجتماع كلمتهم على الجهاد . وقد أورد لنا ابن عذارى من الكتاب المذكور فقرة ننقل منها ما يلي :

« وها هم بحمد الله (أي الموحدين) قد انتظم شملهم ، واتصل حبلم ، واجتمعت أهواءهم ، واتفقت على إعزاز الحق آراؤهم ، وحلوا بدار الموحدين ، ومطلع الخلفاء الراشدين المهتدين ، حيث الجموع وافرة . والأعداد متكاثرة ، وطائفة الحق متعاضدة متظاهرة ، وذلك حلول استدعاء واستنفار ، لا حلول إقامة واستقرار ، عازمين على الجهاد ، والله تعالى ممضي عزائمهم ، ويجبرهم

(١) روض القرطاس ص ١٦٣ .

(٢) ابن الخطيب الإحاطة (مخطوط الإسكوريال المشار إليه) لوحة ١٥٤ .

على جميل معتقداتهم ، على جهاد أعداء الله الكفار ، فاعملوا وفقكم الله على ذلك ، والله يبلغكم آمالكم والسلام عليكم» (١) .

والواقع أن شئون الأندلس ، كانت أهم ما يشغل العادل ، وقد تركها عند مغادرته لشبه الجزيرة ، في حالة اضطراب مروع ، تتجاذبها تيارات جارية ، من الفتن الداخلية ، ومن عدوان النصارى .

— ٣ —

غادر العادل الأندلس ، وترك أخاه أبا العلى إدريس في إشبيلية ليواجه العاصفة . وكانت الأندلس قد غدت كما قدمنا مرة أخرى ، منذ أعان العادل دعوته بالخلافة ، مسرحاً لصراع المتغلبين . وكانت حركة البياسى أبى محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، في أواسط الأندلس ، قد اتسع نطاقها ، وكادت أن تمتد بعد الأندلس الوسطى ، إلى إشبيلية ، والأندلس الغربية . وكان البياسى ، قد لجأ حسباً تقدم ، إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، يستنصر به ، ويطلب عونه ضد خصومه ، وكان فرناندو ، وهو الذى قدر له أن يفتح فيما بعد معظم قواعد الأندلس الكبرى ، يقدر كأسلافه ، مزايا هذا التدخل فى فى حوادث الأندلس ، وفى حروبها الأهلية ، وما يترتب عليه من مغامر سياسية ، وإقليمية جلية ، فلجى نداء البياسى ، وبعث إليه بالأمداد ، وامتنع البياسى بمدينة بياسة ، وصمد أمام الجيوش الموحدية ، التى بعثها العادل لإخضاعه . ولما اطمأن إلى حصانة مركزه ، خرج مع حليفه ملك قشتالة ، ليعاونه على افتتاح أول قاعدة أندلسية من قواعد هذه المنطقة ، وهى مدينة قيجاطة (٢) . الواقعة جنوب شرق بياسة . وكان فرناندو الثالث قد خرج بجيشه فى خريف سنة ١٢٢٤ م (أواخر سنة ٦٢٢ هـ) ، واخترق أراضي أبدة قاصداً إلى قيجاطة ، وكانت تزخر بالأموال والثروات ، فاقتحمها القشتاليون ، وهدموا معظم أسوارها ، وقتلوا من أهلها الألوف ، وقتلوا وأسروا كذلك معظم حاميتها الموحدية (سبتمبر ١٢٢٤ م) . واستولى القشتاليون فى نفس الوقت على عدة أخرى من حصون هذه المنطقة . ثم ساروا بعد ذلك ، ومعهم حليفهم البياسى ، فعاثوا فى أراضي جيان ، وقتلوا من أهلها نحو ألف وخمسمائة (أكتوبر ١٢٢٤ م) . ثم ارتد ملك قشتالة

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٩ .

(٢) وهى بالإسبانية Quesada .

في قواته مثقلا بالغنائم والأسرى ، عند اقتراب الشتاء ، وعبر نهر الوادى الكبير عائداً إلى بلاده^(١) .

وفي صيف العام التالى ، أعنى في سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٥ م) ، خرج فرناندو الثالث من قشتالة بجيش ضخم ، وعبر ممر مورادال بجمال سيرا مورينا (جبل الشارات) ونزل في سهل العقاب ، على مقربة من شمالى بياسة ، وبعث إلى البياسى يستدعيه ، فهرع البياسى إلى لقاء ملك قشتالة ، وقدم إليه خضوعه بصفة رسمية ، وعقد معه عهداً يعترف فيه بطاعته ، ويتعهد بأن يسلم إليه حصون مرتش ، وأندوجر ، وجيان ، متى حصلت في يده ، وكذلك سائر الحصون ، التى يطلب ملك قشتالة الاستيلاء عليها ، فى أراضى المسلمين ، وسلم البياسى ولده الأصغر إلى ملك قشتالة كفالة بولائه وإخلاصه . وتعهد ملك قشتالة من جاتبه بأن يقدم إلى البياسى المعونة العسكرية الكافية ، لاسترداد أملاكه وتأمينها^(٢) .

وعلى أثر ذلك قصد ملك قشتالة ومعه حليفه أو تابعه البياسى إلى مدينة جيان وهو يخرب سائر الأراضى التى يمر بها ، خلا تلك التى يسيطر عليها البياسى . ولما وصل إلى جيان ، ضرب حولها الحصار ، وأخذ القشتاليون مدى أيام يهاجمونها دون جدوى . وكانت جيان أمنع قاعدة فى تلك المنطقة ، ولها أسوار عالية ، وقصبة فى منتهى المناعة ، مازالت أطلالها قائمة حتى اليوم ، تشهد بسابق حصانتها . وكانت تدافع عنها حامية موحدة قوية بقيادة عمر بن عيسى بن أبى حفص بن يحيى ، ومعهم فرقة من الفرسان النصارى بقيادة ألبار بيريث دى كاسترو ، وكان مثل أبيه يعمل فى خدمة الموحدين بغيرة وإخلاص ، ولما اشتدت هجمات النصارى ، خرج المسلمون لهم ، واشتبكوا معهم فى معركة ، قتل فيها من المسلمين مائة وثمانون ، وأسر نحو ألفين . ثم امتنع المسلمون بالمدينة ، ولبثوا صامدين ، وكرر القشتاليون هجماتهم على المدينة ، وهم فى كل مرة يرتدون عنها خائبين . وأخيراً اضطر ملك قشتالة أن يرفع الحصار عن المدينة ، وأن يرحل عنها^(٣) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٤٩ ، والروض المطار ص ٦١ وكذلك :

J. Gonzalez : Las Conquistas de Fernando III en Andalucia (Madrid 1946) ;
cit. Anales Toledanes; p. 36 & 37

J. Gonzalez : ibid; p. 38 (٢)

J. Gonzalez : ibid, cit. Crónica Latina; p. 40 (٣)

وسار ملك قشتالة بعد ذلك ومعه البياسى إلى القبذاق^(١) ، فاستولى عليها وسلمها لحليفه ، إذ كانت من أملاكه ، ثم سار جنوبا نحو باغة^(٢) ، فقاومته حاميتها بشدة ، واضطر إلى محاصرتها مدة ، ثم سلمت حاميتها بالأمان نظير فدية كبيرة ، وقصد بعد ذلك إلى لوشة ، وهى جنوب باغة على ضفة نهر شنيل . فافتحمها وقتك بأهلها . ولما وصل إلى مدينة الحامة فى جنوبها ، الفاها خالية ، إذ هجرها أهلها خوفاً أن يصيبهم ما أصاب أهل لوشة .

ثم سار القشتاليون بعد ذلك شمالا صوب غرناطة ، وكان أهلها قد استدعوا ألبار بيريث لمعاونتهم على الدفاع . فلما اقترب القشتاليون من المدينة ، وضربوا حولها الحصار ، وسط أهلها ألبار بيريث ليفاوض ملك قشتالة فى أن يرحل عنهم ، نظير تسليمهم إياه ألفا وثلاثمائة أسير من النصارى كانوا لديهم ، فتم الاتفاق على ذلك ، وعفا ملك قشتالة عن ألبار بيريث ، فترك خدمة الموحدين ، وعاد إلى خدمة مليكه ، وارتد ملك قشتالة فى قواته شمالا ، حتى اقترب من بياسة ، وهناك قام البياسى بتسليمه حصنى مرتش وأندوجر ، وفقاً لعهد الذى أخذه على نفسه^(٣) .

وكان البياسى قد شعر عندئذ بتوطد مركزه ، وضخامة العون الذى يلقاه من حلفائه النصارى ، فما كاد فرناندو الثالث يختم غزوته فى أراضي المسلمين ، حتى سار البياسى فى قواته ، ومعه جيش من النصارى ، تقدره الرواية بعشرين ألفاً^(٤) صوب إشبيلية ، وعبر نهر الوادى الكبير إلى الشرف ، وخرجت القوات الموحدية وأهل المدينة بقيادة السيد أبى العلاء لرد الغزاة ، وهناك أيضاً ، على مقربة من طلياطة ، فى فحص القصر ، اشتبك الفريقان فهزم الموحدون وأهل إشبيلية ، هزيمة شديدة ، وقتل منهم نحو ألفين^(٥) وكان من نتيجة هذا النصر ، أن خضعت معظم البلاد والحصون الواقعة شرقاً بين إشبيلية وقرطبة لسلطان البياسى ، بل إن أهل مدينة قرطبة ذاتها ، حينما رأوا تفوق البياسى على هذا النحو ، خلعوا طاعة حاكمهم الموحدى السيد أبى موسى أخى العادل ، وأعلنوا طاعتهم للبياسى .

وكان فرناندو الثالث قد عاد فى تلك الأثناء ، فعبر بقواته إلى أراضي

(١) وهى بالإسبانية Alcaudete . (٢) وهى بالإسبانية Priego .

(٣) راجع الروض المطار ص ٦١ و٦٥ و١٧٤ . وكذلك :

J. Gonzalez, ibid; cit. Crónica Latina p. 42

(٤) روض القرطاس ص ١٦٤ . (٥) الروض المطار ص ٥٨ .

الأندلس مرة أخرى ، واستدعى البياسى إلى حصن أندوجر ، وطلب إليه أن يسلم إليه طائفة من الحصون التى يرغب الاستيلاء عليها فى منطقة قرطبة ، فوعده البياسى بأن يسلمه حصون شلبطرة ، وقبالة ، وبرج الحمة^(١) ، وارتضى أن يسلمه قسبة بياسة كفالة بتنفيذ وعده ، واحتل استاذ فرسان قلعة رباح ورجاله بالفعل قصر بياسة ، وبقى المسلمون على حالهم بالمدينة . ثم بذل البياسى جهده فى تسليم حصن شلبطرة ، وندب لذلك رسولا من قبله استطاع بعد مشقة أن يقنع حاميته بتسليمه للنصارى ، وكذلك سلم النصارى حصن برج الحمة ، ولم يبق عليه إلا أن يسلمهم حصن قبالة ، الذى امتنع عليه^(٢) .

ولم يقنع البياسى بما تم من توطد مركزه ، واستقراره بعاصمة الخلافة القديمة ، وسيطرته على معظم نواحي الأندلس الوسطى ، ولكنه أراد أن يستولى على إشبيلية ذاتها ، وأن يقضى نهائياً على سلطان منافسه العادل وأخيه أبى العلاء ، فسار فى قواته مرة أخرى صوب إشبيلية ، وحاول أن يضرب حولها الحصار . وكان أبو العلاء قد استعد للقاءه فخرج إليه فى حشود الموحدين وأهل المدينة ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة هزم فيها البياسى ، ومزقت جموعه ، وارتد فى فلوله صوب قرطبة . ويضع ابن عذارى تاريخ هذه الموقعة ، فى الخامس والعشرين من شهر صفر سنة ٦٢٣ هـ ، وهو يوافق التاريخ الذى تضعه الرواية النصرانية للموقعة ، وهو ٢٥ فبراير سنة ١٢٢٦ م^(٣) .

وكان لهذا النصر الحاسم الذى أحرزته القوات الموحدية على البياسى ، نتائج هامة ، فقد ارتدت طلياطة وحصن القصر ، وبقية الحصون والبلاد الممتدة شرق إشبيلية عن طاعة البياسى ، وعادت إلى طاعة الخليفة العادل^(٤) وكتب السيد أبو العلاء إلى أخيه العادل بمراكش ، كتاباً ينبئ فيه بهذا النصر ، ومما جاء فى الكتاب المذكور :

« إن المحنة بهذا البائس قد بلغت مداها ، وانقبضت بعد البسط يداها ،

(١) وهى بالإسبانية على التوالى Salvatierra و Banos de la Encina, Capilla ، وتقع الأخيرة شمال أندوجر .

(٢) الروض المطار ص ٥٨ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid; p. 46 & 47 .

(٣) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٥٠ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid; p. 48 .

(٤) البيان المغرب ص ٢٥١ .

وانتهى إلى غاية لا يتعداها ، والحمد لله الذى أذل للخلافة العادلة ، أحد عداتها وأنصفها من منازعتها بأداتها ، فكافر النعم تستحيل عليه نقماً ، وحاجب الشمس ضوءها ، حافظاً بين ظلام وعما ، والموحدون عازمون على اتباع هذا العدو ، إلى أن يدعوه عقيراً ، أو يستثبثوه أسيراً إن شاء الله تعالى ، وكتب فى ربيع الأول من عام ثلاثة وعشرين وستمائة .

وهنا خرج فرناندو الثالث فى قواته مرة أخرى ، وكان هدفه فى هذه المرة الاستيلاء على حصن قبالة^(١) ، وهو من حصون الحدود الواقعة فى شمالى قرطبة ، وشمالى جبل الشارات ، وكان قد تعذر على البياسى ، أن يقوم بتسليمه وفقاً لتعهداته ، وكان البياسى قد وصل فى تلك الأثناء إلى قرطبة منهزماً مدحوراً ، وكان أهل قرطبة لما رأوا إفراطه فى مخالفة النصارى ، وإسرافه فى تسليم الحصون الإسلامية إليهم ، قد خشوا أن ينتهى الأمر بأن يغدر بهم ، ويسلم قرطبة ذاتها للنصارى ، فاعتزموا الفتك به والتخلص منه ، فثاروا به ، وشعر البياسى بخطورة الأمر ، ففر من المدينة ، والتجأ إلى حصن المدور الواقع جنوبى النهر على مقربة من جنوب غربى قرطبة ، ولكن الثوار طاردوه بشدة ، وحاصروه فى الحصن ، ثم اقتحموه ، وقتلوا البياسى ، واحتزوا رأسه ، وبعثوا بها إلى السيد أبى العلى بإشبيلية ، فأرسلها بدوره مع كتاب إلى أخيه العادل بمراكش ، فرد العادل بكتاب يتضمن تعيين أخيه أبى العلى واليا لقرطبة بالإضافة إلى إشبيلية^(٢) ، وكان البياسى عند مصرعه شيخاً قد جاوز الستين .

وهكذا تحطمت ثورة أبى محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، المسمى بالبياسى ، بعد أن لبثت ثلاثة أعوام تبث الاضطراب والدمار إلى أواسط الأندلس ، وتمهد للنصارى اقتطاع القواعد والحصون الواقعة فى شرقى قرطبة وفى شمالها ، وقد اقتطعوا منها بالفعل طائفة كبيرة ، كان ضياعها سبباً فى إضعاف خطوط الدفاع عن قرطبة ، والتمهيد لسقوطها .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، البياسى ، فى صور بغیضة قائمة^(٣) . ونستطيع أن نعتبر البياسى بالفعل على ضوء ماتقدم ، من أعماله وخياناته المتوالية لقضية

(١) وبالإسبانية Capilla .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٥٢ ، والروض المعطار ص ٥٩ .

(٣) راجع الروض المعطار ص ٥٨ و ٦١ ، والبيان المغرب ص ٢٤٩ و ٢٥٠ .

الإسلام ، وقضية الأندلس ، تحقيقاً لأطماعه الوضيعة ، شخصية بغیضة مثيرة ، تستحق أن يدمعها التاريخ بأقسی الأحكام ، ويرميه ابن عذارى بالارتداد عن الإسلام ، واعتناق النصرانية ، بيد أننا لم نجد في الروایات النصرانية مايؤيد هذا الاتهام ، ولو وقع لكانت الرواية النصرانية أول من يسجله ويشيد به .

- ٤ -

وكان فرناندو الثالث حينما وصلته أنباء هذه الحوادث أمام حصن قبالة المنيع ، وقد ضرب حوله الحصار (أوائل يونيه سنة ١٢٢٦) وأخذ يهاجمه باستمرار ، وحاميته الإسلامية ، صامدة ، بيد أنه لما طال الحصار ، واشتدت هجمات النصارى ، اضطر المسلمون إلى مفاوضة ملك قشتالة ، وعرضوا أن يقدموا رهائنهم بالتسليم ، وأن يبعثوا رسلهم إلى السيد أبي العلاء ، وكان عندئذ بقرطبة ، يطلبون إليه الإنجاد ، فإذا لم تصل إليهم النجدة خلال ثمانية أيام ، سلموا الحصن بالأمان ، فقبل فرناندو هذا العرض . ولم تمض أيام قلائل حتى عاد الرسل من قرطبة خائبين ، فسلم المسلمون الحصن ، وسمح لهم وفقاً للاتفاق ، أن يخرجوا بنسائهم وأولادهم وأموالهم ، وأن يسيروا محروسين حتى حصن « غافق » الواقع جنوب قبالة ، وهو أقرب الحصون الإسلامية إليهم ، ودخل فرناندو الحصن وفي الحال حول مسجده إلى كنيسة ، ووضع به حامية نصرانية ، وكان تسليم حصن قبالة في أوائل أغسطس سنة ١٢٢٦ م (أواخر سنة ٦٢٣ هـ) .

وجاء بعدئذ دور بياسة ، وكان من الواضح ، بعد مصرع البياسى ، أن مصر بياسة غدا في كفة القدر ، وأن ملك قشتالة كان يتطلع إلى أخذها باعتبارها من أملاك تابعه . وكان فرسان قلعة رباح قد احتلوا قصبة بياسة كما قدمنا ، كفالة بتنفيذ البياسى لتعهداته ، فلما قتل البياسى ، أراد أهل بياسة أن يخرجوا النصارى من قصبتهم ، فبعثوا إلى صاحب جيان عمر بن عيسى بن أبي حفص بن يحيى ، يستنجدون به ، فقدم عليهم في بعض قواته ، ومعه القائد محمد بن يوسف المسكدالى ، ودخل المدينة ، وكان بها سوى من بالقصبة ، طائفة كبيرة من النصارى ، فقتلوا جميعاً مدافعين عن أنفسهم ، ولكن صمد من كان منهم بالقصبة لحصانها ، فطلب أهل بياسة إلى الوالى الموحدى ، أن يبقى يوماً أو يومين لحصار النصارى بالقصبة لإرغامهم على التسليم ، لأنهم كانوا يتلقون مؤنهم من أهل المدينة يوماً بعد يوم ، فأبى وأصر على الخروج من فوره ، وذلك خوفاً من قدوم القشتاليين ،

وقال لأهل المدينة ، إني ذاهب ، فمن أحب أن يخرج معي فليخرج ، ومن أراد البقاء فليبقى ، فاضطر أهل المدينة إلى مغادرتها خوفاً من الوقوع أسرى في أيدي النصارى ، وتفرقوا في مختلف الأنحاء . وهكذا استولى النصارى الذين بالقصبة وهم فرسان قلعة رباح على سائر المدينة ، وذلك في اليوم التاسع من شهر ذى الحجة سنة ٦٢٣ هـ (أول ديسمبر سنة ١٢٢٦ م) وذهب فرناندو الثالث الفرسان من أجل ذلك كثيراً من دور المدينة ورياضها وضياعها^(١) .

وفي العام التالي استولى فرناندو الثالث على شوذر^(٢) الواقعة جنوبي بياسة ، وعلى عدة من الحصون المجاورة ، وأخرج من بقي من المسلمين في بياسة ومرتش وغيرهما من القواعد والحصون التي استولى عليها .

وهكذا استطاع القشتاليون أن يخرجوا من ثورة البياسي ، بأكثر غنم ، وأن يضعوا أيديهم على طائفة كبيرة من القواعد والحصون الأندلسية الهامة في منطقة جيان وقرطبة ، وأن يتحكموا بذلك في خطوط الدفاع عن الأندلس الوسطى ، وأن يقتربوا من قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، التي كان الاستيلاء عليها من أعز أمنيتهم .

وكان السيد أبو العلي (أبو العلاء) إدريس ، مذحلي بقرطبة عقب مصرع البياسي ، يحاول أن يضع حداً لعدوان النصارى في تلك المنطقة ، فسار في بعض قواته إلى مرتش وحاصرها ، وحاول أن يستولى عليها ، ولكن الأمداد القشتالية جاءت أخيراً لتنقذها من السقوط ، واضطر السيد أبو العلي أن يرفع الحصار وأن ينصرف بقواته ، وذلك في أوائل سنة ٦٢٤ هـ - ١٢٢٧ م . فلما شعر أبو العلي باشتداد وطأة القشتاليين على الأراضي الإسلامية ، سعى إلى عقد الهدنة معهم ، وبعث رسوله أبا القاسم للمفاوضة ، وتم الاتفاق على أن تعقد الهدنة بين الفريقين لمدة عام واحد ، وأن يدفع الموحدون لقاء عقدها ثلاثمائة ألف قطعة Naravedi من الفضة ، دفع بعضها عند توقيع التعاقد ودفع الباقي بعد ذلك^(٣) .

- ٥ -

لم نجد بعد أن سجلنا أحداث الأندلس الأئمة في عهد الخليفة العادل ، مانسجله

(١) انروض المعطار ص ٥٨ و ٥٩ ، وكذلك : J. Gonzalez : ibid, p. 52 .

(٢) وهي بالإسبانية Jodar .

(٣) J. Gonzalez : ibid; cit. Crónica Latina, p. 55 .

من الأحداث في عهده بالمغرب ، وهو عهد لم يطل إلا نحو عامين ، إلا ما كان من تفاقم الأحوال ، واضطراب جبل الأمن ، وازدياد الفوضى ، وتوالى عيث العرب ، وبعض القبائل البربرية ، ولاسيما هسكورة ، في الأنحاء القريبة من العاصمة وازدياد شأن بني مَرِين ، وتغلبهم على كثير من النواحي والقبائل ، وفرض المغارم عليها ، بل وفرضهم الإتاوات على بعض المدن القريبة من منازلهم ، مثل فاس وتازي ومكناسة ، وذلك لكي يكفوا الغارة عنهم (١) .

وكان أهم ما حدث في تلك الفترة القصيرة ، قيام عرب الخلط ، وشيخهم هلال بن مقدم ، وهسكورة ، وشيخها عمر بن وقاريط ، بالعيث في نواحي مراکش ، وتخريبهم بلاد دُكالة . وخرج إليهم في البداية ابن يوجان فلم يستطيع شيئاً ، فوجه إليهم العادل عسكرياً من الموحدين بقيادة إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حفص ، فهزم وقتل ، واستمرت أعمال العدوان والعيث على حالها (٢) .

وبينما المغرب يجوز في ظل العادل ، هذه الفترة المدهمة ، إذ وقع بالأندلس حدث جديد ضخم ، هو خروج السيد أبي العلي والي إشبيلية وقرطبة على أخيه العادل ، وخلع طاعته ، وإعلانه الدعوة لنفسه ، ومبايعته بالخلافة في إشبيلية ، وذلك في الثاني من شهر شوال سنة ٥٦٢٤ هـ (١٥ سبتمبر سنة ١٢٢٧ م) . ولم يتخذ السيد أبو العلي قراره ارتجالاً ، بل مهد إليه بالسعى والاتصالات ، وكان معه بإشبيلية عدة من وجوه الموحدين وأشياخهم ، الذين يعتد برأيهم ، فأراد أن يسر غورهم أولاً ، فاتفق مع قاضي المدينة ، أبي الوليد بن أبي الأصبغ ابن الحجاج ، وكان ذلك في أواخر شهر رمضان ، أن ينشئ خطبة بليغة يلقيها في يوم الفطر ، وأن يتعرض فيها لمسألة الخلافة ، وأن يشير بلباقة إلى مايجول بخاطره من القيام بالأمر ، فألقى القاضي خطبته حسبما اتفق ، وأطبب في ذكر السيد واستحقاقه للأمر ، وفي اليوم التالي ، اجتمع أشياخ الموحدين بمجلس السيد أبي العلي ، وقام الجميع بمبايعته ، واتخذ لقب المأمون ، وبإيعه على أثر ذلك بعض ولاية الأندلس ، وفي مقدمتهم السيد أبو زيد والي بلنسية ، وبعثوا ببيعاتهم إليه . وكذلك بإيعته من أنحاء العدو سنتة وطنجة (٣) .

(١) روض القرطاس ص ١٦٦ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٠ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٢ .

(٣) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٥٥ ، وروض القرطاس ص ١٦٦ .

ويقول لنا ابن الخطيب ، إن أبا العلى ، قام على أخيه العادل بمالأة أخيه السيد أبى زيد أمير بلنسية وتحريكه إياه ، وقد وهم ابن الخطيب فجعل من السيد أبى زيد وأخيه عبد الله البياسى ، أخوين للعادل وأبى العلى ، فى حين أنهما من أبناء عمومتهما ، إذ أن أبا زيد عبد الرحمن والى بلنسية ، وأخاه عبد الله البياسى ، هما ولدا محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، ومحمد هو أخ ليعقوب المنصور^(١).

وبعث أبو العلى المأمون إلى ابن يوجان ، يدعوه إلى مبايعته والعمل على نصرته ، وكان العادل قد تغير على ابن يوجان وأقصاه ، وخاطب ابن يوجان هلال بن مقدم أمير الخُلُط ، وعمر بن وقاريط شيخ هسكورة ، وأوعز إليهما بالاستمرار فى الإغارة على أحواز مراكش ، حتى يذعن الموحدون إلى خلع العادل ومبايعه المأمون^(٢). ويقول لنا صاحب روض القرطاس من جهة أخرى إن المأمون أرسل إلى الموحدين بمراكش يدعوهم إلى بيعته ، وإلى الفتك بأخيه العادل ، وأنهم صدعوا بأمره ، وقتلوا العادل ، وكتبوا بيعتهم إليه^(٣). على أن الأمور اتخذت فى بلاط مراكش وجهة أخرى. وكان يسيطر على الدولة رجلان هما أبو زكريا بن الشهيد زعيم هتاتة ، ويوسف بن على شيخ تينملل . فلما وردت الأنباء بقيام أبى العلى المأمون وبيعته ، ولما تفاقم أمر الخُلُط وهسكورة ، اتفقا على خلع العادل وعقد البيعة لأبى زكريا يحيى بن محمد الناصر . فدخل الموحدون القصر على العادل ، وطلبوا إليه أن يخلع نفسه ، ولما أصر على الرفض قتلوه ، وذلك فى اليوم الثانى والعشرين من شهر شوال سنة ٦٢٤ هـ . ويقول لنا صاحب روض القرطاس إن القتلة ، وضعوا رأس العادل فى خصة نفور بالماء ، وشنقوه بعامته حتى مات . ويزيد على ذلك بأن الموحدين عقدوا البيعة أولا للمأمون ، وبعثوا بها إليه ، وخطب له بالفعل على منبر جامع المنصور ، ثم خشوا بعد ذلك بطشه وانتقامه ، فكتبوا البيعة ، وبايعوا إلى ابن أخيه يحيى بن الناصر^(٤).

ويؤيد ابن الخطيب هذه الرواية ، فيقول لنا إن الموحدين عقدوا البيعة للمأمون بمراكش والأندلس ، ثم إن الموحدين بمراكش بدا لهم فى أمره ، وعدلوا

(١) ابن الخطيب فى الإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ٤١٩ ، ومخطوط الإسكوريال (١٦٧٤) للزيرى (لوحة ٥٤ .

(٢) الروض المطار ص ٦٩ . (٣) روض القرطاس ص ١٦٦ و ١٦٧ .

(٤) البيان المغرب ص ٢٥٣ ، وروض القرطاس ص ١٦٤ و ١٦٧ .

عنه إلى ابن عمه (والصحيح ابن أخيه)، أبي زكريا يحيى بن الناصر^(١) ثم يؤيدها بعد ذلك بصورة قاطعة ، ماحداث ، عقب استيلاء المأمون على العرش ، من قتله لأشياخ الموحدين ، جزاء لهم على نكث بيعته بعد عقدها^(٢) .

وعلى أى حال فقد انتهى الموحدون بمراكش ، إلى البيعة ليحيى بن الناصر . ويقول ابن عذارى إن هذه البيعة قد تمت فى اليوم الثانى والعشرين من شهر شوال أعنى فى نفس اليوم الذى قتل فيه العادل^(٣) ، وهذا ما لا يتفق مع سير الحوادث ، وعقد البيعة للمأمون ثم النكث بها ، ومن ثم فأنا نؤثر الأخذ برواية صاحب روض القرطاس وهو أن بيعة يحيى قد تمت فى اليوم الثامن والعشرين من شهر شوال سنة ٦٢٤ هـ^(٤) ، أعنى بعد مصرع العادل بأسبوع ، وهو أكثر اتفاقاً مع المنطق . وكان يحيى بن الناصر ، هو الذى اجتنب ثمرة الجريمة ، وليس أخوه الخليفة المقتول ، وقبض بعد ذلك بأشهر قلائل على الوزير السابق أبى زيد بن يوجان ، وولده الأكبر بالرغم من اختفائهما وقتلا ، وذلك لما نسب إليهما من تحريض عرب الخلط وهسكورة على الاستمرار فى عيئهما^(٥) .

وتلقب يحيى بن الناصر ، بالمعتصم ، وكان وقت تقلده الخلافة ، فى حدثاً فى السادسة عشرة من عمره ، وامتنع من بيعته عرب الخلط ، وقبيلة هسكورة ، وبقياً على ولائهما فى بيعة المأمون .

ولما وصلت هذه الأنباء إلى المأمون بالأندلس ، استشاط سخطاً وغضباً ، وكان قد أخذ بالفعل فى الأهبة للمسير ، وقصد إلى الجزيرة الخضراء ليجوز منها إلى العدو ، فارتد إلى إشبيلية ، وقد آلى على نفسه أن يعمل بكل ما وسع لانتزاع عرش الخلافة ، والانتقام من أولئك الأشياخ المنافقين الذين غدروا به ونكثوا بيعته . بيد أنه يجب قبل أن نتتبع مصابير الخليفة المأمون ، وما اقترن بعهدده من أحداث المغرب ، أن نقف لحظة لكى نستأنف الكلام على سير الحوادث بالأندلس .

(١) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤١٩ .
(٢) البيان المغرب ص ٢٥٣ .
(٣) البيان المغرب ص ٢٥٣ .
(٤) روض القرطاس ص ١٦٥ .
(٥) الروض المطار ص ٦٩ و ٧٠ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٦٥ .

(٤) روض القرطاس ص ١٦٥ .

الفصل الثالث

عصر الخليفة أبي العلى المأمون

إلغاء رسوم المهدي ابن تومرت

وقيام الدولة الحفصية بإفريقية

المأمون يعقد حلفاً مع قشتالة . شروط هذا الحلف . معاونة فرناندو الثالث العسكرية للمأمون . عبور المأمون إلى المغرب . اللقاء بينه وبين يحيى المعتصم . هزيمة يحيى وفراره . دخول المأمون مراكش . فتكه بأشياخ الموحدين . القتال ثانية بين يحيى والمأمون . هزيمة يحيى وفراره للمرة الثانية . مرسوم المأمون بإزالة رسوم المهدي وإعلانه بطلان دعوته . كتابه في ذلك . رواية أخرى عن إزالته للدعوة للمهدية . ما كان يحش به المنصور من ذلك . بناء النصارى لكنيستهم في مراكش . إفريقية تحت ولاية الشيخ أبي محمد عبد الواحد . وفاته وقيام ولده أبي محمد عبد الله مكانه . الخليفة الموحدي يعين أميراً لتونس . تحرك يحيى بن إسحاق بن غانية . نهوض السيد أبي العلاء من تونس لقتاله . أطوار القتال بين الفريقين . هزيمة ابن غانية وفراره . ولاية السيد أبي زيد لإمارة تونس ثم إقالته . العادل يعين أبا محمد عبد الله لولاية إفريقية . دخوله تونس وتعيينه لأخيه أبي زكريا لحكم قابس ، وأخيه أبي ابراهيم لحكم توزر . تأثر هبة الشيخ أبي محمد عبد الواحد وبنيه بإفريقية . عود ابن غانية لالميث في شمال إفريقية . اقتحامه لقسنطينة ومليانة والجزائر . خروج الشيخ أبي محمد لمطاردته . مسيره صوب أحواز سجلماسة . استمرار لمغامرات بني غانية . تدهور مثلهم الثورية . هزيمتهم وانهايار أحلامهم . الأعوام الأخيرة من حياة يحيى بن غانية . وفاته وتعليق ابن خلدون عليها . مصرع الخليفة العادل وقيام يحيى مكانه . اضطراب أمر الخلافة الموحدية . قيام الخليفة المأمون وماتلا ذلك . توقف أبي محمد عبد الله عن مبايعته . عزله وتعيين أخيه أبي زكريا لولاية إفريقية . محاولة أبي محمد مقاتلة أخيه ورده عن ذلك . استدعاء الأشياخ لأبي زكريا واعتقال أبي محمد . مسير أبي زكريا إلى تونس . تعيين المأمون لبعض العمال الجدد . غضب أبي زكريا لذلك . خلعه لطاعة المأمون . رواية أخرى عن نزاع الأخوين وقيام أبي زكريا في الحكم . خلع طاعة بني عبد المؤمن واستقلال إفريقية . استيلاء أبي زكريا على قسنطينة وبجاية من الولاة الموحدين . قيام إفريقية المستقلة تحت حكم الدولة الحفصية . بنو حفص والشيخ أبو محمد عبد الواحد . انشغال بلاط مراكش وعجزه . كتاب المأمون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . السيد أبو موسى والى سبتة يدعو لنفسه بالخلافة . الثورة في منطقة فازاز . مسير المأمون لمعاينة التوار . تفرق الثوار ومسير المأمون إلى سبتة . فشل محاصرته لها . عبور أبي موسى إلى الأندلس . تنازله عن سبتة لإبن هود . اقتحام يحيى لمراكش . احراقه لكنيستها وقته للنصاري . عود المأمون ووفاته في الطريق . اتفاق الأشياخ على مبايعة ولده الرشيد . مسير جيش المأمون إلى مراكش . امتناعها واستعدادها للقاومة خشية انتقام الجند النصاري . صدور ظهور الرشيد بتأمينها . دخوله المدينة . تمويض النصاري افتداء للمدينة . الخليفة أبي العلى المأمون ونشأته وصفاته . براعته البيانية . نموذج من بلاغته . بعض شعره . وزرأوه وكتابه . شخصه وأولاده .

لما عاد المأمون إلى إشبيلية ، بعد أن أخفق في التغلب على ابن هود ، كانت تشغله فكرة واحدة ، هي العبور إلى المغرب ، وانتزاع العرش من يد ابن أخيه يحيى ، ومعاينة الناكثين لبيعتة . وكان مما يشجعه على العبور ، أن وردت إليه من المغرب بيعات وإلى فاس ، ووالى تلمسان محمد بن أبي زيد بن يوجان ، ووالى سبتة ، وهو أخوه أبو موسى بن المنصور ، ووالى بجاية ، وهو ابن أخته ، وكذلك وصلت إليه بيعة مقدم بن هلال أمير عرب الخلط ودعوته بالقدم^(١) . على أن المأمون لم يرد العودة دون قوة عسكرية تكفل له النجاح ، ومن ثم فقد اتجه نحو ملك قشتالة ، وكان فرناندو الثالث ، قد عبر الحدود إلى الأندلس في أواخر سنة ١٢٢٨ م (أوائل سنة ٦٢٦ هـ) ، وهو يرقب حوادث الأندلس وما تجوزده من فتن ومعارك داخلية ، تمهد سبل الوثوب . فبعث إليه المأمون يعرض تجديد الهدنة السابقة إلى عام آخر بنفس الشروط ، أعنى مقابل دفع ثلاثمائة ألف قطعة Maravedi من الفضة ، ويطلب إليه في نفس الوقت عقد حلف يحصل بمقتضاه على قوات عسكرية تعبر معه إلى المغرب . ويقدم لنا صاحب روض القرطاس خلاصة الشروط التي اشترطها ملك قشتالة لعقد هذا الحلف وقبلها المأمون ، وهي أن يسلمه المأمون عشرة من الحصون الإسلامية في منطقة الحدود يختارها بنفسه ، وأن تُبنى بمراكش كنيسة للنصارى يقيمون فيها شعائهم ، وأنه إذا أسلم أحد من النصارى فلا يقبل لإسلامه ، ويرد إلى إخوانه يقضون في أمره ، وفق ما يرون ، وإن تنصر بالعكس أحد من المسلمين فليس لأحد عليه سبيل . بيد أنه يبالغ في قيمة العون الذي قدمه ملك قشتالة للمأمون ، فيقول إنه بعث إليه بجيش كثيف من إثني عشر ألف فارس من النصارى ، برسم الخدمة معه ، والجواز إلى العدو ، وأن هذا الجيش الضخم ، وصل إلى المأمون في شهر رمضان سنة ٦٢٦ هـ ، فكان المأمون بذلك أول من قام بإجازة الروم إلى العدو على هذا النحو^(٢) ، وفي هذا القول مبالغة ظاهرة ، وليس من المعقول أن يعبر ملك قشتالة مثل هذا العدد الضخم من فرسانه للخليفة الموحدى ، ولجيش القشتالى كله لم يكن يضم في كثير من المواقع الضخمة أكثر من هذا العدد من الفرسان . والحقيقة التي تقدمها إلينا الرواية النصرانية . هن أن ملك قشتالة لم يمد المأمون

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٣ ، والزرکشی في تاريخ التولتين ص ١٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٦٧ .

بأكثر من خمسمائة فارس^(١) . وهذا هو بالذات ما يقرره ابن عذارى ، إذ يقول مشيراً إلى عزم المأمون على الخواز إلى العدو : « فحشد الحشود ، وزم الجنود ، وجمع نحو خمسمائة فارس من الروم ، لما كان ينبغي من الحركة ويروم »^(٢) . ويكتفى ابن الخطيب بأن يصف هذه القوة التي أمد بها ملك قشتالة حليفه المأمون بأنها « جمع من فرسان الروم »^(٣) .

وعبر المأمون البحر في حشوده من الموحيدين والعرب والقشتاليين ، ولم يترك بإشبيلية وباقي القواعد الأندلسية الباقية على طاعته ، سوى بعض الحاميات الضئيلة . وكان جوازه من الجزيرة الخضراء إلى سبتة ، وذلك في شهر ذى القعدة سنة ٦٢٦ هـ (أكتوبر سنة ١٢٢٨ م) . فأقام في سبتة أياماً ، ينظم قواته ، ويستعد للسير إلى غزوته المنشودة . ثم سار في قواته صوب الحاضرة الموحدية ، وكان ابن أخيه الخليفة الفتي يحيى بن الناصر وأشياخ الموحيدين المواليين له ، حينما بلغهم عبور المأمون إلى العدو ، قد استعدوا للقاءه . وخرج يحيى في قواته من العرب ، والموحيدين ، لرد المأمون ، وكان اللقاء على جبل إيجليز ، على مقربة من مراكش ، وذلك في اليوم الخامس والعشرين لربيع الأول سنة ٦٢٧ هـ (يناير ١٢٢٩ م) ، فهجم الفرسان النصارى على قبة يحيى الحمراء واقتحموها ، ومزقت حشوده وقتل معظمهم ، وفر هو ناجياً بنفسه ، والتجأ إلى جبل هنتاة . ودخل المأمون حضرة مراكش ، فبادر أشياخ الموحيدين إلى بيعته ، واستقر في كرسى الخلافة^(٤) .

وكان أول عمل قام به المأمون ، هو تتبع خصومه والناكثين لبيعته ، ولا سيما من أشياخ هنتاة ، وتينمل ، ولجأ في ذلك إلى حيلة لاجتذابهم فأعلن الأمان ، فهرع معظمهم للسلام عليه ، ولما تم اجتماعهم ، استحضر خطوطهم وبيعاتهم ، ثم أخذ يحاسبهم على تصرفاتهم وعلى خديعتهم ، ونكثهم المتكرر ببيعاتهم ، وذلك بحضرة القاضي الفقيه المكيدى ، وكان قد حضر معه من إشبيلية ، ثم خاطب القاضي بقوله : « ما تقول يا فقيه في قوم بايعوا شخصاً ، ثم نكثوا عليه وخلعوه ، ثم قتلوه ، ثم بايعوا شخصاً آخر فنكثوا عليه وقتلوه ، ثم بعثوا ببيعته هذه إلى ثم نكثوا

(١) J. Gonzalez : Las Conquisitas de Fernando III en Ardalucia p. 59, Nota 14

(٢) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٦٤ .

(٣) الإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤١٩ .

(٤) البيان المغرب ص ٢٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٦٧ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٣ ، وابن الخطيب في الإحاطة ج ١ ص ٤١٩ .

أيضاً على « فقال القاضي : « وجب عليهم القتل أجمعين » وتلا الآية : « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » فأمر المأمون بإعدامهم جميعاً ، وكانوا نحو مائة من أعيان الموحدين ، ودفنوا على الأثر في حفرة كبيرة حفرت لهم خارج باب السادة ، ثم تتبع من بقي منهم بمراكش ، حتى فني معظمهم ، وقضاءت بذلك مشيخة الموحدين ، وضعف نفوذها القوى ، الذي لبث ، منذ أيام المهدي ، يأخذ بأكبر نصيب في توجيه مصاير الدولة الموحدية^(١) .

وفي شهر رمضان من هذا العام (٦٢٧ هـ) خرج المأمون من مراكش ليرد هجوماً جديداً كان يدبره يحيى بن الناصر وأنصاره من الموحدين . فالتقى الفريقان بفحص واونزرت ، فوقعت الهزيمة للمرة الثانية على يحيى وأصحابه ، وقتل منهم عدد ضخم ، وفر يحيى في فلوله إلى بلاد درعة وسجلماسة ، وعاق المأمون من رؤوسهم على أسوار مراكش نحو أربعة آلاف ، وكان الوقت قيظاً ، فانتشرت روائحها الكريهة في المدينة ، وضج الناس من ذلك ، ورفع الأمر إلى المأمون ، فكان جوابه أنه يوجد ثمة مجانين ، وتلك الرؤوس لهم أحرار لا يصاح حالهم إلا بها ، وإنها لعطرة عند المحبين ، كريهة عند المبغضين^(٢) .

وكان المأمون يجيش بأفكار ومشاريع عظيمة ، نحو تجديد الدولة الموحدية ، وتجديد رسومها وتعاليمها ، بعد أن أضحت في نظره عتيقة بالية . وقد تذرّع في تنفيذ خطته بمنتهى الشجاعة والجرأة ، وقد كان المأمون في الواقع شجاعاً صارماً ، مضطرم النفس ، فأصدر مرسومه إلى سائر بلادده بإزالة اسم المهدي من الخطبة ومن السكة ، ومحو اسمه من المخاطبات ، وقطع النداء عند الصلاة بالنداءات البربرية مثل « تاصيلت الإسلام » و « سودود » و « ناردي » وأصبح والله الحمد » وغير ذلك مما كان العمل جارياً عليه منذ بداية الدولة الموحدية . وأذاع في كتابه الرسمي ، الذي أنشأه بنفسه ، أن وصف ابن تومرت بالمهدي وبالإمام المعصوم « إنما هو نفاق وبدعة وأمر باطل ، وأنه يجب نبذه والقضاء عليه » . وقد أورد لنا ابن عذارى نص هذا الكتاب الشهير ، الذي يعتبر صدوره حدثاً حاسماً في تاريخ العقيدة الموحدية ، ونحن ننقله هنا لبالغ أهميته :

« من عبد الله لإدريس أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ،

(١) البيان المغرب ص ٢٦٥ ، وروض القرطاس ص ١٦٨ ، والإحاطة ج ١ ص ٤١٩ .

(٢) البيان المغرب ص ٢٧١ ، وروض القرطاس ص ١٦٨ .

إلى الطلبة والأعيان والكافة ، ومن معهم من المؤمنين والمسلمين ، أوزعهم الله شكر أنعمه الجسام ، ولا أعدهم طلاقاً أوجه الأيام الوسام ، وإنا كتبناه إليكم ، كتب الله لكم عملاً منقاداً ، وسعداً وقادراً ، وخاطراً سليماً ، لا يزال على الطاعة قائماً مقبلاً ، من مراکش كالأها الله تعالى ، ولالحق لسان ساطع ، وحسام قاطع ، وقضاء لا يرد ، وباب لا يسد ، وظلال على الآفاق لمحو النفاق بعد ، والذي نوصيكم به تقوى الله والاستعانة به ، والتوكل عليه ، ولتعلموا أننا نبذنا الباطل ، وأظهرنا الحق ، وأن لامهدى إلا عيسى بن مريم ، وما سمى مهدياً إلا أنه تكلم في المهدي ، وتلك بدعة قد أزلناها ، والله يعيننا على القلادة التي تقلدناها . وقد أزلنا لفظة العصمة عن لا تثبت له عصمة ، فلذلك أزلنا عنه رسمه ، فتسقط وتبيت ، وتمحى ولا تثبت . وقد كان سيدنا المنصور ، رضى الله عنه ، هم أن يصدع بما به الآن صدعنا ، وأن يرقع للإمة الخرق الذي رقعنا ، فلم يساعده لذلك أمله ، ولا أجّله إليه أجله ، فقدم على ربه بصدق نية ، وخالص طوية ، وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة ، فما الظن بمن لم يدر بأى يد يأخذ كتابه ، أفلم قد ضلوا وأضلوا ، ولذلك ولوا وذلوا ، ما تكون لهم الحجة على تلك الحجة ، اللهم ، اشهد اللهم اشهد أنا قد تبرأنا منهم تبرأ أهل الحنة من أهل النار ، ونعوذ بك يا جبار من فعلهم الرثيث ، وأمرهم الخبيث ، لأنهم فى المعتقد من الكفار ، وإنا فيهم كما قال نبيكم عليه السلام « رب لا تنذر على الأرض من الكافرين دياراً » والسلام على من اتبع الهدى واستقام» (١) .

وفى رواية أخرى هى رواية صاحب روض القرطاس ، أن المأمون بعد أن دخل مراکش وبايعه الموحدون ، صعد إلى المنبر بجامع المنصور ، وخطب الناس ، ولعن المهدي ، وقال أيها الناس لا تدعوه بالمعصوم ، وادعوه بالغوى المذموم ، إنه لامهدى إلا عيسى ، وأنا قد نبذنا أمره النحيس به ، ثم أصدر مرسومه المتقدم ، بإزالة اسم المهدي من الخطبة والسكة ، وأن كل ما فعله المهدي ، وتابعه أسلافنا فهو بدعة ، ولا سبيل لإبقاء البدع . ثم دخل قصره فاحتجب ثلاثة أيام ، ثم خرج فى اليوم الرابع ، فاستدعى أشياخ الموحدين بين يديه ،

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٦٧ و ٢٦٨ ، وابن الخطيب فى الإحاطة (١٩٥٦)

وعاتبهم على نقض عهودهم ، ثم أمر بإعدامهم حسبما تقدم^(١). بيد أنه يبدو من المرجح أن المأمون ، قد عمد أولاً إلى التخلص من خصومه من أشياخ الموحدين ، ثم أقدم على تنفيذ خطته في إزالة رسوم المهدي وتعاليمه .

ولاريب أن عمل المأمون كان أعظم انقلاب ثورى حدث فى أصول العقيدة الموحدية على يد بنى عبد المؤمن ، وقد أصاب الصميم من أسس هذه العقيدة وتعاليمها ، وقضى بصورة رسمية قاطعة ، ببطلان أحداث الأسطورة التى مثلت فى جبل إيجليز قبل ذلك بمائة واثنى عشرة عاما ، وأعلن فيها محمد بن تومرت أنه المهدي المنتظر ، والإمام المعصوم .

ونحن نعرف أن الخليفة يعقوب المنصور ، كانت تساوره نحو المهدي مثل هذه الأفكار ، وأنه لم يكن من الغلاة فى تصوير إمامته ومهديته ، ولم يكن بالأخص من المؤمنين بعصمته ، فكان عمل المأمون فى الواقع ، وحسبما يشير إليه كتابه ، تنفيذاً لما كان يجيش به والده المنصور ، ولم يكن يجرأ فى وقته على المجاهرة به ، أو الإقدام على تنفيذه .

والظاهر أن عمل المأمون فى إزالة رسوم المهدي وتعاليمه ، لم يكن له كبير صدى ، ولم تترتب عليه أية معارضة أو بوادر انتفاض ، وبالعكس فقد أشاد الشعراء بتصرفه ، وأزجوا إليه مدائحهم فى قصائد عديدة ، يورد لنا ابن عذارى بعضها^(١) .

وأذن المأمون فى نفس الوقت لحلفائه النصارى القادمين معه ، فى بناء الكنيسة عمراكش ، وهى التى اشترط ملك قشتالة لإنشاءها ، وأخذت النواقيس منذ إتمامها ، تدق لأول مرة فى العاصمة الموحدية^(٢) .

- ١ -

وكان من أعظم الحوادث الحاسمة فى عصر المأمون ، إلى جانب محو أصول العقيدة الموحدية ، انفصال إفريقية عن الدولة الموحدية ، وقيامها دولة مستقلة تحت سلطان بنى حفص . ونحن نعرف أنه لما تفاقم أمر يحيى بن إسحاق بن غانية

(١) روض القرطاس ص ١٦٧ و ١٦٨ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٦٨ و ٢٦٩ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٣ .

الميورقي في إفريقية ، واشتد عيئه بها ، واستولى على معظم قواعدها ، ثم استولى على تونس ذاتها ، وكاد سلطان الموحدين يحس في ذلك الركن من إمبراطوريتهم الشاسعة ، سار إليه الخليفة الناصر لدين الله في الجيوش الموحدية ، ولبثت هذه الجيوش تطارده من مكان إلى مكان ، حتى ضربته ضربتها الحاسمة في موقعة جبل رأس تاجرا في سنة ٦٠٢ هـ ، وانتزعت منه قواعد إفريقية واحدة بعد أخرى ، ورأى الناصر تأمينا لإفريقية ، وتوطيدا لسلطان الموحدين بها ، أن يسند ولايتها إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص بن عمر الهنتاتي ، وهو الظافر في معركة رأس تاجرا ، وكان الشيخ أبو محمد يومئذ عميد أشياخ الموحدين وأشدهم نفوذاً لدى الخليفة ، وكان فوق ذلك صهر الخليفة متزوجاً بأخته ابنة الخليفة المنصور ، فقبل الشيخ الولاية ، على كره منه ، واشترط لتقلدها شروطاً تكفل له الاستقلال التام برأيه وتصرفاته ، وأبدى الشيخ في ولايته منتهى الحصافة والحزم ، ووقف بالمرصاد للميورقي ، وقضى على كل محاولاته ، ومحاولات حلفائه من طوائف العرب ، وغيرهم من المغامرين المفسدين ، وحقق لإفريقية عهداً من الاستقرار والطمأنينة والرخاء لم تعرفه منذ بعيد .

ولما توفي الخليفة الناصر ، بعد موقعة العقاب المشنومة بقليل ، في اليوم العاشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ ، وخلفه ولده يوسف المستنصر ، وبادر أشياخ الموحدين من سائر الأنحاء إلى بيعته ، تمهل الشيخ أبو محمد في تقديم بيعته بعض الوقت ، وأحبط تصرفه يومئذ بمختلف التعليقات ، ولكنه انتهى بسعى الوزير ابن جامع إلى تقديم البيعة المنشودة . ولكن حدث حيناً قام الخليفة المستنصر بتعيين عمال النواحي ، أن نذب عمه السيد أبا العلاء الكبير إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن ليكون أميراً على تونس ، وليستقر بقصبتها ، ليعنى بتدبير شئونها ، والسر منها على حركات الميورقي ، إلى جانب الشيخ أبي محمد عبد الواحد ، وأن يبقى الشيخ على ما هو من تقلد أعمال ولايته ، ولم يك ثمة شك في أن هذا التعيين لم يكن محلاً لرضى الشيخ ، وأنه رأى فيه مضايقة له ، وافتثا على حقوقه وسلطانه^(١) .

وهناك قول آخر بأن تعيين السيد أبي العلاء لإمارة تونس لولاية إفريقية ، لم يقع إلا بعد وفاة الشيخ أبي محمد ببضعة أشهر ، في أواخر سنة ٦١٨ هـ ، وأنه عين خلفاً للشيخ . ومما يعزز هذا القول ، هو أن السيد أبا العلاء ما كاد يتولى

منصبه ، حتى أمر بالقبض على كاتب الشيخ ، محمد بن أحمد بن النجيل ، وأخويه
أبي بكر ويحيى ، واستصفاء أموالهم ، وذلك بتهمة تأمرهم على سلامة الدولة ،
ثم أمر بعد ذلك بإعدام ابن النجيل وأخيه يحيى (١) .

وتوفى الشيخ أبو محمد عبد الواحد بتونس في مستهل شهر محرم سنة ٦١٨ هـ
(٨ مارس سنة ١٢٢٠ م) ، بعد أن لبث نيافاً وأربعة عشر عاماً يضطلع بأعباء
منصبه الشاقة ، وكان الشيخ بلاربي أقدر الحكام الذين ولوا حكم إفريقيا ،
وأضاهم عزماً ، وأوفرهم شجاعة وجرأة ، وكان لعزمه وشجاعته أكبر الأثر
في تحطيم ثورة بني غانية ، وإنقاذ سلطان الموحدين بإفريقية ، وحماية جناح الدولة
الموحدية الشمالى الشرقى من الانهيار مدى حين .

وهنا تختلف الرواية مرة أخرى في أمر من ولى حكم إفريقيا عقب وفاة
الشيخ ، فيقول لنا ابن عذارى متفقاً مع روايته الأولى ، إن ابنه أبا محمد عبد الله
هو الذى خلفه في منصبه ، وذلك تحت إشراف السيد أبي العلاء إدريس (٢) ،
وهناك قول آخر ، يتمشى مع الرواية الثانية ، وهو أن الذى خلفه في منصبه
هو السيد أبو العلاء إدريس ، معيناً من قبل الخليفة يوسف المستنصر .
وعلى أى حال فإن وفاة الشيخ أبي محمد عبد الواحد ، قد تمخضت عن
نتيجتين في منتهى الأهمية ، الأولى تحرك ابن غانية من جديد ، والثانية تحول
مجرى الحكم في إفريقية .

وذلك أن يحيى بن إسماعيل بن غانية ، ما كاد يعلم بوفاة خصمه العتيد ، الشيخ
أبي محمد ، حتى تنفس الصعداء ، وأخذ في التحرك من منفاه السحيق في الصحراء ،
وكان قد لزم ودان وأحوازها ، منذ هزأته الفادحة على يد الشيخ أبي محمد ،
ولبث هناك زهاء تسعة أعوام يرقب الفرص ، فلما لاحت الفرصة بوفاة الشيخ ،
سار في الصحراء نحو الشمال ، وعاث في بلاد الجريد ، فنهض السيد أبو العلاء
في جيش من الموحدين ، وسار إلى قابس ، ونزل بها بقصر العروسين ، حتى
لا تسقط في يد الثائر ، وبعث ولده السيد أبا زيد في قوة إلى درج وغدامس ،
وبعث قوة أخرى إلى ودان لرد ابن غانية ، ومحاصرته . ولكن العرب من أنصار

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ ، وكذلك : A. Bel : Les Benou Ghania , p. 164

(٢) البيان المغرب ص ٢٧٤ .

ابن غانية وحلفائه اعترضوا سبيل الموحدين ، وفر ابن غانية في جمعه من المثلثين والأعراب إلى جهة الزّآب ، فسار السيد أبو زيد في أثره ، ونجح ابن غانية في الوصول إلى الشمال والاستيلاء على بلدة بسكرة جنوبي قسنطينة ، وتخريبها ونهبها ، فهاجمه السيد أبو زيد ، وانتزعها منه ، وفر ابن غانية في حشوده من العرب والبربر وسار شرقاً حتى اقترب من أحواز تونس ، فأتبعه السيد أبو زيد في عسكر الموحدين والعرب الموالين ، ولاسيما عرب هواراة ، ونشيب بين الفريقين في مكان يسمى مجدول قتال مرير ، وهزم فيه ابن غانية ، وقتل كثير من جنده ، وامتثلت أيدي الموحدين من غنائمهم . وكان ذلك في أوائل سنة ٦٢١ هـ (١٢٢٣ م) . وفر ابن غانية في فلوله نحو الجنوب مرة أخرى ، وأخذ يتجول بين الواحات ، وهو يحشد الأنصار ، وينهب الأموال أينما استطاع ، ويرقب الفرص السانحة^(١) .

وعلم السيد أبو زيد على أثر الواقعة بوفاة أبيه السيد أبي العلاء ، فارتد إلى تونس ليشغل منصبه في الإمارة ، ووفقاً لهذه الرواية يكون تعيين السيد أبي زيد لولاية إفريقية ، قد جاء من قبل الخليفة أبي محمد عبد الواحد المخلوع ، الذي تولى الخلافة ، في أواخر ذي الحجة سنة ٦٢٠ هـ . على أن ابن عذارى ، يقول لنا متفقاً مع روايته أن ولاية السيد أبي زيد الإمارة ، كانت على نمط ولاية أبيه السيد أبي العلاء ، وأن الشيخ أبا محمد عبد الله بن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بقي على حاله مكان أبيه في ولاية إفريقية ، ينظر بالأخص في تدبير الشؤون وجباية الأموال . واكن السيد أبا زيد أساء السيرة ، واشتد في معاملة الناس ، خلافاً لما كان عليه الشيخ أبي محمد عبد الواحد وولده عبد الله . فسخط عليه الناس وتمنوا زوال حكمه ، واستمر السيد في منصبه حتى توفي الخليفة أبو محمد عبد الواحد وتولى الخليفة العادل ، فأقال السيد أبا زيد من منصبه ، وذلك في شهر ربيع الثاني سنة ٦٢٣ هـ ، وأرسل إلى إفريقية عمه السيد أبا عمران موسى بن ابراهيم بن اسماعيل الحفصي ليتولى الحكم بها حتى يصل إليها حاكمها الأصلي الذي اختاره الخليفة ، وهو أبو محمد عبد الله ابن الشيخ محمد عبد الواحد . وبعد ذلك ببضعة أشهر سار أبو محمد عبد الله وأخوه أبو زكريا يحيى إلى إفريقية ، وتوقف أبو محمد قليلاً في بجاية ، ومعه أخوه أبو عبد الله اللحياني^(٢) ، وبعث أخاه أبا زكريا إلى تونس

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٦ و ١٩٧ ، والزركشي في تاريخ الدولتين ص ١٤ وكذلك :

A. Bel : ibid; p. 167.

(٢) وقد عرف بهذا الاسم لطول لحيته (ابن خلدون ج ٦ ص ٢٨١) .

ليشهد لاستقباله . ثم سار إلى تونس ، ودخلها في اليوم السابع عشر من ذى القعدة سنة ٦٣٣ هـ (نوفمبر سنة ١٢٢٥ م) في مواكب حافلة ، واستقر في منصبه دون منازع ، وندب الشيخ أبو محمد عبد الله ، أخاه الأمير أبا زكريا يحيى لحكم قابس والحمة ، وأخاه الأمير أبا إبراهيم لحكم توزر ونفطة ، وسائر بلاد قسطنطية^(١) ، وتمكن بذلك سلطان بنى حفص بإفريقية . وكانت سيرة الشيخ أبي محمد ، وحكمة العادل ، وسياسته اللينة الرفيقة ، مما يسبغ على أسرته وبنيه من بعده ، حسن الذكرى ويحبوها بالحبّة والولاء من سائر الناس .

وفي تلك الأثناء ، كان يحيى بن غانية ، وهو في مثواه بالصحراء ، يجد في تحصيل الأموال ، وحشد الرجال ، ويرقب الفرصة للقيام بضربة جديدة ، وفي أواخر سنة ٦٢٣ هـ ، سار نحو الشمال في اتجاه منطقة قسنطينة ، ثم اجتازها بسرعة ، واقتحم بجاية ، ثم غادرها لوقته صوب تدلس ، وهو يعيث قتلا ونهباً أينما حل ، ثم اتجه نحو الغرب ، وغزا متيجة ، وتوغل في منازل زناتة ، واكتسح أحياءها ، وانتهب ثرواتها ، وحاول شيخ مغراوة ، عبد الرحمن بن منديل ، وهو من أولياء الموحدين ، أن يقف في سبيله ، فهزمه ابن غانية وأسرته ثم قتله ، ثم اتجه ابن غانية بعد ذلك شمالا واقتحم مليانة ، ثم استولى على الجزائر وصلب جثة ابن منديل على سورها . وخرج الشيخ أبو محمد عبد الله من تونس على عجل لمطاردة ابن غانية ، ووضع حد لعيثه ، وذلك في أواسط سنة ٦٢٤ هـ ، فسار أولا إلى أبة ، وهاجم منازل هوارة ، وكانت ضالعه مع ابن غانية ، وقبض على زعمائها وأرسلهم مصفدين إلى المهديّة . ثم سار في أثر ابن غانية ، ودخل بجاية ، وأصلح شئونها ، وقصد بعد ذلك إلى مليانة ، وكان ابن غانية في تلك الأثناء ، قد غادر الجزائر بعد اقتحامها ، وسار نحو الجنوب الغربي ، واستمر في مسيره حتى وصل إلى أحواز مجلّاسة ، فترك الشيخ أبو محمد مطاردته ، وعاد إلى تونس ، وذلك في شهر رمضان سنة ٦٢٤ هـ^(٢) .

ومن ذلك الحين ، تغيّض أخبار يحيى بن اسحاق بن غانية . وكان إلى ذلك الحين ، قد قطع أربعين عاما في متابعة ذلك الصراع المرير ، الذي بدأه أخوه على ضد الموحدين ، في إفريقية ، والذي اتخذت إفريقية ، لموقعها من الجزائر

(١) الزركشي في تاريخ الدولتين ص ١٥ ، والبيان المغرب ص ٢٧٤ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٧ ، وكذلك : A. Bel : ibid; p. 174

الشرقية مثنوى بنى غانية ، ونأىها عن مركز الحكومة الموحدية ، وثرواتها الطائلة ، مسرحاً له ، والذي كانت تحدوه في البداية مثل "سياسية وقومية" ، ثم انحدر بعد طول النضال ، إلى غزوات خاطفة ، ومعارك ناهبة . وقد وصل ابن غانية إلى ذروة سلطانه ، بالاستيلاء على سائر قواعد إفريقية بما فيها العاصمة تونس ، خلا بجاية ، ثم قلب له الحظ ظهر الحزن ، فانزع الموحدون الجزائر الشرقية ، مثنوى أمرته وموئل سلطانها ، ومستودع مواردها ، وذلك في سنة ٦٠٠ هـ ، ثم لقي هزيمته الحاسمة في موقعة جبل تاجرا في سنة ٦٠٢ هـ . ومع ذلك ، وبالرغم من تمزق حشوده ، وتضائل موارده ، فإنه لم يخبُّ له عزم ، ولم تضعف له إرادة ، فاستمر في نضاله اليائس أعواماً طويلة أخرى ، ولكنه كان نضال العصبة المغامرة ، والانتقام المضطرم . وكان من الواضح أن الحلم الذي كان يجيش به بنو غانية ، وهو العمل على إحياء الإمبراطورية المرابطية في إفريقية ، وفوق أنقاض سلطان الإمبراطورية الموحدية ، قد تحطم وتلاشى ، بيد أنه لم يك شك أيضاً في أن هذه الضربات المتوالية ، التي أنزلها على بن إسحاق بن غانية ، وأخوه يحيى ، مدى نصف قرن بسلطان الموحدين وجيوشهم في إفريقية ، قد هزت من أركان الدولة الموحدية وساعدت على تفككها ، وتبديد مواردها وقواها ، وكانت عاملاً من أهم العوامل التي اجتمعت في تلك الفترة ، لتمهد إلى انهيارها وسقوطها .

وقد عاش يحيى بن غانية أعوامه الأخيرة بين قليل من الصحب والخدم ، حياة شريد لا يستقر له مقام ، بيد أنه لم ينقطع عن الإغارة على تخوم إفريقية كلما استطاع ، ولم ينقطع أمير إفريقية ، وكان عندئذ أبازكريا يحيى عن مطاردته ورده عن أراضيه ، وأقام فوق ذلك في مختلف الحدود مراكز ثابتة ، مزودة بالجنود للسهر على حركات الثائر ، وإخمادها في بدايتها ، ومع ذلك فإن ابن غانية كان دائم النشاط والحركة ، دائم الإغارة والعيث ، حتى أنه كان من وقت لآخر يصل في غاراته شمالاً حتى وادى شليف ، واستمرت هذه الغارات حتى سنة ٦٢٦ هـ . بيد أن هذه لم تكن سوى النفثات الأخيرة لثورة عاتية ، ولم يكن يلتفت حوله عندئذ سوى القلائل من صحبه المخلصين ، ولم يكن له أهل ولا ولد ، بعد أن مات أخوته وولده في ساحة الحرب ، سوى عدد من البنات ، وكان في هذه الأعوام الأخيرة ، يشهد انحلال الدولة الموحدية التي نذر نفسه لكفاحها ، ولكنه كان يرى في نفس الوقت أنه لم يحن من صراعه وصراع أسرته

الذى استطال خمسين عاما ، أية نتائج مادية ، وأن علم الدولة المرابطية الذى حاول أن يرفعه سوف يحبو بوفاته إلى الأبد . ثم كانت الخاتمة النهائية ، وتوفى يحيى بن اسحاق بن غانية ، وهو فى محله على ضفاف نهر شليف على مقربة من مليانة ، وذلك فى سنة ٦٣١ هـ أو سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٤ م) ودفن هناك ، ثم عفى أثر مدفنه . قال ابن خلدون معلقاً على موته : « وانفض أمر الملتئمين من مستوفة وملتونة من جميع بلاد إفريقية ، والمغرب والأندلس ، بمهلكه ، وذهب ملك صنهاجة ، من الأرض ، بذهاب ملكه وانقطاع أمره » . وقيل إن يحيى بعث قبيل وفاته ببناته إلى الأمير أبى زكريا ليعشن فى كنفه ، فأكبر الأمير الحفصى حسن ظنه ، وأحسن كفالتهم ، وأبتنى لصورهن داراً خاصة بحضرة تونس ، عرفت بقصر البنات ، وأقمن بها فى عيش رغد ، محروسات مشمولات بأقصى رعاية ، حتى توفين عانسات معمرات ، ولم يقبلان الزواج من أحد (١) .

— ٣ —

وهنا نعطف على ذكر الحدث الثانى الذى ترتب على وفاة الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص والى إفريقية ، وذلك فى مسهل شهر المحرم سنة ٦١٨ هـ . وقد رأينا فيما تقدم أن الذى خلف الشيخ أبى محمد فى ولاية إفريقية ، هو ولده أبو محمد عبد الله ، وذلك على خلاف فى تاريخ هذه الولاية وكيفية نوعها ، مما سبق لنا تفصيله ، وعلى أى فقد كان أبو محمد عبد الله قائماً فى ولاية إفريقية ، منذ حبل بتونس فى شهر ذى الحجة سنة ٦٢٣ هـ ، وكان الذى قلده ولايتها وفقاً لذلك ، هو الخليفة العادل .

ولم تمض عدة أشهر على ذلك ، حتى وقع مصرع الخليفة العادل ، بعد مصرع سلفه الخليفة أبى محمد عبد الواحد ، وجلس الخليفة الفتي يحيى المعتصم على كرسى الخلافة : مكانه فى شوال سنة ٦٢٤ . ثم تفاقم اضطراب أمر الخلافة الموحدية ، بقيام السيد أبى العلى بن المنصور بالأندلس ، والدعوة لنفسه باسم المأمون ، وجوازه إلى العلوة ، واستيلائه على كرسى الخلافة من يد ابن أخيه يحيى المعتصم ، وقتله لأشياخ الموحدين ، وذلك فى أوائل سنة ٦٢٦ هـ . وقد كان لذلك كله أعمق وقع فى إفريقية . ولما بعث المأمون إلى أبى محمد عبد الله والى إفريقية ليأخذ له البيعة ،

(١) نقلنا هذه التفاصيل الأخيرة عن وفاة يحيى وبناته عن ابن خلدون ج ٦ ص ١٩٧ ،

وكذلك : A. Bel : ibid; p. 186 .

توقف عن عقدها ، فكتب المأمون عندئذ إلى أبي زكريا يحيى أخى السيد أبى محمد ، وكان يومئذ حاكماً لقابس ، بالولاية على إفريقية ، وعزل أخيه السيد أبى محمد ، فبادر أبو زكريا بعقد البيعة للمأمون ، ووقعت الوحشة بذلك بين الأخوين .

ذلك أنه لما علم أبو محمد عبد الله ، بما كان من أخيه أبى زكريا ، خرج فى عسكره من تونس ، فلما وصل إلى القيروان جميع أشياخ الموحدين ونباهم بما اعتزم من قتال أخيه ، فأنكر الأشياخ عليه ذلك ، واعتذروا إليه عن تنفيذ فكرته ، وذلك لمحبتهم للأمير أبى زكريا وتقدير صفاته ، فأصر أبو محمد على رأيه ونهرهم ، فأغلظوا له القول ، وكادوا يعتدون عليه . وبعث الأشياخ إلى أبى زكريا ينبئونه بما حدث ، ويستدعونهم إليهم ، فقدم أبو زكريا على الأثر ، وتسلم قيادة العسكر ، وأمر بالقبض على أخيه أبى محمد ، وحمل محروساً إلى تونس ، وهناك اعتقل حيناً بقصر ابن فاجر . ودخل الأمير أبو زكريا تونس فى اليوم الرابع والعشرين من رجب سنة ٥٦٢٥ هـ ، وأمر فى الحال بالقبض على أبى عمر كاتب أخيه ، فقبض عليه وعذب وقتل ، ثم بعث بأخيه أبى محمد إلى المغرب عن طريق البحر . وتولى أبو زكريا حكم إفريقية باسم الخليفة المأمون . ولكن لم يمض قليل على ذلك حتى بعث المأمون من قبله بعض عمال (حكام) إلى تونس ، فنار لذلك أبو زكريا ، وصرفهم ، وخلع طاعة المأمون ، وأمر بالخطبة ليحيى المعتصم . وكانت هذه أول خطوة فى استقلال إفريقية^(١) .

بيد ابن عذارى يقدم إلينا عن نزاع الأخوين ، واستيلاء أبى زكريا على الحكم ، رواية أخرى ، خلاصتها أنه لما تفاقم اضطراب الأحوال فى البلاط الموحدى ، وتوالى قتل أشياخ الموحدين ، جمع الأمير أبو زكريا أشياخ الموحدين بتونس ، وشرح لهم الأحوال ، وفاوض أخاه أبا محمد عبد الله فى وجوب خلع طاعة الخلافة المؤمنية ، والاستقلال بالحكم ، فأبى عبد الله كل الإباء ، واعتقل أخاه أبا زكريا بداره ، ففر أبو زكريا من معتقله ، وسار إلى قابس ، وهناك تفاوض مع شيخها ابن يكى ، فوافقه على مشروعه ، ثم خاطبه الموحدون من تونس ، باجتماع كلمتهم على اختياره ، واتفقوا معه على التنفيذ ، متى خرج أخوه عبد الله برسم الحركة إلى القيروان . فلما خرج عبد الله بقواته ، ونزل بظاهر تونس ، طالبه الجند ببركاتهم ، فتلكأ فى الإجابة ، وكان أبو زكريا قد قدم فى صحبه ، ونزل على مقربة من محلة أخيه ، فبادر الجند إلى خباء أخيه ، ورموه بالحجارة حتى

كاد يهلك ، ففرأماهم ، وعفّ الحند عن قتله لإكراماً لأخيه ، وقصد عبد الله إلى مراكش ، وفي الحال جلس الأمير أبوزكريا مجلس الأمراء ، وباعه أشياخ الموحدين ، ثم دخل تونس وبويع بها بيعة الخلفاء ، واختار وزراؤه وكتابه . وأبقى أبوزكريا في البداية ذكر الإمام المهدي ، في الخطبة وغيرها من المراسم^(١).

وتمت هذه الخطوة الأولى في استقلال إفريقية في أول سنة ٦٢٧ هـ (نوفبر ١٢٢٩ م) وأعلن أبوزكريا يحيى خلع طاعة بني عبدالمؤمن ، وتسمى أولابالأمير وجعل ذلك اللقب في صدر كتبه . ولما كانت قسنطينة وبجاية ، مازالتا بيد الحكام الموحدين ، وكان أبوزكريا ، يرى إلى تحقيق استقلال إفريقية بسائر جهاتها وأراضيها ، فقد بادر في العام التالي (٦٢٨ هـ) بالزحف على قسنطينة ، وحاصرها أياما ، وانتهى الأمر بأن تمكن من دخولها ، فدخلها وقبض على واليها الموحدى ، وولى عليها عاملا من قبله ، ثم سار إلى بجاية فانتصها ، وقبض على واليها الموحدى أبي زكريا عمران ، وبعث بالواليين المقبوض عليهما إلى المهديّة ، وبعث بأهلها وأولادها في البحر إلى الأندلس ، وقبض كذلك على عدة من أشياخ الموحدين والعرب الموالين لهم ، وأرسلهم أيضاً إلى المهديّة ، فزجوا إلى مطبقها ، واستكملت بذلك سيادة بني حفص على سائر رقعة الوطن الإفريقى . وصحب الأمير أبا زكريا أخوه أبو عبد الله اللحياني ، وكان متولياً أشغال بجاية . أما أخوه أبو محمد عبد الله وإلى إفريقية السابق ، فقد لقي مصرعه بمراكش ، وكان قد لجأ إليها .

وفي يوم الجمعة السابع من صفر سنة ٦٣٣ هـ دعى في الخطبة للأمير أبي زكريا بعد ذكر الإمام ، وبويع للمرة الثانية بيعة تامة شاملة ، لم يتخلف فيها أحد ، ولكنه استمر مقتصرأ على لقب الأمير ، ولم يتسم بأمر المؤمنين^(٢).

وهكذا قامت بإفريقية ، بأحد أقاليم الدولة الموحدية الكبرى ، دولة جديدة ، هي الدولة الحفصية ، نسبة للأسرة التي أنشأها وحكمها ، وهم بنو حفص ، أبناء الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص عمر بن يحيى الهنتاى ، وقد كان أبو حفص عمر بن يحيى من أصحاب المهدي العشرة ، وكان زعيم هنتاة أقوى قبائل مصمودة ، وهو الذى مهد لخلافة عبد المؤمن عقب وفاة المهدي ، وكان له أعظم شأن وأقوى نفوذ لدى الخلافة الموحدية ، وكانت وفاته بعد حياة حافلة بجلال الأمور في سنة

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٧٤، ٢٧٦ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٣٢٠ و ٣٢١ .

(٢) الزركشى في تاريخ الدولتين ص ١٨ ، والبيان المغرب ص ٢٧٦ .

٥٧١ هـ^(١)، وكان لولده الشيخ أبي محمد عبد الواحد ، وهو أحد أبناء عدة تولوا جميعاً رفيع المناصب بالمغرب والأندلس ، مثل مقامه ونفوذه لدى البلاط الموحدى ، وكان يعتبر كبير أشياخ الموحدين ، وقد رأينا ما كان من إخماده لحركة ابن غانية ، بعد أن كادت تقضى على سيادة الموحدين بإفريقية ، وما كان من اضطراره بولاية إفريقية ، فى أخرج الظروف وأدقها ، وما وفق إليه بعزمه وحزمه وقوة نفسه ، من إنقاذها من عيث ابن غانية وحلفائه العرب ، ومن توطيد أمنها وسلامها .

وقد كان انفصال إفريقية واستقلالها على هذا النحو ، ضربة جديدة للدولة الموحدية . وكان عاملاً جديداً فى إضعاف قواها ومواردها . بيد أنه لم يحدث كبير صدى فى مراکش . وكان البلاط الموحدى فى هذا الوقت ذاته مشغولاً ، بما يدور حول كرسى الخلافة ، من حروب ومنافسات ، وما يقوم به بنو مرين من استتالة ، وعيث مستمر ، فى أطراف المغرب ، وما يضطرم من ثورات محلية فى بعض القواعد الهامة مثل مكناسة وسبتة ، ولم تكن لديه أية قوة أو وسيلة يستطيع أن يحاول بها الوقوف فى سبيل هذا الحدث المحتوم .

— ٤ —

تركنا أخبار الخليفة المأمون ، وقد هزم منافسه وابن أخيه يحيى المعتصم مرة أخرى ، بفحص واونزت على مقربة من مراکش ، فى شهر رمضان سنة ٦٢٧ هـ ، ثم أصدر مرسومه بعد ذلك بمحو اسم المهدي ابن تومرت ورسومه . وفى العام التالى ، سنة ٦٢٨ هـ ، وجه المأمون كتبه إلى سائر بلاد الموحدين بالمغرب ، والأندلس ، يدعو فيها إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحض على إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة والصدقات ، والنهي عن شرب الخمر والنسكرات ، والتحريض على الدعاية . وقد أورد لنا ابن الخطيب فصولاً من كتابه المشار إليه نقل منها الفقرة الآتية :

« وإذا كنا نوفى الأمة تمهيد دنياها ، ونعنى بحماية أقصاها وأدناها ، فالدين أهم وأولى ، والتهمم بإقامة الشريعة وإحياء شعائرها ، أحق أن يقدم وأحرى وعلينا أن نأخذ بحسب ما يأمر به الشرع وندع ، ونتبع السنن المشروعة ، ونذر البدع . ولنا أن لاندخر عنها نصيحة ، ولا نغبنها أداة من الأدوات مريحة ، ولنا عليها أن تطيع وتسمع »^(٢).

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٥ ، وابن الخطيب فى الإحاطة ج ١ ص ٣٢١ .

(٢) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٢١ ، ٤٢٢ .

وقد صدر مثل هذا الكتاب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحث على اتباع أحكام الشريعة ، ونبد البدع ، عن معظم الخلفاء الموحدين ، حسبما أشرنا إليه في مواضعه .

هذا وبينما المأمون مشغول على هذا النحو ، بإصلاحاته المذهبية والدينية ، إذ وقع انفصام جديد في الخلافة الموحدية ، وظهر مدّع جديد للخلافة ، هو السيد أبو موسى بن يعقوب المنصور أخو المأمون . وذلك أن المأمون كان قد ولى أخاه السيد أبا موسى حكم ثغر سبته ، في سنة ٦٢٩ هـ ، دعا السيد أبو موسى لنفسه بالخلافة ، وتسمى بالمؤيد بالله ، وفي نفس الوقت كانت قبائل فازاز ومكلاثة ، قد جاهرت بالعصيان ، وعاثت في منطقة مكناسة ، وحاصرت مكناسة ذاتها ، فحشد المأمون قواته ، وخرج من مراكش يريد تأديب القبائل الثائرة أولاً ، ثم يسير إلى سبته ثانياً ، وكان عندئذ قد اطمأن إلى عجز ابن أخيه يحيى المعتصم عن القيام بأية محاولة جديدة ، بعد أن تركه الموحدون ، وعادوا إلى جبالهم ، وسار هو في صحبه القليل إلى منطقة درعة وبجلماسة .

ولما أشرف المأمون بقواته الكثيفة على مكناسة ، بادرت القبائل الثائرة بالفرق والفرار ، وعندئذ استمر في سيره إلى سبته ، فلما وصل إليها ضرب حولها الحصار من البر ، ولكن المدينة المحصورة لم تشعر بشيء من الضيق ، إذ كانت حرة مفتوحة من جهة البحر ، فلم تنقطع عنها الموارد . وفضلاً عن ذلك فإن السيد أبا موسى ، بعث إلى ابن هود صاحب الأندلس يستنصر به ، فأمدّه ابن هود ببعض سفنه . ومن ثم فقد لبث المأمون على حصارها ثلاثة أشهر ، وهو يضرّبها بالمجانيق كل يوم ، دون أن يلحقها شيء من الضيق أو تقع ثلمة في أسوارها ، أو يهدم شيء من دورها ، وربما كان في عزم المأمون أن يتابع هذا الحصار الفاشل حينئذ آخر ، لولا أن بلغه عندئذ خبر رُوع له ، وأرغمه في الحال على رفع الحصار ، هو وقوع مراكش في يد يحيى المعتصم .

وما كاد المأمون يبتعد عن سبته حتى عبر أخوه ، السيد أبو موسى إلى الأندلس . وكان ابن هود قد بلغ عندئذ ذروة سلطانه ، وبايعت له معظم قواعد الأندلس ، فبايعه ، ونزل له عن سبته ، فعوضه عنها بولاية ألمرية . وبعث ابن هود إلى سبته بحليفه ، وقائده السابق الغشتي واليّا لها ، فلبث بها بضعة أشهر إلى أن أخرجه أهلها وخلعوا طاعة ابن هود ، وبايعوا أبا العباس أحمد بن محمد

اليانشتي ، فاستبد بحكمها ، وتسمى بالموفق بالله ، وذلك في سنة ٦٣٠ هـ (١) .

وكان يحيى المعتصم قد انتهز غيبة المأمون عن الحضرة ، فجمع حشوده على عجل ، وانضم إليه عرب سفيان بقيادة شيخهم جرمون بن عيسى ، وأبوسعيد بن وانودين شيخ هتانة ، وسار إلى مراکش ، واقتحمها عنوة ، وكانت بلا دفاع ، ودخل القصر ، وجمع سائر مافيه من الأموال والذخائر ، وبعث بها إلى الجبل ، وقتل ونسب الكثيرين ولاسيما من اليهود ، وأحرق الكنيسة ، وقتل من بها من القسس والنصارى . وبلغت هذه الأنباء إلى المأمون وهو على حصار سبتة ، فرفع الحصار من فوره ، وارتد في قواته منصرفاً صوب مراکش ، وذلك في أوائل شهر ذي القعدة سنة ٦٢٩ هـ ، وهو يعتزم أن ينكل بيحيى وصحبه ، وأقسم لحلفائه النصارى الذين معه ، وقد اضطرموا سخطاً لما حل بكنيستهم ومواطنهم ، أن يطلقهم على مراکش ثلاثة أيام ينتصفوا فيها لأنفسهم . ولما وصل المأمون إلى وادي العبيد ، الفرع الشمالي لوادي أم الربيع ، مرض وتوفي فجأة ، وذلك في آخر شهر ذي الحجة سنة ٦٢٩ هـ ، فكنمت زوجه حباة الرومية ، وهي أم ولده الأكبر وولى عهده الرشيد ، وفاته ، ولم يقف عليها سوى القادة وأشياخ الخلط وبعض القرابة ، ولم يقف عليها أحد من عامة الجيش . وفي اليوم التالي وهو مستهل شهر المحرم سنة ٦٣٠ هـ (١٨ أكتوبر سنة ١٢٣٢ م) ، اجتمع الأشياخ والقادة وانفقوا على بيعة ولد المأمون أبي محمد عبد الواحد الرشيد بالخلافة ، مبايعة سرية خاصة ، وكان قتي في الرابعة عشرة من عمره . وأذيع في المحلة أن أمير المؤمنين مريض ، لا يستطيع الركوب ولا الظهور ، وحمل المأمون في تابوت وضع في هودج ، وسارت الحيوش أمامه وهي على أهبها للقاء يحيى المعتصم (٢) ، ولما وصلت حشود المأمون إلى مقربة من مراکش ، خرج إليها يحيى المعتصم في قواته من الموحددين وعرب سفيان وغيرهم ، فنشبت بين الفريقين معركة هزم فيها يحيى ، وقتل معظم جنده ، وتفرق الباقون في مختلف الأنحاء . ولكن قوات المأمون ، حينما أشرفت على مراکش ، وعلى رأسها ولده الرشيد ، ألقت الحاضرة وقد استعدت للدفاع . وكان واليها من قبل يحيى ، أبوسعيد بن وانودين قد تخلى عن

(١) البيان المغرب ص ٢٧٦ ، وروض القرطاس ص ١٦٩ .

(٢) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٨٠ - ٢٨٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٣ و ٢٥٤ .

وروض القرطاس ص ١٦٩ ، وابن الخطيب في الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٢٥ .

عن منصبه ، واختار الناس مكانه السيد أبا الفضل جعفر بن السيد أنى سعيد ، وكان أهل مراکش قد تراسى إليهم ما أعلنه المأمون قبل وفاته ، من أنه سوف يبيع المدينة للنصارى ، انتقاماً من أهلها ، لما أبدوه من استسلامهم ليحيى ، وتمكينه من دخولها ، ومن ثم فإنهم لما رأوا متقدم جيش المأمون ، ازدحموا فوق الأسوار ، واستعدوا للدفاع ، فعندئذ أصدر الرشيد لأهل المدينة ظهيراً بتأمينهم والعفو عنهم جميعاً ، وعمن كان معهم من الموحدين ، ورفع المغارم عنهم ، وضمن ظهيره كثيراً من الوعود الطيبة ، وحمل هذا الظهير القاضى أبو محمد عبد الحق ، ومعه جملة من الناس ، واقتربوا من السور من جهة باب السادة . وأعلن للناس وفاة المأمون وولاية ابنه الرشيد ، وهزيمة يحيى ، وعرفهم بما يتضمنه الظهير من تأمينهم والإنعام عليهم ، فاطمأن الناس وسكنت نفوسهم ، وأذنوا له ولرفاقه بالدخول إلى المدينة ، ثم سار معه واليها السيد أبو الفضل والوجوه إلى القصر الخليفى ، وقرئ الظهير على الكافة ، فعم البشر والاطمئنان ، وكتب الأشياخ والوجوه إلى الخليفة بالسمع والطاعة ، وعاد القاضى وأصحابه معهم وفد من الكبراء للسلام على الخليفة واستقباله . وكانت حباة أم الخليفة قد تفاهمت مع القواد النصارى ، ودفعت لهم مقابل فيء المدينة التى وعدوا باستباحتها ، وافتدائها من الاعتداء والنهب ، مبالغ طائلة ، ويقال إن الرشيد دفع لهم مقابل ذلك خمسمائة ألف دينار^(١) ، وهكذا أنقذ الموقف ، ومهد كل شئ لدخول الخليفة الفتى إلى حاضرتة .

— ٥ —

بيد أنه يجدر بنا قبل أن نبدأ الكلام عن خلافة الرشيد ، أن نذكر كلمة عن الخليفة المأمون ، وعن صفاته وخلالله .

كان أبو العلى (أو أبو العلاء) من أنبه الخلفاء الموحدين وأقدرهم ، وكان يتسم بكثير من صفات أبيه العظيم الخليفة يعقوب المنصور ، ولو أتاح له القدر فسحة من الوقت ، فربما كان من المرجح أن يعمل الكثير لإنقاذ الدولة الموحدية من محنتها ، ولتأخير انحلالها وسقوطها ، ولكنه أنفق أعوام خلافته الخمسة فى منازعات وحروب متوالية ، لم يبق منها حتى أدركه الموت . وكانت سقطته الجوهرية ، هى التجاؤه إلى النصارى لتحقيق مشروعه فى انتزاع الخلافة . ولكنها

(١) البيان المغرب ص ٢٨٤ و ٢٨٥ ، وروض القرطاس ص ١٧٠ .

كانت سقطة العصر وظروفه المؤلمة ، وقد تردى فيها من قبله ومن بعده كثير من زعماء الأندلس .

وكان مولد المأمون بمدينة مالة سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، وأمه حرة هي صفية ابنة أمير الشرق محمد بن سعد بن مردنيس ، وكان المأمون صنو أبيه المنصور في صفاته العلمية . فقد كان فقيهاً حافظاً ، ضابطاً للرواية ، متمكناً من علوم الدين ، إماماً في اللغة ، أديباً واسع المعرفة بالأدب والسير ، كاتباً بليغاً ، متين البيان ، وشاعراً محسناً ، وكان يعنى عناية خاصة بتدريس كتاب البخارى ، وكتاب الموطأ ، وسنن أبي داود . وكان فوق ذلك حاكماً مقتدرأ ، بارعاً في الإدارة ومعالجة الشئون ، ذكياً وافر الهمة والعزم . ويحمل ابن الخطيب صفاته في قوله : « كان رحمه الله شهماً ، شجاعاً جريئاً ، بعيد الهمة ، نافذ العزيمة ، قوى الشكيمة ، ليبياً ، كاتباً أديباً ، فصيحاً ، بليغاً ، أبياً ، جواداً ، حازماً » (١) . بيد أنه كان في نفس الوقت صارماً ، سفاكاً للدماء . وقد رأينا كيف أسرف في استباحة دماء خصومه وقضى عليهم جميعاً .

وكان المأمون كاتباً جزلاً ، يشغف بتسطير كتبه بنفسه ، بالرغم من وجود عدة من أئمة البلاغة بين كتابه . وقد نقل إلينا ابن عذارى وابن الخطيب كتابه ، الذى كتبه بخطه إلى أهل أندو جر بالأندلس ، وفيه ينحى باللائمة عليهم ، ويتوعدهم بالنكال لجنوحهم إلى الاستسلام للنصارى ، وهو ينطق بروعة أسلوبه ، وإليك بعض ما جاء فيه :

« إلى الجماعة والكافة من أهل . . . ، وقام الله عشرات الألسنة ، وأرشدكم إلى محو السيئة بالحسنة . أما بعد فقد وصل من قباكم كتابكم الذى جرد لكم أسهم الانتقاد ، ورماكم من السهاد ، بالداهية الساد ، أتعنذون من الحال ، بضعف الحال ، وقلة الرجال ، إذأ نلحقكم بربات الحجال ، كأنا لانعرف مناحى أقوالكم ، وسوء متقلبكم وأحوالكم ، لاجرم أنكم سمعتم بالعدو قصمه الله ، وقصده إلى ذلك الموضع عصمه الله ، فطاشت قلوبكم خوراً ، وعاد صفوكم كدراً ، وشمتم ريح الموت وردأ وصدراً ، وظننتم أنكم أحيط بكم من كل جانب ، وأن القضاء قد غص بالتفاف القنا ، واصطفاف المناكب ، ورأيتم غير شىء ، فتخيلتموه طلائع الكتائب ، تبأ لهمتكم المنحطة ، وشيمتكم الراضية بأدون خطة . أحين

ندبتم إلى حماية إخوانكم ، والذب عن كلمة إيمانكم ، نسقتم الأقوال وهي مكنوبة ،
ولفقتم الأعذار وهي بالباطل مشوبة ، لقد آن لكم أن تبدلوا جل الخرصان ،
إلى مغازل النسوان ، وما لكم ولصهوات الخيول ، وإنما على الغايات جر الذبول ،
أظهرون العناد تخريصاً ، بل تصريحاً وتلويحاً ، ونظن أن لا يجمع لكم شتاً ولا يندى
منكم نزوحاً . أيق المفر وأمر الله يدرككم ، وطلبنا الحثيث لا يترككم ، فأزيلوا
هذه النزعة النفاقية من خواطركم ، قبل أن نمحو بالسيف أقوالكم ، وأفعالكم ،
ونستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم »^(١) .

ومن نظمه قوله عند ظفـره بخصومه الناكثين بيعته ، وقتلهم وتعليق رؤوسهم :
أهل الحـرابـة والفساد من الوري يعزون في التشبيه بالذكار
ففساده فيه الصلاح لغيره بالقطع والتعليق في الأشجار
ذكارهم ذكرى إذا ما أبصرو فوق الخدوع وفي ذرى الأسوار
لو عم عفو الله سائر خلقه ما كان أكثرهم من أهل النار
ووزر للمأمون الشيخ أبو زكريا بن أبي الغمر ، وكتب له عدة من أعلام
البلاغة في ذلك العصر ، مهمم أبو زكريا الفازازي ، وأبو المطرف بن عميرة
الحزومي ، قطب البلاغة بالأنـدلس يومئذ ، وأبو الحسن الرُّعيني ، وأبو عبد الله
بن عبيّاش ، وأبو العباس بن عمران ، وغيرهم^(٢) .

وأما عن شخصه فقد كان المأمون أبيض اللون ، معتدل القامة ، جميل الحياء ،
أكحل العينين ، فصيح اللسان ، حسن الصوت والتلاوة^(٣) .

وترك المأمون عدة من البنين هم ، أبو محمد عبد الواحد الرشيد ولي عهده
والخليفة من بعده ، وعبد الله ، وعبد العزيز ، وعثمان ، وأبو الحسن علي ، الملقب
بالسعيد ، والوالى بعد أخيه الرشيد ، وترك كذلك عدة من البنات ، وأمّهات
الجميع روميات وسريات مغربيات^(٤) .

(١) وردت هذه الرسالة في البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٦٦ و ٢٦٧ ، وفي الإحاطة
(١٩٥٦) ج ١ ص ٤٢٢ ، و ٤٢٣ .

(٢) البيان المغرب ش ٢٨٣ ، والإحاطة ج ١ ص ٤٢٤ .

(٣) روض القرطاس ص ١٦٦ .

(٤) البيان المغرب ص ٢٨٢ و ٢٨٣ .

الكتاب السابع

انهيار الأندلس

وسقوط قواعدها الكبرى

الفصل الأول

الثورة في مرسية وبلنسية

ونذر الانهيار الأولى

صلى انحلال الخلافة الموحدية في الأندلس . اضطرابها من جديد بالفورات القومية . محمد بن هود أول زعماء هذه الحركة . ظهوره في أحواز مرسية . ما قبل عن طريقة ظهوره . زحفه على مرسية وهزيمته لوالها الموحدي . دخوله مرسية ومعه الراية السوداء . دعاؤه للخليفة العباسي وتلقبه بأمر المسلمين . فكرته في الانصواء تحت لواء الخلافة العباسية . دخول عدة من القواعد في طاعته . نهوض المأمون من إشبيلية لقتاله . ما يقال عن اللقاء بين الفريقين . اعتراف إشبيلية بطاعة ابن هود . صدى الثورة في بلنسية . السيد أبو زيد والى بلنسية . أبو جميل زيان سليل آل مردنيش . آل مردنيش ومركزهم في الشرق . وزارة أبي جميل زيان للسيد أبي زيد . قيام الثورة في بلنسية . اختيار أهلها لرباسة زيان . الوحشة بينه وبين السيد أبي زيد . مغادرة السيد أبي زيد لبلنسية . دخول زيان بلنسية وعقده البيعة لنفسه . دعاؤه للخليفة العباسي . النزاع بينه وبين ابن هود . امتناعه بلنسية . الخوف من عواقب الفتنة . دعوة إلى الاتحاد . إلتجاء السيد أبي زيد إلى النصارى . مرافقة كاتبه ابن الأبار له . مسير السيد إلى ملك أراجون . المعاهدة التي عقدها معه . تعهده بتسليم عدد من الحصون . تنازله عن سائر حقوقه الإقليمية . اعتناقه للنصرانية . تأييد الرواية الإسلامية لهذه الواقعة . عودة ابن الأبار إلى بلنسية . إلتحاقه بخدمة أميرها زيان . ضعف الأندلس . ثوب الملوك النصارى لمهاجمتها . غزو ملك ليون لثمالي منطقة الغرب . محاصرته لماردة . مسير ابن هود لمداغته . هزيمته وارتداده . استيلاء الليونيين على ماردة وبطليوس . توقف ابن هود بإشبيلية . مصرع ولدى ابن وزير . غزو فرناندو الثالث للأندلس الوسطى . محاصرته لمدينة جيان . فشل الحصار وانسحاب النصارى . غزوة ثانية للقشتاليين . فرناندو الثالث يستأنف الغزو . محاصرته لأبدة واستيلائه عليها . عقد الهدنة بين ابن هود وفرناندو . الجزائر الشرقية تحت حكم الموحدين . مقدمات غزو النصارى للجزائر . تطاع الدول النصرانية إلى افتتاحها . اهتمام ملك أراجون الخاص بذلك . خايي الأول واستعداد أراجون لهذا المشروع . خروج أسطول الغزو النصارى . استعداد أبي يحيى حاكم الجزائر للمقاومة . التآمر والنزاع في ميورقة . نزول النصارى بأرض الجزيرة . القتال بينهم وبين المسلمين . محاصرة النصارى لمدينة ميورقة . مفاوضة ابن يحيى للنصارى . إصرار النصارى على التسليم . اقتحامهم للمدينة . دفاع المسلمين اليأس . هزيمتهم وتمزقهم . المذبحة الرائعة . دخول الملك خايي المدينة . مقاومة المسلمين في الجبال . تحطيم المقاومة وسقوط سائر الحصون . تقسيم ميورقة بين الفاتحين . كتاب التقسيم الخاص بذلك . استيلاء الأرجونيين على يابسة . منورقة وبقاؤها عصراً تحت حكم المسلمين . الرئيس سعيد بن حكم الأموى . حكمه لمنورقة . حزمه وكفايته . أدبه وشعره . ولده أبوهرم . افتتاح الأرجونيين لمنورقة .

لقد كان انتشار الخلافة الموحدية ، على هذا النحو ، وقيام الخليفة العادل بالأندلس ، خروجاً على الخليفة أبي محمد عبد الواحد ، ثم قيام أبي العلي المأمون بالأندلس أيضاً ، خروجاً على أخيه العادل ، أعمق وقع وأبعد صدًى في الأندلس . ولم يقتصر الأمر في ذلك ، على تصدع أركان الحكم الموحدى ، وماحدث من ثورة أبي محمد عبد الله الببّاسى ، وما ترتب عليها من الآثار المؤلمة ، بل كان أن اهتزت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها لهذه الأحداث الخطيرة ، ونهضت من سباتها الطويل ، الذى فرضه عليها الحكم الموحدى ، زهاء ثمانين عاما ، وأخذت تضطرم بسلسلة جديدة من الفورات القومية ، على غرار ماحدث في أواخر العهد المرابطى . بيد أن هذه الفورات كانت مع الأسف ، حركات متناثرة ، متنافسة ، متخاصمة ، تفرق بينها الأطماع الخاصة ، وإن كانت تجمع بينها رابطة الغرض المشترك ، وهو تحرير الأندلس من نير الموحدين ، وحمايتها من عدوان للنصارى .

قامت هذه الحركات التحريرية في شرق الجزيرة وفي وسطها ، في وقت واحد ، وكانت بالرغم من طابعها الشخصى ، وهو مايتفق مع روح العصر ، حركات قومية أندلسية محضة ، وكان قيامها في غمار الخن التى نزلت بالأندلس من جراء تحاذل السادة والحكام الموحدين ، عن تأدية واجبهم الأول في شبه الجزيرة ، وهو الدفاع عن الأندلس وحمايتها من عدوان النصارى ، وتحول نشاطهم إلى معارك داخلية شخصية ، بل وإلى مصانعة وتسليم للنصارى . ولم تكن حال الموحدين ، وتضعضع قواهم ، وانهايار مواردهم بالمغرب ، خافية على الأمة الأندلسية ، وعلى زعمائها الذين نهضوا في تلك الآونة العصيبة ، يحاولون إنقاذ الموقف ، بكل ما يمكن أن تسمح به الظروف والأحوال .

وكان أول من ظهر من أولئك الزعماء الأندلسيين ، زعيم من بيت عريق في الزعامة والرياسة ، هو محمد بن يوسف بن هود الجذامى ، وهو سليل بنى هود ملوك سرقسطة أيام الطوائف . وكان آخر من أتينا على ذكرهم من زعماء هذا البيت ، هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن يوسف بن هود ، وهو الملقب بسيف الدولة وبالمستنصر بالله ، وأحياناً بالمستعين ، وقد تتبعنا أخباره فيما تقدم ، مذ غادر قلعة روضة آخر مستقر لبنى هود ، بعد سقوط سرقسطة في أيدي الأرجونيين في سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) وانضوى تحت لواء ملك قشتالة

ألفونسو ريمونديس . ولما اضطرت الأندلس بالثورة ضد المرابطين ، عمد سيف الدولة إلى خوض غمارها ، أولاً في القواعد الوسطى في جيتان ، وقرطبة وغرناطة ، ثم في شرقي الأندلس ، في بلنسية ومرسية ، وانتهى الأمر إلى أن قتل في معركة البسيط ، في شهر شعبان سنة ٥٤٠ هـ (فبراير سنة ١١٤٦ م)^(١) . ولم يرد من ذلك التاريخ ذكر لبني هود في حوادث الأندلس ، حتى قيام محمد بن يوسف ابن هود ، هذا المتقدم الذكر . وأما نسبته فهي وفقاً لقوله ، أنه محمد بن يوسف ابن محمد بن عبد العليم بن أحمد المستنصر ، فهو بذلك ثاني حفيد لولد سيف الدولة المتقدم ذكره .

وكان ظهور محمد بن يوسف بن هود ، في نفس المنطقة التي كانت قبل ثمانين عاماً مسرحاً لظهور جده سيف الدولة ، أعني في شرقي الأندلس ، وفي مدينة مرسية . ولاتحدثنا الرواية بشيء عن حياته الأولى ، وكل ما تذكره من ذلك أنه كان رجلاً من أصناف الحند بمرسية وغيرها^(٢) ، ويبدو من أقوال الرواية أنه ظهر بطريقة متواضعة جداً ، وذلك بمعاونة قائد أومقدم من رؤساء العصابات يسمى الغشتي ، وكان الغشتي هذا زعيماً لعصابة من المخاورين أو « المغاورين » الذين يحاربون النصارى ، وأحياناً يقطعون الطرق على المسلمين . ونحن نضرب صفحاً عما تذكره لنا الرواية عن تنبؤات المنجمين بشأن ظهوره ، ونكتفي بأن نقول بأن ابن هود تفاهم مع الغشتي على التعاون في العمل ، وأفضى إليه بما يخالجه من أمل في الاستيلاء على الأمر ، وبدأ الاثنان بالإغارة على بعض أراضي النصارى المجاورة لأحواز مرسية ، فأصابا غنائم من الماشية والأسرى ، وأخذ جمع ابن هود يكثر شيئاً فشيئاً ، وتتولد مكانته في تلك النواحي ، وكانت أرومته الملوكية تسبغ عليه مهابة وتجذب إليه الأنصار . ولما كثر جمعه ، نهض في رجاله إلى موضع يعرف « بالصخيرات » أو بالصخور ، وهو حصن صغير يقع على نهر شقورة على مقربة من مرسية ، وهناك بايعه أنصاره بالإمارة^(٣) ، فداع أمره ، وسارع كثيرون من الفرسان والحند بالانضمام إليه ، وكانت أحوال

(١) تراجع تفاصيل هذه الحوادث في ص ٣٦٠ و ٣٦١ من القسم الأول من هذا الكتاب .

(٢) الروض المطار ص ١١٨ .

(٣) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٥٦-٢٥٧ ، وابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٧٨

و ٢٧٩ ، والروض المطار ص ١١٨ .

الموحدين ، وما نشب بينهم من خلاف ، وما وقع من قتل خلفائهم بمراكش ، وما يبشر به ذلك كله من ذهاب أمرهم ، وانهار دولتهم ، مما يذكى حماسة الجموع ، ويبعث إليها روح الأمل والاستبشار .

وكانت ولاية مرسية ، مذ غادرها السيد أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور أو العادل ، على أثر مبايعته بالخلافة ، قد أسندت إلى ابن عمه السيد أبي العباس ابن أبي عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن . وكان من الواضح أن أولئك السادة الولاة ، كانوا ينظرون إلى الموقف في خشية وتوجس ، وأن الحاميات الضئيلة التي تركت لهم ، كانت قد خبت قواها المعنوية ، ومن ثم فلان ابن هود حينما شعر بقوة جمعه ، لم يحجم عن الزحف على مرسية . فخرج إليه السيد أبو العباس بعساكر مرسية ، فهزمه ابن هود واعتقله ، وذلك في رجب سنة ٥٦٢٥ هـ (يونيه سنة ١٢٢٨ م) . وعلى أثر ذلك خرج إليه السيد أبو زيد والى بلنسية في قواته ، فهزمه ابن هود أيضاً ، واستولى على محلته ، ولكنه لم يحاول دخول بلنسية . ثم عاد إلى مرسية ، ودخلها وهو يرفع راية سوداء عباسية ، وذلك بتفاهم مع قاضيا أبي الحسن على بن محمد القسطلي ، وهو قتيله فيما بعد ، وقبض على واليها السيد أبي العباس^(١) . وبويع ابن هود بمرسية غرة رمضان سنة ٥٦٢٥ هـ (٤ أغسطس ١٢٢٨ م)^(٢) وتسمى بأمر المسلمين ، ومعر الدين ، ودعا للخليفة العباسي المستنصر بالله ، وكتب إليه ببغداد ، فبعث إليه بالخلع والمراسيم ، وسماه مجاهد الدين ، سيف أمير المؤمنين ، عبد الله المتوكل على الله ، وهكذا كانت علامة ابن هود « توكلت على الله الواحد القهار » .

وكانت فكرة ابن هود في الانصواء تحت راية الخلافة العباسية ، هو أن يتشعق بثوب من الشرعية في انتحال الولاية ، وفي محاربة الموحدين ، وهو قد أعلن أنه سوف يعمل على تحرير الأندلس من نير الموحدين ، ومن عدوان النصارى معا ، وسوف يعمل على إحياء الشريعة وسننها ، بعد ما درست في ظل الموحدين ،

(١) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٤٩ . ويستفاد من رواية صاحب الروض المطار أن هود لم يشتبك في معركة مع والي مرسية ، السيد أبي العباس ، ولكنه دخلها بحيلة رتبها القاضي المذكور ، وإيهامه للوالى ، أن ابن هود سوف يتضوى تحت لوائه ويخدمه برجاله ، فلما دخل عليه ابن هود غدر به وقبض عليه (الروض المطار ص ١١٩) .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٧٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ، وروض القرطاس ص ١٨٢ .

وسرعان ما قوى أمره ، وذاع ذكره ، وأطاعته من قواعد الشرق شاطبة ،
وجزيرة شقر وما والاها ، وأعلنت بطاعته عدة من قواعد الأندلس الوسطى
والجنوبية ، مثل جيان وقرطبة ، حيث قتل أهلها وألها الموحدى السيد أبا الربيع ،
وأخرجوا منها الموحدين ، وكذلك أطاعته غرناطة ومالقة والمرية .

ولما ذاع أمر ابن هود ، ووقف السيد أبو العلى بإشبيلية — وكان يومئذ
قد غدا الخليفة المأمون — على ما حدث فى الشرق من هزيمة الموحدين ، وضياح
مرسية ، ووصله صريخ السيد أبى زيد ، أهمه ذلك ، وكان على وشك العبور
إلى العدو ، فآثر أن يبادر إلى الشرق لحسم الأمر قبل استنحاله ، فغادر إشبيلية ،
وسار فى بعض قواته صوب مرسية . وهنا تختلف الرواية حول ما حدث بينه
وبين ابن هود ، فهناك قول بأنه اشتبك مع ابن هود على مقربة من مرسية فى معركة
هزم فيها ابن هود ، وارتد إلى مرسية فامتنع بها ، وذلك فى أواخر سنة ٦٢٥ هـ ،
وعاد المأمون ظافراً إلى إشبيلية ، فامتدحه الشعراء وأجزل لهم العطاء^(١) . ويزيد
ابن الخطيب هذه الرواية تفصيلاً فيقول ، إن المأمون تحرك فى جيش إشبيلية
باستدعاء أخيه السيد أبى زيد والى بلنسية^(٢) ، فتحرك المأمون إليه ، واحتل غرناطة
فى رمضان من عام خمسة وعشرين وستائة ، وأنفذ منها كتابه إليه يشجعه ، ويعلمه
بنفوذه إليه ، وانضم إليه جيش غرناطة وما والاها ، ثم سار نحو الشرق ، فبرز
ابن هود إلى لقاءه ، فكان اللقاء بخارج لورقة ، فانهزم ابن هود ، وفر إلى مرسية
وعساكر الموحدين فى عقبه^(٣) . وفى رواية أخرى أنه لم يقع قتال ، ولكن
المأمون حاصر مرسية ، حيناً فامتنعت عليه فكرر راجعاً إلى إشبيلية ، وذلك
فى أوائل سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م)^(٤) .

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٥٨ ، ويورد لنا ابن عذارى عدة من القصائد
التي ألقيت بهذه المناسبة ، وكذلك ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٨ .

(٢) الإحاطة (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤٢٠ . وقد وهم ابن الخطيب هنا فى وصف السيد
أبى زيد والى بلنسية بأن أخ للمأمون . والحقيقة أن السيد أبا زيد وهو عبد الرحمن بن محمد بن يوسف
ابن عبد المؤمن — إنما هو ابن عم المأمون (وهو إدريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن)
لا أخوه . وابن الخطيب يصح نفسه فى ترجمته للسيد أبى زيد الواردة فى الإحاطة أيضاً (مخطوط الإسكوريال
٦٧٤ الفزيرى لوحة ١٣٨) فيذكر نسبه الحقيقية ، وهى كما تقدم ، عبد الرحمن بن محمد بن يوسف
ابن عبد المؤمن . وذكر المقرئ من جهة أخرى أن السيد أبا زيد هو عبد الرحمن بن السيد أبى عبد الله
محمد بن أبى حفص بن عبد المؤمن . (فتح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧) .

(٣) الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٢٠ . (٤) الروض المطار ص ١٢٠ .

وماكاد أبو العلى المأمون ، يغادر إشبيلية ليعبر البحر إلى العدو ، حتى اجتمع أهل إشبيلية وذلك فى اليوم الثانى من عيد الأضحى سنة ٦٢٦ هـ ، وأعلنوا خلع طاعة الدولة الموحدية ، والاعتراف بطاعة ابن هود فى ظل الخلافة العباسية ، وكتب عنهم أبو بكر بن البناء إلى المتوكل ابن هود كتاباً بهذا المعنى ، فأوفد إليهم ابن هود فى الحال أخاه أبا النجاء سالم الملقب عضد الدولة ليكون والياً عليهم . وحذت ماردة وبطليوس حذو إشبيلية ، فى الإعلان بطاعة ابن هود . وهكذا اتسع نطاق الدعوة الموحدة وشملت أواسط الأندلس وغربها ، وأخذت الأندلس كلها ، تتطلع إلى لواء هذا الزعيم الأندلسى الحديد ، ترجو أن يكون حامياً وقائداً ، وجامع كلمتها ، وموحد صفوفها .

وفى نفس الوقت الذى قامت فيه ثورة ابن هود بمرسية ، كانت ثمة ثورة أخرى تضطرم فى بلنسية ، وتجرى فيها أحداث مماثلة . وذلك أن بلنسية كان يحكمها منذ سنة ٦٢٠ هـ ، واليا السيد أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، وهو أخو السيد أبو محمد عبد الله البياسى ، الذى أتينا على أخباره فيما تقدم . ولما قام ابن هود بمرسية ، خرج السيد أبو زيد بقواته لمحاربتة ، ولكن ابن هود تغلب عليه فارتد منهزماً إلى بلنسية . وسرعان ماظهر صدى هذه التطورات فى بلنسية ذاتها . وذلك أن أهل بلنسية ، حينما رأوا تطور الحوادث فى مرسية ، وهزيمة القوات الموحدية فى منطقة الشرق ، سرت إليهم روح الانتفاض والثورة ، وقديماً كانت بلنسية حصن الثورة ضد الموحدين . وقد لبثت مملكة الشرق أيام الأمير محمد بن سعد بن مردنيش ، زهاء ربع قرن تتحدى الدولة الموحدية ، وهى فى إبان قوتها . والآن فلإننا نعود فنشهد صفحة جديدة من ثورة بلنسية ، ضد الموحدين ، وإن كانت هذه المرة تضطرم فى ظروف عصيبة ، تواجه فيها بلنسية وقواعد الشرق خطر العدوان الداهم ، من جانب عدوها الخالد اسبانيا النصرانية . وكان زعيم الثورة فى هذه المرة ، أيضاً ينتمى إلى زعمائها السابقين من آل مردنيش . وهو أبو جميل زيان بن أبى الحملات مدافع بن يوسف بن سعد ابن مردنيش الجذامى ، وجده أبو الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش هو كما نذكر ، أخو أمير الشرق محمد بن سعد بن مردنيش . وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، حينما استسلم إليه آل مردنيش ، عقب وفاة عميدهم

الأمير محمد بن سعد في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، واستولى على مرسية وبقية مملكة الشرق ، قد شملهم برعايته ، وأسند إليهم جليل المناصب ، فقدم الأمير أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش ، أخا الأمير محمد المتوفى ، على بلنسية وجهاتها ، كما كان أيام أخيه ، واستمر أبو الحجاج يوسف ، وكان يعرف بالرئيس ، والياً لبلنسية حتى توفي في سنة ٥٨٢ هـ ، فخلفه في ولايتها السيد أبو عبد الله محمد حفيد الخليفة عبد المؤمن ، ثم خلفه بعد وفاته ولده السيد أبو زيد . وترك الرئيس أبو الحجاج يوسف عدة من الأولاد ، منهم أبو الحملات مدافع ، وأبو الظفر غالب ، وأبو الحارث سبع ، وأبو سلطان عزيز ، وأبو ساكن عامر ، وأبو محمد طلحة ، وقد تولوا جميعاً في ظل حكومة الموحدين ، مناصب هامة في مختلف قواعد الشرق ، من قيادة وولاية ، واشتهروا في أواخر أيام الدولة الموحدية بالأندلس ، وكانوا مثل أبيهم يعرفون بالروساء . فلما اضطربت الأحوال وسرت الفتنة إلى مختلف النواحي ، عقب وفاة الخليفة يوسف المستنصر ، خاضوا الفتنة مع الخاضعين ، وكان عميدهم يومئذ الرئيس أبو جميل زيان بن أبي الحملات مدافع بن الرئيس يوسف أبي الحجاج ، وكان أبوه مدافع ، قد استشهد شاباً في حياة أخيه أبي سلطان عزيز وإلى جزيرة شقر ، وكان إلى جانبه ببلنسية وأحوازها ، عشرة من رؤساء بيته من الإخوة أو أبناء العمومة . وكان أبو جميل زيان وقتئذ وزير السيد أبي زيد وإلى بلنسية ، وكبير بطانته ومدير أمره^(١) ، وفي رواية أخرى أنه كان قائد الأعنة المتولى أمر الدفاع عن بلنسية^(٢) . فلما ارتد السيد أبو زيد منهزماً أمام ابن هود كما تقدم ، اضطربت الثورة في بلنسية ، والتف البلنسون حول عميد بيت إماراتهم القديم ، أبي جميل زيان ، ونادوا برياسته ، ف وقعت الوحشة بينه وبين السيد أبي زيد ، فغادر بلنسية إلى حصن أُنْدَة القريب وامتنع به ، واشتد الهياج وتفاقم الأمر في المدينة ، فخشى السيد سوء العاقبة ، وغادر بلنسية بدوره في أهله وواده وأمواله ، وذلك في أوائل شهر صفر سنة ٦٢٦ هـ ، واعتصم ببعض الحصون القريبة . وعندئذ بادر الرئيس أبو جميل زيان بالقدوم إلى بلنسية من مقره بحصن أُنْدَة ، فدخلها في اليوم السادس والعشرين من شهر صفر سنة ٦٢٦ هـ (يناير ١٢٢٩ م) ونزل بالقصر ، وعقد البيعة لنفسه ، وذلك

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ .

(٢) المقرئ في فتح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ .

في أول شهر ربيع الأول، ودعا للخليفة المستنصر العباسي ، وفي الحال دخلت في طاعته دانية وجنجاله ، وعدة من الحصون ، وذاع أمره واشتد ساعده . ولكن خرج عليه أبو سلطان عزيز بن يوسف والى جزيرة شقر ، ودعا لابن هود ، وكذلك فعلت شاطبة ووالها أحد أبناء عمومة زيان ، واضطربت الفتنة بين زيان وابن هود وزحف ابن هود على بلنسية ، فخرج زيان للقاءه ، فكانت عليه الهزيمة ، وتبعه ابن هود إلى بلنسية فامتنعت عليه ، وشغل ابن هود عندئذ ، بحوادث ومشاريع أخرى^(١) . وهكذا عمت الثورة أو الفتنة ، شرق الأندلس ، وسرى الاضطراب إلى سائر أنحائه ، وفي ذلك يقول شاعر معاصر من أبنائه ، هو أبو عبد الله محمد ابن إدريس بن علي المعروف بمرج الكحل :

ولاسيما في فتنة مدلهمة فلا أحد فيها أخاه يشمت
وكان قضا صمتنا عنه واجب وسلم الأحداث من كان يصمت

ولم يكن يخفى على ذوى النظر البعيد ، ما يترتب على تلك الفتنة من عواقب خطيرة ، وكان بعضهم يسعى إلى تداركها بجمع الكلمة . وقد وقفنا في ذلك على رسالة ، وجهها العلامة الفقيه أبو بكر عزيز بن خطاب ، عميد علماء مرسية والمنترى فيها فيما بعد ، إلى الخطيب أبي عبد الله بن قاسم بلنسية ، يشير عليه فيها بأن يحض الرئيس أبا جميل زيان على الدخول في طاعة « أمير المسلمين » ابن هود وذلك قبل أن يتحرك ابن هود لمحاربة زيان في بلنسية . وفيها ينوه بوجوب اتحاد المدن المختلفة التي تدين بدين واحد لمقاومة أعداء الدين ، وأن القوة في الاتحاد وهو ما يحض عليه الله والرسول . وأنه يجب على علماء الدين أن يسعوا في ذلك بالنصح ، وأن مآل الخلاف انقطاع الرياسة ، واستيلاء عدو الدين على البلاد ؛ ثم يطلب إليه أن يهيب بالأمير أبي جميل أن يدخل فيما دخل فيه المسلمون ، فذلك مما يكسبه محبة أهل الأندلس ، ومحبة المسلمين^(٢) .

وأما السيد أبو زيد ، فقد لبث مذ غادر بلنسية ، وامتنع بأهله وأمواله ، في

(١) راجع تفاصيل هذه الحوادث في أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ١٧٢ ، والبيان المغرب ص ٢٧٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ ، وكذلك M. Gaspar Remiro: Historia de Murcia Musulmana (Zaragoza 1905) p. 275 & 276

(٢) وردت هذه الرسالة في كتاب « زواهر الفكر وجواهر الفكر » لمحمد بن علي بن عبد الرحمن المكئي بابن المرباط ، وهو مخطوط الإسكوريال ، رقم ٥١٨ الغزيري (ديرنبور رقم ٥٢٠) .

بعض الحصون القريبة ، حيناً يرقب سير الحوادث ، فلما رأى تطور الموقف على هذا النحو ، ورأى سلطان الموحدين ينهار في سائر النواحي ، وأن الظروف كلها تدعو إلى اليأس ، لم يجد أمامه سبيلاً إلا أن يلتجئ إلى النصارى . فغادر مقره في أهله وولده ، وقصد إلى ملك أراجون خايمي الأول ، مستجبراً به وملتجئاً إلى حمايته . وكان بصحبة السيد أبي زيد كاتبه ، وكاتب أبيه من قبل ، الفقيه الكاتب الشاعر والمؤرخ المبدع ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي الشهير بابن الأبار ، وقد وصف لنا ابن الأبار موقفه يومئذ ، في بيتين من الشعر ، بعث بهما إلى بعض أصحابه على أثر مغادرته لبلنسية وهما :

الحمد لله لا أهل ولا ولد ولا قرار ولا صبر ولا جلد
كان الزمان لنا سلماً إلى أمد فعاد حرباً لنا لما انقضى الأمد^(١)

ويضع ابن الخطيب تاريخ مغادرة السيد أبي زيد لبلنسية ، ولحاقه بالنصاري في السادس والعشرين من صفر سنة ٦٢٦ هـ ، أعنى في نفس اليوم الذي دخل فيه الرئيس أبو جميل زيان لبلنسية^(٢) . ولكننا ذكرنا فيما تقدم اعتماداً على ابن الخطيب نفسه أن السيد أبا زيد غادر لبلنسية قبل ذلك بعدة وجيزة ، والتجأ إلى بعض حصونها القريبة .

وتكفي الرواية الإسلامية بأن تذكر لنا أن السيد أبا زيد لحق بالنصاري ، ودخل في دينهم^(٣) . ولكن لهذا السيد الموحدي ، قصة مفصلة متعددة النواحي ، تقدم إلينا تفاصيلها ، الرواية والوثائق النصرانية المعاصرة ، ويجدر بنا أن نلخصها هنا . سار السيد أبو زيد وصحبه إلى قلعة أيوب ، حيث كان خايمي الأول ، ملك أراجون^(٤) يعقد بلاطه يومئذ . وفي اليوم العشرين من شهر أبريل سنة ١٢٢٩ م

(١) وقفنا على هذين البيتين في مخطوط الإسكوريال « زواهر الفكر ، وجواهر الفكر » السابق ذكره لوحة ٨٧ . وراجع في مصاحبة ابن الأبار لمخدومه ، أزهار الرياض (المطبوع) ج ٣ ص ٢٠٥ .

(٢) الإحاطة في مخطوط الإسكوريال (١٦٧٤ الفزيري) لوحة ١١٣٨ .

(٣) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٧٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ و ١٦٨ ، وابن الخطيب في الإحاطة في مخطوط الإسكوريال المشار إليه .

(٤) تسمى الرواية الإسلامية Jaime خايمي : « جاقمة ملك أرغون » (الروض المطار ص ٤٨) ، وأعمال الأعلام ص ٢٧٣ وتسميه أحياناً دون جايمش (أعمال الأعلام ص ٣٣٧) . وخايمي هو الرسم الإسباني ليعقوب .

الموافق الثالث والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٢٦هـ ، اجتمع السيد أبو زيد وولده أبو محمد مع ملك أراجون وولده ألفونسو ، وكان يومئذ يقوم بأهبة لافتتاح ميورقة ، وعقدت بين الفريقين معاهدة ، نص فيها على أن يعطى السيد أبو زيد من سائر الأراضى والأماكن والحصون التى يغنمها سواء بالقوة أو الرضى ، مقدار الربع إلى الملك خايمى ، وعلى أن يحتفظ الملك خايمى لنفسه بكل ما يقوم هو بافتتاحه ، أو ما يقع تسليمه إليه ، وأن يقدم السيد كفالة بتنفيذ هذا الاتفاق ، حصون بنشكلة ، ومرلة ، وقله ، وألبونت ، وشارقه ، وشرب (١) بصفة رهينة ، وأن يقوم الملك خايمى تأكيداً لهوده ، بحماية السيد والدفاع عنه وعن ولده ضد أعدائه ، بتسليم حصنى الديموس ، وقشيل الحبيب (٢) اللذين افتتحهما أبوه الملك بيدرو .

وكان من الواضح أن السيد أبا زيد ، حينما عقد هذا الاتفاق مع ملك أراجون ، كانت له أسوة بما فعله من قبل أخوه السيد عبد الله اليباسى ، حينما انضوى تحت لواء فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وتعهد بتسليم الحصون والأراضى الإسلامية ، بل وبما فعله ابن عمه الخليفة المأمون نفسه ، من تعهده لملك قشتالة بتسليمه الحصون التى يرغبها فى الأراضى الإسلامية ، وغير ذلك مما قطعه على نفسه من العهود ، إزاء قيام هذا الملك النصرانى بمعاونته على انتزاع العرش من خصمه .

وتنفيذاً لهذا الاتفاق خرج السيد أبو زيد ، ومعهم الفارس بيدرو دى أساجرا صاحب شتمرية الشرق ، وبلاسكو دى ألاجون ، وهو زعيم أراجونى كان قبل عامين قد لجأ إلى بلنسية وخدم الموحدين ، ثم عاد إلى أراجون وعفا عنه الملك ، فى قوات طرويل وبعض الفرسان الأراجونيين ، واختارت الحملة الأراضى التى كان ما يزال السيد أبو زيد يتمتع فيها بشىء من التأييد . وبالرغم من أن السيد استطاع فيما بعد أن ييسط سلطانه على بعض النواحي والضيايق القريبة من بلنسية ، فإنه أدرك فى النهاية أنه لن يستطيع تنفيذ العهود التى قطعها على نفسه لملك أراجون ، ومن ثم فإنه عاد فى يناير سنة ١٢٣٢ ، وتنازل للملك خايمى عن سائر الحقوق الإقليمية التى احتفظ بها لنفسه بمقتضى المعاهدة ، وذلك سواء فى مدينة بلنسية

(١) وهما بالإسبانية على التوالى Segorbe, Jérica, Alpuente, Culla, Morella, Penoscola

(٢) وهما بالإسبانية Castielfabít, Ademuz

ذاتها ، أو في أراضيها ، واستبقى لنفسه ولأهله ما سوى ذلك من الحقوق (١). وفي خلال ذلك سقط السيد أبو زيد سقطته المؤسسية . ذلك أنه لم يكتف بهذا الانضواء المطلق تحت نير الملك النصراني ، ولكنه هوى إلى الدرك الأسفل ، فاعتنق دين النصرانية ، وهو سليل بنى عبد المؤمن أئمة التوحيد وأقطابه ، وبند اسمه المسلم ، واختار اسما نصرانياً هو بثنى Vicente أو بالعربية « بجنث » وتزوج فيما بعد من سيدة نصرانية من أهل سرقسطة ، وكان يسمى في الوثائق النصرانية « بثنى » ، ملك بلنسية وحفيد أمير المؤمنين « ، ولم تقدم إلينا الرواية النصرانية تاريخ تنصر السيد أبى زيد ، ولكنها تقدم إلينا ما يفيد أنه كان يضممر هذه النية منذ عهد بعيد ، أعنى منذ أيام أن كان في بلنسية والياً عليها ، وتقول لنا إن السيد طرد من بلنسية ، لما علم من أنه يبعث رسله السريين إلى البابا وإلى ملك أراجون ، يعرض اعتناقه للنصرانية ، ولما كان يبدو من إمارات استحسانه لهذا الدين (٢) .

وتجمع الرواية الإسلامية على صحة ارتداد هذا السيد الموحدى عن دين الإسلام ، وتعرب عن أسفها وخطئها لانحداره إلى هذا الدرك المؤسسى (٣) . ومن جهة أخرى فإنه مما لاشك فيه أن كاتبه ابن الأبار ، الذى صحبه في رحلته إلى بلاط ملك أراجون ، قد تركه لمصيره غير بعيد ، لما رأى من استسلامه للنصارى ، ونيته في اعتناق دينهم ، وعاد إلى بلنسية ، والتحق بخدمة أميرها الجديد أبو جميل زيان (٤) . وسوف يكون ابن الأبار منذ الآن من أبرز شهود المأساة التى اقترنت بمصير بلنسية ، وسوف يأخذ قلمه في تدوين محنتها بأوفى نصيب .

— ٣ —

في تلك الآونة التى أخذت فيها نيران الفتنة ، تندلع إلى ربوع الأندلس ، ويسرى ديبب التفكك إلى هيكلها المتداعى ، كانت اسبانيا النصرانية تتطلع في ثقة وأمل إلى اجتناء التراث المنهار ، وانتزاع الأشلاء المتساقطة ، وكان كل شيء يمهّد إلى تحقيق هذا الأمل ، فإن حركة الاسترداد Reconquista ، لم تحظ

Andres Piles Ibars : Valencia Aarabe (Valencia 1901). p. 622, 625, (١)

626 & 629

A. P. Ibars : ibid; p. 617, 618 & 622, cit. Zurita, Nota (٢)

(٣) يراجع بالأخص ابن عذارى في البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٧٠ ، وابن خلدون

ج ٤ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٤) أزهار الرياض ج ٣ ص ٢٠٥ .

من قبل قط ، بما كانت تحظى به يومئذ من سهولة الانقضاض ، وانهيار الجبهة الدفاعية الحصينة ، بانهيار القوى العسكرية الموحدة في شبه الجزيرة ، وانشغال البلاط الموحدى بالمغرب ، بخلافاته وحروبه الأهلية . وكانت قوى الأندلس ومواردها الخاصة ، قد تضاعفت تحت ضغط الحكم الموحدى المرهق ، واستثثار الموحدين بشئون الدفاع ، ثم أخذت على ضعفها وضآلتها ، تنتثر هنا وهناك ، بين أولئك المتغلبين ، أولئك « الطوائف » الجدد ، وكان ماوك اسبانيا الثلاثة ، خيامى الأول ملك أراجون ، وفرناندو الثالث ملك قشتالة ، وألفونسو التاسع ملك ليون ، يسيطر كل منهم ، على مصاير منطقة من شبه الجزيرة ، فملك أراجون يسيطر على مصايرها من ناحية الشرق ، وملك قشتالة يسيطر على مصايرها من ناحية الوسط ، وملك ليون يسيطر على مصايرها من ناحية الغرب ، وكل منهم يرقب الفرص المواتية للانقضاض على الفريسة ، على تلك الأندلس ، التى مزقتها الفتنة ، وفقدت وسائل الدفاع الحقيقية ، وأضحى معظم قواعدها تحت رحمة العدو القوى المتحفرز .

ووقعت الضربات الأولى فى الغرب ، من جانب ملك ليون ، وهو أقل الملوك الثلاثة شأنًا ، ثم تلتها فى الحال ضربات قشتالة وأراجون القوية ، ووجهت قشتالة اهتمامها إلى القواعد الأندلسية الوسطى ، واتجهت أراجون أولاً إلى افتتاح الجزائر الشرقية ، لكى تتفرغ بعد ذلك إلى انتزاع القواعد الشرقية ، وفى مقدمتها ثغر بلنسية العظيم .

وكان ملك ليون ، ألفونسو التاسع (وهو والد فرناندو الثالث) ، منذ استولى على مدينة قاصرش المنيعه فى سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٧ م) حسباً تقدم ذكره ، يرقب الفرصة لإنزال ضربته التالية ، فى منطقة الغرب الأندلسية . وكانت ماردة ، وبطليوس ، وهما جنوبي قاصرش هما أقرب القواعد الأندلسية العظيمة إلى حدود ليون . فلما عمت الفتنة أرجاء الأندلس ، ولاح ملك ليون ، أن منطقة الغرب أضحى دون مدافع ، وأن قيام ابن هود فى شرقى الأندلس ، لا يمكن أن يحول دون مشاريعه ، خرج من ليون فى قواته ، وذلك فى أواخر فى أواخر سنة ١٢٢٩ م (أوائل سنة ٦٢٧ هـ) ، وسار جنوباً فى اتجاه نهر وادى يانه ، واستولى أولاً على حصن مونتانش^(١) . الواقع على مقربة من شمال ماردة ، ثم سار إلى ماردة ،

(١) وهو بالإسبانية Montanchez .

وهى تقع شرقى بطليوس ، على ضفة نهر وادى يانه ، وضرب حولها الحصار . ووقف ابن هود على حركة ملك ليون ، فحشد ما استطاع من قواته ، وسار نحو الغرب لإنقاذ المدينة المحصورة ، وكانت من القواعد التى دخلت فى طاعته ، فلما وصل على مقربة من ماردة ، ترك ألفونسو التاسع الحصار ، وتقدم للقاء جيش ابن هود ، ونشبت بين الفريقين عند حصن الحنش^(١) معركة عنيفة ، هزم فيها ابن هود ، وارتد فى قواته دون نظام ، وفى الحال ، احتل الليونيون مدينة ماردة ، ثم احتلوا بعد ذلك بقليل ، مدينة بطليوس العظيمة ، وذلك فى مايو سنة ١٢٣٠م (أواسط سنة ٦٢٧هـ) . وينحى ابن عذارى بهذه المناسبة باللائمة على ابن هود ، لأنه انهزم بساقته فى بداية الموقعة ، فولى الناس منهزمين من أجل ذلك . ويقول لنا إنه كان بطبعه ملولا عجولا ، وكانت هذه الغزوة أول غزواته وأضخمها^(٢) .

وعرج ابن هود فى مسيره بعد هزيمته على إشبيلية . وكان مما حدث عند حلوله بها ، أن ثارت العامة بعبد الله بن وزير حاكم نغر القصر السابق ، وكان قد لجأ إليها ، وقبضت عليه ، فأمر ابن هود بإعدامه هو وأخوه عبد الرحمن ابن وزير ، ويقول لنا ابن الأبار إن ما حدث من العامة نحو الأخوين قد وقع بتحريض ابن هود نفسه^(٣) .

وفى هذا الوقت نفسه ، كان فرناندو الثالث ، ملك قشتالة يحاول أن يقوم بضرباته فى الأندلس الوسطى . وكان فرناندو يرقب الدعوة الهودية ، واتساع نطاق سلطان ابن هود ، وتوالى طاعة القواعد الأندلسية له ، بمنتهى الاهتمام والتوجس . وكان يخشى أن تجتمع كلمة الأندلس كلها حول هذا الزعيم الجديد ، وأن تغلو مرة أخرى ، كتلة قوية متماسكة يصعب تحطيمها . وكان يرى وجوب المبادرة إلى العمل ، قبل أن يصبح ابن هود وهو فى نظره زعيم الأندلس الحقيقى ، قوة لا تقهر ، ومن ثم فلما نراه فى أوائل سنة ١٢٣٠م (أوائل سنة ٦٢٧هـ) يخرج فى قواته من قشتالة متجهاً نحو أندوجر ، ثم يعبر نهر الوادى الكبير ، وهو أينما

(١) وهو بالإسبانية Alanje

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٣٧٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ ، والمقرى

فى نفع الطيب ج ٢ ص ٥٨٢ .

(٣) الحلة السيرة ص ٢٤٢ .

حل ينسف الزروع ، ويخرب القرى ، ويسبي الذرية ، واستمر في سيره نحو الجنوب حتى فحص غرناطة ، ثم عاد إلى الشمال ثانية . والظاهر أن هذه الغارة الأولى كانت عملاً استكشافياً ، لمعرفة ماقد يلقى الغزاة من مقاومة . ولما اخترق ابن هود عندئذ بقواته تلك المنطقة في طريقه إلى الغرب ، ظن القشتاليون أنه قدم لمحاربتهم ، ولكن ابن هود كان يقصد إلى إنجاد ماردة ، وألنى ملك قشتالة نفسه حرّاً في خططه وتحركاته ، وعندئذ اتجه فرناندو الثالث بقواته صوب مدينة جيّان الحصينة ، وهي أكبر قواعد تلك المنطقة ، وضرب حولها الحصار ، وذلك في أواخر يونيه سنة ١٢٣٠ م ، وقذفها بالحنانيق بشدة ، وحاول القشتاليون ، اقتحامها بكل الوسائل ، ولكن المدينة لبثت صامدة كالصخرة ، أولاً لمنعتها الفائقة ، وثانياً لوفرة المدافعين عنها ، وبعد حصار دام ثلاثة أشهر اضطر فرناندو أن يترك جيّان ، وأن يعود أدراجه . وماكاد يصل إلى قشتالة حتى علم بوفاة أبيه ألفونسو التاسع ملك ليون ، عقب عودته من افتتاح ماردة وبطليوس ، فاتجه مسرعاً إلى ليون ليجلس على عرشها مكان أبيه ، وبذا اتحدت قشتالة ، وليون مرة أخرى (١) .

وهكذا نجت القاعدة الإسلامية - جيّان - من السقوط إلى حين . ولكن ملك قشتالة ، عاد فبعث في العام التالي حملة غازية إلى الأندلس ، بقيادة أخيه الإنفانت ألفونسو ، فسارت من أندوجر ، وعانت في أنحاء قرطبة ، واستمرت في سيرها غرباً حتى أحواز إشبيلية ، ثم ارتدت بعد ذلك إلى شريش ، وهي تعيش أينما حلت قتلاً وتخريباً . وهنا تحرك ابن هود مرة أخرى ليرد الغزاة ، فسار في قوات كثيفة ، والتقى بالقشتاليين في فحص شريش ، ولكنه هزم مرة أخرى ، بالرغم من تفوقه في العدد ، وذلك في أواخر سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٣ م) . والظاهر أن القشتاليين كانوا يقصدون بهذه الغزوة ، أن يقطعوا صلة ابن هود بالثغور الجنوبية . وكان ابن هود قد افتتح الجزيرة الخضراء في سنة ٦٢٩ هـ ، ثم افتتح جبل طارق ، وفي نفس هذا العام دخلت سبتة في طاعته حسباً قدمنا ، ولكن ابن هود لبث بالرغم من هزيمته ، محتفظاً بسلطانه في القواعد والثغور الجنوبية . وماكاد فرناندو الثالث ينتهي من تنظيم الشئون الداخلية التي ترتبت على وفاة أبيه حتى تأهب لاستئناف الغزو . وكان بعد أن أخفق في الاستيلاء على جيّان ،

J. Gonzalez : Las Conquistas de Fernando III en Andalucía p: 62 & 63 (١)

يعتزم افتتاح مدينة أبتدة ، وكانت أيضاً من أمنع مدن هذه المنطقة وأوفرها سكاناً وأقواها حامية ، ولكن فرناندو صمم على أن يمضي في حصارها حتى ترغم على التسليم . واستمر حصار أبتدة من يناير حتى يولييه سنة ١٢٣٣م (أو آخر سنة ١٢٣٠هـ) فلما عذمت الأقوات ولم ترد أية نجدة من أى جهة ، اضطرت أبتدة إلى التسليم بالأمان ، على أن يؤمن سكانها في أنفسهم ، وأن يسمح لهم بأن ينقلوا من أموالهم ما يستطيعون حمله معهم ، وأن تضمن سلامتهم حتى يصلوا إلى الأراضي الإسلامية^(١) وفي نفس هذا العام ١٢٣٠هـ ، عقدت الهدنة بين ابن هود وملك قشتالة ، نظير ألف دينار يؤديها إليه ابن هود في كل يوم^(٢) . وكان ابن هود ، قد تكاثر عليه الحصوم ، بقيام منافسه ابن الأحمر في قطاع جيان ، وخروج بعض المدن ، ولاسيما إشبيلية عن طاعته وذلك حسبما انفصل في موضعه ، فرأى أن يتفرغ لمحاربتهم بعقد الهدنة مع النصارى .

— ٤ —

بينما كان ملك قشتالة ينزل ضرباته المتوالية بالأندلس الوسطى ، كان ملك أراجون خايمي الأول ، يقوم بأول غزواته الكبرى في الناحية الشرقية لشبه الجزيرة ، ونعني غزو الجزائر الشرقية .

كانت الجزائر الشرقية أوجزر البليار ، وهي ميورقة ومنورقة ويابسة ، وعدة جزائر صغيرة أخرى ، منذ افتتحها الموحدون من أيدي بني غانية في سنة ١١٠٠هـ ، يتعاقب في حكمها الولاة الموحدون ، وكانت تتبع ولاية بلنسية من الناحية الإدارية . ولما اضطرت الأندلس بالثورة على الموحدين ، كان على الجزائر واليهما أبو يحيى ابن يحيى بن أبي عمران التينملي . وكان رابع الولاة الموحدين ، مذ قام الموحدون بافتتاحها من أيدي بني غانية في سنة ١٢٠٣هـ (١٢٠٣م) ، ووليها منذ سنة ١٢٠٦هـ . وفي رواية أخرى هي رواية ابن عميرة المخزومي ، في كتابه « تاريخ ميورقة » ، أن أمير الجزائر كان عندئذ هو محمد بن علي بن موسى ، وأنه هو الذي وليها في سنة ١٢٠٦هـ^(٣) ولكننا نرجح الرواية الأولى ، لأن الرواية النصارانية المعاصرة

(١) البيان المغرب ص ٢٨٨ ، وكذلك : J. Gonzalez: ibid; p. 29 y nota (64)

(٢) البيان المغرب ص ٢٨٨ ، وروض القرطاس ص ١٨٣ .

(٣) المقرئ في فتح الطيب ج ٢ ص ٥٨٤ نقلاً عن تاريخ ميورقة للمخزومي ، وهو كتاب لم يصل إلينا . ويقول لنا ابن الخطيب في ترجمته للمخزومي إنه ألف كتاباً في « كائنة ميورقة » وتغلب الروم عليها . (الإحاطة ١٩٥٦ - ج ١ ص ١٨٤) .

ومنها تاريخ الملك خايي نفسه ، تردد اسم أبي يحيى كأمر للجزيرة^(١) . ويقص علينا المخزومي سبب غزو النصارى لميورقة ، أو مقدمات هذا الغزو في قوله ، إن والى ميورقة بعث طريدة بحرية ومعها سفينة حربية إلى جزيرة يابسة ، لتأني إليه ، بالأخشاب التي يحتاج إليها ، فعلم بأمرها والى طرطوشة النصراني ، فبعث إليها قوة بحرية استولت عليها ، فاستشاط الوالى لذلك غضباً ، واعتزم أن يغزو مياه بلاد الروم . حوئى أواخر سنة ٥٦٢٣ هـ (أوائل يناير سنة ١٢٢٥ م) ظهرت في مياه يابسة سفينة من برشلونة ، وأخرى من طرطوشة ، فبعث الوالى ولده في عدة قطع بحرية ، فرسى في مياه يابسة ، وألنى بها مركباً جنوية كبيرة فاستولى عليها ، ثم استولى على المركب البرشلونية . فلما وقف الروم على ذلك ، اضطرموا سخطاً ، وأهابوا بملكهم أن يقوم بغزو الجزيرة ، وعرضوا عليه أن يتطوعوا بانفسهم ، وأمواهم ، فأخذ عليهم العهد بذلك ، وحشد من أهل البلاد عشرين ألفاً ، وجهاز في البحر ستة عشر ألفاً آخرين ، وكان ذلك في أوائل سنة ٦٢٦ هـ^(٢) .

هذا ما يقوله المخزومي عن مقدمات غزو ميورقة . ولكن هذه المقدمات ترجع في الواقع إلى أسباب أقدم وأبعد مدى . فقد كان أمراء قطلونية ومعهم جمهوريتا بيزة وجنوة يتوقون دائماً إلى افتتاح هذه الجزائر ، ووضع حد لغزوات ولايتها المسلمين ، في مياه الشواطىء النصرانية ، وكان الكرسي الرسولى يشجع ويبارك كل مشروع لافتتاحها . وقد افتتحها النصارى بالفعل قبل ذلك بنحو قرن في سنة ٥٠٨ هـ (١١١٦ م) في أوائل العهد المرابطى ، واستعادها المرابطون على أثر ذلك . ولما استقل بنو غانية بالجزائر وقوى أمرهم ، كانت غزواتهم المتكررة ، لشواطىء الدول النصرانية القريبة ، تزعج هذه الدول ، وتحملها على مهادنة أصحاب الجزائر ، وعقد معاهدات السلم معهم . فلما افتتح الموحدون الجزائر من أيدي بنى غانية ، تجددت رغبة الدول النصرانية ، في انتزاع هذه الجزائر من أيدي المسلمين ، وكان أشدهم رغبة في ذلك مملكة أراجون ، التي كانت ترى من حقها الطبيعي ، أن تستولى على تلك الجزائر التي تواجه شواطئها ، وذلك تأميناً لمواصلاتها وتجارتها ، وكان بيدرو الثاني ملك أراجون قد فكر في افتتاح الجزائر بصفة جدية ، ولكن لم يتح له تحقيق أمنيته . فكان على ولده الملك الفتي

M.Lafuente : Historia General de Espana, T. IV. p. 77, Nota 2 (١)

(٢) فتح الطيب ج ٢ ص ٥٨٤ .

خامى الأول أن يحقق تلك الأمنية . وكان انهيار سلطان الموحدين فى شبه الجزيرة واضطرام أنحاء الأندلس بالفتنة ، وانتثار وحدتها وتفرق كلمتها مما يمهّد لاسبانيا النصرانية السبيل إلى تحقيق غايات الاسترداد La Reconquista بايسر أمر ، وانتزاع أشلاء الأندلس المهيضة المزقة ، وكان على أراجون وهى تسيطر على شرقى شبه الجزيرة ، أن تجتنى تراث شرقى الأندلس ، وكان الملك خامى حينما وفد عليه السيد أبو زيد الموحدى مطروداً من بلنسية فى أوائل سنة ٦٢٦ هـ ، يستعد بالفعل لافتتاح الجزائر ، وكان قد استدعى الكورتيس القطلونية فى برشلونة فى شهر ديسمبر سنة ١٢٢٨ م ، واقترح عليه أن يقوم بحملة عسكرية ضد ميورقة بغية افتتاحها ، وذلك لتأمين تجارة قطلونية فى البحر المتوسط ، فوافق الكورتيس على هذا الاقتراح ، ووافق على أن يقوم الملك بتحصيل ضريبة الماشية القرنية للمعاونة فى نفقات الحملة . وعرض أكابر الأحبار والرهبان ، أن يشتركوا فى الحملة بأنفسهم وبمن يحشدونه من الفرسان والجند ، كل وفق طاقته . وعرض أكابر الأشراف القطلان ، وفى مقدمتهم نونيو سانشز كونت روسيون ، وهوجو دى أمبرياس ، والأخان رامون وجلين دى مونكادا وغيرهم من الأكابر ، أن يشتركوا فى الحملة ، بحشود كبيرة من الفرسان والرماة والجند ، فقبل الملك هذه العروض ، وتعهد من جانبه بأن يقدم مائتى فارس من أهل أراجون بخيلهم وسلاحهم ، كما تعهد بتقسيم الأراضى المفتوحة ، والغنائم المكتسبة بالعدل ، والقسطاس ، بين المشتركين فى الحملة ، كل وفق ما تكبده من النفقات ، محفظاً لنفسه بالقصور والسيادة العليا على الحصون والقلاع . وأقسم الجميع على ذلك ، واتفقوا على الاجتماع فى طرطوشة بعد اتمام العدة ، فى شهر أغسطس من العام التالى^(١) .

وتم كل شئ وفق ما اتفق عليه . وفى اليوم الخامس من سبتمبر سنة ١٢٢٩ م (١٤ شوال سنة ٦٢٦ هـ) خرج الأسطول الأرجونى بحمل قوات ضخمة من ثغور سالو وطركونة وكامبريلس ، وكان مؤلفاً من مائة وخمسة وخمسين سفينة حربية وعدد من القطع الخفيفة ، التى يقودها بحارة مغامرون من الجنوين وغيرهم . وبلغ عدد المقاتلين ألفاً وخمسمائة من الفرسان وخمسة عشر ألفاً من المشاة ، هذا عدا حشود من المتطوعين من أهل چنوة وبروفانس وغيرهم . ودفعت الرياح العنيفة

السفن إلى وجهة غير التي كانت تقصدها ، ولكنها وصلت بعد جهد إلى خليج بلما ، وهو الخليج الذي تقع عليه مدينة ميورقة عاصمة الجزيرة ، وكان إلى الجزيرة أبو يحيى بن أبي عمران ، قد علم بأمر هذه الأهبة الضخمة التي اتخذها النصارى لفتح الجزيرة ، فاستعد من جانبه للدفاع ، واستطاع أن يحشد قوة مختارة من نحو ألف فارس ، ومن فرسان الرعية والحضر ألفاً أخرى ، ومن الرجال ثمانية عشر ألفاً ، بيد أنه اكتشف فيما يبدو ، مؤامرة لخلعه ، فقبض على أربعة من أكابر الأعيان ، وأمر بإعدامهم ، وكان منهم اثنان هما ابنا أخت أبي حفص بن سري وهو من ذوى المكانة والوجاهة ، فاجتمع الناس حوله ، وأبدوا سخطهم وتوجسهم مما حدث به ، وأمر الوالى بعد ذلك بالقبض على خمسين آخرين من الأشخاص البارزين ، وكان ذلك في منتصف شهر شوال ، وقد اضطرب الناس ، وكثر الإرجاف ، ولم يمحض على ذلك يومان أو ثلاثة حتى أقبلت سفن النصارى وظهرت ، فبادر أبو يحيى بالصفح عن خصومه ، وتأهبت الحشود لدفع النصارى^(١) . ولكن السفن النصرانية استطاعت أن تدخل مياه الخليج ليلاً ، وبمنتهى السرعة ، حتى أن القوات المسلمة التي أرسلت لردّها ، وهى مكونة من مائتى فارس وخمسة آلاف راجل لم تستطع شيئاً لمنعها .

وكان أول من نزل إلى البر قوة من سبعمائة من النصارى بقيادة برناردو دى ارختونا ، تحصنت باحدى التلال ، وتبعها فرقة من فرسان رامون دى مونكادا هاجمت الحملة الإسلامية المقابلة ، ففرقتها ، ثم نزل الفرسان القطلان وبعض طوائف الأرجونيين . وهنا وقعت أول معركة بين المسلمين والنصارى ، وكان المسلمون قد استجمعوا سائر قواتهم المرابطة على الشاطئ وانقضوا على الأرجونيين ، وحلفائهم بشدة ، فهزموهم هزيمة شديدة ، وقتل منهم عدد من الأشراف ، والفرسان القطلان ، وفى مقدمتهم جلين دى مونكادا ، وأخوه رامون ، وهرعت أمداد من النصارى لإنجاد المهزومين .

وعندئذ ضرب النصارى الحصار حول مدينة ميورقة ، وأخذوا يضربونها بمختلف الآلات بشدة ، ورد المسلمون على ذلك ، بأن دفعوا قوة منهم حاولت أن تقطع مورد المياه الذى يمد الحملة النصرانية من الجبل ، فهاجمها النصارى وقتلوا عدداً منها ، وألقوا ببعض رؤوسهم إلى داخل المدينة ، على أن الدفاع عن المدينة ،

(١) المقرئ فى فتح الطيب نقلًا عن الخزوى ج ٢ ص ٥٨٤ .

لم يكن لسوء الطالع محكماً ، وكان الخلاف يسود بين المدافعين . وكان كثير من الحند الساخطين يتسربون إلى المعسكر النصراني . وأخيراً استطاع النصارى أن يقتربوا من الأسوار ، وأن يحطموا أربعة من الأبراج . ورأى الوالى أبو يحيى أن الوقت قد حان للمفاوضة فى تسليم المدينة ، فبعث إلى الملك خايى على يد دون نونيو سانشيز ، أحد أقطاب الحملة ، يعاونه يهودى من سرقسطة يسمى باشول كان يعرف العربية ، يعرض أن يدفع ثمناً لانسحاب ملك أراجون ، وذلك بأن يؤدى إليه سائر نفقات الحملة ، مذ خرجت من ثغر طركونة إلى يوم انسحابها ، على أن لا تترك فى الجزيرة حامية نصرانية ، ولكنه لما علم أن ملك أراجون يصير كل الإصرار على أخذ المدينة ، بعث إليه يعرض تسليم المدينة على أن يسمح له بالخروج إلى المغرب مع أهله وحشمه وأمواله ، وأن تترك له السفن التى تحمله إلى شاطئ إفريقيا ، وأن يبقى فى الجزيرة من شاء من أهلها المسلمين . ولكن الملك خايى رفض هذا العرض أيضاً ، تحت ضغط الزعماء القطلان . لأنهم كانوا يريدون الانتقام لآل مونكادا ، والاستيلاء على غنائم المدينة وثرواتها .

وعندئذ عول أبو يحيى على أن يدافع دفاع اليأس ، وعول النصارى من جانبهم على مهاجمة المدينة واقتحامها . وفى يوم ٣٠ ديسمبر سنة ١٢٢٩ م ، استعد الجيش النصراني للهجوم ، واستمع الحند للقداس ، وعند الفجر بدأوا الهجوم وأحدثوا ثلماً فى السور ، وانشالوا إلى المدينة فى طوائف متعاقبة من ناحية باب الكحل ، فلقبهم المسلمون فى داخلها ، واضطرم بين الفريقين فى الميادين والشوارع قتال عنيف ، وكان الوالى أبو يحيى على رأس جنده ممتطياً صهوة جواده الأبيض ، وهو يحثهم على الثبات ، ودخل الملك خايى أمام جنده المدينة ، وهو شاهر سيفه . ولم يمض سوى قليل حتى ظهر التفكك فى صفوف المسلمين ، وأخذوا يفرون من باب بورتين ، وباب برتوليت ، وفى سائر النواحي ، والنصارى فى أثرهم يمعنون فيهم قتلاً ، وتقدر الرواية الإسلامية من قتل من المسلمين خلال هذه المعركة الدموية بأربعة وعشرين ألفاً^(١) . وفر منهم إلى الجبال نحو ثلاثين ألفاً ، وأسر الوالى أبو يحيى وولده ، واستولى النصارى على ميورقة فى مناظر مروعة من السفك . وكان استيلاؤهم عليها فى يوم الاثنين ٣١ ديسمبر سنة ١٢٢٩ ،

وهو يوافق بالهجرية الثالث عشر من شهر صفر سنة ٦٢٧هـ^(١).

وتتفق التواريخ النصرانية على روعة المذبحة الى وقعت عند دخول النصارى ميورقة ، ويقدر بعضهم من هلك فيها من المسلمين بثلاثين ألفاً ، والبعض الآخر بخمسين ألفاً . بيد أنه يبدو أن ذلك مبالغ فيه^(٢).

ودخل الملك خايمي الأول ، قصر المدينة ، وهو قصر الولاة المسلمين ، وأتى بالوالى أبى يحيى ، وأمر بتعذيبه ، واستمر تحت العذاب خمسة وأربعين يوماً حتى توفى . وأما ابنه وكان صبيّاً فى الثالثة عشرة ، فتقول لنا الرواية النصرانية إنه نُصِرَ ومضى بدون خايمي^(٣).

على أن المعركة لم تكن قد انتهت بعد ، فإن أبا حفص بن سبى ، وهو الزعيم الذى أُشير إليه فيما تقدم ، لما رأى هزيمة المسلمين ، وسقوط المدينة فى أيدي النصارى ، خرج إلى الجبل ، وتبعته طوائف كبيرة من الفارين ، واجتمع له منهم عدة آلاف مقاتل ، واعتزم المقاومة إلى النهاية ، فلم تمض سوى أيام قلائل حتى خرج إليه الملك خايمي فى بعض قواته ، ومعه فرسان من القطلان ، واستمرت هذه القوة فى مطاردة المسلمين ، والاشتباك معهم فى معارك متوالية ، حتى قضت فى النهاية على حشودهم ، وقتل قائدهم ابن سبى وذلك فى اليوم العاشر من ربيع الآخر سنة ٦٢٨هـ (١٣ فبراير ١٢٣١ م) أى لأكثر من عام من سقوط المدينة ، وتم كذلك استيلاء النصارى على ما تخلف من المعازل والحصون وذلك فى شهر رجب من نفس العام^(٤).

وهكذا فقد المسلمون جزيرة ميورقة الغنية الزاهرة كبرى الجزائر الشرقية ، بعد أن حكموها أكثر من خمسة قرون ، وكان لافتتاحها وقع عميق فى الأمم البحرية النصرانية ، فى غربى البحر المتوسط ، واستقبل فيها بمنتهى الغبطة والرضى . بيد أنه لم يحدث كبير صدى فى الأندلس ، حيث كانت المعارك الأهلية الصغيرة

(١) ابن الأبار فى التكملة (القاهرة) الترجمة ٤٠٠ و ٦٣١ ، وهو يجعل يوم الاثنين يوافق ١٤ صفر ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ ، والروض المطار ص ١٩١ ، وكذلك ؛ Campaner y Fuertes: Bosquejo Historico de la Dominación Islamita en las Islas Baleares (Palma 1888). p. 179-186

Campaner y Fuertes : ibid; p. 188 (٢)

M. Lafuente : ibid; T. IV. p. 79, Nota I (٣)

(٤) نفع الطيب ج ٢ ص ٥٨٥ .

تستغرق كل اهتمام . وعاد الملك خايمي إلى أراجون مكللا بغار الظفر ، بعد أن قضى في غزوته زهاء خمسة عشر شهرا ، ولقب من ذلك التاريخ « بالفاتح » .

وعاد خايمي بعد ذلك إلى ميورقة أولا في أواخر سنة ١٢٣١ م ، حينما نمي إليه أن أمير إفريقية الحفصى ينوى أن يبعث بحملة لاسترداد الجزيرة ، وقام عندئذ بإخضاع عدد من المعازل الجبلية ، التي كانت ما زالت قائمة بالمقاومة ، وعقد مع بعض الزعماء المسلمين الأقوياء في الأنحاء الجبلية بعض عهود واتفاقات ، ثم عاد إلى الجزيرة مرة أخرى في صيف سنة ١٢٣٢ م ، واستطاع عندئذ أن يقوم بالقضاء على أعمال العصيان والمقاومة الأخيرة . على أن أهم ما قام به خايمي يومئذ ، هو تقسيم أراضي الجزيرة وأحياء ميورقة ودورها بين الزعماء الفاتحين ، وفقاً للعهد الذى قطعه على نفسه بذلك ، وتم ذلك على يد هيئة من الأحرار والأكابر . وكتب بهذا التقسيم كتاب باللغات اللاتينية ، والقطلانية ، والعربية ، اشتهر « بكتاب التقسيم » El Libro del Repartimiento وقام بتحريه في أول يولييه سنة ١٢٣٢ الكاتب الموثق بيدرو رومينو . وما زال هذا الكتاب يحفظ حتى اليوم في دار المحفوظات ببلدية ميورقة ، وقد اطلعنا عليه خلال زيارتنا لميورقة (١) .

وكان من الواضح أن مصير باقى الجزائر بعد سقوط ميورقة ، قد بت فيه وأضحى رهن مشيئة الفاتحين . فأما جزيرة يابسة Ibiza وهى صغرى الجزائر الثلاثة الكبيرة ، وهى تقع جنوب غربى ميورقة ، فقد نزل بها الأرجونيون في سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) ، فقاومهم أهلها المسلمون ، واستمر الصراع بين الفريقين نحو خمسة أشهر ، وانتهى بتسليم المسلمين ، واستيلاء الأرجونيين على الجزيرة (٢) . واستولى النصارى في نفس الوقت على جزيرة فرمتيرا الصغيرة الواقعة على مقربة من جنوبى يابسة وكانت خالية ليس بها أحد من المسلمين . هذا فيما يختص بميورقة كبرى الجزائر الشرقية وزميلتها يابسة . وأما جزيرة منورقة أو منرقة الواقعة في شرق ميورقة ، وهى ثانى الجزائر من حيث الحجم ، فقد استمرت حقبة أخرى تحت الحكم الإسلامى . ذلك أن واليها الرئيس أبا عثمان

(١) حصلنا على نسخة مصورة من هذا المخطوط الذى يتكون من كراسة كبيرة مستطيلة ، تضم تسع ورقات حجمها نحو ٣٠ في ١٥ سننى . وامام كل صفحة من صفحاته العربية مقابلها باللاتينية ، والقطلانية . راجع وصف الكتاب وبعض نصوصه في كتابنا « الآثار الأندلسية الباقية » (الطبعة الثانية ص ١٣٣ - ١٣٦) .
(٢) روض القرطاس ص ١٨٣ .

سعيد بن حكم الأموي، وهو من أهل طبرية من غربي الأندلس، كان رجلاً طموحاً وتجول في شبابه في أنحاء الأندلس وإفريقية، ثم دخل منقة في سنة ٦٢٤ هـ، واشتغل بها مشرفاً على شئون الحباية والأجناد، ثم ظفر برياستها لما اضطربت الأحوال، وتقلص سلطان الموحيدين، فوليا من قبل أبي يحيى، وضبط شئونها بهمة وبراعة وذلك منذ سنة ٦٣١ هـ، وكان عالماً محدثاً، ونحويّاً أدبياً يجيد النثر وينظم الشعر مع مشاركة طيبة في علم الطب، يجتذب إليه العلماء من كل صوب، ويفتدى منهم من يقع في أسر العدو، وكان ورعاً حريصاً على تنفيذ أحكام الشريعة، وكان يلقب بالرئيس، فصلحت أحوال الجزيرة في عهده، وعمها الرخاء والأمن. ولما استولى الملك خايي على جزيرة ميورقة، رأى أبو عثمان أن يبادر بالتفاهم مع النصاري، فاعترف بطاعة الملك خايي، على أن يؤدي له جزية سنوية، وأن يسلم إليه حصن تيوداديللا وذلك على أن لا يدخل الجزيرة أحد من النصاري. وهكذا ترك أبو عثمان وشأنه، فلبث على رياسته للجزيرة زهاء نصف قرن آخر، وضبط شئونها بحزم، وسار في الناس أعدل سيرة، واستقام أمر الجزيرة على يديه، وهابه جيرانه من النصاري، وكان يقصده الناس والعلماء والطلاب من سائر أنحاء الأندلس والمغرب، ويتردد عليه التجار، فيشمل الجميع ببره، ورفقه وأنسه. وكان شغوفاً بجمع الكتب، حتى اجتمع له منها ما لا نظير له كثرة وجودة وندرة، ومن شعره قوله في الخض على الجود:

لا تمنع المعروف يوماً معرضاً ومعرضاً كلاهما من حقه فيه له أن يعرضاً
هذا تنزهه فاستحق على نزاهته الرضا والآخر استحقا من التصريح فيه فعرضاً

وتوفي سعيد بن حكم في رمضان سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م)، فخلفه في حكم الجزيرة، ولده أبو عمر حكم بن سعيد، وكان مثل أبيه أدبياً وعالماً، ولكن أمد حكمه لم يطل، لأن النصاري رأوا أخيراً أن ينتزعوا منورقة من أيدي المسلمين، فقام الأرجونيون بافتتاحها في سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) وأجلى عنها المسلمون، وانتهى بذلك أمر الإسلام بالجزائر الشرقية، وغادر أبو عمر الجزيرة ومعه أهله ورفات أبيه، وسار أولاً إلى سبتة، ثم قصد إلى تونس، ففرق في البحر هو وآله^(١).

(١) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٥٥، والروض المعطار ص ١٨٥، وابن الخطيب في أعمال الأعلام ص ٢٧٥ - ٢٧٧. وقد أورد ابن عبد الملك في التكملة ترجمة ضافية لسعيد بن حكم (مخطوط الإسكوريال ١٦٨٢ الغزيري لوحة ١٩ - ١٠ ب).

الفصل الثاني

ابن هود وابن الأحمر

وسقوط قرطبة

تقدم دعوة ابن هود . صراعه ضد القشتاليين . رفعه للشعار الأسود ومطالبته بمرسوم الخليفة العباسي . وصول المرسوم وقراءته وهو بغرناطة . محتويات هذا المرسوم . ابن هود أمير الأندلس الشرعى . مدى امتداد سلطانه . اختياره لولده أبى بكر لولاية العهد . رسالته إلى أهل شاطبة بذلك . توجس ابن هود من حركة ابن الأحمر . قيام محمد بن يوسف بن الأحمر فى أواسط الأندلس . نشأته وقومه بنونصر . قيام دعوته فى أرجونة وجيان وبسطة ووداي آش . دعوته لأبى زكريا الحفص ثم للخليفة العباسي . تأهب ابن هود لمقاومته . تحالف ابن الأحمر مع الباجي زعيم إشبيلية انقتال بين ابن هود وابن الأحمر . انتصار ابن الأحمر ودخوله إشبيلية . مصرع الباجي وثورة أهل إشبيلية بابن الأحمر . عودهم لطاعة ابن هود . عقد السلم بين الزعيمين . اعتراف ابن الأحمر بطاعة ابن هود . قيام ابن شعيب بلبلة . فشل ابن هود فى محاصرته . غزو ملك قشتالة لمنطقة جيان . تجديد الهدنة بين ابن هود وملك قشتالة . شروط هذه الهدنة . افتتاح القشتاليين لحصن الأطراف وعدة حصون أخرى . طموح ملك قشتالة إلى افتتاح قرطبة . قرطبة واضطر أب أحوالها عندئذ . غزو الفرسان القشتاليين لشرق قرطبة . اقتحامهم للمنطقة الشرقية . اختلاف الرواية فى ظروف هذا الحادث . احتلال النصارى لبعض الأبراج . ما تقوله الرواية الإسلامية فى ذلك . إسراع قوات الخلود لإنجاد النصارى . اهتمام فرناندو الثالث بالحادث . مسيره فى الحال إلى قرطبة . تضخم الحشود النصرانية تحت أسوار قرطبة . موقف القرطبيين الحرج . إسراع ابن هود بقواته نحو قرطبة . إحجامه عن إنجاد المدينة . اختلاف الرواية فى أسباب هذا الإحجام . رواية نصرانية عن ذلك ، رواية إسلامية عن تجديد الهدنة بين ابن هود وملك قشتالة . اشتداد فرناندو الثالث فى محاصرة المدينة . اضطراب أهل المدينة إلى المفاوضة فى التسليم . شروط هذا التسليم وظروفه . قبول فرناندو الثالث . إنجاز الرواية الإسلامية فى ذلك . ما تقوله الرواية النصرانية عن مغادرة المسلمين لمدينتهم . دخول القشتاليين قرطبة . رفع الصليب على صومعة جامعها . دخول فرناندو الثالث المدينة ومثوله فى الجامع . إقامة قداس الشكر . نزع رؤوس الثريات القديمة وردها إلى شنت ياقب . تأملات عن سقوط قرطبة . كتاب ابن هود إلى عماله . مسيره إلى ثغر ألمرية . واليا أبو يحيى الرميى ودعوته لابن هود . بواعث مقدم ابن هود إلى ألمرية . رواية إسلامية عن ذلك . غدر الرميى بابن هود ومصرعه . تأملات عن ثورة ابن هود وحركته . سياسته وخلاله . مبايعة ولده أبى بكر بمصرية . صدق وفاته فى إشبيلية . عودها إلى طاعة الموحدين . سبته تحذو حنوها . استيلاء ابن الأحمر على غرناطة . مسيره إلى ألمرية ومحاصرتها . فرار الرميى والتجاء إلى إفريقية . دخول ألمرية فى طاعة ابن الأحمر . دخول مالقة فى طاعته . اجتماع بقايا الأندلس فى مملكة غرناطة . تغدو مستودعا لثراث الأندلس . دعاء ابن الأحمر للخلافة الموحدية ، ثم لأمير إفريقية الحفصى . غزو القشتاليين لمنطقة جيان . استيلاؤهم

على أرجونة وغيرها . فشلهم في محاصرة جيان . ابن الأحمر يعقد الصلح مع ملك قشتالة . شروط هذا الصلح . ماخسرت الأندلس من جراته . اعترف ابن الأحمر بطاعة قشتالة . استيلاء ملك قشتالة على إشبيلية . ابن الأحمر يختار ولي عهده . النزاع بين ابن الأحمر وبين صاحب سبتة . مسير ابن الأحمر إلى إشبيلية لتجديد الصلح مع ملك قشتالة . شعوره بنية الغدر والخيانة ومفادته للمدينة . عود ملك قشتالة لغزو الأندلس . صدى محنة الأندلس في الغرب . النجدة الأولى من عسكر بنى مرين . إغارة القشتاليين على غرناطة . اضطراب ابن الأحمر إلى تجديد الهدنة مع ألفونسو العاشر . خسائر جديدة للأندلس . رثاء أبي الطيب الرندى للقواعد الذاهبة . وفاة ابن الأحمر . بعض صفاته وخلاله .

تركنا محمد بن يوسف بن هود ، المتوكل على الله ، وقد اعترفت بطاعته ، عدا مرسية ، مطلع ثورته ، ومهد حركته ، شاطبة ، وجيان ، وغرناطة ، ومالقه ، وألمرية ، ثم إشبيلية قاعدة الحكم الموحدى . وشعر ابن هود بحق أنه بانهايا الحكم الموحدى ، واجتماع معظم قواعد الأندلس تحت طاعته ، قد غدا زعيم الأندلس الحقيقى ، وقائد حركتها التحريرية ، والمسئول عن حمايتها والذود عنها ضد النصارى ، وفي ظل هذا الشعار سار ابن هود لإنجاد ماردة ، حينما دهمها الليونيون ، ولكنه هزم في المعركة التى نشبت بينه وبينهم ، وسقطت ماردة وبطليوس ، فى أيدي النصارى (٦٢٧ هـ) . واستولى ابن هود على الجزيرة الخضراء ، وجبل الفتح ، من أيدي الموحدين فى سنة ٦٢٩ هـ ، وكان استيلاؤه عليهما بمعاونة السيد أبى عمران موسى والى سبتة ، وأخى الخليفة المأمون عندما ثار على أخيه ، ودعا بالخلافة لنفسه ؛ ونزل السيد أبو عمران فى نفس الوقت لابن هود عن سبتة ، وحكمها نائبه الغشتى حينما حسبما تقدم ذكره ، ثم خاض ابن هود وهو عائد إلى الشمال ، فى أواخر هذا العام ، مع القشتاليين وعلى مقربة من وادى آش ، معركة هزم فيها القشتاليون وقتل معظمهم (١) ، ولكنه عاد فاشتبك مع القشتاليين فى العام التالى ، على مقربة من شريش ، فى معركة هزم فيها ، ورأى على أثر ذلك أن يعقد الهدنة مع القشتاليين ، وذلك فى أواخر سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٣ م) وذلك حسبما فصلناه من قبل فى موضعه .

وكان ابن هود قد رأى منذ البداية ، أن يستظل بلواء الدولة العباسية ، فرفع الشعار الأسود ، ودعا للخليفة المستنصر بالله العباسى ، وبعث إليه ببغداد يطلب المرسوم والخلع الخلافة ، فبعث إليه المستنصر بالمرسوم والخلع والرايات ،

وحملها من بغداد إلى الأندلس، مبعوث الخليفة أبو علي حسن بن علي بن حسن الكردى الملقب بالكمال، وتلقاها ابن هود في سنة ٦٣٠ هـ، وهو يومئذ بغرناطة، فقرأ المرسوم على الناس بمصلى العيد، وقد اجتمعوا لطلب الغيث والاستسقاء وابن هود يرتدى السواد، والراية السوداء بين يديه^(١)، ومن حسن التوفيق أن نزل المطر على أثره على ذلك، فاستبشر الناس، وكان يوماً مشهوداً.

وقد نقل إلينا ابن الخطيب نص هذا المرسوم الخلفائي، وفيه يسبغ الخليفة على ابن هود، لقب المتوكل على الله، الذي اختاره لنفسه، ومما جاء فيه بعد الديباجة، وبعد الإشادة بالخليفة المستنصر وعهده:

«ولما انتهى إلى علومه الشريفة (أى المستنصر) زادها الله شرفاً وقُدساً، ما عليه مجاهد الدين، محمد بن يوسف بن هود، من سلوك سنن الطاعة المؤسس بنيانها على تقوى من الله ورضوان، والتزام شروط الولاء، الذى هو علامة متانة الدين وكمال الإيمان، والتصدى لمقارعة الناكثين عن محجه الحق والهدى، والتجرد لمراقبة من حاد عن السنة والإجماع، اللذين بهما يسترشد ويهتدى، اقتضت آراؤه الشريفة، المقدسة النبوية الإمامية الظاهرة، الزكية الممجدة، المعظمة المكرمة، المستنصرية، زادها الله جلالاً متألّق الأنوار، وشرفاً رفيع المنار، واقتداراً تجوب جياذه جنوب الآفاق والأقطار، أن يقلده أمر جزيرة الأندلس ومايجرى معها من الولايات والبلاد، ويسوغه مايفتحه من ممالك أهل الشرك والعناد، تقليداً صحيحاً شرعياً، وتسويغاً صريحاً إمامياً، وإنعاماً يصفو عليه لباس فخاره الفضفاض، وتصفو لديه موارد مواهبه النيرة الحياض.

وقد أمره — صلوات الله عليه — بأوامر تهديه إلى سبيل الرشاد، وتحظيه برضى الله الذى هو أنفع الذخائر فى الدنيا ويوم يقوم الإشهاد، وماتوفيق أمير المؤمنين إلا بالله، عليه يتوكل واليه ينيب».

وبلى ذلك ما يسديه الخليفة إلى ابن هود من نصائح، تتلخص فى وجوب تمسكه بتقوى الله، وبأن يجعل كتاب الله مناراً يرجع إليه فى حل المشكلات، وأن يعمل بسنة نبيه، وأن يكثر من مجالسة الفقهاء والعلماء، ومشاورة العقلاء

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩، وابن الخطيب فى أعمال الأعلام ص ٢٨٠. ويقول ابن عذارى إن وصول مرسوم الخليفة كان فى سنة ٦٢٩ هـ (البيان المغرب ص ٢٧٦)، ولكننا نرجح الرواية الأولى.

الألباء ، وأن يحسن السيرة في رعيته ، وأن يعنى بمجاهدة الكفار ، وفقاً لما أمر الله في كتابه . ثم يختم الكتاب بتلقيب ابن هود بالألقاب الآتية : « الأمير ، الأصفهصلار الكبير ، الأجل ، الم رابط ، المشاغر ، الغازى ، مجاهد الدين ، مجد الإسلام ، جمال الأنام ، نجم الدولة ، عز الملة ، معين الأمة ، فخر الملوك ، قانع المشركين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، زعيم الجيوش ، شرف الأمراء ، تاج الخواص ، أطال الله بقاءه ، وأدام علوه ونعمته » (١) .

وهكذا غدا ابن هود أمير الأندلس الشرعى ، وتوجت زعامته بشعار الخلافة العباسية ، حسبما كان عليه الم رابطون أيام دولتهم وحكمهم للأندلس . وكان سلطان ابن هود يمتد يومئذ في شرق الأندلس من الجزيرة وشاطبة حتى ألمرية جنوباً ، وفيما بين ألمرية ، والجزيرة الخضراء ، وفي وسط الأندلس ، فيما بين قرطبة وغرناطة ، ولم يخرج عن سلطانه من القواعد الكبرى ، سوى بلنسية في شرق الأندلس ، وجيان في وسطها ، وإشبيلية في غربها . وكانت إشبيلية قد دانت بطاعته ، وولى عليها أخاه عماد الدولة حسبما تقدم ، ولكن لم يمض طويل على ذلك ، حتى نكث أهل إشبيلية ببيعهم ، وأخرجوا منها عماد الدولة ، والتفوا حول زعيم جديد هو القاضي أبو مروان أحمد بن محمد الباجى ، فاعتذر عن قبول الولاية أولاً ، ولبت حيناً على قاعدة الشورى ، ثم تقلد الولاية ، وبسط سلطانه على إشبيلية وقرمونة . وكان ذلك في سنة ٦٢٩ هـ (٢) .

وعمد ابن هود على أثر تلقيه المرسوم الخلفى بالولاية ، إلى اختيار ولده أبى بكر محمد لولاية عهده ، ولقبه بالوائى بالله ، المعتصم به . وقد وقفنا على رسالة في ذلك مديحة بقلم أبى عبد الله بن الحنان ، عن لسان ابن هود وموجهة منه إلى أهل شاطبة يبلغهم فيها ذلك الاختيار ، وفيها ينعت نفسه « بمجاهد الدين ، سيف أمير المؤمنين ، عبد الله المتوكل عليه ، أمير المسلمين محمد بن يوسف بن هود » ويخاطب الفقهاء والوزراء والقواد والأعيان والوجوه والنهء والكافة « بشاطبة وجهاتها ، وما انضاف إليها من جهة بيران ودانية ، وذلك من حضرتنا بمرسية » . ثم يعرب فيها ، بعد الدعاء للنبي وللخليفة المستنصر بالله ، عن محبته لهم ، ويعلن

(١) يراجع نص المرسوم في أعمال الإعلام ص ٢٨٠ - ٢٨٦ ، ونشر البيان المغرب بعض فقراته ص ٢٧٧ و ٢٧٨ .

(٢) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٧٨ و ٢٧٩ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ .

إليه أنه اختار : « ولي عهدنا ، المتولى لأمر المسلمين من بعدنا ، ابننا الأمير الموفق المبارك الميسون السعيد الرشيد ، الواصل بالله ، المعتصم به ، أبا بكر محمدًا ، أدام الله توفيقه ، ومنحه لإنجاده وعضده وإسعاده ، وتملكه جميع أمورها ، وكافة حواضرها وثغورها ، وتقدمه فيها في بلاد هي منشأه ومشيتته ومبدأه » ، وأنه يوايه « جميع أقطار المشرق ، وبلادها ، وأغواره وأنجاده ، تولية عامة في حياتنا ، مع أنه المتولى بحكم العهد الذي ارتضينا له لكل ممالكنا وطاعاتنا ، وخصصنا هذه البلاد الشرقية ، حاطها الله تعالى بتقدمه فيها » (١) .

وكان مما يوطد مركز ابن هود ، ويدعم زعامته وهيبته ، هو تجرده لمحاربة النصارى ، وما يخوضه معهم من معارك متوالية ، وإذا كان ابن هود قد انتهى بأن عقد الهدنة ، مع ملك قشتالة ، نظير إتاوة يؤدها إليه ، فإن ذلك لم يكن إلا نزولاً منه على حكم الظروف ، لكي يتفرغ لمقارعة خصومه ومنافسيه .

- ١ -

على أن ابن هود لم يكن منفرداً برياسة الأندلس ، ولو أتيح له هذا الانفراد بالرياسة ، لكان من المرجح أن يكون له في قيادة الأندلس شأن آخر ، وقد رأينا فيما تقدم ، أنه في الوقت الذي قام فيه بمرسية ، كان له في شرقي الأندلس ، منافس آخر ، هو أبو جميل زيان بن مردنيش القائم في بانسية . بيد أن هذه المنافسة المحلية في الشرق ، لم تكن مما يضايق ابن هود أو يهدد زعامته ، وإنما كان يتوجس ابن هود ويخشى من قيام زعيم آخر ، أخذ نجمه يبرز في أواسط الأندلس وجنوبها بسرعة ، ويظفر بطاعة قاعدة بعد أخرى ، ولم يكن هذا الزعيم الأندلسي الجديد ، سوى محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس النصرى المعروف بابن الأحمر . وكان بنو نصر هؤلاء ، وهم يرجعون نسبهم إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج ، في الأصل سادة حصن أرجونة ، الواقع على مقربة من نهر الوادى الكبير ، ومن أعمال ولاية جيان . وكان لبني نصر في تلك المنطقة عصبية ووجاهة مؤثرة ، فلما اضطربت الأمور ، وانهار سلطان الموحدين بالأندلس ، وظهر ابن هود في الشرق ، وأخذ سلطانه يمتد نحو الجنوب ، لاحت لمحمد بن يوسف فرصة للظهور والعمل ، وكان هذا الزعيم المتواضع الموهوب معاً ،

(١) وردت هذه الرسالة في كتاب « زواهر الفكر » الذى سبقت الإشارة إليه (مخطوط الإسكوريال رقم ٥٢٠ الفزيرى ، و٥١٨ ديرنبور) .

يضطرم بكثير من الشجاعة والإقدام والعزم ، فدعا لنفسه وبويع أولا في أرجونة موطن أسرته ومثوى عصبيته وأنصاره ، وفي الجهات المجاورة لها ، وذلك في سنة ٦٢٩هـ . وفي العام التالي ، دخل مدينة جيان وبويع بها ، ثم أطاعته بسطة ، ووادی آش ؛ وهكذا قوى أمره وامتد سلطانه بسرعة إلى أنحاء الأندلس الوسطى وأخذ يتطاع إلى الاستيلاء على القواعد الجنوبية . وكان ابن الأحمر ، يرى منذ البداية ، أن يستظل بلواء سلطة إسلامية مرموقة . فدعا أولا للأمير أبي زكريا الحفصي صاحب إفريقية ، وتلقى منه بعض العون ، ولكنه عاد ، فدعا على نمط ابن هود للخليفة العباسي ، المستنصر بالله^(١) .

ولم يلبث ابن هود أن شعر بخطورة هذه الحركة ، التي يضطلع بها منافسه الحديد ، في المناطق الوسطى والجنوبية ، ومن ثم فقد اعترم أن يتأهب لمقارعته والقضاء على حركته ، ولم يكن يخاف أيضاً على ابن الأحمر خطورة ، المعركة التي يجب عليه أن يخوضها مع ابن هود ، لكي تخلص له رئاسة الأندلس ، ومن ثم فقد أخذ من جانبه يتأهب لخوضها ، وكان عقد ابن هود للهدنة ، مع القشتاليين ، يرجع قبل كل شيء إلى رغبته في التفرغ لهذه المعركة الداخلية . ومن جهة أخرى فقد اتجه ابن الأحمر إلى العمل على تقوية جانبه ، بالتفاهم مع أبي مروان أحمد ابن محمد الباجي المتغلب على إشبيلية ، وذلك بأن عقد معه حلفاً ، وصاهره على ابنته ، واتفق الاثنان على مقاومة ابن هود ومحاربته .

وتأهب الفريقان للحرب ، وحشد كل منهما ما استطاع من قواته ، والتقيا على مقربة من إشبيلية ، ووقعت بينهما معركة ، كانت الهزيمة فيها على ابن هود ، وكان النصر لابن الأحمر وحليفه الباجي ، وكان وقوعها في أوائل سنة ٦٣١هـ (١٢٣٣ م)^(٢) . ودخل ابن الأحمر إشبيلية بعد ذلك بقليل ، وهو يضم الغدر بحليفه وصهره الباجي ، ولم يلبث أن دس عليه أحد أصحابه من بني أشقيلولة فقتله وذلك في جمادى الأولى من نفس العام ، وبادر ابن الأحمر فاحتل القصبة ، وحاول أن يبسط سلطانه على المدينة ، ولكنه لم يلبث فيها سوى شهر ، وثار به أهل إشبيلية ، وأخرجوه من القصبة ومن المدينة ، عنوة ، ثم عادوا فدعوا

(١) البيان المغرب ص ٢٧٩ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧٠ . وراجع كتابي « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين » الطبعة الثانية ص ٣١ و ٣٢ .

(٢) روض القرطاس ص ١٨٣ .

لابن هود ، وبعث إليهم ابن هود أخاه سالماً عماد الدولة ليضطلع بولاية إشبيلية مرة أخرى ، والظاهر مما يقوله ابن عذارى أنه قد وقع لابن الأحمر بقرطبة ، مثلما وقع بإشبيلية ، وأن أهل قرطبة ، كانوا قد بايعوه في بداية أمره ، فلما رأوا فعلته بالباجي ، وما ترتب عليها من إخراجهم من إشبيلية ، نكثوا ببيعته وخلعوا طاعته وعادوا إلى طاعة ابن هود^(١) .

وحدث عندئذ حادث لم يكن متوقعاً ، هو عقد الهدنة والصلح بين ابن هود وابن الأحمر . وذلك أن كلا الزعيمين ، أدرك فيما يبدو ، خطر الحرب الأهلية الانتحارية ، التي يخوضها كل منهما ضد صاحبه ، وأنه لن يستفيد من هذا الصراع الأخوي المولم ، سوى ملك قشتالة ، المتربص بهما معاً ، فتفاهما ، وعقد الصلح بينهما ، وذلك في شوال سنة ٦٣١ هـ (يونيه ١٢٣٤ م) ، وذلك على أن يعترف ابن الأحمر بطاعة ابن هود ، وعلى أن يقره ابن هود في ولاية جيان وأرجونة ، وبركونة وأحوازها . ويقول لنا ابن خلدون من جهة أخرى ، إن اعتراف ابن الأحمر بطاعة ابن هود ، وقع على أثر وصول العهد الخلافي من بغداد لابن هود وذلك في سنة ٦٣١ هـ^(٢) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى ثار بمدينة لبلة في سنة ٦٣٢ هـ ، وهي من أعمال إشبيلية ، قاضيا شعيب بن محمد بن محفوظ ودعا لنفسه ، وتسمى بالمعتمصم ، فسار ابن هود لقتاله ، فامتنع بمدينة ، وهي ذات موقع طبيعي حصين وأسوار عالية ، فحاصرها ابن هود واستمر على محاصرتها حيناً ، وهي صامدة ممتنعة عليه^(٣) .

وقد كان سير الحوادث في الواقع يدعو إلى عقد مثل هذا التهادن بين الزعيمين المتنافسين . ذلك أن ابن هود ، علم وهو على حصار لبلة ، بأن ملك قشتالة قد خرج في قواته صوب الأندلس ، يريد محاربته ، ولكن فرناندو الثالث ، انحرف بقواته نحو منطقة جيان التي يسيطر عليها ابن الأحمر ، وأخذ يعيث في أحواز أرجونة ، وجيان ، وترك ابن هود حصار لبلة ، دون أن ينال منها مأرباً ، ليعود إلى أراضيه ، وهنالك فيما بين إشبيلية وقرطبة وفد إليه سفير فرناندو ،

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٧٩ و ٣٢٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧٠ .

(٢) روض القرطاس ص ١٨٣ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧٠ .

(٣) روض القرطاس ص ١٨٣ ، والبيان المغرب ص ٣٢٢ .

ألبار بيرث ، وجرت بينهما مفاوضات ، انتهت بالاتفاق على تجديد الهدنة ، بين ابن هود وملك قشتالة لمدة ثلاثة أعوام ، وذلك على أن يدفع ابن هود لملك قشتالة إتاوة قدرها مائة ألف وثلثون ألف دينار ، دفع منها في الحال خمسين ألفاً ، وقسط الباقي على الأعوام الثلاثة ، وعلى أن ينزل ابن هود عن بعض الحصون الواقعة في منطقة جبل الشارات (سيراً مورينا) ، وهي حصون نائية ، منقطعة لم يكن من السهل أن يدافع عنها أو ينجدها المسلمون^(١) . ويقول لنا ابن خلدون إن هذه الحصون كانت ثلاثين ، وأن ملك قشتالة تعهد بأن يتخلى عن معاونة ابن الأحمر ، وأن يعاون ابن هود على تملك قرطبه^(٢) . على أن هذا القول بالنسبة لابن الأحمر لم يكن يتفق مع ماتم من عقده للسلم مع ابن هود ومبايعته له ، وهو ما يقرره لنا ابن خلدون نفسه حسبما سبقت الإشارة إليه . وكان عقد هذه الهدنة ، بين ملك قشتالة وابن هود في أواخر سنة ٦٣٢ هـ (صيف سنة ١٢٣٥ م) .

وعلى أثر ذلك ارتد ملك قشتالة في قواته عائداً إلى بلاده ، وفي خلال هذا العود ، قام بمحاصرة « حصن الأطراف » Iznataraf ، فاستسلم إليه في الحال على أن يمنح الأمان لمن كان به من المسلمين ، وأن يغادروه حاملين ماستطاعوا من أمتعتهم . ثم حاصر من بعده حصن شنت إشتين ، وهو من الحصون الواقعة ، في طريق بياسة وأبدة ، فسلمه المسلمون إليه بنفس الشروط ، واستولى فرناندو في طريقه أيضاً على عدة حصون أخرى في منطقة جيان ، وكانت هذه الحصون كلها من الحصون التي نص على تسليمها في الهدنة التي عقدت مع ابن هود .

- ٢ -

والواقع أن هذه الحوادث كلها : غزوات فرناندو الثالث المتوالية لأراضي الأندلس ، وتهديته لابن هود بعقد السلم معه ، واستيلائه ، واستيلاء الجماعات الديلية العاملة باسمه ، تباعا على حصون منطقة جيان ، لم تكن سوى مقدمات لغاية أخطر وأبعد مدى ، كان يضمهرها ويعمل لها ملك قشتالة ، أو بعبارة أخرى لم يكن سوى تمهيد لضربة مؤلة جديدة ، يزمع إنزالها بالأندلس ، تلك هي استيلائه على مدينة قرطبة العظيمة .

كانت عاصمة الخلافة القديمة ، منذ انهيار سلطان الموحدين في شبه الجزيرة ،

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٣٢٢ ، وكذلك : J.Gonzalez : ibid ; p. 71 y notas

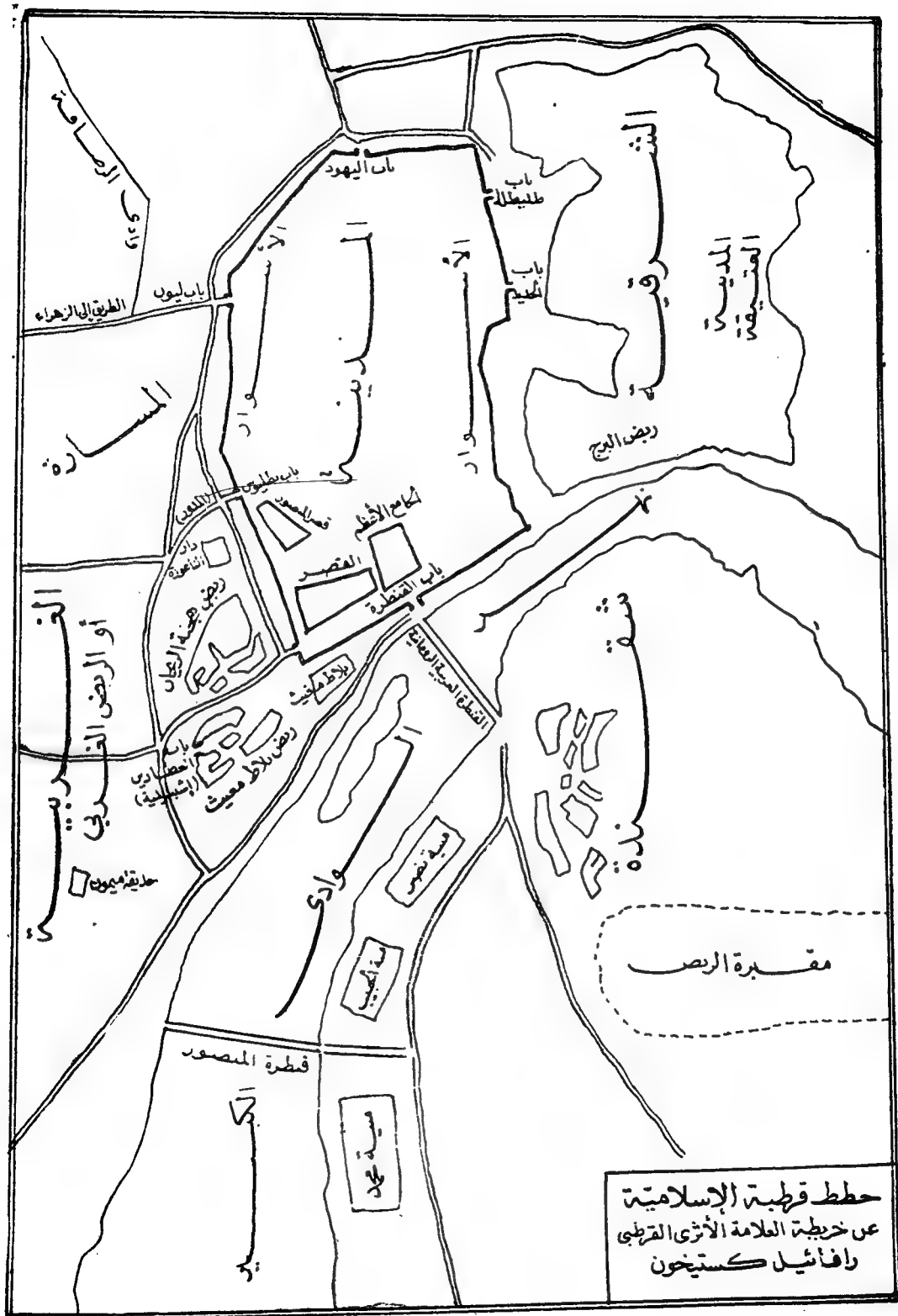
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ .

ومذثار شعبها المتوثب ، بوالها الموحدى السيد أبى الربيع وقتله ، حيرى فى أمرها ، لا زعيم لها ولا قائد ، تتردد فى الطاعة بين مبايعه ، ابن الأحمر ومبايعه ابن هود ، ولكنها أميل إلى الانضواء تحت لواء ابن هود . ومن الأسف أن الرواية الإسلامية التى تعنى دائماً أشد عناية بأحوال قرطبة وأخبارها ، لاتمدنا عن هذه الفترة الأخيرة من حياة المدينة الأندلسية العظيمة ، أو عن مأساة سقوطها ، بأية تفاصيل شافية . ومن ثم فإنه لا بد لنا أن نعتمد فى ذلك بالأخص على أقوال الرواية النصرانية المعاصرة ، إذ هى أكثر عناية وتفصيلاً .

ولقد عرفنا من قبل فى مواطن وظروف كثيرة ، ماكان عليه أهل قرطبة من خلق متمرد مضطرب ، لايلين ولا تصقله عبر الحوادث ، ومن ثم فإننا نراهم فى تلك الآونة العصيبة ، التى كان مصيرهم فيها يهتز فى كفة القدر ، على خلاف فى الرأى ، لايجمعهم شعار الخطر المشترك ، ونرى الأحقاد والخصومات ، تدفع فريقاً منهم إلى المغامرة ، بسلامة مدينتهم ، فيما يمكن أن يوصم بعمل من أعمال الخيانة ، التى لايمكن أن يغفرها التاريخ .

فى أوائل سنة ١٢٣٦ م (أواخر ربيع الثانى سنة ٦٣٣ هـ) خرجت جماعة من الفرسان القشتاليين ، وهم من أهل الحدود المغاورين المحترفين ، ومعظمهم من منطقة أندوَجَر الواقعة شرق قرطبة ، وساروا صوب قرطبة ، فأشرفوا عليها حينما دخل الليل . وكانت مدينة قرطبة فى ذلك الوقت تنقسم إلى خمس مناطق أو أحياء متعاقبة ، وبين كل منطقة وأخرى ، سور فاصل^(١) ، وكانت المنطقة الأولى الواقعة شرق قرطبة ، تعرف بالربض الشرقى أو « الشرقية » وتجتمع باقى المناطق فيما يسمى « بالمدينة » ، وهى تقع غربى « الشرقية » وكلتاها الشرقية والمدينة ، تقع على الضفة الشمالية لنهر الوادى الكبير . فلما وصل الفرسان القشتاليون وهم فئة قليلة ، لانهدد لنا الرواية عددها ، وربما كانت تضم بضعة عشرات — إلى مشارف « الشرقية » وضعوا فى الحال خطة اقتحامها . وهنا تختلف الرواية فى شأن الخطة التى تم بها هذا الاقتحام . فى رواية ألفونسو الحكيم أن الفرسان القشتاليين أسروا بعض المسلمين من الساخطين على زعمائهم ، وعلموا منهم أن المدينة محروسة بشدة ، وتفاهموا معهم على إحداث ثلثة فى سور الشرقية ، واستطاعوا بهذه الطريقة أن يقتحموا السور ، وأن يستولوا على الأبراج فى ليلة حالكة عاتية

(١) الروض المطار ص ١٥٣ .



الريح^(١) . وفي رواية أخرى أن بعض المسلمين ، ومنهم بالأخص واحد كان قد تنصر ، ساعدوا القشتاليين على تحقيق خططهم ، وبينوا لهم أن الشرقية ، ليس بها سوى قاييل من السكان ، وأن أسوارها الخارجية ضعيفة الحراسة ، ومن ثم فقد استطاع القشتاليون ، بإرشاد هذا المسلم المنتصر ، أن يتسلقوا السور ، وأن يستولوا على الشرقية بطريق المباغتة ، وكان هذا السور ، هو أول الأسوار الخارجية ، وليس هو السور الذى يفصل الشرقية عن باقى أحياء المدينة ، وقتل من أهل الشرقية عدد كبير ، وهرب الباقون إلى داخل المدينة . واحتل النصارى بعض الأبراج المنيعة فى السور . وفى الحال وقع الهرج بالمدينة ، وتقدم المدافعون لمهاجمة النصارى ، وقتل عدد من الحانبين ، ولكن النصارى لبثوا صامدين فى الأبراج ، وأرسلوا فى الحال يطلبون الإمداد^(٢) .

وتجمل الرواية الإسلامية ، ذلك العدوان المفاجيء فى قولها : « وفيها (أى فى سنة ٦٣٣ هـ) غدر النصارى شرقية قرطبة ، وذلك فى ثالث شوال ، غشياً فى غفلة السحار ، وسلم الله عز وجل النساء والذراى حتى لحقوا بالغريبة ، وبقى الناس معهم فى قتال شديد »^(٣) .

ووصل نداء القشتاليين إلى إخوانهم على الحدود بسرعة ، وفى الحال هرع اثنان من قادة الحدود ، هما أردونيو ألباريث ، وألبار بيرث ، الذى عرفناه من قبل ، كل فى قواته ، وتبعهما أسقف بياسة مع رجاله ، ثم أسقف قونقة فى قواته ، وسار فى أثرهم آخرون . وما كادت هذه الأنباء تصل إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وهو فى بنفنتى على مقربة من ليون ، حتى اهتم لها أيماء اهتمام ، وكان ثمة من وزرائه ومستشاريه من يرى فى الأمر كثيراً من الخطورة والتعقيد ، فهو يرتبط أولاً مع ابن هود باتفاق الهدنة ، وقرطبة تدين بطاعة ابن هود ، وقرطبة مدينة عظيمة ، تزخر بالسكان والمدافعين ، ولا يتأتى افتتاحها الا بقوات ضخمة ، ومن جهة أخرى فإن ابن هود قد يضطر إلى إنجاءها بقواته ، خصوصاً وأن قرطبة تعتبر فى نظر المسلمين كبرى قواعد الأندلس ، ولها فى نفوسهم مكانة خاصة .

(١) Crónica General (Ed.M. Pidal) No. 1044

(٢) J. Gonzalez : ibid; cit. Crónica Latina y Jimenez de Rada; p. 74-76

y notas

(٣) هذه رواية روض القرطاس (من ١٨٣) .

وهذا كله إلى ظروف الجو وقسوة الشتاء وفيضان الأنهار . ولكن ملك قشتالة لم يلق بالآ إلى شيء من هذه الاعتراضات ، ولم يكن يرى بالأخص في مهاجمة قرطبة نقضا لعهوده مع ابن هود ، إذ كان فريق من أهل المدينة هم الذين استدعوا النصرارى . ومن ثم فقد بادر فرناندو الثالث من فوره بالمسير إلى الجنوب ، ومعه قوة من مائة فارس فقط ، وقصد من فوره إلى قرطبة ، فوصل إليها في اليوم السابع من فبراير ، واضطربت الحشود النصرانية المرابطة تحت أسوار المدينة حماسه لمقدمه ، وكانت تتضخم كل يوم بمن يفد إليها من حشود قشتالة وليون ، ومن فرسان الجماعات الدينية المختلفة . ونصب ملك قشتالة محلته قبالة قنطرة قرطبة التي تؤدى إلى طريق إستجة . وأخذ في الحال في وضع خطة للاستيلاء على المدينة^(١).

وهنا يحق لنا أن نتساءل ، ماذا كان موقف القرطبيين إزاء هذا الخطر الداهم ، وماذا كان بالأخص موقف ابن هود . أما عن القرطبيين ، فليس ثمة شك في أنهم اعزموا منذ اللحظة الأولى الدفاع عن مدينتهم وحاضرهم ، ولكن كان من الواضح أنه كانت تنقصهم القيادة الحازمة ، وكان ينقصهم بالأخص اجتماع الكلمة . وعلى أى حال فإن الرواية الإسلامية تذكر لنا أن أهل قرطبة لبثوا مع النصرارى في قتال شديد^(٢) ، وهى لا تذكر لنا اسم الزعيم أو القائد الذى اجتمع حوله أهل قرطبة في تلك الآونة العصيبة ، وإن كانت الرواية النصرانية تذكر لئله أنه كان يسمى أبا الحسن . وأما عن ابن هود ، وهو صاحب الولاية الشرعية على قرطبة ، فقد كان من الطبيعى أن يتجه إليه القرطبيون لإنقاذهم والدفاع عن مدينتهم . وكان ابن هود في الواقع قد هرع في قواته من قطاع مرسية ، حينما علم بالخطر الذى يحقد بعاصمة الخلافة القديمة . وكان في جيش قوى يبلغ نحو خمسة وثلاثين ألف مقاتل ، ومعه نحو مائتى فارس من المرتزقة النصرارى ، فسار في قواته مسرعاً صوب قرطبة ، وانحرف عن العاصمة قليلا نحو الجنوب الشرقى ، وعسكر على مقربة من إستجة . وكان أهل قرطبة ينظرون بفارغ الصبر مقدم ابن هود ، واشتباكه مع النصرارى في معركة فاصلة ، ولم يكن ثمة ريب أن ابن هود لو اشتبك بجيشه مع القشتاليين ، لحقت عليهم الهزيمة ، ولتركوا

J. Gonzalez : Ibid : p. 76-78; M. Lafuente : Historia General de (١)

Espana; T. IV. p. 48

(٢) روض القرطاس ص ١٨٣ .

المدينة المحصورة وشأنها . ذلك أن القشتاليين كانوا في قلة من العدد ، ولم يكن مع ملك قشتالة سوى نحو مائتي فارس من الأشراف ، ولم تكن الحشود الواردة من مختلف أنحاء قشتالة ، تؤلف قوة ذات شأن . ولكن الذى حدث هو أن ابن هود لبث جامداً في قواته . وهنا تختلف الرواية في إيضاح سبب هذا الجمود . فيقال لنا إن قسوة الطقس ، وهطل الأمطار بشدة ، ونقص المون ، حملت ابن هود على التريث والإحجام . ووردت في تاريخ ألفونسو الحكيم قصة أخرى ، خلاصتها أنه كان يوجد في جيش ابن هود فارس قشتالي منى بأمر مليكه يدعى لورنسو خواريز ، ومعه مائتان من المرتزقة النصارى ، وكان ابن هود يقربه ويثق به ويعمل بنصحه . فلما نزل ابن هود وجيشه في إستجة ، وهو يعززم مقاتلة القشتاليين ، فكر هذا الفارس في أن يسترد رضى مليكه بخدمة عظيمة يؤديها إليه ، وهو أن يعمل على خدعة ابن هود ورده عن مقاتلة القشتاليين ، وإنجاد أهل قرطبة ، فتظاهر بأنه سوف يتسلل إلى المعسكر النصراني تحت جنح الليل ، ويقف على مبلغ عدده وعدته . وسار لورنسو بالفعل ليلا مع أصحابه إلى المعسكر النصراني ، وترك أصحابه على مقربة من المعسكر ، وتقدم بنفسه إلى خيمه الملك ، وطلب مقابلته لأمر خطير ، فاقتيد إليه ، وكان الملك غاضباً عليه ، فلما شرح إليه مهمته ، وأنه يريد أن يعمل على خدعة ابن هود ، وتخويه من قوة الجيش القشتالي وعدده ، ورده عن مقاتلته ، عفا عنه الملك ، ووعد برعايته ، وتفاهم الإثنان على ما يجب عمله . وعاد لورنسو إلى ابن هود ، وحذره بشدة من الاشتباك مع القشتاليين ، لأنهم في جيش قوى ، حسن الأهبة والعدد ، ولا يؤمن الدخول معه في معركة ، فاستمع ابن هود إلى نصحه ، وقرر أن يتخلى عن مشروعه في إنجاد أهل قرطبة والاشتباك مع القشتاليين^(١) .

هذا ما تقرره الرواية النصرانية عن السبب في إحجام ابن هود عن إنجاد أهل قرطبة . وتزيد الرواية النصرانية على ذلك ، أن ابن هود تلقى في اليوم التالى رسالة من صاحب بلنسية أبى جميل زيان ، ينبئه فيها بأن خابمى ملك أراجون يشتد في مضايقته وإرهاقه ، ويطلب إليه الإنجاد والغوث ، وأن ابن هود عملاً بنصح مستشاره لورنسو خواريز ، قرر أن يسير إلى بلنسية ، وقد كان يطمح إلى

J. Gonzalez : : وكذلك ، Crónica General (Ed. Pidal) T. II. p.7 82 (١)

ibid; cit. Crónica Latina; p. 78 y notas

امتلاكها ، وأنه ترك قرطبة إلى مصرها ، مؤملاً أن يصمد أهلها للدفاع عنها ، إلى أن يستطيع هو انتقاذاها فيما بعد^(١) . على أن هذه الروايات النصرانية لاتلقى في نظرنا أى ضوء مقنع على تصرف ابن هود . ومن جهة أخرى فإن الرواية الإسلامية تكاد تازم الصمت المطبق في هذا الموطن . وكل ما هنالك أن صاحب روض القرطاس ، يقدم إلينا خلال حديثه عن حوادث سنة ٦٣٣ هـ وبعد ذكره لسقوط قرطبة ، نصاً موجزاً يقول فيه : « وفيها (أى في سنة ٦٣٣ هـ) انعقد الصلح بين ملك قشتالة ، وابن هود لأربعة أعوام بأربع مائة ألف دينار في السنة »^(٢) . ويبدو من هذا النص أن الهدنة ، بين ابن هود وبين فرناندو الثالث ، كانت قد انتهت أو انقطع سريانها ، لتخلف ابن هود عن أداء الإتاوة المشروطة أو غير ذلك من الأسباب ، وأن التخلي عن إنجاز قرطبة ربما كان ضمن شروط الهدنة الجديدة ، التي يشير إليها صاحب روض القرطاس ، وهذا ما يمكن أن يستدل كذلك من سير الحوادث تحت أسوار المدينة المحصورة .

ذلك أن فرناندو الثالث شدد في حصار قرطبة ، وقطع كل علائقها من جهة البر ، ومن جهة الوادى الكبير ، حتى لاتستطيع أن تتلقى أية مؤن أو أمداد من الخارج ، وحتى لا يستطيع أن يدخلها أو يخرج منها أحد . واستمر هذا الحصار المرهق دون هوادة ، حتى نضبت موارد المدينة وأقواتها أو كادت ، وعندئذ اضطر أهل المدينة إلى مفاوضة ملك قشتالة في التسليم على أن يؤمنوا في أنفسهم ، وفيما يستطيعون حمله من أموالهم ، ووافق ملك قشتالة على هذا الشرط ، ولكن أهل قرطبة علموا عندئذ أن الجيش القشتالى تنقصه المؤن ، وأنه يعاني أيضاً من قلة الأقوات ، فنكلوا عن توقيع عهد التسليم أملاً في أن يضطر القشتاليون إلى رفع الحصار ، وتنجو المدينة من السقوط . وعندئذ شعر ملك قشتالة أن لابن هود يدأ في هذا التحول ، فبعث في الحال إلى محمد بن الأحمر أمير جيان ، وعقد معه عهداً جديداً بالتحالف . وقد كان ابن الأحمر بالرغم من عقد الهدنة مع ابن هود ما يزال هو خصمه ، ومنافسه في رئاسة الأندلس ، وكان فوق ذلك خصماً لأهل قرطبة لأنهم طردوه من مدينتهم . وعندئذ شعر أهل قرطبة بخسران قضيتهم ، وانهيار آمالهم ، وعادوا إلى المفاوضة في التسليم ، على شروطهم السابقة . وكان قد مضى على الحصار

• Crónica General; T. II. p. 783 (١)

(٢) روض القرطاس ص ١٨٣ .

بضعة أشهر ، وأضحى الموقف مستحيلاً ، خصوصاً بعد أن نكل ابن هود عن إنجاد المدينة المحصورة ، وأحجم عن كل اشتباك مع القشتاليين . وكان بعض الغلاة من صحب ملك قشتالة من الأحرار والأشراف ، يرون رفض التسليم واقتحام المدينة ، وقتل كل أهلها المسامحين ، ولكن ملك قشتالة ومعه فريق آخر من مستشاريه ، كان يرى أن هذا الإجراء قد يدفع أهل المدينة إلى اليأس ، وتخريب المدينة ، ومسجدها الجامع ، وتحطيم سائر ذخائرها وثرواتها . والظاهر أيضاً أن ابن الأحمر ، حليف ملك قشتالة أوتابعه ، كان له يد في إقناعه بقبول التسليم ، وتأمين أهل المدينة . وفي نفس الوقت عقدت بين ملك قشتالة ، وابن هود هدنة جديدة ، لمدة ستة أعوام يلتزم فيها ابن هود بأن يدفع إتاوة قدرها اثنين وخمسين ألف مرافيدى على ثلاثة أقساط سنوية^(١) .

وهنا أيضاً ، لاتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، أية تفاصيل شافية عن تسليم قرطبة ودخول النصارى إليها ، وذلك حسبما فعلت بالنسبة لسقوط بلنسية ، وكل ما تذكره في هذا الشأن كلمات موجزة ، مثل « وتغلب عليها النصارى » أو « كان دخول النصارى مدينة قرطبة » أو « ملكها النصارى » أو ما شابه هذه العبارات من كلمات مقتضبة^(٢) . وهنا أيضاً يجب أن نعتمد في ذكر هذه التفاصيل على الرواية النصرانية . فإنه ما كاد عهد التسليم يعقد بين أهل المدينة ، وبين ملك قشتالة حتى ترك أهل قرطبة دورهم ، وأوطانهم ، وغادروا مدينتهم العزيزة النالدة ، حاملين ما استطاعوا من أمتعتهم ، وقد برح بهم الجوع والحزن ، وتفرقوا في أنحاء الأندلس الأخرى . وفي يوم الأحد الثالث والعشرين من شهر شوال سنة ٦٣٣هـ ، الموافق ٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦م^(٣) ، دخل الحند القشتاليون مدينة قرطبة ، وفي الحال رفع الصليب على قمة صومعة جامعها الأعظم ، ودخل أسقف أوسمة إلى الجامع ، وحول في الحال إلى كنيسة . وفي اليوم التالى ، يوم الاثنين ٣٠ يونيه دخل فرناندو الثالث ومن معه من الأشراف والكافة ، قرطبة ، ثم دخل الجامع ، وهناك استقبله أساقفة أوسمة ، وبياسة ، وقونقة ، وسائر رجال الدين ، وأقيم

(١) J. Gonzalez : Ibid, p. 79 & 80 y notas

(٢) ابن الأبار في التكلة (القاهرة) في الترجمة ٣٠٢ ، والبيان المغرب ص ٣٢٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ ، وروض القرطاس ص ١٨٣ ، والروض المطاوع ص ١٥٨ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٥ .

(٣) ابن الأبار في التكلة (القاهرة) ص ٢٠٢ .

في الحال قداس شكر بورك فيه الملك . ومما تذكره الرواية النصرانية في هذا الموطن ، أن الملك فرناندو أمر بأن تنزع النواقيس التي كان الحاجب المنصور قد أخذها من كنيسة شنت ياقب (سنتياجو) حين غزوه لمدينة شنت ياقب في سنة ٣٨٧ هـ (٩٩٧ م) وحملها الأسرى النصارى على كواهلهم حتى قرطبة ، وهناك جعلت رؤوسا للثريات الكبرى بالجامع - أمر بأن تنزع هذه النواقيس ، وأن يحملها الأسرى المسلمون على كواهلهم ، إلى شنت ياقب ، لترد هنالك إلى أمكنتها بالكنيسة الكبرى^(١). ثم سار الملك بعد ذلك إلى قصر قرطبة ، القريب ، وهو قصر الأمراء والخلفاء الأمويين القدماء ، ونزل فيه ، وندب لحكم المدينة المفتوحة الدون تليو ألفونسو ، وحشدت لحراسة المدينة حامية كافية من الفرسان ، وأخذ النصارى يفدون إليها من سائر الأنحاء لسكانها وتعميرها ، وفق الخطة التي وضعها الملك لذلك ، وانصرف ملك قشتالة ، عائداً إلى بلاده^(٢) .

وهكذا سقطت قرطبة ، عاصمة الخلافة القديمة ، وكبرى قواعد الأندلس ، ومثوى العلوم والآداب الأندلسية ، وذلك بعد أن حكمها المسلمون ، منذ افتتاحها في سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) خمسمائة وخمسة وعشرين عاماً ، وبعد أن لبثت قروناً منارة ساطعة ، تبث أضواء علومها وفنونها ، في سائر أنحاء شبه الجزيرة ، وفيما وراء جبال البرنيه . ومن الغريب المحزن ، أن الرواية الإسلامية لاتكاد تثرى قرطبة إلا بمقتضب الكلم ، وأن الشعر الأندلسي وكذلك النثر ، لايخصانها بشيء من تلك القصائد الرنانة الموسمية ، وتلك الرسائل البليغة المبكية ، التي نخصانها قواعد مثل طليطلة ، وبلنسية ، وإشبيلية . وربما كان سبب ذلك أنه لم يكن ثمة بقرطبة ، عند سقوطها ، كتاب وشعراء مثل ابن الأبار ، وأبي المطرّف بن عميرة المخزومي ، وإبراهيم بن سهل الإشبيلي .

ومن الواضح أن سقوط قرطبة ، كان نذيراً بخضوع معظم البلاد والحصون القريبة ، لسلطان النصارى . ومع أن ملك قشتالة لم يضع يده نهائياً على تلك البلاد والحصون ، إلا أنها خضعت جميعاً لطاعته ، وتعهدت بأداء الجزية ، والسماح بإقامة حاميات نصرانية بها . وكان من هذه البلاد والحصون ، إستجة ، والمدور ، وإشبطة ، وبيانة ، وأجيلار (بلاي) ومرشانة وقبرة وأشونة ، واللسانة ، ومورور وغيرها .

. Crónica General (Ed. Pidal); p. 734 (١)

. J. Gonzalez : ibi; p. 80 & 81 y notas (٢)

لما جددت الهدنة بين ملك قشتالة، وابن هود، وانتهت المأساة بتخلي ابن هود عن إنجاد قرطبة، لتسقط بعد ذلك بقليل في أيدي النصارى، غادر ابن هود في قواته مدينة إستجة. وليس في الرواية ما يبين لنا اتجاهه، وخط سيره في تلك الآونة. بيد أنه وجهه بعد ذلك بقليل، في الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٣٤ هـ، إلى نوابه وعماله في مختلف القواعد التي تدين بطاعته، كتاباً يحثهم فيه على تقوى الله، ومراعاة أحكامه وحدوده، والافتداء بالسلف الصالح، والحرص على صون الدماء، وحققها، وعدم إراقتها إلا بمسوخ شرعى، واختيار المشرفين على الأموال من ذوى العفة والزاهة والدين، لأن حرمة الأموال مشبهة بحرمة الدماء، وأن تكون معاملة الناس في الحق سواء، دون محاباة ولا مفاضلة، ولا مجاوزة في تغليب قوى على ضعيف، ولا يؤخذ أحد بجرمة غيره، وأن يجرى العمل باتباع أحكام كتاب الله، وأن يتلى كتابه هذا على الناس جملة وتفصيلاً (١).

ولسنا نعرف شيئاً عن حركات ابن هود وأعماله في الأشهر التالية، ولكننا نراه يتجه في قواته نحو ثغر ألمرية في أوائل سنة ٦٣٥ هـ. وكانت ألمرية في مقدمة البلاد التي نادى بطاعته، ودعا له بها أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي يحيى الرميمى، وهو حفيد واليها السابق أبي يحيى الذى افتتحها النصارى من يده، في سنة ٥٤٥ هـ، واستردها الموحدون بعد ذلك أيام الخليفة عبد المؤمن بن على في سنة ٥٥٢ هـ. ولما دعا أبو عبد الله لابن هود بألمرية، قصد إليه بمرسية، فولاه ابن هود وزارته، وصرف إليه أموره، فأبدى غيره في خدمته، وأقنعه بأن يحصن ألمرية، وأن يجعل منها مثوى له، يلجأ إليه عند الحاجة، ثم تولى الرميمى شئون ألمرية، وأستبد بها، ولبت أثراً عند ابن هود وموضع ثقته، وكان يدعى بذي الوزارتين. وتختلف الرواية في أمر البواعث التي حدثت بابن هود إلى أن يقصد إلى ألمرية بعد أن ترك قرطبة لمصيرها، فهناك قول بأنه كان يقصد السر بقواته إلى بلنسية لإنجاد صاحبها أبي جميل زيان، وأنه كان يزعم أن ينقل جنده بالسفن من ألمرية إلى بلنسية، وهذا قول الرواية النصرانية، متمشياً مع ما سبق ذكره من قولها، إن أبا جميل زيان بعث إلى ابن هود يستغيث به وهو في

(١) أورد لنا صاحب البيان المغرب نبذة طويلة من هذا الكتاب (ص ٣٣٢ - ٣٣٥).

استجة ، وأن ابن هود قرّر أن يستجيب إلى هذا الصريح ، لأنه كان يطمح إلى امتلاك بلنسية. بيد أنه يبدو من الأرجح أن ابن هود كان يقصد إلى العمل ، على توطيد سلطانه في المنطقة الجنوبية ، خصوصاً وقد كانت غرناطة تضطرم يومئذ بالثورة عليه وتنادى بخلع طاعته ، حسباً نبين بعد ، وأنه سار إلى ألمرية أولاً لينظم خطة العمل . ثم إن الرواية الإسلامية تقدم إلينا تعليلاً آخر ، هو أن ابن هود كانت له جارية إسبانية رائعة الحسن . من بنات الإشراف ، وكان قد أودعها لدى الرميمي بألمرية خشية أن يتسرب خبرها إلى زوجته ، فشغف بها الرميمي ، واستأثر بها ، فسمى ذلك أن ابن هود ، فسار إلى ألمرية ، وهو يضمّر معاقبة الرميمي ، فلما وصل إلى ظاهر ألمرية ، استقبله الرميمي بمنتهى الخفاوة ودعاه إلى قصره ، ليقوم بحقه ، وليجتمع هنالك بجاريته الحسناء ، فقبل ابن هود دعوته ، ولما حل بالقصر على مأدبة حافلة ، كان ابن الرميمي قد دبر أمره للقضاء عليه متى جن الليل ، فقبل إنه دس عليه بالحمام أربعة من رجاله قضوا عليه ، وقيل إنه قتله خنقاً بمخدتين أقعدهما على نفسه وفيه . وهكذا لحا الرميمي إلى الجريمة احتفاظاً بسلامته وسلطانه. وفي صباح اليوم التالي أعلن وفاة ابن هود ، وأنه توفي فجأة من صرع أصابه ، ووضعت جثته في تابوت أرسل بحراً إلى مرسية ، وكان مصرع ابن هود على هذا النحو في الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٣٥هـ (٢١ يناير ١١٣٨م) (١).

واستمر الرميمي على رياسته لألمرية فترة أخرى حتى انتزعها منه ابن الأحمر .

وهكذا توفي محمد بن يوسف بن هود المتوكل ، وهو في ذروة سلطانه ، ومشاريعه ، وانهارت بوفاته دولته التي لم يطل أمدّها سوى تسع سنين وبضعة أشهر ، والتي كانت تبشر حين قيامها ، بعهد جديد من الإحياء والاستقرار بالنسبة للأندلس . وكانت ثورة ابن هود وحركته ، رمزاً لتلك الأمنية القديمة ، التي اتخذت من قبل شعاراً لمختلف الثورات التي قامت ضد المرابطين في نهاية عهدهم ، والتي اضطلع بها محمد بن سعد بن مردنيش ، في أوائل عهد الموحدين وهي العمل على تحرير الأندلس. من نير حكامها الأجانب ، وكان ابن هود في الوقت الذي يعمل فيه لتدعيم سلطانه ، وزعامته ، مخلصاً لدعوته ، وغايته في

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٣٣٥ و ٣٣٦ ، والمقرئ في نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨١ و ٥٨٢ . ويقول ابن الأبار إن مصرع ابن هود وقع في السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٣٥هـ (الحلة السيرة ص ٢٤٩) .

جمع كلمة الأندلس تحت لواء قوى جديد، والذود عما بقي من أراضيها وقواعدها ضد تيار الفتح النصراني ، وكان الانحلال المؤلم الذي انتهت إليه الأندلس في أواخر عهد الموحدين ، وتراخي الموحدين في الدفاع عنها ، واهتمامهم بشئونهم الخاصة ، واتخاذهم من الأندلس أداة للتطاحن والمساومة مع النصارى ، تحقيقاً لمطامعهم الخاصة — كان ذلك كله مما يسبغ على حركة ابن هود ودعوته قوة ، ورجحاناً ، ولكن ابن هود لم يكن بصفاته وموارده كفواً للمهمة العظيمة ، التي اضطلع بها ، وكانت تمتور جهوده نفس المثالب القديمة ، التي كانت تصدع دائماً من جهاد الزعماء الأندلسيين ، والتي كانت تجتمع في مصانعه النصارى ، ومساومتهم على حساب المصالح القومية . ولم يكن ابن هود أيضاً بالرغم من إخلاصه لقضية الأندلس ، يتمتع بمثل تلك المواهب اللامعة التي كانت يتمتع بها زميله ومنافسه محمد بن الأحمر ، من الروية والدهاء وحسن السياسة ، بل كان بالعكس حسباً نخربنا ابن عذارى ، بطبعه ملولاً عجولاً . وكان شجاعاً كريماً وفياً ، متوكلاً على الله ، ولكنه كان قليل المبالاة بالأمر محدود الأفق ، غير موفق في آرائه وخططه لتسرعه وغلبة الخفة عليه ، ولقائه اعداءه دون روية واستعداد ، فكان ذلك مما يعوق نجاحه في أحيان كثيرة^(١) .

وإذا كانت الرسائل السلطانية ، تلقى من جهة أخرى ضوئاً خاصاً على أخلاق ابن هود وسياسته ، فإننا نستطيع أن نقول إنه كان يتجه في حكمه إلى توطيد العدل وقمع الظلم ، والرفق بالرعية ، وذلك بالاستناد إلى رسالته التي وجهها في سنة ٦٣٤ هـ ، إلى الولاة ، يوصيهم فيها بالمحافظة على أحكام الشريعة ، وتوخي الحق ، والعمل على صون الدماء ، والتحوط ضد قتل المسلم ، وعزل العمال الظلمة غير الأمناء ، وأن تطبق المساواة في الحق على الجميع^(٢) ، وكذلك بالاستناد إلى رسالة أخرى كتبها عنه أبو عبد الله بن الجنان ، إلى أحد ولاة المدن ، يقول فيها إنه وقف على كتابه في طلب تحصين هذه المدينة وتأمينها ، وأنه مع موافقته على ذلك ، يهيب به أن يرفع ما يقع بالناس من الحيف وضرر الخدمة ، وأنه لا بد من اتباع الرفق مع الناس ، وإيثار العدل في معاملتهم^(٣) .

(١) البيان المغرب - القسم الثالث ص ٢٧٠ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٢٧٨ .

(٢) تراجع هذه الرسالة في البيان المغرب ص ٣٣٢ - ٣٣٥ .

(٣) تراجع هذه الرسالة في صبح الأعشى ج ٧ ص ٣٤ و ٣٥ .

وكان لوفاة ابن هود وقع عميق في الأندلس ، ولاسيما في الشرق مركز دعوته ومثوى رياسته . ولما وصل نبأ وفاته إلى مرسية ، اجتمع أهلها على مبايعة ولده وولى عهده أبي بكر بن محمد بن يوسف بن هود ، وكان أبوه قد اختاره حسبما تقدم لولاية عهده منذ سنة ٦٢٩ هـ ، ولقبه بالواثق ، وأطاعته بلاد الشرق التي كانت تحت طاعة أبيه^(١) .

ويقول لنا ابن الأبار من جهة أخرى ، إنه لما توفي ابن هود ، كان على رياسة مرسية أخوه على بن يوسف الملقب بعصده الدولة^(٢) . وعلى أى حال فإن رياسة بنى هود لمرسية ، لم يطل أمدھا ، حسبما نفصل بعد في موضعه .

وأما في غربي الأندلس فقد كان لاختفاء ابن هود من الميدان صدى كبير في إشبيلية^(٣) وكان من أثره أن وقع بالمدينة تحول جديد خطير ، يعودھا إلى طاعة الموحدين . ففي شوال سنة ٦٣٥ هـ ، أعلن أهل إشبيلية ، بزعامة أبي عمرو بن الجدد طاعتهم للخليفة أبي محمد عبد الواحد الرشيد ، وقدموا للولاية عليهم أبا عبد الله بن السيد أبي عمران ، وكان قد لحق مع أخويه أبي زيد وأبي موسى إلى إشبيلية ، بعد أن قتل والدهم السيد أبو عمران في إفريقية ، وأقاموا بها في ظل ابن هود . وسار إلى مراکش وفد من أهل إشبيلية ليقدم بيعتها إلى الخليفة ، وأقر الخليفة السيد أبا عبد الله على ولايتها . وحدث مثل هذا التحول في ثغر سبتة ، وكانت قد خاعت طاعة الموحدين منذ سنة ٦٣٠ هـ ، فلما مر وفد أهل إشبيلية في سفنه بها في طريقه إلى مراکش ، قام أهلها أيضاً بإعلان طاعتهم للخليفة الرشيد ، وبعثوا إلى مراکش وفداً لتقديم بيعتهم . وكان لهذا التحول الذي وقع بعود إشبيلية وسبتة ، إلى طاعة الدولة الموحدية ، رنة فرح واستبشار في مراکش ، وأحيط مقدم الوفدين الإشبيلي والسبتي إلى الحاضرة بأعظم مظاهر الترحاب والتكريم ، وما زاد في ارتياح البلاط الموحدى ، ما قام به أهل إشبيلية من القبض على عمر بن وقاريط زعيم هسكورة السابق ، النائر على الدولة الموحدية ، وإرساله إلى المغرب ، وكان بعد هزيمته ، قد لحق إلى إشبيلية ، في ظل ابن هود^(٣) . وسوف نعود إلى تفصيل ذلك في موضعه المناسب .

(١) البيان المغرب ص ٣٧٧ .

(٢) الحلة السيرة ص ٢٥٠ .

(٣) البيان المغرب - ص ٣٣٧ ٣٣٩ .

وكان محمد بن يوسف بن الأحمر ، خلال ذلك ، يرقب الحوادث ، فلما توفي ابن هود ، أدرك أن الفرصة قد سنحت للعمل على اجتئاء تراثه في الاندلس الوسطى ، وهى التى كان ابن الأحمر يسيطر منها على المنطقة الشمالية ، وكان مقصده الأول ، مدينة غرناطة قاعدة المنطقة الجنوبية . وكان ابن هود قد ولّى عليها عتبة بن يحيى المغيلي ، وكان عتبة رجلاً فظاً ظلوماً جائراً ، يبغض ابن الأحمر ويأمر بسبه على المنابر ، فلما اشتدت وطأته على أهل المدينة ، ثار عليه جماعة من أشرفها ، بزعامة ابن خالد ، واقتحموا القصبه والقصر فى عصبتهم ، وقتلوا عتبة ، وأعلنوا طاعتهم لابن الأحمر ، وبعثوا إليه يستدعونه ، لتولى الرياسة عليهم ، فكانت فرصة مواتية لابن الأحمر . فبادر بالسير إلى غرناطة فى جمع من صحبه ، ونزل بخارجها فى البداية مباغلة فى التحوط والطمأنينة . ثم دخلها من الغد عند مغيب الشمس ، فى يوم من أواخر رمضان سنة ٦٣٥هـ (أبريل سنة ١٢٣٨ م) وهو يرتدى ثياباً خشنة وحلة مرقعة ، وقصد إلى مسجد القصبه ، وأم الناس للصلاة المغرب . ثم غادر المسجد إلى قصر باديس ، والشموع بين يديه ، ونزل فيه مع خاصته . وغدت غرناطة من ذلك اليوم حاضرتة ، ومقر حكمه ، بدلا من جيّان ، التى كان يهددها النصارى باستمرار^(١) .

وماكاد ابن الأحمر يستقر فى غرناطة ، حتى اعتزم أن يسير إلى ألمرية لافتتاحها ، وسحق ابن الرميمى وزير ابن هود وقاتله ، فسار إليها فى بعض قواته ، وحاصرها من ناحية البر بشدة ، ولبت على حصارها حيناً ، فلما رأى ابن الرميمى أنه لا أمل له فى النجاة من مصيره ، غادر ألمرية من جهة البحر ، فى مركب شحنه بأهله وأمواله ، وسار إلى تونس ، حيث لجأ إلى أميرها أبى زكريا الحفصى ، واستقر بها تحت كنفه ورعايته^(٢) .

وكان استيلاء ابن الأحمر على ألمرية فى أواخر سنة ٦٣٥هـ ، وكانت قد أطاعته من قبل من القواعد الجنوبية شريش ووادى آش ، ثم نادى بطاعته مالقة ، العام التالى (٦٣٦هـ) ، وقدم إلى غرناطة وفد من أعيانها يقدم إليه بيعتها ، وكانت من إنشاء أديبها الكبير ابن عسكر ، فولاه ابن الأحمر قضاءها^(٣) .

(١) البيان المغرب ص ٣٣٦ و ٣٣٧ ، واللحة البدوية لابن الخطيب ص ٣٥ ، وابن خلدون

ج ٤ ص ١٧٠ ، والذخيرة السنية ص ٦٠ .

(٢) البيان المغرب ص ٣٣٧ . (٣) البيان المغرب ص ٣٤٥ .

وهكذا كانت ترتسم باستيلاء ابن الأحمر على غرناطة وألمرية ومالقة، حدود المملكة الإسلامية الجديدة ، التي شاء القدر أن يكون هو منشؤها في شبه الجزيرة الأندلسية ، والتي غدت غرناطة ، مذ نزل بها ، قاعدتها وحاضرتها . وكانت هذه الدولة الإسلامية الجديدة ، وهي التي اجتمعت في ظلها ، أشلاء الأندلس المنهارة ، والتي انكشفت أطرافها فيما وراء نهر الوادي الكبير جنوبا وشرقا ، تحتل رقعة متواضعة ، تمتد من جيان وبياسة ، وإستجة ، جنوبا حتى البحر ، وشرقا حتى ألمرية وبيرة ، وغربا حتى مصب الوادي الكبير ، ويحترقها من الوسط نهر شتيل ، ثم جبال سيرا نقادا وهضبات البشرات . على أن هذه المملكة الصغيرة وهي الدولة النصرية أو مملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام بالأندلس ، كانت بالرغم من صغر رقعتها ، وبالرغم من مواردها المحدودة ، جديرة بأن تراث تراث الأندلس الكبرى ؛ وقد شاء القدر أن تبقى في شبه الجزيرة الإسبانية ، زهاء مائتين وخمسين عاما أخرى ، مستودعا لعبقريّة الأمة الأندلسية ، وعلومها وفنونها ، تحمل مشعل حضارتها وضياء ، في تلك الأوطان الأندلسية القديمة ، وتضطلع في نفس الوقت ، بذلك الكفاح القديم الخالد ، ضد إسبانيا النصرانية ، إلى أن تلقى مصرعها في النهاية أبية كريمة شهيدة .

وبالرغم من توطد أمر ابن الأحمر ، وتمكن سلطانه في الأقاليم الوسطى والجنوبية ، فإنه لبث مدى حين يشعر بأنه مازالت تنقصه صفة الرياسة الشرعية . وقد رأينا فيما تقدم كيف عقد الصلح مع المتوكل ابن هود ، واعترف بطاعته (٦٣١ هـ) . فلما توفي ابن هود ، اتجهت أنظاره إلى الانصواء تحت لواء الدولة الموحدية ، وذلك بالرغم من انهيار سلطانها بالأندلس ، فأعلن بيعته للخليفة الرشيد ، وأخذ له البيعة على أهل غرناطة ومالقة وجيان وسائر البلاد التي كانت تحت طاعته ، وبعث إلى الرشيد ببيعته ، وذلك في سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) . فقبلها الرشيد بالشكر والرضى^(١) . واستمر على طاعته للخلافة الموحدية طوال خلافة الرشيد ، وقنع الرشيد منه بالدعاء في الخطبة . ولكنه لما توفي الرشيد سنة ٦٤٠ هـ ، قطع دعوة الخلافة الموحدية ، واتجه إلى الدولة الحفصية بإفريقية ، فأعلن طاعته للأمير أبي زكريا الحفصي ، وبعث ببيعته إلى تونس مع أبي بكر بن عياش شيخ مالقة ، وأبي جعفر التنزولي ، فبعث

إليه الأمير أبو زكريا قدراً كبيراً من المال برسم المعاونة على الجهاد^(١) . واستمر ابن الأحمر على طاعته للدولة الحفصية ردحا طويلا من الزمن ، وجدد بيعته بعد ذلك للأمير المستنصر ولد الأمير أبي زكريا ، وذلك في سنة ٦٦٤ هـ ، وبعث إليه المستنصر بطريق البحر هدية وأموالاً^(٢) .

ولبث محمد بن الأحمر يعمل بهمة وإقدام ، على توسيع مملكته وتوطيد سلطانه ، ولكنه كان يشعر دائماً بخاطر النصارى ، ويرقب حركات فرناندو الثالث ملك قشتالة في توجس وحذر . والواقع أن سائر القواعد الوسطى ، ولاسيما جيان وأحوازها ، قد أضحت منذ سقوط قرطبة ، تحت رحمة القشتاليين . وكان فرناندو الثالث قد بعث بالفعل جيشاً بقيادة ولده ألفونسو ، فعاث في منطقة جيان ، واستولى على حصن أرجونة ، موطن ابن الأحمر وقومه (بني نصر) ، وعدة حصون ومواضع أخرى من أملاك ابن الأحمر ، ثم زحف القشتاليون جنوبا صوب غرناطة ذاتها ، وضربوا حولها الحصار ، ولكنهم ردوا عن أسوارها بخسارة فادحة ، وذلك في سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) . وفي العام التالي عاد القشتاليون فزحفوا على مدينة جيان وحاصروها ، ولكنها صمدت ضدهم مرة أخرى .

فلما رأى ابن الأحمر تفاقم عدوان القشتاليين ، وخطورة اندفاعهم نحو أراضيه ، وأيقن أنه من العبث أن يبدد موارده وقواه في صراع لا تؤمن عواقبه ، عول على أن يسلك سبيل المصانعة والتقرب من ملك قشتالة ، وأن يشتري سلامه وسلام مملكته ، بمهادنته والخضوع له . وقد لخصت لنا الرواية الإسلامية مجمل هذا الصلح ، الذي عقد بين ابن الأحمر وبين ملك قشتالة ، وذلك في أواخر سنة ٦٤٣ هـ (فبراير ١٢٤٦ م) ، وخلاصته أن يعقد الصلح بينهما لمدة عشرين سنة ، وأن يسلم ابن الأحمر لملك قشتالة مدينة جيان ، وما يلحق بها من الحصون والمعقل ، وأن ينزل له عن أرجونة وبيغ والحجار وقلعة جابر وأرض الفرنتيرة ، ولم تدخل في هذا الصلح مدينة إشبيلية ، ولامدينة شربش^(٣) . وتزيد الرواية النصرانية على ذلك إن ابن الأحمر اعترف بمقتضى هذه المعاهدة بالطاعة للملك قشتالة على سائر ما يحكمه من الأراضي ، وتعهد بأن يؤدي إليه جزية سنوية قدرها مائة وخمسون ألف

(١) البيان المغرب ص ٣٥٦ .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٢٥ .

(٣) البيان المغرب ص ٣٦٧ ، والذخيرة السنية ص ٧٢ و٧٣ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ .

مراشيدى ، وأن يعاونه فى حروبه ضد أعدائه ، وأن يشهد اجتماع الكورتيس (مجلس قشتالة النيابى) كل عام باعتباره من الأمراء التابعين للعرش (١) .

وهكذا استطاع ابن الأحمر أن يعقد السلم مع ملك قشتالة القوى بهذا الثمن القادح . بيد أنه استطاع فى ظل هذا السلم ، المشوب بكدر الخضوع والمهانة ، أن ينصرف إلى العمل على توطيد مملكته وتنظيم شئونها ، وتنمية مواردها .

واستطاع ملك قشتالة من جانبه ، أن ينصرف إلى فتوحاته فى أراضى الأندلس التى لم يشملها هذا الصلح ، وهى الواقعة فى غربى مملكة غرناطة ، وكانت أعظمها حاضرة إشبيلية قاعدة غربى الأندلس كله ، وقد استولى عليها فرناندو الثالث فى ٢٧ رمضان سنة ٦٤٦ هـ (٢٣ نوفمبر ١٢٤٨ م) بعد حصار طويل وذلك حسيما نفصل بعد فى موضعه ، وكان أشد ما فى حوادث هذا الحصار إيلاما للنفس ، هو أن ابن الأحمر اضطر أن يشترك فيه مع القشتاليين بقوة من فرسانه ، تنفيذاً للعهد الذى قطعه على نفسه فى معاهدة الصلح مع ملك قشتالة . وفى الرواية الإسلامية مايدل على أنه كان فى كل عام يسعى إلى الاجتماع بملك قشتالة ، وفقاً لنصوص هذه المعاهدة ، باعتباره من الأمراء الخاضعين لطاعته (٢) .

وكان ابن الأحمر حينما شعر بتوطد سلطانه ، واستقرار الأمور فى مملكته ، قد اختار لولاية عهده ولده الأمير أباسعيد فرج بن محمداً بن يوسف بن نصر . ولكن هذا الأمير توفى فى سنة ٦٥٢ هـ (١٢٥٤ م) (٣) فليث ولاية العهد شاغرة نحو ثلاثة أعوام . ثم اختار ابن الأحمر لولاية عهده ولده محمداً الملقب بالفقيه ، وذلك فى سنة ٦٥٥ هـ (١٢٥٧ م) ، وهو الذى خلفه بعد وفاته على عرش غرناطة (٤) .

وفى سنة ٦٥٩ هـ ساءت العلاقات بين ابن الأحمر وبين الفقيه أبى القاسم العزفى صاحب سبتة ، لأسباب لم تذكرها الرواية ، فسير ابن الأحمر سفنه لغزو سبتة . فخرجت من الجزيرة الخضراء بقيادة أمير البحر ظافر ، ونفذت إلى مياه سبتة ،

(١) J. Gonzalez : Crónica General (Ed. Pidal) Vol.1 p. 746. وكذلك :

ibid : p. 95

(٢) البيان المغرب ص ٤١٠ .

(٣) الذخيرة السنية ص ٨٨ .

(٤) البيان المغرب ص ٤١٥ .

وأخذت في مهاجمتها والتضييق عليها ، فأمر العزفي قائد أسطوله أبا العباس الرنداجي أن يخرج في سفنه لردها . ووقعت بين الفريقين معركة بحرية ، هزمت فيها السفن الأندلسية وقتل قائدها ظافر ، وحام رأسه إلى سبتة ، وطيف بها ، وسمى هذا العام في سبتة بعام ظافر^(١) . ثم هدأت الأحوال بعد ذلك ، ولم يفكر ابن الأحمر في استئناف محاولته ضد سبتة .

ولما اقترب أجل انتهاء معاهدة التهادن والسلام المعقودة بين ابن الأحمر ومملكة قشتالة ، وقد عقدت حسبما تقدم في سنة ٦٤٣ هـ لمدة عشرين عاما ، سار ابن الأحمر في أوائل سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) لمقابلة ملك قشتالة في إشبيلية ، وهو يومئذ ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم ، وكان قد خاف أباه فرناندو الثالث في الملك عقب وفاته في مايو سنة ١٢٥٢ م ، ليسعى لديه في تجديد المعاهدة . وكان معه صهره الزعيم أبو محمد وأبو اسحق ابنا أشقيلولة ، وقوة من خمسمائة فارس . فخرج إليه ألفونسو ودعاه لزيارته داخل المدينة ، فاستجاب ابن الأحمر ، ودخل إشبيلية مع صهره وثلة من فرسانه ، ونزل بالعبادية من أحيائها . ولكنه سرعان ما نعى إليه أن النصاري ، قد سدوا الدروب الموصلة إلى مكانه ليلا بالخشب المسمرة ، وذلك لكي تعيق سير الخيل ، فخشى البادرة على نفسه ، وخرج في الحال مع صحبه ، واقتحموا تلك الدروب ، وغادر ابن الأحمر لإشبيلية مغضباً ، وقد شعر بنية الغدر والخيانة ، ولم يقنع بما أبداه له ألفونسو من أعذار وإيضاحات . ومر في طريقه إلى غرناطة بشذونة (مدينة ابن السليم)^(٢) وغيرها ، وهو يوصي أهلها بالآهبة والتحرز من غدر النصاري ، وكان هذا الحادث سبباً في فساد العلائق بين غرناطة وقشتالة^(٣) .

والواقع أن ابن الأحمر كان يعتزم في قرارة نفسه ، أن ينتهز أول فرصة للتحرر من ذلك الغل المهيئ ، الذي صفدته به معاهدته مع قشتالة ، بيد أنه كان يرى من جهة أخرى أنه لا يستطيع بمفرده أن يناهض قوة قشتالة الضخمة المتزايدة . وقد كشف ألفونسو العاشر نفسه عن نيات قشتالة العدائية ، بزحفه في نفس العام (٦٦٢ هـ) على غرناطة ومضايقتها أياماً^(٤) . وبالرغم من أنه لم ينل منها مأرباً ،

(١) البيان المغرب ص ٤٣١ .

(٢) شذونة أو مدينة ابن السليم هي بالإسبانية Medina Sedonia

(٤) الذخيرة السنية ص ١١١ .

(٣) البيان المغرب ص ٤٣٧ و ٤٣٨ .

فإن ابن الأحمر قد أخذ على ضوء هذه الحركة ، يدرس وسائل المقاومة والصمود في وجه العدوان القشتالي . وكان تطور الحوادث في الأندلس شريفا وغريبا ، وتفاقم محتها ، وتوالى سقوط قواعدها في أيدي العدو ، قد أخذ يحدث صداه قويا في الصفة الأخرى من البحر ، في المغرب ، حيث أخذ نجم الدولة المرينية يتألق ، وتبدو ضخامة حشودها وقواتها ومواردها ، مشجعة على الالتجاء إليها ، وطلب لإنجادها وغوثها . وكانت النجيدات الأولى من متطوعي بني مرين قد أخذت تعبر إلى شبه الجزيرة ، وفي مقدمتها حملة يقودها عامر بن إدريس بن عبدالحق ، نزلت مدينة شريش وأخرجت النصارى من قصبها (أواخر ١٢٦٢هـ) . وقامت في داخل المغرب حركة قوية للحث على إنجاد الأندلس وتداركها ، قبل أن يفوت الوقت ويتم العدو القوى الإجهاز عليها ، واشترك في هذه الحركة شعراء نظموا القصائد المبكية مثل أبي الحكم مالك بن المرحل ، وعلماء أدباء توجهوا برسائلهم البليغة ، مثل أبي القاسم العزفي صاحب سبتة^(١) . بيد أنه كان لابد أن تمضي بضع سنوات أخرى حتى توثق هذه الحركة ثمارها العملية ، ويعبر بنو مرين بقواتهم الجاراة إلى شبه الجزيرة .

وفي تلك الأثناء كان ابن الأحمر يعاني من عدوان القشتاليين وغاراتهم المتوالية . فلما تفاقم أمر هذه الغزوات ، وزحف القشتاليون على غرناطة للمرة الثانية (١٢٦٤هـ) ورأى ابن الأحمر أنه عاجز عن رد هذا البلاء ، اضطر أن يتقدم خطوة أخرى ، في سبيل طلب المهادنة والسلم ، وأن يبذل لتحقيق هذه الغاية مزيدا من التضحية ، فعقد مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة في أواخر سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٧م) معاهدة صداقة وسلم جديدة ، نزل له بمقتضاها عن عدد كبير من البلاد والحصون ، منها شريش والمدينة (مدينة شذونة) والقلعة وغيرها ، وقيل إن ما أعطاه ابن الأحمر بمقتضى هذا الصلح للملك قشتالة من البلاد والحصون الإسلامية المسورة ، بلغ مائة وخمس من بلاد غرب الأندلس^(٢) .

وقد أذكى هذا الانهيار الفادح لصرح الوطن الأندلسي ، وما أصابه من فقد معظم قواعده الثالثة ، في نحو ثلاثين عاما فقط ، لوعة الشعر والأدب ، ونظم شاعر العصر ، أبو الطيب صالح بن شريف الرندي ، مراثية الشهيرة في رثاء الأندلس ، وبكاء قواعدها الذاهبة ، وهي قصيدة ماتزال إلى يومنا تهرز أوتار القلوب أسى ، وهذا مطلعها :

(١) راجع كتابي « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنصرين » ، الطبعة الثانية ص ٤٠ و ٤١ .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٢٥ و ١٢٧ .

لكل شيء إذا ماتم نقصان فلا يُغر بطيب العيش لإنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان^(١)

وقضى محمد بن الأحمر الأعوام الستة الباقية من حكمه ، في توطيد مملكته وتنظيم
شئونها ، وتوفي في التاسع والعشرين من جمادى الثانية سنة ٦٧١ هـ (ديسمبر
١٢٧٢ م) عقب جرح أصابه في معركة خاضها ضد جماعة من الخوارج عليه ،
وقد قارب الثمانين من عمره .

وكان هذا الرجل العبقري ، مؤسس مملكة غرناطة ، آخر دول الإسلام
بالأندلس ، يتمتع بخلال باهرة ، من الشجاعة والإقدام ، والمقدرة ، وشغف
الجهاد ، هذا إلى جم البساطة والتواضع . ويقدم إلينا ابن الخطيب مؤرخ الدولة
النصرية عنه وعن خلاله هذه الصورة المؤثرة : « كان هذا الرجل آية من آيات
الله في السداجة ، والسلامة والجمهورية ، جندياً ، شهياً ، ثغرياً أيداً ، عظيم
التجلد ، رافضاً للدعة والراحة ، موثراً للتشغف ، والاجتراء باليسير ، متبلغاً
بالقليل ، بعيداً عن التصنع ، جافى السلاح ، شديد العزم ، موهوب الإقدام ،
عظيم التسمير ، محتقراً للعظمة ، مصطنعاً لأهل بيته ، فضاً في طلب حظه ،
حامياً لقربائه وأقرانه وجيرانه ، مباشراً للحروب بنفسه ، تتغالى الحكايات في
سلاحه وزينة ديابوزه ، نخصف النعل ، ويلبس الخشن ، ويؤثر البداوة ،
ويستشعر الخلد في أموره »^(٢) .

وقد رأينا أن نكتفي هنا بما تقدم من الشذور الموجزة عن قيام مملكة غرناطة ،
وعن حياة منشئها العبقري محمد بن الأحمر . ذلك أننا قد سبق أن تناولنا قصة
مملكة غرناطة ، وقصة بنائها كاملة ، في كتابنا « نهاية الأندلس وتاريخ العرب
المتنصرين » ، وكان جل غايتنا في كتابنا الحالي أن نصل بتاريخ الأندلس إلى
حيث بدأنا بتاريخ مملكة غرناطة .

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها في الذخيرة السنية ص ١٢٧ - ١٢٩ ، وفي نفح الطيب
ج ٢ ص ٥٩٤ و ٥٩٥ ، وفي أزهار الرياض ج ١ ص ٤٧ - ٥٠ . وراجع كتابي « نهاية الأندلس »
ص ٣٣ هامش . وفي ترجمة الرندي ص ٤٣٨ و ٤٣٩ .
(٢) كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة (المطبوع) ج ٢ ص ٦١ .

الفصل الثالث

سقوط بلنسية

وقواعد الشرق

أبو جميل زيان يوطد سلطانه في بلنسية . استيلاؤه على دانية . خروجه لغزو أراضى أراجون . مشروع ملك أراجون لافتتاح بلنسية . إعلانه الصفة الصليبية لهذا الفتح . بداية حرب بلنسية . استيلاء الأرجونيين على آرش . انضمام السيد أبي زيد بلجيش الغزو الأرجوني . حصار ملك أراجون لبريانية وأخذها . استيلاؤه على بنشكلة وعدة حصون أخرى . سقوط قسطلونة . سقوط مونكادة ومشروس . حصن أنيشة وأهميته . هدمه واحتلال الملك خايي لموقعة . تأهب زيان لمدافته . موقعة أنيشة . هزيمة المسلمين ومصرع كثير من علمائهم . مصرع أبي الربيع سليمان كبير علماء الأندلس . رثاء ابن الأبار له . تعجيل خايي بالاستعداد لفتح بلنسية . اجتماع الكورتيس وحشد الجنود . مسيره في قواته صوب بلنسية . تسليم حصون بلنسية الأمامية . تضخم جيش الفتح . حشود الأحبار والمتطوعة . محاصرة خايي لبلنسية . سوء الأحوال داخل المدينة . اعتزام المقاومة . استنجاد زيان بالقواعد القرية . اتجاهه إلى الاستنصار بأمر إفريقية . إرساله كاتبه ابن الأبار سفيراً إليه . قصيدة ابن الأبار في صريخ الأندلس . اهتمام الأمير أبي زكريا . إرساله أسطولا لإنجاد بلنسية . عجز هذا الأسطول عن الاتصال بالمدينة المحصورة . تفريغه لشحنته في دانية . اشتداد محن الحصار على بلنسية . اضطراب زيان إلى المفاوضة في التسليم . لقاءه للملك خايي . ما كتبه ابن الأبار عن وصف اللقاء وشروط التسليم . ما تقوله الرواية النصرانية في ذلك . جلاء المسلمين عن بلنسية . خايي الفاتح وأكابر الأحبار يدخلونها . خواطر عن سقوط بلنسية . سقوطها يذكي فجيرة الشعر والنثر . شيء من رثاء ابن الأبار . بعض ما قاله أبو المطرف بن عميرة . شيء من نظمه في ذلك . قصيدة أخرى موجهة إلى أمير إفريقية . مرسوم الخليفة الرشيد بالتصريح لأهل بلنسية وقواعد الشرق بالنزول في رباط الفتح . مسير الأمير زيان إلى جزيرة شقر ثم إلى دانية . نزوح ابن الأبار إلى تونس . اتجاه زيان إلى مرسية . أحوال مرسية بعد وفاة ابن هود . أبو بكر عزيز بن عبد الملك بن خطاب ينتزع رياسها . استدعاء بعض أهلها لزيان . قدومه إلى مرسية . قبضه على ابن خطاب وإعدامه . دعوته لأمر إفريقية . رسالته إلى الأمير في ذلك . استخدامه لابن عميرة في منصب الكتابة . محاولة عقد السلم مع ملك قشتالة . خروج محمد ابن هود عليه . مغادرة زيان لمرسية والتجاؤه إلى لقنت . سقوطها في أيدي الأرجونيين ونزوحه إلى إفريقية . استيلاء الأرجونيين على دانية وشاطبة . نقضهم للهدنة مع أهل شاطبة وإجلاؤهم عنها . اتفاق محمد بن هود وأهل مرسية على التفاهم مع النصارى . إرسالهم سفيراً إلى ملك قشتالة يعرض الاعتراف بطاعته . قبول ملك قشتالة والتفاهم على التسليم . مسير ولي عهد قشتالة وتسلمه مرسية صلحاً . احتلال النصارى لمرسية وبعض حصونها . احتفاظ لورقة ومولة وقرطاجنة باستقلالها . استمرار محمد ابن هود في حكم مرسية ومن بعده ولده أحمد . تعليل هذه الظاهرة . ثورات المدجنين في بلنسية واشتداد ساعد مملكة غرناطة . ثورة أبي بكر بن هود الواثق . انتزاعه لحكم مرسية . محاولته أن يخلع نير النصارى .

يعلن طاعته لابن الأحر . رواية ابن عذارى . تقام ملكى قشتالة وأراجون على قمع ثورة مرسية .
يسير خايى إلى مرسية ومحاصرتها . اضطرار الوثائق إلى التسليم . سقوط سائر قواعد الشرق فى أيدي
النصارى . قيام مجتمع المدجنين .

— ١ —

نعود الآن إلى شرقى الأندلس لتتابع ما وقع فيه من الأحداث ، وذلك منذ
اضطمت الثورة فى بلنسية ، وقام بها أبو جميل زيان بن مدافع بن مردنيش
الخدائى ، عقب انسحاب واليها الموحدى السيد أبى زيد بن أبى عبد الله محمد ،
وانهيار سلطان الموحدى بالشرق .

وقد ذكرنا فيما تقدم ، كيف لجأ السيد أبو زيد إلى ملك أراجون خايى الأول ،
وانضوى تحت حمايته ، وعقد معه معاهدة ، يتعهد فيها بأن يسلمه جزءاً من البلاد
والحصون التى يستردها بمعاونته ، وكيف انتهى به الأمر بأن اعتنق دين النصرانية ،
واندمج فى القوم الذين لجأ إلى حمايتهم ، وأخذ من ذلك الحين يصحبهم فى غزواتهم
للأراضى الإسلامية .

وكان ذلك فى سنة ٦٢٦ هـ (١٢٣٠ م) ، قبل أن يسير الملك خايى إلى غزو
الجزائر الشرقية بقليل . ثم كان غزو الجزائر ، وافتتاح ميورقة فى العام التالى
سنة ٦٢٧ هـ (١٢٣١ م) ، ثم افتتاح يابسة ، وسيطرة الأرجونيين على الجزائر ،
وذلك فى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٤ م) .

فى تلك الأثناء كان أبو جميل زيان أمير بلنسية يعمل على توطيد سلطانه فى
فى بلنسية وأحوازها . وكانت دانية من أملاك ابن هود ، وعليها وال من قبله
هو الأديب الشاعر أبو الحسن يحيى بن أحمد بن عيسى الخزرجى ، وهو والى
شاطبة فى نفس الوقت ^(١) ، فانتزع زيان منه دانية ، وولّى عليها ابن عمه محمداً
ابن سبيع بن يوسف بن سعد الخدائى ^(٢) . ولم يكتف زيان بالعمل على توسيع
أملاكه على هذا النحو ، ولكنه اعتزم فى نفس الوقت أن ينتقم لما قام به النصارى من
غزوات مخربة ، فى أراضى بلنسية ، ولاسيما بتحريض السيد أبى زيد واليها المخلوع ،
وكانت الظروف تتيح له يومئذ أن يحقق بغيته ، إذ كان ملك أراجون مشغولاً بافتتاح

(١) ابن الأبار فى الحلة السيرة ص ٢٤٩ .

(٢) الحلة السيرة ص ٢٥٥ .

الجزائر ، وتوطيد سلطانه بها ، ولم يترك في قواعد الحدود سوى حاميات ضئيلة ، ومن ثم فقد خرج زيان بقواته شمالا ، وقام بالعيش في أراضي أراجون على طول الشاطئ حتى ثغر طرطوشة ، واستاق غنائم وأسرى^(١) . وكان هذا الاعتداء يحز في نفس ملك أراجون ، وهو يزمع أن يردّه مضاعفاً في أول فرصة .

وما كاد ملك أراجون ينتهي من افتتاح الجزائر ، حتى أخذ يضع خطته لافتتاح الثغر الإسلامي العظيم بلنسية ، وكان يقتضى لنجاح ذلك المشروع أن يستولى ملك أراجون على سائر القواعد الأمامية لإقليم بلنسية ، حتى يستطيع أن يعزل بلنسية ، وأن يحرمها من كل وسائل الدفاع . وكان ملك أراجون يرى أن ظروف بلنسية ، ومواردها المحدودة ، وما يضطرم بين الزعماء المسلمين في شرقي الأندلس من خلاف ، مما يعاون على تحقيق أمنيته ، ولكنه كان يرى في نفس الوقت أن يستعد لهذا المشروع بكل ما يستطيع ، وأن يسعى لتتويجه بالصفة الصليبية . وقد استجاب البابا جريجورى التاسع لمسعى ملك أراجون ، وأصدر مرسومه بإسباغ الصفة الصليبية ، على مشروع فتح بلنسية ، وأعلن أمر هذه الحرب الصليبية الجديدة في مونتشون ، وهرع إلى لواؤها كثير من الفرسان والسادة ، ولاسيما جماعة الأسبترارية ، ووافق القطلان على سن ضريبة الماشية العينية ، مساهمة في نفقات الحرب .

وبدأت حرب بلنسية في أوائل سنة ١٢٣٣ م (أواخر سنة ٦٣١ هـ) وخرجت جماعات من الجيش الأرجوني وتفرقت في أراضي إقليم بلنسية الشمالية ، وبدأت بالاستيلاء على بلدة آرش ، ثم استولت على بلدة مورلة وهي أقصى بلاد بلنسية الشمالية . وكان الملك خايمي يومئذ في طرويل . وكان يصحبه في هذه الغزاة السيد أبو زيد والى بلنسية المنتصر باسم بثنى ، وأستاذ الفرسان الأسبترارية هوجو دى فولكاركير ، ودون بلاسكودى ألاجون ، وهو أرجونى عاش طويلا في بلنسية ، وخدم واليها الموحدى ، وكان يجيد العربية ، ويعرف أحوال المسلمين . وكان السيد أبو زيد ، قد استقر في منطقة طرويل ، في طاعة ملك أراجون وتحت حمايته ، على أن يعاونه بنفسه وصحبه ضد المسلمين .

وكانت أول قاعدة هامة من إقليم بلنسية قصد إليها ملك أراجون هي بلدة بريانة ، الواقعة على البحر على مقربة من شمال بلنسية ، ف ضرب الأرجونيون حولها الحصار ، بعد أن خربوا ضياعها وزروعها القريبة ، واشترك في الحصار

عدد من الأشراف ، وفرسان الداوية ، والأسبتارية ، وقلعة رياح . وكانت بريانة تتمتع بحصانة فائقة ، وقد استعد أهلها المسلمون للدفاع عنها بشدة . وضرب الأرجونيون البلدة بالآلات ، وحاولوا اقتحامها غير مرة ، وهى صامدة ، واستمر الحصار زهاء شهرين ، حتى نضبت مواردها وأقواتها ، واضطر المسلمون فى النهاية إلى التسليم وذلك فى شهر يوليه سنة ١٢٣٣ م . ثم استولى الأرجونيون بعد ذلك على قلعة بنشكلة Pefiscola صلحاً ، ووعد أهلها المسلمون بأن يبقوا على دينهم وشريعتهم ، ثم تلتها فى التسليم عدة حصون وأماكن منها شفيت ، وبريول ، وكويقاس ، والمصورة ، وغيرها من القرى والضيايع ، الواقعة على ضفة نهر شقر ، واستولى الأرجونيون فى نفس الوقت على ثغر قسطلونة الهام الواقع على مقربة من شمالى بريانة ، وكان سقوطه فى أيدي النصارى أمراً محتوماً بعد استيلائهم على بريانة ، وكان لسقوط هذين الثغرين نتائج هامة ، إذ كانا لقربهما من بلنسية يصلحان قواعد لتكوين الجيوش الغازية . ونفذ ملك أراجون بعد ذلك فى قواته الخفيفة إلى فحوص بلنسية ذاته ، واستولى على بعض قلاع هذه المنطقة ومنها قلعتا مونكادة ومشروس القريبتين من شمالى بلنسية ذاتها . ووقعت هذه الفتوح الأرجونية كلها فى سنة ١٢٣٤م (٦٣٢-٦٣٣هـ) (١).

ووقف مشروع غزو بلنسية عند هذه المرحلة الأولى من الاستيلاء على معظم المواقع والثغور القريبة من بلنسية ، وعاد ملك أراجون إلى بلاده ليعنى ببعض الشؤون الداخلية والعائلية .

ومضى نحو عامين ، لم تقع خلالها فى إقليم بلنسية سوى بعض غارات أرجونية صغيرة . ولكن ملك أراجون لم ينس خلال مشاغله الداخلية ، مشروع فتح بلنسية ، ولم ينقطع عن أن يوليه اهتمامه المستمر ، وكان يتوق بالأخص إلى أن يحتل حصن أنيشة أو أنيعة المنيع الواقع على مقربة من شمالى بلنسية ، على سبعة أميال منها ، وهو من أهم حصونها الأمامية ، وكان يقع على ربوة عالية تزيد موقعه مناعة ، ويشرف على مرج بلنسية وحدائقها (٢) ، وكان الأمير زيبان قد

(١) M. Lafuente : Historia General de Espana T. IV. p. 82 & 83

(٢) يسمى الإدريسي هذا الحصن بأنيشة (طبعة دوزى ص ١٩١) وكذا يسميه ابن الأبار (التكملة رقم ١٩٩١) ، وابن عبد الملك المراكشى فى « الذيل والتكملة » (مخطوط الإسكوريال ١٦٨٤ الغزيرى) ويميه أبو المطرف بن عميره « أنيعة » (الروض المطار ص ٤٩) وكذلك =

فطن إلى أهبة هذا الحصن ، وخطورة سقوطه في أيدي النصارى ، فأمر بهدمه ، ولكن الملك خايي أصر مع ذلك على احتلال موقعه ، فسار في جيشه من قلعة أيوب ، ومعه السيد أبو زيد أمير بلنسية المنتصر ، وهاجم أنيشة وهزم المسلمين الذين تصدوا لمقاومته ، واحتل المكان ، وابتنى فوق نفس الربوة حصناً جديداً منيعاً ، ووضع به حامية عهد بقيادتها إلى خاله دون برناردو دى انتزا ، واتخذ الأرجونيون من هذا الحصن قاعدة للغيث والإغارة في مختلف نواحي إقليم بلنسية . وشعر زيان بخطر وجود الحامية الأرجونية في هذا المركز الدقيق المهدد لسلامة المدينة ، فصمم على انتزاعه من أيديهم ، وحشد جيشاً قوياً تقدره الرواية النصرانية بستمائة فارس وأربعين ألف راجل ، وهو تقدير واضح المبالغة ، وسار في قواته نحو تل أنيشة ، ونشبت بين المسلمين والأرجونيين في ظاهر أنيشة معركة عنيفة ، قاتل الفريقان فيها بشجاعة ، وانتهت بأن أصيب المسلمون بهزيمة فادحة ، وقتل منهم جملة كبيرة ، وكان بين القتلى عدد كبير من علماء بلنسية ووجوهها وصلحائها ، وفي مقدمتهم كبير علماء الأندلس ومحدثها يومئذ ، أبو الربيع سليمان بن موسى ابن سالم الكلاعي ، وهو فوق علمه وأدبه الجمل جندى وافر الشجاعة والجرأة ، كان يشهد معظم الغزوات ، ويشترك في القتال ، وكان في موقعة أنيشة يتقدم الصفوف ، وهو يقاتل بشجاعة ، ويحث المهزمين على الثبات ، ويصيح بهم « أعن الحنة تفرون » حتى قتل . ورثاه ومن سقط معه ، من علماء بلنسية ، وهم نحو سبعين ، تلميذه الكاتب المؤرخ ، أبو عبد الله بن الأبار القضاعى ، وكان إلى جانب مخدومه الأمير زيان في الموقعة ، بقصيدته الشهيرة التي مطلعها :

ألمأ بأشلاء العلا والمكارم تقد بأطراف القنا والصوارم
وعوجا عاها مأربا وحفاوة نصارع غصت بالطللى والهاجم
تحى وجوها فى الحنان وجيمة بما لقيت حمرأ وجوه الملاحم
ووقعت نكبة أنيشة فى يوم الخميس عشرين من ذى الحجة سنة ٦٣٤ هـ
(١٤ أغسطس سنة ١٢٣٧ م) . وكانت هزيمة المسلمين الفادحة فيها على هذا النحو

= المقرئ (دفع الطيب ج ٢ ص ٥٨٤) ويسميه ابن خلدون « أنيسة » (ج ٦ ص ٢٨٣) والغزيرى أنيشة (الفهرس ج ٢ ص ١١٥) . وتسميه الرواية الإسبانية Puig de Cebolla (تل البصل) . أو Puig de Sta Maria (تل شنتا مارية) .

نذيراً بأنهم قوى بلنسية الدفاعية ، نذيراً بأن مصير بلنسية ذاتها ، قد بت فيه ، وأن النهاية قد اوضحت وشبكة الوقوع^(١) .

وكانت أسباب المرحلة الثانية والأخيرة من افتتاح بلنسية تهيأ وتدنو بسرعة . وكان سقوط قرطبة ، قبل ذلك بأكثر من عام ، في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وتغلبه على معظم المنطقة الشمالية من الأندلس الوسطى ، مما يدفع خايي إلى التبعجيل بفتح بلنسية خشية أن يمتد زحف القشتاليين إلى تلك المنطقة ، ويقع الخلاف بين الملكين ، وذلك بالرغم من أن أراجون ، قد اختصت بمقتضى معاهدة كاسولا Cazola ، المعقودة مع قشتالة منذ سنة ١١٧٩ م ، بافتتاح قطاع بلنسية . وكان مما يشجع خايي على هذا التبعجيل ، ثقته في أن هم المسلمين الدفاعية قد خبت من جراء موقعة أنيشة ، وأن مواردهم قد تضاءلت . وكان هذا شعور البلنسيين أنفسهم ، حسبما يعبر لنا عنه كاتب بلنسية المبدع أبو المطرف ابن عميرة في إحدى رسائله المبكية عن سقوط بلنسية^(٢) . ثم جاءت وفاة ابن هود في جمادى الأولى سنة ٥٦٣٥ هـ (يناير ١٢٣٨) ، عقب موقعة أنيشة بقليل ، لتزيد من ثقة خايي ، بأنه لم يبق ثمة أمل لأهل بلنسية في أن يأتهم الإنجاد من أية جهة أندلسية .

ومن ثم فقد عكف خايي على إعداد عدته لهذا الفتح . وكان قد عقد الكورتيس في مونتشون لكي يوافق على ضريبة المرافيدى Matavedi ، وهي ضريبة تؤدى مرة كل سبعة أعوام ، واستمر في أهبتها حتى جهزت الحشود التي اعزم أن يسيرها لافتتاح بلنسية ، وهي حشود قليلة حسبما يتضح من أرقامها بعد . ووصله أثناء ذلك نبأ وفاة خاله دون برناردو قائد حامية أنيشة ، وكان بعض مستشاريه يرى أن يترك هذا الموقع ، ولكنه أصر على الاحتفاظ به ، وعين ولد المتوفى مكانه لقيادة حاميته ، وكانت تتألف من خمسين فارساً .

ولما أتم خايي أهباته ، أقسم بين يدي الأشراف والقادة ، أنه سوف يسير

(١) راجع في موقعة أنيشة : ابن الأبار في التكلة (الأندلسية) رقم ١٩٩١ (ج ٢ ص ٧٠٩) ، وابن عبد الملك في «الذيل والتكلة» (مخطوط الإسكوريال ١٦٨٢ في ترجمة أبي الربيع بن سالم) ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٨٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٦ ، وكذلك في : M. Lafuente : ibid. T. IV. p. 84 .
(٢) الروض المطار ص ٤٩ .

إلى فتح بلنسية ، وأنه لن يعود إلى المرور بطرويل أو عبور نهر طرطوشه (نهر إيبرو) قبل أن تسقط بلنسية في يده ، وأنه تأكيداً لذلك سوف يصحب معه الملكة والأميرة ابنته^(١) . وفي شهر مارس سنة ١٢٣٨ م ، خرج خايمي في قواته متجهاً إلى الجنوب صوب بلنسية ، ووصلته أثناء مسيره رسائل من معظم الحصون الإسلامية القريبة من بلنسية تعلن الدخول في طاعته ، وفي مقدمتها المنارة ، ونوليس ، وبطرنة ، وبوليا ، وأوشو ، وغيرها . ولم تكن قوات ملك أراجون ، عند مسيره ، تعدو بضعة مئات من فرسان الداوية والأسبتيارية وقلعة رباح ، والفرسان الملكيين ، وبضعة آلاف من الرجال ، ولكن هذا الجيش تضخم فيما بعد أمام بلنسية ، بمن انضم إليه من أشراف وأحبار أراجون وقطلونية وأجنادهم العديدين ، ومن حشود الحرس الوطني ببرشلونة ، وحشود المتطوعين الفرنسيين بقيادة مطران أربونة ، وكانوا جماعة كبيرة من الفرسان ، ونحو ألف من المشاة . وقد جاء معظم هذه القوات بطريق البحر ، وانضمت كلها إلى الجيش الفاتح . وعول الملك خايمي على أخذ بلنسية بالحصار ، فطوقها أولاً بالقوات التي جاءت معه ، وضرب محلته بين المدينة ، وبين خليج جراو (الميناء) . ولما اثالث الأمداد ، وحشود المتطوعة على الجيش الأرجوني ، شدد في إحكام الحصار حول المدينة ، وقطع علائقها مع الخارج . وتقدر الرواية النصرانية عدد القوات التي اشتركت في حصار بلنسية بعشرة آلاف فارس ، وستين ألف راجل . وكانت هذه القوات تمون بسهولة ، عن طريق البحر من ثغور بنشكلة وبريانة وقسطاونة ، وقد افتتحها الأرجونيون قبل ذلك بقليل .

وبدأ حصار بلنسية في الخامس من شهر رمضان سنة ٦٣٥ هـ (أبريل سنة ١٢٣٨ م)^(٢) وشدد النصاري في التضييق على المدينة المحصورة ، وبدأوا يضربونها بالآلات الخربة . وكانت بلنسية ، مذ هزمت قواتها ، وسقط أبنائها في موقعة أنيشة ، قبل ذلك بأشهر قلائل ، قد ساءت أحوالها ، وانهارت قوى شعبها المعنوية وأخذت تتوقع سوء المصير . بيد أنه لما ظهر النصاري تحت أسوارها ، وبدأت طلائع المعركة الأخيرة ، أعزم البلنسيون أن يدافعوا عن مدينتهم حتى آخر رمق . ولم يكن أميرهم أبو جحيل زيان أقل عزمًا منهم في مدافعة البصاري ، فوجه بعض

M. Lafuente : ibid ; cft. Hist. del Rey don Jaime, T. IV. p 85 (١)

(٢) ابن الأبار في التكلة (القاهرة) في الترجمة رقم ٣٠٣ .

رسله إلى القواعد الإسلامية القريبة في طلب النجدة والإمداد : وكان رسوله إلى مرسية الفقيه المتصوف محمد بن خلات بن قاسم الأنصاري^(١). بيد أن زيان لم يقف عند هذا الاستمداد المحدود . ذلك أنه في تلك الآونة العصيبة ، قد اتجه وجهة أخرى أوسع آفاقاً وأجدى أملاً ، اتجه إلى إخوانه المسلمين ، في الضفة الأخرى من البحر ، ولم يكن ذلك الاتجاه يومئذ إلى أولئك الموحدين ، الذين عبروا البحر قبل غير مرة لإنجاد الأندلس ، إذ كانت دولتهم بالمغرب تجوز مرحلة الانحلال الأخير ، ولكن إلى تلك الدولة الفتية ، التي قامت في وسط الضفة الأخرى من البحر ، إلى دولة بني حفص بإفريقية ، وإلى عبيدها ومنشئها الأمير أبي زكريا يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص ، وكانت قد أخذت تلفت الأنظار بقوتها وثرائها ، واتساع مواردها . وبعث زيان إلى أمير إفريقية سفارة على رأسها وزيره وكاتبه العلامة الشاعر والمؤرخ الكبير أبو عبد الله محمد ابن عبد الله بن أبي بكر بن الأبار القضاعي ، يحمل إليه بيعته وبيعة أهل بلنسية ، وصرىحه بسرعة الغوث والإنجاد قبل أن يفوت الوقت . ولما وصل ابن الأبار إلى تونس ، مثل بين يدي سلطانها الأمير أبي زكريا الحفصي ، في حفل مشهود ، وألقى قصيدته السينية الرائعة التي اشتهرت في التاريخ ، كما اشتهرت في الشعر ، يستصرخه فيها لنصرة الأندلس ونصرة الدين ، وهذا بعض ماجاء فيها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً	إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمت	فلم يزل منك عز النصر ملتصبا
وحاش مما تعانیه حشاشتها	فطال ما ذاق البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا	للنائبات وأمسى جدّها تعسا
في كل شارقة إمام باثقة	يعود مأتمها عند العدا عرسا
وكل غاربه لإجحاف نائبه	تثنى الأمان حذاراً والسرور أسى
تقاسم الروم لانات مقاسمهم	إلا عقائلها المحجوبة الأنسا
وفي بلنسية منها وقرطبة	ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراف مبتسا	جدلان وارتحل الإيمان مبتسا
وصيرتها العوادي العائبات بها	يستوحش الطرف ضعف ما أنسا

ومن كئناس كانت قبلها كئنا
وللنداء غدى أثناءها جرسا
فصوح النصر من أدواها دعسا
يستجلس الركب أو يستركب الجلسا
وأين عصر جليناه بها سلسا
ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا
فغادر الشم من أعلامها خنسا
إدراك ما لم تطأه رجلاه مختلسا
ولو رأى راية التوحيد ما نبسا
أبقى المراس لها جبلا ولا مرسا
أحييت من دعوة المهدي ما طمسا
وبث من نورذاك الهدى مقتبسا
كالصارم اهتز أو كالعارض انبجسا
وأنت أفضل مرجو لمن يثسا
منك الأمير الرضا والسيد الندسا

فن دساكر كانت دونها حرسا
يا للمساجد عادت للعدا بيعاً
كانت حدائق الأحداق مونقة
وحال ما حولها من منظر عجب
فأين عيش جنيناه بها خضرا
محا محاسنها طاغ أتيح لها
ورج أرجاءها لما أحاط بها
خلاله الجو فامتدت يدها إلى
وأكثر الزعم بالتثليث منفردا
صل حبلى أيها المولى الرحيم فها
وأحي ما طمست منها العدة كما
أيام صرت لنصرة الحق مستبقا
وقمت فيها بأمر الله منتصراً
هذى رسائلها تدعوك من كئب
وافتك جارية بالنجع راجية
ومنها :

دينا ودنيا فغشاها الرضا لبسا
وكل صااد إلى نعماء ملتبسا
فما يبلى طروق الخطب ماتبسا
وصان صيقله أن يقرب الدنسا
عصاه محتزماً بالعدل محترسا

ملك تقلدت الأملاك طاعته
من كل غساد على يمناه مستلبا
قد نور الله بالتقوى بصيرته
من ساطع النور صاغ الله جوهره
إن السعيد أمرو ألقى بحضرته
وفي ختامها :

علياء توسع أعداء الهدى تعسا
يحيى بقتل ملوك الصفر أندلسا
ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
حتى يبطأ رأسا كل من رأسا
عيونهم دمعا تهمل زكا وخسا

يا أيها الملك المنصور أنت لها
وقد تواترت الأنبياء أنك من
طهر بلادك منهم أنهم نجس
وأوطىء الفيلق الجرار أرضهم
وانصر عبداً بأقصى شرقها شرقت

هم شيعة الأمر وهي الدارق قد نهكت داء متى لم تباشر جسمها انتكسا
فاملاً هنيئاً لك لتكفين ساحتها جردا سلاهب أو خطية دعسا
واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه لعل يوم الأعادى قد أتى وعسا^(١)

وكان لهذه القصيدة المبكية ، التي مازالت تحتفظ حتى يومنا برنينها المحزن ، والتي كانت كأنها نفثة الأندلس الحريح ، أبلغ الأثر في نفس الأمير أبي زكريا الحفصي ، فبادر بتجهيز أسطول شحنه بالسلاح والأطعمة والكسب والأموال ، يتألف من اثنتي عشرة سفينة كبيرة ، وست صغيرة ، وعهد بقيادته إلى أبي يحيى ابن يحيى بن الشهيد بن إسحق ابن أبي حفص الكبير ، وتقدر الرواية الإسلامية قيمة ما شحن بهذا الأسطول بمائة ألف دينار من الذهب ، وهي قيمة لها خطرهما في ذلك العصر^(٢) . وأقلعت هذه السفن المنجدة على جناح السرعة من ثغر تونس قاصدة إلى ثغر بلنسية ومعها ابن الأبار ورفاقه ، وهي رحلة تستغرق عدة أيام .

وكان الأرجونيون في تلك الأثناء قد شددوا الحصار على بلنسية ، وحاولوا في البداية ، أن يقتحموا الرصافة ضاحيتها الجنوبية الشرقية ، ففشلت المحاولة ، وردهم المسلمون بخسارة كبيرة . وكان المسلمون يخرجون من آن لآخر لمقاتلة النصارى في جماعات صغيرة ، ووقعت أعنف معركة من هذا النوع بين الفريقين حول بلدة سلييا ضاحية بلنسية الجنوبية ، وانتهت باستيلاء النصارى عليها . ولم تمض أيام على ذلك حتى ظهر الأسطول التونسي في مياه بلنسية ، واستطاع أن يصل إلى خليج جراو Grao الواقع جنوب شرقي المدينة بجذاء مصب نهر طورية أو نهر الوادى الأبيض Guadalavivar ، الذى يحترق بلنسية بعد مصبه بقليل ، واكن المحلة النصرانية كانت تحتل اللسان الواقع بين الخليج وبين المدينة ، ومن ثم فإن رجال الأسطول ، لم يستطيعوا الوصول إلى المدينة ، ولم يستطع أهل المدينة من جهة أخرى ، أن يصلوا إليهم ، وعندئذ حاولت السفن المسلمة أن تبعث الأمداد إلى أهل المدينة من ناحية الشمال ، فسارت شمالاً بجذاء الشاطيء

(١) راجعنا ما نقلناه من قصيدة ابن الأبار على نصها المخطوط الوارد في مخطوط الإسكوريال رقم ٥١٨ الفزيرى الموسوم بكتاب « زواهر الفكر » وهي طويلة تقع في سبعة وستين بيتاً . وقد نقلها المقرئ كاملة في نفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ - ٥٨٠ ، وكذلك ابن خلدون مع إغفال بعض أبياتها في ج ٦ ص ٢٨٣ - ٢٨٥ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٨٥ ، والزركشى في تاريخ الدولتين ص ٢٠ .

حتى ثغر بُنْشُكْلَة الصغير ، الواقع شمالى قسطلونة ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح أيضاً لظهور السفن الأرجونية ، واضطرار السفن التونسية إلى الإقلاع صوب الجنوب ، وانتهى الأمر بأن أفرغت السفن التونسية شحنتها في ثغر دانية ، بعيداً عن الثغر المحصور ، ثم أقلعت عائدة إلى إفريقية ومعها المال إذ لم يحضر من قبل الأمير زيان من يتسامه . وهكذا فشلت هذه المحاولة التي نظمت لإمداد المدينة المحصورة وإنجاحها ، وتركت بلنسية لمصيرها .

وهنا ضاعف النصارى جهودهم في التضييق على المدينة ، وإرهاقها . وبينما كان أهل بلنسية ، يعانون الحرمان والجوع داخل مدينتهم ، كان النصارى في سعة تأتيم المؤن من البحر بانتظام : وكان النصارى يضربون المدينة ، وأسوارها وأبراجها ، بالآلات الثقيلة باستمرار ، والبلنسيون مع كل هذا البلاء يخرجون لمقاتلة النصارى ، وتنشب المعارك الكثيرة بين الفريقين . وفي إحدى هذه المعارك أصيب الملك خايى بجرح في رأسه . واستمر الحصار المرهق على هذا النحو زهاء خمسة أشهر ، من أبريل حتى أوائل سبتمبر ، حتى فنيت الأقوات ، وعمت الموارد ، واشتد البلاء بأهل المدينة ، وثلمت الأسوار والأبراج في غير موضع ، وعندئذ رأى وجوه المدينة وعلى رأسهم الأمير زيان ، بأنه لا مفر من التسليم قبل أن يفوت الوقت ، ويقتحم النصارى المدينة ، فبعث بابن أخيه أبى الحملات ليفاوض ملك أراجون في شروط التسليم . واتفق الفريقان على أن تسلم المدينة صلحاً . وإليك كيف يصف لنا ابن الأبار ، وقد كان شاهداً عياناً ، ما تلا ذلك من لقاء بين الأمير زيان والملك خايى ، ومن إبرام شروط التسليم بينهما ، وذلك في يوم الثلاثاء السابع عشر من صفر سنة ٦٣٦ هـ . قال :

« وفي هذا اليوم خرج أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد الجذامى من المدينة ، وهو يومئذ أميرها ، في أهل بيته ووجوه الطلبة والجند ، وأقبل الطاغية ، وقد تزيا بأحسن زى في عطاء قومه ، من حيث نزل بالرصافة أول هذه المنازلة ، فتلاقيا بالولجة ، واتفقا على أن يتسلم الطاغية البلد سلماً لعشرين يوماً ، ينتقل أهله أثناءها بأموالهم وأسبابهم . وحضرت ذلك كله ، وتوليت العقد عن أبى جميل في ذلك . وابتدئ بضعة الناس فسيروا في البحر إلى نواحي دانية ، واتصل انتقال سائرهم برأً وبحراً : وصبيحة يوم الجمعة السابع والعشرين من صفر المذكور ، كان خروج أبى جميل بأهله من القصر ، في

طائفة يسيرة أقامت معه : وعند ذلك استولى عليها الروم أحانهم الله^(١).

وتقدم إلينا الرواية النصرانية عن شروط تسليم بلنسية تفاصيل لا تخرج في جملتها عن مضمون الرواية المتقدمة ، فتقول إن المفاوضة وقعت أولا بين أحد الرؤساء المسلمين ، وأحد الأشراف الأرجونيين ، وذلك بمحضر من الملكة ، التي شاء الملك أن تشهد سائر التفاصيل ، وانتهى الأمر بأن اقترح الأمير زيان على الملك خايي ، أن يسلم إليه المدينة ، على أن يسمح لسائر المسلمين بها رجلا ونساء ، بأن يحملوا سائر أمتعتهم دون أن يعترضهم أحد ، وأن يسروا آمنين حتى قليرة (أو غليرة)^(٢) أو دانية ، فوافق الملك والملكة على اقتراحه ، واتفق على أن تسلم المدينة ، بعد خمسة أيام ، يبدأ في نهايتها جلاء المسلمين عنها . وأبلغ الملك هذا الاتفاق إلى الأحرار والأشراف ، فلم يرق لبعض القادة ، والفرسان ، الذين كانوا يؤملون الثراء بنهب المدينة . وفي اليوم الثالث بدأ المسلمون جلاءهم عن بلنسية ، وخرج منهم منها خمسون ألفا ، وساروا آمنين حتى قليرة Cullera ، وهي ثغر صغير يقع على مقربة من جنوبي بلنسية ، ومنحوا عشرين يوما لإتمام الجلاء . وعقد الملك خايي كذلك مع الأمير زيان هدنة مدتها سبع سنين ، وأقسم باحترامها بالنسبة لدانية وقليرة ، طوال هذه المدة . وتم ذلك في اليوم الثامن والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٢٣٨ م^(٣).

وفي يوم الجمعة التاسع من أكتوبر سنة ١٢٣٨ م ، الموافق للسابع والعشرين من صفر سنة ٦٣٦ هـ دخل خايي الفاتح ملك أراجون ، وزوجه الملكة فيولانتى وأكابر الأحرار والأشراف والفرسان الأرجونيين والقطلان ، وممثلو الجماعات الدينية والمدن ، مدينة بلنسية ، ورفع علم أراجون على قمة أعلى برج في أسوار المدينة ، وحوات المساجد في الحال إلى كنائس وطمست سائر قبور المسلمين^(٤) . وقضى الملك خايي بضعة أيام في تقسيم دور المدينة وأموالها بين الأحرار والأشراف والفرسان ، كل وفق ما اشترك به في الفتح ، وبلغ عددهم وزع عليهم من فرسان أراجون وقطلونية ،

(١) ابن الأبار في الحلة السراء ص ١٩٠ ، وفي التكلة (القاهرة) في الترجمة رقم ١٧٤٥ و ٢١١٩ ، والبيان المغرب ص ٣٤٥ .

(٢) وبالإسبانية Cullera

(٣) M. Lafuente : ibid; cit. Hist: del Rey don Jaime ; T. IV. p. 87

(٤) التكلة لابن الأبار (القاهرة) رقم ١٣٠٦ .

ثلاثمائة وثمانون ، هذا عدا الأحرار والأشراف ، وجعلت هذه الأملاك وراثية بالنسبة لأعقابهم ، وسموا بفرسان الفتح ، وترك لهم حراسة المدينة والدفاع عنها . وأقبل النصارى من كل فج على مكنى بلنسية وتعميرها . ومع ذلك فقد بقيت بها جماعة كبيرة من أهلها المسلمين ، تدجّتوا واستسلموا لمصيرهم الجديد . وهكذا سقطت بلنسية في أيدي النصارى ، بعد أن حكمها المسلمون ، منذ الفتح خمسة قرون وربع قرن ، سطعت خلالها في شرق الأندلس ، وتزعمت قواعده ، ولعبت أعظم دور في أحداثه ومصايره ، ولبثت فترات طويلة ، مثوى الثورة الوطنية الأندلسية ، وكانت أعظم مركز للعلوم والآداب في شرق شبه الجزيرة . وكانت بلنسية منذ بعيد هدفاً لأطماع النصارى ، القشتاليين منهم والقطلان ، وكانت مسرحاً لمغامرات السيد الكنييطور (السيد الكيبادور) ، وقد استولى عليها بالفعل في جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ (يونيه ١٠٩٤ م) ولبثت تحت نير النصارى زهاء ثمانية أعوام ، حتى استردها المرابطون في شعبان سنة ٤٩٥ هـ (مايو ١١٠٢ م) ، وذلك حسبما فصلناه في كتابنا « دول الطوائف » .

على أن بانسية وأحوازها ، استمرت بعد سقوطها في أيدي النصارى ، مدى عصور ، مثوى لجماعات كبيرة من المدجّنين المسلمين ، ثم بعد ذلك من العرب المنتصرين (الموريسكيين) وقد لعب هؤلاء في تاريخها السياسي والاجتماعي منذ القرن الرابع عشر حتى أواخر القرن السادس عشر ، أدواراً ذات شأن . وهو ما فصلناه في كتابنا « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين » .

وقد أذكت محنة بلنسية وسقوطها في أيدي النصارى ، فجيعة الشعر والنثر بالأندلس ، على نحو ما فعلت محنة طليطلة ، وسقوطها ، وصدرت في رثائها طائفة كبيرة من القصائد والرسائل المبكية . ويرجع ذلك بالأخص إلى وجود عدد من أكابر الكتاب والشعراء المعاصرين ، الذين شهدوا المحنة من أبناء بلنسية ذاتها ، أو شرق الأندلس ، وفي مقدمتهم أبو عبد الله بن الأبار ، وأبو المطرف بن عميرة الخزومي ، وأبو عبد الله بن الجنان ، وهم جميعاً من كتاب أمير بلنسية ، أبي جميل زيان . وإذا كنا لانعنى هنا إلا بتسطير الأحداث والحن ، فإنه يسوغ لنا مع ذلك أن نقف مدى لحظة ، لنستعرض خلالها ، بعض نماذج من النثر والنظم ، في رثاء بلنسية من كلام أبنائها .

ولامراء في أن ما صدر عن ابن الأبار في ذلك وهو من أعظم أبناء بلنسية ،
وقد قضى فيها معظم شبابه وكهولته ، وشهد أدوار المحنة من بدايتها إلى نهايتها ،
سواء من النثر أو النظم ، إنما هو غرة هذه المراتي ، وأبلغها استثارة للأسى ، وقد
أوردنا فيما تقدم شطراً من قصيدته الرائعة :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا
ورأينا كيف يصور فيها محنة الأندلس العامة أروع تصوير وأبلغه . ولما
سقطت بلنسية ، بعد ذلك ، صدرت عنه رسائل وقصائد أخرى ، في رثاء بلنسية
وبقية قواعد الأندلس الذاهبة ، وبكاء أمجادها ومحاسنها ، فمن ذلك قوله من رسالة
إلى صديقه أنى المطرف ابن عميرة :

« وأما الأوطان المحبب عهداً بحكم الشباب ، المشبب فيها بمحاسن الأحياء ،
فقد ودعنا معاهدها وداع الأبد ، وأخنى عليها الذى أخنى على لبد ، أسلمها
الإسلام ، وانتظمها الانتثار والاصطلام ، حين وقعت أنسرهما الطائفة ، وطاعت
أنحسها الغائرة ، فغلب على الجذل الحزن ، وذهب مع المسكن السكن .

كزعزع الريح صك الدوح عاصفها فلم يدع من جننى فيها ولاغصن
واها وواها بموت الصبر بينهما موت المحامد بين البخل والجبن
أين بلنسية ومغانيا ، وأغاريد ورُقها وأغانيا ، أين حلى رصافتها وجسرهما ،
ومنزلا عطائهما ونصرهما ، أين أياؤها تندى غصارة ، وركاؤها تبدو من خضارة .
أين جداولها الطفاحة وخائلها ، أين جناها النفاحة وشمائلها ، شد ماعطل من قلائد
أزهارها نحرها ، وخلعت شعشعانية ضحاحا بحيرتها وبحرها ، فأية حيلة لاحيلة
في صرفها مع صرف الزمان ، وهل كانت حتى بانث إلا رونق الحق وبشاشة
الإيمان . ثم لم يلبث داء عقرها ، أن دب إلى جزيرة شقرها ، فأمر عذبتها النمر ،
وذوى غصنها النضير ، وخرست حمام أدواحها ، وركدت نواسم أرواحها ،
ومع ذلك اقتحمت دانية ، فنزحت قطوفها وهى دانية ، وبالشاطبة وبطحائها ،
من حيف الأيام وأنحائها ، ولهفاه ثم لهفاه على تدمير وتلاعها ، وجيان وقلاعها ،
وقرطبة ونواديا ، وحص وودايا ، كلها رعى كلاًها ، ودهى بالتفريق
والتزيق ملاها ، غص الحصار أكثرها ، وطمس الكفر عينها وأثرها . .
وما لأندلس أصيبت بأشرافها ، ونقصت من أطرافها ، قوض عن صوامعها
الأذان ، صُمّت بالنواقيس فيها الآذان ، أجنّت ما لم تجن الأصقاع ، أعقّت

الحق فحاق بها الإيقاع ، كلا بل دانت للسنة ، وكانت من البدع في أحصن جنة ، فليت شعري بم استوثق تمحيصها ، ولم تعلق بعموم البلوى تخصيصها ، اللهم غفرأ ، طالما ضر ضجر ، ومن الأبناء مافيه مزدجر ، جرى بما لم تقدّره المقدور ، فما عسى أن ينثب به المصدور ، وربنا الحكيم العليم ، فحسبنا التفويض له والتسليم» (١) ولأبي المطرف بن عميره ، وهو أيضاً من أبناء بلنسية ، ومن أبلغ كتابها ، رسائل عديدة في رثاء المدينة العظيمة ، فمن ذلك رسالة خاطب بها زميله وصديقه ابن الأبار جواباً عن رسالته المتقدمة يقول فيها :

« طارحنى حديث مورد جف ، وقطين خف ، فيا لله لأتراب درجوا ، وأصحاب عن الأوطان خرجوا ، قصت الأجنحة وقيل : طبروا ، وإنما هو القتل والأسر أو تسيروا ، فتفرقوا أيدي سبا ، وانتشروا ملء الوهاد والربا ، ففي كل جانب عويل وزفرة ، وبكل صدر غليل وحسرة ، ولكل عين عبرة لاترقأ من أجلها عبرة ، داء خامر بلادنا حين أتاها ، وما زال بها حتى سحبي على موتاتها ، وشجا ليومها الأطول كهلهما وفتاها ، وأنذر بها في القوم بحران أنيعة ، يوم أثاروا أسدها المهيجه ، فكانت تلك الحطمة طل الشؤبوب ، وباكورة البلاء المصبوب .. وبعد ذلك أخذ من الأم بالحنق ، وهى بلنسية ذات الحسن والبهجة والرونق ، وما لبث أن أخرج من مسجدها لسان الأذان ، وأخرج من جسدها روح الإيمان ، فبرح الخفاء ، وقيل على آثار من ذهب العفاء ، وانعظفت النوائب مفردة ومركبة كما تعطف الفاه ، وأودت الخفة والحصافة ، وذهب الجسر والرؤفاة ، ومزقت الحلة والسهلة ، وأوحشت الجرف والرملة ، ونزلت بالجاراة وقعة الحرة ، وحصلت الكنيسة من جاذرها وظباها على طول الحسرة ، فأين تلك الخائل ونضرتها ، والحداول وخضرتها ، والأندية وأرجها ، والأودية ومنعرجها ، والنواسم وهبوب مبتلها ، والأصائل وشحوب معتلها ، دار ضاحكت الشمس بجرها وبحيرتها ، وأزهار ترى من أدمع الطل في أعينها ترددها وحيرتها ، ثم زحفت كتيبة الكفر بزرقها وشقرها ، حتى أحاطت بجزيرة شقرها ، فأها لمسقط الرأس هوى نجمه ، ولقادح الخطب سرى كلمه ، وبالجنة أجرى الله تعالى النهر تحتها ، وروضة أجاد أبو اسحق نعتها ، وإنما كانت داره التي فيها دب ، وعلى

(١) واضح من هذه الرسالة انها أنشئت بعد سقوط قواعد الشرق ، وبعد سقوط إشبيلية في سنة ٦٤٦ هـ أعني بعد سقوط بلنسية بنحو عشرة أعوام .

أوصاف محاسنها ألب ، وفيها أنة منيته كما شاء وأحب ، ولم تعدم بعد محبين
قشبيهم إليها ساقوه ، ودعمهم عليها أراقوه .
ويقول في رسالة أخرى :

« ثم ردف الخطاب الثاني بقاصمه المتون ، وقاطبه المنون ، ومضمة نار
الشجون ، ومنزوية ماء الشئون ، وهو الحادث في بلنسية ، دار النحر ، وحاضرة
البر والبحر ، ومطمح أهل السيادة ، ومطرح شعاع البهجة والنضادة ، أودى
الكفر بيمانها ، وأبطل الناقوس صوت أذانها ، ودهاها الخطب الذي أنسى
الخطوب ، وأذاب القلوب ، وعلم سهام الأحزان أن تصيب ، ودموع الأجفان أن
تصوب ، فيا نكل الإسلام ، ويا شجو الصلاة والصيام ، يوم الثلاثاء ، وما يوم
الثلاثاء ، يا ويح الداهية الدهياء ، وتأخير الإقدام عن موقف العزاء ، أين الصبر
وفؤادى أنسيه ، لم يبق لقوى على الرى سبه ، هيات نجد ما مضى من أنسيه ،
من بعد مصاب حل في بلنسية .

« يا طول الحسرة ، ألا جابر لهذه الكسرة ، أكل أوقاتنا ساعة العسرة ،
أخى أين أيامنا الخوالى ، وليالينا على التوالى . كل رزء في هذه الرزء يندرج ،
وقد اشتدت الأزمة فقل لى متى تنفرج ، كيف انتفاعنا بالضحى والأصائل ،
إذ لم يعد ذلك النسيم الأرج ، ليس لنا إلا التسليم والرضى ، بما قضاه الخلاق العليم .
ومن نظم أبى المطرف بن عميرة في رثاء بلنسية قوله :

ما بال دمعك لا ينى مدراره	أم ما لقلبك لا يقر قراره
اللوعة بين الضلوع لظاعن	سارت ركائبه وشطت داره
أم للشباب تقاذفت أوطانه	بعد الدنو وأخفقت أوطاره
أم للزمان أتى بخطب فادح	من مثل حادثة خلت أعصاره
بحر من الأحزان عبّ عبابه	وارتعج ما بين الحشا زخاراه
فى كل قلب منه وجد عنده	أسف طويل ليس تخبو ناره
أما بلنسية فثوى كافر	حُفّت به فى عقرها كفّاره
زرع من المكروه حلّ حصاده	عند الغدوّ غداة لجّ حصاره
ما كان ذاك المصر إلا جنة	للحسن تجرى تحته أنهاره
طابت بطيب بهاره أصاله	وتعطرت بنسيمه أشجاره

قد كان يشرق بالهداية ليله والآن أظلم بالظلال نهاره
ودجا به ليلُ الخطوب بصبحه أعياء على أبصارنا إسفاره^(١)
وجاء في قصيدة طويلة ، وجهها بعضهم إلى أمير إفريقية أبي زكريا الحفصى
يستنهض همته لنصرة الأندلس ، وذلك على أثر سقوط بلنسية :

نادتك أندلس قلب نداءها واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرخت بدعوتك العلية فاحبها من عاطفاتك ما بقي حواءها
هى دارك القصوى أوت لإيالة ضمنت لها مع نصرها ابواءها
تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا لم يضمن الفتح القريب بقاءها
ومنها فى رثاء بلنسية :

ايه بلنسية وفى ذكراك ما يجرى الشئون دماءها لأماءها
كيف السبيل إلى احتلال معاهد شب الأعاجم دونها هيجاءها
والى رباً وأباطح لم تعر من حلل الربيع مصيفها وشتاءها
طاب المعرس والمقبل خلاها وتطلعت غرر المني أثناءها
بأبى مدارس كالطلول دوارس نسخت نواقيس الصايب نداءها
ناحت بها الورقاء تسمع شلواها وغدت ترجع نوحها وبكاءها^(٢)

ونكتفى بهذه المقتطفات الثرية والشعرية التى قيلت فى رثاء بلنسية ، وإنما
أوردناها دليلاً على شعور أبنائها بفداحة المحنة ، وفداحة آثارها ، التى انتهت
فى أعوام قليلة بسقوط سائر قواعد الشرق فى أيدي النصارى .

ولما سقطت بلنسية ، وما يليها من القواعد القريبة فى أيدي النصارى ، نزح
الكثير من أهلها إلى قواعد الأندلس الباقية ، فى الشرق والجنوب والوسط ، وعبر
فى نفس الوقت كثير منهم البحر إلى العدو ، واستقروا فى مختلف أنحائها . وقد
وقفنا على نص ظهير ، أصدره الخليفة الموحدى الرشيد ، فى الحادى والعشرين
من شهر شعبان سنة ٦٣٧ هـ ، من إنشاء كاتبه القاضى أبى الطرف بن عميرة

(١) وردت هذه القصيدة وما تقدمها من رسائل فى كتاب «الروض المعطار» فى مقال «بلنسية»
(ص ٤٨ - ٥٢) . وقد أورد لنا المقرئ نص الرسالتين كاملاً ، رسالة ابن الأبار ، ورسالة
ابن عميرة فى الرد عليها ، وذلك فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٩٦ - ٦٠١ .
(٢) وردت هذه القصيدة الطويلة فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٩ - ٥٩٢ .

المخزومى ، إلى « المنتقلين من أهل بالنسية وجزيرة شقر وشاطبة ومن جرى من ساير بلاد الشرق مجراهم ، وعراه من غير الأيام ماعراهم » يأذن لهم فيه بالنزول فى رباط الفتح « وأن يتخذوا مساكنه وأرضه بدلا من مساكنهم وأرضهم ، ويعمروا منه بلداً يقبل منهم أولى من قبل ، ويحملهم إنشاء الله تعالى ، وخير البلاد ماحل » ، وأن « لهم أفضل ماعهده رعايا هذا الأمر العزيز ، أدامه الله تعالى من التوسعة على قويمهم حتى يزداد قوة ، والرفق بضعيفهم ، حتى ينال يساراً وثروة » ، وأن يقومو بحرث أرضه ، وغرس كرومه ، وأن يتأثلوا الأملاك لأنفسهم وأولادهم وأولاد أولادهم ، ولا يطالبوا بغير حقوق الشرع ، وأن الأوامر قد صدرت إلى الولاة والعمال بحمايتهم والرفق بهم ، وعدم إلحاق الأذى بهم ، أو منعهم من تحقيق مآربهم . وقد صدر هذا الظهير ، حسبما نوه فى بدايته بمسعى ذى الوزارتين الشيخ أبى على بن أبى جعفر بن خلاص البلنسى . وهو وثيقة ذات أهمية خاصة ، تلقى ضوءاً كبيراً على مصاير من شردتهم محنة الانهيار من أهل الأندلس ، وما كانوا يلقون فى أنحاء العدو من ضروب المواساة والعطف والترحيب^(١)

— ٤ —

لما غادر الأمير أبو جميل زيان وطنه القديم ومقر رياسته ، ورياسة آباءه وأجداده ، مدينة بلنسية العظيمة ، بعد أن سلمها إلى الملك خايمى الفاتح ، سار فى آله وصحبه إلى الجزيرة أوجزيرة شقر ، الواقعة جنوبها على ضفة نهر شقر ، وسار وزيره ابن الأبار فى أهله إلى تونس بعد أن أيقن أنه لا أمل فى حياة مستقرة فى ربوع الوطن القديم ، وأخذ زيان بيعة أهل الجزيرة للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية ، ولكنه ما كاد يستقر بها حتى زحف عليها الأرجونيون وطوقوها لأنها لم تكن داخلية فى نطاق الهدنة ، التى كانت تشمل فقط دانية وقليرة ، فاضطر زيان إلى التخلي عن الجزيرة للنصارى ، وغادرها إلى دانية ، ونزل بها وذلك فى شهر رجب سنة ٦٣٦ هـ ، لبضعة أشهر من تسليم بلنسية ، ودعابها للأمير أبى زكريا الحفصى ، وأغضى النصارى مدى حين عن مهاجمة هذا القطاع من من إقليم بلنسية . وعرض زيان خلال ذلك على الملك خايمى أن يسلمه حصن لقنت على أن يمنحه جزيرة منرقة كإقطاع يحكمها باسمه وتحت طاعته ، فاعتذر

(١) وقفنا على نص هذا الظهير فى المخطوط المعنون « بزواهر الفكر » المحفوظ بمكتبة الإسكوريال رقم ٥١٨ الفزيرى ، ورقم ٥٢٠ ديرنبور (لوحة ١١٥-١١٦) .

خامى بأن لقت لا تدخل فى نطاق فتوحه ، وإنما هى داخله فى نطاق فتوح قشتالة^(١) ، هذا إلى أن منرقه كان يحكمها عندئذ أبو عثمان سعيد بن حكم الأموى تحت حماية الملك خامى ، ويؤدى إليه الخزينة حسبما تقدم فى موضعه .

وعندئذ اتجه نظر زيان إلى مرسية . وكانت مرسية أيام ابن هود مقر رياسته . ولما توفى بالمرية فى جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ ، بايع أهل مرسية ولده أبا بكر محمد بن يوسف بن هود ، وتلقب بالواثق ، ولكن الظاهر أن عمه على بن يوسف تغلب عليه بعد قليل ، ودعا لنفسه وتلقب بعصده الدولة ، بيد أن رياسته لم يطل أمدّها أيضاً ، إذ ثار به عميد مرسية وكبير علمائها الفقيه أبو بكر عزيز بن عبد الملك ابن محمد بن خطاب ، وأخرجه من المدينة ، ودعا لنفسه ، وبايعه أهل مرسية ، وذلك فى الرابع من محرم سنة ٦٣٦ هـ ، وتلقب بضياء الدولة . ثم سقطت بلنسية بعد ذلك بأسابيع قلائل فى أيدي النصارى ، وتجهمت الحوادث فى شرق الأندلس ، وقلقت النفوس فى مرسية وغيرها ، ورأى جماعة من أهل مرسية استدعاء أمير بلنسية السابق أبا جميل زيان ، ليتولى الرياسة عليهم ، وهو يومئذ بدانية يرقب الحوادث . فسار زيان إلى مرسية ودخلها ، فثار أهلها بأبى بكر عزيز ضياء الدولة وانتزع زيان منه الرياسة وقبض عليه ، وذلك فى الخامس عشر من شهر رمضان سنة ٦٣٦ هـ ، ثم أمر بقتله ، فقتل فى السادس والعشرين من الشهر ، وكان ابن خطاب سليل أعرق بيوت مرسية ، وجده الكبير أبو عمر أحمد بن خطاب ، هو الذى استضاف المنصور بن أبى عامر وسائر جيشه ، حين مروره بمرسية فى طريق غزاته إلى برشلونة ، وذلك فى أوائل سنة ٥٣٧ هـ (٩٨٥ م)^(٢) .

ودعا زيان بمرسية للأمير أبى زكريا الحفصى صاحب إفريقية ، ودخلت فى طاعته معظم البلاد الباقية فى شرق الأندلس ، وبعث زيان ببيعته جميعاً مع وفد ندبه لذلك إلى الأمير أبى زكريا بتونس ، فعاد الوفد يحمل إليه من الأمير تقليد ولايته على مرسية وبلاد شرق الأندلس ، وقدرأ من المال لمعاونته ، وذلك فى سنة ٦٣٧ هـ . وقد وقفنا على نص الرسالة التى بعث بها الرئيس زيان إلى الأمير أبى زكريا على أثر تلقيه مرسوم الولاية ، وهى من إنشاء الكاتب البليغ أبى عبد الله بن الجنان ،

M. Lafuente : *ibid* ; T. IV. p. 88 (١)

(٢) ابن الأبار فى الحلة السراء ص ٢٥٠ - ٢٥٢ ، والذخيرة السنية ص ٥٩ ، وكذلك :

M.G. Remiro : *Murcia Musulmana* p. 295

وفيها يعرب زيان بعد الديباجة « والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، الطالع من أنوار الهدايات » ، وبعد الدعوات الجمّة ، عن ولائه وإخلاصه ، ويقول : « فلا جرم أن الخادم يطمئن بذلك قلباً » . ثم يبدى شكره على التفات « الحضرة الكريمة » ، وأنه تلقى الكتب الكريمة بارتياح ، وأنه في سائر أحواله ، وجميع أفعاله وأقواله « يهتدى بهدى الحضرة العلية ، والانقياد لما أمره به مولاه من النظر في هذه البلاد ، عاكفاً على المراسم الكريمة في كل القصد والاعتماد ، باذلاً مستطاعة في الحد والاجتهاد » وخصوصاً في هذه الأوقات التي اشتدت فيها نكبات الأعداء ، ولكنه يؤمل أن الأحوال سوف تصلح . ثم يختم كلامه بالدعاء . والرسالة صادرة « من مرسية حرسها الله تعالى » ؛ ولكن ليس لها تاريخ^(١) .

على أن زيان لم يتح له أن يجمع سائر الشرق تحت طاعته ، فقد خرجت على رياسته أوريولة ، واستقل بها ابن عصام ، وكذلك خرجت لورقة ، واستقل برياستها الفقيه محمد بن علي بن أحلى .

واستمر الأمير زيان في رياسته لمرسية زهاء عامين . وكان كاتبه في تلك الفترة ، القاضي والكاتب اللامع أبو المطرف بن عميرة الخزومي . وهناك ما يدل على أن الأمير زيان ، قد بذل عندئذ محاولة للتفاهم مع فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وذلك حسبما تدل عليه رسالة موجهة منه إلى فرناندو ، ومحرورة بقلم أبي المطرف ، يذكر فيها ما تم له من فتح مرسية ، ورضاء المسلمين بهذا الفتح ، وأنه رأى مفاوضته في عقد السلم ، وأن يكون ذلك على يد رسول أوفده إليه ، وأنه على استعداد للتفاوض مع من يرسله إليه ملك قشتالة من رجاله لهذا الغرض^(٢) . ومن الواضح أن هذه المحاولة من جانب زيان ترجع إلى ما كان معقوداً بين مملكتي قشتالة وأراجون من أن الاستيلاء على منطقة مرسية ، كان من حق ملك قشتالة . على أن الأمر لم يطل برياسة زيان لمرسية ، فقد خرج عليه زعيم من بني هود ، من أبناء عمومة المتوكل ، يدعى محمد بن هود ، والتف حوله أهل مرسية ، فانزع الحكم من زيان وتلقب بهاء الدولة ، وخرج زيان من مرسية ، في أهله وأمواله ولحاً في قومه وعشيرته إلى لقنت ذلك في سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) . وعاش بها بضعة

(١) وردت هذه الرسالة في كتاب « زواهر الفكر » التي سبقت الإشارة إليه (مخطوط الإسكوريال رقم ٥١٨ الغزيري (رقم ٥٢٠ ديرنبور) .

(٢) أورد لنا القلقشندي نص هذه الرسالة في صبح الأعشى ج ٧ ص ١١٦ و ١١٧ .

أعوام في خمول ، وهو يشهد سقوط قواعد الشرق المتوالى في أيدي النصارى ، إلى أن وصل الأرجونيون إلى بلده واستولوا عليها ، وذلك في سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) فعندئذ عول على مغادرة الأندلس قاطبة ، وركب البحر في أهله إلى تونس ، ونزل بها في كنف أميرها ، إلى أن توفي سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) (١).

وكان الأرجونيون خلال ذلك قد استولوا على ثغر دانية ، وذلك في شهر ذى الحجة سنة ٦٤١ هـ (مايو ١٢٤٤ م) ، وبعد ذلك بنحو عامين استولوا على شاطبة ، وذلك في آخر صفر سنة ٦٤٤ هـ (يوليه ١٢٤٦ م) . وكانت شاطبة منذ أيام المتوكل ابن هود ، قد تولى رياستها من قبله يحيى بن أحمد بن عيسى الحرزجى ، فلما توفي في شعبان سنة ٦٣٤ هـ ، وليها من بعده ، ولده أبو بكر محمد ، وولى كذلك دانية حيناً ، واستمر على ولايته لشاطبة أعواماً من بعد سقوط بلنسية ، وهو يصانع الملك خايمى ، ويؤدى إليه ماشاء من جزية ، إلى أن قرر خايمى في النهاية الاستيلاء عليها ، فدخلها الأرجونيون صلحاً في التاريخ المتقدم (صفر ٦٤٤ هـ) وذلك بعد حصار قصير . ولم يمض سوى عام ونصف حتى نقضوا الهدنة مع أهلها المسلمين ، وأرغموهم على الجلاء عنها وذلك في رمضان سنة ٦٤٥ هـ (٢) ففرقوا في مختلف البلاد ، وغادرها واليها السابق أبو بكر في أهله ولجأ إلى أحد الحصون القريبة منها . وكان أبو بكر بن يحيى هذا ، أديبا متمكناً من النثر والنظم ، وقد أورد لنا ابن الأبار شيئاً من نظمته (٣).

وهكذا استولى الأرجونيون من بعد بلنسية ، خلال أعوام قلائل فقط على سائر القواعد القريبة منها ، جزيرة شقر ، ودانية ، وشاطبة ، والبيضاء ، ولقنت (٤) وغيرها ، ولم يبق من قواعد الشرق بيد المسلمين سوى مرسية وأحوازها . على

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٨ ، و ج ٦ ص ٢٨٥ . ويقول صاحب الذخيرة السنية إن

زيان لجأ إلى حصن اللش (ألش) . وراجع : M.G. Remiro : Ibid; p. 295 & 296

(٢) ابن الأبار في التكلة (القاهرة) ج ١ ص ١٢٤ و ٣٣٤ .

(٣) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ٢٤٧ و ٢٤٨ . وفي التكلة « القاهرة » في الترجمة رقم

٣١٠ و ٩٠٧ .

(٤) يضع صاحب الذخيرة السنية تاريخ استيلاء النصارى على دانية ولقنت وألش وأوريولة وقرطاجنة في سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) (ص ٦٥) ولكننا نرجح فيما يتعلق بدانية ولقنت ، ماتقدم من الروايات . ثم هو يعود فيذكر لنا مرة أخرى أن سقوط أوريولة كان في سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م) (ص ٨٧) . ولكن سنرى أن هذه القواعد الأخيرة قد تأخر سقوطها إلى ما بعد ذلك .

أن القدر كان أيضاً بالمرصاد لمرسية ، وإن كان قد طوح بها إلى مصير آخر .

- ٥ -

وذلك أنه لما نجح بهاء الدولة محمد بن هود ، في انتزاع حكم مرسية من الأمير أبي جميل زيان ، وذلك في سنة ٦٣٨هـ ، كان ابن عصام صاحب أوريولة من أنصاره والمعرفين بطاعته ، ولكن لورقة لبثت مع ذلك محتفظة باستقلالها برياسة واليها ابن أحلي .

على أنه لم يمض سوى قليل حتى شعر أهل مرسية أن الأمور لا يمكن أن تسير على هذا النحو ، وأن توالى سقوط قواعد الشرق في يد الأرجونيين ، سوف يحدد مصير مرسية ، عاجلاً أو آجلاً ، ومن جهة أخرى فإن انضواء مرسية تحت لواء أمير إفريقية الحفصى لن يغنى شيئاً ، لبعد الشقة ، وتعذر العون ، ومن ثم فقد قرر أشياخ مرسية بالاتفاق مع بهاء الدولة أن يتفاهموا مع النصارى ، رجاء صونها من الغزو والتخريب ، واتجهوا في ذلك إلى ملك قشتالة ، إما لأنهم أثروا القشتاليين على الأرجونيين ، وإما لأنهم كانوا يعلمون أن مدينتهم تقع في منطقة الغزو القشتالى ، وبعثوا إلى ملك قشتالة سفارة على رأسها أحمد بن محمد بن هود ولد واليها ، يعرضون عليه الاعتراف بطاعته وتأدية الجزية إليه ، وأن يسمح له بوضع حامية بالمدينة . وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذا العرض في سنة ٦٣٩هـ الموافقة لسنة ١٢٤١م ، وهو التاريخ الذى تقدمه لنا الرواية النصرانية^(١) .

وكان ملك قشتالة فرناندو الثالث يومئذ مريضاً في برغش ، وكان ولده وولى عهده الإنفانت ألفونسو بمدينة طليطلة ، فوفدت عليه هنالك سفارة مرسية ، فاستقبلهم باسم والده الملك ، وأبلغ النبأ في الحال إلى فرناندو ، فوافق على عرض أهل مرسية ، وصرفهم الإنفانت بعد التفاهم معهم على تسلم المدينة ، ثم سار بعد قليل في نفر من صحبه صوب مرسية ، حيث التقى في الكرس بنواب مرسية ، وعقد معهم معاهدة التسليم ، ودخل ألفونسو ولى عهد قشتالة وصحبه ، ومعهم أحمد بن محمد هود مرسية ، وتسلموها صلحاً ، وذلك على الاعتراف بالطاعة ، وأداء الجزية ، وبقاء حكمها بأيدي أهلها ، وذلك في اليوم العاشر من شوال سنة ٦٤٠هـ (٢ أبريل ١٢٤٣ م)^(٢) . ووضع القشتاليون بعض

(١) الذخيرة السنية ص ٦٤ ، وكذلك : J. Gonzalez : *ibid*; p. 88

(٢) هذه هى رواية ابن الأبار في التكلة (القاهرة) في الترجمة رقم ٢٦٧١ ، ولكن المقرئ =

الجند في مرسية ، وفي بعض الحصون التابعة لها ، واحتفظ أمير مرسية بسيادته الثامة على لقنت ، وأوريوله ، وألش ، وبعض الأماكن الأخرى الداخلة في أعمال مرسية . وكذلك فإن لورقة ، ومولة ، وقرطاجنة ، وهى من أعمال مرسية ، لم تدخل في هذا التسليم ، واحتفظت باستقلالها حيناً ، حتى استولى عليها القشتاليون في سنة ١٢٤٥ م . أما مرسية فلبثت عدة أعوام أخرى تحت حكم واليها محمد بن هود ، بهاء الدولة ، ثم بعد وفاته تحت حكم ولده أبى جعفر أحمد ، وذلك تحت حماية ملك قشتالة . وكان والى مرسية يعرف عندئذ عند النصارى بملك مرسية . وكان من الغريب أن « تبقى مملكة مرسية » الإسلامية قائمة على هذا النحو تتمتع بنوع من الاستقلال ، بعد أن سقطت بلنسية ، وكل أعمالها ، وأضحى النصارى يشرفون عليها من لقنت وألش وغيرها من قواعد هذه المنطقة . ولكن ذلك يمكن تفسيره أولاً ، بما وقع من الاضطرابات المستمرة في بلنسية ضد الأرجونيين ، وقيام المسلمين المدجنين في بلنسية ، وشاطبة ، ومريبطرو قسطلونة وغيرها ، ومحاولتهم استرداد استقلالهم بقوة السلاح ، واستردادهم بالفعل لبعض الحصون الهامة (سنة ١٢٥٤ م) ، وثانياً باشتداد ساعد مملكة غرناطة ، المملكة الإسلامية الجديدة التى أنشأها ابن الأحمر في جنوى الأندلس ، وتهديدها من آن لآخر بإنجاد أهل مرسية ومعاونتهم . وكان خايمى ملك أراجون حينها اشتدت الاضطرابات في بلنسية وأحوازها ، قد عمل على تدعيم معظم الحصون بحاميات جديدة ، وأخرج بالقوة آلاف مؤلفة من المسلمين المدجنين من أراضى بلنسية ، فقصدوا إلى مرسية وأعمالها وتفرقوا فيها ، وذبحت آلاف أخرى منهم إلى مملكة غرناطة . وفرض القشتاليون على المهاجرين منهم إلى مرسية وأعمالها ضريبة لدخولهم قدرها بيسانتى Besante عن كل فرد . واشتد ساعد « مملكة مرسية » بمن وفد إليها من هذه الجموع المهاجرة ، واستطاعت أن تفرض احترام استقلالها الداخلى على النصارى فترة أخرى .

واستمر أبو جعفر أحمد بن هود واليا لمرسية وأحوازها حتى سنة ١٢٦٢ هـ (١٢٦٤ م) ؛ وفي هذا العام خرج عليه ، أبوبكر محمد بن محمد بن يوسف ابن هود ، وكان قد حكم مرسية بضعة أشهر عقب وفاة أبيه المتوكل ، وتسمى

= يقول لنا إن ذلك وقع في العاشر من شوال سنة ٦٣٩ هـ (١١ أبريل ١٢٤٢ م) (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨٥) وراجع أيضاً : M.O. Remiro ; ibid ; p. 296

بالوائق ، ثم تغلب عليه عمه عضد الدولة بن هود ، ثم جاء أبو جليل زيان فانتزع الحكم منه حسبما فصلناه فيما تقدم ، إلى أن تغلب عليه بها الدولة ابن هود ، وفي خلال ذلك كان الواثق يعيش مغموراً هادئاً ، إلى أن سنحت له الفرصة لينتزع الحكم من أبي جعفر . وكان الواثق يعتقد أنه يستطيع بمعاونة المسلمين المدجنين في منطقة الشرق ، ومعاونة ابن الأحمر ملك غرناطة ، أن يخلع طاعة النصارى ، وأن يسترد لمرسية كامل استقلالها . وربما كان قد شعر أيضاً أن قشتالة لم تكن من القوة كما كانت أيام فرناندو الثالث . وكان فرناندو قد توفي منذ سنة ١٢٥٢م ، وخلفه ولده ألفونسو العاشر ، وشغلت قشتالة في ظله بصراعها مع مملكة غرناطة . ومن ثم فقد أعلن الواثق خلع طاعة ملك قشتالة ، لأنه لم يلزم الوفاء بما تعهد به في معاهدة التسليم ، وخرق نصوصها بالاستطالة على حقوق مملكة مرسية ، وبعث إلى رومة سفيراً يسعى لدى البابا ، ليحمل ملك قشتالة على الوفاء بعهوده ، من عدم التدخل في شئون مملكة مرسية ، واستمر متمسكاً باستقلاله ، ولكنه لما شعر بأن جند الملك خايمي ملك أراجون ، بدأت تغير على أراضي مرسية وترهق أهلها ، أعلن طاعته لابن الأحمر ملك غرناطة ، وبعث إليه ابن الأحمر قوة من جنده بقيادة صهره الرئيس أنى محمد بن أشقيلولة ، فقدم إلى مرسية وضبط أمورها ، وخطب بها لابن الأحمر .

ويقدم إلينا ابن عذارى شرحاً آخر لتطور الحوادث في مرسية فيقول ، إن أهل شرق الأندلس كانوا قد صالحوا الروم بمال معلوم ، يدفعونه لهم في كل عام ، وأعطى أهل مرسية قصبتهم للروم . فلما ذاع فيهم ضرر الروم وأذاهم ، أخرجوهم بالقتال والحصار ، وكتب أهل مرسية إلى الأمير ابن الأحمر ببيعتهم ، فبعث إليهم الرئيس أبا محمد بن أشقيلولة والياً . فزحف النصارى إليها ، ونزلوا عليها ، وحصروا الرئيس فيها ، ثم غادرها مع صحبه . وهكذا اضطر ابن الأحمر أن يتخلى عن حماية مرسية ، واضطر نائبه ابن أشقيلولة أن يغادرها مع جنده . ويضع ابن عذارى تاريخ هذا الحادث في سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤م) ويزيد على ذلك أن أهل مرسية لم يجدوا بعد ابن الأحمر حماة ولا أنصاراً ، واشتد عليهم حصار العدو وتألبه ، فأعطوا مرسية للنصارى وخرجوا منها بالأمان إلى «الرشاقة» ، فسكنوا بها نحو عشرة أعوام ، إلى أن أخرجهم النصارى منها بالأمان في سنة ثلاث وسبعين ، ولكنهم غلبوا بهم في الطريق بموضع يعرف ببوركال ، فقتلوا الرجال ، وسبوا النساء

والأطفال^(١). ولكن الرواية النصرانية تقول لنا بالعكس ، إنه على أثر مغادرة جند ابن الأحمر لمرسية ، رد أهلها الأمر ثانية إلى الوائق ابن هود ، ففضى في حكمها فترة قصيرة أخرى ، إلى أن افتتحها الملك خايى ، وذلك على النحو الآتى :

فى تلك الأثناء ، كان ملك قشتالة ألفونسو العاشر ، يعانى صعبا فى الاحتفاظ بفتوحه الجديدة فى الأندلس ، ولاسيا فى منطقة شريش وشذونة ، ويرقب نشاط ابن الأحمر ملك غرناطة وازدياد قوته بعين التوجس والخوف. وزاد قلقه من جراء ذلك بما حدث من عبور بعض قوات بنى مرين من المغرب إلى الأندلس ، لمناصرة ابن الأحمر. وكان من جهة أخرى يرى نفسه عاجزاً عن قمع ثورة مرسية ، واسترداد سيادته عليها ، ومن ثم فقد بعث إلى حميه خايى ملك أراجون — وكان قد تزوج بابنته الأميرة فيولانتى ، وارتبط معه برباط المصاهرة والصدافة الوثيقة — يطلب إليه المعاونة فى منطقة مرسية ، لأن الثورة فى مرسية تهدد سيادته فى بلنسية ، ومن ثم فقد قرر الملك خايى ، بعد استشارة الأمراء والأخبار ، أن يسير لافتتاح مرسية ، بالرغم من كونها تقع فى منطقة نفوذ قشتالة ، وذلك نزولا على رغبة ملك قشتالة نفسه^(٢). فجهز حملة قوية ، وسار جنوبا صوب مملكة مرسية ، وزحف أولا على حصونها الأمامية ألش ولقنت وأوريوله ، واستولى عليها ، ثم بقى فى أوريوله ، وضربت جنده الحصار حول مرسية ، وبذل الأرجونيون كل جهد للتضيق على المدينة المحصورة ، ورد كل أمداد يصل إليها من غرناطة ، واستمر الحصار بضعة أشهر. فلما رأى الوائق أنه لامفر من التسليم ، بعد أن نفدت سائر الموارد ، وغاض كل أمل ، فاوض الملك خايى فى التسليم ، واتفق معه على أن يعوضه عن مرسية بـ « يسر » ليقم فيه هو وأهله وصحبه. وهكذا سلمت مرسية آخر قواعد الشرق الكبرى ، ودخلها الملك خايى الأرجونى وذلك فى شهر فبراير سنة ١٢٦٦ م. وهو يوافق التاريخ الذى تضعه الرواية الإسلامية لسقوط مرسية ، وهو سنة ٦٦٤ هـ ، وأن كانت ثمة روايات نصرانية أخرى تضع تسليم مرسية فى سنة ١٢٦٩ أو ١٢٧٠^(٣) م. ولم يطلب الملك خايى

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٤٣٨ .

(٢) M. Lafuente : ibid ; T. IV. p. 132

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ . وهو يحمل سقوط مرسية فى كلمة عابرة ، وإنما استقينا التفاصيل المتقدمة من كتاب : G. Remiro : ibid ; p. 300-303 . وفيها يلخص مختلف الروايات النصرانية .

من اهل مرسية الجلاء عن أرضهم كما حدث في بلنسية وقواعدها ، ولكنه طلب إليهم فقط أن يسمح لأهل أراجون وقطلونية بالهجرة إلى أراضي مملكة مرسية . وكان قد حمل على هذا الاعتدال ، بما حدث في بلنسية وقواعد الشرق الشمالية من الاضطرابات العنيفة على إثر إخراج سكانها من أوطانهم .

وهكذا استولى خايمي الفاتح على سائر ثغور شرقي الأندلس وقواعده ، من بنشكلة وقسطلونة شيالا ، حتى قرطاجنة ولورقة جنوبا ، وذلك في فترة لا تتجاوز الثلاثين عاما ، وانتهت بذلك سيادة الإسلام في تلك الرقعة الكبيرة من الوطن الأندلسي القديم ، بعد أن لبث بها أكثر من خمسة قرون ، وأضحى أهلها المسلمون الذين آثروا البقاء بأوطانهم القديمة ، واستسلموا إلى قدرهم في ظل حكم السادة النصاري، الجدد ، مدجنين Mudéjares تعصف بهم إرادة الفاتح ، وتسلبهم حقوقهم الدينية والمدنية ، ومميزاتهم القوية شيئا فشيئا ، ولا تنفعهم ثورتهم المتكررة في سبيل الاحتفاظ بكيانهم ، حتى غدوا بمضى الزمن مجتمعاً غريبا في بلاده ، وفقدوا دينهم القديم ، ولغتهم العربية ، وغلبت عليهم الذلة والعبودية ، وحتى هذه الحياة المسكينة الذليلة في ظل آثار دينهم ولغتهم لم تدم ، وكان أن أرغموا بعد ذلك على التنصير ، واعتناق دين الغالب ولغته ، وأضحى تاريخهم في ظل الحكم الإسباني ، وظل الكنيسة الإسبانية ، ومحاكم التحقيق ، مأساة من أروع مآسي التاريخ ، وأبلغها إيلا ما للنفس ، وهي التي تعرف بمأساة المورييسكيين أو العرب المنتصرين^(١) .

(١) تناولنا كل ما يتعلق بمصائر المدجنين وأحوالهم وتاريخ المورييسكيين بتفصيل واف في كتابنا « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين » (ص ٤٧ - ٥٨) .

الفصل الرابع

مسقوط أشبيلية

وقواعد الغرب

ابن الأحمر واشتداد ساعده . يعتزم محاربة القشتاليين . محاصرته لمقرش . هزيمته للقشتاليين . غزو فرناندو الثالث للأندلس الوسطى . عيشه في أحواز جيان . افتتاحه لأرجونة وغزوه لفحص غرناطة . يعتزم افتتاح جيان . أهبة جيان وحصانها . مسيره إلى جيان وحصارها . استنجاد واليها بابن الأحمر . طول الحصار ونفاد المؤن . موقف ابن الأحمر . يؤثر التفاهم مع ملك قشتالة . اعترافه بطاعة فرناندو . بقية شروط المعاهدة المعقودة . دخول القشتاليين جيان . جيان ومركزها التالذ بين قواعد الأندلس . الأماكن الأخرى التي نزل عنها ابن الأحمر . انهيار الأندلس الشرقية والوسطى . تحول أنظار النصارى إلى إشبيلية . إشبيلية ومركزها أيام الفتنة . تطور مصايرها منذ قيام ابن هود . عودها إلى طاعة الموحدين . استقلالها المحل . اعترافها بطاعة الدولة الحفصية . سبته تحلو حذوها . الأمير أبو زكريا يعين والياً لإشبيلية ويوجه رسالة إلى أهلها . سوء تصرف الحكام الإفريقيين . أهل إشبيلية يخرجونهم ويقتلون زعيمهم ابن الجد . ماذا وراء ثورة أهل إشبيلية . زعماء إشبيلية الجدد . إعلانهم إلغاء المعاهدة التي عقدت بين ابن الجد وملك قشتالة . مضمون هذه المعاهدة . غضب ملك قشتالة لمصرع ابن الجد . محاولة الزعماء تجديد المعاهدة مع فرناندو . رفض فرناندو واعترافه بفتح إشبيلية . منعة إشبيلية وظروفها الجغرافية . فرناندو يعتزم أخذها بالحصار . مسيره إليها في قواته . معاونة ابن الأحمر للنصارى . استيلاء فرناندو على قلعة جابر . عيث القوات القشتالية في فحص الشرف وفحص شريش . تجهيز السفن للحصار . معاونة البابا في المشروع . فرناندو يجهز قوات الغزو النهائي في قرطبة . البدء بمهاجمة قرمونة . اشتراك جند ابن الأحمر في ذلك . تطويق النصارى لقرمونة . عرض أهلها للتسليم . استيلاء فرناندو على لورة وقنطلانة . تسليم غليانة وجرينة . مهاجمته للقلعة . دفاعها ثم تسليمها . دور ابن الأحمر في تسليم هذه المعاقل . مقدم أسطول الحصار . يربط في الوادى الكبير . ظروف إشبيلية الدفاعية واستعدادها للدفاع . قصور الرواية الإسلامية في التعريف بزعماء إشبيلية ودورها الدفاعي . بداية الحصار . مهمة الأسطول النصارى . اشتراك ابن الأحمر وجنده في الحصار . إشبيلية تتلقى الأمداد من النهر ومن وادى الشرف . المعارك المستمرة بين الإشبيليين والنصارى . عيث النصارى في ضواحيها . السفن المغربية تصارع السفن النصرانية وتحصى خط إمداد المدينة . محاولتها حرق السفن النصرانية . مقدم قوات الفرسان والأبحار والمدن النصرانية لتعزيز الحصار . صريح أهل إشبيلية إلى أمراء المغرب . قصيدة ابن سهل الإشبيلي . قصيدة أبي موسى هرون . تحطيم النصارى لقطرة طريانة . مهاجمة النصارى لطريانة . دفاع الحامية الإسلامية . محاصرة طريانة وفصلها عن إشبيلية . اشتداد محن الحصار على المدينة . وصف ابن عذارى لذلك . اجتماع الزعماء وبحث الموقف . عرض الزعماء التسليم الجزئى . رفض ملك قشتالة وإصراره على التسليم الشامل . المفاوضة في التسليم وشروطه . إخلاء المسلمين للمدينة . تأمين

النصارى للمهاجرين . مسيرهم إلى العدو وختلف أنحاء الأندلس الباقية . عبور القائد شفاف وزملائه إلى سبتة . مصيرهم المؤسى . دخول فرناندو الثالث إشبيلية . تحويل الجامع الأعظم إلى كنيسة . تقسيم دور المسلمين بين الفاتحين . إشبيلية تندو عاصمة قشتالة . تأملات عن سقوط إشبيلية . افتتاح القشتاليين لقواعد هذه المنطقة . خضوع ابن محفوظ صاحب لبله . خضوع صاحب شريش . أحوال شريش بعد ذلك . سقوط قادس . القاضي ابن محفوظ ومدى رياسته . تفاهه مع ملك قشتالة . نزوله عن بعض الحصون والأماكن . استيلاء البرتغاليين على ميرتلة وشلب وطيرة وشنتمرية الغرب . خروج ابن محفوظ على ملك قشتالة ألفونسو العاشر . مسير ألفونسو إلى لبله ومحاصرتها . مناعة لبله وصمودها . إطلاق المسلمين منها آلات تشبه المدافع . تسليم لبله . مصير ابن محفوظ . الخلاف بين البرتغال وقشتالة على بعض قواعد الغرب . فرناندو الثالث . إشادة الرواية النصرانية بعقريته . يعتبر قاهر الأندلس الحقيقي . البابا يسبغ عليه صفة القداسة .

— ١ —

في نفس الوقت الذى كانت فيه قواعد الشرق ، تسقط تباعا في أيدي الأرجونيين ، كان ملك قشتالة فرناندو الثالث ، منذ استولى على قرطبة عاصمة الخلافة القديمة في شوال سنة ٦٢٣ هـ ، يتابع غزواته وفتوحه في منطقة الأندلس الوسطى .

وكان محمد بن الأحمر أمير غرناطة ، يعمل خلال هذه الفترة على توطيد مركزه في الأندلس الجنوبية ، وقد قوى أمره ، واشتد ساعده ، ونمت موارده ، باستيلائه على ألمرية ومالقة عقب وفاة ابن هود ، وغدا يبسط سلطانه على سائر المنطقة الممتدة من جنوبى الوادى الكبير حتى البحر ، ومن ألمرية غربا حتى رندة .

ولم ينس ابن الأحمر أمر المنطقة الشمالية التى بدأ منها ، وآلى بها موطنه ومنشأ أسرته ، وهى منطقة جيان وأرجونة . وكان القشتاليون ، منذ استيلائهم على قرطبة ، قد عاثوا مراراً في تلك المنطقة ، وخرّبوا ربوعها ، فلما شعر ابن الأحمر باشتداد ساعده وتكاثر جمعه ، اعتزم أن يسير لقتال القشتاليين ، وأن يعمل على تحرير تلك المنطقة من عيهم ، فخرج من غرناطة في قوة كبيرة ، وقصد إلى إلى مرتش وهى بلدة حصينة تقع جنوب غربى جيان ، وكانت بيد القشتاليين ، وضرب حولها الحصار ، (سنة ٦٣٦ هـ) ، ولكن النصارى قدموا لإنجادهاء بسرعة ، واضطر ابن الأحمر أن يرفع الحصار . وهنا وقعت بينه وبين القشتاليين بقيادة دون رديجو ألونسو ، وهو أخ غير شرعى لفرناندو الثالث ، معركة عنيفة هزم فيها القشتاليون هزيمة شديدة ، وقتل منهم ومن كان معهم من فرسان

سنت ياقب عدد جم . وكان لذلك الحادث أعمق وقع في قشتالة . ومضى على ذلك نحو عامين أو ثلاثة ، ثم نهض فرناندو الثالث لتدارك الموقف ، وخرج في قواته قاصداً إلى الأندلس من ناحية أرجونة ، وهو يخرب تلك الأنحاء ، وينتسف زروعها . ثم سار جنوباً نحو جيان والقبذاق ، وكان يتوق للانتقام لهزيمة جنده في مرتش ، فعرب أيضاً أراضي تلك المنطقة . ثم بعث جانباً من قواته لافتتاح أرجونة ، وهى موطن ابن الأحمر ومثوى أسرته ، فحاصرها القشتاليون مدى يومين ، وفي اليوم الثالث أشرف عليها فرناندو في بقية جيشه ، فلما أيقن أهلها المسلمون أنه لا أمل لهم في الصمود والإنجاد ، سلموها بالأمان وغادروها حاملين أمتعتهم وذخائرهم ، وبعث فرناندو قواته صوب الجنوب لتغزو فحوص غرناطة ، فعاثت في أنحائها وخربت كثيراً من ربوعه . ووقعت هذه الحوادث في أواخر سنة ١٢٤٤ م (أواسط سنة ٦٤٢ هـ) ثم قصد فرناندو بعد ذلك إلى قرطبة فاستراح بها حتى أوائل العام التالى :

وكان أهم هدف لملك قشتالة في تلك المنطقة ، هو الاستيلاء على مدينة جيان عاصمتها الثالثة ، وأمنع قواعدها ، وكان قد حاصرها قبل ذلك في سنة ١٢٣٠ م (٦٢٧ هـ) ولكنه أخفق في الاستيلاء عليها ، وكان ابن الأحمر قد اتخذها مقراً لرياسته في مبدأ أمره . وكانت جيان مدينة عظيمة ، حسنة التخطيط والبناء ، ذات صروح وآثار جميلة ، وكانت تتمتع بمناعة فائقة ، سواء بأسوارها العالية ، أو بقلعتها الحصينة الشامخة ، التى مازالت أطلالها القائمة تنبئ بحصانتها القديمة ، كما أنها بموقعها الطبيعى في منطقة من البسائط الخضراء اليبانة ، كانت من أغنى قواعد الأندلس الوسطى وأكثرها رخاء^(١) . وكان الاستيلاء عليها يحقق للقشتاليين بسط سلطانهم على سائر أنحاء تلك المنطقة الغنية الحصينة . ومن ثم فقد عول فرناندو على افتتاحها ، ولم يك ثمة سبيل آخر لتحقيق هذه الغاية سوى محاصرة هذه المدينة الكبيرة الغنية ، حتى يرغمها الجوع على التسليم .

وفي أواخر سنة ٦٤٢ هـ (أوائل سنة ١٢٤٥ م) ، أشرف فرناندو الثالث بقواته على مدينة جيان ، وضرب حولها الحصار . ولم يكن هذا الحصار أمراً هيناً لوقوعه في قلب الشتاء ، وكان اشتداد البرد وهطل الأمطار ، يضاعف متاعب الحشد المحاصرين ، واستمر الحصار على هذا النحو شهراً ، وجيان صامدة ، وقد

خرج أهلها غير مرة لمقاتلة القشتاليين ففتكوا بهم وقتلوا وجرحوا الكثيرين منهم . بيد أن المدينة المحصورة كانت من جهة أخرى تعاني من الحرمان والجوع . وكان واليها أبو عمر على بن موسى ، حينما شعر بتحركات القشتاليين ومراميمهم ، قد أرسل قبل الحصار إلى ابن الأحمر يستغيث به ، ويطلب لإنجاده بالمون ، لكي تستطيع المدينة مقاومة النصارى ، فبعث إليه ابن الأحمر بقافلة كبيرة من المون استطاعت أن تجتنب القشتاليين ، وأن تصل إلى المدينة ، فلما طال الحصار نفدت الأقوات ، وأخذ الموقف يتحرج ، ومع ذلك فقد لبثت المدينة على صمودها .

وكان ابن الأحمر خلال ذلك يرقب الحوادث بمنتهى الخزع ، وكانت غزوات القشتاليين قد وصلت غير مرة ، إلى فحص غرناطة ، وإلى غرناطة ذاتها ، وشعر ابن الأحمر أنه لا بد أن يلتمس الوسيلة لتأمين سلطانه ، واجتناب عادية القشتاليين ، ولم يك ثمة وسيلة أنجع من التفاهم مع ملك قشتالة ، والحصول على مهادنته . ومن جهة أخرى فقد أدرك ابن الأحمر ، أنه لاسبيل إلى لإنجاد جيان ، أو اجتناب مصيرها المحتوم ، وأنه يحسن تدارك الموقف ، قبل أن تسقط المدينة في أيدي القشتاليين ، أو يقومون باقتحامها وتخريبها . ومن ثم فقد بدأ ابن الأحمر بمفاوضة ملك قشتالة ، وكان فرناندو الثالث يصر على أن يكون أساس التفاهم مبدأً واحداً لاسبيل إلى تغييره ، هو وجوب خضوع ابن الأحمر لسيادته ، والاعتراف بطاعته . ولم ير ابن الأحمر محيصاً عن قبول هذا الشرط المؤلم ، فسار بنفسه إلى المعسكر القشتالي تحت أسوار مدينة جيان ، وقدم طاعته إلى ملك قشتالة . وعقدت بين الملكين معاهدة سلام وتحالف ، خلاصتها أن تسلم مدينة جيان وأعمالها في الحال إلى ملك قشتالة ، وأن يحكم ابن الأحمر مملكة غرناطة وسائر أراضيها ، باعتباره تابعاً لملك قشتالة ، بكل ما يستتبعه هذا الاعتراف من فروض ، ومنها أن يتعاون ابن الأحمر مع قشتالة في الحرب وفي السلم ، وأن يشهد اجتماع الكورتيس (مجلس قشتالة النيابي) ، وأخيراً أن يؤدي ابن الأحمر إلى ملك قشتالة جزية قدرها مائة وخمسون ألف مرافيدى تؤدى خلال عشرين عاماً ، وهى المدة التى اتفق أن يعقد خلالها السلم والتهادن بين الفريقين . وتم عقد هذه المعاهدة في أوائل سنة ١٢٤٦ م (أواخر سنة ٦٤٣ هـ) (١) .

وعلى أثر ذلك دخل القشتاليون مدينة جيان العظيمة ، وحول مسجدها الجامع

في الحال إلى كنيسة ، وغادرها معظم أهلها المسلمين ، وتفرقوا في قواعد الأندلس الجنوبية . ولما تم احتلال الحند النصرى للمدينة ، دخلها ملك قشتالة ، في موكب فخم ، وشهد القداس الذي أقيم في جامعها ابتهاجاً بالنصر ، ووزع دور المدينة على أكابر الفرسان ، ومعظمهم من جماعة فرسان شنت ياقب ، وجماعة فرسان قلعة رباح .

وكانت جيان من مراكز العلوم والآداب بالأندلس ، وإليها ينتسب عدد كبير من العلماء والأدباء ، ومنهم الحافظ أبو علي الجياني ، والفقيه أبوذر مصعب ابن محمد بن مسعود الحشني . ومما أنشده بعض أهل جيان عند الخروج منها هذان البيتان :

أودعكم أودعكم جياني وأنثر عبرتي نثر الجمان
واني لا أريد لكم فراقا ولكن هكذا حكم الزمان^(١)

ونزل ابن الأحمر للقشتاليين ، عدا جيان ، عن أرجونة بلده ومثوى أسرته ، وعن بركونة وبيغ والحجار ، وكذلك نزل إليهم عن أرض الفرنتيرة لعجزه عن الاحتفاظ بها^(٢) . وهكذا اشترى ابن الأحمر سلامته ، وسلامه مملكته وأراضيه بهذا الثمن القادح ، وارضى بالأخص أن يضحى باستقلاله السياسي وهيئته الماوية إلى حين ، وذلك لكي يأمن شر عدوان خصمه القوى القاهر ، ولكي يتفرغ إلى تنظيم مملكته وإلى توطيد سلطانه الداخلي^(٣) .

— ٢ —

كان من الواضح ، في تلك الآونة ، بعد أن توالى سقوط قواعد الأندلس الكبرى ، الشرقية والوسطى : قرطبة وبلنسية وشاطبة ، ودانية ، وبياسة ، وأبدة وجيان ، وكثير غيرها ، وذلك كله في فترة قصيرة لاتعدو عشرة أعوام ، أن الأندلس الكبرى قد انهارت دعائمها ، وتحطمت منعها ، وقواها الدفاعية ، وأنه باستثناء القواعد الجنوبية التي اجتمعت في ظل مملكة غرناطة ، والتي يسيطر عليها

(١) الروض المطار ص ٧٢ .

(٢) أرجونة بالإسبانية Arjona ، وبركونة Porcuna ، وبيغ أويغو Priego ، والحجار هي Higuera ، وكلها تقع في منطقة جيان .

(٣) راجع ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ ، والذخيرة السنية ص ٧٢ ، وابن الخطيب في اللوحة للبدرية ص ٣٦ ، وفي الإحاطة المطبوع ج ٢ ص ٦٥ .

ابن الأحمر ، لم يبق من قواعدها الكبرى دون فتح ، سوى مدينة إشبيلية العظيمة وأحوازها ، والقواعد القريبة منها في الشرق والغرب والجنوب .

كانت إشبيلية بعد قرطبة ، هي التي تجذب عندئذ أنظار ملك قشتالة ، وأنظار الأحرار وجماعات الفرسان النصاري ، وهم الذين كانوا يفوزون من غنائم المدن المفتوحة ، بأعظم قسط . ولكن إشبيلية لم تكن هدفاً سهل المنال ، ولم تكن مثل قرطبة مجردة من وسائل الدفاع ، وكانت خطوطها الدفاعية الأمامية ، مائتال تدعمها طائفة من القواعد والحصون القوية ، التي كان لابد من إخضاعها قبل الإقدام على منازل إشبيلية ذاتها .

وكانت إشبيلية منذ عمت الفتنة أرجاء الأندلس ، وتوالت الثورة ضد الموحدين في مختلف القواعد ، تتولى مصايرها بنفسها ، وترسم لنفسها خطة قيادتها وحكمها . وكانت باعتبارها أعظم حواضر الأندلس في ذلك العصر ، وباعتبارها مركز الحكم الموحدى بالأندلس ، تتخذ مركز القيادة في تصرفاتها واتجاهاتها ، وقد لبثت تحتفظ بهذه الصفة ، حتى قيام أبي العلي المأمون بها ، واتخاذها لقب الخلافة ، وذلك في سنة ٦٢٤هـ ، ثم مغادرته لها ليعبر إلى العدو ، وذلك في أواخر سنة ٦٢٦هـ (أواخر سنة ١٢٢٨م) .

ولما قام ابن هود بثورته في شرقي الأندلس ، وبزغ نجمه ، وأطاعته معظم القواعد الشرقية والوسطى ، خلعت إشبيلية طاعة الموحدين ، ونادت بطاعته ، وولى عليها أخاه عماد الدولة . ولكن أهل إشبيلية لم يلبثوا طويلاً على طاعته ، فنكثوا ببيعته ، وأخرجوا أخاه من المدينة ، والتفوا حول قاضيه ابن مروان الباجي ، وذلك في سنة ٦٢٩هـ . ولما قوى أمر ابن الأحمر أمير جيان يومئذ في المنطقة الوسطى ، واشتدت المنافسة بينه وبين ابن هود ، تفاهم ابن الأحمر مع الباجي ، وتحالف الإثنان على قتال ابن هود ، وهزماه على مقربة من إشبيلية (٦٣١هـ) ، ودخل ابن الأحمر إشبيلية ، وغدر بحليفه الباجي ، ودس عليه من قتله ، فثار به أهل إشبيلية ، وأخرجوه منها ، ونادوا بطاعة ابن هود مرة أخرى .

ولما توفي ابن هود في أوائل سنة ٦٣٥هـ ، وانهارت بوفاته دعوته في معظم القواعد ، رأى أهل إشبيلية أن يعودوا إلى طاعة الدولة الموحدية . وكان زعيمهم عندئذ الفقيه أبو عمرو بن الجلد ، وهو حفيد الحافظ الشهير أبي بكر بن الجلد ، وبعث أهل إشبيلية بدعوتهم وفداً إلى الخليفة الرشيد بمراكش ، وقدموا للولاية عليهم

السيد أبا عبد الله بن السيد أبي عمران ، وأقره الرشيد في منصبه ، وهكذا عادت الحاضرة الأندلسية الكبرى إلى الانضواء تحت لواء الخلافة الموحدية .

على أن هذا العود إلى طاعة الخليفة الموحدى لم يكن سوى مسألة شكلية فقط ، وكان حكم المدينة الفعلية باقيا بيد زعيمها القوى ابن الحد . وكانت لإشبيلية في الواقع منذ اضطرب أمر الموحدين ، وعمت الفتنة أرجاء الأندلس ، تتمتع في إدارة شئونها بنوع من الإستقلال المحلي ، وذلك بالرغم من انضوائها تحت لواء هذا الأمير أذاك . ثم ان هذا العود لم يطل أمده ، ذلك أن أحوال الخلافة الموحدية وما كان يضطرم حول عرش مراکش من الخلافات والحروب ، كان نذيراً بانحلال الدولة الموحدية وتضعف قواها ، وعجزها عن أن تنجد الأندلس وقت الخطر الداهم . ومن جهة أخرى ، فقد كانت الدولة الحفصية التي قامت بإفريقية على أنقاض سلطان الدولة الموحدية ، وأخذ نجمها يبرز في الأفق ، تبدو بما تتمتع به من القوى والموارد والفتوة ، ملاذاً أفضل وأقدر على تأدية رسالة المغرب القديمة في إنجاد شبه الجزيرة ، وكانت مبادرة أميرها أبي زكريا الحفصي إلى إنجاد بلنسية ، حينما دهمها النصارى استجابة لصريخ أميرها أبي جميل زيان سنة ٦٣٦ هـ ، مازال بالرغم من إخفاقها في تحقيق الغاية المنشودة ، مثلاً يضرب في الشهامة والوفاء ، والجهاد في سبيل الله . ومن ثم فقد انتهى أهل لإشبيلية بتوجيه زعيمهم أبي عمرو ابن الحد ، إلى خلع طاعة الخلافة الموحدية ، والاتجاه إلى الدولة الحفصية ، وإعلان بيعتها . وكان لهم في ذلك أسوة ، بما قام به ابن الأحمر نفسه في بداية أمره ، وما قام به أبو جميل زيان أمير بلنسية ، من مبايعة الدولة الحفصية والانضواء تحت لوائها .

وعقد أهل لإشبيلية بيعتهم للأمير أبي زكريا يحيى الحفصي في سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م) ، وبعثوا بها إلى تونس مع وفد من كبارهم . وفي نفس هذا العام أعلن أبو علي بن خلاص صاحب سبتة بيعته أيضاً إلى الأمير أبي زكريا ، وبعث بها مصحوبة بهدية إلى الأمير مع ولده في سفينة خاصة ، فغرقت باليم بمن فيها . ولما وصل وفد لإشبيلية إلى تونس ، وعلم بأمربيعة سبتة ، استقبل الأمير أبو زكريا البيعتين بمنتهى الارتياح ، وندب للولاية على سبتة ابن الشهيد الهنتاني ، وعلى أشغالها ابن أبي خالد البلنسي ، وندب لولاية لإشبيلية ابن أخيه أبا فارس عبد العزيز ابن الشيخ أبي حفص الكي يستقر في قصبتها ، ويشرف على شئونها إلى جانب

ابن الجلد^(١) ووجه الأمير إلى أهل إشبيلية بتاريخ العاشر من محرم سنة ٦٤٦ هـ رسالة ، يعرب فيها عن اغتيابه ببيعتهم ، ويعدهم بأن يمهدهم سبل إصلاح شئونهم ، وتوفير أمنهم وسلامتهم ، والبدار إلى إنجادهم عند النواثب والخطوب ، وأن يثقوا بنصر الله وإمداده^(٢) .

وعاد وفد إشبيلية بعد إتمام مهمته ، في تقديم البيعة للأمير الحفصى ، وصحبهم الوالى وبعض رجاله والقائم بالأعمال ، ووصلوا في جملة من السفن إلى إشبيلية ، وهناك قام أولئك النفر من أهل إفريقية بارتكاب ضروب من الفساد والأمور الشنيعة « التى لا يمكن ذكرها » . فأخرجهم أهل إشبيلية من مدينتهم ، وقتلوا ابن الجلد ، إذ كان هو السبب فيما حدث ، وأدى إلى مقدم هؤلاء القوم المفسدين . وتزيد الرواية على ذلك ، أن قتل ابن الجلد كان سببا في زحف النصارى على إشبيلية وحصارهم لها ، إذ كان ملك قشتالة مصادقا لابن الجلد « ومصالحا له على المسلمين » فلما قتل فسد هذا الصالح ، وقام النصارى بحصارهم^(٣) .

على أن ذلك لم يكن وحده سببا في قيام الثورة التى أودت برياسة ابن الجلد وحياته ، ذلك أنه كان لابن الجلد خصوم ومنافسون أقوياء ، وكان من أخطاء ابن الجلد ، أنه طرد أولئك الخصوم من ديوان الحكم ، وأخرج بعضهم من قيادة الجيش ، فنظمت المؤامرة ، وقامت الثورة . وكان أبرز زعمائها القائد شفاف وهو الذى تسميه الرواية الإسلامية « بقائد الفحص شفاف »^(٤) وتسميه الرواية النصرانية Axataf . وفى الحال تولى الزعماء الجدد الرياسة ، وأعلنوا بطلان المعاهدة التى عقدها ابن الجلد مع النصارى ، وجددوا الدعوة إلى طاعة أمير إفريقية الحفصى ، وانضوا إشبيلية تحت لوائه^(٥) .

— ٣ —

وأما حقيقة هذه العلاقات التى كانت قائمة بين ابن الجلد وبين فرناندو الثالث ملك قشتالة ، والتى كانت كفيلة بقيام التهادن بينه وبين النصارى ، وتأمين سلام

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٣٧٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ .

(٢) راجع نص هذه الرسالة فى البيان المغرب ص ٣٧٩ و ٣٨٠ .

(٣) البيان المغرب ص ٣٨١ . (٤) البيان المغرب ص ٤٠٠ .

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ ، وكذلك : Is. de las Cagigas : Sevilla Almohade y

ultimo Anos de su Vida Musulmana (Madrid 1951) p. 30

إشبيلية ، فردها إلى معاهدة كانت قد عقدت بين ابن الجلد باعتباره صاحب إشبيلية أو أميرها ، وبين ملك قشتالة ، على نمط المعاهدة التي عقدت بين هذا الملك وبين ابن الأحمر ، وخلاصتها أن يعترف بطاعة ملك قشتالة ، وأن يؤدي إليه الجزية . وأن يشهد اجتماعات « الكورتيس » باعتباره من أتباعه ، وأن يقدم إليه العون متى طلب إليه ذلك . وربما كانت تتضمن فوق ذلك ، تعهده بتسليم بعض المواقع والحصون في منطقة إشبيلية . وقد رأينا فيما تقدم أنه لم يكن يكفل سكّون ملك قشتالة الوقت ، ومسألة الزعماء المسلمين سوى هذه العهود وأمثالها . فلما قتل ابن الجلد ، وانقلب أهل إشبيلية إلى محاصرة النصارى ، غضب ملك قشتالة لما حدث ، وأبدى امتعاضه لمقتل صديقه ابن الجلد^(١) . وكان زعماء إشبيلية الجدد ، قد أدركوا غير بعيد ، ما قد يؤدي إليه محاصرة النصارى من سيئ العواقب ، فحاولوا السعى في تجديد الهدنة مع ملك قشتالة ، ولكن فرناندو الثالث لم يرد أن يعقد التفاهم مع زعماء إشبيلية الجدد ، وبالعكس فقد كان يرى أن يتخذ مصرع ابن الجلد ذريعة للتدخل والانتقام ، وأن هذا هو الطريق المفضل عندئذ للتصرف والعمل ، وأن الوقت حان لكي ينهض إلى افتتاح إشبيلية ، خصوصاً وقد أصبحت الحاضر الأندلسية العظيمة ، معزولة ، لا تستطيع أن تعتمد على أية معاونّة عاجلة ، لامن ملك غرناطة ، وقد خضع لملك قشتالة ، ولامن الموحدين ، وقد نكثت إشبيلية ببيعهم غير مرة ، ولامن أمر لإفريقية ، بعد الذي حدث نحو عماله . وهكذا استقر الأمر على غزو إشبيلية وانتهى السام الذي كان معقوداً بينها وبين القشتاليين^(٢) .

على أن افتتاح إشبيلية كبرى حواضر الأندلس ، وهى أزخرها سكاناً ، وأمنعها جانباً ، وأكثرها حصوناً وقلاعاً ، كان يقتضى أهبات خاصة . ومن جهة أخرى ، فإن أخذها بالحصار ، لم يكن أمراً ميسوراً ، إذ كانت تقع في منطقة كثيرة الخصب والثمار ، وكان اتصالها بالبحر عن طريق نهر الوادى الكبير ، يمكنها من تلقى الأمداد والمؤن من عدوة المغرب . ومن ثم فإنه كان من الواجب إذا استقر الأمر على أخذها بالحصار ، أن تخضع أولاً سائر حصونها الأمامية من سائر النواحي ، وثانياً أن تخرب سائر بساطتها الخضراء التي تمدّها بالمحاصيل

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ .

(٢) J. Gonzalez : ibid; p. 100 & 101

والموئن ، وثالثا أن تحكم محاصرتها من ناحية البحر بالسفن حتى لا يتسرب إليها شيء من الأمداد من وراء البحر .

وقد انتهى ملك قشتالة ، بعد التشاور مع أكابر قادته وفرسانه ، بأن قرران يلتجىء إلى وسيلة الحصار لإخضاع الحاضرة الأندلسية الكبرى ، وأن يسير سفنه من الثغور الشمالية إلى مصب الوادى الكبير ، ليحول دون تلقى المسلمين لأية أمداد أوموئن تأتى من عدوة المغرب .

وفى خريف سنة ١٢٤٦ م (أوائل سنة ٦٤٤ هـ) حشد ملك قشتالة بعض قواته ، ولاسيما من فرسان شنت ياقب وفرسان قلعة رباح ، وجيش قرطبة ، وسار فى قواته صوب إشبيلية ، وعبر الوادى الكبير تجاه قرمونة ، وأخذ ينتسف زروع هذه المنطقة ويحرب ضياعها ، ويأسر من يلقى من المسلمين . وهنالك على مقربة من قرمونة ، وافاه ابن الأحمر حليفه وتابعه فى قوة قوامها خمسمائة فارس ، مقدماً عونه وفقاً لعهوده . وسارت القوات المشتركة جنوباً نحو قلعة جابر^(١) حصن إشبيلية من الجنوب الشرقى ، وانتهى ابن الأحمر باقناع حاميتها الإسلامية بتسليمها حقناً للدماء ، وصونا للأموال والأرزاق ، وتسلم فرناندو الثالث القلعة ، ووضع بها حامية نصرانية ، وأخذ النصارى فى إصلاحها وتحصينها^(٢) . وبعث فرناندو بعد ذلك بعض قواته بقيادة أخيه دون ألفونسو وبلاى كوريا أستاذ فرسان شنت ياقب ، لكى تعبر الوادى الكبير غرباً ، وتقوم بتخريب فحص فرسان الشرف الممتد أمام إشبيلية ، وبعث حملة مشتركة من قوات غرناطة وقشتالة وفرسان قلعة رباح ، لتسير جنوباً ، ولتقوم بتخريب فحص شريش . وفى الوقت الذى كانت تقوم فيه هاتان الحملتان كل بمهمتها ، ورد على ملك قشتالة نبأ وفاة والدته ، فأمر باختتام الغزو ، وصرف ملك غرناطة ، فى قواته ، وسار إلى قرطبة ومنها إلى جيان ، وهنالك قضى جانباً من الشتاء .

وكانت هذه أول مرحلة فى افتتاح إشبيلية . وفى أثناء ذلك كان أمير البحر رامون بونيفاس ، قد حشد فى ثغور كنتبريا أسطولا قويا ، وشحنه بالبحارة والجنود والموئن . وحصل فرناندو من البابا على قرار بأن تخصص الكنيسة القشتالية والليونية ثلث إيراداتها للمساهمة فى نفقات الحرب . ولما تمت هذه الأهبة سار

(١) وهى بالإسبانية Alcalà de Guadaira .

(٢) راجع الذخيرة السنية ص ٧٢ و ٧٣ .

فرناندو إلى قرطبة ، وهى التى اتخذها مركزاً لتجهيز الحملة (صيف سنة ١٢٤٧م)
وهناك احتشدت قوات جماعات الفرسان الدينية ، وقوات ليون وبطليوس
وغيرها ، وسير فرناندو بعض قواته إلى قرمونة ، وهى أمنع حصون إشبيلية
الأمامية من ناحية الشمال الشرقى ، فخربت سائر البسائط المحيطة بها ، ثم لحقت
بها بعد ذلك قوات أخرى من مختلف ولايات قشتالة ، وتزيد الرواية النصرانية
على ذلك أن قوات غرناطة ، كانت ضمن الحشود الوافدة على قرمونة ، وهو
ما يعنى اشتراك ابن الأحمر فى جيش الغزو القشتالى لإشبيلية^(١) . والواقع أن
الرواية الإسلامية حسبما نرى بعد ، تؤيد وجود ابن الأحمر وجنده ، تحت أسوار
إشبيلية إلى جانب القوات القشتالية المحاصرة^(٢) . وطوق النصارى قرمونة بحشود
ضخمة ، فلما رأى أهل قرمونة ضخامة هذه الحشود ، وأيقنوا بعث الدفاع ،
عرضوا تسليم المدينة بعد ستة أشهر ، إذا لم تصلهم خلالها نجدة ما ، فقبل ملك
قشتالة هذا العرض ، ثم سار فى قواته صوب إشبيلية من طريق شمالية بحذاء
الوادى الكبير ، واستولى فى طريقه على لورة بالأمان ، واعترف أهلها بطاعته ،
ثم سار بعد ذلك إلى قنطلانة ، الواقعة شمالي إشبيلية على الوادى الكبير ،
وهاجمها ، واقتحمها عنوة ، وأسر منها سبعمائة مسلم ، وقصد بعد ذلك إلى
غليانة ، فسلم أهلها اعتباراً بما حدث لقنطلانة ، وكذلك سلمت جرينة القريبة
منها ، وبعث فرناندو بعد ذلك قوه إلى بلدة القلعة الحصينة الواقعة على الوادى
الكبير^(٣) ، على مقربة من شمالي إشبيلية ، فصمدت حاميتها وصمدت على المقاومة .
وكان أهل إشبيلية قد شححوها بالهند والمؤن تقديرأ لأهميتها فى الدفاع عن المدينة .
واضطر فرناندو أن يحاصرها ، وضربها القشتاليون بالآلات ، وخرجت حاميتها
غير مرة لتشتبك مع النصارى فى معارك عنيفة ، وقام النصارى بتخريب سائر
ما حولها من الكروم والزروع ، وأخيراً رأى قائد الحصن أبو الحسن بن أبى على
حاكم قرمونة السابق ، أنه من العبث أن يستمر فى الدفاع على هذا النحو ، فاتفق
مع ملك قشتالة على أن ينسحب فى جنده ، وهم ثلاثمائة فارس إلى إشبيلية ، وأن

(١) Crónica General (Ed. Pidal) V. II. p. 749 .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ .

(٣) قنطلانة هى بالإسبانية Cantillana ، وغليانة Guillena ، وجرينة هى Gerena ،
والقلعة أو قلعة النهر هى Alcalá del Río .

تسلم المدينة بالأمان ، وفقاً لأفضل الشروط الممكنة ، وهكذا سقطت القلعة ، وبسقوطها أصبحت سائر الحصون الأمامية لإشبيلية من جهة الشرق والشمال ، والغرب كلها في أيدي القشتاليين^(١) .

ونستطيع أن نتصور الدور الذي قام به ابن الأحمر ملك غرناطة في معاونة ملك قشتالة على إخضاع هذه المجموعة الكبيرة من البلاد والحصون الهامة ، منذ قرمونة حتى القلعة ، وذلك بإقناع أهلها والمدافعين عنها بالتسليم بالأمان ، وإقناع ملك قشتالة من جهة أخرى بالتساهل في شروط التسليم ، على أن دور الزعيم المسلم لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه كما سنرى إلى معاونة النصارى وموازرة جهودهم ضد المسلمين ، بطريقة إيجابية فعالة .

— ٤ —

وهنا وبعد أن جردت إشبيلية من سائر حصونها الأمامية وخطوطها الدفاعية الأولى ، يأتي دور المرحلة الأخير في افتتاح الحاضرة الأندلسية الكبرى ، ولم تكن هذه المرحلة سوى محاصرتها وإرهاقها ، حتى ترغم على التسليم . وبدأ التهديد للحصار بمقدم الأسطول النصراني بقيادة رامون بونيفاس ، وكان يتألف من ثلاث عشرة سفينة كبيرة وعدة أخرى صغيرة ، مشحونة بالرجال والمؤن ، ودخوله إلى مياه مصب الوادي الكبير ، وتخصيص قوة برية لمؤازرته على إحكام حصار المدينة من ناحية البحر ، وثانياً على رد أية قوات تأتي لمناجزته ، سواء من طنجة أوسبته أو إشبيلية .

وغادر فرناندو بلدة القلعة في قواته جنوباً إلى إشبيلية ، وذلك في الخامس عشر من أغسطس سنة ١٢٤٧ ، وأخذ يضع خطته لتنظيم الحصار . ولم يكن حصار إشبيلية أمراً سهلاً ، وكان لابد لتحقيقه من تعاون سائر القوات البرية والبحرية ، ومن جهة أخرى فقد كان من الضروري أن يعمل حساب لهجمات المسلمين على مختلف القوات النصرانية ، وقد كانت إشبيلية تتوج بقوات مدافعة زاهرة حسنة الأبهة ، وكانت مشحونة بكميات وافرة من الطعام توقعاً لحدوث هذا الحصار ، وكان من حسن الحظ أن استطاع أهل المدينة أن يجمعوا محاصيل فحش الشرف قبل مقدم النصارى . وكانت مهمة القشتاليين في المراقبة على ضفة الوادي الكبير ،

(١) وردت سائر هذه التفاصيل في موسوعة Crònica General; V. II. p. 749 & 750

وراجع أيضاً : J. Gonzalez : ibid; p. 104—106 .

لحماية أسطولهم من الهجمات الفجائية من الأمور الشاقة ، إذ كانت حامية حصن الفرج الإسلامية ، وهو حصن لإشبيلية الجنوبي الواقع على النهر ، تهدد القوات القشتالية المراقبة على النهر باستمرار ، وفضلاً عن ذلك فقد كان طريق الشرف مفتوحاً أمام ابن محفوظ صاحب لبلة ، وكان بوسع أن يفاجئ القشتاليين في أية لحظة .

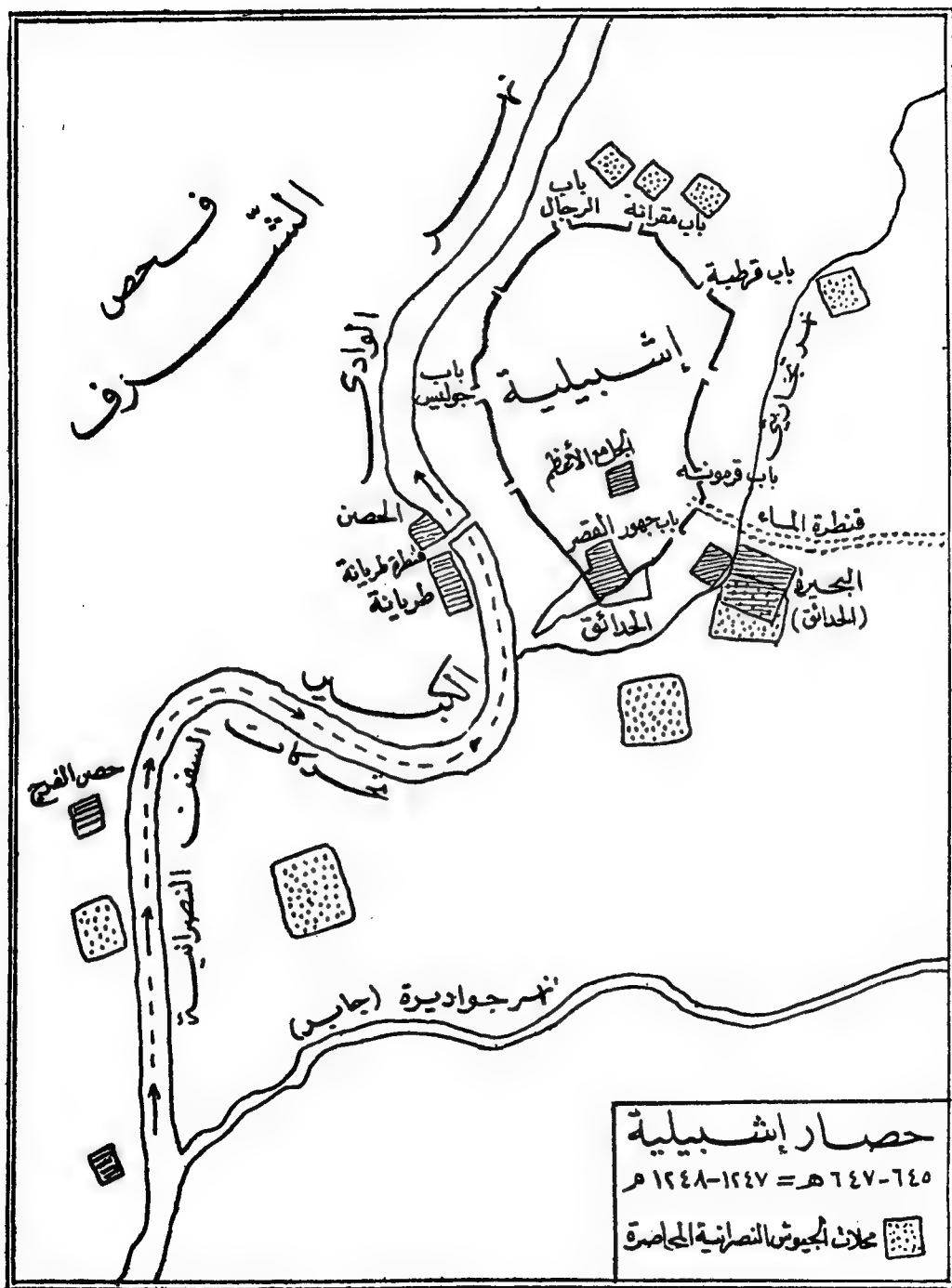
وفي الوقت الذي كان فيه ملك قشتالة يمهّد لتنفيذ خطته في حصار لإشبيلية ، كان أهل لإشبيلية من جانبهم يستعدون للذود عن مدينتهم بكل ماوسعوا . وقد سجل لنا التاريخ ، ولاسيما عن طريق الرواية النصرانية ، عن دفاع أهل لإشبيلية ، صفحاً رائعة من البسالة والتضحية . ولكن الرواية الإسلامية ، لا تقدم إلينا مع الأسف تفاصيل شافية عن هذا الدفاع . بل هي لا تذكر لنا سوى القليل عن الزعماء الذين قادوا هذه المعركة الدفاعية المحيطة ، التي استطالت خمسة عشر شهراً . فهي لا تعرفنا بشيء عن القائد شقاف وزملائه ، يحيى بن خلدون ، وابن شعيب ، ومسعود بن خيار ، وهم زعماء لإشبيلية ، الذين ألقى القدر عليهم تبعة السهر على مصابرها ، في تلك الفترة الدقيقة ، وكل ما هنالك أنها تحدثنا عن شقاف في كلمة عابرة ، وتصفه « بقائد الفحص شقاف المشهور ، الذي كان السبب مع قضاء الله تعالى في دخول النصارى مدينة لإشبيلية »^(١) . وتحدثنا الرواية النصرانية عن زعماء لإشبيلية وقت حصارها ، فتذكر منهم شقاف وهو لديها Axataf ، وتسميه أحياناً أبو الحسن الشقاف ، والرئيس ابن شعيب^(٢) . وإذا فلا بد لنا أن نعتمد في استقراء تفاصيل الأحداث التي اقترنت بمصير لإشبيلية الأخير ، وكذلك أعمال الزعماء الذين قادوها عندئذ ، بالأخص على أقوال الرواية النصرانية .

وبدأ حصار لإشبيلية في النصف الثاني من أغسطس سنة ١٢٤٧ م (جمادى الأولى سنة ٦٤٥ هـ) ، وتقاسمت الكتائب القشتالية والليونية والجليقية ، وغيرها من القوات النصرانية ، مناطق الحصار ، وضرب فرناندو الثالث محله جنوباً على ضفة نهر الوادي الكبير ، قريباً من سفن الأسطول النصراني ، ولكنه اضطر لإزاء هجمات المسلمين العنيفة ، أن ينقل محله إلى مكان قريب يسمى « بتلاطة » . واحتل الأسطول النصراني مياه مصب الوادي الكبير ، وكانت مهمته

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٤٠٠ .

(٢) Crónica General ; No. 1077, 1122 & 1123 ; - M. Lafuente : Historia

General de Espana ; T. IV.p.69



الأولى هي أن يمنع ورود الأمداد والمؤن على المدينة من طريق البحر . ولم يأت يوم ٢٠ أغسطس ، حتى كانت إشبيلية قد طوقت من كل ناحية ، سواء من البر أو البحر . وكان من الأحداث المؤلة التي تنفطر لها النفس ، وجود ابن الأحمر أمير غرناطة على رأس قوة من فرسانه ، إلى جانب القوات النصرانية المحاصرة ، وذلك وفاء بتمعهداته لملك قشتالة ، وكان يربط بقواته إلى جانب فرسان شنت ياقب جنوبي حصن الفرج ، وهكذا كان هذا الأمير المسلم يشترك مع أعداء أمته ودينه في تطويق الحاضرة الإسلامية ، ومحاولة افتتاحها ، وتشريد أهلها وسحق دعوة الإسلام بها . ويفسر لنا ابن خلدون هذا التصرف المشين من جانب الأمير المسلم ، بأن ابن الأحمر كان يرمى بمعاونة النصارى على هذا النحو ، إلى الانتقام من أهل إشبيلية ، لأنهم خذلوه ونكلوا عن طاعته ، وأخرجوه من المدينة^(١) . على أن ذلك لم يكن يعنى أن المدينة ، قد قطعت سائر علائقها الخارجية أو أنها عذمت وسائل الاتصال ، ولا سيما مع عدوة المغرب . فمن الحقائق التي تسجلها الرواية النصرانية أنه في الوقت الذي يربط فيه الأسطول النصارى في مياه الوادى الكبير ، كان يوجد في نفس المياه عدد من السفن الإسلامية ، ومعظمها في الغالب سفن مغربية ، قدمت من مياه سبتة وطنجة ، وأن اتصال إشبيلية بوادى الشرف ، كان مكفولا عن طريق حصنها الغربى طريانة الذى تربطها به عبر الوادى الكبير قنطرة من السفن المثبتة بسلاسل حديدية ضخمة . وكانت المؤن مازالت بالرغم من الحصار ، ترد على المدينة المحصورة ، من العدو ، ومن الشرف ، وغربى الأندلس ، وكان أهل إشبيلية ، لاطمئنانهم إلى حالة التموين يحصرون اهتمامهم في مقاتلة النصارى ، والاشتباك معهم كلما سنحت الفرص . وقد نظم المسلمون غير كمين للإيقاع بالنصارى ، وأصيب النصارى بالهزيمة غير مرة ، ومنى منهم فرسان القنطرة وقلعة رباح ، بنحسائر فادحة ، وخرج المسلمون في قوة كبيرة ، هاجمت الحلة الملكية ، فردتها قوات ولى العهد ألفونسو والإنفانت إنريكي ، فعادت إلى المدينة بعد أن تكبدت بعض الخسائر . وكان النصارى خلال الحصار يخرجون إلى القرى والضياح المجاورة ، ويقومون بتخريبها وانتهابها ، ومن ذلك أنهم اقتحموا منية البحيرة الغاصة بالخدائق ، والرياض ، الواقعة في جنوب شرق المدينة ، والتي كان قد أنشأها الموحدون ،

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٩٠ .

وعاثوا فيها ، ونهبوا الماشية والمتاع والثياب ، وقتلوا من كان بها من المسلمين ، وأحرقوا دورها ، وفعلوا مثل ذلك بربض مقرينه ، الواقع في شمالها الشرق . وأما ، في مياه مصب الوادى الكبير ، فقد كانت مهمة الأسطول النصراني ، وهى قطع الإمداد والمؤن عن المدينة ، من طريق البحر ، مهمة شاقة ، وكانت السفن الإسلامية التى وردت من مياه طنجة وسبتة ، تثير في وجه السفن النصرانية ، صعباً جمة ، وكانت تفسح الطريق للأمداد والمؤن الواردة من العدو ، وتعمل على حمايتها ، حتى تجد سبيلها إلى المدينة ، وقد حاول البحارة المسلمون فوق ذلك أن يحرقوا السفن النصرانية بالنار اليونانية ، واقتربوا منها بالفعل ، تحميم من ضفة النهر بعض حشود من الحند ، وأمامهم مواعين مملوءة بالزيت والمواد الملتببة ولكن النصارى فطنوا إلى المحاولة ، وهاجموا المسلمين من البر والبحر ، فلجأ الحند الذين بالشاطئ إلى قلعة طريانة ، ونشبت بين سفن الفريقين معركة شديدة ، واستطاع المسلمون أن يقدفوا موادهم الملتببة ، ولكن النصارى استطاعوا أن يخذلوا النار قبل اندلاعها . وهكذا فشلت المحاولة ، ولكن المعارك البحرية الجزئية كانت تضطرم بين الفريقين باستمرار . وفي ربيع سنة ١٢٤٨ م ، وفدت على المعسكر النصراني طوائف كثيرة من الحند ، منها قوة من فرسان قشتالة ، بقيادة ولى العهد ألفونسو ، وقوة من فرسان قطلونية ، بقيادة ألفونسو ولى عهد أراجون ، وقوة من الفرسان البرتغاليين بقيادة بيدرو ولى عهد البرتغال ، وقوة من جند بسكونية وقشتالة القديمة بقيادة لويث دى هارو ، وكذلك قدم يوحنا مطران شنت ياقب في قوة من جند جليقية ، وقدمت حشود أخرى من مدينة سالم ، ومدلين ، وقورية ، وغيرها ، ووفد كثير من الأساقفة والرهبان ، وفرسان الجماعات الدينية ، وانضمت هذه الحشود الجديدة ، إلى القوات المحاصرة ، في مختلف مناطق الحصار ، وهكذا عزز الحصار حول إشبيلية ، وأحكمت حلقاته ، وعول ملك قشتالة ، أن يلجأ إلى الوسيلة ، المأمونة المؤكدة ، وهى إرهاب المدينة بأقصى ما يستطيع ، وإرغامها على التسليم بالجوع والحرمان .

وكان قد مضى على حصار النصارى لإشبيلية زهاء تسعة أشهر وهى صامدة ، زرداد ثباتاً وإصراراً على مدافعة النصارى ، ولكنها منذ أحكمت حولها حلقات الحصار ، أخذت تشعر بالضيق يدب إليها حثيثاً ، وشبح الجوع يقترب منها شيئاً فشيئاً . ولم يبق لديها عندئذ سبيل للتنفس البطيء سوى طريانة ، قلعتها

الجنوبية الغربية المشرفة على الشرف. وهنا كرر أهل إشبيلية صرختهم إلى المغرب ، وإلى سائر أمرائه وزعمائه ، يصفون محنتهم الغامرة ، ويلتمسون الغوث والإنجاد قبل فوات الوقت . وكان مما نظم في هذه المناسبة شاعر إشبيلية يومئذ ، إبراهيم ابن سهل الإشبيلي الإسرائيلي قصيدة مؤثرة ، يستصرخ فيها أهل العدو ، ويستحثهم على المبادرة إلى نصره لإخوانهم في الدين وفيها يقول :

وردأ فضون نجاح المصير	هي عزة الدنيا وفوز المحشر
نادى الجهاد بكم بنصر مضمر	يبدو لكم بين القنا والضمر
خلوا الديار لدار عز واركبوا	عبر العجساج إلى النعيم الأخضر
وتسوغوا كدر المناهل في السرى	ترووا بماء الحوض غير مكدر
يامعشر العرب الذين توارثوا	شيم الحمية كابرا عن أكبر
إن الإله قد اشترى أرواحكم	بيعوا ويهنثكم وفاء المشتري
أنتم أحق بنصر دين نبيكم	ولكم تمهد في قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنه فاندعموا	ذاك البناء بكل لون أسمر ^(١)

ونظم أبو موسى هرون بن هرون قصيدة طويلة ، يصف فيها محنة أهل إشبيلية حينما طوقها النصارى ، وما نزل بأهلها من صنوف الآلام والخطوب ، ويهيب فيها بأهل العدو أن يبادروا إلى إنجادها ، وتدارك أهلها ، وقد جاء في أولها :

يا حصص أقصدك المقدور حين رما	لم حق فيك الردى إلا ولا ذما
جرت عليك يد الدهر ظالمة	لا يعدل الدهر في شيء إذا حكما
ما كنت أحسب أن الحادثات إذا	همت بك السوء لاتلقى لك السلما
قد كان حسنك فتان الشباب فذ	أصبت عوضت منها القبح والهرما
ياجنة زجرتنا عن زخارفها	ذنوبنا فلزمتنا البت والندما

ومنها في وصف الحصار ومصائبه ، واستنهاض هم أهل العدو :

ويعموا حصص في جمع يضيق به	ذرع القضا بالمرهفات الماع فاكتما
واستوطنوا القبر في الوادى وقام لهم	جسر منه الفلك لاتشكو به السما
فكم أسارى غدت في القيد موثقة	تشكوا من الذل أقداما لها حطما

(١) أورد لنا هذه القصيدة صاحب الذخيرة السنية ، ص ٧٤ وما بعدها .

وكم صريع رضيع ظل محتطفا
وكم بطريانة أبقى الأسبي ندب
يا حسنها عرف للحسن جامعة
يا عين فابك على حمص وقل لها
وقد أصيبت بها الدنيا وساكنها
سطا بها الكفر إذ قل النصير بها
يا أهل وادى الحما بالعدوة انتعشوا
فاذا يبطئكم عنا وحولكم
وحقنا واجب فالدين يجمعنا
وقد دعونا فأسمعنا على كتب
عن أمه فهو بالأمواج قد فطما
فى القلب يبعث وجدا كلما كلما
ما طار قط لها إلا النعيم جما
منك البكاء إذا ما ترسله دما
حقاً وأصبح ركن الدين قد ثلما
فن معز بها الإسلام ما سلما
هذا الذماء فقد أشقى به سقما
أن تبصروا دار قوم أصبحت ربما
مع الحوار الذى مازال منتظما
بما قد استنفد القرطاس والقلم^(١)

وكان الاستيلاء على قلعة طريانة حصن إشبيلية من الجنوب الغربى ، أهم ما يشغل بال النصارى ، وكان لابد قبل محاولة الاستيلاء عليها أن تحطم القنطرة القوية الضخمة ، التى تربطها بإشبيلية عبر الوادى الكبير ، عند برج الذهب . وكانت هذه القنطرة ، تتكون حسباً قدمنا ، من مجموعة من السفن المثبتة بسلاسل ضخمة من الحديد . وهذا ما اعترمه النصارى بالفعل . وجهاز بونيفاس قائد الأسطول النصرانى لهذا الغرض مركبين كبيرين ، وركب فى إحداهما . ودفع المركبان نحو القنطرة ، فنجحت إحداهما فى قطع السلاسل الحديدية ، وإحداث ثغرة فى القنطرة ، وأسرع الملك فرناندو فى قوة كبيرة ليحمى بونيفاس ومركبه ، وليحقق الفصل بين المسلمين فى طريانة ، وأهل المدينة ، ووقع ذلك الحادث فى اليوم الثالث من مايو سنة ١٢٤٨ م .

وكان تحطيم القنطرة على هذا النحو ضربة شديدة للمسلمين ، إذ ترتب عليه الفصل بين قلعة طريانة ، وبين المدينة ، وقطع طريق الشرف ، وهو الملاذ الأخير الذى كان باقياً للمحصورين ، لاستيراد الأقوات والمؤن ، بعد أن أضحي طريق النهر مخفوفاً بأعظم المخاطر . كما ترتب عليه عزل طريانة وتعريضها لخطر هجوم النصارى . وهذا ما عول عليه النصارى بالفعل على أثر تحطيم القنطرة .

(١) أورد لنا ابن عذارى نص هذه القصيدة بأكملها فى البيان المغرب ص ٣٨٢ - ٣٨٤ .

على أن الاستيلاء على طريانة لم يكن مهمة سهلة . ذلك أن المسلمين كانوا على حذر ، وكانوا يدركون أهمية طريانة الدفاعية ، وكانوا لذلك قد شحنتها بالرجال والسلاح والمؤن ، ورتبوا بها بالأخص جماعة من الرماة يستطيعون إصابة الفرسان بقذائفهم عن بعد . ومن ثم فإنه لما هاجمها النصارى بقوات كثيفة استطاعت حاميتها القوية أن تحطم هذا الهجوم الأول بسرعة ، وعندئذ كرر النصارى هجومهم بشدة ، والمسلمون يحيطون كل محاولة ، وكان بالقلعة عندئذ زعيم إشبيلية الأول القائد شقاف . ولما تكرر فشل النصارى في اقتحام القلعة اقترب منها فرناندو بقواته ، ودفع الحفارين إلى السور لإحداث ثلثة به ، ولكن المسلمين نجحوا أيضاً في إحباط هذه المحاولة ، وعندئذ عمد النصارى إلى محاصرة القلعة براً وبحراً ، وضربها بمختلف الآلات ، واعتزموا أخذها بالحصار ، وقدمت سفنهم إلى النهر أسفل القلعة فنجحت بعد مجهود عنيف في قطع كل صلة بين طريانة وبين إشبيلية .

واستمر الحصار حول إشبيلية وطريانة ، وهو يشتد كل يوم ، والحاضرة المحصورة تشعر بالضيق ، يرهقها شيئاً فشيئاً ، والنصارى يوالون ضربها بالآلات المخربة ، حتى نفذت الأقوات ، وأخذ الجوع يفتك بالمحصورين . ويصف ابن عذارى حالة المدينة المحصورة في قوله : « وعدموا المرافق كلها ، قليلها وجليلها ، إلا ما كان في بعض ديار الأغنياء مثل الفقيه القاضي ابن منظور ، فإنه كان يطعم في إقلاع النصارى عن المدينة ، فيأمر الناس بالقتال والرمي بالنبال ، والناس مع ذلك حيارى ، يمشون سكارى وما هم بسكارى . ومات بالجوع خلق كثير ، وعدمت الأطعمة من القمح والشعير ، وأكل الناس الجلود ، وفنيت المقاتلة من العامة وأصناف الجنود »^(١) . وهكذا فتك الجوع والحرمان والمرض بأهل إشبيلية ، وأضنتهم المعارك المستمرة بعد حصار صارم مرهق استمر خمسة عشر شهراً ، وغاض كل أمل في الإنقاذ والإنجاد ، فلم يتحرك الموحدون لانشغالهم بمكافحة بني مرين ، وأمير إفريقية الذي اتخذ لقب الخلافة ، ولم يتحرك أمير إفريقية لما سبق من موقف الإشبيليين نحو عماله ، وربما أيضاً اعتباراً بما حدث من فشل محاولته لإنقاذ بلنسية ، وقد كان لإنجادها أقرب وأيسر . فلما بلغ الضيق أشده ، طلب القائد شقاف وهو في طريانة ، إلى النصارى هدنة ليتمكن

من الاتصال بأهل المدينة، والتفاهم معهم على التسليم . وبحث زعماء المدينة الموقف من سائر نواحيه ، واتفقوا على أن يسلموا إلى ملك قشتالة القصر وجباية المدينة ، على أن لا يدفعوا من المكوس أكثر مما كانوا يدفعونه للموكلهم ، ولكن ملك قشتالة رفض هذا العرض الجزئى رفضاً باتاً ، فعاد الزعماء وعرضوا أن يسلموا القصر وثلث المدينة ، فرفض هذا العرض أيضاً . واضطر الزعماء أن يتقدموا خطوة أخرى . فعرضوا أن يسلموا نصف المدينة ، بعد أن تخليه المسلمون ، وأن يترك النصف الآخر للمسلمين ، وأن يقام بين النصفين سور فاصل . ونصح بعض مستشارى الملك إليه بقبول هذا العرض ، ولكن ملك قشتالة أصر على أن يتسلم المدينة كلها حرة ودون شروط^(١) .

وعندئذ لم ير زعماء إشبيلية وأهلها ، بداً من قبول مصيرهم المحتوم ، وجرت المفاوضات بينهم وبين ملك قشتالة فى تسليم المدينة ، وذلك عن طريق ممثل ملك قشتالة ، دون رديجو أباريس ، وانتهت المفاوضات بين الفريقين على أن تسلم المدينة بالشروط الآتية : أن تسلم المدينة كاملة حرة سليمة ، لا يهدم من صروحها شئ ، وأن يغادرها سكانها مع السماح لهم بأن يحملوا معهم كل أمتعتهم المنقولة والمال والسلاح ، وأن يسلم القصر فى الحال بعد إخلائه عقب وضع شروط التسليم ، وأن تسلم مع المدينة سائر الأراضى التابعة لها ، وأن يعطى ملك قشتالة إلى القائد شقاف ، والرئيس ابن شعيب ، من بلاد الشرف ، شلوقه وحصن الفرج ، ثم لبله متى تم افتتاحها ، واتفق على أن تُمنح لأهل المدينة مهلة لاتقل عن الشهر اتسوية شئونهم وإخلاء دورهم ، والتأهب للرحيل .

ولما وقع عهد التسليم بين الفريقين ، سلّم القصر ، وهو مقر الولاية ، ويقع فى جنوبى المدينة على مقربة من باب جهنور ، إلى ملك قشتالة ، وبعث ملك قشتالة مندوبه ليرفع شعاره الملكى فوق برجه الأعلى ، وكان ذلك فى اليوم الثالث والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٢٤٨ م ، وهو يوافق يوم الاثنين الخامس من شعبان سنة ٦٤٦ هـ ، وهو اليوم الذى تضعه الرواية الإسلامية لسقوط إشبيلية فى أيدي النصارى^(٢) . بيد أنه يوجد تاريخ آخر ، هو

M. Lafuente : ibid; T. IV. p. 59; J. Gonzalez : ibid; p. 118; Crónica (١)

General, No. 1122

(٢) ابن الأبار فى التكلة (القاهرة) ج ٢ ص ٩٠٣ . ويقول صاحب الروض المطار إنه اليوم الثالث من شعبان (ص ٢٢) .

تاريخ دخول النصارى المدينة ، وهو يعتبر أحيانا تاريخ سقوطها .
وقضى المسلمون زهاء شهر فى إخلاء المدينة ، وتصفية شئونهم ، وبيع متاعهم ، وكان ملك قشتالة ، يسرح سريات من فرسانه لتأمين المهاجرين منهم بطريق البر حتى مدينة شريش ، وحتى نغر سبتة لتأمين المهاجرين منهم بطريق البحر ، وخصص لذلك الغرض أسطولا يتكون من خمس سفن كبيرة ، وثمانى صغيرة^(١) . وخرجت من إشبيلية جموع غفيرة من المسلمين يصعب تحديد عددها ، وتشمل سائر الطبقات . ولم تحدد لنا الرواية الإسلامية عدد المهاجرين منها ، ولكنها تقول لنا فقط إنه قد خرج الخاص منها والعام « وكل منهم فى بحر المنيا غاص وعام ، مماحل بهم من الأوجال والآلام »^(٢) . وتقدر بعض الروايات من خرج من أهل إشبيلية من المسلمين بأربعمائة ألف ، منهم مائة ألف هاجروا بطريق البحر إلى سبتة ، وثلاثمائة ألف ساروا براً بطريق شريش^(٣) . وتفرقوا فى مختلف الأنحاء بالأندلس والمغرب . وقصد أكثرهم بالأندلس مملكة غرناطة ، وذلك بتشجيع ابن الأحمر ، وكورة لبلة وغربي الأندلس ، وقصد من عبر البحر منهم إلى مختلف ثغور المغرب ، ولاسيا سبتة وتونس ، وكان فى مقدمة من غادرها منهم زعيمها القائد شقاف ، ولم يحفل بما عرضه النصارى عليه من منح وإقطاعات وعبر البحر إلى سبتة مع جماعة من القواد والأجناد ، والظاهر أنه استطاع أن يتدخل فى شئونها ، وأن يشاطر إليها الحفصى ابن أبى خالد قسطنطين الساطة ، وأمكن حدث بعد فترة قصيرة أن نهض زعيم سبتة الدينى الفقيه أبو القاسم العزفى ، واستطاع بمعاونة حليفه القائد أبى العباس الرنداحى أن ينتزع الرياسة لنفسه ، وقتل شقاف وعدة من أصحابه فيمن قتل من ضحايا الانقلاب ، وذلك فى شهر رمضان سنة ٦٤٧ هـ^(٤) .

وبقيت إشبيلية ، بعد أن غادرها أهلها ، خالية ثلاثة أيام . وفى اليوم الثانى والعشرين من شهر ديسمبر سنة ١٢٤٨ م « (أوائل رمضان سنة ٦٤٧ هـ) دخل فرناندو الثالث ملك قشتالة ، مدينة إشبيلية فى موكب فخم ، وكان مطران

(١) الروض المعمار ص ٢٢ ، وكذلك : J. Gonzalez : *ibid* ; p. 120 .

(٢) البيان المغرب ص ٣٨٥ .

(٣) *Crónica General* : *ibid* ; No1124 .

(٤) الذخيرة السنية ص ٨٥ ، والبيان المغرب ص ٤٠٠ و ٤٠١ .

طليطلة قد قام بتحويل الجامع الأعظم إلى كنيسة ، وصنع به هيكل مؤقت ، فقصده إليه الملك النصراني ، وحاشيته من أكابر الأحرار والقادة والفرسان ، وأقيم قدّاس الشكر ، ثم قصد فرناندو بعد ذلك إلى القصر وتسلمه ، وعنى بوضع أسس الحكم للحاضرة المفتوحة ، وجعل منها مركز مطرانية ، كما كانت قبل الفتح الإسلامي ، وقام بتقسيم دور المسلمين وأراضيهم ، بين أولئك الذين بذلوا أكبر جهد في تحقيق الفتح . وبذلك اختتم الفتح ، وأخذ النصارى في تقويض محلاتهم خارج المدينة ونزلوا بها^(١) .

ومن ذلك التاريخ تغدو إشبيلية ، عاصمة مملكة قشتالة ، ومقر البلاط القشتالي ، بدلا من طليطلة .

وهكذا سقطت إشبيلية ، حاضرة الأندلس العظمى ، بعد أن حكمها المسلمون منذ افتتحها موسى بن نصير في سنة ٧١٢م ، خمسة قرون وثلث قرن ، وحكمها الموحدون زهاء قرن ، وكانت قاعدة حكومتهم بالأندلس ، فجاء سقوطها ، بعد سقوط قرطبة ، وقواعد الشرق ، تصفية نهائية لسلطانهم في شبه الجزيرة الإسبانية . وكانت إشبيلية إلى جانب قرطبة من أعظم مراكز العلوم والآداب في الغرب الإسلامي ، وبها سطعت عبقریات فريدة في تاريخ الفكر الإنساني ، مثل بنى زهر أعظم أساتذة الطب والكيمياء في الغرب في العصور الوسطى ، وأبى العباس بن الرومية أعظم النباتيين والعشابين ، بعد ديسقوريدس . وسطعت إشبيلية أيام الطوائف في ظل بنى عباد ، ولبثت زهاء نصف قرن أعظم مجمع للآداب وللشعر والنثر في الأندلس . وجعل منها الموحدون قاعدة الحكم في الأندلس ، وغدت في ظلهم أعظم حواضر شبه الجزيرة ، وأزخرها عمراناً ، وأجملها تخطيطاً وصروحاً ، تليه بمسجدها الجامع أعظم جوامع الأندلس ، بعد جامع قرطبة ، وبمنارته الشاهقة الرائعة ، التي مازالت تقوم حتى اليوم أثراً من أعظم الآثار الأندلسية الباقية ، وذلك بالرغم من تحويلها إلى برج لأجراس الكنيسة .

(١) يراجع في فتح إشبيلية: البيان المغرب ص ٣٨١ و ٣٨٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٧١ وج ٧ ص ١٩٠ ، والذخيرة السنية ص ٧١ - ٧٦ وص ٨٠ ، والروض الماطر ص ٢٢ ،

ومن المراجع القشتالية : J. Gonzalez : Crónica General (Ed. Pidal) No. 1080-1125 -

ibid; p. 98 - 121 - Is. de las Cagigas : Sevilla Almohade ; p. 31 - 33 - M.

Lafuente : ibid; T. IV. p. 53 - 59

وكان لسقوط إشبيلية وقع عظيم في الأندلس ، أوبعبارة أخرى فيما بقي من قواعدها وربوعها ، وفي شبه الجزيرة الإسبانية كلها ، وفي المغرب وسائر أنحاء العالم الإسلامي . وقد رثاها الشعر في قصائد عديدة مبكية ، حتى قبل أن تسقط نهائيا في أيدي النصارى . وقد أوردنا فيما تقدم بعض ما نظمته الشعر في ذلك .

— ٥ —

وكان سقوط إشبيلية نذيراً بسقوط سائر القواعد والبلاد القريبة منها ، ولاسيما قواعد الغرب التي أصبحت معزولة عن بقية القواعد الأندلسية .

وماكاد فرناندو الثالث ينتهي من تنظيم شئون « مملكة إشبيلية » ويستريح من عناء الغزوة الكبرى ، حتى سير بعض قواته شرقاً وجنوباً ، لتفتتح قواعد هذه المنطقة . وليست لدينا تفاصيل عن كيفية افتتاح هذه القواعد أو سقوطها في أيدي النصارى ، ولكن الرواية النصرانية تجمل قصة هذه القواعد في قولها ، إن فرناندو الثالث ، استطاع عقب افتتاحه لإشبيلية أن ييسط سلطانه على شريش وشذونه والقلعة وقادس وشلوقة وأركش والبريجة وروطة وأروضة^(١) بعضها بالفتح وبعضها بعقد المعاهدات ، وأن إخضاع هذه القواعد قد تم في سنة ١٢٤٩م (٦٤٧هـ) ، وتزيد على ذلك أن ابن محفوظ صاحب لبله وما إليها من الأراضي والحصون ، قد اعترف بطاعة فرناندو الثالث^(٢) . ولكن الرواية الإسلامية تقدم إلينا عن إخضاع هذه القواعد بعض تفاصيل أخرى ، فتقول لنا إن الوزير أبا خالد صاحب شريش أعطى في سنة ٦٤٨ هـ للفنش (وتريد هنا فرناندو الثالث) مدينة أركش وحصن فريس ، وحصن تنكر ، والأفراس ، وأن النصارى استولوا في نفس العام على قرمونة ، والقلعة ، والقلعة ، وشلوقة ، وغليانة ، وروطة ، وجميع حصن الوادى وحصن الفرج^(٣) . ولنلاحظ أولاً أن قرمونة ، والقلعة ، وغليانة ، وهى من حصون إشبيلية الأمامية ، قد سقطت كلها في أيدي النصارى ، في سنة ٦٤٥ هـ قبيل حصار إشبيلية . وأما عن شريش وهى أهم قواعد القرننيرة ، فيلوح لنا أنها قد خضعت بمقتضى الاعتراف ، وأن صاحبها أبا خالد ، قد أعلن خضوعه

(١) هى بالإسبانية على التوالى Jerez ، Medina Sedonia ، Alcala ، Cadiz ، San Lucar

Rota ، Lebrija ، Arcos

J. Gonzalez : Ibid; p. 121 & 122 (٢)

(٣) الذخيرة السنية ص ٨٧ .

لملك قشتالة ، وتعهد بأداء الجزية ، ومكّن النصارى من القصر دون أن يحتلوا المدينة ، ونزل للملك قشتالة عن أركش والحصون التى سبق ذكرها ، رهينة بحسن طاعته. والظاهر أن هذه الحالة قد استمرت عدة أعوام أخرى ، لأن الرواية الإسلامية تقول لنا إن سرية من الفرسان النصارى قصدت إلى شريش فى سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) برسم إخلاء موضع القناطر ، وإخراج المسلمين منها ، وأن ديارها قد أخليت بالفعل برسم الطاغية (ملك قشتالة) ، وأن النصارى دخلوا قصبة شريش صلحاً فى العام الثانى (٦٥٩ هـ) ، ثم أرادوا أن يغدروا بالمسلمين ، فتغلب المسلمون عليهم ، واستطاعوا إخراجهم منها بمعاونة قوة من عسكر بنى مرين عبرت إلى شبه الجزيرة بقيادة عامر بن إدريس بن عبد الحق ، وذلك فى سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣ م) ، واحتل عامر بن إدريس ، ومن معه من المجاهدين مدينة شريش ، واستمرو بها زهاء عامين حتى أخرجهم القشتاليون منها ، بقيادة ملكهم ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم وذلك فى سنة ١٢٦٤ م (٦٦٣ هـ)^(١)

وقد شاطرت مدينة قادس فيما يبدو نفس الظروف ونفس المصير ، فخضعت أولاً بإعلان الطاعة وأداء الجزية للملك قشتالة . ويبدو كذلك أن النصارى قد احتلوا قصبتها على غرار ما حدث فى شريش . يدل على ذلك ما ذكره الرواية الإسلامية فى حوادث سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) من أن القائد الرنداحى ، وهو قائد الأسطول بها ، قتل ثمانين من زعماء الروم بجزيرة (ثغر) قادس^(٢) . وقد استمرت الأحوال على اضطرابها بقادس حتى افتتحها القشتاليون فى سنة ١٢٦١ م ، وافتتحوا فى نفس الوقت شذونة ، والبريجه ، وغيرها من قواعد الفرنتيرة .

واستولى القشتاليون فى العام التالى (٦٦٢ هـ) على مدينة إستجة ، الواقعة فى جنوب غربى قرطبة . سلمها إليهم صاحبها ابن يونس بالأمان ، ولكن قائدهم دون خيل ما كاد يدخلها فى قواته ، حتى أخرج المسلمين منها ، وقتل معظمهم ، واستولى على أموالهم ، وسبى نساءهم ، حتى أطلقهن من يده دون نونيو قائد قشتالة الأكبر ، وعذل دون خيل على غدره بالمسلمين^(٣) .

وأما عن بقية قواعد ولاية الغرب ، الواقعة غربى الوادى الكبير ، وحتى

(١) البيان المغرب ص ٤٣٠ و ٤٣١ ، والذخيرة السنية ص ١١١ و ١١٢ .

(٢) الذخيرة السنية ص ٨٥ .

(٣) الذخيرة السنية ص ١١٢ .

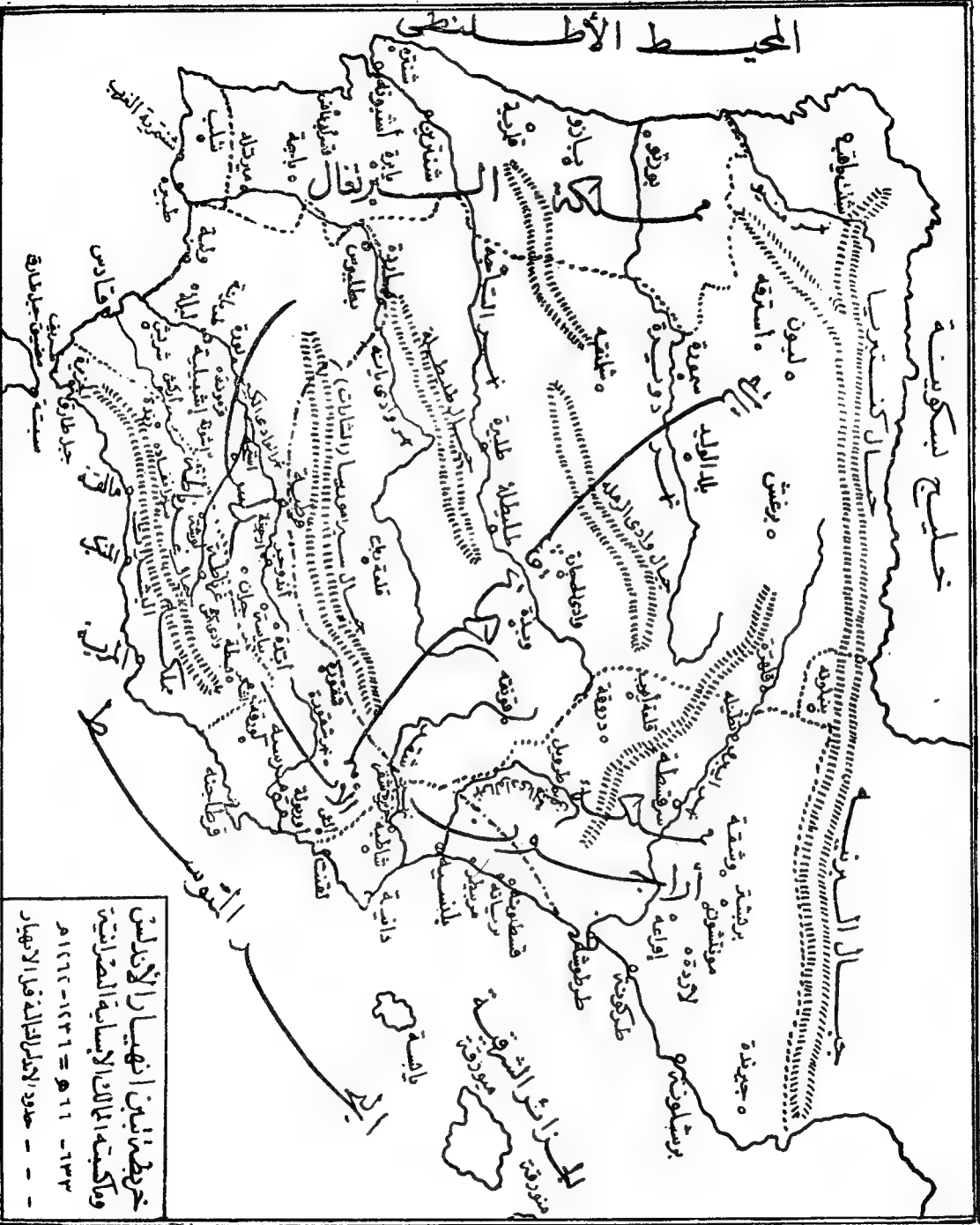
أراضي البرتغال ، فقد كان معظمها تحت سلطان القاضي شبيب بن محفوظ ، أقوى زعماء هذه المنطقة ، وكانت مدينة لبلة الحصينة قاعدة حكمه ، وبها ثار منذ سنة ٦٣٢ هـ ، ودعا لنفسه وتسمى بالمعتمصم ، واستطاع أن ييسط سيادته على معظم القواعد والأثناء الواقعة غربى الوادى الكبير ، وفيما وراء نهر وادى يانه . ولا تحدثنا الرواية عن شخصية ابن محفوظ ، ولا عن أصله ونشأته . ويبدولنا من مختلف القرائن ، أنه كان من بقية زعماء الموحديين فى تلك المنطقة ، وتسبغ الرواية النصرانية عليه بالفعل هذه الصفة . ولما زحف القشتاليون على قطاع إشبيلية ، وأخذت قواعدها وحصونها الأمامية تسقط فى أيديهم ، شعر ابن محفوظ بأن سلطانه فى تلك المنطقة أضحي معرضاً للانهايار ، فسعى إلى التفاهم مع ملك قشتالة ، وذلك بنفس الطريقة التى كان يجرى عليها سائر الزعماء المسلمين يومئذ ، فنزل إليه وفقاً لقول الرواية الإسلامية عن مدينة طبيرة والعلى وشلب والخزانة ، ومرشوشة ، وبطرنا ، والحرة ، وكلها من قواعد أقصى الغرب ، وذلك فى سنة ٦٤٥ هـ (١٢٤٧ م)^(١) . واعترف بطاعته على حكم لبلة كما تقدم . بيد أنه يبدو أن سلطان ابن محفوظ على قواعد الغرب ، لم يكن يمتد إلى هذا المدى البعيد من قواعد الغرب البرتغالية ، مثل طبيرة وشلب وشتتمرية الغرب . يدل على ذلك ما تذكره لنا الرواية الإسلامية بعد ذلك ، من أنه لما تم لفرناندو الثالث افتتاح إشبيلية ، تقدم ابن محفوظ فى سبيل إرضائه خطوة أخرى ، فنزل له عن حصن القوه ، وجبل العيون ، ووادى أنه ، وشتبيل ، والحصين ، وشلطيش ، وذلك صلحاً ، على أن يبقى محتفظاً بلبلة وأحوازها مع الاعتراف بالطاعة وأداء الجزية^(٢) . وهذه الأماكن كلها تقع فى منطقة ولبة (أوبنة القديمة) ، شرقى نهر وادى يانه ، وهو أقصى مدى كان يمتد إليه سلطان ابن محفوظ .

أما قواعد الغرب البرتغالية ، وهى شلب وطبيرة وشتتمرية الغرب ، فقد كانت من نصيب الفتوح البرتغالية . وكان ألفونسو الثالث ملك البرتغال ، قد أدرك منذ سقطت إشبيلية فى أيدي القشتاليين ، وساد الانحلال والفرع فى سائر قواعد الغرب الإسلامية ، وانهارت فيها الروح الدفاعية ، أن الفرصة قد سنحت للاستيلاء على ما بقى بأيدي المسلمين من هذه القواعد ، فى أراضي البرتغال

(١) الذخيرة السنية ص ٧٦ .

(٢) الذخيرة السنية ص ٨٥ .

خليج بسكونية



خريطة بين انهيض الاندلس
وماكيتته المالك الاسبانية الصرايتة
١٣٣ - ١١١ هـ = ١٢٣١ - ١١٦٠ م
-- حدود الامارات الى قلا الاطهار

الجنوبية . وكان أخوه وسلفه الملك سانشو الثاني قد استولى على مدينة ميرتلة من المسلمين ، وسلمها لفرسان شنت ياقب للقيام بالمحافظة عليها . وفي سنة ١٢٤٠هـ (١٢٤٢ م) استولى البرتغاليون على مدينة شلب ، من يد واليا الموحدى واسمه المنصور ، ولم يبق بعد الاستيلاء على شلب ، وهى أهم قواعد الغرب الجنوبية ، سوى طبيرة وشنتمرية الغرب . فأما طبيرة ، فقد سقطت فى أيدي الفرسان ، البرتغاليين فى سنة ١٢٤١هـ (١٢٤٣ م) . وأما شنتمرية الغرب^(١) فقد قام بافتتاحها ألفونسو الثالث ، بعد أن حاصرها من البر والبحر ، حتى اضطرت إلى التسليم ، وذلك فى سنة ١٢٤٧هـ (١٢٤٩ م) ، واتفق على أن يحتفظ المسلمون الذين يريدون البقاء بها ، بدينهم وشرائعهم وأموالهم ، وأن يكونوا رعايا لملك البرتغال يؤدون إليه من المكوس ما كانوا يؤدونه إلى ملوكهم . وتابع ألفونسو الثالث بعد ذلك فتوحاته فى هذه المنطقة الجنوبية ، فاستولى على سائر الحصون والبلاد الإسلامية الباقية فيها ، ولم تأت سنة ١٢٥٠ م ، حتى كانت ولاية الغرب البرتغالية كلها قد سقطت فى أيدي البرتغاليين . وفى العام التالى عبر البرتغاليون نهر وادى يانه ، ومضوا فى فتوحهم فى أراضي الغرب الأندلسية ، وافتتحوا عدة من الحصون والقواعد على ضفته اليسرى ، ومنها قلعتا أورشه وأورسيتة الواقعتان على مقربة من لبله . وكان ملك قشتالة ، يعتبر عبور البرتغاليين إلى هذه المنطقة ، اعتداء على أراضيه ، ويرقب الفرصة لردهم إلى ما وراء نهر وادى يانه .

ولما توفى فرناندو الثالث (١٢٥٢ م) ، وخلفه ولده ألفونسو العاشر ، شعر ابن محفوظ صاحب لبله أن ملك قشتالة الجديد ، ليس له من الحزم والسطوة ما كان لأبيه ، فأخذ يتحلل من عهوده ، ثم أبى أن يدفع الجزية ، وثار بمدينة لبله الحصينة وامتنع بها ، فسار ألفونسو العاشر إلى لبله فى جيش قوى ، وضرب حولها الحصار ، وكان ضمن حشوده فرقة من جند ابن الأحمر ، بعث بها لتشرك فى الحصار ، وإخضاع ابن محفوظ ، وفاء بعهوده القديمة ، وبغضا منه لهذا الزعيم الموحدى ، بقية الدولة البائدة فى شبه الجزيرة . ولم يكن افتتاح لبله أمراً سهلاً ، نظراً لمنعتها الطبيعية بوقوعها فوق ربوة عالية ، ونظراً لأسوارها الصلدة العالية التى تحيط بها إحاطة تامة ، ومن ثم فقد صمدت المدينة فى وجه المحاصرين ، واستمر صمودها عدة أشهر . وكان أبرز ما فى حوادث هذا الحصار ، مقام به

(١) وهى التى قامت فيما بعد على أنقاضها مدينة فارو Faro الحديثة .

المسلمون من إطلاق النار والحجارة من فوق أسوار المدينة ، من آلات قاذفة شديدة الفتك ، يصحبها دوى كالرعد ، لم يعرف كنهها ولم يسبق استعمالها في شبه الجزيرة ، تشبه المدافع البدائية ، وقد فتكت هذه الآلات بالجيش المحاصر ، وأرغمته على إطالة الحصار أكثر من تسعة أشهر ، ولكن المدينة المحصورة ، اضطرت آخر الأمر ، وبعد أن برحت بأهلها مصائب الحصار ، ويئست من تلقى أية نجدة أو مدد ، اضطرت إلى التسليم إلى القشتاليين بالأمان ، وعوض ألفونسو صاحبها ابن محفوظ مقابل تسليمها ، بأملاك وضياع واسعة في أحواز إشبيلية ، وفي فحص الشرف . وكان تسليم لبله في سنة ٦٥٧ هـ (١٢٥٧ م) ^(١).

هذا ما تقوله الرواية النصرانية عن حصار لبله وتسليمها . ولكن الرواية الإسلامية مع تأييدها لخصوع ابن محفوظ ، وأدائه للجزية وفق صلح منفرد عقده مع النصارى ، ومع تنويعها بهول حصار لبله وروعته ، تضع تاريخ تسليم لبله في سنة ٦٦٠ هـ ، أو ٦٦١ هـ (١٢٦٢ أو ١٢٦٣ م) ، أعنى بعد التاريخ الذى تضعه الرواية النصرانية بنحو أربعة أعوام . ثم هى تذكر لنا عن مصير ابن محفوظ رواية أخرى ، خلاصتها أن ابن محفوظ عبر البحر إلى المغرب مع أهله وصحبه ، وقصد إلى الخليفة المرتضى بمراكش ، وانضوى تحت لوائه ، قائداً بالجيش الموحدى ، وظل على تلك الحالة حتى توفى ^(٢).

وأما قواعد الغرب الواقعة شرقي نهر وادى يانه ، والى استولى عليها البرتغاليون ، ومنها قلعتا أورشة ، وأورسينة ، فقد ثار بشأنها الخلاف بين البرتغال وقشتالة ، وكاد يؤدى بهما إلى الحرب ، لولا أن تدخل البابا ، وانتهى الأمر بتسوية الخلاف بين ألفونسو العاشر ملك قشتالة وزميله ألفونسو الثالث ملك البرتغال ، وذلك بأن يتزوج ملك البرتغال الأميرة بياتريس ، وهى ابنة غير شرعية لملك قشتالة ، وأن ينزل ملك قشتالة إليه ، عن قواعد الغرب المذكورة ، على أن يكون ذلك بطريق الإقطاع ، وأن يقدم ملك البرتغال عربوناً بطاعته خمسين فارساً لمعاونة ملك قشتالة في حروبه كلما طلب ذلك إليه ، وتم ذلك في سنة ١٢٦٣ م ^(٣).

* * *

M. Lafuente : *ibid*; T. IV. p. 119 (١)

(٢) البيان المغرب ص ٤٣٦ .

M. Lafuente : *ibid*; T. IV p. 120 (٣)

هذا وقد توفي فرناندو الثالث ملك قشتالة ، بعد مرض شديد ، فى الثلاثين من شهر مايو سنة ١٢٥٢ م ، فى الرابعة والخمسين من عمره ، وذلك بعد أن حكم ستة وثلاثين عاما ، ودفن بمدينة إشبيلية آخر وأعظم فتوحه ، وحاضرتة الجديدة ، فخلفه ولده ، وولى عهده ألفونسو العاشر ، وهو الذى لقب فيما بعد بالحكيم أو العالم .

وتشيد التواريخ الإسبانية بخلال فرناندو الثالث وعبقريته ، وعظيم مآثره ، وتعتبره من أعظم ملوك إسبانيا ، ومن أعظم ملوك العصور الوسطى ، وترى أن فتوح « الاسترداد » La Reconquista ، قد وصلت على يديه إلى ذروتها ، وذلك بافتتاح قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وإشبيلية أعظم حواضر الأندلس . والواقع أننا نستطيع أن نعتبر فرناندو الثالث ، هو قاهر الأندلس الحقيقى ، وأنه هو الذى استطاع بضرباته وفتوحاته المتوالية لأراضيها وقواعدها ، أن يحطم وحدتها وتماسكها ، وأن يقوض صرحها الشامخ ، الذى استطاع الموحدون أن يحتفظوا بسلامته زهاء قرن ، وقد وضع افتتاحه لقواعدها الكبرى ، حداً نهائياً لسيادة الإسلام فى الأندلس الوسطى والغربية ، وجاء استيلاؤه على قرطبة ، وإشبيلية بالأخص ، وهما أعظم مراكز الإشعاع الحضارى فى الغرب الإسلامى ، ضربة قاضية للنفوذ الحضارى والمؤثرات الأدبية الأندلسية ، التى لبثت خمسة قرون متغلغلة فى شبه الجزيرة الإسبانية .

وقد لبث ذكرى فرناندو الثالث عصوراً ، تقترن بالأخص بحماسة الدينية وغيرته الكاثوليكية ، والصفة الصليبية التى كانت شعار حروبه ضد الإسلام فى الأندلس ، حتى جاء البابا كليمنطوس العاشر ، فأسبغ عليه صفة القداسة وتوجه قديسا ، وذلك فى سنة ١٦٧١ م وأضحى فرناندو الثالث من ذلك التاريخ يعرف بالقدّيس فرناندو San Fernando أو فرناندو المقدس Fernando el Santo

الكتاب الثاني

نهاية الدولة الموحدة

الفضل الأول

عصر الخليفة أبي محمد عبد الواحد الرشيد

بيمه الخليفة الرشيد . دخوله مراكش . بعض خواص عهده . قدوم ابن وقاريط زعيم هسكورة . موقفه من الرشيد . مغادرته للحضرة وإعلانه العصيان . تحالفه مع يحيى . خروج الرشيد لقتال يحيى وحلفائه . هزيمة يحيى وفراره . قدوم الزعيم غنصلة إلى الحضرة . مافله قبل مقدمه بأهل قادس . أبو عثمان الجذميوي ورغبته في العودة إلى الطاعة . توسيطه لمبعوث الرومي جوان كيس في ذلك . ميل الزعماء الموحديين إلى العودة إلى الطاعة . القائد شانجه يعرض الأمر على الرشيد . موافقة الرشيد واغتيابه . مقدم أبي عثمان وصحبه إلى الحضرة . مساعيه ومفاوضاته في سبيل عود الموحديين إلى الطاعة . مساعي الرشيد ودعوته لهم . تأهبهم للقدوم ثم إجحامهم خوفا من عدوان الخلط . مسعود شينغ الخلط وأعماله العدوانية . اعتزام الرشيد القضاء عليه . يضع خطة لذلك . استدراج مسمود إلى الحضرة . تدبير المؤامرة لاغتياله . البطش به وبأصحابه ومصرعهم داخل القصر . القبض على عرب الخلط وإهلاكهم . دعوة الرشيد للموحديين للقدوم . رسل الموحديين إلى الرشيد . مطالبة الموحديين بإعادة رسوم المهدي . وعد الرشيد بتحقيقها . مقدم الموحديين إلى الحضرة . إعادة رسوم المهدي . إعادة حقوق الموحديين وأملاكهم . تضعضع الدولة الموحدية . تحالف الخلط وابن وقاريط ويحيى . زحف الحلفاء على مراكش . خروج الرشيد في قواته لقتالهم . هزيمة الرشيد وتمزيق قواته . عزمه على مغادرة الحضرة صونا لها . حيلته ليشق لنفسه طريق الخروج . نجاحه في الخروج والفرار . التجاؤه إلى الجبل ثم إلى سبلماسة . الضيق والجوع في مراكش . عيث العرب في أحوالها . دخول يحيى وابن وقاريط والخلط المدينة . تغلب ابن وقاريط على الخليفة . فرار الموحديين من المدينة . استعداد الرشيد لاستئناف القتال . مسيره إلى مراكش . اللقاء بينه وبين يحيى وحلفائه . هزيمة يحيى والخلط . دخول الرشيد الحضرة وإنفاذها من العيث . غزو الجنويين لسبتة . ظروف هذه المحاولة وفشلها . التكتيل بالجنويين المحليين . مقدم أسطول جنوة ومحاصرته لسبتة . تعويض الجنويين وإقلاهم . الخلط يدبرون خطة الانتقام . يبعثون ابن وقاريط سفيراً إلى ابن هود . استعداد الرشيد للقضاء على خصومه . مسيره إلى فاس . التجاء يحيى إلى عرب المعقل ومصرعه بأيديهم . يحيى وصفاته . عودة الرشيد إلى الحضرة . حوادث سبلماسة . مسير الرشيد إلى فاس . مهاجمة ابن وقاريط لسلا وفشل المحاولة . عوده إلى إشبيلية . وفاة ابن هود وعودة إشبيلية إلى طاعة الخلافة الموحدية . القبض على ابن وقاريط وإرساله إلى المغرب . إعدام جلّة من زعماء الخلط . تعذيب ابن وقاريط وإعدامه . بيعه ابن الأحمر للرشيد . الثورة في السوس ومصرع زعيمها . الحجاعة في سبتة وأسبابها . بنومرين وسيطرتهم على الأقطار الغربية . وصولهم إلى فاس . تعيين ابن وانودين لولاية الأقطار الغربية . النزاع بينه وبين بنى مرين . تقدم دعوة بنى مرين . مصرع أبي سعيد عثمان أمير بنى مرين . أخوه أبو معرف يخلفه في الإمارة . الشقاق بين بنى مرين . تحالف ابن وانودين مع بنى عسكر . محاربته لبنى مرين . اجتماع بنى مرين حول زعيمهم أبي معرف محمد بن عبد الحق . مسيرهم إلى مكناسة وقتلهم بالروم التابعين لابن وانودين . مسير

ابن وانودين لقتالهم . لقاء الفريقين قرب مكناسة . هزيمة ابن وانودين وحلفائه . التجاؤه إلى قصر عبد الكريم . تضاعف هيبة بنى مرين وامتداد سلطانهم . ابن وانودين وقصته وعوده إلى مراكش . الرشيد يبطش بوزيره المومنانى . مصرع الرشيد فى حادث البحيرة . مختلف الروايات حول ذلك . خلال الرشيد وصفاته . وزراؤه وكتابه . شخصه .

بويج أبو محمد عبد الواحد الرشيد ، حسبما تقدم عقب وفاة أبيه ، وهو فى طريق عودته على رأس جيشه من سلا إلى مراكش ، وذلك فى مستهل شهر المحرم سنة ٦٣٠ هـ (١٨ أكتوبر سنة ١٢٣٢ م) ، وكانت بيعة خاصة انحصرت فى أكابر الأشياخ والسادة ، إذ كتبت وفاة الخليفة الراحل إلى حين . ولما وصل الرشيد فى جيشه إلى الحضرة ، بعد هزيمته لابن عمه يحيى بن الناصر ، واستعدت الحضرة لاستقباله ، بعد أن كانت على أهبة لرده ، مما فصلناه من قبل ، دخلها فى منتصف شهر المحرم ، ونزل بالقصر ، وساد التفاؤل والبشر بين الناس ، وكانت طوائف الموحدين والعرب التى قدمت مع يحيى ، ولاسيما عرب سفيان وشيخهم يومئذ جرمون بن عيسى ، قد عاثت فى أرجاء العاصمة وخربتها ، ونهبت من الأموال والذخائر مقادير طائلة . ووصل مع الرشيد كثير من عرب الخلط المخلصين له ولأبيه من قبل ، واستقروا فى مختلف الأنحاء ، ووصل معه كذلك عمه السيد أبو محمد عبد الله بن أبى سعد بن المنصور ، فأنزله الرشيد أكرم منزل وولاه وزارته ، وكانت له فى الدولة مكانة رفيعة .

ولما استقر الرشيد بمراكش ، اجتمع الناس على طاعته ، ووصلته البيعات من مختلف الجهات من الحواضر ومن القبائل .

وكان عهد الرشيد الذى استطال زهاء عشرة أعوام ، عهداً بعيداً عن الهدوء والاستقرار ، مليئاً على قصره بالأحداث والانقلابات العنيفة . بيد أنه قد امتاز فى نفس الوقت بوقوع بعض الظواهر الهامة ، وفى مقدمتها عود الموحدين الحوارج ، إلى تأييد الدولة الموحدية ، وإحياء ما اندثر من رسوم المهدي ، والقضاء على تمرد عرب الخلط ، وقبيلة هسكورة ، وتحرير البلاد من عيثم ، وطغيانهم ، وامتاز أخيراً بتقديم دعوة بنى مرين ، وسيطرتها على معظم الأنحاء الشمالية .

وفى أوائل سنة ٦٣٠ هـ ، قدم إلى مراكش عمر بن وقاريط زعيم هسكورة من جبله ، ومعه أولاد الخليفة المأمون لإخوة الرشيد الصغار ، ومنهم السيد أبو الحسن ، وكان أبوه قد تركه بإشيبيلية فى كفالة بعض الأشياخ ، ثم أخرجهم أهلها ، فأخذ

إلى عمه أبي موسى بسبته ، ولجأ أولئك الصبية أثناء احتلال يحيى لمراكش إلى هسكورة ، تحت كنف ابن وقاريط ورعايته .

وكان ابن وقاريط منذ البداية من أنصار الخليفة المأمون ، وخصوصاً ابن أخيه يحيى ، ولكنه لما تولى الرشيد شعر نحوه بشيء من التوجس ، بيد أنه توسل باستصحاب إخوته الصغار أبناء المأمون إلى الحضرة ، إلى نيل عطفه وثقته ، ولما وصل إلى مراكش واستقر بها ، توثقت أواصر المودة بينه وبين السيد أبي محمد ابن أبي سعد عم الرشيد ، وصديقه الحميم العلامة الفقيه أبي إسحاق بن الحجر ، وكان من أقطاب عصره علماً ومكانة ، بيد أن ابن وقاريط لم يكن صادق الولاء ، وكانت نفسه تجيش بذات ونوازع مختلفة ، لم تلبث أن كشفت عنها الحوادث .

وكان ابن وقاريط ، شعوراً منه بكثرة جمعه ، وتوطد نفوذ قبيلته ، يكثر من الرغبات والمطالب ، وخصوصاً منذ توفي صديقه وناصح السيد أبو محمد بن أبي سعد ، وكان الرشيد يستجيب إلى معظم رغباته ، ومن ذلك أنه منحه جباية هزرجة وأغمت وريكة ، وغير ذلك . بيد أنه لم تهدأ نائرة نفسه ، وفي ذات يوم — آخر سنة ٦٣٠ هـ — غادر مراكش بحجة الاتصال بإخوانه وإصلاح شئونهم ، ولكنه لم يعد ، ولم يلبث أن كشف القناع ، وأظهر العصيان للرشيد ، والانضواء تحت طاعة منافسه يحيى المعتصم ، وسار إليه بمقره ببلاد مزالة ، وكان من الواضح أن عمله كان نذيراً ببدء فصل جديد ، من الصراع بين الرشيد ، وبين يحيى وحلفائه .

وذلك أن الرشيد لما علم بما وقع من عقد التحالف بين هسكورة ويحيى ، حشد قواته ، وخرج لقتال خصومه ، واستخلف على مراكش صهره زوج أخته السيد أبا العلى إدريس ، فقام على ضبطها وتسيير أمورها بحزم وكفاية . ولما وقف ابن وقاريط ويحيى ، على أهبة الرشيد للقتال ، أخذوا في استنفار أنصارهما ، واجتمعت حشود هسكورة ومزالة وجلالوة ، وأخذت تتأهب للسير صوب مراكش ، فبعثت أم الرشيد إلى ولدها تستحثه وتهيب به أن يستدرك الموقف قبل أن يهدد الأعداء العاصمة ، فحول الرشيد خط سيره ، وقصد إلى بلاد هزرجة ، واخترق في طريقه بلاد هسكورة وخرب بسائطها ، واستعد يحيى وحلفاؤه لمنازلته في يحيى بعض الجبال ، فسار الرشيد لقتالهم ، ولما اضطرت المعركة بين الفريقين ، تنازل أنصار يحيى وولوا الأدبار ، واعتصموا بالجبال ،

وتركوا محلاتهم ، فاستولى عسكر الرشيد على ما فيها ، وفر يحيى في فلوله إلى بلاد سجلماسة ، وعاد الرشيد ظافراً إلى مراکش (١) .

وقدم عندئذ إلى الحضرة الزعيم غنصلة (كونثالو) أخو شانجه (سانشو) قائد الروم (الجند النصارى) مع طائفة من الجند النصارى ، وكان قبل مقدمه ، قد جاز على مدينة قادس ، وانقض عليها في غصبته ، وفك بأهلها ، وحمل منهم عدداً من الأسرى . وكانت قادس يومئذ تدين بالطاعة لابن هود ، ألد خصوم الخلافة الموحدية ، واستاق غنصلة الأسرى المسلمين معه حتى ثغر آسفى ، فقام أهله بافتدائهم ، وتم تسريحهم ، وبقيت قادس بعد ذلك خراباً حتى تملكها النصارى فيما بعد ، في عهد ألفونسو العاشر (٢) .

وكان أهم ماحدث في هذا العام — ٦٣١ هـ — هو التقرب بين زعماء الموحدين وبين الرشيد ، وذلك على يد أبى عثمان سعيد بن زكريا الجدميوى . وكان يتردد على جدميويه ، وهى من منازل الموحدين القديمة ، بعض التجار النصارى ، وكان من هؤلاء مبعوث « للروم » جوان كيس وكيل شانجه قائد النصارى ، وكان هذا المبعوث يتردد على أبى عثمان ، ويقدم إليه مختلف الهدايا تسهيلاً لمهامه ، وأبو عثمان من جانبه يقوم بخدمته ومعاونته . ولما علم بذلك جوان كيس قرر أن يزور أبا عثمان وأن يوثق معه علائقه ، فاستقبله الزعيم الجدميوى أجمل استقبال ، وانتهر الفرصة فأبدى له رغبته فى العودة إلى الطاعة ، وأن يقوم بذلك المسعى القائد شانجه ، لمكانته من الرشيد ، فأبدى جوان كيس اغتباطه بذلك ، ووعد بتحقيقه . وكان الزعماء الموحدون الخوارج على الرشيد ، قد برموا بحركات يحيى ، وارتمائهم فى أحضان هسكورة وابن وقاريط ، وهو خصمهم الأكبر ، وسرت بينهم فكرة العودة إلى الطاعة ، وعقد الصلح مع الرشيد . وكان أبو عثمان يسره أن يكون البادئ بهذا المسعى الحميد . ولما وقف القائد شانجه على ذلك أدرك ما لهذا المسعى من الأهمية والفائدة ، وعرض الأمر على الرشيد وطلب موافقته ، فأبدى الرشيد اغتباطه ، وأصدر عهده لأبى عثمان بالأمان والقبول ، فلما وصل العهد إلى أبى عثمان ، بادر بالسير إلى الحضرة فى أهله وإخوانه ، ومن اتبعه من قبيلته ، فاستقبله شانجه أجمل استقبال ، وصحبه إلى الدار التى خصصت له ، وشمله الخليفة هو وسائر

(١) البيان المغرب — القسم الثالث ص ٢٩١ و ٢٩٢ ، وابن خلدون ح ٦ ص ٢٥٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٢ ، والذخيرة السنية ص ٧٠ .

صحبته بعنايته ورعايته وجزيل صلاته . وأخذ أبو عثمان يعمل على توثيق علاقته برجال الدولة من جهة ، وعلى بث سعيه الخيبي ، لدى زملائه الموحدين من جهة أخرى ، ليجمع كلمتهم على الطاعة ، والعود إلى الالتفاف حول كرسى الخلافة . واستمرت مساعيه ومفاوضاته في سبيل ذلك حيناً ، واستطاع في النهاية ، أن يقنع زملاءه الموحدين بالعود إلى الطاعة ، على أن يشملهم العفو التام ، وعلى أن تعاد رسوم إمامهم وقوانينهم وتقاليدهم كما كانت ، وهو ما وعد الخليفة بتنفيذه ، وبذل الرشيد من جانبه ، مساعيه لاستجلاب الموحدين ، واستدعائهم إلى الحضرة ، لما فيه خيرهم وصلاتهم ، فبعث الموحدون إليه بالشكر والدخول في الطاعة ، وأخذوا في الأهبة للسير إلى الحضرة ، وندب الرشيد لمصاحبتهم والوصول معهم ، عمه موسى بن الناصر ، ولكن حدث أن وقف على ذلك شيخ الخلط مسعود بن حميدان ، ورأى في انضمام الموحدين إلى الرشيد تقوية لشوكته ، وإضعافاً لمركز الخلط ، فرتب قوة من رجاله ، لتعرض الموحدين وتفتك بهم ، وعلم الموحدون بتلك الخطة الغادرة ، فارتدوا إلى جبلهم سالمين . ولما نعى ذلك إلى الرشيد ، استشاط غيظاً ، وتشاور في الأمر مع وزرائه وخاصته ، واستقر الرأي على استدراج زعيم الخلط والقضاء عليه .

وكان ابن وقاريط خلال ذلك ، يجد في وضع خططه وإحكام وسائله ، وكان يوحى إلى حليفه القديم ، شيخ الخلط بمختلف المشاريع العدوانية ، وشيخ الخلط مسعود من جانبه ، يعيث فساداً في الأرض أينما حل ، ويفرض سلطانه الغاشم على الناس ، ويرهقهم بالمغارم والفروض ، ويستبيح الأموال والحرم ، وكان وكيله ، واسمه موسى الكافر ، رجلاً فاجراً يستطيل على رجال الخليفة وخدامه ، دون حياء ولا وازع ، وكان الرشيد يشهد ذلك كله ، مظهرًا الصبر والإغضاء ، وهو يضطرم في قرارة نفسه رغبة في التخلص من هذا الزعيم المتجبر الباغى ، ويرقب الفرص لتحقيق بغيته .

ولم يكن القضاء على شيخ الخلط بالأمر الهين ، فقد كان يعتمد على قوة محاربة تتألف من نيف وإثنى عشر ألف فارس ، غير الأتباع والحشود التي لا تحصى ، وكانت فرسانه وجنده ، حسنة الأهبة كاملة السلاح ، ولديه من الأموال والثياب والدواب والإبل مقادير وافرة ، وبالجملة فقد كان مسعود ابن حميدان ملكاً غير متوج ، قوى الشوكة ، وافر البأس ، وكان لابد للقضاء عليه

وعلى سلطانه ، من التذرع بكثير من الحكمة والصبر والدهاء (١) .
ووضع الرشيد خطته لذلك بالاتفاق مع وزرائه ونصحاؤه ، وخلاصتها ،
أن يرسل الجيش مع وزيره السيد أبي محمد الكبير في مهمة إلى بلاد حاحة . ذلك
لأن شيخ الخلط كان يخشى المثل في الحضرة ، مع وجود الجيش ، ومن ثم
فقد تحرك السيد أبو محمد بالجيش إلى حاحة يرسم جبايتها . وعلى أثر ذلك بدأ
الرشيد مسعاه في استدعاء مسعود بن حميدان إلى الحضرة ، فقبل الدعوة بعد لآى
وتسويق ، واستقبل بمنتهى المودة والإكرام ، وصار يتردد إلى باب الخليفة
في جموعه ، وكان يقيم بالحضرة معاوية بن وقاريط عم عمر بن وقاريط ، وهو
يظهر التبرؤ من عمر وفعله ، والولاء للرشيد ، بيد أنه كان من جهة أخرى ،
يبدى صداقته لمسعود ، وقد أعد له هو وإخوانه ذات صباح مأدبة حافلة ، ولكن
الرشيد لم يصبر على تلك المظاهرة فأمر بالقبض على معاوية وإعدامه ، وكان مسعود
في ذلك الوقت نفسه في دار الخلافة لمصالح يقضيها ، فلما نعى إليه الخبر لم يهتز له ،
وقال لقد أفسد علينا غذاء الخلط ، فأقيمت له ولأصحابه في الحال مأدبة عظيمة ،
وبولغ في إكرامه والحفاوة به .

وهنا وضع الرشيد خطته للإيقاع بمسعود ، حينما يفد على القصر ، وبث له
الكائن من الفتيان والعبيد والحشود ، داخل القصر وحواليه . فلما حضر مسعود
أذن له بالدخول ، فطلب أن يدخل مع أصحابه ، ولكنه أجيب إلى الدخول
بمفرده ، ومنع الصحب ، فتردد أولاً ثم ارتضى أن يدخل وحده ، فلما وصل
إلى مكان معين احتاط به يحيى بن عبد الرحيم ، ونفر من العبيد والفتيان ، فشرع
بالخطر يخلق به ، وشهر سيفه وصاح برفاقه الذين تخلفوا ورائه ، وتمكن من
اللحاق بهم ، فشبهروا سلاحهم وحاولوا الخروج ، ولكن الأبواب كانت قد
أغلقت ، ففتحوا الباب الأول ، بعد جهد ، ولكن لقيهم من ورائه ابن ماكسن
صاحب الشرطة وأعوانه ، ولكنهم استطاعوا التغلب عليهم ، ووثبوا إلى الباب
الثاني ، ولكنه كان أيضاً مغلقاً ، وهجم عليهم في ذلك الفناء ، كل من كان كامناً
في الرياض من الفتيان والكتاب والخدم ، وعرف الجميع أن العرب هم المطلوبون ،
ودافع مسعود ورفاقه عن أنفسهم أعنف دفاع ، ولكن السيوف تلففتهم من كل
ناحية ، وتساقطوا حول زعيمهم واحداً بعد الآخر ، ثم كانت الحاتمة بمصرع

مسعود، فسقط مضرجا بدمه، واحتز رأسه في الحال، وحمل إلى الرشيد، فحمد الله على ما حقق من هلاك هذا الخصم الخطر، وفي الحال أمر الرشيد بالقبض على من كان بالحضرة من عرب الخلط، وقتلهم، والطواف بجثثهم، وكان مصرع مسعود بن حميدان، وانهار سلطانه على هذا النحو، عمل انقاذ لموقف شديد الحرج، إذ كان عرب الخلط قد اشتد عيئهم في أنحاء البلاد، واغتصبوا جباياتها وعشورها، وأصاب البلاط الموحدى من جراء ذلك منتهى الضيق والإرهاق^(١).

ولم يمض على مصرع زعيم الخلط سوى أيام قلائل، حتى عاد الجيش الذى أوفد إلى بلاد حاحة، بقيادة السيد أبي محمد، بعد أن قام بمهمته. وعلى أثر ذلك قام الرشيد بتوجيه كتبه إلى الموحدين بالوفادة عليه، بعد أن مهد السبيل، وزالت العقبات، فبعث الموحدون إليه منهم رسولين، هما أبو بكر بن يعزى التينملى، ومحمد بن بزريجن الهنتاقى، فاستقبلا في الحضرة بمنتهى الترحاب والبشر والتكريم، وغمرهما الرشيد بعطفه ورعايته. وأبدى للخليفة شروط الموحدين للعودة، وهى إعادة ما نسخه أبوه الخليفة المأمون، من رسوم الإمام المهدي، وذلك بإعادة اسمه في الخطبة، ونقشه في السكة، وإعادة الدعاء له بعد الصلاة، والنداء «بتأصيلت الإسلام» «وسودوت» «وناردى» «وأصبح والله الحمد» وغير ذلك مما جرى عليه التقليد، منذ قيام الدولة الموحدية، وقضى المأمون بإزالته، وتبعه في ذلك ولده الرشيد، فوعد الرشيد بتحقيق مطالبهم. وعلى أثر ذلك قدم الموحدون إلى الحضرة، ونزلوا فيما خصص لهم من الدور، وانتظموا كما كانوا في طاعة الخلافة، وتمهل الرشيد وقتاً في تنفيذ ما وعد به من إحياء رسوم المهدي، ولكنه لما شهد قلقهم وتوجسهم من ذلك، بادر بتنفيذ عهده، وأعيدت رسوم المهدي ابن تومرت كما كانت قبل إلغائها، واستقبل الموحدون ذلك بمنتهى العرفان والرضى^(٢)، وقرن الرشيد ذلك بأن رد على الموحدين دورهم وأملأهم وأموالهم، وسائر حقوقهم وامتيازاتهم القديمة، فطابت نفوسهم، واتسعت أحوالهم، وأقبلوا على الانضمام إلى الجيش، والاضطلاع بنصيبهم من المسؤوليات والشئون، ولاح أن الدولة الموحدية قد استردت سابق تماسكها ووحدتها وقوتها^(٣).

(١) البيان المغرب ص ٣٠١ - ٣٠٣، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٥.

(٢) البيان المغرب ص ٣٠٤ و ٣٠٥، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٤.

(٣) البيان المغرب ص ٣٠٦.

على أن الأمر لم يكن كذلك في الواقع . ذلك أن الدولة الموحدية لم تكن عندئذ سوى بقية هزيلة مما كانت عليه . ولم يكن سلطان الخليفة الموحدى يتعدى يومئذ أحواز العاصمة الموحدية — مراكش — وما إليها ، وكانت أطرافها قد قصت من كل ناحية ، ففضلاً عن انصلاح إفريقية ، وقيام دولة بنى حفص المستقلة بها ، فقد غالب بنو مرين على معظم الأنحاء الشمالية الشرقية ، وابتث طوائف العرب ، ولاسيما عرب الخلط ، مسيطرة على الأنحاء القريبة من العاصمة ، واستقر يحيى المعتصم مع فلوله في قطاع سجلماسة . ومن جهة أخرى ، فقد كان لمقتل مسعود ابن حميدان زعيم الخلط ، نتائج بعيدة المدى . ذلك أن طوائف الخلط هاجت وماجت ، وأزمنت الانتقام ، واختارت لزعمائها يحيى بن هلال بن حميدان ، واضطربت كلها بنار الفتنة ، وانتهز ابن وقاريط تلك الفرصة ، ليضع يده مع الخلط ، وليذكرى فيهم ظمأ الانتقام والعيث ، وكان منذ هزيمته في هزرجة ، قد لبث إلى جانب يحيى المعتصم . واستنفر الخلط سائر حشودهم ، فاجتمعت منهم جموع غفيرة ، وانضم إليهم يحيى وابن وقاريط بقواتهما ، وزحفن الجموع المشتركة على مراكش ، وعاثت في أحوازها ، وانتسفت الزروع والرياض والبحائر القريبة ، وضربت المدائن والقرى ، وانقطعت المؤن والأمداد عن الحضرة ، واشتد بها الضيق ، وأخذ الجند في التسلل إلى الخلط ، فعندئذ رأى الرشيد أن يدفع بقواته لمقاتلة المهاجمين ، فخرج غنصالة ، (كونثالو) قائد الروم في فرسانه ، ومعه جند الرشيد ، إلى وادى تانسيفت ، حيث اجتمع الخلط وهسكورة ، وكان معه أيضاً عبد الصمد بن يلولان المسكورى ، خصم ابن وقاريط الألد في جمع من أنصاره ، ونشب بين الفريقين قتال عنيف ، وقاتل الروم ومن معهم بمنتهى الشجاعة ، ولكن تكاثرت عليهم الخلط وهسكورة وفتكت بهم ، فهزموا هزيمة شديدة ، وارتدت فلولهم عند دخول الليل إلى المدينة ، فأغلقت أبوابها ، وساد بها الاضطراب والفرع ، وزاد الضيق وعدمت الأقوات ، وانهارت هيئة الخلافة والخليفة ، وأخذت الأمور تنذر بأخطر العواقب (٦٣٢ هـ - ١٢٣٤ م) (١).

وعندئذ اقترح الموحدون على الرشيد ، صونا للمدينة ، وانقاذاً لها من الحصار والخراب ، وانقاذاً لأهلها من الهلاك والأسر ، أن يغادرها الرشيد ، وأن يلجأ

إلى جبال الموحدين في قاصية جبال الأطلس ، فقبل الرشيد هذا الرأي ، ولكن كان لابد لتنفيذه من أن يلتمس الرشيد له طريقاً للخروج والإفلات ، من خصومه المتربصين به خارج الحضرة ، ومن ثم لجأ الرشيد إلى الحيلة ، فأمر بأن يكتب خطابان على لسان جرمون شيخ عرب سفيان ، موجهان إليه ، بانتصار عرب سفيان على الخلط ، وأنهم مرابطون في وادي أم الربيع ، وأنهم مازالوا على ولائه وطاعته . وقد كان عرب سفيان دائماً من أنصار المأمون وولده الرشيد ، وكانوا من أعداء الخلط ، ثم عهد بالخطابين المزورين إلى رسولين (رقاصين) أجزل لهما العطاء ، وأمرأ بأن يمرآ قرب محلة الخلط ، وأن يتظاهرا بأنهما قادمين من لدن عرب سفيان إلى الرشيد ، فتمت الحيلة ، وقبض الخلط على الرسولين ، وضبط الكتابان ، فقررأ أنهما قدما من لدن جرمون ، وأنه مقيم بحشوده في وادي أم الربيع ، وخشى الخلط أن يكون قد وقع مكروه لباقي مواطنيهم ، فقوضوا محلتهم خارج الحضرة ، وساروا مع حلفائهم بنى هسكورة صوب وادي أم الربيع^(١) .

وما كاد الخلط وحلفاؤه يتعدون عن الحضرة ، حتى بادر الرشيد فجمع أمواله وعتاده ومتاعه ، وغادر مراکش في أهله وولده ، ووجوه دولته ، وأشياخ الموحدين ، واستخلف على المدينة أبا محمد عبد الله بن زكريا ، وخرج في أثره كثير من الناس بأهلهم ، ولحسن الطالع لم يتعرض له أحد في ذلك اليوم ، فسار في أمن حتى وصل ومن معه إلى أغمات . ولما علم الخلط بما حدث بعد يوم أو اثنين ، هرعوا في أثر الخليفة الفار ، وحاصروه بأغمات مدى يومين ، شغلوا خلالها بالبحث عن الأقوات والمؤن ، وتحيل الرشيد من جهة أخرى في الخروج صوب الجبل ، فتجج ، ووصل إلى أطراف الجبل ، قبل أن يفتن إلى ذلك خصومه ، ثم بعث بجنده إلى تينملل ، ولما أدرك الخلط ما حدث ، ولم يجدوا أحداً بالمحلة ، ارتدوا على أعقابهم إلى حيث أتوا .

وسار الرشيد في قواته جنوبا ، فاخترق بلاد هرغة ، ثم اتجه شرقاً صوب سجلماسة ، وكان واليها أرقم بن يحيى بن شجاع بن مردنيش ، فامتنع ، واستعد للمقاومة . ولكن طائفة من النصاري كانت بالمدينة ، فتحت الأبواب وأعلنت الطاعة ، فدخل الناس المدينة وأسعفوا بالأقوات ، وهدأت الأحوال .

وكانت مراکش ، منذ غادرها الرشيد ، قد سادها الاضطراب والضيق ،

وعزت الأقوات واشتد الكرب ، وأكل الناس كل ما وصل إلى أيديهم من صنوف النبات والحشائش ، ومات كثير من الجوع ، وكان العرب خارج المدينة يحولون دون إغاثتها وتموينها ، ويقيمون هم في خصب وسعة . ثم كان أن تسور المدينة السيد أبو إبراهيم بن أبي حفص الملقب بأبي حاقة ، وفر الوالى أبو محمد بن أبي زكريا ، وضبط السيد أبو إبراهيم البلد ، وأمل الناس أن ينقذهم من عيث العرب وبطشهم ، وبدأت تبشير الفرج بوصول الناس إلى الحقول والزرع الأخضر .

وفي تلك الأثناء وصل يحيى المعتصم وابن وقاريط وطوائف الخلط إلى المدينة ، فتوجس الناس شراً ، ودخل يحيى في الحال مراکش واحتلها ، واستولى أصحابه من العرب والمساكرة على الدور ، ووزر ليحيى يومئذ أبو محمد بن وانودين ، وأبو يحيى بن زكريا بن مجلد ، ودخل ابن وقاريط في أشياعه ، ونزل بدار الوزير السابق أبي سعيد بن جامع ، واقتسم الزعماء القصور والرباع الفخمة ، وغلب ابن وقاريط والعرب على الخليفة الضعيف يحيى . وكان المسيطر عليه يومئذ فى أفاق يدعى بلال ويكنى أبا حمامة ، وأوقع بلال هذا بعلى أخى يحيى ووشى به ، فأمر يحيى بالقبض عليه ثم إعدامه ، بالرغم من شفاعته ابن وقاريط والخلط ، وكثر الإرجاف ، وساءت الظنون ، وخرج الموحدون الذين كانوا بالمدينة ، وغادروها تباعاً بمختلف الوسائل والحيل ، وساروا إلى الجبل ، وانتظروا يرقبون الحوادث .

وكان دخول يحيى مراکش على هذا النحو فى أواخر سنة ٦٣٢هـ (١٢٣٥م) فلبث بها حتى أوائل العام التالى ، وكان الرشيد فى تلك الأثناء بسجلماسة ، ينظم شؤنه ، ويتخذ أهبطه للمعركة المرتقبة . فلما شعر بعد بضعة أشهر بتحسّن أحواله وإزدياد قواته ، واستجاب إلى نصرته عرب سفيان ، وشيخهم جرمون بن عيسى ، عول على التحرك والعمل . فخرج فى قواته من سجلماسة ، قاصداً إلى مراکش ، وترامت هذه الأنباء إلى الحضرة ، فسرى إليها الاضطراب ، وخرج منها يحيى ، وضرب محالته فى ظاهرها استعداداً للقاء الرشيد ، وقد تزايدت قواته بحشود حلفائه من الخلط وهسكورة .

وسار الرشيد فى قواته أولاً صوب وادى أم الربيع ، ثم هبط منه نحو العاصمة ، وهناك فى مكان يسمى أوجدام التقى الفريقان ، ونشب بينهما قتال هائل ، استمر طول اليوم دون حسم ، ثم استؤنفت المعركة بعد بضعة أيام ، ونشبت بينهما معركة عنيفة أخرى ، انقض خلاها الروم من عسكر الرشيد ، على ناحية

الخلط ، وهاجموهم بشدة ، وفتحوا بهم ، فولى الخلط الأدبار مع أميرهم ، وتحطمت جبهة يحيى وحلفائه ، وانتهت محلاتهم ، وسبى أولادهم ونسائهم ، وتحقق للرشيد نصر كامل ، ودخل الرشيد حاضرتة في حفل فخم ، فأغدق صلاته على حلفائه من عرب سفيان ، فاتسعت أحوالهم ، وزادت جموعهم ، وأعلن الصفع عن خصومه ، وساد التهادن والسلم ، وتم ذلك في أواسط أو أواخر سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) (١) .

وكانت هزيمة الخلط على هذا النحو الشامل ، ضربة شديدة لتلك الطوائف الباغية المفسدة ، أنقذت بها الخلافة الموحدية ، وأنقذت مراکش من كابوس خانق ، فانتظمت الأحوال وانتعشت النفوس ، وعمرت الديار ، وارتفعت المظالم المرهقة ، التي كانت هذه الطوائف تنزلها بالناس ، وأخذ الرشيد يستعد لمطاردة الخلط ، والقضاء عليهم ، وكانوا عندئذ قد انفضوا عن يحيى ، وفر يحيى في نفر يسير من صحبه مقلولا كسيراً ، والتجأ إلى جماعة من عرب المعقل .

وحدث في هذا العام - سنة ٦٣٣ هـ - الذي بلغت فيه الحرب الأهلية ذروتها من الاضطرام ، حادث لم يلتفت البلاط الموحدى إلى خطورته ، وإلى خطورة دلالته ، وهو غزو الجنوبيين لثغر سبتة ، ومحاولة الاستيلاء عليه . وكان الجنوبيون يفلدون في سفنهم إلى سبتة للتجارة مع أهلها ، ومع القبائل المجاورة ، وترتب على ذلك أن نزل بها وبأرباضها كثير منهم ، ففكر جماعة منهم في الاستيلاء عليها ، لأهميتها البحرية والتجارية ، فسمى ذلك إلى واليها عندئذ ، وهو أبو العباس اليانشتى ، فكتب إلى القبائل المجاورة يستنفرهم ، وحدد لوفودهم يوماً معيناً . وفي ذلك اليوم ، وفدت على سبتة ، منهم جموع غفيرة ، وخرج اليانشتى للقاءهم ، فأدرك الجنوبيون فشل مشروعاتهم ، وأسرعوا إلى باب المدينة ، محاولون امتلاكه فرددتهم عساكر البربر ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، ورعى كثير منهم أنفسهم إلى البحر ، ووصلوا إلى سفنهم الراسية فيه ، ونهب أموال الجنوبيين وفنادقهم ، وهرع من بقى منهم إلى چنوة ، وأبلغوا أهلها ماحدث ، فحشد أهل چنوة في الحال نحو مائة مركب ، وساروا لمحاصرة سبتة ، ولما وصلوا إليها نصبوا عليها المجانيق ، وضيقوا عليها ، وعولوا على ضربها وأخذها بالحصار ، فبادر صاحب المدينة اليانشتى إلى مفاوضاتهم ، واتفق معهم على تعويضهم عن كل ماحدث من الخسائر

لمواطنيهم ، وقدر هذا التعويض بمبلغ أربعائة ألف دينار دفعها أهل سبتة ، فتسلم الجنويون المال ، وأقلعوا عن المدينة ، ووقع ذلك في سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) ، أو في سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) وفقاً لرواية صاحب روض القرطاس ، وتضع بعض الروايات تاريخ هذا الحادث في سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) (١) .

وفي تلك الأثناء كان عرب الخلط يجمعون فلولهم ويدبرون خططهم . ذلك أنهم لم ييأسوا من المقاومة ، واقترح عليهم ابن وقاريط أن يعترفوا بطاعة صاحب الأندلس ، محمد بن يوسف بن هود ، وأن يستنصروا به ، لكي يرسل إليهم جنداً لمحاربة الرشيد ، فوافق العرب على ذلك ، وندبوا ابن وقاريط وجماعة من أعيانهم للسير إلى ابن هود . وكان ابن وقاريط في الواقع يتوق إلى مغادرة المغرب ، بعد أن شعر بفداحة هزيمته وخسران قضيته ، فعبّر البحر مع رفاقه إلى الأندلس ، ووفد على ابن هود ، فرحب بمقدمهم ، وشملهم بعطفه وجوده ، ولبثوا بإشبيلية في ضيافته وتحت كنفه ، حتى سنة ٦٣٥ هـ ، وانتظر عرب الخلط وأمرهم فوضى ، نتيجة هذه السفارة ، حتى تحرك الرشيد حركته الثانية ، فدب إليهم الذعر وتفرقوا في مختلف الأنحاء .

وكان الرشيد عندئذ ، قد استعد للحرب خصومه أعظم استعداد ، وبذل الأعطية على نطاق واسع ، وشمل الموحدین بسايع عطفه وكرمه ، وندب لولاية مراکش الشيخ أبا علي بن أبي محمد عبدالعزيز ، ولأشغالها أبا عبدالله بن أبي زيد التينمللي ، ولقضاها أبا زيد المكادى ، ولشرطها يوسف بن عثمان الهنتاقي .

وسار الرشيد في قواته أولاً إلى فاس ، والناس يرحبون به أينما حل . وفي فاس نظر في الشئون ، وطلب تحصيل الجبايات ، وأرسل الجيش إلى غمارة بقيادة الوزير السيد أبي محمد سعيد بن المنصور . وخلفه في الوزارة الشيخ أبو موسى ابن عطوش . وبقى الموحدون في فاس . وحصلت الجبايات العظيمة من قبائل غمارة وفازاز ، ومنح الجند أعطيهم ، ووسع عليهم ، واستقامت الأمور ، وتحسنت الأحوال .

ووقع خلال إقامة الرشيد بفاس حادث حسم ، هو مصرع يحيى المعتصم . وذلك أنه كان عقب هزيمته الأخيرة الساحقة ، قد لجأ إلى عرب المعقل بقرب رباط تازا ، واستجار بهم ، فأووه ووعدوه بمؤازرتهم ونصرتهم ، ولكنهم

(١) راجع في غزو سبتة البيان المغرب ص ٣٤٦ و ٣٤٧ ، وروض القرطاس ص ١٨٣ .

أخذوا يرهقونه بمطالبهم ، فى إصدار الظهائر لهم بامتيازات وحقوق معينة ، أملاً منهم فى عوده إلى الخلافة ، فأبى يحيى ذلك عليهم ، فقتلوه غيلة ، ودفنوا شلوه ، وذلك فى يوم الاثنين ٢٨ رمضان سنة ٦٣٣ هـ (مايو سنة ١٢٣٦ م) ، وذلك بمكان يسمى فحص الزاد ، يقع بين فاس ورباط تازا ، ثم بعثوا برأسه إلى الرشيد وهو بفاس^(١) ، فبعث بها الرشيد « فى زق عسل » إلى مراکش ، ومعها كتاب إلى الوالى أبى على بن أبى محمد ، فاستدعى الوالى الناس ، وقرأ عليهم كتاب الخليفة ، وعلق الرأس على باب الشريعة^(٢) .

وقام الوالى أبو على فى نفس الوقت ، بناء على أمر الخليفة ، بإعدام بعض زعماء العرب من سفيان وجابر ، وكانوا معتقلين بسجن الحضرة .

وهكذا كانت خاتمة يحيى المعتصم بن الناصر بن المنصور ، بعد حياة مضطربة شريفة ، استطالت مذ بويغ بالخلافة لأول مرة فى شوال سنة ٦٢٤ هـ ، حتى مصرعه فى رمضان سنة ٦٣٣ هـ ، تسعة أعوام ، لم ينعم خلالها بالاستقرار ، والاتساح بثوب الخلافة ، سوى فترات يسيرة ، كانت تتخللها مغامرات ومعارك مستمرة ، أولاً مع عمه ومنافسه القوى ، أبى العلى المأمون ، ثم بعد ذلك مع ابنه الرشيد . وكان يحيى شخصية ضعيفة ، لا تتميز بشيء من الإرادة أو حسن التصرف ، وكان طول الوقت آلة فى يد أنصاره ، يوجهونه كيفما شاءوا ، وإذا كنا نضعه من حيث الشكل فى ثبوت الخلفاء الموحدين ، فإن عهد خلافته المتقطع ، لم يقترن من الناحية العملية ، بأى تصرف أو أثر يذكر .

وفى أوائل سنة ٦٣٤ هـ ، غادر الرشيد فاس عائداً إلى مراکش ، فدخلها فى موكب فخم ، واستقرت الأمور ، وانتظمت الأحوال ، وساد الهدوء والسلام ، وقام الرشيد بتعيين عمال النواحي ، واستقام أمر الموحدين ، وأخذوا فى تنظيم شئونهم ، وحرث أراضهم ، وتذوق الحياة الوديدة الهادئة .

وحدث فى هذا العام أن استطاع أبو محمد بن وانودين والى درعة ، الاستيلاء على سجلماسة ، وكانت قد خرجت عن الطاعة . وذلك أن الرشيد لما غادر سجلماسة

(١) البيان المغرب ص ٣٣٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٥ ، وروض القرطاس ص ١٦٦ .
وهو يسمى الموضع الذى قتل به يحيى ، « بفيح عبد الله من أحواز رباط تازا » .
(٢) البيان المغرب ص ٣٣٠ .

عين يوسف بن علي التينملي والياً لها ، فاستعمل قريباً له وهو يحيى بن أرقم ابن مردنيش لإدارتها ، وثار يحيى ثائر من صنهاجة وقتله ، فقام ولده أرقم ، واستطاع أن يتغلب على المدينة ، وأن يفوز بحكمها مكان أبيه ، وخشى أرقم أن يعزله الرشيد ، فاستقل بالمدينة ، وامتنع بها ، فآزال أبو محمد بن وانودين به ، حتى أقنعه بالعودة إلى الطاعة ، واستطاع أن يسترد منه المدينة ، وعفاه عنه الرشيد^(١) وغادر الرشيد الحضرة إلى فاس مرة أخرى ، واستخلف على مراکش الشيخ أبا محمد بن أبي إبراهيم . وفي أثناء إقامته بفاس ، وفد عليه رسل بني مرين ، فأكرم مقدمهم ، وأجزل صلتهم . وكان الخليفة الموحد يدرك ما انتهى إليه بنو مرين يومئذ من القوة والشأن ، ويبذل وسعه في مصانعتهم واسترضائهم .

ووقع عندئذ حادث مزعج ، هو مفاجأة ابن وقاريط سلا بالهجوم عليها ، ومحاولة أخذها . وكان ابن وقاريط مذعور إلى الأندلس لاستنصار ابن هود ، قد لبث في إشبيلية يرقب الفرص ، ثم اقترح على ابن هود مشروعاً لفتح سلا ورباط الفتح ، وطلب منه بعض السفن ، ليستعين بها في تنفيذ مشروعه ، فوافق ابن هود ، وقدم لابن وقاريط سفينتين . وكان على ولاية سلا يومئذ ، السيد أبو العلى صهر الرشيد زوج أخته فاطمة بنت المأمون ، فسار ابن وقاريط في حملته البحرية الصغيرة ، وفاجأ سلا بالهجوم عليها ، ولكنه لقي مقاومة شديدة ، واضطر أن يرتد أدراجه . واهتم الرشيد لذلك الحادث وبعث إلى سلا فاستقدم أخته وأمه إليه ، وكانت معها ، حرصاً على سلامتهما^(٢) .

وكانت هذه خاتمة محاولات ابن وقاريط . ذلك أنه ما كاد يعود إلى إشبيلية حتى تطورت الحوادث ، وتوفي المتوكل ابن هود في المرية في جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ ، حسباً فصلاً ذلك في موضعه ، وعندئذ قام أهل إشبيلية بزعامة أبي عمرو ابن الحّد وأعلنوا خلع طاعة بني هود ، والعودة إلى طاعة الخلافة الموحدية ، وعقدوا بيعتهم للرشيد ، وبعثوا إلى مراکش وفدأ لتقديم بيعتهم . وحدث مثل ذلك في سبتة ، حيث قام أهلها بخلع صاحبها أبي العباس اليانشتي ، وبايعوا للرشيد ، وبعثوا ببيعتهم وفدأ إلى الحضرة . وحدث في نفس الوقت أن قام أهل إشبيلية بالقبض على ابن وقاريط ، وكان الفضل في ذلك راجعاً إلى فقيه من أهل فاس يدعى

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٦ ، والبيان المغرب ص ٣٣١ .

(٢) البيان المغرب ص ٣٤١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٦ .

أبو عبد الله المومنانى كان مقيماً بإشبيلية ، وبه ولاء للدولة الموحدية ، فحرض أهل المدينة على القبض على الزعيم الخارج ، وإرساله إلى المغرب ، لما فى ذلك من إرضاء للخلافة ، وتحقيقاً لسلامها ، فقبض على ابن وقاريط ، وأرسل إلى المغرب محروساً فى سفينة ، رست به على ثغر أزموور ، وهناك تسلمه الوزير الشيخ أبو زكريا بن عطوش . وكان فى سجن أزموور عدة من زعماء الخلط ، كان الرشيد قد تحيل فى استدعائهم وقبض عليهم ، وبعث جنده فاستباححت محلاتهم وسبت أولادهم ونساءهم ، ثم اعتقلوا بأزموور ، فأمر الرشيد بإعدامهم ، فأعدموا وحزت رؤوسهم ، وأودعت فى سبط وضع فوق جبل ، أركب عليه ابن وقاريط وأرسل إلى مراکش على تلك الحالة . فلما وصل إلى الحضرة ، احتاط به الناس ، وأخذوا فى لعنه ، ثم أودع السجن ، وأعدم بعد أيام قلائل ، وعلقت جثته على باب الشريعة (أواخر سنة ٦٣٥ هـ) وبذلك انتهى أمره ، واستراح الرشيد من خصم من أخطر خصومه ، وأشدهم عناداً وجلداً (١) .

وفى العام التالى (٦٣٦ هـ) ، وصلت إلى الرشيد بيعة محمد بن الأحمر صاحب غرناطة ومالقة ، وكان ابن الأحمر ، يتردد فى الطاعة بين الانضواء تحت طاعة ابن هود ، والخلافة الموحدية والخلافة العباسية ، وقد لبث يدعو للرشيد وللخلافة الموحدية ، حتى وفاة الرشيد فى سنة ٦٤٠ هـ .

وحدث فى هذا العام أيضاً - ٦٣٦ هـ - أن خرج ببلاد السوس ناثر يدعى بابن ياجوجى ، وامتنع بحصن تيوينوين ، والتف حوله كثير من الناس ، وانضم إليه عرب المعقل ، فدس إليه أبو محمد بن أبى زكريا وإلى السوس رجلاً من جزولة ، استطاع أن يدخل الحصن وأن يقتله ، ثم قطع رأسه وحمل إلى مراکش ، وبذلك أخذت ثورته فى مهدها ، وقد عرف حصن تيوينوين هذا من قدم ، بأنه كان دائماً مركزاً للشقاق والعصيان ، وبه خرج من قبل أبو قصبه ، ثم ثار به ابن الفرس وامتنع به حتى اغتيل وقتل (٢) .

وفى سنة ٦٣٧ هـ ، وقعت بسببة وأحوازاها جماعة عظيمة ، واشتد القحط والغلاء ، وسمى هذا العام « عام سبعة » وكان ذلك من جراء الفتن المتوالية ، التى عصفت بالمناطق الغربية ، ومن جراء الشرق وقلة الأمطار حتى عدمت الموارد ،

(١) البيان المغرب ص ٣٤١ و ٣٤٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٦ .

(٢) البيان المغرب ص ٣٤٤ .

وهلكت الزروع ، وتفاقم الضرر بعث طوائف العرب ، ولاسيما عرب رياح ، في أحواز مكناسة ، وفاس ، ونشوب المعارك المتوالية بينهم وبين زناتة ، وأحيانا بينهم وبين بني مرين . وقد أوقع بهم بنو مرين ومزقوا جموعهم ، واستولوا على أموالهم ودوابهم وسلاحهم ، وكان بنو مرين يجوبون عندئذ سائر الأقطار الغربية ، ويفرضون سلطانهم ، على معظم القبائل والطوائف النازلة في تلك الأنحاء ، ويقمعون أهل الشر والفساد ، من العرب وغيرهم ، ممن يعيشون في تلك المناطق فساداً ، حتى أمنت السبل ، واستقامت الأمور ، وعلت كلمة بني مرين وهيتهم ، ودخل الناس في طاعتهم ، وأخذوا في جباية الضرائب والمكوس ، فاتسعت أحوالهم ، وقويت شوكتهم ، وغلب لديهم الرخاء والتماء^(١) .

وقد سبق أن تناولنا نشأة بني مرين ، وخروجهم من منازلهم القفرة بوادي ملوية ، إلى أنحاء المغرب ، وما وقع بينهم وبين الموحدين ، أيام يوسف المستنصر من المعارك ، وكيف أنهم وصلوا في زحفهم داخل أنحاء المغرب حتى أحواز فاس ، وكيف أنه لم ينقذ الدولة الموحدية يومئذ من خطر تقدمهم الداهم ، سوى ما وقع بينهم من الشقاق الداخلي . وقد لبث بنو مرين في تلك الفترة التي اشتغلت فيها الخلافة الموحدية بحروبها الداخلية ، يعملون على توطيد مركزهم ، وتوسيع سيطرتهم ، والاندفاع غربا داخل أقطار المغرب ، حتى أنهم فرضوا الإتاوة على مكناسة وغيرها من البلاد المجاورة ، وكان أميرهم في الوقت الذي نتحدث عنه ، هو أبو سعيد عثمان بن عبد الحق ، ولم يكن الرشيد غافلا عن خطورة حلول بني مرين في تلك المنطقة الهامة من مناطق المغرب ، ولكنه نظراً لازدياد قوتهم ، كان يؤثر مصانعتهم وعقد السلم معهم .

ولما دخلت طنجة وسبتة في طاعة الرشيد ، واستقامت الأمور نوعاً في أواخر سنة ٦٣٥ هـ ، عين الرشيد لولاية المناطق الغربية أبا محمد عبد الله بن وانودين . وكان ابن وانودين من خيرة زعماء الموحدين ، وكان يمت إلى بيت الخلافة بصلة المصاهرة ، إذ كان متزوجاً بالسيدة بنت يوسف المستنصر ، وكانت له بذلك مكانة في الدولة . وكان قد وزر ليحيى المعتصم ، ثم تركه ولحق بخدمة الرشيد ، فولاه بلاد درعة في سنة ٦٣٢ هـ ، ونجح ابن وانودين أثناء ذلك في استخلاص سجلماسة ، من يد أرقم ابن مردنيش حسبما تقدم ، فولاه الرشيد عليها ، ثم عاد إلى مراكش في سنة ٦٣٤ هـ .

ولما عين الرشيد ابن وانودين لولاية الغرب ، عين معه في نفس الوقت أبا علي بن خلاص البلنسي لولاية سبتة ، وعين للنظر على دار الصناعة أبا زكريا ابن مزاحم الكومي . وخرج ابن وانودين من مراكش في عسكر كبير ، من الموحدين والمطوعة والعرب ، وفوض له الرشيد النظر في أحوال البلاد ، فسار أولا إلى بلاد غمارة ، لينظر في شئونها ، فثارت عليه بعض قبائلها ، وكان عدد من هذه القبائل قد دخل في طاعة بني مرين . وكان الرشيد يعتمد على فطنة ابن وانودين ، ولباقتة في معالجته الأمور مع بني مرين بالكياسة والحسنى ، وقد بعث معه بعض أحمال من الكسبي الفاخرة برسم بني عبد الحق وأشياخ بني مرين ، ولكن ابن وانودين ما كاد يصل إلى مقربة من أحيائهم ، حتى بادروهم بالخصومة والعداء ، وطالبهم برد الفارين إليهم من بني غمارة ، فرفضوا ، ووقع النزاع بين الفريقين ، وانتهى إلى القتال بينهما ، فأغار بنو مرين على محلة ابن وانودين ، وقتلوا جملة كبيرة من أجناده ، وعلم الرشيد بما حدث ، فأمره بالاستقرار في تلك المنطقة ، تحوطا لحركات بني مرين (١) .

واستمر أمر بني مرين في تقدم ، وأطاعتهم معظم القبائل في تلك المنطقة ومنها هواره وتسولة ومكناسة ، وصالحتهم بعض المدن على أموال معلومة ، يؤدونها في كل عام ، وكان منها فاس ومكناسة ورباط تازا وغيرها . وكان بنو مرين يرون ، بعد أن ضعفت الدولة الموحدية ، وعجز الخلفاء الموحدون عن ضبط البلاد ، وخرجت معظم المدن والقبائل عن طاعتهم ، وانتشرت الفوضى في معظم الأنحاء ، أنهم غدوا أولى بالنظر في شئون الدين ، وصون مصالح المسلمين ، وحمايتهم من العدوان والفوضى (٢) .

وفي سنة ٦٣٧ هـ ، وقيل في محرم سنة ٦٣٨ هـ (١٢٤٠ م) قتل أمير بني مرين أبوسعيد عثمان بن عبدالحق ، اغتاله فتي من علوجه رباه صغيراً ، ثم هرب هذا العلج إلى ابن وانودين . وقيل عندئذ أن ابن وانودين هو الذي حرضه على ارتكاب جريمته (٣) . فخلفه في رياسة بني مرين أخوه الأمير أبو معرف محمد ابن عبد الحق . فاطاعه بنو مرين ، ولكن خالف عليه أبناء عمومته بنو حمامة ، وعاد

(١) البيان المغرب ص ٣٥٠ و ٣٥١ .

(٢) روض القرطاس ص ١٩٢ .

(٣) البيان المغرب ص ٣٥١ ، وروض القرطاس ص ١٩٢ ، والذخيرة للسنية ص ٦٢ .

الشقاق القديم بين بني حمامة وبني عسكر يمزق صفوفهم . وبعث ابن وانودين ، بقلم كاتبه أبي الحسن السرقسطي إلى الرشيد ، يعرفه بما تقدم من شئون بني مرين ، وقد اغتر ابن وانودين بما حدث بينهم من شقاق ، وأظهر المودة لبني عسكر وتحالف معهم ، ونهض معهم بالفعل إلى مقاتلة بني عبد الحق (بني حمامة) ، والتقى الفريقان على مقربة من سلفات ، وخسر كل من الفريقين قتلى ، وارتد ابن وانودين مع الموحدين وبني عسكر ، ونزل بظاهر مكناسة ، واشتد في معاملة أهلها ، وفرض عليهم المغارم الفادحة ، لأنهم كانوا يدينون بطاعة بني عبد الحق ، ثم سار إلى فاس ففعل بها مثل ماتقدم ، ثم عاد إلى مكناسة ، ونزل على مقربة من جبل زرهون الواقع في شمالها ، ففر منه الناس في مختلف الأنحاء^(١) .

واجتمع بنو مرين حول أميرهم محمد بن عبد الحق ، وانضمت إليهم حشود من زناته ، وغيرها ، وساروا إلى مقربة من مكناسة واصطدموا هنالك بقوة من النصاري (الروم) كان ابن وانودين قد بعثا لحراسة تلك المنطقة ففتكوا بها ، وعندئذ وضع ابن وانودين خطة لمهاجمة بني مرين ، وسار في قواته من الموحدين والعرب وبني عسكر ، وتأهب بنو مرين للقائه . ونشبت المعركة بين الفريقين على قيد نحو ثمانية أميال من مكناسة ، فقاتل بنو مرين بعنف وشجاعة ، وفتكوا بالموحدين وحلفائهم ، وحقت الهزيمة الفادحة على ابن وانودين ، ومزق عسكره ، من العرب وبني عسكر ، فلجأ ابن وانودين إلى مكناسة ، وامتنع بها . واستولى بنو مرين على محلته ، وسائر ما فيها من المتاع والدواب ، ثم غادر ابن وانودين مكناسة في جملة من الخيل ، ومعه ابنه أبو زكريا ، وقصد إلى قصر عبد الكريم (القصر الكبير) حيث لحق هنالك بأسرته وامتنع به . ووقعت هذه الحوادث في أواخر سنة ٦٣٧ هـ^(٢) .

وكانت هزيمة ابن وانودين على هذا النحو ، ضربة جديدة للخلافة الموحدية وكسبا جديداً لبني مرين زاد في قوتهم وفي هيبتهم ، وامتد سلطانهم بذلك إلى جهة القصر الكبير ، ومن فيها من عرب رياح ، ودخل في طاعة الأمير محمد بن عبد الحق ، من تخلف من قبائل بني مرين ، وسائر قبائل غمارة وغيرها ، وأصبح

(١) البيان المغرب ص ٣٥٢ .

(٢) البيان المغرب ص ٣٥٣ .

بنو مرين يتجولون في تلك الأنحاء سادة أحراراً ، وجنح الرشيد إلى مهادنتهم ، ومصانعتهم ، وكانت بينه وبينهم مراسلات ودية .

وعلم ابن وانودين وهو في ملجئه بقصر عبد الكريم ، أن كثيراً من أهل البلاد التي كانت تحت حكمه ، قد كتبوا في حقه إلى الرشيد ، وشكوا مما كان ينزله بهم من المظالم ، واتهموه بأنه كان يقصد أن يحدو في منطقته حدو بني حفص ، وأن يستقل بحكمها ، وأن الرشيد قد صدق هذه الاتهامات ، فغادر قصر عبد الكريم ، وقصد إلى جبال الموحدين ، وسار ليلاً ونهاراً حتى وصل إليها ، بالرغم من مطاردة بني مرين ، وبقي لاجئاً إليها ، حتى نفي إليه أن الرشيد ، تحقق في النهاية من براءته مما نسب إليه ، فعاد إلى مراکش ، وأكرم الرشيد وفادته .

وفي سنة ٦٣٩هـ (١٢٤١م) ، بطش الرشيد بوزيره وكتابه أبي حفص ابن المومنانى ، وكان من أكابر الدولة وأعلام الكتاب ، وله عند الرشيد حظوة ومكانة رفيعة . ولكنه ارتكب زلة خطيرة حينما وجه خطاباً خاصاً إلى صديقه السيد أبي حفص عمر بن عبد العزيز بن المنصور ، يهنته فيه باسناد إحدى الولايات إليه ، ويقول له في خطابه إنها « إنشاء الله ابتداء الخلافة » ، وأخطأ الرسول ، ودفع الخطاب إلى أهل القصر ، فوقع في يد القائد أبي المسك ، ودفعه أبو المسك إلى الرشيد ، فلما وقف عليه الرشيد ، أمر من فوره بقتل المومنانى والسيد أبي حفص ، فنفذ أمره في الحال وهلك الرجلان ضحية عبارة طائشة^(١) .

بيد أنه لم تمض بضعة أشهر على ذلك الحادث الدموى ، حتى هلك الرشيد نفسه . ذلك أنه خرج ذات يوم للتنزه في إحدى الرياض التي كان قد أنشأها بجوار القصر ، وكانت توجد في تلك الروضة بحيرة صغيرة ، أو صهريج وفقاً لوصف المؤرخ ، فنزل في هذه البحيرة مع بعض جواريه في زورق برسم التنزه ، فانقلب الزورق بمن فيه ، وغرق الرشيد ومات لوقته ، وقيل إنه انتشل محمواً من الماء ، وحمل إلى القصر ، وهناك توفي بعد ثلاثة أيام . وكان غرق الرشيد في يوم الثلاثاء السابع من جمادى الآخرة سنة ٦٤٠هـ (٢ ديسمبر سنة ١٢٤٢م) فإذا أخذنا بالرواية الثانية ، فتكون وفاته في اليوم العاشر من جمادى الآخرة الموافق ليوم ٥ ديسمبر . وفي رواية ثالثة ينقلها إلينا ابن عذارى عن مصادر مسندة عن حاجب الرشيد ، أن الرشيد نزل بزورقه في الصهريج في ليلة باردة ،

ثم خلع عمامته ، فلما أزالها أصابته نزلة شديدة ، فأخرج من الزورق ، وحمل إلى قصره حيث توفي ، في يوم الجمعة العاشر من جمادى الثانية سنة ٦٤٠ هـ^(١) . وكان الرشيد حينما توفي في الرابعة والعشرين من عمره ، وقد استطالت خلافته أكثر من عشرة أعوام .

* * *

وكان الرشيد ، كأبيه الخليفة المأمون ، يتمتع بطائفة من الخلال القوية اللامعة ، من الذكاء والجرأة ، وحدة النفس ، وقوة العزم ، وبعد النظر ، ولولم ترغمه الحوادث على أن ينفق أعوامه العشرة في مقارعة خصومه ، والدفاع عن عرشه ، لكان لنا أن نتوقع منه خططا وأعمالا لإنشائية أخرى ، ربما كان لها أثرها في إنقاذ الدولة الموحدية ، وإطالة حياتها . بيد أنه تولى العرش وحكم في ظر وف سيئة ، وكانت التيارات الخصيمة ، قد سارت قدما في تقويض هيكل الدولة الموحدية ، وتحطيم أسسها ، ولم يكن باقيا منها سوى شبح باهت ، يركز من الناحية المادية ، على رقعتها الجنوبية . وكان من أهم ماعمله المأمون لتقوية الدولة من الناحية المعنوية ، هو استدعاء بقية الزعماء الموحديين إلى مؤازرته ، بعد أن بطش بهم أبوه ، ومزق شملهم ، ولو أنه اضطر في سبيل ذلك إلى إعادة العمل برسوم المهدي الدارسة .

وقد وزر للرشيد ، السيد أبو محمد عبدالله بن أبي سعد بن المنصور ، وأبو زكريا بن أبي الغمر ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله الحنفيسي ، وأبو علي بن أبي محمد عبد العزيز ، وذلك بالتعاقب ، ثم تولى الحنفيسي مرة أخرى ، وبالرغم من أن الرشيد لم يكن كأبيه المأمون أدبيا ولا كاتباً ، فقد استخدم لكتابته ، عدة من أعلام كتاب العصر المغاربة والأندلسيين ، مثل أبي زكريا الفازازي ، وأبي عبد الله القباجي ، وأبي عبد الله ابن أبي عشرة ، وأبي عبد الله الفازازي ، وأبي المطرف ابن عميرة الخزومي ، وأبي الحسن الرعيني ، وأبي عبد الله التلمساني . وكان من هؤلاء من كتب لأبيه من قبل مثل أبي زكريا الفازازي ، وأبي المطرف بن عميرة ، وأبي الحسن الرعيني . وتصف الرواية الرشيد ، بأنه كان في أزهر اللون ، أشقر ، كث اللحية ، حسن القد ، في وجهه شمس يسير^(٢) .

(١) البيان المغرب ص ٣٥٨ . وفي روض القرطاس (ص ١٧١) والذخيرة السنية (ص ٦٤) أن وفاة الرشيد كانت في يوم الخميس التاسع من جمادى الآخرة .
(٢) البيان المغرب ص ٢٨٣ .

الفصل الثاني

عصر الخليفة أبي الحسن على السعيد

مبايعة الخليفة ، أبي الحسن على السعيد . شخصيته القوية . وزراؤه وكتابه . مطارדתه لخصومه . مصانته لعرب الخلط وغيرهم . عنايته بأمر الروم . خروج الهزرجي بسجلماسة . تلمسان والمغرب الأوسط . بطون زناتة الخارجة على الموحدین . استيلاء يغمراسن زعيم بني عبد الواد على تلمسان . يقيم بها إمارة مستقلة . خصومته لبني مرين وبني حفص . علاقته الودية ببلاط مراکش . توجس الأمير أبي زكريا من ذلك . تأهب لغزو تلمسان . محاصرته لها . فرار يغمراسن واستيلاء أبي زكريا على تلمسان . استدعاؤه ليغمراسن وتأمينه وتعيينه لولايتها . اهتمام الخليفة السعيد بأمر سجلماسة . فرار بعض أشياخ الموحدین والتجاؤهم إليها . مسير السعيد إلى درعة . مخاطبته لأشياخ سجلماسة ووعوده لهم . سعى أبي زيد بن زكريا الجديوي لرد المدينة إلى الطاعة . نجاحه في ذلك بمداخلة الحند النصارى . القبض على الهزرجي واعداده . خلع ستة وإشبيلية لطاعة الخلافة الموحدية ومبايعتهما أمير إفريقية . خروج السعيد لمقاتلة بني مرين . هزيمة بني مرين ومصرع أميرهم . رواية أخرى عن حركة السعيد وعلاقته الودية ببني مرين . قبض السعيد على ابن وانودين والوزير ابن عطوش وغيرهم . إعتقالهم بأزمور . فرار ابن وانودين والتجاؤه إلى جبل هنتانة . ما تدل به محتته من اضطراب البلاط الموحدى . خروج كانون زعيم عرب سفيان وتحالفه مع بني مرين . تأهب السعيد للحرب . مسيره في قواته صوب تامسنا . القتال بينه وبين بني مرين وحلفائهم . هزيمة بني مرين ومسيرهم نحو الغرب . مسير عرب سفيان لمهاجمة أزمور . مسير السعيد إلى مطارדתهم . مهاجمة السعيد لهم وتمزيقهم . فرار كانون في فلوله . تولى الأمير أبي يحيى لزعامه بني مرين . خروج بني عسكر عليه . تحالفهم مع الموحدین ثم نكثهم . محاولة السعيد لاستمالة يغمراسن وفشل محاولته . محاصرة بني مرين لمكناسة . ثورة أهلها على الموحدین . إقناع بني مرين لزعيمها أبي العافية بمبايعته أمير إفريقية . صدق هذه الحوادث في البلاط الموحدى . ما أصاب الدولة الموحدية من التمزق . أهبة السعيد لتدارك الموقف . عود عرب سفيان وغيرهم من العرب إلى الطاعة . مسير السعيد في حشوده صوب وادى ملوية . نزوله قبالة بني مرين . توجس بني مرين وإيثارهم للسلم . نزولهم عن البلاد التي احتلوها . عقد الصلح بين الفريقين . مسير السعيد إلى مكناسة . خروج أهلها إليه والتأمسهم العفو عنهم وتأمينهم . بيعتهم الجديدة . مسير السعيد إلى فاس ثم تلمسان . مشروع السعيد في استردادها ثم محاربة أمير إفريقية . التقرب بين صقلية وبين الموحدین . استدعاء السعيد ليغمراسن ورفض يغمراسن الحضور . فراره والتجاؤه إلى تامزجدرت . مسير السعيد لمطارדתه . سلوكه شعب الجبال . خروج كانون بن عبد الواد عليه . مصرعه ووزيره . تمزق قوى الموحدین وارتداد فلولهم إلى مراکش . السعيد وعزمه وخلاله . صفته .

في نفس اليوم الذى توفى فيه الرشيد ، وهو يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة سنة ٥٦٤٠ هـ (٥ ديسمبر سنة ١٢٤٢ م) ، تم اختيار الخليفة الجديد ،

وهو أبو الحسن علي بن أبي العلأ إدريس بن يعقوب المنصور ، وهو أخو الخليفة الراحل . وكان أكابر الدولة ، وأشياخ الموحدين ، قد اتجهوا أولا إلى اختيار ولد الخليفة المتوفى الصبي ، فاعترض بعضهم على ذلك ، وقالوا سئنا خلافة الصغار ، ولم يلتفت الجماعة في البداية إلى أبي الحسن علي ، أخى الخليفة ، لأنه كان أسود ، شديد السواد ، ولد جارية نوبية ، ولكن أبا محمد بن وانودين كبير أشياخ الموحدين ، نهض فبايع السيد أبا الحسن ، وكان موجوداً ضمن السادة من القرابة ، وأقعده في مجلس الخلافة ، فتتابع في أثره القرابة والأشياخ ، وبايعوه ، وبذا تم اختياره لكرسى الخلافة^(١) .

وتلقب الخليفة الجديد بالسعيد ، وبالمعتضد بالله ، ولكن غلب عليه اللقب الأول . وكان اختيار أبي الحسن للخلافة أمراً موفقاً ، فقد كان بشخصيته القوية ، وعزمه ، وسطوته ، أقوى رجل في الدولة ، وكان وجوده في كرسى الخلافة في تلك الظروف العصيبة ، التي تجوزها الدولة الموحدية ، من العوامل المطمئنة المشجعة ، الباعثة على الاستبشار والأمل .

واستوزر السعيد ، السيد أبا اسحق بن أبي ابراهيم ، وأبا زكريا بن عطوش ، وأبقى في منصب الكتابة ، الكاتبين البليغين ، أبا الحسن الرعيني ، وأبا عبد الله التلمساني .

وكان أول عمل قام به السعيد ، هو أن قبض على جملة من أشياخ الموحدين ، المعارضين لبيعته ، وسجنهم ، وأغرمهم أموالا ، وسجن كذلك أم أخيه الرشيد ، حباة الرومية وأغرمها أموالا ، وذلك انقاء لشرها ودسائسها ، ثم أخذ في مصانعة عرب الخلط ، واستدعى طوائفهم من بلاد السوس وغيرها ، وقربهم ، وأغدق عليهم صلاته ، وكذلك استدعى زعماء العرب ، من جشم وغيرهم ، ليستظهر بهم ، وكان شيخ سفيان كانون بن جرمون من أوثق حلفائه ، ولم ينس كذلك أمر المرتزقة ، وهم فرقة الجند « الروم » التي جلبها معه أبوه المأمون ، فعنى بأمرهم أشد عناية ، وكانوا يقيمون بكنيستهم التي بنوها في العاصمة الموحدية ، ويشتركون في سائر حملات الخليفة الحربية^(٢) .

وفي بداية عهده خرج عليه عبد الله بن زكريا الهزرجي بسجلماسة ، وكان

(١) البيان المغرب ص ٣٥٨ و ٣٥٩ .

(٢) البيان المغرب ص ٣٥٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٦ .

من المعارضين لبيعته ، ودعا للأمير أبي زكريا الحفصى صاحب إفريقية ، ومن جهة أخرى فقد حدثت بالمغرب الأوسط حوادث مقلقة حول تلمسان . وكانت تلمسان ، كإفريقية ، قد خرجت عن سيادة الموحدين ، وقام على رياستها زعيم بنى عبد الواد القوي يَغْمُراسن بن زيان . ويجدر بنا أن نشرح ظروف هذا التحول في مصاير تلمسان . وذلك أنه على أثر غزوات ابن غانية للمغرب الأوسط وأحواز تلمسان ، وتخريبه لهذه النواحي ، نهضت قبائل زناتة الخارجة على الموحدين ، وفي مقدمتهم بنو عبد الواد ، وبنو راشد ، وبنو توجين ، ونفذوا إلى أحواز تلمسان والمغرب الأوسط ، وكانت أمصار المغرب الشرقية ، قد خربت من جراء غزوات ابن غانية ، فلم تجد قبائل زناتة ، الضاربة في المغرب الأوسط أمامها من الحواضر الغنية سوى تلمسان ، تعيث في أحوازها ، وتقوم بأعمال النهب والسلب المستمرة . وكان الموحدون قد عنوا بتحسين تلمسان ، وتشديد أسوارها ، حتى غدت من أمنع أمصار المغرب ، ولكن ذلك لم ينجها من قدرها المحتوم . وكان آل زيان من بنى عبد الواد من أقوى وأبرز بطون زناتة المغامرة ، وكانت منازلهم تقع فيما بين البطحاء ووادي ملوية غربى تلمسان ، وكان زعيمهم يَغْمُراسن بن زيان بن ثابت من أشد زعماء هذا الحى بأسا ، وأعظمهم مكانة ، وقد تولى رياسة قومه منذ سنة ٦٣٣ هـ ، وانضم إليه بنو مظهر وبنو راشد الخارجان من قبل على قومه ، ولم يجد يغمراسن صعوبة في الاستيلاء على تلمسان ، وانتزاعها من حاميتها الموحدية الضعيفة ، فجعل منها قاعدته ، وجند الحند وتزيا بزى الإمارة ، ومحا آثار الدولة المؤمنية ، ولم يترك من رسومها سوى الدعاء للخليفة بمراكش ، ووفد عليه من الأندلس لفيف كبير من شرقها ، وعلى رأسهم ابن وضاح ، فأكرم وفادتهم ، وقرب ابن وضاح وقدمه للشورى ، ووفد عليه أيضاً أبو بكر بن خطاب وكان كاتباً بليغاً ، وشاعراً جزلاً ، فعينه لكتابته ، ولاسيما في مخاطبته للخلفاء الموحدين ، وأمراء تونس . وكان يغمراسن يتحرز من نيات بنى عبد المؤمن وبنى حفص ، وكذلك من أطاع بنى مرين ، وكان بينه وبينهم وقائع متعددة ^(١) . ولكنه كان يرتبط مع البلاط الموحدى برباط المودة ، وكان الرشيد يحبوه بصدافته ، ويهاديه حتى لا ينحرف إلى مخالفة بنى مرين ،

وكان عند جلوس الخليفة السعيد ، قد بعث إليه بهدية من الخيل العتاق ، وكتب إليه يعاهده على قتال بني مرين ، فلما وقف الأمير أبو زكريا ، أمير إفريقية على ذلك ، خشى أن يعقد السلم كذلك بين يغمراسن وبني مرين ، ثم يقع التحالف بين الثلاثة على محاربة إفريقية ، ورأى أن يبادر بالعمل لإحباط مثل هذه الخطة ، ووفد عليه عندئذ بعض زعماء زناته ، وشجعوه في مشروعه ، لغزو تلمسان وأخذها ، وجمع كلمة زناته بذلك ، والتمهيد لخطة في الاستيلاء على ملك الموحيدين . وقام الأمير أبو زكريا بأهبات عظيمة ، وسار إلى تلمسان في جيش ضخم ، ومعه عدد وافر من الرماة ، وضرب حولها الحصار (أواخر سنة ٦٣٩ هـ) وضربها الرماة بشدة ، فأدرك يغمراسن أنه لا أمل في المدافعة ، وخرج من تلمسان في أهله وخاصته ، فلما اعترضه الجند المحاصرون فتك بهم ، وشق لنفسه طريقا ، ولحق بالصحرَاء ، ولجأ إلى جبل قريب ، ودخل أبو زكريا تلمسان ، وعفا عن أهلها ، ولما بحث مع خاصته من الموحيدين ، في أمر من يوليه عليها ، أشاروا عليه بتقديم يغمراسن ، باعتباره أصلح من يقوم بأمرها ، فاستدعاه ، وأمنه ، وولاه عليها وعلى أعمالها ، وفق عهود وشروط معينة ، وذلك لكي تغدو حاجراً بين مملكة إفريقية ، وبين شمال المغرب ، حيث أخذ سلطان بني مرين ينمو بصورة مزعجة ، وكان ذلك في شهر ربيع الأول سنة ٦٤٠ هـ (أوائل ١٢٤٣ م)^(١) .

وعنى الخليفة السعيد أولاً بأمر بسجلماسة ، وكان واليها الثائر يدعو بها للأمير أنى زكريا الحفصى ، ويستجلب إليه العرب من كل صوب ، وقد فوض إليه الأمير أبو زكريا الأمور ، ووعدته بالعون والإمداد ، وكان جماعة من أشياخ الموحيدين ، ممن خشوا بطش السعيد وغدره ، يعتمون الفرار والالتجاء إلى سجلماسة ، وكان السعيد قد خرج عندئذ في قواته من مراكش ، ونزل في وادي تانسيفت على مقربة منها ، واستطاع الفرار من أولئك الأشياخ ، أبو زيد عبدالرحمن ابن زكريا الجدميوى ، وابن واجاج ، وأبو سعيد العود الرطب الهنتاتي ، ولكن قبض على أبي عثمان سعيد أخى أبي زيد ، وهو زعيم حركة التقرب الموحدى من الخلافة ، وأمر السعيد بقتله ، بعد أن استصفى سائر أمواله بمراكش . ولحق الزعماء الفارون بسجلماسة بعد جهد ومشقة ، ونزلوا في كنف واليها الثائر ، وسار

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٧ وج ٧ ص ٨١ ، والبيان المغرب ص ٣٦١ و ٣٦٢ ،
والنخبة السنية ص ٦٤ و ٦٥ ، وتاريخ الدولتين للزركشى ص ٢١ .

أبو سعيد اهتتاقى إلى تونس ، فلتقاه أميرها بترحاب وإكرام^(١) .
وكان والى سجلماسة عبد الله بن زكريا الهزرجى يجد عندئذ فى الحركة والأهبة
للمدافعة ، والامتناع بمدينته الحصينة ، وكان السعيد من جانبه ينوى أن ينكل
بالثائر ، وأن يسحق حركته ، لتكون عبرة لأمثاله ، فسار فى قواته إلى درعة ،
فبعث إلى أشياخ سجلماسة بظهير يعدهم فيه بالاعتناء والتكريم ، وعندئذ رأى
أبو زيد بن زكريا الجدميوى فرصة سانحة للعمل والعود إلى الطاعة ، فداخل
قواد النصارى بالمدينة ، وقام النصارى بالضغط على العرب ، من حراس باب
القصبة ، واستطاع أبو زيد أن يدخل القصبة مع أشياخ سجلماسة ، وأن يشحنها
بالرماة والحماة ، وفى الحال بعث إلى السعيد ينبئه بما حدث ، فشكره السعيد أجزل
الشكر ، وعفا عنه ، وحظى لديه ، وقبض فى تلك الأثناء على عبد الله بن زكريا ،
وساقه بعض العرب مصفدا إلى السعيد ، فأمر بإعدامه ، وأعدم بالرغم مما بذل
لإنقاذه من شفاعاة وضراعة ، وحمل رأسه وعلق على باب الكحول بمراكش .
وعاد السعيد إلى الحضرة ، دون أن يدخل سجلماسة ، وذلك فى سنة ٦٤٢ هـ
(١٢٤٤ م)^(٢) .

ووقعت عندئذ حوادث أخرى تدلى بتفكك الدولة الموحدية ، وتصعد
هيبتها ، ومن ذلك ما عمد إليه أبو على بن خلاص البلنسى والى سبتة ، من خلع
طاعة الدولة الموحدية ، وما عمد إليه أيضاً أهل إشبيلية بالأندلس ، حيث خلعوا
كذلك طاعة الدولة الموحدية ، وذلك بتوجيه زعيمهم أبى عمرو بن الجلد ،
واتجهت المدينتان سبتة وإشبيلية إلى مبايعة صاحب إفريقية ، الأمير أبى زكريا
الحفصى ، وبعثت إشبيلية بيعتها إلى تونس مع وفد من كبارائها ، وكذلك بعث
ابن خلاص ولده ببيعته فى سفينة خاصة ومعه هدية للأمير الحفصى ، ففرقت
السفينة بمن فيها ، وذلك كله حسبما فصلناه فى موضعه من قبل ، أضف إلى ذلك
ما كان من تقدم الدعوة المرينية فى شمال المغرب ، وزحف بنى مرين باضطراد
داخل الأقاليم المغربية .

ومن ثم فقد خرج السعيد فى نفس العام — ٦٤٢ هـ — من مراكش مرة
أخرى قاصدا إلى الأقاليم الغربية ، ومعه حشود المصامدة والعرب والروم ،

(١) البيان المغرب ص ٣٦٣ و ٣٦٤ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٧ .

(٢) البيان المغرب ص ٣٦٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٧ .

في جيش ضخم ، تقدره بعض الروايات بعشرة آلاف فارس ، والبعض الآخر بأكثر من عشرين ألفاً . وهنا تختلف الرواية ويحقق الغموض بما تلا من تحركات السعيد ، ذلك أنه يقال تمشياً مع هذه الرواية ، أن السعيد زحف نحو بني مرين ، واستعد بنو مرين بقيادة أميرهم أبي معروف محمد بن عبد الحق للقاء الموحدين ، ووقع اللقاء بين الفريقين بموضع من أحواز فاس يسمى « أغلان » فنشبت بينهما معركة عنيفة ، واستمر القتال حتى دخل الليل ، وكان أمير بني مرين يتقدم جنده ، فقصده إليه فارس من فرسان الروم يدعى خوان جايتان ، وطعنه بحربة فسقط صريعاً ، وانكشف بنو مرين ، وطاردهم الموحدون فلحقوا ببجبال غياثة على مقربة من أحيائهم ، فامتنعوا بها ، واختاروا للولاية عليهم مكان أميرهم القتيل ، أخاه أبا يحيى أو أبا بكر بن عبد الحق ، وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ٦٤٢ هـ (أواخر ١٢٤٤ م) (١) .

هذا ما يقوله لنا صاحب الذخيرة السنية وابن خلدون ، ولكن توجد ثمة رواية أخرى هي رواية ابن عذارى ، وهي أن السعيد حينما خرج في سنة ٦٤٢ هـ ، إلى الأقاليم الغربية ، قصد أولاً إلى مدينة فاس ، وأقام بها أياماً ، نظر في شئونها وعزل بعض عمالها وعين آخرين غيرهم ، ثم غادر فاس إلى المقرمدة ، ضاحيتها الشرقية مستطلعاً لأحوال بني مرين وأخبارهم . ثم يقول ابن عذارى أن جوامهاده كان يسود بين الفريقين ، وأنه وقعت بين السعيد وبين زعيم بني مرين الأمير أبي يحيى ، مراسلات ودية ، فارتد السعيد أدراجه إلى مركش ، دون أن يعكر صفو السلم بين الفريقين (٢) . فهل يمكن أن يكون الصلح قد عقد بين السعيد وبني مرين ، عقب هزيمتهم ومقتل أميرهم ، وبذلك يمكن التوفيق بين الروایتين ؟ على أن ما حدث بعد ذلك ، من تصرفات بني مرين العدائية ، ضد الدولة الموحدية ، مما سوف نذكره بعد ، لا يمكن أن يؤيد هذا الفرض .

وتمة لأحداث سنة ٦٤٢ هـ ، نقول إنه حدث في هذا العام أيضاً أن أمر السعيد بالقبض على أبي محمد بن وانودين ، وهو كما تقدم قطب أشياخ الموحدين ، وإليه يرجع الفضل في اختيار السعيد لكرسى الخلافة ، وذلك دون أسباب واضحة ، وقبض معه في نفس الوقت على أبي زكريا بن مزاحم ، وأبي زكريا بن عطوش ،

(١) الذخيرة السنية ص ٦٦ و٦٧ وابن خلدون ج ٧ ص ١٧١ وكذلك روض القرطاس ص ١٩٣ .

(٢) ابن عذارى في البيان المغرب ص ٣٦٦ .

وأرسلوا جميعاً إلى أزمور ، فسجنوا بها تحت حراسة قوية ، ولكن ابن وانودين لم يستكن إلى محنته ، وأخذ يدبر الحيلة في فراره ، حتى أتيح له أن يشتري أحد حراسه ، وأن يفر من السجن بمعاونته وتديره ، وخرج من سجنه تحت جنح الظلام ، فقصده إلى منازل عرب سفيان ، فوصلها عند الصبح ، وبعث معه زعيمهم كانون بن جرمون ، لفيلاً من الفرسان ، سار في صحبتهم ، حتى وصل إلى جبال الموحدين ، ولحق بقومه هنتانة . ولما علم السعيد بما حدث أمر بضرب رقاب الحراس ، وعلقت رؤوسهم على السور ، كما أمر بالإفراج عن ابن عطوش وابن مزاحم ، وبعث إلى ابن وانودين عشرة من وجوه الموحدين مع خاصته ، فقصدوا إليه بتمامزاورت وأبلغوه أسف السعيد لما حدث ، وبزوال ما كان في نفسه ، فأعرب ابن وانودين عن شكره للخليفة ، ولكنه تمسك ببقائه في جباله ، ليعيش بها مع أهله وولده ، فوافق السعيد على مطلبه ، وعاش ابن وانودين بتيقنوت حتى توفي (١) ، وكانت محنة ابن وانودين هذه ، مثلاً بارزاً ، لما كان عليه البلاط الموحدى في ذلك الوقت ، الذى غرب فيه نجم الخلافة الموحدية ، من اضطرام بمختلف الأهواء العنيفة ، والحيانات المزرية ، التى لا يبررها أى باعث معقول أو أية مصلحة عامة .

ثم خرج على السعيد كانون بن جرمون وقومه عرب سفيان ، وعاد إلى طاعته بالعكس عرب الخلط وبنو جابر . وتحالف كانون مع الأمير أبى يحيى ابن عبد الحق ، أمير بنى مرين ، وحشد بنو مرين حشوداً كبيرة ، في منطقة الغرب ، واجتمعت حولهم بنو رائند الزناتيين ، وبنو وراو ، وبنو سفيان . وأدرك السعيد خطورة هذه الحركة ، فتأهب للحرب ، ومنح الموحدين والجند بركانهم وأعطياتهم التقليدية ، واستدعى حشود العرب من بنى جابر والخلط وغيرهم ، وخرج من مراکش في قوات غفيرة ، وسار موكبه وفقاً للترتيب القديم المأثور لدى بنى عبد المؤمن ، من تعاقب السادات والوزراء والأشياخ ، وكان وزيراه يومئذ أبو زكريا بن عطوش الكومى والسيد أبو اسحق بن أبى ابراهيم . واستخلف على مراکش أخاه أبا زيد ، وندب أخاه أبا حفص عمر واليا لسلا ، واستمر سير الخليفة وجيشه ، على هذا النحو شمالاً ، حتى منطقة تامسنا ، وقد اجتمعت هنالك حشود بنى مرين ، تحت إمرة الأمير أبى يحيى ، ومعهم حلفاؤهم الذين

سبق ذكرهم ، وذلك على مقربة من واسنات ، وقد استعدوا للقتال .
ووقعت المناوشة الأولى بين الطلائع على شرب الماء ، ففتك جند بني مرين
بالمترزقة النصراري ، فلما علم السعيد بذلك ، أمر بنحوض المعركة ، فاضطرم القتال
بين الفريقين حتى جن الليل فافترقا . وفي اليوم التالي وقع بين أيدي الموحدين ،
عبد من عبيد بني مرين العارفين بأموهم ، وأخذ إلى السعيد ، فذكر أن الأمير
أبى يحيى قد اتفق مع حلفائه ، على القتال في يوم معين ، فاستعد السعيد للقتال ،
في اليوم المذكور ، ووقع القتال فيه فعلا ، وضاعف الموحدون جهودهم ، حتى
اضطر بنو مرين وحلفاؤهم ، إلى الارتداد ، وقصدوا إلى جهة الغرب . وهم
السعيد أن يطاردهم في اليوم التالي ، لولا أن ترمى إليه أن كانون بن جرمون وعرب
سفيان ، قد غادروا الميدان ، فخشى السعيد أن تكون هذه الحركة ، موجهة
إلى مراکش ، على نحو ما حدث من قبل ، من عرب الخلط ، فترك مطاردة
المرينيين ، وسار في قواته جنوبا صوب مراکش .

ولكن كانون وقومه كانوا قد سلكوا طريقاً آخر ، أقرب وأيسر مثالا من
الحضرة ، هو طريق أزموور ، فسار إليها كانون واستولى عليها ، بمعاونة زعيمها
على بن يزيمر التامردى ، ونهبها عرب سفيان وأغرموا أهلها أموالا ، ولاسيما اليهود
الساكنين بها ، وكان واليها ابن معنصر الكومي ، قد غادرها ، وسار إلى ناحية
السعيد بتامسنا . ولما علم كانون برجوع السعيد من قتال بني مرين ، غادر أزموور
في حشوده ، وسار إلى أحياء دكالة . ووقف السعيد على وجهته فسار إليه ،
ودهمه هنالك ، وفتك بقومه ، وأفنى معظمهم ، وفر كانون في فله القايل إلى
الغرب ، وبعث السعيد برووس قتل سفيان إلى مراکش ، فعلقت على سورها ،
ودخل السعيد أزموور ، وعفا عن أهلها وقبض على ابن يزيمر ، وأرسله مصفداً
إلى مراکش ، حيث قتل هنالك ، ولم تحدد لنا الرواية تاريخ هذه الوقائع ولكن
يبدو من المرجح أنها وقعت في أوائل سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م)^(١) .

لما تولى الأمير أبو يحيى بن عبد الحق ، زعامة قومه بني مرين ، كان أول
ما فعله هو أن قسم مناطق المغرب ، الواقعة تحت سيادة بني مرين ، بين القبائل
المرينية ، وخص كل قبيلة بناحية منها لاتتمداها ، ثم سار في أهله وحشمه وجنده

(١) البيان المغرب ص ٣٧٠ - ٣٧٣ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٣٥٧ .

فنزل فيما بين سلفات وجبل زرهون ، شمالى مكناسة ، فاضطربت المنافسة القديمة بين أحيائهم ، وخالف بنو عسكر مرة أخرى على أميرهم ، وانحازوا إلى الموحدين ، فحرضوهم على بنى عبد الحق . واهتم الخليفة السعيد ، بنزول بنى مرين ، على مقربة من مكناسة ، وضغطهم عليها ، فسار في قواته مرة أخرى إلى فاس ونزل بها ، وهناك بايعته قبائل بنى عسكر ، وفاوض من جهة أخرى يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان ، للانضمام إليه ، فقدم عليه في قوة من الفرسان ، ولكن هذه المحاولة في جمع خصوم بنى مرين ، انتهت بالفشل ، لأن بنى عسكر عادوا فذكثوا لرفض السعيد أن يطلق سراح رهائنهم ، واضطروا إلى مهاجمته سرية من الحشم والروم ، كان قد أرسلها إليهم مع مولاه عنبر الملائقهم ، فقبضوا على أفرادها ، حتى اضطر السعيد ، إلى تسريح رهائنهم . ومن جهة أخرى فقد كان يغمراسن ، زعيما لاتو من نياته ، وخططه ، فلم يلبث أن عاد في جنده إلى تلمسان^(١) .

ولما اشتد ضغط بنى مرين على مكناسة ، وقطعوا عنها المرافق والموارد ، ولاح أنها أصبحت رهن مشيتهم ، ثار بها العامة ، وقتلوا واليها الموحدى ، ودخل الأمير يعقوب بن عبد الحق ، أخو الأمير أبو يحيى ، زعيم مكناسة أبا الحسن بن أبي العافية ، على أن تقوم المدينة بمبايعة الأمير أبي زكريا الحفصى ، وكان بنو مرين يومئذ يدينون لإسماء بطاعته ، فتم الاتفاق على ذلك ، وكتب كتاب البيعة كاتب الأندلس البليغ القاضي أبو المطرف بن عميرة ، وكان يشغل يومئذ منصب القضاء بمكناسة . وقد أورد لنا ابن عذارى نص هذه البيعة بأكمله ، وهى طويلة ومؤرخة في يوم الجمعة ٢٠ ربيع الأول سنة ٦٤٣ هـ^(٢) ، فسر أمير إفريقية الحفصى لذلك ، وأقطع ثلث جباية المدينة للأمير يعقوب بن عبد الحق .

وكان لذلك أبلغ وقع في البلاط الموحدى ، وقد بدا له عندئذ روعته ، لما أصاب الإمبراطورية الموحدية الكبرى من التمزق . فقد خرجت جزيرة الأندلس من حوزة الموحدين ، واستقل بها ابن هود وابن الأحمر ، ثم أخذ يلتهمها العدو المتربص بها . قاعدة فأخرى ، وقد انفصلت إفريقية ، واستقل بها بنو حفص ، وخرجت سبتة عن الطاعة ، وغلب بنو عبد الواد على تلمسان وأحوازها ، وتوغل بنو مرين في أعماق المغرب ، وغلبوا على معظم أئختائه الغربية ، ثم استولوا

(١) الذخيرة السنية ص ٦٨ - ٧٠ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧١ و ١٧٢ .

(٢) يراجع نص هذه البيعة في البيان المغرب ص ٣٧٣ - ٣٧٨ .

على مكناسة ، وهى لاتبعد عن فاس عاصمة الإمبراطورية الثانية ، سوى مسافة يسيرة ، ومن ثم فإنه كان لزاما على الخليفة الموحدى أن ينهض بقوة وعزم ، لتدارك هذا الصدع الذى ينذر بانتهيار الدولة كلها . وهذا ما فعله السعيد ، فإنه مذولى الخلافة ، لم يكن غافلا عن خطورة الموقف ، وكان منذ البداية يرقب الفرصة للعمل ، لإنقاذ الدولة ، من عدوان الخارجين عليها ، وكان الزحف على إفريقية ذاتها ، مما يدخل فى برنامجه ، فاستنفر الموحدین والمصامدة ، وسائر القبائل والروم والأغراز ، ووافاه كانون بن جرمون فى قومه سفيان ، وكان قد عاد إلى الطاعة ، ووافته جشم وغيرها من طوائف العرب ، واجتمعت له حشود عظيمة ، يضيق لها الفضاء ، وخرج من مراكش فى شهر ذى الحجة سنة ٦٤٥هـ (أبريل سنة ١٢٤٨م) وسار حتى نزل بواى تانسيفت وقد اهتزت بلاد المغرب لحركته ، وكانت خطته تقضى ، أولا بمحاربة بنى مرين ، واجلائهم عن أقطار المغرب الوسطى ، ثم السير إلى تلمسان وافتتاحها ، من أيدي بنى عبد الواد ، ثم السير بعد ذلك إلى مقاتلة بنى حفص ، وانتزاع إفريقية منهم . وسار السعيد فى قواته بعد ذلك صوب الشمال الشرقى ، حتى وصل إلى وادى ملوية ورباط تازة ، ونزل قبالة منازل بنى مرين . ولما وقف الأمير أبو يحيى زعيم بنى مرين ، على حركة السعيد ، وشهد بنفسه ضخامة الجيوش الموحدية ، وأدرك أنه لا قبل له بها ، آثر السلم والتهادن ، ونزل له عن البلاد والجهات التى احتلها بنو مرين ، وارتد بحشوده نحو بلاد الريف ، وذلك بعد أن عقد مع السعيد صلحا ، يتعهد فيه بأن يمدد بفرقة من عساكر بنى مرين ، فى حربه ضد أميرى تلمسان وإفريقية (١).

واقرب السعيد بحشوده ، بعد ذلك ، من مدينة مكناسة ، فخرج إليه أهلها ، وقد قدموا أمامهم أولادهم يحملون المصاحف ، والتمسوا إليه العفو والغفران ، مما حدث ، ففعا عنهم وأمنهم . ومما هو جدير بالذكر ما يقصه علينا ابن عذارى ، من أن أهل مكناسة ، لما سمعوا عقب عقدهم البيعة لأمرى إفريقية ، من تأهب السعيد للحركة نحو بلادهم ، بعثوا إليهم صلحاءهم وعلماءهم ، يعتذرون ويستغفرون ، وبعثوا معهم بيعة جديدة للخليفة السعيد ، مدبجة بقلم الكاتب ابن عبدون ، وهو يورد لنا نص هذه البيعة ، مؤرخة فى تاسع عشر ذى الحجة

(١) الذخيرة السنية ص ٧٦ و ٧٧ ، والبيان المغرب ص ٣٨٦ و ٣٨٧ ، وابن خلدون

عام ٦٤٣ هـ (١) ، ولاتناقض بين الروایتين :

وتحرك السعيد بعد ذلك إلى فاس ، ونزل في ظاهرها ، وخرج إليه أشياخها وفقهاؤها يؤدون له التحية ، فأكرم وفادتهم ، ولكنه لم يدخل المدينة . ثم غادر فاس في التاسع عشر من المحرم سنة ٦٤٦ هـ ، وسار متجهاً إلى تلمسان ، حتى إذا ما فرغ من أمرها ، زحف على إفريقية . وكان مما يلقي ضوءاً على مشروع الموحدین نحو إفريقية ، تقريبهم من بلاط صقلية ، وسعيهم إلى التحالف معه . وكان فردريك الأول ملك صقلية ، قد أرسل إلى الرشيد سفارة وهدية ، ولكنه توفي قبل وصولها ، فاستقبلها أخوه السعيد ، وبعث السعيد إلى ملك صقلية بدوره هدية ، وعهد إلى رسله ، بأن يبلغوه رغبته في معاونته له بأساطيله في البحر ضد إفريقية^(٢) . هذا ولما وصل السعيد بحشوده ، إلى مقربة من تلمسان ، وكان من جملة عسكره فرقة من خمسمائة فارس من بني مرين ، أمده بها الأمير أبو يحيى وفقاً لعهوده ، بعث إلى يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان ، يطلب إليه لقاءه والدخول في طاعته ، فبعث إليه يغمراسن وزيره الفقيه عبدون ، مؤكداً الطاعة ، ومعتذراً عن قدومه ، وأنه مستعد لأن يرسل إليه جملة وافرة من بني عبد الواد ليحاربوا تحت رايته . وكان يغمراسن قد غادر عندئذ تلمسان في أهله وولده وخاصته ، ولجأ إلى قلعة تامزجدرت أوتامجدرت ، الواقعة جنوبي مدينة وجدة ، وامتنع بها ، فألح السعيد في وجوب مقدم يغمراسن إليه بنفسه . ولما أصر يغمراسن على موقفه ، عول السعيد على مطاردته وقتاله ، فسار إلى قلعة تامزجدرت حيث امتنع ، وكان الوصول إليها خلال شعب وأوعار ضيقة ، قد كمن بها بنو عبد الواد . فأشار على السعيد وزيره ابن عطوش وغيره أن يحذر من سلوك تلك المضائق ، فأبى وأصر على اقتحام القلعة ، وسار في جانب من قواته ، وأمامه وزيره راجلاً ، شاهراً سيفه ، فلما توسط الموحدون تلك الأوعار ، انقضت عليهم ، من الجبل ، كمان بني عبد الواد ، بمنتهى العنف ، فقتل الوزير ابن عطوش في الحال ، وتلاه سيده السعيد فسقط صريعاً من فوق فرسه ، ومزق الموحدون شر ممزق ، وارتدت فلولهم صوب المحلة الموحدية ، فساد بها الرعب والفرع ، وكان الذي قتل السعيد فارس يدعى يوسف بن عبد المؤمن الشيطان ، وكان يكمن أسفل الجبل ، ومن

(١) ابن عذارى في البيان المغرب ص ٣٧٨ و ٣٧٩ .

(٢) البيان المغرب ص ٣٨٦ .

ورائه يغمراسن نفسه ، وابن عمه يعقوب بن جابر . ولما سقط الخليفة الموحدى صريعاً ، وقبل أن يلفظ أنفاسه ، انحنى عليه يغمراسن وحياء ، وأقسم له على براءته من مصرعه ، ثم فاضت روح السعيد ، وأمر يغمراسن بتكفينه وغسله ، ثم حمل فدفن بمكان يعرف بالعباد خارج مدينة تلمسان ، وانتهيت محلة السعيد ، واستولى بنو عبد الواد على سائر ما فيها ، وتفرق عسكره أيدي سبا ، وارتدت فلولهم مسرعة إلى مراکش . ووقعت تلك النكبة المروعة في يوم الثلاثاء آخر صفر سنة ٦٤٦ هـ (٢٣ يونيو ١٢٤٨ م) (١) .

وهكذا هلك الخليفة أبو الحسن على السعيد فجأة ، وبصورة لم يكن يتوقعها أحد ، وهو في إبان ظفره وطموحه ، وقد كان حرياً أن يسير في قواته الحرارة صوب إفريقيا ، وأن يفتتحها ، وقد لاح مدى لحظة أن الخلافة الموحدية ، قد نهضت من سباتها ، وتداركت عثرتها ، وأنها أضحت على وشك الظفر بخصومها ، واسترداد كامل سلطانها ، وكان يبدو أن ما يتصف به السعيد ، من العزم والصرامة وقوة النفس ، كانت كفيلاً بتحقيق هذه الغاية الضخمة ، بل لقد بدا أنها بدأت تتحقق بالفعل ، حينما زحف السعيد في قواته الحرارة للقاء بنى مرين ، وحينما رأى بنو مرين ، وهم أقوى وأخطر خصوم الخلافة الموحدية ، أن ينحنوا أمام عزم السعيد وقوته ، وأن ينسحبوا من معظم الأراضي ، التي كانوا يحتلونها من أنحاء المغرب . ولو أتاح القدر للسعيد فرصته ، ولو لم يسقط صريعاً على هذا النحو المفاجيء ، لكانت أمامه ثمة فرصة ، بل فرص سانحة ، لتحقيق برنامج الضخم ، في إقالة الدولة الموحدية من عثرتها ، واستردادها لسابق تماسكها ومنعتها . وتنوه الرواية بعزم السعيد ، وهمة ، وشجاعته ، وتقول لنا إنه كان مهاباً ذا إقدام ونجدة في الحروب ، فاق بها من تقدم من آبائه ، وهذا ما تدل به في الواقع أعمال السعيد وحملاته الحربية المتوالية . وتصفه الرواية بأنه كان أسمر شديد السمرة ، تام القد ، معتدل القوام ، سبط الشعر ، مليح العينين (٢) .

(١) الذخيرة السنية ص ٧٨ ، والبيان المغرب ص ٣٨٧ و ٣٨٨ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٥٨ وج ٧ ص ٨٢ ، وروض القرطاس ص ١٠٢ ، وهو يقدم إلينا مصرع السعيد في صورة حادث استكشاف خاص قام به السعيد في شعب الجبل ، ففاجأته جماعة من بنى عبد الواد ، ومعهم يغمراسن ، فقتلوه .

(٢) روض القرطاس ص ١٧١ .

الفصل الثايل

عصر الخليفة المرتضى لأمر الله

اختيار الخليفة الجديد . مبايعة السيد أبي حفص عمر المرتضى لأمر الله . تصرفاته الأولى . عصره نذير انهيار الدولة الموحدية . أثر مصرع السعيد في تحرك بنى مرين . استيلاء الأمير أبي يحيى على رباط تازا . زحف أبي يحيى على فاس ومحاصرتها . تسليمها إليه صلحا . مبايعة أشياخها له . دخول أبي يحيى فاس . استتباب الأمن والسكينة . مغادرة أبي يحيى لفاس وخروجه إلى بلاد فازاز . مؤامرة الموحدين لخلع أبي يحيى . مؤازرة الجند الروم لهم . وثوبهم بالوالى المرىنى وقتله . إعلانهم بالعودة لطاعة الخليفة الموحدى . عودة أبي يحيى إلى الزحف على فاس . تحريك يغمراسن لأخذ رباط تازا . مسير أبي يحيى لقتاله . هزيمة يغمراسن . عودة أبي يحيى إلى فاس وتشديد الحصار عليها . طلب أهل المدينة العفو والتسليم . موافقة أبي يحيى ودخوله المدينة . القبض على زعماء المؤامرة وإعدامهم . إلزام أهل المدينة برد المال المنهوب . وفاة أبي زكريا الحفصى خلال مسيره للفرز . صفاته وخلاله . صدق وفاته في موقف الأقلية المسلمة بصقلية . أحوال هذه الطائفة وتلاشيها . الثورة في سبتة والبطش بالولادة الحفصيين . خلع طاعة بنى حفص وقيام القاضى العزفى فى الرئاسة . علاقة الخلافة الموحدية بالكبرى الرسول . بدء نفوذ النصارى منذ أيام المأمون . قيام الكنيسة بمراكش . تضخم الجالية النصرانية بها . البابا يرسل أسقفاً إلى مراكش وخطاباً إلى الخليفة السعيد . حثه الخليفة على اعتناق النصرانية وتخصيص حصون لحماية النصارى . عدم اكتراث السعيد برسالة البابا . الخليفة المرتضى يرسل رده إلى البابا مع الأسقف لوبى . إشارة الخليفة بوحدانية الله وحملته على التثليث . إشارته إلى كتب البابا ، وما يوجب الخليفة لمنصبه من الإجلال . تنويهه بتكريم الشب رسول البابا . رجاءه أن يكون خلفه من ذوى العقل والخلق الراجح . مغزى كتاب الخليفة الموحدى ودلالاته . وفود بعض زعماء بنى مرين المنشقين على المرتضى . تأهبه بتحريضهم لقتال بنى مرين . خروجه فى قوات الموحدين والعرب إلى سلا . الأمير أبو يحيى يكتب إلى المرتضى فى طلب السلم . ضغط الوزراء على المرتضى وجنوحه إلى الحرب . مسيره إلى محلات بنى مرين ونزوله باميلولين . نشوب المعركة بين الفريقين . خدعة شيخ سفيان بأذاعة الصلح . أمر المرتضى بالعودة . هجوم المرىنيين على مؤخرة الجيش الموحدى وانتهاب عتاده وأمواله . هود المرتضى إلى الحضرة . ثورة والى السوس على بن يدر . عجز القوات الموحدية عن إخضاعه . محاولته الاستيلاء على تارودانت . ارتياب المرتضى فى ابن يونس وأمره بإعدامه . توطيد بنى مرين لحكومتهم فى فاس . ما خسرته الدولة الموحدية من أراضيها . إخضاع أبي يحيى لبلاد فازاز . مسيره صوب سلا . المرتضى يدبر مصرع زعماء الخلط . ثورة زعيم بنى جابرو القبض عليه . خروج المرتضى لمحاربة بنى مرين . اللقاء بين الفريقين عند جبل هملولة . هزيمة الموحدين وفرار المرتضى . الهدوء المؤقت . نية بنى مرين فى القضاء على الدولة الموحدية . افتتاحهم لسجلماسة ودرة . اشتداد ثورة السوس . فشل الموحدين فى إخمادها . وفاة الأمير أبي يحيى . الانقلاب فى سجلماسة . عود زعيمها القطراني إلى طاعة الموحدين . موافقة المرتضى ثم تديره لمصرعه . الخلاف على وراثة عرش بنى مرين .

خلوص الأمر للأمير أبي يعقوب . افتتاح بني مرين لثغر سلا ورباط الفتح . مختلف الروايات في ذلك . خلع يعقوب بن عبد الله الطاعة واستقلاله بسلا . مخاطبته لألفونسو العاشر . ألفونسو يدبر مشروعاً لغزو سلا . مقدم السفن القشتالية واعتداؤها الغادر على سلا . اتهام السلطان أبي يوسف ومسيره إلى سلا . مقاتلته للنصارى وإجلائهم . استيلائه على سلا ورباط الفتح . انهيار مشروع ألفونسو العاشر . اقتداء أسرى سلا . ماكان ينذر به هذا العدوان . سعى المرتضى إلى الصلح مع بني مرين . خروج أبناء إدريس المريني بغارة . استزاهم واسترضاهم . أبو يوسف يرسل حملة لإنجاد الأندلس بقيادة عامر ابن إدريس . احتلالها لمدينة شريش . بداية عون بني مرين للأندلس . الخلاف بين ابن الأحمر والعزفي . أحوال عرب سفيان والخلط . ترددهم بين طاعة الموحدين وبني مرين . موقف المرتضى . تدبيره لمصرع الزعماء الناكثين . عود المرتضى إلى التأهب لمحاربة بني مرين . مسير الموحدين لقتالهم . موقعة أم الرجلين . هزيمة الموحدين وتمزيق صفوفهم . محاولة جديدة لإخاد ثورة السوس وفشلها . حوادث طنجة وسبتة . مسير السلطان أبي يوسف لمحاصرة سبتة ثم عوده . مسير السلطان أبي يوسف إلى مراكش . القتال بينه وبين الموحدين . مصرع ولد السلطان . توقف القتال وتعهده المرتضى بدفع إتاوة سنوية . السيد أبو العلاء إدريس الملقب بأبي دبوس . الوحشة بينه وبين المرتضى . اختلاف الرواية في تحليل ذلك . فرار أبي دبوس والتجاءه إلى السلطان أبي يوسف . موافقة أبي يوسف على مشروعه لفتح مراكش . إمداده بمسكر من بني مرين . مسير أبي دبوس ونزوله بهسكورة . التفاف القبائل حوله . توجس المرتضى ومطاردته لزعيم سفيان وقائه الروم . إنضمام العرب والروم إلى أبي دبوس . مسير أبي دبوس إلى أغمات ثم إلى مراكش . الاضطراب في المدينة وخلوها من القوات المدافعة . اقتحام رجال هسكورة للسور وفتحهم لباب الصالحة . دخول أبي دبوس المدينة وفرار المرتضى . مسيره إلى أزموور وغدر واليا صهره . مبايعة أبي دبوس بالخلافة وتلقبه بالوائق بالله . خلاله وصفته . وزراؤه . إجراءاته الأولى . فضوب الأموال . كتابه في ذلك ورد المرتضى . تأثره لحنة المرتضى . نصيح وزيره بالقضاء على المرتضى . إعدام المرتضى . وتام تفكك الدولة في عهده . صفاته . وزراؤه وكتابه . أدبه وشعره . ابن القطان يؤلف له تاريخه . شخصه . إعتقال أولاده . إطلاقهم والتجاءهم إلى حماية ملك قشتالة . انتقاهم إلى غرناطة . ولده أبو حمارة . السيد أبو زيد أخو أبي دبوس . التجاءه إلى ملك قشتالة وتنصره . تأملات عن هذه الظاهرة .

لما لقي الخليفة أبو الحسن السعيد مصرعه في شعب جبل تلمسان ، في نهاية شهر صفر سنة ٦٤٦ هـ ، ووصل نبأ مصرعه ونكبة جيشه ، إلى مراكش ، كان لذلك أعظم وقع في البلاط الموحدي ، وبادر السيد أبو زيد ، أخو الخليفة القتل ووالى مراكش ، فاستدعى أشياخ الموحدين الموجودين بالحضرة ، لبحث الموقف ، واختيار الخليفة الجديد ، فاتجه الرأي أولاً إلى اختيار السيد أبي زيد نفسه ، ولكنه امتنع واعتذر ، فاقترح البعض أن يولى السيد أبو حفص عمر والى سلا ، وذلك لعقله وورعه وصيانيته ، فوافق الموحدون على ذلك ، وبايعوا السيد أبا حفص في غيبته ، وتلقى الدعوة نيابة عنه ، أخوه السيد أبو زيد . والسيد أبو حفص عمر هذا ، هو ولد السيد أبي إبراهيم بن الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

أو بعبارة أخرى هو ابن أخ للخليفة يعقوب المنصور ، وعم للمأمون والد السعيد . وكان من قبل والياً لأغاث ، ثم عينه السعيد لولاية سلا ورباط لفتح . وعقدت له البيعة بجامع المنصور ، في أوائل شهر ربيع الأول ، وحمل كتابها إليه الحاكم ابن أصلماط ، وكان مقبلاً من سلا إلى تامسنا ، في طريقه إلى الحضرة ، مع بعض أشياخ الموحدين والعرب ، قتلقي البيعة ، وضربت له في الطريق قبة ، قرئت فيها البيعة ، وبايعه فيها من حضر ، وذاع الأمير بين الناس . ثم نظم لركوبه موكب خلافي ، سار فيه بعض السادة والوزراء والقراة ، وبعض حشود العرب والخدم ، واستمر الموكب في سيره حتى قرب من العاصمة ، فخرج إليه عندئذ أشياخ الموحدين ، ومعهم الخيل والأجهزة والكسي ، والطلب والبند ، فنزل الخليفة أولاً بالبحيرة ، ثم دخل الحضرة في موكبه الفخم ، واجتمعت الناس على طاعته^(١) .

وتلقب الخليفة الجديد بالمرتضى لأمر الله . وكان كهلاً في نحو الخمسين من عمره ، هادئ الطبع ، شديد الورع ، قليل الأطماع . وكان أول ما قام به أن قدم أبا محمد ابن يونس للوزارة ، ثم قدم لها أخاه السيد أبا اسحق ، عندما وفد إليه من سجلماسة ، وعين يعقوب بن كانون شيخاً لعرب بني جابر ، وعمه يعقوب بن جرمون شيخاً لعرب سفيان ، وأقر كلا منهما على بلاده . وكان في مقدمة أعماله أيضاً أن قبض على حاشية السعيد وخدمه ، ولاسيما صاحبه ابن المسك ، وسجن الحرّة عزونة أخت السعيد ، واقتضى منها أموالاً فادحة^(٢) .

وكانت خلافة المرتضى ، التي استطالت نحو تسعة عشر عاماً ، هي الفترة القائمة التي تم فيها تفكك الإمبراطورية الموحدية ، الذي مهدت إليه حوادث الحقبة السابقة ، منذ انسلاخ إفريقية ، وانهيار الأندلس ، واستقلال تلمسان . ثم عجل بوقوعه ، استمرار الحروب الأهلية بين الموحدين من جهة ، واشتداد ساعد بني مرين من جهة أخرى . وسوف نشهد منذ الآن فصاعداً ، كيف تتساقط أشلاء الإمبراطورية الموحدية الباقية ، واحداً بعد الآخر ، والخلافة الموحدية عاجزة عن أن تتدارك أية ضربة ، من الضربات القاصمة الموجهة إليها . وقد ترتب على مصرع الخليفة السعيد ، في الناحية الأخرى ، أعنى ناحية بني مرين ، نتائج هامة . ذلك أن الأمير أبا يحيى بن عبد الحق أمير بني مرين ،

(١) البيان المغرب ٣٨٩ و ٣٩٠ ، وروض القرطاس ص ١٧٣ .

(٢) البيان المغرب ٣٩١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٨ .

ما كاد يقف على مصرع السعيد وتبدد جيشه ، حتى نهض للعمل . وكان قد عقد الصلح مع السعيد وأمدّه بشطر من فرسانه ، ضد بني عبد الواد أصحاب تلمسان ، وأعطاه رهائن من قومه ، أودعها السعيد برباط تازا . فلما انتهى السعيد وجيشه الجرار ، سار أبو يحيى في قواته فوراً صوب تازا ، وكان واليها هو السيد أبو علي ، أخو السيد أبي العلا إدريس المسمى بأبي دبوس وهو الخليفة المستقبل ، فبعث إلى أبي يحيى يطلب الاجتماع به ، ولما اجتمعا تعهد أبو يحيى بأن يعمل على صون أهل تازا ، وحمايتهم من كل أذى . وعندئذ غادر السيد أبو علي تازا بأهله وولده ومتاعه ، ودخلها أبو يحيى وبنو مرين ، وباع أهل تازا وسائر أحوازها للأمير المريني ، وكانت تازا أول مدينة مغربية استولى عليها بنو مرين من أيدي الموحدين وذلك في أوائل شهر ربيع الأول سنة ٦٤٦ هـ (يولييه ١٢٤٨ م)^(١).

ولم تمض على ذلك أسابيع قلائل ، حتى وقعت الخطوة الثانية ، في تقدم بني مرين داخل الإمبراطورية الموحدية ، وكانت أخطر وأبعد مدى . ذلك أن الأمير أبا يحيى ، ما كاد يرتب شئونه برباط تازا ، ويرتب بها رسوم الإمارة ، حتى سلمها لأخيه الأمير أبي يوسف ، ثم غادرها وسار في قواته غرباً صوب مدينة فاس ، وهي العاصمة الثانية للإمبراطورية الموحدية ، وافتتح في طريقه مدينة أجريسيف ، وسائر حصون وادي ملوية^(٢) . ثم نزل قبالة فاس معزماً فتحها ، وضرب حولها الحصار وقطع علائقها مع الخارج ، فاشتد بأهلها الضيق ، وطلبوا إلى أشياخهم مفاوضة الأمير أبي يحيى ، وكان واليها الموحدي يومئذ هو السيد أبو العباس بن أبي حفص ، وكان عاجزاً عن أى دفاع ولم يتلق أية نجدة ، ولم يكن لديه سوى مائتي جندي من الروم ، وفدوا إلى المدينة عقب مصرع السعيد ، مع قائدهم شديد . ويقول لنا ابن عذارى إن هذه الفرقة من الروم دافعت وقت الحصار ضد بني مرين دفاعاً شديداً ، واضطر أشياخ المدينة نزولاً على ضغط أهلها ، أن يتقدموا إلى أبي يحيى بطلب الصلح ، فتلطف أبو يحيى بهم ، وتعهد لهم بحسن النظر ، وإقامة العدل وحمايتهم ، وكف الأذى عنهم ، فقبلوا عهده ، وبايعوه على الطاعة ، بالرابطة الواقعة خارج باب الشريعة ، وكان في مقدمة من بايعه كبير فقهاء مراکش ، الشيخ الورع أبو محمد الفشتالى ، وسائر

(١) البيان المغرب ص ٣٩٢ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٢ ، وروض القرطاس ص ١٩٥ .

(٢) الذخيرة السنية ص ٧٩ ، وروض القرطاس ص ١٩٥ .

الفقهاء والأشياخ ، وأخلى القصبة ، وإلى الخليفة الموحدى ، السيد أبو العباس ، وغادرها في أهله وولده ، وأمنه أبو يحيى ، وأعطاه خمسين فارساً يحرسونه حتى وادى أم الربيع ، ثم دخل أبو يحيى مدينة فاس في اليوم السادس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٦٤٦ هـ ، وذلك بعد وفاة الخليفة السعيد بنحو شهرين (١) .

ولبث الأمير أبو يحيى بفاس أكثر من عام ، وهو ينظم الشئون ، ويضع القواعد والرسوم ، لحكم مملكة بني مرين ، التي أخذ طالعها يتألق في الأفق . وكانت الوفود ترى عليه من كل صوب ، متقدمة لبيعته ، والانصواء تحت رايته ، وقد عم في سائر المنطقة جو من الهدوء ، والاستبشار بالدعة والخير ، بعد أن طال عهد الاضطراب والفوضى ، فأمنت السبل ، ونشط التعامل ، وأخذ الناس في الحرث والعارة والاستقرار . وكان استيلاء بني مرين على تلك المدينة العظيمة — حاضرة المغرب العلمية التالدة — وهي التي غدت فيما بعد ، عاصمة لمملكتهم الزاهرة ، بداية النهاية في خاتمة الدولة الموحدية . وفي شهر رجب سنة ٦٤٧ هـ ، غادر الأمير أبو يحيى فاس ، بعد أن استخلف عليها مولاه المسعود ابن خرباش الحشمى ، وخرج إلى بلاد فازاز وما يليها ، يعمل على إخضاع قبائلها وتحصيل الجباية منهم ، ولكنه ما كاد يبتعد عن فاس حتى أخذ بعض زعماء المدينة من الموحدين ، وغيرهم من المعارضين ، يحاول قلب الأوضاع الجديدة ، والعود إلى طاعة الخلافة الموحدية ، وخاطب أولئك المعارضون قاضى المدينة أبا عبد الرحمن المغيل ، في خلع أبي يحيى وقتل نائبه المسعود ، وطرده أنصاره من المدينة ، وعبثا حاول القاضى أن يردهم عن مشروعهم ، فنظموا مؤامرتهم على ما رتبوه ، من خلع أبي يحيى وقتل نائبه ، وإعادة البيعة للخليفة المرتضى ، وتفاهموا مع قائدى جند الروم الذين بالقصبة ، وهما شديد وزنار ، وكان أبو يحيى قد تركهم على ما كانوا عليه (٢) . وفي رواية أخرى أنه كان قد حبسهم عند دخول فاس (٣) . وعلى أى حال فقد كان قواد الجند الروم مع المتآمرين ، وكانوا بطبيعتهم من أولياء

(١) الذخيرة السنية ص ٧٩ ، وروض القرطاس ص ١٩٥ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٤ . ويضع ابن عذارى دخول أبي يحيى فاس في ١٨ ربيع الآخر سنة ٦٤٦ هـ (البيان المغرب ص ٣٩٣) .

(٢) الذخيرة السنية ص ٨٢ .

(٣) البيان المغرب ص ٣٩٩ .

الدولة الموحدية ، المخلصين لها . وقصد أشياخ المدينة ، وعلى رأسهم المشرف ابن جشّار وأخوه ابن أبي طاهر إلى القصبة ، ومع قواد الروم ، وبعدهم مشادة قصيرة مع المسعود بن خرباش ، انقضض عليه الروم وقتلوه مع عدة من أصحابه ، واستولى الأشياخ على القصبة ، وعلى ما فيها من المال والذخيرة ، ورفع رأس المسعود على رمح وطيف به ، وأغلقت المدينة أبوابها ، وتولى قائد الروم ضبطها ، ونادى الأشياخ بطاعة الخليفة الموحدى ، وبعثوا بها إليه ، وطلبوا عونه ونصرته ، فبعث المرتضى إليهم ، يعدهم بالعون والقدوم . ووقع هذا الانقلاب بمدينة فاس في شهر شوال وقيل في العشرين من شعبان سنة ٦٤٧ هـ (١) .

ولكن المرتضى لم يسر إلى فاس ، ولم يبعث إليها بمدد من جنده ، وبقيت المدينة الثائرة مغلقة ، تتربص بمصيرها . ولما علم الأمير أبو يحيى بما حدث ، وكان يغزو بلاد فازاز ، تركها وارتد لمعاوية أهل فاس على نكثهم ، وضرب الحصار حول المدينة . وكان المرتضى حينما شعر بعجزه ، عن تدارك فاس بعونه ، قد بعث إلى يغمراسن بن زيان ، يغريه على انتهاز الفرصة في بني مرين . فلما سار أبو يحيى إلى فاس ، نهض يغمراسن في قواته إلى رباط تازا ، يحاول الاستيلاء عليها ، فاضطر أبو يحيى عندئذ ، أن يترك بعض قواته لمتابعة حصار فاس ، وان يسير بنفسه لمحاربة يغمراسن . ولما وصل أبو يحيى إلى تازا ، ارتد عنها يغمراسن ، فسار أبو يحيى في أثره ، ونشبت بين الفريقين في وادي إبسلى ، على مقربة من وجدة ، عدة معارك شديدة ، انتهت بهزيمة يغمراسن ، وسقوط محلته وأسلابه في أيدي العدو ، فارتد في فلوله صوب تلمسان ، وذلك في شهر ذى الحجة سنة ٦٤٧ هـ (٢) .

ثم سار أبو يحيى في قواته إلى فاس ، وشدد في محاصرتها ومنازلتها ، فلما رأى أهل المدينة أنه لا مناص من التسليم ، بعثوا إلى أبي يحيى بطلب العفو والأمان ، فأجاب ملتئمهم ، ودخل فاس وذلك للمرة الثانية ، في العشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٨ هـ (أكتوبر سنة ١٢٥٠ م) ، ونزل بالقصر ، وألزم أشياخ المدينة ، أن يردوا إليه ما سلب من الأموال والذخائر ، وقدر ذلك بمائة ألف دينار ، أو ثلاثمائة ألف وفقاً لابن عذارى ، فماطل الأشياخ أو عجزوا ، فقبض على زعمائهم

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٤ و ١٧٥ ، والذخيرة السنية ص ٨١ و ٨٢ ، والبيان المغرب ص ٣٩٩ ، وروض القرطاس ص ١٩٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٥ ، والذخيرة السنية ص ٨٣ .

وفى مقدمتهم القاضى أبو عبد الرحمن المغبلى ، وابن جشار وأخوه ابن أبى طاهر وغيرهم ، وأمر بقتلهم ، وعلقت رؤوسهم على أبواب المدينة (رجب ٦٤٨ هـ) ، وألزم أهل المدينة ، ومن بقى من شيوخهم ، برد المال المنهوب ، وساد على المدينة حكم إرهاب ، خشعت له القلوب ، وأخذت كل نزع إلى الفتنة والخروج (١) .

- ٢ -

وفى تلك الأثناء نوفى عاهل إفريقية ، الأمير أبو زكريا يحيى ابن الشيخ أبى محمد عبد الواحد الحفصى ، وكان حينما وقع مصرع الخليفة السعيد ، قد أخذ فى الأهبة ، لتحقيق ما كان يجيش به من أطماع ، نحو الأقاليم المغربية ، وخرج فى جيشه من تونس ، فى أوائل سنة ٦٤٧ هـ . فلما وصل إلى بلدة العناب على مقربة من بونة أصابه مرض مفاجئ ، واشتد به حتى توفى ، وذلك فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) ، وكان فى التاسعة والأربعين من عمره . وكان أميراً عظيماً وافر الشجاعة والمقدرة والعزم ، وهو الذى أنشأ الدولة الحفصية المستقلة بإفريقية ، حسبما ذكرنا من قبل فى موضعه ، وكان فوق ذلك عالماً أديباً ، مجيداً للنثر والنظم ، محباً للعلماء ، موثقاً لهم ، وقد وفد عليه كثير من علماء الأندلس وأدبائها النازحين منها ، حينما تغلب النصارى على قواعد الأندلس ، وكان فى مقدمة هؤلاء الفقيه الكاتب المؤرخ والشاعر الكبير ابن الأبار القضاعى . ولما توفى أبو زكريا بويج ولده أبو عبد الله محمد بتونس ، وتلقب بالمستنصر بالله ، وهو الذى لقي ابن الأبار مصرعه على يديه ، حسبما نفصل ذلك فى ترجمته .

وكان لوفاة عاهل إفريقية ، صدى فيما أصاب البقية الباقية من مسلمى صقلية ، من اضطهاد وتشريد . وكانت الأقلية المسلمة ، قد لبثت عصراً ، بعد افتتاح النورمانيين ، للجزيرة ، عنصراً من أهم عناصر سكانها ، وأوفرهم تقدماً وحضارة ، يتمتعون فى ظل الملك رجسار فاتح الجزيرة ، وخلفائه الأوائل ، بقسط كبير من الرعاية والحرية ، ولكنهم غدوا بعد ذلك موضع الاضطهاد والمطاردة . وقد سبق أن أشرنا فيما تقدم ، إلى ما كانت عليه أحوالهم ، وأوردنا طرفاً مما ذكره عنها الرحالة ابن جبير ، وأشرنا إلى ما كان من وفود بعض أعيانهم على الشيخ أبى محمد الحفصى وإلى إفريقية ، فى نحو سنة ٦٠٥ هـ ، سعياً إلى الاستنصار بعون

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٥ ، والذخيرة السنية ص ٨٤ ، والبيان المغرب ص ٣٩٥ ، وروض القرطاس ص ١٩٧ .

الخليفة الموحدى محمد الناصر . بيد أن مساعده لم يسفر يومئذ عن أية نتيجة عملية : فلما استقلت إفريقية ، وغدت في عهد أول أمراءها من بني حفص أبي زكريا يحيى ، دولة قوية زاهرة ، اتجه نظر مسلمى صقلية إلى غوث هذه الجارة المسلمة القوية ، والظاهر مما تذكره لنا الرواية الإسلامية ، أنه وقعت بين الأمير أبي زكريا ، وبين ملك الجزيرة ، وكان يومئذ الإمبراطور فردريك الثانى ، مفاوضات بشأن مسلمى صقلية ، أسفرت عن استردادهم لامتيازاتهم القديمة ، من سكنى بلرم وضواحيها وبعض أماكن أخرى . بيد أنه لما توفى الأمير أبو زكريا عاد ملك صقلية إلى اضطهاد المسلمين ومطاردتهم . فاضطروا إلى مغادرة السهول ، ولجأوا حسبما كانوا يفعلون من قبل ، إلى الجبال والأوعار ، ونصبوا عليهم أميراً من بني عباس . بيد أن هذه الثورة الأخيرة لمسلمى صقلية ، لم تغنهم شيئاً ، لأن ملك صقلية حاصرهم ، واشتد في إرهابهم حتى استنزلهم من الجبال ، ثم أرغمهم على السكنى في منطقة لوجارا ، ثم سار إلى جزيرة مالطة ، وأخرج منها المسلمين ، وألحقهم بإخوانهم ، وكانت هذه الضربة الأخيرة لمسلمى صقلية ، هى بداية انحلالهم وتلاشيهم النهائى ، وغاضت آثار الإسلام من صقلية شيئاً فشيئاً ، حتى انتهى أمره ، من تلك الربوع ، التى ازدهرت فيها حضارته زهاء أربعة قرون^(١) .

وكان من أصدقاء وفاة الأمير أبي زكريا أيضاً ، موقع بغير سبته ، من انقلاب جديد ، وقيام دولة جديدة . وذلك أن سبته ، كانت قد قامت بالدعوة للأمير أبي زكريا ، حسبما ذكر في موضعه ، وأوفد إليها الأمير أبو زكريا ، رجلين من قبله ، للإشراف على شئونهما ، هما ابن أبي خالد وابن الشهيد ، فلم يحسنا السيرة ، وبرم بهما أهل المدينة . فلما توفى أبو زكريا نهأت الفرصة لانقلاب لاجديد ، في رئاسة هذا الثغر ، الذى لبث عصوراً من أهم الثغور الموحدية الشمالية ، كما لبث عصوراً قاعدة رئيسية ، لعبور الجيوش الموحدية إلى الأندلس . وذلك أن أهل سبته ، اضطرموا بالثورة ، واتفق قاضى المدينة وكبير علمائها ، أبو القاسم العزفى مع أمير البحر أبي العباس الرنداحى ، وكان راسياً بسفنه في مياه سبته ، على تدبير الانقلاب المنشود . وكان ممن يخشى بأسهم بسبته ، غير رجال الأمير الحفصى ، جماعة من فرسان الأندلس النازحين ، وعلى رأسهم القائد شقاف بطل لإشبيلية السابق . فتم التفاهم على التخلص من الجميع . ودبر الرنداحى الأمر بإقامة وليمة

كبيرة بمنزله ، دعا إليها معظم القادة والجند ، وبعث رجاله بالليل ، فقاموا بقتل القائد شقاف وزملائه ، ثم نفذوا إلى القصبية ، قتلوا ابن أبي خالد ، وأخرجوا ابن الشهيد في زورق سيروه إلى الأندلس . وهكذا تم تدبير الانقلاب المنشود ، وخلعت طاعة بني حفص ، وتولى القاضي أبو القاسم العزفي زمام السلطة (٦٤٧ هـ) . وكان أبو القاسم ، وهو ولد العلامة الكبير الورع الزاهد أبي العباس العزفي ، عالماً جليلاً ، ورئيساً حازماً ، ورعا كأبيه ، فضبط أمر سبته بقوة وكفاية . وكان ذلك بداية رياسة هذه الأسرة العريقة ، للثغر الموحدى القديم ، واستمر العزفي في حكم سبته ، زهاء ثلاثين عاماً ، حتى توفى في سنة ٦٧٧ هـ^(١) .

- ٣ -

ولابد لنا أن نشير هنا ، إلى حادث ذى مغزى عميق ، من الناحيتين الدينية والأدبية ، وإن لم يكن له نتائج مادية أو سياسية هامة ، ذلك هو ما وقع من مكاتبة بين الخليفة الموحدى المرتضى لأمر الله ، وبين البابا إنوسان الرابع ، وقد انتهى إلينا لحسن الطالع ، كتاب الخليفة الموحدى ، إلى عميد النصرانية ، وهو ما يزال محفوظاً بأصله في مكتبة الفاتيكان الرسولية . بيد أنه يجدر بنا قبل أن نعرض إلى محتويات الكتاب المذكور ، أن نشير إلى ما تقدم ، من علاقات ، بين الخلافة الموحدية ، والكرسى الرسولى .

وقد بدأت هذه العلاقات منذ عصر الخليفة المأمون ، وهو المسئول عن تشجيع الكرسى الرسولى ، على محاولة بث نفوذه ، داخل الإمبراطورية الموحدية . وذلك أن المأمون حينما دعا لنفسه بالخلافة ، وهو بالأندلس ، واعتزم العبور إلى المغرب ، رأى أن يستنصر بفرناندو الثالث ملك قشتالة ، لكى يمدده بقوة من المرتزقة النصرارى ، يستعين بها على قتال خصومه . وقد رأينا فيما تقدم كيف أن فرناندو الثالث ، اشترط على المأمون لمخالفته وإمداده ، غير ما رغب في امتلاكه من الحصون الأندلسية ، شروطاً أخرى منها أن يبنى للنصارى في مراكش كنيسة يقيمون فيها شعائهم ، وأنه إذا أسلم أحد من النصرارى فلا يقبل إسلامه ، بل يرد إلى إخوانه يقضون في أمره وفق مايرون ، وإن تنصر . بالعكس أحد من المسلمين فليس لأحد عليه سبيل^(٢) . ولما استطاع المأمون أن

(١) البيان المغرب ص ٤٠٢ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٨٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٦٧ . وراجع ص ٣٦٨ من هذا الكتاب .

يتغلب على خصومه ، بمعاونة أولئك الجند النصارى ، أو الروم حسبما تنعهم الرواية الإسلامية ، كان فى مقدمة ماعمله ، إن ابثنى للنصارى فى داخل مراكز كنيسة كبرى . وقد كانت أول كنيسة أقيمت بالعاصمة الموحدية ، وكانت فيما يبدو أسّـر من محل للعبادة ، إذ كانت فى أحيان كثيرة ملاذا للقادة والجند الروم ، حسبما يستدل على ذلك من إشارات عديدة ، وتكاثر أولئك الجند النصارى بما كان يفد إليهم من إخوانهم المرتزقة ، من وراء البحر ، ولبثوا أعمدة الخليفة الموحدى فى مقارعة خصومه ، وكانوا قوة يحسب حسابها ، فى سائر المنازعات والانقلابات السياسية والعسكرية .

وقد لفت قيام هذه الجالية النصرانية القوية ، فى العاصمة الموحدية ، منذ البداية ، نظر الكرسي الرسولى ، ورأى فيها سندا لتدخله ، ومحاولة بث نفوذه . وكان أول ما وقع من ذلك أن بعث البابا إنوسان الرابع ، بالقس لوبى فرنانديث إلى مراكز فى سنة ١٢٤٦م ، فى عهد الخليفة السعيد ، ليكون أسقفا بها ، وكان السعيد كأبيه المأمون ، يغمز الجند النصارى بعطفه وصلاته ، ويعتبرهم ملاذ العرش الموحدى ، وسنده القوى . وبعث البابا إلى الخليفة مع الأسقف كتابا يهنته فيه ، بانتصاراته على خصومه ، فى سبلاسة ، وبلاد الغرب ، ويشيد بالدور الذى قام به الجند النصارى فى هذه الانتصارات ، بل وينصح الخليفة ، لما كان يعلمه من من استعداده ، لاستقبال طوائف جديدة من أولئك الجند ، ولما كان يجوهم به من عطف - ينصحه بأن يعتنق النصرانية لكى يغنم حماية الله والكرسي الرسولى ، ثم يرجوه لضمان حماية النصارى ، ولكى لا يتعرضوا إلى مثل ما حدث لهم أيام يحيى المنتصر ، من القتل ومن حرق كنيستهم ، أن يخصص لهم بعض الحصون المنيعه ، الواقعة تحت سلطانه ، لكى يلجأوا إليها عند الضرورة ، وكتب البابا فى نفس الوقت إلى أمراء تونس وبجاية وسبتة ، يرجوهم أن يسهلوا لنصارى مراكز الاتصال بإخوانهم فى تلك الثغور .

على أن رسالة البابا المتقدمة إلى الخليفة السعيد ، لم يكن لها أى صدى . ذلك أن السعيد ، بالرغم من حرصه على إرضاء جنده ، لم يكن على استعداد ، لكى يمنح للكرسي الرسولى ذاته ، أية امتيازات أو حقوق من أى نوع . ومن الحق أنه لم يلق أية التفاتة ، لمادعاه إليه البابا ، من اعتناق النصرانية ، بل سوف نرى بالعكس ، ماورد فى شأن ذلك من الاستنكار ، فى خطاب خلفه ، الخليفة المرتضى إلى البابا .

وقد بعث الخليفة المرتضى كتابه ، إلى البابا ، مع الأسقف لوبي المتقدم ذكره وهو كتاب طويل ، ومؤرخ في ختامه ، في الثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ ، وفيه يوصف البابا بعد الديباجة « بمطاع ملوك النصرانية ، ومعظم عظماء الأمة الرومية ، وقيم الملة المسيحية ، ووارث رياستها الدينية ، البابا إينه سانس ، أنار الله بصيرته ، بتوفيقه وإرشاده ، وجعل التقوى التي أمر عز وجل بها ، عدته لحياه ومعاده » .

ويفتح الكتاب بالإشارة إلى المسالة الدينية الجوهرية ، التي تفرق بين الإسلام والنصرانية ، ويعرضها الكتاب بقوة وحسم ، ردا على ما أشار به البابا إلى الخليفة الموحدي ، من اعتناق النصرانية ، فيقول ما يأتي :

« أما بعد فإننا نحمد الله الذي لا إله إلا هو ، حمد من علم أنه الرب الواحد ، الذي دلت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد ، ونزهته العقول الراجحة ، عن أن يكون له ولد ، أو يدعى أنه الوالد ، تعالى الملك الرحمن عما يقول المثلث والمثبه والجاحد » :

وبلى ذلك الصلاة على النبي ، ثم طلب الرضى عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، وعن الخلفاء الراشدين ، ثم عن الخليفة المرتضى ذاته ، موجه هذا الكتاب .

ويعرض الكتاب بعد الدعاء ، والشكر لله تعالى ، إلى موضوع المراسلة ، ويشير إلى أنه كانت قد تبودلت كتب بين البابا والخليفة الموحدي ، وذلك حينما يقول « فإنه سبقت منا إليكم مراجعات ، عن كتبكم المؤثرة الواصلة إلينا » ثم يؤكد الخليفة للبابا ، أنه يوجب لمنصبه « الذي أبر في ملتكم على المناصب حقه » ، وأنه لذلك عند الخليفة « بالتكرمة الحفيلة ملحوظون ، وبالعناية الجميلة محظوظون ، على ما توالى علينا من حسن إيثاركم لجانبنا وتردد »

ثم يشير الكتاب بعد ذلك إلى أنه « قد انصرف عن حضرة الموحدين الديشب ، الذي كان قد وصل بكتابكم إلينا ، انصرافا لم يعزه منا فيه برا واکرام ، ولم يغبه فيه اعتناء به واهتمام » وأنه لبث طوال إقامته بالحضرة معززا مكرما ، في حله وترحاله ، وأنه رحل مختارا ، وهو يحمل كتاب الخليفة ، تعريفاً بذلك . ويرجو الخليفة إلى البابا ، أن يراعى في اختيار خلفه للإشراف على النصارى « المستخدمين ببلاد الموحدين » أن يكون من أهل العقل الراجح ،

والله اعلم

[illegible]

مسيرة فوزية غلاب اقلية الرضى الى ابا ابرسان العالم المصروف بحجة العائكان الرسولة

والسمت الحسن والنزاهة ، وذوى الخلال المشكورة . ويختتم الكتاب بتوجيه الشكر إلى البابا « لما تذهبون إليه من تمشية الأغراض والمذاهب ، والمساعدة الصادرة منكم عن كرم الضرائب »^(١) .

هذا هو ملخص كتاب الخليفة الموحدى إلى البابا ، وهو كما تقدم مؤرخ في الثامن عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ الموافق العاشر من يونيو سنة ١٢٥٠ م . ومن الأسف أننا لم نعثر في التواريخ العربية بأية إشارة ، إلى هذه المكاتبات الهامة ، بين الخلافة الموحدية ، وبين الكرسي الرسولى^(٢) .

وإذا كان لنا أن نعلق بشيء على هذا الكتاب ، فهو أن ما يكشفه لنا من نقاش حول العقيدة الدينية ، بين البابوية والخليفة الموحدى ، وما جنح إليه الخليفة الموحدى فى كتابه ، من دحض نظريات ألوهية المسيح والتثليث ، بقوة وعنف ، يدل على ما حدث من أصداء عميقة ، لدى الخلافة الموحدية ، فى أواخر عهدها من جراء ازدياد نفوذ الجالية النصرانية ، ومحاولة استغلال البابوية لهذا النفوذ ، بصورة انتهت إلى الاجترار ، على دعوة الخليفة الموحدى إلى نبذ دينه وعقيدته الإسلامية .

— ٤ —

وفى نفس هذا العام أعنى فى سنة ٦٤٨ هـ ، وفد على الخليفة المرتضى ، زعيمان من زعماء بنى مرين ، المنشقين على الأمير أبى يحيى ، هما أبو عمران موسى ابن زيان المونكاسى ، وأخوه على بن زيان ، فأكرم وفادتهما ، ورتب لهما أموالاً سخية ، وشجعاه على النهوض لقتال بنى مرين . فأخذ المرتضى فى الأهبة ، وبعث بعض رسله إلى الأندلس ، ليحشدوا له فرقة جديدة من المرتزقة النصارى ، فجمعوا له عدداً منهم . وفى سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م) غادر المرتضى مراكش ، فى قوات الموحدين والعرب ، ومعه على بن زيان وأخوه ، قاصداً محاربة بنى مرين ، ومنعهم من عبور وادى أبى رقرق ، إلى أرض تامسنا . وكان خروجه فى رمضان

(١) نقلنا نص الكتاب الموحدى المشار إليه من محفوظات مكتبة الفاتيكان الرسولية وهو محفوظ بها تحت رقم A.A.L.XVIII . وقد قامت بنشر هذا الكتاب مجلة Bulletin de l'Institut de Hautes Etudes Marocaines-Hespérie فى عددها الصادر سنة ١٩٢٦ ونشرت صورة فوتوغرافية للكتاب المذكور وترجمة فرنسية ، وعلق عليه الكردينال تسيران والأستاذ فييت فى بحث طويل (ص ٢٧ - ٥٣) وقد نشرنا نصه الكامل فى باب الوثائق كما نشرنا هنا صورته الفوتوغرافية . ولم نجد بمحفوظات الفاتيكان أية وثيقة مغربية أو أندلسية أخرى من وثائق ذلك العصر .

من هذه السنة . فسار أولاً إلى تينمئل حيث قام بزيارة قبر المهدي ، وقبور أجداده ، ثم عاد إلى طريق مراکش ، واتجه صوب سلا . وكان واليها ابن أبي يعلى ، قد استعد في حشوده للانضمام إليه . وأقام المرتضى أياماً في سلا ، يتعرف أخبار بني مرين ، ثم خرج من سلا في حشود وافرة ، قاصداً إلى مكان بني مرين . وكان الأمير أبو يحيى ، حينما علم بخروج المرتضى إلى قتاله ، قد جمع أشياخ بني مرين وحلفاءهم ، وبحث الأمر معهم ، فرأوا أن ينجحوا إلى المسألة ، فكتب أبو يحيى إلى المرتضى ، يطلب إليه السلم والمهادنة ، وكان المرتضى يميل إلى عقد السلم ، ولكن وزراءه عارضوا في ذلك ، وبينوا له خطورة مهادة بني مرين ، وإغفال أمرهم ، فجنح المرتضى إلى الحرب ، وسار في حشوده الزاخرة ، إلى لقاء خصومه ، ومعه أحمال كثيرة من المال برسم النفقة ، حتى صار على مقربة من محلات بني مرين ، ونزل بمكان يسمى أمن ملولنين (أو أميلولين) من أحواز مكناسة . وكان الأمير أبو يحيى وبنو مرين ، قد استعدوا للقتال ، وبدأ الموحدون المعركة ، وهجم الموحدون وعلى بن زيان وجنوده ، كل من ناحية ، فظاهر بنو مرين بالانسحاب ، وكانوا قد رتبوا كمائنهم ، في أماكن قريبة مستوره ، ولكن الموحدين فطنوا إلى الخدعة ، فلم يتبعوهم ، وعندئذ أشاع حليف المرتضى ، يعقوب بن جرمون ، شيخ سفيان ، بناء على خطاب تلقاه من أبي يحيى ، في الحملة الموحدية ، أن الصلح قد عقد بين الفريقين ، فافتنع المرتضى بورود هذا الخطاب على يعقوب ، وإن لم يعقد صلح في الواقع ، وأمر بالرحيل ، وتحركت الجيوش الموحدية ، عائدة صوب مراکش ، فعندئذ تبع بنو مرين الجيوش المرتدة ، وانتزعوا كثيراً من عتادها وأحمالها ، واستولوا بالأخص على أحمال الخليفة ، وأمواله ، واستمر انسحاب القوات الموحدية ، في غير نظام ، حتى ثغر أزمور ، فاستراح بها المرتضى أياماً ، ثم غادرها إلى الحضرة . وكانت هزيمة دون قتال ، وكانت دليلاً جديداً على ما أصاب قوى الموحدين المعنوية من التخاذل والانهيار^(١) . ولما عاد المرتضى إلى الحضرة عزل وزيره ابن يونس ، وكان حاقداً عليه ، لمعارضته في بيعته ، وما يزال يسرها له (٦٥٠ هـ) .

وفي العام التالي — ٦٥١ هـ — ثار والي السوس على بن يدّر ، وجاهر بالعصيان فبعث المرتضى حملة موحدية إلى السوس لإخضاعه ، ولكنها عجزت عن ذلك ،

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٨ وج ٧ ص ١٧٦ ، والبيان المغرب ص ٤٠٢ — ٤٠٥ .

فارتدت خائبة إلى مراكش ، واستمر الأمر على ذلك حتى العام التالى ، حيث تفاقم أمر الثورة فى السوس ، واشتد ساعد على بن يدر ، بمن انضم إليه من طوائف العرب ، من عرب الشبانات وبنى حسان وغيرهم ، ثم سار إلى حصار تارودانت عاصمة السوس ، يبغي الاستيلاء عليها ، فسارت من مراكش ، حملة موحدية. جديدة لقتاله ، فترك تارودانت ، وامتنع بالداخل ، ولم يستطع الموحدون إليه سيلا ، فارتدوا عائدين إلى الحضرة ، وعاد ابن يدر إلى مضايقة تارودانت والعيث فى أحوازها (٥٦٥٢هـ) . وحدث بعد ذلك أن وقف المرتضى ، على بعض كتب صادرة من ابن يدر ، إلى قريبه الوزير ابن يونس ، تدل على أنه كان يمدّه بالمال والسلاح ، فقبض على ابن يونس وأولاده ، ثم أمر به المرتضى بقتل ، وأفرج عن أولاده فيما بعد (٥٦٥٣هـ) (١) .

وفى خلال ذلك ، كان الأمير أبو يحيى وبنو مرين ، يعملون على توطيد سلطانهم ، وتنظيم حكومتهم بمدينة فاس ، وهى التى سوف تغدو منذ الآن فصاعدا ، حاضرة ملكهم القتي ، والواقع إن الإمبراطورية الموحدية ، كانت قد فقدت بانسلاخ إفريقية عنها ، ثم استقلال بنى عبد الواد بمملكة تلمسان ، سائر أقاليم المغرب الأوسط ، ثم جاء بنو مرين فانزعوا النصف الشمالى ، من المغرب الأقصى ، واستولوا من قواعده على تازة ووجدة وفاس ومكناسة ، وأخضعوا سائر أقاليم تلك المنطقة ، من جبال غمارة حتى وادى أبى رقرق ، ولم يبق بيد الدولة الموحدية ، سوى ما وراء ذلك جنوبا من الأقاليم القليلة الباقية ، حتى بلاد السوس ، تتوسطها مراكش . ولم يكن خافيا على ذوى النظر البعيد ، من أشياخ الموحدين وغيرهم ، أن مصير الدولة الموحدية أضحى يهتز فى كفة القدر ، وأنها وصلت ، بما انتهت إليه من الضعف والتفكك ، إلى مرحلة الاحتضار .

ولما انتهى أبو يحيى ، من تنظيم الشؤون بفاس ، ارتد فى بعض قواته إلى بلاد فازاز ، ليتم إخضاعها ، فافتتحها ، وأخضع بطون زناته النازلة فى تلك المنطقة ، وفرض الجباية عليهم جميعاً ، وأخذ كل نزعة إلى الخروج والعصيان (٢) . ثم سار فى قواته غرباً ، فى المنطقة الممتدة ما بين وادى أبى رقرق ، ووادى أم الربيع ، وكان من الواضح أنه يقصد الزحف إلى سلا ورباط الفتح ، وقد

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٩ ، والبيان المغرب ص ٤٠٨ .

(٢) الذخيرة السنية ص ٨٧ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٥ .

أثارت هذه الحركة جزع البلاط الموحدى ، فأخذ يستعد لمقاومتها بكل ماوسع .
وكان المرتضى ، وهو الشيخ الورع الهادى يعكف خلال ذلك ، على تدبير
ضرباته ، والانتقام من خصومه ، وكان الدور بعد مصرع ابن يونس ، على
أشياخ الخلط ، وكانت الريبة قد اتجهت عقب مصرع الخليفة السعيد ، فى شعب
جبل تلمسان فى سنة ٦٤٦ هـ ، إلى عرب الخلط ، وقوى الظن بأنهم اشتركوا فى
مؤامرة قتله ، وذلك لأنهم تخاذلوا فى القتال أولا ، ثم لما قتل السعيد ، كانوا أول
من بادر إلى نهب محلته ، واستلاب ما فيها ، وسلبوا فوق ذلك أموال أهله
وأقاربه ، وذلك قبل أن يصل بنو عبد الواد ، إلى محلة الخليفة القتيل ، وكان
المرتضى يتوق إلى معاقبة زعمائهم ، على ما ارتكبوه من الخيانة والغدر ، فدبر
كميناً لإهلاكهم ، واحتال فى دعوتهم إلى مراكش ، بمختلف المعاذير ، فلما وصل
معظمهم ، أذن لهم بالدخول إلى القصر ، وكان قد كمن لإهلاكهم ، عدد كبير من
عبيد المحزن والخنذ ، فلما تقدموا إلى داخل الدار ، وأحيط بهم ، قتلوا أشنع قتل ،
وقيل بل قتلوا بالسسم ، فى الطعام الذى قدم لهم ، وكان عدد من قتل من زعماء الخلط
سبعون شيخاً ، ووقع ذلك الحادث الدموى فى سنة ٦٥٢ هـ (١) .

وفى نفس هذا العام ، ثار يعقوب بن محمد بن قيطون ، زعيم بنى جابر ،
وخلع الطاعة ، وكان المرتضى قد أكرمه ، ومنحه إقطاعات واسعة ، فبعث
المرتضى إلى تامسنا ، عسكرياً بقيادة أبى الحسن بن يعلى ، ليتفقد أحوالها ، وليدبر
مع يعقوب بن جرمون شيخ سفيان ، طريقة القبض على ابن قيطون . ودعا
أبو الحسن ومعه ابن جرمون ، ابن قيطون للتفاهم معه ، فلما حضر ، أبرز ظهيرا
بتقديم يعقوب بن جرمون ، على سائر عرب المنطقة ، فثار لذلك ابن قيطون ،
وحاول الانسحاب ، ولكن قبض عليه وعلى وزيره ابن مسلم ، وعاد أبو الحسن
بهما مكبولين إلى مراكش (٢) .

وكان المرتضى ، قد استطاع فى تلك الأثناء ، أن يَمَ أهباته لمحاربة بنى مرين .
وكان بنو مرين ، وعلى رأسهم الأمير أبو يحيى من جهة أخرى ، قد توطد أمرهم
بفاس وأحوازها ، وأطاعتهم سائر القبائل المجاورة ، وعمد أبو يحيى إلى حشد
الحشود ، والاستكثار من العدة والسلاح ، وكان من الواضح أن وقف تقدم

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٩ ، والبيان المغرب ص ٤٠٩

(٢) البيان المغرب ص ٤١٠ .

بنى مرين ، فى قلب المغرب ، أضحي بالنسبة للموحدين مسألة حياة أو موت . ومن ثم فإن المرتضى ، عول على أن يسير بنفسه لقتال بنى مرين ، فقام بأداء الزيارة المأثورة إلى تينملل ، ثم خرج من مراكش فى حشود ضخمة ، من الموحدين والمصامدة والعرب ، وسار أولاً إلى سلا ، ثم غادرها فى حشوده شرقاً صوب فاس ، وكان أبو يحيى قد استعد كذلك فى قواته للقاء الموحدين ، وكان المرتضى بزمع من وراء ذلك الصراع ، أن يسترد فاس وأحوازها ، إذ كان بقاؤها فى أيدي بنى مرين ، يمثل أعظم خطر على كيان الدولة الموحدية . ولما اقتربت القوات الموحدية من فاس ، وقعت بين المرتضى وأبى يحيى ، بعض مراسلات ومراجعات فى سبيل الصلح ، ولكنها لم تفض إلى أية نتيجة . ثم وقع اللقاء بين الفريقين ، عند جبل بهلول أو بنى بهلول ، على مقربة من فاس ، وكانت معركة عنيفة ، انتهت بهزيمة الموحدين ، وتمزيق صفوفهم ، فقتلت منهم جموع عظيمة ، واستولى بنو مرين على محلتهم وعتادهم ، ومؤنهم ودوابهم ، واستولوا بالأخص على أحمال الأموال ، وكانت مقادير طائلة ، وكان أكبر عامل فى تلك الهزيمة الشنيعة ، خيانة العرب ، وتراجعهم عند بدء المعركة . وفر المرتضى فى بعض فلوله ، إلى أزموور ، وهو فى حالة سيئة ، وليث بها ، حتى بعث إليه والى مراكش ، أبى سعيد ابن تيجا ، بما يلزم من ضروب الإسعاف ، وكان وقوع تلك النكبة بالموحدين فى سنة ٦٥٣ (١٢٥٥ م)^(١) .

وكانت هذه ضربة قاصمة ، لقوى الموحدين المادية والمعنوية ، وجنح المرتضى بعد ذلك إلى الدعة والراحة ، وعكف على تشييد القصور لأبنائه ، وأنفق فى ذلك أموالاً طائلة ، وقام بإصلاح جامع على بن يوسف ، وكان إصلاحه من قبل يعتبر عملاً مكروهاً ، فى نظر الموحدين . ويقول لنا ابن عذارى فوق ذلك ، إنه عقد الهدنة والسلم ، مع الأمير أبى يحيى ، وكانت تربطه بالفقيه أبى القاسم العزفى ، صاحب سبتة ، صلات ودية ، بالرغم من خروجه على الموحدين ، ودعوته لأمر إفريقية الحفصى ، وكذلك بأبى الحجاج يوسف بن الأمين صاحب طنجة ، وكان قد انضموا تحت لواء العزفى أولاً ، ثم استبد بحكم طنجة^(٢) .

(١) البيان المغرب ص ٤١١ ، و ٤١٢ ، وروض القرطاس ص ١٩٧ ، وابن خلدون

ج ٦ ص ٢٥٩ وج ٧ ص ١٧٦ .

(٢) البيان المغرب ص ٤١٤ ، و ٤١٥ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٨٦ .

على أن هذا الهدوء النسبي ، الذي بسط ظلاله ، على ما بقي من أقطار الدولة الموحدية ، لم يستمر طويلا ، لأن بني مرين ، لم يكن في نيّهم ، أن يقفوا عند حدود الرقعة الواسعة ، التي انتزعوها من الموحدين ، والتي أوضحت تكون وحدها مملكة ضخمة ، داخل المغرب الأقصى ، وإنما كانت تحذوهم رغبة قوية في انتزاع ما بقي من أراضي المغرب ، والقضاء على الدولة الموحدية بصورة نهائية ، وإقامة مملكتهم الفتية على أنقاضها ، مستغلة دون منازع .

ومن ثم فإنه لم يمض سوى قليل ، على موقعة جبل بهاوله ، حتى نهض بنو مرين لافتتاح قطر جديد ، من أقطار الدولة الموحدية ، ووجهت الضربة في هذه المرة ، إلى سجلماسة ودرعة . وهنا تختلف الرواية في تاريخ هذا الفتح المريني ، ففي رواية أنه وقع في أواخر سنة ٦٥٣ هـ^(١) ، وفي أخرى أنه كان في سنة ٦٥٥ هـ^(٢) . وتفصيل ذلك أن والي سجلماسة الموحدي أبا محمد عبد الحق الجفيسي ، كان يرباط مع جنده في قصبة سجلماسة ، فدبر رجل من زعماء المدينة يسمى أبو يحيى محمد القطراني ، مؤامرة للغدر بهم ، وتسليم المدينة إلى بني مرين ، واتصل القطراني بأبي يحيى وأغراه بفتح سجلماسة ، فبعث إليه أبو يحيى جملة من جنده ، فتحيل القطراني في إدخالهم إلى المدينة ، وهاجم القصبة وقبض على واليها الموحدي ، وبعث به معتقلا إلى الأمير أبي يحيى ، ثم وفد أبو يحيى بنفسه إلى سجلماسة ، ودخلها ، واستولى على ما كان بالقصبة من المال ، وعين إلى جانب القطراني ، واليا مرينيا للمدينة ، ثم استولى على درعة في جنوب سجلماسة ، وعاد إلى فاس . وثار الخليفة المرتضى لما وقع ، وأبى أن يفتدى واليه أبا محمد عبد الحق من الأسر ، لاتهمه إياه بالتقصير والتفريط^(٣) .

وفي نفس الوقت تفاقم الأمر في بلاد السوس ، واشتد أمر علي بن يدر ، المتغلب عليها حسبما تقدم ، فرأى المرتضى أن يبذل محاولة جديدة ، لإخماد هذه الحركة ، فبعث إلى السوس حملة موحدية جديدة ، بقيادة أبي محمد بن أصناج ، فسار إلى تارودانت ونزل بها ، وكان علي بن يدر قد غادرها عندئذ ، إلى حصن تيونوين ، واعتصم به ، فسار ابن أصناج لقتاله ، فخرج إليه ابن يدر

(١) هذه رواية صاحب الذخيرة السنية ص ٨٩ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٦ .

(٢) هذه رواية ابن عذارى في البيان المغرب ص ٤١٦ ، وروض القرطاس ص ١٩٧ .

(٣) البيان المغرب ص ٤١٧ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٦ ، وروض القرطاس ص ١٩٧ .

وهزمه ، وقتل معظم عسكره ، فارتد ابن أصناج في فلوله ، منهزماً إلى مراکش ،
وبقى ابن يدر على سلطانه وطيغانه^(١) :

وأما في سجلماسة ، فإن الأمر لم يقف في شأنها عند ما تقدم . ذلك أن الأمير
أبا يحيى مرض ، وتوفي بفاس في رجب من العام التالى (٦٥٦ هـ) ، ووقع
الخلافة على ارتقاء العرش ، بين ولده عمر وأخيه أبى يوسف يعقوب ، فانتز
القطرانى هذه الفرصة ، واستولى على حكم سجلماسة ، واستطاع الوالى المرىنى
أن يغادر القصبة ، فى أهله وأصحابه ، وبعث القطرانى إلى المرتضى ، يعتذر عما
حدث ، وأنه سوف يقوم بالدعوة الموحدية ، ولكن بشرط أن يبقى عاملاً
بسجلماسة ، مستقلاً بأمرها ، فوافق المرتضى على ذلك ، وبعث إليه بالفقيه
أبى عمرو بن حجاج ، ليكون قاضياً للمدينة ، وبسرية من الجند الروم مع قائدهم ، وزود
القاضى والقائد بأوامر سرية معينة . واستمر القطرانى فى رياسة المدينة حيناً ، وفى
ذات يوم وثب قائد الروم بالقطرانى فقتله ، وكان هذا تنفيذاً لأوامر المرتضى ،
فوقع الهرج بالمدينة ، وبادر القاضى فأعلن للناس أن ما وقع إنما كان تنفيذاً لأمر
الخليفة ، وعهد المرتضى إلى القاضى أبى عمرو بشئون المدينة ، وكان هذا الحادث
دليلاً جديداً على ما كانت تتسم به وسائل المرتضى من شيم النكث والغدر^(٢)

ولما توفى عاهل بنى مرين الأمير أبو يحيى ، تولى ولده عمر بن أبى يحيى
العرش مكانه ، ولكن معظم أشياخ بنى مرين ، لم يكونوا راضين عن ولايته ،
وكانوا يؤيدون بالعكس ولاية عمه الأمير أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق ،
أخى أبى يحيى ، وكان عند وفاة أخيه غائباً برياط تازا ، فأسرع إلى حضرة فاس ،
والتف حوله أكابر المشيخة ، ووقع الخلاف بين عمر وعمه ، واعتصم عمر بالقصبة
وكان أبو يوسف يميل إلى حسم الأمر ، بالبقاء فى رباط تازا ، ولكن ألح عليه أشياخ
بنى مرين ، والتف حوله جمع كبير من الأنصار ، وخرج عمر للقاءه فى أنصاره ،
فى ظاهر فاس ، فخذل عمر وهزمه أنصاره ، وارتد إلى فاس مفلولاً ، وانتهى
الأمر بالصلح بين عمر وعمه ، على أن يرقى أبو يوسف العرش ، وأن يتولى عمر
أمر مكناسة وما إليها ، ودخل أبو يوسف يعقوب ظافراً ، وتولى الملك ، وذلك
فى شهر شوال سنة ٦٥٦ هـ (أواخر ١٢٥٨ م)^(٣) .

(١) البيان المغرب ص ٤١٥ . (٢) البيان المغرب ص ٤١٩ .

(٣) الذخيرة السنينة ص ٩٢ و ٩٧ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٧ ، والبيان المغرب ص ٤٢٠ و ٤٢١ .

لم يبق عندئذ ، تحت سلطان الخلافة الموحدية ، من إمبراطوريتها الشاسعة القديمة ، بعد العاصمة وأحوازاها ، سوى المنطقة الواقعة بين وادي أبي رقراق ووادي أم الربيع ، وفيها سهل تامسنا وثرغرا سلا ورباط الفتح ، فإلى هذه المنطقة ، وإلى هذين الثغرين ، اتجهت أنظار بني مرين . ففي سنة ٦٥٧ هـ ، سار كبير بني مرين يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق ، وهو ابن أخى السلطان أبي يوسف ، متجهاً صوب تامسنا ، مع قوة من الجنود المرينية ، وذلك بحجة ممارسة الصيد والكلا ، ونزل بعين عبولة ، على مقربة من سلا . ويقول لنا صاحب الذخيرة السنية ، إنه قام بهذه الرحلة ، بإيعاز عمه السلطان أبي يوسف^(١) ، ولكن ابن خلدون بالعكس ، يقدم إلينا رواية أخرى ، خلاصتها أن الأمير أبا يحيى ، كان قد افتتح سلا ، من أيدي الموحدين ، فى سنة ٦٤٩ هـ ، واستعمل عليها ابن أخيه ، يعقوب المتقدم ذكره ، ولكن الموحدين عادوا فاستردوا سلا ، فأقام يعقوب مع صحبه ، فى بعض أحوازاها ، يتربص الفرص ، ولما تولى عمه أبو يوسف الملك ، غضب منه لبعض الأمور ، وأخذ يدبر الحيلة فى الاستيلاء على سلا^(٢) . وعلى أى حال فقد دبر يعقوب خطة لافتتاح هذا الثغر الموحدى الهام . وكان والى سلا من قبل المرتضى يومئذ هو أبو عبد الله محمد بن أبي يعلى الكومى ، وكان حينما اقترب يعقوب برجاله من سلا ، قد اتخذ كل أهبة ، ورتب الحراس على أبواب المدينة ، ليلاً ونهاراً ، بيد أن الدفاع عن المدينة كان بالرغم من ذلك ضعيفاً ، ولم يكن الاستيلاء عليها أمراً صعباً . وكان يعقوب بن عبد الله يعرف هذه الحقيقة ، ويقول صاحب الذخيرة السنية ، ويتابعه ابن خلدون ، إن يعقوب استطاع أن يدخل إلى قصبة رباط الفتح بالحيلة ، وأن يخرج منها ابن أبي يعلى ، فسار فاراً بنفسه إلى أزموور ، واستولى يعقوب بذلك على سلا دون قتال^(٣) . ولكن ابن عذارى يقول لنا بالعكس ، إن يعقوب طرق سلا مع رجاله بالليل ، وركبوا السلام على السور ، أمام الباب ، وقتل الحراس أو أسقطوا من عل ، ثم كُسر الباب ، ودخل يعقوب وصحبه إلى المدينة ، ونهبوا دورها ، ووقع الاضطراب ، وفر الناس هنا وهناك ، وفر ابن أبي يعلى من القصبة فى سفينة ، إلى ثغر أزموور ، وملك يعقوب سلا

(١) الذخيرة السنية ص ١٠٢ . (٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٤ و ١٧٨ .

(٣) الذخيرة السنية ص ١٠٢ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٨ .

ورباط الفتح ، وكان ذلك في أوائل سنة ٦٥٨ هـ^(١) .

وماكاد يعقوب بن عبد الله يستقر بسلا ، حتى جاهر بخلع طاعة عمه السلطان أبي يوسف ، والاستقلال بأمره ، وأخذ في الأهبة والاستعداد ، واقتناء السلاح والعدد ، واستدرج شيوخ سلا إلى القصبة ، ونزع سلاحهم ، انتقاء لشركهم ، وكتب إلى ألفونسو العاشر ملك قشتالة ، يرجوه أن يمدّه بمائتين من المرتزقة النصارى ، ليستعين بهم على مقاتلة أعدائه .

وعلى أن هذه المخاطبة لملك قشتالة ، قد أسفرت عن مفاجأة مروعة ، لم يكن يتوقعها أحد . وذلك أن ألفونسو العاشر ، كان منذ بداية حكمه ، يفكر في نقل الحرب الصليبية ، التي اضطرت عصوراً ، في شبه الجزيرة الإسبانية ، إلى إفريقيا ، وكان يشجعه في مشروعه ، البابا إنوسان الرابع ، ومن بعده خلفه البابا إسكندر الرابع ، وكان ألفونسو قد أنشأ في إشبيلية أحواضاً كبيرة لبناء السفن ، لتكون نواة لأسطول الغزو المنشود . فلما وردت عليه مكاتبة الأمير المريني صاحب سلا ، رأى أن ينتهز هذه الفرصة ، وأن يرسل حملة بحرية صغيرة لافتتاح سلا ، وجهازت سفن هذه الحملة في مياه إشبيلية ، ووقف الفقيه العزفي صاحب سبتة ، من عيونه ، على هذه الأهبة ، فبعث النذير إلى سائر ثغور المغرب ، على المحيط ، ينصحبهم بالحذر والاستعداد . وسارت السفن القشتالية مشحونة بالمقاتلة ، حتى رست في مياه سلا ، فاعتقد أهل المدينة أنهم قدموا للمتاجرة ، واعتقد يعقوب بن عبد الله ، أنهم الحند الذين طلب إلى ملك قشتالة إرسالهم لإنجاده ، ولم يخالج أحد شك ، في حقيقة المشروع الغادر ، الذي قدمت من أجله هذه السفن النصرانية . وجمع القشتاليون سفنهم تدريجياً ، في خليج المدينة ، ثم فاجأوها بالهجوم ، ودخلوها بعنف ، وقتلوا كثيراً من أهلها ، وهم دون دفاع ، وسبوا النساء والأطفال ، في مناظر مروعة ، واحتشد جماعة من أهل المدينة لمداغة النصارى ، وقاتلوا بكل ما وصل إلى أيديهم ، من صنوف السلاح ، فلم يغن ذلك شيئاً ، وهلك معظمهم ، وهرع الناس إلى مغادرة المدينة ، في جموع متراصة ، وهلك في الزحام كثير منهم . كل ذلك ويعقوب بن عبد الله متمتع بالقصبة ، لا يستطيع شيئاً ، وهو يرى عاقبة تصرفه الشنيع ، وجمع النصارى السبايا من النساء والأطفال بالجامع ، واغتصبوا النساء والأبكار ، وقتلوا الشيوخ ، وخرّبوا المساجد ، ولم تقف فظائعهم عند

حد . وكان وقوع هذا الاعتداء المروع على ثغر سلا ، في اليوم الثاني من شهر شوال سنة ٦٥٨ هـ (١٠ سبتمبر ١٢٦٠ م)^(١) .

وترامت هذه الأنباء المؤلمة ، إلى السلطان أبي يوسف ، وهو بفاس ، فأهتمه وأزعجته ، فهرع في بعض قواته إلى سلا ، وحاصر النصارى بها ، واجتمعت من الأنحاء القريبة ، طوائف كبيرة من المتطوعة ، وقاتل النصارى من فوق الأسوار ، وتبادل الفريقان الرمي بالنبال والأحجار ، واستمر القتال على هذا النحو بضعة أيام ، حتى اليوم الثالث عشر من شوال ، وقتل عدد من النصارى ، وأيقنوا أنهم لا يستطيعون الصمود ، واضطروا أخيراً إلى مغادرة المدينة ، ومعهم جماعة كبيرة من أسرى المسلمين ، وما نهبوه من المال والمتاع ، واستقلوا سفنهم المرتبطة إلى الشاطئ ، وأقلعوا بها على عجل ، وذلك في اليوم الرابع عشر من شوال . وفي الحال استولى أبو يوسف على سلا ورباط الفتح ، وأمر بإصلاح ما تهدم من سورها الغربي ، وإصلاح جامعها ومساجدها ، وكان يشترك مع كبراء قومه ، في رفع الأحجار ، ابتغاء الأجر .

وأما يعقوب بن عبد الله ، فقد فر من القصبة ، ولحق بحصن علودان من جبال غمارة ، وامتنع به ، فبعث أبو يوسف في أثره ولده الأمير أبا مالك ، في قوة من الجند لمتارلته . وسار النصارى بسفنهم حذاء الشاطئ ، دون أن يتزودوا ، وهم يحاولون الحصول على الماء والطعام ، والمسلمون يردونهم أينما حلوا ، واستنقذ أهل العرائش منهم ثلاثة وخمسين أسيراً ، نظير الماء ، وانفصل بعض النصارى عن جماعتهم ، وحصلوا على الأمان ، والتحقوا بخدمة أبي يوسف ، ودلت أنباء الطلائع المسلمة ، على أن ملك قشتالة ، كان قد جهز حشوداً أخرى ، لإنجاد رجاله ، ومعاونتهم على الاحتفاظ بسلا ، فلما علم بانسحابهم ، قرر معاينة قائدهم خوان غرسيه ، ولكن خوان استطاع الفرار مع نفر من صحبه ، إلى مياه أشبونة ، ولم يعد إلى قاعدته في قادس^(٢) .

وأما أسرى سلا ، الذين حملهم النصارى معهم ، في سفنهم ، فقد بالغت الرواية في تقدير عددهم . وقيل إن ما أنزل منهم في إشبيلية ، بلغ نحو ثلاثة آلاف من الجنسين كباراً وصغاراً ، فافتدى أهل شريش المدجنون ، منهم ثلاثمائة وثمانين ،

(١) الذخيرة السنية ص ١٠٣ ، والبيان المغرب ص ٤٢٤ .

(٢) البيان المغرب ص ٤٢٦ - ٤٢٨ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٨ .

وبعث السلطان أبو يوسف ، في أواسط شهر ذى الحجة من نفس العام ، رسولا خاصا إلى الأندلس ، هو أبو بكر بن يعلى ، ليعمل على اقتداء الأسرى ، فافتدى معظمهم ، ومنهم قاضى سلا . بيد أنه بقي منهم عدد لم يعرف مصيرهم (١) .

وبعث الخليفة المرتضى بهذه المناسبة ، إلى الفقيه العزفى صاحب سبتة ، رسالة مؤرخة في الثالث من ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ ، يزجى إليه الشكر فيها ، على ما قام به من تحذير أهل السواحل ، ويشيد بخلاله وإخلاصه ، ويرجوه أن يستمر ، على التعريف بكل ما يقف عليه ، من خطط العدو تجاه المغرب ، وقد أورد لنا ابن عذارى نص على هذه الرسالة (٢) .

وقد كشف عدوان النصارى على سلا ، عن وجود خطر جديد ، يهدد سلامة المغرب ، لم يكن متوقعا ، ولم يحسب حسابه . ونستطيع القول بأن هذه المحاولة ، من جانب اسبانيا النصرانية ، كانت هى البداية الأولى ، لتلك السلسلة المتوالية من حملات العدوان المنظم ، التى اضطلعت بها اسبانيا النصرانية ، والبرتغال فيما بعد ، ضد شواطئ المغرب الشمالية والغربية ، والى بدأها البرتغاليون بالاستيلاء على ثغر سبتة في سنة ٨١٨ هـ (١٤١٥ م) ثم طنجة في سنة ٨٦٩ هـ (١٤٦٤ م) .

ولبث السلطان أبو يوسف حينما بثغر سلا ، ينظم أمورها ويصلح ما خرب منها ، وكان النصارى قد أحرقوا وخرّبوا وأتلفوا معظمها ، وقدّم على ولايتها أبا عبد الله بن أحمد الفنزارى ، ثم غادرها ، واستولى على بلاد تامسنا ، وخضعت له سائر القبائل المجاورة (٣) .

ولما رأى الخليفة الموحدى - المرتضى بالله - ، أنه لم يبق ثمة أمل في المقاومة ، والكفاح ضد بنى مرين ، بعث إلى السلطان أبى يوسف هدية سنوية ، ومعها رسالة من أشياخ الموحدين ، وسائر الفقهاء والصالحاء ، يلتمسون إليه الصلح والمودعة ، فاستجاب السلطان لرغبتهم في عقد السلم ، وجعل وادى أم الربيع ، حدا بينه وبين ماتبقى من مملكة الموحدين (٤) .

وكان من ذبول ثورة يعقوب بن عبد الله بسلا ، أن حدا حذوه أبناء عمه أولاد إدريس ، وهم أبناء أخى السلطان ، فثاروا بقصر كتامة ، تضامنا مع يعقوب ، واجتمعوا تحت راية كبيرهم محمد بن إدريس ، والتف حولهم جمع

(٢) البيان المغرب ص ٤٢٥ .

(٤) الذخيرة السنية ص ١٠٤ .

(١) البيان المغرب ص ٤٢٨ .

(٣) الذخيرة السنية ص ١٠٤ .

كبير من القرابة والصحب ، واعتصموا بـجبال غمارة ، فبعث السلطان حملة ، لقتالهم ، ثم استنزلهم واسترضاهم ، وعقد لأخيهم عامر بن إدريس ، على جيش من نحو ثلاثة آلاف مقاتل ، من بني مرين ومن المطوعة . وكانت رسائل ابن الأحمر صاحب غرناطة ، تترى منذ حين على أبي يوسف ، طلبا للعون والنصرة ، والمشاركة في الجهاد في سبيل الله ، فبعث أبو يوسف ذلك الجيش الصغير ، إلى الجهاد بالأندلس ، فعبروا إلى شبه الجزيرة ، واستقبلهم ابن الأحمر بالضيافات والكرامات ، وساروا أولا إلى مالقة ، فاستقروا بها بقية سنة ستين . وفي العام التالي سنة ٦٦١ هـ ، سار أولئك المجاهدون إلى أرض الفرنتيرة ، وقصدوا إلى مدينة شريش ، وكانت قد دعت بطاعة ابن الأحمر ، ولكن النصاري احتلوها ، فانزعجها المرينيون من أيدي النصاري واحتلوها ، ولكن لمدى قصير فقط . بيد أن عبور هذه الكتائب المرينية القليلة ، إلى شبه الجزيرة ، كان فاتحة لهذا التعاون القوى المثمر ، الذي انعقد بين بني الأحمر ملوك غرناطة ، وبين بني مرين ، ضد اسبانيا النصرانية ، واستمر عصراً يشد من أزر مملكة غرناطة ، ويمكنها من الصمود ضد أعدائها (١) .

أما يعقوب بن عبد الله ، فقد استمر على ثورته وعصيانه ، معتمدا بمختلف النواحي ، إلى أن قتله قائد المرينيين طلحة بن علي ، بناحية أرض عبولة ، على مقربة من ثغر سلا ، في سنة ٦٦٨ هـ ، فلقى بذلك جزاءه وانتهى أمره (٢) .

وكان من حوادث هذا العام أيضاً - ٦٥٩ هـ - أن بعث ابن الأحمر صاحب غرناطة سفنه لغزو سبتة ، لسوء تفاهم وقع بينه وبين صاحبها العزفي ، فلقيتها سفن سبتة ، بقيادة الرنداحي ، وهزم أسطول الأندلس وقتل قائده ظافر ، وسمى هذا العام بعام ظافر (٣) .

في خلال هذه الفترة المليئة بالحوادث ، من تاريخ بني مرين ، والتي انتزعوا فيها رقاعاً وثغوراً جديدة هامة ، من أشلاء الدولة الموحدية ، وأخذ نجمهم يتألق في قلب المغرب الأقصى ، كان الخليفة الموحدني المرتضى لأمر الله ، عاكفاً في

(١) الذخيرة السنية ص ١١٢ ، والبيان المغرب ص ٤٣٩ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٩ . (٣) البيان المغرب ص ٤٣١ .

حاضرتة ، التي قصت أطرافها ، على معالجة الصغائر من الأمور ، ومساجلة طوائف العرب ومصانعتها ، وكان قد قدم يعقوب بن جرمون على عرب سفيان حسبما ذكرنا من قبل ، فأمر يعقوب لأمر ما بقتل ابن أخيه كانون . فثار عليه إخوة القتل ، وتربصوا به وقتلوه ، ورحلوا إلى بلاد بني مرين ، ودخلوا في طاعتهم . فلما وقف المرتضى على ذلك ، قدم على سفيان عبد الرحمن بن يعقوب ، ولكنه لم يكن عاقلاً حريصاً كأبيه ، ففي ذات يوم قام بنهب قوافل التجار المارة في وادي تانسيفت ، على مقربة من مراکش ، ولما خشى عواقب فعلته ، جاهر بنخلع طاعة الموحدين ، وفر إلى أرض بني مرين ، والتجأ إلى حمايتهم ، فقدم المرتضى عندئذ على سفيان ، مسعود بن كانون ، وكان حازماً عاقلاً فاستقامت على يده الأمور . ووفد عندئذ على مراکش عواج بن هلال ، من زعماء الخلط ، ناكثاً لطاعة بني مرين ، وكان معه عسكري كبير من قومه ، فأكرم المرتضى وفادتهم ، وأجزل صلاتهم ، ولما علم بذلك عبد الرحمن بن يعقوب ، بعث إلى الخليفة في طلب الصفح والأمان ، فأجيب إلى طلبه ، ووفد هو أيضاً إلى مراکش ، في جمع كبير من قومه ، فاستقبله الخليفة بالترحاب ، ثم دبر الحيلة في التخلص منه ، جرياً على طريقته المأثورة ، في إزهاق من يخرج على طاعته ، فاستدرج ذات يوم مع وزرائه ، وقتلوا جميعاً ، وعلقت رؤوسهم على باب دُكّاله ، وبقى مسعود بن كانون أميراً على سفيان . وقدم اسماعيل بن يعقوب بن قيطون ، أميراً على بني جابر ، وعلى بن أبي علي ، أميراً على عرب الخلط . أما عواج بن هلال فقد وشى به وأعدم^(١) .

على أن اشتغال المرتضى ، بأمر أولئك الأعراب ، لم ينسه المسألة الرئيسية ، وهي الكفاح ضد بني مرين . ولم يكن ذلك الصلح الذي عقده بينه وبين أبي يوسف ، عقب سقوط سلا ورباط الفتح ، سوى هدنة مؤقتة ، وسلام زائف ، ولم يكن أبو يوسف من جانبه ، ينوى التوقف عن مطاردة الموحدين ، حتى يظفر بالقضاء على دولتهم بصورة نهائية . ومن ثم فإنه لم يمض سوى قليل ، حتى خرج أبو يوسف من حضرته فاس ، إلى أرض تامسنا ، بقصد الرعي والكلا ، وتوطيد نفوذه بين القبائل الضاربة في تلك الأنحاء ، مثل برغواطة وغيرها . وكان المرتضى من جانبه يتأهب لمحاولة جديدة لقتال بني مرين وصد تقدمهم . فحشد جيشاً مختاراً

من الموحدين والعرب والأغزاز والروم (النصارى المرتزقة) ، وعهد بقيادته إلى أبي زكريا يحيى بن وانودين . فسار هذا الجيش إلى وادى أم الربيع شمالى مراکش ، وكان السلطان أبو يوسف قد استعد هنالك للقاء الموحدين أتم استعداد . ووقع اللقاء بين الجيشين ، عند مكان من الوادى (النهر) تبدو فيه كدى ، أو جزائر صغيرة ، ينحسر عنها الماء وكأنها أرجل ، ومن ثم فقد سميت الواقعة ، التى نشبت هنالك بين الجيشين ، موقعة « أم الرجلين » . وكانت موقعة عنيفة انتهت بوقوع الهزيمة على الموحدين ، وتمزيق صفوفهم ، ومقتل أعدد الجمل منهم . فولوا الأدبار واستولى بنو مرين على محلتهم وسائر عتادهم ومتاعهم . وكان ذلك فى سنة ٥٦٠هـ (١٢٦٢ م) . وارتد ابن وانودين فى فلوله إلى مراکش ، واعتذر للخليفة بأن الهزيمة ، ترجع إلى تخاذل عرب بنى جابر وغدرهم . وكان للهزيمة أعمق وقع فى العاصمة الموحدية وخشى الناس أن يزحف المريزيون إليها ، فأغلقت بعض أبوابها ، ثم ساد الهدوء بعد ذلك ، بعد أن جاءت الأخبار بانصراف بنى مرين إلى بلادهم (١) .

وفى نفس هذا العام ، خرجت عقب موقعة « أم الرجلين » ، حملة موحدية جديدة ، إلى بلاد السوس ، بقيادة محمد بن على بن أصلماط ، وذلك لإخماد ثورة على بن يدر ، ولكنها ما كادت تشبك مع قوات الثائر ، حتى هزم الموحدون ، وقتل قائدهم ابن أصلماط ، فكان لتلك الكسرة الجديدة ، أسوأ صدى . وعندئذ قدم المرتضى على بلاد السوس أبا زيد بن ينجيت أحد وزرائه ، وبعث معه قائد الروم (النصارى المرتزقة) المسمى ذا اللب (دون لوبى) فى قوة من جنده ، واضطربت الحرب بين الموحدين وبين على بن يدر مرة أخرى ، فصمد على ابن يدر ، وافترق الجيشان دون حسم ، وأبدى دون لوبى تهاونا وتخاذلا ، وكان على غير تفاهم مع ابن ينجيت ، فكتب ابن ينجيت بذلك إلى الخليفة ، فاستدعاه وأمر سراً بقتله وزملائه ، فقتلوا فى طريق العودة على يد أبى زيد بن زكريا الجلميوى (٢) . وكان السلطان أبو يوسف يعتزم بعد موقعة (أم الرجلين) ، أن يسير أخيراً إلى مراکش ، لافتتاحها والقضاء على الدولة الموحدية المحتضرة ،

(١) الذخيرة السنية ص ١٠٥ ، وهو يضع تاريخ الموقعة فى سنة ٦٥٩ هـ ، والبيان المغرب ص ٤٣١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٥٩ وج ٧ ص ١٧٩ ، وكلاهما يضع تاريخها فى سنة ٦٦٠ هـ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٠ ، والبيان المغرب ص ٤٣٦ .

ولكن أخره عن ذلك حادث لم يكن في الحسبان . وذلك أن أبناء أخيه الأمير أبي يحيى وهم أبو مظهر وأبوسالم وأبو حديد ، ساروا إلى طنجة في ثلاثمائة فارس من بني مرين وغيرهم ، ونزلوا بها ، فأكرم صاحبها ابن الأمين وفادتهم ، ولكنهم غدروا به وقتلوه ، فثار لذلك رجال ابن الأمين ، وقتلوا من بالقصر من بني مرين واستدرجوا من كان منهم بالمدينة إلى القصبة ، وقتلوهم تباعا ، ووقع المهرج بالمدينة ، وخشى أهلها من انتقام بني مرين ، فخطبوا الفقيه العزفي صاحب سبتة ، فبعث إليهم بسفنه وعلى رأسها القائد الرنداحي ، فاستولى على طنجة ، وقبض على أولاد ابن الأمين وصحبه ، واستاقهم إلى سبتة ، وولى العزفي على طنجة واليا من قبله هو ابن حمدان . ولما وقف الأمير أبو يوسف على ما حدث من مقتل قرابته وفرسانه ، وحماية العزفي لأهل طنجة ، سار في بعض قواته إلى سبتة ، فحاصرها وقتا ، وقتله أهلها من فوق السور ، ولم يستطع أن ينال منها مأربا (١) (٦٦٢ هـ) .

— ٧ —

وهنا أزفت الخطوة الحاسمة ، واعتزم أبو يوسف أن يقوم بضربته الأخيرة ، بالسير إلى مراکش ، فسار في قواته وعبر وادي أم الربيع ، واستمر في تقدمه ، حتى نزل بجبل إيجليز ، على مقربة من العاصمة الموحدية ، وتقدمت عساكر الموحدين لصدده ، ونشبت عدة معارك محلية ، كانت سجلا بين الفريقين ، وقتل ولد أبي يوسف الأمير عبد الله ، في إحدى هذه المعارك ، وكانوا يسمونه برطانهم « العجوب » أو « العجب » ، وذلك لفائق جماله ، وفروسته وشجاعته ، وعلو همته . فوقف القتال ، وساد الحزن والوجوم في الحملة المرينية ، وبعث المرتضى رسولا خاصاً إلى أبي يوسف ، يعزيه في فقد ولده ، فتأثر أبو يوسف لذلك أيما تأثر ، ووافقه رسل المرتضى على الارتحال ، على مال معلوم ، يدفع إليه كل عام . وتضع الرواية تاريخ هذه الحملة في سنة إحدى وستين أو اثنتين وستين وهو الأرجح (٢) .

بيد أنه وقع حادث جديد ، أذكى من عزم أبي يوسف ، ومهد له السبيل لتنفيذ مشروعه . وذلك أن السيد أبا العلاء إدريس بن السيد عبد الله بن السيد

(١) البيان المغرب ص ٤٣٩ و ٤٤٠ .

(٢) البيان المغرب ص ٤٤٠ ، والذخيرة السنية ص ١٠٨ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٧٩ .

أبي حفص بن الخليفة عبد المؤمن ، وهو كما يبدو من نسبه ، من أبناء عمومة المرتضى ، ويعرف بالأخص بأبي دبوس لأنه كان وقت وجوده بالأندلس ، يحمل الدبوس باستمرار فشهرته^(١) ، كان السيد أبو العلاء هذا أو أبو دبوس ، ناقما على المرتضى ، لأمر تختلف في شأنها الرواية ، فمن ذلك ما يقوله روض القرطاس من أنه كان يخشى أن يقتله المرتضى ، لوشاية رفعت إليه في حقه^(٢) ، وما يقوله لنا ابن خلدون من أن أبادبوس ، كان من قادة الجيش الموحدى ، في موقعة « أم الرجلين » ، فلما وقعت الهزيمة على الموحدين ، سعى بعض خصومه ، في حقه لدى الخليفة ، فشرع بهذه السعاية ، وخشى سطوة المرتضى . ويزيد الأمر إيضاحا ما يقوله صاحب الذخيرة السنية ، من أن السعاية في حق أبي دبوس للمرتضى ، كانت تلخص في أنه يكاتب بني مرين ويصانعهم ، وأنه يفكر في القيام ضد المرتضى ، ويعتمد في ذلك على محبة الناس له لشجاعته^(٣) . وأخيراً يقول لنا ابن عذارى ، إن نقمة أبي دبوس على المرتضى ، كانت ترجع إلى « اهتمام جانبه في أحواله » . وهكذا اضطرب الجوبين الخليفة ، وبين ابن عمه ، وشعر أبو دبوس ، أن حياته أصبحت في خطر ، ففر من القصبة ، مع ابن عمه السيد أبي موسى ، وذلك في المحرم سنة ٥٦٦٣ هـ ، وقصد توارا إلى فاس ، ملتجئاً إلى السلطان أبي يوسف . فلما وقف المرتضى على ما حدث أمر بالقبض على أولاد السيدين الفارين ، والتحوط على دورهما ، ومطاردة كل من يشبه في اتصاله بهما . وسأل أبو دبوس أبا يوسف العون والنصرة ، وعرض عليه مشروعه ، في أن يعينه بقوة من بني مرين ، وما يلزم من النفقة ، لافتتاح مراكش وأحوازها ، وأنه يتمتع في ذلك بتأييد معظم الموحدين والكافة ، وأن يكون هذا الفتح مشتركاً ، ومناصفة بينهما ، فوافق أبو يوسف على مشروعه ، وأمدّه بجيش من بني مرين ، قوامه ألف فارس أو ثلاثة أو خمسة آلاف وفقاً لأقوال أخرى ، وزوده بالخيول والعتاد والسلاح والمال ، وبالكاتب اللازمة ، لحث زعماء العرب والقبائل ، الذين في طريقه ، للنهوض إلى معاونته . وخرج أبو دبوس في حشوده من فاس ، في شهر ذى القعدة سنة ٥٦٦٣ هـ (أغسطس ١٢٥٦ م) ، وسار أولاً إلى مكناسة ،

(١) اللؤلؤ الموشية ص ١٢٧ ، والبيان المغرب ص ٤٥٤ .

(٢) روض القرطاس ص ١٧٤ .

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٩ ، والذخيرة السنية ص ١٢٣ .

ثم إلى المعدن ثم إلى تادلا ، ثم سار إلى هسكورة ، في جنوب شرقى مراكش ، فنزل بها ، على زعيمها مسعود بن جلداسن ، ولبت هنالك مدى حين^(١) .

وتوافد على أبي دبوس ، خلال إقامته بجبال هسكورة ، كثير من الأنصار من كل صوب ، وأطاعته قبائل هزرجة ، وسائر بطون هسكورة ، ووفد عليه كثير من الموحدين ، والجند الراغبين في خدمته ، فقوى أمره بالجبل ، وتوجس المرتضى لما بلغه من ذلك ، وقبض على مسعود بن كانون شيخ سفيان ، وزجه إلى السجن ، وقبض كذلك على شيخ بنى جابر ، وقائد الروم غربية ، وذلك لشبهة تواطئهم مع أبي العلاء . على أنه لم يفعل شيئاً ، للتحوط ضد الهجوم المنتظر ، بل لقد بعث بعسكره في تلك الآونة الدقيقة ، لقتال حاحة ورجراجة ، والظاهر أن ذلك كان بتحريض الوزراء ، الضالعين مع أبي دبوس ، وذلك لكي تخلو العاصمة ، من أسباب الدفاع . وكان من جراء مطاردة المرتضى للزعماء ، والقبض عليهم ، أن هرع كثير من جند سفيان وبنى جابر ، وكذلك فر كثير من الجند الروم ، مع قائدهم زنار ، وانضموا إلى قوات أبي دبوس .

ولما وقف أبو دبوس ، من أنصاره في مراكش على مجرى الحوادث ، وعلم أن العاصمة أضحت بلا دفاع ، وأنه من جهة أخرى قد استكمل أهباته ، وكثرت حشوده وعساكره ، عول على تحقيق مشروعه ، في انتزاع العاصمة الموحدية ، والانتشاح بثوب الخلافة . فسار في قواته صوب أغمات ، فخرج إليه واليها أبو يزيد ابن ينجيت ، في جند الموحدين ، لصدده عن أغمات ، فهاجتهم فرسان أبي دبوس ، فهزموا شرهزيمة ، وقتل ابن ينجيت وجنده ، وسار أبو دبوس بعد ذلك إلى مراكش ، بعد أن تحقق من أخبار أنصاره وعيونه في العاصمة ، أن الفرصة قد أضحت مواتية ، وتقدمه عرب سفيان الموالين له ، حتى وصلوا إلى باب الشريعة ، فسرى الاضطراب إلى المدينة ، كل ذلك والمرتضى صامت جامد ، إلى أن قرر أخيراً مواجهة الموقف ، وبعث رجاله فتفقدوا الأسوار فلم يجدوا بها حراسة ولا حراسا ، وكان الوقت قد فات لاتخاذ أى إجراء مجدى ، وصعد بعض رجال هسكورة إلى السور ، وهبطوا إلى الداخل ، وفتحوا باب الصالحة ، الواقع في جنوبي المدينة ، وكان أبو دبوس قد وصل إليها في حشوده ، ووقف المرتضى

(١) الذخيرة السنية ص ١٢٣ و ١٢٤ ، وروض القرطاس ص ١٧٤ ، ابن خلدون ج ٧

ص ١٧٩ ، والبيان المغرب ص ٤٤١ .

على ما تقدم ، وشهد بنفسه اجتماع الجند القادمين بين الأبواب ، وسمع قرع الطبول ، وأدرك أنه لم يبق أمل في المقاومة ، فقرر الفرار ، وأخذ في الأبهة له . وقرر أبو دبوس من جانبه دخول المدينة ، فدخلها من باب الصالحة أو باب الكحل ، وذلك في ضحى يوم السبت الثانى والعشرين من المحرم سنة ٦٦٥ هـ (أكتوبر سنة ١٢٦٦م) ، ولكنه لم يستطع دخول القسبة حتى العصر ، حينما أيقن بفرار المرتضى ، وخلو القصر من عاهله ، ودخل رجال هسكورة إلى المدينة ، وانقضوا على القيسارية ، ونهبوها وأحرقوها ، ونهبوا الدروعاثوا فيها^(١) .

أما المرتضى فإنه فر من القصر في عصر ذلك اليوم ، وخرج من باب النحل ، ومعه اثنان من وزرائه وبعض أولاده ، وقصد إلى الجبل ، صوب منازل كيك . ولكنه لم يجد بينهم نصيراً يلتجئ إليه ، وألنى معظمهم بالعكس ، قد انضم إلى جانب خصمه ، فسار مع أولاده إلى مدينة أزموور ، وكان واليها عبد العزيز ابن عطوش صهره ، وكان قد افتداه من أسر بنى مرين بمال كثير ، ولكنه لم يستطع دخول المدينة ، لأن واليها الغادر ، كان قد بعث ببيعته إلى أبى دبوس ، ولحق المرتضى وأولاده ، إلى غار على شاطئ البحر ، حتى يظفر بمثوى أمين . وكان أبو دبوس منذ دخل القصر ، قد أرسل في أثره جماعة من الخيل والرجال ، فطارده حتى أزموور ، وظفروا به ، وكبله الوالى هو وأولاده ، في انتظار لإرسالهم إلى أبى دبوس^(٢) .

وهكذا استولى أبو العلاء لإدريس ، أبو دبوس ، على العاصمة الموحدية ، وبويع بالخلافة بإجماع المنصور ، وبايعه كافة الموحدين ، والأشياخ والوزراء والقضاة ، وذلك في اليوم التالى لدخوله المدينة ، يوم الأحد الثالث والعشرين من المحرم سنة ٦٦٥ هـ ، وتلقب بالوائى بالله . وكان هذا الأمير الموحدى ، الذى شاء القدر ، أن تنهى على يديه الدولة الموحدية ، حسبما تصفه الرواية ، داهية شجاعا ، وافر الفروسة ، حازما مقداما فى الأمور ، وكانت أمه أم ولد رومية اسمها شمس الضحى . وكان أبيض اللون أشقر الشعر واللحية ، أزرق العينين ، طويل القامة ، كبير اللحية ، مهيب الطلعة^(٣) .

(١) البيان المغرب ص ٤٤٤ - ٤٤٦ ، والذخيرة السنية ص ١٢٥ ، وروض القرطاس ص ١٧٥ ، وابن خلدون ج ٧ ص ١٨٠ . (٢) البيان المغرب ص ٤٤٨ و ٤٤٩ . (٣) روض القرطاس ص ١٧٤ والبيان المغرب ص ٤٥٤ .

ووزر للخليفة الجديد ، السيد أبو زيد عبد الرحمن بن السيد أبي عمران ، وأخوه السيد أبو موسى عمران بن أبي عمران ، وكتب له أبو الحسن الرعيني ، وأبو عبد الله التلمساني ، وهما من كتاب سلفه .

وما كاد الواثق بالله يستقر بالحضرة ، حتى أجمع الناس على طاعته ، وتوافدوا على الحضرة ، من كل مكان ، ورأى اجتذابا لعطف الشعب وتأيينه ، أن يرفع المغارم والكلف عن الناس ، سواء في الحواضر أو البوادي ، وأن يقتصر على الفروض الشرعية ، التي جرى عليها العمل في بداية الدولة ، وأمر بالعتق عن المجرمين . ولكن كانت تنقصه الموارد والأموال ، ولم يجد شيئا منها بالقصر أو بيت المال ، فكتب وزيره السيد أبو موسى عمران عن لسانه ، إلى الخليفة المعتقل — المرتضى — كتابا ، يسأله عن مصير الأموال التي كانت بيده ، وأن يعرفه بمكان إيداعها ، إذ هي أموال المسلمين ، وأنه إن فعل « شمله عفو أمير المؤمنين » فكتب إليه المرتضى بخطه ، يؤكد أنه لا يعرف أي مستودع للمال ، وأنه لم يودع ولم يدفن شيئا ، وأن المال كان كثيرا ، وقت وصول المريني ، ولكنه نفذ بعد ذلك ، ثم يقسم له على صحة كلامه ويناشده أن يحقن دمه ، ويبقى على حياته ، ويسترحمه ويدعوه له ، في عبارات مؤثرة (١) . فلما وقف الواثق بالله على كتابه ، تأثر لمحتته ، وبعث السيد أبا موسى عمران ، مع أبي سرحان بن كانون ، وجماعة من سفیان ، للقيام باستقدام المرتضى ، واستحضاره إليه . ولكن حدث بعد مسيرهم ، أن نصبح السيد أبو زيد إلى الواثق ، بعدم الإبقاء على المرتضى ، وحذره مما قد يترتب على مقدمه ، من التأثير في موقف الجند والرعية ، فبعث الواثق براءة بخطه ، إلى السيد أبي موسى ، وحملها إليه عمر بن أصلط ، تتضمن وجوب قتل المرتضى ، في أول مكان يلتقي به فيه . فالتقى به في موضع يسمى « فرزغون » من أرض دكالة ، وكان السيد أبو موسى ، قد وصل إلى هذا المكان ، ومعه المرتضى وأولاده ، وهم في الأصفاد على الدواب ، فلما وقف على أمر الخليفة الواثق ، أخذ المرتضى جانبا ، وأنزله عن دابته ، وأعدم قتلا بالسيف ، ودفن حيث قتل ، وكان مصرعه في يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من صفر سنة ٦٦٥ هـ (٢٢ نوفمبر سنة ١٢٦٦م) (٢)

(١) نقل إلينا صاحب البيان المغرب نص كتاب أبي موسى إلى المرتضى ، ونص رد المرتضى عليه ص ٤٤٩ و ٤٥٠ .

(٢) البيان المغرب ص ٤٥٠ و ٤٥١ .

وهكذا هلك الخليفة المرتضى بالله ، بعد أن تولى الخلافة ، زهاء تسعة عشر عاماً ، وهى فترة طويلة ، لم تتح لخليفة موحدى آخر ، من بعد عبدالمؤمن وولده أبى يعقوب يوسف ، وكانت فترة حاسمة فى تاريخ الدولة الموحدية . ففى خلالها تم تفكك الإمبراطورية الموحدية الشاسعة ، وأخذت أشلاؤها المقتطعة ، تسقط تباعا فى أيدي خصومها ، فانفصلت سبتة وطنجة ، وقامت فى كل منهما حكومة مستقلة ، ثم توالى استيلاء بنى مرين ، بعد انتزاعهم لرباط تازا ، على حضرة فاس ، ثم سجلماسة ودرعة ، ثم على سلا ورباط الفتح ، وقامت ببلاد السوس ثورة وحكومة مستقلة . وهكذا فقدت الإمبراطورية الموحدية ، فى عصر المرتضى سائر أقطارها وحواضرها الهامة ، ولم يبق منها بيد الخلافة الموحدية ، سوى حضرة مراكش ، وورقة تمتد بين وادى أم الربيع ووادى تانسيفت ، حتى ثغر أزموور ، ولقد حاول المرتضى غير مرة ، أن يكافح وأن يصد بنى مرين ، وقد خاض أكثر من موقعة ، ولكنه لم يبد فى أية مرة ، من صدق العزم والجلد ، ما كان يبديه أسلافه ، فى الدفاع عن تراثهم وعن أراضيهم ، وكان أكثر اهتماما بالدعة والاستقرار ، وحياسة الدسائس ، والبطش بخصومه بأساليبه الغادرة ، التى جرى عليها طوال حكمه ، ولم يكن للمرتضى خلال أومناقب بارزة ، يمكن أن يشيد بها المؤرخ ، ولم يكن مائذكره الرواية عن علمه وورعه وزهده ، سوى ستار ، يحجب ما يضطرم داخل نفسه ، من مشاعر الحقد والضغن ، وشهوة البطش والغدر .

ووزر المرتضى رجال غير لامعين ، مثل أبى محمد بن يونس ، وأبى عبدالله محمد الحنفيسى ، وأبى زيد بن عزوز ، وأخيه السيد أبى اسحق ، وأبى محمد بن أصناج ، وأبى يوسف بن تيجا الجدميوى ، وأبى موسى بن عزوز الهنتاقى ، وغيرهم ، وقد صاهر المرتضى هذين الوزيرين الأخيرين ، وزوج كل منهما ابنة من بناته . وكتب للمرتضى أبو الحسن الرعنى ، وأبو عبد الله التلمسانى ، وكلاهما من كتاب العصر البلغاء^(١) .

وكان الخليفة المرتضى فقيها عالما ، وأديبا شاعراً . ويقول لنا ابن عذارى إنه قد وقف على مجلد من شعره ونثره ، بيد أن شعره كان ضعيفاً ، ثم يورد لنا شيئاً من نظمه . فمن ذلك قوله من قصيدة نظمها فى شهر ربيع :

(١) البيان المغرب ص ٣٨٩ .

وافى ربيع قد تعطر نفحه أذكى من المسك العتيق نسيا
بولادة المختار أحمد قد بدا يزهو به فخرا وحاز عظيما
وقوله فى معنى الزهد :

ولما مضى العمر إلا الأقل وحن لروحي فراق الجسد
دعوت إلآهى مستعظفا ليصلح منى ما قد فسد

وكان شغوفاً بالكتب والتصانيف ، وكان ممن يتمتع بعطفه ورعايته ، من علماء عصره ، الفقيه أبو محمد ابن القطان ، وقد ألف له جملة من الكتب ، منها كتاب « نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان » وهو الذى انتفعنا به ، وأشرنا إليه فيما تقدم ، فى غير موطن . وكتاب « شفاء الغلل فى أخبار الأنبياء والرسل » وكتاب « الأحكام لبيان آياته عليه السلام » وكتاب « المناجاة » وكتاب « المسموعات » وفيه قصائد مختارة فى فضائل المولد النبوى ، وشهور رجب وشعبان ورمضان ، وغير ذلك ^(١) . وقد أشاد ابن القطان فى كتابه « نظم الجمان » بذكر المرتضى ومديحه ، مما يدل على أنه كان متمتعاً بسابغ رعايته وجزيل صلاته ^(٢) .

وتصف الرواية المرتضى ، بأنه كان معتدل القامة ، ساطع البياض ، على الأنف ، أسيل الخد ، أشيب ، لا يخضب بخناء أو غيرها ^(٣) .

أما أولاد الخليفة المرتضى ، فقد زجههم أبو دبوس إلى السجن ، فلبثوا معتقلين فيه طوال مدته ، حتى أطلق سراحهم الأمير أبو يوسف المربى ، حينما دخل مراكش فى أوائل سنة ٥٦٨ هـ ، إلا كبيرهم محمد ، فكان قد قتل فى سجنه بأمر أبى دبوس . ولما أطلق سراحهم ، غادروا المغرب وعبروا إلى الأندلس ، والتجأوا إلى حامية ألفونسو العاشر ملك قشتالة ، وعاشوا بإشبيلية تحت كنفه أعواما طويلة ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى غرناطة ، وأقاموا بها تحت رعاية ملكها ابن الأحمر ، وأطلق لهم ملك غرناطة ، مايكفيهم من الأرزاق الشهرية . ويقول ابن عذارى إنهم كانوا بغرناطة حتى هذا الوقت الذى كتب فيه قصتهم . ويزيد على ذلك أن أخاهم أبى زيد ، غادر الأندلس فى سنة ٦٨٤ هـ ، وعبر إلى المغرب وسار إلى السوس راكبا على حمارة ، وسمته العامة من أجل ذلك بأبى حمارة ،

(١) البيان المغرب ص ٤٥٢ و ٤٥٣ .

(٢) كتاب « نظم الجمان » المخطوط السابق ذكره لوحة ٦٧ .

(٣) البيان المغرب ص ٣٨٩ .

وأنه نزل بجبل سكسا وعاش هنالك ، وهو يرتزق من النسخ ، وأنه كان مايزال بقيد الحياة ، هو وأخوه محمد المقيم بغرناطة ، حتى الوقت الذى كتب فيه ابن عذارى هذه السطور ، وهو عام اثنى عشر وسبعمائة^(١) .

هذا ، وتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، قصة أخرى عن أخ لأبى دبوس ، آخر الخلفاء الموحدين ، هو السيد أبو زيد بن السيد عبد الله ، حفيد الخليفة عبد المؤمن ، خلاصتها أن هذا السيد ، أو السويد حسبما تنعته الرواية ، كان مقبياً بالأندلس ، وكان قد لجأ إلى ملك قشتالة ألفونسو العاشر ، وعاش تحت رعايته بمدينة إشبيلية . وفى أواخر سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) ، أعلن هذا السويد اعتناقه لدين النصرانية ، فى حفل عام أقيم لهذا الغرض ، فقام ملك قشتالة بإحلق لحيته بيده ، وكساه حلة ملوكية ، وعندئذ صعد السويد الموحدى ، إلى كرسى عال يشرف منه على الناس ، ثم قال : « أشهدكم يا من حضر من المسلمين والنصارى واليهود ، أننى قدمت على دين النصرانية منذ أربعين سنة ، وكنت أكتمه ، وأنا الآن قد أبحت وأظهرته ، وأن دين المسيح بن مريم ، هو الدين القديم الأزل » ، ثم تحدث ملك قشتالة ، فأثنى على السويد وهنأه باعتناقه النصرانية . على أن هذا السويد المنتصر لم يعيش طويلاً بعد تنصره ، فقد توفى بإشبيلية بعد ذلك بأربعة أشهر فقط ، وذلك فى أوائل سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢ م)^(٢) .

ولما لتقف قليلاً ، عند هذه الظاهرة الأليمة ، التى تكررت بين بعض السادة من بنى عبد المؤمن ، وهى إقبالهم على اعتناق النصرانية ، وخروجهم بهذه الطريقة المثيرة ، على دين آبائهم وأجدادهم العريق ، الذين جاهدوا فى سبيل إعزازه أيما جهاد ، وعلى إمامتهم الموحدية ، ومقام خلافتهم العظيمة . وليس من شك فى أن هذه الردة ، التى تكررت على يد أبى محمد عبد الله الياسى ، وأخيه السيد أبى زيد وإلى بلنسية ، ثم على يد هذا السويد أبى زيد ، لم تكن ترجع إلى بواعث تتعلق بالإيمان أو العقيدة ، وإنما كانت ترجع إلى بواعث مادية ودنيوية ، وذلك حسبما تدل به بالأخص حالة الياسى وأخيه السيد أبى زيد . ولا ريب أن فى هذه الصفحة المولمة ما يصدع من هيبة الخلافة الموحدية ، ومن عظمة تاريخها .

(١) البيان المغرب ص ٤٥٤ . وهذه السطور تكشف لنا لأول مرة ، عن جانب من حياة المؤرخ ابن عذارى ، والعصر الذى عاش فيه ، وقد امتد حسبما ينبئنا بنفسه ، إلى ما بعد سنة ٧١٢ هـ ، ومن ثم فقد عاصر المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الموحدية ، وشطراً كبيراً من حياة الدولة المرينية فى مراحلها الأولى .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٠٦ .

الفصل الرابع

نهاية الدولة الموحدية

وعوامل تفككها وسقوطها

مبايعة أبي العلاء إدريس الوائقي . الوحشة بينه وبين زعيم هسكورة . خروج الوائقي في قواته . تصرفاته ومحاولاته لدى هسكورة . مخاطبته ووعوده للأمير أبي يوسف . مؤامرة في مراكش ضد الوائقي . ضبطها وإخادها . تأهب الوائقي للزحف على بلاد السوس . ورود مبايعة يغمراسن وتحذيره من بني مرين . مسير الوائقي ونزوله في جبال السوس . مهاجمته لحصن تيزغت واقتحامه . مسيره إلى حصن تيوينوين . مهاجمة الحصن وصموده . على بن يدر يتظاهر بعرض الطاعة . مسير الوائقي إلى الحضرة في موكبه الخلفاء الفخيم . أبو يوسف يطالب الوائقي بتنفيذ عهوده : شعور الوائقي بقوته وكثرة حلفائه . رده الخاف على أبي يوسف . غضب أبي يوسف وزحفه على الحضرة الموحدية . استنجد الوائقي بيغمراسن . مهاجمة يغمراسن لأطراف الأراضى المرينية . ارتداد أبي يوسف لمحاربه . اللقاء بينهما في وادي تلاغ . المعركة العنيفة . هزيمة يغمراسن وفراره إلى تلمسان . عود أبي يوسف إلى التأهب لمحاربة الوائقي . مسيره إلى مراكش وغزواته المخربة في طريقه . أبودبوس يحشد سائر قواته . خروجه للقاء بني مرين . ارتداد أبي يوسف نحو الشمال ومطالبة الموحدين . اللقاء بين الفريقين في وادي غفو . المعركة المضطربة . بلاء أبي دبوس وجيشه . صمود بني مرين . مصرع أبي دبوس وتمزيق قواته . تعليق رأسه على سور فاس . مسير أبي يوسف إلى مراكش . فرار الموحدين إلى تينملل . دخول أبي يوسف مراكش واستقباله ومبايعته . انتهاء الدولة الموحدية . سيطرة بني مرين على سائر المغرب الأقصى . أبو يوسف يرسل حملة لإخضاع بلاد السوس . خروجه لمطاردة العرب في قطاع درعة وإخاد حركتهم . عوده إلى مراكش . مطاردته لبقايا الموحدين . ظفروه بالقبض على بعض أكابرهم وإعدامهم . أبو يوسف يعقد ولاية العهد لولده أبي مالك . مسيره صوب سبتة وطنجة . استيلائه على طنجة . إذعان الغزفي صاحب سبتة وإقراره بالطاعة . مسير أبي يوسف إلى سجلماسة وافتتاحها . جهاد أبي يوسف بالأندلس ونصرتة لمملكة غرناطة . كون هذا الجهاد استمرار لرسالة المغرب التاريخية . وفاة السلطان أبي يوسف . الدولة الموحدية وعوامل تفككها . موقعة العقاب وآثارها . العوامل الأدبية . الحكومة الموحدية وصفها الإقطاعية والعائلية . ضعف هذا النظام وقصوره . استطالة الملك النصرانية على الأندلس . قصور الجيوش الموحدية عن حمايتها . التنافس على عرش الخلافة . خروج البياسي وأخيه السيد أبي زيد وما ترتب على ذلك . ثورة بني غانية وتخريبها لبلاد إفريقية . إنسلاخ إفريقية وقيام الدولة الحفصية . إنسلاخ تلمسان وسبتة وطنجة . نهوض بني مرين واستيلائهم تباعا على المغرب الأقصى . العوامل الأدبية . تحول الإمامة إلى ملك دنيوى . إلغاء الإمامة الموحدية ورسومها . ماخسرت الخلافة الموحدية بذلك . تقلب القبائل البربرية وطوائف العرب . الحرب الأهلية بين الخلفاء . انهيار الدولة الموحدية وكونه لم يحدث صدق قويا . انهيار الصرح القبلي الموحدي . عناصر هذا الصرح من القبائل والبطون . مصير هذه القبائل . اندثار هرة قبيلة المهدي . قبر المهدي بنينملل . هنتاته وفوزها بسلطان إفريقية . مصير جدميوه وغيرها .

— ١ —

لما دخل أبو العلى إدريس ، الملقب بأبي دبوس حضرة مراكش في اليوم الثاني والعشرين من محرم سنة ٦٦٥ هـ ، واحتل القصر عقب فرار الخليفة المرتضى بابعه سائر الأشياخ والطلبة والكافة ، وتلقب حسبما تقدم بالوائقي بالله . وكان أول

ما قام به أن ركب في اليوم التالي ، وطاف بأحياء الحضرة ، للعمل على توطيد السكينة والنظام ، وتهذبة روع الناس ، وقع المعتدين والمفسدين ، ثم كتب إلى حليفه ، الأمير أبي يوسف عاهل بني مرين ، ينبئه بما تم ، وما انتهى إليه مجرى الجوادث ، ولبثت المخاطبات بينهما مدى حين .

بيد أنه وقعت وحشة ، بين الواثق وبين ابن جلداسن زعيم هسكورة ، لم توضح لنا الرواية أسبابها ، وكان ابن جلداسن من حلفائه ، ومعاونيه في حركته إلى افتتاح مراكش ، حسبما ذكر في موضعه ، ومن ثم فإنه لم تمض بضعة أشهر حتى أخذ الواثق في الأبهة للحركة والخروج ، فخرج في قواته من مراكش ، في الثاني عشر من شعبان سنة ٦٦٥ هـ فنزل أولا بالبحيرة ، ثم سار إلى بلاد هيلانة فوادي أغمت ، ونزل فيه بمكان يسمى تادارت معطاسة ، وهناك وفد عليه بعض أشياخ هسكورة ، ومنهم الشيخ حميد بن مخلوف الهسكوري ، وكان يقوم من قبل الواثق بالاتصال بالأمير أبي يوسف ، ويتردد بينهما في مراسلات ومفاوضات مختلفة . وقدم الواثق أبا موسى بن عزوز على بلاد حاحة ، ليقوم بالنظر في أعمالها وتحصيل جبايتها ، وبعث رجلا من ثقاته ، هو عبدالعزيز بن عطوش إلى ابن جلداسن زعيم هسكورة ، ليستطلع الأمر ، وليحدثه في بعض الشؤون ، فعاد هذا الرسول ، وأبلغه ما وقف عليه ، والظاهر أن الأمور كانت قد هدأت عندئذ ولم ير الواثق في موقف ابن جلداسن ما يستدعي الغضب والمواخذة ، فتركه على حاله ، وقنع منه بالطاعة ، موثراً مودته على خصومته (١) .

وسار الواثق بعد ذلك من تادارت إلى الوجهة الواقعة في شرقها ، وفي أثناء ذلك جاءت الأنباء بانصراف بني مرين ، وإجازتهم لوادي أم الربيع ومسيرهم إلى بلادهم ، وكان الأمير أبو يوسف يعقوب ، قد خرج في حشوده من فاس ، وسار إلى بلاد دكالة وانتسف زروعها ، نذيرا لأبي دبوس ، فبعث إليه أبو دبوس الشيخ الصالح أبا العباس الهسكوري بهدية سنية ، ليطمئنه وليؤكد له أنه سوف يفي بعهوده وينفذ ما اشترطه على نفسه ، فتقبل أبو يوسف ذلك الوعد ، وارتد منصرفا إلى بلاده . فكان ذلك من بواعث الارتياح في الحملة الموحدية (٢) . بيد أنه وصلت في نفس الوقت ، أنباء تدل على أنه يخشى من وقوع أحداث في الحضرة ، من جراء نشاط مريب ، يقوم به السيد عبدالعزيز بن الخليفة السعيد ، فسار الواثق في

جنده ، إلى تاونزرت على مقربة من الحضرة ، وبعث من هنالك بعض قواته لتحصيل الجباية من حاحة ورجراجة ، وكان السيد عبدالعزيز هذا ، من ولد الخليفة الراحل السعيد ، وكان يرى أن قيام الوائق في الخلافة ، وهو ليس من عقب المنصور ، اغتصابا يجب منعه ، وانضم إليه في ذلك بعض الزعماء ، وكاتب ابن جلداسن شيخ هسكورة سرّاً ، ليقوم بمعاونته ، ووقف الوائق على ذلك من صهره ، السيد أبي زيد ابن السيد أبي عمران وإلى مراكش ، وضبطت بعض كتب كانت مرسلة ، من السيد عبدالعزيز إلى جلداسن ، وكان السيد عبدالعزيز يلزم داره متحرزاً على نفسه ، فعمل السيد أبو زيد على استدراجه واستدعائه ، فقصده إليه مع بعض أشياخ الموحدين ، فواجهه بما نسب إليه ، وأبرز له كتبه المكتوبة بخطه ، فأسقط في يده وبهت ، وعندئذ قبض عليه ، وأعدم بأمر الوائق ، وأخذت هذه المؤامرة في مهدها^(١) .

وعلى أثر ذلك أخذ الوائق في الأهبة للزحف على السوس ، وفي خلال وجوده بوادي تانسيفت ، وردت إليه هدية ومكاتبة ، من الأمير يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان ، يقدم فيها بيعته للخليفة الموحدي ، ويحذره من أطاع بني مرين فيما بقي من أقطار الدولة الموحدية ، ويعد بمحالفته ، وتعهد به بأن يكفيه شر بني مرين . وذاع أمر هذه البيعة الهامة بين الجند ، وضربت الطبول ابتهاجاً بها ، وعم السرور لذلك في المحلة الموحدية^(٢) . ثم تحرك الوائق صوب بلاد السوس ، وتقدمه الشيخ أبو زكريا ابن وانودين ، ليستنفر القبائل للخدمة ، والحركة ضد علي بن يدر الثائر بالسوس ، واستمرت الحملة في مسيرها حتى وصلت إلى جبال السوس (وهي شعبة من جبال الأطلس) ، ونزلت هنالك في بعض البسائط ، وهنالك قضى الوائق عيد الفطر .

وأخذت الحملة بعد ذلك في التنقل بين القبائل ، وأصدر الوائق عدداً من الظهائر لبطون جزولة وغيرها ، يبلغهم عزمه ، على القضاء على ثورة علي بن يدر وتأمين أرجاء نواحي السوس . ثم مرت الحملة بتارودنت حاضرة السوس ، وقد خرب أكثرها ، ونزلت المحلة هنالك في واد أخضر ، في أسفل حصن تيزغت المنيع ، وكانت به حامية قوية ، من جند علي بن يدر ، فاستعد الجند لمهاجمته ، ونشبت بينهم وبين حاميته معارك عنيفة ، استمرت بضعة أيام ، حتى اضطر قائده أخيراً ، وأسمه حمدين ، إلى طلب الأمان ، وقرر بأن علي بن يدر ، على

(١) البيان المغرب ص ٤٥٩ و ٤٦٠ .

(٢) الذخيرة السنية ص ١٢٧ ، والبيان المغرب ص ٤٦١ .

استعداد لإعلان الطاعة ، وقبل الواثق طلبه ، ولكن لم يتم التسليم ، وانتهى الأمر ، بأن اقتحم الموحدون أحواز الحصن ، بعد قتال شديد ، ولحأت الحامية إلى الداخل ، بعد أن قتل منهم عدد جم . وأخيراً اقتحم الحصن نفسه ، وأبيدت حاميته قتلاً وأسراً ، وكانت أخت علي بن يدر ضمن الأسرى ، وكتب بالفتح إلى الحضرة ، وكان ذلك في ١٣ شوال سنة ٦٦٥ هـ (١).

وفي اليوم الحادى والعشرين من شوال ، استأنفت الحملة سيرها داخل بلاد السوس ، وقدم عندئذ أبو زكريا بن وانودين مع جمع كبير من وأوزجيت ، وهم من خصوم علي بن يدر ، وبعد يومين نزلت الحملة قرب تارودنت ، وكان ابن يدر قد خرب حصنها الكبير وهدمه ، فأمر الواثق بتجديده وإعادة بنائه ، ولكن لم يتم أمره بذلك . واتجهت الحملة بعد ذلك ، إلى حصن تيوبنوين ، وهو من أعظم حصون السوس وأمنعها ، وكان في معظم الأحيان مركزاً للعصيان والثورة ، فاستعدت حاميته القوية للدفاع ، وهاجم الموحدون الحصن ، وذلك في الثانى من ذى القعدة ، فدافعت حاميته دفاعاً شديداً ، ووصل عندئذ كتاب من السيد أبي زيد والى مراکش ، ومعه كتاب ببيعة أبي الحسن علي بن أبي علي ، من زعماء الخلط ، ودخوله فى الطاعة ، فكان لذلك أطيب وقع . ولما رأى الواثق مناعة الحصن ، وشدة بأس حاميته ، قرر اتخاذ الأهبة لاقترامه ، بمعاونة من كان معه ، من حشود العرب وزناتة ، ولمطة وبني وأوزجيت ، وهوجم الحصن بشدة ، وضرب بالمنجنيق ، ولكن حاميته استمرت فى المقاومة .

واستمر الأمر كذلك حتى مر عيد الأضحى . وفى الحادى والعشرين من ذى الحجة ، وصل رسل علي بن يدر ، يعرضون التوبة ، ويعدون البيعة والطاعة ، ولكن لم يتم شىء من ذلك ، واستمر حصن تيوبنوين على امتناعه . وورد على الحملة خلال ذلك كثير من عرب المعقل فى أهلهم وأموالهم برياسة شيخهم عبد المؤمن بن أبي الطيب لتقديم بيعتهم ، فتلقاهم الوزير أبو موسى ومعه العسكر ، وأكرم الواثق وفادتهم ، وأجزل صلاتهم ، وسمح لهم بروية إخوانهم من المعتقلين ، فاطمأنوا عليهم ، ووعدوا بتسريحهم ، ثم عادوا إلى منازلهم (٢).

وفى الثامن والعشرين من المحرم سنة ٦٦٦ هـ ، تأهب الواثق للعود إلى

(١) البيان المغرب ص ٤٦٥ و ٤٦٦ .

(٢) الذخيرة السنية ١٢٦ و ١٢٧ ، والبيان المغرب ص ٤٧٠ .

حاضرتة ، وانتظم الموكب الخلافي ، في أكمل وضع وأفخمه ، على نسق المواكب الموحدية ، فحمل المصحف الكريم (مصحف عثمان) ، في هودجه بزينة القديمة ، وجعلت قلائد الفضة في عنق الحمل الذي يحمله ، وجلت البغال بالكسي الجميلة ، وارندى العبيد الذين يقودونها الثياب البيض ، وسار الواصل وراء المصحف ، ومعه الأهل والقراة والحاشية ، ومن بعدهم الوزراء في الساقة ، ومعهم الأعلام الخلافية السبعة ، وقبائل الموحدين كل منها رافعة علامتها التقليدية ، وسار الموكب على هذا النمط حتى أشرف على الحضرة ، فبرزت الناس والفرسان لاستقباله أعظم بروز ، وهم يحملون البنود والطبول ، واحتشد العرب من سائر البطون ، وكان يوما مشهوداً^(١) . ولم يكن يخطر يومئذ ببال أحد أن الخلافة الموحدية تشهر آخر مواكبها ، وأنه سيكون لها بمثابة موكب الوداع ، الذي تنهار من بعده ، وتلفظ أنفاسها الأخيرة .

- ٢ -

وكان قد مضى عندئذ زهاء عام ، مذ دخل أبو العلي إدريس أو أبو دبوس حضرة مراکش ، وتبوأ الخلافة ، بمعاونة أبي يوسف ، ولم تبدر أية بادرة من أبي دبوس ، تدل على أنه يعتزم الوفاء بعهوده ، وإشراك العاهل المريني ، فيما افتتحه من بقايا الدولة الموحدية القديمة ، بمعاونة جنده وأمواله ، وعندئذ كتب أبو يوسف إلى أبي دبوس ينذره بوجوب تنفيذ عهوده ، وتمكينه من نصف البلاد التي غلب عليها ، وفاء بعهوده . وكان أبو دبوس مذ وعده يغمر اسن صاحب تلمسان بخلفه ومعاونته ، ومذ توالى عليه بيعات القبائل من العرب والبربر ، خلال زحفه على السوس ، قد شعر بتوطد سلطانه ، واشتداد ساعده ، واعتزم أن يدافع عن عرشه ، وعن تراث الدولة الموحدية . فلما جاءه نذير أبو يوسف ، رد رسوله بجفاء ، وطلب إليه أن يبلغ سيده ، بأن يقنع بما في يده من البلاد ، وإلا جرد عليه جنوداً لا قبل له بها ، وكتب إلى أبي يوسف كتابا شديد اللهجة ، يخاطبه فيه مخاطبة الخلفاء والرؤساء إلى عمالهم . فثار لذلك أبو يوسف ، وخرج من فاس في حشود بني مرين والمغرب ، وعبر وادي أم الربيع ، وزحف على العاصمة

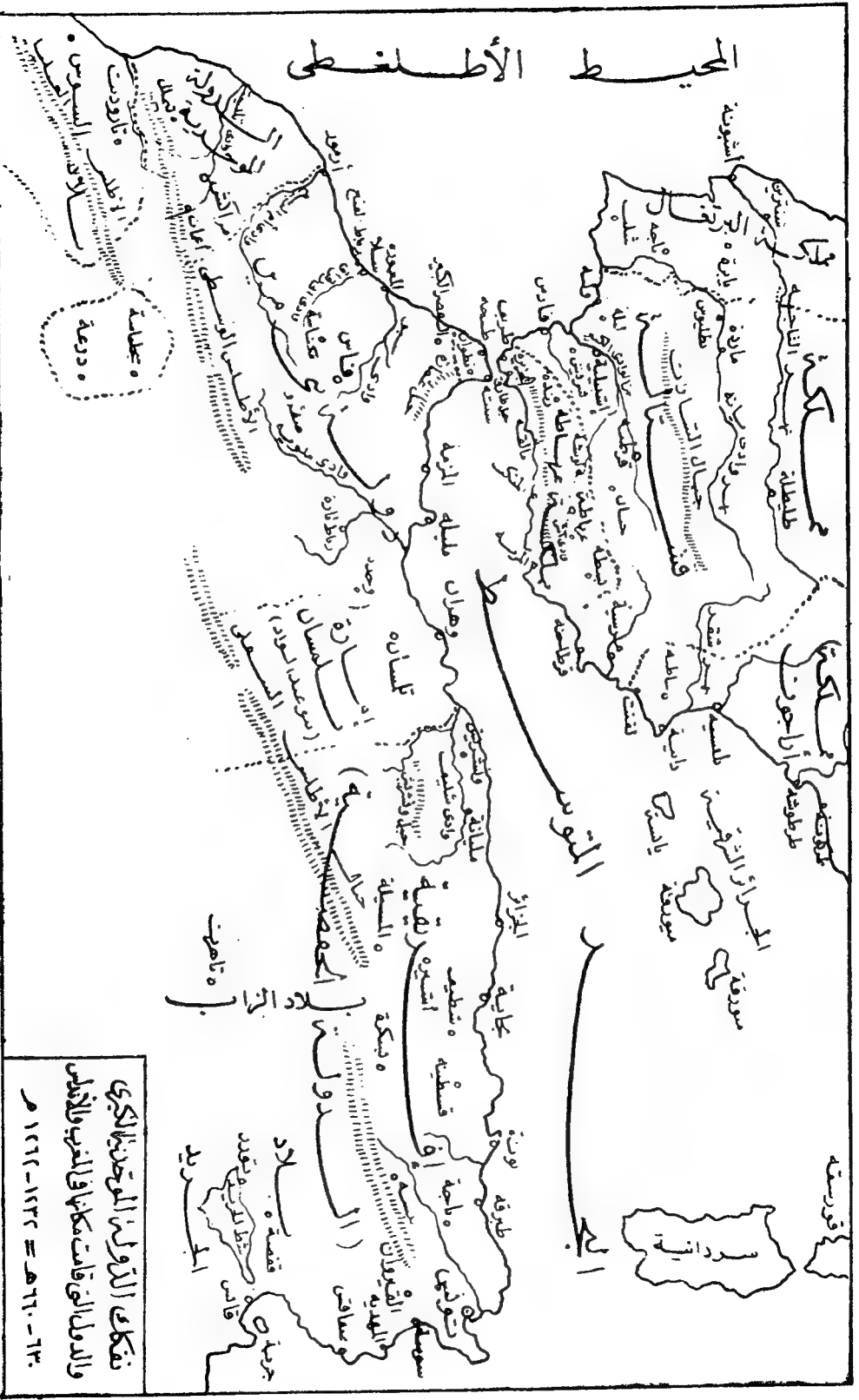
(١) البيان المغرب ص ٤٧١ و ٤٧٢ . وهنا ينتهي المجلد الثالث من كتاب «البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب» لابن عذارى المراكشي وهو المخطوط الذي وجد في الخزانة الناصرية بـثاجروت بالمغرب وأشرنا إليه في الفصل الخاص بالمصادر . وقد تم نشره بمدينة تطوان بعناية الأستاذ أ . هويبي ميرانده ومساهمة الأستاذين محمد بن تاويت وإبراهيم الكتاني (أواخر سنة ١٩٦٣) وقد كان لنا خلال قيامنا بتأليف هذا الكتاب من أقيم مصادرنا ، وأهمها ، وأكثرها تفصيلا .

الموحدية ، وهو ينتسف الزروع ، ويحرب المنازل والضياع ، فاضطربت الأحوال في مراكش ، وانقطعت عنها الموارد ، وقلت المؤن ، وارتفعت الأسعار فامتنع أبو دبوس بالحضرة ، وبعث إلى حليفه يغمراسن بن زيان أمير تلمسان ، يستغيث به ، ومع رسله إليه هدية سنية . فنهض يغمراسن في حشوده ، منتزعا فرصة ابتعاد أبي يوسف بالقوات المرينية ، وأخذ يغير على أطراف المغرب الخاضعة لبني مرين ، ولاسيما في وادي ملوية ، أصل منازلهم ، ويعيث فيها تخريبا ونهباً وسلباً . فلما وقف أبو يوسف على ذلك اعتزم لفوره ، أن يترك أمر العاصمة الموحدية مؤقتا ، وأن يسير لقتال يغمراسن ، والقضاء على حركته أولا ، ثم يعود لمناجزة الموحدين . ومن ثم فقد غادر وادي تانسيف ، وارتد راجعا في قواته إلى فاس ، فأقام بها أياما يستكمل أهبته ، ثم غادرها في جموع عظيمة ، حسنة الأبهة والسلاح ، وذلك في منتصف شهر ربيع الأول سنة ٦٦٦هـ وكان يغمراسن في تلك الأثناء قد استكمل من جانبه أهباته ، وحشد سائر قواته للملاقاة المرينيين . وسار أبو يوسف نحو وادي ملوية ، من طريق أجرة سيف أو كرسيف ، وكان اللقاء بوادي تلاغ ، فنشبت بين الفريقين معركة عنيفة طاحنة ، قاتل فيها كلاهما بمنتهى الإقدام والشجاعة ، وامتازت بالأخص بمشول النساء في الهوداج والمراكب سافرات بين الفريقين ، وتحريضهن للشجعان على الثبات والإقدام ، وانتهت بانتصار بني مرين ، وهزيمة يغمراسن وقومه بني عبد الواد ، وتمزيق صفوفهم ، ومصرع جماعة من أكابرهم ، وفي مقدمتهم أبو حفص ولد يغمراسن . وفر يغمراسن بفلوله صوب تلمسان ، وتبددت جموعه ، واستولى بنو مرين على سائر مافي محلته ، من السلاح والعتاد والأموال ، ووقعت هذه الهزيمة الشنيعة على يغمراسن في الثاني عشر من جمادى الآخرة سنة ٦٦٦هـ^(١).

وهكذا قضى أبو يوسف ، على الجبهة المعادية في مؤخرته ، بالقضاء على قوى أمير تلمسان ، وارتد بقواته إلى فاس فاستراح بها حيناً ، وهو يستكمل أهباته للمعركة التالية . ثم غادر فاس في شهر شعبان من نفس العام (٦٦٦هـ) في حشود ضخمة ، وعبر وادي أم الربيع ، وهبط إلى البسائط المؤدية إلى مراكش ، وهو يسرح جنده في كل ناحية لانتساف الزروع ، وتخريب الضياع ، والنهب والسبي ، وأنفق بقية سنة ٦٦٦هـ في القيام بتلك الغزوات المخربة ، ثم غزا عرب الخلط

ومنازلهم بناحية تادلا ، وأنخن فيهم ، ومزق جموعهم ثم غزا وادى العبيد ، ونفذ إلى منازل صنهاجة ، وهى الواقعة فى شمالى وادى تانسيفت ، وعاث فيها . واستغرقت هذه الغزوات الحلية عاما آخر هو عام ٥٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م) (١).

وكان البلاط الموحدى خلال ذلك ، قد ساده الاضطراب والجزع ، وأخذ أشياخ الموحدين والعرب ، يهيبون بأبى دبوس أن ينهض لرد بنى مرين ، ودفع عاديتهم ، بعد أن تفاقم الأمر ، وخربت الديار ، وقتل الأهل والإخوة أو شردوا ، ولم يكن أمام أبى دبوس فى الواقع أى سبيل آخر سوى خوض هذه المعركة الحاسمة ، فحشد سائر قواته من الموحدين والعرب والأغزاز وبقايا الروم ، واجتمع له من ذلك جيش ضخم ، وخرج فى قواته من مراکش يريد لقاء بنى مرين ، وكان آخر الخلفاء الموحدين شجاعا مقداما ، وكان يعرف أنه سوف يخوض المعركة الأخيرة والحاسمة ، فلما أن يكتب له النصر على بنى مرين ، وعندئذ يستطيع أن يردهم إلى منازلهم ، فيما وراء وادى أم الربيع ، وأما أن يلتقى هزيمته الحاسمة ويسقط مدافعا عن عرشه وقومه الموحدين . ولما علم أبو يوسف بخروج أبى دبوس فى قواته لمحاربته ، رأى أن ياجأ إلى خطة لاستدراجه ولإبعاده عن قواعده ، فارتد فى قواته صوب الشمال . وتصور لنا الرواية ارتداد بنى مرين ، أمام زحف أبى دبوس ، فى صورة الخدعة الحربية ، وقد يكون ذلك صحيحاً ، ولكنه قد يدل من جهة أخرى على أن الأمر المرينى ، وقف على ضخامة الجيش الموحدى وجسن استعداده ، وأنه خشى أن يخوض معه المعركة الحاسمة ، قبل العمل على مطاولته وإنهاكه . وعلى أى حال فقد ارتد أبو يوسف فى قواته نحو الشمال ، وسار الجيش الموحدى فى أثره ، وهو يطاوله من موضع لآخر ، واعتقد أبو دبوس من جهة أخرى أنه يطارده جيشاً يخشى لقاءه ، واستمرت هذه المطاردة حتى وادى غفو ، وهناك وقف بنو مرين واستعدوا للقاء الموحدين . ونشبت فى وادى غفو بين الجيشين معركة عنيفة ، قاتل فيها الفريقان بمنتهى الشجاعة والجلد ، وكان الموحدون يوالون المهجوم على بنى مرين ، وأبو دبوس يقود المعركة بنفسه ، ولكن بنو مرين ثبتوا كالصخر وقاتلوا بشدة حتى اختلت صفوف الموحدين ، وتمكنت جماعة من أنجاد فرسانهم ، من تطويق أبى دبوس وصحبه الذين حوله ، والتحمت بينهما معركة عنيفة ، أنخن فيها أبو دبوس



فتكناك اللازول الممختل بالمكبري
والدول التي قامت مكانها في المغرب والأندلس
١٦٣ - ١٦٢ هـ = ١٢٢٢ - ١٢١٢ م

طعنًا بالرماح ، وسقط صريعاً عن جواده ، وقتل معه وزيره أبو موسى عمران ، وكتبه على بن عبد الله المغيلي ، ومزقت صفوف الموحدين وبدد شملهم ، وسقطت محلهم ، بسائر ما فيها من الأمتعة والأموال ، في أيدي بني مرين ، واحتز رأس آخر الخلفاء الموحدين ، وحمل إلى أبي يوسف ، فخر ساجداً شكر الله على ما أولاه من النصر ، وأرسلت الرأس فعلقت على سور فاس « ليعتبر برويتها جميع الناس » . ووقعت هذه الهزيمة الساحقة على الموحدين وهلك آخر خلفائهم في يوم الأحد الثاني من شهر المحرم سنة ٦٦٨ هـ (أول سبتمبر ١٢٦٩ م)^(١).

وعلى أثر هذا النصر الحاسم ، سار الأمير أبو يوسف إلى مراكش ، وكان قد فر من كان بها من قرابة الخليفة وأشياخ الموحدين ، على أثر وقوفهم على نبأ النكبة المروعة ، ولجأوا إلى جبال الموحدين في تينملل ، وهناك بايعوا بالخلافة السيد أبا اسحاق أخا الخليفة المرتضى . بيد أنها لم تكن سوى شبح باهت ومهزلة تدعو إلى الرثاء . وفي يوم الأحد التاسع من المحرم سنة ٦٦٨ هـ ، دخل عاهل بني مرين أبو يوسف يعقوب حضرة مراكش في موكب فخم ، فاستقبله سائر الأكابر والوجوه ، من الفقهاء والقضاة والأشياخ ، وبايعوه بالطاعة ، واتمسوا إليه الأمان والحماية ، فأمّنهم أبو يوسف وطمأنهم ، وأذاع الأمان لسائر أهل المدينة ، وأحوازها فاطمأن الجميع ، وسادت السكينة والأمن ، واستقرت الأمور ، ونزل أبو يوسف بالقصبة ، وتم له بفتح مراكش ملك المغرب الأقصى ، وقامت على أنقاض الدولة الموحدية الأخيرة ، دولة جديدة هي دولة بني مرين الفتية ، تسيطر على سائر أنحاء المغرب الأقصى ، من وادي ملوية وجبال الأطلس الوسطى شرقاً ، حتى المحيط الأطلنطي غرباً ، ومن رباط تازا وجبال غمارة شمالاً حتى وادي تانسيفت جنوباً ، وتسمى أبو يوسف منذ دخوله حضرة مراكش « بأمير المسلمين » ، وخرجت كتبه إلى القبائل بهذا اللقب ، وكان قبل ذلك يكنى بـ « الأمير »^(٢).

ولبت أمير المسلمين أبو يوسف يعقوب ، مقبلاً بمراكش إلى شهر رمضان سنة ٦٦٩ هـ ، وهو ينظر في شئونها وينظم أحوالها ، وترد إليه الوفود مهتنة من كل صوب ، وفي خلال ذلك ، بعث ابنه الأمير أبا مالك عبد الواحد في حملة قوية إلى بلاد السوس لغزوها ، وإخضاع من بها ، من الثوار والقبائل الخارجة

(١) الذخيرة السنية ص ١٣٢ و ١٣٣ ، وروض القرطاس ص ٢٠٥ ، وابن خلدون

ج ٦ ص ٢٦٥ وج ٧ ص ١٨٢ . (٢) الذخيرة السنية ص ١٣٤ .

عن الطاعة ، فسار إليها ، وغزا مختلف نواحيها ، واستمر في توغله حتى ماسة ،
ثغر السوس الأقصى ، وفرض الطاعة على سائر النواحي والقبائل ، ثم عاد إلى
الحضرة . وبعد ذلك خرج أبو يوسف بنفسه ، إلى غزو طوائف العرب ، التي
بسطت سلطانها على منطقة درعة ، وملك حصونها ، وعاشت فيها قتلا ونهباً ،
فسار إليهم في رمضان ، واخترق منطق درعة ، واستنزلهم تباعاً ، وقتل منهم
عدداً كبيراً ، واستولى على أموالهم ودوابهم ، وسبي نساءهم ، وافتتح سائر بلاد
درعة وحصونها ، وقضى في غزوته هذه زهاء شهرين ، ثم عاد إلى مراكش
في منتصف شهر شوال ، فأقام بها فترة قصيرة ، وعقد عليها وعلى أعمالها محمد
ابن علي بن يحيى ، وهو من أكابر قرابته ووزرائه ، وأنزله بالقصبة ، وفوض
إليه النظر في شئونها ، وعهد إليه بالقضاء على آثار بني عبد المؤمن وتبعية آثارهم
أيها كانوا^(١) . وكان من آثار هذه المطاردة أن قبض في سنة ٦٧٤هـ ، بأحواز
تينمل ، على السيد إسحق بن السيد أبي إبراهيم ، أخى الخليفة المرتضى ، وكان قد
نصبه الموحدون هنالك خليفة كما تقدم ، وقبض كذلك على ابن عمه السيد أبي الربيع
وغيره من القرابة ، وسبقوا مع أولادهم إلى مراكش وقتلوا جميعاً^(٢) .

وغادر أبو يوسف مراكش في منتصف ذي القعدة (٦٦٩هـ) فسار إلى رباط
الفتح ، وقضى بها عيد الأضحى ، ثم أخذ البيعة لولده الأمير أبي مالك بولاية
عهده^(٣) ، وعاد بعد ذلك إلى حاضرتة فاس .

وعنى أبو يوسف بأمر سبته وطنجة لما لها من أهمية بارزة بموقعهما على
المضيق ، وكونهما معبر المغرب إلى الأندلس ، ومعبر الأندلس إلى المغرب ، ولاسيما
بعد ما ظهر من نيات إسبانيا العدوانية نحو المغرب ، منذ غزو سفنها لثغر سلا ،
فاعتزم الاستيلاء على هذين الثغرين الهامين ، وكان ابنه الأمير أبو مالك قد زحف
على طنجة في سنة ٦٦٦هـ ، ولكنها امتنعت عليه ، وكان يسيطر على كلا الثغرين ،
الفقيه العزفي حسبما تقدم ذكره . فسار أبو يوسف في قواته إلى طنجة في أوائل
سنة ٦٧٢هـ ، واستولى عليها ، ومنح الأمان لأهلها ، ثم بعث ولده الأمير أبا يعقوب
في قوة كبيرة إلى سبته فنازلتها أياماً ، ثم أذعن العزفي إلى الطاعة ، وتعهد بأداء

(١) الذخيرة السنية ص ١٣٤ و ١٣٨ ، وروض القرطاس ص ٢٠٥ و ٢٠٦ ، وابن خلدون

ج ٧ ص ١٨٢ . (٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٨٢ .

(٣) الذخيرة السنية ص ١٣٩ ، وروض القرطاس ص ٢٠٦ .

الجزية ، فتقبل السلطان منه ذلك ، وارتد عائداً في قواته إلى فاس^(١) . ولم يكن باقياً من قواعد المغرب الأقصى دون فتح سوى مجلماسة ، وكانت بيد يغمراسن بن زيان صاحب تلمسان ، وحلفائه من عرب المنيبات من بطون المعقل ، فسار إليها أبو يوسف في جيش ضخم ، وضرب حولها الحصار ، ثم اقتحمها عنوة ، وكان افتتاحها في شهر صفر سنة ٦٧٣ هـ . وتم بذلك افتتاح بني مرين لسائر أمصار المغرب الأقصى وأقطاره ، وبسطهم لسيادتهم عليه كاملة شاملة .

ووقعت قبل ذلك في سنة ٦٧٠ هـ ، حروب ومعارك طاحنة بين أبي يوسف ويغمراسن في أحواز تلمسان ، ووجدته ، كان النصر فيها لأبي يوسف ، وهي أحداث ليس من موضوعنا أن نتناولها هنا ، لأنها تتعلق بتاريخ بني مرين وبني عبد الواد ، ولا علاقة لها بتاريخ الدولة الموحدية .

أما عبور السلطان أبي يوسف إلى الأندلس بعد ذلك غير مرة ، استجابة لنداء ابن الأحمر صاحب غرناطة ، وجهاده بها ضد النصاري ، وانتصاراته الباهرة في ذلك الميدان ، وما كان بينه وبين ابن الأحمر طوراً بعد طور ، من التحالف والقطيعة ، فقد تناولناه مفصلاً في كتابنا « نهاية الأندلس » . وإنما نود أن نشير هنا إلى أن نزول بني مرين ميدان الجهاد بالأندلس ، إنما كان قياماً بنفس الرسالة التاريخية ، التي بدأ بها المغرب منذ عصر المرابطين ، وأن بني مرين خلفوا الموحدين ، في القيام بأعمال الجهاد في الأندلس ، ولكن بعد فوات الوقت ، وبعد سقوط معظم القواعد الأندلسية الثالثة ، في أيدي النصاري ، خلال الفترة التي انهار فيها سلطان الدولة الموحدية ، وتضاءلت قواها ومواردها بالأندلس ثم المغرب . بيد أن تدخل بني مرين في سير الحوادث بالأندلس ، ومناصرتهم لمملكة غرناطة ، آخر الممالك الإسلامية بالأندلس ، عصر امتد زهاء ثمانين عاماً ، كان أكبر عون لها في كفاحها ضد إسبانيا النصرانية ، وفي صمودها الطويل ، في ميدان الصراع ، ولولا عون بني مرين وعبورهم المتوالى إلى شبه الجزيرة ، ليشدوا بأزر المملكة الإسلامية الصغيرة ، لما كتب لغرناطة كل هذا العمر الطويل الذي عاشته ، والذي امتد بعد انهيار الأندلس الكبرى زهاء قرنين آخرين .

وتوفي السلطان أبو يوسف يعقوب المريني ، قاهر الدولة الموحدية ومبيدها بعد حياة حافلة بالفتوح المظفرة ، في أنحاء المغرب ، وأعمال الجهاد الحليّة بالأندلس

وذلك بثغر الجزيرة الخضراء ، في المحرم سنة ٦٨٥هـ (مارس سنة ١٢٨٥ م) وقد أسبغت عليه انتصاراته الباهرة بالأندلس لقب المنصور بالله^(١).

— ٣ —

والآن نقف لحظة تأمل ، نحاول فيها أن نستعرض بعض العوامل والأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة الموحدية ، بعد أن عاشت منذ قيامها ، بإعلان المهدي ابن تومرت لإمامته ورياسته ، في جبل إيجليز في رمضان سنة ٥١٥ هـ ، حتى سقوط حاضرتها مراكش ، في يد السلطان أبي يوسف يعقوب المريني في المحرم سنة ٦٦٨ هـ ، مائة واثنين وخمسين عاما ، قضت منها زهاء نصف قرن ، في القضاء على الدولة المرابطية بالمغرب ، وافتتاح سائر أقطاره ، ثم افتتاح إفريقية وثغورها ، وافتتاح قواعد الأندلس بعد ذلك ، والقضاء على ثورة ابن مردنيش والاستيلاء على مملكة مرسية ، آخر مهداد الثورة والمقاومة بالأندلس ، وذلك في سنة ٥٦٧ هـ ، وقامت الإمبراطورية الموحدية الكبرى من ذلك التاريخ ، تمتد من لوبيّة وساحل تونس شرقا ، حتى المحيط الأطلسي غربا ، ومن ضفاف نهر التاجه بالأندلس شمالا ، حتى وادي درعة وبلاد السوس ومشارف الصحراء الكبرى جنوبا . على أن هذه الإمبراطورية العظيمة المترامية الأطراف ، لم تمكث على وحدتها وتماسكها أكثر من نحو نصف قرن ، هو الذي يشغله الشطر الأخير من عهد الخليفة عبد المؤمن ، وعهد ولده الخليفة أبي يعقوب يوسف ، ثم عهد الخليفة المنصور . ومنذ عهد ولد المنصور ، الخليفة محمد الناصر (٥٩٥ — ٦١٠ هـ) ، تعمل عوامل الانحلال والتفكك ، التي بدأت قبل ذلك حتى في عهد المنصور ، وحجبها قوته وعزمه وانتصاراته الباهرة ، عملها الفعال ، في تقويض دعائم الدولة الموحدية ، وتمزيق وحدتها . ويمكننا أن نعتبر موقعة العقاب المشثومة (صفر ٦٠٩ هـ — يولييه ١٢١٢ م) أخطر العوامل الحاسمة ، في تسرب هذا الانحلال ، إلى ذلك الصرح الشامخ ، فقد هزت هذه الكارثة العظيمة أسس الدولة الموحدية إلى الأعماق ، وكان ماوقع فيها من إفناء مروع للجيش الموحدية ويحق لقوى الدولة ومواردها العسكرية ، نذيراً واضحاً بانحلالها ، وتضعضع قواها ، وتضاعل مواردها . ثم جاء عصر الخلفاء الأحداث والخلفاء الضعاف ،

(١) راجع في جهاد أبي يوسف وغزواته بالأندلس كتاب « نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين » الطبعة الثانية ص ٨٨ — ٩٨ .

وعصر التنافس على عرش الخلافة ، والحروب الأهلية المستمرة ، وذلك كله في ظل دولة تقتصر أطرافها وتناحر مواردها تباعا .

على أن موقعة العقاب الحاسمة ، جاءت لتعزز عوامل خطيرة أخرى ، كانت تجتمع تباعا ، لتحدث آثارها المخربة المادية والأدبية ، في صرح الدولة الموحدية . وقد كانت هذه العوامل تعمل عملها حتى في ظل عصر النهضة ، وعصر الخلفاء الأقوياء ، وقد كان في مقدمة هذه العوامل ، نظام الحكومة الموحدية ذاته ، وأسلوب الحكم الموحدى . فقد كانت الحكومة الموحدية تقوم على أساس العصبية والقبيلة والأسرة ، وكان الخليفة الموحدى وهو رأس الدولة ، يجعل من أقطار الدولة وعمالاتها إقطاعات قبلية وعائلية ، فلا يتولى الحكم في الأقطار والعمالات سوى السادة من أبناء الخليفة ، وأبناء عمومته وقرابته ، إلا في أحوال نادرة ، وكانت هذه القاعدة تطبق في المغرب والأندلس في وقت واحد . ولم يكن أولئك السادة أو الحفاظ ، أو الزعماء القبليين ، الذين يتولون الحكم ، في المقاطعات والمدن ، يتمتعون دائماً بمستوى عال ، من الكفاية والحزم والنزاهة ، وإن كان منهم في أحيان كثيرة ، رجال من ذوى المقدرة ، والنباهة والعفة ، وقادة من أقدر رجال الحرب . ولا شك أن هذا الأسلوب الإقطاعى الضيق ، في حكم العمالات والمدن ، لم يكن دائماً كفيلاً بتحقيق النظام والأمن والرخاء ، أو بالدفاع عن مختلف أقطار الإمبراطورية وثغورها ، ومن ثم فقد كشفت حوادث الأندلس وإفريقية ، غير بعيد ، عن ضعف هذا النظام وقصوره . فأما في الأندلس فقد استطالت إسبانيا النصرانية والبرتغال على الأراضى الإسلامية ، ونفذت قشتالة بغزواتها إلى ما وراء جبل الشارات (سيراً مورينا) ، ووصلت جيوشها إلى بسائط قرطبة وإشبيلية ، ونفذت مملكة ليون الصغيرة حتى ضفاف نهر وادى يانه ، واستطاعت مملكة البرتغال الناشئة من جانبها ، أن تستولى على قواعد ما وراء التاجه ، وأن تنفذ بغزواتها جنوباً حتى شلب ، وشرقاً حتى بطليوس . ولم تستطع القيادة الموحدية بالأندلس بالرغم مما كان لديها من الموارد والحاميات العديدة ، وبالرغم مما كان يتدفق عليها من القوات من وراء البحر ، أن تقمع هذا العدوان المستمر من جانب النصارى ، أو أن تقف في وجه الغزوات النصرانية بطريقة ثابتة ، بل لم يستطع الخلفاء الموحدون أنفسهم ، بالرغم من عبورهم إلى شبه الجزيرة غير مرة ، في جيوشهم الزاخرة ، وعددهم الهائلة ، حماية الأندلس

واسترداد قواعدها وثغورها المفقودة ، وكان ما أصابهم من مرارة الإخفاق أكثر مما حققوا من الفتح والنجح ، ولم يكن بن غزواتهم الموقفة اللامعة سوى غزوات المنصور وانتصاره الباهر في معركة الأرك العظيمة (شعبان ٥٩١ هـ - يولييه ١١٩٤ م) وهو انتصار لم تلبث أن تلبث أن آثاره هزيمة العقاب الساحقة (٦٠٩ هـ) . وتفاقت هذه الآثار في الأندلس بقيام الخليفة العادل ، خروجا على خلافة أبي محمد عبد الواحد بمراكش ، ثم اضطرام ثورة البياسي (٦٢١-٦٢٣ هـ) ، وجنوحه إلى مائة ملك قشتالة ، وتسليمه إليه عديد الأراضى والحصون ، ثم خروج الخليفة المأمون على أخيه العادل ٦٢٤ هـ ، والتجائه إلى ملك قشتالة ، واستعانه بالخذ النصارى على تحقيق أمره ، وتسليمه بدوره لملك قشتالة طائفة جديدة من الحصون الأندلسية . ويجب أن نضيف إلى ذلك مأساة السيد أبي زيد والى بلنسية وأخى عبدالله البياسي ، فقد رأينا ما كان من أمر هذا السيد ، حينما نهض الأمير أبو جميل زيان وانتزع منه حكم بلنسية ، فقد التجأ إلى حماية ملك أراجون ، واعتنق النصرانية وأصبح حربا على أمته ودينه ، يسلم للنصارى ما كان بيده من الحصون ، ويقودهم إلى غزو الأراضى الإسلامية . وقد كانت هذه الأحداث المبيرة كلها ، نذيراً بانهباء الأندلس ، وتمزيق وحدتها ، وتفكك أوصالها ، والتمهيد لستقط قواعدها الكبرى ، وكان في الوقت نفسه نذيراً بفتنة الدولة الموحدية لهذا القطر العظيم من أقطارها .

وأما في إفريقية ، فقد كان غزو بنى غانية لثغورها وقواعدها الغنية ، وعيبتهم في بسائطها ، وقتلهم لسكانها وانتهابهم لأموالها ، وذلك مدى ثلاثين عاما ، وما اضطرت الخلافة الموحدية أن تخوضه من المعارك المستمرة في إفريقية ، خلال هذه الفترة ، وما تكبدته من الجهود والنفقات الهائلة ، في سبيل هذه المعارك ، وما هلك من جيوشها في ميدان القتال لمداغة بنى غانية ، وللذود عن سلطانها في إفريقية : كان لذلك كله أثر بالغ في تقويض مواردها ، وإضعاف قواها ، وتخريب قطر من أعظم أقطارها ، وأغناها وأزخرها بالموارد . وبالرغم من أن الخلافة الموحدية ، استطاعت في النهاية أن نقضى على ثورة بنى غانية ، وأن تسترد منهم سائر الثغور والأراضى الإفريقية ، وأن تفتح ميوزقة موطنهم الرئيسى ، ومثوى حكومتهم ورياستهم ، فإن ذلك لم يكن كافيا لتوطيد سلطان الدولة الموحدية بإفريقية ، ولم يكن ليحول دون تيار الحوادث الجارف ، وقد كان يندفع بإفريقية إلى قدر آخر غير البقاء في ظل الدولة الموحدية .

وقد كان انسلاخ إفريقية عن الدولة الموحدية ، وقيام الدولة الحفصية بها منذ سنة ٦٢٧هـ (١٢٢٩م) فى الواقع نتيجة لفورة بنى غانية ، والأحداث العظيمة التى أثارها ، وكان هذا الانفصال ، بعد ضياع الأندلس ، أخطر ضربة أصابت الإمبراطورية الموحدية من الناحية الإقليمية ، ثم تبعها تلمسان فاستولى عليها يغمراسن بن زيان وقومه من بنى عبد الواد ، وقامت بها أمارة مستقلة ، أخذت فى التوطد والنماء ، وبذلك فقدت الدولة الموحدية إفريقية والمغرب الأوسط وفقدت فى نفس الوقت ثغرى سبتة وطنجة ، حيث قامت كلتاها أولاً بالدعوة الحفصية ، ثم استقلت سبتة برياسة الفقيه العزفى (سنة ٦٤٧هـ) وتبعها طنجة ، فاستقلت برياسة ابن الأمين . وبذلك فقدت الدولة الموحدية سائر ثغورها الشمالية . ثم كانت المرحلة الأخيرة فى تفكك الدولة الموحدية ، وهى المرحلة التى ظهر فيها بنومرين ، وقوى أمرهم بوادى ملوية ، وغلبوا تباعا على أطراف المغرب الأقصى . وفى الوقت الذى شغلت فيه الخلافة الموحدية بمصانعة طوائف العرب من الخلط وغيرهم ، ومعالجة غدرهم وخياناتهم ، وبقمع الثورة فى الأنحاء الجنوبية ، كان بنومرين يتوغلون تباعا فى الأنحاء الشمالية . ولما شعر الموحدون بخاطر بنى مرين ، على ما تبقى من إمبراطوريتهم الشاسعة ، فى المغرب الأقصى ، كان الوقت قد فات للتغلب على تلك القوة الناهضة الدافعة ، وكان سقوط مكناسة فى أيدي بنى مرين فى سنة ٦٤٣هـ ، بداية النهاية فى ضياع أمصار المغرب الأقصى ، وتلها فاس عاصمة المغرب القديمة الثالثة ، فسقطت لأول مرة فى أيدي بنى مرين فى سنة ٦٤٦هـ ، ثم استولوا عليها نهائيا بعد ذلك بعامين ، وكان سقوط فاس أعظم أمصار المغرب الأقصى بعد مراکش ، عنوان الانهيار الأخير ، فلم تمض عشرون عاما أخرى هى عهد الخليفة المرتضى ، حتى اجتاحت بنو مرين سائر أراضي المغرب الأقصى ، فيما وراء وادى أبى رقراق ووادى أم الربيع ، واستولوا على سائر تلك المنطقة ، ثم كان استيلاؤهم على مراکش فى المحرم سنة ٦٦٨هـ من يد صنيعهم أبى بوس ، خاتمة ذلك الصراع المرير المولم ، وكان خاتمة الدولة الموحدية .

وإذا تركنا العوامل والأسباب المادية جانبا ، فإن العوامل الأدبية قد لعبت أيضاً ، دوراً فى هذه المأساة التاريخية . ذلك أن الدولة الموحدية ، قامت على أسس الإمامة المهديّة ، والعقيدة الموحدية ، وكانت هذه الأسس بغض النظر عن حقيقة أمرها ، توثق أواصر الزعامة الموحدية ، وتجمع كلمة الموحدين القبلية

والعقيدية ، حول إمامة واحدة ، فلما تحولت الإمامة الموحدية ، إلى خلافة دنيوية ، وانحصرت في بني عبد المؤمن ، ضعفت هذه الأواصر العقيدية ، التي كانت توثق بين الزعامة الموحدية ، ولم يبد الخلفاء الموحدون من بعد عبد المؤمن أية حماسة ظاهرة في تمجيد الإمامة المهديية . وكان الخليفة المنصور بالعكس ، يبدى ربه في صحة إمامة المهدي ، وفي عصمته ، ولكنه لم يجزأ على أن يحدث أى تغيير ظاهر ، في رسوم الإمامة الموحدية . فلما تولى ولده أبو العلا إدريس المأمون الخلافة ، كان في ذلك أشد منه جرأة وإقداما ، فأصدر مرسومه الشهير بإلغاء الإمامة المهديية ، ومحو رسومها وآثارها (٥٦٢٧هـ) وقام بذلك بثورة حقيقية في كيان العقيدة الموحدية . وكان من أثر هذا الاجترار على نحو تراث المهدي ووصيته الدينية ، أن خرج معظم الأشياخ الموحدين على خلافة بني عبد المؤمن ، ولجأوا إلى منازلهم في جبال المصامدة . وبالرغم من أن هذا الانفصام لم يكن له أثر مباشر من الناحية المادية ، فقد كان له من الناحية الأدبية أعظم وقع ، وفقدت خلافة مراکش من جرائه كثيراً مما كانت تتمتع به ، من التأييد الروحي والقبلي ، ولا سيما في منطقة جبال المصامدة وبلاد السوس . فلما كان عهد الرشيد ولد المأمون ، وقع التقرب بين الزعماء الموحدين وبين الخلافة الموحدية ، وأعاد الرشيد رسوم الإمامة المهديية ، وتقاليدها السابقة ، لإرضاء لهؤلاء الزعماء ، وجمعاً للكلمة . ولكن الخلافة الموحدية لم تبرأ من ذلك الصدع الذي أصابها ، ولم يكن ذلك التقرب الحديدي بينها وبين أوليائها القدماء ، وثيق العرى ، بل كانت تغشاه الريب المتبادلة والحذر الدائم .

وكذلك كان أمر الروابط القبلية بين الخلافة الموحدية ، وبين بعض القبائل البربرية القوية ، وطوائف العرب من أنصارها القدماء . وقد كانت هسكورة وهي من أقوى هذه القبائل وأكثرها عدداً ، تردد بين تأييد الخلافة الموحدية وبين الخروج عليها ، لاسبب العقيدة أو المبدأ ، ولكن لبواعث المصلحة الشخصية ، وقد لعبت بذلك دوراً هاماً في المرحلة الأخيرة ، من مصاير الخلافة الموحدية . وأما طوائف العرب مثل عرب الخلط وعرب المعقل وبني جابر وغيرهم ، فقد كان موقفهم من الخلافة الموحدية ، موقفاً ذمياً مؤلماً ، ولم يكن يحذوهم في تأييدها أية عاطفة من الولاء الثابت ، أو شكر الصنيعة ، مهما أغدقت عليهم ، وكان تقلبهم في تأييد الجهات المختلفة ، لاتباعه سوى البواعث المادية الوضيعة . وكانت أعمال التخريب والعيث والسفك والنهب ، هي جل ما يستغرق نشاطهم أينما حلوا ، وكانت خياناتهم

وتخاذلهم عن نصره حلفائهم ، في مختلف المعارك ، مضرب الأمثال ، وقد عانت الخلافة الموحدية كثيراً من أعمال غدرهم ونكولهم ، وذلك حسباً فصلناه في مختلف المواطن .
ويجب ألا ننسى تبعة الخلفاء الموحدين أنفسهم ، في العمل على تقويض أسس سلطانهم ودولتهم . فقد رأينا الخلفاء ، منذ وفاة يوسف المستنصر ، ينحدرون إلى هاوية الحرب الأهلية ، ويشغلون بالصرع فيما بينهم ، حول اغتنام العرش ، ويبددون قوى الدولة ومواردها ، في معارك أهلية عقيمة ، وقد استغرقت معارك المأمون ، ثم ولده الرشيد ، ويحيى المعتصم ، فترة طويلة وموارد زاهرة ، في الوقت الذي كان فيه بنو مرين يتوغلون داخل أنحاء المغرب ، ويوطدون سلطانهم فيها ، وقد اجترأ الموحدون في أواخر عهدهم على قتل خلفائهم ، فقتل الخليفة أبو محمد عبد الواحد ، ثم قتل خلفه الخليفة العادل ، وقتل المأمون أشياخ الموحدين ، الذين نكثوا بيعته ، وقد كانوا نحو مائة أوتريد ، وقد أفنيت بهذا العمل الدموي ، خلاصة الزعامة الموحدية ، وأهـار نفوذها القوي في توجيه الشون .
ومما تجدر ملاحظته أن الدولة الموحدية ، جازت عهداً طويلاً من الانحلال والتفكك ، استطال زهاء ستين عاماً ، قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وتدرجت في هذا الانحلال أطواراً متعاقبة ، فلم يكن سقوطها أمراً سريعاً مفاجئاً ، كما حدث في أمر الدولة المرابطية ، وإنما كانت كل مرحلة تنبئ عن المرحلة التالية ، ومن ثم فإن سقوطها لم يحدث في الأمة المغربية هزة عميقة ، كتلك التي أحدثها سقوط الدولة المرابطية ، ولم يقع في مراكش أو غيرها من المدن المغربية ، عند انهيار الحكم الموحدي ، شيء من تلك المناظر المروعة ، التي اقترنت بدخول الموحدين مراكش ، وغيرها من الحواضر ، واستقبلت الأمة المغربية دولتها الحاكمة الحديدية — دولة بني مرين — بشعور الاستبشار والرضى ، ولم يلبث أن تألق الحكم الجديد ، وسطعت دولة بني مرين الزاهرة ، وساد الأمن والنظام ، وعم اليسر والرخاء في الحواضر والبادي ، واختفت تلك الهزات والأحداث العنيفة ، التي لبثت تعكر صفاء السلم والحياة الوادعة ، أكثر من نصف قرن .

وعلى أثر انهيار الدولة الموحدية ، أنهـار ذلك الصرح القبلي الشامخ ، الذي كان ينتظم عقده ، من سائر قبائل المصامدة ، والموحدين ، كلما جد الحد أو أقبل الجهاد ، فيغدو عماد الجيوش الموحدية الحرارة ، وكانت هذه القبائل تنقسم

إلى مجموعتين : الأولى قبائل المصامدة ، والثانية قبائل الموحدية . فاما المجموعة الأولى ، فكانت تضم قبائل هسكورة ودكالة وهيلانة وحاجة وغيرها ، من قبائل المصامدة ، وكانت هسكورة أكبر هذه القبائل عددا وأكثرها بطونا ، ومن بطونها قبيلة جنفيسية (كنفيسية) ، وكانت لضخامتها ووفرة حشودها ، تحتل مكانة ملحوظة ، بين قبائل الدولة الموحدية ، بيد أن أهلها كانت تغلب عليهم البداوة ، لا يخالطون الموحدية ، فيما انغمسوا فيه من حياة الحضر والترف ، بل يؤثرون التزام جبالهم المتشعبة من جبال الأطلس الشاخنة ، والممتدة في جنوب شرقى مراكش حتى مشارف السوس الأقصى : ولما غلب بنو مرين على الدولة الموحدية ومجوا آثارها ، اضطهدوا هسكورة وفرضوا عليها المغارم الثقيلة ، فلزموا السكنية ، ولبثوا معتمدين بجبالهم ، ولم يرتضوا خدمة الدولة الجديدة ، ولم يدينوا بدعوتها ، وكانت كلما اشتدت عليهم وطأة عسكر بنى مرين ردوهم بدفع الإتاوات من آن لآخر . وكان رؤساؤهم يتمتعون بنوع من الاستقلال الخلى ، ويحشدون حولهم الحشود لحماية سلطانهم ، وتحصيل جباياتهم ، ويستعينون أحيانا ببعض قبائل الجبل من أهل بسائط السوس من بطون هسكورة وجنفيسية ، وكذلك ببعض بطون العرب مثل بنى الحارث من سفيان ، والشبانات من عرب المعقل . وهكذا لبثت هسكورة بعيدة عن الولاء لبنى مرين ، لاتدين بطاعتهم ، إلا عن طريق الجزية ، كما حدث أيام السلطان أبى الحسن المريني ، وأحيانا تناوئهم متى شعرت بضعف الدولة وتراخيا^(١) .

وكذلك استقلت بقية قبائل المصامدة غربى مراكش ، مثل دكالة وهيلانة وحاجة ، بأمرها ورياستها ، وكانت منازلهم تمتد غربا حتى شاطئ المحيط^(٢) .

وأما المجموعة الثانية فكانت تضم قبائل الموحدية ، ومنازلها على مقربة من مراكش ، وكانت منها سبع قبائل امتازت بالسبق والإيثار على غيرها ، لاعتناقها دعوة المهدي ابن تومرت ، قبل أن يتوطد أمره ، أوبعبارة أخرى قبل افتتاح مراكش . وهذه القبائل السبع تنتمى إلى المصامدة ، وهى هرغة قبيلة الإمام المهدي ، وهتاتة ، وتينملل وهم الذين بايعوه مع هرغة فى بداية أمره ، وجنفيسية ، وهزرجة ، وجدميوة (كدميوة) ووريكة . وتلحق بها قبيلة ثامنة ، هى كومية قبيلة الخليفة عبد المؤمن ابن على كبير صحابة المهدي . وكانت هذه القبائل الثمان لسبقها فى البيعة والطاعة ، تتمتع بمزايا الإيثار فى السلطان والنفوذ ، وتولى المناصب والقيام بمهام الأمور . فلما

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٢ و ٢٦٣ . (٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٤ .

انهارت الدولة الموحدية ضعف أمرهم ، وأضحوا من الرعايا العاديين للدولة الغالبة^(١) . وقد دثرت قبيلة هرغة — قبيلة المهدي — بعد سقوط الدولة بقليل ، وفقدت كل مكانة ونفوذ ، وكذا كان مصير قبيلة أو أهل تينملل ، وهم الذين نزل بينهم المهدي وأعلن إمامته ، وأنشأ داره ومسجده ، وكان لهم شأن في مناصب الدولة ، وعمالاتها ، ولكن رجالاتهم انقضوا غير بعيد ، وملك أمرهم غيرهم من زعماء المصامدة . وكان قبر المهدي لديهم بتينملل ، ما يزال حتى العصر الذي كتب فيه ابن خلدون تاريخه ، حوالى سنة ٧٨٠ هـ ، ما يزال مزاراً مرموقاً ، وعلى ما كان عليه من التجارة والتعظيم ، يتلى به القرآن والأحزاب باستمرار ، ويقوم عليه الحجاب والحفاظ ، وتترى إليه الوفود من كل فج ، وتقدم الصدقات نذراً وتبركاً . وكان أهل تينملل ومعهم كافة المصامدة ، يعتقدون اعتقاداً جازماً ، بأن أمر المهدي سيعود ، وأن الدولة ستظهر على أهل المشرق ، ويملاً المهدي الأرض عدلاً كما ملكت جوراً ، وذلك وفق ما وعدهم به^(٢) .

وأما هنتانة ، فكانت من أشد قبائل الموحيدين بأساً وتمكناً في الدولة ، وذلك لما كان عليه زعيمها الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاني ، أحد الصحب العشرة ، من مكانة ملحوظ لدى المهدي ، وقد لبث أبناؤه يتبوأون أرفع مناصب الدولة ، وانتهى زعيمهم أيام الناصر ، الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص ، بأن غلب على ولاية إفريقية ، ومهد ملكها لعقبة ، فأقاموا بها دولة مستقلة عظيمة . ولما انتهت الدولة الموحدية ، لبثت هنتانة في موطنها القديم بجبال درن ، على مقربة من مراکش ، وكانوا أيام بنى مرين ، من القبائل الخاضعة لسلطان الدولة الجديدة ، يولون عليها من شاءوا لضبطها وتحصيل جبايتها . وكانت قبيلة جدميوه تابعة لهنتانة ، وتينملل ، وجبلهم بجوار جبل هنتانة ، فلما انهارت الدولة افترق أمرهم ، وخضع بعضهم لبنى مرين ، وامتنع البعض الآخر عن الطاعة . وكانت وريكة كذلك من القبائل المحاورة لهنتانة ، وكانت بينهم فتن وحروب مستمرة هلك فيها كثير من الفريقين المتخاصمين^(٣) . وهكذا كانت الخاتمة المؤسفة ، لتلك المجموعة من القبائل البربرية والبدوية ، التي هزتها دعوة المهدي ابن تومرت إلى الأعماق ، ومكنتها من أن تنشئ دولة من أعظم الدول ، في الغرب الإسلامى ، هى الدولة الموحدية الكبرى .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٦ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٧ ، وراجع ماورد في القسم الأول بشأن قبر المهدي ص ١٩٨ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٠ و ٢٧١ .

الكتاب السجدي عشر

الممالك الإسبانية النصرانية

خلال العصر الموحدي

الفصل الأول

قشتالة وليون

منذ عهد ألفونسو الثامن حتى عهد فرناندو الثالث

ألفونسو الثامن الملقب بالنبييل . الممالك النصرانية الإسبانية في عهده . ألفونسو الثاني ملك أراجون . العلائق بين قشتالة وأراجون . اجتماع ألفونسو الثامن وألفونسو الثاني . تسوية العلائق بينهما وتحالفهما . زواج ألفونسو الثامن من ابنة ملك إنجلترا هنرى الثاني . ألفونسو الثامن بشهر الحرب على نافارا . غزوه للأراضي الإسلامية . استيلاؤه على قونقة . توثق العلائق بين قشتالة وأراجون . التحكيم بين قشتالة ونافارا . تنظيم فتوح الإسترداد بين قشتالة وأراجون . اضطراب العلائق بين قشتالة ونافارا . وفاة فرناندو ملك ليون . يخلفه ولده ألفونسو التاسع . غزوات القشتاليين لأراضي الأندلس حتى موقعة الأرك . غزوات الموحيدين لأراضي قشتالة . تحالف ملك قشتالة وبيدرو الثاني ملك أراجون . تعاونهما في محاربة نافارا وليون . استنصار سانشو ملك نافارا بالموحيدين . عبوره إلى الغرب وزيارته للخليفة الناصر . غزو ملك قشتالة لنافارا واستيلاؤه على جيبوسكوا . اهتمام البابوية بالتجاه ملكي نافارا وليون إلى الموحيدين . مطالبتهما بإلغاء زواج ألفونسو التاسع من ابنة عمه برنجيلا . إلغاء هذا الزواج وآثاره . إهتمام ألفونسو الثامن بفتوح الإسترداد . سعيه في جمع كلمة الملوك النصارى . تكتل أسبانيا النصرانية ضد أسبانيا المسلمة . تأييد البابوية والنصرانية لهذا التكتل . عبور الناصر إلى الأندلس . موقعة العقاب ونتائجها المشئومة . غزوات ألفونسو الثامن لأراضي الأندلس . وفاته وخلاله . إصلاحاته الداخلية . ولده الطفل إنريكي يخلفه على العرش . وقوعه تحت وصاية آل لارا . مشروع لزواجه وإلغاء البابوية لهذا المشروع . وفاة إنريكي في حادث . الملكة برنجيلا تنصب ولدها فرناندو الثالث على عرش قشتالة . فرناندو الثاني ملك ليون . يعقد الصلح مع ألفونسو الثامن . وفاته وقيام ولده ألفونسو التاسع في العرش . عقده لمجلس الكورتيس . يعقد الصلح مع قشتالة والبرتغال . زواجه من الأميرة تريسا البرتغالية وإلغاء البابوية لهذا الزواج . تحالفه مع الموحيدين . عقد التحالف بين نافارا وليون والموحيدين . عود ألفونسو التاسع إلى التفاهم مع قشتالة . زواجه من الأميرة برنجيلا ثم إلغاء هذا الزواج . تردده بين خاصمة قشتالة ومسالمتها . لإجتماع كلمة الملوك النصارى تحت ضغط البابوية . غزوات القشتاليين لقطاع أبدة ، ومحاصرة ألفونسو التاسع لقاصرش . قيام فرناندو الثالث في عرش قشتالة أثر وفاة ألفونسو الثامن . محاولة ملك ليون معارضته وانتزاع العرش منه . فشل هذه المحاولة . عقد السلام بين قشتالة وليون . عود ألفونسو التاسع لمحاصرة قاصرش وافتتاحها . استيلاؤه على ماردة وبطليوس . وفاته . بترك العرش لابنتيه . تنازلهما عنه لفرناندو الثالث . عود اتحاد قشتالة وليون . فرناندو الثالث ملك قشتالة وليون ، وخايي الأول ملك أراجون . إهتمام فرناندو الثالث بفتوح الإسترداد . ظروف الأندلس تمهد لهذه الفتوح . غزوات فرناندو في الأندلس الوسطى . استيلاؤه على أبدة . استيلاؤه على قرطبة وأحوازا . تنافس ابن هود

وابن الأحمر على مصانعه . وفاة ابن هود واحتواء ابن الأحمر على معظم تراثه . اهتمام فرناندو بالضغط على ابن الأحمر . ابن الأحمر يعقد الصلح مع فرناندو ويعترف بطاعته . أعظم أعمال فرناندو استيلاؤه على إشبيلية . استيلاؤه على بقية قواعد هذه المنطقة . عنايته بالشئون الداخلية . إصلاحه لنظم الحكم والإدارة إنشاؤه لحامسة شلمنقة . إنشاؤه لدار الصناعة بإشبيلية . مشروعه في توحيد القوانين القشتالية . إتمام هذا المشروع في عهد ولده ألفونسو العاشر . وفاته وخلالها .

١ - مملكة قشتالة

انتهينا فيما تقدم ، من تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية حتى وفاة القيصر ألفونسو ريمونديس (١١٥٧ م) وما أعقب وفاته من تقسيم مملكته ، بين ولديه سانشو وفرناندو ، حيث اختص أكبرهما سانشو بعرش قشتالة ، واختص الأصغر فرناندو بمملكة ليون وجليقية ، وما حدث بعد ذلك من وفاة سانشو فجأة في سنة ١١٥٨ م ، لعام فقط من حكمه ، دون أن يترك لورثة العرش سوى طفل في الثالثة من عمره هو ألفونسو ، وما أثارته مسألة الوصاية على هذا الأمير الطفل في قشتالة من حرب أهلية مضطربة بين أسرتي كاسترو ولارا ، استمرت بضعة أعوام ، وانتهت حينما بلغ الطفل الحادية عشر من عمره بإعلانه ملكاً على قشتالة ، تحت كنف أسرة لارا القوية .

كما تحدثنا فيما تقدم ، عن قيام جماعات الفرسان الدينية ، في الممالك الإسبانية النصرانية ، وعن قيام مملكة البرتغال ، واشتداد ساعدها ، في عصر ملكها ومنشأ الحقيقي ألفونسو هنريكيذ .

ونود الآن أن نتابع تاريخ هذه الممالك الإسبانية النصرانية ، خلال العصر الموحدى ، وذلك في شيء من الإيجاز ، ولاسيما فيما يتعلق بمراحل الصراع ، بينها وبين الأندلس المسلمة ، أو بعبارة أخرى بينها وبين الدولة الموحدية ، صاحبة السيادة على الأندلس في تلك الفترة ، وذلك لأننا تتبعنا مراحل هذا الصراع خلال كتابنا بإفاضة وافية .

بدأ ملك قشتالة الصبي ألفونسو الثامن ، الملقب بألفونسو النبيل ، حكمه حينما بلغ الرابعة عشرة في سنة ١١٦٩ م . وكانت اسبانيا النصرانية ، تنقسم يومئذ إلى أربع ممالك ، هي قشتالة وليون وأراجون ونافارا (نبرة) ، هذا عدا مملكة البرتغال ، وكانت تشق طريقها الخاص في غرب شبه الجزيرة ، وتتخذ لنفسها سياسة مستقلة ، عن باقي الممالك الإسبانية . وكانت قشتالة ، بالرغم من انفصال ليون عنها ، وقيامها بمملكة مستقلة ، ما تزال أكبر الممالك الإسبانية رقعة ،

وأوفرها قوة وموارد ، تليها في ذلك مملكة أراجون التي اتسعت رقعتها ، ونمت قوتها باتحاد إمارة قطلونية وإمارة برشلونة معها ، وذلك منذ سنة ١١٣٧ م حسبما سبق أن فصلناه في موضعه . وكانت ليون ثالثة الممالك الإسبانية ، بيد أنها لم تكن في الواقع ، بالرغم من استقلالها وانفصالها عن قشتالة ، وفقاً لوصية القيصر ألفونسو ريمونديس ، سوى إمارة ضعيفة تشق طريقها بصعوبة ، ولم يكن لها كبير شأن ، في سير الحوادث الهامة في شبه الجزيرة ، وكان التوتر سائداً بينها وبين شقيقها الكبرى قشتالة . وكانت نافارا وهى رابعة هذه الممالك كعهدها دائماً ، مملكة صغيرة الرقعة ، ولكن قوية الشكيمة ، متمتعة وراء جبالها الوعرة ، وحرصها الماثور على استقلالها .

وكان على عرش أراجون في الوقت نفسه ملك فتي آخر ، هو رامون برنجبر الذى سمي ألفونسو الثانى ، وقد تولى العرش عقب وفاة أبيه رامون برنجبر الربع في سنة ١١٦٢ م ، ولقب كأبيه بملك أراجون وقطلونية ، وكانت علائق أراجون وقشتالة ، منذ أواخر عهد القيصر ألفونسو ريمونديس ، على أتم صفاء ووافق ، وذلك لما كان يربط القيصر بعاهل أراجون رامون برنجبر الرابع ، من وشائج المصاهرة ، بزواجه ، من ابنته الملكة برنجيلا . وكان أول عمل قام به ألفونسو الثامن ، أن اجتمع في ساهاجون بزميله الفتي ملك أراجون ألفونسو الثانى ، وذلك في سنة ١١٧٠ م ، وقد شهد هذا الاجتماع أكابر الأحرار ، والأشراف من المملكتين ، واتفق الملكان على تسوية سائر الشئون والخلافات القائمة بين المملكتين ، وعقدوا معا حلفاً ضد باقى الملوك والأمراء ، ماعدا ملك إنجلترا هنرى الثانى ، وذلك لأن ألفونسو الثامن كان قد عقد خطبته على ابنته الأميرة إلبينور ، ثم سار الملكان إلى سرقسطة عاصمة أراجوان ، وقضى ألفونسو الثامن في سرقسطة زهاء شهرين في انتظار مقدم عروسه الأميرة الإنجليزية ، وكانت قادمة من إنجلترا في حاشية فخمة من الأحرار والفرسان الإنجليز والنورمان والغسقونيين ، وكانت قد سارت بعثة ملكية قشتالية ، على رأسها أسقف طليطلة حتى ثغر بوردو ، وعادت بالأميرة الإنجليزية إلى اسبانيا . وسار الملكان إلى طرسونة حيث عقد زواج ألفونسو الثامن بالأميرة إلبينور في حفلات باذخة ، في تلك المدينة الأرجونية المتواضعة .

وكانت أول حركة قام بها ألفونسو الثامن هو شهره الحرب على نافارا ،

وكان سانشو السادس ملك نافارا قد انتهر فرصة قصر ألفونسو ، وانتزع جزءاً كبيراً من أراضي قشتالة المجاورة ، فلما عقد التحالف بين أراجون وقشتالة ، زحف ألفونسو على نافارا في جيش ضخم في صيف سنة ١١٧٣ م ، واستولى على بريفسكا ولوجرينو وناباريقي ، وهزم ملك نافارا ، وطارده حتى أحواز بنبلونة . وبعد ذلك بعامين عاد ملك قشتالة وحليفه ملك أراجون ، فشهر الحرب ضد نافارا ، وأوقعا بها هزائم أخرى .

وكانت فكرة غزو الأراضي الإسلامية ، هي الهدف الأول للسياسة القشتالية . ولم يشذ ألفونسو الثامن عن هذه القاعدة ، ففي أواخر سنة ١١٧٦ م ، خرج ألفونسو ووصيه السابق الكونت نونيو دي لارا ، واتجها صوب حدود شرق الأندلس ، وكانت مدينة قونقة إحدى قواعد الحدود الإسلامية ، هدف هذه الغزوة ، خصوصاً وقد كان الموحدون ، يتخذونها قاعدة للإغارة على أراضي شرق قشتالة ، واضطرت القوات القشتالية ، نظراً لمناعة المدينة ، أن تضرب حولها الحصار ، واستمرت قونقة ، صامدة نحو تسعة أشهر ، ولم تستطع الأمداد الموحدية أن تصل إليها ، حيث اعترضتها قوات ملك أراجون حليف ملك قشتالة ، وسقطت المدينة المسلمة في النهاية ، في أيدى القشتاليين ، في سبتمبر سنة ١١٧٧ م ، وذلك كله حسبما سبق أن فصلناه في موضعه^(١) .

وجدد ملك قشتالة وملك أراجون تحالفهما ، بمناسبة ما أبداه ملك أراجون ، من المعاونة في فتح قونقة ، وأحلّ ملك قشتالة زميله الفتيّ ، من عهد الولاء الذي كانت ترتبط به أراجون نحو قشتالة ، منذ عهد رامون برنجير الرابع . وفي الوقت نفسه اتفق ملك قشتالة مع خصمه سانشو السادس ملك نافارا ، على تسوية ما بينهما من خلاف ، واتفقا على أن يخضعا في ذلك لتحكيم هنري الثاني ملك إنجلترا ، وبعث كل من الملكين سفراء إلى لندن ، ليعرضا ما بينهما من أوجه الخلاف . وبعد أن درس هنري الثاني ، وجوه النظر المختلفة ، وأخذ رأى البرلمان في ذلك ، أصدر قراره بأن يرد كل من الملكين إلى الآخر بعض القواعد والأراضي ، التي كان يدعى كل ملكيتها ، وأن يرد ملك قشتالة بالأخص إلى نافارا ، لوجرينو وأوسيوخو وناباريقي ، وأن يدفع ملك قشتالة للملك نافارا مدى عشرة أعوام ثلاثة آلاف مراقيدي كل عام ، فقبل الملكان هذا القرار ،

(١) تراجع قصة حصار قونقة وسقوطها في ص ٩٦ ، ٩٧ من هذا الكتاب .

وعقد بينهما السلم لمدة عشرة أعوام . وكانت فكرة التحالف بين قشتالة وأراجون ، وهما أقوى الممالك الإسبانية النصرانية ، تنطوي قبل كل شيء على التكتل ضد الجبهة الإسلامية في شبه الجزيرة ، والتعاون في دفع حركة الإسترداد النصرانية La Reconquista ضد الأندلس ، ومن ثم فقد كان لابد من تنظيم هذه الحركة ، وتحديد مناطقها بالنسبة لكل من المملكتين ، وقد عقد اتفاق جديد من هذا النوع بين الملكين في بلدة كسولا Cazola حيث التقيا ، وذلك في سنة ١١٧٩ م ، وفيه خصت مملكة أراجون بالفتوح في منطقة بلنسية الإسلامية جنوباً حتى ثغر لقنت ، وخصت مملكة قشتالة بالفتوح في سائر الأراضي الواقعة جنوب هذا الثغر ، وجاء هذا الاتفاق ، مؤيداً لأول اتفاق عقد بهذا الشأن ، بين القيصر ألفونسو ريمونديس ، والكونت رامون برنجير ، بمدينة كربون في سنة ١١٥٠ م ، حسبما سبق أن أشرنا إليه في موضعه^(١) .

وعقد ملكا قشتالة وأراجون أيضاً ، حلفاً جديداً ضد ملك نافارا ، لأنه بدأ يعارض في قرارات التحكيم التي أصدرها ملك إنجلترا ، والزم كل من الفريقين بتنفيذها ، واضطر ملك قشتالة من جراء ذلك أن يحتل لوجرنيو وناباريقي وبريفيسكا وغيرها ، وهي الأماكن التي تقرر ردها إلى نافارا ، لأن ملك نافارا أي من جانبه أن يرد الأماكن التي تقرر ردها إلى ملك قشتالة . وقد اقترح ملك أراجون ، أن يعقد اجتماع جديد بين الملكين المتخاصمين ، وعقد هذا الاجتماع بالفعل في جريدا ، في سنة ١١٨٥ م ، ولكنه لم يسفر عن نتائج حاسمة ، واستمر التوتر في العلائق قائماً بين نافارا وقشتالة .

وفي سنة ١١٨٨ م . توفي فرناندو الثاني ملك ليون وجليقية ، وهو كما نذكر عم ملك قشتالة ، وخلفه في الحكم ولده ألفونسو التاسع ، ورأى ملك ليون الحديد ، أن يعدل سياسة الخصومة التي كان يتبعها أبوه نحو قشتالة ، وأن يعقد معها أواصر الود ، فقابل ألفونسو الثامن في كريون ، وقدم إليه طاعته ، وأسبغ عليه ملك قشتالة ثوب الفروسية ، وهكذا ارتدت ليون إلى التفاهم مع قشتالة ، بعد أن لبثت حيناً تناصبها العداء .

ولسنا في حاجة لأن نكرر هنا ، الحديث عند الغزوات المتوالية ، التي قام

(١) راجع ص ٥٠٩ من القسم الأول من هذا الكتاب .

بها القشتاليون في أراضي الأندلس ، منذ استيلائهم على حصن شنتفيلة في سنة ١١٨٢ م ، حتى غزوة مطران طليطلة وفرسان قلعة رباح لأراضي جيان وقرطبة في سنة ١١٩١ م ، وخروج ملك قشتالة في قواته لاختراق جبال الشارات ، وغزو أراضي الأندلس مرة أخرى في سنة ١١٩٤ م ، على أثر انتهاء أجل الهدنة التي سبق أن عقدها مع الخليفة يعقوب المنصور ، منتهزاً فرصة انشغال المنصور بحوادث إفريقية ، وما كان لهذا العدوان من أثر ، في تحرك الخليفة الموحدى ، وعبوره إلى الأندلس في جيوشه الزاخرة ، لقمح هذا العدوان ، وما تلا ذلك من نشوب موقعة الأرك العظيمة بين الموحيدين وبين قوى قشتالة ، وذلك في ١٨ يولييه سنة ١١٩٤ م (٩ شعبان سنة ٥٩١ هـ) ، وهي معركة انتهت بنصر الموحيدين الباهر ، وذلك كله حسبما فصلناه فيما تقدم من كتابنا .

وقد وضعت هزيمة الأرك ، حداً مؤقتاً ، لتفوق قشتالة العسكرية في شبه الجزيرة ، ولنشاطها المحرّب في أراضي الأندلس ، وكانت فرصة انتهزها سانشو ملك نافارا ، فأغار على أراضي قشتالة من ناحية سرّية وعاث فيها ، وهذا إلى ما قام به الموحدون من جانبهم ، من استردادهم لقلعة رباح ، ومن غزوات مخربة متوالية ، في منطقة طليطلة والقلعة ، ووادي الحجارة وغيرها ، وما قام به ألفونسو التاسع ملك ليون من غزو أراضي قشتالة بمعاونة الموحيدين ، واجتياحها حتى مدينة كريون ، وهي غزوة تعاونت قوات قشتالة وأراجون في دفعها (١) .

ولم يجد ملك قشتالة ، إزاء هذه الخطوب المتوالية ، ملاذاً إلا في مخالفة أراجون . وكان ملكها ألفونسو الثاني قد توفي في سنة ١١٩٦ م ، وخلفه ولده الملك بيدور الثاني ، وتوثقت أواصر هذا الحلف مع أراجون ، وغدا ملكها الحديد ، أكبر عون للملك قشتالة . وبدأت ثمار هذا الحلف في معاونة ملك أراجون لقشتالة في محاربة نافارا وليون وحلفائهما الموحيدين ، وشهر الملكان الحرب على نافارا ، ثم على ليون ، ونفذت الجيوش المتحدة إلى ليون وعاثت فيها . وترتب على هذه الحرب أن ألغى مشروع زواج ألفونسو التاسع ملك ليون ، من الأميرة برنجيلا ابنة ملك قشتالة ، وكان ألفونسو الثامن قد جعل مهرها رد الأراضي والحصون التي اقتطعها من ليون .

ولما شعر سانشو ملك نافارا ، بما يهدده من جراء هذا الحلف القوى ، بين خصميه ملكي أراجون وقشتالة ، فكر في الاستنصار بالموحدين على غرار ملك ليون ، وعبر البحر في جماعة كبيرة من الفرسان إلى مراكش ، ملتجئاً إلى الخليفة المنصور ومستنجداً به ، ولكنه ماكاد يصل إلى العاصمة الموحدية حتى كان المنصور قد توفي ، وخلفه ولده محمد الناصر (أواخر يناير سنة ١١٩٩) فاستقبل الناصر الملك النصراني بمنتهى الحفاوة والتكريم ، وأمضى سانشو في مراكش زهاء عامين ، وتوثقت علاقته بالخليفة الموحدي وببلاطه ، حتى كاد وفقاً لقول الرواية الإسلامية ، أن يعتنق الإسلام^(١) ، وفي الرواية النصرانية أن سانشو اشترك خلال إقامته بالمغرب ، في حروب الناصر في إفريقية وأبلى فيها^(٢) ، وهو ما لم نجد له أثراً في الرواية العربية .

ويجب أن نذكر أن هذه الزيارة من جانب ملك نافارا لبلاط مراكش ، قد تلتها زيارته الأخرى للناصر ، عقب عبوره إلى الأندلس في سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) ، وقد زاره ملك نافارا خلال إقامته باشبيلية ، وهي الزيارة التي تقدمها إلينا الرواية العربية في عبارات غامضة رنانة في نفس الوقت ، وقد سبق أن أشرنا إليها تفصيلاً .

وفي خلال ذلك ، انتهز ملك قشتالة الفرصة ، وغزا أراضي نافارا ، وكانت ولاية جييوسكوا ، بالرغم من كونها لبثت دهرًا منضمة إلى قشتالة ، قد احتلها ملوك نافارا ، وضموها إلى مملكتهم ، فلما نفذ ألفونسو الثامن بقواته ، إلى أراضي نافارا ، وحاصر مدينة فتورية ، طلب إليه أهل جييوسكوا ، أن تعود ولايتهم إلى أراضي قشتالة ، فترك حصار فتورية للدون دى هارو ، وسار إلى جييوسكوا وافق مع زعمائها على شروط وضعها تحت حماية قشتالة ، واحتلت قواته سان سبستيان ، وفوانتي رايبا ، وحصن بلاسكواجا ووادي اديارسون كما استولى على مقاطعة ألبية (سنة ١٢٠٠ م) ، وعلى أثر ذلك سلمت فتورية ، وذلك بموافقة سانشو نفسه ، وكان ننتبه أسقف بنبلونة قد عبر البحر إلى مراكش لينبئه بما حدث وعاد بموافقته ، وبذلك فقدت نافارا شطراً كبيراً من أراضيها^(٣) .

(١) راجع ص ٢٩٠ من هذا الكتاب .

(٢) La Fuente : Historia General de Espana, T. III. p. 346

(٣) La Fuente : ibid ; T. III. p. 346

وحاول ملك أراجون في نفس الوقت أن يحصل على نصيبه من أراضي نافارا ، فهاجمها بقواته ، ولكنه لم يستطع أن يفتح منها ، إلا بضعة أماكن صغيرة . ودافعت بلبونة ، وغيرها من المدن الكبيرة ، عن نفسها أعنف دفاع ، واستطاعت أن ترد القوى المغيرة على أعقابها .

وقد أثار التجاء ملك ليون ألفونسو التاسع ، وملك نافارا سانشو القوى ، إلى الموحدين ، صدى سيئاً في اسبانيا ، واهتمت البابوية ، بجنوح هذين الملكين النصرانيين إلى مخالفة المسلمين أعداء الدين ، وبعث البابا سلسطينو الثالث ، بسفير خاص من قبله ، ليسدى النصيح إلى الملكين الخارجين ، وليهددهما بصدور القرار بنفيهما من الكنيسة ، إذا لم يعدلا عن مسلكهما ، فنزل سانشو مرغماً على هذا الوعيد ، وعقد هدنة مع خصمه ، ملكي أراجون وقشتالة ، ولكنه نقضها قبل بعيد ، ثم توفي البابا سلسطينو ، وخافه البابا إنوسان الثالث ، فبعث إلى اسبانيا برسول جديد ، ليرى على من تقع تبعة هذه الحروب الأهلية المتوالية ، بين الملوك النصراني ، ويعمل في نفس الوقت على إلغاء زواج ألفونسو التاسع من ابنة عمه الأميرة برنجيلا ابنة ألفونسو الثامن ، وكان الزواج قد تم قبل ذلك ببضعة أعوام ، واعتبرته البابوية باطلا لشدة القرابة بين الزوجين .

وقد أثارت مطالبة البابوية بإلغاء هذا الزواج ، مشكلة قومية في ليون ، وخصوصاً بعد أن أصدر البابا إنوسان الثالث قراره بالحرمان الكنسى ، وانقسم الأحبار في شأنه ، بين مؤيد له ، ومنكر لصحته . ومع ذلك فقد عاد البابا ، ووافق على تخفيف نصوص الحرمان ، وسمح بتنصير أول ولد جاء من هذا الزواج في كنيسة ليون الكبرى . وقد كان هذا الإبن هو فرناندو الذى احتفل الكورئيس بتعيينه ولياً للعهد (سنة ١٢٠٤م) ، والذى غدا فيما بعد فرناندو الثالث ملك قشتالة الكبرى ، وفتح قرطبة وإشبيلية . وبعد ذلك ارتضت الملكة برنجيلا الطلاق من زوجها ، وألغى البابا قرار الحرمان الكنسى ، وانتهت بذلك مشكلة كانت تهدد سلام ليون وسكيتها .

وكاد الخلاف ينشب من جديد بين قشتالة وليون ، بسبب طلاق الأميرة القشتالية ، ومطالبة أبيها برد ما استولت عليه ليون من الحصون والأراضي مهراً لها ، ولكن تغلب صوت العقل والسلم . وكان ألفونسو الثامن ، يشعر بأن مهمته الأساسية هي أن يتفرغ لمقارعة الموحدين ، وفتوح الإسترداد La Reconquista

وأن يبذل كل ما في وسعه لجمع كلمة الملوك النصارى فى شبه الجزيرة ، للتعاون فى تحقيق هذه المهمة الكبرى ، وقد نجح ألفونسو فى سعيه . ونحن نعرف أنه كانت تربطه بملك أراجون بيدرو الثانى أواصر التحالف الوثيق ، ثم كان أن زاره سانشو السابع (القوى) ملك نافارا فى وادى الحجارة (سنة ١٢٠٧ م) ، وتم التفاهم بين الخصمين القديمين ، وعقدت بينهما الهدنة والتحالف لمدة خمسة أعوام ، ووعد ملك قشتالة بتوسطه لدى بيدرو الثانى لكى يعقد مثل هذه الهدنة مع الملك سانشو^(١) ، وفى نفس الوقت عقد السلم بين ملكى قشتالة وليون على نسق ما تم فى مؤتمر وادى الحجارة ، وأخيراً تم التفاهم بين ألفونسو الثامن ، وسانشو ملك البرتغال ، وتوثق التحالف بينهما بزواج الأميرة أوركا القشتالية ، بألفونسو ولى عهد البرتغال .

وهكذا اجتمعت الممالك الإسبانية النصرانية كلها فى جبهة واحدة ، تحت رعاية ملك قشتالة وقيادته .

وكان اجتماع كلمة اسبانيا النصرانية على هذا النحو ، لا يقصد به فقط تحقيق سلامها الداخلى ، بل كان ينطوى قبل كل شىء على المضى فى تحقيق الهدف الرئيسى الذى تدخر له اسبانيا النصرانية كل مواردها وقواها ، وهو محاربة اسبانيا المسلمة ، ودفع تيار فتوح « الاسترداد » بأقصى ما يستطيع . ولم تكن اسبانيا النصرانية تقف وحدها إزاء هذا الهدف ، بل كانت البابوية والنصرانية كلها ، تحبو تلك الغاية بعطفها ومؤازرتها الفعلية ، ولم تبخل البابوية بأن تسبغ الصفة الصليبية على أية طور من أطوار هذا الصراع ، وكان البابا إنوسان الثالث ، يشمل بنصحه ورعايته كل حركة تقارب واتحاد بين الملوك الإسبان ، وكان فوق ذلك يوعز إلى الأجبار فى جنوب فرنسا ، أن يبثوا كل دعاية ممكنة ، لحشد السادة والفرسان ، للتطوع إلى هذه الحرب المقدسة . وقد سبق أن أشرنا فى الفصل الذى خصصناه لموقعة العقاب إلى تلك الجهود فى حشد قوى النصرانية كلها ضد اسبانيا المسلمة . وكان عبور الخليفة محمد الناصر فى جيوشه الحرارة إلى الأندلس فى أواخر سنة ٦٠٧ هـ (١٢١١ م) عاملاً جديداً فى إذكاء تلك الحركة الصليبية . ولم يلبث ملك قشتالة أن بدأ أهباته لشهر الحرب على الأندلس ، وبدأ القشتاليون غزواتهم المخربة للأندلس ، وذلك بالرغم من قيام الهدنة بينهما

(١) راجع ص ٢٨٨ من هذا الكتاب .

وبين الموحدين ، وكان عبور الناصر رداً على هذا التحدى السافر ، وبدأ الناصر بالعمل على وقف هذا العدوان ، فزحف أولاً نحو منطقة جيان واستولى على قلعة شلبطرة ، ثم عاد إلى إشبيلية وضاعف أهباته وحشوده ، وخرج للمرة الثانية ، من إشبيلية في المحرم سنة ٦٠٩ هـ (يونيه ١٢١٢ م) . وكان ألفونسو الثامن ، وحلفاؤه الملوك الإسبان ، قد استكملوا أهباتهم عندئذ ، ووفد لمؤازرتهم سيل من الأبحار والفرسان ، والمتطوعة من وراء البرنيه ، واتخذت الحرب الصليبية شكلها الحقيقي ، والتقت الجيوش النصرانية المتحدة بالجيوش الموحدية في هضبة العقاب أسفل جبال الشارات (سيراً مورينا) ، وكانت الموقعة المشهورة التي هزمت فيها الجيوش الموحدية شر هزيمة ، ومزقت شر ممزق ، وذلك في الخامس عشر من صفر سنة ٦٠٩ هـ (١٦ يولية ١٢١٢ م) ، وذلك كله حسبما فصلناه فيما تقدم تفصيلاً شافياً .

وكانت نكبة العقاب ، نذير انحلال الجبهة الدفاعية الموحدية للأندلس ، ونذير انهيار الأندلس ذاتها ، وقد عجل بهذا الانهيار ، ما اضطرت به الأندلس على أثر ذلك من ثورات جديدة ، ومن تبدد قواها ومواردها الباقية ، في حروب أهلية جديدة ، ومنافسات على الزعامة ، كان لها أسوأ الأثر في تفكك وحدتها ، وفي تمهيد الطريق إلى سقوط قواعدها ، واقتطاع أراضيها .

ولم يفت إسبانيا النصرانية ، بعد أن خرجت من موقعة العقاب ، مكلفة بغار الظفر الساحق ، أن تعمل لاجتناء الفرصة السانحة ، وخرج ألفونسو الثامن في ربيع سنة ١٢١٣ م ، لغزو أراضي الأندلس ، من ناحية قلعة رباح ، واستولى على بلدة الكرس ، وحول مسجدتها إلى كنيسة .

وبالرغم مما حدث هذا العام في قشتالة ، من تلف الزروع ونفق الماشية ، وانتشار القحط ، وموت الكثيرين من الجوع والمرض ، فإن ملك قشتالة لم يحجم عن استئناف الغزو ، وفي تلك المرة اخترق جبال الشارات ، وسار منحدرًا نحو بياسة ، وضرب حولها الحصار ، ولكن المسلمين كانوا قد أحكموا تحصينها ، وطال الحصار ، والمدينة صامدة ، وحل القحط في المعسكر النصراني ، فاضطر ملك قشتالة إلى رفع الحصار ، وعاد في قواته إلى طليطلة . ولم تمض بضعة أشهر حتى غادر العاصمة ، وسار غرباً بقصد لقاء ملك البرتغال ومفاوضته ، ولكنه ما كاد يصل إلى بلدة جوتيرى مونيوس ، حتى مرض وتفاقم مرضه

بسرعة ، وتوفي في اليوم السادس من أكتوبر سنة ١٢١٤ م .

ويوضع ألفونسو الثامن في ثبث ملوك اسبانيا العظام ، وقد أسبغ عليه انتصاره في موقعة العقاب هالة من المجد ، وفي ظله احتفظت قشتالة بتفوقها السياسي والعسكري ، على باقى الممالك الإسبانية النصرانية ، على نحو ما كانت عليه أيام فرناندو الأول وألفونسو السابع (ألفونسو ريمونديس) . وكان هذا التفوق يتخذ أحيانا صفة السيادة على هذه الممالك ، وكان يثر لديها كثيراً من المراتة والاحتجاج ، ويحملها أحيانا على التحالف ضد قشتالة^(١) .

وكان ألفونسو الثامن ، فضلاً عما أحرزه من الظفر العسكري الباهر ، ملكاً مصاحباً ، وكان من أثر عنايته بشئون الإصلاح ، توسعه في إنشاء البلديات ، وتوسيع مهامها واختصاصاتها ، وإصداره القوانين الخاصة بذلك Fueros . وقد أنشأ ألفونسو أول جامعة إسبانية هي جامعة بالنسيا ، Palencia وذلك في سنة ١٢٠٩ م ، وجلب إليها الأساتذة من فرنسا وإيطاليا . وكان حسبما تصفه الرواية الإسبانية ، يتسم بالتقى والورع ، وقد أنشأ عدداً من الأسقفيات الجديدة ، والأديار الفخمة ، وكان من بينها دير برغش الشهير المسمى بالدير الملكي (لاس هوياجاس) ، وأسبغ على الكنائس والأديار امتيازات جمّة .

وخلف ألفونسو الثامن على عرش قشتالة ، ولده هنرى الأول (إنريكي) ولما يبلغ الحادية عشرة من عمره ، وتولت الوصاية عليه أمه الملكة إلينور ، وأكن لأجل قصير فقط ، إذ توفيت بعد ذلك بقليل ، وعندئذ تولت الوصاية عليه أخته الملكة برنجيلا ، مطلقة ألفونسو التاسع ملك ليون ، بيد أنها لم تستطع مقاومة أطاع آل لارا الأقوياء في انتزاع الوصاية ، وهم الكونت ألبارو نونيز وإخوته ، فتنازلت إليهم عنها بشروط خاصة ، أقسموا بالعمل على تنفيذها ، وخلاصتها ألا يعلن الكونت دى لارا الحرب على أى ملك ، ولا أن يعطى أويتنازل عن الأراضي للاتباع ، أو يفرض أية ضرائب دون موافقة الملكة برنجيلا ، ولكن الكونت دى لارا لم يحترم عهوده ، وكان مقصد آل لارا الأول أن يوطدوا نفوذهم على الملك الصبي ، فلما اطمأنوا إلى ذلك ، قرروا تزويجه من الأميرة مافالدا ابنة سانشو الأول ملك البرتغال ، ولم يكن الملك الصبي قد جاوز

الثانية عشرة من عمره، وكانت الأميرة قد تجاوزت العشرين، ومع ذلك فقد عقد هذا الزواج بالفعل (سنة ١٢١٥)، في انتظار بلوغ الملك الصبي سن الرشد. ولكن الملكة برنجيلا وأكابر قشتالة، اعترضوا على هذا الزواج بشدة، ورفعوا أمره إلى البابا إنوسان الثالث، فأصدر البابا قرارا بالغائه بسبب القرابة بين الزوجين، وعادت الأميرة البرتغالية إلى وطنها، ودخلت أحد الأديار.

وكان الملك الصبي يتوق إلى التحرر من نير آل لارا والعودة إلى أخته برنجيلا. ولكن الكونت ألبارو نونيز حال دون ذلك. ثم سار ففرض الحصار حول قلعة أوتليو وبها برنجيلا وبعض أنصارها، فاستغاثت برنجيلا بزوجها السابق ألفونسو التاسع ملك ليون، فبعث لإنجاده ولدها وولده فرناندو في بعض قواته، فرفع آل لارا الحصار عن الملكة، وساروا إلى بالنسيا، وكان الملك الصبي قد نزل في قصر أسقف بالنسيا، وكان يلعب في فناءه مع بعض صبية في سنه، فرماه أحدهم بحجر أصابه في رأسه بجرح بالغ، لم يلبث أن توفي منه، وذلك في يوم ٦ يونيه سنة ١٢١٧ م.

فبادرت أخته دونيا برنجيلا باستدعاء ولدها فرناندو وصحبها المخلصين. وسارت إلى بلد الوليد، وهناك أعلنت نفسها ملكة لقشتالة، ولكنها نزلت في الحال عن العرش لولدها فرناندو، وكان يومئذ في الثامنة عشرة من عمره (أول يولييه ١٢١٧) وكان القدر يدخر لهذا الفتى الذي تولى الملك في تلك الظروف المؤسفة، مستقبلا باهراً، حيث غدا هو فرناندو الثالث، قاهر الأندلس، والمستولى على قواعدها الكبرى.

٢ - مملكة ليون

لما توفي القيصر ألفونسو ريمونديس في سنة ١١٥٧ م، قسمت مملكته بين ولديه، فاختص ولده الأكبر سانشو بملك قشتالة، واختص ولده الأصغر فرناندو بملك ليون. وتوفي سانشو بعد عام واحد من حكمه في سنة ١١٥٨، وخلفه على عرش قشتالة ولده ألفونسو الثامن الذي أتينا على سيرته فيما تقدم. أما فرناندو الثاني فاستمر ملكاً على ليون حتى توفي في سنة ١١٨٨ م. وفرناندو الثاني هذا هو الذي تعرفه الرواية الإسلامية (بالببوج) وقد لبث خلال حكمه يتردد بين محالفة الموحدين وبين خصومتهم، وكان له في لإنجاد الموحدين بطليوس، وفي التحول إلى خصومتهم مواقف متناقضة، سبق أن أتينا عليها

في مواضعها . وكان من أهم أعماله تصفية الخصومة بين ليون والبرتغال . وكان ألفونسو الثاني ملك البرتغال قد غزا جليقية ، واستولى على بعض مواضع فيها ، فسعى فرناندو الثاني إلى عقد الصلح ، واجتمع الملكان ، واتفقا على أن يتزوج فرناندو بالأميرة أوركا إبنة ألفونسو الثاني ، وأن تكون المواضع التي استولى عليها البرتغاليون في جليقية مهرا لها . وكذلك انتهى فرناندو بأن عقد الصلح مع ألفونسو الثامن ملك قشتالة (سنة ١١٨٠ م) بمقتضى معاهدة خططت فيها الحدود النهائية بين المملكتين ، ونظمت العلاقات بينهما ، وعقدت محالفة للتعاون على تحقيق فتوح « الاسترداد » وتعهدت كل منهما ألا تعقد أى صلح أو هدنة مع المسلمين . وكان من أبرز أعمال فرناندو العسكرية حصاره لقاصرش ، ثم انسحابه عنها ليسير إلى نجدة البرتغاليين ، حينما كان الخليفة أبو يعقوب يوسف يحاصر شترين . وكانت هذه الحركة ، وفقا لبعض الروايات ، هي السبب الرئيسى فى انسحاب الخليفة الموحدى ، وفيما تلا ذلك من نكبة الجيش الموحدى (سنة ١١٨٤ م) .

ولما توفي فرناندو الثاني فى سنة ١١٨٨م ، خلفه على العرش ولده ألفونسو التاسع . وفى بداية حكمه وقعت فى أنحاء ليون ، اضطرابات كان يحركها ويغذيها ملك قشتالة ، فدعا الملك لمعالجة الحالة إلى عقد مؤتمر بمدينة ليون ، مثل فيه الأحرار والأشراف ، ونواب المدن . ويعتبر المؤرخون الإسبان أن هذا المؤتمر كان أول « كورتيس » Cortes أو برلمان إسباني حقيقى . وكان ألفونسو التاسع ، يواجه كاييه ، مشكلة العلاقات المتوترة مع جارتيه قشتالة والبرتغال . وكانت قشتالة فى الواقع تحتل معظم القواعد الأمامية التي تؤلف خط الدفاع عن ليون ، فسعى ألفونسو التاسع إلى الاجتماع مع ابن عمه ملك قشتالة ، فى كريون ، حسبما قدمنا ، وعقدت أواصر المودة والتفاهم بين الملكين . بيد أن ألفونسو التاسع لم يكن مخلصاً فى هذا الاتجاه الودى نحو قشتالة ، إذ كان يشعر دائماً أن قشتالة هى المتجنية على بلاده .

وأما فيما يتعلق بالبرتغال ، وتسوية مشكلة الحدود بينها وبين ليون ، فقد رأى ألفونسو التاسع أن يرتبط مع ملك البرتغال سانشو الأول ، برباط المصاهرة ، بعد أن كان قد قطع مثل هذا الوعل لملك قشتالة ، وعقد بالفعل زواج ألفونسو التاسع بالأميرة تريسا إبنة سانشو (سنة ١١٩١م) وذلك بالرغم من القرابة الوثيقة بين الزوجين ، إذ كانت أم ألفونسو دونيا أوركا ، هى أخت سانشو . ومن ثم فإن البابوية لم توافق على هذا الزواج ، وأصدر البابا سلسينو قراره بإبطاله ، وبالتحريم ضد المملكتين ، واضطر

ألفونسو التاسع أخيراً ، بعد أن رزق من هذا الزواج ، بثلاثة أولاد ، أن ينزل عند إرادة البابوية ، وأن يفصل بالطلاق عن زوجته (١١٩٤ م) .

وعاد ألفونسو التاسع ، أسوة بما فعل أبوه إلى التحالف مع الموحدين . وكانت الممالك الإسبانية النصرانية الأخرى ، تشعر كلها في الواقع بالنفور من قشتالة ، لما يدعيه ملكها من السيطرة الأدبية عليها ، وكان الموحدون في تلك الآونة قد عبروا في حشودهم الحرارة إلى إسبانيا بقيادة الخليفة المنصور ، ووقع اللقاء في الأرك بين الجيوش القشتالية بقيادة ألفونسو الثامن وبين الموحدين ، وأسفر عن هزيمة القشتاليين وظفر الموحدين الساحق (١٩ يولييه سنة ١١٩٥ م) . وعلى أثر ذلك عقد التحالف بين ليون ونافارا ، وبين ليون والموحدين ، وهوجمت قشتالة من الشرق والغرب (ربيع سنة ١١٩٦ م) ، ولكن ألفونسو استطاع بمعاونة أراجون في الشرق ، والبرتغال في الغرب ، أن يصمد ضد هذا الهجوم .

وفي ربيع العام التالي (١١٩٧ م) قام الموحدون بغزو أراضي طليطيرة والقلعة ومدريد وقونقة ، وقام القشتاليون والبرتغاليون بغزو أراضي ليون وجليقية . ورأى ألفونسو التاسع عندئذ أن يعود إلى مسألة قشتالة ، وأن يعقد معها أواصر المودة والتفاهم . وقد تحقق ذلك بزواجه من الأميرة برنجيلا ابنة ألفونسو الثامن ، ولكن البابوية عادت فاعترضت على هذا الزواج الثاني للملك ليون ، وطالبت بإلغائه بسبب القرابة ، وانتهى الأمر بإلغائه حسبما فضلنا ذلك من قبل .

ولبت ألفونسو التاسع يتردد حيناً بين خصومة قشتالة ومساملتها ، وانتهى الأمر ، بعد أن بذلت البابوية مابذلت من ضغط ووعيد ، ومن جهود متوالية في التقريب بين الملوك النصراني ، إلى أن نجح ألفونسو الثامن ملك قشتالة فيما بذل من سعى لجمع كلمة الملوك النصراني في شبه الجزيرة (سنة ١٢٠٧ م) ونزل ألفونسو التاسع عند هذا المسعى ، وتم التفاهم بينه وبين خصمه القديم ألفونسو الثامن ، وكان من أثر ذلك أن وقف إلى جانبه في معركة العقاب (سنة ١٢١٢ م) .

وكان ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، قد خرج في العام التالي لموقعة العقاب (١٢١٣ م) لغزو أراضي الأندلس الوسطى ، وقام حيناً على حصار مدينة بياسة ، وكان قد اتفق مع زميله ملك ليون أن يقوم من جانبه بغزو قطاع إشبيلية ، وأمدته في ذلك بقوة من الفرسان القشتاليين . ولكن ألفونسو التاسع ، بعد أن سار في قواته نحو قاصرش ، وحاول الاستيلاء عليها عبثاً ، ومضى في تقدمه نحو ماردة ، قرر أن يوقف الغزو

نظراً لاقتراب الشتاء، وأن يعود أدراجه. وسار حلفاؤه القشتاليون غاضبين ولحقوا بملكهم ، وهو على حصار أبدة ، ولكن المدينة المسلمة لبثت صامدة ، واضطر القشتاليون بدورهم إلى الانسحاب ، والعودة إلى بلادهم (يناير سنة ١٢١٤م) .

وفي هذا العام - سنة ١٢١٤م - توفي دون فرناندو ولد ألفونسو التاسع وولى عهده ، وهو في الثانية والعشرين من عمره . وكان لألفونسو ولدين آخرين من مطلقة الملكة برنجيلا ، هما فرناندو وألفونسو ، ولكنه لم يقرر بصفة حاسمة من يخلفه منهما على العرش . ولما توفي ملك قشتالة الصبي هنري الأول في يونيو سنة ١٢١٧ ، بادرت أخته الملكة برنجيلا باستدعاء ولدها فرناندو ، وأعلنت في الحال نفسها ملكة لقشتالة ، ثم تنازلت على الأثر عن العرش لولدها فرناندو ، فأصبح هو ملكاً لقشتالة . وهنا ثارت أطماع ألفونسو التاسع ، ورأى وفقاً لنصح بطانته ، أن يعلن نفسه إمبراطوراً لقشتالة وليون ، وفي الحال دخل قشتالة بجيشه ، ولكنه ما كاد يقرب من بلد الوليد ، حتى علم بأن ولده فرناندو قد أعلن ملكاً لقشتالة . وبعث إليه الملكة برنجيلا بعض أكابر الأحرار يرجونه احترام الأمر الواقع ، والمحافظة على سلام المملكة ، ولكنه لم يصغ إليهم ومضى في سيره نحو برغش . وهنا استعدت الملكة ولدها ، وأكابر فرسان قشتالة ، لرده ، فعندئذ ارتضى ألفونسو ، أن يعود أدراجه ، بعد أن عقد مع ابنه الهدنة لمدة عامين (نوفمبر ١٢١٧م) وتلتها بعد ذلك معاهدة سلام دائم بين قشتالة وليون عقدت في أغسطس سنة ١٢١٨م . ولما استقر السلام على هذا النحو بين قشتالة وليون ، اتجه ألفونسو التاسع إلى العناية بفتوح « الإسترداد » في القطاع الذي خصص من أراضي الأندلس لغزوات ليون . وكانت حملات الغزو من أي الممالك الإسبانية ، تتخذ عندئذ صفة الحرب الصليبية ، ويشترك فيها بالأخص فرسان الجمعيات الدينية ، والمتطوعة الأجانب . ففي أواخر سنة ١٢١٧م ، سار ألفونسو التاسع في حملة مختلطة من قوات ليون وقشتالة ، وبعض فرسان الجماعات الدينية ، وضرب الحصار حول مدينة قاصرش ، ولكنه لم يلبث أن رفع الحصار بعد أسابيع قلائل ، وكرر ملك ليون وحلفاؤه بعد ذلك حملاتهم لافتتاح هذه القاعدة الإسلامية المنيعه ، وانتهى الأمر بسقوطها في أيديهم في صيف سنة ١٢٢٧م . وفي أواخر سنة ١٢٢٩م ، قام ملك ليون بغزوة جديدة في أراضي الأندلس ، واستولى في هذه المرة على حصن متناحش على مقربة من ماردة ، ثم ضرب الحصار حول ماردة ، وفي خلال ذلك وصل المتوكل بن هود في قواته لإنقاذ

المدينة المحصورة ، واشتبك الفريقان في معركة هزم فيها ابن هود وارتد في قواته نحو الشرق ، وكان من أثر ذلك أن سقطت ماردة وبطليوس في أيدي الليونيين ، وذلك في صيف سنة ١٢٣٠ م (أوسط ٦٢٧ هـ) .

ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى توفي ألفونسو التاسع ملك ليون ، وذلك في يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٢٣٠ م ، وكانت مسألة وراثة عرش ليون ، هي أهم المسائل المتعلقة في الأعوام الأخيرة من حكمه . ذلك أنه لم يرد أن يوصى بعرش ليون إلى ولده فرناندو الثالث ملك قشتالة ، ولكنه أوصى به إلى ابنتيه سانشا ودولثي . ولكن هاتين الأميرتين ما لبثتا أن تنازلتا عن العرش إلى أخيهما فرناندو (أواخر سنة ١٢٣٠) ، وبذا وحدثت مملكة قشتالة وليون مرة أخرى ، كما كانتا قبل وفاة القيصر ألفونسو ريمونديس في سنة ١١٥٧ م ، وعادت قشتالة كما كانت ، أعظم ممالك اسبانيا النصرانية وأقواها .

٣ - قشتالة وعهد فرناندو الثالث

لما جلس فرناندو الثالث على عرش قشتالة في يولييه سنة ١٢١٧ م ، ثم على عرش ليون (١٢٣٠ م) وفقاً للظروف التي شرحناها ، وعادت قشتالة بذلك إلى حدودها ووحدتها القديمة ، كان القدر يدخر لهذا الملك الفتى ، عهداً حافلاً بصنوف الفخار والظفر .

وكان من غرائب القدر ، أن يقوم على عرش أراجون في نفس الوقت ملك فتى آخر ، يدخر له القدر مثل هذا المستقبل الحافل ، هو خايمي الأول ، وبينما كان فرناندو يحقق فتوحه العظيمة المتوالية في أواسط الأندلس ، كان خايمي يحقق مثل هذه الفتوح في شرقي الأندلس .

وكان أبرز ما في حكم فرناندو الثالث ، هو غيرته في متابعة فتوح الإسترداد La Reconquista في أراضي الأندلس ، وتكريسه لها كل جهوده وموارده . وقد بدأ بها مبكراً ، وكانت أحوال الأندلس التي شرحناها ، من انهيار سلطان الموحيدين بالأندلس ، عقب موقعة العقاب ، وما تلاها غير بعيد من اضطرام الحرب الأهلية بين بني عبد المؤمن حول الخلافة الموحدية ، وما كان من ثورة السياسى وانضوائه تحت لواء ملك قشتالة ، وما أقدم عليه الخليفة المأمون من الاستنصار بملك قشتالة ، واستعانه على أمره بالجند النصارى ، ثم ما كان بعد ذلك من قيام ابن هود في شرقي الأندلس ، وابن الأحمر في الأندلس الوسطى ،

وتنافس هذين الزعيمين ، كل في بسط سلطانه ، وفي مصانعة ملك قشتالة وغلبة التفكك والقوضى على شئون الأندلس : كانت هذه الظروف كلها تفسح مجالا طيباً لنشاط فرناندو ومحاولاته العدوانية ضد الأندلس . ففي سنة ١٢٣٠ م ، غزا فرناندو منطقة أندوجر وجيان ، وتوغل في جنوب الأندلس . وفي سنة ١٢٣٣ ، غزا أحواز قرطبة وإشبيلية وعاث فيها . وفي نفس هذا العام حاصر مدينة أبدة واستولى عليها . وكان من الواضح أن تضعضع قوى الأندلس ، وما يميزها من المعارك الأهلية ، يفسح لأطماع فرناندو أعظم مجال . ومن ثم فلما نراه ، بعد ذلك بعامين يستولى على قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وذلك في شوال سنة ٦٣٣ هـ (يونيو ١٢٣٦ م) ثم يستولى على سائر المدن والحصون القريبة منها ، مثل إستجة والمدور وإشتبة وغيرها . ثم نرى ابن هود ، وابن الأحمر كل يسعى إلى مصانعته والانضواء تحت لوائه . ولما توفى ابن هود في سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) وخلصت القواعد الجنوبية ، غرناطة ومالقة والمرية لابن الأحمر ، كان فرناندو الثالث يلقي بكل ثقله ضد هذا الزعيم الأندلسي ، خشية أن تلتف حوله كل القوى الباقية في الأندلس ، فيغدو حجر عثرة ضد مشاريعه ، ومن ثم نراه يكرر غزواته للأندلس الوسطى التي نشأ فيها ابن الأحمر ، وبها موطنه ومثوى أسرته ، أرجونة ، ونراه يدفع غزواته جنوباً حتى غرناطة ذاتها ، ونرى ابن الأحمر نزولاً على هذا الضغط الخطير ، يضطر إلى عقد الصلح مع ملك قشتالة ، وإلى الاعتراف بطاعته ، وإلى أن يسلمه مدينة جيان ، وعدة كبيرة أخرى من القواعد والحصون (٦٤٣ هـ - ١٢٤٦ م) ، وذلك كله حسبما فصلناه في مواضعه ولا حاجة بنا إلى تكراره : على أن أعظم أعمال فرناندو الثالث ، هو افتتاحه لمدينة إشبيلية أعظم حواضر الأندلس ، وذلك في سنة ١٢٤٨ م (٦٤٧ هـ) ، ولم يكن فتح إشبيلية أمراً هينا كفتح قرطبة ، ولكنه كان محاولة عسكرية وبحرية ضخمة ، قاومتها الحاضرة الإسلامية العظيمة ، بمنتهى البسالة ، وصمدت للحصار المرهق خمسة عشر شهراً ، قبل أن تستسلم إلى قدرها المحتوم . وقد فصلنا أطوار هذه المأساة كلها في الفصل الذي خصصناه لذلك^(١) . وفتح إشبيلية هو الذي أسبغ على فرناندو الثالث أروع آيات مجده ، الذي تنطب الروايات القشتالية في الإشادة به . وقد سقطت على أثر افتتاح إشبيلية ، في أيدي القشتاليين ، سائر القواعد الواقعة في

جنوبي الوادى الكبير، مثل أركش وشدونة وشلوكة (سان لوكار) وقادس وغيرها . وبالرغم من أن فرناندو الثالث ، أنفق شطراً كبيراً من حكمه ، فى فتوح القواعد والأراضى الأندلسية ، فإنه عنى فى نفس الوقت بتنظيم الشؤون الداخلية ، فأصلح نظم الحكم والإدارة ، وأصدر طائفة من القوانين البلدية لعديد من المدن ، وعنى بتدعيم الجامعات وتقدمها ، وأنشأ جامعة شلمنقة التى لبثت عصوراً أعظم الجامعات الإسبانية ، والتى ما زالت حتى يومنا تتمتع بكثير من سمعتها العلمية القديمة . ولما افتتح إشبيلية جعل منها عاصمة قشتالة ، وأنشأ بها دار صناعة بحرية عظيمة لإنشاء السفن والقطائع الحربية ، وفرناندو هو أول من عنى بإنشاء قوة قشتالة البحرية ، وقد غدا الأسطول القشتالى منذ أيام ولده ألفونسو العاشر خطراً جديداً ، يهدد شواطئ المغرب الشمالية والغربية . بيد أن أهم ما قام به فرناندو فى مجال الإصلاح الداخلى ، هو تنظيم القوانين وتوحيدها ، وقد أنشأ لذلك مجلساً تشريعياً خاصاً من اثنى عشر مشرعاً من أعظم فقهاء الدولة سُمى « مجلس قشتالة الملكى » وعهد إليه بأن يضع مجموعة موحدة من القوانين للمملكة كلها ، وقطع هذا المجلس فى تحقيق المشروع خطوات كبيرة ، ولكن فرناندو توفى قبل إتمامه ، فقام على إتمامه ولده ألفونسو العاشر ، وسميت هذه المجموعة التشريعية « بالبنود السبعة » Siete Partidas وغدت وحدها مرجع التشريع فى قشتالة (١).

وتوفى فرناندو الثالث فى اليوم الثلاثين من مايو سنة ١٢٥٤ م ، فى الرابعة والخمسين من عمره ، بعد حكم دام ستة وثلاثين عاماً . ويعتبر فرناندو الثالث بما قام به من فتوح واسعة فى أراضى الأندلس ، وبما استولى عليه من قواعد العظيمة ، ولاسيما قرطبة وإشبيلية ، قاهر الأندلس الحقيقى ، وتعتبره الرواية القشتالية أعظم ملوك قشتالة ، وتُشيد بخلاله أعظم إشادة ، وقد لبثت سيرته مدى عصور نموذجاً للبطولة النصرانية ، حتى أن البابوية أسبغت عليه صفة القداسة ، وتوج قديساً فى سنة ١٦٧١ م ، على يد البابا كليمنطوس العاشر ، وسمى من ذلك التاريخ بالقدّيس فرناندو (سان فرناندو) .

وخلف فرناندو الثالث على عرش قشتالة وليون ، ولده ألفونسو العاشر ، وهو الملقب بالعالم أو الحكيم El Sabio . وقد تحدثنا عن هذا الملك وعصره وعلاقته مع مملكة غرناطة وبنى مرين ، فى كتابنا « نهاية الأندلس » فلا حاجة بنا إلى تناوله هنا .

الفصل الثاني

أراجون ونافارا والبرتغال

منذ أواخر القرن الحادى عشر إلى أواخر القرن الثانى عشر

قيام مملكة أراجون الكبرى . ألفونسو الثانى ملك أراجون . سياسة قشتالة وأراجون الموحدة نحو فتوح الإسترداد . غزوة ألفونسو لأراضى بلنسية . شنتمرية الشرق تحول دون تقدمه . خروجه لغزو ثانية وإنشاءه لقلمة طرويل . غزوته لأحواز بلنسية ورده . اتفاقه مع ملك قشتالة بشأن شنتمرية الشرق . اتفاق الملكين بشأن مناطق الفتح فى شرق الأندلس . تحالفهما ضد نافارا . فشل أراجون فى غزو نافارا وتحالفها مع ليون والبرتغال . وفاة ألفونسو الثانى وجلس ولد بهيدرو مكانه . عقده لمجلس الكورتيس . اتفاقه مع ألفونسو الثامن على مسائل الحدود . تحالفهما فى موقعة العقاب . مشروعه فى زيارة رومة والتماسه لحماية البابا . البابا يقوم بتتويجه فى رومة . اعترافه بطاعة أراجون للكرسى الرسولى . غضب الشعب الأراجونى لمملكه . إتحاد الشعب والأشراف ضده . سحبه للاعتراف بالطاعة . سيطرة الأشراف الإقطاعيين على المملكة . سمى بهيدرو فى تخفيف هذا النظام . التنظيم القضائى . غزو بهيدرو لأراضى بلنسية . تدخله فى الحرب القائمة ضد الألبين ومصرعه . ولده الطفل خاييمى يخلفه . اجتماع الكورتيس واختياره للوصى . ثورة عميه ضده . الحرب بين الفريقين . انتصار خاييمى على منافسيه . عقد السلم بين الخصوم . عناية خاييمى بأمر الفتح . افتتاحه للجزائر الشرقية . غزواته لأراضى بلنسية . استيلاؤه على بلنسية وقواعد الشرق . تدخله فى حوادث مرسية . افتتاحه إياها بالاتفاق مع صهره ألفونسو العاشر . مشروعه فى إعداد حملة صليبية إلى المشرق . فشل هذا المشروع . صراع خاييمى مع النبلاء . وفاته وخلاله . مصير مملكة نافارا . تربص جارتها أراجون وقشتالة بها . سانشو السادس وإصلاحاته . ولده سانشو السابع الملقب بالقوى . خوضه لنفس المعارك القديمة ضد قشتالة وأراجون . التهادن والسلم بين الملوك النصارى . سانشو ووراثة العرش . اتفاقه مع خاييمى ملك أراجون على أن يكون وارثه . تمنحى خاييمى وقيام الكونت تيوبالدو ابن أخت سانشو فى العرش . تطور مصاير نافارا . عهد كوفنتات شيبانا . تيوبالدو الثانى وأمه الملكة مرجريتا . التجاؤها إلى حماية خاييمى الثانى . مهاجمة قشتالة لنافارا ثم عقد الصلح بين الفريقين . تزوج تيوبالدو من ابنة لويس التاسع . مسيره معه إلى الحرب الصليبية فى الشرق . وفاته وقيام أخيه إنريكي مكانه . وقوع نافارا تحت حماية فرنسا . مملكة البرتغال . ألفونسو هنريكيز وإصلاحاته . غزواته للأراضى الإسلامية . وفاته وقيام ولده سانشو الأول مكانه . غزوات سانشو للأراضى الإسلامية . استيلاؤه على شلب واستعادة المنصور إياها . الخلاف بينه وبين البابوية ورجال الدين . وفاته وجلس ولد ألفونسو الثانى مكانه . الخلاف بينه وبين إخواته الأميرات . استيلاؤه على حصن القصر . النزاع بينه وبين البابوية . وفاته وقيام ولده سانشو الثانى مكانه . عقده الصلح مع رجال الدين ومع الأميرات . غزوه للأراضى الإسلامية . إستيلاؤه على إلفاس وشربه وجلمانية .

استيلاؤه على شلب وطبيرة . عود النزاع بينه وبين رجال الدين والأشراف . بواعث هذا النزاع . أخواء ألفونسو فرناندو وعمه بيدرو ويؤيدون الثورة ضده . إصدار البابوية قراراً بعزله وتنصيب أخيه ألفونسو مكانه . فراره والتجاؤه إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث . محاولة فرناندو معاونته وفشل هذه المحاولة . استيلاء ألفونسو على شنتمرية الغرب وقضاؤه على سلطان المسلمين في أراضي البرتغال .

١ - مملكة أراجون

قامت مملكة أراجون الكبرى باتحاد أراجون وقطلونية في سنة ١١٣٧ م ، على يد الكونت رامون برنجير الرابع أمير برشلونة ، ولما توفي هذا الأمير في سنة ١١٦٢ م ، خلفه على العرش ولده ألفونسو الثاني . وبقيام هذا الأمير على رئاسة أراجون ، يعود إليها ثبت الملوك الأقوياء الذي انقطع بوفاة ألفونسو المحارب في سنة ١١٣٤ م . وكانت علائق قشتالة وأراجون على أتم وفاق وصفاء منذ عهد القيصر ألفونسو ريمونديس ، وهكذا استمرت العلائق بينهما في عهد ألفونسو الثاني ، وزميله ألفونسو الثامن ملك قشتالة . وكانت تجمع بينهما بالأخص سياسة موحدة نحو فتوح الإسترداد La Reconquista في أراضي الأندلس ، وذلك وفق برنامج مشترك تحدت معاملة فيما بعد بين الملكين بمعاهدة كاسولا (سنة ١١٧٩ م) التي سبقت الإشارة إليها .

وبدأ ألفونسو الثاني غزواته في الأراضي الإسلامية مبكراً ، ففي سنة ١١٧٠ م سار جنوباً نحو بداية الوادي الأبيض Guadalaviar ، قاصداً أن يخترق مملكة بلنسية ، ولكن حال دون تقدمه من تلك الناحية ، أن شنتمرية الشرق (١) ، وما حولها من المواقع والحصون كانت يومئذ تحت حكم الفارس بيدرو دى أساجرا ، وهو من أشراف نبرة ، وكان الأمير محمد بن سعد بن مردنيش قد أقطعة هذه المدينة المسلمة وحصونها ، لمعاونات قدمها إليه ، ولم يعترف هذا الفارس بطاعة أراجون ولا قشتالة ، ولكنه أعلن نفسه حاكماً مستقلاً باسم « صاحب شنتمرية الشرق » ، واستطاع أن يحصل على موافقة مطران طليطلة ، على أن ينشئ بها أسقفية خاصة .

وفي العام التالي (١١٧١ م) خرج ألفونسو الثاني في قواته إلى الوادي الأبيض

(١) وتسمى بالإسبانية Albaracin نسبة إلى بني رزين ، الذين حكموا أيام الطوائف ، ومن ثم فإنها تسمى كذلك شنتمرية ابن رزين .

مرة أخرى ، وأنشأ في تلك المرة عند منابع هذا النهر ، قلعة سميت « طرويل » ، ومنح من يومها هي وأرضها من السكان النصارى ، بعض المزايا المغربية ، وتقوم اليوم مكانها مدينة طرويل الحديثة .

وفي سنة ١١٧٢ م ، خرج ألفونسو الثاني في غزوة إلى أراضى بلنسية ، منتهزاً فرصة ضغط الموحدون على ابن مردنيش أمير مملكة الشرق أو الملك لوبي كما تسميه الرواية الإسبانية . وفي بعض الروايات النصرانية أن ملك أراجون وصل في زحفه حتى شاطبة وحاصرها ، وأن أمير بلنسية عرض أن يدفع إليه الجزية ، وأن يساعده في فتح مملكة بلنسية . والحقيقة أن القوات الأندلسية استطاعت أن ترد القوات الغازية سواء في البر أو البحر ، ولم تنل القوات الأرجونية من أراضى بلنسية مأرباً (١) .

وعقد ألفونسو الثاني مع زميله ملك قشتالة اتفاقاً بشأن مقاطعة شنتمرية الشرق ، نص فيه على أن تغدو مدينة شنتمرية الشرق ذاتها (البرائين) ملكاً لأراجون ، وأن تكون حصونها ملكاً لقشتالة . وفي رواية أخرى أن الفارس بيدرو دى أساجرا صاحب شنتمرية الشرق ، اعترف بطاعة ألفونسو الثامن .

وفي سنة ١١٧٩ م ، غزا ألفونسو أراضى بلنسية بجيش ضخم ، وحاصر ثغر مريبطر . وكانت هذه الغزوات الأرجونية المتكررة لأراضى شرق الأندلس مثار التوجس والقلق لدى قشتالة ، ومن ثم فقد استدعى ألفونسو الثامن زميله ملك أراجون إلى بلدة كسولا ، وعقد الملكان اتفاقهما الذي سبقت الإشارة إليه ، بتقسيم مناطق الفتح في شرق الأندلس ، كما عقدا معاهداً لتابعة الحرب ضد نافارا . ولكن الأمور ما لبثت أن تطورت ، وبينما نجح القشتاليون في غزونا فاراً من ناحية الغرب ، إذ فشل الأرجونون وردوا إلى أراضيهم بخسارة . وقد أحدث ذلك صدى سيئاً في نفس ألفونسو الثاني ، وحقق على زميله الظافر ألفونسو الثامن . ثم ذهب إلى أبعد من ذلك فعقد حلفاً مع سانشو ملك نافارا لمحاربة قشتالة (١١٩٠م) وقد انضم إلى هذا التحالف ملكا ليون والبرتغال (١١٩١م) ، ورأى ملك قشتالة في ذلك نذيراً خطراً ، إذ كانت الأنباء تترامى إليه في تلك الآونة بالذات بما يقوم به الموحدون من استعدادات عظيمة للعبور إلى شبه الجزيرة ، وقد رأينا ما انتهى إليه ألفونسو الثامن من اضطرابه إلى لقاء الجيوش الموحدية في الأرك في القوات

القشتالية وحدها ، وما أصيبت به يومئذ من هزيمة فادحة (١٨ يولييه ١١٩٥ م) .
وتوفى ألفونسو الثانى فى ٢٥ أبريل سنة ١١٩٦ م ، فخلفه فى مملكة أراجون
وإمارة قطلونية ، ولده الصبى بيدرو ، وخلفه فى باقى الإمارات الفرنجية ، وهى
روسيون وبليارش ومونبلييه وغيرها ولده ألفونسو .

وبدأ الملك بيدرو حكمه تحت وصاية أمه دونيا سانشا . وكان أول ماعمله
أن دعا إلى اجتماع ممثلى الأحرار والأشراف والفرسان وممثلى الولايات والمدن ،
بمدينة دروكة فى هيئة « كورتيس » . وفى هذا الاجتماع وافق الملك على سائر
الحقوق والامتيازات ، التى منحها أسلافه لمختلف الهيئات والطبقات . بيد أنه
سرعان ما دب الخلاف بين الملك وأمه ، ثم سوى بينهما على أن تحتفظ الملكة
بملكية البلاد والحصون الواقعة فى قطلونية ، التى أوصى زوجها بتركها لها .

وكان ثمة بين أراجون وقشتالة خلاف على بعض مواقع الحدود ، فاجتمع
بيدرو الثانى وألفونسو الثامن ملك قشتالة على مقربة من طرسونة (١٢٠٤ م)
واتفقا على التحكيم فى مسائل الحدود ، وقام المحكمون بالمهمة ، وسوى الخلاف
بين المملكتين .

وقد رأينا فيما تقدم ، أن اللوام كان سائداً بين أراجون وقشتالة ، منذ عهد
القيصر ألفونسو ريمونديس ، وأن أواصر هذا اللوام قد توثقت بنوع خاص فى
عهد الملك بيدرو الثانى ، وظهر ذلك فى تحالف المملكتين على محاربة نافارا وليون ،
ثم ظهر فى تحالفهما الوثيق ضد الموحدين فى معركة العقاب (١٢١٢ م) . وقد
سبق أن أشرنا إلى الدور الذى اضطلع به الملك بيدرو فى تلك الموقعة .

وشغل بيدرو الثانى وقتاً بشئون أملاكه فيما وراء البرنيه ، وهى ولاية بروقانس
وبعض الإمارات الفرنجية الأخرى . ولكنه ماكاد يفرغ من هذه الشئون حتى
اعتزم أن يزور رومة ، وكانت له فى مصانعة البابوية والانضواء تحت لوائها ،
فكرة لم ترق لشعبه . وذلك أنه سار إلى رومة ، فى عدة من السفن وعرج فى
طريقه على جنوة وبيزة ، ويقال إنه كان يرمى إلى التفاهم مع هاتين الجمهوريتين
البحريتين القويتين ، على الاتفاق والتحالف على غزو الجزائر الشرقية ، وانزعاجها
من المسلمين . أما فى رومة فقد كانت له أمنية أخطر وأبعد أثراً ، وذلك أنه
التمس إلى البابا إنوسان الثالث أن يقوم بتتويجه ، وقد استجاب البابا لرغبته
ومنحه الشارات الملكية ، وأسبغ عليه درع الفروسية ، وقام بتتويجه فى كنيسة

القديس بطرس (سنة ١٢٠٤م) ، ومنحه هو وأعقابته من ملوك أراجون حق التتويج في سرقسطة عاصمة المملكة ، وتعهد بيدرو نظير ذلك بأن يحمي الدين الكاثوليكي ، وأن يحترم حريات الكنائس وامتيازاتها ، وأن يطارد الكفرة ، وأن يقيم العدل في سائر بلاده ، واعترف ملك أراجون فوق ذلك بأنه تابع للبابا ، وأنه يحكم أراجون وقطلونية بمثابة إقطاع من البابوية ، وتعهد بأداء الجزية السنوية . وتعهد الكرسي الرسولي من جانبه بأن يدافع البابوات عن أراجون عن طريق سلطانهم الرسولي . وقد كان لذلك أسوأ وقع بين الأرجونيين والقطلان ، وأنكروا على الملك أن يقوم بمثل هذا العمل دون موافقتهم ، واتحد الأشراف والشعب ضد الملك ، وأرغموه على أن يسحب اعترافه بالتبعية للبابوية ، ومع ذلك فإن أراجون اضطرت أن تدفع إلى البابوية الجزية التي تعهدت بها . ومن جهة أخرى فقد بدأت معارضة السادة والفرسان فيما بعد لكثير من التشريعات التي حاول بيدرو سنها في شئون الضرائب وغيرها^(١) .

وكان السادة والنبلاء في أراجون يبسطون سيادتهم على سائر المدن والبلاد الهامة ، ويستولون على دخولها ، لكي يتفوقوا منها على الفرسان التابعين لهم ، والذين يقودونهم في الحرب ، فكان الأشراف بذلك يسيطرون على قوى المملكة العسكرية ، ولا يستطيع الملك أن يفعل بذلك شيئاً لافي السلم ولا في الحرب دون مشاورتهم وموافقتهم ، وكانت هذه السيادة الإقطاعية تؤول إلى عقب أصحابها . وقد بذل بيدرو جهوداً شاقة في العمل على تخفيف أوضاع هذا النظام المرهق ، ونجح في أن يعدل توزيع هذه السلطات بين الأشراف بصورة أقرب إلى العدالة مع السماح لهم بتوريثها لأعقابهم ، ولكنه احتفظ للعرش بالسلطات القضائية ، وكان الاختصاص القضائي بمنح للأشراف والفرسان ، ولا يسترد منهم إلا لسبب جوهري ، ويُرأول القضاء بالنيابة عن الملك على يد الأساقفة والأشراف . وللمحكوم عليه حتى الاستئناف إلى العرش . وكان الحق الوحيد الذي يحتفظ به الأشراف لممارسة القضاء هو أن يكونوا أعضاء في مجلس الملك ، أو يعينهم الملك قضاة في المدن والبلاد التي تخضع لسيادتهم .

ولم يغفل بيدرو الثاني العناية بغزو الأراضي الإسلامية ، وهي مهمة من مهام السياسة الأرجونية الأساسية ، فخرج في حشوده سنة ١٢١٠م ، وسار جنوباً

صوب أراضي بلنسية ، واستولى بمساعدة فرسان الداوية على حصن الديموس ، وعدة حصون أخرى من حصون منطقة شنتمرية الشرق .

واضطرب بيدرو أن يتدخل في الحرب الصليبية التي شهرها سيمون دي مونفور وزملاؤه السادة الفرنسيون على الملاحدة الأليبيين^(١) ، وذلك لحماية أملاكه فيما وراء البرنية ، وقد كانت مسرحاً لهذه الحرب وخربت فيها عدة مدن . وكان من سوء حظه أن سقط في إحدى المواقع التي خاضها ضد سيمون دي مونفور ، وذلك في ١٣ سبتمبر سنة ١٢١٣ م .

وترك بيدرو الثاني ولداً وحيداً هو دون خايمي ، وكان عند وفاته طفلاً حدثاً ، وكان محجوزاً لدى سيمون دي مونفور ، إذ كان ثمة قبل اضطرام الخصومة بين الفريقين ، مشروع لتزويج خايمي بليانة لسيمون ، ولم يفرج سيمون عن خايمي ألا بتدخل شديد من البابوية ، فأفرج عنه في العام التالي (١٢١٤م) ، واستقبل الأرجونيون والقطلان ملكهم الطفل بابتهاج وحماسة . واجتمع نواب المملكة في (الكورتيس) في لاردة ، واختاروا للوصاية على خايمي أستاذ فرسان الداوية جليم دي مونرادو . ولكن الأمور ما لبثت أن تعقدت إذ ثار عماءه دون فرناندو ودون سانشو في محاولة لانتزاع العرش منه ، ومن جهة أخرى فقد أعلن كثير من الأشراف استقلالهم ، وأخذوا يحاربون بعضهم بعضاً ، وعمت الفوضى في المملكة . واستطاع أنصار الملك خايمي أن ينتزعوه من وصيه أستاذ الداوية ، وكان يعتقله بقلعة مونتشون ، وكان قد بلغ التاسعة من عمره . واضطرم الصراع عندئذ بين حزب خايمي وبين خصومه ، وكان يؤازره بالأخص الأشراف القطلان ، ونواب الكورتيس ، واستطاع خايمي أن يتغلب على منافسيه في العرش ، بيد أنه استمر أعواماً أخرى يكافح ضد الأشراف الخوارج ، وانتهى الأمر بأن عقد بينهما سلم عام ، وذلك في شهر مارس سنة ١٢٢٧ م^(٢) .

وكان الملك خايمي قد بلغ عندئذ نحو العشرين من عمره . وكان يشعر عندئذ أنه بعد أن فرغ من المشاغل الداخلية ، يستطيع أن يوجه عنايته إلى تحقيق أطماع الفتح ، واقتطاع ما يمكن اقتطاعه من الأراضي الإسلامية في قطاع بلنسية . بيد أنه كان يتوق إلى أن يحقق قبل ذلك أمنيته في افتتاح الجزائر الشرقية . ولقد

(١) راجع الماشر في ص ٢٨٩ من هذا الكتاب .

(٢) A. Altamira : ibid; T. I. p 377 & 378

تحدثنا فيما تقدم تفصيلا عما قام به خايمي من الاستعداد لافتتاح الجزائر ، وما وفق إليه من افتتاحها بين سنتي ١٢٢٩ و ١٢٣٢ م . أما عن قطاع بلنسية فلم يكن بخاف على خايمي ، ما تجوزه بلنسية ، وسائر ثغور هذه المنطقة وقواعدها ، من الضعف والفوضى ، وافتراق الكلمة ، وتوالى المعارك الأهلية الانتحارية . ولقد تحدثنا فيما تقدم كذلك تفصيلا عن حملات خايمي المتوالية على أراضي بلنسية ، وافتتاحه تباعا لثغور الشرق وقواعده ، وفوزه أخيراً بالاستيلاء على ثغر بلنسية العظيم وذلك في صفر سنة ٦٣٦ هـ (أكتوبر سنة ١٢٣٨ م) ، ثم استيلائه بعد ذلك على دانية ، ثم شاطبة ، وجزيرة شقر ، وغيرها من قواعد هذه المنطقة ، مما كان يدخل في نطاق الفتوحات الأرجونية ، وفقاً للاتفاقات التي عقدت لتقسيم مناطق الفتح ، في شرقي الأندلس ، بين أراجون وقشتالة ، وهو ما سبقت الإشارة إليه في موضعه .

وأما مرسية وأحوازها ، فقد كان من المتفق عليه أن تكون ضمن حظيرة الفتوح القشتالية . وقد أعلنت مرسية خضوعها بالفعل للملك قشتالة فرناندو الثالث منذ سنة ١٢٤١ م ، واستقرت فيها حامية قشتالية صغيرة ، ولكنها لبثت حيناً تستقل بشئونها الداخلية ، ويحكمها أعقاب بني هود وغيرهم من الزعماء المسلمين ، حسبما سبق أن فصلناه . ولكن تطور الحوادث في مملكة بلنسية واضطراب الأحوال فيها ، وثورة المدجنين بها ، حملت ملك أراجون دون خايمي إلى أن يسعى إلى افتتاح مرسية ، وذلك بالاتفاق مع صهره ، زوج ابنته ألفونسو العاشر ملك قشتالة ، وكانت ظروفه غير مسعفة له على القيام بهذا الفتح ، وكان الملك خايمي يخشى من أن مرسية إن بقيت تحت حكم زعمائها المسلمين ، تغدو مصدر خطر على سلامة بلنسية ، ومن ثم فقد زحف خايمي في قواته على أراضي مرسية واحتل لقنت وألش وغيرهما من قواعدها الأمامية ، ثم استولى على مرسية ذاتها ، وذلك في سنة ١٢٦٦ م (٦٦٥ هـ) وانتهى بذلك حكم المسلمين في شرقي الأندلس .

وحاول خايمي بعد ذلك أن يسير إلى المشرق في حملة صليبية ، وجهاز بالفعل جيشاً وأسطولا لتلك الغاية ، وخرج في قواته البرية والبحرية متجهاً إلى الشرق في سنة ١٢٦٩ م ، ولكن العواصف الجائعة حطمت معظم السفن الأرجونية ، ودفعت بباقيها إلى الشاطئ الفرنسي ، فعدل الملك خايمي عن مشروعه وسارت بضع سفن فقط ، بها قوة صغيرة من القطلان والأرجونيين وفرسان شنت ياقب ،

ووصلت إلى ثغر حيفا بالشام ، وانضمت إلى من كان هناك من القوات الصليبية في محاربة المسلمين .

وكان الملك خايي ، طوال حكمه ، يعاني من عنت النبلاء ، ومعارضتهم لكثير من تصرفاته ومشاريعه ، وقد لبث معهم في صراع مستمر ، لكي يتغلب على عنهم ، ويحطم سلطانهم الإقطاعي القوي ، ولكنهم قاوموه ، ووقعت الحرب الأهلية بين الفريقين ، ولم يهدأ ذلك الصراع إلا حينما تفاقت الأحوال في مملكة بلنسية ، واشتدت بها ثورات المدجنين ، وخشى أن يؤدي ذلك إلى ضياع الفتوحات الأراجونية .

وتوفي الملك خايي في ٢٧ يولييه سنة ١٢٧٦ م ، بعد حكم طويل استطاع فيه أن يضاعف رقعة مملكته أراجون ، وأن يقضى على دولة الإسلام في الجزائر وشرقي الأندلس ، وهو مالمقب من أجله « بالفتح » . ويعتبر خايي الأول مؤسس مملكة أراجون الحقيقي ، وموطد استقلالها ، وقد قاوم في هذا السبيل مطامع البابوية ، ورفض أن يعترف لها بأى نوع من التبعية كما فعل أبوه . وقد عمل كثيراً لإصلاح القوانين ، وتنظيم الإدارة والشئون المالية بالمملكة ، بيد أنه يوصف بالقسوة وغلبة الشهوات عليه ، ومما يؤثر عنه أن كتب تاريخاً لحكمه (١) .

ولما توفي خايي قسمت مملكته بين ولديه ، فتولى حكم أراجون وقطالونية وبلنسية ولده الأكبر بيدرو ، وتولى حكم الجزائر والإمارات الفرنجية فيما وراء البرنية ، ولده الأصغر خايي ، على أن هذا التقسيم لم يدم طويلاً .

٢ - مملكة نافارا (نبرة)

لبث الصراع قائماً دون انقطاع بين نافارا وبين جارتها من الجانبين ، أراجون وقشتالة . وقد تبعنا فيما تقدم مصاير نافارا ، منذ اتحادها مع أراجون تحت حكم ألفونسو المحارب ، ثم انفصالها بعد ذلك عند وفاته في سنة ١١٣٤ م واستئنافها لحياتها المستقلة ، تحت حكم ملكها غرسية راميريس حفيد سانشو الكبير . ولما توفي غرسية في سنة ١١٥٠ م ، خلفه ولده سانشو السادس الملقب بالعالم . وقد خاض سانشو ضد قشتالة وأراجون بعض الأحداث الماثلة ، إذ كان التربص بنافارا سياسة مرسومة تنفذ بالاعتداء عليها كلما سمحت الفرص . وعقد السلم حيناً بين قشتالة ونافارا ، نتيجة لتدخل هنرى الثانى ملك إنجلترا ، وتسوية

المشاكل الإقليمية بينهما بصورة ارتضتها كل من البلدين^(١). واستطاع سانشو بعد ذلك أن يتفرغ حيناً لمعالجة الشؤون الداخلية لمملكته ، فأصدر لمختلف المدن طائفة من القوانين البلدية ، وعنى بتنظيم التجارة وتوطيد الرخاء والأمن . ولما توفى سانشو السادس خلفه على العرش ولده سانشو السابع الملقب بالقوى El Fuerte . وقد خاض سانشو السابع نفس المعارك القديمة ضد أراجون وقشتالة وذلك حسبما فصلنا فيما تقدم . وقد أشرنا كذلك إلى ما سعى إليه سانشو من مخالفة الموحدين والاستنصار بهم ضد ملكى قشتالة وأراجون ، بعد أن تكرر اثتارهما بنافاراً واعتداءتهم عليها ، واقتطاع أراضيها من الجانبين ، وإلى ما حدث بعد ذلك من تقارب بين ملوك اسبانيا النصرانية ، ومن عقد اللواتم والتحالف بين ملك قشتالة ألفونسو الثامن ، وسانشو السابع وذلك فى اجتماع وادى الحجارة فى سنة ١٢٠٧م ، ثم عقد السلم والتحالف كذلك بين ملكى نافارا وأراجون ، وما كان لذلك من أثر فى اجتماع كلمة الملوك النصرانى ، على لقاء الموحدين فى جبهة موحدة فى معركة العقاب (١٢١٢م) ، وهى التى خرجت منها الجبهة النصرانية مكحلة بغار الظفر الباهر . وقد شاء القدر أن تتطور مصاير نافارا على يد سانشو السابع . ذلك أنه لبث قائماً على عرشها بعد موقعة العقاب زهاء عشرين عاماً أخرى . وكانت تزعجه مسألة وراثة العرش ، لأنه لم يعقب بالرغم من زواجه . وكان يبغض مرشح العرش الوحيد وهو تيوبالدو ابن أخته الأميرة بلانكا وتيوبالدو الرابع كونت شامبانيا . وفى أواخر أيامه ارتد مريضاً إلى تطيلة ، وبعث إلى ملك أراجون خايمى الأول يعرب له عن رغبته فى تبنيه ، وترشيحه لخلافته على العرش ، فوافاه ملك أراجون ، وعقدت بينهما فى تطيلة معاهدة لتحقيق هذا الغرض (فبراير ١٢٣١) . ثم توفى سانشو بعد ذلك بثلاثة أعوام (١٢٣٤م) . على أن خايمى لم يحاول أن ينفذ معاهدة تطيلة ، ولا أن يسعى للجلوس على عرش نافارا . ذلك أنه كان مشغولاً بافتتاح مملكة بلنسية ، وبمسائل داخلية كثيرة أخرى ، وكان يخشى أن يعرضه الطموح إلى عرش نافارا لمشاكل كثيرة لا قبل له بها ، ومن ثم فقد آل عرش نافارا إلى الكونت تيوبالدو دى شتبانيا ، ابن أخت سانشو ، وكان هذا التحول أول خطوة فى انسلاخ نافارا عن حظيرة الممالك الإسبانية النصرانية ، ووقوعها تحت نفوذ فرنسا ، وابتعادها عن الاندماج فى مشاكل شبه الجزيرة الإسبانية . واستمر

(١) راجع ص ٥٨٥ و ٥٨٦ من هذا الكتاب .

حكم تيوبالدو حتى وفاته في سنة ١٢٥٣ م . وكانت وفاته بالشرق في الحرب الصليبية السادسة . وكانت أيام حكمه مليئة بالاضطرابات ، والخلاف مع شعبه ، لأنه لم يتبع في الحكم قواعده المأثورة ، ولم يفهم روح الشعب النافاري . وترك تيوبالدو ، ولده تيوبالدو وارث العرش طفلاً في الخامسة من عمره تحت وصاية أمه الملكة مرجريتا : وعندئذ رأت مرجريتا ، انتقاء لمطامع قشتالة القديمة ، أن تضع المملكة تحت حماية خايمي الثاني ملك أراجون ، وقطع خايمي على نفسه العهد بحماية نافارا من كل أعدائها ، وأن يزوج ابنته كونستنزا لتيوبالدو ، فإذا توفي ، تزوجت من أخيه الأصغر إنريكي . وتعهدت الملكة مرجريتا من جانبها أن تقف ناظراً إلى جانب أراجون ضد سائر أعدائها خلا ملك فرنسا وامبراطور ألمانيا . ووقع ما توقعته الملكة مرجريتا ، وقام ملك قشتالة بمهاجمة نافارا ، وهرع خايمي في قواته لحمايتها وفقاً لعهوده ، وكادت الحرب تنشب بين الملكين بالرغم مما كان يربطهما من رباط المصاهرة الوثيق ، ولكن تدخل الأخبار ، وعقدت الهدنة بين الفريقين ، وهكذا استطاع الملك تيوبالدو الثاني أن يحكم مملكته في سلام^(١) . ولم يتزوج تيوبالدو ابنة الملك خايمي ، ولكنه تزوج ابنة لويس التاسع ملك فرنسا (القديس لويس) ، وصحبه إلى المشرق ، وخاض معه الحرب الصليبية السابعة ، ثم صحبه إلى تونس وتوفي هنالك سنة (١٢٧٠ م) . وحل محله في الحكم أخوه إنريكي الأول خلال غيابه ، فلما توفي أعلن ملكاً لنافارا ، واستمر في الحكم أربعة أعوام أخرى ثم توفي سنة ١٢٧٤ م . واستمرت نافارا بعد ذلك عصراً تحت حماية فرنسا .

٣ — مملكة البرتغال

تحدثنا فيما تقدم من تاريخ الممالك النصرانية ، عن نشوء مملكة البرتغال ، ثم اشتداد ساعدها وتوطد أمرها ، في ظل ملكها ألفونسو هنريكي ، وكيف استطاع هذا الملك أن يوطد استقلال مملكته ، وان يحميها ضد دعاوى قيصر قشتالة في السيادة . وقد كان للبابوية ، فضل معاونته على اتخاذ صفة الملك المستقل ، ومن ثم فقد كان للبابوية نفوذها على العرش البرتغالي . وقد أبدى ألفونسو هنريكي فوق ذلك ، غيرة ملحوظة في إنشاء جماعات الفرسان الدينية ، للاستعانة بها في محاربة المسلمين وقام بتنظيم وراثة العرش ، ووضع القوانين المدنية والجنائية التي تكفل تحقيق العدل .

M. Lafuente : ibid; T.IV. p. 120 & 121 — Altamira : ibid; T. I. p. (١)

وكرس ألفونسو هنريكز معظم نشاطه لغزو الأراضي الإسلامية ، وبدأ بمحاصرة أشبونة وافتتاحها (١١٤٧ م) ، ثم استولى في نفس الوقت على مدينة شنترين حصنها الشمالي ، واستولى على ثغر قصر الفتح أو قصر أبي دانس في سنة ١١٦٠ م ، ولبت في أيدي البرتغاليين ، حتى قام الخليفة يعقوب المنصور باسترداده في سنة ١١٩١ م ، ثم غزا بطايوس في سنة ١١٦٩ م ، واستولى عليها بالفعل ، ولكن الموحدین استردوها في الحال بمعاونة حليفهم فرناندو الثاني ملك ليون ، واستولى أخيراً على مدينة باجة في سنة ١١٧٧ م . وقد أتينا على تفاصيل هذه الغزوات كلها في مواضعها من الكتاب .

ولما توفي ألفونسو هنريكز في شهر ديسمبر ١١٨٥ م ، خلفه ولده سانشو الأول . وكان سانشو كأبيه يضطرم حماسة لغزو الأراضي الإسلامية ، والقضاء على بقايا الحكم الإسلامي في البرتغال ، ففضى أعوام حكمه الأولى في إصلاح البلاد والحصون التي خربتها الحرب ، ثم زحف نحو الجنوب ، وقام بمحاصرة مدينة شلب أهم القواعد الإسلامية الباقية وافتتاحها ، وذلك بمعاونة القوات الصليبية المسافرة إلى المشرق (سنة ١١٨٩م) ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بها أكثر من عامين ، إذ قام الخليفة المنصور باسترداده من أيدي البرتغاليين في سنة ١١٩١ م ، وكان قد غزا أراضي البرتغال قبل ذلك ، وقام بزحفه المظفر نحو الشمال (١) .

ولم تقع خلال حكم سانشو حوادث خارجية ذات شأن ، وهذا الصراع حيناً بين البرتغاليين والمسلمين . ولبت المسلمون عسراً آخر يحتلون الرقعة الجنوبية من البرتغال ، تتوسطها مدينة شلب ، والرقعة المتصلة بولاية الغرب ، وبها ميرتلة وعدة قواعد أخرى ، وشغل سانشو معظم أعوام حكمه بما نشب بينه وبين البابوية من خلاف ، أولاً بسبب رفضه لأداء الجزية ، التي تعهد والده ألفونسو هنريكز بأدائها للكرسي الرسولي ، نظير حمايته ضد دعاوى قشتالة ، وثانياً بسبب النزاع المستمر بينه وبين الأقباط ، ولاسيما أسقف بورتو ، وأسقف قلمرية . وقد أصدر الأساقفة ضده أكثر من قرار بالحرمان الكنسي ، وتوفي في مارس سنة ١٢١١ م ، ولم يرفع عنه قرار الحرمان إلا بعد موته . فخلفه ولده ألفونسو الثاني وهو الملقب بالبادن لبدانته المفرطة . وفي بداية حكمه نشب الخلاف بينه وبين إخواته . وكان والدهن قد أوصى لمن يبعث القلاع والأراضي ، وأبين

(١) راجع ص ١٧٠ - ١٧٤ ، وص ١٨٧ و ١٨٨ من هذا الكتاب .

أن يعترفن بسيادة أخيهن عليها ، وقصدن إلى البابا لحمايتهن ، ثم نشبت الحرب بعد ذلك بين الملك والأميرات ، وتدخلت البابوية في الأمر ، وأصدر مندوبو البابا قراراً بالحرمان ضد الملك ، وكاد النزاع يتفاقم . وأخيراً تدخل البابا ، وألغى قرار الحرمان ، وقضى بأن يُعهد بالأماكن المتنازع عليها إلى فرسان الداوية على أن تكون خاضعة لسيادة الملك ، وأن يعطى دخلها للأميرات ، فارتضى الطرفان هذا الحل وعاد السلام إلى المملكة .

وكان أهم حدث حربي وقع في عصر ألفونسو الثاني ، هو استيلائه بمعاونة القوات الصليبية المتجهة إلى المشرق ، على ثغر قصر أبي دانس ، وذلك في سنة ١٢١٧ م (٦١٤ هـ) وذلك حسباً فصلناه في موضعه .

وفي الأعوام الأخيرة من حكم ألفونسو ، عاد النزاع بينه وبين البابوية بسبب مطاردته لمطران براجا ، واعتدائه على امتيازات رجال الدين ، وتدخل البابا مرة أخرى وهدد الملك بالحرمان ، ولكنه لم يذعن للوعيد ، وما لبث أن مرض وتوفي في مارس سنة ١٢٢٣ م .

فخلفه ولده سانشو الثاني ، وبدأ حكمه بأن عقد مجلساً نيابياً في قلمرية عني بتسوية النزاع بين العرش ورجال الدين ، وكذلك عقد الصلح بين الملك وعماته الأميرات وقرر أن يمنحن مخصصات مجزية ، على أن يعترفن بطاعته ، وأن تؤول الأراضي والحصون التي لهن بعد وفاتهن إلى العرش . ثم تأهب سانشو بعد ذلك لمنازلة المسلمين ، وانزاع ما بقي بأيديهم من أراضي البرتغال . فاستولى على إلفاس (١٢٢٦ م) ، وافتتح حصني شربة وجلمانية وغيرهما من حصون الحدود الواقعة على ضفة وادي يانه . ثم استولى على ميرتلة ، وسلمها لفرسان شنت ياقب ، واستولى على شلب (١٢٤٢ م) ثم استولى أخيراً على ثغر طيرة (١٢٤٣ م) في الجنوب ، وكان سانشو يستعين في معظم فتوحه بالصليبيين الوافدين ، وكانت البابوية ، تمده بعونها الأدبي ، وتسبغ الصفة الصليبية على حروبه ضد المسلمين . على أن سانشو لم يوفق إلى تدعيم السلام في مملكته . ذلك أن النزاع عاد يضطرم بينه وبين رجال الدين ، لأسباب عديدة تلخص في محاولة العرش أن يحتفظ بسلطاته الدنيوية والقضائية ، ومحاولة رجال الدين أن يحافظوا على سلطانهم وامتيازاتهم ، واختصاصاتهم القضائية . وكانت مبالغة الأحبار في توسيع امتيازاتهم ، ينعكس أثرها على امتيازات الأشراف ، فيضطرب العرش إلى إرهابهم

مطالبه المالية والعسكرية ، فكانت منهم كذلك طائفة كبيرة تنقم على العرش هذا الإرهاب ، وكان سانشو يشعر بقصوره عن إخماد هذه النزعات الثورية ضد العرش ، خصوصاً وأن البابوية كانت دائماً تصنعى إلى شكوى الأحرار وتحريضهم . ومن جهة أخرى فإن سانشو كان دون ولد ، وكان أخواه ألفونسو وفرناندو وعمه بيدرو ، جميعاً بمالئون الحركة الثورية ، سعياً إلى انتزاع العرش من سانشو ، وكان أكثر هؤلاء حظاً من التأييد الإنفانت ألفونسو ، وكان قد تزوج من الأميرة ماتيلدة صاحبة بولونيا بإيطاليا ، وغدا بزواجه أميراً لهذه الولاية ، وكان الأحرار ، والأشراف الثوار يرون فيه أداة صالحة لتنفيذ خططهم ، خصوصاً وأنه كان يتمتع بعطف البابوية . وانتهى الأمر بأن نجح هؤلاء في سعيهم لدى البابوية ، وأصدر البابا إنوسان الرابع في يولييه سنة ١٢٤٥ م ، قراراً بإقالة سانشو الثاني وتنصيب أخيه ألفونسو مكانه في العرش . فقطع ألفونسو على نفسه عهداً باحترام امتيازات رجال الدين ، وركب البحر مع طائفة من الأحرار والأشراف البرتغاليين إلى ثغر أشبونة ، وفي الحال أعلن ملكاً ، واضطر سانشو إلى الفرار ، والالتجاء إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث ، فوعده بتأييده ، وبعث معه ولده ألفونسو في جيش جهزه لمقارعة خصومه ، ولكن هذه المحاولة انتهت بالفشل ، حيث استطاع ألفونسو ملك البرتغال الجديد ، أن يقنع الأمير القشتالي ، بأنه ارتقى العرش بأمر الكرسي الرسولي ، وأن معظم الأحرار والأشراف والشعب إلى جانبه ، فارتد القشتاليون أدراجهم دون قتال ، وارتد سانشو معهم ليقضى أعوامه الأخيرة ، في طليطلة ، وهناك توفي في يناير سنة ١٢٤٨ م .

وتأهب ألفونسو الثالث ، بعد أن اطمأن إلى توطيد عرشه ، إلى اتمام فتوح ما تبقى بأيدي المسلمين من أراضي البرتغال ، وبدأ بمحاصرة قلعة فارو أوشتنيرية الغرب ، واستولى عليها في سنة ١٢٤٩ م ، ولم يكن بهذه القواعد الإسلامية الأخيرة سوى حاميات ضئيلة من الموحدين وغيرهم ، ثم استولى ألفونسو تباعاً على سائر ما كان باقياً بأيدي المسلمين من القواعد ، والحصون بهذه المنطقة وبذلك تم القضاء على سلطان المسلمين نهائياً من الأراضي البرتغالية ، ولم يكتف ألفونسو الثالث بذلك بل عبر في قواته نهر وادي يانه ، ومضى في فتوحه في أراضي ولاية الغرب الأندلسية ، ولكنه اضطر فيما بعد أن ينزل عما فتحه من الأماكن في تلك المنطقة لملك قشتالة ، إذ كانت داخلية في نطاق الفتوح القشتالية .

الكتاب الثاني عشر

نظم الدولة الموحديّة وخواص العصر الموحدي

الفصل الأول

الحكومة الموحدية بالمغرب والأندلس وأوضاعها السياسية والعسكرية والإدارية

الدولة الموحدية وقيامها على أسس دينية . الفرق بينها وبين الدولتين المرابطية والفاطمية . الحكومة الإمامية في عهد المهدي . تحول الإمامة الموحدية إلى خلافة دنيوية . صفة الإمامة الشكلية . الأساس القبلي لهيكل الدولة الموحدية . قبائل المصامدة وغيرهم . غلبة نفوذ المصامدة في تسيير الدولة . تصنيف عبد المؤمن لطوائف الموحدين . وضع أسس الحكم الدنيوي الجديد . تحليده في بني عبد المؤمن . اختيار عبد المؤمن لولي عهده . زعمه بأنه يحقق بذلك رغبة القبائل البربرية والعربية . تعيينه أولاده لحكم الولايات . اختصاصهم وأعقابهم بلقب السادة . إثارة القرابة والأصهار بمنصب الحكم والوزارة . ولايات المغرب والأندلس في ظل الدولة الموحدية . إشبيلية قاعدة الحكم الموحدي بالأندلس . بواعث هذا الاختيار . الأسس الأولى للحكم الموحدي حسبما وردت في رسالة عبد المؤمن . ظهور الخلافة الموحدية بحرصها على توطيد العدل . الوزارة الموحدية . نظامها أيام المهدي . خطة الوزارة منذ عبد المؤمن . الوزارة والكتابة . اضطلاع الأبناء والقرابة بالوزارة والحجابة . تعيين الوزراء العاديين . اختيارهم من خاصة القبائل الموحدية . الكتابة من أهم الخطط . اختيار أكابر الكتاب لهذه الخطة . معظمهم من أهل الأندلس . بعض الكتاب الأندلسيين والمغاربة . الخلفاء المتعاقبون وكتائبهم . حرص الخلافة الموحدية على بلاغة الترسيل . العلامة وديوان السكر . منصب أشغال البرين وأهميته . وزراء الشؤون المالية . ديوان الأعمال المخزنية واختصاصاته . متولى الحجاب . متولى المستخلص . صاحب الشرطة . منصب مقدم إرسال ملوك الروم وإنزالهم والترجمة عنهم . سياسة الموحدين في شؤون الحياة . رسائل عبد المؤمن في ذلك . تضخم الدولة وتطور سياسة الضرائب . تكسير عبد المؤمن لأراضي الدولة . فرض الخراج وغيره من المكوس . مضاعفة وزن الدينار الموحدي . الأحوال الاقتصادية في بداية الدولة . خراب إفريقية وأثره في تحطيم رخاء المغرب . موقعة العقاب وآثارها الاقتصادية المدمرة . اضطراب شؤون الخلافة وأثره . عيث العرب وقبائل البربر . القحط والغلاء . تردد صدى هذه المحن بالأندلس . الحروب الأهلية وغزوات النصارى وآثارها المدمرة . المناصب الدينية . القضاء والتعيين في مناصبه . استئثار قضاء الأندلس بمناصبه في بلادهم . توليهم أحيانا قضاء الجماعة بالمغرب . خطة الشورى . خطة الأحكام . خطة الموارث . حصة السوق . منصب الخطابة . صاحب الصلاة . متولى شؤون طلبة الحضر . تحول الخلافة إلى ملك دنيوي . الاحتفاظ برسوم المهدي . تطور الفكرة المذهبية في عصر المنصور . مرسوم المأمون بازالة رسوم المهدي ومحو أسطوره . فتكه بالزعامة الموحدية . الرشيد وعوده إلى استرضاء الأشياء . إعادته لرسوم المهدي . القوة العسكرية الموحدية . الحشود القبلية مصدرها الرئيسي . بداية حشد أيام المهدي . علم المهدي الأبيض . تضخم الجيوش في عهد عبد المؤمن . تأليف عبد المؤمن الحشود القبلية وتنسيقها . طريقة مسير الجيوش الموحدية . سلا ورباط الفتح مركز

لتجميع الجيوش الموحدية . مراكز التموين . طريق العبور إلى شبه الجزيرة . خطة المربع الموحدى ومنعتها . طوائف العرب بعد الحشود القبيلة . عبد المؤمن يضع خطته لاستمالة العرب . مساعى ولده الخليفة أبى يعقوب فى ذلك . العرب يؤلفون جناحا خاصا فى الجيوش الموحدية . هدف السياسة الموحدية فى حشد العرب . تقلبهم وعدم ولائهم . دورهم فى الحرب الأهلية . القوات الأندلسية ودربتها وولاؤها . الخليفة قائد الجيش العام . المؤتمرات الحربية . ساقه الجيش وقبة الخليفة . الاستعانة بالمرتزقة النصرى . البنود والطبول . الإنعام والبركات . المطوعة ونظامهم . القوى البحرية . عناية الموحدى بإنشاء القطاع . أهمية الأسطول ودوره فى حماية الشواطىء . مراسى الأسطول . إدارة شئون الجيش . ديوان السكر . ديوان التمييز . التمييز وتطور غايته . الحج إلى تينمل . الثغرات فى الجيش الموحدى . فوضى القيادة . اختلال التموين . تفوق الموحدى فى فنون الحصار والآلات المدمرة . المدافع البدائية . تفوقهم فى فن التصينات . موقعة العقاب وانهيار الدفاع بالأندلس . انشغال الموحدى بالتنافس على الخلافة . ثوب الممالك النصرانية . الحكومة الموحدية بالأندلس . ميلها إلى الطابع المدنى . أقسام الأندلس الإدارية . السادة والقرابة يتولون حكم الولايات . إشبيلية مركز الحكم الموحدى والحاكم العام . البلاط الموحدى بإشبيلية . حكومات الولايات المحلية . عناصر هذه الحكومات . استخدام السادة لكتاب الأندلس . إشبيلية مركز تجمع الجيوش الموحدية الغازية . القوات الأندلسية . قيادتها ودورها فى الدفاع والحراسة . ملكة الشرق . احتفاظها بالطابع الأندلسى . كونها أول مركز لقيام الحركات القومية . اللون الانتحارى لهذه الحركات . مصانعة زعمائها للنصرى واستمدادهم . حكومة إشبيلية بعد انهيار سلطان الموحدى . الاضطراب والفوضى فى الأندلس .

الآن وقد انتهينا من استعراض تاريخ الدولة الموحدية ، بالمغرب والأندلس ، منذ قيامها على يد إمامها المهدي ابن تومرت ، حتى انحلالها وسقوطها ، على يد آخر خلفائها ، أبى العلى إدريس الملقب بأبى دبوس ، فيما يملأ نحو قرن ونصف قرن ، نحاول فى هذا الفصل ، أن ندرس طبيعة النظم ، التى سارت عليها الدولة الموحدية ، فى حكم تلك الإمبراطورية العظيمة ، خلال هذا المدى الطويل من الزمان .

قامت الدولة الموحدية ، حسب رأينا ، على أسس دينية محضة ، وهى فى ذلك قريبة الدولة المرابطية ، التى قامت كذلك على أسس دينية . ولكن شتان بين الحالتين . ذلك أن الأساس الدينى ، الذى قامت عليه الدولة المرابطية ، كان أساس العقيدة الدينية ، والجهاد فى سبيل نشرها . ولكن الدولة الموحدية ، تمتاز باستنادها إلى أسس الإمامة الدينية ، ونظرية المهدي المنتظر ، وهى فى ذلك تضارع الدولة العبيدية الفاطمية . بيد أنها بالرغم من اشتراكها مع الدولة الفاطمية فى وحدة المصدر ، وهو الدعوة الشيعية ، تمتاز باستقلالها عن الحركة الشيعية الشرقية ، وبصفتها المغربية المحلية .

وامتازت رئاسة الدولة الموحدية ، فى البداية ، بإمامة منشأ المهدي

ابن تومرت ، ولم تتخذ في حكمها مدى العشرة أعوام ، التي لبثها المهدي على رياستها
أى طابع آخر ، وكانت هذه الإمامة مصدر السلطات الدينية والسياسية معاً .
وكانت الحكومة الموحدية عندئذ ، عبارة عن ثيوقراطية (حكومة دينية) يعاون
الإمام فيها ، صحبه العشرة الأوائل ، المسمون بالجماعة ، فيما يمكن أن نصفه
بالوزارة ، وكان هؤلاء يضطلعون بمشورة الإمام في جلائل الأمور ، بيد أنه
كان يوجد إلى جانب هؤلاء ، أفراد آخرون من ذوى النفوذ ، كان الإمام
يرجع إليهم في تدبير الشئون ، وذلك حسبما يخبرنا ابن القطان^(١) ، ثم كان هناك
من صحب المهدي أهل خمسين ، وهؤلاء يشتركون في بحث الشئون الأقل أهمية ،
ثم أهل سبعين ، ويشتركون أيضاً في بحث الشئون العادية .

فلما توفي المهدي ، في رمضان سنة ٥٢٤ هـ (أغسطس سنة ١١٣٠ م) عقب
هزيمة أنصاره الساحقة في موقعة البحيرة ، بأشهر قلائل ، وخلفه في رئاسة
الموحدين كبير صحبه وآثرهم لديه عبد المؤمن بن علي ، وبزغ نجم الموحدين بعد
ذلك على يد عبد المؤمن ، واستمروا في صراعهم ضد المرابطين ، حتى انتهوا
بسحق دولتهم ، وذلك بالاستيلاء على حضرة مراکش ، في شوال سنة ٥٤١ هـ
(مارس ١١٤٧ م) ، واستكملت الدولة الموحدية بذلك سيادتها ، على سائر
أنحاء المغرب ، لم يكن ثمة بد ، من أن تتحول الإمامة الموحدية إلى خلافة دنيوية .
وبالرغم من أن الإمامة الموحدية ، لم تفقد في ظل هذا التحول صفتها الدينية ،
ولا اعتبارها كشعار للدولة الموحدية ، فإنها لم تكن عندئذ سوى عنوان إسمى يتوج
الخلافة الجديدة . والواقع أن الخليفة عبد المؤمن ، هو المنشئ الحقيقي للدولة
الموحدية الكبرى ، وعلى يديه ، توطد سلطانها بالمغرب وإفريقية والأندلس ، وفي ظله
تحولت الخلافة الموحدية شيئاً فشيئاً ، من إمامة دينية إلى ملك سياسي باذخ ، وذلك
مع الاحتفاظ دائماً برسوم الإمامة المهدية ، وتعاليم المهدي الدينية ، والدعاء له في
الخطبة ، وفي المكاتبات الرسمية ، ووصفه دائماً «بالإمام المعصوم ، المهدي المعلوم» .

ومن ذلك الحين ، نستطيع أن نتتبع ملامح النظم الموحدية ، وطبائع الحكم
الموحدى ، بصورة واضحة . ويجب أن نذكر أولاً ، أن هيكل الدولة الموحدية
الأساسي ، كان يقوم منذ البداية ، على أسس قبليّة ، وذلك سواء من الناحية
المدنية أو العسكرية . وكانت القبائل ، التي يركز إليها هذا الهيكل ، ينتمي

(١) نظم الجمان (المخطوط السالف ذكره ، لوصة ١٠ ب و ٣٣ ب) وراجع ص ١٩٦ من هذا الكتاب .

معظمها إلى مصمودة ، ومنها القبائل السبع الأولى ، التي اتسمت بالصفة الموحدية ، وكانت أسبق القبائل إلى مبايعة المهدي ، وهي هرغة قبيلة الإمام المهدي ذاته ، وهنتانة ، وأهل تينملل ، وجنفيسة ، وهزرجة ، وجدميوة ، ووريكة ، ويلحق بهذه القبائل التي اكتسبت قبل غيرها صفة التوحيد ، قبيلة كومية وهي قبيلة الخليفة عبد المؤمن ، وكذلك مجموعة أخرى من قبائل المصامدة القوية ، مثل هسكورة ، ودكالة ، وهيلانة ، وحاحة ، وغيرها ، ومن غير المصامدة ، زنانة تيفسرت وصنهاجة القبيلة^(١). وقد انضم بعض هذه القبائل ، إلى العصبة الموحدية بطريق الفتح ، مثل هسكورة وحاحة . وكان سلطان الدولة الموحدية يقوم على تأييد هذه القبائل ، وتستأثر القبائل الموحدية السبع في الدولة ، بأكبر قسط من النفوذ ، وتحتل معظم المناصب الكبرى ، من الوزارة والولاية والقيادة ، وتغذي هذه المجموعة الكبيرة من القبائل الجيوش الموحدية الحرارة ، بحشودها الزاخرة المدربة على القتال . وقد وضع عبد المؤمن لتنظيم الموحدين ، نظاماً جديداً غير الذي وضعه المهدي ابن تومرت من قبل ؛ وكان المهدي حسباً تقدم في موضعه ، قد جعل من الجماعة أو الصحب العشرة ، رأس الطوائف الموحدية ، ومن بعدهم أهل خمسين ثم أهل سبعين ، فطلبة العلم ، فالحفاظ ، فأهل الدار . بيد أنه لما تعاقبت الحوادث ، وفُتقد الكثير من أهل الجماعة ، وأشياخ الموحدين ، رأى عبد المؤمن أن يصنف الموحدين ، إلى ثلاث طوائف : الأولى هي طائفة السابقين الأولين ، وهم الذين سبقوا إلى مبايعة الإمام المهدي ، وصحبوه أو غزوا معه ، أو صلّوا خلفه ، والذين اشتركوا في موقعة البحيرة الفاصلة . والثانية هي طبقة الموحدين ، ممن دخلوا في زمرة الموحدين ، منذ موقعة البحيرة حتى فتح وهران . والثالثة هي طبقة الذين دخلوا في التوحيد ، منذ فتح وهران إلى ما لم جراً ، وهذا كله مع المحافظة على هيكل النظام القبلي الذي تقدم شرحه^(٢) .

ولما توطد سلطان الخليفة عبد المؤمن ، بما تم له من استكمال فتوح المغرب والأندلس ، وإخضاع سائر القبائل الحصيمة ، وغلب لون الخلافة الدنيوى ، بتضخم صرحها السياسى ، وتحولت في الواقع إلى ملك باذخ ، وضعت القواعد الأولى لتنظيم هذا الملك ، وتخليده في بني عبد المؤمن ، كما وضعت الأسس التي

(١) يقدم إلينا البيهقي في أخبار المهدي ابن تومرت تفصيلاً شاملاً لبطون هذه القبائل (٣٥-٤٣) .

(٢) راجع الرسالة الثانية عشرة من رسائل موحدية ص ٥٣ و ٥٤ ، وراجع أيضاً ص ٣٩٨ ، ٣٩٩ من هذا الكتاب

تحكم بمقتضاها ، أقطار الدولة الموحدية وشعوبها . وبدأ عبد المؤمن في ذلك ، باختيار أكبر أولاده أبي عبد الله محمد لولاية عهده (سنة ٥٤٩ هـ) ، وقد أوضحنا فيما تقدم كيف اختير عبد المؤمن للخلافة ، عقب وفاة المهدي ، وما أحاط بذلك الاختيار من ظروف خاصة . ولم يكن ثمة ما يؤذن عندئذ أو يسمح للخليفة ، بأن يجعل من الخلافة أمراً وراثياً في عقبه ، ومن ثم فقد أبدى عبد المؤمن ، في رسائله الرسمية عن ولاية العهد ، أنه لم يكن له في ذلك رغبة خاصة ، وإنما حمل على تصرفه برغبة القبائل والعشائر البربرية والعربية المختلفة ، وهي التي دفعته ، إلى القيام باختيار ولده لولاية العهد . وقام عبد المؤمن في نفس الوقت باتخاذ الخطوة الثانية ، لتنظيم الحكم ، وتوكيد سيادة بني عبد المؤمن . فعين بقية أولاده ، لحكم ولايات المغرب والأندلس ، وذلك حسبما فصلنا في موضعه . وكان أولاد الخليفة ينعتون هم وأعقابهم بالسادة ، وهو لقب اختصوا به طوال أيام دولتهم . وقد جرت الخلافة الموحدية ، على نسق الدولة المرابطية ، في تعيين الأبناء والقراة والأصهار ، لحكم الولايات والمدن ، وأحيانا للقيادة والوزارة ، هذا مع تعيين بعض الأشياخ والحفاظ المقربين أحيانا ، في هذه المناصب الكبرى . وقد حرصت الخلافة الموحدية ، على هذه القاعدة ، حتى أواخر أيامها ، سواء في المغرب أو الأندلس . وكانت ولايات المغرب أوعملاته ، في ظل الخلافة الموحدية ، تشمل بلاد السوس ، وسلماسة ، ومراكش ، وفاس ، وتلمسان ، وبجاية ، وإفريقية ، ثم سلا فيما بعد ، وكانت سبتة ، أحيانا ولاية مستقلة ، وأحيانا تلحق بمالقة والجزيرة الخضراء . وأما ولايات الأندلس ، فكانت تشمل ولاية الغرب (شلب وأحوازا) ، وإشبيلية ، وقرطبة ، وجيان ، وغرناطة ، ومالقة ، ومرسية ، وبلنسية .

وكانت قاعدة الحكومة الموحدية بالأندلس أولا لإشبيلية ، وذلك لأنها كانت أول قاعدة أندلسية كبرى ، نادت بطاعة الموحدين ، وبعثت بيعتها إلى عبد المؤمن على يد وفد من أعيانها ، وثانيا لأنها كانت أول قاعدة كبرى استولى الموحدون عليها ، ولكن عبد المؤمن ، قبيل وفاته بقليل ، أمر ولده السيد أبا يعقوب يوسف ، وكان عندئذ واليا لإشبيلية ، أن ينقل منها إلى قرطبة ، وأن يجعل بها قاعدة الحكم الموحدى ، ومستقر الجيوش الموحدية ، لأنها « مؤسطة الأندلس » . بيد أن هذا التغيير لم يطل أمده ، ولم يمض سوى وقت قصير ، حتى

أعيد مركز الحكم الموحدى إلى إشبيلية ، واستقر بها بعد ذلك ، طوال عهد الدولة الموحدية ، وذلك بالأخص لبعدها عن حدود قشتالة ، وعن خطر الغزو النصرانى ، ولأنها باتصالها بالبحر ، بواسطة مصب نهرها الوادى الكبير ، ووفرة مواردها الزراعية من وادى الشرف ، كانت تعتبر خير قاعدة ، لنزول الجيوش الموحدية ، القادمة من وراء البحر ، وغدت إشبيلية فى ظل الحكم الموحدى ، أعظم حواضر الأندلس ، وازدانت بكثير من الصروح ، والمنشآت العمرانية العظيمة ، التى أتينا على ذكرها فى موضعها .

١ - نظم الحكم الموحدى

وأما عن نظم الحكم الموحدى ، فقد كان الخليفة عبد المؤمن أيضاً ، هو أول من وضع أسسها الرئيسية ، وكان ذلك نتيجة طبيعية ، لتحول الخلافة الموحدية على يده ، إلى ملك دنيوى ، ووضعه لنظام ولاية العهد . ونجد هذه الأسس الأولى ، لنظام الحكم الموحدى ، مدونة فى الرسالة التى وجهها عبد المؤمن ، بتاريخ ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ ، إلى الطلبة والأعيان والمشيوخ والكافة بالأندلس ، التى أوردها لنا ابن القطان ، ولخصنا ما تضمنته فيما تقدم^(١) . وتنحصر هذه الأسس فى خمس نقط هى : وجوب التزام الدقة فى تطبيق الأحكام الشرعية ، ووجوب الكف عن اقتضاء أية مغارم أو مكوس ، لاتباعها الشريعة ولاتتفق مع قواعد العدل ، وأنه لا يجوز الحكم فى مواد الحدود بالإعدام ، أو تنفيذه قبل الرجوع إلى الخليفة ، ليصدر هو قراره فى هذا الشأن ، وأنه يجب تحريم الخمر ، ومطاردتها فى سائر أنحاء الدولة ، وأنه يجب حماية أموال « المخزن » (أموال الدولة) ، وصونها وعدم التصرف فى شىء منها ، دون استئذان الخليفة . وقد حذا الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، حذو أبيه ، بتأكيد هذه الأسس الدستورية ، للحكم الموحدى ، وذلك فى رسالة شبيهة برسالة أبيه ، وجهها فى رمضان سنة ٥٦٩ هـ ، إلى أخيه السيد أبى سعيد وإلى قرطبة ، وأصحابه الطلبة ، وفيها بحث على وجوب تطبيق أحكام الشرع ، وأمرها ونواهيها بدقة ، واتباع الحق والعدل ، فى الفصل فى قضايا العباد ، وأنه فيما يتعلق بالدماء ، فإنه يحظر على سائر عمال الموحدين أن يحكموا فى الدماء من تلقاء أنفسهم ، وأنه لا بد من أن ترفع قضايا القتل إلى الخليفة ، مشفوعة بتفاصيلها وأدلتها وشروحها ، ويسرى ذلك حتى على القضايا

(١) راجع ص ٤٠٠ و ٤٠١ من القسم الأول من هذا الكتاب .

التي وقع فيها اعتراف بالقتل ، أودليل أو شهادة مقبولة ، أوغير ذلك ، فإنه يجب في سائر الأحوال ، أن يرفع الأمر إلى الخليفة ، وأن ما ورد في كتاب الله من الحظر المؤكد والوعيد الشديد ، نحو إراقة الدماء ، واستباحة الأموال ، واستحلال الحرمات إلا بوجه صحيح ، يوجب عليهم اتباع ما رسم ، ووجوب التوقيت والبيان والتعريف ، هذا مع وجوب تقوى الله ، وطاعة أوامره ، والجرى على سننه . وتكرار هذا النصح ، بالعف عن إراقة الدماء ، والتحوط في تنفيذ أحكام الإعدام ، هو صدى طبيعي ، لما اتسمت به الدولة الموحدية ، منذ قيام المهدي ابن تومرت ، من المبالغة في استباحة دماء خصومها وإراقها . وقد ذكرنا من ذلك ، طائفة من الحوادث المروعة المثيرة ، أيام المهدي ، وخليفته الأول عبد المؤمن . فلما انتهت الدولة الموحدية ، من القضاء على خصومها ، ولما توطدت دعائمها ، وضخم سلطانها ، لم يبق ثمة موجب لهذا الإغراق في سفك الدم ، وكان من حسن السياسة ، أن تؤكد الخلافة الموحدية حرصها على احترام دماء الناس ، وتمسكها بتنفيذ أحكام الشريعة ، وحشها عمالها على مراعاة ذلك ، وبالأخص على عدم التورط في إراقة الدم ، إلا بموافقة الخليفة نفسه .

وكانت الخلافة الموحدية ، تؤثر أن تبدو في نفس الوقت ، حريصة على توطيد العدل ، وقمع الظلم ، وقد رأيناها منذ البداية ، تتبع العمال الظلمة وتطاردهم وتقضي في أحيان كثيرة ، بعزهم ومحاسبتهم ، وأحيانا باعتقالهم وإعدامهم . وقد كانت للخليفة عبد المؤمن ، ولولده وخليفته أبي يعقوب يوسف ، وحفيده يعقوب المنصور ، في ذلك جهود ضخمة ، ذكرناها في مواضعها ، بل لقد حذا الخليفة الناصر نفسه ، في ذلك حذو أبيه وجده ، في مطاردة العمال الظلمة وإزالتهم ، وكان تكرار هذه المطاردة للعمال الظلمة ، وعمال الخزن وغيرهم ، وتوقيع العقوبات الرادعة عليهم ، مما يصل أحيانا إلى الإعدام والمصادرة ، في ذاته دليلا ، على ما كان يغشى الإدارة الموحدية ، في بعض الأحيان ، من ضروب الفساد ، التي ترمى هذه المطاردة إلى قمعها .

وكانت الوزارة الموحدية ، وهي أداة الحكم المباشر ، أوسع نطاقا منها ، في عهد الدولة المرابطية . وقد رأينا أن المهدي ابن تومرت ، لم يكن له وزير خاص ، وإنما كان يتخذ من الجماعة ، وهم أصحاب العشرة الأوائل ، أعضاء

وزارته ، ويبحث معهم شئون الحكم ، وكان يجعل من باقى الصبح ، وهم أهل خمسين ، وأحيانا أهل سبعين ، نوعا من الجمعية الاستشارية^(١) . ثم بدأت خطة الوزارة ، فى عهد عبد المؤمن أول الخلفاء الموحدين ، وانتظمت على يده أداة الحكم ، بصورتها التقليدية ، من الاعتماد على معاونة وزير أو أكثر ، يتولون أعباء الحكم والإدارة بتوجيه الخليفة وإرشاده ، ويطالعونه بمختلف الشئون الهامة ، وعلى معاونة كاتب أو أكثر من الكتاب المحيدين ، يكونون ترجمانا لدعوته ، ويضطلعون بتوجيه رسائله وتعليماته ، إلى مختلف العمال والجهات . وكان الخليفة ، يعهد فى بعض الأحيان بوزارته ، إلى أحد أولاده أو إخوته ، فقد رأينا مثلا كيف عهد عبد المؤمن ، فى أواخر أيامه ، بالوزارة إلى ولده السيد أبى حفص^(٢) . ولما توفى عبد المؤمن ، وخلفه ولده السيد أبو يعقوب يوسف ، تولى شئون الحجابة مدى حين ، أخوه السيد أبو حفص ، وذلك على معنى الوزارة والإمارة^(٣) . ثم لما توفى الخليفة أبو يعقوب ، عقب موقعة شترين ، وخلفه ولده الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور ، تولى حجابته أخوه كبيره السيد أبو حفص ، والحجابة هنا معناها رئاسة الوزارة . ثم تولى له الوزارة أخوه السيد أبو عبد الله محمد . وأحيانا كان يضطلع بالوزارة بعض القرابة ، كما حدث أيام الخليفة المستنصر والرشد . بيد أن تعيين الحجاب والوزراء من الأبناء والإخوة أو القرابة ، لم يكن يحول دون تعيين الوزراء العاديين ، للاضطلاع بتدبير الشئون ، وقد كان أولئك الوزراء أيضاً ، فى الغالب ، من خاصة القبائل الموحدية الموالية . وكانت الوزارة تبقى فى الأسرة الواحدة أجيالا متعاقبة ، كما حدث فى أسرة بنى جامع ، التى تولى أبنائها الوزارة ، منذ خلافة عبد المؤمن ، واستمروا فى توليها فترات مختلفة ، حتى عصر الناصر ، وأسرة بنى يوجان ، التى تولى أبنائها أيضاً الوزارة غير مرة .

وأما الكتابة ، فقد كانت من أهم خطط الحكومة الموحدية . وكان الخليفة الموحدى ، يحشد فى بلاطه ، أقطاب الكتاب المحيدين ، وكان السادة من الولاة سواء بالمغرب أو الأندلس ، يتخذون لكتابتهم أبلغ كتاب العصر . ومنذ عصر الخليفة عبد المؤمن ، نرى ثبنا طويلا ، من أئمة النثر والبلاغة ، ينتظمون فى

(١) راجع ص ١٩٦ من ق ١ من هذا الكتاب . (٢) راجع ص ٣٩٤ من ق ١ من هذا الكتاب .

(٣) كتاب المن بالإمامة لوحة ٤٨ ب .

في بلاط مراکش ، ليكونوا لسانا للخليفة الموحدى ، وترجمانا له ، في مخاطبة الولاة والقبائل والكافة ، سواء المغرب أو الأندلس ، وكان معظم هؤلاء الكتاب من أهل الأندلس ، ومنهم كذلك عدة من أكابر الكتاب المغاربة . فكان من الأندلسيين في بلاط عبد المؤمن ، أبو الحسن بن عياش القرطبي ، وأخيل ابن إدريس الرندى ، والخطيب أبو الحسن بن الإشيلي . ومن المغاربة ، أبو جعفر ابن عطية ، وأخوه عقيل بن عطية ، ولو أنهما ينتميان إلى أصل أندلسي . واستمر أبو الحسن ابن عياش في منصب الكتابة ، في عهد أبي يعقوب يوسف . وكان يعاونه اثنان من ألمع الكتاب المغاربة في ذلك ، هما أبو القاسم القلمى ، وتاميذه أبو الفضل طاهر بن محشرة . وتولى الكتابة في عهد يعقوب المنصور ، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عياش البرشاني ، وأبو الفضل بن محشرة . وكتب للناصر ولد المنصور ، أبو عبد الله محمد بن عياش ، وأبو الحسن علي ابن عياش ، ومن المغاربة أبو عبد الله محمد بن بخلفتن الفازازى ، وكتب الأول كذلك للمستنصر . وحتى في أواخر عهد الدولة الموحدية حينما أدركها الانحلال والوهن ، نجد مثل هذه العناية بمنصب الكتابة ، والحرص على استخدام الكتاب البلغاء . فقد كتب للمأمون ، وهو نفسه من الكتاب البلغاء ، كاتب من أعظم أئمة البيان الأندلسيين ، هو أبو المطرف بن عميرة الخزومى ، وكتب معه أبو الحسن الرعيني ، وأبو عبد الله بن عياش ، ومن كتاب المغرب ، أبو زكريا الفازازى . وكتب أبو المطرف بن عميرة وأبو زكريا الفازازى كذلك للرشيد . وهكذا نجد البلاط الموحدى ، حتى أواخر عهد الدولة ، حريصاً على الاحتفاظ لديوان الكتابة والترسل ، بمستواه الرفيع ، الذى بلغه منذ عهد الخليفة عبد المؤمن . وإنا لنجد ذلك الحرص ، من جانب الخلافة الموحدية ، على بلاغة الترسل المترجم عنها في تلك المجموعة من الرسائل ، التى صدرت عن الخلفاء المتعاقبين ، في مختلف الشئون ، الشرعية ، والإدارية ، وعن سير الغزوات والفتوحات الموحدية ، والتى أشرنا إليها ، واقتبسنا من محتوياتها ، في مواطن عديدة ، فيما تقدم ، من فصول هذا الكتاب (١) .

(١) نود أن نشير هنا مرة أخرى إلى مجموعة الرسائل الموحدية التى نشرت بعناية العلامة الأستاذ ليني بروفنسال (الرباط سنة ١٩٤١) والتى رجعنا إليها مراراً عديدة فيما تقدم ، وكذلك إلى مختلف الرسائل الموحدية الأخرى التى جاء ذكرها في كتاب «المن بالإمامة» ، وكتاب (البيان - المغرب) مما سبقت الإشارة إليه في مواضعه . وقد نشرنا بعضها في نهاية الكتاب .

وكان مما يلحق بديوان الكتابة ، كتب التوقيعات والظواهر وكل ما يمهر بالعلامة ، وكذلك ديوان العسكر ، وما انضاف إليه من التنفيذات السلطانية ، وتقييد الجزيات العامة في أنواع النفقات^(١). وكان لديوان العسكر كتابه المختصون به ، وهم غير كتاب الديوان المختصين بالشئون الأخرى .

وكانت أداة الحكومة التنفيذية ، تضم عدة مناصب هامة ، في مقدمتها منصب « متولى أشغال البرين » أعنى المغرب والأندلس ، وكان لذلك المنصب أهمية خاصة ، أيام عنفوان الدولة الموحدية وتماسكها ، ويوضف اختصاصه « بالأعمال العلية والأشغال السلطانية » . ففراه أيام الخليفة المنصور ، يسند إلى كبير الوزراء نفسه أبى زيد بن يوجان^(٢) ويوصف أحيانا « بإشراف البرين وضم الأعمال وتفقد الأشغال » ويسند إلى وزير أو أكثر يسمون « أصحاب الأشغال »^(٣) . وبلى ذلك في الأهمية الوزراء المختصون بالشئون المالية ، وهم « صاحب الأعمال الخزنية » ، ومتولى الحجابي ، ومتولى أموال النفقات والمحاسبة ، ومتولى أعمال المستخلص . وكان لصاحب ديوان الأعمال الخزنية ، اختصاصات وسلطات واسعة في السهر على تحصيل الأموال العامة وإتفاقها ، وفي رقابة العمال والمشرفين ، ومحاسبهم والقبض عليهم^(٤) ، وكان له وكلاء في سائر المدن الكبرى ، يسمون بالمشرفين ، ويمثله في إشبيلية عاصمة الأندلس « صاحب الخزن » ، وكان للمشرف بدوره خازن على المال ، وخازن على الطعام ، يتولى الإشراف على حركة الوارد والصادر بالمخازن العامة ، وأحيانا يقع ضمن أعمال المشرف الرقابة على تقييد الحجابي^(٥) . وكان أولئك الوكلاء المشرفون على الأموال العامة يتحملون مسئوليات خطيرة ، ونراهم من آن لآخر ، عرضة لمختلف الاتهامات والمطاردات^(٦) وكان من التقاليد الماثورة أن يقوم الخليفة الجديد ، في بداية ولايته بالعفو عن المسجونين ، ورفع الأموال المتخلفة ، عن عاتق العمال المبددين ، وتأمينهم من العقاب^(٧) . وأما متولى الحجابي ، فهو المختص بتحصيل الضرائب ، والجزيات على مختلف صنوفها ، وله عمال في المدن وفي البوادي . وكانت الحملات

(١) البيان المغرب القسم الثالث ص ٢٣١ (٢) البيان المغرب ٢٠١ و ٢٣٦ .
(٣) البيان المغرب ص ٢٢٧ و ٢٨٣ . (٤) البيان المغرب ص ١٣١ و ٢٠١ و ٢٣٧ .
(٥) راجع البيان المغرب ص ١٣١ و ١٧٢ .
(٦) البيان المغرب ص ٣١ و ١٠٨ و ١١٢ و ١٣١ و ٢٣٧ (٧) البيان المغرب ص ٧٣ .

العسكرية ، تحشد أحيانا ، لإرغام القبائل المتخلفة عن أداء الحماية ، على أدائها ، وذلك حسبما ذكرنا فيما تقدم غير مرة . وأما متولى المستخلص ، فهو المشرف على الأموال الخليفة ، والمحافظة عليها ، وتحصيل ما يتعلق بها ، من مختلف أبواب الدخل . وقد يتولى صاحب الأشغال الخزنية أحيانا ، الإشراف على ما يتعلق « بالسهم السلطانية » أى أنصبة الخليفة وأحقوقه الشرعية فى الغنائم وغيرها^(١) . وكان منصب صاحب الشرطة ، من المناصب الإدارية الهامة ، وكانت أهميته تبدو بنوع خاص فى الأوقات المضطربة ، وعند اضطراب الفتن ، وكان يشغله أحيانا ، رجال من ذوى المكانة الرفيعة فى الدولة من أكابر الوزراء ، كما حدث أيام الرشيد^(٢) .

وبرز فى أواخر العصر الموحدى ، منصب هام فى الحكومة الموحدية ، هو منصب وزير يقوم فيه صاحبه ، بالتقديم إلى إرسال ملوك الروم ، والاشتغال بإنزالهم ، وتضييفهم ، والترجمة عنهم^(٣) . ومن الواضح أن هذا المنصب ، لم تبرز أهميته ، إلا منذ أيام الخليفة المأمون ، حينما عقد حلفه المشهور ، مع فرناندو الثالث ملك قشتالة ، وأمدده هذا الملك النصرانى ، بفرقة كبيرة من جنده ، ليحبر بها إلى المغرب ، ويستعين بها على قتال منافسه فى الخلافة ، يحيى المنتصر . ومن ذلك التاريخ ، يأخذ الروم بقسط بارز ، فى الحروب ، التى يشهرها الخليفة الموحدى ، على خصومه ، ويقتضى أن يمثل فى بلاط مراکش ، شخص يتولى استقبال الوافدين من « الروم » (القشتاليين) ، من أمراء وقادة وسفراء وغيرهم ، ويتولى الإشراف على رعايتهم ، والترجمة بينهم وبين الخليفة ، وذوى الشأن من رجال الدولة . وقد أشرنا فيما تقدم ، إلى سياسة الحكومة الموحدية فى شئون الحماية ، ووجوب التزام أحكام الشرع فى شأنها ، والاقتصار فى ذلك ، على ما يجيزه الشرع من الزكوات والأعشار . وقد نوه الخليفة عبد المؤمن ، بوجوب التزام هذه السياسة ، فى رسائله الرسمية غير مرة ، وكانت له شعاراً ، فى حملاته للقضاء على الدولة المرابطية ، فتراه يذكرها فى أولى رسائله الدستورية ، وهى الرسالة الجامعة ، التى وجهها إلى الطلبة والمشيخة والأعيان والكافة بالأندلس ، فى ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ ، وفيها يتحدث عن المغارم ، والمكوس والقبالات ،

(١) البيان المغرب ص ٢٠١ و ٢٢٧ . (٢) البيان المغرب ص ٢٨٣ .

(٣) البيان المغرب ص ٢٣٤ .

وتحجير المراسى ، وغيرها من المظالم ، ووجوب القضاء عليها ، وإجراء العدل في شأنها^(١) ، ونراه بعد ذلك ببضعة أعوام ، يعود إلى ذكرها ، في رسالة إلى أهل قسنطينة عن فتح بجاية في جمادى الأولى سنة ٥٤٧ هـ ، وفيها يتحدث عما فرضه « أهل الاختلاق والابتداع » من « القبالات والمكوس والمغارم وسائر تلك الأنواع » دون النفقات إلى ما أوجب الله من الزكوات والأعشار ، حتى قضى الله بإلزامهم ، ورد الأمر إلى نصابه ، بإجراء الشريعة على حقيقتها ، وإراحة أهل البلاد المعمورة بالتوحيد من جميع هذه المغارم^(٢).

على أن هذه العهود الرسمية ، التي كانت تستند في جوهرها ، إلى تعاليم المهدي ابن تومرت ، ودعايته ضد الدولة المرابطية ، فيما جرت عليه من فرض المغارم والمكوس غير الشرعية ، لم تكن سوى شعار مؤقت ، تستظل به الدولة الموحدية في بداية عهدها ؛ ذلك أنه لما توطدت دعائم الدولة الجديدة ، واتسع نطاق مسؤولياتها المدنية والعسكرية ، سواء في المغرب والأندلس ، كان من الواضح أن الاقتصاد على تحصيل الفروض الشرعية في شئون الحياة ، لا يمكن أن يفي بما تتطلبه نفقات الدولة ، أو نفقات الجيوش الموحدية الضخمة في المغرب ، أو فيما وراء البحر ، ومن ثم فقد اضطرت الدولة الموحدية غير بعيد ، أن تبحث عن وجوه أخرى ، لتحقيق الحياة وتوفير النفقات ، فكان مما فعله عبد المؤمن في ذلك ، قيامه بمسح (أو تكسير) بلاد إفريقيا والمغرب ، من برقة إلى السوس الأقصى ، وإسقاط مقدار الثلث من مساحتها ، مقابل الجبال والأنهار والطرق وغيرها ، وفرض الخراج على ما بقي بعد ذلك ، من الأراضي الصالحة للزراعة ، وألزم كل قبيلة أن تؤدى قسطها من الزرع والمال^(٣) . ومن جهة أخرى فإن الخلافة الموحدية ، كانت إلى جانب ما يدخل خزائنها ، من غنائم الفتوحات المظفرة ، وأبواب المصادرة لأموال الخصوم ، ومن يلحق بهم من العمال المنكوبين ، لم تحجم عن أن تفرض مختلف الضرائب والمكوس ، على مختلف أنواع المعاملات ، من البيع والشراء ، والصادر والوارد ، وغير ذلك ، مما كان متبعاً في سائر دول العصور الوسطى ، وهذا إلى ما كانت تستولى عليه ، من أموال

(١) راجع ص ٤٠٠ من القسم الأول من هذا الكتاب .

(٢) راجع رسالة عبد المؤمن المذكورة في « رسائل موحدية » وهي الرسالة السابعة ص ٢١ .

(٣) راجع ص ٣٧٧ من القسم الأول من هذا الكتاب .

النصارى واليهود ، الذين بقوا فى أراضى الدولة ، ولاسيما خلال حركات الاضطهاد والمطاردة ، وقد كانت تحدث من آن إلى آخر .

وكان من الإجراءات المالية الهامة ، التى قامت بها الخلافة الموحدية ، مضاعفة وزن الدينار الموحدى ، وقد تم ذلك فى بداية عهد الخليفة المنصور ، وكان له أثره فى دعم طمأنينة التعامل ، وتحسين الشئون الاقتصادية ، بوجه عام . وقد لبثت الأحوال الاقتصادية بالمغرب والأندلس ، فى ظل الدولة الموحدية ، أيام عفوانها وقوتها ، طيبة يدعمها الأمن والرخاء ، وتقدم الزراعة والتجارة ، وكان ذلك فى عهد الخلفاء الأقوياء منذ عبد المؤمن ، حتى أواخر عهد المنصور ، وهى فترة دامت زهاء نصف قرن . ولم يكن يعكر هذا الرخاء ، إلا فتنة محلية ، أو محنة طبيعية ، من جذب أو شرق أو غيره . بيد أنه لما اشتد عيث طوائف العرب بإفريقية ، وخربوا مدنها ، واجتاحوا بسائطها ، وتفاقم هذا العيث والتخريب ، أيام ثورة بنى غانية ، بما ترتب على مغامراتهم ، من صنوف الدمار المطبق ، وقطع السبل ، ونهب التجار ، وانقطاع المعاملات السامية ، أخذ خراب إفريقية ، وهى أغنى أقطار الدولة ، وأوفرها خصبا وموارد ، يحدث أثره فى اقتصاد المغرب ، وفى تحطيم رخائه . ولما انتهت فتنة بنى غانية فى أوائل عهد الناصر ، وعاد الأمن والرخاء لإفريقية ، كانت حركة الناصر إلى الأندلس ، تمهد لأعظم كارثة عسكرية ، منيت بها الدولة الموحدية ، ومنى بها المغرب . وكان لهزيمة العقاب الساحقة ، فضلا عن آثارها العسكرية المدمرة ، آثار اقتصادية بعيدة المدى ، فقضى بفناء الجند على الأيدى العاملة ، وانهارت الزراعة والتجارة ، وعمت الأقوات ، وفشت المجاعة فى المغرب والأندلس ، وكان يذكى من هذه المحنة الاقتصادية ، ضعف الحكومة وتواكلها ، واحتجاب الخليفة ، وعدم اهتمامه بالأم الشعب . وفى عهد المستنصر ولد الناصر ، تفاقمت الأزمة الاقتصادية بالمغرب والأندلس ، واشتدت الحال ، وتناهى الغلاء^(١) ، واختلت أحوال الخلافة الموحدية ، واضطرب الأمن ، وقطعت السابلة ، ووقع النهب على التجار ، واستمرت هذه الأحوال طوال عهد المستنصر ، وهوى غفلة عن كل مايجرى ، غير مهتم بشئون رعيته أوجاهل لها ، لتواكل وزرائه ، وإخفاهم عنه حقائق الشئون^(٢) .

(١) البيان المغرب ص ٢٣٦ و ٢٤٥ .

(٢) الذيل والتكلمة لابن عبد الملك (المجلد الخامس من مخطوط المتحف البريطانى لوحة ١٩) .

ثم تفاقم الأمر ، باضطراب شئون الخلافة الموحدية ، ووقوع الفتنة والحروب الأهلية حول كرسي الخلافة ، وتدخل بعض طوائف العرب ، مثل عرب الخلط وبعض القبائل البربرية القوية ، مثل هسكورة ، في هذا النزاع ، وتقلبهم في مناصرة المتنافسين على العرش ، وعيهم بأحوال العاصمة ، ومهاجمتها أحيانا ، وكانت المجاعة تقع حينما تضطرم الفتنة ، ومن ذلك ما يقصه علينا صاحب البيان المغرب ، من وقوع المجاعة في مراكش ، حينما هاجمها عرب الخلط ، وعاثوا في أحوالها ، فعدمت الأقوات وارتفعت الأسعار ، وتحطمت المرافق ، وعانى الناس منتهى الشدة ، ووصل الربع الواحد من الدقيق إلى ثلاثة دنانير^(١) . وحدثت مجاعة مماثلة ، حينما اضطرب الخليفة الرشيد ، أن يغادر الحضرة ، أمام ضغط عرب الخلط ، فقاسى الناس أهوالا ، وخلت الأسواق من كل شيء ، ووصل المد من القمح إلى سبعة دراهم ، وأكل الناس فيتور الزيتون ، ونوار الحروب ، وغير ذلك من النباتات الطفيلية ، وكانت محنة مروعة^(٢) . واستمرت الأزمات الاقتصادية ، طوال أيام الفتنة ، والحروب الأهلية بين الرشيد والخلط ، والرشيد ويحيى بن الناصر ، وخفت حدتها أيام السعيد والمرضى ، وكان القحط يقترن بوقوع الوباء . وفي سنة ٦٤٧ هـ ، وقعت بمدينة سبتة وأحوالها مجاعة عظيمة ، وغلاء فاحش ، وذلك بسبب الفتن والحروب الأهلية المستمرة^(٣) . وكان صدى هذه الأزمات الاقتصادية ، يحدث أثره في الأندلس . وكان من أثر المحن والأحداث السياسية في الأندلس ، أن كانت أهوال الغلاء والجوع ، تعصف بالناس من آن لآخر ، وحدث ذلك في بلنسية حين حصارها ، ووقعت شدة مماثلة بإشبيلية وقت حصارها ومات كثير من أهلها بسبب الجوع^(٤) . وكانت الفترة التي تلت قيام ابن هود ، في شرقي الأندلس ، وقيام ابن الأحمر في أواسط الأندلس ، ثم في الجنوب ، وما تخلل ذلك من فتن وحروب أهلية ، وما قام به النصارى ، من غزوات لأراضى الأندلس ، ومن استيلائهم على معظم قواعدها الكبرى ، وذلك كله في النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، فيما بين سنتي ٦٢٠ و ٦٥٠ هـ ، كانت هذه الفترة المدهمة من تاريخ الأندلس ، وما اقترن بها من محن ونوائب ، وتشريد لأهل القواعد المفتوحة ، وضياع للأموال والثروات ، مليئة بالأزمات الاقتصادية

(٢) البيان المغرب ص ٣١٥ و ٣١٦ .

(١) البيان المغرب ص ٣٠٧ .

(٤) البيان المغرب ص ٣٨١ ، ٣٨٢ .

(٣) البيان المغرب ص ٣٤٧ .

وأحوال الغلاء والجوع والحرمات ، والأوبئة ، وكانت من أشد ماعانت الأمة الأندلسية عقب انهيار الحكم الموحدى ، وما ترتب عليه ، من انهيار خط دفاعها القديم ، ووقوعها فريسة هينة للغزو النصرانى .

* * *

وكانت المناصب الدينية تنحصر فى القضاء ، وهو أهمها ، والشورى ، وهى من متعلقات القضاء ، والخطبة فى المساجد الجامعة . وكان يعين فى عاصمة كل ولاية قاض للجماعة ، وهو يتولى اختيار نوابه فى مناصب القضاء المحلية . وقد لبث القضاء فى عهد الدولة الموحدية ، سواء بالمغرب أو الأندلس ، محتفظاً بأهميته وجلاله القديم . وكان الخليفة الموحدى ، يقوم بتعيين قضاة الجماعة ، فى سائر المدن الكبرى ، دون تدخل فى ذلك من الولاة^(١) . وتتبع نفس القاعدة فى تعيين قضاة الأندلس . ومما هو جدير بالذكر ، أن الأندلسيين كانوا يستأثرون بمناصب القضاء فى بلادهم ، وذلك منذ أيام الدولة المرابطية ، ولم تحاول الخلافة الموحدية أن تحيد عن ذلك التقليد الراسخ إلا فى أحوال نادرة كان يتولى فيها القضاء بالأندلس بعض الممتازين من القضاة المغاربة^(٢) . بل لقد كان الخليفة الموحدى ، يختار لقضاء الجماعة بمراكش ، بعض اللامعين من فقهاء الأندلس ، كما حدث أيام الخليفة أبى يعقوب يوسف حينما تولى قضاء الجماعة بالعاصمة الموحدية ، أبو محمد المالى ، ثم أبو جعفر بن مضاء ، وتولاه أيام الخليفة المنصور أبو جعفر بن مضاء ، وأبو القاسم أحمد بن بقى ، وشغل أبو القاسم نفس منصبه أيام الخليفة الناصر ، وذلك حسبما ذكرنا فى مواضعه من قبل . ويرجع ذلك كما هو واضح ، إلى تفوق الدراسات الشرعية فى الأندلس ، وتفوق القضاة الأندلسيين فى الفقه المالكي ، وفى ممارسة الأحكام وتطبيقها . وقد لبث الأندلس محتفظة بهذا التفوق ، سواء فى الكتابة أو القضاء ، حتى إبان انحلالها فى أواخر العهد الموحدى . وأما خطة الشورى ، فقد كانت أيضاً من المناصب القضائية ، ولكنها كانت حسبما يبدو من مختلف الإشارات الخاصة بها ، أقل فى الرتبة من القضاء . ويختص

(١) البيان المغرب ص ١٢٩ و ٢٣١ .

(٢) مثال ذلك ما يرويه لنا ابن الأبار فى التكلة من أن أباعبد الله محمد بن يخلفتن الفازازاى التلمسانى ، ولى قضاء مرسية ثم قضاء قرطبة (التكلة رقم ١٦١٦) ، وأن ابن جبل الهمدانى من أهل وهران ، ولى قضاء إشبيلية سنة ٥٩٢ هـ (التكلة رقم ١٧١٩) .

صاحبها بإبداء الرأى والفتوى فى مسائل الأحكام ، ويشغلها على الأغلب أحد الفقهاء . وفى مواضع كثيرة من « التكملة » وغيرها ، يوصف صاحب هذه الوظيفة بأنه كان « فقيهاً مشاوراً » ، أو أنه كان فقيهاً يشاور فى الأحكام ، أو أنه ولى « خطة الشورى »^(١) . وقد أورد لنا ابن الأبار نص كتاب صادر عن أمير مرسية ، بتولية أبى بكر بن أبى جمره خطة الشورى ، يبين لنا ماهية هذه الخطة واختصاصها^(٢) .

وكانت خطة الأحكام ، فيما يبدو أيضاً من شرح صاحب « التكملة » ، وظيفة تابعة للقضاء ، شبيهة بخطة الشورى ، وكان صاحبها يضطلع بالفتيا أو إبداء الرأى فى الأحكام الشرعية^(٣) .

وقد كانت للمواريث خطة خاصة بالرغم من كونها داخلة فى اختصاص القضاء العام . وهذا ما يشير إليه ابن الأبار فى غير موضع من « التكملة » ، وهذا ما يدل على أهمية المواريث ، والعناية بالدقة فى تطبيقها^(٤) .

ويلحق بهذه المناصب القضائية منصب « حاسبة السوق » ، وقد أشار إليه ابن الأبار أيضاً ، وهو فى الحقيقة ، ناحية ، من نواحي الحاسبة العامة ، يتعلق بالإشراف على ضبط التعامل ، وسلامة السلع المعروضة ، وصحة الموازين ، والمكايل^(٥) .

ويلحق بالمناصب الدينية الهامة منصب الخطابة بجوامع المدن الكبرى ، وكان لايلى هذا المنصب إلا الفقهاء المبرزين فى فن الخطابة ، ولاسيما فى جوامع قواعد كاشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة وبلنسية ، وأهمها فى الرتبة منصب الخطابة بجامع إشبيلية وجامع قرطبة^(٦) . وكذلك كان يؤم الصلوات بجوامع المدن الكبرى « صاحب الصلاة » وكان منصبه يعتبر أيضاً من المناصب الدينية الكبيرة ، ولاسيما إذا كان بجامع إشبيلية أو جامع قرطبة .

وكان منصب متولى شئون طلبة الحضر ، من المناصب العلمية والدينية الرفيعة ، وقد سبق أن أشرنا إلى نشأة هذه الطبقة من الطلاب الموحدين « المصامدة »

(١) راجع التكملة لابن الأبار (القاهرة) ج ١ ص ٣٤ و ٤٤ و ٦٦ و ٧١ و ٨٦ و ٩٤ و ١٠٩ و ٢٠٩ و ٢٤٣ .

(٢) راجع التكملة ج ٢ ص ٥٦٢ . وقد نشرنا هذا الكتاب فى باب الوثائق .

(٣) راجع التكملة ج ١ ص ٧١ و ٢٢٨ . (٤) راجع التكملة ج ١ ص ٦٧ .

(٥) التكملة ج ١ ص ٨٢ . (٦) البيان المغرب ص ١٩٣ .

وطلاب الحضرة ، منذ عصر الخليفة عبد المؤمن . وقد سما هؤلاء الطلاب ، ولاسيما في عهد الخليفة يعقوب المنصور ، وكانت لهم لديه مكانة ملحوظة^(١) وكان المقدم على طلبة الحضرة بحضرة مراکش ، ينتخب من أكابر العلماء ، ويقوم الخليفة بتعيينه مباشرة ، وقد تولى هذا المنصب علماء أجلاء ، مثل أبي محمد المالقي ، وأبيه عبد الرحمن المالقي من قبل^(٢) .

٢ - تطور الأساس الروحي

للخلافة الموحدية

قامت الدولة الموحدية في بدايتها ، حسباً قدمنا ، على فكرة الإمامة والتوحيد ، فلما توفي المهدي ابن تومرت ، وقام في رئاسة الدولة زعيم لايتشح بثوب المهديّة أو الإمامة الروحية ، واتسعت رقعة الدولة ، وعظمت صولتها العسكرية ، والسياسية ، تحولت الخلافة الموحدية على يد عبد المؤمن ، إلى ملك دنيوى باذخ ، وغاضت فكرة الإمامة المهديّة شيئاً فشيئاً ، وإن كانت الدولة الموحدية ، قد لبثت حريصة على تقديس ذكرى المهدي ، ونعته دائماً في الخطب والرسائل الرسمية « بالإمام المعصوم ، المهدي العلوم » ، وذكر اسمه في السّكة ، والمناداة بشعائره البربرية القديمة في أوقات الصلاة . واستمر الأمر على ذلك حتى عهد الخليفة يعقوب المنصور ، وفيه بلغت الدولة الموحدية أوج عظمتها وروعيتها . وكان المنصور عالماً مستنيراً ، متمكناً من الشريعة وعلوم الدين ، ولم يكن حسباً تبين بعد من تصرفاته المذهبية ، من الغلاة في تقدير العقيدة الموحدية ، أو المؤمنين بعصمة المهدي ابن تومرت ، بيد أنه بالرغم من عظيم هيئته وسلطانه ، وبالرغم مما قام به من تغييرات مذهبية بعيدة المدى ، مثل مطاردة كتب المذهب المالكي ، وإحياء المذهب الظاهري ، فإن الخلافة الموحدية لبثت مع ذلك تنضوى من الناحية الدستورية تحت لواء « الدعوة المهديّة » ، ولبثت رسائلها الرسمية تتوج « بالرضا عن الإمام المعصوم المهدي العلوم »^(٣) .

على أنه لم يك ثمة شك ، في أن العقيدة الموحدية لم تكن عندئذ ، سوى

(١) المراكشي في المعجب ص ١٥٨ ، وراجع ص ٢٤٤ من هذا الكتاب .

(٢) البيان المغرب ص ٢٣٣ و ٢٣٤ .

(٣) راجع الرسائل الثانية والثلاثون والرابعة والثلاثون والخامسة والثلاثون من مجموعة

« الرسائل الموحدية » وهي صادرة عن الخليفة المنصور (ص ١٩٩ و ٢١٩ و ٢٢٩) .

شعار إسمى ، وأن بقاء الخليفة الموحدى ، على رسوم المهدي ابن تومرت ، لم يكن سوى إجراء شكلى ، يقصد به إلى جمع كلمة الموحدين ، تحت شعار موحد ، وكانت هذه سياسة حكيمة من جانب الخلافة الموحدية ، كان لها أثرها القوى فى تدعيم أركان الدولة ، وحمايتها من أخطار الفتنة والتفرق .

فلما كان عهد الخليفة أبى العلى المأمون ولد الخليفة المنصور ، وقع الحدث الحسم ، فى دستور الخلافة الموحدية ، وشعارها الروحى ، وأصدر المأمون مرسومه الشهير (٦٢٧هـ) بإزالة اسم المهدي من الخطبة ، ومن السكة ، ومن المخططات الرسمية ، وقطع النداء عند الصلوات بشعائره البربرية ، التى كان العمل جاريا باتباعها منذ بداية الدولة الموحدية ، ولم يحجم المأمون عن أن يصرح فى كتابه الرسمى الذى أنشأه بنفسه ، أن وصف ابن تومرت « بالمهدي وبالإمام المعصوم » إنما هو نفاق وبدعة وأمر باطل ، وأنه يجب نبذه والقضاء عليه^(١) وهكذا قضى بضربة جريئة على أسطورة المهدي ابن تومرت ، وأسطورة إمامته وعصمته ، وهى الأسطورة التى اتشح بها ابن تومرت ، وبويع فى ظلها بجبل إيجليز فى رمضان سنة ٥١٥هـ (ديسمبر سنة ١١٢١م) ، وكانت هى الأساس الروحى لقيام الدولة الموحدية .

وفضلا عن ذلك فقد قضى المأمون على عصبة الموحدين ، بقتله لزعمائهم الذين نكثوا بيعته ، حتى فى معظمهم ، وفر الباقون ليعتصموا بجبالهم القديمة فى تينملل ، وبذلك ضربت الزعامة الموحدية فى الصميم ، وفقدت الخلافة الموحدية بذلك عضدا ، كان له فى عونها ومؤازرتها ، قيمته الأدبية والمادية .

ثم كانت خلافة الرشيد ، ولد المأمون ، فوقع تطور جديد فى رسوم الخلافة الموحدية وأسسها الروحية . وذلك أن الرشيد شغل بأهمية مؤازرة أشياخ الموحدين ، واتجه إلى استرضائهم ، واستعادتهم إلى جانب الخلافة الموحدية ، وقبل الزعماء الموحدون ، أن يعودوا إلى سابق ولائهم ، وتعاونهم مع الخلافة ، على أن تعود رسوم الدعوة المهدية كما كانت ، من ذكر المهدي فى الخطبة والسكة ، والنداءات الموحدية فى الصلوات ، وغير ذلك مما كان العمل جاريا عليه ، قبل أن يصدر المأمون مرسومه بإلغاء الدعوة المهدية . وقبل الرشيد ذلك ، وقام بتنفيذه ، وأعيدت رسوم الدعوة المهدية كما كانت . بيد أنها لم تكن يومئذ سوى

(١) راجع مرسوم المأمون فى البيان المغرب ص ٢٦٧ و ٢٦٨ ، وراجع ص ٣٧١ من هذا الكتاب .

لإجراء شكلي ، وشبح باهت ، ولم تلبث الخلافة الموحدية ، أن دخلت في مرحلة انحلالها الأخير ، وأخذت تسير إلى قضائها المحتوم .

٣ - النظم العسكرية

ليس ثمة شك في أن القوة العسكرية ، كانت منذ البداية ، عماد الدولة الموحدية الأول ، وقد بلغت التنظيمات العسكرية في ظل الدولة الموحدية ، من حيث الضخامة مبلغاً لم تبلغه في أية دولة أخرى ، في الغرب الإسلامي .

وقد كانت الحشود القبلية ، هي المصدر الرئيسي للجيش الموحدي . وقد بدأت هذه الحشود بصورة متواضعة ، حينما أعلن المدي ابن تومرت إمامته ، وبايعته القبائل الموحدية ، وأخذ يتأهب لمحاربة المرابطين . وكان المهدي هو أول من وضع نظاماً عسكرياً لانتصاره الموحدين ، فرتبهم صفوفاً ، وجعل لكل عشرة منهم نقيباً . والتقت هذه الحشود القبلية لأول مرة بالمرابطين ، وهي قليلة الأهمية ، قليلة العدد ، ودون نظام عسكري محكم ، فكانت الحماسة لديها تعني هن السلاح والنظام ، وكانت انتصاراتها في المعارك الصغيرة الأولى ، التي نشبت بينها وبين المرابطين ، تذكى من عزيمتها وإقدامها ، وتساعد في تضخم جموعها . وهكذا بدأ الجيش الموحدى في التجمع والانتظام ، وإذا استثنينا موقعة البحيرة ، التي فني فيها معظم الجيش الموحدى الأول تحت أسوار مراكش ، فإن الجيش الموحدي ، لم تلبث أن نهضت من هذه الضربة ، وعادت منذ خلافة عبد المؤمن إلى سابق منعتها وتضخمها .

واتخذ المهدي لجيشه منذ البداية علماً أبيض ، كتب على أحد وجهيه « الواحد الله . محمد رسول الله . المهدي خليفة الله » ، وكتب على الوجه الثانى « وما من إله إلا الله . وما توفيقى إلا بالله . وأفوض أمري إلى الله »^(١) . وقد لبث البياض شعار العلم الموحدى دهرأ ، ولكن مع تغير الأدعية والآيات التي تكتب عليه ، ثم غيرت ألوانه . بعد ذلك فيما يبدو ، في أواخر عهد الدولة الموحدية ، حسبما يبدو ذلك من ألوان العلم الموحدى الذى غنمه القشتاليون في معركة العقاب ٦٠٩ هـ ، والذى يحفظ حتى اليوم في دير برغش الملكى^(٢) .

وفي عهد عبد المؤمن بن على ، أول الخلفاء الموحدين ، اتسع نطاق الجيوش الموحدية ، وزادت حشودها زيادة هائلة ، وذلك بعد أن دانت سائر

(١) راجع ص ١٩٦ من القسم الأول من هذا الكتاب (٢) راجع ص ٣١٧ من هذا الكتاب .

قبائل المغرب للطاعة ، وأخذت تساهم بحشودها في الجيوش الموحدية ، وبالرغم من أن الحشود كان يجرى تنظيمها على أساس قبلي محض ، فقد استطاع عبد المؤمن سياسته في تأليف القبائل المختلفة ، أن يولف بين هذه الحشود القبلية ، وأن يجعل منها وحدة عظيمة متناسقة كانت هي عماد الجيش الموحدى ، وقد استطاع عبد المؤمن من أن يحشد لغزو إفريقية جيشاً جراراً تقدره الرواية بخمسة وسبعين ألف فارس وخمسمائة ألف راجل ، وهو رقم هائل في ذلك العصر^(١). وقد وصف لنا صاحب اللؤلؤ الموشية بهذه المناسبة ، طريقة مسير الجيش الموحدى ، وخلاصتها أن يبدأ السير عقب صلاة الصبح ، على صوت طبل الرحيل ، فإذا ركب الخليفة ، اجتمع حوله الأشياخ والأعيان ، ويسير على بعد منه نحو مائة فارس ، ويتقدم الموكب الخليئ مصحف عثمان ، وهو في تابوته المغلف بصفائح الذهب ، والمرصع بالياقوت الأحمر ، موضوع في هودج يحمله نجيب ، ويتبعه الخليفة ومن ورائه أولاده ، ثم البنود والطبول ، فالوزراء وأكابر الدولة. وتسير الجيوش على ترتيبها ، دون تراحم ، فلا يتعدى أحد طوره ، فإذا كان وقت النزول ، نزلت كل قبيلة في منزلها ، وكانت محلة الجيش تضم إلى جانب موارد المؤن ، جميع الصنائع وسائر أرباب الحرف ، وكل ما يحتاج إليه «كأن المسافر معهم مقيم»^(٢).

وكانت سلا ورباط الفتح ، مركزاً لتجميع الجيوش الموحدية ، سواء الذاهبة منها إلى إفريقية ، أو تلك التى تقصد العبور إلى الأندلس ، وكانت المنطقة الواقعة شمالاً ، فيما بين سلا وسبتة ، تحتوى عدة مراكز كبيرة متتالية لتخزين المؤن اللازمة لإمداد الجيوش الذاهبة والعائدة . وكان طريق العبور المفضل للجيوش الموحدية ، إلى شبه الجزيرة ، قصر مصمودة أو القصر الصغير ، الواقع على مسافة قريبة غربى سبتة . وموضع نزولها المفضل في شبه الجزيرة ، هو ثغر طريف أو الجزيرة الخضراء ، وذلك بالرغم مما قام به الخليفة عبد المؤمن من إعداد جبل طارق لنزول الجيوش الموحدية ، وتزويدها بالحصون والمرافق اللازمة .

وقد سبق أن أشرنا إلى رواية ابن اليسع عن ابتكار الموحدين ، منذ عصر عبد المؤمن ، لخطة المربع الموحدى ، التى اتخذت من ذلك الوقت ، أساساً لخطط

(٢) اللؤلؤ الموشية ص ١١٦ .

(١) اللؤلؤ الموشية ص ١١٥ .

الدفاع الموحدة ، وخلصتها أن « تصنع دائرة مربعة في بسيط المعركة ، يجعل فيها من جهاتها الأربع ، صف من الرجال بأيديهم القنا الطوال ، والطوارق المانعة ، ومن ورائهم أصحاب الدروق والحراب صفاً ثانياً ، ومن ورائهم أصحاب المخالي فيها الحجارة صفاً ثالثاً ، ومن وراء هؤلاء الرماة صفاً رابعاً . وفي وسط المربعة ، ترابط قوى الفرسان » . وكانت صفوف الفرسان تخصصر لها أمكنة معينة ، في جميع جوانب المربع ، وتفتح لها مخارج سريعة تستطيع أن تنطلق منها ، ثم تعود إلى أماكنها الداخلية ، دون أن تخل بنظام الرجالة (المشاه) . ويقوم بالمهجوم الأول قوات المتطوعة المجاهدة ، تؤيدها القوات الخفيفة ، فإذا استطاع العدو أن يرد هؤلاء ، وأن يتقدم حتى مواقف الجنود الموحدة النظامية ، وقف حملة الحراب أمامه كالسد الحديدي الذي لا يخترق ، واستقبله الرماة من حملة القسي والنبال بسيل من السهام والحجارة ، فإذا استطاع العدو أن يخترق الصف الأول وهم حملة الحراب ، استقبله حملة السيوف والدروع متأهبين لرده ، وبادر الفرسان إلى معاونتهم من الأماكن الداخلية ، فإذا استطاع العدو بعد كل ما تقدم ، أن يتغلب على القلب والجناحين ، فعندئذ يقوم الجيش الموحد بالضربة الأخيرة ، وتتقدم قوات الضلع الرابع من المربع ، وهي الساقة أو الاحتياطي ، المكون من صفوة الجند ، ولاسيما الحرس الخاص ، ويقودها الخليفة بنفسه ، وكثيراً ما كانت هذه الصفوف الاحتياطية ، تساعد على إحراز النصر بشجاعتها وخبرتها . وكانت هذه القوات تمتنع أحياناً داخل نطاق من السلاسل الحديدية ، تبرز من خلالها الحراب الطويلة ، فتشن بذلك في العدو متى اجترأ على الدنو منها^(١) .

وكان النجم القبلي حسباً أشرنا من قبل ، هو الدعامة الأولى لحشد الجيوش الموحدة ، وكانت معظم الحشود تجمع من القبائل الموحدة الرئيسية ، التي يتركز إليها هيكل الدولة الموحدة ، والتي ذكرناها فيما تقدم ، ومعظمها ينتمي إلى مصمودة . ولما اتسع نطاق الغزوات الموحدة في المغرب والأندلس ، ولم تعد القبائل البربرية تكفي وحدها ، لإمداد الجيوش الموحدة ، بما تحتاج إليه من الحشود الضخمة ، عمدت الخلافة الموحدة إلى التفكير في استمالة طوائف

(١) الحلل المشوية ص ٩٨ ، وتاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشباح ص ٤٤٨ و ٤٨٩ . وراجع ص ٢٤٦ من القسم الأول من هذا الكتاب .

العرب النازحين لإفريقية ، والاستعانة بهم في مختلف حروبها وغزواتها ، وكان أول من فكر في ذلك الخليفة عبد المؤمن ، وذلك حينما اصطدم بأولئك العرب لأول مرة عند افتتاحه لبجاية ، ثم افتتاحه للمهدية ، بيد أنه لم ينجح في ذلك نجاحاً يذكر . فلما تولى الخلافة ولده أبو يعقوب يوسف ، بذل في سبيل استنفار طوائف العرب ، واستمالها إلى المشاركة في الجهاد بالأندلس جهوداً مضاعفة ، واستعان في ذلك بتوجيه القصائد الرنانة لهم ، وكان ممن اشترك في توجيه الشعر إليهم طبيبهم الفيلسوف ابن طفيل ، فوجه إليهم قصيدته الرائعة التي مطلعها :

أقيموا صدور الخيل نحو المضارب لغزو الأعادي واقتناء الرغائب
ونجحت هذه المحاولة ، في استمالة طوائف كبيرة ، من عرب هلال وسليم وزغبة ورياح وغيرهم ، إلى الانضمام إلى الجيوش الموحدية المجاهدة ، وغمرهم الخليفة بإنعاماته وصلاته ، من المال والكساء والسلاح ، وذلك كله حسبما سبق أن فصلناه في موضعه (١) .

ومن ذلك الحين تولى طوائف العرب ، جناحاً هاماً في الجيوش الموحدية ، وتشترك في سائر الحروب والغزوات الموحدية بالمغرب والأندلس . بيد أنه تبين فيما بعد ، في كثير من الوقائع ، أن انضمام أولئك العرب إلى الجيش الموحدى ، كان خطأ عسكرياً فادحاً ، وأن ضررهم كان أكثر من نفعهم في مشاركته ، وذلك لما كانوا يتسمون به من التقلب وعدم الولاء ، وشغف انتهاز الفرص السانحة . وقد خذلوا الجيش الموحدى في كثير من الوقائع في إفريقية والأندلس . وقد كان اجتذاب الخلافة الموحدية ، لهذه الطوائف العربية ، يرمى إلى تحقيق غايتين : الأولى إنقاذ إفريقية من عيهم وتخريبهم المستمر ، والثاني الاستعانة بهم في أعمال الجهاد بالأندلس . ولكن تبين على ضوء الحوادث ، أنهم لبثوا في إفريقية عامل تخريب ودمار ، طوال أيام ثورة بنى غانية ، يتقلبون طول الوقت بين الفريقين المتحاربين ، وأنهم كانوا في الحملات الموحدية بالأندلس عامل تنييط وخذلان . على أن السياسة الموحدية لم تعدل عن المضي في سياستها ، في استمالة العرب ومصانعتهم حتى النهاية . ففراهم في أواخر عهد الخلافة الموحدية يشغلون في شئونها ، وفي تكييف مصيرها ، مكانة ملحوظة . ونرى الخليفة الموحدى ، عند اضطرام الحرب الأهلية بينه وبين منافسيه ، يستعين بعرب الخلط ، وأحياناً

بعرب سفيان وبنى جابر ، ونراه يقوم بتعيين مشايخ هذه الطوائف ، ونرى هذه الطوائف ، تلعب في الأعوام الأخيرة الحاسمة ، من حياة الدولة الموحدية ، في مصايرها دوراً له خطره .

وكذا كانت القوات الأندلسية ، تؤلف بالجيش الموحدى بالأندلس جناحاً هاماً ، وتشترك في سائر الغزوات والحروب التي تشهرها الجيوش الموحدية ضد النصارى ، سواء في البرتغال أو في الممالك الإسبانية . وكانت القوات الأندلسية ، تمتاز بشجاعتها ودربتها ، وولائها لقضية الإسلام بالأندلس ، وكانت تقاتل في طليعة الجيوش الموحدية ، لخبرتها بقتال النصارى ، وتغزو في معظم الأحيان عاملاً من عوامل النصر .

وكان الخليفة الموحدى ، يقود جيوشه في الحملات والغزوات الكبرى ، بالمغرب والأندلس ، وكان قبيل نشوب المعركة ، أو بداية الغزو ، يعقد مؤتمراً حربياً لوضع خطة الغزو ، ويستمع فيه إلى آراء قادته^(١) . وكان لآراء القادة الأندلسيين ، في غزوات شبه الجزيرة رأى مسموع ، وقد دلت الحوادث غير مرة ، على سلامة آرائهم ونصحهم . ومتى عجز الجيش تعبئة قتال ، ضربت قبة الخليفة الحمراء ، ورفع فوقها العلم الموحدى الأبيض ، وأحيطت بالسلاسل الحديدية الضخمة ، وكانت تضرب عادة في ساحة الجيش ، ويحف بها الحرس الخلفى ، وهو يتألف عادة من الجند العبيد ، ونخبة من الجند البربر ، يحملون الرماح الطويلة ، وكان الخليفة ، متى رأى قواته خلال المعركة في حاجة إلى العون ، يقود الساقة بنفسه ، ويشد أزر قواته ، ويعاونها بذلك على إحراز النصر ، وقد تقع الكارثة فيهلك الخليفة ، كما حدث لأبى يعقوب يوسف في نكبة شنترين ، أو يلجأ إلى الفرار ، كما حدث للناصر في موقعة العقاب .

وعلى غرار ما حدث للجيوش المرابطية ، في أواخر عهدها ، من الاستعانة بالمرتزقة النصارى ، لجأ الخليفة الموحدى ، إلى حشد المرتزقة النصارى في جيشه وذلك منذ أيام الخليفة المأمون . ونحن نعرف قصة التجاء المأمون إلى ملك قشتالة فرناندو الثالث ، والتمن الفادح الذى دفعه إليه ، لقاء عونه إياه بفرقة من الفرسان النصارى ، لكى يعبر بها إلى المغرب ، ويستعين بها على مقاتلة خصمه يحيى المنتصر ، وانتزاع الخلافة منه ، ومنها أن تقام كنيسة كبيرة للنصارى في مراکش ،

(١) ابن صاحب الصلاة في « المن بالإمامة » لوحة ٤١ .

وكانت هذه الفرقة ، وعددها نحو خمسمائة فارس ، هي أساس القوة النصرانية أو جيش الروم بالجيش الموحدى . وقد لعب الجند النصارى فى عهد المأمون ، وولده الرشيد أدوارا حاسمة ، فى المعارك التى خاضتها الخلافة الموحدية يومئذ ضد خصومها ، وقامت بمراكش تحت رعاية الفرقة النصرانية ، جالية نصرانية كبيرة : وقد استعملت البنود والطبول بالجيش الموحدى منذ البداية ، وكذلك بالأساطيل الموحدية ، وكان لها فرق خاصة ، ونظم معينة تجرى عليها ، وكانت تستعمل عند الرحيل ، وعند بدء المعركة ، وعند كل إجراء عام يجب أن يقوم به الجند ، وكان منها الطبل الكبير الذى يضرب للرحيل ، وهو مستدير الشكل يبلغ دوره خمسة عشر ذراعا من خشب أخضر اللون ، مذهب الحافة ، وكان يضرب للرحيل ثلاث مرات ، ويسمع على مسيرة نصف يوم ، من مكان مرتفع فى يوم لاريح فيه^(١) . وكانت الرسائل تستعمل لإذاعة الأوامر والنواهي ، والانتصارات . وعند النصر يقترن ذلك بالاحتفال والإطعام .

وكانت الإنعامات والبركات من أخص امتيازات الجيش الموحدى ، ولاسيما فى إبان ازدهار الدولة وقوتها ، وكان ذلك يشتمل فضلا عن منح الأجور والأعطية للجند ، على إقامة المآدب للطعام ، وتوزيع الأسلحة والكسى ، وكان كساء الفارس عبارة عن طقم كامل من عفارة وعمامة وكساء وقسطة وشقة . وهذا عدا مبالغ من النقود الذهبية تصل للقادة والأعيان أحيانا إلى مائة دينار لكل منهم^(٢) ، وكذلك لأشياخ العرب مائة دينار أكل منهم ، ولل فارس عشرون دينارا ، وكان النظام القبلى ، هو حسبا قدمنا ، أساس حشد الجيوش الموحدية ، فتقدم كل قبيلة ما يتعين عليها من الفرسان والرجالة ، عند الاستنفار العام . وكان نظام التطوع يقوم كذلك إلى جانب نظام الحشد الجبرى ، فتحشد أعداد كبيرة من الجند على سبيل التطوع دون تكليف ، ويسمى هؤلاء بالمطوعة^(٣) وتعنى الخلافة الموحدية فى نفس الوقت ، وعند الاستعداد للجهاد ، باستجلاب الخيل والعدد والأسلحة والرماح والبيضات والدروع والبرصم وكذلك الكسى ، وتوزيعها على الفرسان والجند وفق نظام معين .

ولم تغفل الخلافة الموحدية عن أهمية القوى البحرية ، وخصوصاً منذ

(١) الخلل الموشية ص ١١٥ . (٢) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة ص ١٧٤ .

(٣) البيان المغرب ص ١٧٤ .

استولت على إفريقية والأندلس . ومنذ عصر عبد المؤمن أول الخلفاء الموحدين ، نرى الخلافة الموحدية ، فضلاً عما آل إليها من بقايا الأسطول الموحدى ، تعنى بإنشاء القطائع البحرية سواء فى مياه المغرب ، أو إفريقية أو الأندلس . وقد أنشأ عبد المؤمن فى أواخر عهده عدداً ضخماً من هذه القطائع بلغ نحو ثلاثمائة أو أربعائة ، كانت عماد الأسطول الموحدى الكبير ، وكان الأسطول ، فضلاً عن قيامه بنقل الجيوش الموحدية الزاخرة ، وعتادها الهائل ، عبر المضيق إلى الأندلس فى الذهاب والأوبة ، يقوم بحراسة الشواطئ الأندلسية ، من مياه البرتغال جنوباً ، حتى مياه بلنسية والجزائر الشرقية ، وشواطئ المغرب الشمالية حتى مياه تونس والمهدية . وكانت للأسطول الموحدى وحدات كبيرة ، ترابط فى العمورة وسبته ، وتونس ، ومالقة وقادس ، وأحياناً فى مياه البرتغال الجنوبية . وقد لعب الأسطول الموحدى أدواراً هامة فى معارك الخلافة الموحدية مع البرتغال ، وكذلك فى افتتاح المهدية ، وحوادث الصراع مع بنى غانية ، وفى افتتاح الجزائر الشرقية ، وغيرها من مواطن الصراع بينها وبين خصومها .

وكانت شئون الجيش ، توكل إلى ديوانين أو وزارتين هامتين : الأول هو ديوان العسكر ، وعلى رأسه وزير ، يكون فى الغالب من الجند ، يشرف على كل ما يتعلق بشئون الجيش^(١) . والثانى هو ديوان التميز . وقد رأينا كيف بدأ التميز فى بداية الدولة الموحدية ، إجراء تعسفياً لاستبعاد الخصوم أو المارقين أو إعدامهم ، وتطهير صفوف الجيش منهم ، ثم تطور هذا الإجراء بمضى الزمن ، وأصبح ينصرف إلى اختيار الصفوة من الجند ، وكان يجرى التميز قبيل كل غزوة أو حرب هامة ، يضطلع بها الخليفة الموحدى ، ويعمل بالتمييز زمام ، ويقرن بالإنعام والبركات على الجند الذين فازوا بالتمييز . وكان يتولى ديوان التميز ، وزير يسمى كاتب ديوان التميز^(٢) ، وكان للجيش فى نفس الوقت ، فى ديوان الكتابة ، كاتب أو أكثر يختصون بالكتابة فى شئونه .

وكان حج الخليفة الموحدى إلى قبر المهدي وقبور آبائه بتينملل ، من الرسوم المأثورة ، وكان الخليفة يقوم بهذه الزيارة حينما يعزم الغزو ، أو الاضطلاع بعظائم الأمور ، وكانت تعتبر دائماً حركة مباركة ، وعنوان التشجيع والتمين . بيد أنه بالرغم مما بلغه الجيش الموحدى ، فى ظل الخلفاء الأقوياء منذ عبد المؤمن

(١) البيان المغرب ص ١٤١ . (٢) ابن صاحب الصلاة فى المن بالإمامة لوحة ١٥٠ ب.

حتى نهاية عهد المنصور ، من الضخامة والقوة ، فإنه كانت توجد به ثمة ثغرات ، تعرضه من آن لآخر إلى وقوع الكوارث المؤلمة . ومن ذلك فوضى القيادة ، فإنه لم تكن للجيش من بعد عبد المؤمن قيادة قوية حارمة ، وكان اختيار القادة يتوقف على الظروف ، ويتم غالباً قبيل وقوع الغزو أو المعركة المرتقبة ، هذا مع اعتبار الخليفة دائماً هو القائد الأول لجيشه ، وكان استئثار الخليفة بالقيادة ، وعدم استماعه للخبراء من قاداته ، ينتهى بالفشل كما حدث فى غزوة وبذه ، أو بالكارثة كما حدث فى موقعة شتيرين . ولم يوفق المنصور إلى نصره الباهر فى معركة الأرك ، إلا بفضل حزمه ونصح قاداته ، ولاسيما القادة الأندلسيين ، وكان اختيار القادة يتأثر غالباً بصلات القربى والمصاهرة ، مما يترتب عليه استبعاد القادة الأكفاء . وكان حظ القيادة الأندلسية ، على كفايتها وخبرتها بحروب شبه الجزيرة ضئيلاً ، وقد أدت هذه الفوضى فى تنظيم القيادة الموحدية واختيارها : إلى هزيمة الجيش الموحدى غير مرة ، فى ظروف كان يلوح فيها أن النصر قريب منه .

وكان اختلال التكوين فى الجيوش الموحدية ، يحدث كذلك أثره السيئ فى كفاية هذه الجيوش ومقدرتها . وقد كان امتداد خطوط التكوين من أعماق المغرب عبر البحر إلى الأندلس ، مسافات طويلة ، أهم سبب فى هذا الاختلال . وبالرغم من إقامة قواعد التكوين الهائلة فيما بين سلا وسبتة ، ولاسيما فى وادى سبو ، فإن الجيوش الموحدية ، كانت حينما تعبر إلى شبه الجزيرة ، وتتوغل فى أراضي العدو ، تشعر بنقص فى تجميعها ، وكان هذا النقص ، يؤدى فى بعض الأحيان إلى اختلال نظام الجيش كله ، وإلى انشغال معظم الحند بالبحث عن القوات . وقد تحدثنا فيما تقدم ، غير مرة ، عن هذه الظاهرة المؤسفة فى نظام الجيش الموحدى .

وكان من أهم ما يمتاز به الجيوش الموحدية ، تفوقها فى فن الحصار ، ومقدرتها على اقتحام المدن المنيعه ، بالآلات الفتاكة . وقد كانت تتفوق فى ذلك تفوقاً واضحاً ، على الجيوش المرابطية ، وكانت أمنع الأسوار والتحصينات تتحطم تحت ضربات هذه الآلات المدمرة . وقد دلل الموحدون على هذا التفوق فى حوادث كثيرة ، سواء فى إفريقية أو فى اسبانيا أو البرتغال ، حينما كانت تنهار تحصينات المدن والقلاع المنيعه ، أمام قصف مجانقهم وآلاتهم المدمرة ، ولنا من ذلك أمثلة بارزة فى حوادث حصار وهران والمهدية بإفريقية . وطرئ وحسن

القصر أو قصر أبي دانس وشلب بالبرتغال . ومن جهة أخرى ، فإنه مما يلفت النظر ، أن الموحدين لم يقتصروا على استعمال الآلات القديمة وتحسينها ، بل كانوا يستعملون آلات جديدة قاذفة ، تقذف الحجارة والكرات الحديدية الملتهبة . وفي أواخر العهد الموحدى بالأندلس نرى الموحدين في لبلة حين حصارها ، يطلقون على القوات النصرانية المحاصرة ، آلات تقذف الحجارة والحديد ، ويصحبها دوى كالرعد ، تشبه المدافع البدائية^(١) . وكان الموحدون في نفس الوقت يتفوقون في تشييد الحصون والمنشآت الدفاعية ، ومازالت أطلال قصبة بطليوس العظيمة ، وقلعة جابر ، والأسوار الموحدية في إشبيلية ولبلة ، تقوم شاهداً على هذا التفوق في فنون التحصينات .

ولما وقعت نكبة العقاب المشثومة ، وسقطت الجيوش الموحدية ، وتعذر على الخلافة الموحدية أن تبعث حشودها إلى الأندلس ، أنهارت الجبهة الدفاعية الأندلسية ، ونهضت الممالك الإسبانية النصرانية لتجني ثمار نصرها ، وتلتهم من أشلاء الأندلس المهيضة ما استطاعت ، وشغل الولاة الموحدون ، وشغلت القوات الموحدية القليلة الباقية ، بما نشب حول كرسى الخلافة الموحدية من خلاف ، بدأ بالمغرب ، وتردد صداه بالأندلس ، فنهض أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور ، الملقب بالعدل ، أولاً بإشبيلية ، ونادى لنفسه بالخلافة ضد عمه أبي محمد عبد الواحد ، وقام من بعده أيضاً بإشبيلية أخوه أبو العلى لإدريس الملقب بالأمون ، مدعياً الخلافة لنفسه ، وتركت الأندلس لمصيرها ، بعد أن تخلت عنها الخلافة الموحدية ، تحاول بمواردها وقواها المضعضة ، أن تقف في وجه السيل المتدفق عليها ، من جيوش الفتح الإسبانية ، ولكن هيهات ، فقد كانت مصاير الأندلس كلها ، ترتجف في كفة القدر ، وكان أن فقدت الأندلس ، سائر قواعدها الكبرى ، في أقل من ربع قرن .

٤ - الحكومة الموحدية بالأندلس

كانت نظم الحكم المرابطية للأندلس ، يغلب عليها الطابع العسكري ، وكان معظم حكام الولايات الأندلسية ، من قادة الجيش البارزين ، مثل سيرين أبي بكر اللمتوني ، ومحمد بن الحاج ، ومزدل بن تيولتكان ، ويحيى بن غانية ، وغيرهم من أكابر القادة . ولكن النظم الموحدية ، كانت أميل إلى الطابع المدني ، وكانت

(١) راجع ص ٤٩٣ من هذا الكتاب .

الأندلس ، أوشبه جزيرة الأندلس كما كانت تنعت في الرسائل الموحدية الرسمية ، تعتبر خلال العصر الموحدى ، مثلما كانت عليه في العهد المرابطى ، قطراً من أقطار الدولة الموحدية الكبرى . وكانت تنقسم إلى عدة ولايات أو عمالات ، هى ولاية الغرب (شلب وأحوازا) ، وباجة ويابره ، وبظليوس وماردة وأحوازها ، وإشبيلية وكانت أعظمها رقعة ، وتشتمل على قواعد شريش وشنونة وأركش وقرمونة وإستجه ؛ وقرطبة وأحوازاها ؛ وجيان وأحوازاها ، وتشتمل على بياسة وأبدة ؛ وغرناطة وتشتمل على وادى آش وبسطة والمنكب وألمرية وأحوازاها ، ومالقة وأحوازاها ، وكانت عمالاتها تضم أحيانا إلى سبتة والجزيرة الخضراء^(١) ؛ وبلنسية وتشتمل على قواعد قسطلونة ، والجزيرة وشاطبة ودانية والجزائر الشرقية (وذلك قبل أن يستقل بها بنو غانية) ، ومرسية وتشتمل على لقنت ، وأوريولة ولورقة . وكان يتولى حكم هذه الولايات عادة أبناء الخليفة وإخوته أو قرابته وأصحابه . وكانت مدينة إشبيلية هى مركز الحكومة الموحدية العامة بالأندلس لما تقدم شرحه من الأسباب والبواعث ، العمرانية والجغرافية والعسكرية ، وقد نقلت منها الحكومة إلى قرطبة فى أواخر عهد عبد المؤمن ، ولكن لفترة قصيرة فقط ، ثم أعيدت إلى إشبيلية ، وبقيت بها حتى نهاية العهد الموحدى . وكان يتولى منصب الحاكم العام للأندلس ، على الأغلب واحد من أبناء الخليفة أو إخوته ، وكان أول من تولاه من أبناء الخليفة السيد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وذلك فى سنة ٥٥١ هـ ، وذلك تحقيقاً لرغبة أشياخ إشبيلية^(٢) . وفى إشبيلية ، كان ينتظم حول ولد الخليفة ، أو أخيه ، بلاط موحدى صغير ، كان يسطع أحيانا بمن يلتف حول السيد الحاكم ، من أكابر الشخصيات الأندلسية المعاصرة ، وقد كان هذا شأن بلاط السيد أبى يعقوب يوسف حينما كان يتولى حكم إشبيلية ، ثم بعد ذلك لما عاد إليها بعد وفاة أبيه ، متشجعا بثوب الخلافة ، وأقام بها بضعة أعوام . وكذلك سطع البلاط الموحدى بإشبيلية ، أيام أن أقام بها ولده الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور ، وحظيت إشبيلية فى عهد أبى يعقوب وولده المنصور بطائفة من الصروح والمنشآت العمرانية العظيمة مثل جامع إشبيلية الأعظم ، وصومعته الرائعة (لآخر الدار) ، والقصور والبساتين الموحدية خارج باب جهور ، وحصن الفرج ، وقنطرة طريانة ، وغيرها مما سبق أن فصلناه فى موضعه .

(١) راجع ص ٣٣٩ ق ١ من هذا الكتاب . (٢) راجع ص ٣٤٨ ق ١ من هذا الكتاب .

وكان لكل ولاية أندلسية حكومتها المحلية ، تضم إلى جانب الوالى الموحدى ، الوزير والكتاب وصاحب العمل ، والمشرف على الجباية ، هذا عدا المناصب الدينية من القضاء والخطبة والشورى وغيرها . وكانت تؤلف هذه الحكومات المحلية عادة من أهل الأندلس ، وهم يختصون عادة بمناصب الكتابة والقضاء . وكان بعض السادة من أبناء الخليفة أو إخوته ، يستخدمون فى حكوماتهم المحلية أكابر كتاب الأندلس ، جريا على سنة بلاط مراکش ، فرى مثلا السيد أباسعيد ابن الخليفة عبد المؤمن ، حين ولايته لغرناطة ، يستخدم لكتابته ، الكاتب والشاعر الكبير أحمد بن عبد الملك بن سعيد العنسى^(١) . ونرى فى أواخر العهد الموحدى ، السيد أبازيد بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن والى بلنسية ، يستخدم لوزارته وكتابته ، كاتباً من أعظم كتاب الأندلس وشعرائها هو ابن الأبار القضاعي^(٢) . بيد أنه كانت تسند بعض المناصب الحساسة ، إلى الموحدين ، مثل الإشراف على الجباية والأعمال . أما حكم القواعد فكان يسند على الأغلب إلى حكام من الأندلسيين ، الموثوق بولائهم وإخلاصهم للحكم الموحدى .

وكانت إشبيلية فضلا عن كونها مركز الحكومة الموحدية العامة ، تتخذ فى نفس الوقت ، مركزاً لتجمع الجيوش الموحدية ، القادمة من وراء البحر ، أو العائدة من الغزو ، لتعبر البحر مرة أخرى إلى أوطانها بالمغرب .

وكانت القوات الأندلسية ، حسبما ذكرنا فى موضعه ، تؤلف جناحا خاصاً فى الجيوش الموحدية الوافدة إلى شبه الجزيرة ، وكانت تقوم بحراسة كثير من الحصون فى مناطق الحدود ، أما مستقلة ، وإما بالاشتراك مع بعض الحاميات الموحدية . وكان بلند الأندلس قيادتها الأندلسية الخاصة ، إلى جانب القيادة الموحدية ، وكانت هذه القيادة الأندلسية تلعب أدواراً هامة فى التوجيه والإرشاد فى بعض المعارك الكبرى .

ومما هو جدير بالذكر أن مملكة الشرق ، أعنى منطقة بلنسية ومرسية ، كانت خاضعة قبل سقوطها فى أيدي الموحدين فى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) لحكومة أندلسية محضة ، كانت تقوم بحكمها وفقاً للتقاليد الأندلسية الخالصة ، وقد لبثت هذه المنطقة دائماً ، حتى بعد استيلاء الموحدين عليها ، تحتفظ بطابع أندلسى قوى ، يميزها عن بقية المناطق الأندلسية فى الوسط وفى الغرب . ويرجع ذلك من بعض

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٢٢٤ (٢) راجع ص ٣٩٦ من هذا الكتاب .

الوجه إلى حظوة آل مردنيش بعد وفاة عميدهم محمد بن سعد ، لدى الخليفة الموحدى ، والى موافقة الخليفة على استبقاء آل مردنيش لسلطانهم ونفوذهم في تلك المنطقة مدى حين . ولما تضعض سلطان الحكومة الموحدية ، بعد ذلك بنحو ثلث قرن ، على أثر نكبة الجيوش الموحدية في موقعة العقاب (٦٠٩ هـ) وضعفت الحاميات الموحدية المحلية ، كان شرقي الأندلس كذلك ، أول المناطق التي قامت بها الحركة التحريرية الأندلسية ، على يد المتوكل بن هود ، في مرسية وأحوازها ، والرئيس أبي جميل زيان بن مردنيش في بلنسية . ولم يكن ذلك سوى تجديد للحركة القومية الأندلسية ، التي اضطرت ضد الحكم الموحدى في شرقي الأندلس ، على يد محمد بن سعد بن مردنيش ، ولبت صامدة زهاء ربع قرن . بيد أن هذه المرحلة الأخيرة من الحركة القومية الأندلسية ، كانت ضعيفة ، ولم يكتب لها الصمود ، إزاء توثب الممالك النصرانية وهجائها المتوالية ، فكانت بداية المحنة ونذير الانهيار .

ونهض محمد بن الأحمر في أواسط الأندلس ، فكانت ثمة حركة قومية أندلسية أخرى . وكانت هذه الحركات القومية الأندلسية المحلية ، في الظروف الدقيقة التي كانت تعمل فيها ، وبالرغم من صفتها القومية والتحريرية ، تصطبغ بلون انتحاري مؤلم ، وكانت الزعامات والقوى الموحدية ، التي بقيت في شبه الجزيرة تشغل بمشاريعها الخاصة ، وأطماعها في عرش مراکش ، الذي أحاقت به الخلافات والفتن ، عن الاهتمام بقضية الأندلس ، أو التفكير في مدافعة أعدائها المتربصين بها ، أغنى النصارى الإسبان ، بل كانت بالعكس تصانع أولئك الأعداء ، وتستمد عونهم ، وتقطعهم ما بيدها من حصون الأندلس وأراضيها . وقد لبثت لإشبيلية حتى بيعة المأمون بالخلافة ، مركز الحكم الموحدى بالأندلس ، ولكنها مذ غادر المأمون شبه الجزيرة إلى المغرب (٦٢٦ هـ) ، قامت بها حكومة محلية في ظل الخلافة الموحدية ، ثم أخذت تتردد بين الاستقلال ، وبين الانضواء تحت حكم ابن هود تارة ، وتارة تحت ظل الخلافة الموحدية ، وأخيراً تحت ظل الدولة الحفصية بإفريقية . وكان حكم الأندلس في تلك الفترة العصية ، كله اضطراب وفوضى ، ولم تكن ثمة حكومة موحدة ، في أية منطقة من المناطق ، بل كانت ثمة حكومات محلية عديدة في منطقة الشرق ، وفي أواسط الأندلس ، وفي لإشبيلية وقواعد الغرب ، حسماً فصلناه كله في موطنه .

الفصل الثاني

الحركة الفكرية الأندلسية

خلال العصر الموحدى

القسم الأول

الدولة المرابطية دولة دينية عسكرية . الحركة الفكرية فى ظلها امتداد لها فى عصر الطوائف .
إزدهار الحركة الفكرية خلال العصر الموحدى . المهدي ابن تومرت وسبته العلمية . الخلفاء الموحدون
العلماء . رعايتهم للعلماء والحركة العلمية . الخلافة الموحدة وإطلاقها حرية البحث . دور الأندلس فى
إذكاء الحركة الفكرية فى الغرب الإسلامى . تقاطر علماء الأندلس على العدو . أثر ذلك فى تقدم الحركة
الفكرية بالمغرب . إزدهار الحركة الفكرية خلال العصر الموحدى . تواج الحركة الفكرية الأندلسية
من جراء سقوط القواعد الأندلسية . نزوح علماء الشرق إلى إفريقيا . إتجاه الحركة الفكرية خلال عصر
الانحياز إلى العلوم الدينية . إزدهار العلوم الدينية والآداب حتى خلال عصر الانحياز . ضعف
الحركة العلمية . كثرة علماء الدين والفقه والأدب بالأندلس خلال العصر الموحدى . الفقهاء والمحدثون
وعلماء الدين الذين ظهوروا فى أوائل هذا العصر . نماذج من أعلامهم . أبو عبد الله بن الفرس . ابن الحد
الفهري . أبو عبد الله بن الفجار . ابن ذى النون الحجرى . ابن أبى جرة . ابن أبى زمنين . ابن عون الله
المعروف بالحصار . عبد الله بن سليمان بن حوط الله الأنصارى . أخوه داود بن سليمان بن حوط الله
الحافظ أبو الربيع بن سالم الكلاعى . محمد بن إبراهيم المهرى . ابن زرقون الابن . علماء الدين الذين جمعوا
بين الحديث والفقه والأدب والشعر واللغة . نماذج من هؤلاء . عبد الله بن عمر الحضرى . ابن الأشيرى .
محمد بن إدريس العبدري . محمد بن أحمد المتناجشى . محمد بن خير الإشيل . عبد الله بن يحيى بن
صاحب الصلاة . ابن صاف اللخمى . محمد بن جعفر بن حديد الأموى . ابن زرقون الأب . ابن نجبة
الرعى . أحمد بن عبد الرحمن بن مضاه . ابن عيسى التادلى . أحمد بن عتيق الذهبى . ابن خلف الأموى
الخطيب . ابن عمران القيسى الميرتلى . ابن فوح الغاتقى . أبو عمر أحمد بن عات النفري . أحمد بن خلف
الشتيالى . ابن خلصة الحميرى . ابن عبد العزيز الأنصارى النحوى . ابن حزم الأموى النحوى . .
ابن عبد المؤمن القيسى الشريشى . من نبغ فى أواخر العصر الموحدى من العلماء الذين جمعوا بين علوم
الدين واللغة والأدب والشعر . محمد بن بخلفن الفازارى التلمسانى . أحمد بن يزيد بن بقى بن مخلد
الأنومى . ابن أصبغ الأزدى . ثابت بن خيار الكلاعى . محمد بن جابر السقنى . ابن السقاء . من ظهر
من هؤلاء وقت الانحياز . ابن مطروح التجيبى . ابن عسكر المالقى . ابن الصفار الضرير . ابن أبى
حجة . أحمد بن على بن أحمد الأنصارى . عبد الله بن خلف اللخمى الحرار . ابن محرز . أكابر
المتصوفة . أحمد بن عمر المعافى المعروف بابن إفرندو . ابن مراد السلمى . محمد بن عبد الله بن العربى
المعافى . ابن سيدبونه الخزاعى . محمد بن عبد الله بن قاسم الأنصارى . ابن مهيب اللخمى . الشيخ
محيى الدين الطائى ابن عربى .

لم تكن الدولة المرابطية ، حسبنا وضح من تاريخها ، سوى دولة دينية عسكرية ، استمدت حياتها ومنعتها خلال عهدها القصير ، مما كانت تتسم من صفات البداوة والخشونة ، وكانت روح التزمّت التي تغلب عليها ، وتدفعها إلى تجاهل القيم الفكرية والأدبية ، تحول دون تفتح الحركات العقلية وتقدمها ، ولم تكن تلك الحركة الفكرية التي ازدهرت في ظلها ، والتي استعرضنا بعض ملامحها فيما تقدم ، سوى امتداد طبيعي ، واندفاع حتمي ، لتلك الحركة الفكرية العظيمة التي ازدهرت في ظل دول الطوائف ، والتي أسبغ عليها ملوك الطوائف كل تشجيع ورعاية ، ثم جاءت الدولة المرابطية ، فاحتضنت بعض جوانبها الرسمية ، بمن كانت تحشد لهم حولها من الوزراء العلماء ، والكتاب البلغاء ، ليكونوا لسانها ، لدى الشعوب المحكومة ، سواء بالمغرب ، أو الأندلس ، ولكي يستكمل البلاط المرابطي ، بعد أن ضخمت الدولة وتوطد سلطانها ، ما ينقصه من أسباب الهيبة والبهاء

أما الدولة الموحدية فكان لها شأن آخر . ذلك أن عصر الدولة الموحدية ، الذي استطال زهاء قرن ونصف قرن من الزمان ، كان من أحفل عصور التاريخ الأندلسي والمغربي بالحركات الفكرية . وإنه ليبدو من الغريب المدهش ، أن نجد الحركة الفكرية الأندلسية ، حتى في مرحلة الانحلال والانهايار ، التي توالى فيها سقوط القواعد الأندلسية الكبرى ، مستمرة في الاحتفاظ بنشاطها وعنفوانها ، ونراها تنحدر عبر البحر من القواعد الأندلسية الذاهبة ، إلى قواعد إفريقية والمغرب ، تحمل معها تراثها الزاخر ، وتزدهر هنالك حقبة أخرى .

ويجب قبل أن نتحدث عن هذه الحركة الفكرية الباذخة ، التي ازدهرت بالمغرب والأندلس ، خلال العصر الموحدى ، أن نحاول أن نستكشف في ملامح الدولة الموحدية ، بعض العوامل المشجعة ، أو الدافعة لمثل هذه الحركة ، إذ أنه لا ريب في أن الدولة الموحدية ، بالرغم مما كان يقع في ظلها بين آونة وأخرى ، من ضروب المطاردة الفكرية ، كانت دولة حامية للعلوم والآداب والفنون .

لقد كان مؤسس الدولة الموحدية الروحي ، المهدي محمد بن تومرت ، من أقطاب علماء عصره ، وقد أفسح في دعوته للعلم أيما مكانة ، وحض على تحصيله بقوة وحماسة ، في عبارته المشهورة ، التي يفتح بها كتابه وهي :

« أعز ما يطلب ، وأفضل ما يكتسب ، وأنفس ما يدخر ، وأحسن ما يعمل ، العلم الذي جعله الله سبب الهداية إلى كل خير ، هو أعز المطالب ، وأفضل

المكاسب ، وأنفس الذخائر ، وأحسن الأعمال » .
وقد كان أول خلفاء المهدي ، وهو عبد المؤمن بن علي ، مؤسس الدولة
الموحدية الحقيقي ، وموطد دعائهما ، كذلك كان عالماً من ألمع علماء عصره ، يلتف
حوله العلماء والكتاب والشعراء من المغرب والأندلس ، يبسط عليهم رعايته ،
ويغمرهم بصلاته ، وهو الذي نظم جماعة الحفاظ الموحدين ، وعنى بأمرها أشد
عناية ، حتى بلغت في أيامه نحو ثلاثة آلاف حافظ ، يدرسون كتب المهدي
وتعاليمه ، وقد تولى الكثير منهم فيما بعد كثيراً من مناصب الثقة والمسئولية ، في
الدولة الموحدية بالمغرب والأندلس .

وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، كذلك من أكابر علماء عصره ،
وكان أديباً متمكناً ، وفقهياً ، ومحدثاً بارعاً ، يشغف في نفس الوقت بالدراسات
الفلسفية ، ويجمع حوله طائفة من أعظم علماء العصر ومفكريه ، وفي مقدمتهم أبو بكر
ابن طفيل ، وأبو الوليد بن رشد ، وأبو بكر بن عبد الملك بن زهر ، وهم أساتذة
الفلسفة والطب في هذا العصر . وقد انتهى إلينا من آثاره كتابه في « الجهاد » وهو
الملحق بكتاب المهدي ابن تومرت . وذلك حسبما أشرنا إلى ذلك في موضعه .

وكان ولده الخليفة يعقوب المنصور عالماً مستنيراً ، متمكناً من الحديث والفقه
واللغة ، وكان مثل أبيه وجده ، يجمع حوله العلماء والأدباء والشعراء ، من المغرب
والأندلس ، ويجزل صلتهم ، ويجري المرتبات على الفقهاء والطلبة ، وفقاً لمراتبهم
وطبقاتهم^(١) . وكان كذلك يجري الرواتب المنتظمة ، لكثير من الأطباء ،
والمهندسين والكتاب والشعراء وغيرهم^(٢) ، وكان له بتمكته من الفقه ، دور
فعال في تطور العقيدة الموحدية ، وجنوحها إلى المذهب الظاهري .

ونجد حتى في أواخر الدولة الموحدية ، حينما شاخت وأدركها الوهن ، في
الخلفاء الموحدين ، من يتسم بالصفات العلمية البارزة ، فقد كان الخليفة المأمون
ابن المنصور ، عالماً متمكناً من اللغة والأدب والشعر ، وكان كاتباً مقتدرًا ، وكان
الخليفة المرتضى لأمر الله ، فقيهاً وأديباً وشاعراً . وكانت هذه الصفات العلمية
للأواخر من الخلفاء الموحدين ، تبرز على ما عداها ، بالرغم مما كانت تتردى
فيه الدولة ، من الفتن والحروب الأهلية المتواصلة .

وقد كان لهذه النزعة العلمية التي غلبت على معظم الخلفاء الموحدين ، أثر

(١) روض القرطاس ص ١٤٣ . (٢) المراكشي في المعجب ص ١٣٤ .

كبير فيما جرت عليه الدولة الموحدية طوال أيامها ، من رعاية للعلماء والمفكرين من كل ضرب ، وحشدها لأعلام الكتاب والمفكرين حول البلاط الموحدى ، سواء فى مراكز أو إشبيلية .

ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أن الخلافة الموحدية ، تحملها هذه النزعة العلمية الأصيلة ، قد جرت على سياسة إطلاق حرية البحث والتفكير ، خلافا لما كانت عليه الدولة المرابطية ، من تزمّت وتقييد لحرية الفكر ، ومطاردة منظمة لكتب الغزالي وأضرابها من كتب الأصول المشرقية . ولم تشذ الخلافة الموحدية عن هذا المبدأ الحر ، إلا فى أحيان قليلة ، كان أهمها حادثان ، هما اضطهاد العلامة الفيلسوف والطبيب اليهودى الرئيس موسى بن ميمون ، ومحنة العلامة الفيلسوف والطبيب أبى الوليد بن رشد ، وذلك حسبما نشير إليه فيما بعد عند الكلام على هذين المفكرين .

بيد أنه بالرغم من هذا التنويه ، بما كان عليه الخلفاء الموحدون من الصفات العلمية ، ورعاية العلوم والآداب ، وما جرت عليه الخلافة الموحدية من إطلاق حرية الفكر ، يجب ألا ننسى حقيقة هامة ، وهى ذلك الدور الفعال الذى لعبته الأندلس ، وهى يومئذ إحدى ولايات الإمبراطورية الموحدية الكبرى ، فى إذكاء الحركة الفكرية العامة ، بالغرب الإسلامى ، خلال العصر الموحدى . وإذا تركنا جانبا ما كان يحشده البلاط الموحدى حوله ، من أعلام الكتاب الأندلسيين ، فإن تقاطر العلماء على اختلاف طوائفهم باستمرار من شبه الجزيرة الأندلسية ، إلى العدو ، واستقرار الكثير منهم بالحاضرة الموحدية ، أو غيرها من قواعد المغرب ، وعبور الطلاب والعلماء المغاربة من جهة أخرى إلى الأندلس ، للدراسة بمعاهدها الثالثة فى إشبيلية ، وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية ، كان له أكبر الأثر فى ازدهار الحركة الفكرية ، بالقطرين العظيمين المغرب والأندلس ولما انهار سلطان الموحدين بالأندلس ، وأخذت قواعد الأندلس الكبرى ، تسقط تباعا فى أيدي النصارى ، عبر كثير من علماء الأندلس ، من أبناء القواعد الذاهبة ، إلى ثغور إفريقية وقواعدها ، ولاسيما تونس وبجاية وتلمسان ، وقامت فى شمال إفريقية فى أواسط القرن السابع الهجرى ، حركة فكرية وأدبية زاهرة . ومن ثم فإنه من الواضح ، إزاء ذلك كله ، أن الحركة الفكرية فى الغرب الإسلامى ، كانت خلال العصر الموحدى ، تجوز ، سواء بالمغرب أو الأندلس ،

فترة من القوة والازدهار . وإذا كان من الصعب علينا ، خلال هذا البحث الذى خصص لتاريخ الدولة الموحدة السياسى ، أن نستوعب سائر جوانب هذه الحركة الفكرية العظيمة ، التى لا يمكن أن يتسع لتفاصيلها ، سوى تاريخ خاص للآداب فى هذا العصر ، فإننا سوف نحاول مع ذلك ، أن نلم بعناصرها بصفة عامة ، وأن نستعرض الكثير من أعلامها ، فى مختلف العلوم والفنون ، ولاسيما فى شبه الجزيرة الأندلسية . هذا مع ذكر طائفة من أعلام التفكير المغاربة ، الذين يقتضى المقام أن نذكرهم .

وما يلاحظ فى سير الحركة الفكرية الأندلسية فى العصر الموحدى ، تماوجها وعدم استقرارها ، ولاسيما منذ أواخر القرن السادس الهجرى ، وذلك حينما بدأت قواعد الغرب الإسلامية تسقط فى أيدي النصارى ، واتجهت هجرة العلماء وغيرهم ، من أوطانهم القديمة ، صوب منطقة إشبيلية . وحدث مثل هذا التقلقل فى الأندلس الوسطى ، وذلك حينما سقطت قرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، وأعظم مراكز التفكير الأندلسى ، فى أيدي القشتاليين (٦٣٣هـ) . وتلتها بقية قواعد المنطقة مثل جيان وغيرها ، فعندئذ تحول مركز التفكير الأندلسى من هذه المنطقة إلى الجنوب ، صوب غرناطة وغيرها من قواعد الأندلس الجنوبية ، وكانت قد بدأت تجتمع فى ظل زعامة إسلامية جديدة ، هى زعامة ابن الأحمر ، ثم لما وقع الانهيار العام فى شرق الأندلس ، وسقطت بلنسية وشاطبة ودانية وغيرها من قواعد الشرق فى أيدي النصارى (الأرجونيين) (٦٣٦ - ٦٤١هـ) ، غادرها العلماء والخاصة ، بعضهم إلى مرسية وأحوازها ، ومعظمهم إلى ثغور إفريقية ، ولاسيما تونس وبجاية ، وكان فى مقدمة هؤلاء علماء وكتاب أعلام ، مثل ابن الأبار القضاعى ، وأبى المطرف بن عميرة المخزومى ، وأبى عبد الله بن الجنان وغيرهم . ولبث مرسية وأحوازها ، بعد سقوط بلنسية ، زهاء ثلاثين عاما أخرى ، مركزاً للعلوم الأندلسية ، وإن كان ذلك فى ظروف مقلقة ، وتحت ضغط العدو المستمر ، حتى سقطت بدورها فى أيدي النصارى ، وخبا بذلك آخر مشعل للعلوم الإسلامية فى شرق الأندلس ، وتفرقت بقية علماء الشرق ، فى مختلف القواعد الجنوبية ، وقصد الكثير منهم إلى ثغور إفريقية وقواعد المغرب .

وثمة ملاحظة أخرى تتعلق بعناصر الحركة الفكرية الأندلسية ، فى هذا العصر الذى اضطربت فيه أوضاع الحياة الاجتماعية بالأندلس ، وهى أن هذه

العناصر كانت تتجه قبل كل شيء إلى العلوم الدينية والآداب ، بينما لا تخطر العلوم الدنيوية المحضة منها إلا بالقليل النادر ، فلانجد من علماء الطب والفلك والنبات مثلاً سوى أفراد قلائل ، ولانجد ، إذا استثنينا العالم النباتي الكبير أبا العباس ابن الرومية ، شخصيات علمية بارزة ، من طراز ابن زهر وابن طفيل وابن رشد . أما العلوم الدينية والآداب ، فقد لبثت حتى خلال الحقبة ، محتفظة بمستواها الرفيع السابق ، بل لقد بلغت الآداب ، وقت الانهيار العام ، مستوى عظيم من التفوق ، لم تبلغه في عصور سابقة ، وبلغ النثر والشعر منتهى الروعة . ذلك أن الحقبة بسقوط الأوطان القديمة ، وتبدد الشمل ، وفقد المال والأهل والولد ، وانهيار أركان الدين ، وانطفاء نور الإسلام ، في تلك الربوع العزيزة ، كل ذلك قد أذكى لوعة الشعر والنثر ، وصدرت عندئذ في بكاء الأندلس ، من المراثي البليغة ، من النظم والنثر ، ما يهز أوتار القلوب ، وما لا يزال يحتفظ حتى اليوم بكل روعته وتأثيره . والآن بعد أن استعرضنا بعض ملامح الحركة الفكرية الأندلسية ، خلال العصر الموحدى ، نحاول أن نستعرض ذلك الثبت الحافل من أعلام التفكير الأندلسي ، الذين ظهوروا في هذا العصر ، وسوف نبدأ في ذلك بعلماء الدين ، من فقهاء ومحدثين ، ومن إلهم من علماء الكلام والأصول وغيرهم .

— ١ —

قلنا إن الحركة الفكرية الأندلسية ، خلال العصر الموحدى ، تمتاز بوفرة في دراسة علوم الدين والفقه والأدب ، ومن ثم فإننا نجد أمامنا جمهرة كبيرة من علماء الدين والفقه يعدون بالمئات ، ومن المتعذر علينا في هذا المقام المحدود ، أن نذكرهم جميعاً ، ولهذا فسوف تقتصر على ذكر الأعلام البارزين منهم . ومن جهة أخرى فإن كثيراً من هؤلاء العلماء والفقهاء ، الذين امتازوا بالتفوق في العلوم الدينية ، كالحديث والأصول والتفسير والفقه ، كانوا في نفس الوقت يمتازون بتمكنهم من الأدب وعلوم اللغة ، وبعضهم ينظم الشعر ، ومن ثم فإننا سوف نحاول أن نقدم منهم من غلب عليهم التفوق في العلوم الدينية ، ثم نتبعهم بمن مزجوا بين علوم الدين والأدب ، بيد أن مثل هذا التصنيف لا يمكن إلا أن يكون أمراً نسبياً .

ونود أن نشير كذلك ، إلى مسألة الفارق الزمني بين عصر المرابطين وعصر الموحدين . ذلك أننا أدرجنا ضمن أعلام التفكير الأندلسي في عصر المرابطين ،

بعض من امتدت حياتهم إلى صميم العصر الموحدى ، إلى سنة ٥٦٠ هـ ، وأحياناً إلى سنة ٥٧٠ هـ ، وسوف ندرج هنا ضمن أعلام العصر الموحدى بعض من توفوا قبل ذلك ، ممن أدركوا العصر المرابطى وظهروا فيه . والتفرقة هنا نسبية أيضاً ، ولاخير منهما ، مادمننا نعنى فى كتابنا بعصر المرابطين والموحدين معا .

ونبدأ بذكر طائفة من الفقهاء والمحدثين وعلماء الدين ، الذين ظهروا بالأندلس فى أوائل العصر الموحدى ، منذ منتصف القرن السادس الهجرى . ومن الواضح أن معظمهم ظهر كذلك فى العصر المرابطى ، قبل عبور الموحدين إلى شبه الجزيرة واستيلائهم عليها .

كان من هؤلاء ابراهيم بن الحاج أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن خالد ابن عماره الأنصارى ، من أهل غرناطة ، وبها نشأ ودرس على أعلام عصره بها ، وبقرطبة ومالقة ، وألمرية ، وكان ممن أخذ عنهم أبو بكر بن عطية ، وأبو الحسن ابن الباذش ، وابن عتاب ، وابن رشد ، وغيرهم من الأقطاب ، وبرع فى الفقه والحديث ، والقراءات ، ومارس عقد الشروط ، وولى القضاء بعدة جهات من ولاية غرناطة ، ولما انهيار سلطان المرابطين بالأندلس غادر موطنه غرناطة ، يتجول فى البلاد ، حتى استقر أخيراً بمدينة ميورقة فى كنف أميرها إسحاق بن محمد بن غانية ، فولاه قضاءها ، وتصدر للدرس والإقراء وكان من أعلام دولة بنى غانية . وتوفى بميورقة فى جمادى الأول سنة ٥٧٩ هـ ، ومولده بقرطبة سنة ٤٩٥ هـ (١) .

ومحمد بن عبد الرحيم بن محمد بن الفرج بن هاشم الأنصارى الخزرجى ، ويعرف بابن الفرس ، من أهل غرناطة ، درس على أبيه أبى القاسم ، وأبى بكر بن عطية ، وأبى الحسن بن الباذش ، وأبى القاسم بن ورد ، ودرس فى قرطبة على ابن عتاب وابن رشد ، وابن الوراق وغيرهم من أعلام العصر . وعنى بالحديث والفقه والقراءات ، والرواية ، مع تمكن من الفتوى . غادر بلده غرناطة عند وقوع الفتنة بها على أثر انهيار سلطان المرابطين واستوطن مرسية ، وولى بها خطة الشورى ثم تولى قضاء بلنسية ، ولكنه غادرها عند قيام ثورة ابن شلبان ، وأدى اضطراب الأحوال إلى أن صرفه الأمير محمد بن سعد عما كان بيده من الخطط ، ثم عاد فاسترضاه لما رأى من علمه وفضله وزهده ، وكان فى وقته من أعلام حفاظ الأندلس ، مع مشاركة فى الأدب . أخذ عنه الكثير

وانتفعوا به ، وكانت وفاته بمدينة إشبيلية ، عند وفوده عليها مع وجوه أهل مرسية لتحية الخليفة ، وذلك في شوال سنة ٥٦٧ هـ (١) .

ويبش بن محمد بن أحمد بن خلف بن يبش العبدري من أهل أندة ، وسكن مع أبيه بلنسية ، ودرس بها وبرع في الفقه ، وولى الشورى بلنسية ، وكذلك خطة الأحكام ، وكان بصيراً بعقد الشروط ، مدركا لصحة الأحكام ، وتطوع في جيش الخليفة أبي يعقوب يوسف حينما سار لغزو مدينة وبدة في سنة ٥٦٧ هـ ، ثم توفي عقب عوده من الغزو المذكور في سنة ٥٦٨ هـ (٢) .

وعبد الله بن أحمد بن سعيد بن عبد الرحمن العبدري من أهل بلنسية ويعرف بابن موجوال ، درس الفقه والحديث والقراءات ، ونزح إلى إشبيلية ، فسكنها وأخذ عن أبي مروان الباجي ، وأبي بكر بن العربي وغيرهما ، وبرع بالأنخص في دراسة الفقه ، وكان بصيراً بالأحكام ، وعرف فوق ذلك بالورع والزهد ، وحدث عنه جماعة من الأعلام . ألف شرحاً في صحيح مسلم ، ولكنه توفي قبل إتمامه ، وله كذلك شرح لرسالة أبي زيد القيرواني . وتوفي في إشبيلية سنة ٥٦٦ هـ (٣)

ومحمد بن عبد العزيز بن علي بن عيسى بن مختار الغافقي ، من أهل قرطبة ، ويعرف بالشقوري لأن أصله من شقورة . كان معنياً بصناعة الحديث ، بصيراً بطرائقه ، وكان فوق ذلك حافظاً لأخبار الأندلس متمكناً من الفقه والأحكام . ولى قضاء شقورة بلده الأصلي ، فحمدت سيرته ، واشتهر بالعدل والنزاهة ، وحدث وأخذ عنه الناس ، وتوفي في المحرم سنة ٥٧٩ هـ (٤) .

وأحمد بن يوسف بن عبد العزيز بن محمد القيسي الوراق من أهل قرطبة أخذ عن ابن عتاب وابن رشد والقاضي عياض وغيرهم من أقطاب عصره ، وكان عالماً بالحديث ، حدث وأخذ عنه جماعة كبيرة ، وكان أصم ، وتوفي بمراكش سنة ٥٨٢ هـ (٥) .
وأحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة الخزرجي من أهل قرطبة ، وسكن غرناطة وقتنا ، ثم نزح إلى بجاية ، وكان محدثاً متمكناً من الرواية . وكتب في أحكام النبي كتاباً سماه « آفاق الشمس وأعلاق النفوس » وكتاباً آخر عنوانه « مقامع الصلبان ومراتب رياض أهل الإيمان » ، وتوفي بمدينة فاس في شهر ذي الحجة سنة ٥٨٢ هـ (٦) .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ٦٠٩ .

(١) ترجمته في التكملة رقم ١٣٩٤ .

(٤) ترجمته في التكملة رقم ١٤٣٦ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ٢٠٥٠ .

(٦) ترجمته في التكملة رقم ٢٢٣ .

(٥) ترجمته في التكملة رقم ٢٢٢ .

ويبيش بن محمد بن علي بن يبيش العبدري من أهل شاطبة ، درس الفقه والحديث والتفسير مع مشاركة في النحو ومارس الشورى والفتيا زمنا ، وعرف بمقدرته وكفايته . ثم تولى قضاء شاطبة بلده . وألف في التعليق على صحيح البخاري كتابين ، وأخذ عنه جماعة من أعلام عصره ، توفي في جمادى الأولى سنة ٥٨٢هـ^(١) وكان من أعظم فقهاء هذا العصر وحفاظه ، ابن الجلد الفهرى ، وهو محمد

ابن عبد الله بن يحيى بن فرح بن الجلد ، وأصله من لبلة وبها ولد سنة ٤٩٦ هـ ، وتلقى بها دراسته الأولى ثم درس بقرطبة ، وأخذ فيها عن ابن عتاب ، وابن رشد ، وأخذ في إشبيلية عن أبي بكر بن العربي وغيره ، وعنى لأول أمره بدراسة العربية فبرع فيها ، وعزم على التخصص فيها ، والتصدر لاقراءها ، ولكنه مال بعدئذ بتوجيه أستاذه ابن رشد إلى دراسة الفقه والحديث ، فبرع في هذا الميدان وبلغ فيه الذروة ، وانتهت إليه رئاسة عصره في الحفظ والفتيا ، وقدم للشورى بإشبيلية مع أبي بكر بن العربي ونظرائه من الفقهاء البارزين يومئذ ، وكان في عصره فقيه الأندلس والمغرب وحافظهما دون منافس ولا منازع ، كما كان أبرع أهل عصره في التمكن من مذهب مالك . وكان فوق ذلك فصيحاً ، وخطيباً مفوهاً ، وذاع صيته في المغرب والأندلس ، وتبوأ ذروة النفوذ والجاه في ظل الدولة الموحدية ، ولكنه لم يترك من قلمه آثاراً ذات شأن ، ونوفى بإشبيلية في الرابع عشر من شوال سنة ٥٨٦ هـ عن تسعين عاماً ، ولبث أسرته عصرراً تحتفظ بمكانتها ونفوذها ، وتولى حفيده الفقيه أبو عمرو بن الجلد زعامة إشبيلية وقتاً ، أيام الانهيار والفتنة ، وتوفى قتيلاً قبل سقوط إشبيلية بوقت قصير^(٢)

ومن الفقهاء والمتكلمين ، صالح بن أبي صالح خلف بن عامر الأنصارى الأوسى من أهل مالقة ، درس بها على أعلام عصره ثم رحل إلى تلمسان ، ثم إلى تونس ، والمهدية ، وأخذ عن أقطابها سماعاً وإجازة . وكان فقيهاً متمكناً من علم الكلام . وروى عنه الأخوان أبو محمد وأبو سليمان إبننا حوط الله ، وتوفى في رمضان سنة ٥٨٦ هـ^(٣) .

ومنهم أحمد بن محمد بن أخلف بن عبد العزيز الكلاعى ، من أهل إشبيلية

(١) ترجمته في التكملة رقم ٦١٠ .

(٢) راجع ترجمة الحافظ ابن الجلد في التكملة رقم ١٤٦٩ ، وراجع ص ٤٧٠-٤٧٢ من هذا الكتاب .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ١٨٨٧ .

ويعرف بالحوفي . درس الفقه والحديث ، وسمع من أبي بكر بن العربي وغيره ، وتولى قضاء إشبيلية ، وعنى بنوع خاص بعلم الفرائض ، وألف فيه كتاباً حسناً وتوفى في شعبان سنة ٥٨٨ هـ (١) .

وأبو بكر بن خلف الأنصاري ، من أهل قرطبة ، ويعرف بالموافق ، درس الحديث والفقه ، ونزح إلى مدينة فاس ، واشتهر بغزارة الحفظ ، وتولى تدريس الفقه عصرًا ، واشتهر بمقدرته وتبحره ، وعنى في الحديث بالتعليل والبحث عن الأسانيد والرجال ، ولم يعن بالرواية ، والتحق وقتاً بخدمة الخليفة في مراكش ، ونال جهاً وثراءً ، ثم ولي قضاء فاس ، فلبث فيه حتى توفى في شوال سنة ٥٩٠ هـ (٢) .

ومحمد بن إبراهيم بن خلف بن أحمد الأنصاري من أهل مالقة ، وأصله من بلنسية ، ويعرف بابن الفخار . كان أماً في الحديث ، مقدماً فيه ، وفي المعرفة بسرد المتون والأسانيد ، وتميز الرجال . سمع من أبي بكر بن العربي ، وأكثر عنه واختص به ، وعن أبي مروان بن بونه ، وأبي جعفر البطروجي ، وشريح ابن محمد ، وأبي طاهر السلفي . وكانت له فوق ذلك مشاركة في اللغة ومعرفة الشروط ، وكان يتولى عقدها بباب قنتنالة ، وكان يحفظ « صحيح مسلم » ، وكان شديد الورع ، جليل القدر ، شديد التمسك بالعدل ، مكرماً لطلاب العلم . واستدعى في أواخر حياته من الخليفة يعقوب المنصور إلى مراكش لسمع عليه بها ، فقصد إليها ، ولكنه توفى بها بعد قليل في شعبان سنة ٥٩٠ هـ ، ومولده بمالقة سنة ٥١١ هـ (٣) .

وعبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن ذى النون الحجري ، من أهل ألمرية ، وأصلهم القديم من طليطلة ، ولهم فيما يبدو صلة رحم بيني ذى النون سادة طليطلة أيام الطوائف . درس الحديث والفقه ثم رحل إلى قرطبة ، ثم إلى إشبيلية ، ودرس فيها على أعلام عصره ، ولاسيما أبي القاسم بن بقي ، وابن مغيث ، وأبي بكر بن العربي ، وشريح بن محمد ، واشتهر بتبحره وغزارة حفظه . وكان آية في الصلاح والورع والفضل والعدالة ، وولى الخطبة والصلاة بجامع بلدته ألمرية ، ودعى إلى القضاء ، فاعتذر . ولما غلب النصارى على ألمرية في سنة

(١) ترجمته في التكملة رقم ٢٢٧ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ٥٩٦ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ١٤٨٠ .

٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) غادرها إلى مرسية ، وعاش بها وقتاً في خول وضعة ، ثم غادرها إلى مالقة ، ولكنه لم يجد بها طيب المستقر ، فعبر البحر إلى العدو ، ونزل بمدينة فاس وأقام بها مدة ، ثم انتقل منها إلى سبتة ، فاستوطنها ، وهو عاكف على إقراء القرآن وتدريس الحديث ، وسار ذكره ، وبعد صيته ، حتى قصد إليه الناس من كل صوب للأخذ عنه ، واستدعاه الخليفة ، أبويعقوب يوسف ، إلى مراكش ، لسمع بها ، فقصد إليها وأقام بها مدة ، ثم استأذن في العود إلى سبتة وقضى بها بقية حياته . حدث عنه عدد كبير من جلة العلماء من الأندلس والمغرب . وكان مولده بحصن قنجاير على مقربة ألمرية في سنة ٥٠٥ هـ ، وتوفي بسبتة في شهر المحرم ، وقيل في صفر سنة ٥٩١ هـ^(١) .

ومحمد بن عبد الكريم الفندلاوى من أهل مدينة فاس ، ويعرف بابن الكتاني ، كان إماماً في علم الكلام وأصول الفقه ، وعكف على تدريسهما طول حياته ، وكان له معرفة بالآداب ، وله رجز في أصول الفقه ، وروى عنه جماعة من أهل المغرب ، وتوفي سنة ٥٩٦ هـ^(٢) .

وأحمد بن سلمة بن أحمد بن يوسف بن سلمة الأنصاري من أهل لورقة ، وسكن تلمسان ، ويعرف بابن الصيقل . درس الحديث وبرع في صناعته ، وروى عن ابن الدباغ ، وابن بشكوال ، وابن خير ، وابن الجدة ، وغيرهم من الأقطاب ، وكان من أهل الضبط والإتقان . حدث ، وسمع منه الكثير ، وذكر لنا ابن الأبار أن شيخه أبا الربيع بن سالم كبير علماء بلنسية في عصره ، كان يطنب في الثناء عليه . وتوفي في المحرم سنة ٥٩٨ هـ^(٣) .

ومحمد بن أحمد بن عبد الملك بن موسى بن محمد بن مروان بن خطاب ابن عبد الجبار ، ويعرف بابن أبي جرة ، من أهل مرسية . درس الفقه والحديث على أقطاب عصره ، وعنى بالرأى وحفظه ، وولى خطة الشورى ، وهو شاب في الحادية والعشرين أيام إمامة القاضي ابن أبي جعفر ، ثم في ظل إمارة محمد بن سعد ، واستمر فيها وقتاً ، وكان أول من شاوره من القضاة أبو الحسن بن برطلة . ثم ولى قضاء مرسية وبلنسية وشاطبة وأوريولة في أوقات مختلفة . وكان حافظاً متقناً ، وفقهاً بارعاً ، بصيراً بمذهب مالك ، متخصصاً في تدريسه ، عدلاً دقيقاً في

(١) ترجمته في التكملة رقم ٢٠٨٠ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ١٧١٨ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ٢٣٨ .

أحكامه ، فصيحاً ، حسن البيان . ومن مؤلفاته ، كتاب « نتائج الأبيكار ، ومناهج النظر ، في معاني الآثار » ، ألفه بعد سنة ٥٨٠ هـ ، حينما قام الخليفة المنصور بمطاردة أهل الرأي ، وأمر بإحراق المدونة وغيرها ، من كتبه ، وكتاب « إقليد التقليد المؤدى إلى النظر السديد » . وله برنامج عدد فيه الأعلام من علماء أسرته . وقد حمل عليه وعلى أسلافه بعض علماء عصره ، ودافع عنه ابن الأبار ، في ترجمته بالتكملة ، ونوه بفضل بعض الأعلام من سلفه ، تأييداً لدفاعه ، واستشهد كذلك بأقوال بعض شيوخه مثل أبي عمر بن عات ، وأبي سليمان بن حوط الله ، وأبي بكر ابن وضاح وغيرهم . وكانت وفاته بمرسية مصروفاً عن القضاء ، في اليوم الثلاثين من المحرم سنة ٥٩٩ هـ (١) .

ومحمد بن علي بن مروان بن جبل الهمداني ، من أهل وهران ، وأصله أندلسي ، ونشأ بتلمسان ، ودرس بها ، وولى قضاءها ، ثم ولى قضاء الجماعة بمراكش في سنة ٥٨٥ هـ ، بعد أبي جعفر بن مضاء ، ثم نقل إلى قضاء إشبيلية عام ٥٩٢ هـ ، ثم أعيد ثانية إلى قضاء مراكش بعد إقالة أبي القاسم بن بقي ، وكان فقيهاً متمكناً ، حميد السيرة ، شديد الهيبة ، عارفاً بالأحكام ، ميالاً إلى العدل ، وتوفي سنة ٦٠١ هـ . ويقول لنا صاحب التكملة إن أحداً لم يجاد طوال ولايته للقضاء ، مما يدل على أن عقوبة الجلد ، كانت مستعملة في هذا العصر ، للمعاقبة على الذنوب التي يقضي فيها بالتعزير (٢) .

ومحمد بن أبي خالد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن . . بن محمد بن أبي زمنين عدنان بن بشير بن كثير المرتى الإلبيري ، من أهل غرناطة ، كان من ألمع فقهاء عصره ، وأخذ عن أبي مروان بن قزمان ، وأبي الحسن الزهرى ، وأبي القاسم بن بشكوال ، وغيرهم من أقطاب عصره . ولى قضاء غرناطة ، ثم قضاء مالقة ، وكان فوق براعته في الفقه ، محدثاً متقناً ، بارعاً في الرواية ، عارفاً بتاريخ من نزل بالأندلس قديماً من العرب . وحدث عنه جماعة ممن تبوؤوا الطليعة فيما بعد ، ومنهم أبو سليمان بن حوط الله ، وأبو القاسم الملاحى ، وأبو الربيع ابن سالم وغيرهم . توفي مصروفاً عن القضاء في شهر ربيع الأول سنة ٦٠٢ هـ . وكان مولده بغرناطة سنة ٥٣٣ هـ (٣) .

(١) أورد له ابن الأبار ترجمة مطولة في التكملة رقم ١٥١٤ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ١٧١٩ . (٣) ترجمته في التكملة رقم ١٥٣٠ .

ولسحاق بن ابراهيم بن يعمر الجابري ، من مدينة فاس ، ودرس بها ، ودرس كذلك بستة ، ثم رحل إلى الأندلس ، ودرس الفقه بمرسية . وولى قضاء فاس وسبته ، وكان متبحراً في الفقه المالكي ، حافظاً متقناً ، ويقال إنه كان يستظهر المدونة . وولى قضاء بلنسية في أواخر عمره سنة ست وستمائة ، ثم ولى قضاء جيان ، وفقد في موقعة العقاب في شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ (١) .

وأحمد بن علي بن يحيى بن عون الله الأنصارى ، ويعرف بالحصار . أصله من دانية وسكن بلنسية ، ودرس القراءات وبرع فيها ، وتبوأ رياستها في عصره ، ولم يكن أحد يدانيه في صناعته في الضبط والتجويد والإنقان . وكان يقصده الطلاب من كل صوب للأخذ عنه ، ويصفه تلميذه ابن الأبار ، الذي نقل عنه هذه الترجمة ، بأنه كان « آخر المقرئين » بشرق الأندلس . وكانت وفاته ببلنسية في الثالث من شهر صفر سنة ٦٠٩ هـ ، قبل كارثة العقاب بأيام قلائل ، وقد قارب الثمانين من عمره (٢) .

وعبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصارى من أهل مالقة ، ويعرف بابن القرطبي ، لأن أصلهم من قرطبة . ودرس الحديث ، وبرع فيه ، وأخذ عنه جمهرة من أقطاب عصره مثل أبي بكر بن الجدد ، وابن زرقون ، وأبي القاسم بن حبیش ، وأبي عبد الله بن الفخار ، وعنى بالرواية عناية شديدة ، وأكثر من الرحلة في لقاء الشيوخ ، وطلب العلم ، وكان من أشهر أهل عصره في صناعة الحديث ، والتصرف في فنونه ، ولم يكن أحد يدانيه في حفظ التاريخ ، إلا القلائل من أهل عصره ، وكان فوق ذلك له مشاركة طيبة في علم العربية والآداب ، إلا أن شهرته في الحديث كانت هي الغالبة عليه . وقد حدث ودرس وأخذ عنه الكثير ، وألف مجموعة في « تلخيص أسانيد الموطأ » توفي بمالقة في شهر ربيع الآخر سنة ٦١١ هـ (٣) .

وكان من أبرز أقطاب الحديث والفقه في أواخر العصر الموحدى بالأندلس ، الأخوان عبد الله وداود ، إنا حوط الله الأنصارى الحارثي . وأكبرهما عبد الله ، وهو عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمرو بن خلف ابن حوط الله الأنصارى الحارثي ، ولد بأندة من أعمال بلنسية في سنة ٥٤٩ هـ ،

(١) ترجمته في التكملة رقم ٥١٧ . (٢) ترجمته في التكملة رقم ٢٦١ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ٢٠٩٧ .

وهي موطنهم وأصل دارهم ، ودرس ببلنسية ومرسية وقرطبة . وتجول في سائر قواعد الأندلس الأخرى . وبرز في الحديث ، والقراءات ، وأخذ عن جمهرة من أقطاب العصر ، منهم بمرسية أبو القاسم بن حبيش ، وبقرطبة أبو القاسم ابن بشكوال ، وأبو العباس المجريطي ، وأبو اليد بن رشد ، وبإشبيلية أبو بكر ابن الجلد ، وأبو اسحق بن ملكون ، وبمالقة أبو عبد الله بن الفخار وأبو القاسم السهيلي ، وغير هؤلاء . وكان أماما في صناعة الحديث ، متفوقاً في الرواية والضبط ، حافظاً لأسماء الرجال ، متمكناً من التعديل والتجريح ، ولم يكن في وقته أبعد صيتاً منه ، ومن أخيه أبي سليمان في هذا الميدان ، وكان فوق ذلك متفوقاً في علم العربية ، كاتباً بليغاً ، وخطيباً مقتدرًا ، وشاعراً محسناً . استدعاه الخليفة المنصور لتأديب بنيه فحظى لديه ، ونال جاهاً ودنياً عريضة . وتولى في أوقات مختلفة قضاء قرطبة وإشبيلية ومرسية وسبتة وسلا وغيرها ، وألف كتاباً في « تسمية شيوخ البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي والترمذي » ولكنه لم يكمل ، ووضع فهرساً حافلاً لشيوخه . حدث وسمع منه الكثيرون من أعلام عصره . وتوفي بغرناطة ، وهو في طريقه إلى مرسية ، وذلك في الثاني من شهر ربيع الأول سنة ٦١٢ هـ ، ثم نقل إلى مالقة ودفن بها^(١) .

وأما أخوه داود بن سليمان بن داود ، فقد ولد بأندة سنة ٥٦٠ هـ ، ودرس الحديث على أبيه وأخيه كبيره عبد الله ، وبرغ مثله في الحديث ، وطاف بقواعد الأندلس طلباً للعلم ، وأخذ من الجلة أينما حل ، ورحل كذلك إلى سبتة وغيرها من بلاد العدو ، وكان خبيراً بعقد الشروط . وكان ممن أخذ عنهم أبو العباس المجريطي ، وابن بشكوال ، وأبو بكر بن الجلد ، وأبو عبد الله بن زرقون ، وأبو عبد الله بن الفخار ، وأبو العباس بن مضاء ، وابن الفرس ، وأبو بكر بن أبي زمنين وغيرهم وغيرهم . وتولى قضاء سبتة وألمرية والجزيرة الخضراء ، ثم تولى قضاء بلنسية ، ومالقة ، وعرف أينما حل بالعلم والحلم والزاهة ، وكان ورعاً متواضعاً ، لين الجانب ، يشاطر أخاه الشهرة وعلو المكانة . وتوفي بمالقة في سادس ربيع الآخر سنة ٦٢١ هـ ، ودفن بسفح جبل فاره إلى جانب أخيه^(٢) .

ونختم هذا الثبت من علماء الحديث والحفاظ بذكر إمامهم وشيخهم في وقته ، العلامة الحافظ أبو الربيع بن سالم . وهو سليمان بن موسى بن سالم بن حسان

(١) ترجمته في التكملة رقم ٢٠٩٩ . (٢) ترجمته في الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٥١١-٥١٤ .

ابن سليمان الحميري الكلاعي من أهل بلنسية ، وأصله من بعض ثغورها الشرقية . درس القراءات والحديث ، وأخذ وروى عن جماعة كبيرة من شيوخ عصره ، مثل أبي العطاء بن نذير وأبي القاسم بن حبيش وأبي بكر بن الجحد ، وأبي الوليد بن رشد وأبي محمد بن القرس وغيرهم . وبرع في الحديث والفقه والأدب . وكان حسبا يصفه تلميذه ابن الأبار « إماما في صناعة الحديث ، بصيراً ، حافظا حافلا ، عارفا بالجرح والتعديل ، ذا كراً للمواليد والوفيات ، يتقدم أهل زمانه في ذلك وفي حفظ أسماء الرجال ، مع الاستبحار في الأدب والاشتهار في البلاغة ، فرداً في إنشاء الرسائل ، مجيداً في النظم ، خطيباً فصيحاً مفوها » . ويصفه ابن عبد الملك بأنه « بقية الأكابر من أهل العلم بصقع الأندلس الشرقي ، حافظا للحديث مبرزاً في نقده ، ضابطا لأحكام أسانيده ، كاتباً بليغاً شاعراً مجيداً ، خطيباً مصقلاً » . تولى الخطبة بجامع بلنسية غير مرة ، وقدم إلى سماعه الطلاب من كل صوب . وكتب عدة مصنفات في الحديث والسير والآداب ، منها حلية الأمانى في الموافقات العوالى ، وتحفة الرواد في الغوالى البدلية والإسناد ، والمسلسلات من الأحاديث ، وكتاب الاكتفاء في مغازى رسول الله ، ومغازى الثلاثة الخلفاء ، وكتاب حافل في معرفة الصحابة والتابعين لم يكمله ، وبرنامج مروياته ، وجنى الرطب في سنى الخطب ، جمع فيه طائفة كبيرة من خطبه ، ومؤلفات أخرى في الأدب ، ومجموع رسائله ، وغير ذلك ، وجمع شعره في ديوان . ومما يؤثر عنه أنه كان ينحى باللائمة على الإمام الغزالي في اختيار عنوان كتابه « إحياء علوم الدين » ويقول متى ماتت العلوم حتى نقول بإحيائها ، فهي مازالت حية وسوف تبقى كذلك .

وكان فوق علمه الغزير ، مجاهداً من أولى الإقدام والبسالة ، وثبات الجأش . يحضر الغزوات والوقائع ، ويشترك بنفسه في القتال ، ويبلى بالبلاء الحسن ، وكانت آخر وقعة اشترك فيها هى وقعة أنيشة التى اضطربت بين المسلمين والنصارى فى ظاهر بلنسية فى اليوم العشرين من ذى الحجة سنة ٦٣٤ هـ ، ودارت فيها الدائرة على المسلمين ، واستشهد منهم عدد جم بينهم كثير من الفقهاء والعلماء . وكان أبو الربيع فى مقدمة من استشهد وهو يخوض المعركة ، ويحث إخوانه على القتال ، وذلك حسبا سبق أن ذكرناه فى موضعه . وقد رثاه تلميذه ابن الأبار ، ومن سقط معه من علماء بلنسية ، بقصيدته الشهيرة التى مطلعها :

ألمّا بأشلاء العلى والمكارم تقد بأطراف القنا والصوارم

وعوجسا عليها مأرباً وحفاوة مصارع غصت بالطللى والحاجم
وهى فى نحو مائة بيت . وكان مولد أبى الربيع بن سالم فى قرية من قرى مرسية
فى شهر رمضان سنة ٥٦٥ هـ (١) .

ومن الفقهاء الذين نبغوا فى الأصول وعلم الكلام ، محمد بن ابراهيم المهرى
من أهل بجاية ، وأصله من إشبيلية . رحل إلى المشرق ، وأخذ عن جمهرة من
أقطاب المحدثين ، وبرز فى علم الكلام ، وأصول الفقه ، حتى اشتهر بالأصولى ،
وكان علم وقته فى هذا الميدان . وولى قضاء بجاية غير مرة ، وعنى بإصلاح
كتاب «المستصنى» لأبى حامد الغزالى ، ورحل إلى الأندلس ، واتصل بابن رشد وكان
يدرس معه «علوم الأوائل» . ولما امتحن ابن رشد سنة ٥٩٣ هـ ، محتته المشهورة ،
التي سبق ذكرها فى موضعها ، امتحن معه المهرى ، ونفى مثله من قرطبة ، إلى
بعض الجهات ، ثم عفى عنه ، وكف بصره فى أواخر حياته ، وتوفى سنة ٦١٢ هـ (٢) .
ومنهم عبد الله بن باديس بن عبد الله بن باديس اليحصبي من أهل جزيرة
شقر ، نشأ فى بلنسية ، ورحل إلى إشبيلية فأخذ بها عن أقطابها ، ثم عبر البحر
إلى فاس ، وتبحر فى الأصول وعلم الكلام على أشياخها ، ثم عاد إلى بلنسية ،
وتصدر للتدريس بالمسجد الجامع ، ونوטר فى «المستصنى» لأبى حامد الغزالى ،
وكان من أساتذة ابن الأبار ، أخذ عليه وصحبه وقتاً ، وتزهد فى آخر حياته ،
وتوفى فى شعبان سنة ٦٢٢ هـ (٣) .

ومنهم محمد بن محمد بن سعيد . . بن مجاهد الأنصارى من أهل إشبيلية
ويعرف بابن زرقون ، وأصلهم من بطليوس ، أخذ عن أقطاب عصره ، وفى
مقدمتهم أبو بكر بن الجدد ، وأبو جعفر بن مضاء . وكان فقيهاً مالكيًا متبحراً
فى المذهب ، متعصباً له ، وأخذ عنه أهل عصره ، وكان فوق ذلك يشارك فى
الأدب مشاركة طيبة ، وينظم اليسير من الشعر . ومن مؤلفاته «الكتاب المعلى فى
الرد على المحلّى لابن حزم» وكتاب «قطب الشريعة فى الجمع بين الصحيحين»
واختصر كتاب «الأموال» لأبى عبيد ، وغير ذلك . وكانت وفاته بإشبيلية فى
شوال سنة ٦٢١ هـ ، ومولده بها فى سنة ٥٣٩ هـ (٤) .

(١) ترجمته فى التكملة لابن الأبار (الأندلسية) رقم ١٩٩١ ، وفى الذيل والتكملة لابن عبد الملك ،
مخطوط الإسكوريال ١٦٨٢ الفزيرى - لوحة ٢٣ وما بعدها ، وعنوان الدراية ص ١٦٧ - ١٦٩ .
(٢) ترجمته فى التكملة رقم ١٧٢٦ . (٣) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٠٩ .
(٤) ترجمته فى التكملة رقم ١٦١٢ .

وهناك طائفة كبيرة من علماء الدين ، الذين نبغوا في الفقه أو الحديث والقراءات ، ونبغوا في نفس الوقت في الأدب والشعر أو اللغة ، وقد رأينا أن نذكرهم مجتمعين في هذا القسم على النحو الآتي :

كان من هؤلاء عبيد الله بن عمر بن هشام الحضرمي ، أصله من إشبيلية ، ونزح أهله إلى قرطبة ، وبها ولد ونشأ . ودرس القراءات والحديث ، والعربية والآداب ، على أقطاب عصره ، وتحول في حواضر الأندلس في طلب الاستزادة والتمكن . وكان مقرئاً ، نحويًا ، أديبا شاعراً . عبر البحر إلى المغرب ، وتصدر للإقراء وتعليم الآداب والعربية ، وتنقل بين مراكش ومكناسة وتلمسان . ثم قفل إلى الأندلس ، ونزل ألمرية حيناً ، ثم غادرها إلى مرسية وولى الخطبة بجامعها ، وله تصانيف عدة ، منها « كتاب الإفصاح في اختصار المصباح » وكتاب في « شرح مقصورة ابن دريد » . وكان انفصاله عن مرسية في سنة ٥٥٠ هـ ، ولا يعرف كم عاش بعدها . ومولده في سنة ٤٨٩ هـ (١) .

وعبد الله بن محمد عبد الله الصنهاجي المعروف بابن الأشيري ، نسبة إلى أشير من أعمال المغرب الأوسط . درس الحديث والفقه بالأندلس ، وأخذ بها عن أبي بكر بن العربي ، وابن عساكر ، وشريح بن محمد ، وأبي الفضل عياض ، وأبي الوليد بن الدباغ وغيرهم . وكان أديبا ، وكاتباً بليغاً ، كتب لصاحب المغرب (وهو فيما يرجح على بن يوسف) ، فلما توفي استتر وغادر المغرب إلى المشرق وحج ، وجاور حيناً بمكة ، ثم توجه في أواخر حياته إلى حلب ، وحدث بها وهناك توفي في سنة ٥٦١ هـ (٢) .

ومحمد بن عبد الله بن ميمون بن إدريس العبدري ، من أهل قرطبة . درس الفقه والحديث على أقطاب عصره ، مثل ابن عتاب ، وابن رشد ، وابن مغيث ، وابن العربي ، وابن الباذش وغيرهم ، وبرع بنوع خاص في علم اللغة ، وكان مشاركاً في فنون كثيرة ، حافظاً متمكناً ، وشاعراً محسناً . غادر قرطبة أيام الفتنة وعبر البحر إلى المغرب ، ونزل بمراكش ، فاقراها العربية والآداب ، وله شرح مشهور « لجمل الزجاجي » ، ومعشرات في الغزل ، ونظم في الزهد ،

وتوفى بمراكش سنة ٥٦٧ هـ (١) .

ومحمد بن أحمد بن محرز بن عبد الله بن أميه ، من أهل بطليوس ، واستوطن إشبيلية ويعرف بالمتناجشي نسبة إلى حصن متناجش . عنى بالقراءات والفقه والحديث ، ودرس العربية على أبي عبد الله بن أبي العافية وأبي بكر بن القبطورنة وغيرهما ، وكان فقيهاً مشاوياً ، حافظاً ، له حظ من الأدب والكتابة . وقد أخذ عنه عدة من الطلبة مثل ابن خير ، وأبي بكر بن أبي زمنين ، وأبي الخطاب بن واجب وغيرهم ، وتوفى في آخر سنة ٥٦٩ هـ ، ومولده في سنة ٤٧٩ هـ سنة الزلافة (٢) .

ومنهم وهو من أنبغهم ، محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموي ، مولى إبراهيم بن محمد بن يغمور اللمتوني من أهل إشبيلية . ودرس بها وبقرطبة وألمرية وغيرها ، وشغف بالقراءات والحديث والفقه ، وبرع فيها ، وعنى عناية كبيرة بتقيد الرواية والآثار ، وأخذ عن جمهرة كبيرة من أقطاب عصره ، منهم أبو مروان الباجي ، وأبو بكر بن العربي ، وأبو اسحاق بن حبيش ، وأبو القاسم ابن بيق ، وابن مغيث ، وابن أبي الخصال ، وأبو الفضل عياض وغيرهم . وقد اشتهر بالإنقان والضبط ، وكان فوق ذلك أدبياً كبيراً ، بارعاً في اللغة والنحو . وفي أواخر حياته ولي الصلاة بجامع قرطبة وتوفى بها في ربيع الأول سنة ٥٧٥ هـ ، ومولده في سنة ٥٠٢ هـ . وقد اشتهر ابن خير بنوع خاص بفهرسه الجامع الذي ألفه عن شيوخه ، وعن الكتب التي رواها وقرأها ، عنهم ، ومن هذا الثبت الحافل ، نستطيع أن نكون فكرة جامعة عن الكتب الدراسية وكتب النصوص ، التي كانت متداولة بمدارس الأندلس في القرن السادس الهجري (٣) .

ومنهم محمد بن عبيد الله بن أحمد . . بن نصر بن سالم الخشني ، من أهل رندة وسكن مالقة ، ودرس بها ، وبقرطبة ، وبرع في القراءات واللغة والنحو ، وأنفق حياته في إلقاء القرآن وتعليم العربية ، وكان كذلك محدثاً حافظاً ، حدث ، وأخذ عنه الكثيرون . وتوفى بمالقة في سنة ٥٧٦ هـ (٤) .

وعبد الله بن محمد بن عيسى الأنصاري ، ويعرف بابن الماتقي ، لأن أصله

(١) ترجمته في التكملة رقم ١٣٩٥ . (٢) ترجمته في التكملة رقم ١٤٠٠ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ١٤٢٤ . وقد نشر فهرست ابن خير ضمن المكتبة الأندلسية ، وهو يشغل المجلد العاشر منها ، ونشر بعناية الأستاذين كوديرا وخوليان ريبيرا (سنة ١٨٩٣) .

(٤) ترجمته في التكملة رقم ١٤٢٧ .

من مالقة، ودرس بإشبيلية وغيرها ، ثم نرح إلى العدو وسكن مراکش وكان فقيهاً متمكناً ، وخطيباً مفوهاً ، وأديباً كبيراً محسناً ، ندبه الخليفة أبو يعقوب يوسف لرياسة طلبة الحضرة ، ونال في ظل رعايته جاهاً ودنياً عريضة . وتوفي بمراكش في سنة ٥٧٤ هـ ، وعلى قول آخر في سنة ٥٧٣ هـ (١) .

وعبد الله بن يحيى بن عبد الله بن فتوح الحضرمي النحوي من أهل دانية ، ويعرف بابن صاحب الصلاة . درس القراءات والعربية والأدب ، ونرح إلى شاطبة فدرس بها الأدب والنحو زماناً ، وكان أديباً متمكناً ، مبرزاً في صناعة العربية ، استدعاه ابن سعد أمير الشرق إلى بلنسية ، وذلك لتأديب أولاده ، وأخذ عنه كثير من أهل عصره ، ومنهم أعلام مثل أبي الربيع بن سالم ، وكان له كذلك حظ من قرض الشعر . ومن ذلك قوله :

وعجل شيبي أن ذا الفضل مبتلى بدهر غدا ذوالنقص فيه مؤملاً
ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى بها الحر يشقى واللثيم ممولاً
وتوفي ببلنسية في شهر رجب سنة ٥٧٨ هـ ثم حمل إلى بلده دانية ، ودفن بها . ومولده في سنة ٥١٧ هـ (٢) .

وأحمد بن محمد بن مفرج الأموي أصله من سرقسطة ، ونزل مرسية ، ويعرف بالمالقي ، غنى بالقرآن والحديث والعربية وبرع فيها ، وأقرأ القرآن بمرسية ، وحدث وأخذ عنه ، وعلم العربية زماناً ، وتوفي في سنة ٥٨٢ هـ (٣) .

والحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصاري ، من أهل قرطبة ، ونزل مالقة ، درس القراءات والحديث وبرع في الرواية ، وأخذ عن عدة من أقطاب عصره ، ومنهم أبو القاسم بن بشكوال ، أخذ عنه كتاب الصلاة ، وكان متمكناً من العربية ومن علم العروض . وحدث عنه أهل عصره . وتوفي بمالقة في رمضان سنة ٥٨٥ هـ ، ومولده في سنة ٥١٨ هـ (٤) .

ومحمد بن خلف بن محمد بن عبد الله بن صاف النخعي من أهل لإشبيلية . غنى بالقراءات والعربية ، ودرس ببلده لإشبيلية ، ثم رحل إلى جيان ، فدرس على أبي بكر بن مسعود الحشني . واشتهر ببراعته في القراءات والعربية ، وله شرح في أشعار الستة وفي تغلب . وكتاب في ألفات الوصل والقطع ، وشروح

(١) ترجمته في التكملة رقم ٢٠٥٨ . (٢) ترجمته في التكملة رقم ٢٠٦٦ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ٢٢٠ . (٤) ترجمته في التكملة رقم ٦٩٤ .

لآيات من القرآن ، وأجوبة لأهل طنجة في مسائل القراءات والنحو . حدث ، وأخذ عنه جماعة . وتوفي في سنة ٥٨٥ هـ وقيل في ٥٨٦ هـ ، ومولده سنة ٥١٢ هـ^(١) ومحمد بن جعفر بن أحمد بن خلف بن حميد بن مأمون الأموي ، من أهل بلنسية . درس القراءات ياشبيلية وغرناطة على أقطاب عصره ، ورحل إلى جيان فدرس بها العربية والآداب على أبي بكر بن مسعود . ثم رحل إلى ألمرية فدرس على من كان بها من أقطاب العصر . ثم قفل إلى بلده ، وقد ذاع صيته ، واشتهر بغزير علمه ، فأقرأ وحدث وعلم العربية . ثم ندب لقضاء بلنسية فقضى في منصبه عدة أعوام ، واشتهر بنزاهته وعدالته وحسن تصريفه ، وهو في نفس الوقت يقرئ القرآن والعربية ، مع حظ وافر من البلاغة والبيان والبديع . وانتقل إلى مرسية في أواخر حياته ، وتولى بها الصلاة والخطبة ، وتوفي في جمادى الأولى سنة ٥٨٦ هـ ومولده في سنة ٥١٣ هـ^(٢) .

ومحمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد بن عبد البر بن مجاهد الأنصاري ، من أهل إشبيلية ويعرف بابن زرقون . درس على أبيه ، وعلى عدد من الجلة ، مثل أبي محمد ابن عبدون ، وأبي بكر بن القبطورية ، وأبي الفضل عياض ، واختص به ولازمة كثيراً ، وكتب له أيام ولايته لقضاء غرناطة . وكان متمكناً من الحديث والفقه ، مع براعته في الأدب وقرض الشعر . ولى قضاء شلب ، ثم قضاء سيته ، فحمدت سيرته ، واشتهر بكفايته ونزاهته . وله عدة مؤلفات منها كتاب الأنوار ، جمع فيه بين المتنقي والاستذكار ، وجمع أيضاً بين مصنف الترمذى وسنن أبي داود ، وكان الطلاب يرحلون إليه لعلو روايته . وتوفي ياشبيلية في رجب سنة ٥٨٦ هـ . ومولده بشريش سنة ٥١٢ هـ^(٣) .

ومفوز بن طاهر بن حيدرة المعافري ، من أهل شاطبة ، درس القراءات والفقه ، وبرع فيهما ، وكان فقيهاً مشاوراً ، ولى قضاء شاطبة ، زمنا فحمدت سيرته ، وكان فوق ذلك متمكناً من الأدب ، بليغاً حسن البيان ، وله حظ من قرض الشعر ، ومن نظمه :

وأرسلت من دمعني هنالك واديا	وقفت على الوادي المنعم دوحه
فأذكرنا أياما مضت ولياليا	وغنمت به ورق الحمام عشية

(١) ترجمته في التكملة رقم ١٤٦٥ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ١٤٦٧ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ١٤٦٨ .

وتوفى بشاطبة في شعبان سنة ٥٩٠ هـ ، ومولده في سنة ٥١٧ هـ^(١) .
ونجبة بن يحيى بن خلف .. بن نجبة الرعيني من أهل إشبيلية ، درس على أقطاب
عصره مثل أبي مروان الباجي ، وأبي بكر بن العربي ، وأبي بكر بن طاهر ،
وأبي القاسم بن الرماك ، وغيرهم . وكان إماماً في القراءات والعربية ، وقد تصدر
لإقراء القرآن ، وتعليم العربية زماناً ، ثم عبر إلى المغرب ، ونزل بمراكش
استجابة لدعوة الخليفة ، وهناك أقرأ القرآن بالحاضرة الموحدية ، وكان يرافق
حملات الغزو الموحدية . وقد حدث عنه جماعة من الشيوخ ، وتوفى على مقربة
من شريش سنة ٥٩١ هـ ، وهو مرافق لجيش المنصور المتجه إلى الغزو ، وحمل
إلى إشبيلية ودفن بها ، ومولده في سنة ٥٢٠ هـ^(٢) .

وأحمد بن عبد الرحمن بن محمد . ابن مضاء بن مهند بن عمير اللخمي ، من
أهل قرطبة ، وأصله من شذونة ، درس القراءات والحديث والعربية ، وأخذ
عن عدة من الجلة ، مثل ابن أبي الخصال ، وابن مسرة ، وأبي بكر بن مدبر ،
وأبي بكر بن سمجون ، وأخذ العربية بإشبيلية عن أبي القاسم بن الرماك ، وسمع
من أبي بكر بن العربي ، وسمع بالمرية أبا محمد عبد الحق بن عطية ، وأبا الفضل
عياض ، ومال إلى العربية وبرع فيها ، ثم عبر إلى المغرب والتحق بخدمة الخلافة ،
وولى قضاء فاس ، ثم نقل إلى قضاء الجماعة بمراكش . وكان له حظ وافر من
الأدب ، والبيان والشعر ، وله في العربية كتاب سناه « بالمشرق » وكتاب « تنزيه
القرآن عما لا يليق من البيان » . وتوفى بإشبيلية مصرّوفاً عن القضاء في جمادى الأولى
سنة ٥٩٣ هـ ، ومولده بقرطبة سنة ٥١١ هـ^(٣) .

وعبيد الله بن عبد الرحمن . بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان ، من أهل
قرطبة ، واستوطن أشونة من أعمالها . درس الحديث والفقه ، وسمع من عدة
من الأقطاب ، منهم أبوه القاضي أبو مروان ، وأبو جعفر البطروجي ، وأبو إسحق
ابن فرقد ، وغيرهم . وولى القضاء بعدة بلاد من أعمال قرطبة ، وكان فقيهاً
متمكناً بصيراً بالأحكام ، وكان فوق ذلك أديباً محسناً وشاعراً ، من بيت علم
وأدب ونباهة . توفى بأشونة سنة ٥٩٣ هـ ، أو ٥٩٤ هـ^(٤) .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ١٨٧٩ .

(١) ترجمته في التكملة رقم ١٨٤٤ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ٢٣٤ .

(٤) ترجمته في الذيل والتكملة لابن عبد الملك المجلد الأول من مخطوط باريس لوحة ١٧٦٥ ،

وكذلك في التكملة رقم ٢١٨١ .

ومنهم من علماء المغرب عبد الله بن محمد بن عيسى التادلى ، من أهل فاس ، ودخل الأندلس في أواخر العهد المرابطى ، ودرس بإشبيلية ، وسمع من القاضي عياض ، وأجاز له ابن بشكوال ، وتلقى الحديث عن ابن عتاب ، وأبى بجر الأسدى ، وكان فقيهاً متمكناً ، أدبياً محسناً ، وله رسائل وأشعار جيدة ، وولى قضاء بلده فاس في أواخر أيام الخليفة أبى يعقوب يوسف . وحدث عنه جماعة من أقطاب الأندلس ، مثل أبى محمد بن حوطه الله ، وأبى الربيع بن سالم . وتوفى بمكناسة سنة ٥٩٧ هـ . ومولده في سنة ٥١١ هـ (١) .

ومنهم أحمد بن عتيق بن الحسن بن زياد بن فرج ، أصله من ألمرية ، وسكن بلنسية ، ويعرف بالذهبي ، درس القراءات والفقه والآداب والعربية ، ومهر في عدة فنون ، وكان فقيهاً مبرزاً في علم الأصول ، متبحراً في علوم الأوائل ، ماهراً في العربية ، وكان آية في الحفظ والذكاء والفهم ، وحسن الاستنباط ، والغوص على المعاني الدقيقة . حدث وأقرأ العربية ، واستدعاه الخليفة المنصور إلى مراكش فحظى لديه ، وكان من أبرز أعضاء مجلسه العلمى ، وكان يتلقى عليه بعض العلوم النظرية . وقدمه للشورى والفتوى ، فأبدى في هذا الميدان ما يشهد بتمكّنه وغزارة علمه . ولما امتحن ابن رشد وزملاؤه بمحتهم المشهورة في سنة ٥٩١ هـ ، اختفى ابن فرج حيناً خشية توجيه الاتهام إليه ، ثم ظهر وطمأنه المنصور ، وحظى بعد المنصور لدى ولده محمد الناصر ، ونال جاهاً وثراء . وله تأليف ، منها كتاب الإعلام بفوائد مسلم للمهدى الإمام ، وكتاب حسن العبارة في فضل الخلافة والإمارة . وكانت وفاته بتلمسان في شول سنة ٦٠١ هـ ، أثناء مرافقته الجيش الموحدى المتجه إلى إفريقيا (٢) .

والحسن بن على بن خلف الأموى من أهل قرطبة ، وسكن لإشبيلية ، ويعرف بالخطيب ، أخذ عن عدة من أقطاب عصره ، مثل ابن مغيث ، وأبى بكر بن العربى ، وابن مسرة ، وأبى بكر بن مسعود ، وابن أبى الخصال ، وبرع في القراءات والحديث والأدب . وتولى الخطابة ببعض جهات لإشبيلية ، وله عدة مصنفات نفيسة ، منها كتاب روضة الأزهار ، وكتاب فى الأنواء ، وكتاب اللؤلؤ المنظوم فى معرفة الأوقات بالنجوم ، وكتاب روضة الحقيقة فى بدء الحايقة ، وكتاب تهافت

(٢) ترجمته فى التكملة رقم ٢٤٧ هـ .

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٢١٥٥ هـ .

الشعراء وغيرها . توفي بإشبيلية سنة ٦٠٢ هـ ، ومولده بقرطبة سنة ٥١٤هـ^(١) .
 ومحمد بن يوسف بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن أبي زيد ، من أهل
 لرية من عمل بلنسية ، ويعرف بابن عياد . أخذ عن أبيه أبي عمر ، وعدة من
 الأقطاب مثل أبي الحسن بن النعمة ، وأبي عبد الله بن الفرس ، وأبي القاسم
 ابن حبيش ، وغيرهم ، وعنى أشد العناية بالرواية ، وتقييد الآثار والأخبار ،
 والتواريخ . وكان له حظ وافر من الآداب والعربية ، وله مشاركة في النظم ،
 وحدث وأخذ عنه البعض ، وله مجموع في مشيخة أبيه أبي عمر . توفي ببلده
 سنة ٦٠٣ هـ ، ومولده في سنة ٥٤٤ هـ^(٢) .

وموسى بن حسين بن موسى بن عمران القيسى ، الميرتلى ، نزيل إشبيلية ،
 درس القراءات والأدب ، وبرع فيهما ، وصحب أبا عبد الله بن المجاهد ،
 واختص به وسلك طريقته في الزهد والورع والعزلة والعبادة ، وكان في ذلك
 منقطع القرين . وكان يلازم مسجده داخل إشبيلية ، يقرئ ويعلم ، وله حظ
 وافر من قرض الشعر ، ومعظمه في الزهد والتخويف من سطوة الله . توفي في
 أوائل سنة ٦٠٤ هـ ، وقد تجاوز الثمانين . ومن نظمه قوله :

سليخة وحصير	ليبت مثلى كثير
وفيه ، شكراً لربى	خبز وماء نمير
وفوق جسمى ثوب	من الهواء سثير
إن قلت أنى مقل	إنى إذأ لكفور
قررت عينا بعيشى	فدون حالى الأمر ^(٣)

وأحمد بن محمد بن أحمد بن مقدم الرعيني ، من أهل إشبيلية ، أخذ عن ابن
 العربي ، وأبي القاسم بن الرماك ، وأبي الحسن بن عزيمة ، وغيرهم ، ومهر في
 القراءات والأدب ، وكان أديبا حافظا ، يستظهر شعر المعرى المدون بسقط
 الزند ، ولما توجه ابن العربي على رأس وفد إشبيلية إلى مراکش لمقابلة الخليفة
 عبد المؤمن ، صحبه في رحلته ، وحضر وفاته عند عوده بفاس ، وتوفي في أواخر
 سنة ٦٠٤ هـ ، ومولده سنة ٥١٦هـ^(٤) .

وإدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبي من أهل مرسية

(١) ترجمته في التكملة رقم ٦٩٨ . (٢) ترجمته في التكملة رقم ١٥٣٣ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ١٧٣١ . (٤) ترجمته في التكملة رقم ٢٠٥٢ .

درس الحديث والفقه والأدب ، وكان في مقدمة من أخذ عنهم أبو العباس بن الحلال صاحب الأحكام بمروية ، وكان ماهراً في شئون الوثائق والعقود ، وولى قضاء شاطبة ، ثم ولى الخطابة والصلاة بجامعها ، وكانت له مشاركة طيبة في الأدب وله موجز في السيرة لابن إسحاق سماه « بالإشراق » وتوفي في سنة ٦٠٦ هـ (١) .

وأحمد بن عبد الودود بن عبد الرحمن . . بن صالح الهلالي ، من أهل غرناطة وسكن المنكب حيناً . ويعرف بابن سمجون . أخذ عن أبيه أبي محمد ، وعدة من أقطاب عصره . وبرع في الحديث والفقه ، وولى قضاء المنكب ، ثم تولى الخطبة ، بجامع قرطبة وقتاً . وكان فوق ذلك أديباً محسناً في النثر والنظم ، حدث وأخذ عنه بعض الشيوخ الجلة . وتوفي بغرناطة ، في أوائل سنة ٦٠٨ هـ ، ومولده في سنة ٥٢٨ هـ (٢) .

ومحمد بن أيوب بن محمد بن وهب . . بن نوح الغافقي من أهل بلنسية ، ودار سلفه بسرقسطة . وكان من أشهر وأنيع الفقهاء الذين جمعوا بين الفقه والأدب في تلك الفترة . درس القراءات والفقه والأدب ، وأخذ عن عدة من الأقطاب ، واستظهر المدونة ، وأخذ العربية والآداب عن ابن النعمة . ولى خطة الشورى ببلنسية في حياة شيوخه ، وتفوق عليهم في الحفظ والتحصيل ، ولم يكن في وقته بشرق الأندلس ، أغزر منه علماً وتبحراً ، وانتهت إليه الرياسة يومئذ في عقد الشروط والفتيا . وكان فوق براعته في الفقه والقراءات والتفسير ، أديباً متمكناً ، ماهراً في الغريب من اللغة ، حافظاً للأنساب والأخبار ، متقناً لما استغلق من معاني الأشعار الجاهلية والإسلامية ، مشاركاً في فنون كثيرة أخرى . وولى بعد الشورى ، قضاء بعض الكور ببلنسية ، وخطب بجامعها وقتاً . وكان له حظ متوسط من النظم . أسمع الحديث ودرس الفقه وعلوم العربية والآداب وأخذ عنه كثير من الناس ، وسمع منه جلة من الشيوخ ، ودرس عليه ابن الأبار ، وهو يقول لنا إنه كان « أغزر من لقيت علماً ، وأبعدهم صيتاً » . توفي في شوال سنة ٦٠٨ هـ ، ومولده سنة ٥٣٠ هـ (٣) .

ومنهم ، ومن أشهرهم ، أبو عمر أحمد بن هارون بن أحمد بن جعفر بن عات النفزي ، من أهل شاطبة ، أخذ عن أبيه وغيره من شيوخ وقته ، ورحل إلى

(١) ترجمته في التكملة رقم ٥٢١ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ٢٥٩ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ١٥٥٦ .

المشرق ، فأدى فريضة الحج ، وسمع بمصر أبا طاهر السلفي ، وغيره من الأقطاب وكان آية في الحفظ ، يسرد المتون والأسانيد ظاهراً ، ولا يخل بشيء منها ، مع مشاركة طيبة في النظم والنثر ، وكان موصوفاً بالبراية والرواية ، يغلب عليه الزهد والورع ، حدث عنه بعض الشيوخ الجلة ، وكان من العلماء المرافقين للجيش الموحدى في موقعة العقاب ، وفيها لقي حتفه ، وذلك يوم الاثنين منتصف صفر سنة ٦٠٩ هـ ، ومولده سنة ٥٤٢ هـ (١) .

وحيان بن عبد الله بن محمد بن هشام . . بن حيان الأنصارى الأوسى من أهل بلنسية ، وأصلهم من أروش من عمل قرطبة ، درس القراءات والنحو ، وأقرأ وقتاً بجامع بلنسية ، وكان نحويًا بارعاً ، متقناً لكتاب سيدييه ، لغويًا ، أديباً شاعراً ماهراً في الكتابة ، يميل إلى استعمال العويص من اللغة ، وكان من أساتذة ابن الأبار وتوفى سنة ٦٠٩ هـ (٢) .

ومحمد بن أحمد بن خلف بن عياش الأنصارى الخزرجى ، من أهل قرطبة ، ويعرف بالشنتيلى ، درس على أبى القاسم بن بشكوال ، وأبى القاسم بن غالب الشراط ، وأبى إسحاق بن طلحة ، وأبى الحسن بن بقى ، وأبى بكر بن خير ، وأبى القاسم السبلى وغيرهم ، وبرع في علم القراءات ، والحديث والفقه ، والنحو ، وكانت له كذلك مشاركة في الفرائض والحساب ، تولى الصلاة بجامع قرطبة نحواً من ثلاثين سنة ، وأقرأ به القرآن ، وحدث زمناً ، وأخذ عنه عدد من الشيوخ ، وكان من أهل العلم والعمل ، والصلاح والتواضع ، توفى في شعبان سنة ٦٠٩ هـ . ومولده في سنة ٥٣٢ هـ (٣) .

وأحمد بن محمد بن إبراهيم بن يحيى بن إبراهيم بن خلصة الحميرى ، من أهل قرطبة ، درس القراءات والعربية والآداب واللغة ، وبرع فيها ، وعين خطيباً للجامع الأعظم ، وتصدر للأقراء به مدة طويلة ، وعكف بالأخص على تدريس علوم اللغة ، وكان متمكناً منها متفوقاً فيها ، وكان له حظ من قرض الشعر . لبث دهرًا يدرس علوم اللسان بجامع قرطبة ، وتولى به الخطبة نحو ثلاثة أعوام وكانت وفاته وهو قائم يخطب فوق منبر الجامع الأعظم ، وذلك في شهر صفر

(١) ترجمته في التكملة رقم ٢٦٢ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ٧٧٤ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ١٥٦٠ .

سنة ٦١٠ هـ ، ومولده في سنة ٥٢٤ هـ (١) .

ومحمد بن محمد بن سليمان بن محمد بن عبد العزيز الأنصارى النحوى ، من أهل بلنسية ، وأصله من سرقسطة . عني بالحديث والرواية ، وبرع في علم اللسان والعربية ، وكان من شيوخه عدة من الجلة مثل أبي الخطاب بن واجب ، وأبي عمر ابن عات ، وأبي بكر عتيق بن على . وكان غزير العلم والمعرفة ، حافظاً متمكناً ، متفوقاً في صناعة العربية عاكفاً على إقرائها وتعليمها ، وكان فوق ذلك شاعراً مجيداً ، حسن التصرف والذوق . وكانت وفاته في ربيع الأول سنة ٦١٠ هـ ، ومولده في سنة ٥٦٣ هـ (٢) .

وعبد الله بن عمرو بن محمد بن يوسف الخزرجي من أهل قرطبة ، ونشأ بتلمسان ، درس القراءات والعربية ، وكان أديباً كاتباً بليغاً ، نزح إلى قرطبة ، وعاش بها ، وخدم بعض ولاتها الموحدين بالكتابة عنهم . ثم ولى القضاء وظهر بكفايته ونزاهته . وتوفي بقرطبة في رمضان سنة ٦١٣ هـ ، وقد نيف على السبعين (٣) .
ومحمد بن أحمد بن عبد العزيز بن سعادة من أهل شاطبة ، درس القراءات والحديث ، وأخذ عن أبي الحسن بن هذيل ، وأبي بكر بن سيدبونه ، وأخذ العربية والآداب عن أبي الحسن بن النعمة ، وغيره من أقطاب العصر . وكان مقرئاً بارعاً ، ونحويّاً متمكناً ، ولغويّاً محققاً . وقد أخذ عنه ابن الأبار وجماعة من أصحابه . وتوفي سنة ٦١٤ هـ (٤) .

وإبراهيم بن على بن إبراهيم . . بن أغلب الحولاني ، من أهل إسطبة من عمل قرطبة ، يعرف بالزواني ، درس بأشونة على أبي مروان بن قزمان ، وبإشبيلية على ابن فرقد ، وأخذ كذلك عن ابن النعمة ، وابن سعادة ، وأبي الحسن الزهرى ، وغيرهم . وتجول في مختلف البلاد في طلب العلم ، وعنى بالأخص بالآداب واشتهر ببراعته فيها . وولى قضاء ألس من أعمال مرسية ، وحدث وأخذ عنه . وكانت وفاته بمراكش في آخر سنة ٦١٦ هـ ، ومولده في سنة ٥٤٠ هـ (٥) .
ومحمد بن طلحة بن محمد بن عبد الملك . . بن حزم الأموى النحوى ، سكن إشبيلية ، وأصلهم من يابرة من أعمال الغرب (البرتغال) ، عني بالقراءات

(١) ترجمته في الذيل والتكلة (مخطوط خزانة الرباط المصور) ج ١ لوحة ١٣٤ وفي تكلة ابن الأبار رقم ٢٦٣ .

(٢) ترجمته في التكلة رقم ١٥٦٢ . (٣) ترجمته في التكلة رقم ٢١٠٠ .

(٤) ترجمته في التكلة رقم ١٥٧٩ . (٥) ترجمته في التكلة رقم ٤٣٥ .

والعربية ، وأخذ عن أبي بكر بن صاف ، وأبي اسحاق بن ملكون ، وأبي بكر ابن الجحد ، وأبي زيد السهلي ، وغلب عليه التخصص في العربية ، والتمكن منها ، والتحقيق من غوامضها ، فعكف على تعليمها ، واعتبر في هذا الميدان أستاذ إشبيلية الذي لا يبارى ، وقد انتفع به عدد من الشيوخ اللاحقين ، مثل أبي علي الشلوبين وغيره ، وغلب عليه في أواخر حياته حب العزلة ، فاعتكف عن الناس ، وتوفي في صفر سنة ٦١٨ هـ . ومولده بياطرة في سنة ٥٤٥ هـ (١) .

وسامان بن حكيم بن محمد بن أحمد بن علي الغافقي من أهل قرطبة ، درس القرآن والحديث واللغة ، وأخذ عن جمهرة من أقطاب عصره ، منهم ابن الفخار ، وأبو عمر بن عات ، وأبو القاسم بن بشكوال ، وأبو جعفر بن يحيى وغيرهم . امتن عقد الشروط بقرطبة مدة ، وكان متقناً مبرزاً في العدالة والضبط ، عارفاً بالأحكام ، أديباً كاتباً وشاعراً مبرزاً في النظم ، وضع أرجوزة جيدة في الفقه . وله غير ذلك من النظم . ولد بقرطبة سنة ٥٤٦ هـ ، وتوفي بها في ربيع الآخر سنة ٦١٨ هـ (٢) .

وأحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عبد المؤمن القيسي ، من أهل شريش . درس الحديث والعربية على شيوخ عصره . وعكف زمناً على تدريس اللغة . وله في هذا الميدان عدة مصنفات نفيسة ، منها شرح الإيضاح للفارسي ، والمجمل للزجاجي ، وله تأليف في العروض ، ومجموع في مشاهير قصائد العرب ، ومختصر لنوادر أبي علي القالي ، ولكنه اشتهر بنوع خاص بشرحه لمقامات الحريري . وله في ذلك ثلاث نسخ ، كبرى ، ووسطى ، وصغرى . وأخذ عنه عدد من أقطاب العصر ، ومنهم ابن الأبار حسبما يحدثننا في ترجمته . وقد نشرت شروحه على هامش المقامات مراراً ، وما تزال هي عمدتنا في فهم غوامضها . وكانت وفاته ببلدته شريش سنة ٦١٩ هـ (٣) .

وعبد الله بن أبي بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعي ، وهو والد ابن الأبار صاحب التكملة ، أصله من أندة وسكن بلنسية ، درس القراءات والأدب ، وكان حسباً بصفه لنا ولده ، « مقدما في حملة القرآن ،

(١) ترجمته في التكملة رقم ١٥٩٥ .

(٢) ترجمته في الذيل والتكملة (مخطوط الإسكوديال ١٦٨٢ الفزيري) .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ٢٨١ ، وفي نفح الطيب ج ١ ص ٣٧٦ .

كثير التلاوة له ، والتهجد به ، ذاكرًا للقراءات ، مشاركًا في حفظ المسائل ، أخذًا فيما يستحسن من الأدب معدلاً عند الحكام . وقد كان أول أساتذة ابنه في القراءات والأدب ، وقد اطلع على جميع كتبه ، وشاركه في الأخذ عن معظم شيوخه ، وتوفي بأندة في ربيع الأول سنة ٦١٩ هـ ، وولده المؤرخ يومئذ ببطليوس ، ومولده بأندة سنة ٥٧١ هـ^(١) .

- ٣ -

وظهرت من هذه الطبقة التي تجمع بين علوم الدين ، وبين اللغة أو الأدب أو الشعر ، إلى جانب من تقدم ذكرهم ، جمهرة كبيرة أخرى ، ممن نبغوا في أواخر العصر الموحدى ، وفي خلال عهد الفتنة والانحيار بالأندلس نذكرهم فيما يلي : كان من هؤلاء عبد الله بن حامد بن يحيى بن سليمان بن أبي حامد المعافى من أهل مرسية ، درس الحديث على أبي القاسم بن حبيش ، وأبي محمد بن حوط الله وغيرهما من أعلام عصره ، ثم درس العربية وبرع فيها ، وصحب الأديب الكبير أبا بحر صفوان بن إدريس ، وغيره . وكان له حظ من قرض الشعر ، والبراعة في الكتابة ، وكان في وقته من رؤساء مرسية وأعيانها . وكانت وفاته في سنة ٦٢١ هـ^(٢) .

ومحمد بن مخلف بن أحمد بن تنفليت الخنفسى الفازازى التلمسانى ، نزع من المغرب إلى الأندلس ، ودرس على عدة من الأعلام ، وكان فقيهاً متمكناً ، وأديباً مبرزاً ، وكاتباً بليغاً ، وشاعراً محسناً ، ولى قضاء مرسية ثم قضاء قرطبة ، وقيل إنه كان يحفظ صحيح البخارى أو معظمه . وتوفى بقرطبة سنة ٦٢١ هـ^(٣) . وأحمد بن يزيد بن عبد الرحمن . . بن بى بن مخلد بن يزيد الأموى ، من أهل قرطبة ، ومن أعرق بيوتاتها في العلم والنباهة ، درس على جمهرة من أقطاب عصره ومنهم ابن بشكوال ، وابن مضاء ، وابن فرقد وغيرهم ، وبرع في الفقه والحديث والأدب . وتولى قضاء الجماعة بمراكش حيناً ، وكذلك خطى المظالم والكتابة العليا . وكان من أعلم رجالات عصره ، وأوفرهم سراوة وجلالا . وعاش بمراكش معظم حياته ، ثم غادرها إلى الأندلس وولى قضاء قرطبة قبل وفاته ببسيرة . وكان فوق تضلعه في الفقه أديباً كبيراً ، وشاعراً مجيداً . وتوفى بقرطبة في شهر رمضان

(١) ترجمته في التكملة رقم ٢١٠٥ . (٢) ترجمته في التكملة رقم ٢١٠٧ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ١٦١٦ .

سنة ٦٢٥ هـ ، ومولده في سنة ٥٣٧ هـ (١) .

واسماعيل بن أحمد بن عبد الرحمن الأنصارى من أهل إشبيلية ، ويعرف بابن السراج ، درس القراءات والحديث ، ودرس العربية على أبي اسحاق بن ملكون أستاذ عصره في ذلك الميدان ، وولى قضاء بعض الكور ، وكان عاكفا على عقد الشروط خبيراً بصناعتها . وتوفي بإشبيلية في حدود سنة ٦٢٥ هـ (٢) .

وإبراهيم بن عيسى بن محمد بن أصبع الأزدرى من أهل قرطبة . درس الحديث والفقه ، وأخذ العربية عن أبي ذر الحشنى ، وبرع فيها وفي النحو ، وولى قضاء دانية ، ثم صرف عنه لما اضطرت الفتنة ببلنسية في سنة ٦٢١ ، وسبق إلى بلنسية ، واعتقل بها وقتاً ، ثم أطلق سراحه ، فعبر البحر إلى مراکش . وله مؤلف حسن في « مسائل الخلاف بين النحويين » ، وولى في أواخر حياته قضاء سجلماسة ، وتوفي بها سنة ٦٢٧ هـ (٣) .

وثابت بن محمد بن يوسف بن خيار الكلاعى من أهل لبلة بغرب الأندلس ونزل جيان ، ثم سكن غرناطة . درس القراءات والحديث والفقه ، وسمع بقرطبة ، وإشبيلية ، ووادي آش وغيرها ، وأخذ عن عدة من الأقطاب مثل أبي القاسم بن بشكوال ، وأبي بكر بن بيش ، وأبي بكر بن خطاب ، وأبي الحسن بن كوثر . ودرس العربية والنحو وبرع فيهما . وقرأ القرآن والعربية بجيان وغرناطة ، وبها توفي سنة ٦٢٨ هـ (٤) .

وأحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد الأزدرى ، من أهل لقنت من أعمال مرسية ، غنى بالقراءات والفقه وولى القضاء بجزيرة شقر ، ثم ولى قضاء دانية ، وكان فوق ذلك أديباً ، متحققاً من العربية . وتوفي في ربيع الأول سنة ٦٢٩ هـ (٥) .

ومحمد بن جابر بن علي بن سعيد الأنصارى من أهل إشبيلية ، ويعرف بالسقطى . درس القرآن والحديث وأخذ في ذلك عن نجدة بن يحيى ، وأبي الوليد بن نام ، وأبي ذر الحشنى وغيرهم ، ودرس العربية والأدب ، وكان من أهل العناية بالرواية ولقاء الرجال ، رحل إلى شرق الأندلس ، وأخذ عن أبي الخطاب بن واجب وغيره ببلنسية . وكان يقرئ القرآن والعربية ، وقد حدث عنه . وتوفي بعد سنة ٦٣٠ هـ (٦) .

(١) ترجمته في التكملة رقم ٢٩٢ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ٤٤٠ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ٢٩٧ .

(٤) ترجمته في التكملة رقم ٤٩٥ .

(٥) ترجمته في التكملة رقم ٦٢٦ .

(٦) ترجمته في التكملة رقم ١٦٤٦ .

وأحمد بن مليك بن غالب بن سعيد بن عبد الرحمن النعجبي من أهل أبتدة ويعرف بابن السقاء . درس القراءات والحديث ، وأخذ عن جهمرة من أقطاب عصره مثل أبي محمد بن غلبون ، وأبي الخطاب بن واجب ، وابن عات ، وابن بقر وغيرهم ، وأخذ العربية واللغات عن أبي عبد الله بن يربوع وبرع فيها ، وتصدر ببلده للإقراء والتدريس . ولما استولى القشتاليون على أبتدة ، غادرها إلى غرناطة واستوطنها ، وتوفي بها بعد سنة ٦٣٠ هـ (١) .

وبسام بن أحمد بن حبيب . . بن شاعر الغافقي ، من أهل جيان ، وسكن مالقة ، أخذ الحديث والفقه عن جماعة من الأقطاب مثل أبي عبد الله بن الفخار ، وأبي جعفر بن مضاء ، وأبي القاسم بن بشكوال وغيرهم ، ودرس العربية والأدب ، وولى قضاء ثغر المنكب وغيره ، وكان له أيضاً حظ من قرص الشعر . توفي بمالقة في شعبان سنة ٦٣١ هـ ، ومولده في سنة ٥٥٧ هـ (٢) .

ومن هؤلاء الذين جمعوا بين علوم الدين واللغة والأدب والشعر أحياناً ، جهمرة أخرى ، ظهرت وقت انهيار سلطان الموحدين ، ثم انهيار الأندلس الكبرى ، وسقوط قواعدها ، نذكرهم فيما يلي :

كان من هؤلاء المتأخرين ، عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي يحيى بن مطروح النعجبي من أهل بلنسية ، وأصله من سرقسطة . درس القراءات والفقه والعربية والآداب ، وكان من أساتذته أقطاب مثل أبي عبد الله بن نوح ، وأبي ذر الخشني ، وأبي الخطاب بن واجب ، ، وأبي محمد بن حوط الله وغيرهم . وكان فقيهاً متمكناً عارفاً بالأحكام ، من أهل الشورى والفتيا . ولى القضاء بعدة كور من بلنسية ، ثم ولى قضاء دانية ، وكان فوق ذلك أديباً شاعراً ، راوية . وكانت وفاته ببلنسية ، أثناء حصار النصراني لها ، في شهر ذي القعدة سنة ٦٣٥ هـ ومولده سنة ٥٧٤ هـ (٣) .

ومحمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الجليل . . بن غالب بن حمدون الأنصاري الخزرجي ، من أهل ألس من عمل بلنسية . أخذ بمرسية وشاطبة عن أقطاب الشرق ، مثل أبي الخطاب بن واجب ، وأبي عمر بن عات ، وأقطاب الغرب مثل أبي القاسم ابن بقر ، وأبي سليمان بن حوط الله ، وأبي القاسم الملاحى ، وغيرهم ، وعنى

(٢) ترجمته في التكملة رقم ٦٠٦ .

(١) ترجمته في التكملة رقم ٣٠١ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ٢١١٧ .

بالحديث والفقه أتم عناية ، وكان له حظ من الأدب واللغة . ولى قضاء ألمرية ، وتوفى بغرناطة في شهر صفر سنة ٦٣٦ هـ^(١) .

ومحمد بن علي بن خضر بن هارون الغساني ، من أهل مالقة ، يعرف بابن عسكر ، كان في مقدمة أعلام عصره في الفقه واللغة والأدب ، فكان فقيهاً متمكناً ، ماهراً في عقد الشروط ، وكان حافظاً للغة ، أدبياً ، وكاتباً بليغاً ، وله كذلك حظ من قرض الشعر . ولى قضاء بلده مالقة مرتين . وكتب عدة كتب قيمة في اللغة والأدب منها كتاب « المشرع المروى في الزيادة على غريبى الهروى » وكتاب « نزهة الناظر في مناقب عمار بن ياسر » وكتاب « الجزء المختصر في السلو عن ذهاب البصر » . وله رسالة في الزهد عنوانها « ادخار الصبر في افتخار القصر والقبر » . وتوفى وهو يتولى قضاء مالقة في جمادى الآخرة سنة ٦٣٦ هـ . ومولده في نحو سنة ٥٨٤ هـ^(٢) .

وابراهيم بن محمد بن ابراهيم ، من أهل بطليوس ، ونزح إلى إشبيلية ، ويعرف بالأعلم . درس القرآن والحديث والعربية ، وبرع فيها ، وتصدر لإقراءها . وله شروح قيمة في كتب الإيضاح والحمل ، والكمال ، والأمالى ، وغيرها . وألف أيضاً كتاباً في « آداب أهل بطليوس » . وتوفى في سنة ٦٣٧ هـ^(٣) .

واسماعيل بن سعد السعود بن أحمد بن هشام . . بن عفير الأموى ، من أهل لبلة ، وسكن إشبيلية ، وينتسب إلى موالى بنى أمية ، غنى بالحديث والفقه ودرس بقرطبة ، وأخذ بها عن أبي بكر بن خير ، وابن بشكوال ، وابن فرقد ، وغيرهم ، وكان فقيهاً متمكناً ، ولى قضاء مراکش أيام الفتنة . ثم صرف عنه وعاد إلى إشبيلية . وكان في نفس الوقت أدبياً بارعاً ، وتوفى سنة ٦٣٧ هـ^(٤) .

ومحمد بن اسماعيل بن محمد بن اسماعيل بن خميس الجمحى ، من أهل قسنطينة من عمل دانية ، درس الحديث والفقه ، وصحب أنى عبد الله بن نوح ولازمه ، وكتب للقضاة ، ثم ولى قضاء بلنسية أيام الفتنة . وكان فوق براعته في الفقه ، أدبياً متمكناً له حظ من قرض الشعر ، بصيراً في الأحكام وعقد الشروط ، ثم غادر بلنسية مصروفاً عن القضاء ، وقدم إلى قضاء شاطبة . وكان من أساتذة ابن الأبار . وتوفى بشاطبة في صفر سنة ٦٣٩ هـ^(٥) .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ١٦٦١ .

(٤) ترجمته في التكملة رقم ٤٩٦ .

(١) ترجمته في التكملة رقم ١٦٦٠ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ٤٤٧ .

(٥) ترجمته في التكملة رقم ١٦٣٨ .

وسهل بن محمد سهل بن ملك الأزدرى من أهل غرناطة . أخذ ببلده عن أبي عبد الله بن عروس ، وأبي الحسن بن كوثر ، وعبد المنعم بن الفرس ، وأخذ بمالقة عن أبي عبد الله بن الفخار ، وبإشيلية عن أبي بكر بن الجحد وأبي عبد الله بن زرقون وأبي العباس بن مضاء وأبي الوليد بن رشد ، وأخذ عن غيرهم من أقطاب العصر . وبرع في الفقه والأصول والعربية ، وكان كاتباً مقتدرًا وشاعراً محسناً . نفي من وطنه غرناطة إلى مرسية بسعى بعض خصومه ، وبقي بها حتى توفي المتوكل ابن هود بالمرية في سنة ٦٣٥ هـ ، فعندئذ سرح إلى بلده . وقد صدر عنه كثير من النثر والنظم الجيد ، وصنف في العربية كتاباً رتب الكلام فيه على أبواب كتاب سيويه . ولد سنة ٥٥٩ هـ ، وتوفي بغرناطة سنة ٦٣٩ هـ (١) .

ومحمد بن عبد الله بن عمر بن علي بن اسماعيل بن عمر الأنصاري الأوسى الضير ، من أهل قرطبة ، ويعرف بابن الصفار . أخذ عن أبي القاسم بن بشكوال ، وأبي بكر ابن الجحد ، وأبي عبد الله بن زرقون ، وابن مضاء ، وأبي ذر الخشني ، وغيرهم من أعلام العصر ، وبرع في القراءات والحديث . ورحل إلى المشرق وأخذ عن بعض أقطابه ، ثم عاد إلى المغرب ، وسكن مراكش ، وكان يقرئ العربية والآداب ، ويسمع الحديث ، واستقر أخيراً بمدينة تونس ، وبها توفي سنة ٦٣٩ هـ (٢) .

وعلى بن إبراهيم بن علي بن عبد الرحمن المعروف بابن الفخار من أهل أركش ، درس الحديث والفقه على جماعة من أهل عصره مثل ابن الغزال وابن زرقون وغيرهما ، وكان حافظاً متقناً ، ذا كراً لأسماء الرجال وأحوالهم ، بارعاً في الفقه والأدب ، وكان على قول ابن عبد الملك « أعجوبة زمانه في حضور الذكر لذلك كله » ، وكان مشاركاً في النظم . تولى القضاء برندة والجزيرة الخضراء وغيرهما ، وتوفي بشريش في صفر سنة ٦٤٢ هـ (٣) .

وأحمد بن محمد بن القيسي من أهل قرطبة ، ويعرف بابن أبي حجة . أخذ عن أقطاب عصره ، وفي مقدمتهم ابن بشكوال ، وابن مضاء ، وأبي العباس المبريطي ، وبرع في علوم القرآن والعربية ، وتصدر لأقربائها . وله عدة تأليف ، منها كتاب منهاج العبادة ، وكتاب تفهيم القلوب في آيات علام الغيوب ، وكتاب

(١) ترجمة في الذيل والتكلمة (مخطوط الإسكوريال ١٦٨٢ الغزيري) .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ١٦٦٨ .

(٣) ترجمته في الذيل والتكملة (السفر الرابع من مخطوط المتحف للبريطاني) .

تسديد اللسان لذكر أنواع البيان ، وغيرها . ولما سقطت قرطبة في أيدي النصارى غادرها إلى إشبيلية ، وسكن بها حيناً ، ثم غادرها متجهاً إلى ميورقة ، وأسرتة الروم في البحر ، وامتنحن بالتعذيب ، وتوفي على أثر ذلك بميورقة في سنة ٦٤٣ هـ^(١).

وأحمد بن محمد بن وهب البكرى من أهل شاطبة ، أخذ عن ابن نوح وابن عات وغيرهما ، وبرع في الفقه والعربية ، ومهر في عقد الشروط . وغادر شاطبة عند إجلاء النصارى لأهلها المسلمين ، وذلك في سنة ٦٤٥ هـ ، وقصد إلى أوريولة ، وهناك توفي في أواخر هذا العام^(٢).

وأحمد بن علي بن أحمد . . بن عبد الله الأنصارى من أهل قرطبة ، درس الفقه والأدب بقرطبة وإشبيلية وجيان ، وولى الأحكام ببعض الكور ، وغنى بعقد الشروط ، وكتب لموالى قرطبة وقتنا . ولما سقطت قرطبة في أيدي النصارى غادرها ، وعبر البحر إلى تونس ، ونزل بها . وكان يقرئ بها اللغة والأدب ، ومن أخذ عنه بها ابن الأبار ، وكان قد استقر بها كذلك . ثم قصد إلى المشرق لتأدية فريضة الحج ، ولكنه توفي بقوص وذلك في رجب سنة ٦٤٦ هـ^(٣).

وعبد الله بن قاسم بن عبد الله بن محمد بن خلف اللخمي من أهل إشبيلية ويعرف بالحرار وبالحريري . أخذ عن أبي الحسن الشقورى ، وأبي محمد بن حوط الله وأبي القاسم الملاحى ، وابن زرقون ، وابن عات ، وغيرهم من الأقطاب . وبرع في الحديث ، والأدب ، وقرض الشعر . وله عدة مؤلفات منها ، « حديقة الأنوار » وهو في تذييل « اقتباس الأنوار » في الأنساب للرشاطى ، وكتاب « المنهج الرضى » في الجمع بين كتابي ابن بشكوال وابن الفرضى . وكانت وفاته بإشبيلية خلال حصار النصارى لها في أوائل سنة ٦٤٦ هـ ، ومولده بجزيرة شقر ، بلد أسلافه في سنة ٥٩١ هـ^(٤).

ومحمد بن محمد بن أحمد . . بن سليمان الزهرى ، من أهل بلنسية ، ويعرف بابن محرز ، درس على جماعة من أقطاب الشرق ، مثل أبي عبد الله بن نوح ، وأبي بكر بن جرة ، وأبي العطاء بن نذير ، وغيرهم ، وكان متمكناً من الحديث والفقه والأدب واللغة وحفظ الغريب ، وله شعر رائق . ولما استولى النصارى على بلنسية ، عبر البحر إلى إفريقية ، ونزل ببجاية ، واستوطنها وأخذ يقرئ بها

(٢) ترجمته في التكملة رقم ٣١٠ .

(١) ترجمته في التكملة رقم ٣٠٧ .

(٤) ترجمته في التكملة رقم ٢١٢١ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ٣١٢ .

الحديث والفقه واللغة . وكانت له بين علمائها مكانة رفيعة ، وبها توفي في سنة ٦٥٥ هـ . ومولده سنة ٥٦٩ هـ (١) .

ومحمد بن ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن المفرح الأوسى المعروف بابن الدباغ الإشبيلي ، برع في الفقه ، وكان أوحده عصره في حفظ مذهب مالك ، وفي عقد الوثائق ، وكان في الوقت نفسه ، عارفاً بالنحو واللغة ، أدبياً بارعاً ، مشاركاً في النظم والتاريخ . انتقل إلى غرناطة ولبث يقرئ بجامعة حينما ، وتوفي في سنة ٦٦٨ هـ (٢) .

* * *

وازدهرت في هذا العصر ، الذي توالى فيه الخن على الأندلس ، ومالت شمسها إلى الغروب ، حركة التصوف ، وظهر عدة من أكابر المتصوفة نذكرهم فيما يلي :
كان من هؤلاء أحمد بن عمر المعافري من أهل مرسية ، وأصله من طيبة من ولاية الغرب ، ويعرف بابن إفرندو ، أخذ عن أبي علي بن سكرة ، وأبي بكر بن العربي ، وأبي محمد الرشاطي وغيرهم ، ورحل إلى المشرق ، وأخذ عن بعض أقطابه ، ومنهم بعض أصحاب الإمام الغزالي . وكان محدثاً حافظاً ، ومال إلى الزهد والتصرف ، وأخذ عنه بعض أعلام العصر ، مثل أبي الخطاب بن واجب وغيره . ولم نقف على تاريخ وفاته (٣)

ومنهم ابراهيم بن محمد بن خلف بن سوار بن أحمد بن حزب الله ، بن أبي العباس بن مرداس السلمي من أهل بلفيق من أعمال ألمرية ، وبها ولد ونشأ ، ويعرف بابن الحاج . درس القراءات والحديث ، وأخذ في ذلك عن أبي محمد البسطي الخطيب ، وابن كوثر ، وابن عروس ، وابن أبي زمنين وغيرهم . وكان فوق براعته في علوم السنة ، مشاركاً في الأدب ، ومال إلى التصوف ، وشغف به ، وأقبل الناس إليه من كل صوب ، وكثر الإزدحام عليه ، فنفاه الوالي إلى المغرب ، وتوفي بمراكش في جمادى الآخرة سنة ٦١٦ هـ (٤) .

ومحمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن العربي المعافري ، من أهل إشبيلية ومن بيت القاضي أبي بكر بن العربي ، درس بإشبيلية وقرطبة ، ورحل إلى المشرق ، فأخذ عن أبي طاهر السلفي بالإسكندرية ، ورحل إليه ثانية ، ودخل الشام ،

(١) ترجمته في التكملة رقم ١٦٩٢ ، وفي عنوان الدراية للغيريني ص ١٧٠ - ١٧٣ .

(٢) ترجمته في الإحاطة - مخطوط الإسكوريال (١٦٧٣ الغزيري) لوحة ١٠٧ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ١٩٠ . (٤) ترجمته في التكملة رقم ٤٣٤ .

والعراق وبغداد ، وأخذ عن أكابر علمائها ، وجاور بمكة ، وسمع الحديث من أكابر حفاظها . وعاد من رحلته الثانية إلى إشبيلية سنة ٦٠٤ هـ ، وأخذ عنه الطلاب عندئذ بإشبيلية وقرطبة . ثم رحل إلى المشرق للمرة الثالثة سنة ٦١٢ هـ ، وجاور بالحرمين عدة أعوام ، وحج مراراً ، وسلك طريقة التصوف ، وغلب عليه الزهد ، وتوفي في طريق العود ، بغير الإسكندرية سنة ٦١٧ هـ (١) .

ومن أشهرهم وأبعدهم صيتاً ، جعفر بن عبد الله بن محمد بن سيدبونه الخزاعي العابد ، من أهل قسطنطية من عمل دانية . درس القراءات والحديث ، وأخذ عن ابن هذيل ، وابن النعمة ، ورحل إلى المشرق ، فأدى فريضة الحج ، ودخل الإسكندرية فسمع السلفي ، ثم عاد إلى بلده ، ولزم العزلة والزهد ، والإعراض عن الدنيا ، وسلك طريقة التصوف ، وكان شيخ المتصوفة بالأندلس في وقته ، وعلا صيته ، وذاع ذكره ، في الزهد والورع ، وتوفي عن نحو مائة عام في شهر ذي القعدة سنة ٦٢٤ هـ ، ولبث قبره حيناً مزاراً يتبرك به الناس (٢) .

ومنهم محمد بن عبد الله بن محمد بن خلف بن قاسم الأنصاري بن أهل بلنسية ، وأصلهم من قلعة أيوب بالثغر الأعلى . درس القراءات والفقه والعربية والآداب ، وأخذ عن أبي العطاء بن نذير ، وأبي عبد الله بن نوح ، وأبي الخطاب ابن واجب وغيرهم . وغنى لأول أمره بعقد الشروط ، ثم اعتزل الحياة وتزهد ، وانقطع للعلم والعبادة ، وتصدر لإقراء التفسير بجامع بلنسية ، وغلب عليه التصوف . وألف كتاب « نسيم الصبا » في الوعظ ، وكتاب « النفوس الزكية في الخطب الوعظية » ، وكان من أساتذة ابن الأبار ، أخذ عنه وكتب عنه بعض كتبه . ولما وقع حصار النصاري لبلنسية ، وجهه أمرها إلى مرسية لاستنهاض هم أهلها . وتوفي بأوريولة في رجب سنة ٦٤٠ هـ (٣) .

ومحمد بن مفضل بن حسن بن عبد الرحمن بن محمد بن مهيب اللخمي ، أصله من طبرية من أعمال الغرب ، وسكن ألمرية . كان فقيهاً وأديباً وشاعراً ، مثلاً إلى التصوف ، ولما خطب بقصبة ألمرية حيناً ، ثم نزع إلى تونس ، ثم إلى سبتة وبها توفي سنة ٦٤٥ هـ ، ومن مؤلفاته كتاب « الجواهر الثمينة » (٤) . ونختم هذا الثبت القصير من متصوفة الأندلس في أواخر العهد الموحدى ،

(١) ترجمته في التكملة رقم ١٥٩٣ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ٦٤٣ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ١٦٧١ .

(٤) ترجمته في التكملة رقم ١٦٨٢ .

بذكر قطبهم الأكبر الشيخ محي الدين الطائي ، الذي يعتبر شيخ المتصوفة على الإطلاق . وهو محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله ، الشيخ محي الدين الطائي الحاتمي ، ويكنى أبا محمد وأبا بكر ، ويعرف بابن عربي تميزاً له من العلامة أبي بكر بن العربي . ولد في شهر رمضان سنة ٥٦٠ هـ بمدينة مرسية ، وسكن إشبيلية وقتاً ، وأخذ بمرسية عن أشياخها ، ومنهم ابن بشكوال ، وكان يقيم بها يومئذ ، وعبر إلى المغرب ونزل بجاية في رمضان سنة ٥٩٧ هـ ، وأخذ عن أشياخها ، ثم رحل إلى المشرق حاجاً ، فأدى الفريضة ، ولم يرجع بعدها إلى وطنه ، وسمع بمكة وبغداد ودمشق ، ودرس الحديث ومال إلى التصوف ، وشغف به ، حتى ملك عليه كل جوارحه ، وكان ظاهري المذهب ، وكان يحدث بالإجازة العامة عن أبي طاهر السلفي . واشتهر ابن عربي ، بانقطاعه إلى التصوف وتبحره في مذاهبه وطرائقه ، حتى وصفه بعض مترجميه « بالبحر الزاخر في المعارف الإلهية » ، وله ثبت حافل من المؤلفات الجليلة التي تدل على غزير علمه وسمو معارفه ، نذكر منها « الفتوحات المكية » وهو مؤلف ضخيم يعالج فيه طرائق الصوفية علاجاً شاملاً ، « والتدبيرات الإلهية » « وفصوص الحكم » ، « وتاج الرسائل ومنهاج الوسائل » « وكتاب العظمة » ، « والمتجليات » « ومفاتيح الغيب » ، وكتاب الحق ، ومراتب علوم الوهب ، والأعلام بإشارات أهل الإلهام ، والعبادة والخلوة ، والمداخل إلى معرفة الأسماء ، وأسرار الخلوة ، وعقيدة أهل السنة ، وناصحة النفس واليقين ، ومشكاة الأنوار ، وكثير غيرها . وقد ذكر منها صاحب فوات الوفيات أكثر من خمسين مؤلفاً . وكان ابن عربي يجاهر بكثير من الآراء الحرة التي تؤخذ عليه أحياناً ، وتعتبر من ضروب الإلحاد ، حتى أنه حينما كان بمصر ، وصدرت عنه تلك الآراء أو الشطحيات كما كان يصفها ابن عربي ، اشتد العلماء المصريون في محاسبتها ، ورموه بالإلحاد والكفر ، وطالبوا بإهدار دمه ، لولا أن شفع له بعضهم ونجا من تلك المحنة . وكان ابن عربي آية في الذكاء والحافظة وسرعة الحاطر ، فصيحاً ، بارع البيان ، وعلى الحملة فقد كان قطباً من أعظم أقطاب عصره ، وكان صيته يطبق أنحاء المشرق والمغرب . وتوفي ابن عربي في دمشق في نحو الثمانين من عمره ، وقد اختلف في تاريخ وفاته ، فذكر صاحب فوات الوفيات أنه توفي في الثامن والعشرين من ربيع الأول سنة ٦٣٨ هـ . وذكر ابن الأبار أنه توفي بعد الأربعين وسبعمائة .

وعنى كثير من أكابر المستشرقين بدراسة حياة ابن عربي وتراثه ، ومن هؤلاء
آسبن بلاثيوس ، وجولد سيهر ، ومكدونالد .

وكان ابن عربي ، فوق براعته فى التصوف ، شاعراً جزلاً ينظم الشعر الرقيق
الجيد ، ومن ذلك قوله فى التعبير عن الشوق :

سلام على سلمى ومن هل بالحوى	وحق لمنلى رقة أن يسلم
وماذا عاينها أن ترد تحية	علينا ولكن لا احتكام على الدمى
سروا وظلام الليل أرخى سدوله	فقلت لها صبا غريبا متيما
فأبدت ثناياها وأومض بارق	فلم أدر من شق الخنادس منها
وقالت أما يكفيه أنى بقلبه	يشاهدنى من كل وقت أما أما

وقوله :

درست عهدهم وإن هواهم	أبدا جديد فى الحشا ما يدرس
هذى طلوعهم وهذى الأدمع	ولذكرهم أبدا تذوب الأنفس
ناديت خلف ركابهم من جهم	يا من غناه الحسن ها أنا مفلس
يا موقدا نارا رويدا هذه	نار الصبابة شأنكم فلتقبسوا ^(١)

(١) راجع فى ترجمة ابن عربي فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٤١ - ٢٤٣ ، والتكلمة لابن الأبار
رقم ١٦٧٣ ، وعنوان الدراية للغبريني (طبع الجزائر ١٣٣٨ هـ) ، ص ٩٧ - ٩٩ .

الفصل الثالث

الحركة الفكرية الأندلسية

خلال العصر الموحدى

القسم الثانى

علماء اللغة والنحو والأدب . ابن سمحون الأنصارى . عبد الرحمن بن محمد السلمى . داود بن يزيد السعدى . ابن طاهر الأنصارى النحوى . ابن ملكون الحضرى . عبد الله بن محمد بن عبيد البكرى . سليمان الحضرى النحوى . أبو ذر الحشى . ابن خروف . ابن سعدون الأزدي . ابن وهب البكرى . ابن البرذعى . ابن عامر الجزيرى . أبو على الشلوين . نهضة الشعر الأندلسى خلال العصر الموحدى . أثر المحنة فى اضطرابه . ابن حبوس . ابن أبى العافية الأزدي . ابن مغاور . ابن غلبون . ابن غالب البليسى الرصافى . شىء من شعره . ابن عياض القرطبى . أبو بحر صفوان بن إدريس التحيى . محمد ابن أحمد الصابونى . ابن المناصف . ابن حريق . محمد بن إدريس مرج الكحل ، شىء من شعره . ابن حمزون . ابراهيم بن سهم الإشبيل . شىء من شعره . أحمد بن محمد بن حجاج اللخمى . أبو العباس الجراوى . أبو بكر بن مجبر . أعلام الكتاب فى العصر الموحدى . أبو القاسم بن خيرة المواعينى . ابن هرودس ابن سعد الخير الأنصارى . الحسن بن حجاج الهوارى . أبو الفضل بن محشرة . الرحالة ابن جببر . بنو عياش . أبو الحسن بن عياش . محمد بن عبد العزيز بن عياش . أبو الحسن على بن عياش . أحمد بن عبد العزيز بن عياش . عزيز بن عبد الملك بن خطاب . أبو عبد الله بن الجنان . أحمد بن محمد القضاعى البلوى . ابن هيصم الرعينى . أبو المطرف بن عميرة المخزومى . الرواة والمؤرخون فى العصر الموحدى . صلة ابن بشكوال ثم تكملة ابن الأبار ثم الذيل والتكملة ، ثم صلة الصلة . عبد الملك بن صاحب الصلاة . عبد الواحد المراكشى . ابن مدرك الفسافى . أحمد بن محمد الأزدي . أبو القاسم الملاحى . عيسى بن سليمان الرعينى . ابن قسوم اللخمى . ابن الأبار القضاعى . آثاره وتراثه . ابن سعيد الأندلسى . ابن فرتون السلمى . ابن عذارى المراكشى . ابن القطان . ابن الزبير . ابن عبد الملك المراكشى .

استعرضنا فى الفصل السابق طائفة كبيرة من أعلام الفكر الأندلسى ، ممن نبغوا فى العلوم الدينية ، ومن جمعوا بينها وبين اللغة والأدب ، ومن برزوا فى ميدان التصوف ، خلال العصر الموحدى ، وهم حسبنا بينا فيما تقدم ، الكثرة الغالبة فى ميدان التفكير الأندلسى فى ذلك العصر ، الذى قدر أن تجوز فيه الأندلس محنتها الكبرى ، بأنهار صرحها القديم الشامخ ، وسقوط معظم قواعدها الكبرى ، فى يد اسبانيا النصرانية .

ونريد الآن أن نستعرض بقية أعلام الفكر الأندلسي في تلك الحقبة ممن
ظهروا في ميادين التفكير الأخرى .

- ١ -

ونبدأ في ذلك بذكر طائفة من علماء اللغة والنحو والأدب وما إليها ، وهم
ليسوا من الناحية العددية كثرة تلفت النظر ، ولكن ظهرت منهم شخصيات
بارزة ، لا تقل عن مثيلاتها في أى عصر ، من عصور النهضة والاستقرار .

كان من هؤلاء ، أحمد بن بن محمد القيسي ، من أهل جيان ويعرف
بالقنبرى . درس ببلده ، ثم نزع إلى مرسية ، ودرس بها الآداب والعربية ،
وبرع فيها ثم انتقل إلى بلدة ألس من أعمالها ، واستقر بها وقتاً ، وكانت له إلى
جانب ذلك مشاركة في علم الطب ، وتوفي بمرسية في شهر ربيع الأول سنة ٥٥٩ هـ (١) .

وأبو بكر بن سليمان بن سمحون الأنصارى ، من أهل قرطبة ، درس
القراءات والعربية والآداب ، وبرع في علم النحو حتى فاق سائر أقرانه ، وكان
يوصف بأنه أعلم معاصريه بالنحو ، وكان يدرس العربية ، واه مشاركة في علم
الحساب ، وأخذ عنه عدة من أعلام عصره ، مثل أبي جعفر بن مضاء ، وأبي محمد
عبد الحق بن محمد الخزرجي ، وأبي القاسم بن بى ، وتوفي بقرطبة سنة ٥٦٣ هـ (٢) .

وعبد الرحمن بن محمد السلمى من أهل شرق الأندلس ، وبه نشأ ، ويعرف
بالمكناسى . درس على أقطاب صقعه ، وبرع في الآداب واللغات ، ومعرفة أيام
العرب ورجالها ، وكان كاتباً جيد النظم ، مقتدراً في إنشاء الرسائل اللزومية ، وله
منها طائفة جلييلة . وتوفي بمراكش سنة ٥٧١ هـ (٣) .

وداود بن يزيد بن عبد الله السعدى النحوى ، من أهل قلعة يحصب من عمل
غرناطة ، درس بغرناطة وأخذ بها عن أبي الحسن بن الباذش ، واختص به ، ثم
رحل إلى قرطبة فسمع من أقطابها ، وكان أستاذ النحويين في وقته ، وكان ممن
أخذ عنه أعلام ، مثل أبي بكر بن أبي زمنين ، وأبي الحسن بن خروف ،
وأبي القاسم الملاحى ، وتوفي عن سن عالية في سنة ٥٧٣ هـ (٤) .

وعبد الله بن أحمد بن على بن قرشى الحجرى ، من أهل قرطبة ، ونشأ

(١) ترجمته في التكملة رقم ١٧٨ . (٢) ترجمته في التكملة رقم ٥٩١ .

(٣) نقلنا ترجمته من أوراق مخطوطة من صلة الصلة لابن الزبير عثرنا عليها بمكتبة القرويين .

(٤) ترجمته في التكملة رقم ٨٥٥ .

بشرق الاندلس ، وأخذ عن أبي الحسن بن النعمة ، وأبي الوليد بن الدباغ ، وأبي عبد الله بن سعادة ، ومهر في صناعة العربية والآداب ، وضبط اللغات ، وتصدر لإقراءها زمنا . وكان له إلى جانب ذلك حظ من النثر والنظم . وتوفي بقرطبة سنة ٥٧٥ هـ (١) .

ومحمد بن أحمد بن طاهر الأنصاري النحوي ، من أهل إشبيلية . درس العربية على أبي القاسم بن الرماك ، وأبي الحسن بن مسلم ، وبرع فيها ، وتفوق على أقران عصره ، وعكف على تدريسها في مختلف البلاد . ودخل مدينة فاس محترفاً للتجارة ، فرغب إليه أهلها في الإقراء ، فاستجاب إليهم ، وأقام بها وقتاً ، ثم رحل إلى المشرق ودرس بمصر وحلب والبصرة ، وعاد بعد أداء الفريضة فنزل مدينة بجاية ، وله تعليق جيد على كتاب سيويه سماه « بالطرر » . وكان ممن أخذ عنه أقطاب مثل أبي ذر الحشني ، وأبي الحسن بن خروف ، وغيرهما . وتوفي ببجاية سنة ٥٨٠ هـ (٢) .

وابراهيم بن محمد بن منذر بن أحمد بن سعيد بن ملكون الحضرمي النحوي ، من أهل إشبيلية ، أخذ بها عن أقطاب العصر ، مثل أبي مروان الباجي ، وشریح ابن محمد ، وأبي الوليد بن حجاج ، وأبي القاسم بن الرماك ، وبرز في علم العربية والآداب ، ومهر فيها ، وقام على إقراءها ، وكان ممن أخذ عنه الخليفة أبو يعقوب يوسف وعدة من الجلة ، وله في اللغة والنحو عدة مؤلفات قيمة منها « إيضاح المنهج » وقد جمع فيه بين كتابي ابن جنى ، ووضع شرحاً لكتاب الجمل للزجاجي ، وشرحاً آخر لكتاب التبصرة للصميري وغيرهما . وتوفي بإشبيلية سنة ٥٨١ هـ (٣) .

وعبد الله بن محمد بن أبي عبيد بن عبد العزيز البكري ، من أهل قرطبة ، وأصلهم من لبلة ، ومن سادة جزيرة شلطيش أيام الطوائف ، وجده أبو عبيد البكري ، وهو العلامة الجغرافي اللغوي الشهير صاحب المسالك والممالك ، ومعجم ما استعجم . ونبغ عبد الله كمجده في اللغة والآداب وغيرها ، وأخذ على أبي عبد الله ابن مكى ، وأبي جعفر البطروجي ، وأبي بكر بن عبد العزيز وغيرهم . وأخذ عنه الجلة مصنفات جده ، وكانت وفاته بقرطبة في جمادى الأول سنة ٥٨١ هـ ، ومولده في سنة ٥٠٧ هـ (٤) .

ولب بن عبد الله بن لب بن أحمد الرصافي ، نسبة إلى رصافة بلنسية ، أخذ

(١) ترجمته في التكملة رقم ٢٠٦٠ . (٢) ترجمته في التكملة رقم ١٤٤٧ .
(٣) ترجمته في التكملة رقم ٤٠٦ . (٤) ترجمته في التكملة رقم ٢٠٧١ .

العربية عن أبي الحسن بن النعمة وغيره ، وبرع فيها ، وقام بتعليمها ، وبرع كذلك في النحو ، وكان قائما على شرح ابن بابشاذ لحمل الزجاجي ، وأخذ عنه كثير من شيوخ عصره . وتوفي نحو سنة ٥٩٠هـ^(١) .

وجابر بن محمد بن نام بن أبي أيوب ، ويعرف بسليمان الحضرمي النحوي ، من أهل إشبيلية . عني بالحديث والرواية ، ثم درس العربية على أبي القاسم ابن الرماك ، وأبي الحسن بن مسلم ، وبرع فيها وغاص على دقائقها وأسرارها ، وتصدر لإقراءها ، ولم يكن في وقته بإشبيلية أقدر منه على شرح كتاب سيويه ، وتوفي سنة ٥٩٦ أو ٥٩٧هـ^(٢) .

ومصعب بن محمد بن مسعود الحشني ، من أهل جيان ، ويكنى بأبي ذر ، ويعرف بابن أبي ركب ، درس العربية والآداب واللغات بالأندلس والمغرب دراسة مستفيضة ، وكان في مقدمة أساتذته العلامة النحوي أبو إسحاق بن ملكون . وبرع في العربية وتبوأ رياستها في عصره ، وقصده ، الطلاب من كل صوب للأخذ عنه ، هذا مع مشاركته في الآداب واللغات ، وقرض الشعر . ولى الخطبة بجامع إشبيلية وقتا ، وكان يقرئ العربية بمسجد ابن الرماك ، ثم ولى قضاء جيان ، واستوطن في أواخر حياته مدينة فاس . وتصدر بها لإقراء العربية ، وله تأليف في « شرح غريب السير لأبي إسحاق » ، ورسالة في العروض . وتوفي بمدينة فاس في شهر شوال سنة ٦٠٤هـ^(٣) .

وعلى بن محمد بن علي بن خروف الحضرمي النحوي من أهل إشبيلية ، ويعرف بابن خروف . درس الكلام والأصول ، وأخذ عن أبي مروان بن قزمان ، وأبي إسحاق بن ملكون ، وداود بن يزيد السعدي ، وبرع في العربية ، وانقطع لها ، وأصبح من أئمتها البارزين ، وتصدر لإقراءها طول حياته ، بإشبيلية وقرطبة ورندة ، وبالمغرب بفاس وسبتة . ورحل إلى المشرق ، وأقام مدة بجلب . وتفوق بالأخص في شرح كتاب سيويه ، وأخذ عنه جمهرة من الجلة . وألف شرحه المشهور عليه ، ويقال إنه حمل منه نسخة إلى الخليفة الناصر بمراكش ، فوصله عنها بألف دينار ، وألف كذلك شرحا لكتاب الحمل للزجاجي ، وكانت له مشاركة في علم الفرائض وفي القراءات . وكان ذا أسلوب بارع في الدرس والمحاضرة والمناظرة .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ٦٥٥ .

(١) ترجمته في التكملة رقم ٩٤٦ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ١٧٨٥ .

وأخذ عنه ولازمه كثير من شيوخ العصر . وتوفى بإشبيلية سنة ٦٠٩ هـ (١) .
 وأحمد بن طلحة بن محمد بن عبد الملك الأموي ، أصله من أهل يابرة ،
 ونشأ بإشبيلية ، أخذ العربية عن أخيه أبي بكر بن طلحة ، وغيره ، وبرع في
 الأدب والنحو والعروض ، وله في ذلك تأليف وأخذ عنه . وتوفى في نحو سنة ٦٢٥ هـ (٢) .
 وعبد الله بن محمد بن عبد العزيز . . بن سعلون الأزدي ، من أهل بلنسية ،
 درس العربية والآداب ومهر فيها ، وكان من أهل المعرفة الكاملة بها وبفنونها ،
 مبرزاً في العربية واللغة ، متقناً ، متحققاً ، بديع الخط ، وكان إلى جانب ذلك
 بارع النظم والنثر ، وكتب عن بعض الرؤساء . وتوفى في آخر سنة ٦٢٢ هـ (٣) .
 وأحمد بن محمد بن وهب البكري ، من أهل شاطبة ، أخذ عن عدة من
 أقطاب عصره مثل ابن نوح وابن عات وغيرهما . ومهر في صناعة العربية ، إلى
 جانب مشاركته في حفظ المسائل ، وعقد الشروط . قال ابن الأبار : « وكان صاحباً
 لأبي رحمه الله ، اشترك في الأخذ عن ابن نوح ، وانفرد هو بالأخذ عن أبي بكر
 ابن عتيق » . وغادر موطنه شاطبة حينما قام النصارى بإجلاء أهلها عنها بعد نقض
 هديتهم وذلك في رمضان سنة ٦٤٥ هـ ، وتوفى على أثر ذلك بمدينة أوريولة (٤) .
 ومحمد بن يحيى بن هشام بن عبد الله بن أحمد الأنصاري الخزرجي ، من
 أهل الجزيرة الخضراء ويعرف بابن البردعي ، درس القراءات والعربية ،
 وأخذ العربية عن أبي ذر الحشني ، وأبي الحسن بن خروف ، وأبي علي الرندي
 وغيرهم ، وأخذ كذلك عن القاضي ابن رشد ، وأبي الحسن بن الصائغ ،
 وأبي محمد بن جوط الله وأخيه ، وأبي علي الشلوبين وغيرهم ، وكان إماماً في
 صناعة العربية منقطعاً إليها ، مقمداً فيها ، وكان أستاذه الشلوبين يثنى عليه ،
 ويشهد بتفوقه فيها ، وله فيها عدة مؤلفات منها ، « كتاب الإفصاح بفوائد
 الإيضاح » « وكتاب فصل المقال في تلخيص أبنية الأفعال » ، وكتاب « غرة
 الإيضاح في شرح أبيات الإيضاح » . وكان يشارك أيضاً في فنون شتى . ونزح
 في أواخر حياته إلى تونس ، وهناك لقيه ابن الأبار وأخذ عنه . وتوفى بتونس

(١) ترجمته في صلة الصلة لابن الزبير رقم ٢٤٥ ، وفي فوات الوفيات ج ٢ ص ٨٠ ، وفي
 الذيل والتكلة لابن عبد الملك (الجزء الأول من مخطوط الرباط المصور) .
 (٢) ترجمته في التكلة رقم ٢٨٣ . (٣) ترجمته في التكلة رقم ٢١١٠ .
 (٤) ترجمته في التكلة رقم ٣١٠ .

في شهر جمادى الأخرى سنة ٦٤٦ هـ (١)

وإدريس بن محمد بن موسى الأنصاري ، من أهل قرطبة ، أخذ عن أبي جعفر بن يحيى الخطيب ، وأبي محمد بن حوط الله ، ومال إلى العربية والآداب ، وبرع فيها ، وتصدر لإقراءها بقرطبة ، إلى أن تملكها القشتاليون في سنة ٦٣٣ هـ ، فغادرها وعبر البحر إلى سبتة ، واستأنف بها الإقراء ، وكانت له مشاركة في النظم والنثر ، وتوفي سنة ٦٤٧ هـ (٢) .

والحسن بن أحمد بن الحصين بن عطف العقيلي ، من أهل جيان ، أخذ عن أبيه وغيره من أشياخ بلده ، وبرع في اللغة والأدب ، وكانت جيان من مناطق التفوق في دراسة العربية ، وله شرح في « مقصورة ابن دريد » . ولم تذكر لنا تاريخ وفاته (٣) .
ومحمد بن محمد بن محمد بن مخلد النحوي ، من أهل شاطبة ، درس العربية وبرع فيها ، ثم انتقل من بلده إلى غرب الأندلس . وله كتاب في شرح « الجمل للزجاجي » ولم تذكر لنا تاريخ وفاته (٤) .

وموسى بن علي بن عامر من أهل إشبيلية يعرف بالجزيري ، لأن أصله من الجزيرة الخضراء ، درس القراءات والحديث والعربية ، ومهر في العربية وكان عمدة في النحو في عصره ، يؤخذ عنه ، ويؤثر به . وله شرح في كتاب « لحن العامة » للزبيدي ، وشرح لكتاب « التبصرة » للصميري ، وكتاب آخر عنوانه « الاستيضاح في شرح الإيضاح » ولم نعر ذلك على تاريخ وفاته (٥) ، ونختم هذا الثبت من علماء اللغة والنحو بذكر إمامهم وقطبهم الأكبر في ذلك العصر ، وهو العلامة عمر بن محمد بن عمر بن عبد الله الأزدي الإشبيلي ، أبو علي الشلوين - قال ولده إنه سمي بالشلوين ، لأنه كان أشقر أزرق ، وكان خبازا . ودرس الشلوين القراءات والآداب واللغات وأخذ بقسط من رواية الحديث ، وروى عن جمهرة من أقطاب عصره مثل ابن بشكوال ، وأبي بكر بن زهر ، وأبي محمد بن بونه ، وأبي زيد السهلي ، وابن مضاء ، وابن حيش ، وابن كوثر وغيرهم . ولكن غلبت عليه دراسة العربية ونبع فيها حتى غدا إمامها الذي لا يبارى ، وتصدر لإقراءها بإشبيلية دهرأ ، وكانت تشد إليه الرحال من سائر

(٢) ترجمته في التكملة رقم ١٦٨٤ .

(٤) ترجمته في التكملة رقم ١٥٤٨ .

(١) ترجمته في التكملة رقم ٥٢٢ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ٦٩٢ .

(٥) ترجمته في التكملة رقم ١٧٣٦ .

الآفاق للأخذ عنه ، والتفصلع عليه ، وذاع صيته في سائر أنحاء الأندلس والمغرب ، وكان أمام العربية بالشرق والمغرب دون مدافع ، وكان ذا معرفة بنقد الشعر وغيره ، بارعا في التعليم والإلقاء ، أخذ عنه كثير من الحلة مثل القاضي أبي عبد الله ابن عياض ، وأبي العباس الأزدي ، وأبي بكر بن رشيق ، وأبي عمر بن حوط الله وغيرهم . وكان منقطعاً بإشبيلية إلى ابن زهر . عبر البحر إلى مراکش أيام المنصور ، وعاد إلى بلده ، وكرس حياته للعربية ، وقد لبث يقرئها زهاء ستين عاما ، وله شرح للكراسة المنسوبة للجزولي ، وألف كتاب التوطئة ، إناما للكراسة المذكورة . ولد بإشبيلية سنة ٥٦٢ هـ ، وتوفي بها في أواخر صفر سنة ٥٦٤ هـ ، أثناء حصار القشتاليين إياها (١) .

- ٢ -

ازدهر الشعر خلال العصر الموحدى بالأندلس والمغرب معا ، وكان الخلفاء الموحدون يتنوقون الشعر الجيد ، ويقدرّون أثر الإشادة والمدح ، في تأييد هيبة الدولة والخلافة ، ومن ثم فقد أسبغوا رعايتهم على الشعراء ، وأغدقوا عليهم الصلوات . وكان للخلافة الموحدية شعراؤها الأثيرون لديها مثل الجراوي ، وابن حزمون ، وابن مجبر ، وغيرهم ، ينظمون قصائدهم في مختلف المواطن ، والمناسبات السعيدة ، من ولاية وفتوح ومقدم وإبلال وغيرها ، يشيدون فيها بقوة الخلافة الموحدية ومجدها وسعدها .

وبلغ الشعر في الأندلس في تلك الفترة مستوى عاليا من الازدهار والقوة في ظل الخلافة الموحدية ، التي قدرت قدره ، وأظلمت برعايتها ، وقبارى الشعراء الأندلسيون ، منذ عهد عبد المؤمن في مديح الخلافة الموحدية ، والإشادة بذكرها . على أن نهضة الشعر الأندلسي ، في أوائل العصر الموحدى لم تكن سوى امتداد طبيعي لنهضة القديمة منذ الطوائف ، وذلك إذا استثنينا عهد المرابطين القصير الذي لم يحظ فيه الشعر بشيء من التقدير والرعاية ، من الدولة المرابطية . ولم تنجب النهضة الشعرية القوية ، حتى في عصر الانهيار ، في أواخر العهد الموحدى ، بل بالعكس فقد زادت المحنة قوة واضطراما . وصدرت في الصريح من المحنة وفي الأندلس ورثاء قواعدها الذاهبة ، وشعبها المفلول ، من غرر القصائد المبكية ، ما يشهد بأن الشعر

(١) ترجمته في صلة السلة لابن الزبير المنشور بناية الأستاذ ليث بروفسال (الرباط سنة ١٩٣٧) رقم ١٢٨ ، وفي الذيل والتكلة لابن عبد الملك (الجزء الرابع من مخطوط المتحف البريطاني) .

الأندلسي ، قد بلغ في تلك الفترة المؤسسة من حياة الأمة الأندلسية ، ذروة قوته وروعه .
وسوف نستعرض فيما يلي ، أهم الشعراء ، الذين ظهوروا في العصر الموحدى
سواء بالأندلس أو المغرب ، وقد كانت الخلافة الموحدية تجذبهم إليها أينما حلت ،
ولم تكن الأندلس يومئذ ، سوى قطر من أقطار الدولة الموحدية الكبرى .

كان في مقدمة هؤلاء الشعراء ، أبو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله
ابن جبوس ، وهو من أهل فاس ، وكان عالماً محققاً ، وشاعراً كبيراً ، يقول لنا
المراكشي إن طريقته في الشعر كانت على نحو طريقة ابن هانيء الأندلسي في تخير
الألفاظ الرائعة . وظهر ابن جبوس في ميدان الشعر منذ أيام المرابطين ، ومدح
بعض أمرائهم ، ولكن نقلت إليهم عنه بعض تهم وحقائق خشي منها على نفسه ،
ففر إلى الأندلس ونزل مدينة شلب حيناً ، ولما غلب أمر الموحدين ، انضوى
تحت لوائهم ، ولقى الخليفة عبد المؤمن بجبل طارق مع باقي الشعراء ، وامتدحه
بقصيدته التي أشرنا إليها في موضعها . وكثرت مدائحه من بعده لولده الخليفة
أبي يعقوب يوسف ، وأمراء بني عبد المؤمن . وجمع شعره في ديوان حافل ،
بدل على جزائه ، وقوة شاعريته . وكانت وفاته في سنة ٥٧٠هـ عن سبعين عاماً (١)
ومحمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز بن أبي العافية الأزدي ، من أهل
غرناطة ، ويعرف بالكتندي لأن أصله من كتندة . كان أدبياً كاتباً شاعراً ، متمكناً
من العربية ، أخذ عن أقطاب عصره ، وحدث عنه أبو سليمان بن حوط الله ،
وأبو القاسم الملاحى وغيرهما ، ومن شعره :

يا سرحة الحى يا مطول	شرح الذى بيننا يطول
ماضٍ من العيش كان فيه	ملبسنا ظلك الظليل
زال ، وماذا عليك ماذا	يا سرح ، لو لم يكن يزول
حيّاً عن المدنف المعنى	منبتك القطر والقبول

وتوفى الكتندي سنة ٥٨٣هـ (٢) .

ومنهم عبد الرحمن بن محمد بن مغاور بن حكيم بن مغاور من أهل شاطبة ،
كان من العلماء المحققين ، وأخذ عن أبي على الصدفي وغيره ، وكان من الكتاب
البلغاء ، والشعراء المحيدين ، ومن شعره في الزهد :

(١) ترجمته في التكملة رقم ١٧١١ ، وراجع المعجب للمراكشي ص ١١٧ و ١١٨ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ١٤٥٨ .

أبها الواقف اعتبارا بقربي استمع فيه قول عظيم رميم
أودعوني بطن الضريح وخافوا من ذنوب كلومها بأديم
قلت لا تجزعوا على فإني حسن الظن بالروؤف الرحيم

وتوفي ابن مغاور في صفر سنة ٥٨٧ هـ (١).

وأبو رجال بن غلبون من أهل مرسية ، وكان أيضاً كاتباً شاعراً بليغاً يجيد
النثر والنظم ، وأخذ عنه الأدب جماعة من الأقطاب ، مثل أبي بحر صفوان ،
وأبي الربيع بن سالم ، وكان يحمل عن أبي اسحاق بن خفاجة ديوان شعره ويرويه
ويؤخذ عنه ، وتوفي سنة ٥٧٩ هـ (٢).

وكان من أعلام الشعر في تلك الفترة من أوائل العصر الموحدى ، وأعظمهم
شأناً ، أبو عبد الله محمد بن غالب البلنسى الرقاء المعروف بالرُّصافي ، نسبة إلى
رُصافة بلنسية . ولد ببانسية ، وسكن غرناطة ومالقة ، وبرع في الشعر والأدب ،
وكان ظهوره في أواخر العصر المرابطى . وكان من مدح الخليفة عبد المؤمن عند
وفوده على جبل طارق سنة ٥٥٦ هـ ، وألقى بين يديه قصيدته الغراء التي مطلعها :
لوجئت نار الهدى من جانب الطور قبست ما شئت من علم ومن نور
من كل زهراء لم ترفع ذوائبها ليلا لسار ولم تشبب لمغمور
وقد أشرنا إليها في موضعها . وكان الرصافي يومئذ فقي في عتفوانه ، ولكنه
كان قد لمع في ميدان الشعر وكان له فيه افتتان وإبداع ، ومع ذلك فقد كان كثير
التواضع ، لا يحب أن يشتهر بشعره ، مع إجادته في كثير منه . وكان عزيز النفس
موفور الكرامة ، يعيش من صناعة الرفو ، ولا يتنذل نفسه في خدمة أحد ،
ولا يتجر بشعره ولا يتخذ سبيلاً إلى الزلفى ، أو التقرب من أحد . ومن نظمه
يصف نهر إشبيلية (الوادى الكبير) :

ومهل الشطين تحسب أنه متسائل من درة لصفائه
فاعت عليه مع الهجيرة سرحة صدئت لفيأتها صفيحة مائه
فتراه أزرق في غلالة سمرة كالدارع استلقى بظل لوائه
ومن قوله :

وفتيان صدق كالنجوم تألقوا على الناس من شتى بروج وآفاق

(١) ترجمته نقلناها من أوراق مخطوطة من صلة الصلة لابن الزبير .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ٨٨٢ .

على حين راق البرق في الجو مغمدا صباه ودمع المزن في جوه راق
وحانت بعيني في الرياض التفاتته حبست وكاساتي قليل على الساق
على سطر خير ذكرك فائتي يميل بأعناق ويرنو بأحداق
ومن قصائده المشهورة ، قصيدة طويلة ، يتشوق فيها إلى وطنه بلنسية
ويشيد بمحاسنها وفيها يقول :

خليلي ما ليلد قد عقت نسرا وما لرؤوس الركب قد رجحت سكرا
أظنك مفتونا بمدرجة الصبا أم القوم أجروا من بلنسية ذكرا
خليلي عوجاني قليلا فإنه حديث كبرد الماء في الكبد الحرا
قفا غير مأمورين ولتضربا على بقية للمزن فاستبقيا القطرا
يجسر معان والرصافة أنسه على القطران يسقي الرصافة والجسرا
بلادى التي ريشت قويدمتي منها صريحا وأدواني قرارتها وكسرا
لبسنا بها ثوب الشباب لباسها ولا تكن عرينا من حلاه ولم تعرا
وتوفى الرصافي بمالقه في شهر رمضان سنة ٥٧٢ هـ (١) .

ومنهم محمد بن عيسى بن عياض القرطبي ، كان من أقطاب الأدب وأفذاذ
الشعراء والكتاب ، وإليه تنسب المقامة العياضية الغزلية .
ومما ينسب إليه من الشعر قوله :

كم من أخ في فواده دغل أخوف من كاشح نجاهده
برء السقام الخفى أعسر من برء سقام بدت شواهده
ولم يذكر له تاريخ وفاة (٢) .

وأبو بحر صفران بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس
التجيبى ، من أهل مرسية ، درس الحديث والأدب ، وبرع في النثر والنظم ،
وكان من أقطاب الكتاب البلغاء ، والشعراء الجيدين ، وله رسائل عديدة
وقصائد جليلة . وجمع ماصدر منها في كتاب سماه « عجالة المحتفز » ، وهداه
المستوفز » ، . وألف كتابا آخر عنوانه « زاد المسافر » . وتوفى شابا ببده
مرسية في شوال سنة ٥٩٨ هـ ، ومولده سنة ٥٦١ هـ (٣) .

ومحمد بن أحمد بن الصابوني الصدفى من أهل إشبيلية . كان من أعظم أدباء

(١) راجع المعجب ص ١١٩-١٢٤ ، وابن خلكان ج ٢ ص ١٠ ، والتكلة لابن الأبار رقم ١٤١٦ .

(٢) ترجمته في التكلة رقم ١٤٠٦ . (٣) ترجمته في التكلة رقم ١٨٩٥ .

عصره ، وألمع شعرائه ، ويقول ابن الأبار إن ابن الصابوني كان شاعر وقته ، ويقول أيضاً إن الآداب ذهبت بذهابه ، وختمت الأندلس شعراءها به . وهو قول يحمل طابع المبالغة . ورحل ابن الصابوني إلى المشرق فتوفى بالإسكندرية ، وهو في طريقه إلى القاهرة ، وذلك في سنة ٦٤٠ هـ .

ومن نظمه قصيدته المشهورة في مدح عزيز بن عبد الملك بن خطاب والى مرسية ، حين وفد عليه في سنة ٦٣٢ هـ ، وهذا مطلعها :

أهلاً بطيف خيال منك منساب أزال عتبك عندي حين إعتاني
ومنها .

لا درّ درّ ليالى البعد من زمن يطول فيه اجتراع الصب للصاب
نابت صروف نباي عندها وطني قرعت بابي لها من رحلي الناب
جوابة الأرض لا ألقى على سكن تشجى الركاب وتجري بي لتجواب
ومن قوله من قصيدة :

أقسم فرق الليل عن سنة الضحى وأهبط خصر القاع من كفل الدعص
إلى أن أرى يرقا إذا شمت وجهه رأيت جبين البدر مكتمل القرص^(١)

وطلحة بن يعقوب بن محمد بن خلف بن يونس بن طلحة الأنصاري من أهل شاطبة ، وأصله من جزيرة شقر . كان كاتباً بليغاً ، وشاعراً مجيداً ، أخذ عن أشياخ عصره ، ورؤى عنه . وتوفى في رمضان سنة ٦١٨ هـ^(٢) .

ومحمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ . . بن عيسى بن أصبغ ، ويعرف بابن المناصف ، أصلهم من قرطبة ، وخرج أبوه منها أيام الثورة على المرابطين ، واستوطن إفريقية ، وبها نشأ ولده هذا . وكان عالماً متمكناً من الفقه مع حظ وافر من اللغة والأدب ، وقرض الشعر الجيد . وله أراجيز في عدة فنون منها « الدرة السنية في المعالم السنية » . وألف كتاب « الإنجاد في الجهاد » وكتاب الأحكام . وفي أواخر حياته ولى قضاء بلنسية ، ثم قضاء مرسية ، ولما صرف عن القضاء عاد إلى المغرب وتوفى بمراكش في شهر ربيع الآخر سنة ٦٢٠ هـ^(٣) .

وعلى بن محمد بن أحمد بن حريق من أهل بلنسية ، كان بارعاً في اللغة والأدب ، حافظاً لإشعار العرب ، وأيامها ، شاعراً مجيداً ، وافر الإنتاج ، ذاع

(١) ترجمته في فوات الوفيات ج ٢ ص ١٦٨ . وراجع الحلة السيرة ص ٢٤٩ و ٢٥٠ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ٩١٣ . (٣) ترجمته في التكملة رقم ١٦٠٦ .

شعره في الأندلس وتداوله الناس ، وله عدة كتب في الأدب ، ومن نظمه قوله :
يا صاحبي وما البخيل بصاحبي هذى الخيام فأين تلك الأدمع
أتمر بالعرصات لا تبكى بها وهى المعاهد منهم والأربع
ياسعد ما هذا القيام وقد نأوا أتقيم من بعد القلوب الأضلع
هيهات لاريح اللواعج بعدهم زهر ولا طير الصبابة وقع
وتوفى ابن حريق ببلده بلنسية في سنة ٦٢٢ هـ (١) .

ومحمد بن علي بن حماد بن عيسى الصنهاجي ، أصله من قلعة بني حماد ، وسكن
بجاية ، وأخذ عن أشياخها ثم دخل الأندلس ، فسمع بها ، وولى قضاء الجزيرة
الخضراء ثم قضاء سلا ، وكان كاتباً بليغاً ، وشاعراً مجيداً ، وله ديوان شعر
معروف . وله أيضاً كتاب «الإعلام بفوائد الأحكام» وشرح لمقصورة ابن دريد .
وتوفى سنة ٦٢٨ هـ (٢) .

ومنهم ومن أشهرهم وألعهم ، محمد بن إدريس بن علي بن إبراهيم بن القاسم
من أهل جزيرة شقر ، ويعرف بمرج الكحل ، وكان من أعظم شعراء عصره
مقدرة على الإبداع والتوليد والتجويد ، وبرع في الأخص في الغزل ، والشعر
الوصفي المبتكر ، وعاش حيناً في غرناطة ، وذاع صيته في سائر أنحاء الأندلس .
وأخذ عنه عدة من أشياخ العصر ، مثل أبي الربيع بن سالم ، وأبي عبد الله بن أبي البقاء ،
وابن عسكر ، و مترجه ابن الأبار وغيرهم . ومن شعره قوله :

مَثَلُ الرِّزْقِ الَّذِي تَطْلُبُهُ مَثَلُ الظِّلِّ الَّذِي يَمْشِي مَعَكَ
أَنْتَ لَا تَدْرِكُهُ مَتَّبِعَا فَإِذَا وَلَيْتَ عَنْهُ أَتَّبَعَكَ

وقوله يصف عشة بنهر الفندق الذي يمر بلوثة :

عرج بمنعرج الكئيب الأخضر بين القرات وبين شط الكوثر
ولنغتنقها قهوة ذهبية من راحتي أحوى المرافش أحوار
والروض ما بين مفضض ومذهب والزهر بين مدرهم ومدنر
والنهر مرقوم الأباطح والربا بمصنل من زهره ومعصفر

وتوفى مرج الكحل ببلده في شهر ربيع الأول سنة ٦٣٤ هـ (٣) .

ومنهم أبو بكر بن هشام بن عبد الله بن هشام . . بن عبد الغافر الأزدرى

(١) ترجمته في صلة الصلة لابن الزبير رقم ٢٦٣ ، وفوات الوفيات ج ٢ ص ٧٠ .

(٢) ترجمته في التكلة رقم ١٦٣٧ . (٣) ترجمته في التكلة رقم ١٦٥٦ .

من أهل قرطبة . درس الفقه والحديث على أقطاب عصره . وبرع في الأدب ، وكان كاتباً بليغاً وشاعراً مجيداً ، كتب لبعض الولاة ، وولى قضاء بعض الكور . وتوفي بالجزيرة الخضراء سنة ٦٣٥ هـ (١) .

ومى أشهرهم أيضاً على بن عبد الرحمن بن حزمون ، أصله من مرسية . وكان شاعراً مجيداً ، متمكناً من الآداب والتواريخ ، وكان بارع التصرف في النظم ، مقنع الهجاء . قال ابن عبد الملك في الذيل والتكملة « وكان شديد القنا ، وارد الأنف ، أزرق حاد النظر ، أسيل الوجه ، بادي الشر ، مهيباً » . ووقعت بينه وبين بعض أدباء عصره مخاطبات ومساجلات تشهد بتقدمه وتمكنه . دخل مراکش غير مرة ، جاء في آخرها مظالم إلى الخليفة المستنصر من الجريطي وإلى مرسية ، لأضطهاده ، والاعتداء عليه وضربه بالسياط . ولما ظهرت براءته مما نسب إليه من هجو الجريطي ، أصدر المستنصر أمره بإنصافه ، وإعدياه على الجريطي ، وتمكينه منه ، حتى ينتصف لنفسه ، وعاد ابن حزمون إلى الأندلس ، يحمل أمر المستنصر بإنصافه ، ولكنه ما كاد يصل إلى مرسية حتى ورد الخبر بوفاة المستنصر ، وتحطم بذلك أمله من الانتصاف لنفسه ، ومن نظمه قوله :

يا من له بالأنام أنسى وهو إلى اللهو ذو التفات
استغفر الله من ذنوب أناها نازل الصفات

وقوله وهو مطلع قصيدته في الشكوى إلى الخليفة :

إليك إمام الحق جبت المفاوز وخلفت خلفي صديّة وعجائز
يرجى سبب الله ثم حنانكم إمام الهدى حتى يمتن عجائز

وتوفي ابن حزمون حول سنة ٦٣٠ هـ (٢) .

ومن ألمعهم أيام الانهيار ، إبراهيم بن سهل الإشبيلي ، وقد كان يهودياً واعتنق الإسلام ، وبرع في الشعر ولا سيما في الموشحات . ومن أبدع قصائده ، قصيدة نظمها في مدح النبي . وقد توفي غريقاً في النهر وهو شاب في عنفوانه ، وذلك في سنة ٦٤٩ هـ . ومن شعره ، حينما حاصر النصارى إشبيلية في سنة ٦٤٥ هـ واشتدت الحال بأهل إشبيلية ، قصيدة مؤثرة ، يحثهم فيها على الصبر والثبات ، وفيها يقول :

(١) ترجمته في التكملة رقم ٥٩٨ .

(٢) ترجمته في الذيل والتكملة لابن عبد الملك ، الجزء الرابع من مخطوط المتحف البريطاني .

وقد أورد لنا ابن عذاري كثيراً من شعره . وراجع البيان المغرب ص ٧٤ - ٧٧ .

ورداً ففضمون نجاح المصدر
نادى الجهاد بكم بنصر مضمير
خلوا الديار الدار عز واركبوا
وتسوغوا كدر المناهل في السرى
ومن شعره قوله :

مضى الوصل إلا منية تبعث الأسى
أتانى حديث الوصل زورا على النوى
ويا أيها الشوق الذى جاء زائرا
وقوله :

ليل الهوى يقظان
والصبر لى خوان
والحب مترب السهر
والنوم من عيني برى^(١)

ومنه أحمد بن محمد بن عيسى . . بن عبد الرحمن بن حجاج اللخمي من أهل
إشبيلية، ويعرف بالأفيلح تصغير الأفلاح وهو المشقوق الشقة السفلى ، كان أديبا
بارعا وشاعرا محيذا ، وزر للمتوكل ابن هود ، وخاض معه حوادث إمارته ،
وحظى لديه . وله أرجوزة خمسة في السير عنوانها « نظم الدرر ونثر الزهر »
وهي من أحسن ما نظم في موضوعها . وله شعر جيد ، وعدة مدائح في أمراء
بنى عبد المؤمن ، ومن ذلك قوله يهنيء المأمون أبا العلاء إدريس :

هنا الله بلاد العرب ما تتمناه بلاد المشرق
طلع المأمون فيها أمل الراجى وأمن التقى
وكساها من سنا أنواره رونقا يدهش نور الحدق^(٢)

ومالك بن عبد الرحمن بن علي ، يكنى أبا الحكم ويعرف بابن المرحل ، درس
انصقه والأدب ، وامتهن صناعة التوثيق حيناً ، وولى القضاء بغرناطة وغيرها ،
وكان شاعرا رقيقاً مطبوعا ، وله شعر كثير أورد لنا منه ابن الخطيب في الإحاطة
عدة قصائد . ولد سنة ٦٠٤ هـ وتوفي عن سن عالية في سنة ٦٩٩ هـ^(٣).

ومن شعراء الخلافة الموحدية الأثيرين ، شاعران ، اختصا عصرهما بمدائح

(١) راجع نفع الطيب ج ٤ ص ٣٠٤ .

(٢) ترجمته في الذيل والتكلمة ، الجزء الأول من مخطوط الرباط المصور لوحة ١١٠ و ١١١ .

(٣) ترجمته ومقتطفات من شعره في الإحاطة (مخطوط الإسكوريال لوحات ١٨٩ - ١٩٦) .

الخلفاء الموحدين ، منذ عصر أبي يعقوب يوسف حتى عصر الناصر ، وهما أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوى ، وأبو بكر بن عبد الجليل بن مُجبر ، وقد سبق أن أشرنا فى غير موضع إلى مدائح هذين الشاعرين . وكان الجراوى ، وأصله من تادلا ، وسكن مراکش ، شاعراً مبرزاً ، عالماً بالآداب ، حافظاً لأصول البلاغة ، ورحل إلى الأندلس مراراً . وقد وضع للخليفة المنصور كتابه الذى سماه « صفوة الأدب وديوان العرب » فى مختار الشعر ، وانتشر هذا الديوان فى المغرب انتشاراً عظيماً ، وكان لديهم كتاب الحماسة عند أهل المشرق^(١) . وكذلك جمعت مدائح ابن مجبر للمنصور فى ديوان وأورد لنا منها ابن خلكان قصيدته التى مطلعها :
أتراه يترك الغزلا وعليه شب واكتفلا

كلف بالغيد ما عقلت نفسه السلوان مذ عقلا^(٢)

ومن شعراء الخلافة الموحدية أيضاً أبو الحسن الرعيني ، وأبو زيد الفازازى ، وعبد الرحمن الخزولى وغيرهم . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب كثيراً من مدائح هؤلاء الشعراء للخلفاء الموحدين فى غير موضع^(٣) .

ولدينا ثبت آخر من أكابر الشعراء ، مثل ابن طفيل الوادى آشى ، وابن الأبار القضاعى ، وأبى المطرف بن عميرة المخزومى ، ولكننا رأينا أن نضع هؤلاء فى مواضع هم أكثر ارتباطاً بها وألصق ، فابن الأبار ، بالرغم من إنتاجه الشعرى الرائع ، أكثر انتساباً إلى ميدان التاريخ ، وابن عميرة أكثر انتساباً إلى الكتابة ، وابن طفيل موضعه الحقيقى بين الفلاسفة والعلماء .

- ٣ -

ولنعرض الآن إلى أكابر الكتاب خلال العصر الموحدى . ولدينا من ذلك ثبت حافل يصعب علينا أن نستوعبه فى هذا المقام المحدود ، ولكننا سوف نحاول أن نذكر ألمعهم فى هذا الميدان .

كان من هؤلاء أبو القاسم محمد بن ابراهيم بن خيرة ، ويعرف بالمواعينى من أهل قرطبة ، وسكن إشبيلية . سمع ابن مغيث ، وابن مكى ، وابن العربى ،

(١) ترجمة الجراوى فى التكملة رقم ٣٢٣ ، وقد أورد لنا ابن عذارى كثيراً من شعر الجراوى (راجع البيان المغرب ص ٨١ و ٩٣ و ١١٤ و ١٥١ و ١٥٤) .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٣٢ و ٤٩٤ .

(٣) راجع البيان المغرب ، القسم الثالث ص ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٣٢ و ٢٥٨ و ٢٦٠ و ٢٦٦ و ٢٦٨ .

وابن أبي الخصال وغيرهم ، وبرع في الأدب ، وكان كاتباً بليغاً ، وشاعراً مجيداً . كتب أولاً للسيد أبي اسماعيل الوالي بغرناطة ، ثم كتب من بعده للسيد أبي جعفر بن عبد المؤمن وحظي عنده ، ونال جاهاً عريضاً . وله عدة مؤلفات تاريخية وأدبية منها : « ربحان الإعراب وريحان الشباب » و « الوشاح المفصل » وكتاب في « الأمثال السائرة » ، وكتاب في الأدب نحى فيه منحى ابن عبد البر في « بهجة المجالس » . وتوفي بمراكش سنة ٥٦٤ هـ ، وأنحو سنة ٥٧٠ هـ ، وفقاً لرواية ابن الأبار^(١) .

وأبو الحكم إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن محمد الأنصاري ، أصله من وادي آش وسكن مالقة ، ويعرف بابن هرودس . كان عالماً متمكناً ، وكاتباً بليغاً ، وله حظ من قرض الشعر . كتب أيام الفتنة لأحمد بن ملحان الطائي القائم بوادي آش ، إلى جانب العلامة ابن طفيل . وتوفي في سنة ٥٧٣ هـ^(٢) .

وممنهم أبو عبد الرحمن بن طاهر ، زعيم مرسية أيام الفتنة ، وقد سبق أن أتينا على ترجمته بين الكتاب الذين ظهوروا في العصر المرابطي^(٣) .

وممنهم علي بن إبراهيم بن محمد عيسى بن سعد الخير الأنصاري من أهل بلنسية ، وأصله من بلدة قشتيل من أعمالها ، كان إماماً بارعاً في علوم اللسان والأدب وكاتباً بليغاً وشاعراً محسناً ، بديع التشبيه . وكتب عن السيد أبي الربيع سليمان ابن عبد الله بن عبد المؤمن . وله مصنفات أدبية عديدة منها اختصاره للعقد الفريد ، وجمع طرر أبي الوليد الوقشي ، وكتاب مشاهير الموشحين بالأندلس ، وهم عشرون ، ذكرهم بصفاتهم ومحاسنهم ، على طريقة الفتح في القلائد والمطمح ، وابن بسام في الذخيرة . وله رسائل عديدة . وسار إلى إشبيلية مع مخدومه السيد أبي الربيع ، حينما قدم إليها مهتاً ابن عمه الخليفة المنصور بفتح شلب ، وارتجاعها من أيدي البرتغاليين ، وهنالك توفي في شهر ربيع الآخر سنة ٥٩١ هـ^(٤) .

والحسن بن حجاج بن يوسف الهواري التجيبي ، أصله من بجاية وسكن مراكش ، ودخل الأندلس مراراً . وولى الخطبة بإشبيلية . وكان أدبياً مبرزاً

(١) ترجمته في الإحاطة مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الفزيري ، لوحة ١١ ، وفي التكملة رقم ١٤٠٧ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ٣٩٧ .

(٣) راجع ترجمة ابن طاهر في ص ٤٤٥ من القسم الأول من هذا الكتاب .

(٤) ترجمته في الذيل والتكملة ، مخطوط المتحف البريطاني ، السفر الرابع لوحات ٤١ - ٤٣ .

وكاتباً بليغاً ، أخذ عن أقطاب العصر ، وأخذ عنه عدة من الجلة ، منهم أبو الربيع ابن سالم ، وتوفي بمدينة فاس سنة ٥٩٨ هـ^(١) .

ومنهم أبو الفضل محمد بن علي بن طاهر بن تميم القيسي من أهل بجاية ، ويعرف بابن محشرة . كان عالماً متمكناً ، وأديباً بارعاً ، وكاتباً مجيداً ، وكان تلميذاً لأبي القاسم القالمى . استدعاه الخليفة أبو يعقوب يوسف ليتولى كتابة السر ، فظهر في هذا المنصب بمقدرته ، وروعة أسلوبه وبيانه . ولما توفي أبو يعقوب ، كتب من بعده لولده الخليفة يعقوب المنصور . وفي مجموعة الرسائل الموحدية ، حدد من الرسائل مدحجة بقلمه ، تشهد بتفوقه ، وتفننه في أساليب البلاغة ، وكانت وفاته في سنة ٥٩٨ هـ^(٢) .

ونسطنج أن نضع بين أعلام كتاب الأندلس في العصر الموحدى ، الرحالة ابن جبير ، وهو محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير الكنانى ، أصله من بلنسية ، ونزل أبوه شاطبة ، وانتقل إلى غرناطة . ودرس ابن جبير القراءات والحديث ، وبرع في الآداب ، وبرز في الكتابة والنظم ، وكتب في شبابه بسبته للسيد أبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، ثم كتب لوالى غرناطة ، ونال جاهاً وثراءً . ثم تزهد ورحل إلى المشرق لأول مرة في سنة ٥٧٨ هـ ، لقضاء فريضة الحج ، وسمع الحديث بمكة على أبى حفص الياشى ، وأخذ مقامات الحريرى بدمشق عن أبى طاهر الخشوعى . ثم عاد إلى الأندلس وأخذ بها عليه ما كان عنده ، وحمل عنه شعره في الزهد ، وهو كثير . وقام برحلته الثانية إلى المشرق سنة ٥٨٥ هـ ، وعاد إلى المغرب . ثم رحل رحلته الثالثة بعد سنة ٦٠١ هـ ودرس بمكة والقدس ، وحدث هناك وأخذ عنه . وتوفي بالإسكندرية في شهر شعبان سنة ٦١٤ هـ ، ومولده ببلنسية ، أو شاطبة سنة ٥٤٠ هـ^(٣) . ومن أشهر آثار ابن جبير رحلته القيمة المسماة « اعتبار الناسك » ، في ذكر الآثار الكريمة ، والمناسك « أو عبارة أخصر » رحلة ابن جبير « وفيها يدون مشاهداته وملاحظاته بأسلوب قوى شائق .

وظهر في أواسط العصر الموحدى في ميدان الكتابة بنو عيَّاش ، وهم من

(١) ترجمته في التكملة رقم ٧٢٢ .

(٢) ترجمته في « عنوان الدراية » ص ٣٠ ، وراجع المعجب ص ١٤٩ .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ١٥٨١ .

أقطاب الكتاب البلقاء ، وهم أسرة أندلسية نزحت إلى المغرب ، وكان أول من ظهر منهم في خدمة الخلافة الموحدية أبو الحسن بن عياش من كتاب الخليفة عبد المؤمن ، ثم ولده الخليفة أبي يعقوب يوسف . ومحمد بن عبد العزيز بن عياش ، كاتب الخليفة يعقوب المنصور ، ثم ولده الناصر . وأبو الحسن علي بن عياش ابن عبد الملك كاتب الخليفة الناصر وولده يوسف المستنصر . وكان أنبهم ، وأشهرهم ، هو أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عياش التجيبي ، وأصله من برشانة من أعمال ألمرية^(١) . ونزح إلى المغرب ، وسكن مراکش ، وبرع في الآداب وعلوم اللغة ، وكان قطب عصره في البيان والبلاغة ، خطيباً مصقلاً ، وله حظ من قرض الشعر . وقد وصفه ابن عبد الملك في التكملة بقوله : « كان كاتباً بارعاً ، فصيحاً ، مشرفاً على علوم اللسان ، حافظاً للغات والآداب ، كبير المقدار ، حسن الخلق ، كريم الطباع ، دفاعاً مجاهداً ، كثير الاعتناء بطلبة العلم ، والسعي الجميل لهم » ، وتولى ابن عياش منصب الكتابة للخليفة المنصور ، وظهر فيه برسائله المشرقة ، وبيانه الرائع ، عن أحوال الخلافة الموحدية ومراسيمها ، ونحركاتها^(٢) . وهو الذي دبج بقلمه المنشور الصادر بأمر المنصور ضد الفيلسوف ابن رشد وزملائه . ولما توفي المنصور ، تولى منصب الكتابة لولده الخليفة الناصر ، ثم ولده الخليفة يوسف المستنصر . وكان من أثر رجال الدولة ، وأرفعهم مكانة لدى الخلافة الموحدية . وكان صديقاً شخصياً للخليفة المنصور ، وله معه أخبار كثيرة . وتوفي أبو عبد الله ابن عياش بمراكش في شهر جمادى الآخرة سنة ٦١٨ هـ ، ومولده برشانة سنة ٥٥٠ هـ^(٣) . وتولى ولده ، أحمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن عياش ، منصب الكتابة للخليفة يوسف المستنصر ثم للخليفة المأمون ، وتولى قضاء تلمسان وسبته ، وكان كذلك كاتباً محسناً ، مشرق البيان ، بارع الطريقة ، وتوفي في محرم سنة ٦٢٩ هـ^(٤) . ومن أشهر كتاب الأندلس في هذا العصر ، الذي اضطرت فيه الفتنة في كل

(١) برشانة هي بالإسبانية Puchena .

(٢) وردت في الرسائل الخامسة والثلاثين ، والسادسة والثلاثين ، والسابعة والثلاثين ، من مجموعة رسائل موحدية نماذج بديعة من أسلوب ابن عياش .

(٣) ترجمته في التكملة رقم ١٥٩٦ ، وفي الإحاطة - مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٥٠ - ٥٩ . وقد أورد لنا أيضاً نماذج من كتابته .

(٤) ترجمته في التكملة رقم ٣٠٠ ، وفي الذيل والتكملة (مخطوط باريس لوحة ١٧٤) .

ناحية، أبو بكر عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب القيسي، وهو سليل آل خطاب أعيان مرسية ورؤسائها أحياناً منذ القرن الرابع الهجري. وكانت له كآسلافه مشاركة في العلوم، وتمكن من النثر والنظم. ولما تغلب ابن هود على مرسية في سنة ٦٢٥ هـ، اختاره لرياستها نائباً عنه، فلبث على ولايتها حتى توفي ابن هود في أوائل سنة ٦٣٥ هـ، وعندئذ، استبد عزيز بمرسية، ولكن لم يمض سوى قليل حتى تغلب عليه أبو جميل زيان أمير بلنسية السابق، وانتهى الأمر باعتقاله ثم قتله في رمضان سنة ٦٣٦ هـ. قال ابن عبد الملك في حقه «كان وجيه أهل بلده وصدرهم المعظم لديهم، مشهور الفضل لديهم، أجمل الناس صورة، وأحسنهم شارة، زاهدا ورعا ناسكا عابدا. . . حريصاً على نشر العلم، مثابراً على التدريس مستبحراً في المعارف، إلى بيان في الخطابة وبلاغة في النظم والنثر». وكان يميل إلى طرائق الصوفية وله نظم حسن، ورسائل نثرية بليغة^(١).

ومهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري المعروف بابن الحنّان وهو من أهل مرسية، وكان محدثاً راوية، وكاتباً بليغاً، وشاعراً محسناً، ظهر بثره البارع، وكتب لابن هود أيام إمارته، ثم استكتبه الرئيس أبو جميل زيان، أيام تغلبه على مرسية. ولما تغلب النصارى على مرسية سنة ٦٤٠ هـ، غادرها إلى أوريولة، واستقر بها وقتاً، ثم نرح إلى إفريقية، مع من نرح إليها من أهل الشرق، ونزل ببجاية، وكانت بينه وبين كتاب عصره أمثال أبي المطرف بن عميرة وغيره مراسلات بليغة، ظهرت فيها براعة أسلوبه. وكانت وفاته ببجاية سنة ٦٥٠ هـ^(٢).

وأحمد بن محمد بن عبد الرحمن. . . بن علي القضاعي ثم البلوي، من أهل إشبيلية، كان كاتباً مطبوعاً بارعاً في النثر والنظم. كتب في شبابه لبعض ولاة الأندلس من أبناء الخليفة عبد المؤمن وأحفاده، ثم ترك الكتابة، واشتغل بكتب الشروط. ونرح إلى مراكش في أيام الناصر، واستقر بها وقتاً، وغادرها إلى إشبيلية، ثم عاد إلى مراكش مع وفد إشبيلية الذي يحمل بيعة أهلها إلى الخليفة السعيد، ومدحه بقصيدة فريدة وخطبة بارعة، وحظي لديه، وتوفي بمراكش سنة ٦٥٧ هـ^(٣).

(١) ترجمته في الحلة السيرة لابن الأبار ص ٢٤٩ - ٢٥٣، وفي الذيل والتكلة لابن عبد الملك (مخطوط باريس).

(٢) ترجمته في الإحاطة، مخطوط الإسكوريال (١٦٧٣ الفزيري) لوحة ١٤ - ١٨. وكذلك في عنوان الدراية ص ٢١٣ - ٢١٥.

(٣) ترجمته في الذيل والتكلة لابن عبد الملك المجلد الأول (مخطوط باريس) لوحة ١٧١ و ١٧٢.

وعلى بن محمد بن علي بن هيصم الرعيني من أهل إشبيلية ، كان محدثاً ، وكاتباً بليغاً ، مشاركاً في علوم كثيرة . وغلبت عليه الكتابة السلطانية ، فبرع فيها ، وانقطع لها ، وكتب عن عدة من أمراء الأندلس والعدوة ، فكتب للمتوكل ابن هود ، ثم كتب بعد وفاته لمحمد بن الأحمر صاحب غرناطة ، ووقعت مساجلات أدبية بينه وبين أبي عبد الله بن الحنان ، وأبي المطرف بن عميرة ، ينقلها إلينا صاحب التكملة . ثم نزع من الأندلس إلى العدوة ، فكتب عن أمير سبتة ، ثم عن الأواخر من الخلفاء الموحدين ، خلفاً لشيخه أبي زيد الفازازي ، وكان من شيوخ ابن عبد الملك صاحب التكملة وتوفي بمراكش سنة ٦٦٦ هـ (١) .

ونستطيع أن نختم هذا الثبت من الكتاب ، بكتاب من أبرع وألمع كتاب الأندلس ، في عصر الانهيار ، هو أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن الحسين بن عميرة المخزومي . وأصله من جزيرة شقر من أعمال بلنسية وبها ولد سنة ٥٨٢ هـ . وسكن بلنسية ودرس بها الحديث والفقه ، ولكنه شغف باللغة وعلومها ، وبالأدب ، وبرع في النثر . قال ابن عبد الملك : « وتفنن في العلوم ، ونظر في العقليات وأصول الفقه ، ومال إلى الأدب ، فبرع فيه براعة عدبها في كبار مجيدي النظم . وأما الكتابة ، فهو علمها المشهور ، وواحدها الذي عجزت عن ثانيه الدهور » ، وقال ابن الخطيب في وصفه « كان نسيج وحده إدراكاً وتفنتاً ، بصيراً بالعلوم ، محدثاً مكثراً ، راوية ثبتاً ، متبحراً في التاريخ والأخبار ، قائماً على العربية واللغة ، جهم العيون ، غزير المعاني والمحسن » (٢) وأخذ ابن عميرة عن عدة من أقطاب عصره ، منهم أبو الخطاب بن واجب ، وأبو الربيع بن سالم ، وأبو علي الشلوبين وأبو عمر بن عات ، وأبو محمد بن حوط الله . وولى لأول أمره القضاء بأوريولة ثم شاطبة ، ولكنه ظهر في ميدان الكتابة والترسل ، وكتب عن الأمير أبي جريل زيان ، وصدرت عنه في تلك الفترة المدهمة من تاريخ شرق الأندلس رسائل عديدة ، منها ماهو موجه منه ، وهو قاض بشاطبة إلى المتوكل بن هود ، وما كتبه عن أبي جريل زيان أيام ولايته لمرسية إلى ملك قشتالة ، وإلى أبي زكريا الحفصي أمير إفريقية ، ومنها ماتبادله مع زميله وصديقه وقرينه في الشهرة والبراعة ابن الأبار

(١) ترجمته في الإحاطة مخطوط الإسكوريال السالف الذكر لوحة ٣٢٨ و ٣٢٩ . وفي الذيل والتكملة المجلد الرابع من مخطوط المتحف البريطاني .

(٢) الإحاطة لابن الخطيب (١٩٥٦) ج ١ ص ١٨٠ .

القضاعي . وقد انتهى إلينا عدد كبير من هذه الرسائل التي دجها ابن عميرة في تلك الفترة ، وكلها تدل بروعة بيانه ، ومقدرته الفائقة في الترسـل^(١) . وكان مما نقله إلينا صاحب « صبح الأعشى » من رسائله ، رسالة كتبها عن « صاحب أرغون » إلى الخليفة الموحدى يوسف المستنصر ، يخبره فيها بأن صاحب أرغون ، قد وقع بينه وبين بلده خلاف ، انتهى بنكبه ، وإخراجه من بلاده ، ففكر في « أن يلجأ إلى المقام الباهر الأنوار ، العزيز الجوار ، فقدم إلى بلنسية ، التي صدرت منها هذه الرسالة ، وبأنه إن وجد من الأمر العالى تأييداً ، واستطاع أن ينتصر على خصومه ، كانت لذلك نتائج هامة ، خصوصاً وأن له في « أرغون » كثير من الزعماء والأقارب والفرسان المناصرين له^(٢) . وقد ظن بعض الباحثين أن ابن عميرة التحق بخدمة ملك أراجون ، وكتب عنه هذه الرسالة وهو في خدمته . والحقيقة كما يبدو من نص الرسالة الواضح ، أن ابن عميرة ، كان وقت كتابة الرسالة مقبياً ببلده بلنسية ، وربما كان عندئذ يتولى الكتابة لوالها السيد أبى زيد ؛ أما « صاحب أرغون » ، الذى كتبت عنه هذه الرسالة ، فالمرجح أنه اللون فرناندو الأرجونى عم ملك أراجون الصبى « خايمى » ، وكان يحاول مع جماعة من أعيان أراجون أن يناوئه ، وأن يتزعزع العرش لنفسه^(٣) ، ومن ثم كان قدومه إلى بلنسية ، وتوجيه رسالة منها إلى الخليفة الموحدى ، وكان ذلك ، فيما يبدو حوالى سنة ١٢١٨ هـ (١٢٢٠ م) ، فى أواخر عهد المستنصر . ولما تفاقمت الحوادث فى شرق الأندلس ، وشعر ابن عميرة أنه لم يبق له ثمة أمل فى البقاء فى الوطن المنكوب ، عبر البحر إلى المغرب ، والتحق بخدمة الخليفة الموحدى الرشيد ، وكتب عنه فى أواخر عهده . ثم ولى بعد ذلك قضاء سلا ومكناسة . ولما قتل الخليفة المعتضد (السعيد) لحق بسبته ، وهنالك انقضض عليه جمع من بنى مرين وسلبوه كل أمواله ، فارتد فى أسوأ حال إلى إفريقية ، وسكن بجاية حيناً ، ثم رحل إلى تونس ، وحظى لدى أميرها المستنصر بالله ، فولاه قضاء قسنطينة ثم قضاء

(١) نشرت عدة من رسائل ابن عميرة فى صبح الأعشى وج ٦ ص ٥٣٤ وج ٧ ص ٩٨ و ٩٤ و ١١٦ . ونشرت منها عدة بكتاب زواهر الفكر ، لابن المراتب - مخطوط الإسكوريال رقم ٥١٨ الفزيرى ، ورقم ٥٢٠ ديرنبور . ونشر المقرئ بعضها فى نفع الطيب ج ٢ ص ٥٩٦ - ٦٠١ ، وفى الروض المطار - صفة جزيرة الأندلس ص ٤٨ - ٥٢ ، وكذلك الإحاطة ص ١٨٢ .

(٢) تراجع هذه الرسالة فى صبح الأعشى ج ٦ ص ٥٣٤ - ٥٣٥ .

(٣) M. Lafuente : Historia General de España T. IV, p. 69 & 70

قابس ، ثم كتب حيناً عن المستنصر . وقد كان ابن عميرة إلى جانب براعته في الكتابة ، شاعراً مجيداً له النظم الرائق . وله تأليف في « كائنة ميورقة » وسقوطها في أيدي النصارى ، نعى فيه بأسلوبه المسجع منحى العاد الأصفهاني في الفتح القدسي . وكتاب في التعقيب على فخر الدين الرازي في كتاب المعالم في أصول الفقه ، ومختصر في « ثورة المريدن » وغيرها . وجمع ابن هانيء السبتي رسائل ابن عميرة وشعره في كتاب في سفرين ، وسماه « بغية المستطرف وغنية المتطرف » من كلام إمام الكتابة ابن عميرة أبي المطرف . والحلاصة أن القاضي ابن عميرة ، مثل زميله ابن الأبار ، يمثل كلاهما بشعره ونثره نفثة من نفثات الأندلس المحتضرة ، ويودع كلاهما رسائله أنفس نماذج تراثها الأدبي الأخير . وتوفي ابن عميرة بتونس عن سن عالية ، في شهر رمضان سنة ٦٥٨ هـ ، وقيل في ذي الحجة سنة ٦٥٦ هـ^(١) .

— ٤ —

وأما عن الرواة والمؤرخين الذين ظهروا في العصر الموحدى ، فليس لدينا منهم سوى القليل ، بيد أنه قد انتهى إلينا من تراث هذه الحقبة ، عدد من المصادر القيمة الهامة ، وفي مقدمتها تلك السلسلة النفيسة من تراجم العصرين المرابطى والموحدى ، وهى التى بدأت بكتاب « الصلة » لابن بشكوال . وقد سبق أن ترجمنا لابن بشكوال ضمن مؤرخى العصر المرابطى ، وجاء ابن الأبار القضاعى فوضع معجمه « التكملة » ليتم به معجم « الصلة » وليصل بما يتضمنه من التراجم إلى ما بعد سنة ٦٥٠ هـ بقليل ، وليقدم لنا بذلك ثبنا حافلا ضخماً من أعلام الفكر الأندلسى ، فى سائر ميادينه ، خلال العصر الموحدى . وجاء من بعد ابن الأبار ، العلامة المغربى الثقة ، ابن عبد الملك المراكشى المتوفى أواخر القرن السابع ، فوضع معجمه الضخم « الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة » تكملة لهذه السلسلة النفيسة . مستدركا فيها الكثير مما فات سلفيه ، ومتوسعا فى كثير من التراجم المشتركة ، هذا إلى ما يقدمه إلينا خلال هذه التراجم عن أحداث العصر الموحدى ، سواء بالمغرب أو الأندلس من نبذ تاريخية قيمة ، ومن وثائق فريدة أحيانا . وقد عاش ابن عبد الملك فى أواخر العصر الموحدى ، وأدرك نهايته ، ثم توفى بعد ذلك بنحو ثلث قرن . وجاء أخيراً من بعد ابن عبد الملك

(١) تراجع ترجمته ابن عميرة فى الإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ١٧٩ - ١٨٦ ، وعنوان

للدراسة ص ١٧٨ - ١٨٠ .

راوية ومؤرخ أندلسي ، ولد في أواخر العصر الموحدى بالأندلس ، هو أبو جعفر ابن الزبير المتوفى في سنة ٧٠٨ هـ ، فوضع لنا معجماً جديداً من التراجم الأندلسية والمغربية ، سماه « صلة الصلة » ، وبه يضيف إلى سلسلة المعاجم السابقة ، مرحلة أخرى من تراجم العصر الموحدى .

وسوف نحاول التعريف بأولئك الرواة المؤرخين ، أصحاب المعاجم المذكورة خلال حديثنا عن المؤرخين الذين ظهوروا خلال العصر الموحدى .

كان من هؤلاء مؤرخان لا ينتميان فقط إلى العصر الموحدى ، ولكن يعتبر كلاهما من أولياء الدولة الموحدية ومؤرخيها الأوائل ، هما ابن صاحب الصلاة ، وعبد الواحد المراكشى .

فأما ابن صاحب الصلاة ، فهو عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي ، ويكنى أبا مروان وأباً محمد ، ويعرف بابن صاحب الصلاة وصاحب التاريخ . وقد سبق أن أتينا على ترجمته ، ووصف أثره التاريخي الهام عن الدولة الموحدية وهو كتاب « المن بالإمامة » ، كما أشرنا إلى ما يوجد من خلاف حول تاريخ وفاته ، وإلى ما يبدو بالرجوع إلى بعض شذور تاريخية من كتابه . أنه قد عاش حتى أواخر القرن السادس الهجري ، وتوفي فيما يرجح حوالى سنة ٦٠٥ هـ^(١) .

وأما المراكشى فهو أبو محمد عبد الواحد بن علي التيمي المراكشى ، ولد بمدينة مراكش ، حسبما يحدثنا في سنة ٥٨١ هـ ، وغادرها في صباه إلى فاس ، وهناك درس القرآن والنحو ، ثم عبر إلى الأندلس في سنة ٦٠٣ هـ ، وتجول بها حيناً ، وعاد إلى مراكش ، وبقي بها حتى سنة ٦١١ هـ ، ثم عبر إلى الأندلس مرة أخرى وهناك اتصل ببعض الولاة الموحدين ، وغادرها في أواخر سنة ٦١٣ هـ إلى المشرق ، وقضى بمصر حيناً . وكتب كتابه « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » ، وفيه يتحدث عن تاريخ الأندلس بإيجاز ، ثم تاريخ المغرب خلال عصر المرابطين والموحدين ، في شيء من التفصيل ، ويبدى عناية خاصة بسرد أخبار الموحدين ويبدى في سردها إعجاباً وعطفاً ، لما كان يربطه قبل مغادرته الأندلس والمغرب ، من أواصر المودة ببعض الولاة والأمراء الموحدين . وبالرغم مما يبدو في تاريخه من ثغرات كثيرة ، فإنه يعتبر من المصادر القيمة لتاريخ الدولة الموحدية ، لما يحتويه من إشارات ونبذ قيمة عن تاريخ الخلافة الموحدية ، منذ عهد عبد المؤمن

(١) راجع القسم الأول من هذا الكتاب ص ١٠٩ .

حتى عهد الناصر . ولم نعث على تاريخ وفاته^(١) .

ومنهم محمد بن سعيد بن محمد . . بن مدرك الغساني من أهل مالقة ، درس الحديث والفقه على عدة من أعلام عصره ، ومنهم أبو بكر بن العربي ، وبرع في الرواية والتاريخ وتحقيق الأنساب ، وكان يفتي مكتبة من أكبر مكاتب بلده . ولم يذكر له تاريخ وفاة^(٢) .

وأحمد بن محمد الأزدي المؤرخ من أهل قرطبة ، كان من تلاميذ ابن بشكوال وأخذ عنه كثيراً ، وكان يلزم المسجد الجامع ، متعبداً مبتتلاً ، وقيد كثيراً من التواريخ والمواليد والوفيات ، ولكن لم يصلنا من آثاره شيء ، وتوفي سنة ٦١١ هـ^(٣) ومن أشهر مؤرخي العصر الموحدي بالاندلس ، أبو القاسم محمد بن عبد الواحد بن ابراهيم بن مفرج بن حريث بن مروان الغافقي ، من أهل غرناطة ويعرف بالملطحي نسبة إلى « الملاحة » وهي قرية من أعمال البيرة على مقربة من غرناطة ، وكان بها منزل سلفه . درس الحديث وشغف بالرواية والأدب والسير ، وأخذ عن عدة من أقطاب عصره ، مثل أبي الحسن بن كوثر ، وأبي محمد ابن الفرس ، وأبي عبد الله بن بونه ، وأبي بكر بن أبي زمين وغيرهم ، وكان محدثاً ورواية متقناً ، وأديباً مؤرخاً بارعاً . وله عدة مؤلفات أشهرها كتابه « تاريخ علماء البيرة وأنسابهم وأنبأهم » ، وهو مؤلف يقتبس منه المتأخرون بكثرة مثل ابن الخطيب وغيره . ومن مؤلفاته أيضاً « كتاب الشجرة في أنساب الأمم العرب والعجم » وكتاب الأربعين حديثاً ، وله استدراك على كتاب الصحابة لأبي عمر ابن عبد البر . توفي في شهر شعبان سنة ٦١٩ هـ ، ومولده سنة ٥٤٩ هـ^(٤) .

ومنهم عيسى بن سليمان بن عبد الله بن عبد الملك الرعيني ، ويعرف بالرندي ، لأن أصله من رندة وسكن مالقة . غنى بالإسناد والرواية ، وأخذ بالاندلس عن عدة من الأشياخ ، ورحل إلى المشرق وحج ، وأخذ هنالك عن كثيرين ، وأنفق في المشرق نحو عشرين عاماً ، ثم عاد إلى بلده مالقة ، وأخذ عنه الكثيرون ، وكان ضابطاً متقناً ، عارفاً بالرجال والأسانيد ، وألف كتاباً في « الصحابة » ووضع معجم أشياخه . وتوفي سنة ٦٣٢ هـ^(٥) .

(١) راجع المعجب ص ١٣٠ و ١٨٧ و ١٨٩ و ٢٠٣ حيث يشير المراكشي إلى بعض مراحل حياته .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ١٤١٢ . (٣) ترجمته في التكملة رقم ٢٦٩ .

(٤) ترجمته في التكملة رقم ١٦٠٤ ، وفي الإحاطة مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الفزيرى لوحة ١٤٦ .

(٥) ترجمته في صلة الصلة لابن الزبير ص ٥١ .

ومحمد بن عبد الله بن ابراهيم بن عبد الله بن قسوم اللخمي من أهل إشبيلية ، كان أديبا شاعراً راوية . وعكف على الزهد والعبادة ، فطار ذكره ، وقصر شعره على الزهد والمرافى ، وأخذ البعض عنه . وعنى بالسير ، وألف كتابا سماه « محاسن الأبرار في معاملة الجبار » يشتمل على أخبار الصالحين من أهل إشبيلية . وتوفى في ذى الحجة سنة ٦٣٩ هـ (١) .

على أن أعظم أقطاب الرواية والتاريخ ، في هذه الفترة القائمة من تاريخ الأندلس ، هو بلا ريب أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار . وقد أثرنا أن نضع هذا المفكر الأندلسي العظيم بين المؤرخين ، لأن تراثه التاريخي هو أقيم ما انتهى إلينا من آثاره العديدة . ذلك أن ابن الأبار ، هو علامة متعددة الجوانب ، فهو فقيه راسخ ، وكاتب بلغ ذروة البيان ، وشاعر مبدع مبكى ، ثم هو بعد ذلك كله مؤرخ محقق ، وكان مولده بشعر بلنسية في سنة ٥٩٥ هـ ، في بيت علم ونبل ، وأصلهم من أندة على مقربة من غربي بلنسية . ودرس ابن الأبار على أبيه عبد الله ، وعلى عدة من أقطاب عصره ، منهم أبو عبد الله ابن نوح ، وأبو جعفر الحصار ، وأبو الخطاب بن واجب ، وأبو سليمان بن حوط الله ، وكبير محدثي الأندلس يومئذ أبو الربيع بن سالم ، وقد لازمه ابن الأبار أكثر من عشرين سنة ، وهو الذي أشار عليه فيما بعد أن يضع معجمه الشهير « التكملة » لكتاب الصلة . وبرع ابن الأبار في اللغة والأدب ، وشغف بالأخبار والسير ، ورحل في مطلع شبابه إلى غربي الأندلس ، فزار قرطبة ، ثم إشبيلية ، وهو يأخذ أينما حل عن أساتذة العصر . وتولى ابن الأبار في شبابه قضاء دانيه (٢) ، ولكن القدر كان يدخره لمهام أخطر . ذلك أنه تولى منصب الكتابة للسيد أبي زيد والي بلنسية الموحدى ، ولما اضطربت الثورة ببلنسية ضد الموحدين وغلب على بلنسية الرئيس أبو جميل زيان بن مردنيش ، تولى ابن الأبار له منصب الكتابة ، ولكنه لم يمكث طويلا في ذلك المنصب ، وشاء القدر أن تسقط بلنسية في أيدي النصارى سنة ٦٣٦ هـ ، وأن يكون ابن الأبار يوم تسليمها إلى جانب أميره ، وأن يقوم هو بتحرير شروط التسليم ، وكان ذلك بعد أن عبر ابن الأبار البحر سفيراً إلى تونس يطلب إلى أميرها باسم أميره ، وباسم الإسلام في الأندلس ، الإنجاد

(١) ترجمته في التكملة رقم ١٦٦٩ .

(٢) هذا ما يستفاد من قول ابن الأبار في التكملة في الترجمة رقم ٢١١٧ .

والغوث ، وينشد بين يديه قصيدته السنية الرائعة التي مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا
وقد أتينا على ذلك كله مفصلاً في موضعه . ونود أن نضيف هنا أن ابن الأبار
هزته هذه المحنة إلى الأعماق ، فلم يطق البقاء في الوطن المنكوب ، وغادر الأندلس
وعبر البحر مرة أخرى إلى تونس ، فوصلها في أواخر سنة ٦٣٦ هـ^(١) . وعاش
حيناً في كنف أميرها أبي زكريا الحفصي يتولى له كتابة العلامة ، ثم أخذ يتردد
بين تونس وبجاية يدرس هنا وهناك . ولما توفي الأمير أبو زكريا في سنة ٦٤٧ هـ ،
وخلفه ولده المستنصر بالله ، التحق ابن الأبار ببطانته العلمية ، ولكنه لم يكن قريراً
مطمئناً إلى هذه الحياة ، لما كان يتخللها من غضب السلطان بسبب دسائس
خصومه أحياناً ، وبسبب تصرفاته الشخصية الزقة أحياناً أخرى . واستطاع
خصوم ابن الأبار في النهاية أن يوقعوا به ، ورفعت إلى السلطان بعض أقوال
وأبيات شعر نسبت إليه طعناً في السلطان وتعريضاً به ، فأمر المستنصر بجلده ثم
بقتله ، فجلد بالسياط ، ثم قتل طعناً بالرماح ، وأخذت كتبه وأحرقت في موضع
قتله . ووقع مصرع ابن الأبار على هذا النحو المؤسى في الحادى والعشرين من
شهر المحرم سنة ٦٥٨ هـ (٨ يناير سنة ١٢٦٠ م) ، واختتمت بذلك حياة أعظم
شخصية في الأدب الأندلسي في القرن السابع الهجرى .

وقد ترك لنا ابن الأبار تراثاً حافلاً من المنشور والمنظوم ، والمصنفات التاريخية
الجليلة . وأقوى وأروع ماصدر عن الأبار من نثر ونظم ، هو ما كتبه أيام المحنة ،
أيام انهيار الأندلس ، وأيام سقوط وطنه بالنسية ، من القصائد والرسائل ، التي
ما زالت تحتفظ حتى يومنا برنينها المبكى ، الذي يتفطر له الفؤاد ، وقد أشرنا إلى
بعضها فيما تقدم من فصول هذا الكتاب . وأما تراثه التاريخي ، فهو من أنفس
ما انتهى إلينا عن تاريخ الأندلس ، وتاريخ رجالاتها ، ولا سيما في القرن السادس
الهجرى ، وأوائل القرن السابع ، وقد كان ابن الأبار وزيراً وكاتباً ، ومعاصراً
لكثير من الحوادث التي يرويها . وأهم مصنفاته التاريخية هو بلا ريب كتاب
« التكملة لكتاب الصلة » وهو موسوعة حافلة في التراجم ، يتخللها كثير من النبذ
التاريخية الهامة ، وقد وضعه ابن الأبار تنفيذاً لإشارة أستاذه أبي الربيع بن سالم
كبير علماء الشرق الأندلسي يومئذ ، وأريد به أن يكون « تكملة » لكتاب الصلة

(١) هذا ما يقوله ابن الأبار في التكملة في الترجمة رقم ١٨٨٠

لابن بشكوال القرطبي ، ويقول لنا ابن الأبار إنه كان قد انتهى من وضع كتاب « التكملة » في سنة ٦٣٦هـ^(١) ، وهناك ما يدل على أنه لبث ينقحها ويزيد فيها حتى أواخر سنة ٦٥٥هـ أعنى إلى ما قبل وفاته بنحو عامين^(٢) . وظاهر من محتويات « التكملة » أن ابن الأبار يعنى عناية خاصة بعلماء شرق الأندلس ، وأحداثه التاريخية ، وهى المنطقة التى ولد فيها ، وسلخ فيها شبابه ، واكتمل نضجه ، واتصل بالعدد الجم من علمائها . وكتاب « الحلة السراء » وهو أيضاً مجموعة نفيسة من تراجم رجال الأندلس والمغرب وغيرهم ، تبدأ من المائة الأولى للهجرة حتى أوائل المائة السابعة ، وكتاب « المعجم فى أصحاب القاضى أبى على الصدفى السرقسطى » ينحو نحو القاضى عياض فى وضعه لمعجم شيوخه^(٣) ، وهذه هى معاجم التراجم الكبيرة ، التى انتهت إلينا من تراث ابن الأبار ، وهناك ما يدل خلال بعض تراجم التكملة أن الأبار قد وضع معجماً لشيوخه ، ومعجماً آخر فى أصحاب ابن العربى . وانتهت إلينا من قلمه مجموعة صغيرة أخرى من التراجم عنوانها « إعتاب الكتاب » تشتمل على تراجم طائفة من كتاب الأندلس وبعض الكتاب المشاركة^(٤) ، ولابن الأبار مؤلفات أخرى لم تصل إلينا منها كتاب « درر السمط فى أخبار السبط » ، وهو مؤلف يشير إليه المقرئ نفح الطيب ويقتبس منه^(٥) ، وكتاب « معدن اللجين فى مرآئى الحسين »^(٦) . ويوجد بمكتبة الإسكوريال كذلك مخطوط عنوانه « تحفة القادى » من تأليف ابن الأبار ، يوصف بأنه « مقتضب من كتاب تحفة

(١) راجع التكملة فى الترجمة رقم ١٦٩٠ .

(٢) هذا ما يبدو من مراجعة ماورد فى الترجمة رقم ١٦٥٢ .

(٣) نشر كتاب التكملة فى مجلدين بمديرية منذ سنة ١٨٨٧ ضمن المكتبة الأندلسية . ونشر كذلك فى طبعة ناقصة بالقاهرة (١٩٥٥) . ونشر كتاب المعجم فى أصحاب القاضى أبى على الصدفى أيضاً ضمن المكتبة الأندلسية (سنة ١٨٨٦) . ونشر كتاب الحلة السراء بعناية المستشرق دوزى فى طبعة ناقصة حذف منها كثير من التراجم (سنة ١٨٥١) نشر بعضها بمعرفة دوزى أيضاً فى مجموعة « نصوص بنى عباد » *Historia Abbadidarum* ، والبعض الآخر بعناية المستشرق ميللر فى : *Beiträge* . وقد قام أخيراً الدكتور حسين مؤنس بإصدار طبعة كاملة محققة من الحلة السراء فى مجلدين (القاهرة سنة ١٩٦٤) وذلك أثناء قيامنا بطبع هذا الكتاب .

(٤) وتوجد منه نسخة قديمة بالية ، بمكتبة الإسكوريال رقم ١٧٣١ الفزيرى .

(٥) راجع نفح الطيب ج ٢ ص ٦٠١ - ٦٠٤ حيث يقتبس المقرئ منه عدة فصول .

(٦) وقد ورد ذكره خلال الترجمة رقم ١٦٥٤ من كتاب التكملة حيث يشير ابن الأبار نفسه إلى أنه ألف كتاباً بهذا الاسم .

القادم » وهو حسبما يصفه ابن الأبار في الديباجة « اقتضاب من بارع الأشعار » وفيه يورد ابن الأبار تراجم بعض الشعراء الأندلسيين والغرباء ، ومختارات من من أشعارهم^(١) . وذكر لنا ابن الأبار في الحلة أن له مؤلفاً آخر عنوانه « إيماض البرق في أدباء الشرق »^(٢) .

وبعد فهذه لمحة في التعريف بابن الأبار وتراثه ، حسبما وسع هذا المقام المخلود . وقد خلدت لنا آثار ابن الأبار صوراً حية من محنة الأندلس ، وعوامل انهيارها ، لم يستطع كاتب آخر من معاصريه ، أن يقدم إلينا شيئاً يدانيها . وما زالت هذه الآثار حتى يومنا ، أهم وأوثق مصادرنا عن تلك الفترة المشجية من التاريخ الأندلسي^(٣) .

ومن الأدباء المؤرخين الذين نبغوا في تلك الفترة ، على بن موسى بن سعيد الأندلسي ، المعروف بابن سعيد المغربي ، وأصله من سادة قلعة يحصب من أعمال شمالي غرناطة ، وهو أديب ورحالة وسليل أسرة من الأدباء والمؤرخين ، تعاقب منها قبله خمسة في مدى قرن ، على تصنيف مؤلف ضخم في فضائل مدن الأندلس والمغرب والمشرق ، بضم كتابين كبيرين هما « كتاب المشرق في حلى المشرق ، و « كتاب » المغرب في حلى المغرب » وأتمه على بن موسى آخر من نبغ من هذه الأسرة . وقد ولد بغرناطة سنة ٦١٠ هـ ، وتجول بقواعد الأندلس ، والمغرب والمشرق ، وتوفي بدمشق سنة ٦٧٣ هـ ، ومؤلفه أثر أدبي كبير ، تاريخي جغرافي ، بارع الأسلوب . وله كتب أخرى منها « المرقص والمطرب » وملوك الشعر ، والطلالع السعيد في تاريخ بني سعيد ، ولذة الأحلام في تاريخ أمم الإعجام ، ونشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب ، وغيرها^(٤) .

ومن المؤرخين المغاربة في العصر الموحدى ، أحمد بن يوسف بن أحمد ابن يوسف بن فُرتون السلمى ، من أهل مدينة فاس ، واستوطن سبتة ، ويعرف

(١) يحفظ هذا المخطوط بمكتبة الإسكوريال برقم ٣٥٦ الفزيرى .

(٢) الحلة السيرة ص ٢٢٢ .

(٣) راجع ترجمة ابن الأبار في فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٢٦-٢٢٧ ، ونفع الطيب ج ٢

ص ٥٧٨ - ٥٨٠ ، وعنوان الدراية ص ١٨٣ - ١٨٦ ، والزركشى في تاريخ الدولتين ص ٢٧ .

وراجع أيضاً في ترجمة ابن الأبار وتعداد آثاره Pons Boigues; ibid, p. 291-296 .

(٤) ترجمته في فوات الوفيات ج ٢ ص ٨٩ - ٩١ وكذلك في : Pons Boigues : p. 306

بابن فرتون ، غنى بالتاريخ والسير ، وتراجم الرجال ، إلى جانب عنايته بالحديث ، وألف مجموعاً في التراجم عنوانه « الذيل » ، وتوفى بسببته في شعبان سنة ٦٦٠هـ^(١).

ونبغ في أواخر العصر الموحدى ، وتجاوزته بقليل عدة من المؤرخين ، وأصحاب المعاجم والسير ، التى كانت من أخصب مصادرنا فى كتابة تاريخ العصر الموحدى وتراجم رجاله ، وفى مقدمة هؤلاء أبو عبد الله محمد المراكشى المعروف بابن عذارى صاحب الموسوعة الحليلة فى تاريخ المغرب والأندلس ، « البيان المغرب » ، وهى التى كانت من أهم وأوثق مصادرنا . وقد أشرنا إليها وإلى أهميتها فى بداية هذا الكتاب ، فى الفصل الذى كتبناه عن « المصادر » . أما عن حياة ابن عذارى فلسنا نعرف الكثير ، ولانعرف إلا أنه عاش فى النصف الثانى من القرن السابع وأوائل القرن الثامن ، وكان حياً فى سنة ٧١٢هـ ، حسبما يذكر لنا ذلك فى مؤلفه ، وربما توفى بعد ذلك بقليل^(٢) .

وابن القطان صاحب كتاب « نظم الحمان » ، وقد كان حياً فى عصر الخليفة المرتضى ، وقد أشرنا إلى ذلك فى فصل المصادر .

وأحمد بن إبراهيم بن الزبير بن الحسن بن الحسين بن الزبير ، الشهير بابن الزبير ، وهو أندلسى من أهل جيان ولد بها سنة ٦٢٧هـ ، وتوفى بقرطبة سنة ٧٠٨هـ ، وكان محدثاً مثقفاً . وقد ترك لنا مجموعة نفيسة من التراجم عنوانها « صلة الصلة » مديلاً بها على صلة ابن بشكوال ، ومنها كثير من التراجم لرجال العصرين المرابطى والموحدى^(٣) .

وأبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأنصارى الأوسى ، المراكشى ، وقد كان فقيهاً جليلاً ، ومؤرخاً ثقة ، تولى قضاء الجماعة حيناً . ويصفه ابن الخطيب خلال ترجمته لولده « بقاضى القضاة ، نسيج وحده الإمام العالم التاريخى المتبحر فى الأدب »^(٤) ، وقد ترك لنا ابن عبد الملك موسوعة من أجل موسوعات التراجم لرجال المغرب والأندلس ، تشغل عدة مجلدات كبيرة ، وتوجد منها نحو خمسة مجلدات ، مبعثرة بالمتحف البريطانى ، والمكتبة الوطنية

(١) ترجمته فى مقدمة صلة الصلة (ص ط) (٢) راجع البيان المغرب القسم الثالث ص ٤٥٤ .

(٣) نشر كتاب « صلة الصلة » بعناية المرحوم الأستاذ لئى بروفسال (الرباط سنة ١٩٣٧) ، ووردت به ترجمة ابن الزبير فى المقدمة (ص ٥) منقولة عن تكملة ابن عبد الملك .

(٤) فى الإحاطة فى ترجمة محمد بن عبد الملك ولد المؤرخ ، مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الفزيرى لوحة ٦٧ .

بباريس ، ودار الكتب المصرية ، ومنها قطعة بالإسكوريال ، وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل الخاص بالمصادر . أما عن حياة مؤلفها فلسنا نعرف الكثير ، ولا نعرف إلا أنه عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجرى ، وتوفى أو أواخر هذا القرن وربما في أوائل القرن الثامن (١) .

وتسمى موسوعة ابن عبد الملك « بالذيل والتكملة لكتايب الموصول والصلة » أى لكتايب « ابن القرضى وصلة ابن بشكوال » وقد كتبت تراجمها بأغة أدبية ونقدية قوية ، وتخللتها نبذة تاريخية عديدة هامة ، انتفعنا بالكثير منها .

(١) ذكر بونس بويجيس P. Boignas في معجمه في ترجمة ابن عبد الملك أنه كان معاصراً للعبدى صاحب « الرحلة المغربية » التى كتبت في سنة ٦٨٨ هـ ، وأنه يجب أن يكون قد توفى في سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) *Historiadores y Geograficos Arab. Espanoles* (ص ٣١٠ و ٤١٤) . وقد وهم هذا العلامة فيما استنتج . وقد وقفنا على ما يدحض هذا الوهم ، أولاً في الجزء المحفوظ من التكملة المحفوظ بمكتبة الإسكوريال (١٦٨٢ الغزيرى) ففيه يترجم ابن عبد الملك لأبى الطيب صالح ابن شريف الرندى المتوفى سنة ٦٨٤ هـ ويذكر في هذا الترجمة كما يأتى « وروى عنه جماعة من أصحابنا ، وكتب إلى بإجازة مارواه وألفه وأنشأه نظماً ونثراً » ومعنى ذلك أن ابن عبد الملك ، أخذ عن الرندى وتعلمذ عليه ، فهو بذلك متأخر عنه ، وثانياً وقفنا في كتاب الإحاطة لابن الخطيب (مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الغزيرى) على ترجمة لمحمد بن محمد بن عبد الملك وهو ابن صاحب التكملة ، وفيها أنه توفى في وقعة على المسلمين من جيش مالقة في شهر ذى القعدة سنة ٧٤٣ هـ (لوحة ٦٧ - ٧٤ من المخطوط) وهو ما يؤيد مرة أخرى أن صاحب التكملة امتدت حياته فيما يرجع إلى أواخر القرن السابع أو أوائل القرن الثامن الهجرى .

الفصل الرابع

الحركة الفكرية الأندلسية

خلال العصر الموحدى

القسم الثالث

إزدهار العلوم في ظل الدولة الموحدية . أعلام الطب في العصر الموحدى . أبو جعفر الغافق القرطبى . ابن غلندة الأموى . أبو مروان بن جريول . محمد بن عبد الملك بن زهير . أبو جعفر ابن حسان القضاء . عبيد الله بن الوليد المذحجى . محمد بن على القرشى الزهرى . علماء النبات . أبو على ابن مفرج البكرى الأشبونى . جودى بن عدنان القيسى . ابن مفرج الأموى المعروف بابن الرومية . ابن البيطار المائى . علماء الرياضيات . ابن سهل الضرير . أبو اسحق البطروجى المراكشى . عبد الله ابن محمد بن حجاج . محمد بن بكر الفهرى . الحسن بن على المراكشى . أبو بكر الرقوطى المرسى . العالم الزراعى ابن العرام الإشبلى . عباقره الطب والفلسفة . أبو بكر بن طفيل القيسى . رسالة « حى ابن يقظان » . أبو الوليد ابن رشد . تصانيفه الفلسفية والطبية . اتهامه ونكبتة أيام المنصور . الرئيس موسى بن ميمون القرطبى . الفنون في ظل العهد الموحدى . تحول الخلافة الموحدية إلى ملك دنيوى باذخ . الإلتجاء إلى استكان مظاهر الأبهة المملوكية . إنشاء مدينة جبل طارق . رعاية الدولة الموحدية للفنون المعارية . المنشآت الموحدية بإشبيلية . القصور الموحدية والجامع الأعظم وصومعته . قصر السيد أبى يعقوب بقرطبة . قصر السيد أبى اسحق بفرناطة . بعض أقطاب الهندسة والفن في هذا العصر . صدق هذه الحركة العمرانية والفنية في العاصمة الموحدية . ضاحية الصالحة . صومعة الكتبية . الموسيقى وإغفال شأنها . فن كتابة المصاحف . تفوق الفنون الموحدية في المنشآت الدفاعية .

بقى علينا أن نستعرض من الحركة الفكرية الأندلسية خلال العصر الموحدى ، ناحية من أهم نواحيها ، وهى ناحية العلوم والفنون . ففي هذا الميدان ميدان العلوم والفنون ، تصل الحركة الفكرية الأندلسية إلى ذروة قوتها وازدهارها ، وتسطع خلالها أسماء من أعظم شخصيات التفكير الأندلسى ، بل من أعظم شخصيات التفكير الإسلامى ، على الإطلاق ، ويكنى أن يكون من بينها ، عبقریات مثل ابن طفيل ، وابن زهر ، وابن رشد ، وابن الرومية ، وابن البيطار .

لم تكن الدولة الموحدية ، بالرغم من صفتها الدينية الراسخة ، من الناحية الفكرية ، كالدولة المرابطية ، دولة رجعية تطارد العلوم والفلسفة ، بل كانت بالعكس حسبا بينا من قبل ، دولة تفسح للتفكير مجالاته ، لما كان يتصف به

مؤسسها الروحي وخلفاؤه من الصفات العلمية البارزة، وإذا استثنينا بعض حوادث المطاردة الفكرية ، مثل حادث اتهام ابن رشد وزملائه أيام المنصور ، فإننا نستطيع أن نصف الدولة الموحدية ، بأنها كانت دولة حامية للعلوم ، كما كانت حامية للآداب ، حامية للفنون في نفس الوقت ، حامية تشهد بها منشآتها العمرانية العظيمة في المغرب والأندلس

ولدينا في الواقع ثبت حافل ، من أكابر العلماء الذين نبغوا في ذلك العصر في مختلف العلوم ، في الطب والنبات والرياضة والفلك والهندسة وغيرها ، وإذا كان هذا الثبت ليس مرتفعا من الناحية العددية ، كما هو الشأن في ميدان العلوم الدينية والنظرية ، فإنه يضم أقطابا من الطراز الأول ، من أساتذة الطب والفلسفة والنبات في العصور الوسطى .

- ١ -

ولنبدا بذكر أعلام الطب في هذا العصر ، وقد كانت منهم ثمة جبهة كبيرة ، وأقطاب عظام .

كان من هؤلاء أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقي القرطبي ، برع في الطب والنبات ، وتجول في أنحاء الأندلس وإفريقية ، وجمع منها أصنافا عديدة من النباتات الطبية ، وقام بتصنيفها من الناحية العلمية ، وسجلها بأسائها العربية واللاتينية والبربرية ، وكان كتابه « الأدوية المفردة » من أهم المراجع الطبية في عصره . وتوفي سنة ٥٦١ هـ

وعبيد الله بن غلندة الأموي ، أصله من سرقسطة ، وسكن إشبيلية . غادر أهله سرقسطة حين تغلب عليها النصاري في سنة ٥١٢ هـ ، ونزلوا أولا بقرطبة ، وبها درس عبيد الله ، ثم رحل منها إلى إشبيلية واستقر بها ، وبرع في الأدب والشعر . ولكنه برع في الطب في نفس الوقت ، وذاع صيته كطبيب ماهر في العلاج . وفي أواخر حياته عبر البحر إلى المغرب ، واستقر بمدينة مراكش ، وبها توفي في سنة ٥٨١ هـ ، وقد بلغ السابعة والتسعين من عمره (١) .

وممنهم أبو مروان عبد الملك بن محمد بن جرير بن أهل بلنسية ، وسكن قرطبة ويعرف بابن كنبراط ، كان من المبرزين في معرفة الطب ، المتقدمين في صناعته ، وعنه أخذ كثير من أقطاب العصر ، وفي مقدمتهم العلامة

ابو الوليد بن رشد ، وغيره . ولم يذكر تاريخ لوفاته^(١) .
وعبد الله بن سيد أمير اللخمي من أهل شلب ، من ناحية الغرب ، برع في الحديث والنحو وكانت له مشاركة في علم الطب عرف بها ، وانتفع به^(٢) .
ومنهم ، ومن أشهرهم وألعهم ، أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زهر ابن عبد الملك بن زهر الأيادي ، سليل الأسرة الإشبيلية الشهيرة ، ولد العلامة والطبيب العظيم أبي مروان عبد الملك ، وحفيد أبيه وقرينه في النبوغ أبي العلاء ابن زهر . وقد سبق أن قمنا بالتعريف بالأب والجد في القسم الأول من هذا الكتاب^(٣) . ودرس أبو بكر علم الطب على أبيه وجده ، وبرع في نفس الوقت في الحديث والأدب واللغة ، ولكنه تفوق في صناعة الطب ، وبلغ الغاية منها ، وحظى لدى حكومة الموحدين ، منذ أيام أبي يعقوب يوسف ، وتولى في بلده إشبيلية بعض المناصب الإدارية الهامة ، ثم عين فيما بعد طبيباً خاصاً للخليفة أبي يعقوب المنصور ، وبلغ في ظل الخلافة الموحدية ذروة الجاه والنفوذ ، وتوفي بمراكش في أواخر شهر ذي الحجة سنة ٥٩٥ هـ ، وصلى عليه الخليفة (محمد الناصر) ودفن بروضه الأمراء ، ومولده في سنة ٥٠٧ هـ^(٤) .
ومنهم أحمد بن داود بن يوسف الخدّام من أهل باغة من عمل غرناطة ، كان أدبياً نحوياً عالماً باللغة ومن العارفين بصناعة الطب . ومن مؤلفاته الأدبية شرحه لكتاب آداب الكتاب لابن قتيبة ، وبدأ في وضع شرح لمقامات الحريري ولم يتمه . وتوفي في سنة ٥٩٨ هـ^(٥) .
وأبو جعفر بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن حسان القضاعي ، أصلة من أندلس من عمل بلنسية ، وولد بمرسية ، ودرس الحديث ، ورحل إلى المشرق مرافقاً لابن جبير في رحلته ، وسمع معه في دمشق وبغداد وغيرها ، وعاد معه إلى المغرب وكانت أبرز خلة لدى أبي جعفر هي براعته في صناعة الطب ، وتحقيقه من دقائقها ، وقد وضع فيها تأليفاً مفيداً لم يذكر لنا عنوانه . وتوفي بمراكش سنة ٥٩٩ هـ^(٦) .
وعبيد الله بن محمد بن عبيد الله . . بن إبراهيم بن الوليد المذحجي ، من أهل باغة ، وسكن قرطبة ودرس بها الحديث والأدب والطب ، وأخذ الطب بنوع

(١) ترجمته في التكملة (الأندلسية) رقم ١٧١٤ . (٢) ترجمته في التكملة رقم ٢٠٧٥ .
(٣) راجع ص ٤٧٣ من القسم الأول من هذا الكتاب . (٤) ترجمته في التكملة رقم ١٤٩٩ .
(٥) ترجمته في التكملة رقم ٢٤٠ . (٦) ترجمته في التكملة رقم ٢٤١ .

خاص عن أبي مروان عبد الملك بن جُرَيْوَل البنسِي ، وأبي نصر بن الحجام ،
ومحمد بن ظهير وغيرهم ، وعنى ببقاء الشيوخ من المحدثين والأطباء ، وكان فوق
مهارته في الطب أدبياً يجيد النظم والنثر . وذكر ابن الطيلسان أنه سليل أسرة من
الأطباء تعاقب أبناؤها في المهنة منذ عهد عبد الرحمن الداخل . وتوفي ابن الوليد
في ربيع الآخر سنة ٦١٢ هـ (١) .

ومحمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن القرشي الزهري من أهل إشبيلية ،
درس الحديث والرواية ، ولكنه شغف بالطب ، ومهر فيه ، وكان يقصده
الحكام والكبراء للعلاج ، ولما مرض والي إشبيلية الموحدى ، كان ممن شاركوا
في علاجه ، توفي سنة ٦٢٣ هـ ، وقد جاوز التسعين من عمره (٢) .

وأحمد بن عتيق بن علي بن خلف . . بن سعيد ، من سلالة عبد الرحمن الداخل ،
أصله من سرقسطة . كان عالماً نابهاً متقناً للطب وعلوم الأوائل . ولى القضاء بشرى
حيناً . ثم اتصل بأبي العلي المأمون أيام ولايته لإشبيلية فحظى لديه ، ولما دعا المأمون
لنفسه بالخلافة ، وجهه إلى قبائل العدو ليستميل شيوخها إلى بيعته ، فنجح في
مهمته . ثم صحب المأمون إلى العدو ، ولكنه لما شعر باضطراب الأحوال استأذن
المأمون في العودة إلى الأندلس ، ونزل بمالقة ، فألفاها قد خلعت طاعة الموحدين
وانضمت إلى ابن هود . واتجهت إليه الريبة عندئذ بأنه حضر إلى مالقة ليروج
بها دعوة المأمون واعتقله الوالى ، ولكن العامة ألحوا عليه في إخراجه وهددوه
فأخرجه إليهم فقتلوه ، وذلك في ربيع الآخر سنة ٦٢٧ هـ (٣) .

ومحمد بن علي بن سليمان بن رفاعة من أهل شريش ، عنى بالحديث والرواية
والأدب ، وكانت له مشاركة في الطب ، وكان من أساتذته أبو بكر بن زهر ،
وتوفي سنة ٦٣٦ هـ (٤) .

وعبد الله بن أحمد عبد الله . . بن حفص الأنصارى من أهل دانية ، وسكن شاطبة ،
درس الحديث والعربية والأدب ، ورحل إلى المشرق فسمع بالإسكندرية ودمشق
والموصل ، ومال إلى علم الطب وعنى به ، ومهر فيه . وعاد من رحلته الأولى إلى المغرب
ونزل بتونس حيناً ، ثم رحل ثانية إلى المشرق ، وتوفي بالقاهرة في سنة ٦٤٦ هـ (٥) .

(١) ترجمته في التكملة رقم ٢١٨٤ . (٢) ترجمته في التكملة رقم ١٦١٨ .

(٣) ترجمته في الذيل والتكملة لابن عبد الملك - المجلد الأول من مخطوط باريس لوحة ٦٧ و ٦٨ .

(٤) ترجمته في التكملة رقم ١٦٦٦ . (٥) ترجمته في التكملة رقم ٢١٢٢ .

هؤلاء هم طائفة من الأطباء الذين ظهوروا في العصر الموحدى ، ولم نذكر من بينهم أقطاب الطب العظام مثل ابن طفيل ، وابن رشد ، وابن ميمون ، لأننا أثّرنا أن نذكر هؤلاء بين الفلاسفة ، وهى الصفة الغالبة عليهم بالرغم من مثولهم بين أعظم الأطباء في العصور الوسطى .

- ٢ -

ونبغ في هذا العصر عدة من علماء النبات ، منهم اثنان من أعظم النباتيين في العصور الوسطى ، وهما ابن الرومية الإشبيلي ، وابن البيطار المالقي ، ونحن نذكرهم فيما يلي : كان منهم أبو على حسن بن أحمد بن عمر بن مفرج البكرى الأشبونى ، لأن أصله من أشبونة عاصمة البرتغال الإسلامية ، وسكن الجزيرة الخضراء ، يعرف بالزرقالة ، درس الحديث والأدب ، ولكنه مهر في الطب والعلاج ، وفى تمييز النبات والعشب ، وفاق فى ذلك أهل عصره ، وكان يقرض الشعر فى نفس الوقت وتوفى سنة ٦١٣ هـ (١) .

وجودى بن عبد الرحمن بن جودى . . بن عدنان القيسي من أهل وادى آش ، درس القرآن والعربية على جماعة من أقطاب عصره مثل أبي جعفر بن حكيم ، وأبي بكر بن أبي زمنين ، وأبي القاسم بن سمجون وغيرهم ، وكانت له معرفة بالنبات وتمييزه ، مع اشتهاؤه بالأدب فى نفس الوقت . وتوفى ببلده سنة ٦٣١ هـ (٢) .

على أن أعظم النباتيين والعشابين فى العصر الموحدى ، بل أعظم النباتيين المسلمين فى سائر العصور ، هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرج الأموى ، المعروف بابن الرومية ، وبالعشاب ، والنباتى . ولد بإشبيلية فى المحرم سنة ٥٦١ هـ ، وأصلهم من قرطبة ، ودرس الحديث على جماعة من أقطاب العصر مثل أبي بكر ابن الحد وأبى عبد الله بن زرقون ، وأبى الوليد بن عفير ، وعبد المنعم بن الفرس ، وأبى ذر الحشنى وغيرهم ، وتجول فى طلب العلم ، وسمع الحديث ، حتى صار فيه إماما حافظا ، ناقدآ ، ذا كراً تاريخ المحدثين وأنسائهم وموالدهم ، ووفياتهم ، وتعديلهم وتجيدهم . ومال إلى علم النبات ودراسته ، وتمييزه ، وتصنيفه ، وتجول من أجل ذلك فى ربوع الأندلس ، والمغرب وإفريقية ، ثم رحل إلى المشرق ، بعد سنة ٥٨٠ هـ ، وتجول فى مصر والشام والعراق والحجاز ، فدرس الكثير من أصناف النباتات غير المعروفة ، ووقف على كثير من غوامضها ، قال

(١) ترجمته فى التكملة رقم ٦٩٩ . (٢) ترجمته فى التكملة رقم ٦٦١ .

ابن عبد الملك « حتى وقف من ذلك على ما يقف عليه غيره ، ممن تقدم في الملة الإسلامية ، فصار واحد عصره فرداً ، لا يجاريه فيه أحد بإجماع ذلك الشأن » ووصفه ابن الخطيب بأنه « عجيبة نوع الإنسان في عصره ، وما قبله ، وما بعده في معرفة علم النبات ، وتميز العشب ، وتحليلها ، وإثبات أعيانها ، على اختلاف أطوار منابتها بمشرق أو بمغرب ، حساً ، ومشاهدة وتحقيقاً ، لمدافع له في ذلك ولا منازع ، حجة لا ترد ولا تدفع . قام على الصنعتين لوجود القدر المشترك بينهما وهما الحديث والنبات ، إذ موادهما الرحلة والتقييد ، وتصحيح الأصول وتحقيق المشكلات اللفظية ، وحفظ الأديان والأبدان وغير ذلك » .

وكان ابن الرومية فقيهاً ظاهري المذهب ، من أنصار ابن حزم ، وانتشرت على يديه تصانيف ابن حزم ، بما أبداه من غيرة وعناية في إظهارها واستنساخها والإتفاق عليها ، وكان إلى ذلك ورعاً ، زاهداً ، وكان بعد أن عاد من رحلاته الدراسية بالمشرق قد استقر ببلده إشبيلية ، وافتتح متجرّاً لبيع الأعشاب الطبية . قال ابن الأبار : « وهناك رأيته ولقيته غير مرة » .

ولابن الرومية تصانيف عديدة في الحديث والنبات ، منها في الحديث ، رجالة المعلم بزوائد البخاري على مسلم ، واختصار حديث مالك للدارقطني ، ونظم الدراري فيما تفرد به مسلم عن البخاري ، والحافل في تدليل الكامل وغيرها . ومن مصنفاته في النبات « شرح حشائش دياسقوريدس وأدوية جالينوس ، والتنبيه على أوهام ترجمتها » و« التنبيه على أغلاظ الغافق » ، و« الرحلة النباتية » و« المستدركة » وغيرها ، وله كتاب في « الأدوية المفردة » على نمط كتب بني زهر في ذلك . ويعتبر ابن الرومية أعظم العشابين والنباتيين في العصور الوسطى ، ولا يتقدمه أحد في هذا الشأن من القدماء سوى دياسقوريدس اليوناني ، الذي عاش في القرن الأول للميلاد ، والذي وضع ابن الرومية شرحه لحشائشه .

وتوفي ابن الرومية بإشبيلية في شهر ربيع الآخر سنة ٦٣٧ هـ ، قبل سقوطها في أيدي القشتاليين بنحو تسعة أعوام^(١) .

وجاء بعد ابن الرومية تلميذه ابن البيطار المالقي ، فكان أعظم علماء النبات بعد أستاذه ، وهو ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد ، ولد بمالقة في أواخر القرن السادس الهجري ، ودرس على أستاذه ابن الرومية وبرع مثله في النبات

(١) ترجمته في التكملة رقم ٣٠٤ ، وفي الإحاطة لابن الخطيب (١٩٥٦) ج ١ ص ٢١٥ - ٢٢١ .

والوسائل العلاجية ، ثم غادر الأندلس ، وطاف بأنحاء المغرب باحثاً عن الفصائل النباتية دارساً لخصائصها ، ثم قصد إلى مصر أيام الملك الكامل فدخل طيبياً في خدمته ، ثم خدم ابنه الملك الصالح من بعده ، وعنى بدراسة النبات والأعشاب في مصر والشام وآسيا الصغرى ، وبلاد اليونان . ووضع في ذلك كتابين ، هما : « كتاب الجامع في الأدوية المفردة » تناول فيه الأدوية النباتية المعروفة في عصره ، ورتبها على حروف المعجم ، « وكتاب المغنى في الأدوية المفردة » وهو مرتب على أبواب معالجة الأعضاء . وله أيضاً كتاب « الأفعال الغريبة والخواص العجيبة » . وكان ممن تتلمذ على ابن البيطار ودرس عليه ، العلامة الطيب ابن أبي أصيبعة صاحب معجم طبقات الأطباء ، وقد أشاد ببرايعته وغرارة علمه ، ودقة فهمه لكتب الأقدمين . وتوفي ابن البيطار بدمشق سنة ٦٤٦ هـ (١) .

ونبع في تلك الفترة كذلك عدة من علماء الرياضيات والفلك ، نذكر منهم : عبدالله بن محمد بن سهل الضرير ، من أهل غرناطة . درس القراءات والحديث ، وبرع في العربية والآداب . ولكنه مال كذلك إلى العلوم الرياضية ، وأخذها من بعض أصحاب أبي بكر بن الصائغ (ابن باجة) . واستدعاه الأمير محمد بن سعد أمير الشرق لتأديب ولده فسكن مرسية وقتاً . ولما تفاقمت الحوادث شغل عنه ، فبقى مضاعاً إلى أن توفي بها في أواخر سنة ٥٧١ هـ (٢) .

وأبو اسحق نور الدين البطروجي المراكشي ، تلميذ الفيلسوف ابن طفيل ، وقد برع في العلوم الطبيعية والفلك ، وحاول أن يصحح أخطاء الطريقة البطلمية في الأفلاك بوضع شرح جديد للدورة الفلكية ، ويعرف البطروجي عند علماء الغرب باسمه اللاتيني Alpetragius ، وقد توفي بإشبيلية في سنة ٦٠١ هـ .

وعبد الله بن محمد بن حجاج من أهل فاس ، ويعرف بابن الياسمين ، وهو من قبيلة أساسة البربرية النازلة في أحواز فاس ، أخذ عن أبيه عبد الله بن قاسم علم الحساب والعدد وبرع فيه ، وعبر إلى الأندلس فأتم بها دراسته . وله أرجوزة في علم الجبر ، وخدم البلاط الموحدى بمراكش ، وكانت له فيه حظوة . وتوفي قتيلاً بمراكش سنة ٦٠١ هـ (٣) .

ومحمد بن بكر بن محمد عبد الرحمن بن بكر الفهري من أهل بلنسية ، كان

(١) ترجمته في قواف الوفيات ج ١ ص ٢٠٤ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٤ و ٤٥ .

(٢) ترجمته في التكملة رقم ٢١٥٦ . (٣) ترجمته في التكملة رقم ٢٠٥٦ .

إماما في الحديث ، ودرس على أقطاب عصره مثل أبي عبدالله بن نوح ، وأبي الخطاب ابن واجب ، وأبي عمر بن عات ، وامتاز ببراعته في علم الحساب ، وتحققه من مسائله ، وكان فضلا عن ذلك مشاركا في الطب ، حافظا للتواريخ ، وتوفي سنة ٦١٨ هـ (١).

وكان من أبرع علماء الفلك في أواخر العصر الموحدى ، أبو على الحسن بن على ابن عمر المراكشى من أهل مراکش ، اشتهر بكتابه المسمى « جامع المبادئ والغايات » وهو موسوعة جلية في الفلك ، وتشتمل كذلك على أوصاف الآلات الفلكية التي كانت معروفة في عصره ، وبه جداول فلكية ، وفهرس للنجوم عن سنة ٦٢٢ هـ ، وشروح لخطوط الطول والعرض لكثير من الأماكن . وبالحملة فقد كان أبو على آية عصره في علمه وفنه ، وتوفي في أواخر العصر الموحدى في سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) .

ومن أواخر علماء شرق الأندلس أبو بكر محمد بن أحمد الرقوطى المرسى ، وكان آية في المعرفة والبراعة ، في المنطق والهندسة والرياضيات والطب والموسيقى ، وكان فوق ذلك فيلسوفا وطبيباً ماهراً ، يتقن عدة لغات ، وكان قد بقى في وطنه مرسية بعد تغلب النصارى عليها (٦٦٤ هـ - ١٢٦٦ م) ولم يقبل أن يغادرها فيمن غادرها من بنى وطنه ، وقدر المتغلب (خامى الأول) قدره ، وابتنى له مدرسة ، يعلم فيها المسلمين والنصارى واليهود ، وحاول عبثاً أن يغريه باعتناق النصرانية ، ثم غادر مرسية أخيراً ، تلبية لدعوة ابن الأحمر سلطان غرناطة ، فنزل بها ، وأقبل عليه طلابها ، وكان يدرس الطب ، والرياضة والفلك وغيرها ، ولم يذكر لنا تاريخ وفاة الرقوطى ، ولكن المرجح أنه توفي أواخر القرن السابع (٢) .

ونستطيع أن نضيف إلى هذا الثبت من علماء الرياضة والفلك ، اسم عالم من علماء الزراعة ، هو أبو زكريا يحيى بن أحمد بن العوام الإشبيلي ، وقد عاش في إشبيلية في أواخر القرن السادس الهجرى (أواخر القرن الثانى عشر الميلادى) واشتهر بكتابه « الفلاحة » وقد اعتمد فيه بالأخص على كتاب الفلاحة لابن بصال الطليطلى ، ويقدم إلينا ابن العوام في مؤلفه الضخم عرضاً مستفيضاً للفنون الزراعية وكيفية العمل في الزراعة والغراسة ، وتسميد الأرض وإصلاحها ، واختيار البذور والغراس الصالحة ، والمواسم الملائمة لزراعة كل صنف ،

(١) ترجمته في التكملة رقم ١٦٠٠ .

(٢) ترجمة الرقوطى في الإحاطة ، مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الفزيرى - لوحة ١٠٧ .

وغير ذلك مما يؤدي إلى جودة الأرض ووفرة الإنتاج^(١) .

— ٣ —

ونعود الآن إلى ذكر عباقرة الطب خلال العصر الموحدى ، وهم الذين غلبت عليهم صفة الفلسفة قبل كل شيء ، بالرغم من نبوغهم فى الطب ، واعتبارهم من أعظم الأطباء فى العصور الوسطى .

هؤلاء هم ثلاثة ، أبو بكر بن طفيل ، وأبو الوليد بن رشد ، وموسى بن ميمون القرطبى .

فأما ابن طفيل ، فهو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسى ، من أهل وادى آش . ولسنا نعرف تاريخ مولده بالتحقيق ، وربما ولد فى الأعوام الأولى من القرن السادس الهجرى . ودرس ابن طفيل الحديث والفقه واللغة ، على أبى محمد الرشاطى ، وعبد الحق بن عطية ، وغيرهما من أقطاب العصر . ولكنه مال إلى الحكمة وعلوم الأوائل ، ودرس الحكمة على أبى بكر ابن الصائغ (ابن باجة) وغيره ، وبرع فى الفلسفة والطب ، وكان عالماً محققاً ، شغوفاً بالحكمة المشرقية ، متصوفاً ، طبيباً ماهراً فى أصول العلاج ، وفقهاً بارع الإعراب ، وكاتباً بليغاً ، ناظماً ناثراً ، مشاركاً فى عدة فنون . وبدأ ابن طفيل حياته العامة بخدمة المتغلب على بلده وادى آش ، أحمد بن ملحان الطائى فى سنة ٥٤٠ هـ . ولما سقطت حكومة ابن ملحان بعد ذلك بأعوام قلائل ، انتقل ابن طفيل إلى خدمة الموحدين ، وكتب لوالى غرناطة الموحدى . ولما ولى السيد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن حكم إشبيلية ، التف حوله جماعة من العلماء والمفكرين ، كان منهم ابن طفيل . وكان الأمير يشغف بمجالس العلم ، ويؤثر العلماء بصحبته . ولما تولى هذا الأمير الخلافة عقب وفاة أبيه فى سنة ٥٥٨ هـ ، عين ابن طفيل طبيبه الخاص . وكان فضلاً عن ذلك يندبه لبعض المهام الخلافية الدقيقة ، ومن ذلك أن عهد إليه بالسعى لتأليف طوائف العرب ، وترغيبهم فى الجهاد ، وفى سبيل ذلك وضع ابن طفيل ، وكان إلى جانب علمه الغزير ، شاعراً مجيداً ، قصيدته الشهيرة ، يهيب فيها بالعرب أن ينهضوا للمشاركة فى الجهاد ، ومطلعها :

أقيموا صدور الخيل نحو المضارب لغزو الأعداء واقنساء الرغائب

(١) نشر كتاب الفلاحة لابن العوام لأول مرة بمطبعة سنة ١٨٠٢ فى مجلدين كبيرين عن مخطوطه الموجود بمكتبة الإسكوريال ، بعناية القس يوسف أنطونيو بانكيري مقروناً بترجمة إسبانية .

ولما عبر الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى الأندلس في أواخر سنة ٥٦٦ هـ ، واستطالت إقامته في إشبيلية بضعة أعوام ، التف حوله رهط من صفوة العلماء ، كان في مقدمتهم ثلاثة من أعظم الأطباء والفلاسفة المسلمين ، هم طيبية الخاص ابن طفيل ، وتلميذه القاضي الفيلسوف أبو اليد بن رشد ، والعلامة الطبيب أبو بكر ابن زهر . وقد سبق أن أشرنا إلى شغف الخليفة أبي يعقوب يوسف بالدراسات الفلسفية ، وشغفه بملازمة ابن طفيل ، والأخذ عليه ، كما أشرنا إلى الدور الذي قام به ابن طفيل في الإعاز إلى تلميذه ابن رشد بعمل تلخيص جديد لشروح أرسطو . وكان ابن طفيل يقوم بمهمة السفارة بين الخليفة وبين العلماء ، ويدعوهم باسمه من مختلف الأقطار ، وينبه على أقدارهم لديه ، ويحثه على إكرامهم والتنويه بهم ، وهو الذي نوه بفضل تلميذه ابن رشد وبراعته لدى الخليفة حتى علت مكانته لديه . ولما توفي الخليفة أبو يعقوب يوسف في ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ ، عقب نكبة جيشه في موقعة شترين ، استمر ابن طفيل في منصبه طبيباً خاصاً لولده الخليفة الجديد أبي يوسف يعقوب المنصور ، ولكنه لم يعيش بعد ذلك طويلاً إذ توفي بمراكش في أواخر سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥ م) ، وحضر الخليفة جنازته^(١) وأشهر مؤلفات أبي طفيل رسالة «حي بن يقظان» أو «أسرار الحكمة المشرقية» و«الأرجوزة الطبية المجهولة» و«رسالة في النفس» وغيرها من مؤلفات ورسائل لم تصل إلينا . وقد انتهت إلينا لحسن الحظ رسالة «حي بن يقظان» وهي تلخيص فلسفي رائع لأسرار الطبيعة والخلق ، عرضت خلال حياة وأعمال طفل ، خلق من «بطن الأرض» في جزيرة مجهولة من جزائر الهند جنوبي خط الاستواء ، وهذا الطفل هو «حي» . وقد استطاع بالملاحظة والتأمل التدرجي لظروف الحياة ، ومظاهرها الطبيعية ، أن يصل إلى أسرار الطبيعة ، وأسرار الحكمة العليا ، وأن يتقرب في تأمله وصومه من الله . وبالرغم من صغر حجم هذه الرسالة الفلسفية ، وهو لا يزيد عن خمسين صفحة ، فقد لفتت بروعتها أنظار النقد الحديث ، وترجمت إلى اللاتينية منذ القرن السابع عشر ، كما ترجمت بعد ذلك إلى لغات أخرى^(٢) . وأما ابن رشد ، فهو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد

(١) راجع في ترجمته ابن طفيل ، الإحاطة مخطوط الإسكوريال ١٦٧٣ الفيزيرى لوحة ٥٠ - ٥٧ ، والمعجب للمراكشي ص ١٣٤ - ١٣٥ . وراجع ص ١٣٦ من هذا الكتاب .

(٢) ترجمها إلى اللاتينية Pockocke ، ونشرت باكسفورد سنة ١٦٧١ بعنوان Philosophus Autodidactus ، ونشرت ترجمتها الإنجليزية في سنة ١٧٠٨ بقلم Ockly والفرنسية سنة ١٩٠٠ بقلم Gantier ونشرت ترجمتها الإسبانية سنة ١٩٠٠ بقلم المستشرق Pons Boigues

ابن رشد ، وهو سليل بيت من بيوتات العلم والنباهة العريقة بقرطبة ، وبها ولد سنة ٥٢٠ هـ (١١٢٦ م) ، ودرس بها دراسة حسنة ، وأخذ الحديث عن أبيه أنى القاسم ، وابن بشكوال ، وأبى مروان بن مسرة ، وغيرهم . درس الطب أولاً على أبى مروان بن جرثول البلنسى ، ثم بعد ذلك على أستاذه الأثير عبد الملك بن زهر ، ودرس الفقه والأصول والكلام على أقطاب عصره . وبرع ابن رشد بالأخص فى الحكمة والطب . ولما بلغ الثلاثين من عمره غادر موطنه قرطبة إلى إشبيلية ، وكانت دولة المرابطين قد انهارت يومئذ ، وخلفها دولة الموحدين ، وكان والى إشبيلية الموحدى يومئذ ، هو حسبا قدمنا الأمير العالم ، السيد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، فاتصل به ابن رشد ، وحظى برعايته ، وكان من آثار هذه الرعاية أن ولى ابن رشد قضاء مدينة إشبيلية ، ثم ولى بعد ذلك قضاء قرطبة بعض الوقت . وكان من أنفس ما حظى ابن رشد خلال إقامته بإشبيلية ، دراسته المستفيضة على أستاذه العلامة الطيب العبرى عبد الملك ابن زهر ، وهو الذى وصفه ابن رشد فيما بعد بأنه أعظم طبيب بعد جالينوس . ولما تولى أبو يعقوب يوسف الخلافة ، وقدم إلى إشبيلية وأقام بها ، زادت مكانة ابن رشد وتوطدت فى البلاط الموحدى ، ولا سيما عن طريق أستاذه ابن طفيل طبيب الخليفة الخاص ، وصديقه وناصحه الأثير لديه ، وكان من آثار هذه الرعاية ، أن عين الخليفة ابن رشد ، طبيباً خاصاً له إلى جانب ابن طفيل . وكان ابن رشد يتنقل معظم الوقت مع بلاط الخليفة سواء بالمغرب أو الأندلس ، ولما توفى الخليفة أبو يعقوب يوسف فى سنة ٥٨٠ هـ ، وخلفه ولده الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور ، بقى ابن رشد فى منصب الطبيب الخاص . ولما توفى ابن طفيل ، انفرد ابن رشد بمنصب الطبيب الخاص . وكان الخليفة المنصور صنو أبيه فى الشغف بالعلوم والفنون ، ومن ثم لقى ابن رشد لديه نفس التقدير والرعاية ، ولبت على مكانته المرموقة فى هذا الجو العلمى الرفيع .

وكان ابن رشد خلال ذلك قد بلغ ذروة مجده العلمى ، وكتب كثيراً من مصنفاته الفلسفية والطبية . وأهم مؤلفات ابن رشد الفلسفية ، هى شروح فلسفة أرسطو ، ويقال إن الذى أوعز إليه بكتابها أستاذه ابن طفيل^(١) ، وهى تشغل عدة مؤلفات ورسائل ، هى جوامع كتب أرسطو طاليس فى الطبيعيات والإلهيات ،

(١) المراكش فى المعجب ص ١٣٦ .

وتلخيص كتاب ما بعد الطبيعة ، وتلخيص كتاب الأخلاق ، وتلخيص كتاب البرهان ، وتلخيص كتاب السماع الطبيعي ، وشرح كتاب النفس وغيرها . وتشمل مؤلفات ابن رشد الطبية كذلك عدة مصنفات ، منها شرح أرجوزة الطب للشيخ الرئيس ابن سينا ، وتلخيص عدة كتب لجالينوس ، منها كتاب المزاج ، وكتاب القوى الطبيعية ، وكتاب العلل والأعراض ، وكتاب الحميات ، وكتاب الأدوية المفردة ، وغيرها . بيد أن أشهر مصنفات ابن رشد الطبية هي كتاب « الكليات » وفيه يتناول أبواب الطب الكلية أو الرئيسية ، وذلك مقابل التفاصيل الجزئية التي يتناولها أستاذه عبد الملك بن زهر في كتابه « التيسير »^(١) . وله كتاب في الحيوان . ولابن رشد كذلك ، في الفقه والأصول عدة مصنفات ، منها كتاب « تهافت التهافت » وفيه يرد على كتاب « التهافت » للغزالي ، وكتاب منهاج الأدلة في علم الأصول ، ورسالة في « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » ، وكتاب المقدمات ، وكتاب بداية المجتهد في الفقه ، وغيرها . وله فضلا عن ذلك عدة رسائل أخرى في الفلسفة والطب والأصول والمنطق لا يتسع المقام لذكرها . وقد عرف التفكير الغربي ابن رشد في عصر مبكر ، وعرفه بالأخص فيلسوفا وطيبا من أعظم الفلاسفة والأطباء المسلمين ، بل من أعظم الفلاسفة والأطباء في كل قطر ، وكل عصر ، واشتهر ابن رشد في الغرب بالأخص بشروحه لفلسفة أرسطو ، وهي شروح ترجمت إلى اللاتينية ، وذاعت في دوائر التفكير الغربي منذ القرن الثالث عشر الميلادي .

ولبث ابن رشد على حظوته في البلاط الموحدى أعواما طويلة ، ولكن الفقهاء والطلبة الموحدين ، الذين ضاقوا ذرعا بتفكيره الدينى والفقهى المستنير ، وبحوثه الفلسفية الرفيعة ، عملوا على مناوئته ، والوشاية به لدى الخليفة المنصور ، وأتهامه بالانحراف والمروق ، وانتهى المنصور ، بالرغم مما كان يمكنه لابن رشد من التوقير والتقدير ، أن يزل عند تحريضهم ، وأن يصدر قراره الشهير بمحاكمة الفيلسوف وبعض زملائه وتلاميذه ، وأن يقضى بنبهه إلى بلدة اليسانة على مقربة من غرناطة (سنة ٥٩١ هـ) ، وصدر إلى جانب ذلك بيان للمنصور بقلم كاتبه أبى عبد الله بن عياش ، بالحملة على ابن رشد وزملائه ، وأتهامهم بالمروق والزيف .

(١) رأينا خلال إحدى زيارتنا لغرناطة نسخة خطية نادرة من كتاب « الكليات » لابن رشد بمكتبة دير ساكرومونتى القريب من غرناطة . وقد طبع هذا المخطوط بأصله كما هو ألواحاً مصورة .

وقضى ابن رشد في منفاه في اليسانة نحو ثلاثة أعوام ، ثم عفا عنه المنصور ، وردّه إلى سابق منصبه وحظوته (٥٩٤هـ) . وعاد ابن رشد إلى مراكش ، ولكنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة ، وتوفى في التاسع من شهر صفر سنة ٥٩٥هـ (١٠ ديسمبر سنة ١١٩٨م) وهو في الخامسة والسبعين من عمره . وقد سبق أن أفضنا القول في اتهام ابن رشد ونكبته ، وأوردنا نص المرسوم الموحدى الصادر بشأن اتهامه (١) .

وكان من أعلام المفكرين والفلاسفة الأندلسيين في أوائل العهد الموحدى ، العلامة اليهودى ، موسى بن ميمون ، واسمه العربى ، أبو عمران موسى بن ميمون ابن عبد الله القرطبى الأندلسى الإسرائيلى ، واسمه اليهودى موسى بن ميمون ، وقد ولد بقرطبة سنة ٥٣٠هـ (١١٣٥م) ودرس بها علوم الأوائل والرياضيات والفلسفة على أقطاب عصره ، وبرع فى الطب والفلسفة والدراسات التلمودية . ولما غلب الموحدون على الأندلس ، وأصدر الخليفة عبد المؤمن فى أواخر عهده قراره الشهير بنى النصارى واليهود من المغرب والأندلس ، إلا من اعتنق الإسلام منهم ، ومن بقى ولم يعتنق الإسلام ، حل ماله ودمه ، تظاهر كثير من النصارى واليهود الذين آثروا البقاء باعتناق الإسلام ، وكان من هؤلاء موسى بن ميمون وأسرتّه . وعبر ابن ميمون البحر إلى المغرب فى سنة ٥٥٧هـ ، وأنفق بضعة أعوام فى فاس حاضرتّه العلمية ، وهو يزاول مهنة الطب التى اشتهر بها ، ويستتر فى نفس الوقت بمزاولة شعائر الإسلام ، ولكنه كان يرقب الفرصة لمغادرة المغرب إلى بلاد أوسع آفاقا ورزقا . فلما سنحت هذه الفرصة ، سار مع أهله إلى مصر ، ونزل بالقاهرة (سنة ٥٦١هـ) ، وأقام بالفسطاط بين أبناء دينه اليهود ، مظهراً دينه الحقيقى ، وأخذ يرتزق بتجارة الجواهر ، وتزوج أختا لرجل يهودى من كتاب السلطان يدعى أبا المعالى ، واتصل بواسطته بالبلاط ، وأسبغ عليه القاضى الفاضل رعايته لما كان يتصف به من علم غزير وبراعة فى الطب . وعين ابن ميمون طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين ، وغدا عميد الحالية اليهودية بالقاهرة . وكان يلقب بالرئيس لمكانته العلمية البارزة . ولما توفى صلاح الدين ،

(١) راجع ترجمة ابن رشد فى التكملة لابن الأبار رقم ١٤٩٧ ، والمراكشى فى المعجب ص ١٣٤ و ١٣٦ و ١٧٤ و ١٧٥ ، والبيان المغرب ص ٢٠٢ . وقد وردت فى الذيل والتكملة لابن عبد الملك ترجمة ضافية لابن رشد ، ذكر خلالها نص المرسوم الموحدى ، وذلك فى مخطوط المتحف البريطانى الجزء الخامس . وراجع ص ٢٢٣ - ٢٢٨ من هذا الكتاب .

خدم طبيبا لولده الملك الأفضل ، وأخذ عليه بالقاهرة كثير من علمائها وأطبائها ، ومنهم العلامة الطبيب عبد اللطيف البغدادى ، وكان يقيم وقتئذ بالقاهرة ، وتوفى ابن ميمون فى سنة ٦٠٢ هـ (١٢٠٤ م) . ويعتبر ابن ميمون من أعظم المفكرين اليهود فى العصور الوسطى ، ومن أعظم شراح الشريعة اليهودية ، وقد ترك ثرائاً حافلاً من المؤلفات الدينية والفلسفية والطبية ، من ذلك شرح للتلמוד ، وعدة شروح لكتب جالينوس ، « ودلالات الحائزين » فى شرح فلسفة أرسطو ، وهو أعظم كتبه الفلسفية ، وتهذيب كتاب الإستكمال لابن هود فى الرياضيات ، ومقالة فى صناعة المنطق ، وكثير غيرها فى أبواب الشريعة اليهودية . وكان لكتابات ابن ميمون الدينية والفلسفية تأثير عظيم فى التفكير الأوروبى فى العصور الوسطى .

— ٤ —

هذا ، ونختتم هذا الحديث الطويل عن الحركة الفكرية الأندلسية وأعلامها ، بكلمة موجزة عن سير الفنون خلال العصر الموحدى .

لقد امتاز العصر الموحدى بالأندلس والمغرب ، بظهور حركة فنية مستقلة ، تتمثل بالأخص فى الصروح والمنشآت العظيمة ، التى أقيمت خلال هذا العصر ، سواء بالمغرب أو الأندلس ، وتميزت بخصائصها المعمارية والفنية الخاصة ، والتى بقيت منها حتى اليوم آثار عديدة ، تشهد بتقدم العلوم الهندسية والفنون المعمارية فى هذا العصر . وقد نشأت الدولة الموحدية فى البداية على أسس دينية محضة ، تباعد بينها وبين المظاهر الدنيوية البراقة . بيد أنه لما تحولت الخلافة الموحدية ، على يد عبد المؤمن إلى ملك دنيوى باذخ ، كان من الطبيعى أن تتجه الدولة الموحدية إلى استكمال مظاهر الفخامة والأبهة المملوكية . وبدأ ذلك الاتجاه منذ أواخر عهد عبد المؤمن بإقامة مدينة جبل طارق المملوكية ، لتكون منزلاً للخليفة أو السادة ، عند عبورهم فى جيوشهم إلى الأندلس ، وكان هذا العمل الإنشائى العظيم مسرحاً لظهور عبقرية بعض أعلام المهندسين الأندلسيين ، الذين اقترن اسمهم فيما بعد بأعمال إنشائية جليلة أخرى ، مثل الحاج يعيش المالى . وظهرت رعاية الدولة الموحدية للفنون المعمارية بالأخص بمدينة إشبيلية ، عاصمة الأندلس خلال العصر الموحدى ، وهى التى كانت مسرحاً لأعظم وأجمل المنشآت العمرانية الموحدية بالأندلس . وقد سبق أن تحدثنا عن إنشاء القصور الموحدية الفخمة خارج إشبيلية أمام باب جهور أيام الخليفة أبى يعقوب يوسف ، وعن بساطتها البانعة ، كما

تحدثنا عن إنشاء جامع إشبيلية الأعظم على يد الخليفة أبي يعقوب يوسف ثم ولده الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور ، وعناية المنصور بإقامة صومعته العظيمة ، (وهي التي يسميها الإسبان اليوم لآخر الدا) . وأقام الموحدون كذلك عدداً من المنشآت العمرانية بقرطبة عاصمة الخلافة القديمة ، من قصور وغيرها . وكان قصر السيد أبي يحيى بن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن خارج قرطبة على النهر الأعظم تحمله أقواس . وأنشأ ولده السيد أبو إبراهيم اسحق أيام أن كان والياً لغرناطة ، قصره الفخم على مقربة من ضفة شتيل ، وما زالت تقوم حتى اليوم بعض أطلاله وعقوده^(١) . وقد كانت الخلافة الموحدية تبتعد في البداية عن مظاهر الترف والزخرف في منشآتها العمرانية ، وتكتفي بمراعاة المتانة والحلال ، ولكنها لما بلغت ذروة عظمتها الدنيوية أيام المنصور ، أخذت تغدق على منشآتها أعظم مظاهر الفخامة والزخرف ، فبنى المنصور يزود جامع إشبيلية بمنبره الفخم المرصع بالصندل المجزع والعاج وبصفائح الذهب والفضة ، وبمقصورته المزينة بالفضة ، ونراه يزود صومعة هذا الجامع بتفاحيحها الذهبية الشهيرة^(٢) . وفي خلال هذه الحركة العمرانية والفنية العظيمة ، نرى عدداً من أقطاب الهندسة والفن مثل الحاج يعيش المائى المتقدم الذكر ، والعريف أحمد بن باس ، والمعلم أبو الليث الصقلي ، وغيرهم ممن اقترنت أسماؤهم بهذه المنشآت العظيمة ، يترجمون بالأندلس خلال العصر الموحدى حركة فنية زاهرة ، ونرى أصداء هذه الحركة العمرانية والفنية الزاهرة ، تتردد في نفس الوقت في المغرب ، وفي عاصمة الخلافة الموحدية مدينة مراكش العظيمة ، في إنشاء الخليفة المنصور في بداية عهده لضاحية الصالحة الملوكية ، وقصورها الفخمة ، جنوبي مراكش ، وفي إنشاء أو إتمام صومعة جامع الكتبية ، على نمط صومعة جامع إشبيلية العظيمة ، وإنشاء صومعة حسان بمدينة رباط الفتح ، وهي صومعة لم تكمل ، وما تزال هذه الصوامع العظيمة ، وهي من أبرز آثار العصر الموحدى الفنية ، قائمة إلى يومنا ، ومنها صومعة جامع إشبيلية التي تحول فقط جزؤها الأعلى ، إلى برج للأجراس لكنيسة إشبيلية العظمى ، التي أنشئت فوق موقع الجامع ، بيد أنها لم تفقد بالرغم من ذلك سميتها الإسلامية ، وما زالت زخارفها العربية ، في مشارفها ونوافدها السفلى ، تشهد بروعة الفنون الزخرفية خلال العصر الموحدى .

(١) راجع ص ٣٣١ من هذا الكتاب . (٢) راجع ص ٢٣٢ و ٢٣٣ من هذا الكتاب .

ولم نجد في أخبار العصر الموحدى ما يدلنا على تطور الموسيقى الأندلسية ، ومن المعروف أن الموحدين مهما بلغ تسامحهم وتشجيعهم ، نحو فنون العمارة والزخارف المعمارية ، فإنهم لم يكونوا بطبيعة نظامهم ، وترتهم الدينى ، حماة للفنون الحميلة المحضة من الموسيقى غيرها ، ومن ثم فإننا لم نعر على أحد من نبغ فى الموسيقى فى تلك الحقبة ، اللهم إلا محمد بن أحمد الرقوطى المرسى ، الذى جمع إلى براعته فى الهندسة والمنطق ، والفلسفة والطب ، براعته فى الموسيقى ، وكان ظهوره فى الشرق عقب انهيارسلطان الموحدين ، وانهيار شرق الأندلس ، وسقوط قواعده فى أيدي النصارى^(١) .

بيد أنه كان ثمة فن من الفنون الحميلة ازدهر خلال العصر الموحدى ، هو فن كتابة المصاحف وتنميةها وزخرفتها ، ونستطيع أن نذكر عدة ممن نبغوا فى هذا الفن ، فمنهم محمد بن عبد الله بن سهيل الأنصارى البلسنى المعروف بابن غطوس ، والمتوفى فى سنة ٦١٠ هـ ، فقد وهب ابن غطوس حياته لكتابة كتاب الله ، وبرع فى تنميق المصاحف وزخرفتها براعة عظيمة ، جعلت الملوك والأمراء يتنافسون فى اقتنائها^(٢) . ومنهم محمد بن محمد بن يحيى بن حسين من أهل جزيرة شقر ، المتوفى نحو سنة ٦٣٠ هـ ، وكان أبرع أهل وقته فى كتابة المصاحف^(٣) ، ومنهم محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز المعروف بابن حنّال ، من أهل مرسية والمتوفى سنة ٦٣٣ هـ^(٤) ، ومنهم موسى بن عيسى اللخمي القرطبي المعروف بابن الفخار ، وقد توفى فى سنة ٦٢١ هـ^(٥) ، وغير هؤلاء .

هذا وقد سبق أن أشرنا إلى تفوق الهندسة والفنون الموحدية ، فى إقامة المنشآت الدفاعية ، من حصون وأسوار وأبراج ، مازالت تشهد بروعتها حتى اليوم أطلال قصبة بطليوس ، وقلعة جابر ، وأسوار إشبيلية ولبلة الموحدية^(٦) .

(١) سبق أن أتينا على ترجمة الرقوطى فى ص ٢١٨ من هذا الكتاب .

(٢) ترجمة ابن غطوس فى التكملة رقم ١٥٧١ . (٣) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٤٤ .

(٤) ترجمته فى التكملة رقم ١٦٥٢ . (٥) ترجمته فى التكملة رقم ١٧٣٣ .

(٦) راجع ص ٦٤٠ من هذا الكتاب .

وَمَثَلُ مَوْحِدِيَّة

رسالة

الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

إلى أخيه السيد أبي سعيد عثمان وأصحابه الطلبة بقرطبة، بوصى فيها بأن تجرى الأحكام وفقاً للعدل وتجرى الدقة ، وألا يقضى فى أمر الدماء إلا بعد رفعه إلى الخليفة ، من إنشاء الوزير الكاتب أبي الحسن بن عياش ، ومؤرخه فى شهر رمضان سنة ٥٦١ هـ .

(منقولة عن كتاب « المن بالإمامة » لابن صاحب الصلاة مخطوط أكسفورد لوحات ٧٩ ب - ٨٢ ب . ونشرها العلامة جولدمير فى بحثه :

(Materialien zur Kenntniss der Almohaden Bewegung p. 134-138)

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم
والحمد لله وحده .

من الأمير يوسف بن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره ، وأمدهم بمعونته ، إلى الشيخ الأجل أخينا الأعز علينا ، الأكرم لدينا ، أبي سعيد وأصحابه ، الطلبة الذين بقرطبة أعزهم الله ، ودام كرامتهم بتقواه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد فإننا نحمد اليك الله الذى لا إله إلا هو ، ونشكره على آلائه ونعمه ، ونصلى على محمد نبيه المصطفى ورسوله ، ونرضى عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم نجله وسليته ، ونوالى الدعاء لسيدنا أمير المؤمنين القائم بأمره والداعى إلى سبيله . وإنا كتبناه إليكم أكرمكم الله بتقواه ، وكلاً جانبكم وحماه ، من حضرة مراکش حرسها الله . والذى نوصيكم به تقوى الله تعالى ، والعمل بطاعته والاستعانة به والتوكل عليه ، وموالاته شكره على ما هدى أولياء أمره ، وأنصار دعوته ، وحماة كلمته ، من صرف أعنة المحبة والاهتمام ، وإحكام منابر الأحكام ، فيما وكله إليهم من أمور الإسلام ، إلى أن تجرى على السداد ، وتنسق على سبيل الإرشاد ، وتستقيم على المهيح ، وتمضى على المنهج ، وتسير فى الواضح ، وتهتدى على اللاحق ، ويسلك بها فى الجدد ، الذى من سلكه أحدثت منه الآثار وأمن عليه العثار ، وارتضى له الإيراد والإصدار ، فيكون العمل فيها على اليقين ، الهادى إلى الصراط المستبين ، المأمون فى سلوكه من المزلة والضلال ، المرجو فى الاهتداء به حسن العاقبة وصلاح الحال ، فنسئله تعالى جده عوناً من قبله على هذا الغرض العام الحدوى يصاحب ، وتوفيقاً من لدنه فى هذا النظر الشامل المنفعة يجاور ويصاقب ، وأنه أدام الله

كرامتكم ، لما كانت مباني هذا الأمر العزيز أدامه الله على التقوى مؤسسة ، وأوامره ونواهيته على أمر الله ورسوله جرية مترتبة ، وإليها في الأخذ والتركه مستندة ، وبمقتضياتها في جميع الأحكام آخذة عاملة ، إذ هي نور الحق وسراجة ، وعمود الصدق ومعراجة ، وسبيل الفوز ومنهاجه ، ورائد الثواب وبشير ، وقائد العقاب ونكيره ، فمن أئتم بكتاب الله ، الذي هو الإمام المنادى والحق الواضح البدي ، وبسنة رسوله صلعم ، التي جعل العمل بها كالعمل بكتابه ، والوقوف عند حدها كالوقوف عند حده ، أمن من الفوائل ، في العاجل والآجل ، وبلغ من السلامة في الحالين إلى أقصى أمد الآمل ، ولم يوجد للباطل إليه سبيلا ، ولم يتمكن للشيطان أن يجد في تضليله واستهواءه صرفاً ولاحويلاً ، فتوفرت الدواعي على الدعاء إليها ، وحمل الكافة عليها ، وأخذ الجميع بما يفقههم لديها ، وقد أمر الله تعالى ، من أمر الناس بطاعته ، أن يحكموا بالعدل ، ويضعوا للعبد موازين القسط ، فلم يكن لهم بد من امتثال أمره ، والاستناد إلى حكمه ، وكانت الوجوه التي تفضي إلى الحق ، في فصل قضايا العباد متنبية ، والطرق المؤدية إلى مغنى الصدق ومعناه ملتبسة ومتشعبة ، فخرج فيها بُنَيَات تخطيء الصراط المستقيم ، وتضل الضلال البعيد ، فصار امضاءها من غير استناد إلى هذا الهدى المتبوع ، والعلم المرفوع ، خطراً على ممضيها ، وإنفاذها على غير هذا السنن غرراً على منفيها ، ولما كان الأمر كذلك ، تعين ووجب وثبت وترقب ، أن نخاطب جميع عمال بلاد الموحدين أعزهم الله ، شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً ، خطاباً يتساوى فيه جميعهم ، ويتوازى في العمل فيه كافةهم ، بالألا يحكموا في الدماء حكماً من تلقائهم ، ولا يريقوها بباد أو رأى من آرائهم ، ولا يقدموا على سفكها بما يظهر إليهم ، ويتقرر فيما يروقه لديهم ، إلا بعد أن تُرفع إلينا النازلة على وجهها ، وتؤدى على كنهها ، وتشرح حسب ما وقعت عليه ، وتنتهى بالتوثق والبيان إلى ما انتهت إليه ، وتقيد بالشهود العدول ، المعروفين في مواضعهم بالعدل والرضا ، الموجبين للقبول ، وتكتب أقوال المظلومين وحججهم ، وإقرارهم واعترافهم ، وحجج الظالمين في مقالاتهم واستظهارهم في بيناتهم ، مُعْطَى كل جانب حقه ، موفى كل قائد قوله ، فتكون مخاطبتكم أعزكم الله ، ومخاطبة من يتناول هذا الكتاب وتوجه إليه هذا القصد ، خطاب من تَحَمَّل الشهادة ويؤدى فيها الأمانة ، على ما يجب من البيان الذي لا يعتوره التباس ولا يطمس وجهه إشكال ، ويتوثقون في المطلوبين بالدماء بسجنهم

وتثقيفهم ، ويتوكفون ما تصلكم به المخاطبة ، فتقفون عند مقتضاه ، ولا يعدلون
عن شيء من معناه ، مراقبا كل منكم لإلاّه ومولاه ، علما بأنه يعلم سره ونجواه ،
وأنة يسمعه ويراه ، واعلموا وفقكم الله وأسعدكم ، أن هذا الحكم عام في جميع
النوازل ، التي أطلقت السنّة فيها القتل وسنته ، وحكمت به وشرعته ، كمن قتل
نفساً وأقر بالقتل ، أو شهد العدول عليه به ، ومن بدل ديننا وارثه عنه ، ومن
أتى الفاجشة بعد الإحصان ، باعتراف أو دليل أو شهادة مقبولة ، وما خيّر الأئمة
فيه من قتل المحاربين والساعين في الأرض بالفساد ، والمتأملين أمر الله بالاستهزاء
والعناد ، سواء سنّ ذلك كله أو وقع فيه ضرب يشاكله مجراه ، واحد في التوقف
عن امضاءه ، والتأخر عن تنفيذه ، إلا بعد المطالعة ، وتعرف وجه العمل من
المجاوبة . وكذلك وفقكم الله يكون التوقف فيما عدا المذكور من النوازل ، التي
يكون [فيها] أحكام دون النفوس من قتل الخطأ وديات الشّجاج ، وعقول
الأعضاء ، وأورش الجراحات ، ووجه القصاص ، والقطع في السرقات ، إلى غير
ذلك من القضايا المشكّلة في الأموال وإطلاقها واستحقاقها ، وفي الرقاب وإعتاقها
واسترقاقها ، وملتبسات المناكحات والمعاملات ، وما أشبهها من الأمور التي
الإقدام على الحكم فيها تهجم ، والعمل فيها بغير استناد إلى ما يجب تسور ، فتوقفوا
أعزكم الله عن جميع ما فُسر لكم ، ولو أخفه توقف الساعي في نجاته ، العامل لديّاه
وآخرته ، وقد ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله من الحظر الوكيد ،
والوعيد الشديد ، في إراقة الدماء ، واستباحة الأموال ، واستحلال الحرمات
إلا بوجه صحيح ، لا يسلم إلا من طريق العصمة ، ولا تهتدى إليه إلا أنوار الحكمة ،
ما يزع العقلاء ، ويكف الألباء ، ويحذرهم من سطو الله وعقابه ، ويخوفهم من
أليم عذابه ، فعولوا على ما رسم في هذا الكتاب ، من التعريف بما يبطن ، وإنهاء
كل ما ينزل ، ليتصلكم من التوقيف ، والبيان والتعريف ، لما يظهر لكم به بركة
الافتداء ، وتستبرق منه عليكم أنوار الائتمام والاهتداء ، ويتراءى لكم به الحق
في صورته الصادقة ، ومثله المطابقة ، ومناظره الموافقة ، ومطالعه المشرقة ،
بفضل الله ورحمته ، وملاك ما يسدّد مقاصدكم في جميع أحوالكم ، ويوجب لكم
الرضا في كافة أقوالكم وأفعالكم ، تقوى الله في السر والجهر ، وخيفته في الباطن
والظاهر ، وقدر النفس عن هواها ، وكبحها بلجام النهي عن الركنض ، في ميدان
رداها ، وطاعة أمره العظيم والجرى على سننه المستقيم ، فذلك عصمة من الزلل ،

وتوفيق في القول والعمل بفضل الله ، وقد وجب أكرمكم الله لهذا الكتاب ، بما انطوى عليه من الأغراض الشاملة المنفعة ، العامة المصلحة ، أن يعطى حقه من الإشاعة والتشهير ، وينهض مقتضاه إلى الصغير والكبير ، ويجمع الناس لقراءته وتلقى مضمونه ، ويساوى فيه بين الغائب والشاهد ، والبادى والحاضر ، بإسراع من حضر ومخاطبة من غاب ، ممن يتعلق بنظركم ويدخل تحت عملكم ، فتوجهون بنسخ منه إلى كل جهة من جهاتكم ، وعمل من أعمالكم ، ليأخذ الجميع بقسطه من المسرة ، وتعرف بركته واستشعار عائدته ، وأنسه بما أمر به هذا الأمر العزيز ، من إفاضة العدل ، وبسط الدعة والأمن ، وإقامة أمر الله تعالى على وجهه المتعين ، وسننه الواضح المبين ، إن شاء الله تعالى ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، كتب في الثالث من شهر رمضان المعظم سنة إحدى وخمسمائة .

٢

بيعة أهل إشبيلية لل خليفة أبي يوسف يعقوب

استكتبها ولده والى إشبيلية السيد أبو إبراهيم إسماعيل ، ووجهها إلى الحضرة مع بعض أشيخ إشبيلية ، وهى من إنشاء الفقيه أحمد بن محمد ، ومؤرخه في جمادى الآخرة سنة ٨٥٦٣ (منقولة عن كتاب « المن بالإمامة » ، مخطوط أكسفورد لوحة ١٠١ أوب . ونشرها العلامة جولدسبير في بحثه الذى سبق ذكره ص ١٣٩ - ١٤٠) .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم

الحمد لله الذى جعل الإمامة قواما للحق ، ونظاما للخلق ، وتامما على الذى أحسن رعاية العدل والرفق ، وأوجب الاعتصام بطاعتها ، والانتظام بجماعتها ، والصلاة على محمد نبيه المبعث بنور الحق ، الساطع الأضواء ، المبلغ عن الله سبحانه بأكمل وجوه التبليغ والإنهاء ، وعلى آله وأصحابه الذين والوه بالنصر والإيواء ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، المخصوص بأثرة الاصطفاء والاجتباء ، والدعاء لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين الخليفة المرتضى ، متمم أنوار الهدى ، ومجلى غياهب الظلماء ، والإمام الأعديل الأهدى ، سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين بدوام النصر والاستيلاء ، واستصحاب الظهور والاعتلاء . أما بعد فإنه لما اجتمعت طائفة التوحيد ، وهم الذين يحضرهم من الله حاضرة التوفيق ، وينظر إليهم نظر الاقتداء والاهتداء من وراءهم من أهل الحق والتحقيق ، على تجديد البيعة المباركة لسيدنا ومولانا

أمير المؤمنين أبي يعقوب بن أمير المؤمنين خلد الله أمرهم ، وأعز نصرهم بالإسم المبارك الكريم ، الذى أول من دعى به الفاروق رضوان الله تعالى عليه ، فعرف الله من يمنه ما فتح لملة الإسلام شرقاً وغرباً ، وأحال الدلو بيد ساقهم فاستحالت غرباً ، حتى ضرب الدين بجراحه ، وألقى الناس بعطن من يمنه وأمانه ، جددنا من بيعته على الإسمية المباركة ، فرضاً أوجه الشرع وجوب الإلزام ، واقتضى الوفاء بشروطه المؤكدة على الكمال والتمام ، فبايعنا على السمع والطاعة بيعة أمان وإيمان وعدل وعبادة ، والتزمنا بها ، فى اليسر والعسر ، والمنبسط والمكروه ، واعتقدناها عصمة ديننا ، وذخر معادنا ، وتمسكنا بها بالعروة الوثقى ، والعصمة التى من يعلق بجبلها ، وأوى إلى ظلها ، فقد اعتصم بالجانب الأيمن الأوفى ، علماً أنها البيعة الرضوانية ، والدعوة التى تتكفل بنصرها وإعلاء أمرها ، العناية الربانية ، علينا بذلك عهد الله الأوكد الألزم ، وميثاقه الأغلظ الأعظم ، وذمته التى لا يقطع جبلها على مرور الزمان ولا يصرم ، مستبصرين فى هذه البيعة الكريمة بنور الاهتداء ، سالكين فى التزام الطاعة على الحجة البيضاء ، عارفين بما أمر الله سبحانه من طاعة الخلفاء ، والله سبحانه يحفظ بها أكناف الإسلام ، ويجعلها كلمة باقية على مرور الأيام ، بفضل الله ويمنة ، وعلى مضمن ما نص فوق هذا ، التزم أهل إشبيلية كافة ، وكتبوا على ذلك شهادتهم فى النصف من جمادى الآخرة سنة ثلث وستين وخمس مائة .

٣

رسالة

من الخليفة أبى يعقوب يوسف

إلى الطلبة الذين بغرناطة ، يشير فيها إلى وصول بيعتهم مع أشياخ غرناطة ، وينوه بولائهم ووفائهم ، ويوصى بإكرامهم وبرهم .

(منقولة عن كتاب « المن بالإمامة » مخطوط أكسفورد لوحة ١٠٥ ب) .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم

والحمد لله وحده . من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيداه الله بنصره ، وأعزه بمعونته . إلى الطلبة الذين بأغرناطة أكرمهم الله بتقواه . سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . أما بعد فإننا نحمد إلهكم الله الذى لا إله إلا هو ونشكره

على آلايه ونعمه ، ونصلى على محمد نبيه المصطفى ورسوله ، ونسأله الرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القايم بأمر الله ، والداعي إلى سبيله ، ونوالى الدعاء لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين منسى أمره العزيز إلى غاية تنميته وتكميله ، فإننا كتبناه إليكم أكرمكم الله بتقواه من حضرة مراکش حرسها الله . والذى نوصيكم به تقوى الله والعمل بطاعته ، والاستعانة به والتوكل عليه . وقد وصلنا كتابكم من عند الشيوخ من إغرناطة ، حرسها الله والموحدين ، وفق الله جميعهم ، ووفقنا عليه ، ورأينا ما تحملوه عن الموحدين بأغرناطة وجبرانهم من انعقاد إجماعهم على ما أجمع عليه شيوخ أهل [الهدى] وأعيانهم من الأمر الذى أوجبوا على أنفسهم المبايعه عليه ، وأعطاه صفقة اليد فيه ، وقد وفقهم الله لما وفق إليه أهل أمره ، وذوى العصمة من طائفته ، والله تعالى يتقبل منهم عملهم ويعرفهم بركة ما التزموه ، ويعينهم على القيام بواجبهم والوفاء بحقه . وقد انصرف هؤلاء الأشياخ المذكورين بعد إقامتهم بهذه الحضرة ونيلهم بركاتنا ، ما يجدون أثره فى أحوالهم [وسريان] الانتفاع به فى أقوالهم وأعمالهم ، فأعرفوا لهم حق وفادتهم ومكان رفادتهم وأحملوهم.. خيراً بهم على الرعاية المتصلة ، والمبرة الحافلة المشتملة ، إن شاء الله تعالى ، والله ولى عونكم وصوبكم ، لارب غيره ، والسلام الكريم العيم عليكم ورحمة الله وبركاته . كتب فى الثانى عشر من شوال عام ثلثة وستين وخمس مائة .

٤

رسالة

موجهة من السيد أبى إسحق إبراهيم بن الخليفة أبى يعقوب يوسف إلى الحافظ أبى عبد الله بن أبى ابراهيم وإلى غرناطة يبلغه فيها بدخول ابن همشك فى الدعوة الموحدية وهى من إنشاء ابن مصادق .

(منقولة عن كتاب « المن بالإمامة » مخطوط أكسفورد لوحة ١٢٧ ب ١٢٨) .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم
الشيخ الأجل الحافظ الأعلى ولينا فى الله تعالى ، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم
أدام الله عزه وكرامته بتقواه .

وليكنم فى الله تعالى ابراهيم بن أمير المؤمنين ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . أما بعد حمد الله على ما أولى ومنح ، والصلاة على محمد نبيه الذى تبين

به دين الحق ووضح ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، معيد دين الله ، بعد ما غنى رسمه ومضى ، والدعاء لسيدنا أمير المؤمنين خليفته الذي طهر بعدله البلاد وفتح ، ولسيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين الذي أثمر سعيه وأنجح ، وكمل فيمن جلا فيه الأمور الدينية وأصلح ، فكتبناه إليكم أدام الله كرامتكم بتقواه ، من قرطبة حرسها الله ، ولا جديد إلا ما عود الله بركة هذا الأمر العزيز من فتح ، لاتزال تفتح أبوابه وتتصل أعتابه ، وترفع قبابه ، وتتعرف مع كل حين انهلال ما فيه وإسكانه . والحمد لله على ذلك حمداً كثيراً ، يصفو به سربال إحسانه وجلبابه . وإن من النعم التي ببركة هذا الأمر العزيز حديدتها ، واقتضى بسعادته مزيدها ، واتبع بطريقها تأييدها ، وانجرفها لأولياء الأمر العزيز الموعود ، ووافقهم فيها الجدل المصحب المسعد . وإن الشيخ أبا اسحق ابراهيم بن همشك وفقه الله ، كشف له عن وجه هداه ، وجلى عن موارد رواه ، وتبين له أن هذا الأمر العزيز هو المركب المنجي ، السابق له السعادة الباقية المزجي ، الذي لا يؤخر عثار من صدف عنه ولا يرجي ، فبادر إلى الدخول فيه بدار من خلصت سرائره ، وطويت على موعبة ضمايره ، ورأى أن ذلك يمحى به خطاياهم ويغفر جرايرهم . وأذاع الدعوة المهدية في جميع بلادهم ، وأعلن بها ، وأبدى الاعتلاق بعصمتها ، والتمسك بسننها ، ولقى الموحدين أيدهم الله بتقواه ، ملاقة اللائذ بظلمهم ، المتمسك بحبلهم ، المستنيم ، المستسلم ، المنطوى على الولاء الأخلص ، والود الأسلم ، والحمد لله على ذلك حمداً تتوالى به فتوحه ، ويتصل به مبذول إحسانه وممنوحه ، وخاطبناكم بذلك أدام الله كرامتكم لتجروا شكر الله تعالى على ما أسبغ من نعمه وأولى ، وتسلكوا معه سبيلا يكون أخرى بازديادها ، ما من عفا وولى ، والله تعالى يوالى لديكم آلاه ، ويسبغ عليكم ظاهره وباطنه نعماءه ، والسلام الأتم عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

كتب في شهر رمضان المعظم عام أربعة وستين وخمس مائة .

رسالة

الخليفة أبي يعقوب يوسف

إلى الطلبة والموحدين بجزيرة الأندلس ، ينهئهم فيها باهتمامه بأمر الأندلس ، والعمل على نصرتها ، ومجاهدة أعدائها ، ويطمئنهم على تنفيذ هذا العزم ، بما بعثه

من عسكر موحدى تحت إمرة الشيخ أبي حفص ، تمهيدا لجواز الموحدين إليها ،
من إنشاء أبي الحسن بن عياش ، ومؤرخة في ربيع الآخر سنة ٥٦٤ هـ .

(منقولة عن كتاب « المن بالإمامة » مخطوط أكسفورد لوحات ١٢٠ - ١٢٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وسلم

والحمد لله وحده . من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيده الله بنصره ، وأمله
بمعونته . إلى الطلبة والموحدين الذين بجزيرة الأندلس أدام الله توفيقهم وكرامتهم .
سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته . أما بعد فانا نحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ،
ونشكره على آلايه ونعمه ، ونصلي على محمد نبيه المصطفى ورسوله ، ونسأله الرضا
عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم ، القائم بأمر الله تعالى ، والداعي إلى سبيله ،
ونوالى الدعاء لصاحبه وخليفته الإمام أمير المؤمنين ، ممشى أمره العزيز إلى غاية
تتميمة وتكميله . وأنا كتبناه إليكم وصل الله توفيقكم وكرامتكم بتقواه ، من حضرة
مراكش حرسها الله . والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى والعمل بطاعته ، والاستعانة
به ، والتوكل عليه . وهذا الأمر العزيز بما وعده الله من النصر ، وضمن له من
التأييد ، وتكفل له من التمكين ، وزاد من تبسطه وامتداد علوايه ، واتصال
مضماره وخلوصه ، إلى كافة الأرجاء ، وتغلغله في كل الأنحاء ، لإكمال دينه وإتمام
نوره ، وبث دعوته وتصديق وعده ، لاتزال [موارد] الحافظة لصوره ، المبقية
لأثره ، المثبتة لأركانها ، الممكنة لقواعده ، تشيع من الأسباب القوية واللطائف
المنهضة ، والمعاني المعينة على سريانه ، المزعجة لتشربه وجريانه ، مما يؤذن له
بإنجازه موعوداته ، وتنبع مضموناته ، حتى يستوى على مداه الذي لا غاية بعده ،
ويقف على منتهاه الذي لا مطلع وراءه ، يقينا اطمأنت بمقدمات العلية القلوب ،
وقرت على ظهور براهينه النفوس ، وعصדתه الآيات البيئة ، ونطقت به
الآثار المفصحة ، وناقذت شد أحواله لن ألقى السمع وهو شهيد . .

وما زلنا وفقكم الله ، على أتم العناية بتلك الجزيرة مهدها الله ، والحرص
على غوثها ، والانتواء لنصرتها ، والعمل على قصد ذلك بالباشرة والمشاهدة إشفاقا
على ما استضام منها جبرتها الأعداء ، وأبناؤها الأغفاء ، مجمعين وردها ،
وما كادوها به من التلف والتخفيف والتنقيض ، وفقر الأفواه ، وكسر الثوب
والأكرصاد ، لغيض ما فوض فيها من نور التوحيد ، وخفض ما نصب من أعلام هذا
الأمر ، والمناصب المنحاشين إليه ، المتعلقين بأسبابه ، المستنمين بذمته ، ممن صح

ولاؤه ، وصدقت طاعته ، وخلص على السبك ، ونصح على السبر ، ونجعل لها من الفكر حظاً ، يستحق الصديق على ما سواه ، من الأفكار ، ويأخذ سبق على غيره من معنات الأمور ، ونراه من الأهم الأغنى ، والأول الأولى ، قياماً بحق الله في جهاد أعدائها ومكابري مناوئها ، ومن لم تنفعه العبر على مرورها على بصره ، وتواردها على مشاهدته ، وإدائتها به ، ولم يرع سمعا دعوة الحق التي ملأت الخافقين ، وقرع صوتهما مسامع الثقليين ، وتمكن أسباب التفرغ لذلك ، والتوسع فيه ، والنظر في أحكامه ، فيعترض من أهل هذه المغارب ، شواغب يثيرها الجهال ، ويبغيها النعقة الضلال ، فلا يسمع أسماها ، ولا يسوغ الإضراب عنها ، قياماً بحق الدين ، وتوقياً من استشرأب الشر ، وتوقد أسباب الفتنة ، فينصرف إليها من الالتفات والقصد ، لحسم عللها ، وإبراء أدوائها ، ما يقشع غيابتها ، ويظهر أقداءها ، ويفضي إلى المقصود الأول من التفرغ للجزيرة مهدداً الله ، والتوطيد لأمرها دوماً . . الاشتغال بهذا الغرب يلط بأرجائه ، ويشتمل على جوانبه ، ويتخلل زواياه ، وينتظم أوعاره وسهوله ، حتى صفى الله مشاربه ، وخلص من الشوب مشارعه ، ووقف بأهل الانتزاع من أصناف مشغبية على تايب أنات بقلبه ، وندم على ما فرط من ذنبه ، وعلى شقي تماردى فى غلوائه ، ولج فى تمرده فولى كل ما استحق ، وسهم خطة ما رضى ، ووجد التايب برد الأمان ، وتبوأ كنف الإحسان ، وحققت على العاصي كلمة العذاب ، وأخذته التايب ، والصيرورة إلى سوء المآل ، وشر المآب ، وماربك بظلام للبيد . ولما تولى الله هذه الجهات منة التمهيد ، وبسط لها نعمة التمكين والتوطيد ، انعطف النظر إلى محل مثاره ، وسال سبل الاعتقاد إلى قراره ، وتوجه حفل الاشتغال إلى الجزيرة مهدداً الله ، وتوفرت دواعى الاستعداد لنصرتها وجهاد عدوها ، ورأينا فى أثناء ما نحاوله من مروم هذه الغزوة المتممة المباشرة ، أن نقدم بين أيدينا عسكرياً مباركاً من الموحدين أعانهم الله ، صحبة الشيخ الأجل أبى حفص أعزه الله ، يكون تقدمه لجواز جمهور الموحدين ، ومؤدياً بما عزمنا عليه ، والله المستعان ، من التحرك لحملة أهل التوحيد ، والقصد لهذا الغزو الميمون ، الذى جعلنا نصب العين ، وتجاه الحاطر ، فتتعاونون مع إخوانكم الواصلين على بركة الله إليكم ، على جهاد أعدايكم ، إلى أن يوافيكم إن شاء الله هذا العزم ، ويلم بكم هذا القصد ، ويعتمدكم هذه الحركة المحمكة أسبابها ، المبرمة أغراضها ، التى انعقدت بها النية ،

واحتدمت لها في ذات الله الحمية ، واستعانت بتوفيق الله في تأصيل أصولها الفكرة
الموجهة والروية ، ولما لترجو من المبلغ لآمال القلوب ، المتفضل بإدراك كل
مطلوب ، أن يهب فيها من العون ما يتم مبدأها ، ويكمل منشأها ، وتشفي به
صدور أوليائه ، بالنعمة في أعداياه ، وإن فضله تعالى ليسمح ببلوغ هذه الأمنية ،
والإطلاع منها على كل شرف وثنية ، فما ذلك على الله بعزير ، وإذا طالعت وفقكم
الله هذه الأنباء ، واستعلمتم ما في ضمنها من البشائر ، وعنوانات الفتوح ، وآثار
هذه القصود ، وحلمت ذلك على الثقة بما وعد الله هذا الأمر ، والتلفت إلى ما عودة
رأيتموها نعمى تحولتكم ، ورحمى انتحتكم وأنتكم ، وشرحتم لها صدوركم ، وعمرتهم
بها أحناكم ، وشغلتم بها مشاهدكم ، وسررتكم بها غايتكم وشاهدكم ، وأذعنتموها
لإذاعة تثليج بها صدور الأولياء ، وتخرج منها صدور الأعداء ، ويكون للمؤمنين
منها مطلع أمل ، وللكافر مطلع هول ووجل ، عرفكم الله شكر النعمة بها ،
وأعانكم على أداء واجبها ، وبلغكم الغاية الجميلة منها بمنه وبمنه . وإذا وصلكم
هذا الكتاب ، فأشيعوه قراءة على من حضركم من أصناف الناس ، وإرسالا
بنسخه إلى من نأى عنكم ، حتى يجد أثر الاستبشار به ، ويتربح بمودعه الغايب
والشاهد ، والحاضر والنأى انشاء الله . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
كتب في الحادى والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وستين وخمس مائة .

٦

ظهر الخليفة الرشيد بإسكان المهاجرين من أهل بلنسية
وجزيرة شقر وشاطبة وغيرهم من بلاد الشرق في مدينة رباط
الفتح من إنشاء كاتبه أنى المطرف بن عميرة الخزومى .

(منقولة من كتاب « زواهر الفكر » مخطوط الإسكوريال رقم ٥٢٠ الفزيرى لوحة ١١٥ و ١١٦)
هذا ظهر كريم أمر به أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين
ابن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ، أيدهم الله تعالى بنصره ، وأمدهم بمعونته
ويسره ، للمنتقلين من أهل بلنسية وجزيرة شقر وشاطبة ، ومن جرى من ساير
بلاد الشرق مجراهم ، وعراه من عبر الأيام ما عراهم ، حين أنهى ذو الوزارتين
الشيخ الأجل الأكرم ، الأعز ، الأفضل ، أبو على ابن الشيخ الأجل الأكرم ،
أبى جعفر بن خلاص ، أدم الله تعالى أثرته وكرامته ، ما أصابهم من الجلاء ،
ودهامهم من أمر الأعداء ، وسعى لهم سعى من يقضى فيهم . . . ، ويلتمس لهم

مكانا للقرار ، ومنزلا لإلقاء عصي التسيار . وعند ذلك أذن لهم ، أعلى الله تعالى
إذنه ، وجدد مجده وبمنه ، في النقلة إلى رباط الفتح عمره الله تعالى ، بقضيتهم
وقضهم ، وأن يتخذوا مساكنه وأرضه بدلا من مساكنهم وأرضهم ، ويعمروا منه
بلدأ يقبل منهم أولى من قبل ، ويحملهم إنشاء الله تعالى ، وخير البلاد ما حمل ،
فإنه مناخ التاجر والفلاح ، وملتقى الحادى الملاح ، والمرافق من بر أو بحر ،
موجودة فى فصول السنة ، مؤذنة لقاطنه بالمعيشة الهنية ، والحال الحسنية ، ولهم
أفضل ما عهده رعايا هذا الأمر العزيز ، أدامه الله تعالى ، من التوسعة على
قويهم ، كى يزداد قوة ، والرفق بضعيفهم حتى ينال يسارا وثروة ، وأن
يتوسعوا فى الحرث ، فى أرضه هنالك متسع ، ويتبسطوا فى كل ما لهم منه مكافئ
وبه منتفع ، ويغرسوا الكروم وأنواع . . على عادتهم ببلادهم ، ويتأثلوا الأملاك
لأنفسهم وأولادهم ، وأولاد أولادهم ، وكل ما يعمرون من الضياع ، ويقتنون من
الأصول والركاع ، فله حكم . . على الإطلاق والدوام ، لا يلزمون فيه شيئا من
وجوه الإلزام ، ولا يطلبون بغير حقوق الشرع ، التى جعلها الله تعالى فى أموال أهل
الإسلام ، وأقوالهم فى مقاديرها مصدقة ، وأمانتهم كلها لهم ، واللاحقين بهم محقة ،
والولاة والعمال حفظهم الله تعالى ، مأمورون بأن يحفظوهم من كل أذى يلم بجانب
من جوانبهم ، ويعوق عن مأرب صغير أو كبير من مآربهم ، وأن يكرموا غاية
الإكرام ، نهائهم وأعيانهم ، ويولونهم من حسن الجوار ، ما ينسبهم أوطانهم ،
حتى تدفع عنهم كل شبهة من شبه الحيف ، ويجمع لهم بين الرعاية حرمة البلوى ،
والعناية بحق الضيف . احسن . من على الله تعالى أمره ، وأوزع شكره ، ينسحب
على جماعتهم وأفرادهم ، ويحملهم على موجب اعتلامهم بهذا الأمر العلى ، أدامه الله
تعالى وملاه بهم ، فمن وقف عليه من المكانة والعمال ، أكرمهم الله تعالى ، فليعمل
بحسبه ، ولا يعدل عن كريم مذهبه ، إن شاء الله تعالى ، وهو تعالى المستعان ، لا رب
سواه . كتب فى الحادى والعشرين شعبان المكرم من سنة سبع وثلاثين وسماية .

٧

رسالة

الخليفة المرتضى لأمر الله إلى البابا إنوصان الرابع

ينوه فى بدايتها بدحض نظرية التثليث ، ويشير فيها إلى ما ورد من كتب البابا
إلى الخلافة الموحدية ، ويرجوه أن يكون اختيار الخبر المكلف بالنظر فى شئون

النصارى بالمغرب من ذوى العقل الراجح ، والأخلاق الحميدة ، والنزاهة
الوافرة . مؤرخة فى الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ .

(وتحفظ الرسالة المذكورة بمحفوظات مكتبة القاتيكان الرسولية برومة برقم A. A. I. XVIII (1802) وهى الوثيقة الوحيدة من نوعها وعصرها ، التى تحتفظ بها مكتبة القاتيكان) .

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما والحمد لله وحده
من عبد الله عمر أمير المؤمنين بن سيدنا الأمير أبى إبراهيم بن أمير المؤمنين
ابن أمير المؤمنين أيدهم الله تعالى بنصره ، وأمدهم بمعونته . إلى مطاع ملوك
النصرانية ومعظم عظماء الأمة الرومية ، وقيم الملة المسيحية وأورث رياستها الدينية ،
البابا إينه سانس أش ، أنار الله تعالى بصيرته بتوفيقه وإرشاده ، وجعل التقوى
التي أمر عز وجل بها عدته لنحياء ومعاده ، وأنال من سابق الهداية ، ما يفضى لمدى
الغاية ، بأتم انفساحه وامتداده ، تحية كريمة نراجع بها ما تقدم من تحياتكم الواردة
علينا ، ويترجم لكم أرجها عما تعتمدكم به البار لدينا .

أما بعد فإننا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ، حمد من علم أنه الرب الواحد ، الذى
دلت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد ، ونزهته العقول الراجحة عن أن
يكون له ولد أو يدعى أنه الوالد ، تعالى الملك الرحمن عما يقول المثلث والمشبه
والحاحد ، ونصلى على سيدنا محمد رسوله المصطفى الكريم ، الذى وضعت
به للنجاة المذاهب والمقاصد ، وخرقت له بظهور المعجزات الباهرة على يديه
العوايد ، ونصر بالرعب فألقى له يد الاستسلام كل من كان ينادى ويعاند ،
وعلى آله وصحبه الكرام ، الذين ازدانت بهم المحاضر والمنشاهد ، ووصلت
صوارمهم فى مواقف الحروب السواعد ، وأنجزت لهم فى استيلاء الإسلام على
مشارك الأرض ومغاربها المواعد . ونسئل الله عز وجل رضاه عن الإمام المعصوم
المهدى المعلوم ، الذى جذبه لدين الله تعالى الشباب المعاود ، وأهلت بهدياته بعد
إقفارها المعاهد ، وباء بالخسران المختل لأمره والمكايد ، وعن الخلفاء الراشدين
المهتدين ، الذين تولى منهم لإتمام بدايته الإمام الراشد فالراشد ، وعلت بهم
لأمر الله تعالى المراقى والمصاعد ، وعن سيدنا الأمير الطاهر أبى إبراهيم بن سيدنا
الخليفة أمير المؤمنين بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين الذى طابت منه العناصر
والمخاند ، واشتق من نبعة للخلافة مذ أورد نضارة وغضارة قنتها المآثد ، وزهد

في الدنيا الفانية ، ورغب في الأخرى الباقية ، فنعم الراغب الزاهد .

وبعد كتابنا كتب الله تعالى لنا حظوظا من رضاه ، تركو وتتوفر ، واستعملنا وإياكم بكل ما نهيأ به لإحراز الفوز لديه ونتيسر ، من حضرة مراکش حرسها الله تعالى ، ودين الله عز وجل عال مسماه ومصعبه ، والتوحيد حال بالظهور جيده ومقلده ، والسعي معمل في ابتغاء [من] الله تعالى موفقه ومسدده ، والحمد لله رب العالمين حمداً يتوالى على الألسنة تكرر وتتردد ، ونستدعي به من مزيد النعماء أفضل ما وعد به تعالى من يشكره ويحمده ، وإلى هذا يسر الله تعالى بتوفيقه لإسعادكم ، وجعل في طاعته التي تعبد بها خلقه أصدار [كم] وإيرادكم ، فإنه سبقت منا إليكم مراجعات عن كتبكم المؤثرة الواصلة إلينا [وأرسلنا] نحوكم من الجواب عنها ، ما تمنا به بركم ووفينا ، وعرفناكم أنا نوجب لمنصبكم الذي أبز في ملتكم على المناصب ، وأقر لرتبتكم فيه أهل دينكم ، بالشفوف على سائر ما لهم من المراتب ، فأتم عندنا لذلك بالكرمة الحفيلة ملحوظون ، وبالعناية الحميلة ملحوظون ، نوكد من أسباب المواصلة لكم ما حقه أن يوكد ، ونجدد من عهود الحفاية بكم ما شأنه أن يُجدد ، ونشكر لكم ماتوالى علينا من حسن إيثاركم لحنا بنا وتردد .

وفي سالف هذه الأيام انصرف عن حضرة الموحدين أعزهم الله ، البشْب الذي كان قد وصل بكتابكم إلينا ، انصرفا لم يعده منا فيه بر وإكرام ، ولم يغبه فيه اعتناء به واهتمام ، كما أنه في المدة التي قضى له فيها لدينا بالمقام ، لم نزل نتعهده أثناءها بالإحسان والإنعام ، وتحمل كتابنا إليكم تعريفاً عما اختار من انصرافه ، وتوخياً في ما أثره من ذلك لإسعافه ، وما قصر له في حالي مقامه ورجيله ، ولا عدل به عن حق البر وحفيله ، وسنى المن وجزيله ، ذهابا لتكريم إشارتكم السابقة في حقه ، وسلوكاً به من البر على أوضح طرقه ، والله تعالى يرشد في كل الأحوال لأزكى الأعمال لديه ، وينجد من الأقوال والأفعال على ما يقرب إليه بمنه . ومتى سنع لكم أسعدكم الله تعالى بتقواه ، أن توجهوا لها ولاء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين أعزهم الله ، من ترونه برسم ما يصلحهم في دينهم ويجريهم على معتاد قوانينهم ، فتخبروه من أهل العقل الراجح ، والسمت الحسن ومن يستلذ في النزاهة على واضح السنن ، ومن يتميز في الخدمة بالمذهب المستجاد والقصد المستحسن ، وذلكم هو الذي إذا تعين من قبلكم مستجمعاً للصفات المذكورة ، ومتحلياً بالحلال المشكورة ، حسن في كل ما يستخدم ، وتسنى له

بذلك أجزل الخير وأوفره ، وأنتم تفون بهذا المقصود في ما تعملون من اختياركم ، متى ظهر لكم التوجيه بهذا الرسم لأحد ، وتعتمدون فيه أجمل معتمد ، وشكرنا لكم على كل ما تذهبون إليه في جانبنا من تمشية الأغراض والمذاهب ، وتحفلون فيه من المساعدة الصادرة فيكم عن كرم الضرايب ، وتبادرون إلى بذله من المكارمة المناسبة لما لكم في نخلتكم من إناقة المناصب ، مما نكافي به صدق مصادقتكم ، ونتوخى فيه ما لا يعدل عن موافقتكم ، جزاء لبركم بأمثاله ، واعتناء بما يقضى لولائكم بدوامه واتصاله ، بحول الله تعالى وقوته ، وهو سبحانه ييسرنا لنيل الحسنى ، والزيادة من فضله ، ويأخذ ما في ديننا ودنيانا على أقوم سبيله ، ويجعلنا وإياكم بما يمنحنا من التوفيق ، في أول رغيل من حزب الحق وأهله ، بمنه وكرمه ، لأرب سواه . وكتب في الثامن عشر من شهر ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وسبائة .

٨

كتاب يتقليد خطة الشورى

صادر من أبى جعفر بن أبى جعفر بن أبى جعفر أمير مرسية
إلى الفقيه أبى بكر بن أبى حمزة

هذا كتاب تنويه وترفع ، وإنهاض إلى مرقى رفيع ، أمر بكتبه الأمير الناصر للدين ، أبو جعفر بن أبى جعفر أدام الله تأييده ونصره ، للوزير الفقيه الأجل المشاور الحسيب الأكمل ، أبى بكر بن أبى حمزة أدام الله عزه ، أنهض به إلى الشورى ، ليكون عند ما يقطع لأمر ، أويحكم في نازلة ، يجرى الحكم بها على ما يصدر عن مشورته ومذهبه ، لما علمه من فضله وذكائه ، وجده في اكتساب العلم واقتنائه ، ولكون هذه المرتبة ليست طريقة له ، بل تليدة متوارثة عن أسلافه الكريمة وآبائه ، فليتحملها تحمل المستقبل بأعبائها المحسن بأنبائها ، العالم بمقاصدها المتوخاة بالمعتمدة وانحائها ، والله يزيده تنوياً وترفعاً ، ويؤثمه من حظوته وتمجيده مكاناً رفيعاً . وكتب في التاسع لذي حجة سنة ٥٣٩ ، الثقة بالله عز وجل .

(١) نقلنا هذا الكتاب من التكلة لإبن الأبار (القاهرة) ج ٢ ص ٥٦٢ ؛ وقد فاتنا أن نلحقه بالوثائق المرابطة المنشورة بالقسم الأول فالحقناه هنا بالوثائق الموحدة .

استدراك

- ١ -

جاء في القسم الأول من هذا المؤلف (عصر المرابطين وبداية الدولة الموحدية) ص ٣٥٢ عند الكلام عن مصرع الكاتب الشاعر أبي جعفر بن عطية ، أنه كان عند مصرعه فتى في السادسة والعشرين . وهذا ما نقلناه عن « الإحاطة » لابن الخطيب ، وعلقنا عليه في حاشية أبدينا فيها أن ما يذكره ابن الخطيب عن سن ابن عطية لا يتفق مع مراحل حياته . وقد وقفنا بعد ذلك على رواية أخرى هي رواية ابن الأبار ، وهي أن ابن عطية كان وقت مصرعه في السادسة والثلاثين من عمره ، وأن مولده في سنة ٥١٧هـ^(١) لا في سنة ٥٢٧هـ حسبما يقول لنا ابن الخطيب . وهذه الرواية أكثر تناسقاً واتفاقاً مع حياة ابن عطية ، إذ يقال لنا إنه تولى الكتابة عن أمير المسلمين ، علي بن يوسف ، ثم عن ولده تاشفين ، ثم عن حفيده ابراهيم .

- ٢ -

قرأنا في مقدمة ابن خلدون عن ابن قسي زعيم ثوار الغرب ودعوته ، فقرة فاتنا أن نشير إليها عند كلامنا عنه (ص ٣٧٧ و ٤٦٦ من القسم الأول من كتابنا) . ويقول لنا ابن خلدون في حديثه في الفصل الذي عنوانه « فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لاتم » ما يأتي : « وهذا لما قدمناه من أن كل أمر تحمل عليه الكافة ، فلا بدله من العصبية . وفي الحديث الصحيح كما مر : « ما بعث الله نبياً إلا في منعة من قومه » . وإذا كان هذا في الأنبياء وهم أولى الناس بخرق العوائد ، فما ظنك بغيرهم أن لا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية . وقد وقع هذا لابن قسي شيخ الصوفية ، وصاحب كتاب « خلع النعالي » في التصوف ، ثار بالأندلس داعياً إلى الحق ، وسمى أصحابه بالمرابطين قبيل دعوة المهدي . فاستتب له الأمر قليلاً لشغل لمتونة بما دهمهم من أمر الموحدين . ولم تكن هناك عصائب ولا قبائل يدفعونه في شأنه ، فلم يلبث حين استولى الموحدون على الغرب أن أذعن لهم ، ودخل في دعوتهم ، وكان أول داعية لهم بالأندلس ، وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين (المقدمة ص ١٣٣) .

(١) تراجع رواية ابن الأبار في الحلة السراء الطبعة الجديدة بتحقيق الدكتور حسين مؤنس ج ٢ ص ٢٣٨ . وهي واردة في ترجمة عبد الله بن خيار الجياني . وقد نقل الأستاذ بروفنسال هذه الترجمة كذلك في كتاب « أخبار المهدي ابن تومرت » ص ١٤٦ - ١٤٨ ووردت بها نفس الرواية .

ثبت المراجع

- ١ -

- تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر (بولاق ١٢٨٤ هـ) .
مقدمة ابن خلدون (بولاق) .
تاريخ ابن الأثير (الكامل) المطبعة الأهلية (١٣٠٣ هـ) .
نهاية الأرب للنويري (القسم التاريخي) طبعة جسيار ريمرو (Rev. del Cent. de Est. Hist. Granada 1919)
صبح الأعشى للقلقشندي (طبعة دار الكتب المصرية ١٣٣٢ هـ) .
وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق ١٢٩٩ هـ) .
فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (بولاق ١٢٩٩ هـ) .
نفتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري (القاهرة ١٣٠٢ هـ)
أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض للمقري (القاهرة ١٩٣٩) .
الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ،
لابن أبي زرع الفاسي المنشور بعناية كارل تورنبرج (أسالة ١٨٤٣) .
الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية (طبع تونس) .
الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية (طبع الجزائر ١٩٢٠) .
المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي (القاهرة ١٣٣٢ هـ) .
الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة سنة ١٩٠٤ و ١٩٥٦) .
أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت ١٩٥٦) .
اللحمة البدرية في تاريخ الدولة النصرية لابن الخطيب (١٣٤٧ هـ) .
المغرب في حلي المغرب لابن سعيد الأندلس المنشور بعناية الدكتور شوقي ضيف
(القاهرة ١٩٥٣) .
قلائد العقيان للفتح بن خاقان (القاهرة ١٢٨٣ هـ) .
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني (طبعة جامعة القاهرة) .
البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب (القسم الثالث) لابن
عذارى المراكشي (المنشور بعناية معهد مولاى الحسن بتطوان ١٩٦٠-١٩٦٤) .

- كتاب محمد بن تومرت أو كتاب « أعز ما يطلب » المطبوع بالجزائر سنة ١٩٠٣ ،
مع مقدمة فرنسية للعلامة المستشرق إجناس جولدميهر .
كتاب موطأ الإمام المهدي (ابن تومرت) المطبوع بالجزائر سنة ١٩٠٥ هـ .
أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين لأبي بكر الصنهاجي المكنى
بالبيذق ، ومنشور بعناية الأستاذ ليثي بروفنسال (باريس ١٩٢٨) .
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي (تونس ١٢٨٩ هـ) .
مجموع رسائل موحدية المنشور بعناية الأستاذ ليثي بروفنسال (الرباط ١٩٤١) .
الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلوى (القاهرة ١٣٠٦ هـ) .
المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن دينار (طبع تونس) .
المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، المشتق من كتاب المسالك والممالك لأبي
عبيد البكري (طبعة دي سلان) .
وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس المشتق من كتاب نزهة المشتاق
للإدريسي (طبعة دوزي) .
الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) لابن عبد المنعم الحميري المنشور بعناية
الأستاذ ليثي بروفنسال (القاهرة ١٩٣٧) .
الاستبصار في عجائب الأمصار المنشور بعناية الدكتور سعد زغلول (جامعة
الإسكندرية ١٩٥٨) .
رحلة التجاني (أبو محمد عبد الله بن محمد) المطبوعة بعناية المطبعة الرسمية
بتونس ١٩٥٨ .
رحلة ابن جبير المنشورة بعناية الدكتور حسين نصار (القاهرة ١٩٥٥) .
الروضتين في تاريخ الدولتين (القاهرة ١٢٨٧ هـ) .
مفرج الكرب في أخبار بني أيوب المنشور بعناية الدكتور جمال الدين الشيال
(القاهرة ١٩٥٣) .
الرسالة المصرية لابن أبي الصلت المنشورة بعناية الأستاذ عبد السلام هارون
(القاهرة ١٩٥١) .
المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية البلنسي (القاهرة ١٩٥٤)
رسالة ابن عبدون في الحسية المنشورة بعناية الأستاذ بروفنسال (طبع المعهد
الفرنسي بالقاهرة) .

- الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم القرطبي (القاهرة ١٣٢١ هـ) .
الملل والنحل للشهرستاني ، المنشور على هامش كتاب « الفصل » .
المقصد من الضلال لأبي حامد الغزالي (القاهرة ١٣٠٩ هـ) .
كتاب الحلة السيرة لابن الأبار (طبعة دوزي ١٨٥١) .
كتاب الصلة لابن بشكوال (طبع القاهرة ١٩٥٥) .
كتاب التكملة لابن الأبار (طبع القاهرة ١٩٥٦) ، وضمن المكتبة الأندلسية (مدريد ١٨٨٦) .
المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصديقي لابن الأبار (ضمن المكتبة الأندلسية) .
بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضيبي (ضمن المكتبة الأندلسية) .
كتاب صلة الصلة لابن الزبير المنشور بعناية الأستاذ بروفنسال (الجزائر ١٩٣٧) .
عنوان الدراية لأبي العباس الغبريني (الجزائر ١٣٢٨ هـ) .
جنوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس لابن أبي العافية (فاس ١٣٠٩ هـ)
أخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين القفطي (القاهرة ١٣٢٦ هـ) .
تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين لأشياخ (الترجمة العربية ١٩٥٨) .
دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي لمحمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٦٠)
نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين لمحمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٥٨) .
آثار الأندلسية الباقية لمحمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٦١) .
صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية (المجلدان السابع والثامن) .
المصادر المخطوطة

سبق أن تناولنا في بداية القسم الأول من هذا الكتاب في الفصل الذي عقدناه بعنوان « بيان عن المصادر » أهم المصادر المخطوطة التي اعتمدنا عليها وانتفعنا بها ، وذكرنا أوصافها ، وأماكن وجودها . ولذا لا نرى حاجة لتكرار ذكرها في هذا التبت .

- F. Codera : Decadencia y Disparición de los Almorávides en España (Zaragoza 1899) .
Primera Crónica General, Ed. M. Pidal (Madrid 1956) .
Mariana : Historia General de España .
Sandoval : Historia de los Reyes de Castilla y de León
Florez : Historia de las Reinas Católicas
Chronicon Lusitanum (Espana Sagrada Vol. XXIV).
Chronique Latine des Rois de Castille

- M. Lafuente : Historia General de Espana
A. de los Rios : Trofeos Militares de la Reconquista (Madrid 1893)
F. J. Simonet : Historia de los Mozárabes de España (Madrid 1896)
Pons Boigues : Historiadores y Geógraficos Árábigo-Españoles
(Madrid 1898)
R. Altamira : Historia de Espana y de Civilización Española
(Barcelona 1900)
A. Campaner y Fuertes : Bosquejo Historico de la Dominación
Islamita en las Islas Baleares (Palma 1888)
P.y Vives : Los Reyes de Taifas (Madrid 1926)
G. Palencia y M. Alarcón : Miscelenea de Estudios y Textos Arabes
(Madrid 1916)
A.P. Ibars : Valencia Arabe (Valencia 1901)
M. Gaspar Remiro : Historia de Murcia Musulmana (Zaragoza 1903)
A. Huici Miranda : Historia Politica del Imperio Almohade (Tetuan
1957)
A.H. Miranda : Las Grandes Batallas de la Reconquista (Madrid 1956)
J. Gonzalez : Las Conquistas de Fernando III en Andalucia
(Madrid 1946)
Is. de las Cagigas : Sevilla Almohade y Ultimos Años de su Vida
Musulmana (Madrid 1951)
La Orden de Calatrava (Ciudad Real 1959)
Al-Andalus : Revista de las Escuelas de Estudios Arabes de Madrid
y Granada
M. Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia (Fierenze 1867)
R. Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne (Leiden 1932)
R. Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne
pendant le moyen âge (Leiden 1881)
Alfred Bel : Les Benou Ghania (Paris 1903)
A. Müller : Der Islam im Morgen und Abendland (Berlin 1885)
I. Goldziher : Materialien zur Kenntniss der Almohaden Bewegung
(Z. der Morg. Gesell. 1887)
I. Goldziher : Le Livre de Mohamed ibn Toumert (Alger 1903), Intro-
duction
M. Müller : Beiträge zur Geschichte des Wesentlichen Araber.

فهرست الموضوعات

ص
٣

تصدير

الكتاب السادس

عصر الخليفة أبي يعقوب يوسف

- الفصل الأول : عصر الخليفة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ... ١٠
الفصل الثاني : حوادث الأندلس وسقوط مملكة الشرق ... ٣٣
الفصل الثالث : حركة الجهاد بالأندلس والإخفاق في غزوة وبدة ... ٥٨
الفصل الرابع : أحداث الأندلس والمغرب ... ٩٤
الفصل الخامس : غزوة شترين ومصرع الخليفة أبي يعقوب يوسف ... ١١٣

الكتاب السابع

عصر الخليفة يعقوب المنصور

حتى موقعة العقاب

- الفصل الأول : عصر الخليفة يعقوب المنصور وبداية ثورة بني غانية ... ١٤٠
الفصل الثاني : حوادث الأندلس وإفريقية ... ١٦٩
الفصل الثالث : موقعة الأرك ... ١٩٦
الفصل الرابع : ما بعد الأرك حتى وفاة المنصور ... ٢٢٢
الفصل الخامس : عصر الخليفة محمد الناصر ... ٢٤٩
الفصل السادس : موقعة العقاب ... ٢٨٢

الكتاب الثامن

الدولة الموحدية

في طريق الانحلال والتفكك

- الفصل الأول : عصر الخليفة يوسف المستنصر بالله وأوائل ظهور بني مرين ... ٣٢٨
الفصل الثاني : أبو محمد عبد الواحد والعدل وثورة البياسى بالأندلس ... ٣٤٨
الفصل الثالث : عصر الخليفة أبي العلى المأمون — إلغاء رسوم المهدي ...
ابن تومرت وقيام الدولة الحفصية بإفريقية ... ٣٦٧

ص

الكتاب التاسع

إنهيار الأندلس

وسقوط قواعدها الكبرى

- الفصل الأول : الثورة في مرسية وبلنسية ونذر الإنهيار الأولى ... ٣٨٨
الفصل الثاني : ابن هود وابن الأحمر وسقوط قرطبة ... ٤١٠
الفصل الثالث : سقوط بلنسية وقواعد الشرق ... ٤٣٧
الفصل الرابع : سقوط إشبيلية وقواعد الغرب ... ٤٦٥

الكتاب العاشر

نهاية الدولة الموحدية

- الفصل الأول : عصر الخليفة أبي محمد عبد الواحد الرشيد ... ٤٩٦
الفصل الثاني : عصر الخليفة أبي الحسن على السعيد ... ٥١٦
الفصل الثالث : عصر الخليفة المرتضى لأمر الله ... ٥٢٨
الفصل الرابع : نهاية الدولة الموحدية ... ٥٦١

الكتاب الحادى عشر

الممالك الإسبانية النصرانية

خلال العصر الموحدى

- الفصل الأول : قشتالة وليون منذ عهد ألفونسو الثامن حتى عهد

فرناندو الثالث ... ٥٨٢

١ — مملكة قشتالة ... ٥٨٣

٢ — مملكة ليون ... ٥٩٣

٣ — قشتالة وعهد فرناندو الثالث ... ٥٩٧

- الفصل الثاني : أراجون ونافارا والبرتغال ، منذ أواخر القرن

الحادى عشر إلى أواخر القرن الثانى عشر ... ٦٠٠

١ — مملكة أراجون ... ٦٠١

٢ — مملكة نافارا (نبرة) ... ٦٠٧

٣ — مملكة البرتغال ... ٦٠٩

ص

الكتاب الثاني عشر
نظم الدولة الموحدية
وخواص العهد الموحدى

الفصل الأول : الحكومة الموحدية بالمغرب والأندلس وأوضاعها

السياسية والعسكرية والإدارية ٦١٤

١ - نظم الحكم الموحدى ٦١٩

٢ - تطور الأساس الروحى للخلافة الموحدية ٦٣٠

٣ - النظم العسكرية ٦٣٢

٤ - الحكومة الموحدية بالأندلس ٦٤٠

الفصل الثانى : الحركة الفكرية الأندلسية خلال العصر الموحدى - القسم الأول ٦٤٤

الفصل الثالث : الحركة الفكرية الأندلسية خلال العصر الموحدى - القسم الثانى ٦٨١

الفصل الرابع : الحركة الفكرية الأندلسية خلال العصر الموحدى - القسم الثالث ٧١١

وثائق موحديّة

١ - رسالة الخليفة أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بالتوصية بأن تجرى

الأحكام وفقاً للعدل ، وبأن يرفع إليه أمر اللماء قبل البت فيه ... ٧٢٨

٢ - بيعة أهل إشبيلية للخليفة أبى يعقوب يوسف ٧٣١

٣ - رسالة الخليفة أبى يعقوب يوسف إلى الطلبة الذين بغرناطة ... ٧٣٢

٤ - رسالة للسيد أبى إسحق ابراهيم يبلغ فيها عن دخول ابن همشك

فى الدعوة الموحدية ٧٣٣

٥ - رسالة الخليفة أبى يعقوب يوسف إلى الطلبة والموحدين بالأندلس

ينبئهم فيها باهتمامه بأمر الأندلس والعمل على نصرتها ... ٧٣٤

٦ - ظهور الخليفة الرشيد بإسكان المهاجرين من شرق الأندلس بمدينة

رباط الفتح ٧٣٧

٧ - رسالة الخليفة المرتضى لأمر الله إلى البابا إنوسان الرابع ... ٧٣٨

٨ - كتاب بتقليد خطة الشورى ٧٤١

استدراك ٧٤٢

ثبت المراجع ٧٤٣

س

فهرست الخرائط والصور

- ١ - مواقع غزوات الموحدين لمملكة الشرق وغزوة وبدة ... ٤٩
- ٢ - خط سير الجيش الموحدى والأسطول الموحدى إلى غزوة شنترين ١٢٠
- ٣ - مواقع معركة شنترين ... ١٢٠
- ٤ - إفريقية والمغرب الأوسط ، ومواقع الصراع بين بنى غانية والموحدين ١٦٣
- ٥ - مواقع موقعة الأرك ... ٢٠١
- ٦ - رسم تخطيطى لميدان معركة الأرك حسبما يبدو اليوم ... ٢٠٥
- ٧ - كنيسة الأرك - مجموعة أطلال قلعة رباح ... ٢٠٧
- ٨ - صومعة جامع المنصور بإشبيلية (لاخير الدا) ... ٢٣١
- ٩ - مواقع موقعة العقاب ... ٢٩٩
- ١٠ - أطلال حصن العقاب ... ٣٠٣
- ١١ - نهر مجانيا كما يبدو فى أسفل الجبال ... ٣٠٤
- ١٢ - محدر دسنبيا بروس ... ٣٠٤
- ١٣ - ممر پورتو دل مورادال ... ٣٠٧
- ١٤ - بـيـط مائدة الملك (ميسا دل رى) ... ٣٠٧
- ١٥ - رسم تخطيطى لموقعة العقاب خلال جبال سيراً مورينا ... ٣٠٩
- ١٦ - صورة سهام أرضية عثر بها المؤلف فى ميدان الموقعة ... ٣١٦
- ١٧ - صورة العلم الموحدى الذى غنمه الإسبان ... ٣١٩
- ١٨ - خطط قرطبة الإسلامية ... ٤١٩
- ١٩ - قطاع بلنسية ومرسية ومواقع الفتوحات الأرجونية ... ٤٤١
- ٢٠ - مواقع حصار بلنسية ... ٤٤٥
- ٢١ - قطاع إشبيلية وأحوازها ومواقع الغزو القشتالى ... ٤٧٥
- ٢٢ - حصار إشبيلية ... ٤٧٩
- ٢٣ - خريطة تبين انهيار الأندلس وما كسبته الممالك النصرانية ... ٤٩١
- ٢٤ - صورة فتوغرافية لخطاب الخليفة المرتضى إلى البابا إنوسان الرابع ٥٣٩
- ٢٥ - خريطة تبين تفكك الدولة الموحدية والدول التى قامت مكانها ... ٥٦٩

فهرست الشعر

ص		
٣٩	بسعدك أضحي الدين جذلان باسمها	أبو عمر بن حربون
٦٠	أقيموا صدور الخيل نحو المضارب	أبو بكر بن طفيل
٦١	أقيموا إلى العلياء عوج الرواحل	أبو الحسن بن عياش
٦٧	شرف الخلافة أن ملكت زمامها	أبو بكر بن المنخل
١٠٩	ولما انقضى الفتح الذي كان يرتجي	أبو بكر بن طفيل
١٠٩	خير البشائر صوغت حمل المنى	ابن صاحب الصلاة
١١٠	سلام على قبر الإمام الممجد	شاعر من الجزائر
١٦٥	إسائلكم لمن جيش لهام	أبو بكر بن مجبر
١٨٠	نار من الفتنة العمياء أطفأها	أبو العباس الجراوى
١٨٠	في أم رأسى سر	أبو عبد الله الجزيرى
١٨٥	سأشكر بحراً ذا عباب قطعه	عبد الرحمن بن منقذ
١٨٩	إياب الإمام حياة الأثم	أبو العباس الجراوى
٢١٢	بشائر نصر الله جاءتك سافرة	»
٢١٦	هو الفتح أعبى وصفه النظم والنثرا	»
٢١٦	حيثك معطرة النفس	على بن حزمون
٢٤٤	أتراه يترك الغزلا	أبو بكر بن مجبر
٢٥٦	قولوا لأبناء عبد المؤمن بن على	عبد الرحمن بن الفرس
٢٧٥	هذى فتوح تفتحت أزهارها	ابن يخلفتن الفازازى
٣٥٥	موقعة عفص وطلاطة	شاعر مرسى
٣٩٦	الحمد لله لا أهل ولا والد	ابن الأبار القضاعى
٤٠٩	لا تمنع المعروف يوماً معرضاً ومعرضاً	سعيد بن حكيم الأموى
٤٤٢	ألمأ بأشلاء العلا والمكارم	ابن الأبار القضاعى
٤٤٦	أدرك بخيلك خيل الله أندلسا	»
٤٥٤	ما بال دمعك لا ينى مدراره	أبو المطرف بن عمرة

٤٦٩	أودعكم أودعكم جيان	شاعر من جيان
٤٨٢	وردأ فضمون نجاح المصدر	إبراهيم بن سهل الإشبيلي
٤٨٢	يا حمص أقصدك المقدور حين رمى	أبوموسى بن هرون
٥٦٠	وافى ربيع قد تعطر نفحه	الخليفة المرتضى لأمر الله
٥٦٠	ولما مضى العمر إلا الأقل	» » »
٦٦٢	وعجل شيبى أن ذا الفضل مبتلى	عبد الله بن فتوح الحضرمى
٦٦٣	وقفت على الوادى المنعم دوحه	مفوز بن حيدرة المعافرى
٦٦٦	سليخة وحصير	موسى بن حسين الميرتلى
٦٨٠	سلام على سلمى ومن هل بالحمى	الشيخ محيى الدين بن عربى
٦٨٠	درست عهودهم وأن هواهم	» » » »
٦٨٨	يا سرحة الحى يا مطول	ابن أبى العافية الأزدي
٦٨٩	أما الواقف اعتباراً بقربى	عبد الرحمن بن مغاور
٦٨٩	لوجئت نار الهدى من جانب الطور	ابن غالب البلسنى
٦٨٩	ومهل الشطين تحسب أنه	» » »
٦٨٩	وفتيان صدق كالنجوم تألقوا	» » »
٦٩٠	خليلى ما ليلد قد عبت نسرا	» » »
٦٩٠	كم من أخ فى فواده دغل	ابن عياض القرطبي
٦٩١	أهلاً بطيف خيال منك منساب	ابن الصابونى الصدقى
٦٩٢	يا صاحبي وما البخيل بصاحبي	ابن حريق
٦٩٢	مثل الرزق الذى تطلبه	مرج الكحل
٦٩٢	عرج بمنعرج الكتيب الأخضر	» »
٦٩٣	يا من له بالأنام أنسى	عبد الرحمن بن حزمون
٦٩٣	إليك أمام الحق جبت المفاوز	» » »
٦٩٤	مضى الوصل إلا منية تبعث الأسى	إبراهيم بن سهل الإشبيلي
٦٩٤	ليل الهوى يقظان	» » » »
٦٩٤	هنا الله بلاد العرب	ابن حجاج اللخمي
٦٩٥	أتراه يترك الغزلا	أبو العباس الخراوى

فهرست البلدان والأماكن^(١)

٤٨٢ ، ٤٨٦ ، ٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ،
٥٠٢ ، ٥٠١ ، ٥١٢ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥٢٣ ،
٥٢٨ وج ٢-٤٧ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ،
٢٨٧-٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ،
٣٢١ ، ٣٢٩ ، ٣٢٩ ، ٣٩٨ ، ٤٣١ ، ٥٥٠ ،
٥٥١ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٤ ، ٥٥٤ ، ٥٥٤ ،
٥٨٩ ، ٥٩٢ ، ٥٩٥ ، ٦٠٨ ، ٦٣٩ ، ٦٨١ .
إستجة ؛ ج-١-٤٩١ ، ٤٩٤ ، ٣٣٢ ، ٤٦٥ وج
٢-٨٨ ، ١٠٢ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ،
٤٣١ ، ٤٨٩ ، ٥٩٨ .
إسترامادورة؛ ج-١-١٢٨ ، ١٣٠ ، ٥١٧ وج-٢-
٢٥ ، ٢١٧ ، ٣٢١ .
أسترة ؛ ج-١-٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٥٢٤ .
أسترياس (أستوريش) ؛ ج-١-٤٧٩ ، ٤٨٤ ،
٤٩١ ، ٥١٥ وج-٢-٣٢ .
آسن ؛ ج-٢-٤٩٩ .
الإسكندرية ؛ ج-٢-٤٤٤ ، ٥١ ، ٧٨ ، ١٦٠ ،
١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ وج-٢-١٠٨ ،
١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٤ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٦٧٧ ، ٦٨٧ ،
٦٩١ ، ٦٩٧ ، ٧١٤ .
أشبونة؛ ج-١-٧٠ ، ٧٣ ، ٥٢٢ ، ٥٢٤ وج-٢-٢٤ ،
٢٥ ، ٣٣ ، ٣٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،
١٢٥ ، ١٧١ ، ١٨٦ ، ٣٣٨ ، ٥٤٩ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ،
٧١٥ .
إشبيلية ؛ ج-١-٩٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٦٠ ،
٦٩ ، ٧٠ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ١٠٣ ،
١١٠ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٨٤ ،
٢٢٧ ، ٣٦٧ ، ٣٠٧-٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٢٥-٣٢٥ ،
٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥-
٣٤٨ ، ٣٥٤ ، ٣٧٢ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦-
٣٨٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٤٠٢ ، ٤١٥ ،
٤١٩ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٤١ ، ٤٤٤ ،
٤٤٧-٤٤٩ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦١ ،
٤٦٤ ، ٤٦٧ ، ٤٧٠-٤٧٤ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦ ،

— ١ —

أبدية؛ ج-١-٤٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ،
٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٤٠٤ وج-٢-٤٠٤ ، ٥٣٢ ، ٢٩١ ،
٣٠١ ، ٣٢٣ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٤٠٢ ، ٤١٧ ،
٤٦٩ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٦٧٣ .
آبلية؛ ج-١-٥١٧ وج-٢-٣١ ، ٨٧ ، ٨٨ .
أجرسيف ؛ ج-١-٥٥٠ وج-٢-٥٣١ ، ٥٦٧ .
أجر فرجان ؛ ج-١-٢٢٨ - ٢٣٠ .
أراجون؛ ج-١-٨٧ ، ٨٨ ، ١٠٣ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٣٤ ، ٣٩٤ ، ٤٢٨ ، ٤٨١ ،
٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٥ ، ٤٩٨-٥٠٥ ، ٥١٠ ، ٥١٤ ،
٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥١٨ وج-٢-٢٣٣ ، ٢٦١ ، ٢٨٨ ،
٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٤ ، ٤٥٨ ،
٤٦٤ ، ٥٨٣ ، ٥٨٧ ، ٥٩٥ ، ٥٩٧ ، ٦٠١ ، ٦٠٩ .
أربونة ؛ ج-١-٥٧ ، ٤٩٥ وج-٢-٢٩٧ .
أرجونة؛ ج-٢-٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٩ ، ٥٩٨ .
أرش ؛ ج-٢-٤٣٩ .
أرض برغواطة ؛ ج-١-٢٧٢ ، ٢٧٤ .
أرض ذكالة ؛ ج-٢-٥٥٨ ، ٥٦٢ .
أرض كيك ؛ ج-٢-٥٥٧ .
أرض نفيس ؛ ج-١-٢٧٢ .
أركش ؛ ج-١-٣٢١ ، ٣٢٥ وج-٢-٩٧ ، ١١٦ ،
١٧٥ ، ١٨٨ ، ٤٨٩ ، ٥٩٩ ، ٦٧٥ .
آرك ؛ ج-١-٩٠ ، ٥١٤ .
أروش ؛ ج-٢-٦٨٨ .
آزرو؛ ج-١-٢٣٥ ، ٢٣٦ .
أزمور؛ ج-١-٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٧٥ وج-٢-٥١٠ ،
٥٢٣ ، ٥٢٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٥٧ ، ٥٥٩ ،
٥٦٠ ، ٥٦٠ ، ٥٦٠ ، ٥٦٠ ، ٥٦٠ ، ٥٦٠ ،
١٠٤ ، ٤٩١ ، ٥١٨ ، ٥٢١ ، ٥٢٨ وج-٢-٣٧ ،
٤٧ ، ٦٩ ، ٥٩٠ .
إسبانيا النصرانية؛ ج-١-٢٥ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٣٦ ،
٥٢ ، ٥٦ ، ٥٦ ، ٥٦ ، ٥٦ ، ٥٦ ، ٥٦ ، ٥٦ ،
١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٦٨ ، ٢٤٨ ، ٣٠٦ ، ٣١٥ ،
٣٤٦ ، ٤١٣ ، ٤٢٢ ، ٤٣٦ ، ٤٥٤ ، ٤٧٨ -

(١) هذا الفهرس وما يليه ، يضم فهرس التقسيم الأول والثاني من الكتاب (ج ١ وج ٢)

بلاد غارة ؛ ج ١ - ٢٣٧ ، ٢٣٨ وج ٢ - ٥١٢
 بلاد فازان ؛ ج ١ - ٢٣٥ ، ٢٧٧ ، ٤١٥
 وج ٢ - ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٤٢
 بلاد القبله ؛ ج ١ - ٣٨ ، ٥٨ وج ٢ - ١٩٨ ، ٢٨٥
 بلاد مزلة ؛ ج ٢ - ٤٩٨
 بلاد المصامدة ؛ ج ١ - ٢٦٩ ، ٤١٥
 بلاد هرقة ؛ ج ١ - ١٧٣ ، ١٨٢ وج ٢ - ١١٠ ، ٥٠٤
 بلاد هزرجة ؛ ج ٢ - ٤٩٨
 بلاد هيلانة ؛ ج ١ - ١٨٩ ، ٢٧٢ وج ٢ - ٥٦٢
 بلاط الصوف ؛ ج ٢ - ٧٦
 بلای ؛ ج ١ - ١١١ ، ٢٥ ، ٢٢٥
 بلد الوليد ؛ ج ١ - ٤٨٢ ، ٤٨٦ ، ٤٨٦ وج ٢ - ٣٣٣ ، ٥٩٣ ، ٥٩٦
 بلد جنفيسه ؛ ج ١ - ٢١٠
 بلرم ؛ ج ٢ - ٢٧٩ ، ٥٣٥
 بلش مالقة ؛ ج ١ - ١١٢
 بلقيق ؛ ج ٢ - ٦٧٧
 بلنسية ؛ ج ١ - ١٣ ، ١٥ ، ١٦ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٠ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٧
 ٧٢ - ٧٦ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ١٣٤
 ١٤٨ - ١٥٠ ، ٣١٨ ، ٣٣٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣
 ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٧
 ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٣٢
 ٤٤٢ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥
 ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٥ ، ٤٦٧
 ٤٦٩ ، ٤٧٧ ، ٤٩١ ، ٥٠٩ ، ٥٤٣
 ٥٤٤ ، ٥٤٨ ، ٥٤٧ ، ٥١ - ٥٣
 ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٣ ، ٩٦ ، ١٦٧
 ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٣٤١ ، ٣٥١
 ٣٥٢ ، ٣٦٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢
 ٤٠٤ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٧ ، ٤٣٨
 ٤٤٤ ، ٤٤٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٣
 ٤٦٤ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ، ٤٨٤ ، ٥٧٥
 ٥٨٦ ، ٦٠٥ ، ٦٠٧ ، ٦١٨ ، ٦٢٧
 ٦٢٩ ، ٦٣٨ ، ٦٤١ ، ٦٤٧ ، ٦٥١
 ٦٥٦ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٧
 ٦٦٩ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦ ، ٦٧٨ ، ٦٨٥
 ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧
 ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦
 بنبلونة ؛ ج ١ - ٩٠ ، ٩٥ ، ٥٠٥ وج ٢ -

وج ٢ - ٤٠٤ ، ٦٠٣
 بريانة ؛ ج ٢ - ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٤
 بسطة ؛ ج ١ - ١٠٨ ، ٣٢٠ ، ٣٣٥
 ٣٧٢ وج ٢ - ١٦ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ١٨٠
 ٢٦٣ ، ٢٧٠ ، ٤١٥
 بسكرة ؛ ج ٢ - ٢٥٥ ، ٣٧٥
 بسكونية ؛ ج ٢ - ٤٨١
 البشرات ؛ ج ٢ - ٤٣١
 البصرة ؛ ج ١ - ٣٤٣ وج ٢ - ٦٨٣
 بطرنة ؛ ج ٢ - ٤٤٤
 بطليوس ؛ ج ١ - ٣٢ ، ٣٣ ، ٧٠ ، ١٣٦
 ١٤٠ ، ٣١٤ ، ٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩
 ٣٤٤ ، ٤٢٦ ، ٤٤١ ، ٤٥٣ ، ٤٦٨
 ٤٧٠ ، ٥٢٦ ، ٥٢٦ ، ٥٢٦ وج ٢ - ١٥ ، ٢٦
 ٢٧ ، ٣٢ ، ٤٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٥ ، ٨٦
 ٨٩ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١٠٥ ، ١١٢ ، ١١٧
 ١١٩ ، ١٢٥ ، ٢١٨ ، ٢٣٣ ، ٢٦٣
 ٣٩٣ ، ٣٩٩ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٥٧٤
 ٥٩٣ ، ٥٩٧ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦٤١ ، ٦٧٧
 بنفاد ؛ ج ١ - ٤٠ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ٤٥٥
 ٤٥٦ ، ٥٣٠ ، ٥٣٢ ، ١٥٨ وج ٢ - ١٥٨
 ٣٩١ ، ٤١٢ ، ٤١٦ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٧١٣
 بکیرس ؛ ج ١ - ٢٤٧
 بلاد الجريد ؛ ج ١ - ١٨ وج ٢ - ١٥٣
 ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٩٤ ، ٢٥٢
 ٢٥٤ ، ٢٦٨ ، ٣٧٤
 بلاد جزولة ؛ ج ١ - ٢٦٩
 بلاد حاحه ؛ ج ٢ - ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٦٢
 بلاد الريف ؛ ج ٢ - ٢٢ ، ٢٣ ، ٥٢٥
 بلاد الزاب ؛ ج ١ - ٢٨١ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠
 وج ٢ - ٦١ ، ١٠٧ ، ١٤٩ ، ١٩٢
 ٣٣٥ ، ٣٧٥
 بلاد السودان ؛ ج ١ - ٥٥ ، ٢١٢ ، ٤٢٥
 بلاد السوس (الأدنى والأقصى) ؛ ج ١ - ١٢
 ٣٧ ، ٨٥ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٧٢
 ١٧٨ ، ١٨٠ ، ٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣١
 ٢٣٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٧ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٣٣٧
 ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٧٧ ، ٤٠٧ ، ٤١٥
 ٤٢٣ وج ٢ - ٩٠ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٣٣٢
 ٥١٠ ، ٥١٧ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٦ ، ٥٤٦
 ٥٥٣ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦ ، ٥٧٠
 ٥٧٣ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩ ، ٦١٨ ، ٦٢٥

تاساوت ؛ ج ١ - ٢٣٤ .
 تاسلوت ؛ ج ١ - ٢٣٣ .
 تاغزوت ؛ ج ١ - ٢٣٨ .
 تاماداجوست ؛ ج ١ - ٢٢٦ .
 تامسنا ؛ ج ١ - ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ ،
 ٢٧٩ وج ٢ - ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٣٠ ، ٥٤٠ ،
 ٥٤٣ ، ٥٤٧ ، ٥٥٠ ، ٥٥٢ .
 تاهرت ؛ ج ٢ - ١٥١ ، ١٦٦ ، ٢٧٤ .
 تاودا ؛ ج ٢ - ١٥ .
 تاونزرت ؛ ج ٢ - ٥٦٤ .
 تبشه ؛ ج ٢ - ٢٧٢ .
 تدلس ؛ ج ٢ - ٣٧٦ .
 تدمير ؛ ج ١ - ١٤٣ ، ٤٦٩ .
 تراباني ؛ ج ٢ - ٢٧٩ .
 ترجاله ؛ ج ١ - ١٤٠ وج ٢ - ٢٧ ، ٣٤ ،
 ٣٨ ، ١١٧ ، ٢١٨ ، ٣٤١ .
 تطيلة ؛ ج ١ - ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ١٠٠ ،
 ١٠٢ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ٥٠٩ وج ٢ - ٦٠٨ .
 تغمرت ؛ ج ١ - ٣٥٢ .
 تغمر ؛ ج ١ - ٤٧٤ .
 تقيفاين ؛ ج ١ - ٢٣٣ .
 تقيوس ؛ ج ٢ - ١٦٤ .
 تل السبيكة ؛ ج ١ - ٣٨٨ ، ٣٨٩ .
 تلمسان ؛ ج ١ - ٥٩ ، ٧١ ، ١٦٦ ، ٢٢٢ ،
 ٢٢٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،
 ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٣٠٩ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ،
 ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٤٠٢ ، ٤١٥ وج ٢ - ٦٢ ،
 ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ،
 ١٤٩ - ١٥١ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ٢٥٥ ،
 ٢٧٠ - ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٣٦٨ ، ٥١٨ ،
 ٥١٩ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٣٠ ،
 ٥٣٣ ، ٥٦٧ ، ٥٧٢ ، ٥٧٦ ، ٦١٨ ،
 ٦٤٧ ، ٦٥٢ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٦٠ ، ٦٦٥ ، ٦٦٩ ،
 توبين ؛ ج ٢ - ٦٥ .
 تودجا ؛ ج ١ - ٢٣٦ .
 تودجين ؛ ج ٢ - ٦٥ .
 تورينو ؛ ج ١ - ٥١٤ .
 توزر ؛ ج ٢ - ١٥٤ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٩٤ ،
 تولوز (تونوشة) ؛ ج ١ - ٩٠ ، ٤٩٧ ، ٥٠٦ ،
 تونس ؛ ج ١ - ١٨ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ١٩٤ ،
 ٢٨٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩ ،
 وج ٢ - ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١٥٩ - ١٦١

٢٩٠ ، ٥٨٥ ، ٥٨٩ .
 البندقية ؛ ج ٢ - ١٤٦ .
 بشكلة ؛ ج ١ - ٣٦٥ وج ٢ - ٣٩٧ ، ٤٤٠ ،
 ٤٤٤ ، ٤٤٩ ، ٤٦٤ .
 بورتماو ؛ ج ٢ - ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٦ .
 بورتودى موس ؛ ج ٢ - ١٠٠ ، ١٠١ .
 بونة ؛ ج ١ - ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٢ ،
 ٢٩٣ وج ٢ - ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧٢ ، ٥٣٤ .
 بيارن ؛ ج ١ - ٩٠ ، ٩٥ ، ٤٨٩ ، ٥١١ .
 بياسة ؛ ج ١ - ٦١ ، ٧٢ ، ١٤٣ ، ٣٣٢ ،
 ٣٣٥ ، ٣٦١ ، ٣٧٢ ، ٥٠٤ ، وج ٢ - ٤٠ ،
 ٥٣ ، ٧٥ ، ٢٣٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ،
 ٢٩١ ، ٣٠١ ، ٣١٣ ، ٣٢٣ ، ٣٥١ -
 ٣٥٣ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٤١٧ ،
 ٤٣١ ، ٤٦٩ ، ٥٩١ ، ٥٩٥ .
 بيت المقدس ؛ ج ١ - ٩٠ ، ٩٥ ، ١٦١ ،
 ٢٣٣ ، ٤٩٤ وج ٢ - ١٧٠ ، ١٨١ .
 ببش ؛ ج ١ - ١١١ .
 بئر الشهداء ؛ ج ٢ - ١٥٣ .
 بيران ؛ ج ٢ - ٤١٣ .
 بيرة ؛ ج ١ - ١٠٨ .
 بيزنطية ؛ ج ١ - ٤٢٢ .
 بيرة ؛ ج ١ - ٧٦ ، ٣٤٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧١ ،
 ٥٠٠ ، ٥٠٨ وج ٢ - ١٤٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ،
 ٤٠٣ ، ٤٠٦ .
 البيضاء ؛ ج ٢ - ٤٥٩ .
 بيغ ؛ ج ٢ - ٤٣٢ ، ٤٦٩ .
 اليمارستان (مراكش) ؛ ج ٢ - ٢٤٦ .
 بيونة ؛ ج ١ - ١٢٠ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، وج ٢ -
 ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

ت - ث

تاجرا (تاجررت) ؛ ج ١ - ٢٢٤ ، ٢٤٠ ،
 ٢٤١ ، ٢٥٢ ، ٢٨٨ .
 تادراث ؛ ج ١ - ١٨٠ .
 تادراث معطاسة ؛ ج ٢ - ٥٦٢ .
 تادلا ؛ ج ١ - ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٥٩ ،
 ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٣٣٩ وج ٢ - ١٦٧ ، ٥٥٦ ،
 ٥٦٨ ، ٦٩٥ .
 تارودانت ؛ ج ١ - ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٣٤٢ ،
 وج ٢ - ٥٤٢ ، ٥٤٥ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ .
 تازاجارت ؛ ج ١ - ٢٣٥ .

جامع سرقسطة ؛ ج ١ - ١٠١ .
 جامع علي بن يوسف ؛ ج ١ - ٢٦٦ ج ٢ - ٥٤٤ .
 جامع قادس ؛ ج ١ - ٢٥٩ .
 جامع قرطبة ؛ ج ١ - ٧٩ ، ١٤١ ، ٣١٤ ،
 ٣٤٣ ج ٢ - ٧٣ ، ٢٢٥ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ،
 ٤٨٧ ، ٦٢٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ .
 جامع مراكنش ؛ ج ١ - ٣٤٣ ج ٢ - ٢٧٨ ، ٩٤ ،
 جامعة بالنسيا ؛ ج ٢ - ٥٩٢ .
 جامعة شلمنقة ؛ ج ٢ - ٥٩٩ .
 جبال الأطلس ؛ ج ١ - ١٨٢ ، ٢٣٦ ، ٣٤١ ،
 ج ٢ - ١٥٣ ، ٥٧٠ ، ٥٥٤ ، ٥٧٩ .
 جبال البرنيه ؛ ج ١ - ٩٠ ، ١٢٠ ، ٣٤٦ ،
 ٣٧١ ، ٤٧٧ ، ٤٨٩ ، ٥٠٠ ، ٥١١ ،
 ٥١٤ ج ٢ - ٢٧٩ ، ٢٩٧ ، ٤٢٥ ، ٥٩١ ،
 ٦٠٣ ، ٦٠٥ ، ٦٠٧ .
 جبال الذهب ؛ ج ١ - ٤٢٥ .
 جبال الشارات (سيرا مورينا) ؛ ج ١ - ٦٨ ،
 ١٤١ ، ١٤٣ ج ٢ - ١٠٤ ، ٢٢٩ ، ٢٨٧ ،
 ٢٩١ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٤ ،
 ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ،
 ٤١٧ ، ٥٧٤ ، ٥٨٧ ، ٥٩١ .
 جبال الكرسي ؛ ج ١ - ١٣٣ .
 جبال المصائدة ؛ ج ١ - ١٧٢ ، ١٧٣ ،
 ١٧٥ ، ١٨٧ ج ٢ - ٥٧٧ .
 جبال الموحدين ؛ ج ٢ - ٥٠٤ ، ٥١٤ ،
 ٥٢٢ ، ٥٧٠ .
 جبال سيرا انقادا ؛ ج ١ - ١١٢ ج ٢ - ٤٣١ ،
 جبال طليطلة ؛ ج ١ - ٦١ ، ٦٨ .
 جبال غارة ؛ ج ٢ - ٢٢٢ ، ٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٩ ،
 ٥٥١ ، ٥٧٠ .
 جبال هسكورة ؛ ج ٢ - ٥٥٦ .
 جبال وادي الرملة ؛ ج ٢ - ٢٢٩ .
 جبل السوس ؛ ج ٢ - ١١٠ .
 جبل الصومعة ؛ ج ٢ - ٨١ .
 جبل العرض ؛ ج ١ - ٢٣٦ ، ٢٥٦ .
 جبل العميون ؛ ج ٢ - ٤٩٠ .
 جبل الفتوح ؛ انظر جبل طارق .
 جبل القرن ؛ ج ١ - ٣٠٢ .
 جبل لميليز ؛ ج ١ - ١٧٣ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ،
 ١٨٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٨ ج ٢ -
 ١١٠ ، ٣٦٩ ، ٣٧٢ ، ٥٥٤ ، ٥٧٣ ، ٦٣١ ،
 جبل بهلواة (وموقعة) ؛ ٥٤٤ ، ٥٤٥ .

١٦٦ ، ١٨٤ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ،
 ٢٦١ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ،
 ٣٣١ ، ٣٤٩ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٨٠ ، ٤٠٩ ،
 ٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٦ - ٤٥٩ ،
 ٤٧١ ، ٤٨٦ ، ٥٢٠ ، ٥٣٤ ، ٥٧٣ ، ٦٠٩ ،
 ٦٣٨ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٢ ، ٦٧٥ - ٦٧٨ ،
 ٦٨٥ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧١٤ .
 توى ؛ ج ١ - ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٥٠٢ ، ٥٠٤ ،
 ٥٢٤ ، ٥٢٦ ج ٢ - ٣٧ .
 تيطاوين (تطوان) ؛ ج ١ - ٢٣٨ ، ٢٧٧ ،
 تيفسرت ؛ ج ١ - ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٧٧ ،
 تيكلات ؛ ج ٢ - ١٥٣ .
 تينمل ؛ ج ١ - ١٤٧ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ،
 ١٨٩ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ،
 ٢٢٩ - ٢٣٥ ، ٢٦٨ ، ٢٨٨ ،
 ٢٨٩ ، ٢٣٧ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ،
 ٣٩٢ ، ٣٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠٦ ، ٥٥٢ ج ٢ -
 ١١ ، ١١٠ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٥٩ ،
 ٢٣٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤٥ ، ٥٠٣ ، ٥٤١ ،
 ٥٤٤ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٨٠ ، ٦٣٨ .
 الثغر الأعلى ؛ ج ١ - ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٠ ،
 ٨٦ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٩ - ١٠٣ ، ١٠٦ ،
 ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢١ - ١٢٦ ، ١٣٠ ،
 ١٤٨ ، ٣١٣ ، ٣٣٥ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ ، ٣٦٩ ،
 ٣٧٠ ، ٤٥٠ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٦٤ ، ٤٩١ ،
 ٤٩٣ ، ٤٩٩ ، ٥٠٨ ، ٥١٤ ج ٢ - ٦٧٨ .
 ثماجروت ؛ ج ١ - ١٢ ، ٢٤٨ .
 ثيودادريال ؛ ج ٢ - ٢٠٣ ، ٢١٥ .

ج - خ

جافة ؛ ج ١ - ٤٩٥ .
 جامع ابن عديس ؛ ج ٢ - ٧٢ ، ٧٣ .
 جامع إشبيلية ؛ ج ٢ - ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٧ ،
 ١١٧ ، ١٣٧ ، ٢١٧ ، ٢٣٠ ، ٣٥٤ ،
 ٤٨٧ ، ٦٢٩ ، ٦٤١ ، ٦٨٤ ، ٧٢٥ .
 جامع القيروان ؛ ج ٢ - ١٦٢ .
 جامع المرية ؛ ج ٢ - ٦٥٣ .
 جامع المنصور ؛ ج ٢ - ٣٦٥ ، ٣٧١ ،
 ٥٣٠ ، ٥٥٧ .
 جامع بلنسية ج ٢ - ٦٧٨ .
 جامع تينمل ؛ ج ١ - ٢٢١ ج ٢ - ٢٤٣ .
 جامع سلا ؛ ج ٢ - ٢١٨ .

- الجزيرة الخضراء؛ ج ١- ٥٣ ، ٥٩ ، ٢٤٤
 ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٩ ، ٣٤٥ ، ٣٨٩
 ٤٢٠ وج ٢- ١٢ ، ٦٣ ، ٨٨ ، ١٠٣ ، ١١٦
 ١٨٠ ، ١٩٨ ، ٢٦٦ ، ٣٦٩ ، ٤٠١ ، ٤١١
 ٤١٣ ، ٤٣٣ ، ٥٧٣ ، ٦١٨ ، ٦٣٣ ، ٦٧٥
 ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٧١٥
 جزائر بني مزغنة؛ ج ١- ٢٨٠ ، ٢٨١
 ٢٩١ ، ٢٩٢
 جزيرة باشو؛ ج ٢- ١٥٩
 جزيرة جربة؛ ج ١- ٢٩٠ ، ٢٩٢
 جزيرة شقر؛ ج ١- ١٠٨ ، ١١٧ ، ١١٨
 ١٥٠ ، ١٦٥ ، ٤٦٧ ، وج ٢- ٥٠ ، ٥١
 ٥٣ ، ٣٩٢ ، ٣٩٥ ، ٤١٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ ، ٦٠٦
 ٦٥٩ ، ٦٧٢ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٧٠٠ ، ٧٢٦
 جزيرة شلطيض؛ ج ٢- ٩٩ ، ٤٩٠ ، ٦٨٣
 جزيرة فرمتيرا؛ ج ٢- ٤٠٨
 جزيرة قوصرة؛ ج ١- ٢٩٠
 جزيرة مالطة؛ ج ٢- ٥٣٥
 جليقية؛ ج ١- ٧٣ ، ٤٢٢ ، ٤٧٨ ، ٤٨٥
 ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥٠٤ ، ٥١٥
 ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٦ وج ٢- ٣٧ ، ٣٨ ، ١٧٠
 ١٧١ ، ٢٩٤ ، ٤٨١ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥
 جنجالة؛ ج ١- ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٩٥
 خنوة؛ ج ١- ٧٦ ، ٣٤٩ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠
 ٣٧١ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٨ وج ٢- ١٤٦ ، ٢٥٨
 ٢٦١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٥٠٦ ، ٦٠٣
 نيجان؛ ج ١- ٣٣ ، ٦١ ، ٩٣ ، ١١٥
 ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، ٣١٣ ، ٣١٦
 ٣٢١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢
 ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧
 ٣٩٠ ، ٤٦١ ، ٤٧٠ ، ٥٠٤ ، ٥١١
 ٥١٩ ، وج ٢- ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٥٣
 ٥٧ ، ٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩١
 ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣١٣ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٥١
 ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٩٠
 ٣٩٢ ، ٤٠١ ، ٤٠٢ ، ٤١١ ، ٤١٥ ، ٤١٧
 ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧٤ ، ٥٨٧
 ٥٩١ ، ٥٩٨ ، ٦١٨ ، ٦٤١ ، ٦٤٨ ، ٦٦٢
 ٦٦٣ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٦ ، ٦٨١ ، ٧٠٩
 جيرندة؛ ج ١- ٥٠١ ، ٥١٩
 الحجار؛ ج ٢- ٤٣٢ ، ٤٦٩
 الحجاز؛ ج ١- ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٩ ، ٢٩٧
- جبل تاجرا (وموقعة)؛ ج ٢- ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩
 ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧
 جبل تاسررت؛ ج ٢- ٢٣
 جبل تلمسان؛ ج ٢- ٢٢٩ ، ٥٤٣
 جبل تونس؛ ج ٢- ٨١
 جبل درن؛ ج ١- ٥٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢
 ٢٢٧ ، وج ٢- ٥٨٠
 جبل بمر؛ ج ٢- ٢٦٥
 جبل زلاخ؛ ج ١- ٢٥٦
 جبل زرهون؛ ج ٢- ٥١٣ ، ٥٢٣
 جبل زغوان؛ ج ١- ٣٠١
 جبل سكما؛ ج ٢- ٥٦١
 جبل سليمان؛ ج ٢- ٢١٥
 جبل طارق (ومدينة)؛ ج ١- ٩ ، ٣٧٨
 ٣٨٢ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٤٥٢ ، ٤٦٦ وج ٢-
 ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ٧١ ، ١١٦ ، ٤٠١
 ٤١١ ، ٦٣٣ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٧٢٤
 جبل عفرا؛ ج ١- ٢٣٦
 جبل غزوان؛ ج ١- ٢٩٧
 جبل غياثة؛ ج ١- ٢٣٦ ، ٢٣٧ وج ٢- ٥٢١
 جبل فحم السراق؛ ج ٢- ٧٥
 جبل كراندة؛ ج ١- ٢٣٥ ، ٢٤٨
 جبل كسرى؛ ج ٢- ١١٢
 جبل كيك؛ ج ١- ١٨٤ ، ١٨٥
 جبل مديونة؛ ج ١- ٢٤١
 جبل نفوسة؛ ج ١- ٢٩٦ ، وج ٢- ١٥٦
 ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥
 ٢٧٦ ، ٢٧٨
 جبل هتاقة؛ ج ٢- ٣٦٩
 جبل وانشرش؛ ج ٢- ١٥٠
 جبل وريكة؛ ج ١- ١٨٤
 جراند؛ ج ١- ٢٣٧
 جرجنت؛ ج ٢- ٢٧٩
 جرينة؛ ج ٢- ٤٧٦
 الجزيرة؛ ج ٢- ١١٠ ، ١٥٠ ، ١٥٢
 ٢٦٠ ، ٣٧٦
 الجزائر الشرقية؛ ج ١- ٣٣ ، ٧٦ ، ٨٠
 ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ٢٣٢ ، ٢٩٦
 ٣٣٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٠ وج ٢- ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٧
 ١٥٩ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٧ ، ٢٨٣
 ٢٨٤ ، ٣٧٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧
 ٤٠٨ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٦٠٣ ، ٦٠٧ ، ٦٣٨

٥٣٢ ، وج ٢ - ٢٤١ ، ٧١٥ .
 حجر الإيل ؛ ج ٢ - ١٣٢ .
 الحرمين ؛ ج ١ - ٣٩ وج ٢ - ٦٧٨ .
 حصن أربلية ؛ ج ١ - ١٥٢ .
 حصن أرجنة (أورنخا) ؛ ج ١ - ٧١ ، ١٥٠ ،
 ١٥١ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥١٣ ، ٥٤٧ .
 حصن أرجونة ؛ ج ١ - ١٣٥ وج ٢ - ٤١٤ ،
 ٤١٦ ، ٤٣٢ ، ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٥٩٨ .
 حصن صف ؛ ج ٢ - ٨٣ .
 حصن أطرونكس ؛ ج ١ - ٣٤٥ .
 حصن الأرك (وموغة) ؛ ج ١ - ٨ ، ١٠ ،
 ٢٧ وج ٢ - ١٤١ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ - ٢٠٤ ،
 ٢٠٩ - ٢١٤ ، ٢١٨ - ٢٢٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ،
 ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ،
 ٢٨٧ ، ٢٩٦ ، ٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ،
 ٣٣٦ ، ٥٧٥ ، ٥٨٧ ، ٥٩٥ ، ٦٠٢ ، ٦٣٩ .
 حصن الأطراف ؛ ج ٢ - ٤١٧ .
 حصن البطروج ؛ ج ١ - ٣٤٤ ، ٥١١ .
 حصن إلبور ؛ ج ٢ - ١٧٢ .
 حصن الحنش ؛ ج ٢ - ٤٠٠ .
 حصن الديموس ؛ ج ٢ - ٣٩٧ ، ٦٠٥ .
 حصن السكة ؛ ج ١ - ١٣٤ .
 حصن العقاب (كستروفال) ؛ ج ٢ - ٢٩٢ ،
 ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣١٤ ، ٣٢٣ .
 حصن الفرح (إشبيلية) ؛ ج ٢ - ١٩٢ ،
 ١٩٩ ، ٢١٧ ، ٢٣٣ ، ٢٤٦ ، ٤٧٨ ،
 ٤٨٠ ، ٤٨٥ ، ٤٨٨ ، ٦٤١ .
 حصن الفرج (مرسية) ؛ ج ٢ - ٤٨ .
 حصن القصر ؛ ج ١ - ٣٠٩ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،
 وج ٢ - ١٠٢ ، ٣٦٠ .
 حصن القنطرة ؛ ج ٢ - ٩٢ ، ٣٤٠ .
 حصن اللج ؛ ج ٢ - ٢٩١ .
 حصن المنور ؛ ج ١ - ٣٤٤ وج ٢ - ٣٦١ ،
 ٤٢٥ ، ٥٩٨ .
 الحصن المزهر ؛ ج ١ - ٣٠٩ .
 حصن المعدن (البرتغال) ؛ ج ٢ - ١٨٧ .
 حصن المنار ؛ ج ٢ - ١٧٤ .
 حصن أنوط ؛ ج ٢ - ٨٣ .
 حصن بارجاس ؛ ج ١ - ١٣٤ .
 حصن بانويوس ؛ ج ٢ - ٣٢٣ .
 حصن ببشتر ؛ ج ١ - ٣٢٩ .
 حصن برجة (المرية) ؛ ج ١ - ٣٤٦ .

حصن بلج ؛ ج ٢ - ٧٥ .
 حصن بلمة ؛ ج ٢ - ٨٨ .
 حصن بلشون ؛ ج ١ - ٦٥ .
 حصن بليانة ؛ ج ٢ - ٨٣ .
 حصن بنيول ؛ ج ٢ - ٨٢ .
 حصن بنى بشير ؛ ج ١ - ٣٣٣ .
 حصن تاسغموت ؛ ج ١ - ٢٢٦ .
 حصن قتلين ؛ ج ١ - ٢٣٣ .
 حصن تولوسا ؛ ج ٢ - ٣٢٣ .
 حصن تيزغيت ؛ ج ٢ - ٥٦٤ .
 حصن تيوفونين ؛ ج ١ - ٢٢٨ ، ٢٣٣ ،
 وج ٢ - ٥٤٥ ، ٥٦٥ .
 حصن جرانينا ؛ ج ٢ - ٥٠١ ، ٥١٨ .
 حصن جلاوة ؛ ج ١ - ٢٢٦ .
 حصن جلمانية ؛ ج ٢ - ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٦ ،
 ٤١ ، ٤٦ ، ١١٧ ، ٦١١ .
 حصن جنجاله ؛ ج ٢ - ٨٣ ، ٣٥٠ .
 حصن حلال ؛ ج ١ - ٣٧١ .
 حصن ركافة ؛ ج ٢ - ٨٢ ، ٣٤١ .
 حصن روطه (وإمارة) ؛ ج ١ - ٧٤ ، ٨٩ ،
 ١٢٧ - ١٣٠ ، ٣١٣ ، ٣٩٣ وج ٢ - ٣٨٩ ،
 حصن سانتاماريا ؛ ج ١ - ٩٨ ، ٤٨١ .
 حصن شربة ؛ ج ٢ - ٢٧ ، ٣٨ ، ٩٧ ،
 ١١٧ ، ٢٢٠ ، ٦١١ .
 حصن شقوبش ؛ ج ١ - ٣٦٨ .
 حصن شنت إشتين ؛ ج ١ - ١٣٥ وج ٢ - ٤١٧ .
 حصن شنتفيلة ؛ ج ٢ - ١٠٣ ، ١٠٤ ، ٥٨٧ .
 حصن شيزر ؛ ج ٢ - ١٨٣ .
 حصن طاروطا ؛ ج ٢ - ٣٣٦ .
 حصن طرش ؛ ج ٢ - ١٣٠ ، ١٧٧ ، ٦٣٩ .
 حصن علودان ؛ ج ٢ - ٥٤٩ .
 حصن فرنجولش ؛ ج ١ - ٣١٣ - ٣١٥ .
 حصن قبالة ؛ ج ٢ - ٣٦٠ - ٣٦٢ .
 حصن قسطة ؛ ج ٢ - ٣٠ .
 حصن قلالة ؛ ج ٢ - ١٨٧ .
 حصن ليط (أليدو) ؛ ج ١ - ٢٩٩ ، ٤١٤ ، ٤٢٢ ، ٤٧٧ ،
 حصن مرتش ؛ ج ٢ - ٣٥٨ ، ٣٥٩ ،
 ٣٦٣ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ .
 حصن مرجانة ؛ ج ١ - ٣١٣ .
 حصن مرجيق ؛ ج ١ - ٣٠٨ .
 حصن مرسية ؛ ج ٢ - ٦٩ .
 حصن مسطانية ؛ ج ١ - ٧١ .

رباط الفتح ؛ ج ١-١٦ ، ٢٧٩ ، ٢٩٤ ، ٣٣٧ ،
 ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، وج ٢-٦٥ ، ٦٦ ، ٩٤ ، ١١٥ ،
 ١٣٢ ، ١٥٩ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٩١ ، ١٩٧ ،
 ٢٣٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٦٤ ، ٢٧١ ، ٢٨٥ ،
 ٤٥٦ ، ٤٥٩ ، ٥٠٩ ، ٥٣٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ،
 ٥٥٠ ، ٥٥٢ ، ٥٥٩ ، ٥٥٩ ، ٥٧١ ، ٦٣٣ ، ٧٢٥ ،
 رباط تازة ؛ ج ١-٢٣٦ ، وج ٢-١٦٠ ، ٣٣٧ ،
 ٣٦٤ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥١٢ ، ٥٢٥ ، ٥٣١ ،
 ٥٣٣ ، ٥٤٢ ، ٥٤٦ ، ٥٥٩ ، ٥٧٠ ،
 رباط ماسة ؛ ج ١-٢٦٩ ،
 رباط هرغة ؛ ج ١-٢٠١ ،
 رباط هسكورة ؛ ج ٢-٩٤ ،
 الربض الغربي (قرطبة) ؛ ج ١-٨٢ ، وج ٢-٤٢٠ ،
 ربض البيازين ؛ ج ١-٣٨٨ ،
 ربض الدباغين (سرقسطة) ؛ ج ١-٩٣ ، ١٠٠ ،
 ربض شترين ؛ ج ٢-١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ،
 ربينة ؛ ج ٢-١٧٤ ،
 رحبة ابن خلدون (إشبيلية) ؛ ج ٢-١١٧ ،
 الرصافة (بلنسية) ؛ ج ٢-١٨٣ ، ٤٤٨ ،
 ٤٤٩ ، ٦٨٩ ،
 ركافة ؛ ج ٢-٣٤١ ، ٨٢ ،
 رندة ؛ ج ١-٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٨٢ ،
 ٤٠٦ ، ٤٤٤ ، وج ٢-٢٩ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،
 ١١٤ ، ٤٦٦ ، ٦٦١ ، ٦٧٥ ، ٦٨٤ ، ٧٠٤ ،
 روسيون ؛ ج ٢-٦٠٣ ،
 روضة ؛ ج ٢-٤٨٨ ،
 رومة ؛ ج ١-٨٥ ، وج ٢-٢٩٤ ، ٤٦٢ ، ٦٠٣ ،
 ريباجورسا ؛ ج ١-٤٩٦ ، ٥٠١ ،
 ريونجا ؛ ج ١-٤٨٣ ، ٤٨٩ ، ٥١٥ ، ٥٠٥ ،
 ريه (كورة) ؛ ج ١-٣٣٦ ،
 الزلاقة (موقعة) ؛ ج ١-١٥ ، ٢٥ ، ٢٧ ،
 ٢٩ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
 ٥٨ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٣ ، ٨٦ ، ٨٨ ،
 ١٠٢ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٣٦ ، ٣٠٥ ،
 ٤١٤ ، ٤١٨ ، ٤١٩ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ، ٤٣٥ ،
 ٤٧٧ ، ٥٢٣ ، وج ٢-٤٥ ، ٢١١ ، ٢١٣ ،
 الزاهرة ؛ ج ٢-٧٥ ،
 الزهراء ؛ ج ٢-١٧٥ ،
 زويلة ؛ ج ١-٢٩٣ ، ٢٩٥ ، وج ٢-١٥٦ ،
 س — ش
 سانتا إيلينا ؛ ج ٢-٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١١ ،

حصن مطر نيش ؛ ج ١-٤٨ ،
 حصن ملجون ؛ ج ٢-٢٩٦ ، ٢٩٧ ،
 حصن متانجش ؛ ج ٢-٢٧ ، ٣٦ ، ٣٨ ،
 ١١٧ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٣٩٩ ، ٥٩٦ ، ٦٦١ ،
 حصن منثور ؛ ج ١-٣٤٤ ،
 حصن مورة ؛ ج ١-١٥٢ ،
 حصن هزرجة ؛ ج ١-٢٢٦ ،
 حصن يسر ؛ ج ٢-٤٦٣ ،
 حلب ؛ ج ٢-٦٦٠ ، ٦٦٣ ، ٦٨٤ ،
 حلق الوادي ؛ ج ٢-٢٦٢ ،
 الحمة (وموقعة) ؛ ج ٢-١٦٢ ، ١٦٤ ،
 ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٣٧٦ ،
 حمة مطاطة ؛ ج ٢-٢٦٤ ،
 حيفا ؛ ج ٢-٦٠٧ ،
 الخزائن الناصرية ؛ ج ١-١٢ ،
 خزائن الرباط ؛ ج ١-١٧ ، ٤٢ ،
 خليج جراو ؛ ج ٢-٤١٤ ، ٤٤٨ ،
 د — ز
 دار السكة ؛ ج ٢-١٤٤ ،
 دار الكتب المصرية ؛ ج ١-١٧ ، وج ٢-٧١٠ ،
 دانية ؛ ج ١-٣٣ ، ١٠٨ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ،
 ١٥٣ ، ٢٧٠ ، ٣٦٧ ، ٤٦١ ، ٤٦٧ ،
 ٤٧١ ، ٤٧٣ ، وج ٢-١٥٨ ، ٢٥٩ ،
 ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٩٥ ، ٤١٣ ، ٤٤٩ ،
 ٤٥٠ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ ، ٤٦٩ ، ٦٠٦ ،
 ٦٤٨ ، ٦٥٦ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٧١٤ ،
 داي ؛ ج ١-٢٣٤ ،
 دجة ؛ ج ١-١١٠ ،
 درعة ؛ ج ١-٢٧٧ ، ٤١٥ ، وج ٢-٩٠ ،
 ٩١ ، ٣٧٠ ، ٣٨٢ ، ٥٠٨ ، ٥١١ ،
 ٥٢٠ ، ٥٤٥ ، ٥٥٩ ، ٥٧١ ،
 دروكة ؛ ج ١-١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٢٥ ، ٤٥٦ ،
 ٥١٨ ، وج ٢-٦٠٣ ،
 دمر ؛ ج ١-١١٢ ، ٣٨٩ ،
 دمشق ؛ ج ١-١٦١ ، ٤٥٦ ، وج ٢-٧١٧ ،
 ٦٧٧ ، ٦٩٧ ، ٧٠٨ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ،
 دمنات ؛ ج ١-٢٣٤ ،
 الدبر الملكي بـرغش ؛ ج ٢-٣١٧ ، ٥٩٢ ، ٦٣٢ ،
 ديرخوان دي لانييا ؛ ج ١-١٢٤ ،
 ديزسان بيدرو ؛ ج ١-٤٩٨ ،
 ديزساجون ؛ ج ١-٤٧٨ ، ٤٨٤ ، ٥٨٤ ،

شلبطة : ج ٢ - ١٩٩ ، ٢١٤ ، ٢٨٤ ،
٢٨٦-٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣٦٠ ، ٥٩١ .
شلمتقة : ج ١ - ٤٨٥ ، ٥١٧ .
شلوبانية : ج ١ - ١١٢ .
شلوة : ج ٢ - ١٠١ ، ١١٧ ، ٤٨٥ ،
٤٨٨ ، ٥٩٩ .
شنترية (كورة) : ج ١ - ٦١ .
شنترة : ج ١ - ٧٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ .
شنترين (وموقعة) : ج ١ - ٢٧ ، ٧٠ ،
١٥٢ ، ٣٩٣ ، ٤٤٨ ، ٤٧٧ ، ٥٢٢ -
٥٢٤ وج ٢ - ١٥ ، ٢٠ ، ٣٣ ، ٤١ ،
٤٣ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١١٦ - ١٢٥ ،
١٢٨ - ١٣٠ ، ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٨ ، ١٧٠ ،
١٧٦ - ١٧٨ ، ١٨٢ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٣٠ ،
٣٥٦ ، ٥٩٤ ، ٦١٠ ، ٦٢١ ، ٦٣٦ ، ٦٣٩ .
شنترية الشرق : ج ١ - ٣٦٦ وج ٢ - ٣٩٧ ،
٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٥ .
شنترية الغرب : ج ٢ - ٤٩٠ ، ٤٩٢ ، ٦١٢ ،
شنت ياقب : ج ١ - ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٦ ،
٤٩٠ ، ٥٠٦ ، ٥١٠ وج ٢ - ١٧٠ ، ٤٢٥ .
شوذر : ج ٢ - ٣٦٣ .

ص - غ

الصالحه : ج ٢ - ١٤٣ ، ١٥٩ ، ٢٣٦ ،
٢٣٧ ، ٤٤٥ ، ٧٢٥ .
الصحراء الكبرى : ج ١ - ٣٨ ، ٤٩ ، ١٤٩ ،
٣٩٦ ، ٤١٣ ، وج ٢ - ٥٧٣ .
الصخورات : ج ٢ - ٣٩٠ .
الصعيد (مصر) : ج ١ - ٢٩٨ .
صفاقس : ج ١ - ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ،
وج ٢ - ٢٥٤ ، ٢٦٨ .
صفرو : ج ١ - ٢٣٦ .
صقلية : ج ١ - ٢٨٢ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ -
٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٥٠١ وج ٢ - ١٠٨ ،
١٥٨ ، ١٨٢ ، ٢٧٨ - ٢٨١ ، ٥٢٦ ، ٥٣٤ .
صومة الكتبية : ج ٢ - ٢٤٦ ، ٧٢٥ .
صومة جامع إشبيلية (لاخير الدا) : ج ١ -
١٠ وج ٢ - ٧٤ ، ١٣٧ ، ٢١٧ ، ٢٣٠ -
٢٣٢ ، ٢٤٦ ، ٦٤١ ، ٧٢٥ .
الطائف : ج ١ - ٢٩٧ .
طيرة : ج ١ - ٣٢٣ ، ٣٢٩ ، ٣٤٧ ،
٣٤٨ ، وج ٢ - ٣٠ ، ٤١ ، ٤٠٩ ، ٤٩٠

٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٥١ ، ٤٧١ ، ٤٨٧ -
٤٨٩ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٤٨ ، ٥٥١ ،
٥٧٢ ، ٥٧٤ ، ٥٨٤ ، ٥٨٦ ، ٥٩٠ ،
٦٠٢ ، ٦٠٨ ، ٦٣٣ ، ٦٣٩ ، ٦٤٢ ،
٦٤٣ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٠ .
شدونة : ج ٢ - ١٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ،
٤٦٣ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٥٩٩ ، ٦٦٤ .
الشرق الإسلامي : ج ٢ - ١٨١ ، ١٨٥ .
شرق الأندلس : ج ١ - ١٦ ، ٢٦ ، ٣٠ ،
٣٢ ، ٤٦ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ،
٨٨ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١١٥ ، ١١٧ ،
١٢١ - ١٢٥ ، ١٤٨ ، ١٤٩ - ١٥٢ ، ٣١٠ ،
٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٦ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ،
٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ،
٣٧٤ ، ٣٧٩ ، ٤١٩ ، ٤٤٥ ، ٤٥٠ ، ٤٥٥ ،
٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٧ ، ٤٩١ ، ٥٣٢ ،
وج ٢ - ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٩ ، ٤٤ - ٤٧ ، ٥٣ ،
٦٨ ، ٧٨ ، ١٠٦ ، ١٤٥ - ١٤٧ ، ١٦٢ ،
٢٧٧ ، ٢٨٤ ، ٣٥٠ ، ٣٥٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩٥ ،
٣٩٩ ، ٤٠٤ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٩ ،
٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٥١ ، ٤٥٥ ، ٤٥٧ ،
٤٥٩ ، ٤٦٠ - ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ،
٥٩٧ ، ٦٠٢ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٢٧ ،
٦٤٣ ، ٦٤٨ ، ٦٥٦ ، ٦٦٧ ، ٦٧٢ ،
٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٧٠١ ، ٧٠٦ ، ٧٢٦ .
شريش : ج ١ - ١٤١ ، ١٤٢ ، ٣١٤ ،
٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ،
٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٨٢ ، ٤٤٤ ، ٥١٣ ،
وج ٢ - ٩٧ ، ١٠٨ ، ١١٦ ، ١٣٢ ، ٣٢٦ ،
٤٠١ ، ٤١١ ، ٤٣٠ ، ٤٣٢ ، ٤٣٥ ،
٤٦٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٩ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ،
٦٦٤ ، ٦٧٠ ، ٦٧٥ ، ٧١٤ .
شقوية : ج ١ - ٤٨١ .
شقورة : ج ١ - ٣٦٩ ، ٣٧٢ وج ٢ - ٦٥١ .
شلب : ج ١ - ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ -
٣١٠ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ،
٤٥١ ، ٤٦١ ، ٤٦٤ وج ٢ - ٣٧ ، ٩١ ،
١٤١ ، ١٦٨ ، ١٧١ - ١٧٨ ، ١٨٣ ،
١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٦٣ ،
٢٧٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٤٩٠ ، ٤٩٢ ،
٥٧٤ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٤٠ ، ٦٦٣ ،
٦٨٨ ، ٦٩٦ ، ٧١٣ .

١٨٩ ، ١٩١ ، ٢٣٤ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ،
٢٦٠ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٨٦ ، ٢٣١ -
٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ،
٥٠٧ - ٥٠٩ ، ٥١١ - ٥١٣ ، ٥٢١ ،
٥٢٤ - ٥٢٦ ، ٥٣١ - ٥٣٣ ، ٥٤٢ - ٥٤٦ ،
٥٤٩ ، ٥٥٢ ، ٥٥٥ ، ٥٥٩ ، ٥٦٢ ،
٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٧٠ - ٥٧٢ ، ٥٧٦ ،
٦١٨ ، ٦٥١ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٦ ،
٦٥٩ ، ٦٦٤ ، ٦٦٦ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ،
٦٨٨ ، ٦٩٧ ، ٧٠٣ ، ٧٠٨ ، ٧١٧ ، ٧٢٣ .
فحص الجلاب (وموقعة) ؛ ج ٢ - ١٧ ،
١٨ ، ٣٩ ، ٤٦ ، ٤٧ .

فحص الرفيبول ؛ ج ١ - ١١١ .

فحص الريحان ؛ ج ١ - ١٣٨ .

فحص الشرف ؛ ج ١ - ١٣٥ ، ج ٢ - ١٨ ،
١٠٢ ، ١١٧ ، ١٩٢ ، ٢٢١ ، ٣٥٤ ،
٣٥٩ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٨٠ ،
٤٨٢ - ٤٨٥ ، ٤٩٣ ، ٦١٩ .

فحص إشبيلية ؛ ج ٢ - ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ .

فحص غرناطة ؛ انظر المرج .

فحص كركوى ؛ ج ٢ - ٨٨ .

فحص مرسية ؛ ج ٢ - ١٦ .

فحص واوترت ؛ ج ٢ - ٣٧٠ ، ٣٨١ .

الفرنثيرة ؛ ج ١ - ٣٢٢ ، ٣٣٦ ، ٥١٣ ،

وج ٢ - ٤٣٢ ، ٤٦٩ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٥٥١ .

فرنسا ؛ ج ١ - ٧٦ ، ٩٠ ، ١٢٠ ، ٤٨٠ ،

٥٢٣ ، ٥٢٣ وج ٢ - ١٤٦ ، ٢٥٨ ، ٢٨٩ ،

٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٥٩٠ ، ٥٩٣ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ .

فزان ؛ ج ٢ - ١٥٥ .

ق - ك

قابس ؛ ج ١ - ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ،

٣٠١ ، ٣٧٦ ، وج ٢ - ١١٢ ، ١٤٩ ،

١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٩٥ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٦٥ ،

٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٧٠١ .

قادس ؛ ج ١ - ١٤١ ، ٢٧١ ، ٣٢١ ،

٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٩ ، ٤٢٠ وج ٢ - ١٠٠ ،

٢٥٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٩ ، ٥٩٩ ، ٦٣٨ ،

قاصرش ؛ ج ١ - ١٣٨ ، ١٤٠ وج ٢ - ٢٧٠ ،

٣٤ ، ٣٨ ، ١١٧ - ١١٩ ، ١٢٥ ، ٢١٨ ،

٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٩٩ ، ٥٩٤ - ٥٩٦ .

القاهرة ؛ ج ١ - ٤٠٥ ، ٤٥٦ ، ٤٧١ ،

١٢٠ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٤ ،

١٨٥ ، ١٨٧ ، ٢٦٣ ، ٢٥٧ ، ٢٩٩ ،

٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٢٩ ، ٤٣٣ ، ٤٣٥ ،

٤٨٠ ، ٤٨٦ - ٤٨٩ ، ٤٩٢ ، ٦١٠ ،

٦١٢ ، ٦١٨ ، ٦٤١ ، ٦٦٩ ، ٦٨٦ ، ٧٠٥ ،

غرناطة ؛ ج ١ - ٣٠ ، ٣٢ ، ٤٦ ، ٤٨ ،

٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧١ ،

٧٣ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ١٠٣ ،

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٠ - ١١٦ ، ١٣١ -

١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٣ - ١٤٦ ، ٢٧٣ ،

٣١١ ، ٣١٦ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٣٥ ،

٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٥٦ - ٣٦٠ ، ٣٦٢ ،

٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٥ ،

٣٩١ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٤١ ،

٤٤٣ ، ٤٤٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ،

٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٧٤ ،

٥٠٧ ، ٥٣٤ وج ٢ - ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ،

٢٠ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٧ ، ٤١ ،

٤٣ ، ٥٤ ، ٦٨ ، ٧١ ، ٨٤ ، ١٠٢ ،

١١٠ ، ١١٤ ، ١٤٥ ، ١٧٥ ، ٢٢٥ ،

٢٣٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٢٣١ ، ٢٤٤ ،

٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ ،

٤١١ ، ٤١٣ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠ - ٤٣٥ ،

٤٦٣ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٤ ، ٥١٠ ،

٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٧٢ ، ٥٩٨ ، ٦١٨ ،

٦٢٩ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٧ - ٦٥١ ،

٦٥٥ ، ٦٥٧ ، ٦٦٣ ، ٦٦٧ ، ٦٧٢ ،

٦٧٣ ، ٦٧٥ ، ٦٧٧ ، ٦٨٢ ، ٦٨٨ ،

٦٩٢ ، ٦٩٤ ، ٦٩٧ ، ٧٠٤ ، ٧٠٨ ،

٧٠٩ ، ٧١٧ ، ٧٢٢ .

غريس ؛ ج ١ - ٢٣٦ .

غليانة ؛ ج ٢ - ٤٧٦ ، ٤٨٨ .

ف -

فاس ؛ ج ١ - ١٣ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٨٤ ،

١٦٧ ، ٢٣٥ - ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،

٢٥٩ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٥ ،

٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٤ ،

٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٣٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ،

٤٠٢ ، ٤١٥ ، ٤٤١ ، ٤٥٦ ، ٤٧٠ وج ٢ -

٦٥ ، ٧٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،

١٤٤ ، ١٥١ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ،

قرطمة ؛ ج ٢ - ٣١٩ .
 قرشونة ؛ ج ١ - ٥٠٠ ، ٥٠١ .
 قرونة ؛ ج ١ - ٣٢٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ،
 ٣٧٥ ، ٣٨١ ، ٤٨٦ ، ٣٨٧ وج ٢ - ج ٢ -
 ٧١ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ .
 قسطلونة ؛ ج ١ - ٤٦٤ وج ٢ - ٤٤٠ ، ٤٤٤ ،
 ٤٤٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٤ .
 قسطنطينية ؛ ج ٢ - ٢٩٤ ، ٢٩٥ .
 قسطنطية (إفريقية) ؛ ج ٢ - ٣٧٦ .
 قسنطانة (دانية) ؛ ج ٢ - ٦٧٤ ، ٦٧٨ .
 قسنطينية ؛ ج ١ - ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠١ ، ٣٧٩ ، ٤٠٧ وج ٢ - ١٠٦ ، ١٥١ ،
 ١٥٢ ، ١٦٠ ، ٢٥٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ ،
 ٦٢٥ ، ٧٠١ .
 قشتالة ؛ ج ١ - ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٧ ، ٧٥ ،
 ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ١٠٣ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
 ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ،
 ١٤٢ ، ١٥٠ ، ٣٤٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٨ ،
 ٣٧١ ، ٣٩٤ ، ٤٢٨ ، ٤٧٦ ، ٤٧٨ ، ٤٨٩ ،
 ٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ ،
 ٥٠٩ ، ٥١٢ ، ٥١٥ ، ٥١٩ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ،
 وج ٢ - ٣١ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٦٨ ،
 ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٦ ، ١١٨ ،
 ١١٩ ، ١٨٢ ، ٢٠٠ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ،
 ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ،
 ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٧ ،
 ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣١٢ ، ٣٢١ ، ٣٣٣ ،
 ٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٥٨ ،
 ٣٩٩ - ٤٠١ ، ٤٢١ ، ٤٤٣ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ،
 ٤٦١ ، ٤٦٣ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٤ ،
 ٤٩٣ ، ٥٧٤ ، ٥٨٣ ، ٥٨٩ ، ٥٩٣ ، ٥٩٩ ،
 ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٦ ، ٦٠٨ ، ٦١٩ .
 قصبة إشبيلية ؛ ج ٢ - ١١٧ ، ٤١٥ .
 قصبة أفلش ؛ ج ١ - ٦١ ، ٦٨ .
 قصبة المرية ؛ ج ١ - ٣٤٦ .
 قصبة بطليوس ؛ ج ٢ - ٣٦ ، ٣٨ ، ٤١ ،
 ١٣٧ ، ٦٤٠ .
 قصبة بياسة ؛ ج ٢ - ٣٦٠ ، ٣٦٢ .
 قصبة تادلة ؛ ج ١ - ٢٥٥ .
 قصبة تلمسان ؛ ج ١ - ٢٦٧ .
 قصبة تونس ؛ ج ٢ - ٢٦٢ .
 قصبة رباط الفتح ؛ ج ١ - ٢٥٩ ، ١٦٨ ، ٥٤٧ .

وج ٢ - ٦٩١ ، ٧١٤ ، ٧٢٣ .
 قاية ؛ ج ٢ - ٣٨ .
 القبذاق ؛ ج ١ - ٤٧٠ وج ٢ - ٣٥٩ ، ٤٦٧ ،
 قبر ابن حزم ؛ ج ٢ - ٢٤٠ .
 قبر القديس ياقب ؛ ج ١ - ٥٢٠ .
 قبر المهدي ؛ ج ١ - ٢٨٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ،
 ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٩٢ وج ٢ - ٥٤١ .
 قبره ؛ ج ١ - ١١١ وج ٢ - ٤٢٥ .
 قرطاجنة ؛ ج ١ - ٣٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ،
 ٣٦٧ وج ٢ - ١٦ ، ٤٦١ ، ٤٦٤ .
 قرطاجنة (إفريقية) ؛ ج ٢ - ٢٥٣ .
 قرطبة ؛ ج ١ - ١٣ ، ١٥ ، ٣٠ ، ٣٣ ،
 ٤٦ - ٤٨ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ،
 ٦٧ - ٧٣ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٩٣ ، ٩٩ ،
 ١٠٣ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١٢٢ ، ١٣٣ - ١٣٥ ،
 ١٣٨ - ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ،
 ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ٢٤٨ ،
 ٢٧٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ - ٣١٦ ، ٣١٨ - ٣٢٢ ،
 ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣١ - ٣٣٤ ، ٣٤٠ ،
 ٣٤٢ - ٣٤٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٧ ،
 ٣٥٩ - ٣٦٢ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ - ٣٧٨ ، ٣٨٢ ،
 ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٥ ، ٤٠٢ ،
 ٤٠٤ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٩ ، ٤٣٣ ،
 ٤٤٠ - ٤٤٤ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ - ٤٥٤ ،
 ٤٥٧ ، ٤٥٩ - ٤٦٥ ، ٤٦٩ ، ٤٧١ ،
 ٤٧٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦ - ٥٠٨ ، ٥١٣ وج ٢ -
 ١١ - ١٦ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٩ ،
 ٤٥ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٦٧ - ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٥ ،
 ٨٨ ، ٩٣ - ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٧ -
 ١١٠ ، ١١٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٤٥ ،
 ١٧٤ - ١٧٧ ، ١٩٠ ، ١٩٩ ، ٢٢١ -
 ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٤٨ ، ٢٥٧ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٥٠ -
 ٣٥٣ ، ٣٥٩ - ٣٦٤ ، ٣٩٠ ، ٤٠١ ، ٤١٣ ،
 ٤١٦ - ٤١٨ ، ٤٢٠ - ٤٢٥ ، ٤٣٢ ، ٤٤٣ ،
 ٤٦٦ - ٤٧٠ ، ٤٧٤ ، ٤٧٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٩ ،
 ٤٩٤ ، ٥٧٤ ، ٥٨٧ ، ٥٨٩ ، ٥٩٨ ،
 ٥٩٩ ، ٦١٨ ، ٦٢٩ ، ٦٤١ ، ٦٤٧ -
 ٦٥٣ ، ٦٥٦ - ٦٦٢ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٨ ،
 ٦٧٠ - ٦٧٨ ، ٦٨٢ - ٦٨٥ ، ٦٩١ ، ٦٩٣ ،
 ٦٩٥ ، ٧٠٥ ، ٧١٢ - ٧١٥ ، ٧٢١ ،
 ٧٢٣ ، ٧٢٥ .

القلعة الحمراء ؛ ج ١ - ٣١٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ .
 قلعة النصور ؛ ج ١ - ٦٢ ، ٥٣٦ .
 قلعة الوحلة ج ١ - ٢٣٨ .
 قلعة أورسينه ؛ ج ٢ - ٤٩٢ ، ٤٩٣ .
 قلعة أورشة ؛ ج ٢ - ٤٩٢ ، ٤٩٣ .
 قلعة أيوب ؛ ج ١ - ٧٤ ، ١٠٣ ، ١٢٥ ،
 ٤٥٦ ، ٤٩٧ ، ٥١٨ وج ٢ - ٣٩٦ ،
 ٤٤٢ ، ٦٧٨ .
 قلعة باديس ؛ ج ١ - ٢٣٨ .
 قلعة بني حماد ؛ ج ١ - ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٩٢ .
 وج ٢ - ١٥٠ ، ١٩٣ ، ٣٤٩ ، ٦٩٢ .
 قلعة تازاجورت ؛ ج ١ - ٢٢٥ ، ٢٨٨ .
 قلعة تاماريت ؛ ج ١ - ٨٨ .
 قلعة جابر ؛ ج ١ - ٣٨٦ وج ٢ - ٧١ ، ١٧٤ ،
 ٤٣٢ ، ٤٧٤ .
 قلعة جيان ؛ ج ٢ - ٤٦٧ .
 قلعة رباح ؛ ج ١ - ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ،
 ١٤٢ ، ١٥١ ، ٣٧١ ، ٥٠٧ ، ٥١٤ ،
 ٥١٩ وج ٢ - ٨٨ ، ١٠٥ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،
 ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٠ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ،
 ٢٩٢ ، ٢٩٦ - ٢٩٨ ، ٣١٨ ، ٥٩١ .
 قلعة عبد السلام ؛ ج ١ - ٦٢ ، ٥٣٦ وج ٢ -
 ٢١٥ ، ٢٢٩ ، ٥٨٧ ، ٥٩٥ .
 قلعة كاستيلار ؛ ج ١ - ٤٨٠ ، ٤٨١ .
 قلعة مجريط ج ٢ - ٢٢٩ ، ٥٩٥ .
 قلعة مورة ؛ ج ١ - ٥٠٦ ، ٥٠٧ .
 قلعة موثروش ؛ ج ١ - ٤٤٠ .
 قلعة مونريال ؛ ج ١ - ١٠٤ ، ٥١٨ .
 قلعة مونكادة ؛ ج ٢ - ٤٤٠ .
 قلعة هنارس ؛ انظر قلعة عبد السلام .
 قلعة يحصب (بني سعيد) ؛ ج ١ - ١١١ ، ٣٣٢ ،
 ٣٨٥ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٧٠ وج ٢ - ٧٠٨ .
 قللمرية ؛ ج ١ - ٧٠ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٠ ،
 ٥٢٢ - ٥٢٦ وج ٢ - ٣٨ ، ٩٨ ، ٦١١ .
 قلهرة ؛ ج ١ - ٤٩٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٩ .
 قليرة (غلييرة) ؛ ج ١ - ١٢٠ وج ٢ -
 ٤٥٠ ، ٤٥٦ .
 قنالش ؛ ج ١ - ٦٩ .
 قنطرة طريانة ؛ ج ٢ - ١١٧ ، ١١٣٧ ،
 ٤٨٣ ، ٦٤١ .
 قنطلانة ؛ ج ٢ - ٤٧٦ .
 قورية ؛ ج ١ - ٥٠٤ ، ٥٠٦ ، ٥١٣ ، ٥٨١ - ٤٨١ .

قصبة سلا ؛ ج ٢ - ٥٤٨ ، ٥٤٩ .
 قصبة شلب ؛ ج ٢ - ١٨٨ .
 قصبة شترين ؛ ج ٢ - ١٢٢ ، ١٢٣ .
 قصبة غرناطة ؛ ج ١ - ٣٨٩ ، ٣٩١ وج ٢ - ٤٣٠ .
 قصبة قونقة ؛ ج ٢ - ٨٠ .
 القصر (بلدة) ؛ ج ١ - ١١٠ وج ٢ - ٨٨ ، ٧٥ .
 القصر الكبير (قصر عبدالكريم) ؛ ج ١ - ٣٣٩ ،
 وج ٢ - ٢٢ ، ١٤١ ، ٥١٣ ، ٥١٤ .
 قصر ابن عباد ؛ ج ١ - ٣٨٧ وج ٢ - ٥٦ ،
 ٧٠ ، ٨٤ ، ٢٣٠ .
 قصر ابن فاخر ؛ ج ٢ - ٣٧٩ .
 قصر أبي دانس (قصر الفتح) ؛ ج ٢ - ٢٥ ،
 ٨٦ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ، ٤٠٠ ،
 ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦٤٠ .
 قصر الجعفرية ؛ ج ١ - ٩٣ ، ٩٤ .
 قصر السيد ؛ ج ٢ - ٣٣١ .
 قصر الشراجب ؛ ج ١ - ٣٣٠ .
 قصر المروسين ؛ ج ٢ - ١٩٥ ، ٣٧٤ .
 قصر المدينة ؛ ج ١ - ٧٧ وج ٢ - ٤٠٧ .
 قصر دار الحجر ؛ ج ١ - ٢٦٣ ، ٢٦٧ ،
 ٢٨٧ وج ٢ - ٦٣ ، ١٤٣ .
 قصر شريش ؛ ج ٢ - ٤٨٩ .
 قصر قرطبة ؛ ج ١ - ٨٢ وج ٢ - ٧٥ ، ٤٢٥ ،
 قصر كتامة (القصر الصغير) ؛ ج ٢ - ٢٨٥ ،
 ٢٨٦ ، ٥٥٠ .
 قصر مصمودة (الصغير) ؛ ج ٢ - ١٣٢ ، ١٧٢ ،
 ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٩٨ ، ٦٣٣ .
 قصور إفريقية ؛ ج ١ - ٢٩٦ .
 قصور لالة ؛ ج ٢ - ٢٥٤ .
 قطلونية ؛ ج ١ - ٧٦ ، ٩٠ ، ١١٦ ،
 ٣٤٦ ، ٤٢٢ ، ٤٨٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ،
 ٥٠٢ ، ٥٠٥ ، ٥٠٨ وج ٢ - ٤٧ ، ٥٢٤ ،
 ٢٨٤ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٤٤ ، ٤٦٤ ،
 ٦٠١ ، ٦٠٤ ، ٦٠٧ .
 قفصة ؛ ج ١ - ٢٩٦ ، ١٠٠ - ١٠٦ ،
 ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١٣٤ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ،
 ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢٥٤ ،
 ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ .
 القلعة أو القلاعة (موقعة) ؛ ج ١ - ١٥ ،
 ١١٧ - ١٢٠ ، ٤٩١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٤ .
 القلعة (إشبيلية) ؛ ج ٢ - ٤٣٥ ، ٤٧٦ ،
 ٤٧٧ ، ٤٨٨ .

قوص (مصر) ج ١ - ٤٦٨ وج ٢ - ٦٧٦ .
 قوبلر ج ١ - ١٠٦ .
 قونقة ج ١ - ٦٦ ، ٧١ ، ١٢٣ ، ١٤٨ ،
 ١٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٦٢ وج - ٨٠ ، ٨١ ، ٩٦ ،
 ٩٧ ، ٢٣٠ ، ٣٥٤ ، ٥٨٥ ، ٥٩٥ .
 قبيجا ط ج ٢ - ٤٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ .
 القديروان ج ١ - ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٤٧٣ وج ٢ - ٦١ ، ١٠٦ ،
 ١٠٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٥٤ ،
 ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٣٧٩ .
 كامبودي سينا ج ١ - ٤٨١ ، ٥٢٤ .
 كاسولا ، معاهدة ج ٢ - ٤٤٣ ، ٥٨٦ ، ٦٠٢ ،
 كدية ابن مردنيس ج ١ - ٣٨٨ .
 الكرسي ج ٢ - ٢٣٠ ، ٤٦٠ ، ٥٩١ .
 كركي ج ١ - ١٤٢ .
 كريون ج ١ - ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٩ ،
 وج ٢ - ١٩٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣٣ ، ٥٨٦ ،
 ٥٨٧ ، ٥٩٤ .
 كنيسة الأرك ج ٢ - ٢٠٣ ، ٢٠٤ .
 كنيسة إشبيلية العظمى ج ٢ - ٧٢ ، ٧٤ ،
 ٢٣٢ ، ٦٢٥ .
 كنيسة سان سالبادور (سرقطة) ج ١ - ١٠١ .
 كنيسة شنت ياقب ج ٢ - ٤٢٥ .
 كنيسة القديس بطرس ج ٢ - ٣١٧ ، ٦٠٤ .
 كنيسة لاسيو (سرقطة) ج ١ - ١٠١ .
 كنيسة مراکش ج ٢ - ٣٧٢ ، ٣٨٣ ،
 ٥١٧ ، ٦٣٦ .
 الكوفة ج ١ - ٣٤٣ .
 كومية ، بلاد ج ١ - ٢٤٠ .

ل - م

لارده ج ١ - ٧٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ،
 ٩٤ ، ١٠٨ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،
 ٣٣٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٥٠٠ ، ٥٠٢ ، ٥٠٨ ،
 ٥١١ ، ٦٠٥ .
 لاكارولينا ج ٢ - ٣٠١ .
 لاميجو ج ١ - ٥٢٤ ، ٥٢٧ .
 لبله ج ١ - ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ،
 ٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ،
 ٤٤١ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، وج ٢ - ٢٠ ، ٣٧ ،
 ٩٨ ، ١٠٢ ، ٢٢١ ، ٣٥٤ ، ٤١٦ ، ٤٧٨ ،
 ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٩٠ ، ٤٩٣ ، ٦٥٢ ، ٦٤٥ ،
 ٦٧٤ ، ٦٨٣ .

لقتن ج ٢ - ٤٥٦ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ،
 ٥٨٦ ، ٦٠٦ .
 اللج ج ١ - ٣٦١ .
 لوبية ج ٢ - ٥٧٣ .
 لوجارا ج ٢ - ٥٣٥ .
 لوجرنيو ج ٢ - ٥٨٥ ، ٥٨٦ .
 لورقة ج ١ - ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٦٧ ،
 ٤٧٧ وج ٢ - ١٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٣٩٢ ،
 ٤٥٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٤ ، ٦٥٤ .
 لورة ج ٢ - ٤٧٦ .
 لوزيتانيا ج ١ - ٤٧٨ ، ٥٢١ ، ٥٢٣ .
 لوشة ج ١ - ٣٣٣ وج ٢ - ٣٥٩ ، ٦٩٢ .
 ليون (ملكة ومدينة) ج ١ - ١٢٨ ، ١٢٩ ،
 ١٤١ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ،
 ٤٩٠ ، ٤٩٦ ، ٥٠٦ ، ٥١٥ ، ٥١٧ وج ٢ -
 ٣١ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ١١٨ ، ١٩٩ ، ٢٣٣ ،
 ٢٣٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٣٩٩ ،
 ٤٠١ ، ٤٢٠ ، ٤٧٦ ، ٥٨٤ ، ٥٨٧ ،
 ٥٨٩ ، ٥٩٣ ، ٥٩٩ ، ٦٠٣ .
 مارده ج ١ - ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٢٢ وج ٢ -
 ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٩٨ ، ٣٤٠ ، ٣٩٣ ،
 ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤١١ ، ٥٩٥ ، ٥٩٧ ، ٦٤١ ،
 مازرة ج ٢ - ٢٧٩ .
 ماسة ج ٢ - ٥٧١ .
 ماغوصة ج ١ - ١٨٠ .
 مالقة ج ١ - ٣٢ ، ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٣٦ ،
 ٣٣٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٤١٦ ،
 ٤١٩ ، ٤٣١ ، ٤٤٧ ، ٤٥٢ ، ٤٦٥ وج ٢ -
 ٩٩ ، ١٠٢ ، ١١٤ ، ١٧٩ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ ،
 ٣٨٥ ، ٣٩٢ ، ٤١١ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ،
 ٤٦٦ ، ٥١٠ ، ٥٥١ ، ٥٩٨ ، ٦١٨ ،
 ٦٢٩ ، ٦٣٨ ، ٦٤١ ، ٦٥٠ ، ٦٥٢ ،
 ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥ ،
 ٦٩٦ ، ٧٠٤ ، ٧١٤ .
 مالي ج ١ - ٤١٣ .
 مائدة الملك ج ٢ - ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ،
 ٣٠٨ ، ٣١١ .
 المتحف البريطاني ج ١ - ١٧ وج ٢ - ٧٠٩ .
 متيجة ج ١ - ١٦٦ وج ٢ - ٣٧٦ .
 مجدول ج ٢ - ٣٧٥ .
 مجريط ج ١ - ٦٨ ، ٦٩ .
 المدرسة النظامية ج ١ - ١٦١ .

قوص (مصر) ج ١ - ٤٦٨ وج ٢ - ٦٧٦ .
 قوبلر ج ١ - ١٠٦ .
 قونقة ج ١ - ٦٦ ، ٧١ ، ١٢٣ ، ١٤٨ ،
 ١٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٦٢ وج - ٨٠ ، ٨١ ، ٩٦ ،
 ٩٧ ، ٢٣٠ ، ٣٥٤ ، ٥٨٥ ، ٥٩٥ .
 قبيجا ط ج ٢ - ٤٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ .
 القديروان ج ١ - ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٤٧٣ وج ٢ - ٦١ ، ١٠٦ ،
 ١٠٧ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٥٤ ،
 ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٣٧٩ .
 كامبودي سينا ج ١ - ٤٨١ ، ٥٢٤ .
 كاسولا ، معاهدة ج ٢ - ٤٤٣ ، ٥٨٦ ، ٦٠٢ ،
 كدية ابن مردنيس ج ١ - ٣٨٨ .
 الكرسي ج ٢ - ٢٣٠ ، ٤٦٠ ، ٥٩١ .
 كركي ج ١ - ١٤٢ .
 كريون ج ١ - ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٩ ،
 وج ٢ - ١٩٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣٣ ، ٥٨٦ ،
 ٥٨٧ ، ٥٩٤ .
 كنيسة الأرك ج ٢ - ٢٠٣ ، ٢٠٤ .
 كنيسة إشبيلية العظمى ج ٢ - ٧٢ ، ٧٤ ،
 ٢٣٢ ، ٦٢٥ .
 كنيسة سان سالبادور (سرقطة) ج ١ - ١٠١ .
 كنيسة شنت ياقب ج ٢ - ٤٢٥ .
 كنيسة القديس بطرس ج ٢ - ٣١٧ ، ٦٠٤ .
 كنيسة لاسيو (سرقطة) ج ١ - ١٠١ .
 كنيسة مراکش ج ٢ - ٣٧٢ ، ٣٨٣ ،
 ٥١٧ ، ٦٣٦ .
 الكوفة ج ١ - ٣٤٣ .
 كومية ، بلاد ج ١ - ٢٤٠ .

ل - م

لارده ج ١ - ٧٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٢ ،
 ٩٤ ، ١٠٨ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،
 ٣٣٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٥٠٠ ، ٥٠٢ ، ٥٠٨ ،
 ٥١١ ، ٦٠٥ .
 لاكارولينا ج ٢ - ٣٠١ .
 لاميجو ج ١ - ٥٢٤ ، ٥٢٧ .
 لبله ج ١ - ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ،
 ٣٢٣ ، ٣٢٧ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٧ ،
 ٤٤١ ، ٤٥٩ ، ٤٦١ ، وج ٢ - ٢٠ ، ٣٧ ،
 ٩٨ ، ١٠٢ ، ٢٢١ ، ٣٥٤ ، ٤١٦ ، ٤٧٨ ،
 ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٩٠ ، ٤٩٣ ، ٦٥٢ ، ٦٤٥ ،
 ٦٧٤ ، ٦٨٣ .

لقتن ج ٢ - ٤٥٦ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ ،
 ٥٨٦ ، ٦٠٦ .
 اللج ج ١ - ٣٦١ .
 لوبية ج ٢ - ٥٧٣ .
 لوجارا ج ٢ - ٥٣٥ .
 لوجرنيو ج ٢ - ٥٨٥ ، ٥٨٦ .
 لورقة ج ١ - ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٦٧ ،
 ٤٧٧ وج ٢ - ١٦ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٣٩٢ ،
 ٤٥٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٤ ، ٦٥٤ .
 لورة ج ٢ - ٤٧٦ .
 لوزيتانيا ج ١ - ٤٧٨ ، ٥٢١ ، ٥٢٣ .
 لوشة ج ١ - ٣٣٣ وج ٢ - ٣٥٩ ، ٦٩٢ .
 ليون (ملكة ومدينة) ج ١ - ١٢٨ ، ١٢٩ ،
 ١٤١ ، ٤٧٩ ، ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ،
 ٤٩٠ ، ٤٩٦ ، ٥٠٦ ، ٥١٥ ، ٥١٧ وج ٢ -
 ٣١ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ١١٨ ، ١٩٩ ، ٢٣٣ ،
 ٢٣٤ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٣٩٩ ،
 ٤٠١ ، ٤٢٠ ، ٤٧٦ ، ٥٨٤ ، ٥٨٧ ،
 ٥٨٩ ، ٥٩٣ ، ٥٩٩ ، ٦٠٣ .
 مارده ج ١ - ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٢٢ وج ٢ -
 ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٩٨ ، ٣٤٠ ، ٣٩٣ ،
 ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٤١١ ، ٥٩٥ ، ٥٩٧ ، ٦٤١ ،
 مازرة ج ٢ - ٢٧٩ .
 ماسة ج ٢ - ٥٧١ .
 ماغوصة ج ١ - ١٨٠ .
 مالقة ج ١ - ٣٢ ، ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٣٦ ،
 ٣٣٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٤١٦ ،
 ٤١٩ ، ٤٣١ ، ٤٤٧ ، ٤٥٢ ، ٤٦٥ وج ٢ -
 ٩٩ ، ١٠٢ ، ١١٤ ، ١٧٩ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ ،
 ٣٨٥ ، ٣٩٢ ، ٤١١ ، ٤٣٠ ، ٤٣١ ،
 ٤٦٦ ، ٥١٠ ، ٥٥١ ، ٥٩٨ ، ٦١٨ ،
 ٦٢٩ ، ٦٣٨ ، ٦٤١ ، ٦٥٠ ، ٦٥٢ ،
 ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥ ،
 ٦٩٦ ، ٧٠٤ ، ٧١٤ .
 مالي ج ١ - ٤١٣ .
 مائدة الملك ج ٢ - ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ،
 ٣٠٨ ، ٣١١ .
 المتحف البريطاني ج ١ - ١٧ وج ٢ - ٧٠٩ .
 متيجة ج ١ - ١٦٦ وج ٢ - ٣٧٦ .
 مجدول ج ٢ - ٣٧٥ .
 مجريط ج ١ - ٦٨ ، ٦٩ .
 المدرسة النظامية ج ١ - ١٦١ .

٤٩٣ ، ٤٨٨ ، ٤٨٦ ، ٤٨٢ ، ٤٧١
 - ٥٢٣ ، ٥١٨ ، ٥١١ ، ٥١٠ ، ٥٠٧
 ، ٥٥٠ ، ٥٤٥ ، ٥٤٤ ، ٥٣٦ ، ٥٢٧
 ، ٥٧٨ ، ٥٧٤ ، ٥٧١ ، ٥٦٧ ، ٥٦٠
 - ٦٢٠ ، ٦١٨ ، ٦١٥ ، ٥٩٩ ، ٥٨٨
 ، ٦٢٨ ، ٦٣٤ ، ٦٤٠ ، ٦٤٣ ، ٦٤٥ ، ٦٤٧
 ، ٦٥٢ ، ٦٥٤ ، ٦٦٠ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥
 ، ٦٧١ ، ٦٧٥ ، ٦٧٧ ، ٦٧٩ ، ٦٨٤
 ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٩١ ، ٦٩٥ ، ٦٩٧
 . ٧٠١-٧٠٣ ، ٧١٢-٧١٤ ، ٧١٧-٧٢١ ، ٧٢٥-٧٢٥
 المغرب الأقصى ؛ ج ١- ١٦٢ ، ١٦٦ ، ١٧٣
 ٢٨٤-٢٨٤ ، ٥٤٢ ، ٥٥١ ، ٥٧٠ ، ٥٧٢ ، ٥٧٦
 المغرب الأوسط ؛ ج ١- ٢٥٤ ، ٢٨٠
 - ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٣٠٠ ، ٣٤٦ ، ٣٥٠ ، ٣٥٦
 . ٢٧٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٥ ، ٣٣٥ ، ٣٣٥ ، ٣٣٥
 مقبرة ابن عباس (قرطبة) ؛ ج ٢- ٢٢٨
 مقبرة باب تاغزوت (مراكش) ؛ ج ٢- ٢٢٨
 المقرملة ؛ ج ١- ٢٥٥
 مقرة ؛ ج ٢- ١٥٣
 مقرينة (إشبيلية) ؛ ج ٢- ٤٨١
 مكتبة الإسكوريال ؛ ج ١- ١٤ ، ١٦
 ١٧-١٧ ، ٧٠٧-٧١٠
 المكتبة البودلية (أكسفورد) ؛ ج ١- ٧
 مكتبة جامع القرويين ؛ ج ١- ١٣ ، ١٤ ، ٣٨
 مكتبة الأندلس ؛ ج ١- ١٢١ ، ١٢٢
 ٣٣٥ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٨٩ ، ٤٩١ ، ٥٠٨
 مكتبة المغرب ؛ ج ١- ١١٤ ، ١٦٧
 ، ٦٣٥ ، ٢٥٦ - ٢٥٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧
 ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٤١٥ ، ٥٧٠ ، ٥٧٠
 ، ١١٥ ، ١٣٢ ، ١٦٧ ، ١٩٧ ، ٢٧١
 ، ٣٣٦ ، ٣٦٤ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٥١١-٥١٣
 ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٦
 . ٥٥٠ ، ٥٧٦ ، ٦٦٠ ، ٦٦٥ ، ٧٠١
 مكة ؛ ج ١- ١٦١ ، ٢٩٨ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦
 ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٨-٤٦٨ ، ٦٧٩-٦٧٧
 ملالة ؛ ج ١- ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢٢٤
 مليانة ؛ ج ٢- ١٥٠ ، ١٥٢ ، ٣٧٦ ، ٣٧٨
 مليلة ؛ ج ١- ٢٤٠ ، ٤٠٤
 مر تولوس ؛ ج ٢- ٣٠١
 مر لوس ؛ ج ٢- ٣٠٦
 مر مورادال (بسيط وقمة) ؛ ج ٢- ٣٠٠
 . ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٥٨

٢٤٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٩ ، ٦١٠
 ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦٨ ، ٦٧٥ ، ٦٧٩
 ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧ ، ٦٩١ ، ٦٩٥
 ، ٦٩٧ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧١٣ ، ٧١٦
 مصر ؛ ج ١- ١٥٧ ، ٢٠٧ ، ٢٩١ ، ٢٨١
 ، ٢٩٨ ، ٤٠٤ ، ٤٧١-٤٧٣ ، ١٥٥-٢
 ، ١٥٨ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ٢٤١-٢٤٤
 ، ٦٧٩ ، ٦٨٣ ، ٧٠٣ ، ٧١٧ ، ٧٢٣
 مصطرون ؛ ج ١- ٢٢٩
 المصورة ؛ ج ٢- ٤٤٠
 المصورة ؛ ج ١- ٢٧٩ ، ٣٩٣ ، ٦٦-٦٦
 معهد الدراسات الإسلامية ؛ ج ١- ١٢ ، ١٤ ، ١٥
 المغرب ؛ ج ١- ٧ ، ١٢-١٤ ، ٢٥-٢٩
 - ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٤١-٤٣ ، ٤٥-٥٠
 ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٠-٦٣ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩
 ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٩
 ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٧٦
 ، ١٩٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥
 ، ٢٣٠ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣
 ، ٢٤٧-٢٤٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٩٠
 ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥
 ، ٣٠٦ ، ٣١٠-٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣٢٣-٣٢٣
 ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٨ ، ٣٥٢
 ، ٣٥٣ ، ٣٦٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٨١
 ، ٣٨٢ ، ٣٨٧ ، ٣٩٢ ، ٣٩٨
 ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧
 ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٥-٤٢٠ ، ٤٢٨-٤٣٣
 ، ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٥٢
 ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٣
 ، ٤٧٠ ، ٤٧٣ ، ٥٣٢ ، ٥٣٢-٥٣٢ ، ١٣-١٣
 ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٩٠ ، ٩١
 ، ٩٥ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١٣٦ ، ١٤٢
 ، ١٤٣ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٦ ، ١٦٨
 ، ١٧٠ ، ١٨١-١٨٩ ، ١٩٨ ، ٢١٦ ، ٢٢٣
 ، ٢٢٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٣-٢٤٦ ، ٢٥٠
 ، ٢٥١ ، ٢٧٠-٢٧٣ ، ٢٧٧ ، ٢٨٥ ، ٢٩٠
 ، ٣١٤ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥
 ، ٣٢٨ ، ٣٣٠-٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤١
 ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٠-٣٥٢
 ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨
 ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٩ ، ٣٩٩
 ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤٢٩ ، ٤٣٥ ، ٤٤٦ ، ٤٦٣

ميورقة (مدينة) ؛ ج ١ - ٧٦ ، ٧٧ وج ٢ - ١٤٤ ، ٢٦٠ ، ٤٠٥ - ٤٠٧ ، ٦٥٠ .

ن - ي

ناجرة ؛ ج ١ - ٤٧٩ ، ٤٩٥ .
 ناصرة ؛ ج ١ - ٢٩٩ .
 نافارا (نبره) ؛ ج ١ - ٨٧ ، ١٢٠ ، ٣٤٦ ، ٣٧١ ، ٤٩٥ - ٤٩٧ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ - ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١٣ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥٢٦ ، ٥٨٣ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ١٩٩ ، ٥٨٦ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٥ ، ٦٠١ ، ٦٠٣ ، ٦٠٧ ، ٦٠٩ .
 نفاوس دى تولوسا ؛ ج ٢ - ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣١٣ ، ٣٢٠ .
 قفاوس ؛ ج ٢ - ١٥٣ .
 قفزاوة ؛ ج ٢ - ٢٦٤ .
 نفطة ؛ ج ٢ - ١٦٤ ، ٣٧٦ .
 نوابة ؛ ج ٢ - ١٦٤ .
 فوليس ؛ ج ٢ - ٤٤٤ .
 نهر التاجه ؛ ج ١ - ٤٩ ، ٥٥ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ١٤٠ ، ١٥١ ، ٣٤٥ ، ٤٩٣ ، ٥١٥ ، ٥٢٢ ، ٥٢٦ ، ٢٦ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٦٨ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ١٠٤ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢١٨ - ٢٢٠ ، ٣٤٠ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ .
 نهر النيجر ؛ ج ١ - ٣٨ ، ٥٥ .
 نهر النيل ؛ ج ١ - ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
 نهر الوادى الأبيض (طورية) ؛ ج ٢ - ٤٤٨ .
 نهر الوادى الكبير ؛ ج ١ - ٣٣ ، ١٤٣ ، ٣١٠ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٢٧ ، ٤٢ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ١٢٠ ، ١٣٢ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢١٧ ، ٢٥٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٤ ، ٣٥٣ ، ٣٥٩ ، ٤٠٠ ، ٤١٤ ، ٤١٨ ، ٤٣١ ، ٤٧٣ - ٤٧٨ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٥٩٩ ، ٦١٩ .
 نهر ليزيرو (إبره) ؛ ج ١ - ٤٩ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ١٩٤ ، ١١٦ - ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٧ ، ٣٦٩ ، ٤٧٧ ، ٤٩٥ - ٤٩٨ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٤٤٤ .
 نهر حدره ؛ ج ١ - ٣٨٩ ، ٣٩٠ .
 نهر خالون ؛ ج ١ - ٧٤ ، ١٢٧ .
 نهر دويره ؛ ج ١ - ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ١١٨ - ٢ .
 نهر سيجرى ؛ ج ١ - ١١٦ ، ١٢١ .

النارة ؛ ج ١ - ٨٧ وج ٢ - ٤٤٤ .
 منار الإسكندرية ؛ ج ٢ - ٢٤٦ .
 منارة حسان ؛ ج ٢ - ٢٤٦ .
 منارة الكتبية ؛ ج ٢ - ٢٤٦ ، ٢٤٧ .
 منت ليشم ؛ ج ٢ - ٢٤٠ .
 منداش ؛ ج ١ - ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
 المنصورة (الأندلس) ؛ ج ١ - ١٠٨ .
 المنكب ؛ ج ٢ - ٦٦٧ .
 منورقة ؛ ج ٢ - ١٥٨ ، ٤٠٢ ، ٤٠٩ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ .
 المهديّة ؛ ج ١ - ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٢٨٠ ، ٢٩٠ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٤٣ ، ٣٧٣ - ٣٧٨ ، ٤٦٤ ، ٤٧٢ ، ١٩٢ ، ١٦٦ ، ١٥٨ ، ١٠٩ ، ٢٠٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ ، ٣٧٦ ، ٣٨٠ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٥٢ .
 مورتلّة ؛ ج ١ - ٣٤٧ ، ٥١٢ وج ٢ - ٤٨ .
 موقعة السبيكة ؛ ج ١ - ٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٤٤٦ ، ٥٤٠ ، ٥٤٠ ، ٥٤٠ .
 موقعة العقاب ؛ انظر العقاب .
 موقعة المشملة ؛ ج ٢ - ٣٣٧ .
 موقعة المنار ؛ ج ٢ - ١٧٨ .
 موقعة أم الرجلين ؛ ج ٢ - ٥٥٣ ، ٥٥٥ .
 موقعة كسندة ؛ ج ١ - ١٣ ، ٨٢ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١٣١ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ٤٥٦ ، ٥١٨ ، ٦٨٨ ، ٥١٨ .
 مورور ؛ ج ١ - ٤٦١ .
 الموصل ؛ ج ٢ - ٧١٤ .
 مورتانيا ؛ ج ١ - ٢١٢ ، ٤١٣ .
 مولة ؛ ج ٢ - ٤٦١ .
 مونبليه ؛ ج ٢ - ٦٠٣ .
 مونثشون ؛ ج ١ - ٨٧ ، ٤٩٥ ، ٥١٨ .
 ميرانده دل رى ؛ ج ٢ - ٣٠٢ .
 ميرتلة ؛ ج ١ - ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٦١١ ، ٦١٠ ، ٤٩٢ ، ٣٤٠ ، ٩٨ ، ٧٦ ، ٥٩ ، ٧٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٢٣٢ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٧٠ ، ٤٦٠ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ١٤٥ - ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٧٧ ، ٣٢٥ ، ٣٥٠ ، ٣٩٧ ، ٤٠٢ ، ٤٠٨ ، ٤٣٨ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ .

نهر سنكا ؛ ج ١ - ١١٦ - ١١٨ ، ١٢١ .
 نهر شطوبر ؛ ج ٢ - ٢٥ ، ١٨٦ ، ٣٣٨ .
 نهر شقر ؛ ج ٢ - ٨١ ، ٨٢ ، ٩٩ ، ٤٤٠ ، ٤٥٦ .
 نهر شقورة ؛ ج ١ - ١٤٨ ، وج ٢ - ٣٩٠ .
 نهر شليف ؛ ج ٢ - ١٥٠ ، ١٥٢ ، ٢٧٨ ، ٢٧٧ .
 نهر شنيل ؛ ج ١ - ٣٨٩ ، وج ٢ - ٢٩ ، ٤٢ ، ٢٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٥٩ ، ٤٣١ .
 نهر مجانيا ؛ ج ٢ - ٣٠٤ .
 نهر منيو ؛ ج ١ - ٥٢٤ .
 نهر وادي لين ؛ ج ٢ - ٣٠٤ .
 نهر وادي يانة ؛ ج ١ - ٣٠٩ ، ٣٤٨ ، ٥٠٦ ، ٥٢٢ ، وج ٢ - ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٧٠ ، ٧٦ ، ١٠١ - ١٠٤ ، ١٢٠ ، ١٨٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢١٥ ، ٢٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٩٠ ، ٤٩٣ ، ٥٧٢ ، ٦١١ ، ٦١٢ .
 نهر وزغة ؛ ج ١ - ٢٣٨ .
 نيسابور ؛ ج ١ - ١٦١ ، ١٦٢ .
 وادي ايسل ؛ ج ٢ - ٥٣٣ .
 وادي ابو رقران ؛ ج ٢ - ٦٦ ، ٥٤٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٧٧ .
 وادي آشن ؛ ج ١ - ١٠٨ ، ١١٢ ، ٣٢٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٧٢ ، ٤٥٣ ، وج ٢ - ٢٣ ، ٣٠ ، ٥٣ ، ٧١ ، ٤١١ ، ٤١٥ ، ٤٣٠ ، ٦٧٢ ، ٦٩٦ ، ٧١٥ .
 وادي الحجارة ؛ ج ١ - ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٤٤٩ .
 وادي العبيد ؛ ج ٢ - ٣٨٣ ، ٥٦٨ .
 وادي أم الربيع ؛ ج ١ - ١٨٨ ، ٢٥٩ ، وج ٢ - ٦٥ ، ٣٨٣ ، ٥٠٥ ، ٥٣٢ ، ٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٩ ، ٥٦٢ ، ٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٧٦ .
 وادي تامطة ؛ ج ٢ - ٨١ .
 وادي تانسيفت ؛ ج ١ - ٢١٧ ، وج ٢ - ٤٣ ، ٦٥ ، ١٩١ ، ٥٠٣ ، ٥١٩ ، ٥٢٥ .
 وادي تلاغ ؛ ج ٢ - ٥٦٧ .
 وادي سبو ؛ ج ١ - ٥٦ ، ٣٩٧ ، وج ٢ - ٦٦ ، ٣٣٧ ، ٦٣٩ .
 وادي شقر ؛ ج ٢ - ٧٦ ، ٨١ ، ٣٥٥ .
 وادي غفرو ؛ ج ٢ - ٥٦٨ .
 وادي ماسة ؛ ج ١ - ٢٧٠ ، ٢٧١ .
 وادي ملوية ؛ ج ١ - ٢٣٦ ، وج ٢ - ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٥١١ ، ٥١٨ ، ٥٢٥ ، ٥٣١ ، ٥٦٧ ، ٥٧٠ ، ٥٧٦ .
 وادي نكور ؛ ج ٢ - ٣٣٧ .
 و اسنات ؛ ج ٢ - ٥٢٣ .
 وانثريش ؛ ج ١ - ١٦٦ .
 وبذة ؛ ج ١ - ٢٧ ، ٢٧٩ ، ٦١ ، ٦٦ ، ١٤٣ ، ٥٦ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ١٠٨ ، ١١٩ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٤ ، ٢١٤ ، ٢٣٠ ، ٣٥٤ ، ٦٣٩ ، ٦٥١ .
 وجدة ؛ ج ١ - ٢٤١ ، ٢٥٥ .
 ودان ؛ ج ٢ - ٣٧٤ .
 وهران (وموقعة) ؛ ج ١ - ٢٤٠ ، ٢٤٩ .
 ٢٥١ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣٩٩ ، ٤٢٠ ، وج ٢ - ٢٤٨ ، ٣٣٥ ، ٦١٧ ، ٦٣٩ .
 يابرة ؛ ج ١ - ٧٠ ، ٧٣ ، ١٣٦ ، ١٥٢ ، ٣٠٧ ، ٣٣٠ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٥٢٢ .
 ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، وج ٢ - ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٤ ، ٣٧ ، ٨٦ ، ١٠١ ، ١٧١ ، ٦٨٥ ، ٦٦٩ .
 يابسة ، جزيرة ؛ ج ٢ - ١٥٨ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٨ ، ٤٨٣ .

نهر سنكا ؛ ج ١ - ١١٦ - ١١٨ ، ١٢١ .
 نهر شطوبر ؛ ج ٢ - ٢٥ ، ١٨٦ ، ٣٣٨ .
 نهر شقر ؛ ج ٢ - ٨١ ، ٨٢ ، ٩٩ ، ٤٤٠ ، ٤٥٦ .
 نهر شقورة ؛ ج ١ - ١٤٨ ، وج ٢ - ٣٩٠ .
 نهر شليف ؛ ج ٢ - ١٥٠ ، ١٥٢ ، ٢٧٨ ، ٢٧٧ .
 نهر شنيل ؛ ج ١ - ٣٨٩ ، وج ٢ - ٢٩ ، ٤٢ ، ٢٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٥٩ ، ٤٣١ .
 نهر مجانيا ؛ ج ٢ - ٣٠٤ .
 نهر منيو ؛ ج ١ - ٥٢٤ .
 نهر وادي لين ؛ ج ٢ - ٣٠٤ .
 نهر وادي يانة ؛ ج ١ - ٣٠٩ ، ٣٤٨ ، ٥٠٦ ، ٥٢٢ ، وج ٢ - ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٧٠ ، ٧٦ ، ١٠١ - ١٠٤ ، ١٢٠ ، ١٨٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢١٥ ، ٢٩٦ ، ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٩٠ ، ٤٩٣ ، ٥٧٢ ، ٦١١ ، ٦١٢ .
 نهر وزغة ؛ ج ١ - ٢٣٨ .
 نيسابور ؛ ج ١ - ١٦١ ، ١٦٢ .
 وادي ايسل ؛ ج ٢ - ٥٣٣ .
 وادي ابو رقران ؛ ج ٢ - ٦٦ ، ٥٤٠ ، ٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٧٧ .
 وادي آشن ؛ ج ١ - ١٠٨ ، ١١٢ ، ٣٢٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٧٢ ، ٤٥٣ ، وج ٢ - ٢٣ ، ٣٠ ، ٥٣ ، ٧١ ، ٤١١ ، ٤١٥ ، ٤٣٠ ، ٦٧٢ ، ٦٩٦ ، ٧١٥ .
 وادي الحجارة ؛ ج ١ - ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٤٤٩ .
 وادي العبيد ؛ ج ٢ - ٣٨٣ ، ٥٦٨ .
 وادي أم الربيع ؛ ج ١ - ١٨٨ ، ٢٥٩ ، وج ٢ - ٦٥ ، ٣٨٣ ، ٥٠٥ ، ٥٣٢ ، ٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٩ ، ٥٦٢ ، ٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٧٦ .

فهرست القبائل والطوائف والدول

- ۱ -

۸۸ ، ۱۲۱ ، ۴۷۷ .
 الإمامة ؛ ج ۱ - ۱۷۸ ، ۲۰۵ - ۲۰۷ .
 الإمامة الموحدة (المهدية) ؛ ج ۲ - ۵۷۶ ،
 ۵۷۷ ، ۶۱۵ ، ۶۱۶ ، ۶۳۰ .
 الأمة الأندلسية ؛ ج ۱ - ۲۹ ، ۳۰ ، ۵۲ ،
 ۱۱۳ ، ۴۲۹ ، ۴۳۴ - ۴۳۶ ، ۵۰۷ وج ۲ -
 ۵۴ ، ۳۲۹ ، ۴۳۱ ، ۶۲۸ ، ۶۸۸ .
 الأمة المغربية ؛ ج ۱ - ۴۳۷ وج ۲ - ۵۷۸ .
 الأندلسيون ؛ ج ۱ - ۳۸۶ ، ۴۱۶ ، ۴۲۰ ،
 ۴۳۳ ، ۴۵۳ وج ۲ - ۱۲۷ ، ۲۱۸ ، ۲۹۸ ،
 ۳۱۲ ، ۳۱۸ ، ۳۲۶ .
 أهل تيننل ؛ ج ۱ - ۱۷۴ ، ۱۷۸ ، ۲۶۲ ،
 وج ۲ - ۱۷ ، ۱۱۵ ، ۳۶۹ ، ۵۷۹ ،
 ۵۸۰ ، ۶۱۷ .
 أهل الدار ؛ ج ۱ - ۱۷۴ ، ۲۱۹ ، ۲۸۷ ،
 وج ۲ - ۷۶ ، ۵۷۱ ، ۶۱۷ .
 أهل خسين ؛ ج ۱ - ۱۷۴ ، ۱۹۶ ، ۲۲۰ ،
 ۲۲۱ ، ۲۲۷ ، ۲۳۶ ، ۲۶۴ ، ۲۸۵ ،
 ۳۹۸ ، ۴۰۶ وج ۲ - ۱۱ ، ۴۱ ، ۷۶ ،
 ۱۰۵ ، ۶۱۶ ، ۶۱۷ ، ۶۲۱ .
 أهل سبعين ؛ ج ۱ - ۱۷۴ ، ۱۹۶ ، ۳۹۸ ،
 وج ۲ - ۶۱۶ ، ۶۱۷ ، ۶۲۱ .
 أوربة (قبيلة) ؛ ج ۲ - ۱۱۶ ، ۱۵۰ ،
 إيجلي (قبيلة) ؛ ج ۱ - ۲۷۷ .
 إينجيس (قبيلة) ؛ ج ۱ - ۲۷۷ .

- ب -

البابوية ؛ ج ۱ - ۵۱۳ ، ۵۲۷ وج ۲ - ۵۴۰ ،
 ۵۸۹ ، ۵۹۰ ، ۵۹۴ ، ۵۹۵ ، ۵۹۸ ، ۶۰۳ -
 ۶۰۷ ، ۶۰۹ - ۶۱۲ .
 البربر (والقبائل البربرية) ؛ ج ۱ - ۲۵۰ ،
 ۵۶ ، ۸۰ ، ۸۱ ، ۸۳ ، ۱۵۷ ، ۲۲۹ ،
 ۲۸۰ ، ۲۹۹ ، ۳۰۰ ، ۳۱۹ ، ۳۹۳ ،
 ۳۹۸ ، ۴۱۷ ، ۴۳۴ وج ۲ - ۱۱۶ ، ۱۳۵ ،
 ۱۵۰ ، ۱۷۵ ، ۲۰۶ ، ۲۶۸ ، ۲۶۹ ،
 ۳۲۰ ، ۳۳۲ ، ۳۳۴ ، ۳۴۲ ، ۳۶۴ ،
 ۳۷۵ ، ۵۶۶ ، ۵۷۵ ، ۶۱۸ ، ۶۲۷ ، ۶۳۴ ،
 البرتغاليون ؛ ج ۱ - ۲۷ ، ۴۸۲ ، ۴۹۰ ،

أبناء الجماعة ؛ ج ۱ - ۱۷۴ ، ۱۹۶ ، ۲۲۰ ،
 ۲۲۱ ، ۲۳۸ ، ۲۴۰ ، ۳۹۸ وج ۲ - ۷۶ ،
 ۸۴ ، ۶۱۷ ، ۶۲۰ .
 الأرجونيون ؛ ج ۱ - ۹۰ ، ۹۲ ، ۹۳ ،
 ۱۱۷ ، ۱۱۸ ، ۱۲۱ ، ۱۲۳ ، ۳۶۹ ، ۳۷۰ ،
 ۴۵۶ ، ۴۸۱ ، ۴۹۵ ، ۵۰۶ وج ۲ -
 ۲۳۳ ، ۲۹۷ ، ۳۸۹ ، ۴۰۸ ، ۴۰۹ ،
 ۴۳۸ ، ۴۴۰ ، ۴۴۴ ، ۴۵۶ ، ۴۵۹ -
 ۴۶۳ ، ۴۶۶ ، ۶۰۲ ، ۶۰۴ ، ۶۰۶ ، ۶۴۸ ،
 الأزارقة ؛ ج ۲ - ۱۱۲ .
 الإسيان ؛ ج ۱ - ۴۷۰ وج ۲ - ۲۹۴ .
 الإسطارية ؛ ج ۱ - ۴۹۴ ، ۵۱۸ وج ۲ -
 ۲۹۳ ، ۲۹۵ ، ۳۱۰ ، ۴۳۹ ، ۴۴۰ ، ۴۴۴ ،
 الإستراد (لاريكونكستا) ؛ ج ۱ - ۳۳ ،
 ۵۱۲ وج ۲ - ۳۲۰ ، ۳۲۹ ، ۳۹۸ ، ۴۰۴ ،
 ۴۹۳ ، ۵۸۵ ، ۵۸۶ ، ۵۸۹ ، ۵۹۴ ، ۵۹۶ ،
 ۵۹۷ ، ۶۰۱ .
 الأسرة البرجونية ؛ ج ۱ - ۵۱۲ .
 أسرة كاسترو ؛ ج ۱ - ۵۱۶ ، ۵۱۷ وج ۲ -
 ۴۲ ، ۵۸۳ .
 أسرة لارا ؛ ج ۱ - ۵۱۶ ، ۵۱۷ وج ۲ -
 ۴۲ ، ۲۹۳ ، ۵۸۳ ، ۵۹۳ .
 الإسلام ؛ ج ۱ - ۵۵ ، ۱۱۹ وج ۲ -
 ۵۳۸ ، ۶۳۶ ، ۷۰۵ ، ۷۲۱ .
 الأشعرية ؛ ج ۱ - ۱۶۳ ، ۱۷۰ .
 الأغزاز (الغز) ؛ ج ۱ - ۲۹۴ وج ۲ - ۱۶۰ ،
 ۱۹۴ ، ۲۰۳ ، ۲۰۶ ، ۲۰۸ ، ۲۳۷ ، ۲۳۸ ،
 ۲۴۵ ، ۲۵۶ ، ۲۷۴ ، ۲۷۵ ، ۲۸۶ ،
 ۳۰۰ ، ۵۲۵ ، ۵۵۳ ، ۵۶۸ .
 أغات وريكة ؛ ج ۲ - ۴۹۸ ، ۵۷۹ ، ۵۸۰ ، ۶۱۷ .
 آل البيت ؛ ج ۱ - ۱۵۹ ، ۱۶۰ ، ۱۶۲ ،
 ۱۶۶ ، ۱۹۳ - ۱۹۵ ، ۲۰۶ ، ۲۰۷ ،
 ۲۲۲ ، ۴۲۵ وج ۲ - ۳۳۴ .
 الألبيون ؛ ج ۲ - ۲۸۹ ، ۶۰۵ .
 الألمان ؛ ج ۲ - ۲۴ ، ۱۷۰ .
 إمارة برشلونة ؛ ج ۱ - ۷۵ ، ۷۶ ، ۸۷ ،

بنوزغبة ؛ ج ١ - ٢٨٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ،
 ٣٣٨ ، ٣٧٢ ، ٥٩ ، ١٣٢ ، ٢٧٢ ،
 ٢٧٤ ، ٦٣٥ .
 بنوزهر ؛ ج ١ - ٤٧٣ ، ٢ - ٤٨٧ .
 بنوزيري ؛ ج ١ - ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٠ ،
 ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
 بنو زيان ؛ ج ٢ - ١٥٩ .
 بنوسعيد ؛ ج ١ - ٣٨٥ .
 بنو سفيان ؛ انظر عرب سفيان .
 بنو سليم ؛ ج ١ - ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ،
 ٥٩ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١٤٩ ، ١٥٥ ،
 ١٦٠ ، ١٩١ ، ١٩٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ،
 ٢٧٥ ، ٦٣٥ .
 بنوسندم ؛ ج ١ - ٢٤٨ .
 بنو سوار ؛ ج ١ - ٢٣٠ .
 بنو صامح ؛ ج ١ - ٥٣ .
 بنو عامر ؛ ج ١ - ٤٢٥ .
 بنو عباد ؛ ج ١ - ٧٣ ، ٢ - ٦٩ ، ٧٢ .
 بنو العباس ؛ ج ١ - ٣٩ ، ١٥٤ ، ١٩٥ ،
 ٥١ ، ١٤٥ ، ١٥٠ ، ٢ - ١٥٠ .
 بنو عبد الحق ؛ ج ٢ - ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥٢٤ .
 بنو عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ١٥٦ ، ٢٣٨ ، ٣٢٨ ،
 ٣٢٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٧٢ ، ٣٨٠ ،
 ٥٢٢ ، ٥٦١ ، ٥٧١ ، ٥٧٧ ، ٥٩٧ ،
 ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦٩٤ .
 بنو عبد الواد ؛ ج ١ - ٢٤٥ ، ٢٤٩ ، ٢ - ٢٤٩ ،
 ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٥١٨ ، ٥٢٤ ، ٥٢٧ ،
 ٥٣١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٦٧ ، ٥٧٢ ، ٥٧٦ ،
 بنو عبيد ؛ انظر الفاطميون .
 بنو علي ؛ ج ١ - ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٣٨ ، ٣٨١ ،
 بنو عسكر ؛ ج ٢ - ٣٣٧ ، ٥١٣ ، ٥٢٤ .
 بنو عوف ؛ ج ٢ - ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٧٢ ،
 ٢٧٥ ، ٢٧٤ .
 بنو غانية ؛ ج ١ - ١٨ ، ٣٢ ، ٧٧ ، ١٤٩ ،
 ٣٠١ ، ٣٥٧ ، ٣٩٩ ، ٢ - ١٤١ ، ١٤٤ ،
 ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ،
 ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٤٣ ،
 ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ،
 ٢٧٦ ، ٢٨٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،
 ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٥٧٥ ،
 ٥٧٦ ، ٦٢٦ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨ ، ٦٤١ .
 بنو قرن ؛ ج ٢ - ٢٧٥ .

٥٢٣ ، ٥٢٦ ، ٥٢٨ ، ٢ - ٢٤ ، ٢٥ ،
 ٣٤ ، ٣٧ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٩٢ ، ٩٨ ،
 ١٠٢ ، ١٠٥ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٠ ،
 ١٢٥ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ،
 ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٤٩٢ ، ٥٥٠ ، ٥٩٤ ،
 ٥٩٥ ، ٦١٠ ، ٦٩٦ .
 برغواطة ؛ ج ١ - ٣٧ ، ٢٦٠ ، ٢٧٣ ،
 ٢٧٩ ، ٥٢٢ .
 البشكنس ؛ ج ١ - ٩٠ ، ٩٤ ، ٣٦٦ .
 بنو الأثيج ؛ ج ١ - ٢٨٤ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢ ،
 ٥٩ ، ١٤٩ ، ١٥٨ ، ٢ - ١٥٨ .
 بنو إسرائيل ؛ انظر اليهود .
 بنو أشقيلولة ؛ ج ٢ - ٤١٥ .
 بنو الأفطس ؛ ج ١ - ٧٣ ، ٢٤٤ ، ٥٢٢ ،
 بنو أمية ؛ ج ١ - ٣٤٣ .
 بنو أيوب ؛ ج ٢ - ١٥٥ .
 بنو ياديس ؛ ج ٢ - ٢٢٥ .
 بنو توجين ؛ ج ١ - ٢٤٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ،
 بنو جامع ؛ ج ٢ - ١٣٣ ، ٦٢١ .
 بنو جشم ؛ ج ١ - ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٨١ ،
 ١٧ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ٥٢٥ ، ٢ - ٥٢٥ .
 بنو الحارث ؛ ج ٢ - ٥٧٩ .
 بنو حمدان ؛ ج ٢ - ٥٤٢ .
 بنو حفص ؛ ج ١ - ١٩٤ ، ٢ - ٣٢١ ،
 ٣٧٢ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ٥٢٤ ، ٥٣٦ ،
 بنو حماد ؛ ج ١ - ٢٤٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ،
 ٢٩٢ ، ٤٦٩ ، ٤٦٩ ، ٢ - ١٤٨ .
 بنو حمامة ؛ ج ٢ - ٣٣٧ ، ٥١٣ .
 بنو حدون ؛ ج ٢ - ١٥٤ .
 بنو حمود ؛ ج ١ - ٢٦ ، ١٦٠ .
 بنو خلدون ؛ ج ١ - ١٩٤ .
 بنو دياب ؛ ج ١ - ٢٩٩ ، ٢ - ١٥٦ ،
 ١٩٥ ، ٢٥٦ ، ٢٧٤ .
 بنو دمر ؛ ج ٢ - ٢٦٩ ، ٣٣٤ .
 بنو ذو النون ؛ ج ١ - ٦٨ ، ٢ - ٢١٩ .
 بنو راشد ؛ ج ٢ - ٥١٨ ، ٥٢٢ .
 بنو ربيعة ؛ ج ١ - ٢٩٨ .
 بنو الرند ؛ ج ٢ - ١٠٦ ، ١٤٩ ، ١٥٤ .
 بنو رياح ؛ ج ١ - ٢٨٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٨١ ، ١٧ ، ٥٩ ، ٦١٠ ،
 ١٠٧ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٥٩ ،
 ١٩١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٥١١ ، ٥١٣ ، ٦٣٥ .

التوحيد ؛ ج ١ - ١٩٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠٥ ،
 ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٤٠٤ وج ٢ - ٤٠ ، ٤٤ ، ٥٣ ،
 ١٦٥ ، ٦١٧ .
 تسولة ؛ ج ٢ - ٥١٢ .
 جدميوه ؛ ج ١ - ١٧٤ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،
 ٣٤٢ وج ٢ - ١٧ ، ٤٩٩ ، ٥٧٩ ،
 ٦١٧ ، ٥٨٠ .
 جراوة ؛ ج ١ - ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٤٠٤ ،
 وج ٢ - ٣٣٤ .
 جزولة ؛ ج ١ - ١٨٥ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
 ٢٤٧ ، ٢٧٧ ، ٢٨٧ ، ٣٤٢ ، ٤١٨ ،
 وج ٢ - ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٣٣٢ ، ٥٦٤ .
 الجلالقة ؛ ج ١ - ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٥٠٢ ،
 جلالة ؛ ج ١ - ٢٢٦ وج ٢ - ٤٩٨ .
 جندافة ؛ ج ١ - ١٩٨ .
 جنقيسة ؛ ج ١ - ١٦٠ ، ١٧٤ ، ٢٢٦ ،
 ٢٣٠ ، ٣٤٢ وج ٢ - ٧٩ ، ٦١٧ .
 الجنويون ؛ ج ١ - ١٥٢ ، ٣٦٩ ، ٥٠٠ ،
 وج ٢ - ١٤٤ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ .
 حاحة ؛ ج ١ - ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ،
 ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ، ٣٤٢ وج ٢ - ٥٠١ ،
 ٥٦٤ ، ٥٧٩ ، ٦١٧ .
 حرسون (قبيلة) ؛ ج ٢ - ١٥٠ .
 الحزمية ؛ ج ٢ - ٢٤٠ .
 الحشم ؛ ج ١ - ١٧٩ ، ١٨٥ ، ٢٣١ ،
 ٢٣٢ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ ، ٤١٨ وج ٢ - ٥٢٤ ،
 الحفاظ ؛ ج ١ - ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٠٣ ، ٦٤٦ وج ٢ -
 الحزرج ؛ ج ٢ - ٤٠٤ .
 الخلاقة العباسية ؛ ج ١ - ٤٢ ، ٤٤ ، ٥٤ ،
 ٢٩٨ ، وج ٢ - ١٥٨ ، ٣٩٣ ، ٤١١ ،
 ٤١٣ ، ٥١٠ .
 خلاقة قرطبة ؛ ج ١ - ٢٥ ، ٣٩٧ .
 الخلاقة الموحدية ؛ ج ١ - ٣٩٧ وج ٢ - ٣٤٤ ،
 ٣٢٥ ، ٣٤٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٢ ،
 ٣٨٩ ، ٤٣١ ، ٤٧١ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ،
 ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١٣ ، ٥٢٢ ،
 ٥٢٧ ، ٥٣٢ ، ٥٣٦ ، ٥٤٠ ، ٥٤٧ ،
 ٥٥٩ ، ٥٦١ ، ٥٦٦ ، ٥٧٥ ، ٥٧٨ ،
 ٥٩٧ ، ٦١٦ ، ٦٢٠ ، ٦٢٢ ، ٦٢٥ ،
 ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٧ ، ٦٤٣ ، ٦٤٥ ،
 ٦٨٧ ، ٦٩٨ ، ٧٠٣ ، ٧١٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ .

بنو قرة ؛ ج ١ - ٢٩٩ .
 بنو مرداس ؛ ج ١ - ٢٩٩ ، وج ٢ - ٢٧٢ .
 بنو مردنيس ؛ ج ٢ - ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٣ ،
 ٣٩٣ ، ٦٤٣ .
 بنو مريين ؛ ج ٢ - ٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ ،
 ٣٦٤ ، ٣٨١ ، ٤٣٥ ، ٤٨٤ ، ٤٨٩ ،
 ٤٩٧ ، ٥٠٣ ، ٥١١ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ،
 ٥٢٧ ، ٥٣٠ ، ٥٣٣ ، ٥٤٠ ، ٥٤٥ ، ٥٥٠ ،
 ٥٥٧ ، ٥٥٩ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦ ،
 ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٥٧٢ ، ٥٧٦ ، ٥٧٨ ، ٥٨٠ ،
 ٥٩٩ ، ٧٠١ .
 بنو مظهر ؛ ج ٢ - ٥١٨ .
 بنو ملول ؛ ج ١ - ٢٣٠ ، ٢٣١ .
 بنو مليليت ؛ ج ٢ - ١٥٠ .
 بنو منقذ ؛ ج ٢ - ١٨٣ .
 بنو نصر ؛ ج ٢ - ٤١٤ ، ٤٣٢ .
 بنو فغالة ؛ ج ٢ - ٢٣٥ .
 بنو هلال ؛ ج ١ - ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٣٨ وج ٢ -
 ١٧ ، ٥٩ ، ١٤٩ ، ١٥٨ .
 بنو هود ؛ ج ١ - ٥٨ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ،
 ٨٦ ، ١١٦ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ،
 ٣١١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٨ ، وج ٢ - ٣٨٩ ، ٣٩٠ ،
 ٥٠٩ ، ٦٠٦ .
 بنو واورتيان ؛ ج ٢ - ١٥٠ .
 بنو واسين ؛ ج ٢ - ٣٣٤ .
 بنو واوزجيت ؛ ج ١ - ٢٨٨ .
 بنو وجدزان ؛ ج ١ - ٢٣٠ .
 بنو وراد ؛ ج ٢ - ٥٢٢ .
 بنو ورسفين ؛ ج ١ - ٢٤٩ .
 بنو ورياغيل ؛ ج ١ - ٢٧٤ .
 بنو ومانو ؛ ج ١ - ٢٤٥ ، ٢٤٩ .
 بنو يادين ؛ ج ٢ - ٣٣٥ .
 بنو يغرن ؛ ج ٢ - ٣٣٤ .
 بنو يلوي ؛ ج ١ - ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ .
 بنو يوجان ؛ ج ٢ - ٦٢١ .
 البيزيون ؛ ج ١ - ٧٧ ، ١٥٢ ، ٣٦٩ ،
 ٥٠٠ وج ٢ - ١٤٤ .
 ت - خ
 تاعجيزت ؛ ج ١ - ٢٧٧ .
 تاودا ؛ ج ٢ - ١٥ .
 الترك ؛ ج ٢ - ١٦١ ، ١٦٢ .

الدولة المرينية (دولة بني مرين) ؛ ج ٢ .
٥٧٨ ، ٥٧٠ ، ٥٣٢ ، ٤٣٥ .

الدولة الموحدية ؛ ج ١ - ٧ ، ٢٦ ، ٧٨ ،
١٤٧ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٧٥ ، ١٩١ ،

١٩٣ ، ١٩٨ ، ١٩٢ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ،

٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٧٨ ، ٣٠٦ ، ٣١٩ ،

٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٩٧ ،

٤٠٤ - ٤٠٦ ، ٤٢٠ ، ٤٢٤ ، وج ٢ - ١٢ ،

٢٨ ، ٤٠ ، ٩٤ ، ٩٩ ، ١٠٦ - ١٠٩ ، ١٣٢ ،

١٣٣ ، ١٤٤ ، ١٨٠ - ١٨٢ ، ١٩١ ،

٢٣٨ - ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٧٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ،

٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٦ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ،

٣٥٦ ، ٣٧٠ - ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ - ٣٨٤ ،

٣٩٣ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ،

٤٩٧ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥١٠ - ٥١٢ ،

٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٤ ،

٥٢٧ ، ٥٣٠ - ٥٣٣ ، ٥٣٦ ، ٥٤٢ ،

٥٤٤ ، ٥٥١ ، ٥٥٣ ، ٥٥٧ ، ٥٥٩ ،

٥٦٤ ، ٥٦٦ ، ٥٧٠ ، ٥٧٦ ، ٥٧٨ ،

٥٧٩ ، ٦١٥ - ٦٢٠ ، ٦٢٣ ، ٦٢٥ ،

٦٢٨ ، ٦٣٠ ، ٦٣٤ ، ٦٣٦ ، ٦٣٨ ،

٦٤١ ، ٦٤٥ - ٦٤٨ ، ٦٥٢ ، ٦٨٨ ، ٧٠٣ ،

٧١١ ، ٧١٢ ، ٧٢١ ، ٧٢٤ .

الدولة الموحية ؛ ج ١ - ٣٤٩ .

الدولة النصرية ؛ ج ٢ - ٤٣١ ، ٤٣٦ .

الذميون ؛ ج ٢ - ٢٣٥ ، ٢٤٢ .

رجراجة ؛ ج ١ - ١٨٠ ، ٢٣٠ ، ٢٦٩ ،

٢٧٤ - ٢٧٧ ، ٣٤٢ ، وج ٢ - ٥٦٤ .

رواحنة ؛ ج ١ - ٢٩٩ .

الروم ؛ ج ١ - ٩٣ ، ١٠٠ ، ٢٣٢ ،

٢٤٧ ، ٢٥٧ ، ٢٦٢ ، ٢٧٠ ، ٢٨١ ، وج ٢ -

١٤٧ ، ٢٩٨ ، ٣٢١ ، ٣٣٩ ، ٣٦٨ ،

٣٦٩ ، ٤٥٠ ، ٤٦٢ ، ٥٠٦ ، ٥١٣ ،

٥١٧ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٣١ - ٥٣٣ ،

الروم (الفرنج) الصقليون ؛ ج ١ - ٢٨٠ ،

٢٨٩ ، وج ٢ - ٢٧٨ .

الرومان ؛ ج ١ - ٥٢٢ ، وج ٢ - ٣٠٤ .

الزراجنة ؛ ج ١ - ١٨٥ .

زفانة ؛ ج ١ - ٨٠ ، ٨١ ، ١٣٦ ، ٢٢٢ ،

٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٨ ،

٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ،

الخلافة الموحية ؛ ج ٢ - ٣٧٩ .

الخوارج ؛ ج ١ - ١٦٧ ، وج ٢ - ١١٢ ،
٢٦٢ ، ٢٨٦ .

د - ش

الداوية ؛ انظر فرسان المبد .

درعة (قبيلة) ؛ ج ١ - ١٨٥ .

الدعوة الشيعية ؛ ج ١ - ٢٠٦ ، ٢٩٨ ،
وج ٢ - ٦١٥ .

الدعوة العباسية ؛ ج ٢ - ٢٥٢ .

الدعوة المرابطية ؛ ج ١ - ٣٣٣ .

الدعوة الموحدية ؛ ج ١ - ٢٦٩ ، ٢٧٤ ،

٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٢ ، ٣٩٧ ،

٤٠٥ ، ٤٤٥ ، ٥٢٨ ، وج ٢ - ١٢٨ ،

٢٤٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٨ ، ٣١٠ ، ٥٤٦ ،

دخالة ؛ ج ١ - ٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ،

٢٧٤ - ٢٧٨ ، وج ٢ - ١٦٤ ، ٥٢٣ ، ٥٧٩ ، ٦١٧ .

الدولة الأموية ؛ ج ١ - ٢٥ ، ٤١٢ ، ٥٢٢ .

دولة بني غانية ؛ ج ١ - ١٥٣ .

الدولة الحفصية ؛ ج ١ - ١٩٤ ، وج ٢ - ٣٨٠ ،

٤٣١ ، ٤٣٢ ، ٤٤٦ ، ٤٧٧ ، ٥٠٣ ،

٥٣٤ ، ٥٧٦ ، ٦٤٣ .

الدولة الرومانية المقدسة ؛ ج ١ - ٤٩٧ .

الدولة العامرية ؛ ج ١ - ٢٦ ، ٤٣٦ .

الدولة الفاطمية (والخلافة) ؛ ج ١ - ١٥٧ ،

١٩٥ ، ٢٠٧ ، ٢٨١ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، وج ٢ -

١٥٥ ، ١٨١ ، ٦١٥ .

الدولة المرابطية (والإمبراطورية) ؛ ج ١ -

١٢ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٤ ،

٤٩ ، ٥٤ - ٥٦ ، ٧٨ ، ٨٩ ، ١٣١ ،

١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،

١٦٠ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ، ٢٣٤ ، ٢٤١ ،

٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٦١ ،

٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٣٠٦ ، ٣٠٥ ، ٣١١ ،

٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٥ ، ٣٣٨ ، ٣٩٧ ،

٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤١٠ - ٤٢١ ، ٤٢٧ ، ٤٣٣ ،

٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ - ٤٤٤ ، ٤٥٦ ، وج ٢ -

١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٨ ، ٢٦٧ ، ٣٧٧ ،

٣٧٨ ، ٥٧٣ ، ٥٧٨ ، ٦١٥ ، ٦١٨ ،

٦٣٠ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨ ، ٦٤٥ ، ٦٤٧ ،

٦٨٧ ، ٧٢١ .

٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٥ ، ١٠٦ ، ١١٢ ،
 ١١٦ ، ١٣١ ، ١٤٨ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ،
 ١٦٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ،
 ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،
 ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ،
 ٢٧٦ ، ٢٨٦ ، ٣٠٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ،
 ٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٦٩ ،
 ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٨١ ، ٤٩٧ ، ٥١١ ، ٥١٤ ،
 ٥١٣ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٤٠ ، ٥٥٢ ،
 ٥٥٥ ، ٥٦٥ ، ٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٦١٨ ، ٦٢٧ ،
 ٥٤٣ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٧ ،
 ٥٤٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦٨ ،
 ٤٩٧ ، ٥٠٠ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥١٠ ،
 ٥١٧ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٤٣ ، ٥٥٢ ،
 ٥٦٥ ، ٥٦٧ ، ٥٧٧ ، ٦٢٧ ، ٦٣٥ ،
 ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٨ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٣٠ ،
 ٥٥٢ ، ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٦٣٥ ،
 ٥٥٩ ، ٥٤٢ ، ٥٧٩ ،
 ٥٧٢ ، ٥٧٢ ،
 ٥٧٢ ، ٥٧٢ ،
 ١٧١ ، ١٦٠ ، ١٦٠ ، ١٧١ ،
 ٢٢٦ ، ١٧٠ ، ١-٢ ،
 ١٤-٢ ، ٢٧٧ ، ٢٧٥ ، ٢٣٦ ،
 ١٨ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ١٣٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ،
 ٣٠٠ ، ٣٣٦ ، ٥٠٧ ، ٥١٣ ،

ف - ل

٥٠٧ ، ٣٨٢ ، ٢-٢ ،
 ٣٣٢-٢ ، ٢٨١ ، ١٩٥ ، ١-٢ ،
 ٥٢٨ ، ١-٢ ،
 ٣٤٠ ، ٢٩٥ ، ٢٩٣ ، ٢-٢ ،
 ٥٢٠ ، ٤٩٢ ، ٤٨٠ ، ٤٧٤ ، ٤٦٩ ،
 ٦٠٦ ، ٦١١ ،
 ٥٢٨ ، ١-٢ ،
 ٥٢٠ ، ٥١٩ ، ١-٢ ،
 ٥٢٨ ، ٢-٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ،
 ٢٩٧ ، ٣١٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٤٤٠ ،
 ٤٤٤ ، ٤٦٩ ، ٤٧٤ ، ٥٨٧ ،
 ٣٤٠ ، ٢-٢ ،

٤١٨ ، ٢-٢ ، ١١٦ ، ١٧٦ ، ١٩٨ ،
 ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ،
 ٣٠٠ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ ، ٣٧٦ ، ٥١١ ،
 ٥١٣ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٤٢ ، ٥٦٥ ،
 زفانة تيفسرت ؛ ج ٢-٢ ، ٦١٧ ،
 زواغة ؛ ج ٢-٢ ، ٣٣٤ ،
 الزواودة ؛ ج ١-١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ،
 زواوة ؛ ج ٢-٢ ، ١٥١ ،
 زولات ؛ ج ٢-٢ ، ١٥١ ،
 الزيدية ؛ ج ١-١ ، ١٦٧ ،
 الشرق الإسلامي ؛ ج ٢-٢ ، ١٨١ ، ١٨٥ ،
 الشوابيون ؛ ج ١-١ ، ٥٢٢ ،
 الشيعة ؛ ج ١-١ ، ٥٧ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ،

ص - غ

الصحابه ؛ ج ١-١ ، ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٤٤٢ ،
 وج ٢-٢ ، ٢١٦ ، ٢٤٠ ،
 الصليبيون ؛ ج ١-١ ، ٩٠ ، ٥١٨ ، وج ٢-٢ ،
 ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٨١ ، ١٨٢ ،
 ١٨٥ ، ٢٤٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٤٠ ،
 صنهاجة ؛ ج ١-١ ، ٥٧ ، ٨١ ، ١٤٩ ، ١٥٧ ،
 ١٦٥ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٥٦ ،
 ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٥ ،
 ٢٩٥ ، ٢٩٩ ، وج ٢-٢ ، ١٤ ، ١٨ ، ٢٢ ،
 ٢٣ ، ١١١ ، ١١٦ ، ١٣٤ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ،
 ٣٠٠ ، ٣٣٤ ، ٣٧٨ ، ٥٦٨ ،
 صنهاجة القبليه ؛ ج ١-١ ، ١٨٥ ، وج ٢-٢ ، ٦١٧ ،
 صنهاجة مفتاح ؛ ج ٢-٢ ، ١٤ ،
 الطوائف (دول وأمرأه) ؛ ج ١-١ ، ٢٥-٢٩ ،
 ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٥ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ،
 ٥٥ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٨٧ ، ١٠٥ ، ٢٤٤ ،
 ٣٠٦ ، ٣١٨ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٤١٧ ،
 ٤٢٦ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٧٨ ، ٤٤٠ ،
 ٤٤٣ ، ٤٤٥ ، ٤٧٧ ، ٥٢٢ ، وج ٢-٢ ،
 ٢٦ ، ٢١٣ ، ٣٢٠ ، ٣٥٢ ، ٣٨٩ ،
 ٤٨٧ ، ٦٤٥ ، ٦٥٣ ، ٦٨٧ ،
 الظاهرية ؛ ج ١-١ ، ٢٠٣ ، وج ٢-٢ ، ٢٤٠ ،
 العرب ج ١-١ ، ٢٥ ، ٨٠ ، ٢٨٠ ، ٢٨٤ ،
 ٢٨٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ،
 ٣٧٦ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣ ،
 ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، وج ٢-٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٩ ،
 ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٦٦ ، ٧٦ ،

٥٩٥ ، ٥٩٧ ، ٦٠٨ ، ٦٣٦ ، ٦٤٠ ، ملكة أراجون ؛ ج ١ - ١٠١ ، ١٠٢ ، ٤٧٧ ، ٤٩٩ - ٥٠١ ، ٥١٤ وج ٢ - ٤٧ ، ٢٦١ ، ٤٠٣ ، ٥٨٤ ، ٦٠١ ، ٦٠٣ ، ٦٠٧ ، ملكة إشبيلية ؛ ج ١ - ٧٣ وج ٢ - ٤٨٨ ، ملكة إفريقية ؛ ج ١ - ٢٩٠ ، وج ٢ - ٥١٩ ، ملكة البرتغال ؛ ج ١ - ٢٧ وج ٢ - ٢٤ ، ٣١ ، ٦٩ ، ١٢٠ ، ١٧٠ ، ١٨٢ ، ٥٧٤ ، ٥٨٣ ، ٦٠٩ ، ملكة بطليوس ؛ ج ١ - ٧٣ ، ملكة بلنسية ؛ ج ١ - ١٠٨ وج ٢ - ٦٠١ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ملكة بني حماد ؛ ج ١ - ٢٨١ - ٢٨٤ ، ملكة بني زيري ؛ ج ١ - ٢٩١ ، ملكة تلمسان ؛ ج ٢ - ٣٣٥ ، ٥٤٢ ، ملكة دانية ؛ ج ١ - ٧٦ ، ملكة سرقطة ؛ ج ١ - ٧٣ ، ٨٧ ، ١٠٢ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣٠ ، ٣٦٢ ، ٣٧٠ ، ٤٩٣ ، ٤٩٩ ، ملكة السودان ؛ ج ١ - ٣٨ ، ملكة الشرق ؛ ج ٢ - ٥٦ ، ٥٧ ، ٨٣ ، ١٠٦ ، ١٤٧ ، ٣٩٤ ، ٣٩٣ ، ٦٠٢ ، ٦٤٢ ، ملكة طليطلة ؛ ج ١ - ٦١ ، ملكة غانة ؛ ج ١ - ٣٨ ، ملكة غرناطة ؛ ج ١ - ٣٣ ، ١٠٧ وج ٢ - ٤٣٣ ، ٤٦٢ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٨٦ ، ٥٥١ ، ٥٧٢ ، ٥٩٩ ، ملكة قشتالة ؛ ج ١ - ١٢٥ ، ٤٧٧ ، ٥٠١ ، ملكة قطلونية ؛ ج ١ - ١١٧ ، ٤٩٩ ، المملكة اللاتينية ؛ ج ٢ - ١٧٠ ، ١٨١ ، ملكة مالي ؛ ج ١ - ٣٨ ، ملكة مرسية ؛ ج ١ - ٣١ ، ٣٥٩ ، ملكة ميورقة ؛ ج ٢ - ١٤٦ ، ملكة نافارا ؛ (نبره) ؛ ج ١ - ١٢٥ ، ٤٧٧ ، ٤٩٩ وج ٢ - ٢٨٩ ، الموحدون ؛ ج ١ - ٧ ، ٨ ، ١١ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٦ ، ٣٠ - ٣٣ ، ٦٤ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ - ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٨ - ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٣ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ - ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ - ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ - ٢٧٢ ، ٢٧٤ - ٢٧٩ ،	٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٩٥ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٢ ، ٥٠٤ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٣٢ ، ٥٤٠ وج ٢ - ٤٤٦ ، ٥٤ ، ١٤٤ - ١٤٦ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ٢٢٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٢٧٣ - ٢٧٦ ، ٣٣٤ ، ٣٩٠ ، ٤٠٣ ، ٤١٣ ، ٤٢٧ ، ٤٥١ ، ٥٧٢ ، ٦١٦ ، ٦٣٢ ، ٦٥٠ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٩١ ، ٧٠٣ ، المرينيون ؛ ج ١ - ٣٠٧ ، ٣١٤ - ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٤٤٨ ، ٤٦٥ ، وج ٢ - ٢٥٠ ، مزلة ؛ ج ٢ - ٤٩٨ ، مسفوية ؛ ج ١ - ١٧٢ ، مسلمو صقلية ؛ ج ٢ - ٢٧٨ - ٢٨١ ، ٥٣٥ ، ٥٣٤ ، مسوفة ؛ ج ١ - ٢٦ ، ٣٨ ، ١٤٩ ، ١٥٧ ، ١٦٩ ، ٢٤٥ ، ٣٣٣ ، ٤٠٦ ، ٤٢٤ ، وج ٢ - ١٢ ، ٣٧٨ ، مصودة (المصادة) ؛ ج ١ - ٥٨ ، ٥٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ١٥٧ - ١٦٠ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩٥ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧٧ ، ٣٤٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩٨ ، ٤٠٦ ، ٤٣٣ وج ٢ - ١١٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٥٦ ، ٣٠٠ ، ٣٨١ ، ٥٢٠ ، ٥٢٥ ، ٥٤٤ ، ٥٧٨ - ٥٨٠ ، ٦١٧ ، ٦٣٤ ، مصر ؛ ج ١ - ٢٩٧ ، مطاطة ؛ ج ١ - ٢٢٢ وج ٢ - ١٥٠ ، ٢٦٩ ، المعزلة ؛ ج ١ - ١٦٧ ، ٢١٣ ، مفراوة ؛ ج ١ - ٣٠٠ وج ٢ - ١١٦ - ٢٣٤ ، مفيلة ؛ ج ٢ - ٣٣٤ ، مكلانة ؛ ج ٢ - ٣٨٢ ، مكناسة (قبيلة) ؛ ج ٢ - ١٥٠ ، ٥١٢ ، الملثون ؛ ج ١ - ٧ ، ١٨٥ ، ٢٠٠ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٦٥ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٥٨ وج ٢ - ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، الممالك الإسبانية النصرانية ؛ ج ١ - ٢٧ ، ٣٢٠ ، ٤٧٧ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٥ ، ٥٢٠ وج ٢ - ٤٢ ، ١١٣ ، ١١٨ ، ٢٣٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٣٨ ، ٥٨٣ ، ٥٨٦ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ،
---	--

٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦٨٨ ، ٧٠٣ ، ٧١٩ ،
٧٢٣ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ .
الموريسكيون ؛ ج ١ - ١٤٠ و ج ٢ - ٤٦٤ ،
المولتون ؛ ج ١ - ٣٦٦ ، ٥٢٢ .
الميورقيون ج ٢ - ١٥٢ ، ١٦٠ - ١٦٢ ،
١٦٤ ، ٢٦٢ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ .

ن - ي

النصارى المعاهدون ؛ ج ١ - ١٠١ ، ١٠٥ ،
١٠٨ ، ١١٠ - ١١٤ ، ١٣٢ ، ١٥٠ ، ٢٤٢ ،
٤١٦ ، ٤١٨ .
النصرانية ؛ ج ١ - ٣٨ ، ٢٩٧ و ج ٢ - ٥٣٧ .
النورمان ؛ ج ١ - ٢٩٠ ، ٢٩٢ و ج ٢ - ٢٧٩ ، ٥٣٤ ،
نفزاوة ؛ ج ٢ - ١٩٤ .
نعات ؛ ج ٢ - ٢٧٤ .
هرقة ؛ ج ١ - ١٢٧ ، ١٥٨ - ١٦٠ ، ١٦٦ ،
١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٩٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ و ج ٢ -
١٧٠ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٦١٧ .
هزرجة ؛ ج ١ - ١٨ ، ٢٢٦ ، ٢٧٧ و ج ٢ -
٤٩٨ ، ٥٠٣ ، ٥٥٦ ، ٥٧٩ ، ٦١٧ .
هزيمة الجبل ؛ ج ١ - ١٨٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٧ ،
هسكورة ؛ ج ١ - ١٨٠ ، ٢٢٦ ، ٢٥٦ ،
٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٧ ،
و ج ٢ - ١٠١ ، ١٧٥ ، ٢٠٢ ، ٢٤٩ ، ٣٦٤ ،
٤٩٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠٣ - ٥٠٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ،
٥٦٢ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩ ، ٦١٧ ، ٦٢٧ .
هسكورة القبلية ؛ ج ١ - ١٨٥ .
هشوكة ؛ ج ١ - ٢٧٧ ، ٢٨٨ .
هنتاة ؛ ج ١ - ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ،
٢٦٢ ، ٢٨٨ ، ٣٤٢ ، و ج ٢ - ١٧ ، ١١٥ ،
٢٠٣ ، ٢٠٨ ، ٣٦٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٥٢٢ ،
٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٦١٧ .
هنكيشة ؛ ج ١ - ١٨٥ .
هوارة ؛ ج ٢ - ١٥١ ، ١٥٥ ، ٣٧٥ ، ٣٢٦ ، ٥١٢ .
هيلانة ؛ ج ١ - ٢٧٧ ، و ج ٢ - ٥٧٩ ، ٦١٧ .
وريكة ؛ ج ١ - ٢٧٧ .
الوندال ؛ ج ١ - ٥٢٢ .
اليهود ؛ ج ١ - ٥٢ ، ١٤٠ ، ٢٩٥ ،
٣٨٧ ، ٤٠٤ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ و ج ٢ - ٢٢٥ ،
٢٣٥ ، ٢٨٣ ، ٥٢٣ ، ٦٢٦ ، ٧٢٣ .

٢٨٤ - ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ،
٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ،
٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ - ٣٢٩ ،
٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ،
٣٤٥ - ٣٤٩ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ،
٣٧٢ - ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٦ ،
٣٨٧ - ٣٩٣ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ،
٤٣٧ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ - ٤٤٧ ، ٤٥٦ ،
٤٥٧ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٥٠٨ ،
٥١١ ، ٥١٥ ، ٥١٩ ، و ج ٢ - ١٣ - ١٨ ،
٢١ - ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢ - ٤٤ ،
٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ - ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٣ - ٧٠ ،
٧٢ ، ٧٤ - ٧٤ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩٣ - ٩٦ ، ٩٩ ،
١٠٢ - ١٠٥ ، ١١٠ ، ١١٤ - ١١٦ ، ١١٩ ،
١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ،
١٣١ ، ١٣٣ ، ١٤٤ - ١٥٣ ، ١٥٥ ،
١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ،
١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ،
١٨٨ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ،
٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٨ - ٢١٠ ، ٢١٣ ،
٢١٨ - ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ - ٢٣٥ ،
٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ - ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ ،
٢٥٣ - ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٣ - ٢٧٨ ،
٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ - ٢٩٥ ، ٢٩٨ ،
٣٠٠ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٤ ،
٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ،
٣٣٢ - ٣٣٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٥٢ ،
٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٤ -
٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧٣ - ٣٧٧ ،
٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ،
٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ - ٤٠٤ ، ٤٠٩ ،
٤١١ ، ٤١٤ ، ٤١٧ ، ٤٢٧ - ٤٢٩ ،
٤٤٤ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٣ ، ٤٨٠ ،
٤٨٤ ، ٤٨٧ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ،
٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٧ ، ٥١١ ، ٥١٢ ،
٥١٨ ، ٥٢١ - ٥٢٦ ، ٥٢٩ ، ٥٣١ ، ٥٤٠ ،
٥٤١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ،
٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٦٥ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ،
٥٧٠ ، ٥٧٢ ، ٥٧٦ ، ٥٧٨ - ٥٨٠ ، ٥٨٣ ،
٥٨٥ ، ٥٨٧ - ٥٩١ ، ٥٩٣ ، ٥٩٥ ،
٥٩٧ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٨ ، ٦١٠ ،

فهرست الأعمال

- ١ -

ابن أبي أصيبعة ؛ ج ٢ - ٧١٧ .
 ابن أبي الخصال ، أبو عبد الله ؛ ج ١ - ١٥ ،
 ١٤٢ ، ١٤٤ ، ٢٤٤ ، ٤١٧ ، ٤٣٤ ،
 ٤٤١ ، ٤٤٢ ؛ ج ٢ - ٦٦١ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٩٦ .
 ابن أبي الخصال ، أبو مروان ؛ ج ١ - ١١٩ ،
 ٢٤٤ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ .
 ابن أبي السداد ؛ ج ١ - ٧٧ ، ١٥٢ ، ١٥٣ .
 ابن أبي العافية القسطل ؛ ج ١ - ٤٦٤ .
 ابن أبي حبة ؛ ج ٢ - ٦٧٥ .
 ابن أبي خالدة ؛ ج ٢ - ٤٧١ ، ٤٨٦ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ .
 ابن أبي زرع الفاسي ؛ ج ١ - ١٧ .
 ابن أبي عبيد البكري ؛ ج ١ - ١٨ ، ٤١٧ ،
 ج ٢ - ١٧٦ ، ٦٨٣ .
 ابن أشكندر ؛ ج ١ - ٤٦٤ .
 ابن إفرندو ؛ ج ٢ - ٦٧٧ .
 ابن الأبار القضاعي ؛ ج ١ - ١١ ، ١٧ ، ٩٦ ،
 ٩٩ ، ١٣٠ ، ٢٥٠ ، ٣١١ ، ٣١٣ ،
 ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ،
 ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٤٤٤ ،
 ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٥١ ، ٤٦٤ ، ٤٦٦ ،
 ٤٧٣ ؛ ج ٢ - ٥٣ ، ٣٢١ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ،
 ٤٠٠ ، ٤٢٥ ، ٤٢٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٦ ،
 ٤٤٨ - ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٩ ، ٤٥٣ ،
 ٦٢٩ ، ٦٤٢ ، ٦٤٨ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ،
 ٦٥٨ ، ٦٦٧ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧٤ ،
 ٦٧٦ ، ٦٧٩ ، ٦٨٥ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٥ ،
 ٦٩٦ ، ٧٠٠ ، ٧٠٢ ، ٧٠٥ ، ٧٠٨ ، ٧١٦ .
 ابن الأثير ؛ ج ١ - ٤٠ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ١٠٣ ،
 ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ،
 ١٩٠ ، ١٩١ ، ٣٩٦ ، ٤٠٥ ، ٤٥٣ ،
 ج ٢ - ١٢٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢ .
 ابن الأزرقي (عبد الله بن عباس) ؛ ج ١ - ٤٤٧ .
 ابن الإقليشي ؛ ج ١ - ٤٦٧ ، ٤٦٨ .
 ابن البرذعي ؛ ج ٢ - ٦٨٥ .
 ابن البيطار المالبي ؛ ج ٢ - ٧١١ ، ٧١٥ ، ٧١٦ .
 ابن الحجام ؛ ج ١ - ٣٢٣ ، ٣٢٩ ، ٣٤٤ ، ج ٢ - ٣٦٠ .

إبراهيم بن اسماعيل بن أبي حفص ؛ ج ٢ - ٣٦٤ .
 إبراهيم بن اسماعيل الخزرجي ؛ ج ١ - ١٧٤ ،
 ٢٢٠ ، ٢٤٠ .
 إبراهيم بن أغلب الخولاني ؛ ج ٢ - ٦٦٩ .
 إبراهيم بن الدياغ الإشبيلي ؛ ج ٢ - ٣٢٠ .
 إبراهيم بن الفخار ؛ ج ٢ - ٢٦٣ ، ٣٢٣ .
 إبراهيم بن المنصور ؛ ج ٢ - ٢٤٨ ، ٢٧٧ ،
 ٣٢٦ ، ٣٣١ .
 إبراهيم بن تاشفين ؛ ج ١ - ٢٤٨ ، ٢٥٠ ،
 ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٧٠ ، ٢٧٨ ، ٤١٤ ،
 إبراهيم بن تيمشت ؛ ج ١ - ١٧٨ ، ٢٢٨ .
 إبراهيم بن جامع ؛ ج ١ - ٢٥٢ ، ٢٥٨ ،
 ج ٢ - ٩٨ ، ٣٢٦ ، ٣٤٧ .
 إبراهيم بن سهل الإشبيلي ؛ ج ٢ - ٤٢٥ ،
 ٤٨٢ ، ٦٩٣ .
 إبراهيم بن عبد المؤمن ؛ ج ١ - ٤٠٨ ، ج ٢ - ٢٩ ،
 ٣٩ ، ٤١ ، ١٦٦ ، ٢٥٠ .
 إبراهيم بن علي ؛ ج ١ - ٢٤٠ ، ٢٧٨ .
 إبراهيم بن عيسى الأزدي ؛ ج ٢ - ٦٧٢ .
 إبراهيم بن قراتكين ؛ ج ٢ - ١٥٥ ، ١٦٤ .
 إبراهيم بن محمد الأعمى ؛ ج ٢ - ٦٧٤ .
 إبراهيم بن هشك ؛ ج ١ - ٢٠٥ ، ٢٦٨ ،
 ٢٦٩ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨١ ،
 ٣٨٦ ، ٣٩٠ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ج ٢ - ٣٩ ،
 ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٤ ،
 ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٧٥٤ ، ٧٧٦ ، ٧٩٠ ، ١٤٧ .
 إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ؛ ج ١ - ٤٥ ،
 ٨٩ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٤٨ ، ٤١٥ ،
 ٤٧٤ ، ٤٥٦ .
 إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ -
 ١٠٩ ، ١١٤ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ،
 ٢٦٣ ، ٢٧٠ ، ٣٤٩ ، ج ٢ - ٧٣ ، ١٠٣ ،
 ١٠٥ ، ١١٩ ، ١٢٤ .
 إبراهيم الخزرجي ؛ ج ٢ - ١٥٨ .

ابن الكردبوس ؛ ج ١ - ٤٨ ، ٩٢ ، ١٠٠ ،
 ١٠٢ ، ١٢٩ .
 ابن المرباط ؛ ج ١ - ١٦ .
 ابن المرحل ؛ ج ٢ - ٤٣٥ ، ٦٩٤ .
 ابن النجیل ؛ ج ٢ - ٣٧٤ ، ٢٧٥ .
 ابن الوراق ؛ ج ١ - ١٣٢ وج ٢ - ٦٥٠ .
 ابن الیاسین ؛ ج ٢ - ٧١٧ .
 ابن أم العباد ؛ ج ١ - ٣١٥ ، ٣١٦ .
 ابن بسم ؛ ج ١ - ٣٥٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٨ ،
 ٤٤٩ ، وج ٢ - ٦٩٦ .
 ابن بشکوال ؛ ج ١ - ١٧ ، ٤٠ ، ٤٤١ ،
 ٤٤٢ ، ٤٥٦ ، ٤٦٠ ، ٤٦٤ ، ٤٦٩ وج ٢ -
 ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٧ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ ،
 ٦٦٥ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ ، ٦٧٥ ، ٦٧٩ ، ٦٨٦ ،
 ٧٠٢ ، ٧٠٤ ، ٧٠٧ ، ٧٠٩ ، ٧٢١ .
 ابن بصال الطلیطلی ؛ ج ٢ - ٧١٨ .
 ابن تفرتا ش ، أمير البحر ؛ ج ١ - ٧٧ .
 ابن تمرکید ؛ ج ١ - ٣٧٩ .
 ابن تورمت (المهدي) ؛ ج ١ - ١١ ، ١٢ ،
 ١٨ ، ٢٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ١١٤ ،
 ١٤٧ ، ١٥٦ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ،
 ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ،
 ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣٤ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ،
 ٢٦٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٣٣٥ -
 ٣٣٨ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ،
 ٤٠٤ ، ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤١٩ ، ٤٢١ ،
 ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٣ -
 ٤٣٧ ، ٤٤٥ ، وج ٢ - ١١ ، ١٤ ، ٢٠ ،
 ٢٢ ، ٦٥ ، ٩٩ ، ١١٠ ، ١٣٢ ،
 ١٣٥ ، ١٨٠ ، ٢٠٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ،
 ٢٤٢ ، ٣٢٦ ، ٣٣٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ،
 ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٤٩٧ ،
 ٥٠٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ،
 ٦١٥ ، ٦١٧ ، ٦٢٠ ، ٦٢٥ ، ٦٣٠ -
 ٦٣٢ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ .
 ابن جبير ؛ ج ٢ - ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٧٩ ،
 ٢٨٠ ، ٥٣٤ ، ٦٩٧ ، ٧١٣ .
 ابن جزى ؛ ج ١ - ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣٢٠ ،
 ابن جشار ؛ ج ٢ - ٥٣٣ ، ٥٣٤ .
 ابن جنون ؛ ج ١ - ٤٢٥ ، ٤٧٣ .

ابن الخطيب ؛ ج ١ - ١٦ ، ١٧ ، ٤٠ ،
 ٤٨ ، ٥١ ، ٧٢ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ١١٠ ،
 ١٣٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٥٨ ، ١٦٣ ،
 ٢٥١ ، ٢٦٤ ، ٢٧١ ، ٣١١ ، ٣١٤ ،
 ٣١٥ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢ ، ٣٦٧ ،
 ٣٦٨ ، ٣٧٠ ، ٣٧٥ ، ٣٨٥ ، ٣٨٨ ،
 ٣٨٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٤ ، ٤٥٣ ،
 وج ٢ - ٣٩ ، ٥٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٤ ،
 ٢٣٨ ، ٣٦٥ ، ٣٦٩ ، ٣٨١ ، ٣٨٥ ، ٣٩٢ ،
 ٣٩٦ ، ٤٣٦ ، ٤٦٩ ، ٧٠٤ ، ٧٠٩ ، ٧١٦ .
 ابن الدباغ (يوسف) ؛ ج ١ - ٤٦٠ .
 ابن الدباغ ، أبو الوليد ؛ ج ٢ - ٦٥٤ ،
 ٦٦٠ ، ٦٧٧ ، ٦٨٣ .
 ابن الراعي ؛ ج ١ - ٢٢٨ .
 ابن الرنك ؛ انظر ألفونسو خريكيذ .
 ابن السراج ؛ ج ٢ - ٦٧٢ .
 ابن السقا ؛ ج ٢ - ٦٧٣ .
 ابن السيد البطليوسي ؛ ج ١ - ٤٦٨ ، ٤٦٩ .
 ابن الشرق ؛ ج ١ - ٣٦٨ .
 ابن الشاخ ؛ ج ١ - ٣١٣ .
 ابن الصقر الأنصاري ؛ ج ١ - ٤٥٧ ، ٤٥٨ ،
 ابن الصيرفي ؛ ج ١ - ٤٩ ، ٥٣ ، ١١٠ ، ١١١ ،
 ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٤ .
 ابن الصيقل ؛ ج ٢ - ٦٥٤ .
 ابن الطيلسان ؛ ج ٢ - ٧١٤ .
 ابن العريف ، أبو العباس ؛ ج ١ - ٣٠٧ ،
 ٤٣٢ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ .
 ابن العوام الإشبيلي ؛ ج ٢ - ٧١٨ .
 ابن الفراء ؛ ج ١ - ٥٢ ، ١٠٤ ، ٣١٦ .
 ابن الفرس ؛ ج ٢ - ٥١٠ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ،
 ٦٦٦ ، ٦٧٥ ، ٧٠٤ ، ٧١٥ .
 ابن الفرضي ؛ ج ١ - ٤٥١ ، وج ٢ - ٧٠٩ .
 ابن القطان ؛ ج ١ - ١٠ - ١٤ ، ٦٤ ، ٦٦ ،
 ٧٨ ، ٧٩ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ،
 ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ،
 ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ،
 ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ١٩١ ،
 ١٩٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ،
 ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٤٠٤ ، وج ٢ - ٣٤٥ ، ٣٤٦ ،
 ٥٦٠ ، ٦١٦ ، ٦١٩ ، ٧٠٩ .
 ابن القلاص ؛ ج ١ - ١١١ .

ابن سعد الخير الأنصاري ؛ ج ٢ - ٦٩٦ .
 ابن سعيد الأندلسي ؛ ج ١ - ١٥٨ ، ٤٤١ ،
 وج ٢ - ٧٠٨ .
 ابن سفيان الخزومي ؛ ج ١ - ٤٦٧ وج ٢ - ٥١٠ ، ٥١٠ .
 ابن سمعون ؛ ج ٢ - ٦٦٧ ، ٧١٥ .
 ابن سمعون ؛ ج ٢ - ٦٦٤ ، ٦٨٢ .
 ابن سيد الإشبيل ؛ ج ١ - ٣٨٤ ، ٤٥٣ .
 ابن سيد الجراوى ؛ ج ١ - ٤٦٥ .
 ابن سيداله التجيبى ؛ ج ١ - ٤٥١ .
 ابن سينا ؛ ج ٢ - ٢٢٣ ، ٧٢٢ .
 ابن شرف ؛ ج ١ - ١٥ ، ٥٣٣ .
 ابن شعيب ؛ ج ٢ - ٤٧٨ ، ٤٨٥ .
 ابن شلبان ؛ ج ١ - ٣٣٥ ، وج ٢ - ٦٥٠ .
 ابن صاحب الصلاة ، أبو الحسن ؛ ج ١ - ٢٦٧ .
 ابن صاحب الصلاة ؛ أحمد بن يوسف ؛ ج ١ - ٤٦٣ .
 ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك ؛ ج ١ - ٧٠٠ .
 ١٠ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٠٩ ، ١٦٦ ، ١٧٤ ،
 ١٨٩ ، ٢٠٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ،
 ٢٣٢ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٣٣١ ،
 ٣٥٨ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٨ ،
 ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ ، ٤٦٦ وج ٢ - ١٢ ،
 ١٣ ، ١٩ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٨ ،
 ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٣ ،
 ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ - ٨٠ ،
 ٨٢ ، ٩٥ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٤ ،
 ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٨٠ ،
 ١٨٣ ، ١٩٢ ، ٢٢٥ ، ٢٣٠ ، ٧٠٣ .
 ابن صاحب الصلاة عبد الله ، ج ١ - ٣٨٤ ، ٣٨٢ .
 ابن صناديد ، أبو عبدالله ؛ ج ١ - ٣٨٦ وج ٢ -
 ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦ ، ٢١٨ ، ٣١٨ .
 ابن صنعون القنطري ؛ ج ١ - ٤٦٤ .
 ابن طفيل ؛ ج ١ - ٣٢ ، ٣٢٠ ، ٣٣٩ ،
 ٤٥٨ ، وج ٢ - ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ١٠٩ ،
 ١٢٧ ، ١٣٦ ، ٢٢٣ ، ٢٣٧ ، ٦٤٦ ،
 ٦٤٩ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٧١١ ، ٧١٥ ،
 ٧١٧ ، ٧١٩ - ٧٢١ .
 ابن عبد الحليل التميمي ؛ ج ١ - ٤٦٩ .
 ابن عبد الملك المراكشي ؛ ج ١ - ٩ ، ١١ ،
 ١٦ ، ٤٤٧ وج ٢ - ٥٣ ، ٥٥ ، ١٢٣ ،
 ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ،
 ١٨٩ ، ١٩٢ ، ٢٢٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ،

ابن حبوس ؛ ج ١ - ٣٨٢ ، ٣٨٤ وج ٢ - ٦٨٨ .
 ابن حريق ؛ ج ٢ - ٦٩٢ .
 ابن حزم القرطبي ؛ ج ١ - ٢٠٣ ، ٤٥٩ ،
 ٤٦٥ وج ٢ - ٢٤٠ ، ٧١٦ .
 ابن حزمون ؛ ج ٢ - ٢١٦ ، ٦٨٧ ، ٦٩٣ .
 ابن حمادة ؛ ج ١ - ١٤٢ ، ٢٤٣ .
 ابن حنّال ؛ ج ٢ - ٧٢٦ .
 ابن خالد ؛ ج ٢ - ٤٣٠ .
 ابن خروف ؛ ج ٢ - ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ .
 ابن خلاص البلسي ؛ ج ٢ - ٤٥٦ ، ٤٧١ ،
 ٥١٢ ، ٥٢٠ .
 ابن خلدون ؛ ج ١ - ٣٨ ، ٤١ ، ٥١ ،
 ١١٥ ، ١٥٣ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٧٥ ،
 ١٩٠ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢٤٨ ،
 ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٣١١ ،
 ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ ، ٣٣٣ ، ٤٥٣ ،
 وج ٢ - ١٢٩ ، ١٨٤ ، ١٩٤ ، ٢٦٠ ،
 ٢٧٥ ، ٢٩٠ ، ٣٢٩ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ،
 ٣٧٨ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤٨٠ ، ٥٢١ ،
 ٥٤٧ ، ٥٥٥ ، ٥٨٠ ، ٧٤٢ .
 ابن خلكان ؛ ج ١ - ١٧ ، ٥١ ، ١٥٨ ،
 ١٩٨ ، ٣٩٦ ، ٤٠٨ ، ٤٦٨ ، ٤٧٢ ،
 وج ٢ - ١٢٤ ، ٢٤٤ ، ٣٢٩ ، ٦٩٥ .
 ابن دهرى ؛ ج ١ - ٣٨٧ .
 ابن دينار ؛ ج ١ - ٣٩ ، ٥١ .
 ابن رشد ، أبو القاسم ؛ ج ١ - ٣١٢ .
 ابن رشد ، الجند ؛ ج ١ - ٨٠ ، ٨٢ ، ١١٣ ،
 ١١٤ ، ١١٥ ، ١٣٢ ، ٤١٦ ، ٤٣٠ ، ٤٥٦ ،
 ٤٦٠ ، ٤٦١ .
 ابن رشد ، الحفيد ؛ ج ١ - ٣٢ ، ٤٧٣ ،
 وج - ٧٧ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١٣٦ ، ٢٢٣ -
 ٢٢٨ ، ٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ٦٤٩ ، ٦٥٢ ،
 ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٦٠ ، ٦٦٥ ، ٦٧٥ ، ٦٨٥ ،
 ٦٩٨ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٥ ، ٧١٩ - ٧٢٢ ،
 ابن رشيق ؛ ج ١ - ١٥٩ وج ٢ - ٦٨٧ .
 ابن زهر ، أبو بكر ؛ ج ١ - ٣٢ ، ٤٧٤ ،
 وج ٢ - ٧٣ ، ١١٠ ، ١٢٧ ، ١٣٦ ، ١٩٩ ،
 ٦٤٦ ، ٦٤٩ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٧١٣ ،
 ٧٢٠ ، ٧١٤ .
 ابن زهر ، عبد الملك ؛ ج ١ - ٤٧٤ ، ٤٧٤ ،
 وج ٢ - ٢٢٣ ، ٧١١ ، ٧١٣ ، ٧٢١ .

٦٨٧ ، ٦٩٥ .
 ابن محفوظ ، شبيب ؛ ج ٢ - ٤١٦ ، ٤٧٨ ،
 ٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ .
 ابن مخلد النحوى ؛ ج ٢ - ٦٨٦ .
 ابن مخلوف ؛ ج ١ - ٣١١ .
 ابن مرداس السلمى ؛ ج ٢ - ٦٧٧ .
 ابن مطروح النجيبى ؛ ج ٢ - ٦٧٣ .
 ابن مطروح القيسى ؛ ج ١ - ١٦٠ .
 ابن منصر الكوى ؛ ج ٢ - ٥٢٣ .
 ابن مغيث ؛ ج ٢ - ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٥ .
 ابن ملحان الطائى ؛ ج ١ - ٣٢٠ ، ٣٣٥ ،
 ٣٤١ ، ٣٤٦ ، ٣٧٢ وج ٢ - ٦٩٦ ، ٧١٩ .
 ابن منظور ، القاضى ؛ ج ٢ - ٤٨٤ .
 ابن ميمون ، أمير البحر ؛ ج ١ - ٢٤٧ ،
 ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٤٢٢ ،
 وج ٢ - ٢٥٩ .
 ابن فغالة (ابن النفريل) ؛ ج ٢ - ٢٣٥ .
 ابن هانيه ؛ ج ٢ - ٦٨٨ .
 ابن هانيه السبى ؛ ج ٢ - ٧٠٢ .
 ابن هود ، المنوكل ؛ ج ١ - ١٦ ، ٣٢ ،
 وج ٢ - ٣٦٨ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ ، ٣٩٠ ،
 ٣٩٥ ، ٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤١١ ، ٤٢٤ ،
 ٤٢٦ ، ٤٣١ ، ٤٣٨ ، ٤٤٣ ، ٤٥٧ ،
 ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ ، ٤٩٩ ، ٥٠٧ ،
 ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥٢٤ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ،
 ٦٢٧ ، ٦٤٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧١٤ ،
 ابن واثق ، أبو المطرف ، ج ١ - ٤٧١ .
 ابن ورد التميمى ؛ ج ١ - ٤٥٧ .
 ابن وزمر الحجارى ؛ ج ١ - ٤١٩ ، ٤٥٠ .
 ابن وضاح المرسى ؛ ج ١ - ١٢٥ .
 ابن يابى ؛ ج ٢ - ٥١٠ .
 ابن يومور ، أبو زكريا ؛ ج ١ - ٢٥٩ ، ٢٤٥ .
 ابن يونس ؛ ج ٢ - ٤٨٩ .
 أبو إبراهيم ، الشيخ ؛ ج ١ - ٢٥٧ ، ٢٧٩ .
 أبو إبراهيم بن يغمور ؛ ج ٢ - ٢٧٧ .
 أبو اسحق بن أبي إبراهيم ؛ ج ٢ - ٥١٧ ، ٥٢٢ ،
 ٥٣٠ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ .
 أبو اسحق بن أشقيلولة ؛ ج ٢ - ٤٣٤ .
 أبو اسحق بن الحجر ؛ ج ٢ - ٤٩٨ .
 أبو اسحق بن خفاجة ؛ ج ٢ - ٦٨٩ .
 أبو اسحق بن دائية ؛ ج ١ - ٧٢ .

٢٤١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ،
 ٢٥٥ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٣١٤ ،
 ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ -
 ٣٣٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٦٥٨ ،
 ٦٧٥ ، ٦٨٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠٣ ،
 ٧٠٩ ، ٧١٦ .
 ابن عبد المنعم الحميرى ؛ ج ١ - ٩٢ .
 ابن عبد ربه ، أبو عمر ؛ ج ١ - ٢٢٣ .
 ابن عبدون ، أبو محمد عبد المجيد ، ج ١ -
 ٧٠ ، ١١٣ ، ٢٤٤ ، ٤١٧ ، ٤٣٤ ، ٤٣٢ ،
 ابن عذارى المراكشى ؛ ج ١ - ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١٢٠ -
 ١٤ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٦٤ ، ٧٥٤ ،
 ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ١١٠ ، ١١٥ ،
 ١٣٢ ، ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ٢٣١ -
 ٢٣٥ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٥٨ ، ٣٢٢ ،
 ٣٤٨ ، ٣٧٥ ، ٣٨٦ وج ٢ - ١٠٠ ، ١٦٦ ،
 ٣٣٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ، ٣٥٣ ،
 ٣٥٦ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ،
 ٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٩ ،
 ٣٨٥ ، ٤٠٠ ، ٤١٦ ، ٤٢٨ ، ٤٦٢ ،
 ٤٨٤ ، ٥١٤ ، ٥٢١ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ،
 ٥٣٢ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٥٠ ، ٥٥٥ ،
 ٥٥٩ - ٥٦١ ، ٧٠٩ .
 ابن عزى ، يحيى الدين الطائى ؛ ج ٢ - ٦٧٩ ، ٦٨٠ ،
 ابن عسكر المالىق ؛ ج ٢ - ٤٣٠ ، ٦٧٤ ، ٦٩٢ ،
 ابن عصام ؛ ج ٢ - ٤٥٨ ، ٤٦٠ .
 ابن عصام الخولانى ؛ ج ١ - ٩٦ ، ٤٤٨ .
 ابن عصفور ؛ ج ٢ - ٢٦٢ ، ٢٧٦ .
 ابن عطف العقيل ؛ ج ٢ - ٦٨٦ .
 ابن عطوش ؛ ج ٢ - ٧٢٦ .
 ابن عطية الزنائى ؛ ج ٢ - ٢٧٨ .
 ابن عطية المحاربى ؛ ج ١ - ٤٥٨ .
 ابن عوييل ؛ ج ٢ - ٢٧٧ .
 ابن غالب البلنسى الرصاصى ؛ ج ١ - ٣٨٢ ،
 ٣٨٤ ، ٤٤٧ وج ٢ - ٦٨٩ ، ٦٩٠ .
 ابن فرحون ؛ ج ١ - ٣٢٦ .
 ابن قاسم ، أمير البحر ؛ ج ٢ - ٥٢ .
 ابن قسوم الخصى ؛ ج ٢ - ٧٠٥ .
 ابن قنونة ؛ ج ١ - ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٣٤ ،
 ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٤ .
 ابن مجهر ، أبو بكر ؛ ج ٢ - ١٦٥ ، ٢٣٤ ،

- أبو الحسن الفرياني ؛ ج ١ - ٢٩٣ .
 أبو الحسن المالحق ؛ ج ٢ - ١٢٤ .
 أبو الحسن المربني ؛ ج ٢ - ٥٧٩ .
 أبو الحكم بن بطلال ، ج ١ - ٣٤٠ .
 أبو الحكم بن حسون ؛ ج ١ - ٣١٥ ، ٣١٩ ، ٣٣٤ ، ٤١٦ .
 أبو الحكم بن عبد العزيز ؛ ج ٢ - ٦٩ .
 أبو الحكم بن هرويس ؛ ج ١ - ٣٢٠ ، ٣٣٩ .
 وج ٢ - ٩٥ ، ٦٩٦ .
 أبو الحملات بن مردنيس ؛ ج ٢ - ٤٤٩ .
 أبو الخطاب بن واجب ؛ ج ٢ - ٦٦١ ، ٦٦٩ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٧٠٠ ، ٧١٨ ، ٧٠٥ .
 أبو الربيع بن أبي حفص ؛ ج ٢ - ٣٣٣ ، ٣٥١ ، ٣٩٢ ، ٤١٨ .
 أبو الربيع بن عبد المؤمن ؛ ج ١ - ٤٠٧ ، ٣٣٩ .
 أبو الربيع بن سالم ؛ ج ٢ - ٤٤٢ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٧ ، ٦٦٢ ، ٦٦٥ ، ٦٨٩ ، ٦٩٢ ، ٦٩٧ ، ٧٠٠ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ .
 أبو الربيع الكفيف ؛ ج ٢ - ٢٢٥ .
 أبو الظفر بن مردنيس ؛ ج ٢ - ١٥٤ .
 أبو العباس بن أبي حفص ؛ ج ٢ - ٣٣٣ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ .
 أبو العباس بن الحلال ؛ ج ١ - ٤٥٩ ، ٣٥٨ .
 وج ٢ - ٦٦٧ .
 أبو العباس بن الخطيب ؛ ج ٢ - ١٥٤ .
 أبو العباس بن الرومية ؛ ج ٢ - ٤٨٧ ، ٦٩٩ ، ٧١١ ، ٧١٥ ، ٧١٦ .
 أبو العباس بن رمية ؛ ج ٢ - ١٢ .
 أبو العباس بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ٩٩ .
 أبو العباس بن مضاه ؛ ج ٢ - ٦٧٥ ، ٦٥٧ .
 أبو العباس الجراوى ؛ ج ١ - ٤٠٤ ، وج ٢ - ١٨٠ ، ١٨٩ ، ٢١٦ ، ٢٤٤ ، ٣٢٥ ، ٦٨٧ ، ٦٩٥ .
 أبو العباس الحافظ ؛ ج ٢ - ٢٢٥ .
 أبو العباس الحفصي ، السلطان ؛ ج ١ - ١٩٤ .
 أبو العباس الرنداحي ؛ ج ٢ - ٤٣٤ ، ٤٨٦ ، ٤٨٩ ، ٥٣٥ ، ٥٥١ ، ٥٥٤ .
 أبو العباس الصقلي ، أمير البحر ؛ ج ٢ - ١٠٠ .
 ١٠١ ، ١٣١ ، ١٥١ ، ١٥٢ .
 أبو العباس العذري ؛ ج ١ - ٤٥٥ .
 أبو العباس الجعري ؛ ج ٢ - ٦٩٣ ، ٧٠٧ ، ٦٥٦ ، ٦٩٣ .
- أبو اسحق بن طلحة ؛ ج ٢ - ٦٦٨ .
 أبو اسحق بن فرقد ؛ ج ٢ - ٦٦٤ ، ٦٦٩ ، ٦٧١ ، ٦٧٤ .
 أبو اسحق بن ملكون ؛ ج ٢ - ٦٥٧ ، ١٣٥ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ .
 أبو اسحق البطروجي المراكشي ؛ ج ٢ - ٧١٧ .
 أبو الجيش محارب ؛ ج ٢ - ٢٧٧ .
 أبو الحسن بن أبي العافية ؛ ج ٢ - ٥٢٤ .
 أبو الحسن بن أبي حفص ، السيد ؛ ج ٢ - ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٦٨ ، ١٧٩ ، ٢٣٦ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٧١ .
 أبو الحسن بن أضحى ؛ ج ١ - ٣١٦ ، ٣٠٠ ، ٣٢٠ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٤١٦ .
 أبو الحسن بن الباذش ؛ ج ١ - ٤٦١ ، ٤٧٠ ، وج ٢ - ٦٥٠ ، ٦٦٠ ، ٦٨٢ .
 أبو الحسن بن الصائغ ؛ ج ٢ - ٦٨٥ .
 أبو الحسن بن النعمة ؛ ج ٢ - ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٩ ، ٦٧٨ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ .
 أبو الحسن بن برطلة ؛ ج ٢ - ٦٥٤ .
 أبو الحسن بن بقر ؛ ج ٢ - ٦٦٨ .
 أبو الحسن بن عبد العزيز البطليوسي ؛ ج ١ - ٢٤٣ ، ٤٤١ .
 أبو الحسن بن عز الناس ؛ ج ١ - ٤٦٠ .
 أبو الحسن بن علي ؛ ج ٢ - ٤٧٦ .
 أبو الحسن بن عياش ؛ ج ١ - ٣٣٩ ، ٤٠٦ ، وج ٢ - ١٧ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٦١ ، ١٣٨ ، ٢٧٤ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٤٧ ، ٦٢٢ ، ٦٩٨ .
 أبو الحسن بن كوثر ؛ ج ٢ - ٦٧٢ ، ٦٧٥ ، ٦٧٧ ، ٦٨٦ ، ٧٠٤ .
 أبو الحسن بن مسلم ؛ ج ٢ - ٦٨٣ .
 أبو الحسن بن واجاج ؛ ج ١ - ٢٦٥ ، ٢٦٤ ، وج ٢ - ٢٧٧ .
 أبو الحسن بن يعلى ؛ ج ٢ - ٥٤٣ .
 أبو الحسن الإشبيلي ؛ ج ١ - ٣٨٢ ، ٤٠٦ ، وج ٢ - ١٨ ، ٦٢٢ .
 أبو الحسن الرعيني ؛ ج ٢ - ٣٨٦ ، ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٦٢٢ ، ٦٩٥ ، ٧٠٠ .
 أبو الحسن السعيد ، الخليفة ؛ ج ٢ - ٣٨٦ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ، ٥٣١ ، ٥٣٤ ، ٥٣٧ ، ٥٤٣ ، ٦٢٧ ، ٦٩٩ ، ٧٠١ .

٤٥١ وج ٢ - ٧٠٣ ، ٧٠٩ .
 أبو جعفر بن حدين ؛ ج ١ - ٣٠ ، ٢٦٠ ،
 ٣١٠ - ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٣٢ ، ٣٥٤ ،
 ٣٥٧ - ٣٦١ ، ٤١٦ ، ٤٤٤ ، ٤٤٧ ،
 ٤٥٣ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٥٠٧ .
 أبو جعفر بن عطية ؛ ج ١ - ٢٤٤ ، ٢٤٩ ،
 ٢٥٠ ، ٢٧٠ - ٢٧٢ ، ٢٧٩ ، ٢٨٦ ،
 ٢٨٧ ، ٢٩٤ ، ٣٢١ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ،
 ٣٤٧ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،
 ٣٩٩ ، ٤٠٣ ، ٤٠٦ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦ -
 ٤٤٨ وج ٢ - ١٣٨ ، ٦٢٢ .
 أبو جعفر بن مضاه ؛ ج ٢ - ١٣٨ ، ٢٤٨ ،
 ٦٢٨ ، ٦٥٥ ، ٦٥٩ ، ٦٧١ ، ٦٧٣ ،
 ٦٧٥ ، ٦٨٢ ، ٦٨٦ .
 أبو جعفر بن يحيى ؛ ج ٢ - ٦٧٠ .
 أبو جعفر الطبروسي ؛ ج ٢ - ٦٥٣ ، ٦٦٤ ، ٦٨٣ ،
 أبو جعفر البني ؛ ج ١ - ٤١١ .
 أبو جعفر التنزولي ؛ ج ٢ - ٤٣١ .
 أبو جعفر الذهبي ؛ ج ٢ - ٢٢٥ .
 أبو جعفر الوقشي ؛ ج ١ - ٣٩٠ ، ٤٤٦ ،
 ٤٤٧ وج ٢ - ٤٤ .
 أبو جعفر بن أبي زيد ؛ ج ٢ - ١٥٤ .
 أبو حفص بن المومنان ؛ ج ٢ - ٥١٤ .
 أبو حفص بن سيري ؛ ج ٢ - ٤٠٥ ، ٤٠٧ .
 أبو حفص بن يغمسان ؛ ج ٢ - ٥٦٧ .
 أبو حفص بن يوسف بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ٦٢١ .
 أبو حفص عمر أيتي ، أنظر عمر بن يحيى الهنتاني
 أبو خالد صاحب شريش ؛ ج ٢ - ٤٨٨ .
 أبو دبوس ، الواصل بالله ، الخليفة ؛ ج ١ - ١٢
 وج ٢ - ٥٥٤ ، ٥٥٨ ، ٥٦٠ ، ٥٦٢ ،
 ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٦١٥ .
 أبو رحال بن غليون ؛ ج ٢ - ٦٧٩ .
 أبو زكريا بن أبي حفص بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ١٣٢ ،
 ١٦٧ ، ١٧٦ ، ١٩٣ ، ٢٣٦ ، ٢٧٤ ، ٢٥٠ ،
 أبو زكريا بن أبي النمر ؛ ج ٢ - ٣٨٦ ، ٥١٥ .
 أبو زكريا بن حيون ؛ ج ٢ - ١١٢ ، ١١٨ .
 أبو زكريا بن سنان ؛ ج ٢ - ٢٠ ، ١٧٨ .
 أبو زكريا بن عطوش ؛ ج ٢ - ٥١٠ ، ٥١٧ ،
 ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٦ .
 أبو زكريا بن مزاحم الكوي ؛ ج ٢ - ٥١٢ ،
 ٥٢١ ، ٥٢٢ .

أبو بكر بن عياش ؛ ج ٢ - ٤٣١ .
 أبو بكر بن مر الممتوني ؛ ج ١ - ٣٧ ، ٣٨ ،
 ٤٤ ، ٤٩ .
 أبو بكر بن قزمان ؛ ج ١ - ٤٥٣ ، ٤٥٤ .
 أبو بكر بن محمد الممتوني ؛ ج ١ - ١٧٨ .
 أبو بكر بن مسعود الحنفي ؛ ج ٢ - ٦٦٢ ،
 ٦٦٣ ، ٦٦٥ .
 أبو بكر بن ميمون القرطبي ؛ ج ١ - ٤٠٦ .
 أبو بكر بن هشام الأزدي ؛ ج ١ - ٦٩٢ .
 أبو بكر بن هود ، الواصل ؛ ج ١ - ٣٦٠ ،
 وج ٢ - ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٩ ، ٤٥٧ ، ٤٦١ ، ٤٦٣ .
 أبو بكر بن واصل ؛ ج ١ - ٢٢٦ .
 أبو بكر بن واسين ؛ ج ١ - ٧٢ .
 أبو بكر بن يحيى الفزرجي ؛ ج ٢ - ٤٥٩ .
 أبو بكر بن وزير ؛ ج ٢ - ٩١ .
 أبو بكر بن وضاح ؛ ج ٢ - ٦٥٥ .
 أبو بكر بن يحيى القرطبي ؛ ج ٢ - ١٣٦ .
 أبو بكر بن يعزى التينملي ؛ ج ٢ - ٥٠٢ .
 أبو بكر بن يكت ؛ ج ١ - ١٧٤ ، ١٨٩ ، ٢٧٠ .
 أبو بكر بن يندوج ؛ ج ١ - ١٨٥ .
 أبو بكر بن يوسف الكوي ؛ ج ٢ - ١٣٧ .
 أبو بكر بن يوسف بن تاشفين ؛ ج ١ - ٥٨ .
 أبو بكر الرازي ؛ ج ١ - ٤٧٣ .
 أبو بكر الساق ؛ ج ١ - ٧٣ .
 أبو بكر الشاشي ؛ ج ١ - ١٦١ ، ٤٥٦ .
 أبو بكر الصنهاجي (البيذق) ؛ ج ١ - ١٨ ،
 ١٥٩ ، ١٧٢ ، ١٨٠ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ،
 ١٩٠ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٩ -
 ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ،
 ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ،
 ٢٧٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ،
 ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ وج ٢ - ١٣ ، ١٥ ،
 ١٦ ، ٧٧ ، ٢٤٢ .
 أبو بكر البافقي ؛ ج ١ - ٣٨٢ وج ٢ - ١٢ .
 أبو بكر الشطبي ؛ ج ١ - ٤٤٨ .
 أبو بكر الطرطوشي ؛ ج ١ - ٤١ ، ٤٤ ،
 ٥١ ، ١٦٠ ، ٤٥٦ .
 أبو جعفر بن أبي جعفر ؛ ج ١ - ٣١٤ ،
 ٣١٧ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٤١٦ .
 أبو جعفر بن الحسين القضاعي ؛ ج ٢ - ٧١٣ .
 أبو جعفر بن الزبير ؛ ج ١ - ١٤ ، ١٧ ،

أبو زكريا الفازاني ؛ ج ٢ - ٣٨٦ ، ٥١٥ ، ٦٢٢ .
 أبو زياد الغزي ؛ ج ٢ - ١٦٥ .
 أبو زيد بن أبي حفص ، السيد ؛ ج ٢ - ١٥١ - ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٥٥ ، ٢٣٦ ، ١٩٤ ، ٢٥١ ، ٢٧٧ .
 أبو زيد بن إدريس الكبير ؛ ج ٢ - ٣٧٤ ، ٣٧٥ .
 أبو زيد بن المرتضى (أبو حمارة) ؛ ج ٢ - ٥٦٠ .
 أبو زيد بن زكريا الجديوي ؛ ج ٢ - ٥١٩ ، ٥٥٣ ، ٥٢٠ .
 أبو زيد بن عبد الله ، السويد ؛ ج ٢ - ٥٦١ .
 أبو زيد بن محمد بن يوسف ، السيد ؛ ج ٢ - ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٦ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٩١ ، ٣٩٨ ، ٤٠٤ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ ، ٥٦١ ، ٥٧٥ ، ٦٤٢ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ .
 أبو زيد بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ٤٠٨ ، ٣٣٩ .
 أبو زيد بن منتيال ؛ ج ١ - ٩٦ ، ٤٤٨ .
 أبو زيد بن ومصال ؛ ج ١ - ٢٧٥ .
 أبو زيد بن يثيث ؛ ج ٢ - ٥٥٣ ، ٥٥٦ .
 أبو زيد بن يوسف بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ١١٤ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٦٦ ، ٢٦١ .
 أبو زيد النهيلي ؛ ج ٢ - ٦٧١ ، ٦٨٦ .
 أبو زيد الفازاني ؛ ج ٢ - ٦٩٥ ، ٧٠٠ .
 أبو سالم بن أبي يحيى ؛ ج ٢ - ٥٥٤ .
 أبو سعيد بن أبي حفص ، السيد ؛ ج ٢ - ١٩٧ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٩ .
 أبو سعيد بن أبي زيد ؛ ج ٢ - ٢٦٠ .
 أبو سعيد بن تيجبا ؛ ج ٢ - ٥٤٤ .
 أبو سعيد بن جامع ؛ ج ٢ - ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩٨ ، ٣١٠ ، ٣١٨ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٧٣ ، ٥٠٥ .
 أبو سعيد بن وأنودين ؛ ج ٢ - ٣٨٤ ، ٣٨٣ .
 أبو سعيد الهنتاني ؛ ج ٢ - ٥١٩ ، ٥٢٠ .
 أبو سليمان بن حوط الله الأنصاري ؛ ج ٢ - ٦٥٢ ، ٦٥٥ ، ٦٥٧ ، ٦٧٣ ، ٦٨٨ ، ٧٠٥ .
 أبو سليمان الهرغي ؛ ج ١ - ١٩٦ .
 أبو طاهر السلفي ؛ ج ٢ - ٦٥٣ ، ٦٦٨ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ .
 أبو عامر الطرطوشي السالمي ؛ ج ١ - ٤٥٠ .
 أبو عبد الرحمن بن طاهر الحداد ؛ ج ١ - ٣٥٩ ، ٤٤٥ .
 أبو عبد الرحمن بن طاهر الحفيد ؛ ج ١ - ١١١ .

٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٤٠٤ ، ٤١٦ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، وج ٢ - ٦٩٦ .
 أبو عبد الرحمن الطوسي ؛ ج ١ - ١٣٨ .
 أبو عبد الرحمن المغيلي ؛ ج ٢ - ٥٣٢ ، ٥٣٤ .
 أبو عبد الله بن أبي إبراهيم ؛ ج ٢ - ١٢ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٤١ ، ٥٠ .
 أبو عبد الله بن أبي حفص ؛ ج ٢ - ٢٧٥ .
 أبو عبد الله بن أبي عشرة ؛ ج ٢ - ٥١٥ .
 أبو عبد الله بن أبي يحيى بن أبي حفص ؛ ج ٢ - ٢٧٣ .
 أبو عبد الله بن الجنان ؛ ج ٢ - ٤١٣ ، ٤٢٨ ، ٤٥١ ، ٤٥٧ ، ٦٤٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ .
 أبو عبد الله بن الحاج ؛ ج ٢ - ٤٦١ ، ٤٦٢ .
 أبو عبد الله بن المجاهد ؛ ج ٢ - ٦٦٦ .
 أبو عبد الله بن حسون ؛ ج ١ - ٤٥٧ .
 أبو عبد الله بن زرقون ؛ ج ٢ - ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٩ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٧١٥ .
 أبو عبد الله بن عياش ؛ ج ٢ - ٢٢٦ ، ٢٦٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٧ ، ٣٨٦ ، ٦٢٢ ، ٧٢٢ .
 أبو عبد الله بن عيسى المرسى ؛ ج ٢ - ٢٧٧ .
 أبو عبد الله بن مروان ؛ ج ٢ - ٢٢٥ .
 أبو عبد الله بن منيع ؛ ج ٢ - ٢٧٧ .
 أبو عبد الله بن ميمون ؛ ج ١ - ٧٧ .
 أبو عبد الله بن نوح ؛ ج ٢ - ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦ ، ٦٧٨ ، ٦٧٨ ، ٦٨٠ ، ٧١٨ .
 أبو عبد الله بن واجاج ؛ ج ٢ - ١٣٢ .
 أبو عبد الله الباجي ؛ ج ٢ - ٢٧٧ .
 أبو عبد الله الباقر ؛ ج ١ - ٢٢٣ .
 أبو عبد الله التغزلي ؛ ج ١ - ٤٧٤ .
 أبو عبد الله التلمساني ؛ ج ٢ - ٥١٥ ، ٥١٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ .
 أبو عبد الله الخنفي ؛ ج ٢ - ٢٢٩ .
 أبو عبد الله التقي ؛ ج ٢ - ٥١٥ .
 أبو عبد الله الحياتي ؛ ج ١ - ٤٠٣ .
 أبو عبد الله اللحاني ؛ ج ٢ - ٣٧٥ ، ٣٨٣ .
 أبو عقيل بن عطية ؛ ج ١ - ٣٤٢ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٤٠٦ ، وج ٢ - ٦٢٢ .
 أبو علي بن الأشيري ؛ ج ١ - ٢٥٠ ، ٢٦٣ .
 أبو علي بن الحجاج ؛ ج ٢ - ٢٢٥ .
 أبو علي بن عبد العزيز ؛ ج ٢ - ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥١٥ .
 أبو علي بن عزون ؛ ج ٢ - ٩٨ ، ٩٩ .

- أبو علي بن محمد المالقي ؛ ج ٢ - ٢٧٧ .
أبو علي بن واندوين ؛ ج ٢ - ٣٣٦ .
أبو علي بن يومور ؛ ج ٢ - ١٦١ .
أبو علي الخياني ؛ ج ٢ - ٤٦٩ .
أبو علي الشلوين ؛ ج ٢ - ٦٨٥ ، ٧٠٠ .
أبو علي الصدقي ؛ ج ١ - ١٠٤ ، ٤٥٠ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٤ ، ٤٦٨ ، وج ٢ - ٦٨٨ .
أبو عمر بن أفلح ؛ ج ٢ - ٩٥ .
أبو عمر بن حربون ؛ ج ٢ - ٢٨ ، ٣٩ ، ٦٨٧ .
أبو عمر بن عات ؛ ج ٢ - ٦٦٧ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧٣ ، ٦٧٦ ، ٦٨٥ ، ٧١٨ ، ٧٠٠ .
أبو عمران بن ياسين الهنتاقي ؛ ج ٢ - ٢٧٧ .
أبو عمرو بن الجلد ؛ ج ٢ - ٤٢٩ ، ٤٧٠ .
أبو عمرو بن حجاج ؛ ج ٢ - ٥٤٦ .
أبو مالك بن يعقوب المريني ؛ وج ٢ - ٥٤٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ .
أبو محمد بن إبراهيم بن جامع ؛ ج ٢ - ١١٥ .
أبو محمد بن إشتيولة ؛ ج ٢ - ٤٣٤ ، ٤٦٢ .
أبو محمد بن أصناج ؛ ج ٢ - ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٥٩ .
أبو محمد بن الحاج اللورقي ؛ ج ١ - ٣٥٧ ، ٣٥٩ .
أبو محمد بن جبل ؛ ج ١ - ٣٨٢ ، ٤٠٦ .
أبو محمد بن حوط الله الأنصاري ؛ ج ٢ - ٢٦١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٧٠٠ .
أبو محمد بن طاع الله الكومي ؛ ج ٢ - ١٠٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ .
أبو محمد بن عبد العزيز البطلوسي ؛ ج ١ - ٢٤٤ ، ٤٤١ ، ٤٦٧ .
أبو محمد بن عبد الغفور ؛ ج ١ - ٤٥ .
أبو محمد بن عتاب ؛ ج ١ - ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٨ ، وج ٢ - ٦٥٠ ، ٦٥٢ ، ٦٦٠ ، ٦٦٥ .
أبو محمد بن فاطمة ؛ ج ١ - ٤٣٠ ، ٤٤١ .
أبو محمد بن مثنى ؛ ج ٢ - ٢٨٦ .
أبو محمد بن واندوين ؛ ج ٢ - ٥٠٥ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١٤ ، ٥١٧ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ .
أبو محمد بن يونس ؛ ج ٢ - ٥٣٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ، ٥٥٩ .
أبو محمد البشير ؛ ج ١ - ١٦٦ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ٢٢٥ .
أبو محمد الرشاطي ؛ ج ١ - ٤٥٠ ، وج ٢ - ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٧١٩ .
أبو محمد الفيفاني ؛ ج ١ - ٢٢٩ .
أبو محمد الفشتالي ؛ ج ٢ - ٥٣١ .
أبو محمد المالقي ؛ ج ١ - ٣٨٢ ، وج ٢ - ٥٩ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٧ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٣٨ ، ٦٢٨ ، ٦٣٠ .
أبو محمد الوحيدى ؛ ج ١ - ٣١٩ .
أبو محمد عبد العزيز ؛ ج ١ - ٢٨٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ .
أبو محمد عبد الواحد الخلوع ؛ ج ٢ - ٣٤٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٥٧٥ ، ٥٧٨ ، ٦٤٠ .
أبو مروان بن قاسم ؛ ج ٢ - ٥٩ ، ١٢٧ .
أبو مروان بن قزمان ؛ ج ٢ - ٦٨٤ ، ٦٦٩ ، ٦٥٥ .
أبو مروان الباجي ؛ ج ٢ - ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٧٠ ، ٦٥١ ، ٦٦١ ، ٦٦٤ ، ٦٨٣ .
أبو مظهر بن أبي يحيى ؛ ج ٢ - ٥٥٤ .
أبو موسى بن عزوز الهنتاقي ؛ ج ٢ - ٥٥٩ ، ٥٦٣ .
أبو موسى بن عطوش ؛ ج ٢ - ٥٠٧ .
أبو موسى عيسى ؛ ج ١ - ٢٨٦ ، ٣٢٩ ، ٣٢٨ .
أبو نصر بن الحجام ؛ ج ٢ - ٧١٤ .
أبو وزغيع بن ياموخل ؛ ج ١ - ١٩٦ .
أبو يحيى بن أبي حفص ، الحافظ ؛ ج ٢ - ١٢ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ .
أبو يحيى بن أبي ركريا ؛ ج ٢ - ٣٤٣ .
أبو يحيى بن الحسن بن أبي عمران ؛ ج ٢ - ٢٧٧ .
أبو يحيى بن أبي زكريا الهزرجي ؛ ج ٢ - ٢٦٤ .
أبو يحيى بن أبي سفيان ؛ ج ٢ - ٢٦٣ .
أبو يحيى بن الشهيد ؛ ج ٢ - ٢٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٧١ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ .
أبو يحيى بن رودة ؛ ج ١ - ٨٢ .
أبو يحيى بن عبد الحق ، الأمير ؛ ج ٢ - ٥٢١ ، ٥٢٦ ، ٥٣١ ، ٥٤٠ ، ٥٤٦ .
أبو يحيى بن مطروح ؛ ج ١ - ٢٩٣ ، ٢٩٦ .
أبو يحيى بن مجليد ؛ ج ٢ - ٥١٥ .
أبو يحيى بن يحيى بن عمران ؛ ج ٢ - ٤٠٢ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩ .
أبو يحيى بن يوسف بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ١٣٢ ، ١٦٨ ، ١٧٦ ، ١٨٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٧ .
أبو يحيى الرميبي ؛ ج ٢ - ٤٢٦ .
أبو يحيى القطراني ؛ ج ٢ - ٥٤٥ ، ٥٤٦ .

- أبو يعقوب بن أبي يوسف ؛ ج ٢ - ٥٧١ .
أبو يوسف بن تيجان ؛ ج ٢ - ٥٥٩ .
أجدائ بن سير اللثوني ؛ ج ١ - ٨٢ ، ١٣٢ .
أحمد بن باسه ؛ ج ١ - ٣٨٠ ، ج ٢ - ٧١ ،
٧٣ ، ٧٣ ، ٧٣٠ ، ٧٢٥ .
أحمد بن بقر ؛ ج ٢ - ٣٢٦ ، ٣٢٨ .
أحمد بن خراسان ؛ ج ١ - ٢٩٥ .
أحمد بن خلصة الحميري ؛ ج ٢ - ٦٦٧ .
أحمد بن خلف التجيبي ؛ ج ١ - ١٤١ .
أحمد بن داود الحذائي ؛ ج ٢ - ٧١٣ .
أحمد بن طلحة الأموي ؛ ج ٢ - ٦٨٥ .
أحمد بن عبد الجليل التدمري ؛ ج ١ - ٤٦٩ .
أحمد بن عبد الرحمن البطروجي ؛ ج ١ - ٤٦٠ ، ٤٧٠ .
أحمد بن عبد الرحمن التجيبي ؛ ج ١ - ٤٦٤ .
أحمد بن عبد الرحمن اللخني ؛ ج ٢ - ٦٦٤ .
أحمد بن عبد الصمد الخزرجي ؛ ج ٢ - ٦٥١ .
أحمد بن عبد العزيز الأزدي ؛ ج ١ - ٤٦٠ .
أحمد بن عبد العزيز بن عياش ؛ ج ٢ - ٦٩٨ .
أحمد بن عبد الملك بن سعيد ؛ ج ١ - ٣٨٢ ،
٣٨٥ ، ٤٥٢ ، ج ٢ - ٦٤٢ .
أحمد بن عبد الملك الأنصاري ؛ ج ١ - ٤٥٩ .
أحمد بن عبد المؤمن القيسي ؛ ج ٢ - ٦٧٠ .
أحمد بن عتبة ؛ ج ٢ - ٧١٤ .
أحمد بن عتيق الذهبي ؛ ج ٢ - ٦٦٥ .
أحمد بن علي الأنصاري ؛ ج ٢ - ٦٧٦ .
أحمد بن عون الله الأنصاري ؛ ج ٢ - ٦٥٦ .
أحمد بن قسي ؛ ج ١ - ٩ ، ٣٠٧ - ٣١٢ ،
٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ ، ٤١٦ ،
٤٦٦ ، ج ٢ - ٢٥٠ ، ٧٤٢ .
أحمد بن محمد الأزدي ؛ ج ٢ - ٦٧٢ ، ٧٠٤ .
أحمد بن محمد البلوي ؛ ج ٢ - ٦٩٩ .
أحمد بن محمد الخوخعي ؛ ج ٢ - ٧١ .
أحمد بن محمد العافقي ؛ ج ٢ - ٧١٢ .
أحمد بن محمد القيسي ؛ ج ٢ - ٦٨٢ .
أحمد بن محمد الكلاعي ؛ ج ٢ - ٦٥٢ .
أحمد بن محمد اللخني ؛ ج ٢ - ٦٩٤ .
أحمد بن محمد بن عياش ؛ ج ٢ - ٣٤٧ .
أحمد بن محمد بن هذيل ؛ ج ١ - ٤٦٥ .
أحمد بن محمد بن هود ؛ ج ٢ - ٤٦٠ ، ٤٦١ .
أحمد بن محمد بن وهب البكري ؛ ج ٢ - ٦٨٥ .
أحمد بن مفرج الأموي ؛ ج ٢ - ٦٦٣ .
أحمد بن مقدم الرعيني ؛ ج ٢ - ٦٦٦ .
أحمد بن منيع ؛ ج ٢ - ٣٣٦ ، ٣٤٦ .
أحمد بن يزيد الأموي ؛ ج ٢ - ٦٧١ .
أحمد بن يوسف بن فرتون ؛ ج ٢ - ٧٠٨ .
أحمد بن يوسف الوراق ؛ ج ٢ - ٦٥١ .
أخيل بن إدريس الرندي ؛ ج ١ - ٣٢١ ،
٣٧٤ ، ٤٠٦ ، ٤٤٤ ، ج ٢ - ٦٢٢ .
إدريس بن إبراهيم التجيبي ؛ ج ٢ - ٦٦٦ .
إدريس بن إبراهيم بن جامع ؛ ج ١ - ٤٠٦ ،
ج ٢ - ١٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ٥٩ ، ٦٢ ،
٦٥ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٨٠ ، ٩٨ ، ١١٨ ،
١٣٧ ، ١٥٧ ، ١٥٨ .
إدريس بن إدريس ؛ ج ١ - ٢٢٣ .
إدريس بن المنصور ؛ انظر المأمون .
إدريس بن عبد الحق ؛ ج ٢ - ٣٣٧ .
إدريس بن محمد الأنصاري ؛ ج ٢ - ٦٨٦ .
إدريس بن يوسف ، السيد ؛ ج ٢ - ٢٨٤ .
إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ٢٥٩ ،
٢٦٠ ، ٣٣١ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ج ٢ -
٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٤٩٨ .
الإدريسي ، الشريف ؛ ج ١ - ١٨ ، ٣٨ ،
٢٦٦ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٣٤٣ ، ج ٢ - ١٥ ،
١٧١ ، ٢٧٩ .
أردنيو الباريث ؛ ج ٢ - ٤٢٠ .
أرقم بن يحيى بن مردنيش ؛ ج ٢ - ٥٠٤ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ،
أرنولد مطران أربونة ؛ ج ٢ - ٢٩٤ ، ٢٩٧ ،
٣١٠ ، ٣١٥ .
اسحاق بن إبراهيم الجابري ؛ ج ٢ - ٦٥٦ .
اسحاق بن أبي إبراهيم ، السيد ؛ ج ٢ - ٥٧١ ، ٥٧٠ ،
اسحاق بن علي بن يوسف ؛ ج ١ - ٢٤٢ ، ٢٥٥ .
اسحاق بن محمد بن غانية ؛ ج ١ - ١٥٤ ، ٣٣٣ ،
٣٤٩ ، ٣٥٧ ، ج ٢ - ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٠ .
اسحاق بن يوسف بن تاشفين ؛ ج ١ - ٤٤٣ .
اسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ١٣٥ ،
١٣٨ ، ٣٣١ ، ٧٢٥ .
إسكندر الثالث (البابا) ؛ ج ١ - ٥٢٠ .
إسكندر الرابع (البابا) ؛ ج ٢ - ٥٤٨ .
إسماعيل بن ذي النون ؛ ج ٢ - ٦١ .
إسماعيل بن سعد الأموي ؛ ج ٢ - ٦٧٤ .
إسماعيل بن عبد المؤمن ؛ ج ١ - ٣٣٩ ، ٤٠٨ ،
ج ٢ - ٢٠ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤١ ، ٨٨ ، ٥٦ .

- إسماعيل بن يعقوب بن قيطون ؛ ج ٢ - ٥٥٢ .
 آسبن بلاثيوس ؛ ج ٢ - ٦٨٠ .
 الأشل ؛ ج ٢ - ١٩٢ ، ١٩٣ .
 الأفضل شاهنشاه ؛ ج ١ - ٤٧١ ، ٤٧٢ .
 ألباربيريثدى كاسترو ؛ ج ٢ - ٣٥٩ ، ٣٥٨ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ .
 ألبار ودريجس الأقرح ؛ ج ١ - ٣٨٨ ، ٣٩٠ .
 ألبارو فونيو ؛ ج ٢ - ٥٩٢ ، ٥٩٣ .
 ألبارو فونيز دى لارا ؛ ج ٢ - ٣١٢ .
 ألبرهانس ؛ ج ١ - ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٣٨٩ ، ٤٨١ .
 البريكوس الرابع ؛ ج ٢ - ٣١٥ .
 ألتاميرا ، رافائيل ؛ ج ١ - ٤٩٧ .
 السيد الكبيادور ج ١ - ٧٢٠ ، ٧٣ ، ٤٧٧ وج ٢ - ٤٥١ ، ٢٦ .
 ألفونسو الثاني (البرتغال) ؛ ج ١ - ٥٢٨ ، وج ٢ - ٣٤٠ ، ٥٩٤ ، ٦٠٠ ، ٦١١ .
 ألفونسو الثالث (البرتغال) ؛ ج ٢ - ٤٩٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٦١٢ .
 ألفونسو السادس ؛ ج ١ - ٣١ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٣ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ١٢٥ ، ٤٣٦ ، ٤٤٠ ، ٤٤٦ ، ٤٧٦ ، ٤٧٩ ، ٤٨٤ ، ٤٨٧ ، ٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٤٩٦ ، ٥٠٢ ، ٥٠٥ ، ٥٠٩ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ وج ٢ - ٣٧ ، ١٢٠ ، ١٩٨ ، ٢١٣ .
 ألفونسو الثامن (النيبيل) ؛ ج ١ - ٣٩٤ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، وج ٢ - ٣٢ ، ٤٢ ، ٤٧ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٦٧ ، ١٧٤ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٦٤ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٣٣ ، ٣٤٣ ، ٥٨٣ ، ٥٩٣ ، ٥٩٥ ، ٦٠١ - ٦٠٣ .
 ألفونسو التاسع (ليون) ؛ ج ١ - ٣٢ وج ٢ - ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٨٧ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٩٩ ، ٤٠١ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٩ ، ٥٩٢ ، ٥٩٧ .
 ألفونسو العاشر (الحكيم) ؛ ج ٢ - ٤٠١ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٩ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ ، ٥٤٨ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٩٩ ، ٦١٢ ، ٦٠٦ .
 ألفونسو ريمونديس ؛ ج ١ - ٧٣ ، ١٢٠ ، ١٢٨ ، ١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٢ ، ٢٤٨ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، ٣٦١ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٩٤ ، ٤٢٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٩٠ ، ٤٩٥ ، ٤٩٨ ، ٥٠١ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١٥ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٣ ، ٥٢٥ ، ٥٢٧ وج ٢ - ٣٠ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩٠ ، ٥٨٣ ، ٥٨٦ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٦٠١ ، ٦٠٣ .
 ألفونسو المحارب ؛ ج ١ - ١٣ ، ١٥ ، ٨٣ ، ٧٤ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٥٠ ، ٣٣٤ ، ٣٦٥ ، ٤٢٨ ، ٤٤٤ ، ٤٥٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٩ ، ٤٨٣ ، ٤٨٧ ، ٤٩١ ، ٤٩٣ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠٢ ، ٥١٠ ، ٥١٢ ، ٥١٨ ، ٥٢٤ ، وج ٢ - ٤٢ ، ٦٠١ ، ٦٠٧ .
 ألفونسو الثاني (أراجون) ؛ ج ١ - ٣٩٤ ، وج ٢ - ٤٧ ، ٥١ ، ١٤٦ ، ٥٨٤ ، ٥٨٧ ، ٦٠١ - ٦٠٣ .
 ألفونسو هنريكينز ؛ ج ١ - ٣٣٠ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٩٣ ، ٤٩٠ ، ٤٩٧ ، ٥٠٤ ، ٥٢٤ ، ٥٢٨ ، وج ٢ - ٢٤ ، ٢٦ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٨ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٨٦ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٧٠ ، ٥٨٣ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ .
 ألفانويش دى لارا ؛ ج ١ - ٥١٦ ، ٥١٧ .
 أليسي بن اليسع ؛ ج ١ - ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٩٠ ، ٢٢٩ ، ٢٤٦ ، ٢٥٢ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٣٤١ وج ٢ - ٦٣٣ .
 إليينور الملكة ؛ ج ٢ - ٣٣٣ ، ٥٨٤ ، ٥٩٢ .
 أمارى ، ميكانيل ؛ ج ١ - ١٠ .
 الإمام المصوم ؛ ج ١ - ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٩٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٥ .
 الإمامة ؛ ج ١ - ٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٤٧٣ ، ٤٧١ - ٤٧٣ .
 إنريكي ، إلفانتان ؛ ج ٢ - ٣٣٣ ، ٤٨٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٦ .

٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٩٣ ، ١١٧ .
 بها الدولة بن حود ؛ ج ٢ - ٤٥٨ ، ٤٦٢-٤٦٠ .
 بياتريس ابنة ألفونسو الحكيم ؛ ج ٢ - ٤٩٣ .
 ببش بن محمد العبدري ؛ ج ٢ - ٦٥١ .
 ببش بن محمد بن علي ؛ ج ٢ - ٦٥٢ .
 بيدرو الأول (أراحون) ؛ ج ١ - ٤٩٣ ، ٥٠٥ .
 بيدرو الثاني (أراجون) ؛ ج ٢ - ٢٣٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٣١٠ ، ٣٩٧ .
 ٤٠٣ ، ٥٨٧ ، ٥٩٠ ، ٦٠٣ - ٦٠٥ .
 بيدرو الثالث (أراجون) ؛ ج ٢ - ٦٠٧ .
 بيدرو آرياس ؛ ج ٢ - ٢٩٤ .
 بيدرو دي أساجر ؛ ج ١ - ٣٦٦ وج ٢ - ٣٩٧ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ .
 بيدرو دي لارا ؛ ج ٢ - ٤٨١ ، ٤٨٣ ، ٤٨٦ ، ٤٨٨ - ٤٩٠ .
 بيدرو فرنانديث ؛ ج ٢ - ٢٠٩ .
 تاشفين بن اسحاق بن غانية ؛ ج ٢ - ١٥٧ .
 تاشفين بن علي بن يوسف ؛ ج ١ - ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٢٦ ، ١٣٢ - ١٣٦ ، ١٣٨ - ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٥٢ ، ١٥٠ ، ٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ - ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤ ، ٢٧٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٣٢٧ ، ٣٣١ ، ٣٥٤ ، ٣٦٨ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤٢٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٦٢ ، ٤٩١ ، وج ٢ - ٣٣٥ .
 تاشفين بن غازي ؛ ج ٢ - ١٩٥ .
 تاشفين بن ماخوخ ؛ ج ١ - ٢٧٥ .
 تاشفين بن محمد المكتوب ؛ ج ٢ - ٣١٥ .
 التجاني ، أبو محمد عبد الله ؛ ج ١ - ١٨ وج ٢ - ١٩٤ ، ٢٧٠ .
 تريسا ملكة البرتغال ؛ ج ١ - ٤٧٨ ، ٨١ ، ٩٦ - ٤٨٥ ، ٤٩٠ ، ٥٢٣ - ٥٢٦ وج ٢ - ٣٧ .
 تريسا ابنة سانشو الأول ؛ ج ٢ - ٥٩٤ .
 تعلو بنت عطية ؛ ج ١ - ٢٢٢ .
 تليو ألفونسو ؛ ج ٢ - ٤٢٥ .
 تليو فرنانديث ؛ ج ١ - ١٣٤ .
 تماجونت بنت ينان ؛ ج ١ - ٢٣٣ .
 تميم بن المعز بن باديس ؛ ج ١ - ٢٨٠ .
 تميم بن يوسف ، أبو الطاهر ؛ ج ١ - ١٥ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٧ ، ٥٩ - ٦٦ ، ٧١ ، ٨٤ ،

انريكي الأول (نافار) ؛ ج ٢ - ٦٠٩ .
 أنوصان الثالث (البابا) ؛ ج ١ - ٥٢٠ وج ٢ - ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٢ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩٣ ، ٦٠٣ .
 أنوصان الرابع (البابا) ؛ ج ٢ - ٥٣٦ - ٥٣٨ ، ٥٤١ ، ٥٤٨ ، ٦١٢ .
 أوجين الثالث (البابا) ؛ ج ١ - ٣٦٩ .
 أوراكنا ، ملكة قشتالة ؛ ج ١ - ٧٣ ، ٨٨ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ٤٧٨ - ٤٩٣ ، ٤٩٣ ، ٥٠٦ ، ٥١٢ ، ٥٢٣ - ٥٢٤ .
 أوربان الثاني (البابا) ؛ ج ١ - ١١٦ .

ب - ث

باديس بن المنصور ؛ ج ١ - ٢٨١ .
 باديس بن حبوس ؛ ج ١ - ٣٣٣ وج ٢ - ٢٣٥ .
 البوج ؛ انظر فرناندو الثاني .
 برونيللا الأرجونية ؛ ج ١ - ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ، ٥٠٨ - ٥١٠ .
 بشقي ؛ انظر أبو زيد بن محمد بن يوسف .
 براز بن محمد المسوفي ؛ ج ١ - ٢٣٥ ، ٣١١ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤٠ ، ٣٨٠ ، ٣٩١ ، ٤٠٦ ، ٤٤٧ .
 برنار المطران ؛ ج ١ - ٤٧٨ ، ٤٩٦ .
 برناردوي انتزرا ؛ ج ٢ - ٤٤٢ ، ٤٤٣ .
 برنجارامون ؛ ج ١ - ٢٣٢ .
 برنجاريا القشتالية ؛ ج ٢ - ٣١٥ .
 برنجيرامون ؛ ج ١ - ٥٠١ ، ٥١٤ .
 برنجيلا ، ملكة قشتالة ؛ ج ١ - ١٥١ ، ٤٩٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ .
 برنجيلا ، ابنة ألفونسو الثامن ؛ ج ٢ - ٢٨٧ ، ٣٣٣ ، ٣٤٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٧ ، ٥٨٩ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ .
 بروكلمان ؛ ج ١ - ١٠ .
 بسم بن أحمد الغافقي ؛ ج ٢ - ٦٧٣ .
 بشير الروي ؛ ج ١ - ٢٥٠ .
 بق بن مخلد ؛ ج ١ - ٤١٢ وج ٢ - ٢٤٨ .
 بكو بن علي بن يوسف ؛ ج ١ - ١٨٦ .
 بلاسكو دي ألجون ؛ ج ٢ - ٣٩٧ ، ٤٣٩ .
 بلانكا ملكة نافارا ؛ ج ١ - ٥٠٦ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ .
 بندي كوريا ؛ ج ٢ - ٤٧٤ .
 بلول بن جلداسن ؛ ج ١ - ٣٩٢ وج ٢ -

- دوزى، المستشرق ؛ ج ١-١٠٧، ٤٢٤-٤٢٤ .
دون خيل ؛ ج ٢-٤٨٩ .
ديجوبلاسكيث ؛ ج ١-٥١٩ .
ديجولمريث الأسقف ؛ ج ١-٤٨١، ٤٨٦، ٤٩٠، ٥٠٢، ٥٢٤ .
ديجولوبث دى بسكاية ؛ ج ٢-٢٠٩ .
ديجولوبث دى هارو ؛ ج ٢-٢٢٩، ٢٧٨، ٢٩٣، ٢٩٥، ٣٠٦، ٤٨١ .
ديسقوريدس ؛ ج ٢-٤٨٧، ٨١٦ .
رامون برنجير ؛ ج ١-٧٥، ١١٦، ٣٦٩، ٣٧٠ .
رامون برنجير الثالث ؛ ج ١-١٢١، ١٢٢، ٤٩٠، ٤٩٤، ٤٩٩، ٥٠١، ٥١٨ .
رامون برنجير الرابع ؛ ج ١-٤٩٦، ٤٩٨، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٨، ٥١١ .
٥١٤، ٥١٨، وج ٢-٤٧، ٥٨٤، ٥٨٦، ٦٠١ .
رامون بونيفاس ؛ ج ٢-٤٧٤، ٤٧٧، ٤٨٣ .
رامون دى مونكادا ؛ ج ٢-٤٠٤، ٤٠٥ .
راميرو الراهب الملك ؛ ج ١-٤٩٥، ٥٠٢، ٥٠٨ .
راؤول ديسيتو ؛ ج ٢-١٢٢ .
البربرير ؛ ج ١-٢٢٨، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٨، ٤٧٨، وج ٢-١٤٧ .
ربيعة بن عامر ؛ ج ١-٢٩٨ .
رجار الأول ؛ ج ٢-٥٣٤ .
رجار الثانى (روجر) ؛ ج ١-٢٩٠، ٢٩٣، وج ٢-٢٧٩ .
ردريجو ألبارس ؛ ج ٢-٤٨٥ .
ردريجو ألفونسو ؛ ج ٢-٤٦٦ .
ردريجو دى رادا، المطران ؛ ج ٢-٣٤١ .
ردريجو لارا ؛ ج ١-٤٨٩، ٤٩٠ .
زدريجو كوثالث ؛ ج ١-١٣٥، ١٤١ .
زدريك الطليطل ؛ ج ١-١٢٤، ٤٨٧، وج ٢-٢٨٨، ٢٩٣، ٢٩٦، ٣٠٨، ٣١٣، ٣١٥ .
الرشيد، أبوحمدا عبد الواحد ؛ ج ١-١٦، وج ٢-٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٦، ٤٢٩، ٤٣١، ٤٧١، ٤٩٧، ٥١٨، ٥٢٦، ٥٧٧، ٥٧٨، ٦٢١، ٦٢٢، ٦٢٧، ٦٣١، ٦٣٧، ٧٠١ .
الرشيد بن المعتمد بن عباد ؛ ج ١-٢٩ .
- رشيد الروى ؛ ج ٢-١٤٩، ١٥١، ١٥٤ .
روجر، الدوق ؛ ج ١-٥٠١ .
ريموند البرجونى ؛ ج ١-١٢٨، ٤٧٨، ٤٨٥، ٥١٤، ٥٢٣ .
ريموندو دى فيثيرو الراهب ؛ ج ١-٥١٩ .
زائدة المنصورة ؛ ج ١-٦٢، ٦٧ .
زائدة بنت مردنيش ؛ ج ٢-٥٦، ٩٢ .
الزبير بن على بن يوسف ؛ ج ١-١٨٦ .
الزبير بن عمر الملقب ؛ ج ١-١٢٢، ١٤٤، ١٥٢ .
الزبير بن محمد بن غانية ؛ ج ١-١٤٥، ١٤٩ .
الزبير بن نجاج ؛ ج ٢-٢٥٩ .
الزركشى ؛ ج ١-١٩٠، وج ٢-٣٤٤ .
زعتون القائد ؛ ج ١-٣٥٨، ٣٥٩ .
زكريا بن يحيى الحافظ ؛ ج ٢-٤١، ٤٣ .
زكريا بن يحيى الهزرجى ؛ ج ٢-٣٣٠، ٣٤٧ .
الزندغرسيس ؛ ج ١-٧١ .
زهر بن عبد الملك بن زهر ؛ ج ١-٤٧٣ .
زهر أم الناصر ؛ ج ٢-٢٥٠ .
زيرى بن ماخوخ ؛ ج ١-٢٣٧ .
زيرى بن مناد ؛ ج ١-٢٩١، وج ٢-١٥٠ .
زينب بنت أبى بكر ؛ ج ١-٣٥١ .
زينب بنت إسحق النفراوية ؛ ج ١-٥٣ .
زينب بنت على بن يوسف ؛ ج ١-٢٦٧، ٣٤٩ .
زينب بنت موسى الضيرير ؛ ج ٢-١١، ١٥٠ .
زيان بن مردنيش، أبو جميل ؛ ج ١-٣٢، وج ٢-٣٩٤، ٣٩٨، ٤١٤، ٤٢٢، ٤٢٦، ٤٣٨، ٤٤٢، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٤٩، ٤٥١، ٤٥٦، ٤٦٠، ٤٦٢، ٤٧١، ٥٧٥، ٦٤٣، ٦٩٩، ٧٠٠، ٧٠٥ .
- ص - ط
- سالم بن هود، عماد الدولة ؛ ج ٢-٣٩٣، ٤١٣، ٤١٦، ٤٧٠ .
سانشو الأول (البرتغال) ؛ ج ٢-٣٧، ٩٨، ١٧٠، ١٧٤، ١٧٧، ٥٩٠، ٥٩٢، ٥٩٤، ٦١٠ .
سانشو الثانى (البرتغال) ؛ ج ٢-٣٥٤، ٤٩٢، ٦١١، ٦١٢ .
سانشو، الإيفانت (قشتالة) ؛ ج ١-٦٢، ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٤٧٧ .

عبد اللطيف البغدادي ؛ ج ٢ - ٧٢٤ .
 عبد الله ، أمير الأندلس ؛ ج ١ - ٦١ .
 عبد الله بن أبي بكر ، الأمير ؛ ج ١ - ١٥٠ .
 عبد الله بن أبي بكر القضاعي ؛ ج ٢ - ٧٠٥ ، ٦٧٠ .
 عبد الله بن أبي بكر بن ونكى ؛ ج ١ - ٢٨٨ .
 عبد الله بن أبي بكر بن يزيد ؛ ج ٢ - ٣٥٤ .
 عبد الله بن أبي حفص ؛ ج ١ - ٣٤٥ ، ٣٤٠ .
 ٣٨٦ ، ٣٨٨ .
 عبد الله بن أبي حفص التيمملي ؛ ج ١ - ٣٤٤ .
 عبد الله بن أبي زكريا ؛ ج ٢ - ٥٠٤ ، ٥٠٥ .
 ٥١٠ ، ٥١٧ .
 عبد الله بن أبي سعد بن المنصور ؛ ج ٢ - ٤٩٧ ،
 ٤٩٨ ، ٥٠٧ ، ٥١٥ .
 عبد الله بن أبي يوسف (العجوب) ؛ ج ٢ - ٥٥٤ .
 عبد الله بن أحمد الأنصاري ؛ ج ٢ - ٧١٤ .
 عبد الله بن أحمد المجري ؛ ج ٢ - ٦٨٢ .
 عبد الله بن أحمد العبدري ؛ ج ١ - ٦٥١ .
 عبد الله بن أسحق بن غانية ؛ ج ٢ - ١٥٨ ،
 ١٥٩ ، ١٩٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٠ .
 عبد الله بن أسحق بن جامع ؛ ج ٢ - ١٠٠ ،
 ١٠١ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ٢٦٦ .
 عبد الله بن الحسن الأنصاري ؛ ج ٢ - ٦٥٦ .
 عبد الله بن الحسن السعدي ؛ ج ١ - ٤٧٠ .
 عبد الله بن الصميل ؛ ج ١ - ٣٠٩ ، ٣١٤ ،
 ٣٢٣ ، ٣٢٧ .
 عبد الله بن العزيز بالله ؛ ج ١ - ٢٨٢ .
 عبد الله بن المنصور ؛ انظر العادل .
 عبد الله بن باديس اليعصبى ؛ ج ٢ - ٦٥٩ .
 عبد الله بن تفرجين ، الحافظ ؛ ج ٢ - ٦٨ ،
 ٧٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ .
 عبد الله بن تينغر ؛ ج ١ - ٤١٥ ، ١٣٣ ، ٨٤ .
 عبد الله بن خالد المعافري ؛ ج ٢ - ٦٧١ .
 عبد الله بن حبيب ؛ ج ١ - ٤١٢ .
 عبد الله بن خلف القرشي ؛ ج ١ - ٤٦١ .
 عبد الله بن خيار الحياتي ؛ ج ١ - ٢٥٧ ،
 ٢٥٨ ، ٢٧٥ ، ٢٨٦ .
 عبد الله بن ذى النون المجري ؛ ج ٢ - ٦٥٣ .
 عبد الله بن سعدون الأزدي ؛ ج ٢ - ٦٨٥ .
 عبد الله بن سليمان ؛ ج ١ - ٢٧٥ ، ٢٨٧ ،
 ٣٤١ ، ٣٤٥ - ٣٤٧ .
 عبد الله بن سيد أمير اللخني ؛ ج ٢ - ٧١٣ .

٣٥٧ ، ٣٦٠ - ٣٦٦ ، ٣٧٥ ، ٣٨٩ ،
 ٣٩١ ، ٥٧٥ ، ٥٧٨ ، ٦٤٠ .
 العاصد الفاطمي ؛ ج ٢ - ١٢٥ ، ٣٣٢ .
 عامر بن إدريس بن عبد الحق ؛ ج ٢ - ٤٧٢ ،
 ٤٨٩ ، ٥٥١ .
 عائذ بن أبي العيث ؛ ج ١ - ٢٩٩ ، ٣٠٠ .
 عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي ؛ ج ٢ - ١٥٠ .
 عبد الحق بن عطية ؛ ج ٢ - ٦٦٤ ، ٧١٩ .
 عبد الحق بن يحيى ؛ ج ٢ - ٣٣٦ ، ٣٣٧ .
 عبد الحق الخنفيسي ؛ ج ٢ - ٥٤٥ .
 عبد الرحمن بن أبي عمران ؛ ج ٢ - ٥٦٤ ، ٥٥٨ .
 عبد الرحمن بن أبي مروان ؛ ج ٢ - ٧٩ .
 عبد الرحمن بن أسباط ؛ ج ١ - ٤٤٠ ، ٤١٧ ، ٥٣٠ .
 عبد الرحمن بن الحكم ، الأمير ؛ ج ٢ - ٧٢ .
 عبد الرحمن بن زكو (زجو) ؛ ج ١ - ٢٢٠ ،
 ٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩ .
 عبد الرحمن بن عياض ؛ ج ١ - ٣٥٩ .
 عبد الرحمن بن محمد السلمي ؛ ج ٢ - ٦٨٢ .
 عبد الرحمن بن محمد المعافري ؛ ج ١ - ٤٥٩ .
 عبد الرحمن بن محمد بن مغاور ؛ ج ٢ - ٦٨٩ ،
 عبد الرحمن بن منقذ ؛ ج ٢ - ١٧١ ، ١٨٣ ،
 ١٨٥ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .
 عبد الرحمن بن يعقوب ؛ ج ٢ - ٥٥٢ .
 عبد الرحمن بن يكيث ؛ ج ١ - ٣٤٤ ، ٣٤٥ ،
 ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٨ ، ٥١١ .
 عبد الرحمن بن يوجان ، أبوزيد ؛ ج ٢ - ٢٢١ ،
 ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ ،
 ٢٧٨ ، ٣٢٦ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٤ ،
 ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٦٢٣ .
 عبد الرحمن الجزولي ؛ ج ٢ - ٦٩٥ .
 عبد الرحمن الداخل ؛ ج ٢ - ٧١٤ .
 عبد الرحمن الناصر ؛ ج ١ - ٣٩٧ .
 عبد الرحيم بن الفرس ؛ ج ٢ - ٢٥٦ .
 عبد السلام بن محمد الكوي ؛ ج ١ - ٢٩٤ ،
 ٢٩٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ،
 ٤٠٦ ، ٤٠٦ .
 عبد العزيز بن أبي حفص ؛ ج ٢ - ٤٧١ .
 عبد العزيز بن السميد ؛ ج ٢ - ٥٦٣ ، ٥٦٤ .
 عبد العزيز بن عطوش ؛ ج ٢ - ٥٦٣ .
 عبد العزيز عمر بن أبي زيد ؛ ج ٢ - ٢٧١ .
 عبد العزيز بن عمر الهتافي ؛ ج ٢ - ٣٢٩ .

على بن حيون ؛ ج ٢ - ١١٢ .

على بن زيان الموقكاسي ؛ ج ٢ - ٥٤٠ ، ٥٤١ .

على بن عبد الرحمن الخزرجي ؛ ج ١ - ٤٧١ .

على بن عبد العزيز بن الإمام ؛ ج ١ - ٤٤٤ .

على بن عبد العزيز بن الرند ؛ ج ٢ - ١٠٧ ، ١٠٦ .

على بن عبد المؤمن ؛ ج ١ - ٢٩٤ ، ج ٢ - ١٠٩ ، ١٠٧ ، ٩٩ ، ٩٨ ، ٩٦ ، ٩٣ ، ٢١ ، ١١ .

على بن عبيد ؛ ج ١ - ٣٦٤ ، ٣٧٢ ، ٣٩٠ .

عن بن عيسى بن ميمون ؛ ج ١ - ٢٧٢ ، ٢٥٩ .

على بن كنفاط اللعنوني ؛ ج ١ - ٧٤ .

على بن نجاهد ؛ ج ١ - ٧٦ .

على بن محمد بن غانية ؛ ج ٢ - ١٤٨ .

على بن محمد الخزري ؛ ج ٢ - ١١٢ ، ١٧٩ ، ١٨١ .

على بن محمد الله غطلي ؛ ج ٢ - ٣٩١ .

على بن موسى ؛ ج ٢ - ٤٦٨ .

على بن وزير ؛ ج ٢ - ٩٨ ، ٩٧ ، ٤٥ .

على بن يحيى بن تميم ؛ ج ١ - ٤٧٢ .

على بن يدر ؛ ج ٢ - ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٥ .

على بن يزيمر التامري ؛ ج ٢ - ٥٢٣ .

على بن يوسف ؛ ج ١ - ١٣ ، ١٥ ، ١٦ .

٤٥ - ٤٧ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ٦٨ .

٧٤ - ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٣ .

١٠٣ ، ١١٠ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٣١ .

١٣٤ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٩ .

١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ، ١٦٩ .

١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٤ .

١٨٨ ، ٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ .

٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٥٨ .

٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ ، ٢٧٠ ، ٣٠٦ .

٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣٣٤ ، ٤١١ .

٤١٤ - ٤٢٢ ، ٤٢٤ ، ٤٢٦ ، ٤٣٥ .

٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤ .

٤٥٣ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩ ، ٤٦٥ ، ٤٧٠ .

٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٢٥ .

ج ٢ - ١٤٤ ، ١٤٧ ، ٦٦٠ .

على بن يوسف عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ١١٢ ، ١٦٧ .

على الربرتير ؛ ج ١ - ٢٣٢ ، ج ٢ - ١٤٧ .

١٤٨ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ٢٥٧ .

على الوهبي ؛ ج ١ - ٣٤٠ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

عماد الدولة بن هود ؛ ج ١ - ٧٤ ، ٨٩ .

٤٣٧ ج ٢ - ٥٣ ، ٥٥ ، ١٢٣ ، ١٢٦ .

١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ، ١٨٩ .

١٩٢ ، ٢٣٥ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ .

٢٤٦ ، ٢٥٠ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ .

٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ .

٣٣٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨ ، ٧٠٣ .

عبد الله بن عبد الرحمن بن قزمان ؛ ج ٢ - ٦٦٤ .

عبيد الله بن عمر الحضري ؛ ج ٢ - ٦٦٠ .

عبيد الله بن غلندة ؛ ج ٢ - ٧١٢ .

عبيد الله بن محمد المذحجي ؛ ج ٢ - ٧١٣ .

عبيد الله المهدي ؛ ج ١ - ١٥٧ .

عتبة بن يحيى المغيلي ؛ ج ٢ - ٤٣٠ .

عثمان ، الخليفة ؛ ج ١ - ٣٤٣ .

عثمان بن أبي حفص ؛ ج ٢ - ٣٥٣ .

عثمان بن عبد الحق ، أبو سعيد ؛ ج ٢ - ٣٣٨ .

٥١١ ، ٥١٢ .

عثمان بن عبد المؤمن ، أبو سعيد ؛ ج ١ - ٣١٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٢ .

٣٨٥ - ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٢ ، ٤٠٧ .

٤٥٢ ج ٢ - ١١ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢٢ .

٢٧ ، ٢٩ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٧٥ ، ٨٤ .

٩٤ ، ١٣٣ ، ٦١٩ ، ٦٤٢ ، ٦٩٧ .

العزيز بن المنصور الصنهاجي ؛ ج ١ - ١٦٥ .

عزيز بن عبد الملك بن خطاب ؛ ج ٢ - ٣٩٥ .

٤٥٧ ، ٦٩١ ، ٦٩٩ .

عزيز بن يوسف بن مردنيش ؛ ج ٢ - ٣٩٥ ، ٣٩٤ .

العزيز بالله الفاطمي ؛ ج ١ - ٢٩٨ .

عسكر بن وزير ؛ ج ٢ - ٣٣٥ ، ٣٣٧ .

عضد الدولة بن هود ؛ ج ٢ - ٤٢٩ ، ٤٥٧ ، ٤٦٢ .

عيا بن إبراهيم الفخار ؛ ج ٢ - ٦٧٥ .

بن أبي بكر (ابن فنو) ؛ ج ١ - ٣١٨ ، ٣١٦ .

و بن أبي طالب ؛ ج ١ - ٣١٥ .

على بن أبي علي ؛ ج ٢ - ٥٥٢ ، ٥٦٥ .

على بن أحمد الشاطي ؛ ج ١ - ٤٤٨ .

على بن اسحاق بن غانية ، الميوري ؛ ج ٢ - ١٤٩ .

١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٨٤ ، ٢٥٧ .

٢٦٨ ، ٢٧٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ .

على بن الحسن الجذائي ؛ ج ١ - ١٧٦ .

على بن الحسن الصنهاجي ؛ ج ١ - ٢٩٢ ، ٢٩١ .

على بن الثاني ؛ ج ٢ - ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٣١٤ .

على بن المنتصر ؛ ج ٢ - ١٠٦ ، ١٠٧ .

محمد بن عبد العزيز الفائق ؛ ج ٢ - ٦٥١ .
 محمد بن عبد الكريم ؛ ج ٢ - ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٦١ .
 محمد بن عبد الكريم الفندلاوى ؛ ج ٢ - ٦٥٤ .
 محمد بن عبد الله بن العربي ؛ ج ٢ - ٦٧٧ .
 محمد بن عبد الله الأنصارى (ابن الصفار) ؛ ج ٢ - ٦٧٥ .
 محمد بن عبد الله بن قاسم الأنصارى ؛ ج ٢ - ٦٧٨ .
 محمد بن عبد الله بن هود ؛ ج ١ - ٢٦٩ .
 محمد بن عبد الله الجنبسى ؛ ج ٢ - ٥١٥ .
 محمد بن عبد الله الحشى ؛ ج ٢ - ٦٦١ .
 محمد بن عبد الله الرميسى ؛ ج ٢ - ٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٣٠ .
 محمد بن عبد الله العبدري ؛ ج ٢ - ٦٦٠ .
 محمد بن عبد المؤمن ؛ ج ١ - ٢١٣ ، ٣٠١ ، ٣٢٦ - ٣٤٠ ، ٣٧٦ ، ٣٩٤ - ٣٩٦ ، ٤٠٧ و ج ٢ - ٣٧ ، ٣٠ ، ٩٤ .
 محمد بن مردنيش (صاحب البسيط) ؛ ج ٢ - ٥٢ .
 محمد بن علي بن أحلى ؛ ج ٢ - ٤٥٨ ، ٤٦٠ .
 محمد بن علي بن حماد الصنهاجى ؛ ج ٢ - ٦٩٢ .
 محمد بن علي بن حمدون ؛ ج ١ - ٢٨٢ .
 محمد بن علي بن رفاعه ؛ ج ٢ - ٧١٤ .
 محمد بن علي بن غانية ؛ ج ١ - ٣٣٤ ، ٣٥٦ ، ٣٧٠ ، ٣٥٧ .
 محمد بن علي بن موسى ؛ ج ٢ - ٤٠٢ .
 محمد بن علي الزهرى ؛ ج ٢ - ٧١٤ .
 محمد بن علي الكوى ؛ ج ١ - ٣٧٤ .
 محمد بن عمر بن المنذر ؛ ج ١ - ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٧١ ، ٤١٦ ، ٤٦٦ .
 محمد بن عيسى ؛ ج ٢ - ٩٣ .
 محمد بن عيسى بن أصبغ ؛ ج ٢ - ٦٩١ .
 محمد بن عيسى الأنصارى ؛ ج ٢ - ٦٦١ .
 محمد بن عيسى بن عياض ؛ ج ٢ - ٦٩٠ .
 محمد بن غانية ؛ ج ١ - ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٤ و ج ٢ - ١٤٥ ، ١٤٨ .
 محمد بن فاطمة ؛ ج ١ - ٦١ ، ٦٣ ، ٧٢ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٤٩ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤٣١ .
 محمد بن فرج الكوى ؛ ج ١ - ٢٩٧ .
 محمد بن محمد بن الأحمر ؛ ج ٢ - ٤٣٣ .
 محمد بن محمد بن حسين ؛ ج ٢ - ٧٢٦ .
 محمد بن مزدل ؛ ج ١ - ٧١ ، ٧٢ ، ٤١٥ .
 محمد بن مسعود ؛ ج ١ - ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ .

محمد بن مفضل اللخمي ؛ ج ١ - ٦٧٨ .
 محمد بن ميمون ، أمير البحر ؛ ج ١ - ٣٥٦ .
 محمد بن هلال ؛ ج ٢ - ٥٢ .
 محمد بن وانودين الهنتاقى ؛ ج ٢ - ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٩ .
 محمد بن وزير بن فكوس ؛ ج ٢ - ٣٣٥ .
 محمد بن يحيى بن فانو ؛ ج ١ - ٢٤١ .
 محمد بن يحيى الشلطيلى ؛ ج ١ - ٣٠٨ ، ٣١٠ .
 محمد بن يحيى المسوقى ؛ ج ٢ - ٢٨٦ .
 محمد بن يخلفن الفازازى ؛ ج ٢ - ٢٧٥ ، ٣٢٦ ، ٣٤٧ ، ٦٢٢ ، ٦٧١ .
 محمد بن يزريجن الهنتاقى ؛ ج ٢ - ٥٠٢ .
 محمد بن يرمور الهنتاقى ؛ ج ٢ - ٢٦٦ .
 محمد بن يوسف بن أبي زيد ؛ ج ٢ - ٦٦٦ .
 محمد بن يوسف بن سعادة ؛ ج ١ - ٤٦٨ .
 محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ١١٤ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ٣٦٥ ، ٦٢١ .
 محمد بن يوسف بن يدر ؛ ج ١ - ٣٥٤ .
 محمد بن يوسف الشلبى ؛ ج ١ - ٤٥١ .
 محمد بن يوسف المسكدالى ؛ ج ٢ - ٣٦١ .
 محمد بن أبي بكر بن حمامة ؛ ج ٢ - ٢٠٢ ، ٣٣٥ .
 المنحضب بن عسكر بن محمد ؛ ج ٢ - ٣٣٥ .
 مدافع بن رشيد بن مدافع ؛ ج ١ - ٢٩٦ .
 مرج الكحل ؛ ج ٢ - ٢٩٥ ، ٦٩٢ .
 المرتضى لأمر الله ، الخليفة ؛ ج ١ - ١١ .
 و ج ٢ - ٣٣١ ، ٤٩٣ ، ٥٢٩ ، ٥٣٣ ، ٥٣٦ ، ٥٣٨ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ، ٥٤٦ ، ٥٥٠ ، ٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٧٦ ، ٦٢٧ ، ٦٤٦ .
 مروان بن عبد العزيز ؛ ج ١ - ٣٠ ، ٣٤٠ ، ٣٥٤ - ٣٦٠ ، ٤١٦ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ .
 مزدل بن ثيو لتكان ؛ ج ١ - ٥٠ ، ٥٩ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٩٩ ، ٣٥٤ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٦٤٠ و ج ٢ - ٦٤٠ .
 مزيردغ الغارى ؛ ج ٢ - ١٤ ، ١٥ .
 المستظهر بالله ؛ ج ١ - ٤١ ، ٤٤ ، ٤٥٦ .
 المستعلى ، الفاطمى ؛ ج ١ - ٤٧١ .
 المستعين بن هود ؛ ج ١ - ٨٨ ، ١١٦ ، ١٢٧ ، ٤٦٩ .
 المستنجد بالله العباسى ؛ ج ٢ - ٥١ .
 المستنصر بالله الحفصى ؛ ج ٢ - ٥٣٤ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٦ .

- ج ٢ - ٣٤٧ .
 موسى بن عيسى بن عمران ؛ ج ٢ - ٣٤٧ .
 موسى بن عيسى اللخمي ؛ ج ٢ - ٧٢٦ .
 موسى بن ميمون القرطبي ؛ ج ١ - ٤٠٤ ،
 ج ٢ - ٦٤٧ ، ٧١٥ ، ٧١٩ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ .
 موسى بن نصير ؛ ج ٢ - ٤٨٧ .
 موسى بن واحد بن ؛ ج ١ - ١٩٦ .
 ميللر ، المستشرق ؛ ج ١ - ١٦١ .
 ميمون بن علي بن حدون ؛ ج ١ - ٢٨٢ .
 ميمون بن يدر بن ورقا ؛ ج ١ - ٣١٨ ،
 ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٤٥ .
 ميمونة بنت يثان بن عر ؛ ج ١ - ٢٢٥ .
- ن - ي
- الناصر العباسي ؛ ج ٢ - ١٥ ، ١٥٥ ، ١٥٨ .
 الناصر بن علناس ؛ ج ١ - ٢٨٠ ، ٢٨٢ .
 النبي العربي ؛ ج ١ - ٣٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٧ ،
 ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢١٥ ، ٢٠٢ ،
 ٤٢٠ ، ٤٤٢ ، ج ٢ - ٣٣٠ .
 نجبة بن يحيى الرعيبي ؛ ج ٢ - ٦٦٤ ، ٦٧٢ .
 نور الدين ، السلطان ؛ ج ٢ - ١٥٥ .
 نونيو ألفونسو ؛ ج ١ - ٥٠٧ .
 نونيودي لارا ؛ ج ٢ - ٣٢ ، ٤٢ ، ٦٨ ،
 ٨١ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٦ .
 نونيودي فوينتس ؛ ج ٢ - ٢١٤ .
 نونيوسانشيز ؛ ج ٢ - ٤٠٤ ، ٤٠٦ .
 نونيو منديس ؛ ج ١ - ٥٢٣ .
 نيقولا لاکانوتزى ؛ ج ٢ - ٢٥٨ .
 هرون بن هرون ؛ ج ٢ - ٤٨٢ .
 هلال بن عامر ؛ ج ١ - ٢٨٥ .
 هلال بن مردفيس ؛ ج ٢ - ٥٥ ، ٥٦ ، ٧٤ ،
 ٨٣ ، ٨٤ ، ١٠٠ .
 هلال بن مقدم ؛ ج ٢ - ٣٦٤ ، ٣٦٥ .
 هشك (مفرج) ؛ ج ١ - ٣٦٨ .
 هنري الثاني (الجلترا) ؛ ج ٢ - ٢٩٠ ،
 ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٦٠٧ .
 هنري البرجونى ؛ ج ١ - ٤٧٨ - ٤٨٢ ،
 ٥٢٤ ، ٥٢٨ .
 هوجودي أمبرياس ؛ ج ٢ - ٤٠٤ .
 هويش ميرافند ؛ ج ١ - ٣٨ ، ٢٤٠ .
 وانودين بن سير ؛ ج ١ - ١٨٨ ، ٢٢٧ .

- المستنصر بالله العباسي ؛ ج ٢ - ٣٩١ ، ٣٩٥ ،
 ٤١١ - ٤١٣ ، ٤١٥ .
 المستنصر بالله الفاطمي ؛ ج ١ - ٢٩٨ ، ٤٧١ .
 مسعود بن جلداسن ؛ ج ٢ - ٥٥٦ ، ٥٦٤ ،
 ٥٣٣ ، ٥٣٢ ، ج ٢ - ٥٣٣ .
 مسعود بن حدان ؛ ج ٢ - ٥٠٠ - ٥٠٣ .
 مسعود بن خيار ؛ ج ٢ - ٤٧٨ .
 مسعود بن زمام ؛ ج ١ - ٣٠٢ ، ج ٢ - ١٥٦ .
 مسعود بن سلطان ؛ ج ٢ - ١٠٧ .
 مسعود بن كانون ؛ ج ٢ - ٥٥٢ .
 مصحف عثمان ؛ ج ١ - ٣١٤ ، ٣٤٣ .
 معاوية بن قاريظ ؛ ج ٢ - ٥٠١ .
 المعتضد بن عباد ؛ ج ١ - ٤٤٠ .
 المعتمد بن عباد ؛ ج ١ - ٢٩ ، ٥٣ ، ٦٧ ،
 ٤٢٦ ، ٤٢٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ ،
 ج ٢ - ٢١٢ .
 المعز بن باديس ؛ ج ١ - ٢٩٨ - ٣٠٠ .
 المعز لدين الله ؛ ج ١ - ٢٩٨ ، ٢٩١ .
 المقتدر بن هود ؛ ج ١ - ٧٦ ، ٩٤ ،
 ١١٦ ، ٤٧٠ .
 المقتدى بأمر الله ؛ ج ١ - ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ .
 مقدم بن هلال ؛ ج ٢ - ٣٦٨ .
 المقرئ ، شهاب الدين ؛ ج ١ - ٣٦٨ ، ٤٥٠ ،
 ٤٦٣ ، ج ٢ - ٢١٩ ، ٧٠٧ .
 ملك شاه ؛ ج ١ - ١٦١ .
 مندبيل المغراوي ؛ ج ٢ - ٢٠٢ .
 المنذر بن هود ؛ ج ١ - ١١٦ .
 المنصور بن حماد ؛ ج ١ - ٢٨١ .
 المنصور بن محمد بن الحاج ؛ ج ١ - ١٥٠ .
 المهدي (عام) ؛ ج ١ - ٢٠٠ ، ٢٠٥ ،
 ٢٠٧ - ٢١٠ ، ٢١٤ .
 المهدي المنتظر ؛ ج ١ - ١٧٣ ، ١٧٦ ،
 ١٩٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١٠ ، ٢٢٤ .
 المؤمن بن هود ؛ ج ١ - ١١٦ .
 موسى بن المنصور ؛ ج ٢ - ٢٤٨ ، ٢٧١ ،
 ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٤١١ .
 موسى بن تمازي ؛ ج ١ - ١٧٤ ، ١٨٦ ، ١٨٩ .
 موسى بن زيان المونكاسي ؛ ج ٢ - ٥٤٠ .
 موسى بن زيري الهنتاني ؛ ج ١ - ٢٧٤ .
 موسى بن سعيد ؛ ج ١ - ٣٢٦ ، ٣٢٧ .
 موسى بن سليمان الضرير ؛ ج ١ - ٤٠٦ .

وانور بن أبي بكر اللتوني ؛ ج ١ - ٧٧ ،
 ١٥٢ ، ١٥٣ وج ٢ - ١٤٤ .
 الوحيتي القاضي ؛ ج ١ - ٤٣١ .
 ولیم الطیب (غلیلم) ؛ ج ١ - ٢٩٢ ، ٢٩٣ ،
 ٢٩٦ ، ٢٩٧ وج ٢ - ١٠٨ ، ٢٧٩ .
 ولیم الثاني ؛ ج ٢ - ٢٧٩ ، ٢٨٠ .
 یاقوت الحموی ؛ ج ١ - ٢٨١ .
 یحیی بن إبراهیم الکدالی ؛ ج ١ - ٣٧ .
 یحیی بن أبي بكر الصحراوي ؛ ج ١ - ٢٥٢ ،
 ٢٥٥ - ٢٥٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ،
 ٢٧٦ ، ٢٨٨ ، ٣٢٩ ، ٣٥١ ، ٤٤١ .
 یحیی بن أبي بكر بن یوسف ؛ ج ١ - ١٤٩ ، ٥٩٠ ،
 یحیی بن أحمد الخزر جی ؛ ج ٢ - ٤٥٩ ، ٤٣٨ ،
 یحیی بن إدريس بن جامع ؛ ج ٢ - ٨٩ ، ٧١ ،
 یحیی بن أرقم بن مردیش ؛ ج ٢ - ٥٠٩ .
 یحیی بن اسحاق بن غانية ، الميوري ؛ ج ٢ -
 ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ،
 ٢٥١ - ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ -
 ٢٧٨ ، ٣٣١ ، ٣٧٢ ، ٣٨٠ .
 یحیی بن اسحاق المسوفي (أنجار) ؛ ج ١ - ٢٤٥ ،
 ٢٦٧ ، ٢٧٠ .
 یحیی بن أغوال ؛ ج ١ - ٢٣٦ .
 یحیی بن تاشفين ، أبو بكر ؛ ج ١ - ٧٢ .
 یحیی بن تاکفت ؛ ج ١ - ٢٤٥ .
 یحیی بن تایشا - ج ١ - ٢٧٣ ، ٢٧٤ .
 یحیی بن تيم بن الرشد ؛ ج ٢ - ١٠٦ .
 یحیی بن تيم بن المعز ؛ ج ١ - ١٦٥ ، ٢٩٦ .
 یحیی بن تيم الصنهاجي ؛ ج ١ - ٤٧٢ .
 یحیی بن المعتصم (ابن الناصر) ؛ ج ١ - ١١ ،
 وج ٢ - ٣٦٥ ، ٣٧٠ ، ٣٧٨ - ٣٨٤ ،
 ٤٩٧ - ٤٩٩ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ ، ٥٠٨ ، ٥٣٧ ،
 ٥٧٨ ، ٦٢٤ ، ٦٢٧ ، ٦٣٦ .
 یحیی بن زید ؛ ج ١ - ٢٢٣ .
 یحیی بن ساقطرا ؛ ج ١ - ٢٣٥ .
 یحیی بن طلحة بن غانية ؛ ج ٢ - ١٥١ ، ١٥٣ ،
 یحیی بن عبد العزيز الصنهاجي ؛ ج ١ - ٢٨٠ ،
 ٢٨٢ ، ٢٩١ .
 یحیی بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ٢٠ ، ٦١ ،
 ٦٢ ، ٦٦ ، ٩٤ .
 یحیی بن عبد الواحد ، أبو زكريا الحفصي ؛
 ج ١ - ١٩٤ وج ٢ - ٣٧٥ ، ٣٨٠ ، ٤١٥ ،

٤٣٠ - ٤٣٢ ، ٤٤٦ ، ٤٤٨ ، ٤٥٥ ،
 ٤٥٧ ، ٤٧١ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢٤ ،
 ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٧٠٠ ، ٧٠٦ .
 یحیی بن علی بن الحاج ؛ ج ١ - ١٣٣ .
 یحیی بن غانية الکبير ؛ ج ١ - ٣٠ ، ١٢٢ ،
 ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٤٨ - ١٥٤ ،
 ٢٧٣ ، ٣٠٩ - ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٢٩ ،
 ٣٣١ - ٣٣٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ،
 ٣٦٥ ، ٣٦٨ ، ٤١٥ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٥٠٤ ،
 ٥٠٨ ، ٥١٤ وج ٢ - ١٤٥ ، ٦٤٠ .
 یحیی بن فالو ؛ ج ١ - ٢٣٧ .
 یحیی بن وانودين ؛ ج ٢ - ٥٥٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ .
 یحیی بن وسنا ؛ ج ١ - ٦٠ .
 یحیی بن یحیی ؛ ج ١ - ٢١٦ ، ٤١٢ .
 یحیی بن یوسف بن عبد المؤمن ؛ ج ٢ - ١٣٨ ، ٨٨٨ ،
 یخلف بن الحسين ؛ ج ١ - ٢٢٦ ، ٢٨٥ ،
 ٣٣٩ وج ٢ - ٢٢ ، ٦٦ .
 بدر بن عائشة ؛ ج ٢ - ١٥١ ، ١٥٢ .
 بدر بن ورقا ؛ ج ١ - ١٠٨ ، ١١٧ ، ١٤٨ - ١٥٠ ،
 بدر بن ولجوط ؛ ج ١ - ٢٢٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٧ ،
 برجين بن ويدرن ؛ ج ١ - ٢٣٣ .
 یصلامن بن المعز ؛ ج ١ - ٢٤١ ، ٢٥٢ ،
 ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ .
 یطی بن اسماعیل ؛ ج ١ - ١٨٦ .
 یطی اللتوني ؛ ج ١ - ١٨٤ .
 یمزی بن مخلوف ؛ ج ١ - ٢٣٣ .
 یعقوب بن أبي حفص ، السيد ؛ ج ٢ - ١٦١ ،
 ١٦٨ ، ١٧٥ ، ١٩٨ .
 یعقوب بن جابر ؛ ج ٢ - ٥٢٧ .
 یعقوب بن جبون الخزر جی ؛ ج ١ - ٣٤٨ .
 یعقوب بن جرمون ؛ ج ٢ - ٥٣٠ ، ٥٤١ ،
 ٥٤٣ ، ٥٥٢ .
 یعقوب بن عبد الحق ، ، أبو یوسف المریني ؛
 ج ٢ - ٥٢٤ ، ٥٤٦ - ٥٥٥ ، ٥٦٠ ، ٥٦٢ ،
 ٥٦٦ ، ٥٦٨ ، ٥٧٠ ، ٥٧٣ .
 یعقوب بن عبد الله بن عبد الحق ؛ ج ٢ -
 ٥٤٧ - ٥٥١ .
 یعقوب بن کانون ؛ ج ٢ - ٥٣٠ .
 یعقوب بن محمد بن قيطون ؛ ج ٢ - ٥٤٣ .
 یعقوب المنصور ، أبو یوسف ؛ ج ١ - ٩٠ ،
 ١٠ ، ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٧ ، ٢٠٣ ،

